تفسير القرآن الكريم

وإعرابه وبيانه

تأليف

الشيخ محمد علي طه الدرة
(رحمه الله)

المجلد العاشر

من سورة التحريم إلى سورة الناس

دار ابن كثير

بسم الله الرحمن الرحيم

لسان العرب

تفسير القرآن الكريم

وإعرابه وبيانه

المجلد العاشر

من سورة التحريم إلى سورة الناس

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
1430 هـ ـ 2009 م

دار ابن كثير
للطباعة و النشر و التوزيع
دمشق ـ بيروت

ردمك : 978-9953-520-23-0
الموضوع : تفسير - علوم القرآن
العنوان : تفسير القرآن الكريم و إعرابه و بيانه 10/1
التأليف : الشيخ محمد علي طه الدرة
الورق : كريم
ألوان الطباعة : لونان
عدد الصفحات : 7520
القياس : 17×24
التجليد : فني - كعب لوحة
الوزن : 13 كغ

التنفيذ الطباعي : 53dots - بيروت
التجليد : مؤسسة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت

دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا ـ بناء الجابي
ص.ب : 311 ـ صالة المبيعات تلفاكس: 2225877 - 2228450
مكتب تلفاكس: 2243502 - 2458541
بيروت ـ برج أبي حيدر ـ خلف دبوس الأصلي ـ بناء الحديقة
ص.ب : 113/6318 ـ تلفاكس : 01/817857 ـ جوال : 03/204459
www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com

9789953520230

سورة التحريم

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة (التحريم) مدنية في قول الجميع، وتسمى سورة (النَّبيِّ) وهي اثنتا عشرة آية، ومئتان وسبع وأربعون كلمةً، وألف وستون حرفاً. انتهى خازن.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١﴾

الشرح: اختلف في سبب نزول صدر هذه السورة، فقد روي: أن النبي ﷺ كان يقسم بين نسائه، فلما كان يوم حفصة استأذنت رسول الله ﷺ في زيارة أبويها، فأذن لها، فلما خرجت أرسل إلى جاريته مارية القبطية، فعاشرها في بيت حفصة ـ رضي الله عنها ـ فرجعت فوجدتها في بيتها، فغارت غيرة شديدة، وقالت: أدخلتها بيتي في غيابي، وعاشرتها على فراشي؟ ما أراك فعلت هذا إلا لهواني عليك! فقال لها رسول الله ﷺ مسترضياً لها: «**إني حرمتها عليَّ، ولا تخبري بذلك أحداً!**». فلما خرج من عندها قرعت حفصة ـ رضي الله عنها ـ الجدار الذي بينها وبين عائشة؛ وكانتا متصافيتين، وأخبرتها بسر النبي ﷺ، فغضب رسول الله، وحلف ألا يدخل على نسائه شهراً، واعتزلهنَّ، وطلق حفصة ـ رضي الله عنها ـ.

وروي: أن رسول الله ﷺ كان يدخل على زوجه زينب ـ رضي الله عنها ـ فيشرب عندها عسلاً، فاتفقت عائشة، وحفصة ـ رضي الله عنهما ـ على أن تقول له كل واحدة إذا دنا منها: أكلْتَ مغافير، وهو طعام حلو كريه الريح، فلما مر على حفصة؛ قالت له ذلك، ثم دخل على عائشة، فقالت له مثل ذلك، وكان ﷺ يكره أن توجد منه رائحة كريهة، فقال ﷺ: «**لا ولكني شربت عسلاً عند زينب، ولن أعود**». وحلف، فنزلت الآيات.

هذا والرواية الأولى عند المفسرين أشهر في سبب النزول، وهي: أن الرسول ﷺ حرم عليه مارية القبطية. وقد أخرجها الدارقطني عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ. والرواية الثانية ذكرت في الصحيحين بأوسع من هذا، وهي أصح إسناداً من الأولى، ولكن كونها سبباً للنزول مستبعد، والذي يرجح الرواية الأولى أمور:

الأول: أن تحريم بعض إمائه ﷺ مما يبتغي به مرضاة بعض الزوجات، لا شرب العسل، أو عدمه.

الثاني: أن الاهتمام بإنزال سورة فيها الوعيد، والتهديد لأزواج الرسول ﷺ بالطلاق، واستبدالهن بنساء خير منهن، وأن الله، وملائكته، وصالح المؤمنين عون لرسول الله ﷺ يدل على وجود تنافس بينهن، وغيرة بعضهن من بعض مما أدى إلى إيذاء رسول الله ﷺ فعلاً؛ حتى حرم بعض جواريه إرضاءً لهن، واستكتم البعض منهن، فأفشين السر. وهذا يرجح ما ذكرناه. وقد قال العلامة ابن كثير: وكون قضية شرب العسل سبباً للنزول فيه نظر، والله أعلم. انتهى. مختصر ابن كثير.

وأقول: إن رواية شرب العسل فيها اضطراب كثير، ففي روايةٍ: أن التي شرب عندها العسل، هي زينب، وهي المشهورة، وفي رواية شرب عند حفصة. وفي رواية زينب: أن المتآمرتين عائشة، وحفصة، وفي رواية حفصة: أن المتآمرتين سودة، وأم سلمة، كما قيل: إن التي شرب عندها العسل سودة، ورواية أخرى: إنها أم سلمة، فهذا الاضطراب يضعف رواية شرب العسل، بينما تحريم مارية لا يوجد فيه هذا الاضطراب، والله أعلم.

هذا؛ ووقوع ﴿مَآ﴾ على العسل لا ريب فيه، ولا خفاء، وأما وقوعها على مارية القبطية - رضي الله عنها -؛ لأنها أمة تباع، وتشترى، فهي بمنزلة ما لا يعقل، وقد كثر قوله تعالى في الآيات: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ كما وقعت على الحرائر في قوله تعالى في سورة (النساء) رقم [٣]: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾؛ لأنهن ناقصات عقل، ولأن الزواج منهن، ودفع المهر بمنزلة الثمن لهن، والدليل على ذلك جعل عقدة الزواج بيد الرجل، والقوامة له عليها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾: الخطاب بلفظ النبوة مشعر بالتوقير، والتعظيم، والتنويه بمقامه الرفيع الشريف، فلم يخاطبه باسمه العلم كما خاطب سائر الرسل بقوله: (يا إبراهيمُ، يا نوحُ، يا لوطُ...) إلخ وإنما خاطبه بلفظ النبوة، أو الرسالة، وذلك أعظم دليل، وأكبر برهان على أنه ﷺ أفضل الأنبياء والمرسلين. ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾: الاستفهام فيه تنبيه وعتاب من الله لرسوله ﷺ على أن ما صدر منه لم يكن على ما ينبغي، والمراد بالتحريم هنا: الامتناع من شرب العسل، أو من الاستمتاع بمارية، وهو الأولى كما قدمت، لا اعتقاد: أنها حرام بعد ما أحلها الله له: فإن هذا الاعتقاد لا يصدر منه ﷺ؛ لأنه كفر. انتهى جمل نقلاً عن الخطيب. كيف لا؟ وقد قال تعالى في سورة (المائدة) رقم [٨٧]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾. انظر ما يتعلق بلفظ «التحريم» في سورة (القصص) رقم [١٢] فإنه جيد جداً بحمد الله تعالى، ولم أعده هنا بغية الاختصار.

﴿تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾ أي: تطلب رضا أزواجك بتحريم ما أحل الله لك، والمراد: تحريمه مارية - رضي الله عنها - ابتغاء رضا حفصة، وهذا يقوي: أنها نزلت في تحريم مارية، وأما

تحريم العسل، فلم يقصد منه رضا أزواجه، وإنما تركه لكراهة رائحته، انظر سبب النزول المتقدم ففيه توضيح، وتفصيل للقصة.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: والله واسع المغفرة، عظيم الرحمة، حيث سامحك في امتناعك عن مارية ـ رضي الله عنها ـ وإنما عاتبك رحمةً بك، ونبهك لطفاً منه، وفي هذا إشارة إلى أن عتابه في ذلك إنما كان كرامةً له، وإنما وقع العتاب لتضييقه عليه السلام على نفسه، وامتناعه عما كان له فيه أنس ومتعة، وبئس ما قال الزمخشري في كشافه بأن هذا كان منه ﷺ زلة؛ لأنه حرم ما أحل الله له، فإن هذا القول قلة أدب مع مقام النبوة والرسالة، وجهل بصفات المعصوم، فلم يكن منه ﷺ تحريم للحلال كما زعم حتى تعتبر مخالفة، ومعصية، وإنما امتنع عن بعض إمائه تطيباً لخاطر بعض أزواجه، فعاتبه الله تعالى عليه رفقاً به، وتنويهاً بقدره، وإجلالاً لمنصبه الرفيع أن يراعي مرضاة أزواجه بما يشق عليه، جرياً على ما ألف من لطف الله تعالى به. هذا؛ وقد شنَّ صاحب الانتصاف على الكشاف ابن المنير الإسكندري المالكي الغارة على الزمخشري، وشنع عليه، وهو محق في ذلك؛ لأن من نظر إلى لطف العقاب عرف حقيقة الأمر، والصواب. ومما يؤسف له أن البيضاوي والنسفي قد قالا بقول الزمخشري. انتهى صفوة التفاسير، وانظر شرح: ﴿لِمَ﴾ في سورة (الصف) رقم [٢].

الإعراب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: (يا): أداة نداء تنوب مناب: أدعو، أو أنادي. (أيها): منادى نكرة مقصودة مبنية على الضم في محل نصب بيا، (وها): حرف تنبيه لا محل له، أقحم للتوكيد، وهو عوض من المضاف إليه، ولا يجوز اعتبار الهاء ضميراً في محل جر بالإضافة؛ لأنه يجب حينئذ نصب المنادى. ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾: بعضهم يعرب هذا وأمثاله نعتاً، وبعضهم يعربه بدلاً، أو عطف بيان، والقول الفصل: أن الاسم الواقع بعد: «أي» واسم الإشارة إن كان مشتقاً فهو نعت، وإن كان جامداً فهو بدل، أو عطف بيان، والمتبوع أعني: (أي) منصوب محلاً، فكذا التابع، أعني: ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ وأمثاله، فهو منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة الإتباع اللفظية، وإنما أتبعت ضمة البناء مع أنها لا تتبع؛ لأنها وإن كانت ضمة بناء، لكنها عارضة، فأشبهت ضمة الإعراب، فلذا جاز إتباعها. أفاده العلامة الصبَّان؛ لأنه قال: والمتجه وفاقاً لبعضهم: أن ضمة التابع إتباع، لا إعراب، ولا بناء. وقيل: إن رفع التابع المذكور إعراب، واستشكل بعدم المقتضي للرفع، وأجيب بأن العامل يقدر من لفظ عامل المتبوع مبنياً للمجهول، نحو: يُدعى. وهو مع ما فيه من التكلف يؤدي إلى قطع المتبوع. وقيل: إن رفع التابع المذكور بناء؛ لأن المنادى في الحقيقة هو المحلى بأل، ولكن لما لم يمكن إدخال حرف النداء عليه توصلوا إلى ندائه بـ: «أي» مع قرنها بحرف التنبيه. ورده بعضهم بأن المراعى في الإعراب اللفظ، وأن الأول منادى، والثاني تابع له، والإعراب السائد الآن أن تقول: مرفوع تبعاً للفظ. انتهى. جرجاوي.

هذا؛ والأخفش يعتبر (أيُّ) في مثل هذه الآية موصولة، و﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، والجملة الاسمية صلة، وعائد، التقدير: «يا مَنْ هو النبيُّ» على أنه قد حذف العائد حينئذ حذفاً لازماً، كما في قول امرئ القيس من معلقته، وهو رقم [١٣]: [الطويل]

أَلا رُبَّ يَـوْمٍ صَـالِـحٍ لَـكَ مِـنْـهُـمَـا وَلا سِـيَّـمَـا يَـوْمٌ بـدارَةِ جُـلْـجُـلِ

وما قاله الأخفش ضعيف، لا يعتد به عند جمهرة النحاة، والبيت هو الشاهد رقم [٢٤٢] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» إعراب شواهد مغني اللبيب.

﴿لِمَ﴾ اللام: حرف جر. (ما): اسم استفهام مبني على السكون في محل جر باللام، والسكون هو الألف المحذوفة للفرق بين الخبر، والاستخبار، والجار والمجرور متعلقان بما بعدهما. ﴿تُحَرِّمُ﴾: فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: «أنت».

﴿مَآ﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب مفعول به، وجملة: ﴿أَحَلَّ ٱللَّهُ﴾ صلة (ما)، أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: تحرم الذي، أو شيئاً أحله الله. ﴿لَكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وجملة: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ...﴾ إلخ لا محل لها؛ لأنها ابتدائية كالجملة الندائية قبلها. ﴿تَبْتَغِى﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل مستتر تقديره: «أنت»، والجملة الفعلية في محل نصب حال من فاعل تحرم المستتر، والرابط الضمير فقط. ﴿مَرْضَاتَ﴾: مفعول به، وهو مضاف ﴿أَزْوَٰجِكَ﴾: مضاف إليه من إضافة المصدر الميمي لفاعله، والكاف في محل جر بالإضافة، والجملة الاسمية: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: مستأنفة لا محل لها.

﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾

الشرح: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ...﴾ إلخ: خص النبي ﷺ بالخطاب العام؛ لأن النبي إمام أمته وقدوتهم، كما يقال لرئيس القوم: يا فلان! افعلوا كذا، إظهاراً لتقدمه، واعتباراً لترؤسه، وأنه قدوة قومه، فكان هو وحده في حكم كلهم، وساداً مسد جميعهم، ومعنى ﴿فَرَضَ﴾: بين، وأوجب وشرع لكم تحليل أيمانكم، وهو ما ذكر في سورة (المائدة) قوله تعالى: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾.

هذا؛ وتحلة اليمين تحليلها بالكفارة، والأصل: تحلِلَة، فنقلت حركة اللام الأولى إلى الحاء بعد سلب سكونها، فسكنت، ثم أدغمت اللام. ﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾: متولي أموركم، وناصركم على أعدائكم. ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾: بما يصلحكم، فيشرعه لكم. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فيما أحل، وفيما حرم.

هذا؛ وقد اختلف: هل كَفَّر النبي ﷺ عن قوله: «هي عليَّ حرام؟» فقد قال الحسن البصري رحمه الله: إن النبي ﷺ لم يكفِّر؛ لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه، وما تأخر، وكفارة اليمين في

هذه السورة إنما أمر الله بها الأمة. والأصح: أنه ﷺ كفّر، فقد قال زيد بن أسلم، ومقاتل: إن رسول الله ﷺ أعتق رقبة في تحريم مارية ـ رضي الله عنها ـ.

بقي أن تعرف الحكم في لفظ التحريم بالنسبة لعامة الأمة، مثل أن يقول الرجل: أنت عليّ حرام، أو عليّ الحرام، فقد نقل القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ عن العلماء فيه ثمانية عشر قولاً، والخازن قد اختصر الكلام في ذلك؛ حيث قال: اختلف العلماء في لفظ التحريم، فقيل: ليس هو بيمين، فإن قال لزوجته: أنت عليّ حرام، أو قال: حرمتك، أو أنت محرمة عليّ، أو عليّ الحرام، فإن نوى طلاقاً؛ فهو طلاق، وإن نوى ظهاراً؛ فهو ظهار، وإن نوى تحريم ذاتها، أو أطلق؛ فعليه كفارة اليمين بنفس اللفظ ولا تحرم عليه؛ لأن الأعيان وما ألحق بها لا توصف بالتحريم، وإن قال لطعام، أو لباس، أو مكان: حرمته على نفسي، أو هو محرم عليّ، فلا شيء عليه، وهذا قول أبي بكر، وعمر، وغيرهما من الصحابة والتابعين ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ وإليه ذهب الشافعي ـ رضي الله عنه ـ. وإن لم ينو شيئاً؛ ففيه قولان للشافعي: أحدهما: أنه يلزمه كفارة اليمين. والثاني: لا شيء عليه، وأنه لغو، فلا يترتب عليه شيء من الأحكام. وذهب جماعة إلى أنه يمين، فإن قال ذلك لزوجته، أو جاريته، فلا تجب عليه الكفارة ما لم يقربها كما لو حلف: أنه لا يطؤها، وإن حرم طعاماً؛ فهو كما لو حلف أن لا يأكله، فلا كفارة عليه ما لم يأكله، وإليه ذهب أبو حنيفة، وأصحابه.

والمشهور: أن لفظ التحريم كناية عند الشافعي، فإن نوى الطلاق؛ كان طلاقاً، وإن لم ينوه كان عليه كفارة يمين. وهو طلقة بائنة عند أبي حنيفة. وذكر القرطبي: أن المشهور من مذهب مالك: أنه في المدخول بها ثلاث، وفي غير المدخول بها طلقة واحدة.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «**إذا حرم الرجل امرأته، فهي يمين يكفرها**»، وقرأ قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ متفق عليه، وعنه أيضاً: أنه أتاه رجل، فقال: إني جعلت امرأتي عليّ حراماً، فقال: كذبت، ليست عليك بحرام، ثم تلا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ عليك أغلظ الكفارات عِتْقُ رقبةٍ. أخرجه الدارقطني.

الإعراب: ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿فَرَضَ ٱللَّهُ﴾: ماض، وفاعله، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿تَحِلَّةَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿أَيْمَٰنِكُمْ﴾: مضاف إليه من إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله محذوف، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿وَٱللَّهُ﴾: (الواو): واو الحال. (الله): مبتدأ. ﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾: خبره مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الاسمية في محل نصب حال من كاف الخطاب، والرابط: الواو والضمير، وإن اعتبرتها مستأنفة؛ فلا محل لها، والتي بعدها معطوفة عليها.

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٣﴾

الشرح: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ﴾: هي حفصة بنت عمر. ﴿حَدِيثًا﴾: هو تحريم مارية ـ رضي الله عنها ـ وأن أبا بكر، وأباها يكونان خليفتين من بعده. فقد قيل: لما رأى رسول الله ﷺ الغيرة في وجه حفصة؛ أراد أن يرضيها، فأسرَّ لها بشيئين: بتحريم مارية على نفسه، وأن الخلافة بعده في أبي بكر، وعمر ـ رضي الله عنهما ـ. وقال لها: «**لا تخبري بذلك أحداً**». وقيل: قال لها: «**لا تخبري عائشة بذلك**».

﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ أي: أخبرت عائشة بما أسر إليها لمصافاة بينهما، وكانتا متظاهرتين على نساء النبي ﷺ. ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي: أطلعه الله على أنها قد نبأت به عائشة، وكان ذلك بواسطة جبريل الأمين، عليه ألف صلاة وألف سلام. ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ أي: عرّف الرسول ﷺ حفصة: أنها أفشت بعض السر، وهو تحريم مارية ـ رضي الله عنها ـ. ولم يخبرها: أنها أفشت البعض الآخر، وهو الخلافة، والولاية من بعده لأبي بكر وأبيها، فأعرض عن ذلك تكرماً. قاله السدي. وقال الحسن البصري: ما استقصى كريم قط. أي: ما بالغ في العتاب. وقال سفيان: ما زال التغافل من شيم الكرام. انتهى. وهذا؛ لأن من عادة الفضلاء التغافل عن الزلات، والتقصير في اللوم والعتاب. وقد كره الرسول أن ينتشر أمر الخلافة بين الناس.

﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ﴾ أي: فلما أخبر الرسول ﷺ حفصة بأنها قد أفشت سره. ﴿قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾ أي: قالت حفصة: يا رسول الله من أخبرك: أني أفشيت السر؟ قال أبو حيان: ظنت حفصة: أن عائشة هي التي كاشفت رسول الله ﷺ، وكانت قد استكتمتها، فقالت: ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ﴾ على سبيل التثبت، فأخبرها: أن الله جل وعلا هو الذي نبأه به، فسكتت، وسلمت، وهو صريح قوله: ﴿نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بسرائر العباد، ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء. وخبير بالتدابير الظاهرة، والباطنة، وخبير بحاجات العباد، وفاقتهم، وخبير بنياتهم، وأقوالهم، وأفعالهم.

هذا؛ وكان من نتيجة ما فعلت حفصة أنْ غضِب النبي ﷺ، وطلقها، فلما بلغ عمر ـ رضي الله عنه ـ ذلك؛ قال لها: لو كان في آل الخطاب خير لما طلَّقَكِ رسول الله ﷺ! فجاء جبريل، عليه السلام، وأمره بمراجعتها. وقيل: لم يطلقها، وإنما همَّ بطلاقها، فأتاه جبريل. وقال له: لا تطلقها؛ فإنها صوَّامة قوَّامة، وإنها من نسائك في الجنة، واعتزل النبي ﷺ نساءه شهراً، وقعد في مشربة مارية؛ حتى نزلت آية التحريم على ما تقدم.

هذا؛ والأفعال: نبَّأ، وأنبأ، وخَبَّر، وأخبر، وحدَّث تتعدى لاثنين: إلى الأول بنفسها، وإلى الثاني بحرف الجر، وقد يحذف الجار تخفيفاً، وقد يحذف الأول للدلالة عليه. وقد جاءت الاستعمالات الثلاث في هذه الآية، فقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ تعدَّى لاثنين، حذف أولهما، والثاني مجرور بالباء، أي: نبَّأت به غيرها، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ﴾ ذكرهما، وقوله: ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾ ذكرهما، وحذف الجار، فالأول تعدَّى إلى مفعول صريح، وإلى الثاني بحرف الجر، والفعل الثاني مثله، والثالث تعدَّى إلى مفعولين صريحين، وهذا إذا لم يدخل: (نبأ، وأنبأ) على المبتدأ والخبر جاز أن يُكْتَفَى فيهما بمفعول واحد، وبمفعولين، فإذا دخلا على المبتدأ والخبر تعدَّى كل واحد منهما إلى ثلاثة مفاعيل، ولم يجز الاقتصار على الاثنين دون الثالث؛ لأن الثالث هو خبر المبتدأ في الأصل، فلا يقتصر دونه، كما لا يقتصر على المبتدأ دون الخبر، وانظر شرح (النبأ) في الآية رقم [٤] من سورة (القمر). ومثال دخول أحدهما على المبتدأ والخبر قولك: نبأت زيداً عمراً منطلقاً. أو أنبأت زيداً عمراً مجتهداً، ففي المثالين يجب نصب ثلاثة مفاعيل. والله ولي التوفيق. ومن ذلك قول النابغة الذبياني ـ وهو الشاهد رقم [٢٠] من كتابنا: «فتح رب البرية» إعراب شواهد جامع الدروس العربية ـ: [الكامل]

نُبِّئْتُ زُرْعَةَ، والسَّفَاهَةُ كَاسْمِهَا ... يُهْدِي إلَيَّ غَرائِبَ الأشْعَارِ

وأيضاً قوله ـ وهو الشاهد رقم [١٢] من الكتاب المذكور ـ: [البسيط]

نُبِّئْتُ أَنَّ أَبَا قَابُوسَ أَوْعَدَنِي ... ولا قَرارَ عَلَى زَأْرٍ مِنَ الأسَدِ

وأيضاً قول قيس بن الملوح ـ وهو الشاهد رقم [١١٨] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» إعراب شواهد مغني اللبيب ـ: [الطويل]

ونُبِّئْتُ لَيْلَى أَرْسَلَتْ بِشفَاعَةٍ ... إلَيَّ فَهَلا نَفْسُ لَيْلَى شَفِيعُهَا

الإعراب: ﴿وَإِذْ﴾: (الواو): حرف عطف. (إذ): ظرف لما مضى من الزمان مبني على السكون في محل نصب متعلق بفعل محذوف، تقديره: اذكر وقت، أو هو مفعول به لهذا المحذوف. ﴿أَسَرَّ﴾: ماض. ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾: فاعله، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذ) إليها، والكلام معطوف على ما قبله، أو هو مستأنف لا محل له. ﴿إِلَىٰ بَعْضِ﴾: متعلقان بما قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من ﴿حَدِيثًا﴾، كان صفة له، فلما قدم عليه؛ صار حالاً، و﴿بَعْضِ﴾ مضاف، و﴿أَزْوَٰجِهِۦ﴾: مضاف إليه، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿حَدِيثًا﴾: مفعول به. ﴿فَلَمَّا﴾: (الفاء): حرف استئناف. (لما): حرف وجود لوجود عند سيبويه، وبعضهم يقول: حرف وجوب لوجوب، وهي عند ابن السراج، والفارسي، وابن جني، وجماعة ظرف زمان بمعنى: «حين» تتطلب جملتين مرتبطتين ببعضهما ارتباط فعل الشرط بجوابه، وصوب ابن هشام الأول، والمشهور الثاني.

﴿نَبَّأَتْ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث، والفاعل يعود إلى ﴿بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ﴾، والمفعول الأول محذوف. ﴿بِهِۦ﴾: متعلقان بما قبلهما، وهما في محل مفعوله الثاني، التقدير: نبأت غيرها به، والجملة الفعلية لا محل لها على اعتبار (لمَّا) حرفاً، وفي محل جر بإضافة (لمَّا) إليها على اعتبارها ظرفاً. (أظهره): فعل ماض، والهاء مفعول به. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، على الوجهين المعتبرين فيها. ﴿عَرَّفَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾. ﴿بَعْضَهُۥ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية جواب (لمَّا)، لا محل لها. وجملة: ﴿وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾: معطوفة عليها، لا محل لها مثلها. و(لمَّا) ومدخولها كلام مستأنف لا محل له.

﴿فَلَمَّا﴾: (الفاء): حرف استئناف. (لمَّا): مثل سابقتها. ﴿نَبَّأَهَا﴾: فعل ماض، وها: مفعوله الأول، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ أيضاً. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محل مفعوله الثاني، والجملة الفعلية، قل فيها ما قلته بسابقتها. ﴿قَالَتْ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث، والفاعل تقديره: «هي»، والجملة الفعلية جواب (لمّا)، لا محل لها، و(لمَّا) ومدخولها كلام مستأنف لا محل له. ﴿مَنْ﴾: اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿أَنۢبَأَكَ﴾: فعل ماض، والكاف مفعول به أول، والفاعل يعود إلى ﴿مَنْ﴾، والجملة الفعلية في محل رفع خبر مبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول. ﴿هَٰذَا﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل نصب مفعول به ثان. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى الرسول ﷺ. ﴿نَبَّأَنِيَ﴾: ماض، والنون للوقاية، والياء مفعول به أول، والثاني محذوف، تقديره: نبأني به. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾: فاعله. ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾: بدل منه، وقيل: صفة له. ولا وجه له قطعاً؛ لأنهما اسمان من أسماء الله الحسنى. والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالَ﴾ مستأنفة لا محل لها.

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾

الشرح: ﴿إِن تَتُوبَآ﴾: الخطاب لعائشة، وحفصة ـ رضي الله عنهما ـ. خاطبهما بطريق الالتفات؛ ليكون أبلغ في معاتبتهما، وحملهما على التوبة مما بدر منهما من الإيذاء لسيد الأنبياء. ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أي: فقد زاغت ومالت قلوبكما عما يجب عليكما من الطاعة، والإخلاص لرسول الله ﷺ، واستوجبتما أن تتوبا، وذلك بأنْ سركما ما كره رسول الله ﷺ من تحريم مارية ـ رضي الله عنها ـ. والواجب عليكما حب ما يحبه، وكراهة ما يكرهه.

﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ أي: وإن تتعاونا على إيذاء الرسول ﷺ، وعلى ما يسوءُه، والأصل: «وإن تتظاهرا عليه» فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً، وهذا الحذف كثير في القرآن الكريم، فعن ابن عباس

- رضي الله عنهما - قال: لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله عز وجل فيهما: ﴿إِن تَتُوبَآ...﴾ إلخ حتى حج، وحججت معه، فلما كان ببعض الطريق؛ عدل، وعدلت معه بالإداوة (ركوة ماء) فتبرز (خرج إلى الفضاء ليقضي حاجته) ثم أتاني، فصببت على يديه، فتوضأ، فقلت: يا أمير المؤمنين! من المرأتان من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله فيهما: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ...﴾ إلخ؟ قال عمر - رضي الله عنه -: واعجباً لك يا بن عباس! قال الزهري: كره منه ما سأله عنه، ولم يكتمه، قال: هما عائشة، وحفصة.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾: وليه، وناصره، فلا يؤثر عليه ذلك التظاهر، والتعاون منكما عليه. ﴿وَجِبْرِيلُ﴾: أفرده بالذكر مع دخوله في الملائكة المذكورين بعده تعظيماً له، وإظهاراً لمكانته عند الله تعالى، فيكون قد ذكر مرتين: مرة بالإفراد، ومرة في العموم، ووسَّط صالح المؤمنين بين جبريل، والملائكة تشريفاً لهم، واعتناءً بشأنهم، وإشادةً بفضل الصلاح، وختم الآية بذكر الملائكة الأبرار، أعظم المخلوقات، وجعلهم ظهراء للنبي ﷺ ليكون ذلك أفخم به صلوات الله وسلامه عليه؛ إذ الملائكة بمثابة جيش جرار، يملأ القفار، نصرة للنبي المختار، صاحب الأنوار ﷺ، فمن ذا الذي يستطيع أن يناوئ سيد الخلق، وحبيب الحق بعد ذلك؟! هذا؛ ويستدل بهذه الآية على عظم كيد النساء، كما قال تعالى في سورة (يوسف) على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام حكاية عن قول العزيز: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ رقم [٢٨]، بينما وصف الله عز وجل كيد الشيطان بالضعف، وذلك بقوله جلت قدرته، وتعالت حكمته في سورة (النساء) رقم [٧٦]: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾. ولا تنس: أن الكلام في الآية مسوق للمبالغة، وإلا؛ فكفى بالله ولياً، وكفى بالله نصيراً.

هذا؛ والمراد بـ: (صالح المؤمنين) أبو بكر، وعمر - رضي الله عنهما -؛ لأنهما أبوا عائشة وحفصة، وقدْ كانا عوناً للنبي ﷺ عليهما، وقيل: (صالح المؤمنين): علي - رضي الله عنه -. وقيل: خيار المؤمنين، و(صالح) اسم جنس لا جمع، ولذلك يكتب من غير واو بعد الحاء كما هو في رسم مصحف الإمام، وجوزوا أن يكون جمعاً بالواو والنون، وحذفت النون للإضافة، وكتب دون واو اعتباراً بلفظه؛ لأن الواو ساقطة لالتقاء الساكنين، نحو: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ رقم [٢٤] من سورة (الشورى)، وقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ...﴾ إلخ من سورة (القمر) رقم [٦]، وقوله تعالى في سورة (العلق) ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾، وانظر ما ذكرته في «الصلاح» في سورة (النمل) رقم [١٩]، وفي سورة (الصافات) رقم [١١٢]، وفي سورة (المنافقون) رقم [١٠].

هذا؛ و﴿ظَهِيرٌ﴾ فعيل يستوي فيه المفرد، والمثنى، والجمع، والمذكر، والمؤنث، فهو هنا بمعنى ظُهَرَاء، كقوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ رقم [٦٩] من سورة (النساء). هذا؛ والمفسرون يذكرون: أن النبي ﷺ هجر أزواجه شهراً، وأشيع: أنه طلق أزواجه. ويذكرون: أن

عمر ـ رضي الله عنه ـ استأذن على الرسول ﷺ ثلاث مرات، فلم يؤذن له، ثم أذن له، ويختمون القصة بنزول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ...﴾ إلخ الآية رقم [٢٨] من سورة (الأحزاب) وما بعدها، ولا أعتمده، وإنما أعتمد أنهما واقعتان، لا واقعة واحدة: الأولى كانت عامة أزواج النبي ﷺ حينما سألنه الزيادة في النفقة، وهذه خاصة بحفصة، وعائشة حينما تآمرتا عليه، وكشفتا سره. والله ولي التوفيق.

بعد هذا: أما قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ حيث جمع القلب، وهما ثنتان بلا ريب، كما رأيت. قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: ولم يقل: فقد صغى قلباكما، ومن شأن العرب إذا ذكروا الشيئين من اثنين جمعوهما؛ لأنه لا يُشكل. وقال الجلال: ولم يعبر بالجمع لاستثقال الجمع بين تثنيتين فيما هو كالكلمة الواحدة. وقال مكي ـ رحمه الله تعالى ـ: وإنما جمع القلب، وهما اثنتان؛ لأن كل شيء ليس في الإنسان منه غير واحد، إذا قرن به مثله فهو جمع. وقيل: لأن التثنية جمع؛ لأنها جمع شيء إلى شيء. وقد تكلم السيوطي ـ رحمه الله تعالى ـ على هذه المسألة في كتابه: (همع الهوامع) الذي شرحت شواهده، وأعربتها، وأرجو الله أن يمتن عليّ بالتوفيق لطباعته، وها أنذا أنقل لك ما قاله بالحرف؛ لتكون على بينة من أمرك.

قال ـ رحمه الله تعالى ـ: الأصل في كلام العرب دلالة كل لفظ على ما وضع له، فيدل المفرد على المفرد، والمثنى على اثنين، والجمع على جمع، وقد يخرج الكلام عن هذا الأصل، وذلك قسمان: مسموع، ومقيس.

فالأول: ما ليس جزءاً مما أضيف إليه: سُمِعَ: ضع في رحالهما، يريد في اثنين. ودناركم مختلفة أي: دنانيركم مختلفة. وعيناه حسنة، أي: حسنتان. وأورد أربعة أبيات شعرية شواهد لذلك، قال: ومنه: لبيك وإخوته، فإنه مثنى وضع موضع الجمع. وقالوا: شابت مفارقه، وليس له إلا مفرق واحد. وعظيم المناكب، وغليظ الحواجب، والوجنات، والمرافق، وعظيمة الأوراك. فكل هذا مسموع لا يقاس عليه، وقاسه الكوفيون وابن مالك إذا أُمِنَ اللبسُ، وهو ماشٍ على قاعدة الكوفيين من القياس على الشاذ، والنادر، قال أبو حيان: ولو قيس شيء من هذا، لالتبست الدلالات، واختلطت الموضوعات.

والثاني: ما أضيف إلى متضمنه. وهو مثنى لفظاً، نحو قطعت رؤوس الكبشين، أي: رأسَيْهما، أو معنى نحو قول الشاعر: [الطويل]

رأيْتُ بَنِي البَكْرِي في حَوْمَةِ الوَغَى ... كَفَاغِرِي الأفْواهِ عِنْدَ عَرِينِ

فإن مثل ذلك ورد فيه الجمع، والإفراد، والتثنية. فمن الأول قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾، وقوله تعالى في سورة (المائدة) رقم [٣٨]: ﴿فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾. ومن الإفراد: قراءة الحسن قوله تعالى في سورة (طه) رقم [١٢١] وفي ثلاث آيات من سورة

(الأعراف): ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾، ومن التثنية قراءة من قرأ: (بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَتاهُما)، وقراءة الجمهور من الأول ﴿سَوْءَٰتُهُمَا﴾ فطرد ابن مالك قياس الجمع، والإفراد أيضاً لفهم المعنى، وخص الجمهور القياس بالجمع، وقصروا الإفراد على ما سمع، وورد، وإنما وافق الجمهور على قياس كراهة اجتماع تثنيتين مع فهم المعنى، ولذلك شرط أن لا يكون لكل واحد من المضاف إليه إلا شيء واحد؛ لأنه إن كان له أكثر؛ التبس، فلا يجوز في: «قَطَعْتُ أُذُنَي الزيدين» الإتيان بالجمع، ولا الإفراد للإلباس، وأورد ستة أبيات شعرية شاهداً لذلك.

فإن فرق متضمناهما، ـ كقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ فقال ابن مالك ـ أيضاً بقياس الجمع، والإفراد. وخالفه أبو حيان؛ لأن الجمع إنما قيس هناك كراهة اجتماع تثنيتين، وقد زالت بتفريق المتضمنين، قال: فالذي يقتضيه النظر الاقتصار على التثنية، وإن ورد جمع، أو إفراد؛ اقتصر فيه على مورد السماع. قال: وأما الآية فليس المراد فيها باللسان الجارحة، بل المراد الكلام، أو الرسالة، فليس جزءاً من داود، ولا من عيسى، عليهما الصلاة والسلام. انتهى.

أقول: ولم يذكر السيوطي ـ رحمه الله تعالى ـ أرجح الأوجه الثلاثة في الثاني، وهو ما أضيف إلى متضمنه، وهي جمع المضاف، وبقاء المضاف إليه على تثنيته، وبقاء كل من المضاف، والمضاف إليه على تثنيته، فأرجحها الوجه الأول، وهذه لغة القرآن، كما رأيت، وهو متفق على رجحانه عند جميع النحاة، واختلف في الوجهين الآخرين: فذهب ابن مالك إلى رجحان الثاني على الثالث، وذهب أبو حيان إلى العكس، ومنه قول الرسول ﷺ: «**إذا التقى المسلمان بسيْفَيْهما؛ فالقاتل والمقتول في النار**» وقد أطلت عليك الكلام في ذلك بغية الإفادة، والله ولي التوفيق، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿تَتُوبَآ﴾: فعل مضارع، فعل الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، وألف الاثنين فاعله. ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي، وجواب الشرط محذوف، التقدير: يتب الله عليكما. ﴿فَقَدْ﴾: (الفاء): حرف تعليل. (قد): حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿صَغَتْ﴾: ماض مبني على فتح مقدر على الألف المحذوفة لالتقائها ساكنة مع تاء التأنيث الساكنة، التي هي حرف لا محل له. ﴿قُلُوبُكُمَا﴾: فاعل، والكاف في محل جر بالإضافة، والميم، والألف حرفان دالان على التثنية، والجملة المفيدة للتعليل، لا محل لها، و(إن) ومدخولها كلام مستأنف لا محل له. ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ إعرابها مثل سابقتها، وجواب الشرط محذوف أيضاً، والتقدير: وإن تظاهرا عليه؛ فلا يعدم ناصراً، ولن يعدم من يظاهره من الله، والملائكة، وصلحاء المؤمنين.

﴿فَإِنَّ﴾: (الفاء): حرف تعليل. (إنَّ): حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل لا محل له. ﴿مَوْلَىٰهُ﴾: خبر (إنَّ) مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر، وإن اعتبرت الضمير مبتدأ، و﴿مَوْلَىٰهُ﴾ خبره، فالجملة الاسمية في محل رفع خبر (إنَّ). ﴿وَجِبْرِيلُ﴾: معطوف على محل اسم (إنَّ) قبل دخول الناسخ، وهذا أجازه البعض دون البعض، وما بعده معطوف عليه؛ فيكون المعنى، والتقدير: فيكونون ناصرين النبي ﷺ. والخبر عن الكل هو قوله: ﴿مَوْلَىٰهُ﴾ فيقدر بعد كل واحد منها. وفي السمين: ويجوز أن يكون الكلام قد تم عند قوله: ﴿مَوْلَىٰهُ﴾، ويكون (جبريل) مبتدأ، وما بعده عطف عليه، و﴿ظَهِيرٌ﴾ خبر الجميع، فتختص الولاية بالله، ويكون جبريل قد ذكر في المعاونة مرتين: مرة بالتنصيص عليه، ومرة بدخوله في عموم الملائكة. انتهى. كما أجيز الوقف على (جبريل) واعتبار ما بعده مبتدأ، واعتبار ﴿ظَهِيرٌ﴾ خبراً عنهما، كما أجيز الوقف على ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وما بعده جملة مستأنفة. وقال مكي ـ رحمه الله تعالى ـ: إلا أن المتعارف الوقف على ﴿مَوْلَىٰهُ﴾ عند القراء، ويكون (جبريل) ابتداء يبتدأ به. ﴿بَعْدَ﴾: ظرف زمان متعلق بـ: ﴿ظَهِيرٌ﴾ بعده، و﴿بَعْدَ﴾ مضاف، و﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل جر بالإضافة، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿ظَهِيرٌ﴾: رأيت الاعتبارات التي قيلت فيه.

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾

الشرح: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ﴾: ﴿عَسَىٰ﴾ من الله تفيد تحقيق الوقوع، وتأكيده، وليست على بابها من الرجاء. وقال ابن عرفة: و﴿عَسَىٰ﴾ هنا للتخويف، لا للوجوب. ﴿إِن طَلَّقَكُنَّ﴾: هذا وعد من الله عز وجل لرسوله ﷺ، لو طلقهن في الدنيا أن يزوجه في الدنيا نساءً خيراً منهن، والله عليم، وخبير بأن النبي ﷺ لا يطلقهن، ولكن أخبر عن قدرته على أنه إن طلقهن أبدله خيراً منهن تخويفاً لهن، وتحذيراً، فهو كقوله تعالى في آخر سورة (محمد ﷺ): ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ وهو من باب الفرض، والتقدير. ثم وصف الله عز وجل هؤلاء الزوجات اللاتي سيبدله بهن بما يلي:

﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾ أي: مطيعات خاضعات مستسلمات لأمر الله عز وجل، وأمر رسوله. ﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾: مصدقات بالله، ورسوله، مصدقات بما أمرن به، وبما نهين عنه. ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾: مطيعات. والقنوت: الطاعة، والخضوع. وقيل: مصليات في الليل. ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾: من ذنوبهن، راجعات إلى أمر رسول الله ﷺ، تاركات لمحابِّ أنفسهن. ﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾: كثيرات العبادة لله تعالى. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كل عبادة في القرآن فهو التوحيد. ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾: صائمات، قيل للصائم: سائح لأن السائح، لا زاد معه، فلا يزال ممسكاً إلى أن يجد ما

يطعمه، فشبه به الصائم في إمساكه إلى أن يجيء وقت إفطاره. وقد قال الرسول ﷺ: «**سِيَاحَة أُمَّتِي الصِّيَامُ**». أخرجه الطبراني عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ وهذا استدل به ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ لما ذكرته. وقال زيد بن أسلم ـ رحمه الله تعالى ـ: ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ مهاجرات، وتلا قوله تعالى في سورة (التوبة) رقم [١١٢]: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ...﴾ إلخ ولعل هذا الرأي: أرجح؛ لأنه يتفق مع المعنى اللغوي للسياحة، وهي السفر في الأرض للاعتبار.

﴿ثَيِّبَٰتٍ﴾: جمع ثيب، وهي التي تزوجت، ثم بانت بوجه من الوجوه، وثابت. أي: رجعت إلى بيت أبويها. ﴿وَأَبْكَارًا﴾ أي: عذارى، جمع: بكر، والمعنى: منهن ثيبات، ومنهن أبكار، قال ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ: قسمهن إلى نوعين، ليكون ذلك أشهى إلى النفس، وإنما دخلت واو العطف بين ثيباتٍ، وأبكاراً للتنويع، والتقسيم، ولو سقطت لاختل المعنى؛ لأن الثيوبة والبكارة لا يجتمعان في امرأة أبداً. فتدبر سر القرآن وبلاغته. هذا؛ وقيل: إن الواو واو الثمانية، وقد استوفيت الكلام على هذه الواو في الآية رقم [٢٢] من سورة (الكهف)، فانظره هناك إن شئت تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

خاتمة: روى البخاري عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: اجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه، فقلت لهن: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ فنزلت هذه الآية. ولمسلم عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ نحوه. وفيه قال: دخلت عليه، فقلت: يا رسول الله! ما يشق عليك من شأن النساء؟ فإن طلقتهن، فإن الله معك، وملائكته، وجبريل، وميكائيل، وأنا، وأبو بكر، والمؤمنون معك، وقلما تكلمت ـ وأحمد الله ـ بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولي الذي أقول، فنزلت: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾، وأيضاً قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ...﴾ إلخ.

هذا؛ وقد ثبت: أن الله صدق قوله، وحقق طلبته في أربعة عشر موضعاً في كتاب الله تعالى، منها: قوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [١٢٥]: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾. ومنها: الآية رقم [٦٠] من سورة (النساء) حيث قتل المنافق؛ الذي لم يرض بحكم رسول الله ﷺ. والآيات رقم [٩٠] والتي بعدها من سورة (المائدة) حيث نزلت بتحريم الخمر موافقة لما كان يطلب من الرسول ﷺ. والآيات رقم [٦٧] وما بعدها من سورة (الأنفال) التي نزلت في شأن أسرى بدر موافقة لرأيه. والآية رقم [٨٤] من سورة (التوبة) التي نزلت في شأن النهي عن الصلاة على المنافقين إذا ماتوا. والآية رقم [٥٩] من سورة (الأحزاب) التي نزلت في الحجاب موافقة لطلبته. وقد قال الرسول ﷺ: «**ما سَلَكَ عُمَرُ فَجّاً إلا وسلَكَ الشَّيْطَانُ فجّاً غيْرَ فَجِّهِ**». وقد نزل جبريل عليه السلام بتسمية الفاروق يوم أعلن إسلامه في مكة، والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع، والمآب يوم العرض، والحساب، وخاب الذين يسبونه، ويفترون عليه المفتريات.

الإعراب: ﴿عَسَىٰ﴾: فعل ماض جامد، مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر. ﴿رَبُّهُۥٓ﴾: اسم ﴿عَسَىٰ﴾ والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿طَلَّقَكُنَّ﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، والفاعل يعود إلى الرسول ﷺ، والكاف مفعول به، والنون حرف دال على جماعة الإناث، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير جازم، وجواب الشرط محذوف، لدلالة ما قبله عليه، والجملة الشرطية معترضة بين اسم ﴿عَسَىٰ﴾ وخبرها، لا محل لها، واعترض بها اهتماماً، ومبادرةً إلى تخويفهن، والمصدر المؤول من: ﴿أَن يُبْدِلَهُۥٓ﴾ في محل نصب خبر ﴿عَسَىٰ﴾ ويجب تأويله باسم الفاعل؛ لأن المصدر لا يخبر به عن الجثة، ﴿أَزْوَٰجًا﴾: مفعول به ثان. والمفعول الأول الضمير. ﴿خَيْرًا﴾: صفة ﴿أَزْوَٰجًا﴾، وجملة: ﴿عَسَىٰ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها. ﴿مِّنكُنَّ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: ﴿خَيْرًا﴾، والنون حرف دال على جماعة الإناث. ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ﴾: صفات متعددة لـ: ﴿أَزْوَٰجًا﴾. هذا؛ وقال الجمل: إما نعت، وإما حال، أو منصوب على الاختصاص. والمعتمد ما قدمته، وهو النعت.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾

الشرح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: هذا نداء من الله تعالى للمؤمنين بأكرم وصف، وألطف عبارة، أي: يا من صدقتم بالله ورسوله، وتحليتم بالإيمان؛ الذي هو زينة الإنسان. ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾: احفظوها. ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ أي: مروهم بالخير، وانهوهم عن الشر، وعلموهم، وأدبوهم. ويدخل تحت الأهل: الزوجة، والأولاد، والإخوة إن كانوا صغاراً، وكل من له عليه الإنسان القوامة، وسلطة الأمر والنهي، قال تعالى في سورة (طه) رقم [١٣٢]: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ قال الكِيا: فعلينا تعليم أولادنا، وأهلينا الدين، والخير. انتهى.

أقول: كيف لا؟ والرسول ﷺ يقول: «**كُلُّكُمْ راعٍ، ومسؤولٌ عَن رَعِيَّتِهِ، الإمامُ راعٍ، ومسؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، والرجلُ راعٍ في أهلِهِ، ومسؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، والمرأةُ راعيةٌ في بَيْتِ زَوْجِهَا، ومسؤولةٌ عنْ رَعِيَّتِهَا، والخادمُ راعٍ في مالِ سيِّدِهِ، ومسؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ. كلكم راعٍ ومسؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**». رواه البخاري، ومسلم عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ. وعن الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ عن نبي الله ﷺ قال: «**إنَّ الله سَائِلٌ كلَّ رَاعٍ عَمَّا استرعاهُ: حَفِظَ، أَمْ ضَيَّعَ؛ حتى يَسْأَلَ الرجلَ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ**». رواه ابن حبان في صحيحه.

وعن جابر بن سمرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لأنْ يؤدِّبَ الرجلُ وَلَدَهُ خيرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَتَصدَّق بصَاعٍ**» رواه الترمذي، وعن أيوب بن موسى عن أبيه، عن جده: أن رسول الله

ﷺ قال: «**ما نحلَ والدٌ والداً من نُحْلٍ أفضلَ من أَدَبٍ حَسَنٍ**». رواه الترمذي أيضاً، وروى ابن ماجه عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «**أكْرِمُوا أَوْلادَكُمْ، وأحْسِنُوا أدَبَهُمْ**». وقد روى عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده ـ رضي الله عنه ـ عن النبي: «**مُرُوا أَبْنَاءَكُمْ بالصَّلاةِ لِسَبْعٍ، واضْرِبُوهُمْ عَلَيها لِعَشْرٍ، وفَرِّقُوا بينهُمْ في المضَاجِعِ**». خرجه جماعة من أهل الحديث. وخذ قول الشاعر الحكيم: [البسيط]

عَوِّدْ بَنِيكَ عَلَى الآدابِ فِي الصِّغَرِ ... كَيْمَا تَقَرَّ بِهِمْ عَيْنَاكَ فِي الكِبَرِ

فَإِنَّمَا مَثَلُ الآدابِ تَجْمَعُهَا ... فِي عُنْفُوانِ الصِّبَا كَالنَّقْشِ فِي الحَجَرِ

هذا؛ و﴿قُوٓاْ﴾ أمر من الوقاية، فوزنه: «عُوا»؛ لأن الفاء حذفت لوقوعها في المضارع بين ياء وكسرة، وكذلك حذفت لامه لبناء الأمر من المعتل الآخر، فبقي الأمر حرفاً واحداً، وهو (قِ). وهذا يجري في كل فعل لفيف مفروق، مثل: وعى، يعي، عِ، ووفى، يفي، فِ، وولي، يلي، لِ، ووطي، يطي، طِ، لذا فالأحسن إلحاق هاء السكت لفعل الأمر المأخوذ من اللفيف المفروق، حتى لا يبقى الفعل حرفاً واحداً، فيقال: قِهْ، وعِهْ، وفِهْ... إلخ.

﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾: بفتح الواو، أي: ما توقد به النار، وأما بضمها؛ فهو المصدر، وكذلك الاسم منه، وبعضهم قال: كلٌّ من الفتح والضم يجري في الآلة، والمصدر، وكذا يقال في الوضوء، والسحور، والطهور، ونحو ذلك، ولكن المشهور الأول، والمراد في الآلة: ما توقد به، والمراد بالمصدر: الفعل، والحدث، ويقرأ بفتح الواو، وضمها، والمراد بالحجارة: الأصنام التي عبدوها في الدنيا، وأملوا نفعها، وشفاعتها. قال تعالى في سورة (الأنبياء) رقم [٩٨] مخاطباً الكافرين في الدنيا: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنها حجارة الكبريت، فهي أشد توقداً، وأبطأ خموداً، وأنتن ريحاً، وألصق بالبدن، والحجارة جمع: حجر، كجمالة جمع: جمل، وهو قليل غير منقاس.

﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾: المراد بهم: خزنة جهنم، وهم الزبانية، حُبِّب إليهم عذاب الخلق، كما حُبِّب لبني آدم أكل الطعام، والشراب، يدفع الواحد منهم بالدفعة الواحدة سبعين ألفاً في النار، لم يخلق الله الرحمة فيهم. ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ أي: لا يخالفونه في أمره، ولا في نهيه. ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي: في وقته، فلا يؤخرونه ولا يقدمونه، فلا تأخذهم رأفة في تنفيذ أوامره، والانتقام من أعدائه. وقيل: لذتهم في امتثال أمر الله، كما أنَّ سرور أهل الجنة في أن يكونوا في الجنة. وخذ ما يلي:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ فقال: «**أُوقِدَ عليها ألفُ عامٍ؛ حتى احمرَّتْ، وألفُ عامٍ؛ حتَّى ابْيَضَّتْ، وألفُ عامٍ؛**

حتى اسودَّتْ، فهي سوداءُ مظلمةٌ، لا يُضِيءُ لَهَبُها » رواه الترمذي، وابن ماجه، والبيهقي. هذا؛ ورفع: «ألفُ» على أنه نائب فاعل، وإن نصبته على الظرفية، فالجار والمجرور: «عليها» في محل رفع نائب فاعل: «أوقد». وعن عبد الله بن الحارث بن جَزْءٍ الزبيدي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ في النارِ حَيَّاتٍ كأمثالِ أعناقِ البُخْتِ، تلسعُ إحداهنَّ اللسعةَ، فيجدُ حرَّهَا سبعينَ خريفاً، وإن في النارِ عقارِبَ كأمثالِ البغالِ الموكفةِ، تلسَعُ إحداهنَّ اللسعةَ، فيجدُ حموتَهَا أربَعِين سنَةً**». رواه أحمد، والطبراني. هذا؛ وانظر (أمَرَ) في الآية رقم [٣٢] من سورة (الطور).

الإعراب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ﴾: انظر الآية رقم [١]. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق، والمتعلق محذوف، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿قُوٓاْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية كالجملة الندائية قبلها.

﴿أَنفُسَكُمۡ﴾: مفعول به، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿وَأَهۡلِيكُمۡ﴾: الواو: حرف عطف. (أهليكم): معطوف على ما قبله منصوب مثله، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، وحذفت النون للإضافة، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿نَارٗا﴾: مفعول به ثان، أو هو منصوب بنزع الخافض، التقدير: من نار. ﴿وَقُودُهَا﴾: مبتدأ، و(ها) في محل جر بالإضافة. ﴿ٱلنَّاسُ﴾: خبره. والجملة الاسمية في محل نصب صفة ﴿نَارٗا﴾. ﴿وَٱلۡحِجَارَةُ﴾: الواو: حرف عطف. (الحجارة): معطوف على ما قبله.

﴿عَلَيۡهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل نصب صفة ثانية لـ: ﴿نَارٗا﴾، أو هي في محل نصب حال منها بعد وصفها بما تقدم. ﴿غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾: صفتان لـ: ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ﴾، وجملة: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ﴾ صالحة للوصفية، والحالية من ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ﴾ كالتي قبلها. ﴿مَآ﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب بدلاً من لفظ الجلالة، بدل اشتمال. قاله الجلال، ووافقه الجمل عليه، التقدير: لا يعصون أمر الله، وأرى صحة اعتبارها في محل نصب بنزع الخافض، التقدير: لا يعصون الله فيما... إلخ، وهو ما أفاده تقدير الزمخشري، والنسفي. ﴿أَمَرَهُمۡ﴾: فعل ماض، وفاعله يعود إلى ﴿ٱللَّهَ﴾، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية صلة ﴿مَآ﴾ أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: يفعلون الذي، أو شيئاً أمرهم الله به، وإن اعتبرت ﴿مَآ﴾ مصدرية تؤول مع ما بعدها بمصدر، التقدير: أمره، وهو يرجح البدلية؛ فهو جيد، ولا بأس به، بل هو أولى، والمعنى عليه أولى. هذا؛ وقال الزمخشري ـ رحمه الله تعالى ـ: فإن قلت: أليست الجملتان في معنىً واحد؟ قلت: لا، فإن معنى الأولى: أنهم يتقبلون أوامره، ويلتزمونها، ولا يأبونها، ولا

ينكرونها. ومعنى الثانية: أنهم يؤدون ما يؤمرون به، ولا يتثاقلون عنه، ولا يتوانون فيه، وجملة: ﴿وَيَفْعَلُونَ...﴾ إلخ: معطوفة على ما قبلها على الوجهين المعتبرين فيها، و﴿مَا﴾ تحتمل الموصولة، والموصوفة، فهي مفعول به، ولا تحتمل المصدرية، والجملة بعدها صلتها، أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: ويفعلون الذي، أو شيئاً يؤمرونه، أو يؤمرون به. تأمل، وتدبر، وربك أعلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٧﴾

الشرح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ أي: يقال لهم: لا تعتذروا اليوم. وذلك حين يعاينون النار، وشدتها؛ لأن الله ـ عز وجل ـ قد قدم إليهم الإنذار، والإعذار في الدنيا، فلا ينفعهم الاعتذار في الآخرة؛ لأنه غير مقبول بعد دخول النار، وقد فات زمان الاعتذار، وصار الأمر إلى ما صار، والآية كقوله تعالى في سورة (الروم) رقم [٥٧]: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾. وقال تعالى في سورة (المرسلات) رقم [٣٦]: ﴿وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي: إنما تنالون جزاء أعمالكم القبيحة، ولا تظلمون شيئاً، وهذه الجملة مذكورة في كثير من الآيات، ويجمع فحواها كلها قوله تعالى في سورة (غافر) رقم [١٧]: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾.

الإعراب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: إعراب هذه الجملة مثل إعراب ما قبلها بلا فارق بينهما. ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: ﴿لَا﴾ الناهية، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿ٱلۡيَوۡمَۖ﴾: ظرف زمان متعلق بما قبله. ﴿إِنَّمَا﴾: كافة ومكفوفة. ﴿تُجۡزَوۡنَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو نائب فاعله، وهو المفعول الأول. ﴿مَا﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة، أو مصدرية، فعلى الأولين مبنية على السكون في محل نصب مفعول به ثان. ﴿كُنتُمۡ﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون، والتاء اسمه، وجملة: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾: في محل نصب خبر (كان)، والجملة الفعلية صلة (ما)، أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: تجزون الذي، أو شيئاً كنتم تعملونه، وعلى اعتبار (ما) مصدرية تؤول مع ما بعدها بمصدر في محل نصب مفعول به ثان، التقدير: تجزون عملكم، وفيه ضعف لا يخفى، وعلى جميع الاعتبارات؛ فالكلام على تقدير مضاف محذوف، التقدير: جزاء الذي، أو جزاء عملكم، والجملة الفعلية: ﴿إِنَّمَا...﴾ إلخ تعليل للنهي، لا محل لها، والآية بكاملها في محل نصب مقول القول لقول محذوف، التقدير: يقال لهم عند إدخالهم الملائكةُ النارَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ...﴾ إلخ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾

الشرح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: انظر الآية رقم [٦]. ﴿تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ أي: ذات نصح، تنصح صاحبها بترك العود إلى الذنب الذي تاب منه. قال عمر بن الخطاب، وأُبَيُّ بن كعب، ومعاذ بن جبل - رضي الله عنهم -: التوبة النصوح: أن يتوب، ثم لا يعود إلى الذنب، كما لا يعود اللبن إلى الضرع. وقال محمد بن كعب القرظي: التوبة النصوح يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العَوْد بالجنان، ومهاجرة سيِّئ الإخوان.

وقال العلماء: التوبة واجبة من كل ذنب على الفور، ولا يجوز تأخيرها سواء أكانت المعصية صغيرة، أو كبيرة؟ فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى، لا تتعلق بحق آدمي؛ فلها ثلاثة شروط: أحدها: أن يقلع عن المعصية، والثاني: أن يندم على فعلها، والثالث: أن يعزم على أن لا يعود إليها أبداً، فإذا اجتمعت هذه الشروط في التوبة؛ كانت نصوحاً، وإن فقد شرط منها؛ لم تصح توبته. فإن كانت المعصية تتعلق بحق آدمي؛ فشروطها أربعة، هذه الثلاثة المتقدمة، والرابع: أن يبرأ من حق صاحبها، فإن كانت المعصية مالاً، ونحوه؛ ردَّه إلى صاحبه، وإن كان حدَّ قذفٍ، أو نحوه؛ مكنه من نفسه، أو طلب عفوه، وإن كانت غيبة؛ استحله منها. ويجب أن يتوب العبد من جميع الذنوب فإن تاب من بعضها صحت توبته من ذلك الذنب، وبقي عليه ما لم يتب منه، هذا مذهب أهل السنة، وقد تظاهرت دلائل الكتاب، والسنة، وإجماع الأمة على وجوب التوبة. انتهى. خازن. هذا؛ ولم يؤنث (نصوح)؛ لأنه صيغة مبالغة مثل: امرأة صبور، وجارية شكور، والمعنى بالغة في النصح. وخذ ما يلي:

عن الأغر بن يسار - رضي الله عنه - قال رسول الله ﷺ: «**يا أيها الناسُ تُوبوا إلى الله، فإني أتوبُ إِلَيْهِ في اليومِ مئةَ مَرَّةٍ**». أخرجه مسلم، وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**واللهِ إنِّي لأسْتَغْفِر الله وأتوبُ إليه في اليومِ أكثرَ مِنْ سَبعِينَ مَرَّةً**». أخرجه البخاري، وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**للهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عبدِهِ المؤمِنِ مِنْ أَحَدِكُمْ سَقَطَ على بعيره، وقَدْ أضلَّهُ بأرضٍ فلاةٍ**». رواه البخاري، ومسلم.

وعن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه -: أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله عز وجلَّ يبْسُطُ يدَهُ بالليْلِ؛ ليتوبَ مُسيءُ النهارِ، ويَبْسطُ يدَهُ بالنهارِ؛ ليتُوبَ مُسِيءُ الليل؛ حتى تطلعَ الشمسُ من**

مغربها». أخرجه مسلم والنسائي. وعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «**إن الله يقبلُ توبةَ العبدِ ما لَمْ يُغَرْغِرْ**». رواه ابن ماجه، والترمذي. هذا؛ وقد بين الله تبارك وتعالى في سورة (النساء) رقم [١٧] و[١٨] أن التوبة المقبولة هي أن المسلم يفعل الذنب بجهالة، ثم يتوب من قريب، وليست التوبة للذين يعملون المعاصي، والسيئات، ثم إذا حضر أحدهم الموت؛ قال: إني تبت الآن، ولا الذين يموتون وهم كفار، انظر شرح الآيتين في محلهما.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾: ﴿عَسَىٰ﴾ في حق الله تفيد تحقيق الوقوع، وتأكيده، وليست على بابها من الرجاء. وتكفير السيئات: محوها. هذا؛ وإذا كانت: لعل، وعسى، وسوف في مواعيد الملوك البشرية كالجزم بها، وإنما يطلقونها إظهاراً لوقارهم، وإشعاراً بأن الرمز منهم كالتصريح من غيرهم، فوعد الله، ووعيده أولى، وآكد من مواعيد جميع ملوك الأرض. ﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾: انظر الآية رقم [١١] من سورة (الطلاق). ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ أي: لا يعذبهم، بل يكرمهم، ويعزهم، ويرفع شأنهم يوم القيامة. وفيه تعريض بأهل الكفر، والنفاق بأن الله يعذبهم، ويخزيهم في ذلك اليوم العظيم.

﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ﴾: لا أرى حاجة إلى المزيد عما ذكرته في الآية رقم [١٢] من سورة (الحديد) ففيها الغذاء الكافي، والدواء الشافي لقلبك. والله الموفق إلى الصواب، وإليه المرجع والمآب.

الإعراب: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾: انظر الآية رقم [٦]. ﴿تَوْبَةً﴾: مفعول مطلق. ﴿نَّصُوحًا﴾: صفة ﴿تَوْبَةً﴾ إما على المبالغة على أنها نفس المصدر، أو على حذف مضاف، التقدير: توبة ذات نصح. هذا؛ وأجيز اعتباره مفعولاً لأجله، أي: لأجل النصح العائد نفعه عليكم. كما أجيز اعتباره مفعولاً مطلقاً مؤكداً لفعل محذوف، التقدير: تنصحهم نصحاً. وعلى كل فهو من الإسناد المجازي، والكلام مبتدأ، أو مستأنف لا محل له. ﴿عَسَىٰ﴾: فعل ماض جامد مبني على الفتح المقدر على الألف. ﴿رَبُّكُمْ﴾: اسم ﴿عَسَىٰ﴾، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والمصدر المؤول من: ﴿أَن يُكَفِّرَ﴾ في محل نصب خبر ﴿عَسَىٰ﴾، ويجب تحويله إلى اسم فاعل، فيكون المعنى عسى ربكم مكفراً، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها. ﴿عَنكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿وَيُدْخِلَكُمْ﴾: الواو: حرف عطف. (يدخلكم): معطوف على ما قبله منصوب مثله، والفاعل يعود إلى ﴿رَبُّكُمْ﴾، والكاف مفعول به أول. ﴿جَنَّـٰتٍ﴾: مفعول به ثان منصوب مثله... إلخ. ﴿تَجْرِى﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل. ﴿مِن تَحْتِهَا﴾: متعلقان بما قبلهما، وها: في محل جر بالإضافة. ﴿ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾: فاعل ﴿تَجْرِى﴾، والجملة الفعلية في محل نصب صفة ﴿جَنَّـٰتٍ﴾.

﴿يَوْمَ﴾: ظرف زمان متعلق بالفعل (يدخل)، أو هو متعلق بفعل محذوف، أو هو مفعول به لهذا المحذوف، وهو: اذكر. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُخْزِى﴾: فعل مضارع. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿ٱلنَّبِىَّ﴾: مفعوله، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿يَوْمَ﴾ إليها. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: (الواو): حرف عطف. (الذين): اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب معطوف على ﴿ٱلنَّبِىَّ﴾، أو هو في محل رفع مبتدأ. وجملة: ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صلة الموصول، لا محل لها.

﴿مَعَهُۥ﴾: ظرف مكان متعلق بالفعل قبله، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿نُورُهُمْ﴾: مبتدأ، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿يَسْعَىٰ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى ﴿نُورُهُمْ﴾، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ والرابط: الضمير فقط، وأجيز اعتبارها مستأنفة. وهذان الوجهان على اعتبار الموصول معطوفاً على ﴿ٱلنَّبِىَّ﴾، وأما على اعتباره مبتدأ؛ فالجملة الاسمية في محل رفع خبره، وعليه: فالجملة الاسمية: ﴿وَٱلَّذِينَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها.

﴿بَيْنَ﴾: ظرف مكان متعلق بما قبله، و﴿بَيْنَ﴾ مضاف، و﴿أَيْدِيهِمْ﴾: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره كسرة مقدرة على الياء. (بأيمانهم): جار ومجرور معطوفان على الظرف، والهاء فيهما في محل جر بالإضافة. ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع... إلخ، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب حال من الضمائر العائدة على الموصول، والرابط: الضمير فقط، أو هي مستأنفة لا محل لها. ﴿رَبَّنَآ﴾: منادى حذف منه أداة النداء، و(نا): في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله. وفاعله مستتر فيه. ﴿أَتْمِمْ﴾: فعل دعاء، وفاعله مستتر فيه تقديره: «أنت». ﴿لَنَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿نُورَنَا﴾: مفعول به، و(نا): في محل جر بالإضافة، والكلام في محل نصب مقول القول. ﴿وَٱغْفِرْ لَنَآ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿إِنَّكَ﴾: حرف مشبه بالفعل، والكاف اسمه. ﴿عَلَىٰ كُلِّ﴾: متعلقان بـ: ﴿قَدِيرٌ﴾ بعدهما، و(كل) مضاف، و﴿شَىْءٍ﴾ مضاف إليه. ﴿قَدِيرٌ﴾: خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية مفيدة للتعليل لا محل لها.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾

الشرح: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾: هذا النداء موجه للنبي ﷺ، وتدخل فيه أمته من بعده إلى يوم القيامة. ﴿جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾: بالسيف، وفي كل زمان، ومكان بما يكون آلة للحرب، والقتال، والطعن، والنزال، حيث لم يبق للسيف في هذه الأيام تأثير، كما هو معروف. ﴿وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ أي:

وجاهد المنافقين بإقامة الحجة عليهم، وزجرهم، وإقامة الحدود عليهم، واكفهرار الوجه لهم. ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ أي: شدد عليهم ما ذكر حتى ترهبهم، وتدخل الرعب في قلوبهم. ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾: مقرهم، ومآلهم بعد الموت جهنم يصلونها ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ والمقر، والمآل هي.

الإعراب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾: انظر الآية رقم [١]. ﴿جَٰهِدِ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت»، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية كالجملة الندائية قبلها. ﴿ٱلۡكُفَّارَ﴾: مفعول به. ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾: الواو: حرف عطف. (المنافقين): معطوف على ما قبله منصوب مثله. ﴿وَٱغۡلُظۡ﴾: فعل أمر، وفاعله تقديره: «أنت»، والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿عَلَيۡهِمۡۚ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ﴾: مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر. ﴿جَهَنَّمُۖ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من ﴿ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾، والرابط: الواو، والضمير. ﴿وَبِئۡسَ﴾: الواو: حرف استئناف. (بئس المصير): فعل وفاعل، والمخصوص بالذم محذوف، التقدير: المذمومة جهنم، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها من الإعراب. هذا؛ والآية مذكورة بحروفها في سورة (التوبة) رقم [٧٣].

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠﴾

الشرح: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا...﴾ إلخ: أي: بين الله، وقرر. وضربُ المثلِ في أمثال هذه المواضع عبارة عن إيراد حالة غريبة، ليعرف بها حالة أخرى مشاكلة لها في الغرابة. وما أكثر الأمثال التي ضربها الله في قرآنه؛ ليعتبر الناس فيها، ويتعظوا.

﴿ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ﴾: اسمها: والهة، واسم امرأة لوط: والعة؛ قاله مقاتل. وقال الضحاك: عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: إن جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ نزل على النبي ﷺ، فأخبره أن اسم امرأة نوح: واعلة، واسم امرأة لوط: والهة. وقيل: اسمها واهلة. وقيل: والعة. ﴿كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ﴾ أي: عند نبيين رسولين، لهما عليهما سلطة، وقوامة ليلاً، ونهاراً، يؤاكلانهما، ويضاجعانهما، ويعاشرانهما أشد العشرة، والاختلاط. والإضافة إضافة تشريف، وتفخيم، وتعظيم. هذا؛ وقد وصف الرسولين بـ: ﴿صَٰلِحَيۡنِ﴾؛ لأن الصلاح درجة عالية، ومنزلة سامية، ومكانة رفيعة. انظر ما ذكرته في سورة (المنافقون) رقم [١٠] فإنه جيد.

﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾: لم يرد بالخيانة خيانة العرض، والشرف، فهذا يستحيل في حق الأنبياء، وإنما كانت الخيانة في الدين، أي: كانتا كافرتين؛ لأن الزنى مستقبح عند جميع الناس، ولا

تقره العقول السليمة، وأما الكفر؛ فيستحسنه مئات الملايين من الناس، بل؛ ويدافعون عنه، ويحاجون بأنهم على الحق. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ما بغت امرأة نبي قط، وإنما كانت خيانتهما: أنهما كانتا على غير دينهما، وكانت امرأة نوح تقول للناس: إنه مجنون، وإذا آمن به أحد؛ أخبرت به الجبابرة من قومها، وأما امرأة لوط؛ فإنها كانت تدل قومها على أضيافه؛ إذا نزل به الضيف في الليل أوقدت النار، وإذا نزل به الضيف في النهار؛ دخَّنت؛ لتعلم قومها بذلك. وقيل: إنهما أسرتا النفاق، وأظهرتا الإيمان.

﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: لم يدفعا عن امرأتيهما مع نبوتهما، ومكانتهما عند الله عذاب الله. ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ التعبير بالماضي عن المستقبل إنما هو لتحقق الوقوع، وقد ذكرته فيما مضى مراراً، وتكراراً. هذا؛ وانظر قصة نوح، ولوط ـ على نبينا، وحبيبنا، وعليهما ألف صلاة، وألف سلام ـ في كثير من السور.

قال الخازن ـ رحمه الله تعالى ـ: وهذا مثل ضربه الله تعالى للصالحين، والصالحات من النساء، وأنه لا ينفع العاصي طاعة غيره، ولا تضر المطيع معصية غيره، وإن كانت القرابة متصلة بينهم، وأن القريب كالأجانب، بل أبعد؛ وإن كان القريب الذي يتصل به الكافر نبياً، كامرأة نوح، وامرأة لوط لما خانتاهما؛ لم يغن هذان الرسولان عن امرأتيهما شيئاً. فقطع بهذه الآية طمع من يرتكب المعصية، ويتكل على صلاح غيره. وفي هذا المثل تعريض بأمَّي المؤمنين: عائشة وحفصة، وما فرط منهما، وتحذير لهما على أغلظ وجه، وأشده. ثم ضرب الله مثلاً آخر، يتضمن: أن معصية الغير لا تضره إذا كان مطيعاً، وإن وصلة المسلم بالكافر لا تضر المؤمن. انتهى.

هذا؛ وقال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: (ويقال): إن كفار مكة استهزؤوا، وقالوا: إن محمداً ﷺ يشفع لنا، فبين الله تعالى: أن شفاعته لا تنفع كفار مكة، وإن كانوا أقرباء، كما لا تنفع شفاعة نوح لامرأته، وشفاعة لوط لامرأته مع قربهما لهما؛ لكفرهما. انتهى. وأرى أنه لا وجه لقوله؛ لأن السورة مدنية.

الإعراب: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ﴾: ماض، وفاعله. ﴿مَثَلًا﴾: مفعول به. ﴿لِّلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف صفة ﴿مَثَلًا﴾، وجملة: ﴿كَفَرُواْ﴾ مع المتعلق المحذوف صلة الموصول، لا محل لها. ﴿ٱمْرَأَتَ﴾: بدل من ﴿مَثَلًا﴾. وقيل: ﴿مَثَلًا﴾ مفعول ثان تقدم على الأول، وهو ﴿ٱمْرَأَتَ﴾ ورجح هذا مكي، وضعف الأول. هذا؛ واعتمدت الأول في سورة (النحل) وغيرها، و﴿ٱمْرَأَتَ﴾ مضاف، و﴿نُوحٍ﴾: مضاف إليه. ﴿وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿كَانَتَا﴾: فعل ماض ناقص، والتاء للتأنيث، وحركت بالفتح لالتقائها ساكنة مع ألف الاثنين التي هي اسم (كان). ﴿تَحْتَ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر كان، و﴿تَحْتَ﴾ مضاف، و﴿عَبْدَيْنِ﴾: مضاف إليه. ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾: متعلقان بمحذوف صفة ﴿عَبْدَيْنِ﴾

و(نا) في محل جر بالإضافة. ﴿صَٰلِحَيْنِ﴾: صفة ﴿عَبْدَيْنِ﴾، مجرور مثله، وعلامة الجر فيها الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنهما مثنى، والنون فيهما عوض من التنوين في الاسم المفرد، وجملة: ﴿كَانَتَا...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها، وإن اعتبرتها في محل نصب حال من: «المرأتين»؛ فلست مفنداً، ويكون الرابط ألف الاثنين، وهي على تقدير: «قد» قبلها.

﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾: (الفاء): حرف عطف. (خانتاهما): فعل، وفاعل، ومفعول به، والتاء للتأنيث، والميم والألف حرفان دالان على التثنية، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها على الوجهين المعتبرين فيها. ﴿فَلَمْ﴾: (الفاء): حرف عطف. (لم): حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿يُغْنِيَا﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: (لم)، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والألف فاعله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿عَنْهُمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والميم والألف حرفان دالان على التثنية. ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: متعلقان بما قبلهما، وتعليقهما بمحذوف حال من ﴿شَيْـًٔا﴾ لا بأس به. ﴿شَيْـًٔا﴾: مفعول به، أو هو نائب مفعول مطلق. ﴿وَقِيلَ﴾: (الواو): حرف عطف. (قيل): فعل ماض مبني للمجهول. ﴿ٱدْخُلَا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والألف فاعله، والجملة الفعلية في محل رفع نائب فاعل: ﴿وَقِيلَ﴾، وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٥] من سورة (المنافقون) ففيها فضل بيان. ﴿ٱلنَّارَ﴾: مفعول به. ﴿مَعَ﴾: ظرف مكان متعلق بما قبله، وهو مضاف، و﴿ٱلدَّٰخِلِينَ﴾: مضاف إليه، وجملة: ﴿وَقِيلَ...﴾ الخ معطوفة على ما قبلها.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾

الشرح: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾: حيث آمنت بالله رباً، وبموسى نبياً، وذلك لمَّا غُلِبَ السحرةُ، وتبيَّنَ لها أنها على الحق، ولم تضرها الوصلة بالكافر فرعون، وهي الزوجية، التي هي من أعظم الوصل، ولا نفعه إيمانها: ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ وأبدلها الله عن هذه الزوجية أن جعلها في الآخرة زوجة خير خلقه محمد ﷺ، وكذا زوَّجه الله تعالى في الجنة مريم بنت عمران عليها السلام. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أن النبي ﷺ دخل على خديجة - رضي الله عنها -، وهي في الموت، فقال لها: «**يا خديجةُ إذا لقيتِ ضرَّاتِكِ؛ فأقرئيهنَّ مني السلام**». فقالتْ: يا رسولَ الله! وهلْ تزوَّجْتَ قَبْلي؟! قال: «**لا، ولكِنَّ الله زوجني مريمَ بنت عمران، وآسيةَ بنتَ مزاحم امرأةَ فرعون، وكُلْثومَ أختَ موسى**». فقالت له: يا رسولَ الله بالرِّفاءِ والبنين.

وروى الشيخان عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «**كَمُلَ من الرجالِ كثيرٌ، ولمْ يكمُلْ من النساء إلا أربعٌ: مريمُ بنتُ عمرانَ، وخديجةُ بنتُ خُوَيْلِد، وفاطمةُ**

بنتُ محمد، وآسيةُ بنتُ مزاحم امرأة فرعون». انتهى جمل نقلاً عن الخطيب، والمحفوظ من تتمة الحديث: أن النبي ﷺ قال: «**وفضلُ عائشةَ على النساءِ كفضل الثريدِ على سائِرِ الطعام**».

﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾: وذلك لما تبين لفرعون الخبيث إيمانها أوتد يديها ورجليها بأربعة أوتاد، وألقاها في الشمس، فكانت تعذب في الشمس، فإذا انصرفوا عنها أظلتها الملائكة، فلما سألت بيتاً في الجنة كشف الله لها عن بيتها الذي أعده لها. وقيل: إن فرعون الخبيث أمر بصخرة عظيمة لتلقى عليها. فلما أتوْها بالصخرة، ﴿قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ فأبصرت بيتها في الجنة من درة بيضاء، وانْتُزِعَتْ روحها، فألقيت الصخرة على جسدٍ لا روح فيه، ولم تجد ألماً.

هذا؛ وقال الزمخشري ـ رحمه الله تعالى ـ: فإن قلت: ما معنى الجمع بين ﴿عِندَكَ﴾ و﴿فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ قلت: طلبت القرب من رحمة الله، والبعد من عذاب أعدائه، ثم بينت مكان القرب بقولها: ﴿فِي ٱلْجَنَّةِ﴾، أو أرادت ارتفاع الدرجة في الجنة، وأن تكون جنتها من الجنان التي هي أقرب إلى العرش، وهي جنات المأوى، فعبرت عن القرب إلى العرش بقولها: ﴿عِندَكَ﴾. انتهى. هذا؛ وقال بعض العلماء: ما أحسن هذا الكلام! فقد اختارت الجار قبل الدار، حيث قالت: ﴿ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ فهي تطمع في جوار الله قبل طمعها في القصور.

﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾: من كفره، وظلمه، وعذابه. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يعني: من جماعه. والمشهور: أن الله حماها منه، وحجبها عنه، فلم يستطع الدخول بها لذا بقيت بكراً حتى توفيت مثل مريم، وكلثوم أخت موسى. هذا؛ وآسية عليها السلام من بني إسرائيل، قيل: إنها عمة موسى. وقيل: بنت عمه، أخذها فرعون قهراً من أهلها، فحماها الله منه، ولكنه أمسكها عنده يتصبب بشبابها، وجمالها. ولله في خلقه شؤون خفيت عن أكثر الخلق.

﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: من القبط كلهم، فإنهم ظالمون. وفيه دليل على أن الاستعاذة بالله، والالتجاء إليه، ومسألة الخلاص منه عند المحن والنوازل من سير الصالحين، وسنن الأنبياء والمرسلين، فموسى عليه السلام قد حكى القرآن قوله في سورة (الشعراء) رقم [١١٨]: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وموسى وقومه سألوا الله النجاة من القوم الظالمين الكافرين، وقد حكى القرآن قولهم في سورة (يونس) رقم [٨٥] و[٨٦]: ﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٥ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

الإعراب: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾: إعراب هذا الكلام مثل إعراب ما قبله بلا فارق. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان مبني على السكون في محل نصب متعلق بقوله ﴿مَثَلًا﴾. ﴿قَالَتْ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث، والفاعل يعود إلى ﴿ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾. ﴿رَبِّ﴾: منادى حذف منه أداة النداء منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم

المحذوفة، وانظر: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ في الآية رقم [٥] من سورة (الصف). ﴿ٱبۡنِ﴾: فعل دعاء مبني على حذف حرف العلة من آخره، وهو الياء، والكسرة قبلها دليل عليها، والفاعل ضمير مستتر تقديره: «أنت». ﴿لِي﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿عِندَكَ﴾: ظرف مكان متعلق بما قبله، أو هو متعلق بمحذوف حال من: ﴿بَيۡتًا﴾ كان صفة له، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿بَيۡتًا﴾: مفعول به، ﴿فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾: متعلقان بمحذوف صفة ﴿بَيۡتًا﴾، وقيل: عطف بيان، أو بدل من قوله: ﴿عِندَكَ﴾ والقولان ضعيفان. والكلام كله في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالَتۡ...﴾ إلخ في محل جر بإضافة (إذ) إليها. ﴿وَنَجِّنِي﴾: (الواو): حرف عطف. (نجني): فعل دعاء مبني على حذف حرف العلة من آخره، وهو الياء... إلخ، والفاعل مستتر تقديره: «أنت»، والنون للوقاية، وياء المتكلم مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب مقول القول مثلها. ﴿مِن فِرۡعَوۡنَ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، وعلامة الجر الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية، والعجمة. ﴿وَعَمَلِهِۦ﴾: معطوف على فرعون، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هذه الجملة معطوفة على ما قبلها. وإعرابها مثلها بلا فارق.

﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾

الشرح: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ﴾ أي: ومريم ابنة عمران مثل آخر في الإيمان. ﴿ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ أي: حفظت فرجها، وصانته عن مقارنة الفواحش، بل ولم يقربها رجل لا بنكاح، ولا بسفاح، فهي عفيفة شريفة طاهرة، لا كما يزعم اليهود ـ عليهم لعنة الله والملائكة، والناس أجمعين ـ: أنها زنت، وأن ولدها عيسى ابن زنى. ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ أي: فنفخ جبريل عليه السلام في فتحة جيبها، فوصل أثر ذلك إلى فرجها، فحملت بعيسى، على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام. قال ابن كثير: إن الله بعث جبريل، فتمثل لها في صورة بشر، وأمره أن ينفخ بفيه في جيب درعها، فنزلت تلك النفخة، فولجت في فرجها، فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام، وانظر ما ذكرته في سورة (الأنبياء) رقم [٩١] عن السهيلي، وتفصيل ذلك في سورة (مريم) عليها السلام.

﴿وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾: يعني الشرائع التي شرعها الله لعباده بكلماته المنزلة على أنبيائه. ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ يعني: الكتب المنزلة على إبراهيم، وموسى، وداود، وعيسى، على نبينا، وعليهم جميعاً ألف صلاة، وألف سلام ﴿وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾: قال النسفي: لما كان القنوت صفة تشمل مَنْ قنت من القبيلين؛ غلب ذكوره على إناثه، و﴿مِنَ﴾ للتبعيض، ويجوز أن تكون للابتداء على أنها ولدت من القانتين؛ لأنها من أعقاب هارون أخي موسى، عليهما السلام. انتهى.

فعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**حَسْبُكَ مِنْ نساءِ العالمين مَرْيَمُ بنت عِمْرانَ، وخديجةُ بنتُ خويلد، وفاطمةُ بنت محمدٍ، وآسيةُ امرأة فرعون**» أخرجه الترمذي، وقال: حديث صحيح.

وذكر الحافظ ابن عساكر عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ، فمرت خديجة ـ رضي الله عنها ـ فقال جبريل: إنَّ اللهَ يُقْرِئُهَا السلامَ، ويُبَشِّرها ببيتٍ في الجنةِ مِنْ قصبٍ، بعيدٍ من اللهبِ، لا نصبٍ فيه، ولا صَخَبٍ، مِنْ لُؤْلُؤَةٍ جَوْفَاءَ بَيْنَ بيتِ مريمَ بنتِ عمران، وبيتِ آسيةَ بنتِ مُزَاحم. انتهى. والمحفوظ: أنها قالت حينما أعلمها الرسول بذلك: هو السلام، ومنه السلام وإليه يعود السلام، فلم تقل: وعليه السلام؛ لأنه لا يجوز للعبد أن يقول: وعلى الله السلام. وهذا من كمال عقلها، وفهمها، وذكائها ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ.

هذا؛ و«مريم» بالعبرية بمعنى: الخادم، ثم سمي به كثير من النساء، و«مريم» في لسان العرب هي التي تكره مخالطة الرجال. ولم تذكر امرأة باسمها صريحاً في القرآن الكريم إلا «مريم» وقد ذكرت فيه في ثلاثين موضعاً. هذا؛ وفي القاموس المحيط: «المريم» هي التي تحب مخالطة الرجال، ولا تفجر، وهذا يناقض ما قبله. قال الشاعر: [الطويل]

وزائِـــرةٍ لَـيْــلاً كَـمـا لاحَ بَـــارِقٌ ... تَـضـوَّعَ مِـنْـهَـا لِـلْـكِـسـاءِ عَـبـيـرُ
فَـقُـلْـتُ لَـهـا أهـلاً وسـهـلاً أَمَـرْيَـمُ؟ ... فَقَـالَـتْ نـعَـمْ مَـنْ أَنْـتَ؟ قـلـتُ لـهـا زِيـرُ

الإعراب: ﴿وَمَرْيَمَ﴾: الواو: حرف عطف. (مريم): معطوف على ﴿ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ منصوب مثله. ﴿ٱبْنَتَ﴾: صفة (مريم)، أو بدل منها، و﴿ٱبْنَتَ﴾: مضاف، و﴿عِمْرَٰنَ﴾: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف لزيادة الألف والنون. ﴿ٱلَّتِىٓ﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل صفة (مريم). ﴿أَحْصَنَتْ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث، والفاعل يعود إلى (مريم)، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿فَرْجَهَا﴾: مفعول به، و(ها): في محل جر بالإضافة. ﴿فَنَفَخْنَا﴾: فعل، وفاعل. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿مِن رُّوحِنَا﴾: متعلقان بما قبلهما. وقيل: متعلقان بمحذوف صفة لمفعول محذوف، أي: روحاً من روحنا، و(نا): في محل جر بالإضافة. ﴿وَصَدَّقَتْ﴾: الواو: حرف عطف. (صدقت): فعل ماض، والتاء للتأنيث، والفاعل يعود إلى (مريم)، والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿بِكَلِمَٰتِ﴾: متعلقان بما قبلهما، و(كلمات) مضاف، و﴿رَبِّهَا﴾: مضاف إليه، و(ها): في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾: معطوف على ما قبله، والهاء في محل جر بالإضافة. (كانت): فعل ماض ناقص، والتاء للتأنيث، واسمها يعود إلى (مريم). ﴿مِنَ

﴿ٱلْقَٰنِتِينَ﴾: متعلقان بمحذوف خبر (كانت)، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، واعتبارها في محل نصب حال من (مريم) فلا بأس به، وتحتاج إلى تقدير: «قد» قبلها.

خاتمة: قال الصلاح الصفدي ـ رحمه الله تعالى ـ: رأيت بخط ابن خلكان: أن مسلماً ناظر نصرانياً، فقال له النصراني في خلال كلامه مختفياً في خطابه بقبيح آثامه: يا مسلم! كيف كان وجه عائشة زوجة نبيكم في تخلفها عن الركب عن نبيكم معتذرةً بضياع عقدها؟! فقال له المسلم: يا نصراني! كان وجهها كوجه بنت عمران لما أتت بعيسى تحمله من غير زوج؛ فمهما اعتقدتَ في دينك من براءة مريم؛ اعتقدنا مثله في ديننا من براءة عائشة زوج نبينا! فانقطع النصراني، ولم يُحِرْ جواباً.

انتهت سورة (التحريم) بحمد الله، وتوفيقه.

والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ المُلْكِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة (الملك) وهي مكية في قول الجميع. وتُسمى: الواقية، والمنجية، وهي ثلاثون آيةً، وثلاثمئة وثلاثون كلمةً، وألف وثلاثمئة، وثلاثة عشر حرفاً. (خازن). وخذ ما يلي:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**إن سورة في القرآن ثلاثون آيةً شفعت لرجلٍ حتى غُفر له، وهي**: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾» رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد.

وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: ضرب بعض أصحاب النبي ﷺ خِباءه على قبر، وهو لا يحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة (الملك) حتى ختمها، فأتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! ضربت خبائي على قبر، وأنا لا أحسب: أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة (الملك) حتى ختمها، فقال النبي ﷺ: «**هي المانعة، هي المنجية، تنجيه من عذاب القبر**». رواه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**وددت أنها في قلب كل مؤمن، يعني**: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾» رواه الحاكم. انتهى. «الترغيب والترهيب» للحافظ المنذري.

أقول: ينبغي للمسلم، وللمسلمة أن يحافظ كلاهما على قراءة سورة (الملك) كل ليلة إن أراد كل منهما أن تشفع له يوم القيامة، وأن تنجيه من عذاب القبر مع مراعاة الشروط، والآداب التي يجب توافرها عند قراءة القرآن، وأهمها: الطهارة الكاملة، والجلوس مستوياً مستقبل القبلة، والقراءة بتدبر، وتفهم... إلخ.

الجزء ٢٩ ﴿۞ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾

الشرح: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى...﴾ إلخ: أي: تنزه الله، وتعالى عن كل ما لا يليق به. وقال الخازن في غير هذه السورة: تمجد، وتعظم، وارتفع. وفي سورة (الفرقان): تكاثر خيره من البركة. وهي كثرة الخير، وزيادته، أو تزيَّد عن كل شيء، وتعالى عنه في صفاته، وأفعاله، وهي كلمة تقديس، وتعظيم، لم تستعمل إلا لله وحده، وهو ملازم للمضي، لا يأتي منه مضارع، ولا أمر. قال **الطرماح**: [الطويل]

تَبَارَكْتَ لَا مُعْطٍ لِشَيْءٍ مَنَعْتَهُ وَلَيْسَ لِمَا أَعْطَيْتَ يَا رَبُّ مَانِعُ

وقال آخر: [الطويل]

تَبَارَكْتَ مَا تَقْدِرْ يَقَعْ ولكَ الشُّكْرُ

﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ أي: بتصرفه، وتحت قدرته وإرادته ملك السموات والأرض في الدنيا، والآخرة، وهو مستولٍ على كل موجود، وهو مالك الملك يؤتيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ يعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويحيي، ويميت، ويغني، ويفقر، ويعطي، ويمنع. وهذا تأويل الخلف. والسلف يقولون: لله يد تليق به لا نعلمها. ومذهب السلف في هذه المتشابهات أسلم، ومذهب الخلف أحكم. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: من المقدورات، أو من الإنعام، والانتقام.

الإعراب: ﴿تَبَٰرَكَ﴾: فعل ماض. ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع فاعل، والجملة الفعلية ابتدائية لا محل لها من الإعراب. ﴿بِيَدِهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم، والتقديم يفيد الاختصاص، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿ٱلْمُلْكُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية صلة الموصول، لا محل لها. هذا؛ وإن اعتبرت الجار والمجرور متعلقين بمحذوف صلة الموصول؛ فـ ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ يكون فاعلاً بمتعلقهما، التقدير: الذي استقر، أو ثبت بيده الملك، وهو كلام في غاية البلاغة، والفصاحة. ﴿وَهُوَ﴾: (الواو): حرف عطف (هو): ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ، ﴿عَلَىٰ كُلِّ﴾: متعلقان بـ ﴿قَدِيرٌ﴾ بعدهما، و﴿كُلِّ﴾ مضاف، و﴿شَيْءٍ﴾: مضاف إليه. ﴿قَدِيرٌ﴾: خبر المبتدأ. والجملة الاسمية معطوفة على جملة الصلة لا محل لها مثلها، قال الجمل: وأرى صحة اعتبارها حالاً من الموصول، والرابط: الواو، والضمير، والاستئناف ممكن أيضاً. تأمل، وتدبر.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾

الشرح: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾: قيل: أراد موت الإنسان، وحياته في الدنيا، جعل الله الدنيا دار حياة، وفناء، وجعل الآخرة دار جزاء، وبقاء، وإنما قدم الموت؛ لأنه أقرب إلى قهر الإنسان. وقيل: قدّمه؛ لأنه أقدم، وذلك؛ لأن الأشياء كانت في الابتداء في حكم الموتى، كالتراب، والنطفة، والعلقة، ونحو ذلك، ثم طرأت عليها الحياة. ولا تنس الطباق بين الموت، والحياة.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: ليعاملكم معاملة المختبر لأحوالكم كيف تعملون؟ فإن ما خلقه الله في هذه الدنيا زينة للأرض، ومتاع لكم، وأسباب ومواد لوجود بني آدم ومعاشهم، وما تحتاج إليه أعمالهم، ودلائل، وأمارات يستدلون بها، ويستنبطون منها معرفة الواحد الأحد، فيبعثهم ذلك على الإيمان به، وإخلاص العبادة له. وقيل: في الكلام استعارة تمثيلية تبعية. ولا وجه له. فعن

عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ تلا قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ رقم [٧] من سورة (هود)، ثم قال: «**أيُّكُمْ أَحْسَنُ عَقلاً، وَأَوْرَعُ عَنْ مَحَارِمِ الله، وَأَسْرَعُ فِي طَاعَةِ اللهِ**». هذا؛ والابتلاء: الامتحان، والاختبار يكون في الخير، والشر. قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ رقم [١٦٨] من سورة (الأعراف)، وخذ ما يلي:

عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ مر بمجلس، وهم يضحكون فقال: «**أكثروا من ذكر هاذم اللذات**» أحسبه قال: «**فإنه ما ذكره أحد في ضيق من العيش إلا وسعه، ولا في سعةٍ إلا ضيقها عليه**». رواه البيهقي، والبزار.

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: أتيت النبي ﷺ عاشر عشرة، فقام رجل من الأنصار، فقال: يا نبي الله! من أكيس الناس، وأحزم الناس؟ قال: «**أكثرهم ذكراً للموت، وأكثرهم استعداداً للموت، أولئك الأكياس، ذهبوا بشرف الدنيا، وكرامة الآخرة**». رواه الطبراني، وابن ماجه، والبيهقي، ورحم الله من يقول: [الكامل]

وَلَدتْكَ أُمُّكَ يا بنَ آدَمَ باكِياً والنَّاسُ حولَكَ يضحكونَ سرورا

فَاعملْ لِنفسِكَ كيْ تكُونَ إذا بكَوْا في يَوْمِ مَوْتِكَ ضاحِكاً مَسْرُورا

وخير وسيلة يستديم بها المؤمن ذكر الموت أن يكثر من تذكر إخوانه الذين عاشروه، ثم ماتوا، وخلفوه، كيف كانوا في مناصبهم، وأعمالهم، وكيف خلت منهم منازلهم؟! فإنه لو تذكر حال كل واحد منهم، وفصل في قلبه ما كان عليه في دنياه من حسن الصورة، وجمال المنظر والنشاط في الغدو والرواح، والركون إلى الشباب، والقوة، والمال، والانخداع بزهرة الدنيا، وزينتها، والغفلة عما هو قادم عليه من الموت الذريع، والهلاك السريع، وكيف كان يختزن من الأقوات، ويكتنز من الأموال ما يكفيه عشرات السنين، وكيف كان يشيد من الأبنية والقصور ما يبقى أبد الآبدين؛ مع أن اسمه قد كتب في سجل الميتين، وها هو ذا الآن يأكل الدود لسانه، وتتخلل الأتربة أسنانه، وكم نطق بهذا اللسان! وكم افْتَرَّ ثغره عن مثل حب الجمان!.

لو تذكر الإنسان إخوانه على هذا النحو، واعتبر نفسه بهم، وقاس حاله بحالهم، وعرف أن غفلته ستكون كغفلتهم، وعاقبته كعاقبتهم، لو داوم على هذا التفكر، وأكثر من عيادة المرضى، وتشييع الجنائز، وزيارة القبور؛ لغلب ذكر الموت على قلبه، فيقل فرحه بالدنيا وزخرفها، ويشتد تجافيه عن غرورها، ويشتغل بالاستعداد للآخرة، التي لا محيص عنها. قال عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ: (ألا ترون أنكم تُجهزونَ كلَّ يومٍ غادياً، أو رائحاً إلى اللهِ، تضعونه في صدع من الأرض، قد توسد التراب، وخلف الأحباب، وتقطعت به الأسباب).

بعد هذا: فالموت: انتهاء الحياة بخمود حرارة البدن، وبطلان حركته. وموت القلب: قسوته، فلا يتأثر بالمواعظ، ولا ينتفع بالنصائح. هذا؛ وقد قال الله تعالى في سورة (الزمر) رقم

[٤٢]: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾، وقال في سورة (السجدة) رقم [١١]: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾. وقال تعالى في سورة (الأنفال) رقم [٥٠]: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾، وقال في سورة (الأنعام) رقم [٦١]: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾. والجمع بين هذه الآيات: أن الموفي في الحقيقة هو الله تعالى، فإذا حضر أجل العبد أمر الله ملك الموت بقبض روحه، ولملك الموت أعوان من الملائكة، يأمرهم بنزع روح ذلك العبد من جسده، فإذا وصلت إلى الحلقوم؛ تولى قبضها ملك الموت بنفسه. انتهى. خازن في غير هذا الموضع.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾: القوي القاهر الغالب المنتقم ممن عصاه؛ الذي لا يعجزه من أساء العمل. ﴿الْغَفُورُ﴾: لمن تاب إليه، ورجع عن إساءته، والذي لا ييأس منه أهل الإساءة والزلل. وهما صيغتا مبالغة.

الإعراب: ﴿الَّذِي﴾: بدل مما قبله، أو هو خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هو الذي، أو هو في محل نصب مفعول به لفعل محذوف، التقدير: أعني الذي. ﴿خَلَقَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى الذي، وهو العائد، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿الْمَوْتَ﴾: مفعول به. (الحياة): معطوف على ما قبله. ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾: مضارع منصوب بـ: «أن» مضمرة بعد لام التعليل، والفاعل يعود إلى ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾، والكاف مفعول به، و«أن» المضمرة، والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر باللام، والجار والمجرور متعلقان بالفعل ﴿خَلَقَ﴾. وقال الفراء، والزجاج: متعلقان بفعل محذوف، كما تقول: بلوتكم؛ لأ نظر: أيكم أطوع؟ والمعنى هنا: ليبلوكم، فيعلم، أو فينظر أيكم أحسن عملاً. ﴿أَيُّكُمْ﴾: اسم استفهام مبتدأ، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿أَحْسَنُ﴾: خبر المبتدأ. ﴿عَمَلًا﴾: تمييز، والجملة الاسمية في محل نصب مفعول به ثان للفعل (يبلو) المعلق عن العمل بسبب الاستفهام. هذا؛ وأجيز اعتبار (أيكم) اسم موصول بمعنى «الذي» و﴿أَحْسَنُ﴾ خبر مبتدأ محذوف، وفاعله مستتر فيه، والجملة الاسمية هذه صلة له، ويكون هذا الموصول في محل نصب بدلاً من مفعول ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ تقديره: ليبلو الذي هو أحسن. وعليه: فالضمة للبناء، والمعتمد الأول. ﴿وَهُوَ﴾: (الواو): واو الحال. (هو): ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿الْعَزِيزُ﴾: خبر أول. ﴿الْغَفُورُ﴾: خبر ثان، والجملة الاسمية في محل نصب حال من الفاعل المستتر العائد على الموصول، والرابط: الواو، والضمير، وإن اعتبرتها مستأنفة؛ فلا محل لها.

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣)﴾

الشرح: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾: يعني: طبقاً على طبق، بعضها فوق بعض، كل سماء مقبية على الأخرى، وسماء الدنيا كالقبة على الأرض. قال كعب الأحبار: سماء الدنيا: موج

مكفوف. والثانية: مرمرة بيضاء. والثالثة: حديد. والرابعة: صفر. وقيل: نحاس، والخامسة: فضة. والسادسة: ذهب. والسابعة: ياقوتة حمراء. وما بين السماء السابعة إلى الحجب السبعة صحارٍ من نور. انتهى خازن. وانظر ما ذكرته في سورة (الطلاق) رقم [١٢] فهو جيد. هذا؛ وقد قال تعالى في سورة (المؤمنون) رقم [١٧]: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ انظر شرحها هناك.

﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ أي: ما ترى يا بن آدم في شيء مما خلق الرحمن اعوجاجاً، ولا اختلافاً، ولا تناقضاً، بل خلقهن مستقيمة مستوية، وحقيقة التفاوت: عدم التناسب، كأن بعض الشيء يفوت بعضاً، ولا يلائمه، وأصل الكلام: أما ترى فيهن من تفاوت، فوضع ﴿خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ موضع الضمير تعظيماً لخلقهن، وتنبيهاً على سلامتهن من التفاوت، وهو أنه خلق الرحمنِ، وأنه بباهر قدرته هو الذي يخلق مثل ذلك الخلق المتناسب. والخطاب لكل من يتأتى منه الرؤيا.

﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي: أعد النظر، وكرره هل ترى في السموات من شقوق، وصدوع؟! وأصله من التفطر، والانفطار، وهو التشتت، والانشقاق. قال الشاعر: [الوافر]

بَنَى لَكُمُ بلا عَمَدٍ سماءً ... وَزَيَّنَها فَما فيها فُطُورُ

وانظر ما ذكرته في سورة (الشورى) رقم [١١]. وقال الشاعر: [الوافر]

شَقَقْتِ القَلْبَ ثُمَّ ذَرَرْتِ فيهِ ... هَوَاكِ فَلِيمَ فالتأمَ الفُطُورُ

تَغَلْغَلَ حيثُ لمْ يبلغْ شرابٌ ... ولا سكرٌ ولمْ يبلغْ سرورُ

هذا؛ و«ترى» ماضيه: رأى، وقياس المضارع: ترأيُ، وقد تركت العرب الهمز في مضارعه لكثرته في كلامهم، وربما احتاجت إلى همزه، فهمزته كما في قول سراقة بن مرداس البارقي ـوهو الشاهد رقم [٥٠٤] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الوافر]

أُرِي عَيْنَيَّ مَا لَمْ تَرْأَيَاهُ ... كِلاَنَا عَالِمٌ بِالتُّرهَاتِ

وربما جاء ماضيه بغير همز، وبه قرأ نافع بقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ و﴿أَرَءَيْتَ﴾: (أرايْتكُمْ)، (أَرَايْتَ) بدون همز، وقال الشاعر: [الخفيف]

صَاحِ هَلْ رَيْتَ أَوْ سَمِعْتَ بِراعٍ ... رَدَّ في الضَّرْعِ مَا قَرَى في الحِلَابِ؟!

وإذا أمرت منه على الأصل قلت: ارْءَ، وعلى الحذف: رَهْ بهاء السكت. وقل في إعلال تَرَي: أصله: تَرْأَيْ، قلبت الياء ألفاً لتحركها، وانفتاح ما قبلها، وحذفت الهمزة بعد إلقاء حركتها على الراء للتخفيف.

الإعراب: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ﴾: مثل سابقه، و﴿سَبْعَ﴾ مضاف، و﴿سَمَٰوَٰتٍ﴾ مضاف إليه. ﴿طِبَاقًا﴾: صفة ﴿سَبْعَ﴾، ويجوز في العربية جره صفة لـ: ﴿سَمَٰوَٰتٍ﴾، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ

﴿ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ﴾ الآية رقم [٤٣] من سورة (يوسف) على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام. وأجيز اعتباره مفعولاً مطلقاً لفعل محذوف. التقدير: تطابق طباقاً، كما أجيز اعتباره حالاً، أي: ذات طباق، فحذف «ذات» وأقيم طباقاً مقامه. ﴿مَّا﴾: نافية. ﴿تَرَىٰ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر، والفاعل مستتر تقديره: «أنت». ﴿فِى خَلْقِ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، و﴿خَلْقِ﴾ مضاف، و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ مضاف إليه، من إضافة المصدر لفاعله. ﴿مِن﴾: حرف صلة. ﴿تَفَٰوُتٍ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد، وجملة: ﴿مَّا تَرَىٰ...﴾ إلخ في محل نصب صفة ﴿طِبَاقًا﴾. أفاده الجمل، والنسفي، والزمخشري. وإن اعتبرتها مستأنفة؛ فلا محل لها. ﴿فَٱرْجِعِ﴾: الفاء: هي الفصيحة؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر، التقدير: إذا كان ذلك واقعاً، ولم تصدق؛ فارجع. (ارجع): فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت». ﴿ٱلْبَصَرَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جواب شرط غير جازم، ومن يجيز عطف الإنشاء على الخبر يعطفها على ما قبلها، وابن هشام يعتبر الفاء للسببية المحضة، والمعتمد الأول. ﴿هَلْ﴾: حرف استفهام ﴿تَرَىٰ﴾: فعل مضارع، والفاعل: أنت. ﴿مِن﴾: حرف جر صلة. ﴿فُطُورٍ﴾: مفعول به، مثل ﴿تَفَٰوُتٍ﴾، والجملة الفعلية يجوز أن تكون معلقة لفعل محذوف يدل عليه: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ أي: فارجع البصر، فانظر: هل ترى، وأن يكون: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ مضمناً معنى: فانظر؛ لأنه بمعناه، فيكون هو المعلق. انتهى. جمل.

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾

الشرح: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: مرة بعد مرة. وإنما أمر المخاطب بالنظر مرتين؛ لأنه إذا نظر في الشيء مرة لا يرى عيبه ما لم ينظر إليه مرة أخرى، فأخبر الله تعالى أنه وإن نظر في الشيء مرتين لا يرى فيها عيباً، بل يتحير بالنظر إليها. فذلك قوله تعالى: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ أي: خاشعاً، صاغراً، متباعداً عن أن يرى شيئاً من ذلك. والمراد والله أعلم: كرر النظر إلى السموات مراتٍ، ومراتٍ، فإنك لن ترى خللاً، أو عيباً في السموات السبع. هذا؛ و﴿كَرَّتَيْنِ﴾ مصدر ك: «مرتين»، وهو مثنى لا يراد به حقيقته، بل التكثير بدليل ما بعده. والوصفان: ﴿خَاسِئًا﴾ و﴿حَسِيرٌ﴾ لا يتأتيان بنظرتين، ولا بثلاث، وإنما المعنى: كرات. وهذا كقولهم: لبَّيْكَ، وَسَعْدَيْكَ، وَحَنَانَيْك، وَهَذَاذَيْكَ، لا يريدون بهذه التثنية شفع الواحد، وإنما يريدون التكثير أي: إجابة لك بعد إجابة، وإلا تناقض الغرض. والتثنية قد تفيد التكثير بقرينة، كما يفيد أصلها، وهو العطف، انظر الشواهد [٩٨٤/ ٩٨٥/ ٩٨٦] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

والفعل «خسأ» يكون لازماً، ومتعدياً، وهو من الباب الثالث، مثل: قطع، يقطع، وفتح، يفتح. هذا؛ والمادة تدل على الصغار، والذلة، والهوان، قال تعالى لليهود اللؤماء الذين اعتدوْا في السبت: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ رقم [٦٥] من سورة (البقرة)، و[١٦٦] من سورة (الأعراف).

﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي: قد بلغ الغاية في الإعياء فهو بمعنى: فاعل من الحسور؛ الذي هو الإعياء، ويجوز أن يكون: مفعولاً من: حسره بُعْدُ الشيء، وهو معنى قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ. ومنه قول الشاعر: [البسيط]

مَنْ مَدَّ طَرْفاً إِلَى ما فَوْقَ غَايَتِهِ ... ارْتَدَّ خَسْآنَ مِنْهُ الطَّرْفُ قَدْ حَسِرَا

يقال: قد حسر بصره، يحسر حُسوراً، أي: كلَّ، وانقطع نظره من طول مدىً، وما أشبه ذلك، فهو حسير، ومحسور أيضاً. قال الشاعر: [الطويل]

نَظَرْتُ إِلَيْهَا بِالْمُحَصَّبِ مِنْ مِنىً ... فَعَادَ إِلَيَّ الطَّرْفُ وَهْوَ حَسِيرُ

الإعراب: ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿ٱرْجِعِ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت». ﴿ٱلْبَصَرَ﴾: مفعول به. ﴿كَرَّتَيْنِ﴾: مفعول مطلق عامله: ارجع؛ لأنه بمعنى: رجعتين، فهو منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنه مثنى، والنون عوض من التنوين في الاسم المفرد، وجملة: ﴿ٱرْجِعِ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها لا محل لها مثلها. ﴿يَنقَلِبْ﴾: مضارع مجزوم؛ لوقوعه جواباً للأمر، وجزمه عند الجمهور بشرط محذوف. ﴿إِلَيْكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿ٱلْبَصَرُ﴾: فاعل ﴿يَنقَلِبْ﴾، والجملة الفعلية لا محل لها. ﴿خَاسِئًا﴾: حال من ﴿ٱلْبَصَرَ﴾. ﴿وَهُوَ﴾: (الواو): واو الحال. (هو): مبتدأ. ﴿حَسِيرٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال ثانية من ﴿ٱلْبَصَرُ﴾، أو هي حال من الضمير المستتر بـ: ﴿خَاسِئًا﴾، فهي حال متداخلة.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾

الشرح: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: القربى من الأرض. ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ جمع: مصباح، وهو السراج، وهي اليوم مصابيح كهربائية، وتسمى الكواكب مصابيح؛ لإنارتها. ففي الكلام استعارة تصريحية؛ لأن حقيقة المصباح كما في المختار: السراج. هذا؛ و﴿رُجُومًا﴾ جمع: رجم، وهو مصدر، والمراد به المفعول، أي: ما يرجم به، ولذلك قال الجلال: مراجم؛ أي: أموراً يرجم بها، وفي السمين: و(الرجوم) جمع: رجم، وهو مصدر في الأصل أطلق على المرجوم به،

ك: «ضرب الأمير». ويجوز أن يكون باقياً على مصدريته، ويقدر مضاف، أي: ذات رجوم، وجمع المصدر باعتبار أنواعه. ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ أي: جعلنا شهبها، فحذف المضاف. دليله قوله تعالى في سورة (الصافات) رقم [١٠]: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ وعلى هذا؛ فالمصابيح لا تزول، ولا يرجم بها، لذا قال الخازن: فإن قلت: جعْلُ الكواكبِ زينةَ السماء يقتضي بقاءها، وجعْلُها رجوماً للشياطين يقتضي زوالها، فكيف الجمع بين هاتين الحالتين؟!.

قلت: قالوا: إنه ليس المراد: أنهم يُرْمَوْن بأجرام الكواكب، بل يجوز أن تنفصل من الكواكب شعلة، وتُرمى الشياطين بتلك الشعلة، وهي الشهب، ومثلها كمثل قبس يؤخذ من النار، وهي على حالها. وقال قتادة ـ رحمه الله تعالى ـ: خلق الله تعالى النجوم لثلاث: زينةً للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلاماتٍ يُهتدى بها في البر، والبحر، والأوقات. فمن تأول فيها غير ذلك؛ فقد تكلف ما لا علم له به، وتعدى، وظلم. ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: في الآخرة بعد الإحراق بالشهب في الدنيا لهم النار الموقدة شديدة الحرارة. قال تعالى في سورة (الصافات) الآية رقم [٩]: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي: دائم مستمر في الآخرة.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كانت الشياطين لا يحجبون من السموات، وكانوا يدخلونها، ويأتون بأخبارها، فيلقونها إلى الكهنة، فلما ولد عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ مُنِعوا من ثلاث سماوات، فلما ولد محمد ﷺ مُنِعوا من السموات كلها، فما منهم أحد يريد استراق السمع إلا رُميَ بشهاب، وهو الشعلة من النار، فلا يخطئه أبداً، فمنهم من يقتله، ومنهم من يحرق وجهه، ومنهم من يخبله، فيصير غولاً يضل الناس في الفلوات، والبراري.

وبسبب ذلك بطلت الكهانة. فإن قيل: هذا القذف إن كان لأجل النبوة، فلم دام بعد النبي ﷺ؟ والجواب: أنه دام بدوام النبوة، فإن النبي ﷺ أخبر ببطلان الكهانة، فقال: «**لَيْسَ منَّا مَنْ تَكهَّنَ**». فلو لم تحرس بعد موته؛ لعادت الجن إلى تسمعها، وعادت الكهانة، ولا يجوز ذلك بعد أن بطل، ولأن قطع الحراسة عن السماء إذا وقع لأجل النبوة، فعادت الكهانة دخلت الشبهة على ضعفاء المسلمين، ولم يؤمَن أن يظنوا: أن الكهانة إنما عادت لتناهي النبوة، فصح: أن الحكمة تقتضي دوام الحراسة في حياة النبي ﷺ، وبعد أن توفاه الله إلى دار كرامته.

فإن قلت: إذا كان الشيطان يعلم: أنه يصاب، ولا يصل إلى مقصوده؛ فكيف يعود مرة أخرى؟ أو: كيف يحاول استراق السمع، وقد رأى غيره قد احترق؟ قلت: يعود رجاء نيل المقصود، وطمعاً في السلامة كراكب البحر؛ فإنه يشاهد الغرق أحياناً؛ لكنه يعود إلى ركوبه رجاء السلامة، ونيل المقصود. انتهى. خازن بتصرف. وانظر ما ذكرته في سورة (الجن) رقم [٨] وفي غير هذا الموضع أيضاً من سورة (الحجر) وسورة (الصافات) إن أردت الزيادة.

الإعراب: ﴿وَلَقَدْ﴾: (الواو): حرف قسم وجر، والمقسم به محذوف، تقديره: وعزَّتي! والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف، تقديره: أقسم. هذا؛ وبعضهم يعتبر الواو عاطفة، وبعضهم يعتبرها حرف استئناف، ويعتبرون الجملة الآتية جواباً لقسم محذوف. ولا أسلمه أبداً؛ لأنه على هذا يكون قد حذف واو القسم، والمقسم به، ويصير التقدير: والله أقسم، أو وأقسم والله، واللام واقعة في جواب القسم المحذوف. وبعضهم يقول: اللام موطئة للقسم، والموطئة معناها المؤذنة، وهذه اللام إنما تدخل على «إنْ» الشرطية، لتدل على القسم المتقدم على الشرط، وتكون الجملة الآتية جواباً للقسم المدلول عليه باللام، والمتقدم على الشرط حكماً، كما في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ الآية رقم [١٢] من سورة (الحشر). افهم هذا؛ واحفظه، فإنه جيد. والله ولي التوفيق.

فإن قيل: ما ذكرته من إعراب يؤدي إلى حذف المقسم به، وبقاء حرف القسم، فالجواب: أنه قد حذف المقسم به حذفاً مطرداً في أوائل السور، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾، ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ فإن التقدير: وربِّ النَّجم، وربِّ الشمس... إلخ، الدليل على ذلك: التصريح به في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية [٢٣] من سورة (الذاريات) وحذف المقسم به ظاهر في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا...﴾ إلخ الآية رقم [٧١] من سورة (مريم)، وأظهر منه في قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الآية رقم [٧٣] من سورة (المائدة)، فالواو في الآيتين حرف قسم، وجر، والمقسم به محذوف بلا ريب.

(قد): حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿زَيَّنَّا﴾: فعل، وفاعل. ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾: مفعول به. ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة السماء منصوب مثله، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذر، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها، والقسم وجوابه كلام مستأنف، لا محل له. ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وعلامة الجر الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف لصيغة منتهى الجموع، وهي علة تقوم مقام علتين من موانع الصرف. (جعلناها): فعل، وفاعل، ومفعول به أول، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها. ﴿رُجُومًا﴾: مفعول به ثان. ﴿لِّلشَّيَٰطِينِ﴾: متعلقان بـ: ﴿رُجُومًا﴾، أو بمحذوف صفة له. ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾: فعل، وفاعل. ﴿لَهُمْ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿عَذَابَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿ٱلسَّعِيرِ﴾ مضاف إليه، من إضافة اسم المصدر لمفعوله بل لظرفه، وفاعله محذوف، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها أيضاً.

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾﴾

الشرح: المعنى ليس العذاب في جهنم مختصاً، ومقصوراً على الشياطين، بل لكل من كفر بالله من إنسان، وجن.

الإعراب: ﴿وَلِلَّذِينَ﴾: الواو: حرف عطف. (للذين): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم، وجملة: (كفروا): صلة الموصول لا محل لها. ﴿بِرَبِّهِمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله. وفاعله مستتر فيه. ﴿عَذَابُ﴾: مبتدأ مؤخر، و﴿عَذَابُ﴾: مضاف، و﴿جَهَنَّمَ﴾: مضاف إليه مجرور، من إضافة اسم المصدر لظرفه، وفاعله محذوف، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها أيضاً. وقال الزمخشري، والبيضاوي: وقرئ بنصب (عذابَ): على أن (للذين): عطف على ﴿لَهُمْ﴾، و﴿عَذَابُ﴾ عطف على ﴿عَذَابَ السَّعِيرِ﴾، وجملة: ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾: مستأنفة، لا محل لها، والمخصوص بالذم محذوف، التقدير: وبئس المصير المذمومة جهنم.

﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧﴾

الشرح: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا﴾: طرحوا في جهنم، كما يطرح الحطب في النار العظيمة. ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا﴾: لجهنم. ﴿شَهِيقًا﴾: صوتاً منكراً كصوت الحمير، شبه حسيسها المنكر الفظيع بالشهيق. ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾: تغلي بهم غليان المرجل بما فيه. وقيل: تفور بهم كما يفور الماء الكثير بالحبِّ القليل، ومن الأول قول حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ: [الوافر]

تَـرَكْـتُـمْ قِـدْرَكُـمْ لَا شَـيْءَ فِـيـهَـا ... وَقِـدْرُ الْـقَـوْمِ حَـامِـيَـةٌ تَـفُـورُ

وهذا من شدة لهب النار من شدة الغضب، كما تقول: فلان يفور غيظاً. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الشهيق لجهنم عند إلقاء الكفار فيها، تشهق إليهم شهقة البغلة للشعير، ثم تزفر زفرةً لا يبقى أحد إلا خاف. وقيل: الشهيق من الكفار عند إلقائهم في النار. فيكون الكلام على حذف مضاف، أي: سمعوا لأهلها. وانظر الزفير، والشهيق في سورة (هود) رقم [١٠٦]: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾.

الإعراب: ﴿إِذَآ﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك، مبني على السكون في محل نصب. ﴿أُلْقُوا۟﴾: فعل ماض مبني للمجهول مبني على الضم، والواو نائب فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿إِذَآ﴾ إليها على المشهور المرجوح. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿سَمِعُوا۟﴾: ماض، وفاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية جواب ﴿إِذَآ﴾، لا محل لها، و﴿إِذَآ﴾ ومدخولها كلام مستأنف، لا محل له. ﴿لَهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من ﴿شَهِيقًا﴾، كان صفةً له. ﴿شَهِيقًا﴾: مفعول به. ﴿وَهِىَ﴾: (الواو): واو الحال. (هي): ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿تَفُورُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿جَهَنَّمَ﴾، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من الهاء في ﴿لَهَا﴾، والرابط: الواو، والضمير.

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾

الشرح: ﴿تَكَادُ﴾: تقرب. ﴿تَمَيَّزُ﴾: أصلة: تتميز، بمعنى: تتقطع، وتتفرق، والمعنى: تتفرق غضباً عليهم. وهو تمثيل لشدة اشتعالها بهم. ويجوز أن يراد غيظ الزبانية. ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾: من شدة الغيظ على الكفار، فجعلت كالمغتاظة عليهم. شبه الله جهنم في شدة غليانها ولهبها بإنسان شديد الغيظ، والحنق على عدوه، يكاد يتقطع من شدة الغيظ. وحذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الغيظ الشديد بطريق الاستعارة المكنية، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي: [الكامل]

وَإِذَا الْـمَـنِـيَّـةُ أَنْـشَـبَـتْ أَظْـفَـارَهَـا ... أَلْـفَـيْـتَ كُـلَّ تَـمِـيـمَـةٍ لَا تَـنْـفَـعُ

هذا؛ وقد قال تعالى في سورة (الفرقان) رقم [١٢]: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ انظر شرحها هناك تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ﴾: جماعة من الكفرة. ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾: مالك، وأعوانه من الزبانية، يسألونهم سؤال توبيخ، وتقريع. ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ أي: رسول ينذركم غضب الله، وعقابه، وعذابه. وهذا السؤال للكافرين كثر ذكره في آيات القرآن؛ ولاسيما حينما يطلبون تخفيف العذاب، كما في الآية رقم [٥٠] من سورة (غافر) وغيرها. هذا؛ و﴿فَوْجٌ﴾ اسم جمع لا واحد له من لفظه، مثل: قوم، ورهط، ومعشر... إلخ، وجمعه أفواج، وفؤوج، وجمع الجمع: أفاوج، وأفاييج، وأفاويج. وانظر الآية رقم [١٨] من سورة (النبأ) ففيها بحث قيم.

هذا؛ وقال الجمل نقلاً عن الخطيب: وغضب جهنم من غضب سيدها، وخالقها، تأتي يوم القيامة تقاد إلى المحشر بألف زمام، لكل زمام سبعون ألف ملك يقودونها به، وهي من شدة الغيظ تقوى على الملائكة، وتحمل على الناس، فتتقطع الأزمة جميعها، وتحطم على أهل المحشر، فلا يردها عنهم إلا النبي ﷺ يقابلها بنوره، فترجع، مع أن لكل ملك من القوة ما لو أمر أن يقلع الأرض وما عليها من الجبال، ويصعد بها في الجو؛ لفعل من غير كلفة. انتهى.

هذا؛ وفي المنجد الناقل عن القاموس قوله: مَازَ، يَميزُ، ومَيَّز وأمَازَ الشيء: فرزهُ عن غيرِه، والشيءَ: فضله على سواه، وتميَّزَ، وانمازَ انميازاً، وامتاز امْتِيازاً، واشماز اشمازةً: انفصل عن غيره، وانعزل، وتميَّز فلانٌ من الغيظِ: تَقَطَّع، وامتازَ القوم: تميَّزَ بعضهم من بعض.

هذا؛ وقد قال الله تعالى في سورة (آل عمران) رقم [١٧٩]: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾، وقال جل وعلا في سورة (الأنفال) رقم [٣٧]: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾، وقال تعالت حكمته هنا: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ...﴾ إلخ.

الإعراب: ﴿تَكَادُ﴾: فعل مضارع ناقص، واسمه يعود إلى ﴿جَهَنَّمَ﴾. ﴿تَمَيَّزُ﴾: فعل مضارع، وفاعله يعود إلى ﴿جَهَنَّمَ﴾ أيضاً، والجملة الفعلية في محل نصب خبر ﴿تَكَادُ﴾، والجملة الفعلية في محل نصب حال من فاعل ﴿تَفُورُ﴾ المستتر، فهي حال متداخلة. وقيل: مستأنفة، والأول أقوى. ﴿مِنَ الْغَيْظِ﴾: متعلقان بما قبلهما. وقيل: في محل نصب على التمييز. ولا وجه له ألبتة.

﴿كُلَّمَا﴾ يعربها المعاصرون أداة شرط غير جازمة، وتفصيل إعرابها: (كل): ظرفية متعلقة بجوابها؛ إذ هي تحتاج إلى جملتين إحداهما مرتبة على الأخرى. (ما): محتملة لوجهين: أحدهما: أن تكون حرفاً مصدرياً والجملة بعده صلة له. والثاني: أن تكون اسماً نكرة بمعنى: وقت، والجملة بعده في موضع خفض على الصفة. ﴿أُلْقِيَ﴾: ماض مبني للمجهول. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿فَوْجٌ﴾: نائب فاعل، و(ما) والفعل ﴿أُلْقِيَ﴾ في تأويل مصدر في محل جر بإضافة كل إليه، التقدير: كل وقت إلقاء، وهذا التقدير، وهذه الإضافة هما اللذان سببا الظرفية لـ: (كل)، انظر مبحث (كلما) في كتابنا: «فتح القريب المجيب». وقيل: (ما) نكرة موصوفة، والجملة الفعلية بعدها صفة لها، وهي بمعنى: وقت أيضاً. ﴿سَأَلَهُمْ﴾: فعل ماض، والهاء مفعول به. ﴿خَزَنَتُهَا﴾: فاعل، و(ها): في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية جواب ﴿كُلَّمَا﴾ لا محل لها، و﴿كُلَّمَا﴾ ومدخولها كلام مستأنف، لا محل له. ﴿أَلَمْ﴾: (الهمزة): حرف استفهام توبيخي. (لم): حرف نفي وقلب وجزم. ﴿يَأْتِكُمْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: (لم) وعلامة جزمه حذف حرف العلة من آخره، وهو الياء، والكسرة قبلها دليل عليها، والكاف مفعول به. ﴿نَذِيرٌ﴾: فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب مفعول به ثان لـ: (سأل) المعلق عن العمل بسبب الاستفهام.

﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾

الشرح: ﴿قَالُوا﴾ أي: يقول الذين كفروا جواباً لخزنة جهنم. والتعبير بالماضي إنما هو لتحقق وقوعه. ﴿بَلَىٰ﴾: حرف جواب يفيد إثبات ما سأل عنه الخزنة. وهو حرف جواب مثل: نَعَمْ، وجَيْرِ، وأجلْ، وجَلَلْ، وأي؛ إلا أن بلى جواب لنفي متقدم، أي: إبطال ونقض، وإيجاب له، سواء دخله الاستفهام أم لا؟ فتكون إيجاباً له، نحو قول القائل: ما قام زيد؟ فتقول: بلى؛ أي: قد قام. وقوله: أليس زيدٌ قائماً؟ فتقول: بلى، أي: هو قائم. ومنه الآية الكريمة التي بين أيدينا، وقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لو قالوا: نعم؛ لكفروا.

﴿قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾: قال الجمل نقلاً عن الخطيب: جمعوا بين حرف الجواب، ونفس الجملة المفادة به توكيداً؛ إذ لو اقتصروا على بلى؛ لفهم المعنى، ولكنهم صرحوا بالمفاد ببلى تحسراً، وزيادة ندم في تفريطهم، وليعطفوا عليه قولهم: ﴿فَكَذَّبْنَا...﴾ إلخ.

﴿فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ...﴾ إلخ أي: كذبنا الرسل، وأفرطنا في التكذيب حتى نفينا الإنزال، والإرسال رأساً، وبالغنا في نسبتهم إلى الضلال. وال ﴿نَذِيرٌ﴾ إما بمعنى الجمع؛ لأنه فعيل، أو مصدر مقدر بمضاف، أي: أهل إنذار، أو منعوت به للمبالغة، أو الواحد، والخطاب له ولأمثاله على التغليب، أو إقامة تكذيب الواحد مقام تكذيب الكل، أو على أن المعنى: قالت الأفواج: قد جاء إلى كل فوج منا رسول من الله فكذبناهم، وضللناهم. ويجوز أن يكون الخطاب من كلام الزبانية للكفار على إرادة القول، ومرادهم بالضلال: الهلاك، أو سمَّوا جزاء الضلال باسمه، كما يسمى جزاء السيئة، والاعتداء: سيئة، واعتداء. ويسمى المشاكلة في علم البيان، أو كلام الرسل لهم حكوهُ للخزنة، أي: قالوا لنا هذا، فلم نقبله. انتهى بيضاوي، ونسفي.

هذا؛ ومثل الآية قوله تعالى في سورة (الزمر) رقم [٧١]: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

الإعراب: ﴿قَالُواْ﴾: ماض، وفاعله، والألف للتفريق ﴿بَلَىٰ﴾: حرف جواب في محل نصب مقول القول. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿جَآءَنَا﴾: فعل ماض، (ونا): مفعول به ﴿نَذِيرٌ﴾: فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالُواْ...﴾ إلخ مستأنفة، لا محل لها. ﴿فَكَذَّبْنَا﴾: الفاء: استئنافية. (كذبنا): فعل، وفاعل، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿وَقُلْنَا﴾: الواو: حرف عطف. (قلنا): فعل، وفاعل. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿نَزَّلَ﴾: فعل ماض. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿مِن﴾: حرف جر صلة. ﴿شَيْءٍ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿وَقُلْنَا...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب مقول القول أيضاً. ﴿إِنْ﴾: حرف نفي بمعنى «ما». ﴿أَنتُمْ﴾: ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿فِى ضَلَـٰلٍ﴾: متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ. ﴿كَبِيرٍ﴾: صفة ﴿ضَلَـٰلٍ﴾، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول لـ: ﴿قَالُوٓاْ﴾ إن كانت من مقول الكافرين، أو هي في محل نصب مقول القول لقول محذوف؛ إن كانت من مقول الزبانية. تأمل، وتدبر.

﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾

الشرح: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾: كلام الرسل في الدنيا، فنقبله جملة من غير بحث، وتفتيش اعتماداً على ما لاح من صدقهم بالمعجزات. ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ أي: لو كانت لنا عقول ننتفع بها لما كنا على ما كنا عليه من الكفر بالله، والاغترار به، ولكن لم يكن لنا فهم نعي به ما جاءت به

الرسل، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم. ﴿مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾: في عدادهم، وجملتهم، فعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«لَقَدْ نَدِمَ الفاجِرُ يومَ الْقِيَامَةِ، (قَالُوا لوْ كُنَّا نَسْمَعُ، أو نَعْقِلُ مَا كُنَّا في أصحَابِ السَّعِيرِ)»**، فقال الله تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ﴾.

هذا؛ والفعل: «سمع، يسمع» من الأفعال الصوتية، إن تعلق بالأصوات تعدى إلى مفعول واحد، وإن تعلق بالذوات تعدى إلى اثنين؛ الثاني منهما جملة فعلية مصدرة بمضارع من الأفعال الصوتية، مثل قولك: سمعت فلاناً يقول كذا. وهذا اختيار الفارسي، واختار ابن مالك، ومن تبعه أن تكون الجملة الفعلية في محل نصب حال؛ إن كان المتقدم معرفة، مثل قولك: سمعت زيداً يقول كذا. وصفة؛ إن كان نكرة، مثل قولك: سمعت رجلاً يقول كذا.

وأما «العقل» فإنه نور روحاني، تدرك به النفس ما لا تدركه بالحواس الظاهرة، وكثيراً ما يتبجح بعض الناس، فيسأل: أين يوجد العقل؟ فهذا تبجح لا مبرر له، وانظر شرح (النفس) في الآية رقم [٢] من سورة (القيامة). وسمي العقل عقلاً؛ لأنه يعقل صاحبه؛ أي: يمنعه من فعل الرذائل، والقبائح، لذا فإن كل شخص لا يسير على الجادة المستقيمة لا يكون عاقلاً بالمعنى الصحيح. وخذ ما يلي. فقد قال الشاعر: [البسيط]

لَمَ يَبْقَ مِنْ جُلِّ هَذَا النَّاسِ بَاقِيَةٌ ... يَنَالُهَا الْوَهْمُ إلَّا هَذِهِ الصُّوَرُ
لَا يَدْهَمَنَّكَ مِنْ دهمائِهِمْ عَدَدٌ ... فَإنَّ جُلَّهُمُ، بَلْ كُلُّهُمْ بَقَرُ

يقول: لا يدهمنّك من جماعتهم الكثيرة، فهم عدد كثير ليس فيهم غناء ونصرة؛ لأن كلهم كالأنعام والبهائم، ولله در القائل: [المنسرح]

لا يُدْهِمَنْكَ اللِّحَاءُ والصُّوَرُ ... تسعةُ أعشارِ مَنْ تَرَى بَقَرُ
فِي شَجَرِ السَّرْوِ منهمُ شبَهٌ ... لَهُ رِوَاءٌ مَا لَهُ ثَمَرُ

ورضي الله عن حسان بن ثابت؛ إذ يقول في بني عبد المدان: [البسيط]

لا بأسَ بِالْقَوْمِ من طولٍ ومِنْ عِظَمٍ ... جِسْمُ الْبِغَالِ وأحلامُ العَصَافِيرِ

فقد ورد أن رجلاً معتوهاً مرَّ على مجلس النبي ﷺ، فقال الصحابة الكرام رضوان الله عليهم: هذا مجنون! فقال سيد الخلق، وحبيب الحق، الناطق بالصدق: **«هَذَا مُصَابٌ، إنما المجنونُ مَنْ أصَرَّ عَلَى مَعْصِيَةِ اللهِ تَعالى»**. هذا؛ والعقل: الدية، سميت بذلك؛ لأن الإبل المؤداة ديةً تعقل بباب القتيل، والِعقال بكسر العين: الحبل الذي تربط به ركبة الجمل عند بروكه؛ ليمنعه من القيام والمشي، والعِقال أيضاً: صدقةُ عامٍ، قال شاعر يهجو عاملاً على الصدقات في عهد بني أمية: [البسيط]

سَعَى عِقَالاً فَلَمْ يَتْرُكْ لَنَا سَبَداً فَكَيْفَ لَوْ قَدْ سَعَى عَمْرٌو عِقَالَيْنِ؟!
لأَصْبَحَ النَّاسُ أَوْبَاداً وَلَمْ يَجِدُوا عِنْدَ التَّفَرُّقِ في الْهَيْجَا جِمَالَيْنِ

الإعراب: ﴿وَقَالُواْ﴾: الواو: حرف عطف. (قالوا): ماض، وفاعله، والألف للتفريق. ﴿لَوْ﴾: حرف لما كان سيقع لوقوع غيره. ﴿كُنَّا﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون، و(نا): اسمه. ﴿نَسْمَعُ﴾: فعل مضارع، وفاعله مستتر تقديره: «نحن»، ومفعوله محذوف، والجملة الفعلية في محل نصب خبر (كان)، وجملة: ﴿كُنَّا نَسْمَعُ﴾ لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي، وجملة: ﴿نَعْقِلُ﴾ مع مفعوله المحذوف معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿كُنَّا﴾: مثل سابقه. ﴿فِىٓ أَصْحَٰبِ﴾: متعلقان بمحذوف خبر ﴿كُنَّا﴾. و﴿أَصْحَٰبِ﴾: مضاف، و﴿ٱلسَّعِيرِ﴾: مضاف إليه، وجملة: ﴿مَا كُنَّا...﴾ إلخ جواب ﴿لَوْ﴾ لا محل لها، و(لو) ومدخولها في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿وَقَالُواْ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها.

﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾

الشرح: ﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ﴾: هذا الاعتراف هو نص الآية السابقة، فعن أبي البختر الطائي عن النبي ﷺ قال: «**لَنْ يَهلكَ الناسُ حتى يُعذروا من أنفسهم**». رواه الإمام أحمد. وفي حديث آخر قوله ﷺ: «**لا يدخلُ أحدٌ النارَ إلا وهو يعلمُ: أنَّ النارَ أولى بهِ منَ الجنَّةِ**». هذا؛ وإنما وحد (الذنب) وهو خبر عن جماعة؛ لأنه مصدر، والمصدر يخبر به عن المفرد، والمثنى، والجمع، والمذكر، والمؤنث. ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: فبعداً لهم من رحمة الله. وقال سعيد بن جبير، وأبو صالح: السحق: : وادٍ في جهنم، والبعد هو المعنى الصحيح له، ويكون بمعنى الهلاك. قال امرؤ القيس: [الطويل]

يَجُولُ بأَطْرافِ البِلادِ مُغَرِّباً وتَسْحَقُهُ رِيحُ الصَّبَا كُلَّ مَسْحَقِ

ولم يرد هذا اللفظ في غير هذه السورة، وورد في أحاديث الرسول ﷺ كثيراً.

منه قول النبي ﷺ: «**أَلَا ليُذَادَنَّ رجالٌ عنْ حوضي كما يُذادُ البعيرُ الضالُّ، فأناديهم: أَلَا هَلُمَّ، فيقالُ: إنهمْ قد بدَّلُوا بَعْدَكَ، فأقولُ: سُحقاً! سُحقاً!**».

هذا؛ و(أصحاب) جمع: صاحب، ويكون بمعنى المالك، كما في قولك: صاحب الدار، وصاحب المال، ونحوه، ويكون بمعنى الصديق، ويجمع أيضاً على: صحْب، وصحاب، وصحابة، وصحبة، وصحبان، ثم يجمع أصحاب على أصاحيب، ثم يخفف. فيقال: أصاحب، ولا تنس: أن الصحابي من اجتمع مع النبي ﷺ، ولو ساعة؛ وهو مؤمن، فالإيمان شرط لتسميته

صحابياً، فإن اجتمع به؛ وهو غير مؤمن؛ لا يقال عنه: صحابي؛ وإن آمن، وأسلم بعد وفاته ﷺ كالذي حصل من كعب الأحبار، وأمثاله.

﴿ٱلسَّعِيرِ﴾: النار الشديدة الاستعار؛ أي: الاحتراق، يقال: سعرت النار، فهي مسعورة، وسعير، مثل مقتولة، وقتيل، والسَّعِيرُ: وادٍ من أودية جهنم، أو دركة من دركاتها، وطبقاتها. والسُّعَيْر كزبير بصيغة المصغر: اسم صنم لبني عنزة، قال رُشَيْد بن رميض العنزي: [الوافر]

حَلَفْتُ بِمَائِراتٍ حَوْلَ عَوْضٍ وأنصابٍ تُركنَ لَدَى السُّعَيْرِ

ف: «عَوْضٌ» عندهم: صنم صغير، والسُّعَيْر: صنم كبير، وخرج ابن أبي حلاس الكلبي على ناقته، فمرت به على ذلك الصنم، وقد ذبحت عنده قبيلة عنزة، فنفرت ناقته من الصنم، فأنشأ يقول: [الكامل]

نَفَرَتْ قَلُوصِي مِنْ عَتَائِرَ صُرِّعَتْ حَوْلَ السُّعَيْرِ يَزُورُهُ ابنَا يَقْدُمِ
وجموعُ يَذكرَ مهطعين جنابَهُ مَا إنْ يُحِيرُ إِلَيْهِمُ بِتَكَلُّمِ

قال أبو المنذر: «يقدمُ» و«يذكرُ» ابنا عنزة، فرأى هؤلاء يطوفون حول السُّعَيْر. انتهى. بغدادي.

الإعراب: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ﴾: (الفاء): حرف استئناف. (اعترفوا): فعل ماض، وفاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية مستأنفة، وهي من مقول قول الله تعالى. ﴿بِذَنۢبِهِمۡ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿فَسُحۡقٗا﴾: (الفاء): حرف عطف. (سحقاً): فيه وجهان: أحدهما هو مفعول به لفعل محذوف، التقدير: ألزمهم الله سحقاً، والثاني: أنه مفعول مطلق لفعل محذوف أيضاً، التقدير: سحقهم الله سحقاً، فناب المصدر عن عامله في الدعاء، نحو: جدعاً له، وعقراً! فلا يجوز إظهار عامله. ﴿لِّأَصۡحَٰبِ﴾: متعلقان بـ: (سحقاً)، أو بمحذوف صفة له، و(أصحاب): مضاف، و﴿ٱلسَّعِيرِ﴾: مضاف إليه، واللام في: ﴿لِّأَصۡحَٰبِ﴾ للبيان، كما في هيت لك.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١٢﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: يخافون ربهم، ويطيعونه؛ ولم يروه، أو يخافونه في الخلوة بحيث لا يراهم أحد؛ إذا ألقوا الستر، وأغلقوا الباب. وفي حديث السبعة الذين يظلهم الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله: «**وَرَجُل ذكر الله خالياً، ففاضَتْ عَيْنَاهُ**». وروي عن العباس بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا اقشعرَّ جلدُ العبدِ منْ خشْيَةِ اللهِ؛ تحاتَّتْ عنهُ ذنوبُهُ كما يَتَحَاتُّ عنِ الشجرةِ اليابِسَةِ ورَقُهَا**». رواه البيهقي. وإن أردت الزيادة فانظر سورة (الرحمن) رقم [٤٦]. هذا؛ و(الغيب): ما غاب عن الإنسان، ولم تدركه حواسه. قال الشاعر: [الطويل]

وبِـالْـغَـيْـبِ آمَـنَّـا وَقَـدْ كـانَ قَـوْمُـنَـا يُـصَـلُّـونَ لِـلأَوْثَـانِ قَـبْـلَ مُـحَـمَّـدِ

ورحم الله من قال: [الطويل]

إذا مـا خـلـوتَ الـدهـرَ يـومـاً فـلا تَـقُـلْ خَـلَـوْتُ وَلَـكِـنْ قُـلْ عَـلَـيَّ رقـيـبُ

ولا تـحـسَـبـنَّ الله يـغـفـلُ سَـاعَـةً ولَا أَنَّ مـا يـخـفَـى عـلـيْـهِ يَـغِـيـبُ

ولا تنس: أن هذه الآية مقابلة لما ذكر في الآية رقم [٦] وما بعدها، والمقابلة من المحسنات البديعية اللفظية.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب اسمها. ﴿يَخْشَوْنَ﴾: فعل مضارع مرفوع... إلخ، والواو فاعله، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿رَبَّهُم﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من واو الجماعة. ﴿لَهُم﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل رفع خبر ﴿إِنَّ﴾. هذا؛ وإن اعتبرت الجار والمجرور متعلقين بمحذوف خبر ﴿إِنَّ﴾، و﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ فاعلاً بمتعلقهما؛ فلست مفنداً. ﴿وَأَجْرٌ﴾: الواو: حرف عطف. (أجر): معطوف على ما قبله. ﴿كَبِيرٌ﴾: صفة له، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ...﴾ إلخ مبتدأة، أو مستأنفة، لا محل لها.

﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾

الشرح: ظاهر الأمر بأحد الأمرين: الإسرار أو الإجهار، ومعنى الكلام الخبر، والإخبار؛ أي: إسراركم، وإجهاركم في علم الله بهما سواء. فقد روي: أن مشركي مكة كانوا ينالون من رسول الله ﷺ، فيخبره جبريل عليه السلام بما قالوه فيه، ونالوا منه، فقالوا فيما بينهم: أسروا قولكم لئلا يسمع محمد، فنزلت، وبين الله عز وجل: أنه عليم بما تخفي الصدور، وتكنه الضمائر قبل أن تتكلم به الألسنة، وتترجم عنه، فكيف لا يعلم ذلك؟! وينبغي أن تعلم: أن الخطاب يعم الخلق أجمعين إلى يوم القيامة؛ لأن خصوص السبب لا يمنع التعميم، كما قد قررته مراراً. و(ذات الصدور) ما فيها، كما يسمى ولد المرأة؛ وهو جنين: (ذا بطنها) أي: صاحب بطنها. ولا تنس الطباق بين الإسرار، والجهر.

هذا؛ و(ذات) بمعنى: صاحبة، فجعلت صاحبة الصدور؛ لملازمتها لها، وعدم انفكاكها عنها، نحو قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ ﴿أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾. هذا؛ و(ذات) مؤنث: ذو، الذي بمعنى صاحب، قال تعالى في سورة (البروج): ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ وقال تعالى في سورة (الطارق): ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾. وقد يثنى على لفظه، فيقال: «ذَاتَا» كذا من غير رد لام

الكلمة، وهو القياس، كما يثنى ذو بـ: ذوَا، أو ذوَيْ على لفظه، ويجوز فيها: (ذَوَاتَا) على الأصل برد لام الكلمة، وهو القياس، وهي الياء ألفاً لتحرك العين، وهو الواو قبلها، وهو الكثير في الاستعمال، قال تعالى في سورة (الرحمن) رقم [٤٨]: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾، وقال تعالى: ﴿ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ رقم [١٦] من سورة (سبأ). هذا؛ والتاء في (ذات) لتأنيث اللفظ، مثل تاء ثُمَّتْ، ورُبَّتْ، ولاتَ، ولكنها تعرب بالحركات الظاهرة على التاء، فالجر كما في الآية الكريمة، ومثلها كثير، والرفع جاء في قوله تعالى في سورة (الرحمن) رقم [١١]: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾، والنصب جاء في قوله تعالى في سورة (المسد): ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾، وكل معانيها في القرآن الكريم صاحبة إلا في موضعين، فإنها جاءت بمعنى الجهة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ سورة (الكهف) رقم [١٨] وقد رأيت تثنيتها في الآيتين المذكورتين في حالتي النصب، والجر، ولم ترد في القرآن الكريم بمعنى الجمع. هذا؛ ولم يتعرض لها النحويون بهذا المعنى مع كثرة تعرضهم لـ: «ذي» بمعنى صاحب، وتثنيته، وجمعه، ولكنهم ذكروا (ذات) بمعنى: التي، و(ذوات) بمعنى: اللواتي، وذلك في بحث الاسم الموصول. قال ابن مالك ـ رحمه الله تعالى ـ في ألفيته: [الرجز]

وَكَالَّتِي أَيْضاً لَدَيْهِمْ ذَاتُ ... وَمَوْضِعُ اللَّاتِي أَتَى ذَوَاتُ

قال الأشموني ـ رحمه الله تعالى ـ: أي: عند طيئ ألحقوا بـ: «ذو» تاء التأنيث مع بقاء البناء على الضم. وحكى الفراء: (بالفضلِ ذُو فضّلكم اللهُ بِهْ، والكرامةِ ذاتُ أكرمكمُ اللهُ بِها) وقريب منه لابن هشام في أوضحه، وكلاهما أورد بيت رؤبة: [الرجز]

جَمَعْتُهَا مِنْ أَيْنُقٍ موارِقِ ... ذواتُ ينهضْنَ بِغَيْرِ سَائِقِ

والفرق بين الأول، والثانية: أن الأولى لا تكون إلا مضافة لما بعدها، كما رأيت، بخلاف الثانية؛ فإنها لا تضاف؛ لأنها معرفة بالصلة؛ التي تذكر بعدها، كما في بيت رؤبة. وأضيف: أن جمع ذات ذوات من لفظه، كما يجمع أولات من غير لفظه، قال تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ رقم [٤] من سورة (الطلاق) كما يجمع المذكر (ذو) بمعنى صاحب: (أولو) من غير لفظه، وهو كثير في القرآن الكريم. تنبه لهذا، وافهمه. فإنه معنى دقيق. واسأل الله لي المزيد من التوفيق.

الإعراب: ﴿وَأَسِرُّواْ﴾: (الواو): حرف استئناف (أسروا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿قَوْلَكُمْ﴾: مفعول به، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة المصدر لفاعله، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها، والتي بعدها معطوفة عليها، لا محل لها مثلها. ﴿إِنَّهُۥ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿عَلِيمٌۢ﴾: خبرها، والجملة الاسمية تعليلية، لا محل لها. ﴿بِذَاتِ﴾: متعلقان بعليم، و(ذات) مضاف، و﴿ٱلصُّدُورِ﴾ مضاف إليه.

﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾

الشرح: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ﴾: ألا يعلم من أوجد الأشياء حسبما قدرت حكمته وإرادته. انتهى. بيضاوي، وقال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: يعني: ألا يعلم السر من خلق السر، يقول: أنا خلقت السر في القلب، أفلا أكون عالماً بما في قلوب العباد؟! وقال أهل المعاني: إن شئت جعلت ﴿مَنۡ﴾ اسماً للخالق جل وعز، ويكون المعنى: ألا يعلم الخالق خلقه، وإن شئت جعلته اسماً للمخلوق والمعنى: ألا يعلم الله مَن خلق، ولا بد أن يكون الخالق عالماً بما خلقه، وما يخلقه. قال ابن المسيب ـ رحمه الله تعالى ـ: بينما رجل واقف بالليل في شجر كثير، وقد عصفت الريح، فوقع في نفس الرجل: أترى الله يعلم ما يسقط من هذا الورق؟! فنودي من جانب الغيضة بصوت عظيم: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾. ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ﴾: العالم بدقائق الأشياء. ﴿ٱلۡخَبِيرُ﴾: العالم بحقائق الأشياء وخبير بحاجات العباد، وفاقتهم، وخبير بما في قلوب العباد، وخبير بما يسرون، وبما يعلنون. وفيه إثبات خلق الأقوال، فيكون دليلاً على خلق أفعال العباد.

الإعراب: ﴿أَلَا﴾: حرف استفتاح يسترعي انتباه المخاطب لما يأتي بعده من كلام. ﴿يَعۡلَمُ﴾: فعل مضارع. ﴿مَنۡ﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع فاعل، والمفعول محذوف للتعميم. ﴿خَلَقَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿مَنۡ﴾، وهو العائد، والجملة الفعلية صلة الموصول، والمفعول محذوف، التقدير، خلق الخلق. هذا؛ وعلى اعتبار فاعل ﴿يَعۡلَمُ﴾ عائداً على الله، تقديره: هو، فيكون ﴿مَنۡ﴾ مفعولاً به، ويكون فاعل ﴿خَلَقَ﴾ عائداً عليه أيضاً، ويكون مفعول ﴿خَلَقَ﴾ ضميراً محذوفاً، التقدير: خلقه، وهو العائد، والجملة الاسمية: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ في محل نصب حال من فاعل ﴿يَعۡلَمُ﴾ على الوجهين المعتبرين فيه. والرابط: الواو، والضمير.

هذا؛ ولم يرتضِ مكي اعتبار ﴿مَنۡ﴾ مفعولاً به، وشدد النكير على من قال به، حيث قال: وقد قال بعض أهل الزيغ: إن (مَنْ) في موضع نصب اسم للمسرين، والجاهرين، ليخرج الكلام عن عمومه، ويدفع عموم الخلق عن الله، جل ذكره، ولو كان كما زعم، لقال: ألا يعلم ما خلق؛ لأنه إنما تقدم ذكر ما تكن الصدور، فهو في موضع (ما). انتهى باختصار.

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ١٥﴾

الشرح: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا﴾ أي: سهلة تستقرون عليها. والذلول: المنقاد من كل شيء، وهو صيغة مبالغة، يستوي فيه المذكر، والمؤنث. والمعنى: جعلها لكم سهلة لا يمتنع فيها المشي، لحزونتها، وغلظها. وقيل: أي: ثبتها بالجبال؛ لئلا تزول بأهلها، ولو كانت

تميد، وتتكفأ؛ لما كانت منقادة لنا، ولما استطعنا الانتفاع بها بالزرع، والغرس، وشق العيون، والأنهار، وحفر الآبار.

﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ أي: في نواحيها، وجهاتها، وأطرافها. وقيل: طرقها، وفجاجها. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: جبالها، وآكامها. ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾ أي: الذي خلقه الله لكم في الأرض على اختلاف أنواعه، وتفاوت طعومه، وألوانه، وأشكاله. ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: وإليه تبعثون من قبوركم، فيسألكم عن شكر ما أنعم به عليكم.

هذا؛ وفي الآية الكريمة حث على طلب الرزق، والسعي في تحصيله، وهو لا ينافي التوكل، والأمر في الجملتين للإباحة، أو للندب، كيف لا؛ والرسول ﷺ قد رغب، بل وحث على العمل والسعي في طلب الرزق، فمن ذلك قوله ﷺ: «**إنَّ اللهَ يُحِبُّ المؤمِنَ المحترِفَ**». رواه الطبراني عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ. وقوله ﷺ أيضاً: «**مَنْ أمسى كالّاً مِن عملِ يدِهِ أمسىٰ مَغْفُوراً لَهُ**». رواه الطبراني عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ. وقد مر عمر ـ رضي الله عنه ـ بقوم جالسين، فقال: مَنْ أنتم؟ فقالوا: نحنُ المتوكلون، فقال: بل أنتم المتواكلون، إنما المتوكِّلُ مَنْ أَلْقَى حَبَّهُ في بَطْنِ الأرضِ، وتوكَّلَ على ربِّهِ، عز وجلَّ. وروي: أنه دخل المسجد في غير وقت صلاة، فوجد رجلاً جالساً في المسجد، فسأله: ماذا تعمل؟ فقال: أذكر الله، فعلاه بالدِّرَّة، وقال: لا يقعدنَّ أحدُكم عن طلبِ الرزقِ؛ ويقول: اللهم ارزقني، فإن السماءَ لا تمطر ذهَباً، والأرضَ لا تنبت فضةً!

وقال الرسول ﷺ: «**لَوْ أنكمْ تتوكَّلُونَ على الله حقَّ توكُّلِهِ؛ لرزقكم كما يَرْزُقُ الطيرَ، تغدُو خِماصاً، وتروحُ بِطَاناً**». رواه أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ. ولعلك تدرك معي: أن قوله ﷺ: «**تَغْدُو، وتَرُوحُ**» دليل على السعي، والكسب، فهي لم تبق في أعشاشها؛ ويرزقها الله، بل خرجت منها صباحاً تبحث عنه. وهو معلوم لدى كل عاقل.

الإعراب: ﴿هُوَ﴾: ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿ٱلَّذِي﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مبتدأة، أو مستأنفة، لا محل لها على الاعتبارين. ﴿جَعَلَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلَّذِي﴾ وهو العائد، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿لَكُمُ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما وقيل: متعلقان بـ: ﴿ذَلُولٗا﴾ ولا وجه له. ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾: مفعول به أول. ﴿ذَلُولٗا﴾: مفعول به ثان على اعتبار الفعل من أفعال التحويل بمعنى صَيَّر، وحال إن كان ﴿جَعَلَ﴾ بمعنى: خلق. ﴿فَٱمۡشُواْ﴾: (الفاء): حرف عطف على رأي: من يجيز عطف الإنشاء على الخبر، وابن هشام يعتبرها للسببية المحضة، وأراها الفصيحة؛ لأنها تفصح عن شرط يقدر بـ: «إذا». (امشوا): فعل

أمر مبني على حذف النون؛ لأن مضارعه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محل لها على جميع الوجوه المعتبرة في الفاء. ﴿فِي مَنَاكِبِهَا﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، و(ها): في محل جر بالإضافة. ﴿وَكُلُواْ﴾: الواو: حرف عطف. (كلوا): أمر، وفاعله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿مِن رِّزْقِهِۦ﴾: متعلقان بما قبلهما، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿وَإِلَيْهِ﴾: (الواو): واو الحال. (إليه): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿ٱلنُّشُورُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل نصب حال من الضمير المجرور محلاً بالإضافة، العائد على الموصول. والرابط: الواو، والضمير.

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾

الشرح: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: المعنى: أأمنتم عذاب من في السماء؛ إن عصيتموه. وقيل: تقديره: أأمنتم من في السماء قدرته، وسلطانه، وعرشه، ومملكته؛ وخص السماء لأن السماء مسكن ملائكته، ومنها تنزل قضاياه، وكتبه، وأوامره، ونواهيه. أو المراد: الملائكة الموكلون على تدبير هذا العالم، أو المراد: الله جلت قدرته. وهذا؛ لأنهم كانوا يعتقدون التشبيه، وأنه في السماء، وأن الرحمة، والعذاب ينزلان منه، فقيل لهم على حسب اعتقادهم: أأمنتم من تزعمون: أنه في السماء، وهو ـ جلت قدرته ـ متعال، ومنزه عن المكان. ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾: كما خسفها بقارون، فذاق وبال أمره، وكانت عاقبة أمره خسراً. هذا؛ والخسف انهيار الأرض بالشيء، وخسف المكان ذهب في الأرض، وبابه جلس، وخسف الله به الأرض من باب: ضرب، أي: غاب به فيها، وخسوف القمر ذهاب ضوئه. هذا؛ والخسف: النقصان، والخسف: الذلة والمهانة، والحقارة. قال الشاعر: [البسيط]

وَلَا يُقِيمُ عَلَى ضَيْمٍ يُرَادُ بِهِ ... إِلَّا الأَذَلَّانِ عَيْرُ الحَيِّ وَالْوَتِدُ
هَذَا عَلَى الخَسْفِ مربوطٌ برُمَّتِهِ ... وَذَا يُشَجُّ فَلَا يَرْثِي لَهُ أَحَدُ

وقال عمرو بن كلثوم في معلقته رقم [١٠٨]: [الوافر]

إِذَا ما المَلْكُ سَامَ النَاسَ خَسْفاً ... أَبَيْنَا أَنْ نُقِرَّ الْخَسْفَ فِينَا

﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ أي: تضطرب، وتتحرك. والمور: الاضطراب بالذهاب، والمجيء. قال الشاعر: [الطويل]

رَمَيْنَ فَأَقْصَدْنَ القلوبَ وَلَنْ تَرىَ ... دَماً مَائِراً إِلَّا جرَى في الحَيَازِمِ

جمع: حيزوم، وهو وسط الصَّدر، وانظر ما ذكرته في سورة (الطور) رقم [٩].

فائدة: يوصف الله بالعلو، والعظمة، لا بالأماكن، والجهات، والحدود؛ لأنها صفات الأجسام، وإنما ترفع الأيدي بالدعاء إلى السماء؛ لأنها مهبط الوحي، ومنزل القطر، ومحل القدس، ومعدن المطهرين من الملائكة، وإليها ترفع أعمال العباد، وفوقها عرشه، وجنته، كما جعل الله الكعبة قبلة للدعاء، والصلاة، ولأنه خلق الأمكنة؛ وهو غير محتاج إليها، وكان في أزله قبل خلق المكان، والزمان، ولا مكان له، ولا زمان، وهو الآن على ما عليه كان. انتهى. قرطبي.

الإعراب: ﴿ءَأَمِنتُم﴾: (الهمزة): حرف استفهام مفيد للوعيد، والتهديد. (أمنْتُم): فعل، وفاعل، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿مَّن﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلقان بمحذوف صلة الموصول. التقدير: ثبت، واستقر سلطانه، وقدرته... إلخ. ﴿أَن﴾: حرف مصدري، ونصب. ﴿يَخۡسِفَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ: ﴿أَن﴾، والفاعل يعود إلى ﴿مَّن﴾، والمصدر المؤول في محل نصب بدل مِنْ ﴿مَّن﴾ بدل اشتمال. ﴿بِكُمُ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾: مفعول به. ﴿فَإِذَا﴾: (الفاء): حرف عطف، وتعقيب. وخذ ما قاله السيوطي ـ رحمه الله تعالى ـ فيها: اختلف في هذه الفاء، فقال المازني: هي زائدة لازمة للتأكيد؛ لأن «إذا» الفجائية فيها معنى الإتباع، ولذا وقعت في جواب الشرط موقع الفاء، وهذا ما اختاره ابن جني. وقال مَبْرُمان: هي عاطفة لجملة: (إذا) ومدخولها على الجملة قبلها. واختاره الشلوبين الصغير، وأيده أبو حيان بوقوع «ثم» موقعها في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ﴾. وقال الزجاج: دخلت على حد دخولها في جواب الشرط. انتهى. أي: فهي للسببية المحضة، وفي مغني اللبيب نحو هذا.

(إذا): كلمة دالة على المفاجأة هنا، وهي تختص بالدخول على الجمل الاسمية، ولا تحتاج إلى جواب، ولا تقع في الابتداء، ومعناها الحال لا الاستقبال، نحو خرجت فإذا الأسد بالباب، وهي حرف عند الأخفش، وابن مالك. ويرجحه: (خرجت فإذَا إنَّ زيداً بالباب)؛ لأن (إنَّ) لا يعمل ما بعدها فيما قبلها. وظرف مكان عند المبرد، وابن عصفور، وظرف زمان عند الزجاج، والزمخشري، وزعم الأخير: أن عاملها فعل مشتق من لفظ المفاجأة، ولا يعرف هذا لغير الزمخشري، وإنما ناصبها عندهم الخبر المذكور في نحو: (خرجت فإذَا زَيْدٌ جَالِسٌ) والمقدر في نحو: (فإذا الأَسَدُ). أي: حاضر، وإذا قدرت: أنها الخبر؛ فعاملها: مستقر، أو استقر. ولم يقع الخبر معها في التنزيل إلا مصرحاً به. انتهى. ملخصاً من مغني اللبيب.

وعلى اعتبارها ظرف مكان، أو زمان، فهي هنا متعلقة بالفعل ﴿تَمُورُ﴾. ﴿هِيَ﴾: ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿تَمُورُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿هِيَ﴾ العائد بدوره إلى الأرض. والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: ﴿هِيَ تَمُورُ﴾ معطوفة على ما قبلها.

﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾

الشرح: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾: هو مثل الآية السابقة بلا فارق. ﴿أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي: حجارة من السماء كما أرسلها على قوم لوط، وأصحاب الفيل. وقيل: ريح فيها حجارة، وحصباء. وقيل: سحاب فيه حجارة. ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾: عند معاينة العذاب، أو عند الموت. ﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي: إذا رأيتم ذلك؛ علمتم كيف نتيجة إنذاري حين لا ينفعكم العلم به. وقيل: النذير بمعنى المنذر، يعني: محمداً ﷺ، فستعلمون صدقه، وعاقبة تكذيبكم. وخذ قوله تعالى في سورة (الإسراء) رقم [٦٨]: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ انظر شرحها هناك.

الإعراب: ﴿أَمْ﴾: حرف عطف، بمعنى: «بل» الانتقالية. وقيل: للإضراب. ﴿أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾: إعراب هذا الكلام مثل سابقه بلا فارق. ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾: (الفاء): حرف استئناف. وقيل: الفصيحة. ولا وجه له قطعاً. السين: حرف تنفيس، واستقبال (تعلمون): فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله، وهو معلق عن العمل لفظاً بسبب الاستفهام. ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام مبني على الفتح في محل رفع خبر مقدم. ﴿نَذِيرِ﴾: مبتدأ مؤخر مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف، منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة، والياء في محل جر بالإضافة، والجملة الاسمية: ﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾ في محل نصب سدت مسد مفعول تعلمون، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾

الشرح: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: من قبل أهل مكة، والمراد: كفار الأمم الماضية قبلهم كقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وأصحاب مدين، وأصحاب الرسِّ، وقوم فرعون. ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: فكيف كان إنكاري عليهم بنزول العذاب؟ ألم يكن في غاية الهول، والفظاعة؟! وفيه تهديد، ووعيد لكفار قريش، وتسلية لسيد الخلق، وحبيب الحق ﷺ.

الإعراب: ﴿وَلَقَدْ﴾: الواو: واو القسم، واللام واقعة في جواب القسم. (قد): حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿كَذَّبَ﴾: فعل ماضي. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع فاعل، والمفعول محذوف، كما رأيتَ في الشرح، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها. وانظر الآية رقم [٥] ففيها الكفاية. ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صلة الموصول، التقدير: الذين وجدوا من قبلهم، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿فَكَيْفَ﴾: (الفاء): هي الفصيحة، وانظر الآية رقم [١٥]. (كيف): اسم استفهام مبني على الفتح في محل نصب خبر

﴿كَانَ﴾ تقدم عليها، وعلى اسمها. ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص. ﴿نَكِيرِ﴾: اسم ﴿كَانَ﴾ مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف، منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة، والجملة الفعلية لا محل لها على جميع الوجوه المعتبرة بالفاء، والقسم وجوابه: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ كلام مستأنف، لا محل له.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

الشرح: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ أي: أهل مكة، وغيرهم. ﴿إِلَى ٱلطَّيْرِ﴾: هو اسم جمع مثل: غنم، وخيل. وقيل: بل هو جمع: طائر، مثل: صحب، وصاحب، ويصح إطلاقه على المفرد، والمثنى، والجمع، وجمع الطير: طيور، وأطيار، مثل: فرخ، وفروخ، وأفراخ. وقال قطرب، وأبو عبيدة: الطير قد يقع أيضاً على الواحد، كما في قوله تعالى حكاية عن قول عيسى ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ: ﴿فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وطائر الإنسان: عمله الذي قلده، قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ والطير أيضاً اسم من التطير، ومنه قولهم: (لَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُ اللهِ) كَمَا يُقَالُ: (لا أَمْرَ إلا أَمْرُ اللهِ).

﴿فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ﴾: باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانها؛ لأنهن إذا بسطنها؛ صففن قوائمهن صفاً، والمعنى: كما ذلل الأرض للآدمي؛ ذلل الهواء للطيور.

﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ أي: يضممن أجنحتهن إذا ضربن بهن جنوبهن بعد البسط. قال أبو جعفر النحاس: يقال للطائر إذا بسط جناحيه: صاف، وإذا ضمهما فأصابا جنبه: قابض؛ لأنه يقبضهما. قال أبو خراش: [الطويل]

يُبَادِرُ جُنْحَ اللَّيْلِ فَهْوَ مُوَائِلٌ يَحُثُّ الجناحَ بِالتَّبَسُّطِ وَالْقَبْضِ

وقيل: ويقبضن أجنحتها بعد بسطها؛ إذا وقفن من الطيران. ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾: ما يمسك الطير حال القبض، والبسط، وهي تطير في الجو إلا الله عز وجل. والمعنى: أن الطير مع ثقلها وضخامة أجسامها لم يكن بقاؤها، وثبوتها في الهواء إلا بإمساك الله عز وجل إياها، وحفظه لها.

هذا؛ و(يقبضن) معطوف على اسم الفاعل: ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ حملاً على المعنى، أي: يصففن، ويقبضن. أو صافات، وقابضات، واختيار هذا التركيب باعتبار: أن أصل الطيران هو صف الأجنحة؛ لأن الطيران في الهواء، كالسباحة في الماء، والهواء للطائر كالماء للسابح، والأصل في السباحة مد الأطراف، وبسطها، وأما القبض فطارئ على البسط، للاستظهار به على التحرك، فجيء بما هو طارئ بلفظ الفعل على معنى أنهن صافات، ويكون منهن القبض تارة، بعد تارة كما يكون من السابح. انتهى. نسفي.

تنبيه: قال ابن عقيل ـ رحمه الله تعالى ـ: يجوز أن يعطف الفعل على الاسم المشبه للفعل كاسم الفاعل، ونحوه، ويجوز أيضاً عكس هذا، وهو أن يعطف على الفعل الواقع موقع الاسم اسم، فمن الأول قوله تعالى في سورة (العاديات): ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾. وجعل منه قوله تعالى في سورة (الحديد) رقم [١٨]: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ ومن الثاني قول الشاعر: [الطويل]

فَأَلْفَيْتُهُ يَوْماً يُبِيرُ عَدُوَّهُ ... ومُجْرٍ عَطَاءً يستحقُّ المعابِرَا

ف: «مُجْرٍ» معطوف على جملة «يبير» الواقعة صفة: «يوماً»؛ إذ التقدير: فألفيته مبيراً، ومجرياً. وقد حذف ياء المنقوص في حالة النصب، كحذفها في حالتي الجر، والرفع، وأيضاً قول الشاعر: [الرجز]

بَاتَ يُعَشِّيهَا بعضبٍ باتِرِ ... يَقْصِدُ في أسْوُقِهَا وجائِرِ

إذ التقدير: بعضبٍ باترٍ قاصدٍ وجائرٍ. ولم يذكر ابن عقيل الآية التي نحن بصدد شرحها، ويشبهها قوله تعالى في سورة (ص): ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ۝١٨ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ وقول ابن عقيل المتقدم، إنما هو شرح قول ابن مالك ـ رحمه الله تعالى ـ في ألفيته: [الرجز]

واعْطِفْ علَى اسمٍ شِبْهَ فعلٍ فعلا ... وعكْساً اسْتَعْمِلْ تَجِدْهُ سَهْلا

الإعراب: ﴿أَوَلَمْ﴾: (الهمزة): حرف استفهام إنكاري توبيخي. (الواو): حرف استئناف، ويقال: عاطفة على محذوف. (لم): حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿يَرَوْاْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: (لم)، وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿إِلَى ٱلطَّيْرِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محل نصب مفعول به. ﴿فَوْقَهُمْ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف حال من الطير، أو هو متعلق بـ: ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾، و(الهاء) في محل جر بالإضافة. ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾: حال ثانية من (الطير) منصوب، وعلامة نصبة الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم. ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾: الواو: حرف عطف. (يقبضن): فعل مضارع مبني على السكون، ونون النسوة فاعله، والمفعول محذوف. والجملة الفعلية في محل نصب معطوفة على ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾، والكلام: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ...﴾ إلخ مستأنف، لا محل له.

﴿مَا﴾: نافية. ﴿يُمْسِكُهُنَّ﴾: فعل مضارع مرفوع، و(الهاء) مفعول به، والنون حرف دال على جماعة الإناث. ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها، أو هي في محل نصب حال أخرى من ﴿ٱلطَّيْرِ﴾ أو نون النسوة، فتكون حالاً متداخلة. ﴿إِنَّهُۥ﴾: حرف مشبه بالفعل، و(الهاء) اسمه. ﴿بِكُلِّ﴾: جار ومجرور متعلقان بما بعدهما، و(كل) مضاف، و﴿شَيْءٍ﴾ مضاف إليه. ﴿بَصِيرٌ﴾: خبر (إن)، والجملة الاسمية تعليلية، أو مستأنفة، لا محل لها.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾

الشرح: ﴿أَمَّنْ...﴾ إلخ أي: من هذا الذي يستطيع أن يدفع عنكم عذاب الله من الأنصار، والأعوان؟!، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أي: من ينصركم مني إن أردت عذابكم؟! والخطاب لأهل مكة، ويعم كل مخاطبٍ عاصٍ مخالف لأوامر الله تعالى إلى يوم القيامة. قال تعالى في حق قارون؛ الذي خسف به، وبداره الأرض: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ رقم [٨١] من سورة (القصص). ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ أي: ما الكافرون في اعتقادهم: أن آلهتهم تنفع، أو تضر إلا في جهل عظيم، وضلال مبين؛ حيث ظنوا الأوهام حقائق، فاعتزوا بالأوثان، والأصنام من دون الله، عز وجل.

هذا؛ وعند التأمل يظهر لك كثرة الالتفات في هذه الآيات، وذلك من الغيبة في الآية السابقة إلى الخطاب في هذه الآية، ثم إلى الغيبة بقوله: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ ثم إلى الخطاب بقوله: ﴿يَرْزُقُكُمْ﴾ ثم إلى الغيبة بقوله: ﴿بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾. وللالتفات فوائد كثيرة: منها: تطرية الكلام، وصيانة السمع عند الضجر، والملال؛ لما جبلت عليه النفوس من حب التنقلات، والسآمة من الاستمرار على منوال واحد. هذه فوائده العامة، ويختص كل موضع بنكت، ولطائف باختلاف محله، كما هو مقرر في علم البديع. ووجهه: حث السامع، وبعثه على الاستماع؛ حيث أقبل المتكلم عليه، وأعطاه فضل عنايته، وخصه بالمواجهة.

الإعراب: ﴿أَمَّنْ﴾: (أم): حرف عطف بمعنى: «بل». (مَنْ): اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿هَٰذَا﴾: (الهاء): حرف تنبيه. (ذا): اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع خبر المبتدأ. ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع بدل من اسم الإشارة، والجملة الاسمية: ﴿هُوَ جُندٌ﴾ صلة الموصول، لا محل لها. ﴿لَّكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة ﴿جُندٌ﴾. ﴿يَنصُرُكُم﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿جُندٌ﴾، والكاف مفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع صفة ثانية لـ: ﴿جُندٌ﴾، أو في محل نصب حال منه بعد وصفه بالجار والمجرور. ﴿مِّن دُونِ﴾: متعلقان بما قبلهما. وقيل: متعلقان بمحذوف حال. ولا وجه له. و﴿دُونِ﴾: مضاف، و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾: مضاف إليه. ﴿إِنِ﴾: حرف نفي بمعنى: «ما». ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: مبتدأ مرفوع، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمة... إلخ. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿فِى غُرُورٍ﴾: متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها وهي معترضة بين المتعاطفين.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾

الشرح: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى...﴾ إلخ: المعنى: أم مَن يشار إليه، ويقال: هذا الذي يرزقكم، إن أمسك الله رزقه بحبس المطر، ومنع منافع الدنيا؟ بل لو كان الرزق موجوداً كثيراً سهل التناول،

فوضع الآكل لقمة في فيه، فأمسك الله عنه قوة الازدراد؛ لعجز أهل السموات، والأرض عن أن يسوغوه تلك اللقمة. انتهى. جمل نقلاً عن الخطيب. وقل مثله في الماء. روي: أن هارون الرشيد طلب ماءً ليشربه، فجيء له بقدح فيه ماء، فوضعه على فيه. فقال له عالم جليل: أسألك يا أمير المؤمنين بحرمة جدك العباس: لو منعت قدح الماء فبكم تشتريه؟ قال: بملكي كله، فقال العالم الجليل: تباً لملك لا يساوي قدح ماء. ويجوز أن يكون إشارة إلى جميع الأوثان لاعتقادهم: أنهم يحفظون من النوائب، ويرزقون ببركة آلهتهم، فكأنهم الجند الناصر، والرازق. ﴿بَل لَّجُّواْ﴾ تمادوا، وأصروا. ﴿فِى عُتُوٍّ﴾: في طغيان، وعناد، وتكبر. ﴿وَنُفُورٍ﴾: تباعد عن الحق، وعدم انصياع له؛ لثقله عليهم، فلم يتبعوه، ولم يقبلوه، ولم يسمعوه سماع قبول.

تنبيه: قال المفسرون: كان الكفار يمتنعون عن الإيمان، ويعاندون رسول الله ﷺ معتمدين على شيئين: أحدهما: قوتهم بأموالهم، وعددهم، والثاني: اعتقادهم: أن الأوثان توصل إليهم جميع الخيرات، وتدفع عنهم جميع الآفات، فأبطل الله عليهم الأول بقوله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ...﴾ إلخ. ورد عليهم الثاني بقوله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ...﴾ إلخ انتهى. جمل نقلاً عن الخطيب.

الإعراب: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى﴾: إعرابه مثل إعراب سابقه بلا فارق. ﴿يَرْزُقُكُمْ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلَّذِى﴾ وهو العائد، والكاف مفعول به أول، والمفعول الثاني محذوف؛ لأن «رزق» بمعنى: أعطى، ومنح، فهو ينصب مفعولين، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها، والكلام: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا...﴾ إلخ معطوف على ما قبله، لا محل له مثله، الأول بالاستئناف، والثاني بالإتباع. ﴿إِنْ﴾: حرف شرط جازم ﴿أَمْسَكَ﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (الله) تعالى. ﴿رِزْقَهُۥ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه. ﴿بَل﴾: حرف عطف، وانتقال. ﴿لَّجُّواْ﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، أو مستأنفة، لا محل لها على الاعتبارين. ﴿فِى عُتُوٍّ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿وَنُفُورٍ﴾: الواو: حرف عطف. (نفور): معطوف على ما قبله.

﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾

الشرح: ضرب الله في هذه الآية مثلاً للمؤمن، والكافر، فالكافر مثله فيما هو من الضلالة كمثل من يمشي مكباً على وجهه، أي: منحنياً لا مستوياً، لا يدري أين يسلك، ولا كيف يذهب؟ فهو تائه حائر ضال، والمؤمن يمشي منتصب القامة، على طريق واضح بين، أيهما أهدى سبيلاً أهذا أم ذاك؟ انتهى. مختصر ابن كثير. ثم قال: هذا مثلهم في الدنيا، وكذلك

يكونون في الآخرة، فالمؤمن يحشر يمشي سوياً على صراط مستقيم، مفض به إلى الجنة الفيحاء، وأما الكافر فإنه يحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنم. انتهى. هذا؛ وخذ قوله عز وجل في سورة (الإسراء) رقم [٧٢]: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾، وقوله فيها أيضاً رقم [٩٧]: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾، وقوله في سورة (الفرقان) رقم [٣٤]: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ انظر شرح هذه الآيات في محالها، تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

هذا؛ و﴿مُكِبًّا﴾ اسم فاعل من: أكب الرباعي، وهو لازم بينما يكون متعدياً من الثلاثي، قال امرؤ القيس ـ وهو الشاهد رقم [٣٥٦] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [المتقارب]

لَهَا مَتْنَتَانِ خَظَاتَا كَمَا أَكَبَّ عَلَى سَاعِدَيْهِ النَّمِرْ

وهو خارج عن قاعدة تعدية اللازم بالهمزة، كما في قولك: ذهب زيد، وأذهب زيد عمراً، وخرج، وأخرج. ومثله: أنزفت البئر، ونزفتها أنا، وأنسل ريش الطائر، ونسلته أنا. ومن المتعدي بدون همز قول النبي ﷺ، من حديث معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ الطويل، وهو مشهور: «**وهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ في النَّارِ على وُجُوهِهِمْ إلا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ**». وقد أخرجه أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وأيضاً قوله ﷺ: «**مَنْ وَلِيَ أمةً مِنْ أُمَّتِي، قَلَّتْ، أو كَثُرَتْ، فلَمْ يَعْدِلْ فيهِمْ؛ كبَّهُ اللهُ عَلَى وجهِهِ فِي النَّارِ**». رواه الطبراني، والحاكم عن معقل بن يسار ـ رضي الله عنه ـ.

﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: على طريق ثابت، والصراط: الطريق، وهو يستعار للدين القويم، كما في صدر سورة (يس)، وكما في سورة (الفاتحة) وسمي الدين: طريقاً؛ لأنه يؤدي إلى الجنة، فهو طريق إليها، وهو يقرأ بالصاد، والسين، والزاي، ويذكر ويؤنث، والأول أكثر. هذا؛ وأصل ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾: مُسْتَقْوِم؛ لأنه من: استقام، وهو أجوف، واوي، فقل في إعلاله: اجتمع معنا حرف صحيح ساكن وحرف علة متحرك، والحرف الصحيح أولى بالحركة من حرف العلة، فنقلت حركة الواو إلى القاف بعد سلب سكونها، ثم قلبت الواو ياءً لمناسبة الكسرة، فصار ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾. بعد هذا لا تنس الاستعارة التمثيلية في الآية الكريمة؛ حيث يمشي المؤمن في حياته وبعد مماته على صراط مستقيم، والكافر يمشي ويتعثر في الدنيا، وفي الآخرة يسحب على وجهه إلى طريق الجحيم، ما أحسنها، وما أروعها من استعارة!

حيث شبه المؤمن في تمسكه بالدين الحق، ومشيه على منهاجه بمن يمشي في الطريق المعتدل، الذي ليس فيه ما يتعثر به، وشبه الكافر في ركوبه، ومشيه على الدين الباطل بمن يمشي في الطريق، الذي فيه حفر، وارتفاع، وانخفاض، فيتعثر، ويسقط على وجهه، كلما تخلص من عثرة؛ وقع في أخرى، فالمذكور في الآية هو المشبه به، والمشبه محذوف، لدلالة السياق عليه.

الإعراب: ﴿أَفَمَن﴾: (الهمزة): حرف استفهام توبيخي. (الفاء): حرف استئناف، أو هي عاطفة على محذوف. (مَنْ): اسم موصول مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يَمْشِى﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل يعود إلى (مَنْ) وهو العائد، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿مُكِبًّا﴾: حال من الفاعل المستتر. ﴿عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾: متعلقان بـ: ﴿مُكِبًّا﴾، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿أَهْدَىٰٓ﴾: خبر المبتدأ مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر، والجملة الاسمية لا محل لها على الوجهين المعتبرين بالفاء. ﴿أَمَّن﴾: (أم): حرف عطف. (مَنْ): مبتدأ، وجملة: ﴿يَمْشِى﴾ صلته. ﴿سَوِيًّا﴾: حال من فاعل ﴿يَمْشِى﴾ المستتر. ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ﴾: متعلقان بـ: ﴿سَوِيًّا﴾. ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾: صفة ﴿صِرَٰطٍ﴾، وخبر المبتدأ محذوف لدلالة ما قبله عليه، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها. هذا؛ وإن عطفت (مَنْ) على سابقتها عطف مفرد على مفرد؛ فلا حاجة إلى خبر.

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾

الشرح: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾: خلقكم ابتداء بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، والأمر لسيد الخلق، وحبيب الحق ﷺ، والخطاب فيما بعده لأهل مكة، ولكل عاقل يسمع، ويتعظ. ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ يعني: أنه تعالى ركب فيكم هذه الجوارح؛ لتستعملوها، وتنتفعوا بها، لكنكم ضيعتموها، فلم تقبلوا ما سمعتموه، ولا اعتبرتم بما أبصرتموه، ولا تأملتم ما عقلتموه، فكأنكم ضيعتم هذه النعم، فاستعملتموها في غير ما خلقت له، فلهذا قال تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ وذلك؛ لأن شكر نعم الله تعالى صرفها في وجه مرضاته، فلما صرفتموها في غير مرضاته، فكأنكم ما شكرتم رب هذه النعم الواهب لها؛ لأن شكر الله يكون بصرف جميع ما أنعم الله به على العبد فيما خلق لأجله، وهذه الجملة مذكورة بحروفها في سورة (السجدة) رقم [٩].

هذا؛ وقد وحد الله السمع في هذه الآية وأمثالها دون الأبصار، والأفئدة؛ لأمن اللبس، ولأنه في الأصل مصدر، يقال: سمعت الشيء سماعاً، وسَمْعاً، والمصدر لا يجمع؛ لأنه اسم جنس، يقع على القليل، والكثير، فلا يحتاج فيه إلى تثنية، أو جمع. وقيل: وحد السمع؛ لأن مدركاته نوع واحد، وهو الصوت، ومدركات غيره مختلفة، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه. استدل بهذه الآية وأمثالها من فضل السمع على البصر لتقدمه عليه باللفظ، وقال بتبرير قوله: والسمع يدرك به الجهات الست، وفي النور، وفي الظلمة، ولا يدرك بالبصر إلا من الجهة المقابلة، وبواسطة من ضياء، وشعاع. وقال أكثر المتكلمين بتفضيل البصر على السمع؛ لأن السمع لا يدرك به إلا الأصوات والكلام، والبصر يدرك به الأجسام، والألوان، والهيئات كلها.

قالوا: فلما كانت تعلقاته أكثر؛ كان أفضل، وأجازوا الإدراك بالبصر من الجهات الست. انتهى. قرطبي في غير هذا الموضع. أقول: فاقد السمع يفعل الأشياء الكثيرة، وفاقد البصر، لا يستطيع أن يفعل شيئاً، فإذاً البصر أفضل.

الإعراب: ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت». ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ﴾: مبتدأ، وخبر، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول. ﴿أَنشَأَكُمْ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ وهو العائد، والكاف مفعول به، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. (جعل): فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ أيضاً. ﴿لَكُمُ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محل نصب مفعوله الثاني، تقدم على الأول. ﴿ٱلسَّمْعَ﴾: مفعول به، وما بعده معطوف عليه، وجملة: ﴿قُلْ...﴾ إلخ مستأنفة، لا محل لها.

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾: لقد ذكر ابن هشام في مغني اللبيب في هذه الجملة وأمثالها إعراباً، فأنا أنقله لك باختصار، فقال ـ رحمه الله تعالى ـ: ﴿مَّا﴾: محتملة ثلاثة أوجه:

أحدها: الزيادة، فتكون لمجرد تقوية الكلام، فتكون حرفاً باتفاق، وقليلاً في معنى النفي، وإما لإفادة التقليل مثلها في: «أَكَلْتُ أَكْلاً مَا» وعلى هذا فيكون تقليلاً بعد تقليل.

الوجه الثاني: النفي، و﴿قَلِيلًا﴾ نعت لمصدر محذوف، أو لظرف محذوف، أي: شكراً قليلاً، أو زمناً قليلاً.

الثالث: أن تكون مصدرية، وهي، وصلتها فاعل بـ: ﴿قَلِيلًا﴾ التقدير: قليلاً شكركم، و﴿قَلِيلًا﴾ حال معمول لمحذوف دل عليه المعنى؛ أي: شكروا، فأخروا قليلاً شكرهم. أجازه ابن الحاجب، ورجح معناه على غيره. انتهى. بتصرف كبير، ولم يذكر إعراب ﴿قَلِيلًا﴾ على الوجه الأول. وذكر سليمان الجمل الوجه الأول، واعتبر ﴿قَلِيلًا﴾ نعتاً لمصدر محذوف، مثل اعتباره في الوجه الثاني. وذكر أبو البقاء الثاني، وقال: التقدير: فما يشكرون قليلاً، ولا كثيراً، وجملة: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ تعليلية لا محل لها من الإعراب، وهذا الإعراب مأخوذ من إعراب ابن هشام لقوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ وهي الآية رقم [٨٨] من سورة (البقرة)، وهذه الآية مذكورة بحروفها في سورة (المؤمنون) برقم [٧٨] مع اختلاف بسيط.

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

الشرح: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: خلقكم، وبثكم، ونشركم في أقطار الأرض مع اختلاف ألسنتكم، ولغاتكم، وألوانكم. ومنه: الذرية، وهي نسل الثقلين، تركوا همزها. والجمع: الذراري بتشديد الياء، وباب الفعل: قطع. ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾: تجمعون بعد هذا التفرق،

والشتات، يجمعكم كما فرقكم، ويعيدكم كما بدأكم، وذلك للحساب، والجزاء بعد إخراجكم من القبور. هذا؛ والآية مذكورة بحروفها في سورة (المؤمنون) برقم [٧٩].

الإعراب: ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت». ﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾: مبتدأ، وخبر، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول. ﴿ذَرَأَكُمْ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلَّذِى﴾ وهو العائد، والكاف مفعول به، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿وَإِلَيْهِ﴾: (الواو): حرف عطف. (إليه): جار ومجرور متعلقان بما بعدهما. ﴿تُحْشَرُونَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع... إلخ، والواو نائب فاعله، والجملة الفعلية معطوفة على جملة الصلة، لا محل لها مثلها، واعتبارها في محل نصب حال لا يجوز؛ لأن الجملة المضارعية الواقعة حالاً، لا تقترن بالواو، وجملة: ﴿قُلْ...﴾ إلخ مستأنفة، لا محل لها.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾

الشرح: هذه الآية تكررت في كثير من السور، كما هو معروف، ومعلوم لدى كل مسلم يقرأ القرآن. والسؤال المفهوم من الاستفهام يحتمل وجهين: أحدهما: أنه سؤال عن نزول العذاب بهم. والثاني: أنه سؤال عن يوم القيامة. كما يحتمل السؤال عن الاثنين معاً، وعليه يكون المعنى: متى يكون يوم القيامة؛ الذي يعذبون فيه في نار جهنم؟ وهذا من فرط عتوهم يقولون ذلك استهزاءً، وتكذيباً، والخطاب للنبي ﷺ، وللمؤمنين معه؛ لأنهم كانوا مشاركين له في الوعد، ويتهددون المشركين بالعقاب الشديد، والعذاب الأليم.

الإعراب: ﴿وَيَقُولُونَ﴾: (الواو): حرف استئناف. (يقولون): فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله. ﴿مَتَىٰ﴾: اسم استفهام مبني على السكون في محل نصب على الظرفية الزمانية متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿هَٰذَا﴾: (الهاء): حرف تنبيه لا محل له. (ذا): اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ مؤخر. ﴿ٱلْوَعْدُ﴾: بدل من اسم الإشارة، أو عطف بيان عليه، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول. ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والتاء اسمه. ﴿صَٰدِقِينَ﴾: خبر (كان) منصوب، وعلامة نصبه الياء... إلخ، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه؛ أي: إن كنتم صادقين فيما تخبرون به من أمر القيامة؛ فبينوا وقته على وجه التحديد. والجملة الشرطية في محل نصب مقول القول، وجملة: (يقولون...) إلخ مستأنفة، لا محل لها.

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢٦﴾

الشرح: أي: قل لهم يا محمد: إن علم وقت قيام الساعة، ونزول العذاب بكم عند الله فلا يعلمه غيره، لكن أمرني أن أخبركم: أن هذا كائن، وواقع لا محالة، فاحذروه. فهو كقوله تعالى في سورة (الأعراف) رقم [١٨٧]: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾. ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: مخوّف، ومعلم لكم، وما عليَّ إلا البلاغ، وقد أديته إليكم، فهو كقوله تعالى في سورة (المائدة) رقم [٩٩]: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾، وفي كثير من الآيات: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ وفي سورة (النور) رقم [٥٤]، وفي سورة (العنكبوت) أيضاً رقم [١٨]: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

الإعراب: ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت». ﴿إِنَّمَا﴾: كافة ومكفوفة. ﴿ٱلْعِلْمُ﴾: مبتدأ. ﴿عِندَ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، و﴿عِندَ﴾ مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول. ﴿وَإِنَّمَآ﴾: (الواو): حرف عطف. (إنما): كافة ومكفوفة. ﴿أَنَا۠﴾: ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿نَذِيرٌ﴾: خبره. ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة ﴿نَذِيرٌ﴾، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب مقول القول مثلها، وجملة: ﴿قُلْ...﴾ إلخ لا محل لها.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ۝٢٧﴾

الشرح: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ يعني: العذاب في الآخرة على قول أكثر المفسرين. وقيل: يعني: العذاب ببدر. ﴿زُلْفَةً﴾: مصدر بمعنى: مزدلفاً؛ أي: قريباً. والزلفة: القربة، ومثلها: الزلفى (بالقصر). قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾. رقم [٣٧] من سورة (سبأ)، والجمع: زلف، وزلفات بضم اللام وفتحها. هذا؛ والزلفة: الدرجة، والمنزلة، والطائفة من الليل، والجمع: زلف، قال تعالى في سورة (هود) رقم [١١٤] مخاطباً للنبي ﷺ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ...﴾ إلخ.

﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: علتها الكآبة، وساءتها رؤية العذاب، وظهر على وجوههم سمة تدل على كفرهم، كما قال تعالى في سورة (آل عمران) رقم [١٠٦]: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ وهذه القترة التي ذكرها الله تعالى في سورة (عبس): ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾. ﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾: من الدعاء، أي: تتمنون، وتطلبون أن يعجله الله لكم، قال قتادة - رحمه الله تعالى -: هو قولهم: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ رقم [١٦] من سورة (ص)، وقال الضحاك: هو قولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ رقم [٣٢] من سورة (الأنفال). هذا؛ والتعبير بالماضي عن المستقبل،

إنما هو لتحقق وقوعه. وقيل: تدعون من الدعوى، أي: تدعون: أن ما جاء به محمد ﷺ باطل، وتدعون: أنكم لا تبعثون، ولا يوجد حساب، ولا عقاب، ولا ثواب، ولا جنة، ولا نار.

هذا؛ وأصل ﴿تَدَّعُونَ﴾ تَدْتَعِيُون على وزن: يَفْتَعِلُونَ، فأسكنت الياء؛ لأن الضم فيها ثقيل، وألقيت حركتها على العين، بعد أن أزيلت حركة العين، ثم حذفت الياء لسكونها وسكون الواو بعدها، فصار تَدْتَعُون، ثم قلبت التاء دالاً، وأدغمت الدال في الدال، فصار: ﴿تَدَّعُونَ﴾ وقلبت التاء دالاً، ولم تقلب الدال تاءً؛ لأن الدال حرف مجهور، والتاء مهموسة، والمجهور أقوى في اللفظ من المهموس. انتهى مكي من سورة (يٰس).

الإعراب: ﴿فَلَمَّا﴾: (الفاء): حرف استئناف. (لمَّا): حرف وجود لوجود عند سيبويه، وبعضهم يقول: حرف وجوب لوجوب، وهي عند ابن السراج، والفارسي، وابن جني، وجماعة ظرف زمان بمعنى «حين» تتطلب جملتين مرتبطتين ببعضهما ارتباط فعل الشرط بجوابه. وصوب ابن هشام الأول. والمشهور الثاني. ﴿رَأَوْهُ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف المحذوفة لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة، والواو فاعله، والهاء مفعول به. ﴿زُلْفَةً﴾: حال من الضمير المنصوب. والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (لمَّا) إليها على اعتبارها ظرفاً، ولا محل لها على اعتبار (لمَّا) حرفاً. ﴿سِيٓـَٔتْ﴾: فعل ماض مبني للمجهول مبني على السكون، والتاء للتأنيث. ﴿وُجُوهُ﴾: نائب فاعله، والجملة الفعلية جواب (لمَّا)، لا محل لها، و(لمّا) ومدخولها كلام مستأنف، لا محل له، و﴿وُجُوهُ﴾ مضاف، و﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول مبني على الفتح في محل جر بالإضافة، وجملة: ﴿كَفَرُوا۟﴾ مع المتعلق المحذوف صلة الموصول، لا محل لها. ﴿وَقِيلَ﴾: (الواو): حرف عطف. (قيل): فعل ماض مبني للمجهول. ﴿هَٰذَا﴾: (الهاء): حرف تنبيه. (ذا): اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع خبره، والجملة الاسمية في محل رفع نائب فاعل (قيل). أفاده ابن هشام في مغنيه. وهذا يكون جارياً على القاعدة العامة: «يحذف الفاعل، ويقام المفعول به مقامه». وهذا لا غبار عليه، وقد ذكرت لك مراراً أن بعضهم يعتبر نائب الفاعل ضميراً مستتراً تقديره: «هو»، يعود إلى المصدر المفهوم من الفعل، أو هو محذوف، يدل عليه المقام، أي: وقيل قول، وبعضهم يعتبر الجار والمجرور (لهم) المذكور، أو المقدر كما هنا في محل رفع نائب فاعل. والمعتمد الأول، وأيده ابن هشام في المغني؛ حيث قال: إن الجملة التي يراد بها لفظها، يحكم لها بحكم المفردات، ولهذا تقع مبتدأ، نحو: «لا حولَ، ولا قوةَ إلا باللهِ: كنزٌ مِن كنوزِ الْجَنَّةِ» ونحو: «زعموا: مطيةُ الكذبِ» وجملة: ﴿وَقِيلَ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها. ﴿كُنتُم﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون، والتاء اسمه. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان بما بعدهما، وجملة: «تدعون به» في محل نصب خبر (كان)، وجملة: ﴿كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ **صلة** الموصول، لا محل لها.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾

الشرح: ﴿قُلْ﴾ أي: قل يا محمد لمشركي مكة الذين يتمنون هلاكك. ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾: أخبروني، وأعلموني. ﴿إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ﴾: إن أماتني الله، ومن معي من المؤمنين. ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ أي: فأبقانا، وأخَّر آجالنا. ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: يمنع الكافرين، وينجيهم. ﴿مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: مؤلم موجع واقع بهم.

كان كفار مكة يدعون على النبي ﷺ وعلى المؤمنين بالهلاك، فأمر ﷺ أن يقول لهم: نحن مؤمنون متربصون لإحدى الحسنيين، إما أن نهلك، كما تتمنون، فننقلب إلى الجنة، أو نرحم بالنصرة عليكم، كما نرجو، فأنتم ما تصنعون إن أراد الله أن يعذبكم؟ ومن يجيركم؛ وأنتم كافرون من عذاب النار الواقع بكم لا محالة؟

وملخص الآية: نحن خائفون وجلون من عذاب الله مع إيماننا بالله، ونرجو منه تعالى أن يرحمنا، ويعفو عنا، فنعتقد: أن حكمه نافذ فينا، فمن يجيركم، ومن يمنعكم من عذاب أليم، وأنتم مصرون على الكفر، ومعاندة الواحد القهار؟! والله أعلم بمراده، وأسراره كتابه.

فائدة: كان مذهب الإمام مالك ـ رحمه الله تعالى ـ هو السائد في مصر، فلما ارتحل الإمام الشافعي إلى مصر، واستقر فيها؛ تحول الناس من مذهب الإمام مالك إلى مذهب الإمام الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ فصار ابن عبد الحكم تلميذ الإمام مالك يدعو على الشافعي في صلاته، فيقول: اللهم أمت الشافعي كما أمات مذهب مالك في مصر، فذكر ذلك للإمام الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ فقال: [الطويل]

تَمَنَّى رِجَالٌ أنْ أَمُوتَ وإنْ أَمُتْ ... فَتِلْكَ طَرِيقٌ لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحَدِ
فقُلْ لِلَّذي يرجُو خلافَ الذي مَضى ... تَزَوَّدْ لأُخْرَى مِثْلِهَا وَكَأَنْ قَدِ

الإعراب: ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت». ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾: (الهمزة): حرف استفهام، وتوبيخ، وتقريع. (رأيتم): فعل، وفاعل، وتقدم معنا في كثير من الآيات: أن هذا الفعل ينصب مفعولين: الأول مفرد. والثاني: جملة استفهامية، ولا شيء منهما هنا، فكأن الجملة الشرطية سدت مسد المفعولين. انتهى. جمل بتصرف. ﴿إِنْ﴾: حرف شرط جازم. ﴿أَهْلَكَنِيَ﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، والنون للوقاية، وياء المتكلم مفعول به. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي. ﴿وَمَن﴾: (الواو): حرف عطف. (مَنْ): اسم موصول مبني على السكون في محل نصب معطوف

على ياء المتكلم. ﴿مَّعِيَ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة الموصول، فهو منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة، والياء في محل جر بالإضافة. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿رَحِمَنَا﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهُ﴾، و(نا): مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها لا محل لها مثلها.

﴿فَمَن﴾: (الفاء): واقعة في جواب الشرط. (مَنْ): اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يُجِيرُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى (مَنْ)، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محل لها؛ لأنها لم تحل محل المفرد. ﴿ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الياء. . . إلخ، ﴿مِنْ عَذَابٍ﴾: متعلقان بالفعل ﴿يُجِيرُ﴾. ﴿أَلِيمٍ﴾: صفة ﴿عَذَابٍ﴾، والجملة الشرطية سدت مسد مفعولي ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾، وجملة: ﴿أَرَءَيْتُمْ...﴾ إلخ في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قُلْ...﴾ إلخ مستأنفة، لا محل لها. هذا؛ وقال الجمل: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ جواب الشرط. وفي تسببه عن الشرط بعد، ويمكن أن يقال: الجواب محذوف، تقديره: فلا فائدة لكم في ذلك، ولا نفع يعود عليكم؛ لأنكم لا مجير لكم من عذاب الله. تأمل. انتهى. فتكون الجملة تعليل الجواب المحذوف.

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾

الشرح: ﴿قُلْ﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء الكافرين في إنكارك عليهم، وتوبيخك لهم: الذي أدعوكم إليه ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾: مولي النعم، وشديد النقم، وراحم المسترحمين، وغافر للمستغفرين. ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾: أنه واحد أحد فرد صمد، لم يلد، ولم يولد، ولا يشبهه أحد في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله. ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ في جميع أمورنا، كما قال تعالى في سورة (هود) على نبينا وعليه ألف صلاة، وألف سلام رقم [١٢٣]: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾، وانظر الكلام على ﴿وَكِيلًا﴾ في سورة (المزمل) رقم [٩]. ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾: عن قريب. ﴿مَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾: ولمن تكون العاقبة المحمودة في الدنيا، والآخرة.

قال الزمخشري ـ رحمه الله تعالى ـ: فإن قلت: لم أخر مفعول: ﴿ءَامَنَّا﴾ وقدم مفعول: ﴿تَوَكَّلْنَا﴾؟ قلت: لوقوع ﴿ءَامَنَّا﴾ تعريضاً بالكافرين، حين ورد عقيب ذكرهم، كأنه قيل: آمنا، ولم نكفر كما كفرتم، ثم قال: ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ خصوصاً، لم نتوكل على ما أنتم متوكلون عليه من رجالكم، وأموالكم. انتهى. هذا؛ ويعني بمفعول الفعلين: الجار والمجرور بعدهما، فإن الفعلين لازمان، وقد تعديا بالجار والمجرور، ولو قال: معمول بدلاً من: مفعول؛ لكان أوضح. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر فيه تقديره: «أنت». ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾: مبتدأ، وخبر، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قُلْ...﴾ إلخ مستأنفة، لا محل لها. ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل، وفاعل. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية في محل نصب حال من ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، والرابط: الضمير فقط، وهي على تقدير: «قد» قبلها. وقيل: الجملة في محل رفع خبر ثانٍ للمبتدأ، وجملة: ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ معطوفة عليها، فهي في محل نصب حال مثلها. ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾: (الفاء): حرف استئناف، وقيل: الفصيحة. ولا وجه له. (السين): حرف تنفيس، واستقبال. (تعلمون): فعل مضارع مرفوع.. إلخ، والواو فاعله. ﴿مَنْ﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿هُوَ﴾: مبتدأ. ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾: متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ. ﴿مُّبِينٍ﴾: صفة ﴿ضَلَٰلٍ﴾، والجملة الاسمية صلة الموصول، لا محل لها. هذا هو الإعراب الظاهر، وفي الحقيقة ﴿مَنْ﴾ اسم استفهام مبتدأ، والفعل قبله معلق على العمل لفظاً بسببه، و﴿هُوَ﴾ ضمير فصل لا محل له، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر ﴿مَنْ﴾، والجملة الاسمية في محل نصب سدت مسد مفعول (تعلمون)، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾

الشرح: ﴿قُلْ﴾: خطاب للنبي ﷺ. ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾: أخبروني يا معشر قريش، فإن الخطاب لهم. ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾. أي: غائراً ذاهباً في الأرض، لا تناله الدلاء، ولا تأتي به الفؤوس الحداد، ولا السواعد الشداد. وكان ماؤهم من بئرين: بئر زمزم، وبئر ميمون. هذا؛ وتأويل المصدر ﴿غَوْرًا﴾ بـ: «غائراً» لا بد منه؛ لأنه لا يخبر بالمصدر عن الجثة، فلا يقال: ماؤكم غور، ولا أنتم قيام. ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ أي: جارٍ، فلا بد لهم من أن يقولوا: لا يأتينا به إلا الله تعالى، فقل لهم: لم تشركون به من لا يقدر على أن يأتيكم بماء معين؟! هذا؛ و﴿مَّعِينٍۭ﴾ جار ظاهر للعيون، يقال: معين، ومُعُن، كما يقال: رغيف، ورُغُف، فهو فعيل من: معُن الماء: إذا جرى، أو من الماعون، وهو المنفعة؛ لأنه نفّاع، أو هو مفعول من: عانه إذا أدركه بعينه؛ لأنه لظهوره مدرك بالعيون، جار على وجه الأرض. والمعنى: لا يقدر على ذلك إلا الله عز وجل، فمن فضله، وكرمه، وجوده، وإنعامه أنعم عليكم بالمياه، وأجراه في سائر أقطار الأرض، بحسب ما يحتاج العباد إليه من القلة، والكثرة، والله لطيف بعباده، فلله الحمد والمنة على هذه النعمة.

وينبغي لمن يسمع هذه الآية أن يقول: يأتي به الله رب العالمين. ولا تنس قوله تعالى في سورة (المؤمنون) رقم [١٨]: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾. وانظر شرحها هناك؛ فإنه جيد والحمد لله رب العالمين.

الإعراب: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾: انظر الآية [٢٨] ففيها الكفاية. ﴿فَمَن﴾: (الفاء): واقعة في جواب الشرط. (مَن): اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يَأْتِيكُم﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل يعود إلى (مَنْ)، تقديره: «هو». و(الكاف): مفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط، وانظر تتمة الإعراب في الآية رقم [٢٨]. ﴿بِمَآءٍ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿مَّعِينٍ﴾: صفة (ماء)، والكلام: ﴿أَرَءَيْتُمْ...﴾ إلخ في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قُلْ...﴾ إلخ مستأنفة، لا محل لها. تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله، وصحبه وسلم.

انتهت سورة (الملك) شرحاً، وإعراباً بحمد الله، وتوفيقه.

والحمد لله رب العالمين.

سورة القلم

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة (ن والقلم) وهي مكية في قول الحسن، وعكرمة، وعطاء، وجابر ـ رضي الله عنهم ـ. وقال ابن عباس، وقتادة ـ رضي الله عنهما ـ: بعضها مكي، وبعضها مدني. والمعتمد الأول، وهي ثنتان وخمسون آيةً، وثلاثمئة كلمة، وألف ومئتان وستة وخمسون حرفاً. انتهى. خازن.

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾

الشرح: ﴿نٓ﴾: لقد اختلف فيه، كما اختلف في جميع الحروف المفتتح فيها السور، فقيل: هو لوح من نور. وقيل: إن النون هو لقب لحوت عظيم. قال الكلبي، ومقاتل: اسمه البَهْمُوت، قال الراجز: [الرجز]

مَا لِي أَرَاكُمْ كُلَّكُمْ سُكُوتَا وَاللهُ رَبِّي خَلَقَ الْبَهْمُوتَا

وذكر القرطبي، والخازن في وصف هذا الحوت أموراً لا يقرها العقل في هذه الأيام، فنكل علمها إلى الله تعالى، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن النون هو الدواة التي يوضع فيها الحبر للكتابة ومنه قول الشاعر: [الوافر]

إذَا مَا الشَّوْقُ بَرَّحَ بِي إِلَيْهِمْ سَقَيْتُ النُّونَ بِالدمْعِ السِّجَامِ

أراد بالنون: الدواة. وعن ابن عباس أيضاً: أن نوناً حرف من حروف الرحمن. انتهى. وهذا على اعتبار الاسم الكريم مؤلفاً من: ﴿الٓرۚ﴾ و﴿حمٓ﴾ و﴿نٓ﴾، وقيل: هو مفتاح اسمه تعالى: نصير، وناصر. وقيل: هو اسم للسورة. وانظر ما قيل فيه من قراءات في أول سورة (ص). ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾: (القلم): هو القلم الذي كتب الله فيه الذكر، وهو قلم من نور، طوله كما بين السماء والأرض، ويقال: أول ما خلق الله القلم، فانشق نصفين، ثم قال: اجر بما هو كائن إلى يوم القيامة، فجرى على اللوح المحفوظ بذلك، وإنما يجري الناس على أمر قد فُرِغ منه، وانظر اللوح المحفوظ في آخر سورة (البروج).

وروى الوليد بن مسلم قال: حدثنا مالك بن أنس، عن سُمَيٍّ مولى أبي بكر، عن أبي صالح السمان، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أوَّلُ ما خلقَ الله**

الْقَلَمَ، ثُمَّ خلقَ النونَ، وهي الدواةُ، وذلك قوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ **ثم قال له: اكتُبْ، قال: ومَا أكْتُبُ؟ قال: مَا كَانَ، وَمَا هُو كَائنٌ إلى يَوْمِ الْقِيامَةِ، مِنْ عملٍ، أو أجَلٍ، أو رِزْقٍ، أوْ أثرٍ. فَجَرَى القَلَمُ بمَا هُوَ كائِنٌ إلَى يوم القيامةِ، قال: ثمَّ خُتِمَ فَمُ القلم، فلمْ ينطقْ، ولا ينطقُ إلَى يومِ القيامةِ. ثم خلقَ العقلَ، فقالَ الْجبَّارُ، ما خَلَقْتُ خَلْقاً أعجَبَ إليَّ منكَ، وعزتي وجلالي لأكملنك فِيمنْ أحْبَبْتُ! ولأنْقُصَنَّكَ فيمن أبغضتُ»**. قال: ثم قال رسول الله ﷺ: **«أكملُ الناسِ عَقْلاً أطوَعُهُمْ للهِ، وأعْمَلُهُمْ بطاعَةِ اللهِ»**. وقيل: المراد به القلم المتداول بين أيدي الناس، أقسم الله به؛ لما فيه من البيان كاللسان، وهو واقع على كل قلم مما يكتب به مَنْ في السماء ومَنْ في الأرض، ومنه قول أبي الفتح البستي: [الطويل]

إذَا أقْسَمَ الأبطالُ يَوْماً بِسَيْفِهِمْ ... وَعَدُّوهُ مما يُكسِبُ المجدَ والكرمْ

كفَى قلمُ الكُتَّابِ عِزًّا وَرِفعَةً ... مدَى الدَّهْرِ أنَّ اللهَ أقسمَ بالْقَلَمْ

وللشعراء في تفضيل القلم على السيف أبيات كثيرة منها ما ذكرناه أعلاه.

﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي: ما يكتبون، يريد الملائكة يكتبون أعمال بني آدم. قاله ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ. وقيل: أي: وما يكتب الناس، ويتفاهمون به. وقيل: المراد: ما سجله القلم في الذي أجراه الله بالقدر، حين كتب مقادير الخلائق، قبل أن يخلق السموات والأرضين بخمسين ألف عام وعليه يكون الجمع، يعني: التعبير بواو الجماعة للتعظيم، لا للجمع، وانظر سورة (اقرأ) وما أذكره فيها.

﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾. هذا رد لقولهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ رقم [٦] من سورة (الحجر) والمعنى: إنك لا تكون مجنوناً؛ وقد أنعم الله عليك بالنبوة والحكمة. فنفى عنه الجنون. وقيل: معناه: ما أنت بمجنون، والنعمة لله. وهو كما يقال: ما أنت بمجنون، والحمد لله. وقيل: إن نعمة الله كانت ظاهرة عليه من الفصاحة التامة، والعقل الكامل، والسيرة المرضية، والأخلاق الحميدة، والبراءة من كل عيب، والاتصاف بكل مكرمة. وإذا كانت هذه النعم محسوسة ظاهرة، فوجودها ينفي حصول الجنون. فنبه الله تعالى بهذه الآية على كونهم كاذبين في قولهم: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾، ومثل هذه الآية قوله تعالى في سورة (الطور) رقم [٢٩]: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾.

قال أبو عمرو الداني: فإن قيل: فكيف يسمى ما جاء من حروف الهجاء في الفواتح على حرف واحد، نحو (ص، ق، ن) حرفاً، أو كلمة؟! قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ قلت: كلمةً لا حرفاً، وذلك من جهة أن الحرف لا يسكت عليه، ولا ينفرد وحده في الصورة، ولا ينفصل مما يختلط به، وهذه الحروف مسكوت عليها، منفردة منفصلة كانفراد الكلم، وانفصالها، فلذلك

سميت كلماتٍ ولا حروفاً. انتهى. أقول: يريد بالحرف الذي لا يسكت عليه، ولا ينفرد...إلخ حروف الجر، وحروف العطف، والنواصب، والجوازم، ونحوها.

الإعراب: ﴿نٓ﴾: فيه أوجه: أحدها: أنه خبر لمبتدأ محذوف، أي: هذه ن. الثاني: أنه مفعول به لفعل محذوف، التقدير: اتلُ ن. الثالث: أنه مقسم به، التقدير: أقسم بـ (ن). ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾: جار ومجرور متعلقان بفعل محذوف، تقديره: أقسم بالقلم، وعلى اعتبار (ن) مقسماً به فالقلم معطوف عليه. ﴿وَمَا﴾: (الواو): حرف عطف. (ما): اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل جر معطوفة على ما قبلها، و الجملة بعدها صلتها، أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: والذي، أو وشيء يسطرونه. هذا؛ ويجوز اعتبار (ما) مصدرية تؤول مع الفعل بعدها بمصدر في محل جر معطوف على ما قبله، التقدير: ومسطورهم، أو ومسطوراتهم. ﴿مَآ﴾: نافية حجازية تعمل عمل: «ليس». ﴿أَنتَ﴾: ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع اسم ﴿مَآ﴾. ﴿بِنِعْمَةِ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: (مجنون)، أو متعلقان بمحذوف حال، والعامل فيها ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ تقديره: ما أنت بمجنون منعماً عليك بذلك، و(نعمة) مضاف، و﴿رَبِّكَ﴾ مضاف إليه، والكاف ضمير متصل في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿بِمَجْنُونٍ﴾: (الباء): حرف جر صلة. (مجنون): خبر ﴿مَآ﴾ منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد، والجملة الاسمية: ﴿مَآ أَنتَ...﴾ إلخ جواب القسم المأخوذ من: «أقسم بنون» على اعتباره مقسماً به على وجه رأيته فيه، أو هي جواب للقسم الصريح من قوله: ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾ وما عطف عليه.

تنبيه: نقل ابن هشام في المغني عن ابن الحاجب قوله: الباء ﴿بِنِعْمَةِ﴾ متعلقة بالنفي؛ إذ لو علقت بـ: (مجنون) لأفاد نفي جنون خاص، وهو الجنون الذي يكون من نعمة الله تعالى، وليس في الوجود جنون هو نعمة، ولا المراد نفي جنون خاص. انتهى. ملخصاً. وهو كلام بديع إلا أن جمهور النحويين لا يوافقون على صحة التعلق بالحرف، فينبغي على قولهم أن يقدر: أن التعليق بفعل دل عليه النافي، أي: انتفى ذلك بنعمة ربك. انتهى. مغني بحروفه. هذا؛ وفي السمين قوله: (بنعمة ربك) فيه أوجه: أحدها: أنه مقسم به متوسط بين اسم ما، وخبرها، ويكون الجواب حينئذ محذوفاً لدلالة المذكور عليه، والتقدير: ونعمة ربك ما أنت بمجنون. الثاني: أن الباء في موضع نصب على الحال، و العامل فيها (مجنون). والتقدير: ما أنت مجنوناً حال كونك ملتبساً بنعمة ربك، قاله أبو البقاء، وعلى هذا، فهي حال لازمة؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لم يفارق هذه الحال. الثالث: أن الباء سببية، وتتعلق حينئذ بمضمون الجملة المنفية، وهذا هو مقصود الآية الكريمة، والمعنى: انتفى عنك الجنون بسبب نعمة ربك عليك، كما تقول: ما أنا بمعسر بحمد الله. انتهى. جمل نقلاً عن السمين، والمعتمد ما جريت عليه في الأول من الإعراب، وهو الموافق لما ذكره ابن هشام.

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾

الشرح: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا...﴾ إلخ: الخطاب لسيد الخلق، وحبيب الحق ﷺ، والمعنى: إن لك الأجر العظيم، والثواب الجزيل الذي لا ينقطع، ولا يبيد، على تبليغك رسالة ربك إلى الخلق، وصبرك على أذاهم. ومعنى ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾: غير مقطوع، كقوله تعالى في كثير من الآيات: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ سورة (التين) وغيرها، وكقوله تعالى في سورة (هود) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ رقم [١٠٨]. ولا تنس التأكيد بـ: (إنَّ) ولام الابتداء. وقيل: معنى ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ غير مكدر عليك بسبب المنة. وخذ قول لبيد ـ رضي الله عنه ـ في معلقته رقم [٣٨] انظر شرحه هناك فإنه جيد والحمد لله: [الكامل]

لِمُعَفَّرٍ قَهْدٍ تنازعَ شِلْوَهُ   غُبْسٌ كواسِبُ لا يُمَنُّ طَعامُها

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾: وهذا كالتفسير لقوله: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ لأن الأخلاق الحميدة، والأفعال المرضية، كانت ظاهرة عليه، ومن كان كذلك لم تجز إضافة الجنون إليه، ولما كانت أخلاق رسول الله ﷺ كاملة حميدة، وأفعاله المرضية الجميلة وافرة؛ وصفها الله تعالى بأنها عظيمة. وحقيقة الخلق: قوى نفسانية يسهل على المتصف بها الإتيان بالأفعال الحميدة، والآداب المرضية، فيصير ذلك كالخلقة في صاحبه، ولقد أحسن القائل: [الطويل]

إذَا اللهُ أَثْنَى بِالَّذِي هُوَ أَهْلُهُ   عَلَيْكَ فَمَا مِقْدَارُ مَا تَمْدَحُ الْوَرَى؟

هذا؛ ولا تنس: أن في الآية الكريمة استعارة تبعية بالحرف، فقد شبه الله تعالى تمكن النبي ﷺ من الهدى، والأخلاق الكريمة، والثبوت عليها بتمكن من علا دابة، يصرفها كيف يشاء، بجامع التمكن، والاستقرار في كلٍّ، فسرى التشبيه من الكليَّات للجزئيات، التي هي معاني الحروف، فاستعير لفظ (على) الموضوع للاستعلاء الحسي للارتباط، والاستعلاء المعنوي على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، ومثل هذه الآية قوله تعالى في سورة (سبأ) رقم [٢٤]: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. وخذ قول الشاعر: [السريع]

لَسْنَا وَإِنْ أَحْسَابُنَا كَرُمَتْ   يَوْماً عَلَى الأَحْسَابِ نَتَّكِلُ

هذا؛ ويدخل في حسن الخلق التحرز من الشح، والبخل، والتشديد في المعاملات، ويستعمل في حسن الخلق التحبب إلى الناس بالقول، والفعل، والبذل، وحسن الأدب، والمعاشرة بالمعروف مع الأقارب والأجانب، والتساهل في جميع الأمور، والتسامح بما يلزم من الحقوق، وترك التقاطع، والتهاجر، واحتمال الأذى من الأعلى، والأدنى مع طلاقة الوجه، وإدامة البشر. فهذه الخصال تجمع محاسن الأخلاق، ومكارم الأفعال. ولقد كان جميع ذلك في رسول ﷺ، ولهذا؛ وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: معناه: على دين عظيم، لا دين أحب إليَّ، ولا أرضى عندي منه. وروى الإمام أحمد عن الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ قال: سألت عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ فقلت لها: أخبريني بخلق رسول الله ﷺ، فقالت: كان خلقه القرآن. ومثله عن سعيد بن هشام برواية ابن جرير الطبري. ومعنى هذا: أن النبي ﷺ صار امتثال القرآن سجيةً له، وخلقاً، فكل شيء أمر القرآن به فعله، وكل شيء نهى عنه تركه.

أقول: كلمة عائشة المتقدمة تنم عن ذكائها، وشدة فطنتها، وكمال معرفتها بأخلاق الرسول ﷺ، فلم تقل: كان رسول الله كذا. وأخلاقه كذا، وإنما قالت باختصار: (كَانَ خُلُقُهُ القرآن) ولما سمع كفار قريش الآيات، وما تضمنته من الإيجاز، والتأكيدات بـ: (إنَّ) ولام الابتداء، والقسم باثنين، أو بثلاثة حسبما رأيت فيما تقدم، وإجابة القسم بثلاثة أشياء: نفي الجنون عنه ﷺ، وثبوت الأجر له، وكونه على جانب عظيم من مكارم الأخلاق؛ دهشوا، وتعجبوا من تكريم الله لنبيه، ووصفه له بما ذكره، وهم فرسان البلاغة، والفصاحة، فرجعوا إلى أنفسهم، واستعرضوا سيرة الرسول ﷺ العطرة من نشأته إلى شبابه، إلى كهولته، إلى أن اختاره الله هادياً للناس، فلم يجربوا عليه شيئاً مخلاً بمكارم الأخلاق، فأذعنوا، ثم نكسوا على رؤوسهم، كما نكس قوم إبراهيم عليه السلام.

وخذ ما يلي: فعن جابر ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ بَعثني لتمامِ مكارمِ الأخلاقِ، وتمامِ محاسِنِ الأعمالِ**». وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: خدمت رسول الله ﷺ عَشْرَ سِنين، فما قال لي: أفٍّ قَطُّ، ولا قال لشيء فعلتُه: لم فعَلْتَهُ؟ ولا لشيءٍ لم أفعلْهَ: ألَا فعلْتَهُ! وكان ﷺ أحسنَ الناسِ خلُقاً، ولا مَسَسْتُ خَزّاً، ولا حريراً، ولا شيئاً كان ألينَ مِنْ كَفِّ رسولِ الله ﷺ، ولا شمَمْتُ مِسْكاً، ولا عطراً، كان أطيبَ من عرق رسول الله ﷺ. متفق عليه.

وعن أنس أيضاً؛ قال: (كان رسول الله ﷺ إذا استقبله الرجلُ فصافحه، لا ينزعُ يدَهُ من يَدِهِ؛ حتى يكونَ الرجلُ ينزعُ يدَهُ، ولا يصرفُ وجهَهُ عن وجهِهِ؛ حتَّى يكونَ الرجلُ هو الذي يصرفه، ولم يُرَ مُقَدِّماً ركبتيْهِ بين يديْ جليسٍ لهُ). أخرجه الترمذي.

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً قَطُّ، ولا ضربَ امرأَةً، ولا ضرب بيده شيئاً قَطُّ، إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا خُيِّرَ بين شيئين قَطُّ إلا كان أحبُّهُمَا إليه أَيْسَرهُمَا؛ إلا أن يكونَ إثماً، فإذا كان إثمٌ كان أبعَدَ الناسِ من الإِثم، ولا انتقم لنفسِهِ من شيء يؤتى إليه؛ إلا أن تُنتهكَ حرماتُ اللهِ فيكون هوَ ينتقمُ للهِ عز وجل. أخرجه الإمام أحمد.

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ، وعليه بردٌ نجرانيٌّ غليظُ الحاشيةِ، فأدركه أعرابيٌّ، فجبَذهُ جبذةً شديدةً؛ حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد! مُرْ لي مِن مالِ اللهِ الذي عندك، فليس المالُ

مالَكَ، ولا مالَ أبيك، فقال: «**صدقْتَ! ليس المالُ مالي، ولا مالَ أبي، وإنما هو مالُ الله، ولكنْ يا أعرابيُّ يجبُ أن أقتصَّ منك قبل أن أعطيك!**». فقال: لا ورب محمد! فقال: «**ولِمَ؟**». قال: لأني أعلم أنك لا تقابلُ السيئة بالسيئة، ولكن تقابل السيئة بالحسنة! فتبسم ﷺ، وأمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ.

وقد ترك لنا الرسول ﷺ نبذة من أحاديثه الشريفة تحث على التحلِّي بمكارم الأخلاق، من ذلك ما رواه أبو الدرداء ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «**ما مِنْ شَيْءٍ أثقلُ في ميزانِ المؤمنِ يومَ القيامةِ من خلقٍ حسنٍ، وإن اللهَ يُبْغِضُ الفاحش البذيء**». أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح. وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ المؤمنَ ليدركُ بحسن الخلُقِ درجةَ الصائِم، والقائِم**». رواه أبو داود، وعنها أيضا: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ مِنْ أكملِ المؤمنين إيماناً أحسَنَهُمْ خُلُقاً، وألْطَفَهُمْ بِأهلِهِ**». أخرجه الترمذي، والحاكم، وقال الترمذي: حديث حسن.

وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ عن رسول الله ﷺ، عن جبريل عليه السلام، عن رب العزة قال: «**إنَّ هذا دِينٌ ارتضيتُهُ لِنفسي، ولَنْ يصْلحَ لهُ إلَّا السخاءُ، وحسْنُ الخلُقِ، فأكرموهُ بهما ما صحِبْتُمُوهُ**». رواه الطبراني في الأوسط. والأحاديث في ذلك كثيرة مسطورة في: «الترغيب والترهيب» وغيره، والشعر العربي طافح بذلك. ويجدر بي أن أقول: إن التحلِّي بمكارم الأخلاق له محال، ومواضع، والسفه، والطيش، والجهل، له محال، ومواضع، فالرسول ﷺ عفا عمن يستحق العفو، والتسامح. وقتل أبا عزة الجمحي، والنضر بن الحارث لعدم استحقاقهما العفو، والتسامح، وقد أعجب ﷺ كل الإعجاب بقول النابغة الجعدي، ودعا له بقوله: «**لا يفضِضِ اللهُ فاكَ**». وهو ما يلي: [الطويل]

وَلَا خيرَ في حلمٍ إذا لمْ يكنْ له بوادِرُ تحمي صفوَهُ أن يُكَدَّرا

ولا خيرَ في جَهْلٍ إذا لمْ يكنْ لهُ حليمٌ إذا ما أورِدَ الأمْرَ أصْدَرا

الإعراب: ﴿وَإِنَّ﴾: (الواو) حرف عطف. (إنَّ): حرف مشبه بالفعل. ﴿لَكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر (إنَّ) مقدم. ﴿لَأَجْرًا﴾: (اللام): لام الابتداء. (أجراً): اسم (إنَّ) مؤخر. ﴿غَيْرَ﴾: صفة (أجراً) وهو مضاف، و﴿مَمْنُونٍ﴾ مضاف إليه، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها. ﴿وَإِنَّكَ﴾: الواو: حرف عطف. (إنك): حرف مشبه بالفعل، والكاف اسمها. ﴿لَعَلَىٰ﴾: (اللام): هي المزحلقة. (على خلق): متعلقان بمحذوف خبر (إنَّ). ﴿عَظِيمٍ﴾: صفة (خلق) والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها لا محل لها أيضاً؛ لأن الجمل الثلاث جواب القسم.

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾﴾

الشرح: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾: المعنى فستعلم يا محمد، ويعلمون؛ أي: كفار قريش. قاله ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وهذا حين يرون العذاب، ويتميز الحق من الباطل. وقيل: في

الدنيا بظهور عاقبة أمرك بغلبة الإسلام، واستيلائك عليهم بالقتل، والأسر، واستلاب أموالهم. وهذا؛ وعد للرسول ﷺ، ووعيد لكفار قريش، وهذا كقوله تعالى في سورة (القمر) رقم [٢٦]: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ وهذا التهديد، وهذا الوعيد تجده في أول سورة (النبأ)، وفي سورة (التكاثر).

﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ أي: أيكم فتن بالجنون؟ هل أنت كما يفترون، أم هم بكفرهم وانصرافهم عن الهدى؟ ومعنى ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾ هو الذي قد فتن عن الحق، وضل عنه. وقال القرطبي: أي: الذي فتن بالجنون. وقيل: ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾ الشيطان الذي فتن بالجنون. وليس بشيء. والحق: أن المفتون: المجنون الذي فتنه الشيطان، وأبعده عن طاعة الله، ورحمته.

الإعراب: ﴿فَسَتُبْصِرُ﴾: (الفاء): حرف استئناف. (السين): حرف تنفيس، واستقبال. (تبصر): فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: «أنت»، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿وَيُبْصِرُونَ﴾: الواو: حرف عطف. (يبصرون): فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها، وكلا الفعلين معلق عن العمل بسبب الاستفهام على التنازع. ﴿بِأَييِّكُمُ﴾: (الباء): حرف جر صلة. (أيكم): مبتدأ مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد، والكاف في محل جر بالإضافة، وإلى هذا ذهب قتادة، وأبو عبيدة معمر بن المثنى إلا أنه ضعيف من حيث إن الباء لا تزاد في المبتدأ؛ إلا في بحسبك فقط. ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾: خبره، وهذا وجه للإعراب، والوجه الثاني: اعتبار ﴿بِأَييِّكُمُ﴾ جار ومجرور متعلقين بمحذوف في محل رفع خبر مقدم. ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية على الوجهين في محل نصب مفعول به لأحد الفعلين السابقين على التنازع.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ٧﴾

الشرح: معنى الآية الكريمة: إن كفار قريش رموا النبي ﷺ بالجنون، والضلال، ووصفوا أنفسهم بالعقل، والهداية، فأخبر الله تعالى: أنه هو العالم بالفريقين: الضال، والمهتدي، والمجنون، والعاقل، وهو تعليل لما قبله، وتأكيد للوعد، والوعيد، كأنه يقول: إنهم هم المجانين على الحقيقة، لا أنت، حيث كانت لهم عقول لم ينتفعوا بها، ولا استعملوها فيما ينجيهم، ويسعدهم. ويؤيد هذا ما روي: أنه مر على مجلس الرسول ﷺ رجل معتوه، فقال الصحابة رضوان الله عليهم: هذا مجنون، فقال ﷺ: «**هَذَا مصابٌ، إنما المجنونُ مَنْ أصر علَى معصيةِ اللهِ**». هذا؛ ومثل هذه الآية قوله تعالى في سورة (النجم) رقم [٣٠]: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾. هذا؛ و﴿أَعْلَمُ﴾ هنا، وهناك بمعنى:

عالم، وليس على بابه من التفضيل، ومثل الآيتين قول الفرزدق ـ وهو الشاهد رقم [١١٢] من كتابنا: «فتح رب البرية» ـ: [الكامل]

إنَّ الَّـذِي سَـمَـكَ الـسَّـمَـاءَ بَـنَـى لَـنَـا بَـيْـتـاً دَعَـائِـمُـهُ أَعَـزُّ وَأَطْـوَلُ

إذ المعنى: عزيزة وطويلة، وأيضا قول الشنفرى الأزدي ـ وهو الشاهد رقم [٩٦٥] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الطويل]

وَإِنْ مُـدَّتِ الأَيْـدي إِلَـى الـزَّادِ لَـمْ أَكُـنْ بِـأَعْـجَـلِـهِـمْ إِذْ أَجْـشَـعُ الْـقَـوْمِ أَعْـجَـلُ

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿رَبَّكَ﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾، والكاف في محل جر بالإضافة من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿هُوَ﴾: ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿أَعْلَمُ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل رفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وإن اعتبرت ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل فـ: ﴿أَعْلَمُ﴾ يكون خبر ﴿إِنَّ﴾. والجملة الاسمية تعليل لما قبلها. ﴿بِمَن﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: ﴿أَعْلَمُ﴾، و(مَنْ) تحتمل الموصولة، والموصوفة، فهي مبنية على السكون في محل جر بالباء. ﴿ضَلَّ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (مَنْ)، وهو العائد، أو الرابط، والجملة الاسمية: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ﴾ معطوفة على ما قبلها، فهي في محل رفع مثلها، ويجوز اعتبارها في محل نصب حال من فاعل ﴿أَعْلَمُ﴾ المستتر، والأول أقوى. ﴿بِالْمُهْتَدِينَ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: ﴿أَعْلَمُ﴾.

﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾

الشرح: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: فلا تطع رؤساء الكفر والضلال فيما يدعونك إليه، وقد كذبوا برسالتك، وحاربوا دعوتك. وكانوا قد دعوه إلى الرجوع إلى دين آبائه وأجداده، فنهاه الله أن يطيعهم. وهذا من الله إلهاب، وتهييج للتشدد في مخالفتهم. ﴿وَدُّوا﴾: أحبوا، وأرادوا. ﴿لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾: أصل الإدهان: اللين، والمصانعة، والمقاربة في الكلام. وقيل: أدهَنَ الرجل في دينه، وداهن في أمره: إذا خان فيه، وأظهر خلاف ما أبطن. ومعنى الآية: أنهم تمنوا أن تترك بعض ما أنت عليه مما لا يرضونه مصانعة لهم، فيفعلوا مثل ذلك، ويتركوا بعض ما لا ترضى به، فتلين لهم، ويلينون لك. هذا؛ والمشهور: أن رهطاً من قريش أتوا النبي ﷺ، وقالوا: يا محمد هلمَّ اتبع ديننا، ونتبع دينك، ونشركك في ديننا كله، تعبد آلهتنا سنة، ونعبد إلهك سنة، فإن كان الذي جئت به خيراً كنا قد شركناك فيه، وأخذنا حظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً كنت قد شركتنا في أمرنا، وأخذت بحظك منه! فقال رسول الله ﷺ «**معاذ الله أن أشرك به غيره!**». قالوا: فاستلم بعض آلهتنا؛ نصدقك، ونعبد إلهك! قال: «**حتى أنظر ما يأتي من ربي**»، فأنزل الله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ...﴾ إلخ السورة بكاملها.

فائدة: هناك مداراة، ومداهنة، فالمداراة: التلطف بالإنسان لتستخرج منه الحق، أو ترده عن الباطل. والمداهنة: التلطف به لتقره على باطله، وتتركه على هواه. فالمدارة لأهل الإيمان، والمداهنة لأهل النفاق. وخذ قول زهير من معلقته رقم [٥٥]: [الطويل]

وَمَنْ لَا يُصَانِعْ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ يُضَرَّسْ بِأَنْيَابٍ وَيُوطَأْ بِمَنْسِمِ

وخذ هذين البيتين، وتأمل ما فيهما من الجناس التام: [السريع]

إِذَا رَمَاكَ الدهْرُ في مَعْشَر قَدْ أجمَع الناسُ علَى بُغْضِهِمْ

فدارِهِمْ ما دُمْتَ في دَارِهِمْ وأَرْضِهِمْ مَا دمتَ في أَرْضِهِمْ

الإعراب: ﴿فَلَا﴾: (الفاء): هي الفصيحة؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر، التقدير: وإذا كان ربك عالماً بأحوال الناس من ضال، ومهتدٍ؛ فلا تطع. ولذا قال الجمل: الفاء لترتيب النهي على ما ينبئ عنه ما قبله من اهتدائه ﷺ وضلالهم، أو على جميع ما فصل من أول السورة. انتهى. (لا): ناهية جازمة. ﴿تُطِعِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: (لا)، والفاعل ضمير مستتر تقديره: «أنت». ﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض من التنوين في الاسم المفرد، والجملة الفعلية لامحل لها؛ لأنها جواب الشرط المقدر بـ: «إذا»، وكذا إن اعتبرتها مستأنفة. ﴿وَدُّواْ﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿لَوْ﴾: حرف مصدري. ﴿تُدْهِنُ﴾: فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: «أنت»، و(لو) والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به، التقدير: ودوا مداهنتك. والجملة الفعلية تعليل للنهي، لا محل لها. ﴿فَيُدْهِنُونَ﴾: (الفاء): حرف عطف. (يدهنون): فعل مضارع مرفوع. . .إلخ، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: فهم مدهنون، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل الجواب للتمني، وإن اعتبرت الفعل وحده معطوفاً على ما قبله؛ فيكون داخلاً في حَيِّز ﴿لَوْ﴾.

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾

الشرح: المشهور: أن الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة، الذي كان يسمى: ريحانة قريش، وهو أحد الرجلين اللذين قيل فيهما في سورة (الزخرف) قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ الآيات من سورة (المدثر). وقيل: المراد به هنا: الأخنس بن شريق. وقيل: المراد به: الأسود بن عبد يغوث. والمعتمد الأول، فقد وصفه الله بعشر صفات قبيحة، كما ستقف عليه.

﴿وَلَا تُطِعْ﴾: الخطاب لسيد الخلق، وحبيب الحق ﷺ، ويعم كل عاقل بأن لا يطيع، ولا يصغي لكل من يتصف بالصفات الذميمة المذكورة. ﴿كُلَّ حَلَّافٍ﴾: كثير الحلف بالله، وأقبح منه الحلف بالطلاق، وهو شائع في هذه الأيام، وكثير. ﴿مَّهِينٍ﴾: حقير ذليل، فهو لمهانته، وحقارته يكثر الحلف ليصدق بقوله، ويرتفع شأنه، ومكانته بين الناس، والرسول ﷺ نهى عن كثرة الحلف، وشدد النكير على الذين يكثرون الحلف بالله، ولاسيما التجار، وخذ مايلي:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَرْبَعَةٌ يُبغِضُهُمُ اللهُ: الْبَيَّاعُ الْحَلَّافُ، والفقيرُ المختالُ، والشَّيْخُ الزَّانِي، والإمامُ الجائِرُ**». رواه النسائي وابن حبان في صحيحه.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الْحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ للكسبِ**». رواه البخاري، ومسلم. وعن عبد الرحمن بن شبل ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ التُّجَّارَ همُ الْفُجَّارُ**». قالوا: يا رسول الله! أليس قد أحلَّ اللهُ البيعَ؟ قال: «**بَلَى، وَلَكِنَّهُمْ يحلفونَ فيأثمُون، ويُحَدِّثونَ، فيكذِبونَ**». رواه أحمد بإسناد جيد.

وعن أبي ذر الغفاري ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ﷺ قال: «**ثَلاثَةٌ لا يَنْظُرُ اللهُ إليهِمْ يَوْمَ القيامةِ، ولا يُزَكِّيهِمْ، ولَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**». قال: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاثَ مرات، فقلت: خابوا وخسروا! ومَنْ هُمْ يا رسول الله؟! قال: «**الْمُسْبِلُ، والمَنَّانُ، والْمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بالْحَلِفِ الكاذِبِ**» رواه مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه. وخذ قوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [٢٢٣]: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وانظر ما ذكرته في سورة (المائدة) رقم [٨٩] من النكير على الذين يفتون في كفارة اليمين بإعطاء مدِّ قمحٍ للمسكين. ﴿هَمَّازٍ﴾: عياب، طعان، مغتاب، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ سورة (الهمزة). وانظر ما أذكره هناك إن شاء الله تعالى. قال أبو العالية، وعطاء بن أبي رباح، والحسن: الهماز: الذي يذكر الناس في وجوههم، واللماز: الذي يذكرهم في مغيبهم. وقال مقاتل ضد هذا الكلام: إن الهمزة الذي يغتاب بالغيبة، واللمزة الذي يغتاب في الوجه. وقيل: هما سواء. قال الشاعر: [البسيط]

تُدْلِي بِوُدٍّ إِذَا لَاقَيْتَنِي كَذِباً ... وَإِنْ أغِبْ عنكَ كنتَ الهامزَ اللُّمَزَه

﴿مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾ أي: يمشي بين الناس بالنميمة ليفسد بينهم، وذلك بنقل الكلام من شخص إلى آخر على وجه السعاية، والإفساد بينهم، وهي من شر ما يتصف بها إنسان. وقد شدد الرسول ﷺ النكير على من يتصف بتلك الصفة الدنيئة الوضيعة. وخذ ما يلي:

فعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصيامِ، والقيامِ؟!**» قالوا: بلى! قال: «**إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، فَإِنَّ فَسادَ ذاتِ الْبَيْنِ هيَ الْحَالِقَةُ**».

رواه أبو داود، والترمذي، وصححه، وزاد فيه: أن النبي ﷺ قال: «**هِيَ الحالقةُ، لا أقولُ تحلِقُ الشعْرَ، ولكنْ تحلِقُ الدِّينَ**». وعن عبد الرحمن بن غنم ـ رضي الله عنه ـ يبلغ به النبي ﷺ: «**خِيَارُ عبادِ اللهِ الذين إذا رُؤوا ذُكِرَ اللهُ، وشرارُ عبادِ اللهِ المشاؤون بالنميمةِ، الْمُفَرِّقُونَ بَيْنَ الأَحِبَّةِ الْبَاغُونَ لِلبُرَآءِ الْعَنَتَ**». رواه الإمام أحمد عن شهر، عنه. وعن العلاء بن الحارث ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**الهمَّازُونَ، واللَّمازُونَ، والمشَّاؤُونَ بالنميمةِ الْبَاغونَ للبرَآءِ العَنَتَ يَحْشرهُم اللهُ في وُجوهِ الْكِلَابِ**». رواه ابن حبان، وقال الشاعر: [الطويل]

وَمَوْلىً كبيْتِ النَّمْلِ لا خيْرَ عندَهُ لِمَوْلَاهُ إلَّا سَعْيُهُ بِنَمِيمِ

﴿مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي: للمال أن ينفق في وجوهه. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يمنع ولده، وعشيرته عن الإسلام، يقول: لئن دخل واحد منكم في دين محمد؛ لا أنفعه بشيء أبداً! وأولاده كانوا عشرة، منهم سيف الله، وسيف رسوله، وقد سبقه إلى الإسلام أخوه الوليد المسمى باسم أبيه. هذا؛ والخير يكون بمعنى المال، كما في قوله تعالى في سورة (العاديات): ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾. ويكون بمعنى الإسلام، كما رأيت في أحد تفسيري الآية، ويكون بمعنى الطعام، كما في قوله تعالى حكاية عن قول موسى ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ في سورة (القصص) رقم [٢٤]: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾. ويكون بمعنى القوة، كما في قوله تعالى في سورة (الدخان) رقم [٣٧]: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾. ويكون بمعنى العبادة والطاعة كقوله تعالى في سورة (الأنبياء) رقم [٧٣]: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾.

﴿مُعْتَدٍ﴾: مجاوز حده في الظلم، والباطل، والاعتداء، والفجور. ﴿أَثِيمٍ﴾: كثير الآثام، فهو فعيل بمعنى فعول، صيغة مبالغة، مثل حلَّاف، وهمَّاز، ومشَّاء، ومنَّاع. ﴿عُتُلٍّ﴾ أي: غليظ جاف. وقيل: هو الفاحش، السيئ الخلق. وقيل: هو الشديد في الخصومة بالباطل. وقيل: هو الشديد في كفره. وقيل: هو الأكول الشروب القوي الشديد، ولا يزن في الميزان شعيرة، يدفع المَلَك من أولئك سبعين ألفاً في النار دفعة واحدة. وخذ ما يلي:

روى الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ عن حارثة بن وهب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَلَا أُنْبِئُكُمْ بِأهلِ الْجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعَّفٍ، لَوْ أَقْسَمَ على اللهِ لأَبَرَّهُ، أَلَا أنبئكمْ بِأهلِ النَّارِ؟ كُلُّ جَوَّاظٍ جَعْظَرِيٍّ مُسْتَكْبِرٍ**». فالجواظ: الأكول الشروب. والجعظري: الشديد الغليظ، ومتضعف بفتح العين، وكسرها. ﴿زَنِيمٍ﴾: هو ولد الزنى الملحق في النسب بالقوم، وكان الوليد دعياً في قريش ليس من أصلهم، ادعاه أبوه بعد ثماني عشرة سنة من مولده، قال الشاعر: [الوافر]

زَنِيمٌ لَيْسَ يُعْرَفُ مَنْ أَبُوهُ بَغِيُّ الأمِّ ذُو حَسَبٍ لَئِيمُ

وقال حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ يذم بعض كفار قريش: [الطويل]

وَأَنْـتَ زَنِـيـمٌ نِـيـطَ فـي آلِ هـاشـمٍ كَمَـا نِـيطَ خَلْفَ الراكبِ الْقَدَحُ الفَرْدُ

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الزنيم الدَّعي الفاحش اللئيم، وأنشد قول القائل: [الطويل]

زَنِـيـمٌ تَـدَاعَـاهُ الـرِّجَـالُ زِيـادةً كـمـا زِيـدَ فـي عَـرْضِ الأديـمِ الأَكَـارِعُ

هذا؛ وقد قيل: إن أم الوليد بغت به، ولم يعرف حتى نزلت الآيات. والنطفة إذا خبثت؛ خبث الناشئ منها، روي: أنه دخل على أمِّه، وقال لها: إن رب محمد وصفني بعشر صفات وجدت تسعاً فِيَّ، فأما الزنيم فلا علم لي به، فإن أخبرتني بحقيقة الأمر، وإلا ضربت عنقك، فقالت: إن أباك عِنِّين، وخفت أن يموت، فيصل ماله إلى غير ولده، فدعوت راعياً إلى نفسي، فأنت من ذلك الراعي. قال ابن قتيبة: لا نعلم أن الله وصف أحداً، ولا ذكر من عيوبه، مثل ما ذكر من عيوب الوليد بن المغيرة، فألحق به عاراً، لا يفارقه في الدنيا، ولا في الآخرة.

روي: أن النبي ﷺ قال: «**لا يدخلُ الجنةَ ولدُ زِنى، ولا ولدُهُ، ولا ولدُ ولدِهِ**». وقال عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: إن النبي ﷺ قال: «**إن أولادَ الزِّنَى يُحْشرونَ يومَ القيامةِ في صورةِ القردةِ، والخنازيرِ**». وقالت ميمونة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تزالُ أمتي بخيرٍ ما لمْ يفشُ فيهِم ولدُ الزنى، فإذا فشَا فيهم ولدُ الزِّنى، أوشكَ أنْ يعمهم اللهُ بعقابٍ**».

قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: أما الحديث الأول، والثاني، فما أظن أن لهما سنداً يصح، وأما حديث ميمونة ـ رضي الله عنها ـ؛ ففي صحيح مسلم عن زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ زوج النبي ﷺ قالت: خرج علينا النبي ﷺ يوماً فزعاً محمراً وجهه؛ يقول: «**لا إلهَ إلَّا اللهُ، ويلٌ لِلْعَربِ من شَرٍّ قدِ اقتربَ، فُتِحَ اليومَ مِنْ ردْمِ يأجوجَ ومأجوج مثلُ هذِهِ**». وحلّق بأصبعيه الإبهام، والتي تليها، قالت: فقلت يا رسول الله! أنهلك؛ وفينا الصالحون. قال: «**نَعَمْ إذا كَثُرَ الخبثُ**». أخرجه البخاري أيضاً، وكثرة الخبث: ظهور الزنى، وأولاد الزنى. انتهى.

أقول: ما جاء في الحديثين الأولين، يظهر: أنه لا أصل له؛ لأن ولد الزنى لا ذنب له، وقد يكون في حياته من المؤمنين الصادقين، الذين يعملون الصالحات، ويجتنبون المنهيات، فكيف يحشرون في صورة القردة، والخنازير؟ وكيف لا يدخلون الجنة؛ إن هم أطاعوا الله، واهتدوا بهدي رسوله ﷺ؟!.

قالوا: لما عاب الوليدُ النبيَّ ﷺ كاذباً باسمٍ واحدٍ، وهو الجنون؛ سماه الله صادقاً بعشرة أسماء، فإن كان مِنْ عدله أن يجزي المسيء إلى رسول الله ﷺ بعشرة؛ كان من فضله أنَّ من صلى عليه واحدة؛ صلى الله عليه عشراً. انتهى. نسفي. هذا؛ وقيل: إن (بعد) بمعنى: «مع» أي: مع ذلك زنيم. ولا بأس به.

تنبيه: في الآية الكريمة مسألة بيانية لم يتعرض لها المفسرون ألبتة، وهي ما إذا وقعت «كل» في حيز النفي؛ كان النفي موجهاً إلى الشمول خاصة، وأفاد بمفهومه ثبوت الفعل لبعض الأفراد، كقولك: (ما جَاء كلُّ القومِ، ولم آخُذْ كُلَّ الدراهمِ، وكُلَّ الدراهمِ لم آخُذْ). وإن وقع النفي في حيزها؛ اقتضى السلب عن كل فرد، كقول النبي ﷺ لما قال له ذو اليدين: أنسيتَ، أم قصُرتِ الصلاة يا رسول الله!؟ «**كلُّ ذَلِكَ لَمْ يكنْ**». وقد يشكل على قولهم في القسم الأول قوله تعالى في هذه السورة: ﴿وَلَا تُطِعْ...﴾ إلخ، ومثلها في سورة (البقرة) رقم [٢٧٦]، وفي سورة (الحديد) رقم [٢٣]، وفي سورة (لقمان) رقم [١٨] حيث وقعت (كل) في حيز النفي، فتفيد: أن المنفي الشمول، وأن البعض ثابت له المحبة من الله.

والجواب عن الآيات: أن دلالة المفهوم إنما يعول عليها عند عدم المعارض، وهو هنا موجود إذ دل الدليل، وهو الإجماع على تحريم الاختيال، والفخر، والحلف، والكفر مطلقاً، ومستند هذا الإجماع: الأحاديث الشريفة الكثيرة. هذا؛ ويعبر عما تقدم بسلب العموم وعموم السلب.

الإعراب: ﴿وَلَا﴾: (الواو): حرف عطف. (لا): ناهية جازمة. ﴿تُطِعْ﴾: فعل مضارع، مجزوم بـ: (لا) الناهية، والفاعل مستتر تقديره: «أنت»، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها. ﴿كُلَّ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿حَلَّافٍ﴾ مضاف إليه، وهو صفة لموصوف محذوف، التقدير: كل شخص حلاف. ﴿مَّهِينٍ﴾، ﴿هَمَّازٍ﴾، ﴿مَّشَّآءِۭ﴾: صفات للموصوف المحذوف. ﴿بِنَمِيمٍ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: ﴿مَّشَّآءِۭ﴾. ﴿مَّنَّاعٍ﴾: صفة أخرى. ﴿لِّلْخَيْرِ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: ﴿مَّنَّاعٍ﴾. ﴿مُعْتَدٍ﴾، ﴿أَثِيمٍ﴾، ﴿عُتُلٍّ﴾: صفات للموصوف المحذوف. ﴿بَعْدَ﴾: ظرف زمان متعلق بـ: ﴿زَنِيمٍ﴾ الذي هو الصفة العاشرة للموصوف المحذوف، و﴿بَعْدَ﴾ مضاف، و﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل جر بالإضافة، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له.

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾

الشرح: المعنى: لأن كان صاحب مال وبنين يفجر، ويفتري ويقول في القرآن ما يقول، ويزعم أنه أساطير الأولين، وكان الأحرى به أن يقابل النعمة بالشكر، لا بالجحود والتكذيب وقرئ (أنْ) بفتح الهمزة وكسرها، كما قرئ (أَأَنْ) على الاستفهام. إذا تتلى عليه قال... إلخ: أي: إذا قرئ عليه القرآن قال: مستهزئاً ساخراً: إنها خرافات، وأباطيل المتقدمين اختلقها محمد ونسبها إلى الله. ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾: هذا وعيد وتهديد من الله لذلك الكافر الفاجر، والمعنى: سنجعل له علامة على خرطومه، أي: أنفه، ونسود وجهه في الآخرة، فيعرف بسواد وجهه، كما قال تعالى

في سورة (الرحمن): ﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ﴾ وقيل: المعنى سنلحق به عاراً وسُبَّةً حتى يكون كمن وُسِم على أنفه. قال القتبي: تقول العرب للرجل يُسب سُبَّةَ سوءٍ قبيحة باقية: قد وُسِم مِيسم سوء؛ أي: ألصق به عار لا يفارقه، كما أن السمة لا يمحى أثرها. قال جرير: [الكامل]

لَمَّا وَضَعْتُ عَلَى الفرزدقِ مِيسمي وعلَى الْبَعِيثِ جَدَعْتُ أَنْفَ الأخطلِ

قال الزمخشري: الوجه أكرم موضع في الجسد، والأنف أكرم موضع من الوجه، لتقدمه له، ولذلك جعلوه مكان العز، والحمية، واشتقوا منه الأنفة، وقالوا: الأنف في الأنف، وحمي أنفه، وفلان شامخ العرنين. وقالوا في الذليل: جدع أنفه، ورغم أنفه. فعبر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال، والإهانة؛ لأن السمة على الوجه شين وإذلال، فكيف بها على أكرم موضع منه؟!. انتهى.

وفيه استعارة فائقة حيث استعار الخرطوم للأنف؛ لأن أصل الخرطوم للفيل، واستعارته؛ لأنف الإنسان تجعله في غاية الإبداع؛ لأن الغرض الاستهانة به، والاستخفاف.

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: معنى ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾: سنخطمه بالسيف. قال: وقد خُطم الذي نزلت فيه يوم بدر بالسيف، فلم يزل مخطوماً إلى أن مات. وقال قتادة: سنسمه يوم القيامة على أنفه سمة يعرف بها. وهذا هو المعتمد. هذا؛ وانظر شرح ﴿أَسَٰطِيرُ﴾ في سورة (الأحقاف) رقم [١٧]، أو في سورة (المطففين) رقم [١٣]. وانظر شرح ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ فيهما أيضاً.

الإعراب: ﴿أَن﴾ حرف مصدري ونصب. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص مبني على الفتح في محل نصب بـ: ﴿أَن﴾، واسمه ضمير مستتر تقديره: «هو» يعود إلى الموصوف بالصفات المتقدمة. ﴿ذَا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾ منصوب، وعلامة نصبه الألف نيابة عن الفتحة؛ لأنه من الأسماء الخمسة، و﴿ذَا﴾: مضاف، و﴿مَالٍ﴾: مضاف إليه. ﴿وَبَنِينَ﴾: الواو: حرف عطف. (بنين): معطوف على ﴿مَالٍ﴾ مجرور مثله، وعلامة جره الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد، و﴿أَن﴾ و﴿كَانَ﴾ في تأويل مصدر في محل جر بلام تعليل محذوفة، التقدير: لكونه. والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف، تقديره: يكفر؛ لكونه ذا مال وبنين. ودل على هذا المحذوف قوله تعالى: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ...﴾ إلخ، ولا يجوز تعليق الجار والمجرور بـ: ﴿تُتۡلَىٰ﴾ ولا بـ: ﴿قَالَ﴾؛ لأن ما بعد «إذا» لا يعمل فيما قبلها؛ لأنها مضافة إلى الجملة التي بعدها، ولا يعمل المضاف إليه فيما قبل المضاف، والفعل ﴿قَالَ﴾ جواب الجزاء، ولا يعمل فيما قبل الجزاء، وعلى قراءة الاستفهام (أَأَنْ) لا يتغير التقدير، والتعليق، كما ذكرت، وأما قراءة كسر الهمزة فتكون: (إنْ) شرطية، و﴿كَانَ﴾ فعل شرطها، وجوابها محذوف، التقدير: إن كان كذا؛ يكفر، ويجحد. دل عليه ما بعده، وعليه فالجملة الشرطية مستأنفة، ومرتبطة بما بعدها. هذا؛ وأجاز بعضهم تعليق ﴿أَن كَانَ...﴾ إلخ بعد تأويله بمصدر بقوله: ﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ﴾ وأجاز أبو علي تعليقه بـ: ﴿عُتُلِّۭ﴾، وهذان القولان ضعيفان. تأمل.

﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك، مبني على السكون في محل نصب. ﴿تُتْلَىٰ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر. ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿ءَايَٰتُنَا﴾: نائب فاعل ﴿تُتْلَىٰ﴾، و(نا): في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على المشهور المرجوح. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى الموصوف بالصفات السابقة، ﴿أَسَٰطِيرُ﴾: خبر لمبتدأ محذوف التقدير: هي أساطير، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالَ...﴾ إلخ جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها، و﴿إِذَا﴾ ومدخولها كلام مستأنف، لا محل له. ﴿أَسَٰطِيرُ﴾: مضاف، و﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون بدل من التنوين في الاسم المفرد. ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾: (السين): حرف تنفيس، واستقبال. (نسمه): فعل مضارع، والفاعل تقديره: «نحن»، والهاء مفعول به. ﴿عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾: متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية مستأنفة.

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾: يريد أهل مكة. والابتلاء: الاختبار، والامتحان، يكون بالخير، والشر. قال تعالى في حق بني إسرائيل: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ سورة (الأعراف) رقم [١٦٨]. والمعنى: أعطينا أهل مكة أموالاً، وأولاداً؛ ليشكروا، لا ليبطروا، فلما بطروا، وعادَوْا محمداً ﷺ ابتليناهم بالجوع، والقحط؛ حتى أكلوا الجيف، وأوراق الشجر، وذلك حين دعا عليهم النبي ﷺ بقوله: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِيِّ يُوسُفَ**». ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: المعروف خبرها عندهم.

روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾ بستان في اليمن، يقال له: الضروان، دون صنعاء بفرسخين، يطؤه أهل الطريق، وكان لرجل يؤدي حق الله فيه، فمات فورثه أولاده الثلاثة، وكان الأب يترك للمساكين إذا صرموا نخلهم كل شيء تعداه المنجل إذا طرح من فوق النخل على البساط، وكل شيء سقط من المنجل إلى البساط، فهو أيضاً للمساكين، وإذا حصدوا زرعهم، فكل شيء تعداه المنجل، فهو للمساكين أيضاً، وإذا داسوه كان لهم كل شيء ينتثر أيضاً، فلما مات الأب، وورثه بنوه الثلاثة، قالوا: والله إن المال قليل، وإن العيال كثير، وإنما كان هذا الأمر يفعله الأب لمَّا كان المال كثيراً، والعيال قليلاً، فأما إذا قل المال، وكثر العيال؛ فإنا لا نستطيع أن نفعل ما كان يفعله أبونا، فتحالفوا بينهم يوماً أن يغدوا غدوة قبل خروج الناس من بيوتهم، فذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟﴾ أي: تحالفوا. ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾: ليقطعن ثمر الجنة. والصرم: القطع. قال عنترة من معلقته رقم[٢١]: [الكامل]

هَــلْ تُـبْـلِـغَـنِّـي دَارَهَـا شَـدَنِـيَّـةٌ لُـعِـنَـتْ بِـمَـحْـرُومِ الـشَّـرابِ مُـصَـرَّمِ

أراد بشدنية: ناقته التي يركبها في أسفاره، وأراد بمصرم: مقطوع لبنها. ﴿مُصۡبِحِينَ﴾ أي: إذا أصبحوا قبل أن يخرج إليهم المساكين، فلا يعلمون بقطع ثمرها. ﴿وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ﴾ أي: لا يتركون شيئاً للمساكين من ثمر الجنة، وقال الزمخشري، وتبعه البيضاوي، والنسفي: ولا يقولون: إن شاء الله. وسمي استثناءً، وإن كان شرطاً صورة؛ لأنه يؤدى مؤدَّى الاستثناء من حيث: إن معنى قولك: لأخرجن إن شاء الله، لا أخرج إلا أن يشاء الله، والآيات التالية تشرح الواقعة، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن جريج: أن أبا جهل قال يوم بدر: خذوهم أخذاً، فاربطوهم في الحبال، ولا تقتلوا منهم أحداً، فنزلت: ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ...﴾ إلخ، يقول في قدرتهم عليهم كما اقتدر أصحاب الجنة على الجنة. انتهى. أسباب النزول للسيوطي، وإذا اعتمدنا: أن السورة مكية، لا يبقى لهذا الكلام معنى. تأمل.

الإعراب: ﴿إِنَّا﴾: (إنَّ): حرف مشبه بالفعل، و(نا) اسمها، حذفت نونها، وبقيت الألف دليلاً عليها. ﴿بَلَوۡنَٰهُمۡ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية مبتدأة، أو مستأنفة، لا محل على الاعتبارين. ﴿كَمَا﴾: (الكاف): حرف تشبيه وجر. (ما): مصدرية. ﴿بَلَوۡنَآ﴾: فعل، وفاعل. ﴿أَصۡحَٰبَ﴾: مفعول به، وهو مضاف إليه، و﴿ٱلۡجَنَّةِ﴾ مضاف إليه، و(ما) المصدرية والفعل ﴿بَلَوۡنَآ﴾ في تأويل مصدر في محل جر بالكاف، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لمصدر محذوف، التقدير: بلوناهم بلاءً مثل بلائنا أصحاب الجنة. وإن اعتبرت (ما) موصولاً اسمياً، فيكون التقدير: بلوناهم بلاءً مثل الذي بلونا به أصحاب الجنة. وهذا ليس مذهب سيبويه، وإنما مذهبه في مثل هذا التركيب أن يكون منصوباً على الحال من المصدر المضمر المفهوم من الفعل المتقدم، وإنما أحوج سيبويه إلى هذا؛ لأن حذف الموصوف، وإقامة الصفة مقامه، لا يجوز إلا في مواضع محصورة، وليس هذا منها.

﴿إِذۡ﴾: ظرف لما مضى من الزمان مبني على السكون في محل نصب متعلق بالفعل ﴿بَلَوۡنَآ﴾، وقال الجمل: ﴿إِذۡ﴾ تعليلية، أو ظرفية بنوع تسمح؛ لأن الإقسام كان قبل ابتلائهم. ﴿أَقۡسَمُواْ﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿إِذۡ﴾ إليها.

﴿لَيَصۡرِمُنَّهَا﴾: (اللام): واقعة في جواب القسم. (يصرمنها): فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه النون المحذوفة لتوالي الأمثال، وواو الجماعة المحذوفة، المدلول عليها بالضمة فاعله،(وها): مفعول به، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها. ﴿مُصۡبِحِينَ﴾: حال من فاعل ﴿لَيَصۡرِمُنَّهَا﴾ منصوب، وعلامة نصبه الياء. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف، أو حالية، أو استئناف. (لا): نافية. ﴿يَسۡتَثۡنُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع. . .إلخ، والواو فاعله، والجملة الفعلية

معطوفة على جملة جواب القسم. وقال الجمل: وجوز بعضهم الحالية، وهي أظهر في المعنى. وقال الجلال: مستأنفة، وأرى صحة عطفها على جواب القسم؛ ولاسيما إذا كان المعنى: لا يتركون شيئاً للمساكين. تأمل، وتدبر.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾

الشرح: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: نزل عليها عذاب ﴿مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾، ولا يكون الطائف إلا في الليل. قاله الفراء، وقال به الخازن. ورد بقوله تعالى في سورة (الأعراف) رقم [٢٠١]: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ والطائف في الشر. ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ أي: فأصبحت جنتهم محترقة سوداء كالليل المظلم، كما في قوله تعالى في سورة (الكهف) رقم [٤٢]: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ...﴾ إلخ. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كالرماد الأسود، قال: الصريم الرماد الأسود بلغة خزيمة. قال البيضاوي ـ رحمه الله تعالى ـ: أي: أصبحت كالبستان الذي صرم ثماره بحيث لم يبق فيه شيء. فعيل بمعنى مفعول، أو كالليل باحتراقها واسودادها، أو كالنهار بابيضاضها من فرط اليبس، سميا بالصريم؛ لأن كلاً منهما ينصرم عن صاحبه، وهذا يعني: أن الصريم من الأضداد يقع على الأسود، والأبيض، وانظر الأضداد في سورة (التكوير) إن شاء الله تعالى.

فعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إيَّاكَ والمعاصي! إنَّ العبدَ لَيذنبُ الذنبَ، فيُحْرَمُ بهِ رِزْقاً، قدْ كَانَ هُيِّئَ لَهُ**». ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ أخرجه ابن أبي حاتم. انتهى. مختصر ابن كثير.

وفي هذه الآية دليل على أن العزم مما يؤاخذ به الإنسان؛ لأنهم عزموا على أن يفعلوا، فعوقبوا قبل فعلهم، ونظيره قوله تعالى في سورة (الحج) رقم [٢٥]: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وعن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذَا التقَى المسلمانِ بِسَيْفَيْهِمَا فالقاتِلُ والمقتولُ في النارِ**». قلت: يا رسول الله! هذا القاتل؛ فما بال المقتول؟! قال: «**إنَّهُ كَانَ حَريصاً على قَتْلِ صَاحِبِه**». رواه البخاري، وهذا محمول على العزم المصمم، أما ما يخطر بالبال من غير عزم؛ فلا يؤاخذ به. انتهى. قرطبي. انظر ما ذكرته في سورة (البقرة) رقم [٢٨٣] وخذ قول الفرزدق: [الطويل]

وَلَسْتَ بِمَأْخُوذٍ بِلَغْوٍ تَقُولُهُ ... إذَا لَمْ تُعَمِّدْ عَاقِدَاتُ الْعَزَائِمِ

الإعراب: ﴿فَطَافَ﴾: (الفاء): حرف عطف. (طاف): فعل ماض. ﴿عَلَيْهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿طَآئِفٌ﴾: فاعله، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾: متعلقان بـ: ﴿طَآئِفٌ﴾، أو بمحذوف صفة له، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل

لمفعوله. وفاعله مستتر فيه. ﴿وَهُمْ﴾: (الواو): واو الحال. (هم): ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿نَآئِمُونَ﴾: خبره مرفوع، وعلامة رفعه الواو؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد، والجملة الاسمية في محل نصب حال من فاعل ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾، والرابط: الواو، والضمير، وعليه فالجملة الفعلية معترضة بين الحال وصاحبها. ﴿فَأَصْبَحَتْ﴾: (الفاء): حرف استئناف، (أصبحت): فعل ماض ناقص، والتاء للتأنيث حرف لا محل له، واسمه مستتر تقديره: «هي»، يعود إلى ﴿الْجَنَّةِ﴾. ﴿كَالصَّرِيمِ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر (أصبح). هذا؛ وإن اعتبرت الكاف اسماً بمعنى: مثل؛ فهي الخبر، وتكون مضافةً، و(الصريم) مضاف إليه، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. وقيل: معطوفة على ما قبلها.

﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾

الشرح: ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾: فنادى بعضهم بعضاً في الصباح، أو عند الصباح. ﴿أَنِ اغْدُوا﴾: باكروا. ﴿عَلَى حَرْثِكُمْ﴾ أي: الزروع، والثمار، والأعناب الموجودة في الجنة. ولم يقل: إلى حرثكم؛ لأن الغدو إليه؛ ليصرموه كان غدواً عليه. أو ضمن الغدو معنى الإقبال، أي: فأقبلوا على حرثكم مبكرين. انتهى. نسفي. وفي البيضاوي: وتعدية الفعل بـ: ﴿عَلَى﴾ إما لتضمنه معنى الإقبال، أو لتشبيه الغدو للصرام بغدو العدو المتضمن الاستيلاء. ﴿إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾: تريدون قطع ثمار بستانكم.

الإعراب: ﴿فَتَنَادَوْا﴾: (الفاء): حرف عطف، (تنادوا): فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف المحذوفة لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة، التي هي فاعله، والألف للتفريق. ﴿مُصْبِحِينَ﴾: حال من واو الجماعة، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿أَقْسَمُوا...﴾ إلخ وما بينهما اعتراض لبيان مانزل بتلك الجنة. قاله سليمان الجمل. ﴿أَنِ﴾: حرف تفسير. ﴿اغْدُوا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية مفسرة لقوله: (تنادوْا) لا محل لها مثلها. هذا؛ وأجاز السمين وغيره اعتبار(أن) مصدرية تؤول مع الفعل بعدها بمصدر في محل جر بحرف جر محذوف، التقدير: بالغدو، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما. وأعتمد الأول؛ لأن ﴿أَنِ﴾ مسبوقة بجملة فيها معنى القول دون حروفه. ﴿عَلَى حَرْثِكُمْ﴾: متعلقان بما قبلهما، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والتاء اسمه. ﴿صَارِمِينَ﴾: خبر (كان)، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه، والجملة الشرطية مرتبطة بما قبلها، لا محل لها مثلها، وهي في المعنى في محل نصب مفعول به لـ: (تنادوا).

﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥)﴾

الشرح: ﴿فَانطَلَقُوا﴾: خرجوا من بيوتهم مبكرين. ﴿وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ أي: يتناجون فيما بينهم، بحيث لا يُسمعون أحداً كلامهم. وهو من: خفت، يخفت: إذا سكن، ولم يبين، كما قال دريد بن الصمة: [الطويل]

وَإِنِّي لَمْ أَهْلِكْ سُلالاً وَلَمْ أَمُتْ ... خُفَاتاً وَكُلّاً ظَنَّهُ بِي عُوَّدِي

وقيل: يخفون أنفسهم من الناس؛ حتى لا يروهم. وكان أبوهم يخبر الفقراء، والمساكين؛ ليحضروا، كما قد رأيت فيما سبق، ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ أي: كان يقول بعضهم لبعض: لا تمكنوا اليوم مسكيناً يدخلها عليكم! قال الجمل نقلاً عن شيخه: أصل الكلام: أن لا تدخلوها مسكيناً، فأوقع النهي على دخول المساكين؛ لأنه أبلغ؛ لأن دخولهم أعم من أن يكون بإدخالهم، أو بدونه. انتهى.

﴿وَغَدَوْا﴾ أي: ساروا إليها غدوة. ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ أي: على قصد، وقدرة في أنفسهم، ويظنون أنهم تمكنوا من مرادهم، والحرْد: القصد، ومنه قول الراجز: [الرجز]

أَقْبَلَ سَيْلٌ جَاءَ مِنْ عِنْدِ الله ... يَحْرِدُ حَرْدَ الْجَنَّةِ الْمُغِلَّهْ

قال المبرد: المغلة: ذات الغلة. وقال غيره: المغلة: التي يجري الماء في أصولها. هذا؛ والحرْد: الغضب، ومنه قول الشاعر: [الرجز]

إِذَا جِيَادُ الْخَيْلِ جَاءَتْ تَرْدِي ... مَمْلُوءَةً مِنْ غَضَبٍ وَحَرْدِ

هذا؛ وقال الأصمعي: رجل حريد، أي: فريد وحيد. قال: والمنحرد: المنفرد في لغة هذيل: وأنشد لأبي ذؤيب: [البسيط]

كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ فِي الْجَوِّ مُنْحَرِدُ

وقال الأزهري: ﴿حَرْدٍ﴾ اسم قريتهم. وقال السدي: اسم جنتهم، وفيه لغتان: حَرْد، وحَرَد، ومعنى ﴿قَادِرِينَ﴾ أي: في زعمهم على جنتهم، وثمارها، فلا يحول بينهم، وبينها أحد. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿فَانطَلَقُوا﴾: (الفاء): حرف عطف. (انطلقوا): ماض، وفاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية معطوفة على جملة (تنادَوْا. . .) إلخ. ﴿وَهُمْ﴾: (الواو): واو الحال، (هم): مبتدأ. ﴿يَتَخَافَتُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر

المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الواو، والضمير. ﴿أَن﴾: تحتمل المفسرة، والناصبة. ﴿لَّا﴾: نافية. ﴿يَدْخُلَنَّهَا﴾: فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، التي هي حرف لا محل لها، و(ها): مفعول به ﴿الْيَوْمَ﴾: ظرف زمان متعلق بما قبله. ﴿عَلَيْكُم﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿مِّسْكِينٌ﴾: فاعل ﴿لَّا يَدْخُلَنَّهَا﴾ والجملة الفعلية لا محل لها على اعتبارها مفسرة للمخافتة، وعلى اعتبار ﴿أَن﴾ مصدرية، تؤول مع الفعل بمصدر في محل جر بحرف جر محذوف، التقدير: بأن. . .إلخ، والجار والمجرور متعلقان بالفعل ﴿يَتَخَافَتُونَ﴾. ﴿وَغَدَوْا﴾: (الواو): حرف عطف، (غدوا): فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف المحذوفة، لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة، التي هي فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: (انطلقوا. . .) إلخ. ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿قَادِرِينَ﴾: حال من واو الجماعة. هذا؛ وأجيز اعتبار (غدَوْا) ناقصاً، والواو اسمه، و﴿قَادِرِينَ﴾ خبره، والجار والمجرور ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ متعلقين بـ: ﴿قَادِرِينَ﴾، كما أجيز اعتبار الجار والمجرور متعلقين بمحذوف خبر (غدوْا) واعتبار ﴿قَادِرِينَ﴾ خبراً ثانياً، وعلى اعتبار (غدوْا) تاماً يجوز اعتبار الجار والمجرور متعلقين بمحذوف حال من واو الجماعة، و﴿قَادِرِينَ﴾ حال ثانية، أو هي حال متداخلة من ضمير الحال الأولى.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾

الشرح: أي: فلما رأوا جنتهم بعد أن وصلوا إليها، وأشرفوا عليها، وهي على الحالة؛ التي قال الله عز وجل قد استحالت عن تلك النضارة، والزهوة، وكثرة الثمار، إلى أن صارت سوداء مدلهمة، لا ينتفع بشيء منها؛ فاعتقدوا: أنهم قد أخطؤوا الطريق، ولهذا قالوا: ﴿إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ أي: قد سلكنا إليها غير الطريق، فتهنا عنها، ثم تيقنوا: أنها هي، فقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي: بل هذه هي، ولكن نحن لا حظ لنا، ولا نصيب، حيث حرمنا هذه الجنة، بسبب منعنا المساكين منها، ومن دخولها.

الإعراب: ﴿فَلَمَّا﴾: (الفاء): حرف استئناف. (لمَّا): حرف وجود لوجود عند سيبويه، وبعضهم يقول: حرف وجوب لوجوب. وهي عند ابن السراج، والفارسي، وابن جني، وجماعة ظرف زمان بمعنى: حين، تتطلب جملتين مرتبطتين ببعضهما ارتباط فعل الشرط بجوابه. وصوب ابن هشام الأول، والمشهور الثاني. ﴿رَأَوْهَا﴾: فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف المحذوفة لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة، التي هي فاعله، و(ها): مفعوله، واكتفى الفعل به؛ لأنه بصري، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (لمَّا) إليها على اعتبارها ظرفاً، ولا محل لها على اعتبار (لمَّا) حرفاً. ﴿قَالُوا﴾: ماض، وفاعله، والألف للتفريق. ﴿إِنَّا﴾: (إنَّ): حرف مشبه

بالفعل، (ونا): اسمها. حذفت نونها، وبقيت الألف دليلاً عليها. ﴿لَضَآلُّونَ﴾: (اللام): هي المزحلقة. (ضالون): خبر (إنَّ) مرفوع. . . إلخ، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالُوٓا۟...﴾ إلخ جواب (لمَّا)، لا محل لها، و(لمَّا) ومدخولها كلام مستأنف، لا محل له. ﴿بَلْ﴾: حرف عطف، وإضراب. ﴿نَحْنُ﴾: ضمير منفصل مبني على الضم في محل رفع مبتدأ. ﴿مَحْرُومُونَ﴾: خبره مرفوع، وعلامة رفعه الواو. . . إلخ. والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، أو مستأنفة، لا محل لها على الاعتبارين.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾﴾

الشرح: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أي: أعدلهم، وأعقلهم، وأفضلهم. وقيل: أوسطهم سناً. ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾: فهذا يدل على أنه نبههم، ووعظهم قبل إقدامهم على ما صنعوا من حرمان المساكين من جنة أبيهم. ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾: هلا تذكرون الله، وتتوبون إليه من خبث نيتكم، وسوء عملكم! قال لهم ذلك حين عزموا على ذلك: اذكروا الله، وانتقامه من المجرمين، وتوبوا من هذه العزيمة الخبيثة من فوركم، وسارعوا إلى الإعراض عنها قبل حلول النقمة. فعصَوْه، فذكرهم ذلك. هذا؛ وقال البيضاوي: أو المعنى: لولا تستثنون، فسمى الاستثناء تسبيحاً، لتشاركهما في التعظيم، أو لأنه تنزيه عن أن يجري في ملكه ما لا يريده. انتهى. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿قَالَ﴾: فعل ماض. ﴿أَوْسَطُهُمْ﴾: فاعل، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿أَلَمْ﴾: (الهمزة): حرف استفهام، وتقرير. (لم): حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿أَقُل﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: (لم)، والفاعل مستتر تقديره: «أنا». ﴿لَّكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿لَوْلَا﴾: حرف تحضيض. ﴿تُسَبِّحُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، ومفعوله محذوف، التقدير: ألم أقل لكم: إن ما فعلتموه لا ينبغي أن يكون، واستغفروا ربكم وتوبوا إليه من هذه النية الخبيثة، والكلام كله في محل نصب مقول الأول، والجملة الفعلية: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ...﴾ إلخ مستأنفة، لا محل لها.

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

الشرح: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ...﴾ إلخ: اعترفوا بالمعصية، وهي خبث النية، وسوء العمل، ونزهوا الله عن أن يكون ظالماً فيما فعل بهم من إهلاك جنتهم. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: معناه: نستغفر الله من ذنوبنا. ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي: لأنفسنا بمنعنا المساكين حقوقهم في ثمار الجنة وزرعها. ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾: يلوم بعضهم بعضاً، يقول هذا لهذا: أنت رغبتنا في جمع المال، ثم نادوْا على أنفسهم بالويل، والثبور، وعظائم الأمور. وهو ما في الآية التالية.

هذا؛ و(سبحان) اسم مصدر. وقيل: هو مصدر، مثل: غفران. وليس بشيء؛ لأن الفعل: سبَّح بتشديد الباء، والمصدر: تسبيح، ولا يكاد يستعمل إلا مضافاً منصوباً بإضمار فعله مثل معاذ الله، وقد أجري علماً على التسبيح بمعنى: التنزيه على الشذوذ في قول الأعشى: [السريع]

قَدْ قُلْتُ لَمَّا جاءَنِي فَخْرُهُ ... سُبْحَانَ مَنْ عَلْقَمَةُ الفَاخِرُ

وتصدير الكلام به اعتذار عن الاستفسار، والجهل بحقيقة الحال، ولذلك جعل مفتاح التوبة بقوله تعالى حكاية عن قول موسى ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ: ﴿سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وقد نزه الله ذاته في كثير من الآيات بنفسه تنزيهاً يليق بجلاله، وعظمته. وجملة القول فيه: هو اسم موضوع موضع المصدر، وهو غير متمكن؛ لأنه لا يجري بوجوه الإعراب، من رفع وجر، ولا تدخل عليه الألف واللام، ولم يجئ من لفظه فعل، وذلك مثل: قعد القرفصاء، ولم ينصرف؛ لأن آخره زائدتين: الألف والنون. ومعناه التنزيه، والبراءة لله عز وجل من كل نقص، فهو ذكر لله تعالى، لا يصلح لغيره، وقد روي عن طلحة الخير بن عبيد الله، أحد العشرة المبشرين بالجنة ـ رضي الله عنهم ـ أنه قال للنبي ﷺ: ما معنى سبحان الله؟ فقال: «**تَنْزِيهُ اللهِ مِنْ كُلِّ سُوءٍ**». والعامل فيه على مذهب سيبويه الفعل؛ الذي مِنْ معناه، لا مِنْ لفظه؛ إذ لم يجر له من لفظه فعل، وذلك مثل: قعد القرفصاء، فالتقدير عنده: أنزه الله تنزيهاً. فوقع: «سبحان الله» مكان قولك: «تنزيهاً لله». وقال الكسائي: هو منصوب على أنه نداء مضاف، وليس بشيء.

الإعراب: ﴿قَالُواْ﴾: ماض، وفاعله، والألف للتفريق. ﴿سُبْحَٰنَ﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف، كما رأيت في الشرح، وهو مضاف، و﴿رَبِّنَآ﴾ مضاف إليه من إضافة اسم المصدر لفاعله، فيكون المفعول محذوفاً، أو من إضافته لمفعوله، فيكون الفاعل محذوفاً، (ونا): في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿إِنَّا﴾: حرف مشبه بالفعل، ونا في محل نصب اسمها. ﴿كُنَّا﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون، و(نا): اسمها. ﴿ظَٰلِمِينَ﴾: خبر (كان)، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ)، والكلام: ﴿سُبْحَٰنَ...﴾ إلخ في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالُواْ...﴾ إلخ مستأنفة، لا محل لها. ﴿فَأَقْبَلَ﴾: (الفاء): حرف عطف. (أقبل) فعل ماض. ﴿بَعْضُهُمْ﴾: فاعل، والهاء في محل جر بالإضافة، ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿يَتَلَٰوَمُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع... إلخ، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب حال من ﴿بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، والرابط: الضمير.

﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾﴾

الشرح: ﴿قَالُواْ﴾: حين رأوْا ما حل بجنتهم من الهلاك: ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾: يا هلاكنا! دعوا على أنفسهم بالويل، والثبور، وعظائم الأمور. ﴿إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾: ظالمين، متجاوزين ما كان يفعله

آباؤنا؛ حيث منعنا حق الفقراء والمساكين في ثمار هذه الجنة، وزروعها. وقيل: معناه: طغينا في نعم الله تعالى، فلم نشكرها؛ حيث لم نصنع فيها ما كان يصنعه آباؤنا من قبلنا؛ حتى أصابنا ما أصابنا. فقد استعظموا جرمهم ورجعوا إلى أنفسهم بالندامة، والملامة.

الإعراب: ﴿قَالُواْ﴾: ماض، وفاعله، والألف للتفريق. (يا): أداة نداء، والمنادى محذوف، كأنهم قالوا لبعضهم: يا هؤلاء ويلاً لنا! فلما أضاف؛ حذف اللام الثانية، وعليه فـ: (ويلاً) مصدر مفعول مطلق فعله محذوف، و(نا): ضمير متصل في محل جر بالإضافة. وهذا قاله الجلال، وأيده سليمان الجمل، وقول لمكي. وأجيز اعتبار (ويلنا): منادًى، فيكون المعنى قالوا: تعال يا ويل هذا زمانك، وإبانك! وقال الكوفيون: إن (وَيْ) كلمة برأسها، و(لنا) جار ومجرور متعلقان به. ولا معنى لهذا إلا بتأويل بعيد، وهو أن يكون التقدير: يا عجب لنا. لأن (وَيْ) تفسر بمعنى: أعجب منا. انتهى. جمل، وعليه: يكونون قد نادوا العجب، وهو كلام لا معنى له. ﴿إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾: مثل إعراب: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ في الآية [٢٩] بلا فارق، والكلام في محل نصب مقول القول.

﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾

الشرح: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ﴾: هذا رجوع منهم إلى الرجاء، والطمع في فضل الله، وكرمه، وجوده، روي: أنهم أبدلوا خيراً منها. وقال القرطبي: تعاقدوا، وقالوا: إن أبدلنا الله خيراً منها؛ لنصنعن كما صنعت آباؤنا، فدعوا الله، وتضرعوا، فأبدلهم الله من ليلتهم ما هو خير منها. وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: إن القوم أخلصوا، وعرف الله منهم صدقهم، فأبدلهم جنة، يقال لها: الحيوان، فيها عنب يحمل البغل منها عنقوداً واحداً. وقال أبو خالد اليماني: دخلت تلك الجنة، فرأيت كل عنقود منها كالرجل الأسود القائم. وقال الحسن: قول أهل الجنة: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ لا أدري إيماناً كان ذلك منهم، أو على حد ما يكون من المشركين؛ إذا أصابتهم الشدة، فيوقف في كونهم مؤمنين. وسئل قتادة عن أصحاب أهل الجنة، أهم من أهل الجنة، أم من أهل النار؟ فقال: لقد كلفتني تعباً، والكثير يقولون: إنهم تابوا، وأخلصوا.

أقول: والمعتمد: أنهم كانوا من أهل الإيمان، وما قول ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عنك ببعيد، وذكر بعض السلف: أن هؤلاء كانوا من أهل اليمن. وقيل: كانوا من أهل الجنة.

تنبيه: معنى ﴿رَٰغِبُونَ﴾ راجعون، وعُدِّيَ بـ: ﴿إِلَىٰ﴾ وهو إنما يتعدى بـ: «عن» أو بـ: «في» لتضمينه معنى الرجوع. وينبغي أن تعلم: أن «رغب» وما يتصرف منه يتغير معناه بتغير الجار الذي يتعلق به، قال تعالى في سورة (النساء) رقم [١٢٧]: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ فإن التقدير: في أنْ، أو عن أنْ تنكحوهن، والأول يدل على الرغبة فيهن، والثاني يدل على عدم الرغبة فيهن، ولذا كان قول القائل ـ وهو الشاهد رقم [٩٢٥] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ محتملاً للمدح والذم: [الطويل]

وَيَـرْغَـبُ أَنْ يَـبْـنِـي الْـمَـعَـالِـيَ خَـالِـدٌ وَيَـرْغَـبُ أَنْ يَـرْضَـى صَـنِـيـعَ الأَلَائِـمِ

حيث حذف الجار قبل «أن» في الموضعين، وهو محتمل؛ لأن يكون: «في» أو «عن» في الموضعين، فإن قدر «في». أولاً و«عن». ثانياً كان مدحاً، وإن عكس كان ذماً، ولا يجوز أن يقدر فيهما معاً (في)، أو (عن) للتناقض كما هو ظاهر بأدنى تأمل، ومثل هذا الفعل: «ادعى» يقال: ادَّعى فلان في بني هاشم: إذا انتسب إليهم، وادَّعى عنهم: إذا عدل بنسبه عنهم، ومثله أيضاً: «عدل» و«مال» و«انحرف» وغير ذلك كثير، وهذا مما يدل على اتساع اللغة العربية، وشمولها.

الإعراب: ﴿عَسَىٰ﴾: فعل ماض جامد، يدل على الرجاء، مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر. ﴿رَبُّنَآ﴾: اسم ﴿عَسَىٰ﴾ و(نا): في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، ﴿أَن﴾: حرف مصدري ونصب. ﴿يُبْدِلَنَا﴾: فعل مضارع منصوب بأن، والفاعل يعود إلى ربنا، و(نا) مفعول به أول، و(أنْ) والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل نصب خبر ﴿عَسَىٰ﴾ والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول. ﴿خَيْرًا﴾: مفعول به ثان. ﴿مِّنْهَآ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: ﴿خَيْرًا﴾. ﴿إِنَّآ﴾: حرف مشبه بالفعل، و(نا): اسمها. ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا﴾: متعلقان بما بعدهما، و(نا): في محل جر بالإضافة... إلخ. ﴿رَٰغِبُونَ﴾: خبر (إنَّ) مرفوع، وعلامة رفعه الواو... إلخ، والجملة الاسمية تعليل للرجاء، وهي من جملة القول.

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

الشرح: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: عذاب الدنيا، وهلاك الأموال. عن ابن زيد. وقيل: إن هذا؛ وعظ لأهل مكة بالرجوع إلى الله لما ابتلاهم بالجدب والقحط، لدعاء النبي ﷺ، أي: كفعلنا بهم نفعل بمن تعدى حدودنا في الدنيا. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ...﴾ إلخ، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هذا مثل لأهل مكة حين خرجوا إلى بدر، وحلفوا: ليقتلن محمداً ﷺ وأصحابه، وليرجعن إلى مكة؛ حتى يطوفوا بالبيت، ويشربوا الخمر، وتضرب القينات على رؤوسهم؛ فأخلف ظنهم، وأُسِروا، وقُتِلوا، وهُزِموا كأهل هذه الجنة لمَّا خرجوا عازمين على الصرام، فخابوا. انتهى. قرطبي. أقول: قد تقدم: أن السورة مكية، فيبعد حمل الآية على ما أصاب أهل مكة يوم بدر، والأولى حملها على ما أصاب قريشاً من الجدب، والقحط. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

هذا؛ والمراد بـ: ﴿ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ الحياة؛ التي تكون بعد الموت، وما فيها من نعيم مقيم، أو عذاب أليم، وهي الحياة الثانية الأبدية التي تكون بعد البعث والنشور، وبعد الحساب والجزاء، وهي في الجنة لمن آمن، وعمل صالحاً، وفي النار لمن كفر، وعمل سيئاً. ورحم الله من قال: [البسيط]

الـمـوتُ بـابٌ وَكُـلُّ الـنـاسِ دَاخِـلُـهُ فَـلَـيْـتَ شِـعْـرِي بَـعْـدَ الـبـابِ مَـا الـدَّارُ؟

ورحم الله من أجابه بقوله: [البسيط]

الـدارُ جـنـةُ عَـدْنٍ إنْ عَـمِـلْـتَ بِـمَـا يُـرْضـي الإلـهَ وإنْ خَـالَـفْـتَ فـالـنـارُ
هـمَـا مـحـلَّانِ مـا لـلـنـاسِ غَـيْـرُهُـمَـا فَـانْـظُـرْ لِـنـفـسِـكَ مَـاذَا أنْـتَ مُـخْـتَـارُ

الإعراب: ﴿كَذَٰلِكَ﴾: (الكاف): حرف تشبيه، وجر، و(ذا): اسم إشارة مبني على السكون في محل جر بالكاف، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿ٱلْعَذَابُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها. ﴿وَلَعَذَابُ﴾: (الواو): حرف عطف. (اللام): لام الابتداء. (عذاب): مبتدأ، وهو مضاف، و﴿ٱلْآخِرَةِ﴾ مضاف إليه. ﴿أَكْبَرُ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها، وإن اعتبرتها في محل نصب حال من العذاب؛ فالمعنى لا يأباه، ويكون الرابط: الواو، وإعادة ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ بلفظه. ﴿لَوْ﴾: حرف لما كان سيقع لوقوع غيره. ﴿كَانُوا﴾: فعل ماض ناقص مبني على الضم، والواو اسمه، والألف للتفريق، ﴿يَعْلَمُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع... إلخ، والواو فاعله، والمفعول محذوف للتعميم، والجملة الفعلية في محل نصب خبر (كان)، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية. ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف، التقدير: لو كانوا يعلمون العذاب الأليم؛ لآمنوا، وسارعوا إلى ما يرضي الله تعالى. و﴿لَوْ﴾ ومدخولها كلام معترض في آخر الكلام، مفاده: بيان شدة العذاب في الآخرة. لا محل له.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾

الشرح: المعنى: إن للمتقين في الآخرة جنات ليس فيها إلا التنعم الخالص، لا يشوبه ما ينغصه، كما يشوب جنات الدنيا. ولما نزلت هذه الآية، وسمعها كفار قريش؛ قالوا: إن صح أنا نبعث، كما يزعم محمد، ومن معه؛ لم يكن حالنا، وحالهم إلا مثل ما هي في الدنيا، وإلا لم يزيدوا علينا، ولم يفضلونا! وهذا ظن منهم: أن السعيد في الدنيا سعيد في الآخرة بعد الموت. وقد حكى القرآن الكريم مثل هذا عن الكافر العاص بن وائل، وذلك في سورة (مريم) على نبينا، وعليها ألف صلاة، وألف سلام: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾. هذا؛ والعندية عندية تشريف، وتكريم، لا عندية مكان، وتقريب.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف في محل رفع خبر ﴿إِنَّ﴾ تقدم على اسمها. ﴿عِندَ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر ثان، أو بالخبر المحذوف نفسه، أو بمحذوف حال من الضمير المستتر في الخبر المحذوف. وأجاز أبو البقاء اعتباره متعلقاً بمحذوف حال من ﴿جَنَّٰتِ﴾، و﴿عِندَ﴾ مضاف، و﴿رَبِّهِمْ﴾ مضاف إليه، والهاء في

محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿جَنَّٰتِ﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم، و﴿جَنَّٰتِ﴾ مضاف، و﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ مضاف إليه، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ...﴾ إلخ ابتدائية، أو مستأنفة، لا محل لها على الاعتبارين.

﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

الشرح: ﴿أَفَنَجْعَلُ...﴾ إلخ: استفهام إنكاري توبيخي، ورد لقولهم: لو كان ما يقوله محمد حقاً، فنحن نعطى في الآخرة خيراً مما يعطى هو ومن معه كما في الدنيا، وكأن العبارة مقلوبة، والأصل: أفنجعل المجرمين كالمسلمين؟؛ لأنهم جعلوا أنفسهم كالمسلمين، بل أفضل؟! فالمناسب: أن الإنكار متوجه لجعلهم المذكور. تأمل. انتهى. جمل. هذا؛ وفحوى هذه الآية مثل قوله تعالى في سورة (الحشر) رقم [٢٠]: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ...﴾ إلخ، وقوله تعالى في سورة (المائدة) رقم [١٠٠]: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ وفي سورة (السجدة) رقم [١٨]: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ وفي سورة (ص) رقم[٢٨]: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ وفي سورة (الجاثية) رقم [٢١]: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ...﴾ إلخ.

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا الحكم الأعوج، كأن أمر الجزاء مفوض إليكم حتى تحكموا فيه بما شئتم أن لكم من الخير ما للمسلمين المطيعين الممتثلين أمر الله فيما أمر، وفيما نهى عنه. وفي الآية التفات إلى الخطاب بعد التكلم فيما قبلها، وانظر الالتفات في سورة (الملك) [٢٠]. ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ﴾ أي: منزل من عند الله. ﴿فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾: تقرؤون فيه: أن المسلم مثل المجرم، والمطيع مثل العاصي، فهو كقوله تعالى في سورة (الصافات) رقم [١٥٦ و١٥٧]: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾. ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ أي: لكم في هذا الكتاب ما تختارون، وما تشتهون. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿أَفَنَجْعَلُ﴾: (الهمزة): حرف استفهام توبيخي. (الفاء): حرف عطف. (نجعل): فعل مضارع، والفاعل مستتر، تقديره: «نحن». ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾: مفعول به أول. ﴿كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾: (الكاف): اسم بمعنى مثل مبنية على الفتح في محل نصب مفعول به ثان، والكاف مضاف، و(المجرمين) مضاف إليه، والجملة الفعلية معطوفة على جملة محذوفة؛ إذ التقدير: أنحيف في الحكم، فنجعل المسلمين كالمجرمين؟! والكلام مستأنف، لا محل له. ﴿مَا﴾: اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ،

والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها. ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام مبني على الفتح في محل نصب حال من واو الجماعة. ﴿تَحْكُمُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها أيضاً. وقيل: حالية. ولا وجه له؛ لأنها إنشائية، والإنشاء لا يقع حالاً.

﴿أَمْ﴾: حرف عطف بمعنى: بل، وهمزة الاستفهام. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم، ﴿كِتَٰبٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل بعدهما. ﴿تَدْرُسُونَ﴾: فعل مضارع، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب حال من كاف الخطاب، والرابط: الضمير. ويجوز اعتبارها في محل رفع صفة ﴿كِتَٰبٌ﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ﴿إِنَّ﴾ تقدم على اسمها، ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل بعدهما. وقيل: متعلقان بمحذوف حال، ولا وجه له ألبتة. ﴿لَمَا﴾: (اللام): لام الابتداء. (ما): اسم موصول مبني على السكون في محل نصب اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر. ﴿تَخَيَّرُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية صلة (ما) والعائد محذوف، التقدير: إن لكم فيه للذي تتخيرونه فيه، وقد حذفت تاء المضارعة من أوله.

هذا؛ والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ...﴾ إلخ في محل نصب مفعول به للفعل ﴿تَدْرُسُونَ﴾ وكان حق همزة ﴿إِنَّ﴾ أن تفتح، والمعنى عليه؛ ولكنها كسرت لدخول لام الابتداء في خبرها، ولام الابتداء من المعلقات عن العمل، قال ابن مالك ـ رحمه الله تعالى ـ في ألفيته: [الرجز]

وَكَسَرُوا مِنْ بَعْدِ فِعْلٍ عُلِّقَا ... بِاللَّامِ كَاعْلَمْ إِنَّهُ لَذُو تُقَى

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾﴾

الشرح: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ﴾ أي: عهود، ومواثيق. ﴿عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ﴾: البالغة: المؤكدة بالله تعالى، والمعنى: ألكم عهود، ومواثيق على الله تعالى استوثقتم بها في أن يدخلكم الجنة، وأن تكونوا في الآخرة كما كنتم في الدنيا منعمين مرفهين مع إصراركم على الكفر، ومحاربة الرسول ﷺ؟! ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ به لأنفسكم: أنه واجب على الله أن ينيلكم إياه.

الإعراب: ﴿أَمْ﴾: حرف عطف بمعنى بل، وهمزة الاستفهام. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿أَيْمَٰنٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها. ﴿عَلَيْنَا﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة ﴿أَيْمَٰنٌ﴾. ﴿بَٰلِغَةٌ﴾: صفة ثانية لـ: ﴿أَيْمَٰنٌ﴾. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ﴾: متعلقان بـ: ﴿بَٰلِغَةٌ﴾، أو بمحذوف صفة ثالثة لـ: ﴿أَيْمَٰنٌ﴾. التقدير: أيمان ثابتة إلى يوم القيامة. وأجاز الزمخشري، والجمل تعليقهما بالخبر المحذوف؛ الذي تعلق به ﴿لَكُمْ﴾، التقدير: ثابتة لكم علينا إلى يوم القيامة، لا تخرج عن عهدتها إلا يومئذ إذا حكّمناكم، وأعطيناكم ما تحكمون، و﴿يَوْمِ﴾ مضاف، و﴿ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ مضاف إليه. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿لَكُمْ﴾: جار

ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ﴿إِنَّ﴾ مقدم. ﴿لَمَا﴾: (اللام): لام الابتداء. (ما): اسم موصول مبني على السكون في محل نصب اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها، والعائد محذوف، التقدير: إن لكم للذي تحكمونه، والجملة الاسمية هذه جواب ﴿أَيْمَنٌ﴾؛ لأنه بمعنى القسم، لا محل لها.

﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ ۝٤٠ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ۝٤١﴾

الشرح: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ أي: اسأل يا محمد هؤلاء المتقولين بأن لهم في الآخرة مثل ما للمؤمنين من النعيم المقيم، والعزة، والكرامة: أي واحد كافل لهم ذلك الذي يتمنونه؟! و﴿زَعِيمٌ﴾ بمعنى: كفيل، وضامن. وقد جاء اللفظ في سورة (يوسف) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام رقم [٧٢]: ﴿قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ﴾ أي: لهم ناس يشاركونهم في هذا القول، ويذهبون مذهبهم فيه. وقيل: المعنى: ألهم شهداء يشهدون بصدق ما ادعوه؟! وفيه نوع من السخرية، والتهكم بهم، حيث يحكمون بأمور خارجة عن العقول، ويرفضها المنطق، وتأباها العدالة الإلهية. ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ﴾: يشهدون على ما زعموا. فهذا أمر تعجيز؛ لأن أحداً لا يسلم لهم هذا، ولا يساعدهم عليه، كما أنه لا كتاب لهم ينطق به، ولا عهد لهم به، ولا كفيل يضمن لهم ما ادعوه.

قال البيضاوي ـ رحمه الله تعالى ـ: وقد نبه الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات على نفي جميع ما يمكن أن يتشبثوا به من عقل، أو نقل يدل عليه الاستحقاق، أو وعد، أو محض تقليد على الترتيب، تنبيهاً على مراتب النظر، وتزييفاً لما لا سند له. انتهى.

الإعراب: ﴿سَلْهُمْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت»، والهاء مفعول به أول. ﴿أَيُّهُم﴾: اسم استفهام مبتدأ، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿بِذَلِكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: ﴿زَعِيمٌ﴾ بعدهما، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب، لا محل لها. ﴿زَعِيمٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب سدت مسد المفعول الثاني لـ: (سَلْ) المعلق عن العمل لفظاً بسبب الاستفهام، والجملة الفعلية: ﴿سَلْهُمْ...﴾ إلخ لا محل لها؛ لأنها مبتدأة، أو مستأنفة. ﴿أَمْ﴾: حرف عطف بمعنى بل، وهمزة الاستفهام. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿شُرَكَآءُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها من جمل.

﴿فَلْيَأْتُوا۟﴾: (الفاء): هي الفصيحة؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر. (اللام): لام الأمر، (يأتوا): فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، وعلامة جزمه حذف النون... إلخ، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جواب شرط غير جازم، التقدير: وإذا كان لهم شركاء؛ فليأتوا... إلخ. ﴿بِشُرَكَآئِهِمْ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، والهاء في محل جر

بالإضافة. ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ماض ناقص مبني على الضم في محل جزم فعل الشرط، والواو اسمه، والألف للتفريق. ﴿صَٰدِقِينَ﴾: خبر ﴿كَانُواْ﴾ منصوب... إلخ، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه، والجملة الشرطية معترضة في آخر الكلام لا محل لها.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾

الشرح: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ أي: عن أمر فظيع، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هي أشد ساعة في يوم القيامة، تقول العرب للرجل إذا وقع في أمر فظيع عظيم، يحتاج فيه إلى الجِد، ومقاساة الشدة: شمِّر عن ساقك؛ إذا قام في ذلك الأمر. ويقال إذا اشتد الأمر في الحرب: كشفت الحرب عن ساق. وسئل ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن هذه الآية، فقال: إذا خفي عليكم شيء من القرآن، فابتغوه في الشعر، فإنه ديوان العرب؛ أما سمعتم قول الشاعر: [الرجز]

سَنَّ لَنَا قَوْمُكَ ضَرْبَ الأَعْنَاقْ وَقَامَتِ الحَرْبُ بِنَا عَلَى سَاقْ

ثم قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو يوم كرب، وشدة. وأنشد أهل اللغة أبياتاً في هذا المعنى فمنها قول حاتم الطائي: [الطويل]

فتَى الحربِ إنْ عَضَّتْ بهِ الحربُ عَضَّهَا وَإنْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا الحربُ شَمَّرَا

وقال الراجز: [الرجز]

قَدْ كَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا فَشُدُّوا وجَدَّتِ الحَرْبُ بكُمْ فَجِدُّوا

وقال آخر: [الرجز]

عجِبْتُ مِنْ نفسِي ومِنْ إشفَاقِهَا ومِنْ طِرادِ الطَيْرِ عن أرْزَاقِهَا

في سَنَةٍ قَدْ كَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا حَمْرَاءَ تبْري اللَّحْمَ عَنْ عُراقِها

العُراق: العظم بغير لحم. ومن ذلك قول جرير: [الطويل]

أَلَا رُبَّ سَاهِي الطرفِ مِنْ آلِ مازنٍ إِذَا شَمَّرَتْ عنْ ساقِها الحربُ شَمَّرا

وقد كثر مثل هذا في كلام العرب؛ حتى صار كالمثل يضرب للأمر العظيم الشديد.

والأصل فيه: أن من وقع في شيء يحتاج فيه إلى الجد شمر عن ساقه، فاستعير الساق والكشف عنها في موضع الشدة. وقيل: يكشف عن ساق جهنم. وقيل: عن ساق العرش. وأما ما روي أن الله يكشف عن ساقه، فإن الله عز وجل يتعالى عن الأعضاء، والتبعيض، وأن

يكشف، ويتغطى. وقيل: يكشف عن نوره عز وجل. وروى أبو موسى عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿عَن سَاقٍ﴾ قال: «**يكشف عن نور عظيم يخرون له سجداً**».

وقال أبو الليث السمرقندي في تفسيره: حدثنا الخليل بن أحمد، قال: حدثنا ابن منيع، قال: حدثنا هدبة، قال: حدثنا حماد بن سلمة عن عدي بن زيد، عن عمارة القرشي، عن أبي بردة، عن أبي موسى، قال: حدثني أبي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ مُثِّلَ لِكُلِّ قوم ما كانُوا يعبدونَ في الدُّنْيَا، فيذهبُ كُلُّ قوم إلى ما كانوا يعبدون، ويبقَى أهلُ التوحيدِ، فيُقَالُ لهمْ: ما تنتظرونَ، وقد ذهبَ الناسُ؟ فيقولون: إن لنا رَبّاً كُنَّا نعبده في الدنيا، ولم نرهُ، قال: وتعرفونه إذا رأيتموهُ؟ فيقولونَ: نعم، فيُقَالُ: فكيفَ تعرِفونَهُ، ولم تَرَوْهُ؟ قالوا: لا شبيهَ لَهُ، فيُكْشَفُ لهم الحِجَابُ، فينظرونَ إلى الله تعالى، فيخِرُّونَ له سجداً، وتبقى أقوامٌ ظُهُورُهُمْ مثلُ صَياصِي البقرِ، فينظرونَ إلى اللهِ تعالَى، فيريدون السجودَ، فلا يستطيعونَ، فذلك قوله تعالى:** ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٍ...﴾ إلخ، **فيقول الله تعالى: عبادي! ارْفعُوا رؤوسكم، فقَدْ جَعَلْتُ بَدَلَ كلِّ رَجُلٍ منكمْ رَجُلاً من اليهود، والنصارى في النار**». قال أبو بردة: فحدثت بهذا الحديث عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ فقال: آلله الذي لا إلهَ إلَّا هوُ لقَدْ حدَّثكَ أبوكَ بهذا الحديث! فحلف له ثلاثة أيمان، فقال ـ رضي الله عنه ـ: ما سمعتُ في أهل التوحيد حديثاً هو أحب إليَّ من هذا!.

وفي الكشاف: فمعنى﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٍ﴾ في معنى: يوم يشتد الأمر، ويتفاقم، ولا كشف ثَمَّ ولا ساق، كما تقول للأقطع الشحيح: يده مغلولة، ولا يد ثَمَّ، ولا غل، وإنما هو مثل في البخل. وأما مَنْ شبَّه؛ فلضيق عطنه، وقلة نظره في علم البيان. والذي غره منه حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «**يكشِفُ الرحمنُ عن ساقِهِ، فأمَّا المؤمنون؛ فيخرون سجداً، وأما المنافقون؛ فتكون ظهورهم طبقاً طبقاً كأن فيها السَّفافيد**». ومعناه: يشتد أمر الرحمن، ويتفاقم هوله، وهو الفزع الأكبر يوم القيامة، انتهى. وهذا الحديث مشهور يروى عن أبي سعيد الخدري وغيره، وهو عند الشيخين من قول النبي ﷺ، والسفافيد جمع: السفود وزن التنور، وهو الحديدة التي يشوى بها اللحم.

وجملة القول: إن الآية من المتشابهات، وفيها مذهبان: مذهب السلف، ومذهب الخلف، فالسلف يقولون: لله ساق تليق به لا نعرفها، ومذهب الخلف التأويل كما رأيت فيما سبق، ومذهب السلف أسلم، ومذهب الخلف أحكم.

الإعراب: ﴿يَوۡمَ﴾: ظرف زمان متعلق بالفعل ﴿فَلۡيَأۡتُواْ﴾، أو هو متعلق بفعل محذوف، تقديره: اذكر يوم. وقال أبو البقاء: وقيل: العامل فيه ﴿خَٰشِعَةً﴾. انتهى. ولا وجه له. ﴿يُكۡشَفُ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول، ﴿عَن سَاقٍ﴾: متعلقان بالفعل ﴿يُكۡشَفُ﴾، وهما في محل رفع نائب فاعله،

والجملة الفعلية في محل جر بإضافة يوم إليها. ﴿وَيُدْعَوْنَ﴾: (الواو): حرف عطف، (يدعون): فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع... إلخ، والواو نائب فاعله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل جر مثلها. ﴿إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿فَلَا﴾: (الفاء): حرف عطف. (لا): نافية، ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها... إلخ.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

الشرح: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾: الخشوع في البصر: الخضوع والذلة، وأضاف الخشوع إلى الأبصار؛ لأن أثر العز، والذل يتبين في نظر الإنسان، فهو من المجاز العقلي. قال تعالى في سورة (القمر) الآية رقم [٧]: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾، وقال في سورة (النازعات): ﴿أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ﴾ يقال: خشع، واختشع: إذا ذل، وخشع ببصره، أي: غضه. ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾: تغشاهم ذلة، ويقال: أرهقه طغياناً، أي: أغشاه إياه، وأرهقه إثماً؛ حتى رهقه، أي: حمله إثماً؛ حتى حمله، وأرهقه عسراً: كلفه إياه، يقال: لا ترهقني، لا أرهقك الله! أي: لا تعسرني، لا أعسرك الله. انتهى. مختار، وفي سورة (عبس): ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾، وفي سورة (يونس) على نبينا وعليه ألف صلاة، وألف سلام قوله تعالى في حق المحسنين: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ رقم [٢٦]، وفي حق المسيئين: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ رقم [٢٧]. قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: وذلك حين يرفع المؤمنون رؤوسهم، ووجوههم أشد بياضاً من الثلج، وتسود وجوه المنافقين والكافرين؛ حتى ترجع أشد سواداً من القار. والرهق: الغشيان، ومنه: غلام مراهق، إذا غشي الاحتلام. ورَهِقَه بالكسر يرهَقه رهَقاً غشيه.

﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ أي: في الدنيا، كانوا يدعون إلى الصلاة المكتوبة بالأذان والإقامة، وذلك: أنهم كانوا يسمعون: حي على الصلاة، حي على الفلاح، فلا يجيبون، قاله إبراهيم التيمي، وسعيد بن جبير، رحمهما الله تعالى. ﴿وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾: معافون أصِحَّاء.

قال كعب الأحبار: والله ما نزلت هذه الآية إلا في الذين يتخلفون عن الجماعات! وكان الربيع بن خثيم قد فلج، وكان يهادى به بين الرجلين إلى المسجد، فقيل له: يا أبا يزيد! لو صليت في بيتك؛ لكانت لك رخصة، فقال: من سمع: حي على الفلاح؛ فليجب؛ ولو حبواً. هذا؛ ودعوتهم إلى السجود يوم القيامة ليست تكليفاً، وإنما هي توبيخ على تركهم السجود في الدنيا حين كانوا سالمين من العلل، والموانع من السجود.

أقول: رحم الله الإمام أحمد حيث أوجب الصلاة في الجماعة إلا لعذر، وهو ما تؤيده الأحاديث الصحيحة، وخذ منها ما يلي: فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله

ﷺ: «مَنْ سَمِعَ النِّدَاءَ، فلمْ يمنعْهُ من اتباعِهِ عذرٌ» ـ قالوا: وما العذر؟ قال: «خَوْفٌ، أو مرضٌ ـ لمْ تُقْبَلْ مِنْهُ الصَّلاةُ الَّتي صَلَّى». رواه أبو داود، وابن ماجه.

وعن معاذ بن أنس ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الْجَفَاءُ كُلُّ الجفاءِ، والكفرُ، والنِّفَاقُ: من سمِعَ مُنَادِيَ اللهِ يُنَادِي إِلَى الصَّلاةِ، فلَا يُجِيبهُ». رواه الإمام أحمد. وفي رواية للطبراني: قال رسول الله ﷺ: «بحَسْبِ الْمُؤْمِنِ مِنَ الشقاءِ، والخيبةِ أنْ يَسْمَعَ المؤذنَ يثوِّب بالصَّلاةِ، فلا يُجِيبُهُ».

وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: أتى ابن أم مكتوم النبي ﷺ فقال: يا رسولَ اللهِ! إنَّ مَنْزِلي شاسعٌ، وأنا مكْفُوفُ البصرِ، وأنا أَسْمَعُ الأذَانَ، قال: «فإنْ سَمِعْتَ الأَذَانَ، فأَجِبْ؛ ولَوْ حَبْواً، أو زَحْفاً». رواه أحمد، والطبراني، وابن حبان.

الإعراب: ﴿خَٰشِعَةً﴾: حال من واو الجماعة. ﴿أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾: فاعل بـ: ﴿خَٰشِعَةً﴾، والهاء في محل جر بالإضافة. وينبغي أن تعلم: أن ﴿خَٰشِعَةً﴾ في الأصل صفة ﴿أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ فلما تقدم النعت المنعوت انتصب، ومثله قوله تعالى في سورة (الأنبياء) رقم [٣]: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمۡۗ﴾. ﴿تَرۡهَقُهُمۡ﴾: فعل مضارع، والهاء مفعول به. ﴿ذِلَّةٞۖ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل نصب حال ثانية من واو الجماعة، والرابط: الضمير فقط. ﴿وَقَدۡ﴾: (الواو): واو الحال. (قد): حرف تحقيق، يقرب الماضي من الحال. ﴿كَانُواْ﴾: ماضٍ ناقص مبني على الضم، والواو اسمه، والألف للتفريق، وجملة: ﴿يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ في محل نصب خبر (كان)، والجملة الفعلية: (قد كانوا...) إلخ في محل نصب حال أخرى من الضمير المنصوب، فهي حال متداخلة، والجملة الاسمية: ﴿وَهُمۡ سَٰلِمُونَ﴾ في محل نصب حال أيضاً من واو الجماعة. فهي حال متداخلة أيضاً، والرابط فيها وفيما قبلها: الواو، والضمير.

﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٤﴾

الشرح: ﴿فَذَرۡنِي﴾: فدعني. فيه تسلية للنبي ﷺ، وتهديد لكل كفار قريش، ومن على شاكلتهم من المكذبين إلى يوم القيامة. ﴿وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ﴾ المراد به: القرآن، والمعنى: خل بيني، وبين المكذبين بالقرآن، لا تشغل بالك بهم، ولا تهتم بشأنهم، وكِلْهم إليَّ، فإني أكفيك إياهم! والخطاب لسيد الخلق، وحبيب الحق ﷺ. ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم﴾: قال الأزهري: سنأخذهم قليلاً قليلاً من حيث لا يحتسبون، وذلك: أن الله تعالى يفتح عليهم من أبواب النعم ما يغتبطون به، ويركنون إليه، ثم يأخذهم على غرتهم أغفل ما يكونون. هذا؛ وأصل الاستدراج: الاستصعاد، أو الاستنزال درجة بعد درجة. قال الضحاك: المعنى: كلما جددوا لنا معصية؛ جددنا لهم نعمة، أي: فيظنوا أن تواتر النعم لطف من الله تعالى بهم، فيزدادون بطراً، وانهماكاً في الضلال؛ حتى يحق عليهم العذاب.

أقول: وهو فحوى قوله تعالى في سورة (مريم) على نبينا، وعليها ألف صلاة، وألف سلام: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ رقم [٧٥]. وعن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**إذَا رَأَيْتُمُ اللهَ يُعْطِي الْعبدَ ما يُحِبُّ، وهُوَ مُقِيمٌ على معصيتهِ فذَلِكَ منهُ تعالَى اسْتِدْرَاجٌ**». ثم تلا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ...﴾ إلخ رقم [٤٤] من سورة (الأنعام)، ذكره البغوي بغير سند، وأسنده الطبري. هذا؛ وقال الحسن البصري ـ رضي الله عنه ـ: كم مستدرَجٍ بالإحسان إليه، وكم مفتون بالثناء عليه، وكم مغرور بالستر عليه.

﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أنه استدراج، بل يعتقدون أن ذلك من الله كرامة، وهو في نفس الأمر إهانة، كما قال تعالى في سورة (المؤمنون) رقم [٥٥]: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾، فعلى المسلم الكامل إذا تجددت له نعمة؛ أن يقابلها بالشكر، وإذا أذنب ذنباً؛ أن يعاجله بالاستغفار، والتوبة.

الإعراب: ﴿فَذَرْنِي﴾: (الفاء): هي الفصيحة؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر، التقدير: إذا كانت أحوالهم كذلك؛ فذرني ومن يكذب... إلخ. (ذرني): فعل أمر، والفاعل تقديره: «أنت»، والنون للوقاية، وياء المتكلم مفعول به، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جواب للشرط المقدر بـ: «إذا»، كما رأيت. ﴿وَمَن﴾: (الواو): حرف عطف. (من): اسم موصول مبني على السكون في محل نصب معطوف على ياء المتكلم، أو على أنه مفعول معه، والأول أرجح، قال ابن مالك ـ رحمه الله تعالى ـ في ألفيته: [الرجز]

وَالْعَطْفُ إِنْ يُمْكِنْ بِلَا ضَعْفٍ أَحَقّْ ... وَالنصبُ مختَارٌ لَدَى عطفِ النَّسقْ

﴿يُكَذِّبُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى (مَنْ) وهو العائد، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿بِهَٰذَا﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، والهاء حرف للتنبيه مقحم بينهما. ﴿ٱلْحَدِيثِ﴾: صفة اسم الإشارة، أو بدل منه. ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾: (السين): حرف تنفيس، واستقبال. (نستدرجهم): فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: «نحن»، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها، ولا تنس: أنه روعي معنى (مَنْ) بالضمير المنصوب، وروعي لفظها بإرجاع فاعل ﴿يُكَذِّبُ﴾ إليها. ﴿مِّنْ حَيْثُ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، و﴿حَيْثُ﴾ مبني على الضم في محل جر بـ: ﴿مِّنْ﴾. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَعْلَمُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والمفعول محذوف للتعميم، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿حَيْثُ﴾ إليها.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾

الشرح: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾: أمهلهم، والإملاء: الإمهال. ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾: إن أخذي شديد قوي لمن خالف أمري، وكذب رسلي، واجترأ على معصيتي. وإنما سمى الله عز وجل إحسانه:

كيداً، كما سماه: استدراجاً؛ لكونه في صورة الكيد، فما وقع لهم من سعة الأرزاق، وطول الأعمار، وعافية الأبدان، إحسان في الظاهر، وبلاء في الباطن، ظاهره إحسان، وباطنه خذلان؛ لأن المقصود معاقبتهم، وتعذيبهم به. ويطلق على مثاله اسم: المجاز المرسل.

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: إن مكري شديد، وفي المختار: الكيد: المكر، وربنا جل علاه منزه عن المكر والكيد، وإنما الكلام من باب المشاكلة، وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**». ثم قرأ قوله تعالى في سورة (هود): ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾. أخرجه الشيخان.

الإعراب: ﴿وَأُمْلِى﴾: (الواو): حرف عطف. (أملي): فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل مستتر تقديره: «أنا»، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم...﴾ إلخ عطف تفسير. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿كَيْدِى﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة، والياء في محل جر بالإضافة. ﴿مَتِينٌ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية تعليلية، لا محل لها.

تنبيه: في الآيتين التفات من تكلم المفرد، إلى تكلم الجماعة، ثم إلى تكلم المفرد، انظر الالتفات في سورة (الملك) رقم [٢٠]. هذا؛ والآيتان مذكورتان في سورة (الأعراف) برقم [١٨٢ و١٨٣].

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾

الشرح: هذا الكلام في المعنى مرتبط بقوله سابقاً: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ﴾. والمعنى: أتطلب منهم يا محمد أجراً، ومكافأة على ما تدعوهم إليه من الإيمان، أو على التبليغ، والإنذار؟! وهو استفهام إنكاري على منع الحصول، والوقوع من أصله، ليس شيء من ذلك قطعاً! ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ يعني: أثقلهم ذلك المغرم الذي سألتهم، فمنعهم من الإيمان. والمغرم: أن يلتزم الإنسان ما ليس عليه، والمعنى: أَلزمَهُم مغرم ثقيل فدحهم، فزهدهم ذلك في اتباعك؟! الواقع ليس شيء من هذا! بل يستولون بمتابعتك على خزائن الدنيا، ويكونون سادة العالم، وفي الآخرة يفوزون بجنات النعيم.

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ أي: علم الغيب، وهو ما غاب عنهم؛ حتى علموا: أن ما يخبرهم به الرسول ﷺ من أمر القيامة والبعث بعد الموت باطل. ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾: قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: معناه: أعندهم اللوح المحفوظ، فهم يكتبون ما فيه، ويخبرون الناس به، أو يكتبون:

أنهم أفضل منكم، وأنهم لا يعاقبون، بل يكونون أعزاء مكرمين في الدنيا وفي الآخرة؟! والجواب: ليس شيء من ذلك؛ إن هم إلا مفترون. هذا؛ والآيتان مذكورتان في سورة (الطور) برقم [٤٠ و٤١] وانظر الغيب في سورة (الملك) رقم [١٢]. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿أَمْ﴾: حرف عطف بمعنى: بل، وهمزة الاستفهام. ﴿تَسْأَلُهُمْ﴾: فعل مضارع، والفاعل تقديره: «أنت»، والهاء مفعول به أول، ﴿أَجْرًا﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية معطوفة في المعنى على قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾، ومستأنفة في الصناعة، لا محل لها. ﴿فَهُمْ﴾: (الفاء): حرف عطف، (هم): مبتدأ. ﴿مِّن مَّغْرَمٍ﴾: متعلقان بما بعدهما. ﴿مُّثْقَلُونَ﴾: خبر المبتدأ مرفوع، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها. ﴿أَمْ﴾: حرف عطف. ﴿عِندَهُمُ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر مقدم، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿الْغَيْبُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها. ﴿فَهُمْ﴾: الفاء: حرف عطف. (هم): مبتدأ. ﴿يَكْتُبُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والمفعول محذوف، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾

الشرح: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: لقضاء ربك، والحكم هنا بمعنى: القضاء. وقيل: المعنى: فاصبر على ما حكم به عليك ربك من تبليغ الرسالة، وأداء الأمانة. وقيل: المعنى: اصبر على أذاهم استجابة لأمر ربك، ولا تعجل، ولا تغاضب، فلا بد من نصرك، وإعلاء دينك. وقيل: هذا منسوخ بآية السيف: وإذا عرفنا: أن السورة مكية، فالنسخ يكون بعد الهجرة بلا ريب.

﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾: يعني يونس، على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام. أي: لا تكن مثله في الغضب، والضجر، والعجلة. قال قتادة ـ رحمه الله تعالى ـ: إن الله تعالى يعزي نبيه ﷺ، ويأمره بالصبر، ولا يعجل كما عجل صاحب الحوت. انظر ما ذكرته في الآية رقم [٩٨] من السورة المسماة باسمه، وفي الآية رقم [٨٧] من سورة (الأنبياء)، والآية رقم [١٣٩] وما بعدها من سورة (الصافات)، تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

﴿إِذْ نَادَىٰ﴾: دعا ربه، وهو في بطن الحوت بقوله: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾: مملوء غماً، والمعنى: لا تكن مثله ضجراً، فتبتلى ببلائه. هذا؛ والكظم: الحبس، ومنه قولهم: فلان كظم غيظه، أي: حبس غضبه، قال تعالى في سورة (آل عمران) رقم [١٣٤] من وصف المتقين: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ...﴾ إلخ، قال قتادة ـ رحمه الله تعالى ـ: الكظيم، والمكظوم: هو الذي يردد حزنه في جوفه، ولا يقول إلا

خيراً. هذا؛ وقيل: إن هذه الآية نزلت بأحد حين حل برسول الله ﷺ ما حل، فأراد أن يدعو على الذين انهزموا. وقيل: أراد أن يدعو على ثقيف. انتهى. جمل نقلاً عن الخطيب. والمشهور: أنه نزل في يوم أحد حين هَمَّ الرسول ﷺ أن يدعو على المشركين قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ...﴾ إلخ، رقم [١٢٨] من سورة (آل عمران).

الإعراب: ﴿فَٱصْبِرْ﴾: (الفاء): هي الفصيحة. (اصبر): فعل أمر، وفاعله مستتر، تقديره: «أنت»، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جواب شرط غير جازم، التقدير: وإذا لم يكن شيء مما ذكر؛ فاصبر. ﴿لِحُكْمِ﴾: متعلقان بما قبلهما، و(حكم) مضاف و﴿رَبِّكَ﴾ مضاف إليه، من إضافة المصدر لفاعله، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر.

﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): ناهية. ﴿تَكُن﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: (لا) الناهية، واسمه مستتر تقديره: «أنت». ﴿كَصَاحِبِ﴾: متعلقان بمحذوف خبر ﴿تَكُن﴾، وإن اعتبرت الكاف اسماً؛ فهي الخبر، وتكون مضافة، و(صاحب) مضاف إليه، و(صاحب) مضاف، و﴿ٱلْحُوتِ﴾ مضاف إليه.

﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان مبني على السكون في محل نصب مفعول به لفعل محذوف، التقدير: اذكر؛ لأن ﴿إِذْ﴾ ليس ظرفاً لما تقدمه؛ إذ النداء طاعة، فلا ينهى عنه. قاله النسفي. وقال الجمل نقلاً عن السمين: ﴿إِذْ﴾ منصوب بمضاف محذوف، أي: ولا يكن حالك كحاله، أو قصتك كقصته في وقت ندائه، ويدل على المحذوف: أن الذوات لا ينصَبُّ عليها النهي، وإنما ينصب على أحوالها، وصفاتها.

﴿نَادَىٰ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى (صاحب الحوت)، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿إِذْ﴾ إليها. ﴿وَهُوَ﴾: (الواو): واو الحال. (هو): ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿مَكْظُومٌ﴾: خبره. والجملة الاسمية في محل نصب حال من فاعل ﴿نَادَىٰ﴾ المستتر، والرابط: الواو، والضمير.

﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾

الشرح: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: ﴿تَدَٰرَكَهُۥ﴾ فعل ماض لم يؤنث؛ لأنه حمل على معنى النعمة؛ لأنها ليست مؤنثاً حقيقياً، أو ترك تأنيث الفعل للفصل بضمير النصب، وهو الهاء. واختلف في النعمة، فقيل: هي النبوة. وقيل: عبادته التي سلفت. وقيل: نداؤه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ

أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾. ويؤيده قوله تعالى في سورة (الصافات): ﴿فلولا أنه كان من المسبحين ﴿١٤٣﴾ للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾. وقيل: أي: رحمة من ربه، فرحمه، وتاب عليه. ﴿لنبذ﴾: لطرح. ﴿بالعراء﴾: الأرض الواسعة الفضاء، التي ليس فيها جبل، ولا شجر يستر. وقال أبو عبيدة: العراء: وجه الأرض، وأنشد لرجل من خزاعة: [الكامل]

وَرَفَعْتُ رِجْلاً لَا أَخَافُ عِثَارَهَا ... وَنَبَذْتُ بِالْبَلَدِ الْعَرَاءِ ثِيَابِي

﴿وهو مذموم﴾ أي: لنبذ مذموماً، ولكنه نبذ سقيماً غير مذموم. وقيل: لولا فضل الله عليه لبقي في بطن الحوت إلى يوم القيامة، ثم نبذ بعراء القيامة مذموماً. يدل عليه قوله تعالى في سورة (الصافات): ﴿فلولا أنه كان من المسبحين ﴿١٤٣﴾ للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾.

قال الجمل: وفي الخطيب: ﴿وهو مذموم﴾ أي: ملوم على الذنب. وقيل: مبعد من كل خير. وقال الرازي: وهو مذموم على كونه فاعلاً للذنب. قال: والجواب من ثلاثة أوجه: الأول: أن كلمة (لولا) دالة على أن هذه المذمومية لم تحصل. الثاني: لعل المراد من المذمومية ترك الأفضل، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين. الثالث: لعل هذه الواقعة كانت قبل النبوة، لقوله تعالى: ﴿فاجتباه ربه﴾. أقول: الثالث مردود، وغير مقبول أبداً، لقوله تعالى في سورة (الصافات): ﴿وإن يونس لمن المرسلين ﴿١٣٩﴾ إذ أبق إلى الفلك المشحون﴾ تأمل، وتدبر.

جاء في الحديث: أنه لما قال: «**لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ... إلخ**». خرجت هذه الكلمة تحف حول العرش، فقالت الملائكة: ربنا هذا صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة، فقال تبارك وتعالى: أما تعرفون هذا؟ قالوا: لا! قال: هذا صوت يونس، قالوا: يا ربنا عبدك، الذي لا يزال يرفع له عمل صالح، ودعوة مستجابة. قال: نعم. قالوا: أفلا ترحم ما كان يعمله في الرخاء، فتنجيه من البلاء؟! فأمر الله الحوت، فألقاه بالعراء.

﴿فاجتباه﴾ أي: اصطفاه، واختاره. ﴿فجعله من الصالحين﴾. قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: رد الله إليه الوحي، وشفعه في نفسه، وفي قومه. وقيل: قبل توبته. ﴿فجعله من الصالحين﴾ بأن أرسله إلى مئة ألف، أو يزيدون بسبب صبره. انظر هذا، وغيره في سورة (الصافات) رقم [١٤٧]. هذا؛ والصلاح درجة عالية، ومكانة رفيعة، ولذلك سألها كثير من الأنبياء، والمرسلين. انظر ما ذكرته في الآية رقم [١٠] من سورة (المنافقون) تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

الإعراب: ﴿لولا﴾: حرف امتناع لوجود. ﴿أن تداركه﴾: فعل مضارع منصوب بـ: ﴿أن﴾، والهاء مفعول به. ﴿نعمة﴾: فاعله. ﴿من ربه﴾: متعلقان بـ: ﴿نعمة﴾، أو بمحذوف صفة لها، والهاء في محل جر بالإضافة من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، و﴿أن﴾ والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل رفع مبتدأ، والخبر محذوف، التقدير: لولا مداركة الله إياه لحقته، أو استنقذته. ﴿لنبذ﴾: (اللام): واقعة في جواب (لولا). (نبذ): فعل ماض مبني

للمجهول، ونائب الفاعل مستتر تقديره: «هو»، يعود إلى صاحب الحوت، والجملة الفعلية جواب ﴿لَوْلَآ﴾، لا محل لها. ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من نائب الفاعل المستتر، التقدير: مطروحاً بالعراء، والجملة الاسمية: ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ في محل نصب حال من نائب الفاعل المستتر، والرابط: الواو، والضمير.

﴿فَٱجْتَبَٰهُ﴾: (الفاء): حرف عطف. (اجتباه): فعل ماض مبني على الفتح مقدر على الألف للتعذر، والهاء مفعول به. ﴿رَبُّهُۥ﴾: فاعله، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الفعلية معطوفة على جملة محذوفة، التقدير: لكن أدركته نعمة من ربه، فاجتباه. ﴿فَجَعَلَهُۥ﴾: الفاء: حرف عطف. (جعله): فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿رَبُّهُۥ﴾، والهاء مفعول به أول. ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محل نصب مفعوله الثاني، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة قبلها.

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾: وذلك: أن الكفار أرادوا أن يصيبوا النبي ﷺ بالعين، فنظرت قريش إليه، وقالوا: ما رأينا مثله، ولا مثل حججه! وقيل: كانت العين في بني أسد؛ حتى إن البقرة السمينة، أو الناقة السمينة تمر بأحدهم، فيعاينها، ثم يقول: يا جارية! خذي المكتل، والدرهم، فائتينا بلحم هذه الناقة، فما تبرح؛ حتى تقع للموت، فتنحر.

وقال الكلبي: كان رجل من العرب، يمكث لا يأكل شيئاً يومين، أو ثلاثة، ثم يرفع جانب خبائه، فتمر به الإبل، أو الغنم، فيقول: لم أر كاليوم إبلاً، ولا غنماً أحسن من هذه! فما تذهب إلا قليلاً؛ حتى تسقط منها طائفة هالكة، فسأل كفار قريش هذا الرجل أن يصيب لهم النبي ﷺ بالعين، فأجابهم، فلما مر النبي ﷺ أنشد: [الكامل]

قَدْ كَانَ قَومُكَ يَحْسَبُونَكَ سَيِّداً وَإِخَالُ أَنَّكَ سَيِّدٌ مَعْيُونُ

فعصم الله حبيبه ﷺ، وأنزل عليه: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: معناه: ينفذونك. وقيل: يصيبونك بعيونهم، كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه. وقيل: يصرعونك. وهذا كما يقال: صرعني بطرفه، وقتلني بعينه، قال الشاعر: [الكامل]

تَرْمِيكَ مَزْلَقَةُ الْعُيُونِ بِطَرْفِهَا وَتَكِلُّ عَنْكَ نِصَالُ نَبْلِ الرَّامِي

وقال آخر: [الكامل]

يَتَقَارَضُونَ إِذَا الْتَقَوْا فِي مَجْلِسٍ نَظَراً يُزِلُّ مَوَاطِئَ الأَقْدَامِ

يقول: إذا التقوا في مجلس؛ ينظر كل واحد منهم إلى الآخر نظر حسد، وحنق؛ حتى يكاد يصرعه، وهو الإصابة بالعين. وقيل: المعنى: وإن يكاد الذين كفروا ليصرفونك عما أنت بصدده

من تبليغ الرسالة، وإنما أراد: أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظراً شديداً بالعداوة، والبغضاء، يكاد يسقطك. ومنه قولهم: نظر إليَّ نظراً يكاد يصرعني، أو يكاد يهلكني، ويدل على صحة هذا المعنى: أنه قرن هذا النظر بسماع القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾؛ لأنهم كانوا يكرهون ذلك أشد الكراهة، ويحدُّون النظر إليه بالبغضاء، ويقولون، إنه لمجنون: أي: ينسبونه إلى الجنون؛ إذا سمعوه يقرأ القرآن.

وفي الآية الكريمة دليل على أن العين إصابتها، وتأثيرها حقٌّ بأمر الله عز وجل، كما وردت بذلك الأحاديث النبوية الصحيحة: فعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ، أَوْ حُمَةٍ، أَوْ دَمٍ لا يَرْقَأُ**». أخرجه أبو داود. وعن بريدة بن الحصيب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ، أَوْ حُمَةٍ**». أخرجه ابن ماجه. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، عن النبي ﷺ قال: «**الْعَيْنُ حقٌّ، ولوْ كانَ شيءٌ سابقَ القَدَرَ سَبَقَتْهُ الْعيْنُ، وإِذَا اسْتُغْسلتمْ فَاغْسِلُوا**». أخرجه مسلم. وعن ابن عباس أيضاً: قال: كان رسول الله ﷺ يُعَوِّذُ الحسنَ والحسينَ، يقول: «**أُعِيذُكُمَا بكلماتِ اللهِ التامَّةِ مِنْ كُلِّ شيْطَانٍ، وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كلِّ عيْنٍ لامَّةٍ**». ويقول: «**هكذَا كانَ إبراهيمُ يعوذُ إسحاقَ، وإسماعيلَ عليهما السلام**». أخرجه البخاري، وأصحاب السنن.

وعن عبيد الله بن رفاعة الزرقي: أن أسماء بنت عميس ـ رضي الله عنها ـ قالت: يا رسول الله! إن ولد جعفر تسرع إليهم العين، أفأسترقي لهم؟ قال: «**نعمْ، ولوْ كانَ شيءٌ يسبقُ القدرَ لَسَبَقَتْهُ العينُ**». أخرجه أحمد، والترمذي، وابن ماجه. ومن ذلك قول النبي ﷺ: «**إن العين لَتُدْخِلُ الرجلَ القبرَ، والجملَ القدرَ**».

هذا؛ ويروى: أن عامر بن ربيعة ـ رضي الله عنه ـ أصاب سهل بن حنيف بالعين، فقال رسول الله ﷺ: «**عَلَامَ يقتلُ أحدُكُمْ أَخَاهُ؟ أَلا بَرَّكْتَ؟! إِنَّ العينَ حقٌّ. توضأْ لَهُ**». ومعنى: ألا بركت، هلا قلت: تبارك الله أحسن الخالقين، اللهم بارك فيه، ومفهومه: أن التبريك يدفع أذى العين، ومن ذلك قولك: ما شاء الله كان، والصلاة والسلام على الرسول يمنع ذلك أيضاً، وفي قول الرسول ﷺ للعاين: «توضَّأ» أمر له بالوضوء الكامل للصلاة في إناء، ثم يغتسل المصاب بماء الوضوء،فإنه شفاء له بإذن الله، وهذا إذا عُرِف العاين، وإذا لم يُعرف؛ فالقرآن شفاؤه، أي: للمصاب، فتلاوة الفاتحة، والمعوذتين عليه شفاء له بإذن الله تعالى. هذا؛ ولا يفوتني أن أذكر: أنه لا يشترط أن يكون العاين فقيراً، أو فاسقاً،أو كافراً، فقد يكون من أغنى الأغنياء، وقد يكون من أتقى الأتقياء: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾.

هذا؛ وقد أخذ جماهير العلماء بظاهر الأحاديث السابقة، فقالوا: العين حق، وأنكره طوائف من المبتدعة، والدليل على فساد قولهم: أن كل معنى ليس مخالفاً في نفسه، ولا يؤدي

إلى قلب حقيقة، ولا إفساد دليل، فإنَّه من مجوزات العقول، فإذا أخبر الشارع بوقوعه؛ وجب اعتقاده، ولا يجوز تكذيبه.

ومذهب أهل السنَّة: أنَّ العين إنما تفسد وتهلك عند مقابلة هذا الشخص، الذي هو العائن لشخص آخر، فتؤثر فيه بقدرة الله تعالى وفعله، وقوله: «**وَلَوْ كانَ شيءٌ سابقَ القدر سبقته العينُ**». فيه إثبات القدر، وأنه حق. والمعنى: أن الأشياء كلها بقدر الله، ولا يقع شيء إلا على حسب ما قدَّر الله، وسبق به علمه، ولا يقع ضرر العين وغيره من الخير والشر إلا بقدرة الله. قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ رقم [١٠٢] من سورة (البقرة)، وقوله: ﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ سورة (المجادلة) رقم [١٠]. هذا بالإضافة لما ورد عن النبي ﷺ من أدعية للوقاية من الإصابة بالعين، ولما ورد عنه ﷺ من علاج للاستشفاء منها، وأذكر: أن الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ قال: دواءُ مَنْ أصابته العينُ أن تقرأ عليه هذه الآية: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ...﴾ إلخ أقول: وأضيف إليه أن تقول: بسم اللهِ حَبْسُ حابسٍ، وحجرٌ يابسٌ، وشهابٌ قابسٌ، وليل دامسٌ، رُدَّتْ عَيْنُ العاينِ، وعلى أحبِّ الناسِ إلَيْهِ ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: يقول كفار قريش حين سمعوا القرآن من النبي ﷺ: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾: يعنون حبيب الحق، وسيد الخلق ﷺ. وهذا أحد أقاويلهم فيه، كما قالوا عنه: ساحر، وكاهن، وشاعر. والمعنى: هم في حيرة، وهَمُّهم تنفير الناس عنه، فلم يفلحوا، وقد حقَّق الله وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزمهم في غزوة بدر أشنع هزيمة.

الإعراب: ﴿وَإِن﴾: (الواو): حرف استئناف. (إن): مخففة من الثقيلة مهملة لا عمل لها، وهذا عند البصريين، ويقول الكوفيون: هي بمعنى ما النافية. ﴿يَكَادُ﴾: فعل مضارع ناقص. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع اسم ﴿يَكَادُ﴾. ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق، والمتعلق محذوف، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾: (اللام): هي الفارقة بين النفي، والإثبات عند البصريين، وعند الكوفيين هي بمعنى: إلا؛ إذ المعنى عندهم: ما يكاد الذين كفروا إلا... إلخ. وقول البصريين هو المعتمد في هذه المسألة. هذا؛ وقال الجمل: إن مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن. وهو ضعيف، والمعتمد: أنها مهملة كما قدمت. قال ابن مالك ـ رحمه الله تعالى ـ في ألفيته: [الرجز]

وَخُفِّفَتْ إنَّ فَقَلَّ العَمَلُ ... وتَلْزَمُ اللامُ إذا ما تُهْمَلُ

(يزلقونك): فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله، والكاف مفعول به. والجملة الفعلية في محل نصب خبر ﴿يَكَادُ﴾. والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿لَمَّا﴾: ظرف بمعنى: «حين» مبني على

السكون في محل نصب متعلق بالفعل قبله. وقيل: ﴿لَمَّا﴾ رابطة، وجوابها محذوف للدلالة عليه، أي: لما سمعوا الذكر؛ كادوا يزلقونك. والأول أقوى، وجملة: ﴿سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ في محل جر بإضافة (لمَّا) إليها. ﴿وَيَقُولُونَ﴾: الواو: حرف عطف. (يقولون): فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله. ﴿إِنَّهُ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء في محل نصب اسمه. ﴿لَمَجْنُونٌ﴾: (اللام): هي المزحلقة. (مجنون): خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿وَيَقُولُونَ...﴾ إلخ معطوفة على خبر ﴿يَكَادُ﴾ فهي في محل نصب مثلها. تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم.

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٥٢)﴾

الشرح: ﴿وَمَا هُوَ﴾: يعني: القرآن. ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾: موعظة. ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي: الإنس، والجن. قال البيضاوي ـ رحمه الله تعالى ـ: لما جننوه لأجل القرآن؛ بين الله ـ عز وجل ـ: أنه ذكر عام، لا يدركه، ولا يتعاطاه إلا من كان أكمل الناس عقلاً، وأمتنهم رأياً. وقيل: المعنى: ما القرآن إلا شرف، كما قال الله تعالى في سورة (الزخرف) رقم [٤٤]: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ...﴾ إلخ، انظر شرحها هناك. هذا؛ و(العالمين): جمع عالم (بفتح اللام) وجمع لاختلاف أنواعه. وهو جواب عما يقال: إنه اسم جنس يصدق على كل ما سوى الله، والجمع لا بد أن يكون له أفراد ثلاثة، فأكثر. وجمع بالياء والنون تغليباً للعقلاء على غيرهم، وهو يقال لكل ما سوى الله، ويدل له قول موسى ـ على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ـ لما قال له فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾؛ ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ من سورة (الشعراء). هذا؛ والعوالم كثيرة لا تحصيها الأرقام، وهي منتشرة في هذا الكون المترامي الأطراف في البر، والبحر؛ إذ كل جنس من المخلوقات يقال له: عالَم. قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾.

الإعراب: ﴿وَمَا﴾: (الواو): واو الحال، (ما): نافية. ﴿هُوَ﴾: ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿ذِكْرٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من الذكر، والرابط: الواو، والضمير، وإن اعتبرتها مستأنفة؛ فلا محل لها. ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة ﴿ذِكْرٌ﴾، وعلامة جره الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، والنون عوض من التنوين في الاسم المفرد. تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

انتهت سورة (القلم) شرحاً، وإعراباً بحمد الله وتوفيقه.

والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ الحَاقَّةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مكية في قول الجميع، وهي اثنتان وخمسون آية، ومئتان وست وخمسون كلمة، وألف وأربعة وثلاثون حرفاً. انتهى. خازن، وروى أبو الزاهرية عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قرأ إحدى عشرة آية من سورة الحاقة؛ أجير من فتنة الدجَّال، ومَنْ قرأها كانتْ لَهُ نوراً يومَ القيامةِ مِنْ فوقِ رأسِهِ إلى قَدَمِهِ**». انتهى. قرطبي.

﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾

الشرح: ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ يعني: القيامة، سُميت حاقة من الحق الثابت؛ يعني: أنها ثابتة الوقوع، لا ريب فيها. انتهى. خازن. وفي النسفي: الحاقة: الساعة الواجبة الوقوع، الثابتة المجيء، التي هي آتية، لا ريب فيها، من: حقَّ، يحِق بالكسر، أي: وجب. انتهى. وقيل: سميت بذلك؛ لأن فيها تحقق الأمور، فتعرف على الحقيقة، وفيها يحق الجزاء على الأعمال، أي: يجب، وقال الأزهري: يقال: حاققته، فحققته، أحقه، أي: غالبته فغلبته، فالقيامة حاقة؛ لأنها تحق كل محاق في دين الله بالباطل.

﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ أي: أي شيء هي؟ تفخيماً لشأنها، وتعظيماً لهولها، أي: حقها أن يستفهم عنها لعظمها. فوضع الظاهر موضع الضمير لزيادة التهويل. ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ المعنى: وأي شيء علمته عن الحاقة؟ أي: إنك، لا علم لك بكنهها، ومدى عظمها؛ لأنها من العزم، والشدة بحيث لا تبلغ حقيقتها دراية المخلوقين، ومعرفتهم. والخطاب للنبي ﷺ، ويعم كل عاقلٍ فاهمٍ يهمه شأن القيامة، ومعرفة حقيقتها.

والنبي ﷺ كان عالماً بالقيامة، ولكن بالصفة، فقيل تفخيماً لشأنها: وما أدراك ما هي؟ كأنك لست تعلمها؛ إذ لم تعاينها، وقال يحيى بن سلام ـ رحمه الله تعالى ـ: بلغني: أن كل شيء في القرآن ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ فقد أدراه إياه، وعلمه، وكل شيء قال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾. فهو مما لم يعلمه. وقال سفيان بن عيينة: كل شيء قال فيه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ فإنه أُخبر به، وكل شيء قال فيه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾. فإنه لم يخبَر به.

الإعراب: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾: مبتدأ أول. ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾: اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ ثان. ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾: خبره، والجملة الاسمية: ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ في محل رفع خبر المبتدأ الأول، والجملة الاسمية: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ...﴾ إلخ لا محل لها من الإعراب؛ لأنها ابتدائية. ﴿وَمَآ﴾: (الواو): حرف عطف، أو استئناف. (ما): مبتدأ. ﴿أَدۡرَىٰكَ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى (ما) تقديره: هو، والكاف مفعول به أول. ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾: مبتدأ، وخبر، والجملة الاسمية في محل نصب سدت مسد مفعول ﴿أَدۡرَىٰكَ﴾ الثاني المعلق عن العمل لفظاً بسبب الاستفهام. وقال زاده: في محل نصب سدت مسد المفعول الثاني، والثالث لـ: (أدرى)؛ لأنه بمعنى: أعلم، والجملة الفعلية: ﴿أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ في محل رفع خبر المبتدأ، الذي هو (ما)، والجملة الاسمية لا محل لها على الوجهين المعتبرين بالواو.

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ٤﴾

الشرح: ﴿ثَمُودُ﴾ قبيلة عربية سموا باسم أبيهم الأكبر، ثمود بن غابر، بن سام، بن نوح، وهو أخو جديس بن غابر، وكانت مساكن ثمود الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله. قال أبو عمرو بن العلاء: سميت ثمود لقلة مائها، والثمد: الماء القليل. والأول هو المعتمد. هذا؛ ويقرأ بالصرف، وعدمه، وهو الأكثر، والأرجح، وصرفه على إرادة الأب الأول، ومنعه على إرادة القبيلة، ورسول ثمود هو صالح، على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام، وهو ابن عبيد، بن آسف، بن ماسح، بن عبيد، بن حاذر، بن ثمود، وليس هو مِنْ أنبياء بني إسرائيل، كـ: هود؛ لأنهما قبل إبراهيم عليه السلام، وكان بين هود، وصالح مئة سنة، وعاش صالح مئتين وثمانين سنة كما في الحبير للسيوطي.

(عاد) مثل ﴿ثَمُودُ﴾ قبيلة عربية أيضاً، وهو في الأصل اسم الأب الكبير، وهو عاد بن عوص، ابن إرم، بن سام، بن نوح، عليه الصلاة والسلام، فسميت به القبيلة، أو الحي، و(عاد) مثل ﴿ثَمُودُ﴾ في الصرف، وعدمه. والكثير، والأقوى الصرف لخفته؛ لأنه على ثلاثة أحرف، أوسطها ساكن، مثل: هند، ودعد، ولوط، ونوح...، وأما هود فقد اشتهر في ألسنة النحاة: أنه عربي، وهو ابن عبد الله، بن رباح بن الخلود، بن عاد، بن عوص، بن إرم، بن نوح. وقال ابن إسحاق: هو هود بن شالخ، بن أرفخشذ، بن سام، بن نوح، وهود قبل صالح، كان بينه وبين نوح ثمانمئة سنة وعاش أربعمائة وأربعاً وستين سنة، وكانت قبيلة عاد تسكن الأحقاف من بلاد اليمن.

(القارعة): هي يوم القيامة، سميت بذلك؛ لأنها تقرع الناس بأهوالها، يقال: أصابتهم قوارع الدهر، أي: أهواله، وشدائده، ونعوذ بالله من قوارع فلان، ولواذعه، وقوارص لسانه (جمع قارصة، وهي الكلمة المؤذية). هذا؛ وقد قال تعالى في بيان أهوالها، وشدائدها: ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ...﴾ إلخ.

الإعراب: ﴿كَذَّبَتْ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث حرف لا محل له، ﴿ثَمُودُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿وَعَادٌ﴾: (الواو): حرف عطف. (عاد): معطوف على ﴿ثَمُودُ﴾. ﴿بِالْقَارِعَةِ﴾: متعلقان بالفعل: ﴿كَذَّبَتْ﴾.

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾

الشرح: ﴿بِالطَّاغِيَةِ﴾ أي: بالواقعة المجاوزة للحد في الشدة، واختلف فيها، فقيل: الرجفة، أو الصيحة قال تعالى في سورة (الأعراف) رقم[٧٧]: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾، وقال في سورة (هود) رقم [٦٧]: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾.

انظر شرح الآيتين في محلهما. هذا؛ والطاغية من: الطغيان، وهو محاوزة الحد، قال تعالى في سورة (العلق): ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ﴿٦﴾ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ ويقال: طغا يطغى ويطغو طغياناً وطغواناً جاوز الحد، وكل مجاوز حده في العصيان طاغٍ، وطغى البحر هاجت أمواجه، وطغى السيل جاء بماء كثير، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ رقم [١١] الآتية.

الإعراب: ﴿فَأَمَّا﴾: (الفاء): حرف تفريع، واستئناف. (أما): أداة شرط، وتفصيل، وتوكيد، أما كونها أداة شرط؛ لأنها قائمة مقام أداة الشرط وفعله بدليل لزوم الفاء بعدها؛ إذ الأصل: مهما يك من شيء؛ فثمود أهلكوا... إلخ، فأنيبت (أما) مناب: مهما، ويك من شيء، فصار: (أما ثمود فأهلكوا...) إلخ، وأما كونها أداة تفصيل؛ لأنها في الغالب تكون مسبوقة بكلام مجمل، وهي تفصله، ويعلم ذلك من تتبع مواقعها. وأما كونها أداة توكيد؛ لأنها تحقق الجواب، وتفيد: أنه واقع لا محالة لكونها علقته على أمر متيقن. ﴿ثَمُودُ﴾: مبتدأ. ﴿فَأُهْلِكُوا﴾: (الفاء): واقعة في جواب (أما). (أهلكو): فعل ماض مبني للمجهول مبني على الضم، والواو نائب فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها. ﴿بِالطَّاغِيَةِ﴾: متعلقان بما قبلهما.

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾﴾

الشرح: ﴿فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ أي: شديدة الصوت في الهبوب، لها صرصرة. وقيل: هي الباردة، من الصر، كأنها التي كرر فيها البرد، وكثر، فهي تحرق بشدة بردها، كإحراق النار، ﴿عَاتِيَةٍ﴾: شديدة العصف، والعتو، فهي استعارة، أو عتت على قوم عاد، فلم يقدروا على ردها بحيلة من استتار ببناء، أو لياذ بجبل، أو اختفاء في حفرة، فإنها كانت تنزعهم من مكانهم، وتهلكهم. وقيل: عتت على خزانها، فخرجت بلا كيل، ولا وزن. روى سفيان الثوري عن موسى بن المسيب، عن شهر بن حوشب، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال

رسول الله ﷺ: «**ما أرسل الله من نسمة من ريح إلا بمكيال، ولا قطرة من ماء إلا بمكيال، إلا يوم عاد، ويوم نوح، فإن الماء يوم نوح طغى على الخُزَّان، فلم يكن لهم عليه سبيل**». ثم قرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ **والريح لما كان يوم عاد عتت على الخزان، فلم يكن لهم عليها سبيل**». ثم قرأ قوله تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾. انتهى. كشاف، وقرطبي. وفي الكشاف بدل (من نسمة): (من سفينة) وانظر شرح الريح في سورة (القمر) رقم [١٩].

الإعراب: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟﴾: الإعراب مثل الآية السابقة بلا فارق. ﴿بِرِيحٍ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾: صفتان لـ: (ريح).

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾

الشرح: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: أرسل الريح وسلّطها على قوم عاد. والتسخير: استعمال الشيء بالاقتدار. والتسخير التذليل. ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ قال الزمخشري في الكشاف: الحسوم لا يخلو من أن يكون جمع: حاسم، كشهود، وقهود، أو مصدراً كالشكور، والكفور، فإن كان جمعاً؛ فمعنى قوله: حسوماً نحسات، حسمت كل خير، واستأصلت كل بركة، حيث قيل: الحسم: الاستئصال، ويقال للسيف: حُسام؛ لأنه يحسم العدو عما يريده من بلوغ عداوته، قال طرفة من معلقته رقم [٩٢]: [الطويل]

حُسَامٌ إذا ما قُمْتُ معتضداً به كَفَى العَوْدَ مِنْهُ البَدْءُ لَيْسَ بِمُعْضَدِ

والمعنى: أن الريح حسمتهم؛ أي: قطعتهم، وأذهبتهم، فهي قاطعة بعذاب الاستئصال. وقيل: معنى حسوماً: متتابعة هبوب الرياح، ما خفتت ساعة حتى أتت عليهم، تمثيلاً لتتابعها بتتابع فعل الحاسم في إعادة الكي على الداء كرة بعد أخرى؛ حتى يحسم، لذا قيل: هو استعارة تصريحية تبعية. قال عبد العزيز بن زرارة الكلابي: [الوافر]

فَفَرّق بين بينِهِم زمانٌ تَتَابَعَ فيه أعوامٌ حسومُ

وهذه الأيام هي التي قال الله عنها في سورة (فصلت) رقم [١٦]: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾. هذا؛ واختلف في أولها، فالمعتمد: أنها ابتدأت صباح يوم الأربعاء، وانتهت غروب الشمس من اليوم الثامن من يوم الأربعاء أيضاً، وهذه الأيام هي التي تسميها العرب أيام العجوز؛ لأن عجوزاً من (عاد) دخلت سرباً هرباً من الريح، فتبعتها، فقتلتها في اليوم الثامن. وقيل: سميت أيام العجوز؛ لأنها وقعت في عجز الشتاء، وهي من آخر شباط، وأول آذار من الأشهر الميلادية، وما يوافقها من الأشهر القمرية الهجرية، ولها أسامٍ مشهورة عند العرب، وفيها يقول الشاعر، وهو ابن أحمر: [الكامل]

كُسِعَ الشِّتاء بسبعةٍ غُبْرِ أيَّامَ شَهْلَتِنَا من الشَّهْرِ
فإذا انقضت أيامها ومضت صِنٌّ وَصِنَّبْرٌ مع الوَبْرِ
وبآمرٍ وأخيه مُؤتَمرٍ وَمُعَلِّلٍ، وبمُطفئ الجَمْرِ
ذهبَ الشِّتاء مولِّياً عَجِلاً وأتتك واقدةٌ من النَّجْرِ

فتسميتها على هذا النحو على ترتيبها في الوقوع من غير تعيين مصادفة الأول منها مثلاً في يوم الأربعاء، أو غيره. وأما تسمية أيام الأسبوع، فقد جاءت في قول شاعر جاهلي لم يسم، وهي مايلي، وهو الشاهد رقم [٤٠] من كتابنا: «فتح الكريم الواسع» إعراب شواهد همع الهوامع: [الوافر]

أُؤَمِّلُ أن أعيش وإنَّ يومي بأوَّل أو بأهونَ أو جُبَارُ
أوِ التَّالي دُبَارَ فإن أفُتْهُ فَمُؤْنِسُ أو عَروبَةُ أو شِيَارُ

فأوَّل اسم يوم الأحد في تسميتهم القديمة. أهون: اسم يوم الاثنين. جبار: بضم الجيم وتخفيف الباء اسم يوم الثلاثاء. دبار: بضم الدال وتخفيف الباء اسم يوم الأربعاء. مونس: اسم يوم الخميس. عروبة: اسم يوم الجمعة. شيار: اسم يوم السبت.

﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا﴾ أي: في تلك الليالي، والأيام، والخطاب يعم كل عاقل لو نظر، ورأى ما حل فيهم من الهلاك، والوبال. وقيل الخطاب للنبي، والمعنى: تبصر أنت يا محمد لو كنت حاضراً هذه الواقعة. فالكلام على سبيل الفرض، والتقدير. انتهى. جمل. ﴿صَرْعَىٰ﴾: موتى، هلكى، جمع: صريع. ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ أي: ساقطة. وقيل: خالية الأجواف، لا شيء فيها، شبههم بجذوع نخل ساقطة، ليس لها رؤوس فهو تشبيه مرسل. قال تعالى في سورة (القمر)، رقم [٢٠]: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ والنخل من الجمع الذي يذكر، ويؤنث، فقد أنث هنا، وذكِّر في سورة (القمر) وانظر ما ذكرته في سورة (القمر)؛ فإنه جيد.

﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ أي: من نفس باقية. قيل: إنهم لما أصبحوا موتى في اليوم الثامن حملتهم الريح فألقتهم في البحر، فلم يبق منهم أحد على وجه الأرض، فذلك قوله تعالى في سورة (الأحقاف) رقم [٢٥]: ﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ وانظر ما ذكرته بشأن قوله تعالى في سورة (القمر): ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ رقم [١٩] ففيها ما يسرك، ويثلج صدرك، وانظر إعلال ﴿تَرَىٰ﴾ في الآية رقم [٣] من سورة (الملك).

الإعراب: ﴿سَخَّرَهَا﴾: (سخَّر): فعل ماض. (ها): مفعول به، والفاعل محذوف يدل عليه المقام، ويقال: الفاعل ضمير مستتر تقديره: «هو»، يعود إلى (الله) المفهوم من المقام، مثل قوله

تعالى في سورة (الواقعة): ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ وانظر ما أذكره في سورة (القيامة) إن شاء الله تعالى. والجملة الفعلية في محل جر صفة ثالثة لريح، أو في محل نصب حال منها بعد وصفها بما تقدم، وأجاز أبو البقاء الاستئناف. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿سَبْعَ﴾: ظرف زمان متعلق بالفعل قبله، و﴿سَبْعَ﴾ مضاف، و﴿لَيَالٍ﴾ مضاف إليه مجرور، وعلامة جره كسرة مقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين، والتنوين عوض من الياء. ﴿وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿حُسُومًا﴾: فيه أوجه: أحدها: أن يكون نعتاً لسبع ليال، وثمانية أيام. والثاني: أن يكون مفعولاً مطلقاً، لفعل محذوف، التقدير: تحسمهم حسوماً. الثالث: أن يكون حالاً من مفعول ﴿سَخَّرَهَا﴾. الرابع: أن يكون مفعولاً لأجله. انتهى. جمل نقلاً عن السمين بتصرف مني. والزمخشري، والقرطبي ذكرا الحالية، والمصدرية فقط. ﴿فَتَرَى﴾: (الفاء): حرف عطف. (ترى): فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر، والفاعل مستتر، تقديره: «أنت». ﴿ٱلْقَوْمَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿سَخَّرَهَا...﴾ إلخ على الوجهين المعتبرين فيها. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿صَرْعَىٰ﴾: حال من ﴿ٱلْقَوْمَ﴾ منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذر. ﴿كَأَنَّهُمْ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿أَعْجَازُ﴾: خبرها، وهو مصاف، و﴿نَخْلٍ﴾ مضاف إليه. ﴿خَاوِيَةٍ﴾: صفة ﴿أَعْجَازُ﴾ وجر على الجوار لـ: ﴿نَخْلٍ﴾ فهو مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة الجوار، والجملة الاسمية: ﴿كَأَنَّهُمْ...﴾ إلخ في محل نصب حال ثانية من ﴿ٱلْقَوْمَ﴾، أو من الضمير في ﴿صَرْعَىٰ﴾، فتكون حالاً متداخلة. ﴿فَهَلْ﴾: (الفاء): حرف استئناف. (هل): حرف استفهام معناه النفي. ﴿تَرَىٰ﴾: فعل مضارع مرفوع. . .إلخ، والفاعل مستتر تقديره: «أنت». ﴿لَهُم﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿مِّنۢ﴾: حرف جر صلة. ﴿بَاقِيَةٍ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد، والجملة الفعلية مستأنفة.

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾﴾

الشرح: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ أي: ومن تقدمه من القرون الخالية. ويقرأ: (ومن قِبَلَهُ) بكسر القاف، وفتح الباء، أي: ومن معه وتبعه من جنوده. ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ أي: المنقلبات، وهي قرى قوم لوط، التي اقتلعها جبريل عليه السلام، ورفعها على جناحه قرب السماء، ثم قلبها. قال تعالى في سورة (هود) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا...﴾ إلخ رقم [٨٢] وكانت خمس قرى، وهي: صبعة، وصعرة، وعمرة، ودوما، وسدوم، وهي القرية العظمى. هذا؛ وجاء هذا اللفظ في سورة (التوبة) رقم [٧٠] وجاء بالإفراد

في سورة (النجم) قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ رقم [٥٣]. ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ أي: بالخطيئة، والمعصية، وهي الشرك، فالخاطئة مصدر، مثل: الواقعة، والعاقبة. وقال الجلال: أي: بالفعلات ذات الخطأ، فهو يشير إلى أن الخاطئة صيغة نسب، كلابن، وتامر، وباقل على حد قول ابن مالك في ألفيته: [الرجز]

ومعَ فاعلٍ وفعَّالٍ فَعِل في نَسَبٍ أغْنىٰ عن اليَا فَقُبِلْ

الإعراب: ﴿وَجَآءَ﴾: (الواو): حرف عطف، (جاء): فعل ماض. ﴿فِرْعَوْنُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها. ﴿وَمَن﴾: (الواو): حرف عطف. (من): اسم موصول مبني على السكون في محل رفع معطوف على ﴿فِرْعَوْنُ﴾. ﴿قَبْلَهُۥ﴾: ظرف زمان متعلق بمحذوف صلة الموصول. ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾: الواو: حرف عطف. (المؤتفكات): معطوف على ما قبله. ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾: متعلقان بالفعل جاء، أو هما متعلقان بمحذوف حال من ﴿فِرْعَوْنُ﴾ وما عطف عليه، التقدير: جاؤوا متلبسين بالخاطئة.

﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾

الشرح: ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾: قال الكلبي: هو موسى بن عمران. وقيل: هو لوط؛ لأنه أقرب. والأولى أن يقال: المراد بالرسول كلاهما؛ لتقدم ذكر الأمتين جميعاً، كما قال تعالى في سورة (الشعراء) رقم [١٦] مخاطباً موسى، وهارون ـ على نبينا، وعليهما ألف صلاة، وألف سلام ـ: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقيل: رسول بمعنى: رسالة، وقد يعبر عن الرسالة بالرسول، قال كُثَيِّر عزَّة، (وهو بصيغة المصغر): [الطويل]

لقد كذبَ الواشون ما بُحْتُ عندهم بِسِرٍّ ولا أرسلْتُهم بِرسولِ

﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ أي: عالية زائدة على الأخذات، وعلى عذاب الأمم. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: شديدة؛ أي: كأنها زائدة في الشدة، وفتح همزة ﴿أَخْذَةً﴾ لأنها مصدر مرة، وليست مصدر هيئة: وإنما معنى الهيئة مستفاد من النعت.

الإعراب: ﴿فَعَصَوْا۟﴾: (الفاء): حرف عطف، (عصوا): فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف المحذوفة لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة، التي هي فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها. ﴿رَسُولَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿رَبِّهِمْ﴾ مضاف إليه، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿فَأَخَذَهُمْ﴾: الفاء: حرف عطف. (أخذهم): فعل ماض، والهاء مفعول به، والفاعل يعود إلى ﴿رَبِّهِمْ﴾. ﴿أَخْذَةً﴾: مفعول مطلق. ﴿رَّابِيَةً﴾: صفة ﴿أَخْذَةً﴾، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها أيضاً.

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ أي: عتا، وجاوز حده؛ حتى علا على كل شيء، وارتفع فوقه، وذلك في زمن نوح على حبيبنا، وشفيعنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام، وانظر الطغيان في الآية رقم [٥] وفي ذلك استعارة لطيفة؛ لأن الطغيان، وتجاوز الحد من صفات الإنسان، فشبه ارتفاع الماء، وكثرته بطغيان الإنسان على الإنسان بطريق الاستعارة التصريحية بالفعل. ﴿حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾: في السفينة التي صنعها نوح. والمعنى: حملنا آباءكم، وأنتم في أصلابهم، فهو من مخاطبة الأبناء، بما حصل للآباء، وهذا كثير في القرآن، ولاسيما مع اليهود الذين عاصروا النبي ﷺ، مثل قوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [٥٥]: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً...﴾ إلخ، ورقم [٦١]: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ...﴾ إلخ. ورقم [٧٢] منها أيضاً: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا...﴾ إلخ. ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ﴾ أي: نجعل تلك الفعلة التي فعلناها من إغراق قوم نوح، ونجاة من حملنا معه. ﴿لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ أي: جعل الله سفينة نوح تذكرة، وعظة لهذه الأمة؛ حتى أدركها أوائلهم. قال ابن جريج: كانت ألواحها على الجودي في الموصل من أرض العراق، وذكر: أن ناساً وقفوا على جبل الجودي، فشاهدوا بقايا خشبات من تلك السفينة. فيكون المعنى: أبقيت لكم تلك الخشبات؛ حتى تذكروا ما حل بقوم نوح، وإنجاء الله آباءكم، وكم من سفينة هلكت، وصارت تراباً، ولم يبق منها شيء. وقيل: المعنى لنجعل تلك الفعلة من إغراق قوم نوح، وإنجاء من آمن معه موعظة لكم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ أي: تحفظها، وتسمعها أذن حافظة لما جاء من عند الله، والسفينة لا توصف بهذا. روى مكحول: أن النبي ﷺ قال عند نزول هذه الآية: «**سألت ربي أن يجعلها أذن علي**». قال مكحول: فكان علي ـ رضي الله عنه ـ يقول: ما سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً قط، فنسيته؛ إلا وحفظته. ذكره الماوردي. انتهى. قرطبي.

الإعراب: ﴿إِنَّآ﴾: (إنَّ): حرف مشبه بالفعل، و(نا): اسمها، حذفت نونها، وبقيت الألف دليلاً عليها. ﴿لَمَّا﴾: حرف وجود لوجود عند سيبويه. وبعضهم يقول: حرف وجوب لوجوب. وهي عند ابن السراج، والفارسي، وابن جني، وجماعة: ظرف زمان بمعنى: «حين» تتطلب جملتين مرتبطتين ببعضهما ارتباط فعل الشرط بجوابه، وصوب ابن هشام الأول، والمشهور الثاني. ﴿طَغَا﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر. ﴿ٱلْمَآءُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية على اعتبار ﴿لَمَّا﴾ حرفاً، وفي محل جر بإضافة ﴿لَمَّا﴾ إليها على اعتبارها ظرفاً. ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة الفعلية جواب ﴿لَمَّا﴾، لا محل لها. ﴿فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، و﴿لَمَّا﴾ ومدخولها في محل رفع خبر

(إنَّ)، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّا...﴾ إلخ لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، مستأنفة. ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾: فعل مضارع منصوب بـ: «أن» مضمرة بعد لام التعليل، والفاعل مستتر تقديره: «نحن»، و(ها) مفعول به أول. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: ﴿تَذْكِرَةً﴾ بعدهما، أو بمحذوف حال منه، كان صفة له، فلما قدم عليه صار حالاً، على القاعدة: «نعت النكرة إذا تقدم عليها؛ صار حالاً». ﴿تَذْكِرَةً﴾: مفعول به ثان، و«أن» المضمرة والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر بلام التعليل، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هذه الفعلة فعلناها؛ لجعلها لكم تذكرة، وقيل: الجار، والمجرور متعلقان بالفعل ﴿حَمَلْنَاكُمْ﴾، والأول أقوى. ﴿وَتَعِيَهَآ﴾: الواو: حرف عطف. (تعيها): معطوف على ما قبله منصوب مثله، و(ها): مفعول به. ﴿أُذُنٌ﴾: فاعله. ﴿وَاعِيَةٌ﴾: صفة ﴿أُذُنٌ﴾.

خاتمة: قال الزمخشري في الكشاف: فإن قلت: لم قيل: ﴿أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ على التوحيد، والتنكير؟ قلت: للإيذان بأنَّ الوعاة فيهم قلة، ولتوبيخ الناس بقلة من يعي منهم، وللدلالة على أن الأذن الواحدة إذا وعت، وعقلت عن الله، فهي السواد الأعظم عند الله، وأن ما سواها لا يبالي بهم بالة، وإن ملؤوا ما بين الخافقين. قال أحمد محشي الكشاف: هو مثل قوله تعالى في سورة (الحشر) رقم [١٨]: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ وقد ذكر أن فائدة التنكير والتوحيد فيه الإشعار بقلة الناظرين، انتهى. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾

الشرح: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ...﴾ إلخ: الصور كهيئة البوق. قاله مجاهد، ويدل على صحته ماروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فقال: ما الصُّور؟ قال: «**قرن ينفخ فيه**». أخرجه أبو داود، والترمذي ـ رحمهما الله تعالى ـ وقال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال النبيﷺ: «**إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض؛ خلق الصور، فأعطاه إسرافيل، فهو واضعه على فيه، شاخص ببصره إلى العرش، ينظر متى يؤمر بالنفخة**». قلت: يا رسول الله! ما الصور؟ قال: «**قرن والله عظيم، والذي بعثني بالحق إن عظم دارة فيه، كعرض السماء والأرض**». وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول اللهﷺ: «**كيف أنتم؛ وقد التقم صاحب القرن القرن، وحنى جبهته، وأصغى سمعه، ينتظر أن يؤمر أن ينفخ؟!**». وكأن ذلك ثقل على أصحابه، فقالوا: كيف نفعل يا رسول الله؟ وكيف نقول؟ فقال: «**قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا ـ وربما قال ـ: توكلنا على الله**». أخرجه الترمذي. وسعة فم الصور كما بين السماء والأرض. وفيه ثقوب بعدد الأرواح كلها، وتجمع الأرواح في تلك الثقوب، فيخرج بالنفخة الثانية مِنْ كلِّ ثقب روح إلى الجسد الذي نزعت منه،

فيعود الجسد حياً بإذن الله تعالى. انتهى. جمل نقلاً عن الخطيب. وأنا أؤمن بهذا. هذا؛ وقد دلت آية (الزمر) رقم [٦٨] على أن النفخة اثنتان: الأولى للموت، والثانية للبعث والنشور. قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ والجمهور على أنها ثلاث: الأولى: للفزع، كما قال تعالى في سورة (النمل) الآية [٨٧]: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ...﴾ إلخ. والثانية: للموت، والثالثة: للإعادة، وبين الثانية، والثالثة أربعون سنة على الصحيح. فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما بين النفختين أربعون**». قالوا: أربعون يوماً؟ قال أبو هريرة: أبيت، قالوا: أربعون شهراً؟ قال أبو هريرة: أبيت. قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت. «**ثم ينزل الله من السماء ماءً، فينبتون كما ينبت البقل، وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظم واحدٌ، وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة**». متفق عليه. وينبغي أن تعلم: أن الذي ينفخ في الصور، إنما هو إسرافيل ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ أحد الملائكة العشرة المقربين، وهو ينفخ نفختين بينهما أربعون عاماً على الصحيح... إلخ.

﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ﴾: ورفعت الأرض من جميع جهاتها بمجرد القدرة الكاملة، أو بتوسط زلزلة، أو بريح عاصفة. ﴿فَدُكَّتَا﴾: فدكت الجملتان: جملة الأرضين، وجملة الجبال، فضرب بعضها ببعض؛ حتى تندق، وترجع كثيباً مهيلاً، وهباءً منبثاً، قال تعالى في سورة (المزمل): ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا﴾ رقم [١٤]، وقال تعالى في سورة (الواقعة): ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ﴿٥﴾ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا﴾. وقيل: المعنى بسطت الأرض، والجبال بسطةً واحدة، فصارتا أرضاً، لا ترى فيها عوجاً، ولا أمتاً. وألف الاثنين عائدة إلى الأرض، والجبال. هذا؛ وفي المختار: الدك الدق، وقد دكه: إذا ضربه وكسره، وسواه بالأرض، وبابه ردَّ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾. قال الأخفش: هي أرض دك، والجمع: دكوك، قال الله تعالى في سورة (الأعراف) رقم [١٤٣]: ﴿جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ قال: ويحتمل أن يكون مصدراً، كأنه قال: دكه دكاً، أو أراد: جعله ذا دك، فحذف ذا، وقرئ (دكاء) بالمد، أي: جعله أرضاً دكاء، فحذف الأرض، لأن الجبل مذكر، فلا لبس. انتهى. بتصرف. هذا؛ وخذ قوله تعالى في سورة (الفجر) رقم [٢١]: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا﴾ وهذا يعني: أن الأرض يبدل شكلها، وهيئتها، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ﴾ رقم [٤٨] من سورة (إبراهيم).

الإعراب: ﴿فَإِذَا﴾: (الفاء): حرف استئناف. (إذا): ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك، مبني على السكون في محل نصب. ﴿نُفِخَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول. ﴿فِي ٱلصُّورِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿نَفۡخَةٞ﴾: نائب فاعل ﴿نُفِخَ﴾،

وقرئ بنصبه على أنه مفعول مطلق، والجار والمجرور في محل نائب الفاعل. ﴿وَٰحِدَةٌ﴾: صفة ﴿نَفۡخَةٌ﴾، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذا) إليها على المشهور المرجوح. ﴿وَحُمِلَتِ﴾: الواو: حرف عطف. (حملت): فعل ماض مبني للمجهول، والتاء للتأنيث حرف لا محل له. ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾: نائب فاعل، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل جر مثلها. ﴿وَٱلۡجِبَالُ﴾ معطوف على ما قبله. ﴿فَدُكَّتَا﴾: الفاء: حرف عطف. (دكتا): فعل ماض مبني للمجهول، والتاء للتأنيث، وحركت بالفتح لالتقائها ساكنة مع ألف الاثنين؛ التي هي نائب فاعل، والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿دَكَّةً﴾: مفعول مطلق. ﴿وَٰحِدَةً﴾: صفة ﴿دَكَّةً﴾.

﴿فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ﴿١٦﴾﴾

الشرح: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ﴾ أي: في اليوم الذي ينفخ فيه في الصور. ﴿وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾: قامت القيامة. ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي: انصدعت، وتفطرت، قال ابن جريج: هي كقوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ سورة (النبأ). وقيل: تنشق لنزول ما فيها من الملائكة، دليله قوله تعالى في سورة (الفرقان) رقم [٢٥]: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾. ﴿فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾ أي: ضعيفة، يقال: وهى البناء، يهي وهياً، فهو واهٍ: إذا ضَعُف جداً، ويقال: كلامٌ واهٍ، أي: ضعيف. فقيل: إنها تصير بعد صلابتها بمنزلة الصوف في الوَهْي، وفي الكشاف: واهية مسترخية، ساقطة القوة جداً بعدما كانت محكمة مستمسكة. وفي سورة (التكوير): ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ﴾ والتعبير بالماضي عن المستقبل لتحقق الوقوع.

الإعراب: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ﴾: (الفاء): واقعة في جواب (إذا) في الآية [١٣]. (يومئذ): ظرف زمان متعلق بما بعده، و(إذا) ظرف مبني على السكون في محل جر بالإضافة، والتنوين عوض عن جملة محذوفة التقدير: إذ حصلت، أو تحصل النفخة، وحملت الأرض، أو تحمل. ﴿وَقَعَتِ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث. ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية جواب (إذا) لا محل لها. ﴿وَٱنشَقَّتِ﴾: الواو: حرف عطف. (انشقت): فعل ماض، والتاء للتأنيث. ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها. ﴿فَهِيَ﴾: (الفاء): حرف عطف (هي): ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾: ظرف زمان متعلق بما بعده، و(إذا) في محل جر بالإضافة. ﴿وَاهِيَةٞ﴾: خبر المبتدأ، والجملة لا محل لها مثلها.

﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ﴿١٧﴾﴾

الشرح: ﴿وَٱلۡمَلَكُ﴾ أي: الملائكة، و(الملك) اسم جنس بمعنى الجمع، فهو أعم من الملائكة. ﴿عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ﴾: جوانب السماء، واحدها: رجا (مقصور) لأن السماء إذا انشقت، وهي

مسكن الملائكة، فيلجئون إلى أطرافها وجوانبها. قال المفسرون: وذلك؛ لأن السماء مسكن الملائكة، فإذا انشقت السماء وقفوا على أطرافها فزعاً مما داخلهم من هول ذلك اليوم، ومن عظمة ذي الجلال، الكبير المتعال. هذا؛ ولم يرد لفظ الأرجاء إلا في هذه السورة، ولم يستعمل هذه اللفظ إلا مجموعاً، ولا يحسن المفرد (رجا) في موضع الجمع، كما لا يحسن الكوب موضع الأكواب، كما رأيت في سورة (الواقعة) رقم [١٨]. ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ أي: ويحمل عرش الرحمن يوم القيامة ثمانية من الملائكة العظام فوف رؤوسهم. وقد روى أبو هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «**إن حملة العرش اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله تعالى بأربعة آخرين، فكانوا ثمانية**». ذكره الثعلبي. وذكر الماوردي نحوه، وفي الحديث: «**إن لكل ملك منهم أربعة أوجه: وجه رجلٍ، ووجه أسد، ووجه ثور، ووجه نسر، وكل وجه منها يسأل الله الرزق لذلك الجنس**». ولما أنشد بين يدي النبي ﷺ قول أمية بن أبي الصلت: [الكامل]

رَجُلٌ وثَوْرٌ تحت رِجْلِ يمينهِ ... والنَّسرُ للأخرى وَلَيْثٌ مُرْصَدُ

والشَّمسُ تطلع كلَّ آخرِ ليلةٍ ... حمراءَ يُصْبِح لونُها يَتَوَرَّدُ

ليستْ بطالعةٍ لهم في رِسْلِها ... إلا مُعَذَّبةً وإلا تُجْلَدُ

قال النبي ﷺ: «**صدق**». هذا؛ وانظر ما ذكرته في سورة (غافر) رقم [٧] تجد ما يسرك، ويثلج صدرك. هذا؛ وأما العرش؛ فقد قال الراغب في كتابه (مفردات القرآن): وعرش الله عز وجل مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم، لا بالحقيقة، ليس هو كما تذهب إليه أوهام العامة، فإنه لو كان كذلك؛ لكان حاملاً له، تعالى الله عن ذلك.انتهى. خازن. وقد قال سليمان الجمل: وأما المراد به هنا؛ فهو الجسم النوراني المرتفع عن كل الأجسام،المحيط بكلها،وانظر ما ذكرته في آية الكرسي رقم [٢٥٥] من سورة (البقرة).

هذا؛ وفي كثير من الآيات قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ولا يجوز تفسيره بـ: استقر، وثبت، فيكون الله من صفات الحوادث،وإنما يؤول باستولى، وهذا التأويل ينبغي أن يقال في كل ما يوهم وصفاً، لا يليق به تعالى. والقول الفصل قول علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: الاستواء غير مجهول، والتكييف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، لأنه تعالى كان، فهو على ما كان قبل خلق المكان، والزمان،لم يتغير عما كان. والمنقول عن جعفر الصادق،والحسن البصري، وأبي حنيفة ومالك - رضي الله عنهم أجمعين - يشبه ذلك. هذا؛ وهناك من يقول:استوى استواء يليق به،وهو قول السلف. هذا؛ واستوى في سورة (القصص) رقم [١٤] بمعنى انتهاء الشباب، وتكامل العقل.

الإعراب: ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾: (الواو): حرف استئناف. (الملك): مبتدأ. ﴿عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾: متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، و(ها) في محل جر بالإضافة، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها.

﴿وَيَحۡمِلُ﴾: (الواو): حرف استئناف. (يحمل): فعل مضارع. ﴿عَرۡشَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿رَبِّكَ﴾ مضاف إليه، والكاف في محل جر بالإضافة من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿فَوۡقَهُمۡ﴾: ظرف مكان متعلق بالفعل قبله، والهاء في محل جر بالإضافة. هذا؛ وقال الجمل: فوقهم متعلق بمحذوف حال من العرش، والأول أقوى. ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾: ظرف زمان متعلق بالفعل (يحمل)، و(إذ) في محل جر بالإضافة، والتنوين عوض من جملة محذوفة. ﴿ثَمَٰنِيَةٞ﴾: فاعل (يحمل)، والجملة الفعلية مستأنفة، أو هي معطوفة على الجملة الاسمية قبلها على رأي من يجيز عطف الفعلية على الاسمية.

﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ١٨﴾

الشرح: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾: يوم ينفخ في الصور. ﴿تُعۡرَضُونَ﴾ أي: على الله. دليله قوله تعالى في سورة (الكهف) رقم [٤٨]: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا﴾ وليس ذلك عرضاً يعلم به ما لم يكن عالماً له، بل معناه الحساب، وتقدير الأعمال عليهم للمجازاة. وروى الحسن عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فأما عرضتان؛ فجدال ومعاذير، وأما الثالثة؛ فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي، فآخذ بيمينه، وآخذ بشماله**». أخرجه الترمذي، وقال: ولا يصح هذا الحديث من قبل: أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة. وقد رواه بعضهم عن الحسن عن أبي موسى عن النبي ﷺ. ﴿لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾ أي: الله عالم بكل شيء من أعمالكم، لا يخفى عليه شيء منها، وإن عرضكم عليه يوم القيامة للحساب والجزاء، ففيه من المبالغة في التهديد، والوعيد ما لا يخفى. وفي الجمل: وعبر عن الحساب، والجزاء بالعرض تشبيهاً له بعرض السلطان العسكر، والجند؛ لينظر في أمرهم، فيختار منهم المصلح للتقريب، والإكرام، والمفسد للإبعاد، والتعذيب. انتهى. والآيات التالية تشرح ذلك، وتفصله. هذا؛ وقد قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أخف عليكم في الحساب غداً، وتزينوا للعرض الأكبر.

الإعراب: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾: ظرف زمان متعلق بالفعل بعده، و(إذ) في محل جر بالإضافة على مثال ما تقدم. ﴿تُعۡرَضُونَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو نائب فاعله، والجملة الفعلية بمنزلة البدل من جملة: ﴿وَيَحۡمِلُ...﴾ إلخ، أو هي مستأنفة، لا محل لها. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿تَخۡفَىٰ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر. ﴿مِنكُمۡ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿خَافِيَةٞ﴾: فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الضمير المجرور بـ: (مِنْ).

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾

الشرح: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ﴾: فهذا تفصيل لأحوال الناس عند العرض، ﴿كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾: إعطاء الكتاب باليمين دليل على النجاة. ﴿فَيَقُولُ﴾: ابتهاجاً، وسروراً، وذلك حين بلغ الغاية في السرور، وعلم: أنه من الناجين بإعطائه كتابه بيمينه، أحب أن يظهر ذلك لغيره؛ حتى يفرحوا له. وقيل: يقول ذلك لأهله، وأقربائه، ﴿إِنِّى ظَنَنتُ﴾: علمت، وتيقنت ﴿أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾: أني سألقى حسابي، وجزائي يوم القيامة، فأعددت له العدة من الإيمان، والعمل الصالح. قال الحسن: إن المؤمن أحسن الظن بربه، فأحسن العمل، وإن المنافق أساء الظن بربه، فأساء العمل. هذا؛ و﴿هَآؤُمُ﴾ بمعنى: خذوا، وفيها استعمالان، وذلك: أنها تكون فعلاً صريحاً، وتكون اسم فعل، ومعناها في الحالين: خذوا، فإن كانت اسم فعل، وهي المذكورة في الآية الكريمة، ففيها لغتان: المد والقصر، تقول: هاء درهماً يا زيدُ، وها درهماً يازيدُ، ويكونان كذلك في الأحوال كلها من إفراد وتثنية، وجمع، وتذكير، وتأنيث، وتتصل بهما كاف الخطاب اتصالها باسم الإشارة، فتطابق مخاطبك بحسب الواقع مطابقتها، وهي (أي: الكاف) ضمير المخاطب، تقول: هاك، هاءك... إلخ، ويخلف كاف الخطاب همزة متصرفة، تصرف كاف الخطاب، فتقول: هاء يا زيدُ، هاء يا هندُ، هاؤما، هاؤن، وهي لغة القرآن. وإذا كانت فعلاً صريحاً، لاتصال الضمائر البارزة المرفوعة بها؛ كان فيها ثلاث لغات: إحداها: أنها تكون مثل: عاطى، يعاطي، فيقال: هاء يازيدُ، هائي يا هندُ، هائيا يا زيدان، أو يا هندان، هاؤوا يا زيدون، هائين يا هندات. الثانية: أن تكون مثل: هب، فيقال: ها، هئي، ها، هئوا، هأن، مثل: هب، هبي، هبا، هبوا، هبن. الثالثة: أن تكون مثل خف، أمراً من الخوف، فيقال: هأ، هائي. هاآ، هاؤوا، هأن، مثل: خف خافي، خافا، خفن. واختلف في مدلولها، فالمشهور: أنها بمعنى خذوا، وقيل: معناها: تعالوا، فتتعدى بـ: «إلى»، وقيل: معناها القصد. انتهى. الجمل نقلاً من السمين.

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ، قالت: ذكرت النار، فبكيت، فقال رسول الله ﷺ: «**ما يبكيك؟**». قلت: ذكرت النار، فبكيت، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال: «**أما في ثلاثة مواطن، فلا يذكر أحدٌ أحداً: عند الميزان؛ حتى يعلم: أيخف ميزانه، أم يثقل؟ وعند تطاير الصحف؛ حتى يعلم أين يقع كتابه في يمينه أم في شماله، أم وراء ظهره؟ وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم؛ حتى يجوز**». رواه أبو داود، وزاد فيه الحاكم: «**وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم حافتاه كلاليب كثيرة، وحسك كثير، يحبس الله بها من يشاء من خلقه؛ حتى يعلم أينجو أم لا؟**».

الإعراب: ﴿فَأَمَّا﴾: (الفاء): حرف تفريع، واستئناف. (أما): أداة شرط، وتفصيل، وتوكيد، انظر الآية رقم [٥]. ﴿مَنْ﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿أُوتِيَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل يعود إلى ﴿مَنْ﴾، وهو المفعول الأول. ﴿كِتَٰبَهُۥ﴾: مفعول به ثان. ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾: متعلقان بالفعل ﴿أُوتِيَ﴾، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿فَيَقُولُ﴾: (الفاء): واقعة في جواب (أمَّا). (يقول): فعل مضارع، والفاعل يعود إلى (مَنْ)، والجملة الفعلية مع مقولها في محل رفع خبر المبتدأ، الذي هو (مَنْ). ﴿هَآؤُمُ﴾: (ها): اسم فعل أمر مبني على السكون، والميم حرف دال على جماعة الذكور، والفاعل مستتر تقديره: «أنتم». ﴿ٱقْرَءُوا۟﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿كِتَٰبِيَهْ﴾: مفعول به تنازعه كلٌّ من ﴿هَآؤُمُ﴾ و﴿ٱقْرَءُوا۟﴾، فأعمل الأول عند الكوفيين لسبقه، والثاني عند البصريين لقربه، وأضمر في أحدهما على الاعتبارين، التقدير: هاؤموه اقرؤوا كتابيه، أو هاؤم اقرؤوا كتابيه. هذا؛ وعلامة نصب ﴿كِتَٰبِيَهْ﴾ فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة، و(الياء): ضمير متصل في محل جر بالإضافة، أصله كتابي، فأدخلت عليه هاء السكت؛ لتظهر فتحة الياء، وكذا يقال في الباقي، والجملتان في محل نصب مقول القول، والجملة الاسمية: (أما مَنْ. . .) إلخ مستأنفة، لا محل لها. ﴿إِنِّى﴾: (إنَّ): حرف مشبه بالفعل، وياء المتكلم اسمها. ﴿ظَنَنتُ﴾: فعل، وفاعل. ﴿أَنِّى﴾: (أنَّ): حرف مشبه بالفعل، وياء المتكلم اسمها. ﴿مُلَٰقٍ﴾: خبر (أنَّ) مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين، وفاعله مستتر تقديره: «أنا»، ﴿حِسَابِيَهْ﴾: مفعول به مثل: ﴿كِتَٰبِيَهْ﴾ فهو منصوب مثله. . . إلخ، و﴿أَنِّى مُلَٰقٍ...﴾ إلخ في تأويل مصدر في محل نصب سد مسد مفعولي ﴿ظَنَنتُ﴾، والجملة الفعلية هذه في محل رفع خبر ﴿إِنِّى﴾، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول أيضاً.

﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾

الشرح: ﴿فَهُوَ﴾: أي: الذي أوتي كتابه بيمينه. ﴿فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي: مرضية، يرضاها صاحبها، لا يضجر منها، ولا يملها، ولا يسأمها. فهي صيغة فاعل بمعنى: مفعول، مثل: ﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ بمعنى: مدفوق، وهذا ما يسمى مجازاً عقلياً، فقد أسند فيه اسم الفاعل إلى ضمير العيشة إسناداً مجازياً، من إسناد ما هو بمعنى الفعل إلى غير ما حقه أن يسند إليه. وقال الحطيئة في ذم الزبرقان بن بدر ـ وهو الشاهد رقم [١٠] من كتابنا: «فتح رب البرية» ـ: [البسيط]

دعِ المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعمُ الكاسي

فإنه أراد: اقعد كلّاً على غيرك مطعوماً، مكسواً. فقد أسند الوصف المسند للفاعل إلى ضمير المفعول، ومن هنا كان ذماً، لا مديحاً. ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾: مرتفعة المكان؛ لأنها في

السماء السابعة، ومرتفعة أيضاً في الدرجات، والأبنية، والأشجار. ﴿قُطُوفُهَا﴾: جمع: قِطف بكسر القاف، بمعنى: مفعول، كالذبح بمعنى: المذبوح، وهو ما يجنيه الجاني من الثمار، وأما القَطف بالفتح فالمصدر، والقِطَاف بالفتح والكسر، وقت القطف. انتهى. جمل نقلاً من الخطيب. ﴿دَانِيَةٌ﴾ أي: قريبة التناول، يتناولها القائم، والقاعد، والمضطجع. قال تعالى في سورة (الرحمن): ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾.

الإعراب: ﴿فَهُوَ﴾: (الفاء): حرف استئناف. (هو): ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ ﴿فِي عِيشَةٍ﴾: متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ. ﴿رَّاضِيَةٍ﴾: صفة ﴿عِيشَةٍ﴾. ﴿فِي جَنَّةٍ﴾: بدل مما قبلهما بدل بعض من كل، أو هما متعلقان بمحذوف خبر ثان. ﴿قُطُوفُهَا﴾: مبتدأ، وها في محل جر بالإضافة. ﴿دَانِيَةٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل جر صفة ثانية لـ: ﴿جَنَّةٍ﴾، أو في محل نصب حال منها بعد وصفها بما تقدم. والجملة الاسمية: ﴿فَهُوَ...﴾ إلخ استئنافية لا محل لها.

﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾

الشرح: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ...﴾ إلخ وقال تعالى في سورة الأعراف رقم [٤٣]: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وقال جل ذكره في سورة (الزخرف) رقم [٧٢]: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وقال تعالى في سورة (السجدة) رقم [١٩]: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: بسبب أعمالهم، وليس المراد السبب الحقيقي حتى يخالف نص الحديث الشريف، وفحوى هذا: أن نص الآيات جميعاً يفيد أن دخول الجنة مسبب عن الأعمال الصالحة، والرسول ﷺ يقول: «**لن يُدْخِل أحداً عملُه الجنة**». قالوا: ولا أنت يا رسول الله! قال: «**ولا أنا؛ إلا أن يتغمدني الله بفضله، ورحمته، فسددوا وقاربوا**». أخرجه البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ. والجمع بين هذه الآيات، والحديث الشريف: أن محمل الآيات على أن منازل الجنة إنما تنال بالأعمال؛ لأن درجات الجنة متفاوتة بحسب تفاوت الأعمال، وأن محمل الحديث الشريف على أصل دخول الجنة. فإن قيل: آية (السجدة) صريحة بأن دخول الجنة أيضاً بالأعمال. أجيب بأنه لفظ مجمل بينه الحديث الشريف، والتقدير: ادخلوا منازل الجنة، وقصورها بما كنتم تعملون، وليس المراد أصل الدخول، أو المراد: ادخلوها بما كنتم تعملون مع رحمة الله، وتفضله عليكم؛ لأن اقتسام منازل الجنة برحمته، وكذا أصل دخولها، حيث ألهم العاملين ما نالوا به ذلك، ولا يخلو شيء من مجازاته لعباده من رحمته، وفضله، لا إله إلا هو، له الملك وله الحمد. انتهى. حاشية الشنواني على مختصر ابن أبي جمرة. ومعنى ﴿هَنِيٓـًٔا﴾: لا كدر، ولا تنغيص فيه، وقيل: مأمون العاقبة من

التخمة والسُّقم. وقيل: لا أذية فيه، ولا غائلة. وفي سورة (الطور) رقم [١٩]: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ومثلها في سورة (المرسلات) رقم [٤٣].

بعد هذا خذ ما يلي: عن زيد بن أرقم ـ رضي الله عنه ـ، قال: جاء رجل من أهل الكتاب إلى النبي ﷺ، فقال: يا أبا القاسم! تزعم: أن أهل الجنة يأكلون، ويشربون، قال: «**نعم، والذي نفس محمد بيده! إن أحدهم لَيُعطى قوة مئة رجل في الأكل والشرب والجماع**». قال: فإن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة، وليس في الجنة أذى. قال: «**تكون حاجة أحدهم رشحاً يفيض من جلودهم، كرشح المسك، فيضمر بطنه**». رواه أحمد، والنسائي.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**من يدخل الجنة ينعم، ولا يبأس، ولا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه. في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشرٍ**». أخرجه مسلم.

وعن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ قال: سأل رجل رسول الله ﷺ: هل يتزاور أهل الجنة؟ قال: «**نعم، إنه ليهبط أهل الجنة الدرجة العليا إلى أهل الجنة الدرجة السفلى، فيحيونهم، ويسلمون عليهم، ولا يستطيع أهل الدرجة السفلى يصعدون إلى الأعلين، تقصر بهم أعمالهم**». رواه ابن أبي حاتم. وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة، فيشتاق الإخوان بعضهم إلى بعض، فيسير سرير هذا؛ إلى سرير هذا، وسرير هذا إلى سرير هذا حتى يجتمعا جميعاً، فيتكئ هذا، ويتكئ هذا، فيقول أحدهما لصاحبه: أتعلم متى غفر الله لنا؟ فيقول صاحبه: نعم يوم كنَّا في موضع كذا وكذا، فدعونا الله، فغفر لنا**». رواه ابن أبي الدنيا، والبزار.

وعن سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يدخل أحد الجنة إلا بجواز بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من الله لفلان بن فلان، أدخلوه جنة عالية، قطوفها دانية**». رواه الطبراني.

هذا؛ ولا تنس الالتفات من الغيبة في الآية رقم [١٩] وما بعدها إلى الخطاب في هذه الآية.

الإعراب: ﴿كُلُوا۟﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول لقول محذوف، التقدير: يقال لهم: كلوا. والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. هذا؛ وقد روعي لفظ ﴿مَنْ﴾ فيما تقدم، وروعي معناها في هذه الآية، وجملة: ﴿وَٱشْرَبُوا۟﴾ معطوفة على ما قبلها. ومفعول الفعلين محذوف للاختصار والتعميم. ﴿هَنِيٓـًٔا﴾: حال من واو الجماعة بمعنى: مهنئين، أو هو صفة مفعول مطلق محذوف، التقدير: هنيئاً لكم الأكل، والشرب، وقيل: الفاعل (ما) المجرورة بالباء، وعليه يكون مثله قول كثير عزة: [الطويل]

هَـنِـيـئـاً مَـرِيـئـاً غَـيْـرَ داءٍ مُـخَـامِـرٍ لِـعَـزَّةَ مِـنْ أعْـراضِـنـا مـا اسْـتَـحَـلَّـتِ

فيكون مثل (ما) يرتفع بالفعل، أي: كما تقول: هنأكم ما كنتم تعملون، أو هنأكم الأكل والشرب، فعلى الأول الباء زائدة في الفاعل، وعلى الثاني الباء أصلية. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: ﴿هَنِيٓـًٔا﴾، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية. ﴿أَسْلَفْتُمْ﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: بالذي، أو بشيء أسلفتموه، وعلى اعتبار (ما) مصدرية تؤول بما بعدها بمصدر في محل جر بالباء، التقدير: بإسلافكم، وهو ضعيف كما ترى. ﴿فِى ٱلْأَيَّامِ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من الضمير المحذوف، الذي رأيت تقديره. ﴿ٱلْخَالِيَةِ﴾: صفة ﴿ٱلْأَيَّامِ﴾.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾﴾

الشرح: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ﴾: لما ذكر الله حال أهل السعادة، وهم الذين آمنوا، وعملوا الصالحات في الآيات السابقة؛ ذكر في هذه الآيات أهل الشقاوة، وهم الذين كفروا، وعملوا المعاصي، والمنكرات، وهذا من باب المقابلة، وقد جرت سنة الله في كتابه: أنه لم يذكر الإيمان؛ إلا ويذكر الكفر، ولم يذكر الجنة؛ إلا ويذكر النار، ولم يذكر الإيمان، وأهله، ومآلهم؛ إلا ويذكر الكفر، وأهله، ومآلهم؛ ليكون المؤمن راغباً راهباً. هذا؛ وذكر القرطبي نقلاً عن الضحاك: أن آيات أهل السعادة نزلت في أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي. وقاله مقاتل، وأن آيات أهل الشقاوة نزلت في أخيه الأسود بن عبد الأسد، ويكون الأخوان سبباً في نزول هذه الآيات، والمعنى يعم جميع أهل السعادة، وأهل الشقاوة بلا ريب، لأن خصوص السبب، لا يمنع التعميم، وقد ذكرته مراراً.

وفي زيني دحلان: وعبد الله أول من يأخذ بيمينه، والأسود أول من يأخذه بشماله، وهو أول قتيل يوم بدر من المشركين. ﴿أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾: قيل: تكون يده اليسرى خلف ظهره، ثم يعطى كتابه بها، قال تعالى في سورة (الانشقاق): ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾. ﴿فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ﴾ أي: يقول إذا رأى قبائح أعماله: يا ليتني لم أعط كتابي. قال المفسرون: وذلك لما يحصل له من الخجل، والافتضاح، فيتمنى عندئذ: أنه لم يعط كتاب أعماله، ويندم أشد الندم، ويتحسر أعظم التحسر.

الإعراب: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ﴾: الإعراب مثله في الآية رقم [١٩] بلا فارق. ﴿يَـٰلَيْتَنِى﴾: (يا): حرف تنبيه، وقيل: أداة نداء، والمنادى محذوف، تقديره: يا هؤلاء ونحوه، والأول أقوى في مثل هذه الآية. (ليتني): حرف مشبه بالفعل، والنون للوقاية، وياء المتكلم في محل نصب اسمها. ﴿لَمْ﴾: حرف نفي وقلب وجزم. ﴿أُوتَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مجزوم بـ: ﴿لَمْ﴾ وعلامة جزمه حذف حرف العلة من آخره، وهو الألف، والفتحة قبلها دليل عليها، ونائب الفاعل مستتر فيه وجوباً،

تقديره: «أنا»، وهو المفعول الأول. ﴿كِتَٰبِيَهۡ﴾: مفعول به ثان منصوب مثل سابقه، وعلامة نصبه فتحة مقدرة عل ما قبل ياء المتكلم، منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة، والياء في محل جر بالإضافة، والهاء للسكت حرف لا محل له... إلخ، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (ليت)، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، وجملة: (يقول...) إلخ في محل رفع خبر المبتدأ، الذي هو ﴿مَنۡ﴾، والجملة الاسمية معطوفة على مثلها في الآية رقم [١٩].

﴿وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴿٢٩﴾﴾

الشرح: ﴿وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ﴾ أي: لم أعلم، أيَّ شيء حسابي؛ لأنه لا طائل، ولا حاصل له، وإنما كله عليه، لا له. ﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ﴾: تمنى: أنه لم يبعث للحساب. والمعنى: يا ليت الموتة التي متها في الدنيا كانت القاضية عن كل ما بعدها، والقاطعة للحياة، أي: لا أحيا بعدها، قال قتادة: تمنى الموت، ولم يكن شيء أكره منه إليه، أي: من الموت في الدنيا، لأنه رأى تلك الحالة أشنع، وأمر مما ذاقه من الموت. ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ﴾ أي: لم يدفع عني مالي، وغناي شيئاً من العذاب. ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ أي: زال عني ملكي، وسلطاني، ونسبي، وجاهي، فلا معين، ولا مجير، ولا صديق، ولا نصير. أو زال عني قوتي، وتسلطي على الناس، وبقيت ذليلاً فقيراً حقيراً. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ضلت عني حجتي. أي: بطلت حجتي؛ التي كنت أحتج بها في الدنيا. هذا؛ وانظر شرح (سلطان) في سورة (الذاريات) رقم [٣٨].

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أغيظ رجل على الله يوم القيامة، وأخبثه رجل تسمى ملك الأملاك، ولا ملك إلا الله**». أخرجه مسلم، وعن فناخسرو الملقب بالعضد: أنه لما قال: [الرمل]

عضد الدولة وابن ركنها ... ملك الأملاك غلاب القدر

لم يفلح بعده، وجن، فكان لا ينطق لسانه إلا بهذه الآية: «**هلك عني سلطانيه**». هذا؛ والتمني: طلب المستحيل، كما في الآية رقم [٢٥ و٢٧]وكقول أبي العتاهية الصوفي ـ وهو في «فتح القريب المجيب» و«فتح رب البرية» ـ: [الوافر]

ألا ليت الشباب يعود يوماً ... فأخبره بما فعل المشيب

وأما الترجي؛ فهو طلب المتوقع حصوله، كقولك: لعل الغائب قادم، أو للتعليل كقوله تعالى **في سورة** (طه) رقم [٤٤]: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾.

الإعراب: ﴿وَلَمْ﴾: (الواو): حرف عطف. (لم): حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿أَدْرِ﴾: فعل مضارع مجزوم بلم، وعلامة جزمه حذف حرف العلة من آخره، وهو الياء، والكسرة قبلها دليل عليها، والفاعل مستتر تقديره: «أنا»، وهو معلق عن العمل لفظاً بسبب الاستفهام. ﴿مَا﴾: اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿حِسَابِيَهْ﴾: خبر المبتدأ مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على ماقبل ياء المتكلم، منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة، أصله: حسابي، فأدخلت عليه هاء السكت، لتظهر فتحة الياء، وكذا يقال في: «**ماليه سلطانية**»: هذا؛ ويجوز اعتبار (ما) خبراً مقدماً، و(حسابي) مبتدأ مؤخر، بل هو الأولى؛ لأن (ما) مبهمة نكرة، و(حسابي) معرفة بلا ريب. وقل مثله في ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ و﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ والجملة الاسمية: ﴿مَا حِسَابِيَهْ﴾ في محل نصب سدت مسد مفعولي الفعل: (أدري) المعلق عن العمل، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ فهي في محل رفع مثلها.

﴿يَٰلَيْتَهَا﴾: (يا): حرف تنبيه، وقيل: أداة نداء، والمنادى محذوف، التقدير: يا هؤلاء، وهو ضعيف كما ذكرته سابقاً. (ليتها): حرف مشبه بالفعل. و(ها): اسمها. وهو عائد على غير مذكور، التقدير: ياليت الموتة الأولى التي كانت في الدنيا. ﴿كَانَتِ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه ضمير مستتر تقديره: «هي» يعود إلى ما ذكرته، وقدرته، والتاء للتأنيث حرف لا محل له. ﴿ٱلْقَاضِيَةَ﴾: خبر ﴿كَانَتِ﴾، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (ليت)، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول. ﴿مَآ﴾: نافية. ﴿أَغْنَىٰ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر. ﴿عَنِّى﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿مَالِيَهْ﴾: فاعل ﴿أَغْنَىٰ﴾ مرفوع مثل ﴿حِسَابِيَهْ﴾، ومفعوله محذوف، تقديره: شيئاً. هذا؛ وقيل: ﴿مَآ﴾ اسم موصول مبني على السكون في محل رفع فاعل ﴿أَغْنَىٰ﴾، و﴿عَنِّى﴾ جار ومجرور متعلقان بمحذوف صلتها، التقدير: ما أغنى عني الذي ثبت، واستقر: أنه لي وهو ضعيف معنًى. هذا؛ ويجوز اعتبار (ما) الأولى استفهامية في محل نصب مفعول به مقدم، وقيل: في محل نصب مفعول مطلق. وعلى الاعتبارين؛ فالجملة فعلية، وهي في محل نصب مقول القول. ﴿هَلَكَ﴾: فعل ماض. ﴿عَنِّى﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿سُلْطَٰنِيَهْ﴾: فاعل مرفوع مثل ﴿حِسَابِيَهْ﴾، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول أيضاً.

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾

الشرح: ﴿خُذُوهُ﴾: يقول الله تعالى لخزنة النار. ﴿فَغُلُّوهُ﴾ قيل: يبتدره مئة ألف مَلَك، ثم تجمع يده إلى عنقه، وهو قوله عز وجل: ﴿فَغُلُّوهُ﴾ أي: شدوه بالأغلال. ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ أي: أدخلوه معظم النار؛ لأنه كان يتعاظم في الدنيا. يقال: صلى النار، وصلاه النار، وصلي فلان

النار (بالكسر)، يصلى صلياً؛ أي: احترق. وقال الجوهري: يقال: صليت الرجل ناراً: إذا أدخلته النارَ، وجعلته يصلاها، فإن ألقيته فيها إلقاءً كأنك تريد الاحتراق، قلت: أصليته بالألف، وصليته تصلية، ويقال: صلي بالأمر: إذا قاسى حره، وشدته، واصطليت بالنار، وتصليت بها: إذا استدفأت بها، وفلان لا يصطلى بناره: إذا كان شجاعاً لا يطاق. هذا؛ وتقديم الجحيم يفيد الحصر، فيكون المعنى: ثم لا تصلوه إلا الجحيم، وهي النار العظمى.

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ﴾: وهي حلق منتظمة كل حلقة منها في حلقة، ﴿ذَرْعُهَا﴾ أي: مقدارها، والذرع: التقدير بالذراع من اليد، أو غيرها. ﴿سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾: قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: بذراع الملك. وقال نوف البكالي: سبعون ذراعاً، كل ذراع سبعون باعاً، كل باع أبعد ما بينك وبين مكة، وكان في رحبة الكوفة، وقال الحسن: الله أعلم أيَّ: ذراع؟

وعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو أن رُضَاضة مثل هذه (وأشار إلى مثل الجمجمة) أُرسلت من السماء إلى الأرض (وهي مسيرة خمسمئة سنة) لبلغت الأرض قبل الليل، ولو أنها أرسلت من رأس السلسة لسارت أربعين خريفاً الليلَ والنهارَ قبل أن تبلغ قعرها، أو أصلها**». رواه أحمد والترمذي، والبيهقي. هذا؛ والجمجمة: قدح من خشب، وجمعه: جماجم، والجمجمة: الرأس، وهو أشرف الأعضاء.

هذا؛ وقد جاء ذرعها هنا بمعنى: المقدار، ويأتي الذرع بمعنى: الوسع، والطاقة، انظر الآية رقم [٣٣] من سورة (العنكبوت)، أو الآية رقم [٧٧] من سورة (هود) على نبينا، وحبيبنا، وشفيعنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام وفي كلتيهما قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾.

﴿فَٱسْلُكُوهُ﴾ أي: أدخلوه فيها. قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: تدخل في دبره، وتخرج من منخريه. وقيل: تدخل في فيه، وتخرج من دبره، فينادي أصحابه: هل تعرفوني؟ فيقولون: لا، ولكن قد نرى مابك من الخزي فمن أنت؟ فينادي أصحابه: أنا فلان بن فلان، لكل إنسان منكم مثل هذا، والمعنى في تقديم السلسلة على السلك مثله في تقديم الجحيم على التصلية، أي: لا تسلكوه إلا في هذه السلسلة، كأنها أفظع من سائر مواضع الإرهاق في الجحيم.

(وفي زاده): ثم إن كلمة ﴿ثُمَّ﴾ والفاء الواقعين في الجملة الأخيرة، إن كانتا لعطف جملة: ﴿فَٱسْلُكُوهُ﴾ لزم اجتماع حرفي العطف على معطوف واحد، فينبغي أن تكون كلمة ﴿ثُمَّ﴾ لعطف قول مضمر على ما أضمر قبل قوله: (خذوه) أي: قيل لخزنة جهنم: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ ثم قيل لهم: ﴿فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا...﴾ إلخ، وتكون الفاء لعطف المقول على المقول، وثم لعطف القول على القول. انتهى. جمل.

أقول: وإذا اعتبرنا الفاء صلة؛ فلا حاجة إلى هذا التقدير، وإلى هذه الدندنة، ويكون الجار، والمجرور ﴿فِي سِلْسِلَةٍ﴾ متعلقين بالفعل (اسلكوه) ولا غضاضة في ذلك.

هذا؛ و﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف يقتضي ثلاثة أمور: التشريك في الحكم، والترتيب، والمهلة، وفي كل منها خلاف مذكور في مغني اللبيب، وقد تلحقها تاء التأنيث الساكنة، كما تلحق (رب) و(لا) العاملة عمل «ليس»، فيقال: ثمت، وربت، ولات، والأكثر تحريك التاء معهن بالفتح. هذا؛ و«ثم» هذه غير «ثَمَّ» بفتح الثاء، فإنها اسم يشار به إلى المكان البعيد، كما في قوله تعالى في سورة (الشعراء) رقم [٦٤]: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ﴾. وهي ظرف لا يتصرف، ولا يتقدمه حرف التنبيه، ولا يتصل به كاف الخطاب، وقد تتصل به التاء المربوطة، فيقال: ثَمَّةَ.

الإعراب: ﴿خُذُوهُ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون لاتصاله بواو الجماعة، والواو فاعله، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول لقول محذوف، وهو جواب عن سؤال نشأ مما سبق، كأنه قيل: وما فعل به بعد هذا التحسر الصادر منه، فقيل: يقال من قبل الله للزبانية: ﴿خُذُوهُ...﴾ إلخ. انتهى. جمل. وجملة: (غلوه)معطوفة على ما قبلها بالفاء العاطفة، فهي في محل نصب مقول القول مثلها. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿ٱلْجَحِيمَ﴾: ظرف مكان متعلق بما بعده، فهو منصوب، أو هو منصوب بنزع الخافض. وقيل: مفعول به لفعل محذوف، يفسره المذكور، ولا وجه له ألبتة. ﴿صَلُّوهُ﴾: أمر، وفاعله، ومفعوله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿فِي سِلْسِلَةٍ﴾: متعلقان بالفعل بعدهما. ﴿ذَرْعُهَا﴾: مبتدأ، و(ها): في محل جر بالإضافة. ﴿سَبْعُونَ﴾: خبر المبتدأ مرفوع، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمة؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، والنون عوض من التنوين في الاسم المفرد، والجملة الاسمية في محل جر صفة ﴿سِلْسِلَةٍ﴾. ﴿ذِرَاعًا﴾: تمييز. ﴿فَٱسْلُكُوهُ﴾: (الفاء): حرف صلة، وجملة: (اسلكوه) معطوفة بـ: ﴿ثُمَّ﴾ على ما قبلها فهي في محل نصب مقول القول أيضاً.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الذي أوتي كتابه بشماله. ﴿لَا يُؤْمِنُ﴾: لا يصدق، ولا يوقن. ﴿بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾: صاحب العظمة والكبرياء. وفيه إشعار بأنه هو المستحق لجميع المحامد، والجدير بتلبية جميع المطالب، والابتعاد عن جميع المناهي التي نهى عنها. ﴿وَلَا يَحُضُّ﴾: ولا يحث، بل يبخل ويأمر غيره بالبخل، كما قال تعالى في سورة (الحديد) رقم [٢٤]: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾. هذا؛ والحض: طلب الشيء بحثٍّ، وإزعاج. ﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾: على إطعام المسكين. فـ: ﴿طَعَامِ﴾ اسم مصدر استعمل مكان المصدر، واسم المصدر ما نقص عن حروف فعله لفظاً، وتقديراً من غير تعويض، مثل عطاء، فإنه اسم مصدر لـ: أعطى، يعطي إعطاء، قال تعالى في سورة (الإسراء) رقم [٢٠]: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ وقال الكميت ـ وهو الشاهد رقم [٥٣١] من كتابنا: «فتح رب البرية» ـ: [الوافر]

أَكُـفْـراً بَـعْـدَ رَدِّ الـمَـوْتِ عَـنِّـي وبَـعْـدَ عَـطـائِـكَ الـمِـئَـةَ الـرِّتَـاعَـا

ولعل تخصيص الأمرين: الإيمان بالله، والحض على إطعام المسكين بالذكر؛ لأن أقبح العقائد الكفر بالله، وأشنع الرذائل البخل، وقسوة القلب.

الإعراب: ﴿إِنَّهُۥ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمه. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه يعود إلى ﴿مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُؤْمِنُ﴾: فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: «هو». ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾: صفة لفظ الجلالة، والجملة الفعلية في محل نصب خبر ﴿كَانَ﴾، والجملة الفعلية هذه في محل رفع خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية هذه تعليلية، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَلَا﴾: (الواو): حرف عطف. (لا): نافية، ﴿يَحُضُّ﴾: فعل مضارع، والفاعل تقديره: «هو»، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب مثلها. ﴿عَلَىٰ طَعَامِ﴾: متعلقان بما قبلهما، و﴿طَعَامِ﴾ مضاف، و﴿ٱلْمِسْكِينِ﴾ مضاف إليه، من إضافة اسم المصدر لمفعوله، وفاعله محذوف، التقدير: ولا يحض على طعامه، أي: إطعامه المسكين.

﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾

الشرح: ﴿فَلَيْسَ لَهُ﴾: للذي أوتي كتابه بشماله. ﴿ٱلْيَوْمَ﴾: يوم القيامة. ﴿هَٰهُنَا﴾: عرصات القيامة. ﴿حَمِيمٌ﴾: قريب. أي: ليس له قريب يرق له، ويدفع عنه. وهو مأخوذ من الحميم، وهو الماء الحار، كأنه الصديق الذي يرق له، ويحترق قلبه عليه. ولا يكون للكافر في الآخرة قريب، ولا صديق؛ لأن الأقرباء يتحاشونه، ويفرون منه. ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾: فعلين من الغسل، فكأنه ينغسل من أبدانهم، وهو صديد أهل النار السائل من جروحهم، وفروجهم.

فإن قلت: ما التوفيق بين ما هنا، وبين قوله تعالى في محل آخر: ﴿إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾، وفي موضع آخر: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾، وفي موضع آخر: ﴿أُولَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾؟ قلنا: لا منافاة؛ إذ يجوز أن يكون طعامهم جميع ذلك، أو أن العذاب أنواع، والمعذبين طبقات، فمنهم أكلة الغسلين، ومنهم أكلة الضريع، ومنهم أكلة الزقوم، ومنهم أكلة النار، ولكل باب منهم جزء مقسوم. انتهى. جمل نقلاً من كرخي. ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾: الكافرون أصحاب الخطايا.

الإعراب: ﴿فَلَيْسَ﴾: (الفاء): حرف استئناف. (ليس): فعل ماض ناقص. ﴿لَهُ﴾: جار ومجرور متعلقانِ بمحذوف خبر (ليس) مقدم. ﴿ٱلْيَوْمَ﴾: ظرف زمان متعلق بمحذوف حال من ﴿حَمِيمٌ﴾ كان صفة له، فلما قدم عليه؛ صار حالاً. ﴿هَٰهُنَا﴾: (الهاء): حرف تنبيه. (هنا): اسم

إشارة مبني على السكون في محل نصب على الظرفية المكانية متعلق بالخبر المحذوف، أو بمحذوف خبر ثان، أو بمحذوف حال من ﴿حَمِيمٌ﴾. ﴿حَمِيمٌ﴾: اسم (ليس) مؤخر، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿وَلَا﴾: (الواو): حرف عطف. (لا): نافية. ﴿طَعَامٌ﴾: معطوف على ﴿حَمِيمٌ﴾. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿مِنْ غِسْلِينٍ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة ﴿طَعَامٌ﴾. ﴿لَّا﴾: نافية. ﴿يَأْكُلُهُۥٓ﴾: فعل مضارع، والهاء في محل نصب مفعول به. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾: فاعله مرفوع، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد، والجملة الفعلية في محل جر صفة ﴿غِسْلِينٍ﴾.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾

الشرح: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾: (لا): نافية. والكلام على ظاهره من النفي لظهور الأمر، واستغنائه عن التحقيق بالقسم. أو المعنى: فأقسم، و(لا) مزيدة، والمعنى: أقسم بالأشياء كلها ما ترون، وما لا ترون، فهو إقسام بالأشياء كلها على الشمول، والإحاطة؛ لأنها لا تخرج إلا من قسمين: مبصر، وغير مبصر. وقيل: بل المراد: الدنيا، والآخرة، والأجسام، والأرواح، والإنس، والجن، والخلق، والخالق، والنعم الظاهرة، والباطنة. وقيل: هو رد لكلام سبق، أي: ليس الأمر كما يقوله المشركون.

وقال مقاتل ـ رحمه الله تعالى ـ: سبب ذلك: أن الوليد بن المغيرة، قال: إن محمداً ساحر، وقال أبو جهل: شاعر، وقال عقبة بن أبي معيط: كاهن. وعلى هذا فالوقف على (لا) ثم يبتدأ بما بعدها، ويكون المعنى: ليس الأمر كما يزعمون. وقيل: (لا) بمعنى: ألا للتنبيه، و نبه بهذا على فضيلة القرآن ليتدبروه، وإنه ليس بشعر، ولا بسحر، ولا كهانة كما زعموا. ويقرأ: (فَلَأُقْسِمُ) بغير ألف بعد اللام على التحقيق. وهو فعل حال، ويقدر مبتدأ محذوف، التقدير: فلا أنا أقسم بذلك، ولو أريد به الاستقبال؛ للزمت النون. وقد جاء حذف النون مع الفعل الذي يريد به الاستقبال، وهو شاذ. انتهى.

هذا؛ وقال ابن هشام في المغني: اختلف في (لا) في مواضع من التنزيل، أهي نافية، أم زائدة؟ أحدها: قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فقيل: هي نافية، واختلف هؤلاء في منفيها على قولين: أحدهما: أنه شيء تقدم، وهو ما حكي عنهم كثيراً من إنكار البعث، فقيل لهم: ليس الأمر كذلك، ثم استؤنف القسم، قالوا: وإنما صح ذلك؛ لأن القرآن كله كالسورة الواحدة، ولهذا يذكر الشيء في سورة، وجوابه في سورة أخرى، نحو قوله تعالى في سورة (الحجر) الآية رقم [٦]: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾، وجوابه قوله تعالى في سورة (ن): ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾.

والثاني: أن منفيها أقسم، وذلك على أن يكون إخباراً، لا إنشاءً، واختاره الزمخشري. قال: والمعنى في ذلك أنه لا يقسم بالشيء إلا إعظاماً له، بدليل قوله تعالى في سورة (الواقعة): ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ فكأنه قيل: إن إعظامه بالإقسام به كلا إعظام، أي: أنه يستحق إعظاماً فوق ذلك. وقيل: زائدة. واختلف هؤلاء في زيادتها على قولين: أحدهما: أنها زيدت توطئة، وتمهيداً لنفي الجواب، والتقدير: لا أقسم بيوم القيامة لا يتركون سدىً، ومثله قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية [٦٥]من سورة (النساء)، وأيضاً قول امرئ القيس ـ وهو الشاهد رقم [٤٥٦] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [المتقارب]

فَـلا وَأَبِـيـك ابـنَـةَ الـعـامـريِّ لا يَـدَّعـي الـقـومُ أنِّـي أفـرّ

ورد بقوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ...﴾ الآيات، فإن جوابه مثبت، وهو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾، ومثله قوله تعالى في سورة (الواقعة): ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾. والثاني: أنها زيدت لمجرد التوكيد، وتقوية الكلام، كما في قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ رقم [٢٩] من سورة (الحديد)، وردَّ بأنها لا تزاد صدراً، بل حشواً، كما أن زيادة (ما)و(كان) كذلك، نحو قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ رقم [١٥٩] من سورة (آل عمران)، وقوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ رقم [٧٨] من سورة (النساء)، ونحو: (زيد كان فاضل) وذلك؛ لأن زيادة الشيء تفيد اطراحه، وكونه أول الكلام يفيد الاعتناء به، قالوا: ولهذا نقول: بزيادتها في نحو قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ سورة (المعارج)، وقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ لوقوعها بين الفاء، ومعطوفها بخلاف هذا. وأجاب أبو علي بما تقدم من أن القرآن كالسورة الواحدة. انتهى. بحروفه. هذا؛ ولا تَنْسَ طباق السلب بين الآيتين.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾: يريد جبريل الأمين، قاله الحسن، والكلبي، ومقاتل، دليله قوله تعالى في سورة (التكوير): ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ وقال الكلبي أيضاً، والقتبي: الرسول ها هنا محمد ﷺ، لقوله الآتي: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ وليس القرآن من قول الرسول ﷺ، إنما هو من قول الله عز وجل، ونسب القول إلى الرسول ﷺ لأنه تاليه، ومبلغه، والعامل به، كقولنا: هذا قول مالك. انتهى. قرطبي. ومعنى ﴿كَرِيمٍ﴾ أي: على الله، والكريم من كل نوع ما يجمع فضائله، وهو صفة لكل ما يرضي في بابه، يقال: وجه كريم؛ أي: مرضي بحسنه، وجماله. وكتاب كريم: مرضي في معانيه، وفوائده، ونبات كريم: مرضي فيما يتعلق به من المنافع، قال تعالى: ﴿كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾. ومثله لفظ: ﴿وَعَبْقَرِىٍّ﴾ المذكور في سورة (الرحمن).

الإعراب: ﴿فَلَآ﴾: (الفاء): حرف استئناف. (لا): نافية، أوصلة، أو هي (لا) الابتداء حسب ما رأيت في الشرح. ﴿أُقْسِمُ﴾: فعل مضارع، والفاعل ضمير مستتر وجوباً تقديره: «أنا»، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها، وهي في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف على اعتبار (لا) للابتداء، كما رأيت في الشرح. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة، فهي مبنية على السكون في محل جر بالباء، والجملة بعدها صلتها، أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: بالذي، أو بشيء تبصرونه. ﴿وَمَا﴾: (الواو): حرف عطف. (ما): معطوفة على ما قبلها، فهي في محل جر مثله. ﴿لَا﴾: نافية، والجملة الفعلية بعدها صلة (ما)، أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: والذي، أو وشيء لا تبصرونه. ﴿إِنَّهُۥ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿لَقَوْلُ﴾: (اللام): هي المزحلقة. (قول): خبر (إنَّ)، وهو مضاف، و﴿رَسُولٍ﴾ مضاف إليه. مِنْ إضافة المصدر لفاعله. ﴿كَرِيمٍ﴾: صفة ﴿رَسُولٍ﴾، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّهُۥ...﴾ إلخ جواب القسم، لا محل لها.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

الشرح: ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي: القرآن. ﴿بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ﴾: كما تزعمون؛ لأنه مباين لأوزان الشعر كلها. ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ أي: قلما تؤمنون بهذا القرآن. قال مقاتل بن سليمان: يعني بالقليل: أنهم لا يصدقون بأن القرآن من الله؛ بمعنى: أنهم لا يؤمنون به أصلاً. والعرب تقول: (قلما يأتينا) يريدون: لا يأتينا. انتهى. صفوة التفاسير. ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ﴾ أي: وليس القرآن بقول كاهن؛ لأن محمداً ﷺ يسب الشياطين، ويشتمهم، فكيف ينزلون على من يشتمهم بشيء. ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لا تتذكرون ألبتة، فحذفت إحدى التاءين. وهذا كثير في القرآن الكريم.

وفي الجمل نقلاً من أبي السعود: ذكر الإيمان مع نفي الشعر، والتذكر مع نفي الكهانة؛ لأن عدم مشابهة القرآن للشعر أمر بين، لا ينكره إلا معاند كافر بخلاف مباينته للكهانة، فإنها تتوقف على تذكر أحواله ﷺ، وتذكر معاني القرآن المنافية لطريقة الكهانة، ومعاني أقوالهم.

هذا؛ وجمع ﴿شَاعِرٍۚ﴾ شعراء، والأصل في فعلاء أن يكون جمع فعيل. مثل: ظريف، وظرفاء، وشريف، وشرفاء؛ لأن فعيلاً إنما يقع لمن قد كمل ما هو فيه، فلما كان «شاعر» إنما يقال لمن عرف بالشعر شبه بفعيل، ودخلت ألف التأنيث الممدودة تأنيث الجماعة، كما تدخل الهاء في صياقلة، وزنادقة، وصيادلة. وقال الأخفش: ﴿شَاعِرٍۚ﴾ مثل: لابن، وتامر، أي: صاحب شعر، وصاحب لبن، وصاحب تمر، وقد سمي الشاعر شاعراً؛ لفطنته، وشدة ذكائه، وهو الفقيه أيضاً، والشاعر مأخوذ من قولهم: ما شعرت بهذا الأمر، أي: ما فطنت له. وقوله تعالى في كثير من الآيات في حق الكافرين والمنافقين والفاسقين: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا

يفطنون، ولا يتدبرون ما يقع بهم من الخزي، والنكال في الدنيا والآخرة. وانظر ما ذكرته بشأن الشعر، والشعراء في الآية رقم [٢٢٤] من سورة (الشعراء) تجد ما يسرك.

وفي مختصر ابن كثير: قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: خرجت أتعرض لرسول الله ﷺ قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقمت خلفه، فاستفتح سورة (الحاقة)، فجعلت أعجب من تأليف القرآن، وقال: فقلت: هذا والله شاعر! كما قالت قريش، قال: فقرأ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ قال: فقلت: هو كاهن. قال: فقرأ: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ إلى آخر السورة، قال: فوقع الإسلام في قلبي كل موقع. فهذا من جملة الأسباب التي جعلها الله تعالى مؤثرة في هداية عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ. انتهى.

الإعراب: ﴿وَمَا﴾: (الواو): واو الحال. (ما): نافية حجازية تعمل عمل: «ليس». ﴿هُوَ﴾: ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع اسم (ما). ﴿بِقَوْلِ﴾: (الباء): حرف جر صلة. (قول): خبر (ما) منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد، و(قول): مضاف، و﴿شَاعِرٍ﴾ مضاف إليه، من إضافة المصدر لفاعله، والجملة الاسمية في محل نصب حال من (قول رسول كريم) والرابط: الواو، والضمير، وإن اعتبرتها معطوفة على قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾؛ فلا محل لها مثلها. ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ انظر إعراب مثل هذه الجملة في الآية رقم [٢٣] من سورة (الملك). فهو مثلها بلا فارق. ﴿وَلَا﴾: (الواو): حرف عطف. (لا): صلة لتأكيد النفي. ﴿بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾: معطوف على ﴿بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ فهو مثله في إعرابه، وتقديره: ولا يجوز اعتبار (لا) نافية حجازية، تعمل عمل «ليس» واسمها محذوف لدلالة ما قبله عليه؛ لأنها لا تعمل في المعارف. تأمل، وتدبر، وربك أعلم.

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾

الشرح: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: هذا القرآن منزل من رب العالمين، وليس كما يقولون: هو سحر، أو شعر، أو كهانة، بل هو الحق الذي لا مرية فيه، وليس وراءه شيء نافع. وقال ابن زيد: زعم كفار قريش: أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين، فأخبر الله تعالى: أنه لا يمسه إلا المطهرون، كما قال تعالى في سورة (الشعراء): ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾.

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ أي: تكلف، وأتى بقول من قبل نفسه، وسمى الافتراء: تقولاً؛ لأنه قول متكلف، وسمى الأقوال المفتراة: أقاويل تحقيراً بها، كأنه جمع أفعولة من القول،

كالأضاحيك جمع: أضحوكة، والأعاجيب جمع: أعجوبة. وقال الزمخشري: التقول افتعال القول؛ لأن فيه تكلفاً من المفتعل، انتهى. والأقاويل جمع: أقوال، وأقوال جمع: قول، فهو إذاً جمع الجمع.

﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ أي: لأخذناه، وعاقبناه وانتقمنا منه بالقوة. وعبر عن القوة، والقدرة باليمين؛ لأن قوة كل إنسان في ميامنه. قاله القتبي. وهو معنى قول ابن عباس، ومجاهد ـ رضي الله عنهما ـ. ومنه قول الشماخ: [الوافر]

إِذَا مَا رايةٌ رُفِعَتْ لمجدٍ تلَقَّاهَا عَرَابَةُ بِالْيَمِينِ

وعرابة ـ رضي الله عنه ـ رجل من الأنصار من الأوس اشتهر بالكرم في عصره مثل: عبد الله ابن جعفر بن أبي طالب، وقيس بن سعد بن عبادة من الأنصار من الخزرج. وفي كتاب قصص العرب حكاية عن كرم هؤلاء الثلاثة. وقول الخازن: «عرابة ملك اليمن» لا وجه له ألبتة، وقال شاعر آخر: [الطويل]

وَلَمَّا رَأَيْتُ الشمسَ أشرقَ نورُهَا تناولْتُ مِنْهَا حَاجَتِي بِيَمِينِي

أي: قوتي، وقدرتي، وقال السدي، والحكم: ﴿بِٱلْيَمِينِ﴾: بالحق، والاستحقاق. وفسروا قول الشماخ بذلك. وقال أبو جعفر الطبري: إن هذا الكلام خرج مخرج الإذلال على عادة الناس في الأخذ بيد من يعاقب، كما يقول السلطان لمن يريد هوانه: خذوا يديه، والمعنى لأخذنا منه يمينه، والمراد باليمين: الجارحة، كما يفعل بالمقتول صبراً، يؤخذ بيمينه، ويضرب بالسيف في عنقه مواجهة، وهو أشد، وعليه: فالباء زائدة، وعلى الأول فالباء أصلية، وفيه تأويل اليمين بالقدرة، والقوة، وهو مذهب الخلف، ومذهب السلف يقولون: لله يمين تليق به لا نعلمها. ومذهب الخلف أحكم، ومذهب السلف أسلم.

﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾: المعنى لأهلكناه، فكنى بقطع الوتين عن الموت، والإهلاك، والوتين: عرق يتعلق به القلب إذا انقطع؛ مات صاحبه. قاله ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وأكثر الناس. قال الشاعر يخاطب ناقته: [الوافر]

إِذَا بَلَّغْتِني وَحَمَلْتِ رَحْلِي عَرَابَةَ فَاشْرقي بدمِ الوتينِ

وقال مجاهد: هو حبل القلب الذي في الظهر، وهو النخاع، فإذا انقطع بطلت القوى، ومات صاحبه. وقال الكلبي: إنه عرق بين العلباء، والحلقوم، والعلباء: عصب العنق، وهما علباوان بينهما ينبت العرق. ويجمع على: وتن، وأوتنة. هذا؛ ونقل الصابوني من ظلال القرآن لشهيد الإسلام سيد قطب في كتابه: «النبوة والأنبياء» ما يلي:

وفي النهاية يجيء ذلك التهديد الرهيب لمن يفتري على الله في شأن العقيدة، وهي الحد الذي لا هوادة فيه، يجيء لتقرير الاحتمال الواحد، الذي لا احتمال غيره، وهو صدق الرسول

ﷺ، وأمانته فيما بلغه إليهم، أو يبلغه. ومفاد هذا القول من الناحية التقريرية: أن محمداً ﷺ صادق فيما بلغهم، وأنه لو تقول بعض الأقاويل، التي لم يُوحَ بها إليه؛ لأخذه الله، فقتله على هذا النحو الذي وصفته الآيات، ولما كان هذا لم يقع، فهو ﷺ لَابُدَّ صادق. انتهى.

ولقد اشتهر الرسول ﷺ منذ الصغر بالصدق، والأمانة؛ حتى كان المشركون يسمونه: الصادق الأمين، فيقولون: جاء الصادق الأمين. وذهب الصادق الأمين، وهكذا كان النبي الكريم قبل البعثة علماً بين قريش في صدقه، وأمانته، وعلو مكانته.

روي: أن رجلاً من سادات قريش لقي أبا جهل في أحد طرق مكة، فاستوقفه، ثم قال له: يا أبا الحكم! ليس هنا أحد غيرك وغيري، أنشدك بالله هل محمد صادق أم كاذب؟! فأجابه أبو جهل بكل صراحة: والله إن محمداً صادق، وما كذب قط! فقال: فما يمنعكم من اتباعه؟! فقال أبو جهل: تنافسنا نحن وبنو هاشم، وتنازعنا الزعامة، والفخر، أطعموا، فأطعمنا، وسقوا، فسقينا، وأجاروا، فأجرنا، حتى كنا كفرسي رهان، ثم زادوا علينا، فقالوا: بعث منا نبي، فمن أين نأتيهم بنبي؟ والله نؤمن به، ولا نتبعه. وفي هذا أنزل الله جل ثناؤه تسلية لنبيه ﷺ في سورة (الأنعام) [٣٣]: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ انظر شرحها هناك.

وحين سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان قبل إسلامه عن أمر محمد ﷺ: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: ما عرفنا عليه كذباً قط. فأجابه هرقل بقوله: ما كان ليدع الكذب على الناس، ويكذب على الله! وهذا لعمر الحق هو المنطق السديد والقول الحميد!.

الإعراب: ﴿تَنزِيلٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هو تنزيل، أو هذا تنزيل. ﴿مِّن رَّبِّ﴾: متعلقان به؛ لأنه مصدر، و﴿رَّبِّ﴾ مضاف، و﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مضاف إليه، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، وعلامة الجر الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، والنون عوض من التنوين في الاسم المفرد. ﴿وَلَوْ﴾: (الواو): حرف استئناف، وقيل: حرف عطف، والأول أقوى. (لو): حرف لما كان سيقع لوقوع غيره. ﴿تَقَوَّلَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ تقديره: «هو». وقال أبو حيان: يعود على المتقول المضمر وليس عائداً على الرسول ﷺ لاستحالة وقوع ذلك منه. ﴿عَلَيْنَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿بَعْضَ﴾: مفعول به، وقيل: نائب مفعول مطلق، ولا وجه له. وهو مضاف، و﴿ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ مضاف إليه، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي. ﴿لَأَخَذْنَا﴾: (اللام): واقعة في جواب (لو). (أخذنا): فعل، وفاعل. ﴿مِنْهُ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محل نصب مفعول به. ﴿بِٱلْيَمِينِ﴾: متعلقان بما قبلهما

أيضاً، وقال الجمل: متعلقان بمحذوف حال من الفاعل، وعلى التفسير الثاني فالباء حرف جر صلة، و(اليمين) مفعول به منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد، والجملة الفعلية جواب (لو) لا محل لها، و(لو) ومدخولها كلام مستأنف، لا محل له. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف، وجملة: ﴿لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها.

﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾

الشرح: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ أي: مانعين يحجزوننا عن عقوبته، والمعنى: أن محمداً ﷺ، لا يتكلم بالكذب علينا لأجلكم مع علمه: أنه لو تكلمه؛ لعاقبناه، ولا يقدر أحد على دفع عقوبتنا عنه. هذا؛ و﴿أَحَدٍ﴾ في معنى الجمع، فلذلك نعت بالجمع، أي: فما منكم قوم يحجزوننا عنه، كقوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [٢٨٥]: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾؛ لأن «بين» لا تقع إلا على اثنين، فما زاد. والمعنى: أن محمداً صادق بار راشدٌ، مؤيدٌ بالمعجزات الباهرات، والدلالات القاطعات. ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن. ﴿لَتَذْكِرَةٌ﴾: لعظة بالغة. ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾: وخص المتقون بالذكر؛ لأنهم هم المنتفعون بمواعظ القرآن، وإرشاداته دون غيرهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ سورة (فصلت) [٤٤].

الإعراب: ﴿فَمَا﴾: (الفاء): حرف عطف، وتفريع. (ما): نافية مهملة، أو هي حجازية عاملة عمل «ليس». ﴿مِنكُم﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف في محل رفع خبر المبتدأ، أو في محل نصب خبر (ما) تقدم على اسمها. ﴿مِّنْ﴾: حرف جر صلة. ﴿أَحَدٍ﴾: مبتدأ مؤخر، أو اسم (ما) مؤخر مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد. ﴿عَنْهُ﴾: جار ومجرور متعلقان بما بعدهما. ﴿حَٰجِزِينَ﴾: صفة ﴿أَحَدٍ﴾ مجرور مثله تبعاً للفظه، وعلامة جره الياء... إلخ، ولو أتبع على المحل؛ لكان حاجزون بالواو والنون، وانظر الشرح لتسويغ وصف ﴿أَحَدٍ﴾ به. هذا؛ وجوز اعتبار الجار والمجرور متعلقين بمحذوف حال من ﴿أَحَدٍ﴾، و﴿حَٰجِزِينَ﴾ خبر (ما)، وهو قول الجلال، وأبي حيان. وأبو البقاء قال بالوجهين. والجملة الاسمية: (ما منكم...) إلخ معطوفة على جواب (لو) لا محل لها مثله. ﴿وَإِنَّهُۥ﴾: (الواو): حرف عطف. (إنه): حرف مشبه بالفعل، والهاء في محل نصب اسمها. ﴿لَتَذْكِرَةٌ﴾: (اللام): هي المزحلقة. (تذكرة): خبر (إن). ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: (تذكرة)، أو بمحذوف صفة لها، والجملة الاسمية معطوفة على جواب القسم، وما بينهما اعتراض. قاله الجمل نقلاً عن شيخه. وأرى صحة اعتبار الجملة في محل نصب حال من أحد الضمائر العائد على القرآن، والرابط: الواو، والضمير، وما بينهما اعتراض.

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ﴾: علماً أزلياً قديماً. ﴿أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾: يكذبون بالقرآن، ويكذبون محمداً ﷺ، فأنزلنا الكتب، وأرسلنا الرسل، ليظهر لكم في عالم الشهادة، ما كنا نعلمه في الأزل من تكذيب، وتصديق، تستحقون به الثواب، أو العقاب، فلذلك وجب في الحكمة أن نعيد الخلق، إلى ما كانوا عليه من أجسامهم قبل الموت، لنحكم بينهم، فنجازي كلاً بما يليق به إظهاراً للعدل. انتهى. جمل نقلاً من الخطيب. وهذا يعني: أن الخطاب للخلق أجمعين، وهو لا ينسجم مع الكلام الأول الموجه لكفار قريش، كما هو واضح.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن. ﴿لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: الإيمان بالقرآن حسرة على الكافرين يوم القيامة. والمعنى: أنهم يندمون على ترك الإيمان به؛ لما يرون من ثواب مَن آمن به، وعمل بمقتضاه. وقال ابن جرير: وإن التكذيب لحسرة على الكافرين. والأول أقوى. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿وَإِنَّا﴾: (الواو): حرف عطف. (إنَّ): حرف مشبه بالفعل، و(نا): اسمها، حذفت نونها، وبقيت الألف دليلاً عليها. ﴿لَنَعْلَمُ﴾: (اللام): هي المزحلقة. (نعلم): فعل مضارع، والفاعل مستتر فيه وجوباً، تقديره: «نحن». ﴿أَنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿مِنكُم﴾: جار ومجرور. ﴿مُّكَذِّبِينَ﴾: اسم (إنَّ) منصوب، وعلامة نصبه الياء.. إلخ، و(أنَّ) واسمها وخبرها في تأويل مصدر في محل نصب سد مسد مفعول نعلم، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، على الوجهين المعتبرين فيها، وإعراب: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مثل إعراب ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ بلا فارق، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها أيضاً.

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن. ﴿لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: الخبر الصدق الحق؛ الذي لا مرية فيه، ولا شك، ولا ريب. هذا؛ وجاز إضافة (الحق) لـ: ﴿ٱلْيَقِينِ﴾، وهما واحد؛ لاختلاف لفظهما. قال المبرد: هو كقولك: عين اليقين، ومحض اليقين. وهو قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فهو من باب إضافة الشيء لنفسه عند الكوفيين. وعند البصريين: هو على حذف المضاف إليه، وإقامة الصفة مقامه، التقدير، حق الأمر اليقين، أو الخبر اليقين، وانظر (الواقعة) رقم [٩٥].

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: نزه الله تعالى عن السوء. وقيل: معناه: فصَلِّ بذكر ربك العظيم، وبأمره. وعن عقبة بن عامر الجهني ـ رضي الله عنه ـ قال: لما نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ قال النبي ﷺ: «**اجْعَلُوهَا في رُكوعِكُمْ**». ولما نزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال النبي ﷺ: «**اجْعَلُوهَا في سجودِكُمْ**». أخرجه أبو داود، وأحمد، وابن ماجه.

وعن حذيفة - رضي الله عنه -: أنَّه صلى مع النبي ﷺ، فكان يقول في ركوعه: «**سبحان الله العظيم**». وفي سجوده: «**سبحان ربي الأعلى**». وما أتىٰ على آية رحمة؛ إلا وقف، وسأل، وما أتى على آية عذاب؛ إلا وقف، وتعوَّذ. أخرجه الترمذي.

فائدة: أثبتوا ألف الوصل في الآية الكريمة، وفي الآيتين من سورة (الواقعة)، وذلك في ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾؛ لأنه لم يكثر ورودُه كثرتَه في البسملة، وحذفوها منها لكثرة ورودها، وهم شأنهم الإيجاز، وتقليل الكثير؛ إذا عرف معناه وهذا معروف لا يجهل، وإثبات ما أثبت من أشكاله مما يكثر دليل على الحذف منه، ولذا لا تحذف الألف مع غير الباء في اسم الله، ولا مع الباء في غير الجلالة الكريمة من الأسماء. انتهى. جمل نقلاً من الخطيب.

الإعراب: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾: (الواو): حرف عطف. (إنه): حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿لَحَقُّ﴾: (اللام): هي المزحلقة. (حق): خبرها، و(حق) مضاف، و﴿ٱلۡيَقِينِ﴾ مضاف إليه، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها. ﴿فَسَبِّحۡ﴾: (الفاء): هي الفصيحة؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر، التقدير: وإذا كان ما ذكر حاصلاً وواقعاً؛ فسبح. (سبح): فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت». ﴿بِٱسۡمِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من الفاعل المستتر. وقيل: الباء زائدة. وقيل: لفظ (اسم) أيضاً زائد، فيكون التقدير: فسبح ربك، أي: ذاته العالية. وعلى الأول فـ: (اسم) مضاف، و﴿رَبِّكَ﴾ مضاف إليه، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾: صفة للمضاف، أو للمضاف إليه، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جواب للشرط المقدر بـ: «إذا» كما رأيت. تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأعظم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه، وسلم.

انتهت سورة (الحاقة) بحمد الله، وتوفيقه شرحاً وإعراباً.

والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ المَعَارِجِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة (المعارج) مكية، وآياتها أربع وأربعون، وكلماتها مئتان وأربع وعشرون، وحروفها تسعمائة، وتسعة وعشرون حرفاً.

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣﴾

الشرح: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ أي: طلب طالب نزول العذاب به وبقومه، والطالب هو النضر بن الحارث؛ حيث قال كما حكى الله عنه في سورة (الأنفال) رقم [٣٢] قوله: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. فحقق الله له ما سأل حيث قُتِل هو، وعقبة بن أبي معيط صبراً يوم بدر، ولم يُقْتل صبراً غيرهما.

وقيل: إن السائل هنا هو الحارث بن النعمان الفهري، وذلك: أنه لما بلغه قول النبي ﷺ في علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: «**مَن كنتُ مولاه فعلي مولاه**». ركب ناقته، فجاء حتى أناخ راحلته بالأبطح، ثم قال: يا محمد! أمرتنا أن نشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فقبلناه منك، وأن نصلي خمساً، فقبلناه منك، وأن نزكي أموالنا، فقبلناه منك، وأن نصوم شهر رمضان في كل عام، فقبلناه منك، وأن نحج، فقبلناه منك، ثم لم ترض بهذا حتى فضلت ابن عمك علينا، أهذا شيء منك، أم من الله؟ فقال النبي ﷺ: «**وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، مَا هُوَ إِلَّا مِنَ اللهِ**». فولى الحارث، وهو يقول: اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً؛ فأمطِرْ علينا حجارةً من السماءِ، أوِ ائتِنَا بعذابٍ أليم، فوالله ما وصل إلى ناقته؛ حتى رماه الله بحجر، فوقع على دماغه، فخرج من دبره، فقتله، فنزلت: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾. انتهى. قرطبي، ولم أره لغيره.

وقيل: إن السائل هو رسول الله ﷺ، أي: دعا عليه الصلاة والسلام بالعقاب، وطلب أن يوقعه الله بالكفار، وهو واقع بهم لا محالة، وامتد الكلام إلى قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ أي: لا تستعجل؛ فإنه قريب. والمعتمد الأول، وهو الذي أجمع عليه المفسرون.

هذا؛ وأصل «سأل» إذا كان من السؤال أن يتعدى إلى مفعولين، نحو قوله تعالى في سورة (هود) على حبيبنا، وشفيعنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾

رقم [٤٦]. ويجوز أن تقتصر على مفعول واحد، كما تقتصر في: أعطيت، وكسوت، نحو قوله تعالى في سورة (الممتحنة) رقم [١٠]: ﴿وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾. فإذا اقتصرت على مفعول واحد؛ جاز أن يتعدى بحرف جر إلى ذلك الواحد، كما في الآية الكريمة، والتقدير: «**سأل سائل النبي بعذاب**». أي: عن عذاب. والباء بمعنى: عن، انتهى مكي بتصرف.

هذا؛ ويقرأ: (سال سايل) بغير همز، وفيه وجهان: أحدهما: أنه لغة في السؤال، وهي لغة قريش، تقول العرب: سال، يسال، مثل: نال، ينال، وخاف، يخاف، والثاني: أن يكون من السيلان، ويؤيده قراءة ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: (سال سيل) قال عبد الرحمن بن زيد: سال وادٍ من أودية جهنم، يقال له: سائل، وهو قول زيد بن ثابت. والأول أحسن، كقول زيد بن عمرو بن نفيل القرشي في تخفيف الهمزة: [الخفيف]

سَالَتَانِي الطَّلَاقَ إِذْ رَأَتَانِي ... قَلَّ مَا لِي قَدْ جِئْتُمَانِي بِنُكْرِ

وأيضاً قول حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ: [البسيط]

سَالَتْ هُذَيْلٌ رسولَ اللهِ فاحِشَةً ... ضَلَّتْ هذَيْلٌ بما سَالَتْ وَلَمْ تُصِبِ

﴿وَاقِعٍ﴾ أي: نازل، وكائن. ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾: إن العذاب واقع بهم لا محالة، سواء طلبوه، أم لم يطلبوه، إما في الدنيا بالقتل، والأسر، وإمَّا في الآخرة بالنار، فلا يدفعه دافع، ولا يرده راد. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ذي السموات، سماها معارج؛ لأن الملائكة تعرج فيها، والمعارج: الدرجات، ومنه قوله تعالى في سورة (الزخرف) رقم [٣٣]: ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾. وقيل: ذي الفواضل والنعم، وذلك؛ لأن إفضاله، وإنعامه مراتب، وهي تصل إلى الخلق على مراتب مختلفة. هذا؛ وقرئ: (ذي المعاريج) بالياء، يقال: معرج، ومعراج، ومعارج، ومعاريج، مثل: مفتاح، ومفاتح، ومفاتيح.

الإعراب: ﴿سَأَلَ﴾: فعل ماض. ﴿سَآئِلُۢ﴾: فاعله. ﴿بِعَذَابٍ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿وَاقِعٍ﴾: صفة (عذاب). هذا؛ وأجيز اعتبار الباء صلة، فيكون (عذاب) مفعولاً به منصوباً، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد، وعليه يكون ﴿وَاقِعٍ﴾ قد أتبع على اللفظ، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية. ﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾: متعلقان بـ: ﴿سَأَلَ﴾ على تضمينه، معنى دعا لهم، أو متعلقان بـ: ﴿وَاقِعٍ﴾، واللام للعلة، أي: نازل لأجلهم، أو هما متعلقان بمحذوف صفة ثانية لـ: (عذاب)، أو بمحذوف حال منه بعد وصفه بما تقدم.

﴿لَيْسَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف في محل نصب خبر ﴿لَيْسَ﴾، تقدم على اسمها. ﴿دَافِعٌ﴾: اسم ﴿لَيْسَ﴾ مؤخر، والجملة الفعلية في محل جر صفة

ثانية لـ: (عذاب)، أو في محل نصب حال منه بعد وصفه بما تقدم، أو في محل نصب حال من الضمير المستتر بقوله: ﴿لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: متعلقان بـ: ﴿وَاقِعٍ﴾، وعليه فجملة: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ معترضة على اعتبارها مستأنفة، أو هما متعلقان بـ: ﴿دَافِعٌ﴾ أي: ليس له دافع من جهته إذا جاء وقته. ﴿ذِى﴾: صفة لفظ الجلالة مجرور، وعلامة جره الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه من الأسماء الخمسة، و(ذي) مضاف، و﴿ٱلْمَعَارِجِ﴾ مضاف إليه.

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾

الشرح: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ أي: تصعد في المعارج التي جعلها الله لهم، و(الروح) جبريل، عليه السلام. قاله ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ. دليله قوله تعالى في سورة (الشعراء) رقم [١٩٣]: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾. وقيل: هو ملك عظيم الخلقة. وقال أبو صالح: إنه خلق من خلق الله كهيئة الناس وليس بالناس. وعلى كل الأقوال أفرده بالذكر، وإن كان من جنس الملائكة؛ لشرفه، وفضله، وعلو منزلته.

﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إلى الله تعالى، أو إلى المكان، الذي هو محلهم، وهو في السماء؛ لأنها محل بره، وكرامته. وقيل: إلى عرشه. وأخر هنا، وفي سورة (القدر)، وقدم في سورة (النبأ) في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا...﴾ إلخ؛ لأن المقام هنا، وفي سورة (القدْر). يقتضي تقديم الجمع على الواحد، من حيث إنه هنا مقام تخويف، وتهويل، وفي سورة (النبأ) مقام تعظيم، وتبجيل، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾: قال محمد بن إسحاق، ووهب، والكلبي: أي: عروج الملائكة إلى المكان الذي هو محلهم في وقت كان مقداره على غيرهم لو صعد خمسين ألف سنة. وقال وهب أيضاً: ما بين أسفل الأرض إلى العرش مسيرة خمسين ألف سنة. وهو قول مجاهد، وجمع بين هذه الآية، وبين قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ في سورة (السجدة) بأن المراد من منتهى أمره من أسفل الأرضين إلى منتهى أمره من فوق السموات خمسون ألف سنة، وقوله تعالى في (السجدة): ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ يعني بذلك: نزول الأمر من سماء الدنيا إلى الأرض، ومن الأرض إلى السماء في يوم واحد، فذلك مقدار ألف سنة؛ لأن ما بين السماء إلى الأرض مسيرة خمسمئة عام. وانظر شرحها هناك؛ تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو يوم القيامة جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة، ثم يدخلون النار للاستقرار. قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: وهذا القول أحسن ما قيل في الآية بدليل ما رواه قاسم بن أصبغ من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال:

قال رسول الله ﷺ: « **في يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خمسين ألفَ سَنَةٍ**». فقلت: ما أطول هذا اليوم؟ فقال النبي ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيدِهِ! إنه لَيُخففُ عن المؤمنِ حتى يكونَ أخفَّ عليْهِ مِنْ صلاةِ المكتوبةِ يُصَلِّيهَا في الدُّنيَا**».

واستدل النحاس على صحة هذا القول بما رواه سهيل عن أبيه، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما مِنْ رجلٍ لمْ يؤدِّ زكاةَ مالِه إلا جُعِلَ شجاعاً مِنْ نارٍ تُكْوى به جَبْهتُهُ وظهرُهُ وجنباهُ في يومٍ كانَ مقدارُهُ خمسِينَ ألفَ سَنةٍ، حتَّى يقضيَ اللهُ بينَ الناسِ**». قال: فهذا يدل على أنه يوم القيامة، وقال إبراهيم التيمي: ما قدر ذلك اليوم على المؤمن إلا قدر ما بين الظهر والعصر. وروي هذا المعنى مرفوعاً من حديث معاذ ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ: أنه قال: «**يحاسبكمُ اللهُ تعالى بمقدارِ ما بين الصلاتيْنِ**». ولذلك سمَّىٰ نفسه: سريع الحساب، وأسرع الحاسبين.

وقيل: معنى ذكر ﴿خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٍ﴾ تمثيل، وهو تعريف طول مدة القيامة في الموقف، وما يلقى الناس فيه من الشدائد. والعرب تصف أيام الشدة بالطول، وأيام الفرح بالقصر، قال شبرمة بن الطفيل، وقيل: هو ليزيد بن الطثرية: [الطويل]

ويــومٍ كَـظِـلِّ الـرُّمْـحِ قَـصَّـر طُـولَـهُ ... دَمُ الـزِّقِّ عَـنَّـا واصـطـفـاق الـمـزاهِـرِ

وخذ قول الآخر: [الكامل]

فَـقِـصَـارُهُـنَّ مـعَ الـهـمـومِ طـويـلـةٌ ... وطِـوالـهـنَّ مـعَ الـسـرورِ قِـصـارُ

وانظر معلقة امرئ القيس ـ بشرحنا، وإعرابنا ـ البيت رقم [٥٤] وما بعده.

هذا؛ وأصل «سنة»: سنهٌ، أو سنوٌ خلاف، وجمعها على الأول: سنهات، وعلى الثاني: سنوات، وكلاهما جمع مؤنث سالم، والنسبة إليها: سنوي، أو سنهي، وتصغيرها: سُنَيَّة، أو سُنَيْهة، وتجمع بالواو والنون، أو بالياء والنون على أنها ملحقة بجمع المذكر السالم، كما في قوله تعالى في سورة (الكهف) رقم [٢٥]: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ...﴾ إلخ. وكثير غيرها، وكسرت السين في: «سنين» لتدل على أنه قد جمع على غير الأصل؛ لأن كل ما جمع جمع السلامة لا يتغير فيه بناء الواحد، فلما تغير بناء الواحد في هذا الجمع بكسر أوله، وقد كان مفتوحاً في الواحد؛ علم: أنه جمع على غير أصله، لذا فإنه يلحق بجمع المذكر السالم إلحاقاً، ومثله: أرضون، وعليون، ووابلون، وأهلون، وأولو، وأولي، وألفاظ العقود: عشرون وثلاثون... إلخ.
هذا؛ وقال القرطبي ـ رحمه الله ـ: عشرون، وثلاثون، وأربعون كلٌّ واحد منها موضوع على صورة الجمع لهذا العدد. فإن قال قائل: لم كسر أول عشرين، وفتح أول ثلاثين وما بعده إلى ثمانين إلا ستين؟ فالجواب عند سيبويه: أن عشرين من عشرة بمنزلة اثنين من واحد، فكسر أول عشرين، كما

كسر أول اثنان، والدليل على هذا قولهم: ستون، وتسعون، كما قيل: ستة، وتسعة. وقال صاحب المختار: وإذا أضفته، (أي: لفظ العقود) أسقطت النون، فقلت: هذه عشروكَ، وعشريَّ.

الإعراب: ﴿تَعْرُجُ﴾: فعل مضارع. ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾: فاعله. (الروح): معطوف على ما قبله. ﴿إِلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية قال أبو البقاء: هي مستأنفة. ﴿فِي يَوْمٍ﴾: متعلقان بمحذوف، تقديره: يقع. دل عليه: واقع. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿مِقْدَارُهُ﴾: اسم ﴿كَانَ﴾ والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿خَمْسِينَ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾ منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، والنون عوض من التنوين في الاسم المفرد. ﴿أَلْفَ﴾: تمييز، وهو مضاف، و﴿سَنَةٍ﴾ مضاف إليه، وجملة: ﴿كَانَ مِقْدَارُهُ...﴾ إلخ في محل جر صفة ﴿يَوْمٍ﴾.

﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾

الشرح: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾: الصبر الجميل: هو الذي لا شكاية معه. وقال تعالى في سورة (الحجر) رقم [٨٥]: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ والصفح الجميل: هو الذي لا عتاب معه. وقال في سورة (المزمل) رقم [١٠]: ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ والهجر الجميل: هو الذي لا أذية معه. وانظر (الصبر) في الآية رقم [١٠] من سورة (المزمل).

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: أهل مكة. ﴿يَرَوْنَهُ﴾ أي: العذاب في النار، أو يوم القيامة الطويل زمانه، الشديد هوله، العظيم شأنه، القاهر سلطانه. ﴿بَعِيدًا﴾: بعيد الوقوع، بعيد الإمكان، ﴿وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾: كائناً لا محالة؛ لأن كل ما هو آتٍ قريب. وبين ﴿بَعِيدًا﴾ و﴿قَرِيبًا﴾ طباق، وهو من المحسنات البديعية. والخطاب في الآية الأولى للنبي ﷺ، المعنى: اصبر يا محمد على أذى قومك، وتكذيبهم لك؛ حتى يحكم الله بينك، وبينهم، وهو خير الحاكمين. قيل: هذه الآية منسوخة بآية السيف. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿فَاصْبِرْ﴾: (الفاء): هي الفصيحة؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر، التقدير: وإذا كان ما ذكر واقعاً، وحاصلاً؛ فاصبر. . . إلخ. (اصبر): فعل أمر، وفاعله مستتر فيه تقديره: «أنت»، والمتعلق محذوف، انظر تقديره في الشرح. ﴿صَبْرًا﴾: مفعول مطلق. ﴿جَمِيلًا﴾: صفة له. ﴿إِنَّهُمْ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿يَرَوْنَهُ﴾: فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعة ثبوت النون. . . إلخ، والواو فاعله، والهاء مفعول به أول. ﴿بَعِيدًا﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية، لا محل لها؛ لأنها تعليلية. ﴿وَنَرَاهُ﴾: (الواو): حرف عطف. (نراه): فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر، والفاعل مستتر فيه وجوباً تقديره: «نحن»، والهاء مفعول به أول. ﴿قَرِيبًا﴾: مفعول به ثان، والفعل في الجملتين علمي، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل رفع مثلها.

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾

الشرح: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾: المهل: دردي الزيت، وعكره. قاله ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وغيره. وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: هو ما أذيب من الرصاص، والنحاس، والفضة. وقال مجاهد: ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾: كقيح من دم، وصديد. وخذ قوله تعالى في سورة (الكهف) رقم [٢٩]: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾، وقوله تعالى في سورة (الدخان): ﴿كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾ انظر شرحهما في محلهما. ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾: كالصوف المصبوغ. ولا يقال للصوف: عِهْن إلا أن يكون مصبوغاً. وقال الحسن: العهن: الصوف الأحمر، وهو أضعف الصوف، ومنه قول زهير في معلقته رقم [١٢]: [الطويل]

كَأَنَّ فُتَاتَ الْعِهْنِ في كُلِّ مَنْزِلٍ نَزَلْنَ بِهِ حَبُّ الْفَنَا لَمْ يُحَطَّمِ

وإنما فسر (العهن) بالصوف، ووصف بالمصبوغ؛ لأن الجبال جدد بيض، وحمر مختلف ألوانها، وغرابيب سود، فإذا بُسَّتْ وطُيِّرت في الجو؛ أشبهت العهن المنفوش؛ إذا طيرته الريح. والمعنى: أن الجبال تلين بعد الشدة، وتتفرق بعد الاجتماع. وقيل: أول ما تتغير الجبال تصير رملاً مهيلاً. قال تعالى في سورة (المزمل): ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾، ثم عِهْناً منفوشاً، ثم هباءً منبثاً، قال تعالى في سورة (الواقعة): ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ وانظر ما ذكرته في سورة (النمل) رقم [٨٨] فإنه جيد جداً، والحمد لله. وقد أعدته في سورة (النبأ) برقم [٢٠]. ومثل هذه السورة قوله تعالى في سورة (القارعة): ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾. ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ أي: لا يسأل قريب قريبه؛ لشغله بشأن نفسه. والمعنى: لا يسأل الحميم حميمه كيف حالك، ولا يكلمه؛ لهول ذلك اليوم، وشدته. وقيل: لا يسأله الشفاعة، ولا يسأله الإحسان إليه، ولا الرفق به، كما كان يسأله في الدنيا، وذلك لشدة الأمر، وعظيم الهول يوم القيامة. كما قال تعالى في سورة (عبس) رقم [٣٧]: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ هذا؛ وقرئ: (ولا يُسْأَلُ) بالبناء للمجهول على أن المعنى لا يسأل حميم عن حميمه، ولا ذو قرابة عن قرابته، بل كل إنسان يسأل عن عمله، كما قال تعالى في سورة (المدثر) رقم [٣٨]: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾.

تنبيه: قال تعالى في سورة (الطور) رقم [٢٥]، وفي سورة (الصافات) رقم [٥٠]، وفيها أيضاً برقم [٢٧]: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ وقال هنا: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾، وقال في سورة (المؤمنون) رقم [١٠٢]: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾. وظاهر

الآيات يدل على التعارض، والجواب: أن آية (الطور)، وآية (الصافات) رقم [٥٠] تنصان على أن التساؤل إنما يكون في الجنة بلا ريب بدليل الآيات التي قبلهما، والتي بعدهما، والآية هنا والتي في سورة (المؤمنون) تعارضان آية (الصافات) برقم [٢٧]. وقد قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في حل هذا التعارض: إن للقيامة أحوالاً، ومواطن، ففي موطن يشتد عليهم الخوف، فيشغلهم عظم الأمر عن التساؤل، فلا يتساءلون. هذا؛ ومخاصمة الكفار بعضهم بعضاً، ولوم بعضهم بعضاً يوم القيامة قد ذكر في كثير من الآيات القرآنية. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

هذا؛ وفي الآية الأولى تشبيه مرسل، ووجه الشبه: التلون، وفي الآية الثانية أيضاً تشبيه مرسل، ووجه الشبه: التطاير، والتناثر.

الإعراب: ﴿يَوْمَ﴾: ظرف زمان متعلق بفعل محذوف، تقديره: يقع، يدل عليه ﴿وَاقِعٍ﴾. وقيل: متعلق بـ: (نراه)، أو بالفعل ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾. وقيل: هو بدل من ﴿قَرِيبًا﴾. وقيل: هو بدل من قوله: ﴿فِي يَوْمٍ﴾ على القول الأول في تعليقه. وقيل: هو بدل من الضمير في (نراه) على اعتباره عائداً على يوم القيامة. ﴿تَكُونُ﴾: فعل مضارع ناقص. ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾: اسم ﴿تَكُونُ﴾. ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ﴿تَكُونُ﴾، وإن اعتبرت الكاف اسماً بمعنى: مثل؛ فهي الخبر، و﴿تَكُونُ﴾ مضافة، و(المهل): مضاف إليه، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (يوم) إليها، والجملة بعدها معطوفة عليها، وهي في محل جر مثلها. ﴿وَلَا﴾: (الواو): حرف عطف. (لا): نافية. ﴿يَسْـَٔلُ﴾: فعل مضارع. ﴿حَمِيمٌ﴾: فاعل. ﴿حَمِيمًا﴾: مفعول به أول، والمفعول الثاني محذوف، التقدير: ولا يسأل حميم حميماً نصره، وشفاعته، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها.

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾

الشرح: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾: يرونهم، وليس في القيامة مخلوق إلا وهو نصب عين صاحبه من الجن والإنس، فيبصر الرجل أباه، وأخاه، وقرابته، وعشيرته، فلا يسألهم، ولا يكلمهم، ويبصر حميمه، فلا يكلمه لاشتغاله بنفسه. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يتعارفون ساعة، ثم لا يتعارفون بعد تلك الساعة. انتهى. وقد قال تعالى في سورة (يونس) على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام في الآية رقم [٤٥]: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ...﴾ إلخ، ذكرت هناك: أن هذا التعارف تعارف توبيخ، وافتضاح، يقول بعضهم لبعض: أنت أضللتني، وحملتني على الكفر، وليس تعارف مودة، وعطف، وشفقة، ثم يفر بعضهم من بعض مخافة المظالم لبعضهم على بعض. وقال مجاهد: المعنى: يبصر الله المؤمنين الكفار في

يوم القيامة. فواو الجماعة عائدة على المؤمنين، والضمير المنصوب على الكافرين. وقيل: إنه يبصر المظلوم ظالمه، والمقتول قاتله. وقيل: يعرف الحميم حميمه، ومع ذلك لا يسأله عن حاله لشغله بنفسه.

﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾: يتمنى الكافر. ﴿لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ أي: يتمنى أن يفدي نفسه من عذاب الله يوم القيامة بأعز الناس عليه، من بنيه. ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾: زوجته. ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾: عشيرته. ﴿ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ﴾: تنصره، وتعينه، وتساعده في الدنيا؛ وهو ينتسب إليها. ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾: يتمنى: أنه لو ملك هؤلاء، وكانوا تحت يده، ثم إنه يفتدي بهم جميعاً. جاء بالعموم بعد الخصوص؛ لبيان هول الموقف. ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ أي: ذلك الفداء من عذاب الله تعالى يوم القيامة، وهيهات أن ينجيه! هذا؛ وهذه الآيات مثل قوله تعالى في سورة (لقمان) رقم [٣٣]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾، وقوله تعالى في سورة (عبس): ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

هذا؛ والمراد بـ: ﴿ٱلْمُجْرِمُ﴾ هنا: الكافر، وكثيراً ما يعبر القرآن الكريم عن الكافرين بالظالمين، والمعتدين، والفاسقين، والمسرفين، ونحو ذلك، ويتهددهم بالعذاب الأليم، والعقاب الشديد، وإننا نجد الكثير من المسلمين يتصفون بهذه الصفات؛ فهل يوجه إليهم هذا التهديد، وهذا الوعيد؟ الحق أقول: نعم يوجه إليهم ما ذكر، وهم أحق بذلك، ولاسيما من قرأ القرآن منهم، واطلع على أحوال الأمم السابقة، وما جرى لهم مع رسلهم، وكيف نكل الله بهم، وجعلهم عبرة للمعتبرين، وما يتذكر إلا أولو الألباب.

هذا؛ وطبقات الناس عند العرب سبع: وهي: الشعب، والقبيلة، والعمارة، والبطن، والفخذ، والفصيلة، والعشيرة. فالشعب يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمائر، والعمارة تجمع البطون، والبطن تجمع الأفخاذ، والفخذ تجمع الفصائل، والفصيلة تجمع العشائر، وليس بعد العشيرة شيء يوصف عند العرب، واستحدث اسم الأسرة، والعائلة لما يشمل الزوج، والزوجة وأولادهما الذين يعيشون في دار واحدة. وقد نظم بعض الأدباء طبقات العرب بقوله: [الخفيف]

اقصدِ الشِّعبَ فهوَ أكثرُ حيٍّ … عدداً في الحواءِ ثمَّ القبيلَهْ

ثمَّ تتلوها العمارةُ ثمَّ الْـ … ـبطنُ والفخذُ بعدَها والفصيلَهْ

ثمَّ مِن بعدِها العشيرةُ لكنْ … هيَ في جَنبِ ما ذكرنا قليلَهْ

وأخيراً خذ قول العلي القدير في سورة (الحجرات): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

الإعراب: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو نائب فاعله، وهو المفعول الأول، والهاء مفعول به ثان، والجملة الفعلية في محل نصب صفة ﴿حَمِيمًا﴾، والتقدير: حميماً مبصرين، وإنما جمع الضميران، وهما عائدان للحميمين حملاً على معنى العموم؛ لأنهما نكرتان في سياق النفي، أو الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً في جواب سؤال، تقديره: لعل عدم السؤال؛ لكونه لا يبصره، فقيل: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾.

﴿يَوَدُّ﴾: فعل مضارع. ﴿ٱلْمُجْرِمُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب حال من الضمير المرفوع، أو المنصوب، أو هي مستأنفة، لا محل لها. ﴿لَوْ﴾: مصدرية. ﴿يَفْتَدِى﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلْمُجْرِمُ﴾، و﴿لَوْ﴾ والفعل ﴿يَفْتَدِى﴾ في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به، التقدير: يود المجرم افتداء نفسه. ﴿مِنْ عَذَابِ﴾: متعلقان بما قبلهما، و﴿عَذَابِ﴾ مضاف، و﴿يَوْمِئِذٍ﴾ مضاف إليه، و(إذ) مبنية على السكون في محل جر بالإضافة، وحركت بالكسرة، ونونت، والتنوين عوض من جملة محذوفة. ﴿بِبَنِيهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل ﴿يَفْتَدِى﴾، وعلامة الجر الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، وحذفت النون للإضافة، والهاء في محل جر بالإضافة.

﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ﴾: معطوفان على ما قبلهما، وعلامة جر (أخيه) الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه من الأسماء الخمسة، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾: الواو: حرف عطف. (فصيلته): معطوف على ما قبله، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿ٱلَّتِى﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل جر صفة (فصيلته). ﴿تُـْٔوِيهِ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلَّتِى﴾، وهو العائد، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿وَمَن﴾: الواو: حرف عطف. (من): اسم موصول مبني على السكون في محل جر معطوف على (بنيه). ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلقان بمحذوف صلة الموصول. ﴿جَمِيعًا﴾: حال مِنْ مَنْ؛ لأنها بمعنى الجمع، وهي حال مؤكدة. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف، وترتيب، وتراخ. ﴿يُنجِيهِ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء، والفاعل يعود إلى (من في الأرض) والهاء مفعول به، وهي عائدة على ﴿ٱلْمُجْرِمُ﴾، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. وقال القرطبي: أي: يخلصه ذلك الفداء فلابدَّ من هذا الإضمار.

﴿كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾

الشرح: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾: ردع، وزجر، وتعنيف، أي: لينزجر هذا الكافر الأثيم، وليرتدع عن أعماله الأثيمة، فليس ينجيه من عذاب الله فداء، بل أمامه جهنم تتلظى نيرانها، وتلتهب، كما قال تعالى في سورة (الليل): ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ واشتقاق (لظى) من: التلظِّي، والتِظاءُ

النار: التهابُها، وتَلَظِّيها: تَلَهُّبها. هذا؛ والضمير في (إنها) للنار، ولم يسبق لها ذكر، ولكنها مفهومة من المقام، ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ أي: تنزع بشدة حرها جلدة الرأس من الإنسان، كلما قلعت؛ عادت كما كانت زيادة في التنكيل، والعذاب. وخصها بالذكر؛ لأنها أشد الجسم حساسيةً، وتأثراً بالنار، قال الأعشى: [مجزوء الكامل]

قَالَتْ قُتَيْلَةُ مَا لَهُ؟ ... قَدْ جُلِّلَتْ شَيْباً شَوَاتُه

وقال آخر: [الطويل]

لأَصْبَحْتَ هَدَّتْكَ الحوادثُ هدَّةً ... لَهَا فشواةُ الرَّأْسِ بَادٍ قَتِيرُهَا

وفي الصحاح: والشَّوى: جمع شواة، وهي جلدة الرأس، والشوى: اليدان، والرجلان، والرأس من الآدميين. وكل ما ليس مقتلاً، قال أبو ذؤيب الهذلي: [الطويل]

فَإِنَّ مِنَ القَوْلِ التي لا شَوَى لَهَا ... إِذَا زَلَّ عَنْ ظَهرِ اللسانِ انفِلاتُهَا

يقول: إن من القول كلمة لا تشوي، ولكن تقتل. وقال عنترة من معلقته ـ وهو البيت رقم [٣٤] ـ: [الكامل]

وَحَشِيَّتي سَرْجٌ على عَبْلِ الشَّوى ... نَهدٍ مراكِلُهُ نبيلِ الْمَحْزَمِ

ومن شعر عمران بن حطان الخارجي على أن الشوى: القوائم، والجلود: [الطويل]

دَعَتْهُمْ بأعلى صَوْتِهَا وَرَمَتْهُم ... بمثلِ الجِمالِ الصُّفرِ نزّاعةُ الشَّوَى

وقال بعض الأئمة: الشوى: القوائم والجلود، قال امرؤ القيس: [الطويل]

سَلِيمُ الشَّظَى عَبْلُ الشَّوى شَنِجُ النَّسَا ... لهُ حَجَبَاتٌ مشرفاتٌ على الْفَالِ

هذا؛ والشوى: رذال المال. قال أعرابي، وقد نحر ناقة في شدة أصابتهم:

أَكَلْنَا الشَّوَى حَتَّى إذَا لَمْ نَدَعْ شَوىً ... أَشَرْنَا إلى خيراتِها بالأصابِعِ

﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: تدعو، وتنادي لظى من أدبر في الدنيا عن طاعة الله، وتولى عن الإيمان، ودعاؤها أن تقول: إليَّ يا مشرك! إليَّ يا كافر! وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: تدعو الكافرين، والمنافقين بأسمائهم بلسان فصيح: إليَّ يا كافر! إليَّ يا منافق! ثم تلتقطهم كما يلتقط الطير الحب. وقال ثعلب: ﴿تَدْعُواْ﴾: تهلك، تقول العرب: دعاك الله، أي: أهلكك الله. وقال الخليل: إنه ليس كالدعاء: «تعالوا»، ولكن دعوتها إياهم: تمكنها من تعذيبهم. وقيل: الداعي خزنة جهنم، أضيف دعاؤهم إليها. قال القرطبي: قلت: القول الأول هو الحقيقة حسب ما تقدم بيانه بآي القرآن، والأخبار الصحيحة. انتهى. وقيل: هو مجاز عقلي عن إحضارهم، كأنها تدعوهم، فتحضرهم. أو استعارة مكنية. ولا وجه له قطعاً قطعاً، بل هو حقيقة، كما قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ.

أقول: انظر ما ذكرته في سورة (ق) [٣٠] وما بعدها تجد ما يسرك ويشرح صدرك.

﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ أي: جمع المال، فجعله في وعائه، ومنع منه حق الله تعالى، وتشاغل به عن طاعة الله، وزهى باقتنائه على الناس، وتكبر عليهم. وكان الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: يا ابن آدم! سمعت وعيد الله، ثم أوعيت الدنيا، والرسول ﷺ قال لأسماء بنت الصديق ـ رضي الله عنهما ـ: «**لا تُوعِي؛ فيوعَىٰ عَلَيْكِ، ولا توكِي فيُوكىٰ عليكِ، ولا تحصِي فيُحْصِي اللهُ عَلَيْكِ**». أخرجه الشيخان.

هذا؛ و«جَمَعَ» للذوات، و«أجمع» للمعاني، يقال: جمع المال، وجمع الرجال، ونحو ذلك، ولا يقال: أجمع المال، ويقال: أجمع الأمر: إذا عزم عليه، والأمر مجمع عليه، ويقال: أجمع أمرك، ولا تدعه منتشراً. قال تعالى حكاية عن قول فرعون، وأشياعه في الآية رقم [٦٤] من سورة (طه): ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾. ولا يقال: أجمع أعوانه، وشركاءه، وإنما يقال: جمع أعوانه، وأصدقاءه. وابن هشام قال في المغني: إن «أجمع» لا يتعلق بالذوات، بل بالمعاني، كقولك: أجمعوا على كذا، بخلاف جمع، فإنه مشترك بدليل قوله تعالى: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ رقم [٦٠] من سورة (طه)، وقوله جل شأنه في سورة (الهمزة): ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ وخذ قول الحارث بن حلزة اليشكري من معلقته رقم [٢٠] وهو لـ: «أجمع» في المعاني: [الخفيف]

أَجْـمَـعُـوا أَمْـرَهُـمْ عِـشَـاءً فـلـمَّـا أَصْـبَـحُـوا أَصْـبَـحَـتْ لـهـمْ ضَـوْضَـاءُ

هذا؛ وأما قوله تعالى في سورة (يونس) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام، حكاية عن قول نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾. فهو على تقدير: فأجمعوا أمركم، وادعوا شركاءكم. أو يقال: سوغ ذلك العطف، ولولا العطف؛ لما ساغ. تأمل، وتدبر، وربك أعلم.

الإعراب: ﴿كَلَّآ﴾: حرف ردع وزجر، وهي هنا تحتمل أن تكون بمعنى: حقاً، وعليه: تمام الكلام قوله تعالى: ﴿يُنجِيهِ﴾، وتحتمل أن تكون بمعنى: (لا) النافية، وعليه فتمام الكلام عليها، والوقف عليها تام، ويكون المعنى: ليس ينجيه من عذاب الله الافتداء. ﴿إِنَّهَا﴾: (إنَّ): حرف مشبه بالفعل، (وها): اسمها. ﴿لَظَىٰ﴾: خبرها مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر، والجملة الاسمية مبتدأة لا محل لها من الإعراب. ﴿نَزَّاعَةً﴾: يقرأ بالرفع والنصب، فالرفع فيه خمسة أوجه: أحدها: أن تكون خبراً لمبتدأ محذوف، التقدير: هي نزاعة. الثاني: أن تكون خبراً ثانياً لـ: (إنَّ)، والثالث أن تكون بدلاً من ﴿لَظَىٰ﴾، والرابع: أن تكون ﴿لَظَىٰ﴾ بدلاً من اسم (إنَّ)، ونزاعة خبر (إنَّ)، والخامس: اعتبار ﴿لَظَىٰ﴾ مبتدأ، و﴿نَزَّاعَةً﴾ خبرها، والجملة الاسمية في محل رفع خبر (إنَّ) وعليه: فالضمير ضمير القصة، والمعنى: إن القصة، والخبر لظى نزاعة للشوى. انتهى. قرطبي.

وعلى نصب (نزاعةً) ففيها خمسة أوجه أيضاً: الأول على القطع، التقدير: أعني: نزاعةً. والثاني: أنها حال من ﴿لَظَىٰ﴾، مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾. والثالث: أنها حال، عاملها محذوف، التقدير: تتلظى نزاعةً؛ أي: في حال نزعها للشوى. والرابع: أنها حال من فاعل ﴿تَدْعُواْ﴾ قدمت عليه. قاله أبو البقاء. والخامس: هي حال من الضمير في ﴿لَظَىٰ﴾، على أن تجعلها صفة غالبة، مثل: الحارث، والعباس. قاله أبو البقاء أيضاً. ﴿لِّلشَّوَىٰ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: ﴿نَزَّاعَةً﴾، وعلامة الجر كسرة مقدرة على الألف للتعذر. هذا؛ وقد اعتبر ابن هشام في المغني اللام زائدة، وسماها لام التقوية، وعليه فـ: (الشوى) مجرور لفظاً، منصوب محلاً، ومثل هذه الآية قوله تعالى في سورة (الأعراف) رقم [١٥٤]: ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾، وقوله تعالى في سورة (البقرة) وغيرها: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، وقوله في سورة (يوسف) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام رقم [٤٣]: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾، وفي سورة (الأنبياء) رقم [٧٨]: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ وأورد ابن هشام في مغنيه قول حاتم الطائي. وقيل: قول قيس بن عاصم المنقري ـ وهو الشاهد رقم [٣٩٨] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الطويل]

إذا مَا صَنَعْتِ الزادَ فالتمسِي لَهُ أَكِيلاً فإنِي لسْتُ آكِلَهُ وَحْدِي

﴿تَدْعُواْ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الواو، وفاعله يعود إلى ﴿لَظَىٰ﴾، والجملة الفعلية في محل نصب حال من الضمير المستتر بـ: ﴿نَزَّاعَةً﴾، فهي حال متداخلة، أو هي في محل نصب حال من ﴿لَظَىٰ﴾، فتكون حالاً متكررة من بعض الوجوه، أو هي في محل رفع خبر ثان، أو ثالث، أو هي مستأنفة، لا محل لها، إن أردت الإعراض عن الكلام السابق. ﴿مَنْ﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿أَدْبَرَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿مَنْ﴾، وهو العائد، والمتعلق محذوف، كما رأيت في الشرح، والجملة صلة الموصول، لا محل لها. ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾: الواو: حرف عطف. وجملة (تولى) معطوفة على الجملة قبلها، لا محل لها مثلها. وجملة: ﴿وَجَمَعَ﴾ معطوفة عليها، لا محل لها مثلها، وكذلك جملة: ﴿فَأَوْعَىٰ﴾ معطوفة أيضاً، وفاعلهما يعود إلى من، تقديره: «هو».

﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: الكافر، والمنافق، والفاسق. ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾: الهلع في اللغة: أشد الحرص، وأسوأ الجزع، وأفحشه، قاله الضحاك، وقتادة، ومجاهد. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: تفسيره ما بعده. وقال عمرو بن معد يكرب الزبيدي ـ رضي الله عنه ـ: [مجزوء الكامل]

مَا إنْ هَلِعْتُ وَلَا جَزِعْتُ وَلَا يَرُدُّ بُكَايَ زَنْدَا

وقال الرسول ﷺ: «**شَرُّ ما في الرجُلِ شحٌّ هالِعٌ، وجبنٌ خالِعٌ**». أخرجه أبو داود عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ. وقال أبو عبيدة: الهَلوع: هو الذي إذا مسه الخير؛ لم يشكر، وإذا مسه الضر؛ لم يصبر. وعن أحمد بن يحيى قال لي محمد بن عبد الله بن طاهر: ما الهلع؟ فقلت: قد فسره الله، ولا يكون تفسير أبين من تفسيره، وهو الذي إذا ناله شر؛ أظهر شدة الجزع، وإذا ناله خير بخل به، ومنعه الناس. هذا؛ و﴿ٱلْخَيْرُ﴾ المال، والصحة، والولد، والجاه، والمنصب في الدنيا. و﴿ٱلشَّرُّ﴾: الفقر، والمرض، وعدم الولد، والضعف، والذلة في الدنيا. ومعنى ﴿مَسَّهُ﴾: أصابه، ووقع به.

هذا؛ و﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يطلق على الذكر، والأنثى من بني آدم، ومثله كلمة: شخص. قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ ومعلوم: أن الله تعالى لم يقصد الذكور خاصة، والقرينة الآيات الكثيرة الدالة على أن المراد: الذكر، والأنثى، واللام في ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ إنما هي لام الجنس؛ التي تفيد الاستغراق، ولذا صح الاستثناء من ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ هنا وفي سورة (العصر) كما ستقف عليه. هذا؛ وإنسان العين: هو المثال الذي يرى فيها، وهو النقطة السوداء، والتي تبدو لامعة وسْط السواد. وانظر جمع ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ في الآية رقم [٥] من سورة (الجن). وخذ قول ذي الرمة، ـ وهو الشاهد رقم [٨٨٩] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الطويل]

وإنسانُ عَيْني يَحْسُرُ الماءَ تارةً ... فيَبْدُو وتاراتٍ يَجُمُّ فيَغْرَقُ

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾. ﴿خُلِقَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره: «هو»، يعود إلى الإنسان، والجملة الفعلية في محل رفع خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿هَلُوعًا﴾: حال مقدرة؛ لأنه ليس متصفاً بالصفات المذكورة وقت خلقه، ولا وقت ولاده. ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك، مبني على السكون في محل نصب. ﴿مَسَّهُ﴾: فعل ماضٍ، والهاء في محل نصب مفعول به. ﴿ٱلشَّرُّ﴾: فاعله، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها. ﴿جَزُوعًا﴾: خبر لـ: «كان» محذوفة مع اسمها، التقدير: كان الإنسان جزوعاً، والجملة الفعلية هذه جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها، وإذا ومدخولها في محل رفع خبر ثان لـ: ﴿إِنَّ﴾، أو هي تفسير لجملة: ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾ كما رأيت في الشرح. هذا؛ وقيل: ﴿جَزُوعًا﴾ حال من الضمير في ﴿هَلُوعًا﴾، وهو العامل في الحال. وقيل: ﴿جَزُوعًا﴾ صفة ﴿هَلُوعًا﴾ وعلى هذين القولين، فإذا الأولى متعلقة بـ: ﴿جَزُوعًا﴾، والثانية متعلقة بـ: ﴿مَنُوعًا﴾ ولا تنس المقابلة في الآيتين. والمعتمد الأول بلا ريب، والجملة: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ معطوفة على ما قبلها، وإعرابها مثلها على جميع الاعتبارات بلا فارق بينهما.

هذا؛ وذكرت لك أن ﴿جَزُوعًا﴾ حال مقدرة؛ إذ الحال بالنسبة للزمان على ثلاثة أقسام: حال مقارنة، وهي الغالبة، نحو قوله تعالى حكاية عن قول امرأة إبراهيم ـ على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾. وحال مقدرة، وهي المستقبلة نحو قوله

تعالى: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾. ومنها الحال في هذه الآية، كما رأيت، وحال محكية، وهي الحال الماضية، نحو: جاء زيد أمسِ راكباً. وهناك الحال الموطئة، وهي التي تذكر توطئةً للصفة بعدها، بمعنى: أن المقصود: الصفة، وهذا كثير في القرآن الكريم، خذ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾.

هذا؛ والحال أيضاً على نوعين: إما مؤسسة، وإما مؤكدة. فالمؤسسة هي التي لا يستفاد معناها بدونها، نحو جاء زيد ضاحكاً ونحوه، وأكثر ما تأتي الحال من هذا النوع مبينة هيئة فاعِل، أو مفعول. والمؤكدة، وهي التي يستفاد معناها بدونها، وإنما يؤتى بها للتوكيد، وهذه ثلاثة أنواع.

الأول: ما يؤتى بها لتوكيد عاملها، وهي التي توافقه معنىً فقط، أو معنىً، ولفظاً، فالأول كقوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ الأولى من سورة (النمل)، والثانية مذكورة في سورة (الشعراء) وغيرها. والثاني نحو قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾.

النوع الثاني: ما يؤتى بها لتوكيد صاحبها، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ رقم [٩٩] من سورة (يونس) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام.

النوع الثالث: ما يؤتى بها لتوكيد مضمون جملة معقودة من اسمين معرفتين جامدين، نحو قوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [٩١]: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ وقولك: (هُوَ الْحَقُّ صَرِيحاً، أَوْ بَيِّناً) وقول سالم بن دارة اليربوعي ـ وهو الشاهد رقم [٣٨٥] من كتابنا: «فتح رب البرية» ـ: [البسيط]

أَنَا ابْنُ دَارَةَ مَعْرُوفاً بِهَا نَسَبِي ... وَهَلْ بِدَارَةَ يَا لَلنَّاسِ مِنْ عَارِ؟

وهناك الحال اللازمة في قراءة من قرأ قوله تعالى في سورة (ص) رقم [٢٩]: (كتاب أنزلناه إليك مباركاً) بالنصب؛ لأن البركة لا تفارق الكتاب، وهو القرآن.

﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾

الشرح: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾: قال البيضاوي ـ رحمه الله تعالى ـ: استثناء للموصوفين بالصفات المذكورة بعد ذكر المطبوعين على الأحوال المذكورة قبلُ لمضادة تلك الصفات لها؛ من حيث إنها دالة على الاستغراق في طاعة الحق، والإشفاق على الخلق، والإيمان بالجزاء، والخوف

من العقوبة، وكسر الشهوة، وإيثار الآجل على العاجل، وتلك ناشئة من الانهماك في حب العاجل، وقصور النظر عليه. انتهى. هذا؛ وفسر الجلال ﴿ٱلْمُصَلِّينَ﴾ بالمؤمنين؛ لأن الصلاة الشرعية المقبولة عند الله تستلزم الإيمان، وبدون الإيمان، لا تكون صحيحة، ولا مقبولة.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾: مواظبون على أداة الصلاة، لا يشغلهم عنها شاغل؛ لأن نفوسهم صفت من أكدار الدنيا بتعرضهم لنفحات الله. وقيل: معناه يحافظون على أوقاتها، وواجباتها. قاله ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ. وقيل: المراد بالدوام هنا السكون، والخشوع، كقوله تعالى في سورة (المؤمنون): ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ قاله عقبة ابن عامر ـ رضي الله عنه ـ. وهذا يدل على وجوب الطمأنينة في الصلاة، فإن الذي لا يطمئن في ركوعه، وسجوده؛ لم يسكن فيها، ولم يدم، بل ينقرها نقر الغراب، فلا يفلح في صلاته. وخذ ما يلي:

فعن أبي مسعود البدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لَا تُجْزِئُ صلاةُ الرجلِ حتَّى يُقِيمَ ظَهْرَهُ فِي الركُوعِ وَالسُّجُودِ»**. رواه أحمد وأبو داود، والترمذي، والنسائي.

وعن أبي قتادة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أَسْوَأُ الناسِ سَرِقةً الَّذِي يَسْرِقُ مِنْ صَلَاتِهِ»**. قالوا: يا رسول الله! كيف يسرق من الصلاة؟ قال: **«لا يُتِمُّ رُكُوعَهَا، ولا سُجُودَهَا»**. أو قال: **«لَا يُقِيمُ صُلْبَهُ في الركُوعِ، والسُّجُودِ»**. رواه أحمد، والطبراني، وغيرهما.

وعن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: نهاني رسول الله ﷺ أنْ أقرأَ؛ وأنا راكِعٌ، وقال: **«يَا عَلِيُّ مثلُ الَّذِي لَا يُقيمُ صُلْبَهُ فِي صَلَاتِهِ كَمَثَلِ حُبْلَى حَمَلَتْ، فلمَّا دَنَا نِفَاسُهَا؛ أَسْقَطَتْ، فَلَا هِيَ ذَاتُ حَمْلٍ، وَلَا هيَ ذَاتُ وَلَدٍ»**. رواه أبو يعلى، وغيره.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رَجُلاً دخلَ المسجدَ؛ ورسولُ اللهِ ﷺ جالِسٌ في ناحِيَةِ الْمَسْجِدِ، فَصَلَّى، ثُمَّ جاءَ فسلَّمَ عَلَيْهِ، فقالَ لَهُ رسول الله ﷺ:

«وعَلَيْكَ السَّلَام، ارجعْ فَصَلِّ، فإنَّكَ لَم تُصَلِّ». فصلى ثم جاء فسلم، فقال: **«وعَلَيْكَ السَّلَامُ، ارْجِعْ، فَصَلِّ، فإنكَ لَمْ تُصَلِّ»**. فصلى، ثم جاء، فسلم، فقال: **«وعَلَيْكَ السلَامُ، ارْجِعْ، فَصَلِّ، فإنكَ لَمْ تُصَلِّ»**. فقال في الثانية، أو في التي تليها: علمني يا رسول الله! وفي رواية: والذي بعثك بالحق ما أحسن غير هذا فعلمني! فقال: **«إذا قمْتَ إلى الصلاةِ؛ فأَسْبغِ الوضوءَ، ثمَّ استقبلِ القبلةَ، فكبِّرْ، ثمَّ اقرأ ما تَيَسَّرَ معكَ من القرآنِ، ثم اركعْ؛ حتى تطمئِنَّ رَاكِعاً، ثمَّ ارْفعْ حتَّى تستويَ قَائِماً، ثمَّ اسْجُدْ حتى تطمئنَّ ساجداً، ثم ارفعْ حتى تَطمئِنَّ جَالِساً، ثم اسجُدْ حَتَّى تَطمَئِنَّ سَاجِداً، ثم افعلْ ذَلِكَ في صَلَاتِكَ كُلِّهَا»**. رواه البخاري، ومسلم.

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ أولَ ما افترضَ اللهُ عَلَى الناسِ مِنْ دِينِهمُ الصلاةَ، وآخرُ ما يَبْقى الصَّلَاةُ، وأوَّلُ ما يحاسَبُ به الصلاةُ، ويقولُ اللهُ: انظُروا**

في صلاةِ عبْدِي، فإنْ كَانَتْ تامةً؛ كُتِبَتْ تامةً، وإن كانتْ ناقِصَةً؛ يقولُ: انظروا هل لعبدِي مِنْ تطوعٍ؟ فإنْ وُجدَ له تطوعٌ تمتِ الفريضةُ مِنَ التطوعِ. ثم يقولُ: انظرُوا هَلْ زكاتُهُ تامة؟ فإنْ كانَتْ تامةً كُتِبَتْ تَامةً، وإنْ كانتْ ناقِصَةً يقولُ: انظرُوا هَلْ لِعَبْدِي صدقةٌ؟ فإن كانتْ لَهُ صدقةٌ تمَّتْ زَكَاتُهُ». رواه أبو يعلى.

ويمكن قياس الصيام، والحج على الصلاة، والزكاة، والمراد بالتطوع: النوافل، والسنن؛ التي يفعلها المسلم زيادة على الفرائض، فالنبي ﷺ جزاه الله عنا خير الجزاء، وجزاه الله عنا ما هو أهله سنَّ لنا السنن ورغبنا في التطوع حباً منه في زيادة الخير لنا، وتكثير حسناتنا، وخذ ما يلي:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«أرَأَيْتُمْ لوْ أنَّ نَهْراً ببابِ أَحَدِكُمْ يغتسِلُ فيه خمْسَ مراتٍ هَلْ يَبْقَى مِنْ درَنِهِ شَيْءٌ»**. قالوا: لا يبقَى من درنه شيء! قال: **«فكذَلِكَ مثَلُ الصَّلَوَاتِ الخمسِ يمحُو اللهُ بهِنَّ الْخَطَايَا»**. رواه الستة ما عدا أبا داود.

﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ أي: في أموالهم نصيب معين فرضه الله في أموالهم، وهو الزكاة؛ التي فرضها الله في أموال الأغنياء للفقراء والمساكين، فالله يقول في حديث قدسي: **«الأغنياءُ وكلائي، والفقراءُ عيالي، فإذا بَخِلَ وكلائي على عيالي؛ أذقتهمْ عَذَابي، ولَا أُبَالي»**. ويقول الرسول ﷺ: **«إنَّ اللهَ فرضَ عَلى أغنياءِ المسلمِينَ في أمْوالِهِمْ بقَدرِ ما يَسَعُ فُقَرَاءَهُمْ، ولنْ يَجْهَدَ الفقراءُ إذا جاعُوا، وَعرُوا إلَّا بما يصنعُ أغنِياؤهُمْ، ألَّا وَإنَّ الله سيُعَذِّبهُمْ عذاباً أليماً، ويحاسِبُهُمْ حِسَاباً عَسِيراً»**. ونحن لو تأملنا حق التأمل في هذا الحديث؛ لوجدنا أن مسؤوليتنا كبرى أمام دولة الفقراء، وأن إهمالهم يجر إلى شر مستطير في الدنيا، وفي الآخرة، أما في الدنيا فإن الفقراء إذا رأوْا في الأغنياء شحاً مطاعاً، وبخلاً سائداً، فإنهم يبغضونهم، ويتمنون هلاك المال الذي بأيديهم. وأما في الآخرة؛ فإن الفقير الجائع، والمسكين العاري سيتعلق بالغني، وَيأخذ بتلابيبه، ويقول: يا رب هذا الغني البخيل أغلق بابه دوني، ومنعني عطفه، فخذ لي يا رب بحقي منه! فلا يتركه حتى يوجب له النار.

روى الطبراني عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ويلٌ للأغنياءِ من الفقراءِ يومَ القيامَة، يقولُ الفقيرُ: يا رب هذا الغني منعني حقي، وحرمني. فيقول الله عز وجل: وعزتي وجلالي لأدنينكم ولأبعدَنَّهم»**. ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾.

﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾: السائل: هو الذي يسأل الناس لفاقته، و(المحروم) هو الذي حرم المال لسبب من الأسباب. وأظهر الأقوال فيه: أنه العفيف المتعفف ذو العيال؛ لأنه قرن بالسائل، والمتعفف لا يسأل، ولا يكاد الناس يعطون من لا يسأل، وإنما يفطن له متيقظ، قال تعالى في سورة (البقرة) [٢٧٣]: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى

ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ وانظر ما ذكرته في الآية رقم [١٩] من سورة (الذاريات) تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾: يؤمنون، ويوقنون بيوم القيامة، وما فيه من البعث بعد الموت والحشر، والحساب، والميزان، والصراط، ثم إلى الجنة، أو إلى النار، ومن صدق، واعتقد بيوم الدين؛ صرف ماله في مرضاة الله، وأتعب نفسه بطاعة الله في الليل، والنهار. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: (يوم الدين) يوم حساب الخلائق، يدينهم بأعمالهم، إن خيراً؛ فخيرٌ، وإن شراً؛ فشر إلا من عفا الله عنه، والأمر أمره، ثم قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾. هذا؛ والدينونة: المجازاة والمكافأة، ومنه: كما تدين تدان.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾: خائفون على أنفسهم من عذاب الله، يرجون الثواب، ويخافون العقاب. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾: يعني: إن الإنسان لا يمكنه القطع بأنه أدى الواجبات كما ينبغي، واجتنب المحظورات بالكلية كما ينبغي، بل قد يكون وقع منه تقصير من الجانبين، فلا جرم ينبغي أن يكون العبد بين الخوف، والرجاء، خائفاً من عقابه، طامعاً في رحمته تعالى.

الإعراب: ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿ٱلْمُصَلِّينَ﴾: مستثنى من ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ وساغ ذلك؛ لأن (أل) فيه للجنس، وهي تفيد الاستغراق، والمعنى: إن كل إنسان خلق هلوعاً، و﴿ٱلْمُصَلِّينَ﴾ منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض من التنوين في الاسم المفرد. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب بدلاً من ﴿ٱلْمُصَلِّينَ﴾، أو هو صفة له، أو هو في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هم الذين، وتكون الجملة الاسمية في محل نصب حال من ﴿ٱلْمُصَلِّينَ﴾، أو من الضمير المستتر فيه، والرابط: الضمير فقط. ﴿هُمْ﴾: ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾: متعلقان بـ: ﴿دَآئِمُونَ﴾ بعدهما، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿دَآئِمُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: الواو: حرف عطف. (الذين): معطوف على ما قبله على جميع الوجوه المعتبرة فيه. ﴿فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾: متعلقان بمحذوف خبر مقدم، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿حَقٌّ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿مَّعْلُومٌ﴾: صفته، والجملة الاسمية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿لِّلسَّآئِلِ﴾: متعلقان بـ: ﴿مَّعْلُومٌ﴾، أو بمحذوف صفة ثانية لـ: ﴿حَقٌّ﴾. ﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾: الواو: حرف عطف. (المحروم): معطوف على ما قبله.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على ما قبله أيضاً. ﴿يُصَدِّقُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿بِيَوْمِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، و(يوم) مضاف، و﴿ٱلدِّينِ﴾ مضاف إليه. (الذين) معطوف على ما قبله. ﴿هُم﴾: مبتدأ.

﴿مِّنْ عَذَابِ﴾: متعلقان بـ: ﴿مُّشْفِقُونَ﴾ بعدهما، و﴿عَذَابِ﴾ مضاف، و﴿رَبِّهِم﴾ مضاف إليه، من إضافة المصدر، أو اسم المصدر لفاعله، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿مُّشْفِقُونَ﴾: خبر المبتدأ مرفوع، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض من التنوين في الاسم المفرد، والجملة الاسمية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿عَذَابَ﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾، وهو مضاف، و﴿رَبِّهِمْ﴾ مضاف إليه... مثل سابقه. ﴿غَيْرُ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، وهو مضاف، و﴿مَأْمُونٍ﴾ مضاف إليه، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ عَذَابَ...﴾ إلخ معترضة بين المتعاطفات، ومفيدة للتعليل.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾﴾

الشرح: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ﴾: جمع: فرج، وهو اسم لسوأة الرجل، والمرأة، وحفظه: التعفف عن الحرام، وعن كل ما لا يحل من زنى ولواط، واستمناء باليد، ومتعة.

أما الزنى فهو من أفظع الجرائم خطراً، وأشدها ضرراً على الأعراض، والأنساب، والأخلاق، والعادات، لذلك سماه الله فاحشةً، وساء سبيلاً. قال تعالى في سورة (الإسراء) رقم [٣٢]: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾، وما فشا الزنى في أمة من الأمم إلا ضاع مجدها، وذهب عزها، وفشت فيها الأمراض، والأوبئة الفتاكة، لذلك وضع الله عز وجل للزاني عقوبتين: عقوبةً في الدنيا، وعقوبةً في الآخرة، أما عقوبة الدنيا؛ فالجلد لمن لم يتزوج، والرجم بالحجارة لمن كان متزوجاً؛ حتى يموت، أما الجلد؛ فقد ثبت بقوله تعالى في سورة (النور) رقم [٢]: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ...﴾ إلخ، وأما الرجم؛ فقد ثبت بفعل النبي ﷺ، وأحاديثه الصحيحة، مثل قوله ﷺ: «**لا يَحِلُّ دمُ امرئٍ مسلمٍ يشهدُ أنْ لَا إلهَ إلا اللهُ، وَأَنِّي رسولُ اللهِ إِلَّا بإِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّاني، والنفسُ بالنفسِ، والتاركُ لِدينِهِ، المفارقُ للجماعةِ**». رواه الستة ما عدا ابن ماجه عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ.

أما عقوبة الآخرة فقد ورد عن رسول الله ﷺ: أن جبريل، وميكائيل أخذا بيده حتى أصعداه جبلاً، فإذا أصواتٌ، وعواءٌ، فاطلع فإذا رجالٌ، ونساءٌ عراةٌ، يأتيهمُ اللهبُ منْ أسفلَ منهم، فإذا أتاهم؛ صرخوا من شدة حره، فقال الرسول ﷺ: «**مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟**». قال: «**هَؤُلَاءِ الزُّنَاةُ والزَّوَانِي، عِقَابُهُمْ كَذَلِكَ إِلَى يَوْم الْقِيامَةِ**». ورأى النبي ﷺ ليلة أسريَ به رجالاً، ونساءً بين أيديهم لحم نضيج في قِدْر، فقال: «**ما هذا يا جبريلُ؟**». قال: «**هذا مثلُ الرجلِ من أمتكَ يتركُ زوجتَهُ الحلالَ الطيبَ، ويَبيتُ عند أخرى يزني بها، ومثل المرأة من أمتك تترك زوجها الحلال الطيب، وتأتي آخر خبيثاً مثلها، يزني بها**».

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**عِفُّوا عَنْ نِسَاءِ النَّاسِ؛ تَعِفَّ نِسَاؤُكُمْ، وَبِرُّوا آباءَكُمْ، تَبَرُّكم أَبْنَاؤُكُمْ. . . إلخ**». رواه الحاكم، ومثله في الطبراني. من رواية ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ. فالكيل الذي تكيل به للناس يُكال لك به، وكما تدين تدان، فمن زنى بنساء الناس لا بد أن يدان من قريباته. وخذ ما يلي:

حكي: أنه كانت امرأة صالحة، زوجها صائغ، ولها رجل سَقَّاء ينقل لها الماء منذ ثلاثين سنةً، لا ينظر إليها، فناولها يوماً الماء، وقبض على يدها قبضاً شديداً، فلما جاء زوجها؛ قالت له: هل وقع منك اليوم ذنب؟ قال: لا! غير أن امرأةً اشترت مني سِواراً، فلما رأيت يدها أعجبتني، فقبضت على يدها قبضاً شديداً! فقالت له: قد وقع القصاص في زوجتك! فلمَّا كان الغد جاء السقاء معتذراً، فقالت له: لا بأس عليك، إنما الفساد من زوجي. وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٣٢] من سورة (الإسراء) تجد ما يسرك.

ومتى عف المرء عن نساء الناس؛ ظهرت أمارات عفته في تصرفاته، واستقامته، بل، وفي نظراته، وحركاته، وسكناته، وفاحت رائحة عفته؛ حتى لكأن زوجته تشمها، وتحس بها، فتزداد عفةً على عفةٍ، ووفاءً لزوجها، وإرضاءً لربها، وظهر أثر ذلك في الاحترام المتبادل، والمحبة الصادقة، والعشرة الطيبة، ورفرف على البيت علم الطهارة، والسعادة، أما إذا لم يعف الزوج عن نساء الناس، وتدنس بالزنى، والفجور، وأفسد امرأة غيره، ولم تمتلئ نفسه بالعفة، والطهارة؛ فإن شؤم ذلك يتعدى إلى زوجته، ويحملها على أن تنظر إلى غيره من الرجال الأجانب، وتتصل بمن تهوى، وتحملها الغيرة على الانتقام من زوجها، فتسلك ما سلك من طريق الخيانة، والفجور، فيكون هذا الزوج الدنيء متسبباً في فساد امرأته. وكما تدين تدان.

أما اللواط؛ فإنه عملُ قومِ لوط، كما رأيت في سورة (الأعراف)، وسورة (الحجر)، وسورة (هود)، وسورة (الشعراء) و(النمل) وغير ذلك، وهو كبيرة من الكبائر، التي تستوجب غضب الله في الدنيا، وعقابه في الآخرة، والنبي ﷺ قد شدد النكير على من اقترف هذه الجريمة، أو يقترفها وإليك نبذة من أحاديثه الشريفة في ذلك:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**أربعةٌ يُصْبِحُونَ في غَضَبِ اللهِ، وَيمْسُونَ في سَخَطِ اللهِ**». قلت: من هم يا رسول الله؟! قال: «**المتشبِّهُونَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّساءِ، والمتشبِّهاتُ من النساءِ بالرجالِ، والذِي يأتي البهيمةَ، والذي يأتي الرجالَ**». رواه الطبراني.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ وجدتموهُ يعملُ عملَ قومِ لوطٍ، فاقتلُوا الفاعلَ، والمفعولَ بهِ**». رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه. أقول: المفعول به يقتل إذا كان مطاوعاً، وباختياره، أما إذا كان مكرهاً؛ فلا إثم، ولا قتل له، بل إن الرسول ﷺ حرم هذه الجريمة؛ حتى عمل الرجل مع امرأته، فعن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ أن

النبي ﷺ قال: «**هِيَ اللُّوطِيَّةُ الصُّغْرَى**». يعني الرجل يأتي امرأته في دبرها. رواه أحمد، والبزار. وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ أتى حائِضاً، أو امرأةً في دُبرِها، أو كاهناً فصدَّقه، فقدْ كَفَرَ بما أُنزِلَ على محمد ﷺ**». رواه أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وأبو داود. وهذا محمول على المستحل، وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٥] من سورة (المؤمنون).

وأما الاستمناء باليد، ويطلق عليه في هذه الأيام اسم: العادة السرية؛ فقد قال محمد بن عبد الحكم: سمعت حرملة بن عبد العزيز؛ قال: سألت مالكاً عن الرجل يجلد عميرة، فتلا هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْعَادُونَ﴾. وهذا؛ لأنهم يكنون عن الذكر بعميرة، وفيه يقول الشاعر: [البسيط]

إِذَا حَلَلْتَ بِوَادٍ لا أنيسَ لَهُ ... فَاجْلِدْ عُمَيْرَةَ لَا دَاءٌ وَلَا حَرَجُ

فقد أجمع العلماء على تحريمه. وقال بعضهم: إنه كالفاعل بنفسه، وهي معصية أحدثها إبليس حين نزل إلى الأرض، وأجراها بين الناس، وكان الإمام أحمد ـ رضي الله عنه ـ على ورعه يجوزه؛ لأنه فضلة في البدن، يجوز إخراجها لحاجة، كالفصد، والحجامة؛ لكن بشروط ثلاثة: أن يخاف الزنى، وأن يفقد مهر حرة، أو ثمن أمة، وأن يفعله بيده، وبالجملة فإن فعله حرام، ومضر بالصحة كما ثبت طبياً، ولو قام الدليل على جوازه؛ لكان ذو المروءة يعرض عنه لدناءته، ومع هذا فالدليل ضعيف، وهو عار بالرجل الدنيء، فكيف بالرجل الشريف؟ سئل عطاء عنه، فقال: مكروه، سمعت: أن قوماً يحشرون، وأيديهم حَبَالى، فأظن أنهم هؤلاء. وقال سعيد بن جبير ـ رحمه الله تعالى ـ: عذَّب الله أمةً كانوا يعبثون بمذاكيرهم.

وأما المتعة؛ فهي عقد مؤقت يعقده الرجل على امرأة، يحل له زواجها شرعاً بأجر معين مقبوض، فإذا انتهت المدة المتعاقد عليها؛ تخلصتْ منه بدون طلاق؛ لأنها كالمستأجرة، وقد كان للمتعة في التحليل، والتحريم أحوال، فمن ذلك: أنها كانت مباحة، ثم حرمها رسول الله ﷺ في غزوة خيبر، ثم حللها في غزوة فتح مكة، ثم حرمها تحريماً قاطعاً، أما قوله تعالى في سورة (النساء) رقم [٢٣]: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ هذه الآية التي يستدل بها من يبيح المتعة منسوخة بقول النبي ﷺ: «**أيُّهَا الناسُ إني كُنْتُ قَدْ أَمَرْتُكُمْ بالاستمتاع مِنْ هذِهِ النساءِ، ألَا إنَّ اللهَ حرَّمَ هَذَا إلى يومِ الْقِيَامةِ**». مع أن الآية ليست دليلاً قاطعاً للمتعة؛ لأن الاستمتاع بالعقد الدائم أولى بالاعتبار، ولفظ الأجور مراد به المهور التي تدفع للنساء على سبيل العطية، والهدية، والإكرام، كما قال تعالى في سورة (النساء) رقم [٤]: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً...﴾ إلخ. والمتمتع بها عند من يقول بالمتعة لا نفقة لها، وإنما تنفق على نفسها من الأجرة التي تقبضها لقاء التمتع بها.

ويقال: إن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ كان يقول بالمتعة، ويحلها، ثم رجع إلى التحريم حينما بلغه أحاديث النهي، وتأكد من صحتها، ويتعلق من يبيح المتعة بذلك المروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ. ويروى: أن المأمون العباسي أباحها للمجاهدين، وهم بعيدون عن أهليهم، فدخل عليه العالم الجليل يحيى بن أكثم ـ رحمه الله تعالى ـ وهو يرتعد غضباً، فقال المأمون: ما للإمام يشتاط غضباً؟ فقال الإمام العظيم: كيف لا أشتاط غضباً، وقد انتهكت حرمات الله، وأُحِلَّ ما حرم الله ورسوله؟! فقال المأمون: ومن فعل ذلك؟ فقال: أمير المؤمنين فعل ذلك! قال: وكيف كان ذلك؟! قال: ألم تحل المتعة وقد حرمها الله ورسوله إلى يوم القيامة؟ قال المأمون: أليست تحل بعقد شرعي، ومهر، ورضا، واختيار مع رشد، وعقل؟ قال: يا أمير المؤمنين! فالله يقول: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أهي زوجة ترث، وتورث؟ قال: لا. قال: أيلحق الولد بالتمتع بالمرأة، إذا كان بعيداً عن البلد المتمتع بها؟ قال: لا. قال: أهي أمة في ملك اليمين؟ قال: لا. قال: هي إذاً محرمة إذا كانت ليست زوجة بالمعنى الصحيح، ولا أمة بملك اليمين. فرجع المأمون ـ رحمه الله تعالى ـ عن تحليلها، واستغفر الله.

وأخيراً أقول: تأباها المروءة والشرف، فأي: رجل فيه شيء من ذلك، ثم هو يرضى أن يسلم أخته، أو بنته لشخص أياماً معدودة يستمتع بها، ثم هو يردها له، وقد تكون حملت منه بولد؟! ثم ما مصير هذا الولد؟ هل هو لقيط، أو ابن زنى، أو هو ولد شرعي؟ فيجب أن يرث من والده وينتسب إليه، وهل يتأتى هذا في نكاح المتعة؟!

تنبيه: أقول: إنه قد فشا في هذه الأيام زنى بشرف، وفخر، وترضى به المرأة، وهي مرفوعة الرأس، ويقره زوجها، وهو شامخ الأنف، ذلك هو تلقيح المرأة من مادة رجل أجنبي غير زوجها، الذي ثبت عقمه، فهو يقر الدياثة بنفسه ما دام يأخذها بيده إلى طبيب قذر، لا يعرف للمروءة سبيلاً، ولا للشهامة طريقاً، ويكون شريكاً للرجل في الدياثة، والحرمان من جنة النعيم، فقد قال الرسول ﷺ: «**ثلاثةٌ حرَّمَ اللهُ تبارك وتعالى عليهم الجنةَ: مدمنُ الخمر، والعاقُّ لوالديه، والدَّيُّوثُ الذي يُقر في أهلِهِ الخبثَ**». رواه الإمام أحمد، والنسائي عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ.

تنبيه: قد تحرم الزوجة (أي: إتيانها) لعارض حيض، أو نفاس، وقد صرحت به آية البقرة رقم [٢٢٢]: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ...﴾ إلخ. هذا؛ وإجراء (ما) وهي لغير العاقل على الإماء، وهنَّ عاقلات؛ لأنهن ناقصات عقل، ولأنهن يُبَعْنَ، ويُشترين، كالبهائم، كما أطلقت على النساء الحرائر في قوله تعالى في سورة (النساء) [٣]: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ للسبب الأول فقط.

﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ أي: على إتيان أزواجهم، وإمائهم؛ إذا كان الإتيان على وجه أذن فيه الشرع، دون الإتيان في الدبر، أو في حال الحيض، والنفاس، فإنه محظور، فلا يجوز، ومن فعله فإنه ملوم، ومن أتى امرأته الحائض في أول الحيض؛ فيجب عليه أن يتصدق بدينار، ومن أتاها في آخر الحيض؛ فليتصدق بربع دينار. ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أي: المتجاوزون الحد من الحلال إلى الحرام، وذلك مما يوجب الحد على الزاني، واللائط، والتعزيز على إتيان البهيمة، وإتيان المرأة في دبرها، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ هذه الجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ...﴾ إلخ، وإعرابها مثلها بلا فارق. هذا؛ وقال السمين: اللام في ﴿لِفُرُوجِهِمْ﴾ زائدة، وعليه فهو مفعول مقدم لـ: ﴿حَافِظُونَ﴾، فهو منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد، وزيادة اللام هذه على قول السمين، مثل قول ابن هشام بزيادتها في قوله تعالى في سورة (البروج): ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ والآية رقم [١٦] من هذه السورة، ونحو ذلك، وقد سماها ابن هشام لام التقوية. هذا؛ ومثل هذه الآية قوله تعالى في سورة (المؤمنون) رقم [٤]: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾: في تعليقهما أوجه: أحدها: أنهما متعلقان بـ: ﴿حَافِظُونَ﴾ على تضمينه معنى: ممسكون، أو قاصرون. الثاني: أنهما متعلقان بمحذوف حال مستثنى من عموم الأحوال، التقدير: حافظون فروجهم في كل حال؛ إلا في حال إتيانهم أزواجهم، أو إماءَهم. الثالث: أنهما متعلقان بمحذوف يدل عليه: ﴿غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ وكأنه قيل: يلامون إلا على أزواجهم. والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿مَا﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل جر معطوف على ﴿أَزْوَاجِهِمْ﴾. ﴿مَلَكَتْ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث حرف لا محل له. ﴿أَيْمَانُهُمْ﴾: فاعله، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها، والعائد محذوف، التقدير: أو الذي ملكته أيمانهم. ﴿فَإِنَّهُمْ﴾: (الفاء): حرف تعليل. (إنهم): حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿غَيْرُ﴾: خبر (إنَّ)، و﴿غَيْرُ﴾ مضاف، و﴿مَلُومِينَ﴾ مضاف إليه مجرور... إلخ، والجملة الاسمية تعليل لنفي الحرج والمؤاخذة، وهو ما تضمنه الاستثناء.

﴿فَمَنِ﴾: الفاء: حرف استئناف. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿ابْتَغَىٰ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف في محل جزم فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ)، تقديره: «هو». ﴿وَرَاءَ﴾: مفعول به على تفسيره بـ: «سوى»، وظرف مكان متعلق بما قبله على تفسيره بـ: «بعد» ونحوه. وقال الزجاج: التقدير: فمن ابتغى ما بعد ذلك. وعليه: فالمفعول محذوف، و﴿وَرَاءَ﴾ متعلق بمحذوف صلة المفعول المحذوف المقدر بـ: «ما»، و﴿وَرَاءَ﴾ مضاف، و﴿ذَٰلِكَ﴾ اسم إشارة مبني على السكون في محل جر بالإضافة، واللام للبعد، والكاف

حرف خطاب لا محل له. ﴿فَأُولَٰٓئِكَ﴾: (الفاء): واقعة في جواب الشرط. (أولئك): اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب، لا محل له من الإعراب. ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل لا محل له. ﴿ٱلْعَادُونَ﴾: خبر المبتدأ. هذا؛ ويجوز اعتبار الضمير مبتدأ ثانياً و﴿ٱلْعَادُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية هذه في محل رفع خبر المبتدأ الأول، وعلى الوجهين فالجملة الاسمية: (أولئك...) إلخ في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور. والدسوقي يقول: لا محل لها؛ لأنها لم تحل محل المفرد. وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلف فيه، فقيل: هو جملة الشرط. وقيل: جملة الجواب، وقيل: هما معاً وهو المرجح لدى المعاصرين. هذا؛ وإن اعتبرت (مَنْ) اسماً موصولاً؛ فهي مبتدأ، والجملة الفعلية بعده صلته، وخبره الجملة الاسمية: (أولئك...) إلخ، وزيدت الفاء في خبره؛ لأن الموصول يشبه الشرط في العموم. تأمل، وتدبر، وربك أعلم.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾﴾

الشرح: (الأمانات): جمع أمانة، وهي تشمل الودائع، التي يضعها أصحابها عند غيرهم؛ ليحفظوها لهم. وتشمل أيضاً: جميع التكاليف الإلهية، التي كلف الله بها عباده المؤمنين. وتشمل كذلك جميع جوارح الإنسان من عين، وأذن، ويد... إلخ، وتشمل جميع المعاملات من بيع، وشراء... إلخ، وتشمل جميع النعم، التي أنعم الله بها على العبد من ولد، وزوجة... إلخ، لذا كانت مسؤوليتها كبرى أمام رب العالمين، وثقيلة أبَتِ السموات، والأرض، والجبال أن تتحملها. خذ قول العزيز الحكيم في سورة (الأحزاب) رقم [٧٢]: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.

وقد أكد الرسول ﷺ أمر الأمانة، وشدد النكير على من يتساهل فيها، ويخونها. فعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا صَلَاةَ لِمَنْ لَا طَهُورَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا صَلَاةَ لَهُ... إلخ**». رواه الطبراني. وعن علي ـ رضي الله عنه وكرم الله وجهه ـ: قال: كنا جلوسا عند رسول الله ﷺ، فطلع علينا رجلٌ مِنْ أَهْلِ الْعَالِيةِ، فقال: يا رسول اللهِ! أخبرني بأشدِّ شيءٍ في هذَا الدِّينِ، وَأَلْيِنِه؟ فقال: «**أَلْيَنُهُ شهَادَةُ أنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَنَّ محمداً رسولُ اللهِ، وأَشَدُّهُ يَا أَخَا العالِيةِ الأمانَةُ، إنه لا دِينَ لِمَنْ لَا أمانَة له، ولا صلاةَ لَهُ، وَلَا زكاةَ له**». رواه البزار. واعتبر الرسول ﷺ الخيانة في الأمانة من علامات الساعة الصغرى.

فعن عمران بن حصين ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «**خيْرُكُمْ قَرْني، ثُمَّ الذينَ يَلُونَهُمْ، ثم الذين يلُونَهُمْ، ثم يكونُ بعدهمْ قومٌ يشْهدونَ، ولا يُسْتشهَدُونَ، ويخُونون ولا**

يُؤتَمَنون، وَيَنْذُرون ولا يُوفُونَ، ويَظْهَرُ فيهِمُ السِّمَنُ». رواه البخاري، ومسلم، وقال أيضاً ﷺ: «**إذا ضُيِّعَتْ أمتي الأمانةَ؛ فانتظِرِ السَّاعَةَ**».

وقال ﷺ: «**تُحَلُّ عُرَا الإسلامِ عُرْوَةً عُرْوةً، فأول عُرْوَةٍ يَحُلُّونَهَا الحُكْمُ بكتابِ اللهِ وآخرُ عُرْوَةٍ يَحُلُّونَها الصلاةُ**». وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: القتلُ في سبيلِ الله يكفِّر الذنوبَ كُلَّها إلا الأمانةَ. قال: يؤتى بالعبدِ يومَ القيامةِ، وإن قُتِلَ في سبيل اللهِ، فيقالُ: أَدِّ أمانَتَك، فيقولُ: أيْ رَبِّ كيفَ؛ وقد ذهبَتِ الدنيا؟ فيُقالُ: انطلِقُوا بهِ إلى الهاويةِ، فَيُنْطلَقُ بهِ إلى الهاويةِ، وتُمثَّلُ لهُ أمانتُهُ كهَيْئَتها يومَ دُفِعَتْ إليهِ فيراها، فيعرفها، فيهوي في أثرها حتى يُدْرِكَها، فيحملهَا على منكبَيْهِ حتى إذا ظنَّ: أنَّهُ خارجٌ زلتْ عن مَنكِبَيْهِ، فهوَ يَهْوي في أثَرِها أبدَ الآبدين. ثم قال: الصلاةُ أمانةٌ، والوضوءُ أمانةٌ، والوزنُ أمانةٌ، وأشياءُ عدَّدَهَا، وأَشَدُّ ذَلِكَ الْوَدَائِعُ». قال زاذان: فأتيت البراء بن عازب، فقلت: ألا ترى إلى ما قال ابن مسعود؟ قال: كذا، قال: صدق، أما سمعت الله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾. رواه أحمد، والبيهقي موقوفاً على ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ.

هذا؛ وأما العهد؛ فإنه يشمل جميع الوعود، التي يقطعها العبد على نفسه لغيره من الناس، ويشمل جميع العقود التي يعقدها العبد مع غيره، مثل عقد النكاح، ونحوه، وأيضاً الصنائع، والأسرار، وغير ذلك. ولقد أحسن القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ إذ قال: والأمانة، والعهد يجمع كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه، ودنياه قولاً، وفعلاً.

ومعنى ﴿رَٰعُونَ﴾ قائمون بحفظها، ورعايتها، وأصله: راعِيُون، فحذفت الضمة التي على الياء لاستثقالها، ثم حذفت الياء لالتقائها ساكنة مع الواو التي هي علامة الجمع، وهذا في الجمع، كما تحذف من المفرد لالتقائها مع التنوين. هذا؛ ويقرأ: (لأمانتهم) بالإفراد، وقراءة حفص بالجمع. قال مكي بن أبي طالب القيسي: (أمانة) مصدر، وحق المصادر ألا تجمع؛ لأنها كالفعل، يدل على القليل، والكثير من جنسه، ولكنه لما اختلفت أنواع الأمانة لوقوعها على الصلاة، والزكاة، والتطهر، والحج، وغير ذلك من العبادات؛ جاز جمعها؛ لأنها لما اختلفت أنواعها شابهت المفعول به. فجمعت كما يجمع المفعول به. هذا؛ وانظر ما ذكرته بشأن الوعد، والعهد في سورة (الصف) رقم [٣] تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

الإعراب: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: (الواو): حرف عطف. (الذين): اسم موصول مبني على الفتح معطوف على مثله في الآية رقم [٢٣] على جميع الاعتبارات فيه. ﴿هُمْ﴾: ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ﴾: متعلقان بـ: ﴿رَٰعُونَ﴾ بعدهما. وقل في اللام مثل ما رأيت بقوله: ﴿لِفُرُوجِهِمْ﴾. ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾: الواو: حرف عطف. (عهدهم): معطوف على ما قبله، والهاء في محل جر بالإضافة، ﴿رَٰعُونَ﴾: خبر المبتدأ مرفوع، وعلامة رفعه الواو... إلخ، والجملة الاسمية صلة الموصول، لا محل لها.

﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

الشرح: الشهادة من جملة الأمانات، وخصها بالذكر من بينها إبانةً لفضلها؛ لأن في إقامتها إحياء الحقوق وتصحيحها، وفي إهمالها تضييع الحقوق، وإبطالها، وقرئ: (بشهادتهم) و(بشهاداتهم) بالجمع لاختلاف أنواعها، كما في جمع: الأمانة. انتهى. كشاف. هذا؛ وكتمان الشهادة، أي: الامتناع عن أدائها كشهادة الزور، قال تعالى في سورة (البقرة) رقم [٢٨٢]: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾. وعن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ كَتَمَ شهادةً إذا دُعِيَ إِلَيْهَا كَانَ كَمَنْ شَهِدَ بالزُّورِ**». رواه الطبراني في الكبير، والأوسط.

هذا؛ ويؤخذ مما تقدم: أن شهادة الزور وكتمان شهادة الحق سواءٌ في الإثم، وقد قرن الله تعالى شهادة الزور بعبادة الأوثان في الآية رقم [٣٠] من سورة (الحج) فقال جل ذكره: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ وأيده النبي ﷺ، فعن أيمن بن خريم ـ رضي الله عنه ـ: أن النبي ﷺ قام خَطِيباً، فقال: «**أَيُّهَا النَّاسُ عَدَلَتْ شَهادةُ الزُّورِ الإِشراكَ باللهِ، ثم قرأ**: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ...﴾ إلخ». أخرجه الترمذي، وأخرجه أبو داود عن خزيمة بن فاتك بنحوه. وعن أبي بكْرَة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَلا أُنَبِّئُكُمْ بأكبرِ الكبائرِ؟!**». (ثلاثاً) قلنا: بلى يا رسول الله! قال: «**الإِشراكُ بالله، وعُقُوقُ الوالدين، (وَكَانَ مُتكِئاً فجلَسَ فقال)**: «**أَلَا وَقَوْلُ الزورِ، وشهادةُ الزورِ**». فما زال يكررها؛ حتى قلنا: لَيْتَهُ سكت! أخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي. و عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الطيرَ لَتضربُ بمناقِيرِهَا، وتُحركُ أذنابَها مِنْ هوْلِ يَوْمِ القيامة، وَمَا يَتكَلَّمُ بِهِ شاهِدُ الزورِ، ولا تفارِقُ قدماهُ على الأَرْض، حتى يُقذفَ به فِي النارِ**». رواه الطبراني.

الإعراب: ﴿وَالَّذِينَ﴾: الواو: حرف عطف. (الذين): اسم موصول مبني على الفتح معطوف على ما قبله. ﴿هُم﴾: مبتدأ. ﴿بِشَهَٰدَٰتِهِمْ﴾: متعلقان بما بعدهما، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿قَآئِمُونَ﴾: خبر المبتدأ مرفوع، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد، والجملة الاسمية: ﴿هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾ صلة الموصول، لا محل لها، تأمل، وتدبر.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

الشرح: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾: فيراعون شروطها، ويكملون فرائضها، وسننها. وتكرير ذكر الصلاة ووصفهم بها أولاً وآخِراً باعتبارين: للدلالة على فضلها، وإنافتها على غيرها. وفي نظم هذه الصلاة مبالغات لا تخفى. وهي تقديم الضمير، وبناء الجملة عليه،

وتقديم الجار والمجرور على الفعل، وجعل بعض الجمل اسمية مفيدة للدوام والثبات، وبعضها فعلية مفيدة للاستمرار التجددي.

هذا؛ وقال الخازن ـ رحمه الله تعالى ـ: فإن قلت: كيف قال: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ ثم قال: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾؟ قلت: معنى إدامتهم عليها أن يواظبوا على أدائها، وألا يتركوها في وقت من الأوقات، وألا يشتغلوا عنها بغيرها إذا دخل وقتها، والمحافظة عليها ترجع إلى الاهتمام بحالها، وهو أن يأتي بها العبد على أكمل الوجوه. وهذا إنما يحصل بأمور ثلاثة: منها ما هو سابق للصلاة، كاشتغاله بالوضوء، وستر العورة، وإرصاد المكان الطاهر للصلاة، وقصد الجماعة، وتعلق القلب بدخول وقتها، وتفريغه عن الوسواس، والالتفات إلى ما سوى الله عز وجل.

وأما الأمور المقارنة للصلاة؛ فهي: ألا يلتفت في الصلاة يميناً، ولا شمالاً، وأن يكون حاضر القلب في جميعها بالخشوع، والخوف، وإتمام ركوعها، وسجودها. وأما الأمور الخارجة عن الصلاة؛ فهي: أن يحترز عن الرياء، والسمعة خوف أن لا تقبل منه، مع الابتهال، والتضرع إلى الله تعالى في سؤال قبولها، وطلب الثواب. فالمداومة على الصلاة ترجع إلى نفسها، والمحافظة عليها ترجع إلى أحوالها، وهيئاتها.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي: الموصوفون بالصفات المذكورة. ﴿فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾: جديرون بالإكرام في جنات النعيم. هذا؛ وفي صدر سورة (المؤمنون) قوله تعالى بعد ذكر هذه الصفات، أو ما يقاربها: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

خاتمة: قال ابن العربي ـ رحمه الله تعالى ـ: من غريب القرآن: أن هذه الآيات العشر عامة في الرجال والنساء، كسائر ألفاظ القرآن، التي هي محتملة لهم، فإنها عامة فيهم، إلا قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾﴾ فإنما خاطب بها الرجال خاصة دون الزوجات بدليل قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾﴾ وإنما عرف حفظ المرأة فرجها من أدلة أخر، كآيات الإحصان، عموماً وخصوصاً، وغير ذلك من الأدلة.

أقول وهذا شيء نوهت عنه كثيراً، وذكرت: أن المدح، والذم، والترغيب، والترهيب بلفظ المذكر يدخل تحته النساء إلحاقاً؛ إذ ما من شك أن في النساء متقيات، ومؤمنات، وصالحات، وخبيثات، وفاسقات... إلخ، والتعبير بلفظ المذكر، إنما هو من باب تغليب المذكر على المؤنث. خذ قوله تعالى في آخر سورة (التحريم) في مدح مريم على نبينا، وحبيبنا، وعليها، وعلى ابنها ألف صلاة، وألف سلام: ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿وَالَّذِينَ﴾: الواو: حرف عطف. (الذين): معطوف على ما قبله. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ. ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾: متعلقان بما بعدهما، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿يُحَافِظُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون... إلخ، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: «هُمْ يُحافظونَ علَى صَلَاتهِمْ». صلة الموصول، لا محل لها،

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾: متعلقان بمحذوف خبر أول، أو هما متعلقان بما بعدهما. ﴿مُّكۡرَمُونَ﴾: خبر المبتدأ مرفوع، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمة، والجملة الاسمية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ...﴾ إلخ مستأنفة، أو هي في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الضمير، واسم الإشارة، وهي حال مقدرة، انظر أنواع الحال في الآية رقم [١٩].

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ٣٦ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ٣٧﴾

الشرح: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: رسم في المصاحف حرف الجر مفصولاً عن المجرور اتباعاً لرسم مصحف عثمان ـ رضي الله عنه ـ. كما في قوله تعالى في سورة (الكهف) رقم [٤٩]: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ﴾. ﴿قِبَلَكَ﴾: حولك، ونحوك، وجهتك. ﴿مُهۡطِعِينَ﴾: قال الأخفش: مسرعين، ومنه قوله تعالى في سورة (القمر): ﴿مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ...﴾ إلخ، وقوله عز وجل في سورة (إبراهيم) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ...﴾ إلخ رقم [٤٣] قال الشاعر: [الوافر]

بِمَكَّةَ أَهْلُهَا وَلَقَدْ أَرَاهُمْ إِلَيْهِ مُهْطِعِينَ إِلَى السَّمَاعِ

وذكرته في سورة (إبراهيم) وسورة (القمر) كما يلي: [الوافر]

بِدِجْلَةَ دَارُهُمْ وَلَقَدْ أَرَاهُمْ بِدِجْلَةَ مُهْطِعِينَ إِلَى السَّمَاعِ

والمعنى فما بالهم مسرعين مقبلين نحوك مادين أعناقهم، ومديمين النظر إليك متطلعين إليك؟ نزلت في جماعة من الكفار كانوا يجتمعون حول النبي ﷺ يسمعون كلامه، ويستهزئون به، ويكذبونه، فقال الله ـ جل وعلا ـ: ما لهم ينظرون إليك ويجلسون عندك، وهم لا ينتفعون بما يسمعون منك. انتهى خازن. وقال القرطبي: نزلت في جمع من المنافقين المستهزئين كانوا يحضرونه عليه السلام، ولا يؤمنون به. وقول الخازن أولى بالاعتبار؛ لأن السورة مكية، ولم يكن في مكة قبل الهجرة منافقون.

هذا؛ وفي القاموس: هطع، كمنع هطعاً وهطوعاً: أسرع مقبلاً خائفاً، أو أقبل ببصره على الشيء لا يقلع عنه، وأهطع: مد عنقه، وصوب رأسه، كاستهطع، وكأمير: الطريق الواسع، وكمحسن: من ينظر في ذل، وخضوع، لا يقلع بصره، أو الساكت المنطلق إلى من هتف به، وبَعيرٌ مهطع: في عنقه تصويبٌ خِلْقةً. انتهى.

﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ أي: عن يمين النبي ﷺ وشماله حِلَقاً حِلَقاً، وجماعات، فـ: (أل) بدل من الضمير المحذوف؛ إذ التقدير: عن يمينك، وعن شمالك، وهذا مشهور في ضمير

الغيبة، كما في قوله تعالى في سورة (النازعات): ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ و﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ إذ التقدير: هي مأواه. هذا؛ و﴿عِزِينَ﴾ جماعات في تفرقة، قاله أبو عبيدة. ومنه حديث النبي ﷺ: أنه خرج على أصحابه، فرآهم حِلَقاً، فقال: «**مَالِي أرَاكُمْ عِزِينَ؟ ألَا تصفُّونَ كما تصُفُّ الملائكةُ عِند رَبِّهَا؟**». قالوا: وكيف تصُف الملائكة عند ربها؟ قال: «**يُتمُّون الصفوفَ الأُوَلَ، ويتراصُّون في الصَّفِّ**». رواه أحمد، والنسائي، ومسلم عن جابر بن سمرة ـ رضي الله عنه ـ. وقال الشاعر: [الوافر]

تـرانَـا عـنـدهُ، والـلـيـلُ داجٍ ... عـلـى أبـوابِـهِ حِـلَـقـاً عِـزِيـنـا

أي: متفرقين، وقال آخر: [المتقارب]

كـأَنَّ الـجـمَـاجِـمَ مِـنْ وَقْـعِـهَـا ... خَـنَـاطِـيـلُ يـهـويـنَ شـتَّـى عِـزِيـنَـا

الخناطيل: لا واحد لها من جنسها، وهي جماعات من الوحش، والطير. وقال آخر: [الوافر]

فـلـمَّـا أَنْ أَتَـيْـنَ عـلَـى أضَـاخٍ ... ضَـرَحْـنَ حـصـاهُ أشـتـاتـاً عِـزِيـنَـا

أضاخ بالضم: جبل، يذكر، ويؤنث. وقيل: هو موضع في البادية، يصرف ولا يصرف. ومعنى ضرحن: نحين، ودفعن. وقال الكميت: [الوافر]

ونـحـنُ وجَـنْـدَلٌ بـاغٍ تَـرَكْـنَـا ... كـتـائِـبَ جـنْـدَلٍ شَـتَّـى عِـزِيـنَـا

وقال عنترة: [الوافر]

وقِـرْنٍ قـد تـركـتُ لـديَّ مُـلْـقـىً ... عـلـيـهِ الـطـيـرُ كـالـعُـصَـبِ الْـعـزِيـنِ

هذا؛ وواحد ﴿عِزِينَ﴾ عزة: جمع بالواو والنون، أو بالياء والنون، ليكون ذلك عوضاً مما حذف منها؛ إذ أصلها: عزهة، فاعتلت، كما اعتلت «سنة» فيمن جعل أصلها: سنْهَة، ثم حذفت الهاء. قال مكي: وإنما جمع بالواو والنون؛ لأنه مؤنث لا يعقل، ليكون ذلك عوضاً مما حذف منه. وقيل: أصلها: عزوة، من: عزاه، يعزوه: إذا أضافه إلى غيره، فكل واحد من الجماعات مضافة إلى الأخرى. والمحذوف منها الواو. وفي الصحاح: والعزة: الفرقة من الناس، والهاء عوض من الياء، والجمع: عِزىً على: فِعَل، وعزون (بضم العين، وكسرها) ولم يقولوا: عزات، كما قالوا: ثبات. هذا؛ ومثل ﴿عِزِينَ﴾ في المعنى والمفردة والإعلال ﴿عِضِينَ﴾ من قوله تعالى في سورة (الحجر) رقم[٩١]: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ وأيضاً (ثبة) وهي الجماعة من الرجال فوق العشرة، مثل: عزة، وعضة في المعنى، والإعلال، والتصريف فتجمع على ثبين مثل: عزين، وعضين، وقد جاءت (ثبات) بالألف والتاء في قوله تعالى من سورة (النساء) رقم[٧١]: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ وجاءت بالياء والنون في قول عمرو بن كلثوم من معلقته[٥٣]: [الوافر]

فَـأَمَّـا يَـوْمَ خَـشْـيَـتِـنَـا عَـلَـيْـهِـمْ فَـتُـصْـبِـحُ خَـيْـلُـنَـا عُـصُـبـاً ثُـبِـيـنَـا

هذا؛ ومثلهن: قُلَة، وهي خشبة يلعب بها الصبيان، فيقال في جمعها: قُلات، وقُلِين. قال عمرو بن كلثوم من معلقته [١٠٦]: [الوافر]

وَمَـا مَـنَـعَ الـظـعـائِـنَ مِـثْـلُ ضَـرْبٍ تَـرَى مِـنْـهُ الـسَّـوَاعِـدَ كَـالْـقُـلِـيـنَـا

وتصغير الأربعة: عُزَيَّة، وعُضَيَّة، وثُبَيَّة، وقُلَيَّة.

الإعراب: ﴿فَمَالِ﴾: (الفاء): حرف استئناف. (ما): اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. (لِلَّذين): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها، وجملة: ﴿كَفَرُواْ﴾ مع المتعلق المحذوف صلة الموصول، لا محل لها. ﴿قِبَلَكَ﴾: ظرف مكان متعلق بـ: ﴿مُهْطِعِينَ﴾، وأجيز تعليقه بمحذوف حال من واو الجماعة. ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾: متعلقان بمحذوف حال من واو الجماعة. ﴿وَعَنِ ٱلشِّمَالِ﴾: معطوفان على ما قبلهما. ﴿عِزِينَ﴾: حال من واو الجماعة أيضاً. قال الجمل: فالأربعة أحوال من الموصول، واعتبرتها أنا حالاً من واو الجماعة أيضاً، العائدة على الموصول، والمعنى واحد، ثم قال الجمل: ﴿عِزِينَ﴾ حال من ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾. وقيل: حال من الضمير في ﴿مُهْطِعِينَ﴾ فتكون حالاً متداخلة، و﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ يجوز أن يتعلق بـ: ﴿عِزِينَ﴾؛ لأنه بمعنى: متفرقين. قاله أبو البقاء، وأن يتعلق بـ: ﴿مُهْطِعِينَ﴾، وأن يتعلق بمحذوف على أنه حال، أي: «كائنين عن اليمين» قاله أبو البقاء أيضاً. انتهى بتصرف.

﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾﴾

الشرح: قال المفسرون: كان المشركون يتجمعون حول النبي ﷺ، ويستمعون كلامه، فيكذبونه، ويكذبون عليه، ويستهزئون بأصحابه، ويقولون: لئن دخل هؤلاء الجنة؛ لندخلنها قبلهم، ولئن أعطوا منها شيئاً؛ لنعطين أكثر منه، فنزلت الآية. انتهى. قرطبي، وغيره. هذا؛ والطمع: نزوع النفس إلى الشيء، والحرص على حصوله. وهو مذموم؛ إن كان في أمور الدنيا، وصارفاً عن الآخرة. وطمع، يطمع من باب: سلم، يسلم. ويقال: طمع فيه طمعاً، وطماعية، فهو طمِع على وزن: فَعِل. ويقال في التعجب: طَمُع الرجل (بضم الميم) أي: صار كثير الطمع، وامرأة مطماع: تُطْمِعُ ولا تمكن.

الإعراب: ﴿أَيَطْمَعُ﴾: (الهمزة): حرف استفهام إنكاري توبيخي. (يطمع): فعل مضارع. ﴿كُلُّ﴾: فاعله، وهو مضاف، و﴿ٱمْرِيٍٕ﴾ مضاف إليه. ﴿أَن يُدْخَلَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول، ويقرأ بالبناء للمعلوم منصوب بـ: ﴿أَنْ﴾، والفاعل، أو ونائب الفاعل يعود إلى

﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ﴾، و﴿أَن﴾ والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، التقدير: بدخول. والجار والمجرور متعلقان بالفعل (يطمع). ﴿جَنَّةَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿نَعِيمٍ﴾ مضاف إليه، وجملة: ﴿أَيَطْمَعُ...﴾ إلخ مستأنفة، لا محل لها.

﴿كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ إِنَّا لَقَـٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾

الشرح: ﴿كَلَّآ﴾: لا يدخلون جنة النعيم، فهو ردع لهم، وزجر عن طمعهم في دخولها. ﴿إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من الأشياء المستقذرة: من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة. نبه الله الناس على أنهم خلقوا من أصل واحد، وشيء واحد، وإنما يتفاضلون بالمعرفة، ويستوجبون الجنة بالإيمان، والطاعة. روى البغوي بإسناد الثعلبي عن بشر بن جحاش؛ قال: قال رسول الله ﷺ، وبصق يوماً في كفه، ووضع عليها إصبعه: يقولُ اللهُ عز وجلَّ: يا بنَ آدم! أنَّى تعجزني، وقَدْ خلقْتُكَ مِنْ مثلِ هذِهِ، حتَّى إذَا سَوَّيْتُكَ، وعدَّلْتُكَ، ومشيْتَ بيْنَ بردَيْنِ، وَللأَرْضِ منكَ وئيدٌ، فجَمعتَ، ومنعتَ، حتى إذا بلغتِ التراقي؛ قلْتَ: أتصدَّقُ، وأنى أوانُ الصَّدَقَةِ؟! أخرجه ابن الجوزي في تفسيره بلا إسناد. انتهى. خازن.

وقال قتادة في هذه الآية: إنما خُلقت يا بن آدم من قذَرٍ فاتَّقِ الله! وروي: أن مُطَرِّف بن عبد الله ابن الشِّخِّير رأى المهلب بن أبي صفرة يتبختر في حلة، ويمشي الخيلاء، فقال له: يا أبا عبد الله! ما هذه المشية التي يبغضها الله، ورسوله؟ فقال له: أما تعرفني؟ قال: بلى أعرفك، أوَّلُكَ نطفة مذِرة، وآخرك جيفةٌ قذرة، وحشوك فيما بين ذلك بولٌ، وعذرةٌ، ففيم الخيلاء، وعلام التكبر؟! فبهت المهلب، وألقى حلته إلى خادمه. وقال الأحنف بن قيس: عجبت لمن جرى في مجرى البول مرتين كيف يتكبر؟ وخذ قول محمود الْوَرَّاق ـ رحمه الله تعالى ـ: [المنسرح]

عَجِبْتُ مِنْ مُعْجَبٍ بِصُورَتِهِ ... وَكَانَ فِي الأَصْلِ نُطْفَةً مَذِرَهْ
وَهُوَ غداً بَعدَ حُسْنِ صُورَتِهِ ... يَصِيرُ فِي اللَّحْدِ جِيفَةً قَذِرَهْ
وهُوَ عَلَى تِيهِهِ وَنَخْوَتِهِ ... مَا بَيْنَ ثَوْبَيْهِ يحملُ الْعَذِرَهْ

وقال آخر: [البسيط]

هَلْ فِي ابْنِ آدمَ غيرُ الرأسِ مَكْرُمَةٌ؟ ... وَهوَ بخمسٍ من الأوساخِ مضروبُ
أنْفٌ يَسِيلُ وأذْنٌ رِيحُهَا سَهِكٌ ... والعَيْنُ مرمَصَةٌ والثغر ملهوبُ
يا بْنَ الترابِ ومأكولُ الترابِ غَداً ... قَصِّرْ فإنكَ مأكولٌ ومشروبُ

وقيل: معناه: إنا خلقناهم من أجل ما يعلمون، وهو: الأمر، والنهي، والثواب، والعقاب.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾: هذا؛ وقد قال تعالى في سورة (البقرة) رقم [١١٥]: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾ فالمراد بهما: ناحيتا الأرض، وله سبحانه الأرض كلها، لا يختص به مكان، دون مكان، وقال تعالى في سورة (الرحمن) رقم [١٧]: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾ وقال هنا: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ فقد جمع المشرق، والمغرب، كما ترى باعتبار مشارق الشمس، ومغاربها في السنة، وهي ثلاثمئة وخمس وستون كوة في مطلعها، ومثلها في مغربها على عدد أيام السنة الشمسية، تطلع كل يوم في كوة منها، وتغرب في كوة، ولاتطلع، ولا تغرب في تلك الكوة إلا في ذلك اليوم من العام المقبل، قال أمية بن أبي الصلت ـ الذي قال الرسول ﷺ فيه: **«آمَنَ شِعْرُهُ، وَكَفَر قَلْبُهُ»** ـ. [الكامل]

رجلٌ وَثَوْرٌ تحتَ رِجْلِ يمينِهِ ... والنَّسْرُ للأُخْرَى وليثٌ مُرْصَدُ

والشَّمْسُ تَطْلُعُ كُلَّ آخِرِ لَيلةٍ ... حمراءَ يصبحُ لونُهَا يَتَوَرَّدُ

لَيْسَتْ بِطَالِعَةٍ لَهُمْ فِي رِسْلِهَا ... إلَّا مُعَذَّبَةً وَإلَّا تُجْلَدُ

قال عكرمة: قلت لابن عباس: يا مولاي! أتجلد الشمس؟ فقال: إنما اضطره الروي إلى الجلد. لكنها تخاف العقاب. انتهى. قرطبي. وانظر سورة (المزمل) رقم [٩] لشرح المشرق والمغرب.

﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ المعنى: إنا لقادرون على إهلاكهم، وعلى أن نخلق أمثل منهم، وأطوع لنا، وهي كقوله تعالى في سورة (محمد ﷺ) رقم [٣٨]: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾. ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾ أي: لا يفوتنا شيء نريده، ولا يمتنع منا أحد مهما أوتي من القوة، والجاه، والعظمة، والسلطان في الدنيا. أو المعنى: وما نحن بمغلوبين عاجزين عن إهلاكهم، وإبدالهم بأمثالهم. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿كَلَّآ﴾: حرف ردع، وزجر. ﴿إِنَّا﴾: حرف مشبه بالفعل، و(نا): اسمها، حذفت نونها، وبقيت الألف دليلاً عليه. ﴿خَلَقۡنَٰهُم﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية تعليل للردع، والزجر، لا محل لها. ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة فهي مبنية على السكون في محل جر بـ: (مِنْ)، والجملة بعدها صلتها، أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف. التقدير: من الذي، أو شيء يعلمونه. ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾: انظر الآية رقم [٣٨] من سورة (الحاقة)، فالإعراب واحد، لا يتغير. ﴿بِرَبِّ﴾: متعلقان بما قبلهما، و(ربِّ) مضاف، و﴿ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾ مضاف إليه، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿إِنَّا﴾: (إنَّ):

حرف مشبه بالفعل، و(نا): اسمها، ﴿لَقَادِرُونَ﴾: خبر (إنَّ)، واللام هي المزحلقة، والجملة الاسمية جواب القسم، لا محل لها. ﴿عَلَىٰٓ﴾: حرف جر. ﴿أَن نُّبَدِّلَ﴾: مضارع منصوب بـ: ﴿أَن﴾ والفاعل مستتر تقديره: «نحن»، و﴿أَن نُّبَدِّلَ﴾ في تأويل مصدر في محل جر بـ: ﴿عَلَىٰٓ﴾، والجار والمجرور متعلقان بـ: (قادرون). ﴿خَيْرًا﴾: مفعول به. ﴿مِّنْهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: ﴿خَيْرًا﴾. ﴿وَمَا﴾: الواو: واو الحال. (ما): نافية حجازية تعمل عمل «ليس». ﴿نَحْنُ﴾: ضمير منفصل مبني على الضم في محل رفع اسم (ما). ﴿بِمَسْبُوقِينَ﴾: (الباء): حرف جر صلة. (مسبوقين): خبر (ما)، مجرور لفظاً، منصوب محلاً، والجملة الاسمية في محل نصب حال من فاعل ﴿نُّبَدِّلَ﴾ المستتر، والرابط: الواو، والضمير.

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾﴾

الشرح: ﴿فَذَرْهُمْ﴾: اتركهم، وأعرض عنهم. وهذا الفعل ناقص التصرف، لا يأتي منه غير المضارع، والأمر. انظر ما أذكره في سورة (الضحى) إن شاء الله تعالى. ﴿يَخُوضُوا۟﴾: في باطلهم. ﴿وَيَلْعَبُوا۟﴾ في دنياهم. وهذا على جهة الوعيد؛ أي: واشتغل أنت بما أمرت به، ولا يهمنك شركهم. والخطاب للنبي ﷺ، والمراد بضمير الغيبة أهل مكة. ﴿حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ أي: يوعدون يوم القيامة. وهو دليل واضح على أن قولهم محض جهل، واتباع هوىً، وأنهم مطبوع على قلوبهم، معذبون في الآخرة، فما لهم من شفيع ولا ناصر ينصرهم. قيل: إن هذا منسوخ بآية السيف. وقيل: هو محكم، وإنما أخرج مخرج التهديد. هذا؛ والآية مذكورة في سورة (الزخرف) برقم [٨٣] بحروفها، وما يشبهها في سورة (الطور) برقم [٤٥] وانظر سورة (المدثر) رقم [٤٥].

الإعراب: ﴿فَذَرْهُمْ﴾: (الفاء): هي الفصيحة؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر. (ذرهم): فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت»، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية، لا محل لها؛ لأنها جواب شرط يقدر بـ: «ما» التقدير: ما دمنا قادرين على أن نبدل خيراً منهم؛ فذرهم. ﴿يَخُوضُوا۟﴾: فعل مضارع مجزوم لوقوعه جواباً للأمر، والمعنى لا يؤيد تقدير «إن» الشرطية. ﴿وَيَلْعَبُوا۟﴾: معطوف عليه مجزوم مثله، وعلامة جزمهما حذف النون؛ لأنهما من الأفعال الخمسة، والواو فاعلهما، والألف للتفريق. والجملة الأولى لا محل لها؛ لأنها واقعة جواباً للطلب. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف غاية وجر بعدها «أنْ» مضمرة. ﴿يُلَـٰقُوا۟﴾: فعل مضارع منصوب بـ: «أنْ» المضمرة بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، و«أنْ» المضمرة، والفعل ﴿يُلَـٰقُوا۟﴾ في تأويل مصدر في محل جر بـ: ﴿حَتَّىٰ﴾، والجار والمجرور متعلقان بأحد الأفعال الثلاثة على التنازع؛ لأن كل واحد يصلح للتعليق به. ﴿يَوْمَهُمُ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر

بالإضافة. ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب صفة ﴿يَوْمَهُمُ﴾. ﴿يُوعَدُونَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو نائب فاعله، وهو المفعول الأول، والمفعول الثاني محذوف، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد محذوف؛ إذ التقدير: الذي يوعدونه.

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾

الشرح: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي: القبور، جمع جدث، وقرئ بالفاء: (من الأجداف) ذكره الزمخشري، يقال: جدث، وجدف، واللغة الفصيحة الجدث بالثاء، والجمع: أجدث وأجداث. قال المتنخل الهذلي: [الوافر]

عَرَفْتُ بِأَجْدُثٍ فَنِعَافِ عِرْقٍ ... عَلَامَاتٍ كَتَحْبِيرِ النِّمَاطِ

هذا؛ وقد قال تعالى في سورة (يس) رقم [٥١]: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾، وقال في سورة (القمر) رقم [٧]: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾. ﴿سِرَاعًا﴾: مسرعين، جمع سريع، فالمصدر قام مقام «مسرعين» والمصدر لا يثنى، ولا يجمع. وخروجهم من القبور مسرعين إنما هو إجابة للداعي، وهو إسرافيل عليه السلام، وانظر ما ذكرته في سورة (ق) رقم [٤٤] تجد ما يسرك، ويثلج صدرك. ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ﴾: النصب: ما نصب، فعبد من دون الله. وفيه لغات. ضم النون مع سكون الصاد، وفتحها. قال الأعشى من قصيدة مدح بها النبي ﷺ مشهورة، ومسطورة: [الطويل]

وَذَا النُّصُبَ المنصوبَ لا تَنْسُكَنَّهُ ... لِعَافِيَةٍ وَاللهَ رَبَّكَ فَاعْبُدا

وفتح النون مع سكون الصاد، وفتحها، والنُّصب: جمع النَّصب، مثل: رَهْن، ورُهُن، والأنصاب: جمع نُصُب، فهو جمع الجمع. وقيل: النصب، والأنصاب واحد. وقيل: النصب جمع: نصاب، وهو حجر، أو صنم يذبح عليه، ومنه قوله تعالى في سورة (المائدة) رقم [٣]: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾، وقال تعالى في الآية رقم [٩٠] منها أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. هذا؛ والنصب: الشر، والبلاء، ومنه قوله تعالى في سورة (صٓ) رقم [٤١]: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾. ﴿يُوفِضُونَ﴾: يسرعون، والإيفاض: الإسراع. قال الشاعر: [المتقارب]

فَوَارِسُ ذُبْيَانَ تَحْتَ الْحَدِيدِ ... كَالْجِنِّ يُوفِضْنَ مِنْ عَبْقَرِ

وقال الليث: وفضت الإبل، تفض، وفضاً، وأوفضها صاحبها، فالإيفاض متعد، والذي في الآية لازم، يقال: وفض، وأوفض، واستوفض بمعنى: أسرع، ولم يرد هذا اللفظ في غير هذه السورة.

الإعراب: ﴿يَوْمَ﴾: بدل من ﴿يَوْمَهُمُ﴾، أو هو مفعول به لفعل محذوف، التقدير: أعني: يوم، ومثله في سورة (الطور) رقم [٤٦] ﴿يَخْرُجُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون. . إلخ، ويقرأ بالبناء للمعلوم، والمجهول، والواو فاعله، أو نائب فاعله، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿يَوْمَ﴾ إليها. ﴿مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿سِرَاعًا﴾: حال من واو الجماعة. ﴿كَأَنَّهُمْ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمه. ﴿إِلَىٰ نُصُبٍ﴾: متعلقان بما بعدهما. ﴿يُوفِضُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (كأنَّ)، والجملة الاسمية في محل نصب حال ثانية من واو الجماعة، والرابط الضمير فقط، أو من الضمير في (سراعاً) فتكون حالاً متداخلة.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾

الشرح: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾: انظر الآية رقم [٤٣] من سورة (نٓ). ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾: يعني: يوم القيامة الذي كانوا يوعدون في الدنيا، وكانوا لا يصدقونه، ولا يؤمنون به.

الإعراب: ﴿خَٰشِعَةً﴾: حال من واو الجماعة. ﴿أَبْصَٰرُهُمْ﴾: فاعل بـ: ﴿خَٰشِعَةً﴾ وهي سببية، والهاء في محل جر بالإضافة، وينبغي أن تعلم: أن ﴿خَٰشِعَةً﴾ في الأصل صفة ﴿أَبْصَٰرُهُمْ﴾ فلما تقدم النعت المنعوت انتصب، ومثله قوله تعالى في سورة (الأنبياء) رقم [٣]: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾. ﴿تَرْهَقُهُمْ﴾: فعل مضارع، والهاء مفعول به. ﴿ذِلَّةٌ﴾: فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب حال ثانية من واو الجماعة، والرابط: الضمير فقط. ﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة في محل رفع مبتدأ، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب، لا محل له. ﴿ٱلْيَوْمُ﴾: خبره، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿ٱلَّذِى﴾: صفة: ﴿ٱلْيَوْمُ﴾. ﴿كَانُوا۟﴾: ماض ناقص، والواو اسمه. ﴿يُوعَدُونَ﴾: مضارع مبني للمجهول مرفوع، والواو نائب فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب خبر ﴿كَانُوا۟﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد محذوف، التقدير: الذي كانوا يوعدونه.

انتهت سورة (المعارج) بحمد الله وتوفيقه شرحاً وإعراباً.

والحمد لله رب العالمين.

سورة نوح

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة (نوح) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام؛ هي مكية، وهي ثمان وعشرون آيةً، ومئتان، وأربع وعشرون كلمةً، وتسعمئة وتسعة وتسعون حرفاً.

نوح اسمه: السكن. وقيل: عبد الغفار، وسمي نوحاً لكثرة نوحه على نفسه، وهو ابن لملك. وقيل: لامك بن متوشلخ، بن أخنوخ، وهو إدريس النبي، بن يرد، بن مهلايل، بن أنوش، بن قينان، بن شيث، بن آدم. وكان نوح نجاراً، واختلفوا في سبب نوحه، فقيل: لدعوته على قومه بالهلاك. وقيل: لمراجعته ربه في شأن ابنه كنعان. وقيل: لأنه مر بكلب مجذوم، فقال له: أخسأ يا قبيح، فأوحى الله تعالى إليه: أعبتني، أم عبت الكلب؟! وهو أول رسول بعث بشريعة بعد آدم، وأول نذير على الشرك، وأنزل الله عليه عشر صحائف، وفي شريعته حرم الزواج بالأخت، التي لم تكن توءماً مع أخيها كما كان في ذرية آدم قبل نوح، وكان أول من عذبته أمته لردهم دعوته، وأهلك الله أهل الأرض بدعائه، وكان أبا البشر كآدم، على نبينا، وعليهما ألف صلاة، وألف سلام؛ حيث عم الطوفان الأرض، ولم يبق بشر بعده إلا الذين حملوا في السفينة، وكان أطول الأنبياء عمراً، عمّر ألفاً وخمسين سنة. وقيل: أكثر، لم تنقص قوته، ولم يشب، ولم تسقط له سن، وصبر على أذى قومه طول عمره، حتى أذن الله له في الدعاء عليهم، حيث قال: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ رقم [٣٦] من سورة (هود) وكان أبواه مؤمنين بدليل دعوته لهما بالمغفرة في الآية الأخيرة من هذه السورة، وكانت ولادته بعد مضي ألف وستمائة واثنتين وأربعين سنة من هبوط آدم من الجنة إلى الأرض، وكان مولده بعد وفاة آدم بمئة وستة وعشرين عاماً، قاله الجرجاوي في إعرابه لشواهد ابن عقيل. وهو غير مسلم له.

فقد روى البخاري عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنه قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام. وروى ابن حبان في صحيحه عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ: أن رجلاً قال: يا رسول الله! أنبي كان آدم؟ قال: «**نعَمْ مُكَلَّم**». قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: «**عشرةُ قرونٍ**». انتهى «النبوة والأنبياء للصابوني».

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١﴾

الشرح: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا﴾: بعثنا نوحاً رسولاً إلى قومه. هذا؛ وقوم: اسم جمع لا واحد له من لفظه، مثل: نفر، ورهط، ومعشر. . .إلخ، فإن المفرد لهذه الأسماء إنما هو: رجل، وجمعها: أقوام، وأراهط، ومعاشر. هذا؛ وقوم يطلق على الرجال دون النساء بدليل قوله تعالى في سورة (الحجرات) رقم [١١]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾. وقال زهير بن أبي سلمى المزني: [الوافر]

وَمَـــا أَدْرِي وَسَـــوْفَ إِخَـــالُ أَدْرِي ... أَقَـــوْمٌ آلُ حِـــصْـــنٍ أَمْ نِـــسَـــاءُ؟

وربما دخل فيه النساء على سبيل التبع للرجال، مثل هذه الآية؛ لأن إرسال الرسل لأقوامهم يعم الرجال، والنساء، وإن كل لفظ (قوم) في القرآن، إنما يراد به الرجال، والنساء، وهو يذكر، ويؤنث. قال تعالى في غير ما آية: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ وتأنيثه باعتبار المعنى، وهو: أنهم أمة، وطائفة، وجماعة، وسموا قوماً؛ لأنهم يقومون مع داعيهم بالشدائد، والمتاعب، إما بالمعاونة على كشفها، وإما بالمضايقة والإيذاء إن عارضوه، وهذا حال أعداء الخير، والإصلاح في كل زمان ومكان.

﴿أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ﴾: خوفهم عقاب الله، وانتقامه منهم؛ إن هم أصروا على الكفر.

﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾: عذاب الآخرة، أو الطوفان، فكان يدعو قومه، وينذرهم، فلا يرى منهم مجيباً، وكانوا يضربونه؛ حتى يغشى عليه، فيقول: «**اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون**».

هذا؛ وأتى، يأتي يستعمل لازماً، إن كان بمعنى: حضر، وأقبل، مثل قولك: حضر زيد، وقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾. ويستعمل متعدياً إن كان بمعنى: وصل، وبلغ، وهو ما في الآية الكريمة، ومثلها كثير، ومثل أتى: جاء في التعدي واللزوم، فمن المتعدي قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾، ومن اللازم قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾.

هذا؛ و﴿عَذَابٌ﴾ اسم مصدر لا مصدر؛ لأن المصدر: تعذيب؛ لأنه من: عذب، يعذب بتشديد الذال فيهما. وقيل: هو مصدر على حذف الزوائد، ومثله: سلام، وعطاء، ونبات لـ: سلّم، وأعطى، وأنبت.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا﴾ فإن ظاهره يفيد الجمع، أو الجماعة، وهذا التعبير كثير في كتاب الله، فقد قال ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه: (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح): قوله تعالى: «جعلنا، وهبنا، نحن، إنا». لفظ يقع في جميع اللغات على من له شركاء، وأمثال، وعلى الواحد المطاع، الذي له أعوان يطيعونه؛ وإن لم يكونوا له شركاء، ولا

نظراء، والله تعالى خلق كل ما سواه، فيمتنع أن يكون له شريك، أو مثل، والملائكة، وسائر العالمين جنوده، فإذا كان الواحد من الملوك يقول: فعلْنا، وإنا، ونحْن. . .إلخ، ولا يريدون أنهم ثلاثة ملوك؛ فمالك الملك رب العالمين، ورب كل شيء ومليكه هو أحق أن يقول: فعلنا، ونحن، وإنا. . .إلخ، مع أنه ليس له شريك، ولا مثل، بل له جنود السموات والأرض.

أقول: و(نا) هذه تسمى نون العظمة، وليست دالة على الجماعة، كما يزعم الملحدون والكافرون، فالله لا شريك له في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وكثيراً ما يتكلم بها العبد، ذكراً كان، أو أنثى، فيقول: أخذنا، وأعطينا. . .إلخ، وليس معه أحد، والغاية من هذا الكلام الرد على النصارى الذين يدخلون الشبهة على السذج من المسلمين بأن الإله ثلاثة أقانيم: الأب، والابن، وروح القدس، ويدعمون شبهتهم هذه بالألفاظ الموجودة في القرآن، والتي ظاهرها يفيد الجمع. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿إِنَّآ﴾: حرف مشبه بالفعل، و(نا): اسمه، حذفت نونها، وبقيت الألف دليلاً عليها. ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية. ﴿إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من ﴿نُوحًا﴾، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿أَنۡ﴾: حرف تفسير. ﴿أَنذِرۡ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر وجوباً، تقديره: «أنت»، والجملة الفعلية مفسرة للإرسال، لا محل لها. هذا؛ وإن اعتبرت ﴿أَنۡ﴾ مصدرية فتؤول مع الفعل بعدها بمصدر في محل جر بحرف جر محذوف، التقدير: بالإنذار، والجار والمجرور متعلقان بالفعل ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾. ﴿قَوۡمَكَ﴾: مفعول به، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿مِن قَبۡلِ﴾: متعلقان بالفعل ﴿أَنذِرۡ﴾. ﴿أَن يَأۡتِيَهُمۡ﴾: فعل مضارع منصوب بـ: ﴿أَنۡ﴾، والهاء مفعول به. ﴿عَذَابٌ﴾: فاعله. ﴿أَلِيمٞ﴾: صفة ﴿عَذَابٌ﴾، و﴿أَنۡ﴾ والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر بإضافة ﴿قَبۡلِ﴾ إليه.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤﴾﴾

الشرح: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾: أضافهم إلى نفسه، إظهاراً للشفقة، وفي سورة (الشعراء) رقم [١٠٦]: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ﴾؛ لأنه كان مولوداً فيهم. ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ أي: بين الإنذار، موضح لحقيقة الأمر، أنذركم، وأخوفكم عقاب الله وانتقامه، فأمري واضح، ودعوتي ظاهرة، وقد ذكرت لك أن نوحاً ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ أول نبي أرسل بشريعة. ويقال له: شيخ المرسلين؛ لأنه أطولهم عمراً، فقد مكث في قومه كما قص علينا القرآن الكريم:

﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ رقم [١٤] من سورة (العنكبوت) يدعو قومه إلى الله، ومع طول هذه المدة لم يؤمن معه إلا قليل، كما قص علينا القرآن الكريم: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ رقم [٤٠] من سورة (هود) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام، وقد أفرد القرآن الكريم قصته في هذه السورة من بدء الدعوة إلى نهايتها، حيث أهلك الله قومه بالطوفان، وهو أحد الرسل العظام من أولي العزم، وهم خمسة: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلوات الله، وسلامه عليهم أجمعين.

﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾: أمر بعبادة الله، وتقواه، وطاعته، أما العبادة؛ فهي غاية الخضوع، والتذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال، وهو الله تعالى،ولذا يحرم السجود لغير الله تعالى. هذا؛ وقيل: العبودية أربعة: الوفاء بالعهود، والرضا بالموجود، والحفظ للحدود، والصبر على المفقود.

هذا؛ والله علم على الذات الواجب الوجود، المستحق لجميع المحامد، وهو اسم الله الأعظم، الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى. وإنما تخلفت الإجابة في بعض الأحيان عند الدعاء به؛ لتخلف شروط الإجابة؛ التي أعظمها أكل الحلال. ولم يسم به أحد سواه، قال تعالى في سورة (مريم) رقم [٦٥]: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ أي: هل أحد تسمى الله غير الله؟! وقد ذكر في القرآن الكريم في ألفين وثلاثمائة وستين موضعاً.

(اتقوه): خافوا عقابه، وانتقامه. هذا؛ والتقوى حفظ النفس من العذاب الأخروي بامتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه؛ لأن أصل المادة من الوقاية، وهي الحفظ، والتحرز من المهالك في الدنيا والآخرة، وانظر ما ذكرته في الآية رقم [١٣] من سورة (الحجرات) تجد ما يسرك، ويثلج صدرك. ﴿وَأَطِيعُونِ﴾: فيما آمركم به، وأنهاكم عنه، فإني رسول الله إليكم، وإنما أضافها إلى نفسه؛ لأن الطاعة قد تكون لغير الله تعالى بخلاف العبادة، فإنها لا تكون إلا لله عز وجل.

﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: جميع ذنوبكم على اعتبار ﴿مِّن﴾ صلة في الإيجاب، وهذا يجيزه الأخفش. وقيل: لا يصح اعتبارها صلة، وهي هنا للتبعيض، وهو بعض الذنوب، وهو ما لا يتعلق بحقوق المخلوقين. وقيل: هي على أصلها، وذلك أن الله يغفر من الذنوب ما كان قبل الإسلام، فإذا أسلموا، وانقادوا لشريعة نوح عليه السلام جرت عليهم أحكام شريعته. ومثل هذه الآية الآية رقم [٣١] من سورة (الأحقاف)، انظرها هناك تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: أي: ينسىء في أعماركم، ومعناه أن الله تعالى كان قد قضى قبل خلقهم: أنهم إن آمنوا؛ بارك في أعمارهم، وإن لم يؤمنوا؛ عوجلوا بالعذاب، والعقاب. أقول: فيكون هذا من القضاء المعلق. انظر ما ذكرته في سورة (الرعد) رقم [٤١] ويشير له هلاك الكافرين منهم بالغرق، ونجاة المؤمنين منهم بواسطة

السفينة، وبقاؤهم إلى انتهاء آجالهم، وهو ما وقع، وحصل. وقال مقاتل: يؤخركم إلى منتهى آجالكم في عافية، فلا يعاقبكم بالقحط، وغيره، فالمعنى على هذا يؤخركم من العقوبات، والشدائد إلى انتهاء آجالكم. وعلى هذا قيل: ﴿أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ عندكم تعرفونه، لا يميتكم غرقاً، ولا حرقاً، ولا قتْلاً. ذكره الفراء، وعلى القول الأول: ﴿أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ عند الله.

﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ أي: الأجل الذي قدره، وقضاه. ﴿إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ أي: إذا جاء الأجل المقدر عند الله لا يؤخر، فبادروا بالإيمان قبل الموت؛ تسلموا من العذاب. قال الزمخشري: فإن قلت: كيف قال: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ﴾ مع الإخبار بامتناع تأخير الأجل، وهل هذا إلا تناقض؟ قلت: قضى مثلاً: أن قوم نوح إن آمنوا؛ عمرهم ألف سنة، وإن بقوا على كفرهم؛ أهلكهم الله على رأس تسعمائة سنة، فقيل لهم: آمنوا يؤخركم إلى أجل مسمى، أي: إلى وقت سماه الله، وضربه أمداً تنتهون إليه، لا تتجاوزونه، وهو الوقت الأطول تمام الألف، ثم أخبر: أنه إذا جاء ذلك الأجل لا يؤخر، كما يؤخر هذا الوقت، ولم تكن لكم حيلة، فبادروا في أوقات الإمهال والتأخير عنكم، وحيث يمكنكم الإيمان. انتهى.

تنبيه: قال تعالى هنا: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ ومثله في سورة (النحل) رقم [٦١] وغيرها كثير، وقال تعالى في كثير من السور: ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ فإن قلت: أهو من تعاقب الحرفين؟ قلت: كلَّا، ولا يسلك هذه الطريقة إلا بليد الطبع، ضيق العطن، ولكنَّ المعنيين؛ أعني الانتهاء، والاختصاص كل منهما ملائم لصحة الغرض؛ لأن قولك: «يجري إلى أجل مسمى» معناه: يبلغه، وينتهي إليه. وقولك: «يجري لأجل مسمَّى» تريد: لإدراك أجل مسمَّى، وتجعل الجري مختصاً بآخر الشهر، فكِلَا الموضعين غير نابٍ به موضعه، انتهى. كشاف في غير هذا الموضع.

الإعراب: ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (نوح)، تقديره: «هو». (يا): أداة نداء تقوم مقام أدعو. (قوم): منادى منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف، والياء المحذوفة في محل جر بالإضافة، وحذف الياء هذه إنما هو بالنداء خاصة؛ لأنه لا لبس فيه، ومنهم من يثبت الياء ساكنة، فيقول: (يا قَوْمِي)، ومنهم من يثبتها ويحركها بالفتحة، فيقول: (يا قَوْمِيَ)، ومنهم من يقلبها ألفاً بعد فتح ما قبلها، فيقول: (يا قوْمَا)، ومنهم من يحذف الياء بعد قلبها ألفاً، وإبقاء الفتحة على الميم دليلاً عليها، فيقول: (يا قومَ). قال ابن مالك ـ رحمه الله تعالى ـ في ألفيته: [الرجز]

وَاجْعَلْ مُنَادىً صَحَّ إِنْ يُضَفْ لِيَا ... كَعَبْدِ عَبْدِي عَبْدَ عَبْدَا عَبْدِيَا

ويزاد سادسة، وهي لفظ القطع (يا قومُ) بضم الميم، ففي الحديث الشريف، «يقول: يا رَبُّ، يا رَبُّ». وقرئ في سورة (يوسف) على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: (قالَ رَبُّ السِجْنُ أحبُّ إليَّ) رقم [٣٣]. ﴿إِنِّي﴾: حرف مشبه بالفعل، وياء المتكلم ضمير متصل

في محل نصب اسمها. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: ﴿نَذِيرٌ﴾ بعدهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال منه، كان صفةً له، فلما قدم عليه صار حالاً على القاعدة: «نعت النكرة إذا تقدم عليها صار حالاً». ﴿نَذِيرٌ﴾: خبر (إنَّ). ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة ﴿نَذِيرٌ﴾، والكلام كله في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ...﴾ إلخ مستأنفة.

﴿أَنِ﴾: حرف تفسير. ﴿ٱعْبُدُواْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون لاتصاله بواو الجماعة، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿ٱللَّهَ﴾: منصوب على التعظيم، والجملة الفعلية تفسير للإنذار، لا محل لها، وإن اعتبرت ﴿أَنِ﴾ مصدرية تؤول مع الفعل بعدها بمصدر في محل جر بحرف جر محذوف، التقدير: بالعبادة، والجار والمجرور متعلقان بـ: ﴿نَذِيرٌ﴾، والأول أقوى معنى. ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾: الواو: حرف عطف. (اتقوه): فعل أمر، وفاعله، ومفعوله. ﴿وَأَطِيعُونِ﴾: الواو: حرف عطف. (أطيعون): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والنون للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة في محل نصب مفعول به، والفعلان: (اتقوا) و(أطيعوا) معطوفان على ﴿ٱعْبُدُواْ﴾ على الوجهين المعتبرين فيه.

﴿يَغْفِرْ﴾: فعل مضارع مجزوم لوقوعه جواباً للأمر، وهو عند الجمهور مجزوم بشرط محذوف، التقدير: إن تعبدوا، وتتقوا، وتطيعوا؛ يغفر، والفاعل يعود إلى (الله)، تقديره: «هو»، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جواب للطلب. ﴿لَكُم﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محل مفعول به؛ إذ التقدير: يغفر لكم بعض ذنوبكم، وإن اعتبرت الباء صلة فـ: ﴿ذُنُوبِكُمْ﴾ مجرور لفظاً منصوب محلاً، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ﴾: معطوف على ما قبله، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهَ﴾، والكاف مفعول به. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال، أو بمحذوف صفة مفعول مطلق محذوف، التقدير: يؤخركم تأخيراً ممتداً إلى أجل. ﴿مُّسَمًّى﴾: صفة ﴿أَجَلٍ﴾ مجرور مثله، وعلامة جره كسرة مقدرة على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين، والألف الثابتة دليل عليها، وليست عينها.

﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿أَجَلَ﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾، وهو مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك، مبني على السكون في محل نصب. ﴿جَآءَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿أَجَلَ ٱللَّهِ﴾، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على المشهور المرجوح. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُؤَخَّرُ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول، ونائب الفاعل يعود إلى ﴿أَجَلَ ٱللَّهِ﴾، والجملة الفعلية جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها، و﴿إِذَا﴾ ومدخولها في محل رفع خبر ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة، ومفيدة للتعليل لا محل لها. ﴿لَوْ﴾: حرف لما كان سيقع لوقوع غيره. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون، والتاء اسمها، والجملة الفعلية بعدها في محل نصب خبرها، وجملة: ﴿كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لا محل

لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال؛ لأنها جملة شرط غير ظرفي، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف، التقدير: لو كنتم تعلمون لآمنتم، ولو ومدخولها كلام معترض في آخر الآية، وهو من جملة مقول القول.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِيَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾﴾

الشرح: ﴿قَالَ﴾ أي: نوح. ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾: إلى الإيمان بك، والإقرار بوحدانيتك، والاعتراف بألوهيتك. ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾: دائباً بلا فتور؛ سراً، وجهراً، ولا تنس الطباق بين ﴿لَيْلًا﴾ و(نهاراً). ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِيَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي: تباعداً من الإيمان كما قال تعالى في سورة (المدثر): ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾، ونسب ذلك إلى دعائه لحصوله عنده، وإن لم يكن الدعاء سبباً للفرار في الحقيقة، وهو كقوله تعالى في سورة (التوبة) رقم [١٢٥]: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ والقرآن لا يكون سبباً لزيادة الرجس.

هذا؛ وزاد، يزيد: ضد نقص، ينقص، يكون لازماً، كقولك: زاد المال درهماً، ويكون متعدياً لمفعولين كما في الآية الكريمة. وقولك: زاد الله خالداً خيراً، بمعنى جزاه الله خيراً، وأما قولك: زاد المال درهماً، والبر مداً، فدرهماً، ومداً تمييز. ومثله قل في: نقص، فمن المتعدي لمفعولين قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾.

أما (الليل) فهو واحد بمعنى الجمع، واحدته: ليلة، مثل: تمر، وتمرة، وقد جمع على: ليالٍ، فزادوا فيه الياء على غير قياس، ونظيره: أهل، وأهال. والليل الشرعي من غروب الشمس إلى طلوع الفجر الصادق، وهو أحد قولين في اللغة، والقول الآخر: من غروبها إلى طلوعها. هذا؛ والنهار ضد الليل، وهو لا يجمع كما لا يجمع العذاب، والسراب، فإن جمعته قلت في الكثير: نُهُر بضمتين كسحاب وسُحُب، وأنشد ابن كيسان: [الرجز]

لَوْلَا الثَّرِيدَانِ لَمُتْنَا بِالضُّمُرْ ثريدُ ليلٍ وثريدٌ بالنُّهُرْ

وفي القليل: أَنْهُر، والنهار: من طلوع الشمس، أو من طلوع الفجر على ما تقدم في نهاية الليل إلى غروب الشمس، وقد يطلق عليهما اسم: اليوم، كما ستعرفه في الآية رقم [٩] من سورة (المدثر). هذا؛ والنسبة إلى النهار: نهاريّ، كما تجيء النسبة إليه على صيغة فَعِل فتستعمل للنسب. ويستغنى بها عن يائه، فيقال: نَهِر، ومنه قول الشاعر، وهو من شواهد ابن عقيل على ألفية ابن مالك ـ رحمه الله تعالى ـ: [الرجز]

لَسْتُ بِلَيْلِيٍّ ولكِنِّي نَهِرْ لَا أُدْلِجُ اللَّيْلَ ولكِنْ أَبْتَكِرْ

هذا؛ والليل يطلق على الحبارى، أو على فرخها، وفرخ الكروان، والنهار يطلق على فرخ القطا. انتهى. قاموس، وقد ألغز بعضهم بقوله: [الوافر]

إذا شهرُ الصيامِ إليكَ وافى فكُلْ ما شئتَ ليلاً أو نهارا

الإعراب: ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (نوح)، تقديره: «هو». ﴿رَبِّ﴾: منادى حذف منه أداة النداء منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف، وانظر إعراب ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ في الآية رقم [٢] فهو مثله. ﴿إِنِّي﴾: حرف مشبه بالفعل، وياء المتكلم في محل نصب اسمها. ﴿دَعَوۡتُ﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ). ﴿قَوۡمِي﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة، والياء ضمير متصل في محل جر بالإضافة. ﴿لَيۡلٗا﴾: ظرف زمان متعلق بالفعل قبله. ﴿وَنَهَارٗا﴾: معطوف عليه. ﴿فَلَمۡ﴾: الفاء: حرف عطف. (لم): حرف نفي وقلب وجزم. ﴿يَزِدۡهُمۡ﴾: فعل مضارع مجزوم بلم، والهاء مفعول به أول. ﴿دُعَآءِيٓ﴾: فاعل مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم. . إلخ. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿فِرَارٗا﴾: مفعول به ثان، وفي الأصل مستثنىً بـ: ﴿إِلَّا﴾، والمفعول الأول محذوف، التقدير: فلم يزدهم دعائي شيئاً إلا فراراً، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿دَعَوۡتُ...﴾ إلخ فهي في محل رفع مثلها، والكلام: ﴿رَبِّ إِنِّي...﴾ إلخ في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي...﴾ إلخ مستأنفة، لا محل لها.

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ٧﴾

الشرح: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ﴾: للإيمان بك. ﴿لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ﴾ أي: ليتوبوا عن كفرهم، فتغفر لهم، فذكر المسبِّب الذي هو حظهم خالصاً، وهو المغفرة للذنوب، ورضاء علام الغيوب؛ ليفوزوا بجنات النعيم. ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ أي: سدوا آذانهم بأصابعهم؛ لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه. والمراد رؤوس الأصابع؛ لأن الأصابع لا توضع كاملة، فهو من إطلاق الكل وإرادة الجزء، وهذا يسمى المجاز المرسل في علم البيان، ومثله قوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [١٩]: ﴿يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾. ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾ أي: غطوا رؤوسهم بثيابهم، وسدوا آذانهم؛ لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه، أو لئلا يروني، والظاهر: أن ذلك حقيقة، فقد سدوا مسامعهم؛ حتى لا يسمعوا ما دعاهم إليه، وتغطوا بثيابهم؛ حتى لا ينظروا إليه، كراهةً وبغضاً من سماع النصح، ورؤية الناصح. ويجوز أن يكون ذلك كناية عن المبالغة في إعراضهم عما دعاهم إليه، فهم بمنزلة من سد سمعه، ومنع بصره. ﴿وَأَصَرُّواْ﴾ أي: استمروا على الكفر، والطغيان، والفساد. قال الزمخشري ـ رحمه الله تعالى ـ: الإصرار: من أصر الحمار على العانة، إذا أصر أذنيه، وأقبل عليها يكدمها، ويطردها. استعير للإقبال على المعاصي، والإكباب عليها. ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ أي: أعرضوا عن الإيمان، واستنكفوا عن اتباع الحق، والانقياد له، وذكر المصدر تأكيد ودلالة على فرط عنادهم، وعتوهم، واستكبارهم.

فائدة: ذكرت الأصابع بلفظ الجمع هنا وفي سورة (البقرة) رقم [١٩] ولم تذكر بلفظ المفرد أبداً في القرآن الكريم، وذكرت الأنامل بلفظ الجمع في سورة (آل عمران) رقم [١١٩] ولم تذكر بلفظ المفرد أبداً، والأنملة: رأس الأصبع، وفي مفردهما تسع لغات: تثليث همزتهما، وتثليث ميم أنملة، وتثليث باء أصبع، وتزيد أصبوعاً، وقد نظم ذلك بعضهم بقوله: [البسيط]

يَا إصبعٍ ثَلِّثاً مَعْ ميمِ أنملةٍ وَثَلِّثِ الْهَمْزَ أَيْضاً وَارْوِ أُصْبُوعَا

﴿ثِيَابَهُمْ﴾: جمع ثوب، والقياس: ثِوَابهم، فقلبت الواو ياءً لمناسبة الكسرة قبلها، ومثله: حوْض، وحِياض، ودار، وديار، وريح، ورياح. ومثل ذلك مصدر الفعل الأجوف الواوي، مثل: صِيام، وقِيام، والأصل: صِوام، وقِوام، فقد ذكر السيوطي ـ رحمه الله تعالى ـ في «همع الهوامع» في باب الإبدال ما يلي:

تبدل الياء بعد كسرة من واو، هي عين مصدر لفعل معل العين، موزون بفعال، نحو قام قِياماً، وعاد عِياداً بخلاف عين غير المصدر، كصِوان، وسِوان، والمصدر المفتوح أوله، كرَواح، أو المضموم، كقُوار، أو المكسور الذي لم تعل عين فعله، كـ: لَاوَذ لِواذاً، وعاود، عِواداً، أو الموزون بـ: (فَعَل) كالحَول، وتبدل أيضاً بعد كسرة من واو هي عين جمع لواحد ساكن العين، أو معتلها، صحيح اللام، موزون بفِعال، كثوب، وثِياب، وحوض، وحِياض، ودار، ودِيار، وريح، ورِياح بخلاف عين المفرد. انتهى.

الإعراب: ﴿وَإِنِّي﴾: الواو: حرف عطف. (إني): حرف مشبه بالفعل، والياء اسمها ﴿كُلَّمَا﴾ يعربها المعاصرون أداة شرط غير جازمة، وتفصيل إعرابها كما يلي. (كل): ظرفية متعلقة بجوابها؛ إذ هي تحتاج إلى جملتين مرتبطتين ببعضهما ارتباط فعل الشرط بجوابه. (ما): مصدرية توقيتية. ﴿دَعَوْتُهُمْ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، و(ما) والفعل: دعا في تأويل مصدر في محل جر بإضافة (كل) إليه، التقدير: كل وقت دعوة، وهذا التقدير، وهذه الإضافة هما اللذان سببا الظرفية لـ: (كل)، انظر مبحث: «كلما» في كتابنا: «فتح القريب المجيب». وقيل: (ما) نكرة موصوفة، والجملة الفعلية بعدها صفة لها، وهي بمعنى وقت أيضاً. ﴿لِتَغْفِرَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ: «أن» مضمرة بعد لام التعليل، والفاعل مستتر تقديره: «أنت»، و«أن» المضمرة، والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر باللام، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿جَعَلُوٓاْ﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية جواب ﴿كُلَّمَا﴾ لا محل لها، و﴿كُلَّمَا﴾ ومدخولها في محل رفع خبر (إن)، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب مقول القول مثلها. ﴿أَصَٰبِعَهُمْ﴾: مفعول به. ﴿فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محل نصب مفعوله الثاني، أو هما متعلقان بمحذوف حال من: ﴿أَصَٰبِعَهُمْ﴾، والهاء فيهما في محل جر بالإضافة. ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ﴾: الواو: حرف عطف. (استغشوا): ماض مبني على

فتح مقدر على الألف المحذوفة لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة، التي هي فاعله، والألف للتفريق. ﴿ثِيَابَهُمْ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية معطوفة على جواب ﴿كُلَّمَا﴾، لا محل لها مثلها، وأيضاً الجملتان: (أصروا) و(استكبروا) معطوفتان عليها، ومتعلق الفعلين محذوف كما رأيت في الشرح. ﴿اسْتِكْبَارًا﴾: مفعول مطلق.

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾

الشرح: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ﴾: إلى الإيمان بك وحدك. ﴿جِهَارًا﴾ أي: مجاهراً بدعوتي لهم دون خوف، أو تحفظ. ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ﴾ أي: كررت لهم الدعاء معلناً. ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يريد الرجل بعد الرجل، أكلمه سراً بيني وبينه، أدعوه إلى عبادتك، وتوحيدك، ولا تنس الطباق بين ﴿جِهَارًا﴾ و﴿إِسْرَارًا﴾.

قال الزمخشري ـ رحمه الله تعالى ـ: فإن قلت: ذكر: أنه دعاهم ليلاً، ونهاراً، ثم دعاهم جهاراً، ثم دعاهم في السر والعلن، فيجب أن تكون ثلاث دعوات مختلفات حتى يصح العطف، قلت: فعل عليه الصلاة والسلام، كما يفعل الذي يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر في الابتداء بالأهون، والترقي في الأشد، فالأشد، فافتتح بالمناصحة في السر، فلما لم يقبلوا؛ ثنى بالمجاهرة، فلما لم تؤثر؛ ثلث بالجمع بين الإسرار، والإعلان. ومعنى ﴿ثُمَّ﴾ الدلالة على تباعد الأحوال؛ لأن الجهار أغلظ من الإسرار، والجمع بين الأمرين أغلظ من إفراد أحدهما. انتهى. كشاف، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه، وخذ قول الفرزدق، وهو الشاهد رقم [٢٩] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الطويل]

أَتَغْضَبُ أَنْ أُذْنَا قُتَيْبَةَ حُزَّتَا ... جِهَاراً وَلَمْ تَغْضَبْ لِقَتْلِ ابْنِ خَازِمِ؟

وأيضاً قول الآخر، وهو الشاهد رقم [٦٢٤] من الكتاب المذكور: [الطويل]

إِذَا كُنْتَ تُرْضِيهِ وَيُرْضِيكَ صاحِبٌ ... جِهَاراً فَكُنْ فِي الْغَيْبِ أَحْفَظَ لِلْوُدِّ

الإعراب: ﴿إِنِّي﴾: حرف مشبه بالفعل، وياء المتكلم اسمها. ﴿دَعَوْتُهُمْ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب مقول القول أيضاً. ﴿جِهَارًا﴾: فيه أوجه يجوز أن يكون مفعولاً مطلقاً؛ لأن الدعاء يكون جهاراً، وغيره، أي: عامله من غير لفظه من باب قعد القرفصاء، وأن يكون المراد بـ: ﴿دَعَوْتُهُمْ﴾ جاهرتهم، ويجوز أن يكون نعت مصدر محذوف، أي: دعاءً جهاراً، فـ: «دعاءً» مفعول مطلق، و﴿جِهَارًا﴾ صفة له. وأن يكون مصدراً في موضع الحال، أي: مجاهراً، أو ذا جهار، وجعل نفس المصدر مبالغة. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿إِنِّي﴾: حرف مشبه بالفعل، والياء

اسمها. ﴿أَعْلَنتُ﴾: فعل، وفاعل. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ)، والتي بعدها معطوفة عليها، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب مقول القول أيضاً. ﴿إِسْرَارًا﴾: مفعول مطلق.

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾

الشرح: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا...﴾ إلخ، قال الزمخشري ـ رحمه الله تعالى ـ: أمرهم بالاستغفار، الذي هو التوبة عن الكفر والمعاصي، وقدم إليهم الموعد بما هو أوقع في نفوسهم، وأحب إليهم من المنافع الحاضرة، والفوائد الجليلة، ترغيباً في الإيمان، وبركاته، والطاعة ونتائجها من خير الدارين، كما قال تعالى في سورة (الأعراف) رقم [٩٦]: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، وقال جل وعلا في سورة (المائدة) رقم [٦٦]: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾، وقال جل وعز في سورة (الجن) رقم [١٦]: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾، وقيل: لما كذبوه بعد طول تكرير الدعوة؛ حبس الله عنهم القطر، وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة، وروي سبعين، فوعدهم نوح ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ: أنهم إن آمنوا؛ رزقهم الله تعالى الخصب، ودفع عنهم ما كانوا فيه.

وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنه خرج يستسقي، فما زاد على الاستغفار، فقيل له: ما رأيناك استسقيت؟ فقال: لقد استسقيت بمجاديح السماء؛ التي يستنزل بها القطر، شبه الاستغفار بالأنواء الصادقة التي لا تخطئ. وعن الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ: أن رجلاً شكا إليه الجدب، فقال: اسْتَغْفِرِ الله، وشكا إليه آخر الفقر، وآخر قلة النسل، وآخر قلة ريع أرضه، فأمرهم كلهم بالاستغفار، فقال له الربيع بن صبيح: أتاك رجال يشكون أبواباً، ويسألون أنواعاً، فأمرتهم كلهم بالاستغفار، فتلا عليه هذه الآية، والتي بعدها. انتهى. كشاف.

هذا؛ و﴿كَانَ﴾ في القرآن الكريم على أوجه: تأتي بمعنى: الأزل، والأبد، وبمعنى: المضي المنقطع، وهو الأصل في معناها، وبمعنى: الحال، وبمعنى: الاستقبال، وبمعنى: صار، وبمعنى: حضر، وحصل، ووجد. وترد للتأكيد، وهي الزائدة، وهي هنا بمعنى: الاستمرار، فليست على بابها من المضي، وإن المعنى: كان، ولم يزل كائناً إلى يوم القيامة، وإلى أبد الآبدين في الدنيا والآخرة غفاراً للذنوب، ستاراً للعيوب، قابلاً لتوبة من تاب. وانظر شرح (استغفر) في الآية رقم [٦] من سورة (المنافقون)، وانظر (كان) في سورة (الانشقاق) [١٣].

هذا؛ و﴿السَّمَاءَ﴾ كل ما علاك من سقف، أو غيره، والمراد هنا: يرسل ماء السماء عليكم، فالمضاف محذوف، ويجوز أن يراد السحاب، أو المطر، أي: يرسل المطر. قال معاوية بن مالك: [الوافر]

إِذَا سَقَطَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غِضَابَا

أراد بالسماء المطر، ثم أعاد عليه الضمير في رعيناه بمعنى: النبات، وهذا يسمى في فن البديع بالاستخدام. وأصل سماء: سماو، فيقال في إعلاله: تحركت الواو، وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً، ولم يعتد بالألف الزائدة؛ لأنها حاجز غير حصين، فالتقى ساكنان: الألف الزائدة، والألف المنقلبة، فأبدلت الثانية همزة. هذا؛ و﴿ٱلسَّمَآءَ﴾ تذكر، وتؤنث.

هذا؛ و(غفار) صيغة مبالغة، و(مدرار) كثيرة الدرور، أي: ذات مطر كثير، و«مفعال» صيغة مبالغة، وهو مما يستوي فيه المذكر، والمؤنث، كقولهم: رجل مهذار، وامرأة معطار. وخذ نبذة من أحاديث الرسول ﷺ في الاستغفار.

فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ لَزِمَ الاستغفارَ جعلَ اللهُ لهُ مِنْ كلِّ هَمٍّ فرجَاً، وَمِنْ كُلِّ ضِيْقٍ مَخْرجاً، وَرَزَقَهُ مِنْ حيثُ لا يحتسِبُ**». رواه أبو داود، والنسائي، وغيرهما. وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألَا أدلكُمْ علَى دائِكُمْ وَدوائِكُمْ؟ أَلا إنَّ دَاءَكُمُ الذنوبُ، ودواءَكُمُ الاستغفارُ**». رواه البيهقي. وعنه أيضاً: أن رسول الله ﷺ قال: «**إنّ لِلْقُلُوبِ صَدَأً كَصَدأ النُّحَاسِ، وجلاؤُهَا الاستغفارُ**». رواه البيهقي. وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «**قال إبليسُ: وَعِزَّتِكَ لا أبرحُ أغوي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أرْوَاحُهُمْ في أجْسَادِهِمْ**». فقال: «**وَعِزَّتِي، وجَلالي لا أزالُ أغفرُ لهُمْ ما اسْتَغْفَروني!**». رواه أحمد، والحاكم.

وعن شداد بن أوس ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**سَيِّدُ الاستغفارِ: اللهمَّ أنْتَ رَبي لا إلهَ إلَّا أنتَ خلقْتَني وأنَا عَبْدُكَ، وأنَا علَى عهْدِكَ، وَوَعْدِكَ ما استطعْتُ، أعوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ ما صنَعْت، أبوءُ لكَ بنعمتِكَ عَلَيَّ، وأبوءُ بذنبي، فاغفِرْ لي، فإنَّهُ لا يغفرُ الذنوبَ إلَّا أنْتَ، مَنْ قَالَها موقناً بهَا حين يمسي، فماتَ من ليلتِه؛ دخلَ الجنةَ، ومَنْ قالَها موقناً بها حِينَ يصبحُ، فماتَ منْ يومِهِ دخلَ الجنةَ**». رواه البخاري، والنسائي، والترمذي.

الإعراب: ﴿فَقُلْتُ﴾: الفاء: حرف استئناف. (قلت): فعل، وفاعل. ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿رَبَّكُمْ﴾: مفعول به، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، وجملة: (قلت...) إلخ مستأنفة، لا محل لها. ﴿إِنَّهُۥ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه يعود إلى ﴿رَبَّكُمْ﴾. ﴿غَفَّارًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية معترضة بين الأمر، وجوابه، ومفيدة للتعليل لا محل لها. ﴿يُرْسِلِ﴾: فعل مضارع مجزوم؛ لوقوعه جواباً للأمر، وجزمه عند الجمهور بشرط محذوف، التقدير: إن تستغفروا... يرسل، والفاعل يعود إلى ﴿رَبَّكُمْ﴾، والجملة الفعلية لا محل

لها، لوقوعها جواباً للطلب. ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾: مفعول به أول. ﴿عَلَيۡكُم﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بما بعدهما. ﴿مِّدۡرَارٗا﴾: مفعول به ثان، أو هو حال من السماء، قاله السمين.

﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢﴾

الشرح: ﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ﴾: يزدكم أموالاً، وبنين. ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ﴾: بساتين، وحدائق. ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾ أي: من ماء يجري في أراضيكم أطمعهم نوح ـ على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ بالحصول على بركات السماء، وبركات الأرض إن هم آمنوا بالله الذي بيده مفاتيح هذه الخزائن. وأتاهم من طريق القلب لتحريك العواطف، ولبيان: أن ما هم فيه من انحباس الأمطار، وما حرموه من الرزق، والذرية، إنما سببه كفرهم بالله الذي بيده وحده، إرسال المطر، وإغداق الرزق، والإمداد بالأموال والبنين، وأنه لا ينبغي لهم أن يكفروا بالله القادر، ويعبدوا آلهة أخرى اخترعوها، لا تضر، ولا تنفع.

هذا؛ و(أموال) جمع: مال. قال ابن الأثير: المال في الأصل يطلق على كل ما يملك من الذهب، والفضة، ثم أطلق على كل ما يقتنى، ويملك من الأعيان، وأكثر ما يطلق المال عند العرب على الإبل؛ لأنها أكثر أموالهم. وقال الجوهري: ذكر بعضهم: أن المال يؤنث، وأنشد لحسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ: [البسيط]

المَالُ تُزْرِي بأقوامٍ ذَوِي حَسَبٍ ... وقَدْ تسَوِّدُ غيْرَ السَّيِّدِ المالُ

وعن الفضل الضبي: المال عند العرب: الصامت، والناطق، فالصامت: الذهب، والفضة والجواهر، والناطق: هو البعير، والبقرة، والشاة، فإذا قلت عن حضري: كثر ماله؛ فهو الصامت، وإذا قلت عن بدوي: كثر ماله؛ فهو الناطق. والنشب: المال الثابت، كالضياع، ونحوها، فلا يقال للمنقول المذكور آنفاً: نشب. قال عمرو بن معدي كرب الزبيدي ـ رضي الله عنه ـ يوصي ولده: [البسيط]

أمرْتُكَ الخيرَ فافعلْ ما أُمِرتَ بهِ ... فَقَدْ تركْتُكَ ذَا مَالٍ وذَا نَشَبِ

هذا؛ وقال الرسول ﷺ: «**مَنْ تواضَعَ لِغَنيٍّ لِغنَاهُ؛ فَقَدْ ذهبَ ثُلُثَا دِينِهِ**». وإنما كان كذلك؛ لأن الإيمان متعلق بثلاثة أشياء: المعرفة بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان، فإذا تواضع بلسانه، وأعضائه؛ فقد ذهب الثلثان، فلو انضم إليه القلب؛ ذهب الكل.

﴿جَنَّٰتٖ﴾: جمع: جنة، وهي البستان الكثير الأشجار، وسميت بذلك؛ لأنها تجن، أي: تستر من يدخل فيها لكثرة أشجارها، وكثافتها. ﴿أَنۡهَٰرٗا﴾: جمع: نهر، وهو معروف، ويجمع النهر على: أنْهُر، ونُهُر، ونُهُور، وهاء النهر تسكن، وتفتح.

الإعراب: ﴿وَيُمْدِدْكُمْ﴾: الواو: حرف عطف. (يمددكم): معطوف على يرسل، والفاعل يعود إلى ﴿رَبَّكُمْ﴾. والكاف مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿بِأَمْوَالٍ﴾: متعلقان بما قبلهما.

﴿وَبَنِينَ﴾: الواو: حرف عطف. (بنين): معطوف على ما قبله مجرور مثله، وعلامة جره الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، والنون عوض من التنوين في الاسم المفرد. ﴿وَيَجْعَل﴾: معطوف على ما قبله إفراداً وجملةً. ﴿لَّكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿جَنَّٰتٍ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم، ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ مثل سابقه.

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾

الشرح: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أي: مالكم لا ترون لله عظمة. وقيل: معناه ما لكم لا تعرفون لله حقاً، ولا تشكرون له نعمةً؟! وقيل: معناه: ما لكم لا ترجون في عبادة الله ثواباً، ولا على توقيركم إياه أجراً، وخيراً؟! وقيل: معناه: مالكم لا تخافون عظمة الله؟! فالرجاء بمعنى الخوف، والوقار: العظمة، من التوقير، وهو التعظيم. هذا؛ ووقوع الرجاء بمعنى الخوف مستعمل في اللغة العربية، قال تعالى في سورة (الفرقان) رقم [٢١]: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا...﴾ إلخ. وهي لغة تهامة، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي في صفة عسَّال، أي: الذي يقطف عسل النحل: [الطويل]

إذَا لَسَعَتْهُ الدَّبْرُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا ... وَخَالَفَهَا فِي بَيْتِ نُوبٍ عَوَاسِلُ

وقال بعض العلماء: لا يقع الرجاء بمعنى الخوف إلا مع الجحد، أي: النفي. كقوله تعالى في هذه الآية. وقال بعضهم: بل يقع في كل موضع دل عليه المعنى. وهو المعتمد. هذا؛ وأصل الرجاء الأمل في الشيء، والطماعية فيه. قال الشاعر: [الوافر]

أَتَرْجُو أُمَّةٌ قَتَلَتْ حُسَيْناً ... شَفَاعَةَ جَدِّهِ يَوْمَ الحِسَابِ

وقال خبيب بن عدي ـ رضي الله عنه، وأرضاه ـ: [الطويل]

لَعَمْرُكَ مَا أَرْجُو إذَا كُنْتُ مُسْلِماً ... عَلَى أيِّ جَنْبٍ كَانَ فِي اللهِ مَصْرعِي؟!

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أي: جعل لكم في أنفسكم آية تدل على قدرته، وعظمته. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿أَطْوَارًا﴾ يعني: نطفةً، ثم علقةً، ثم مضغةً؛ أي: طوراً بعد طور إلى تمام الخلق، كما ذكر الله تعالى في آية (الحج) رقم [٥] وآية (المؤمنون) رقم [١٤]. والطور في اللغة: المرة. وقيل: المراد: مراحل الحياة من طفولة إلى شباب، إلى كهولة، إلى شيوخ، وضعفاء. وقيل: ﴿أَطْوَارًا﴾ أي: أنواعاً: صحيحاً، وسقيماً، وبصيراً، وضريراً، وغنياً، وفقيراً. وقيل:

اختلافهم في الأخلاق، والأفعال، والألوان، واللغات، والطبائع... إلخ. هذا؛ والطور الحال والهيئة، والجمع أطوار.

الإعراب: ﴿مَّا﴾: اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿تَرْجُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب حال من كاف الخطاب، والعامل ﴿مَّا﴾ الاستفهامية. وقيل: العامل فيها معنى الاستقرار في ﴿لَكُمْ﴾ والرابط: الضمير فقط. ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من: وقاراً، كان له صفة، فلما قدم عليه؛ صار حالاً. ﴿وَقَارًا﴾: مفعول به. ﴿وَقَدْ﴾: الواو: واو الحال. (قد): حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿خَلَقَكُمْ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿رَبَّكُمْ﴾، والكاف مفعول به، والجملة الفعلية في محل نصب حال ثانية من كاف الخطاب، أو هي في محل نصب حال من واو الجماعة، فتكون حالاً متداخلة. ﴿أَطْوَارًا﴾: حال من كاف الخطاب، فهي حال متداخلة. هذا؛ وخلق بمعنى: ابتدع، فلذلك لا يتعدى إلا إلى مفعول واحد.

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾

الشرح: انظر الآية رقم [٣] من سورة (الملك) فالكلام فيها كاف واف. ومعنى ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ الإخبار لا المعاينة، كما تقول: ألم ترني كيف صنعت بفلان كذا؟ وقال الزمخشري ـ رحمه الله تعالى ـ: نبههم على النظر في أنفسهم أولاً؛ لأنها أقرب منظور فيه منهم. ثم على النظر في العالم، وما سوى فيه من العجائب الشاهدة على الصانع الباهر قدرته، وعلمه من السموات، والأرض، والشمس، والقمر.

الإعراب: ﴿أَلَمْ﴾: (الهمزة): حرف استفهام، وتقرير. (لم): حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿تَرَوْا﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: (لم)، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام مبني على الفتح في محل نصب حال من لفظ الجلالة، والعامل الفعل: ﴿خَلَقَ﴾. ﴿خَلَقَ﴾: فعل ماض. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿سَبْعَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿سَمَٰوَٰتٍ﴾ مضاف إليه. ﴿طِبَاقًا﴾: فيه أوجه: المصدرية: على أنه مفعول مطلق عامله محذوف، التقدير: تطابق بعضها طباقاً. والحالية: أي: ذات طباق، فحذف «ذات» وأقيم ﴿طِبَاقًا﴾ مقامه، والوصفية لسبع. ويجوز في العربية جره صفة لـ: ﴿سَمَٰوَٰتٍ﴾ ولم يقرأ بالجر هنا، وفي سورة (الملك) رقم [٣].

﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾

الشرح: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أي: في سماء الدنيا. قال ابن كيسان: إذا كان في إحداهن؛ فهو فيهن. وروي: أن وجه القمر إلى السماء، وإذا كان إلى داخلها فهو متصل بالسموات، وقال ابن عباس وابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: وجهه يضيء لأهل الأرض، وظهره يضيء لأهل السماء.

﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ يعني: مصباحاً لأهل الأرض، وفي إضافتها لأهل السماء القولان الأولان، وحكى القشيري عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أن الشمس وجهها في السموات وقفاها في الأرض. ومعنى (سراجاً) يبصر أهل الدنيا في ضوئها، كما يبصر أهل البيت في ضوء السراج ما يحتاجون إلى إبصاره، والقمر ليس كذلك، إنما هو نور لم يبلغ قوة ضياء الشمس، ومثله قوله تعالى في سورة (يونس) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ رقم [٥]، والضياء أقوى من النور، وعبر عن الشمس بالسراج؛ لأنه يضيء بنفسه، وعبر عن القمر بالنور؛ لأنه يستمد نوره من غيره، ويؤيده ما تقرر في علم الفلك من أن نور الشمس ذاتي فيها، ونور القمر عرضي مكتسب من نور الشمس، فسبحان من أحاط بكل شيء علماً. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

أقول: وعلى قول ابن عباس، وابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: فالسموات السبع إنما هي طبقات هوائية ينفذ فيها ضوء القمر، ونور الشمس، ولا يبقى لما قاله محمد الشنواني في حاشيته على مختصر ابن أبي جمرة في شرح حديث المعراج: إن السموات السبع طبقات مادية من فضة ورصاص، ونحاس. لا يبقى لهذا الكلام أيُّ اعتبار، والله أعلم، وأجل، وأكرم.

الإعراب: (جعل): فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهُ﴾ تقديره: «هو». ﴿ٱلْقَمَرَ﴾: مفعول به أول. ﴿فِيهِنَّ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من ﴿نُورًا﴾ كان صفةً له، فلما قدم عليه؛ صار حالاً، والنون حرف دال على جماعة الإناث. ﴿نُورًا﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية، والتي بعدها معطوفتان على ما قبلهما، وهما في محل نصب مقول القول أيضاً.

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾

الشرح: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾: قال الصابوني: بعد أن ذكر الله دليل الآفاق؛ ذكر هنا دليل الأنفس، وذلك؛ لأن في ذكر هذه الأمور دلالة واضحة على عظمة الله وقدرته، وباهر مصنوعاته، والمعنى: خلقكم، وأنشأكم من الأرض كما يخرج النبات، وسلَّكم من تراب الأرض كما يسل النبات منها. قال المفسرون: لما كان إخراجهم، وإنشاؤهم إنما يتم بتناولهم

عناصر الغذاء الحيوانية والنباتية المستمدة من الأرض؛ كانوا من هذه الجهة مشابهين للنبات؛ التي تنمو بامتصاص غذائها من الأرض؛ فلذا سمي خلقهم، وإنشاؤهم إنباتاً، أو يكون ذلك إشارة إلى خلق آدم، حيث خلق من تراب الأرض، ثم جاءت منه ذريته، فصح نسبتهم إلى أنهم أنبتوا من الأرض. انتهى. صفوة التفاسير.

وفي الآية استعارة تبعية استعير الإنبات للإنشاء، كما يقول: زرعك الله للخير، وكانت هذه الاستعارة أدل على الحدوث؛ لأنهم إذا كانوا نباتاً كانوا محدثين لا محالة حدوث النبات، ومنه قيل للحشوية: النابتة، والنوابت لحدوث مذهبهم في الإسلام من غير أولية فيه، ولا تنس: أن ﴿نَبَاتًا﴾ اسم مصدر، لا مصدر؛ إذ المصدر إنبات؛ لأن فعله أنبت. وفي الخازن: وقيل: تقديره: أنبتكم، فنبتم نباتاً. وفيه دقيقة لطيفة، وهي أنه لو قال: أنبتكم إنباتاً، كان المعنى أنبتكم إنباتاً عجيباً غريباً. ولما قال: أنبتكم نباتاً، كان المعنى أنبتكم فنبتم نباتاً عجيباً، وهذا الثاني أولى؛ لأن الإنبات صفة الله تعالى، وصفة الله تعالى غير محسوسة لنا، فلا يعرف: أن ذلك الإنبات إنبات عجيب كامل إلا بواسطة إخبار الله تعالى، وهذا المقام مقام الاستدلال على كمال قدرة الله تعالى، فكان موافقاً لهذا المقام، فظهر بهذا: أن العدول عن تلك الحقيقة إلى هذا المجاز كان لهذا السر اللطيف.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ أي: يرجعكم إلى الأرض بعد موتكم، فتدفنون فيها. ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ أي: يخرجكم من الأرض يوم القيامة للحساب، والجزاء. وأكده بالمصدر لبيان أن ذلك واقع لا محالة. وهذه الآية، كقوله تعالى في سورة (طه) رقم [٥٥]: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾.

الإعراب: ﴿وَاللَّهُ﴾: الواو: حرف عطف. (الله): مبتدأ. ﴿أَنْبَتَكُمْ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى الله، والكاف مفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب مقول القول أيضاً. ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿نَبَاتًا﴾: مفعول مطلق. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿يُعِيدُكُمْ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى (الله)، والكاف مفعول به. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية والتي بعدها معطوفتان على ما قبلهما، وهما من مقول نوح، على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام. ﴿إِخْرَاجًا﴾: مفعول مطلق مؤكد لعامله، مثل: نباتاً، وإسراراً، واستكباراً.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾

الشرح: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ أي: جعلها فسيحة ممتدة ممهدة لكم، وثبتها بالجبال الراسيات الشم الشامخات، كما قال تعالى في غير ما آية: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن

﴿تَمِيدَ بِكُمْ﴾ جعلها الله منبسطة؛ ليتقلب الإنسان عليها بالذهاب والإياب، كما يتقلب على بساطه وفراشه. قال في التسهيل: شبه الأرض بالبساط في امتدادها، واستقرار الناس عليها، وأخذ بعضهم من الآية أن الأرض غير كروية، وفي ذلك نظر، قال الآلوسي: وليس في الآية دلالة على أن الأرض مبسوطة غير كروية؛ لأن الكرة العظيمة يرى كل من عليها ما يليه مسطحاً، ثم إن اعتقاد الكروية، أو عدمها ليس بلازم في الشريعة، لكن كرويتها كالأمر اليقيني، ومعنى جعلها بساطاً أي: تتقلبون عليها كالبساط. انتهى صفوة التفاسير، وانظر ما ذكرته في سورة (الرعد) رقم [٣]: ﴿لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا﴾: لتتخذوا منها طرقاً. ﴿فِجَاجًا﴾: مسالك، والفج الطريق الواسع بين جبلين. هذا؛ وفي سورة (الأنبياء) رقم [٣١] تقديم الفجاج، وأخر هنا لتناسب الفواصل.

الإعراب: ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: حرف عطف. (الله): مبتدأ. ﴿جَعَلَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى الله. ﴿لَكُمُ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من ﴿بِسَاطًا﴾ كان صفة له... إلخ. ﴿ٱلْأَرْضَ﴾: مفعول به أول. ﴿بِسَاطًا﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب مقول القول أيضاً. ﴿لِّتَسْلُكُواْ﴾: فعل مضارع منصوب بـ: «أن» مضمرة بعد لام التعليل، وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، و«أن» المضمرة والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر باللام، والجار والمجرور متعلقان بالفعل ﴿جَعَلَ﴾. ﴿مِنْهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من ﴿سُبُلًا﴾، كان صفة له، فلما قدم عليه صار حالاً. ﴿سُبُلًا﴾: مفعول به. ﴿فِجَاجًا﴾: صفة ﴿سُبُلًا﴾.

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾

الشرح: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾: فيما أمرتهم به من الإيمان، والاستغفار. ﴿وَٱتَّبَعُواْ﴾ أي: السفلة، والفقراء، والضعفاء. ﴿مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ﴾ أي: الرؤساء، والكبراء، والأغنياء؛ الذين لم يزدهم كفرهم، وأموالهم، وأولادهم إلا ضلالاً في الدنيا، وهلاكاً في الآخرة. وفحوى الآية الكريمة: شكوى نوح ـ على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ إلى الله تعالى، وأنهم عصوه، ولم يتبعوه فيما دعاهم إليه من الإيمان بعد أن لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً داعياً لهم، وهم على كفرهم، وعصيانهم. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: رجا نوح عليه السلام الأبناء بعد الآباء، فيأتي منهم الولد بعد الولد، حتى بلغوا سبعة قرون، فلم يزدادوا إلا ضلالاً، ثم دعا عليهم بعد الإياس منهم، فاستجاب الله دعاءه، وأغرقهم، وعاش بعد الطوفان ستين عاماً، حتى كثر الناس، وفشوا.

الإعراب: ﴿قَالَ نُوحٌ﴾: ماض، وفاعله. ﴿رَبِّ﴾: منادى حذف منه أداة النداء، فهو منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم... إلخ، انظر إعراب (يا قوم) في الآية رقم [٢]. ﴿إِنَّهُمْ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿عَصَوْنِي﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف المحذوفة لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة، التي هي فاعله، والنون للوقاية، وياء المتكلم في محل نصب مفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية، والجملة الندائية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالَ نُوحٌ...﴾ إلخ مستأنفة، لا محل لها. ﴿وَاتَّبَعُوا﴾: الواو: حرف عطف. (اتبعوا): ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل رفع مثلها. ﴿مَن﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿لَّمْ﴾: حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿يَزِدْهُ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: ﴿لَّمْ﴾، والهاء مفعول به أول. ﴿مَالُهُ﴾: فاعله. (ولده): معطوف عليه، والهاء فيهما ضمير متصل في محل جر بالإضافة. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿خَسَارًا﴾: مفعول به ثان. وجملة: ﴿لَّمْ يَزِدْهُ...﴾ إلخ صلة الموصول، لا محل لها.

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾

الشرح: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ يعني: كبيراً عظيماً. يقال: كبير، وكُبار، وكُبَّار، مثل: عجيب، وعُجاب، وعُجَّاب. ويقال: رجل حسن، وحسَّان، وجميل، وجمَّال، وقرَّاء للقارئ، ووضَّاء للوضيء. وأنشد ابن السكيت: [الكامل]

بيضاءُ تصطادُ القلوبَ وتَسْتَبِي بالحُسْنِ قلبَ المُسْلِمِ القُرَّاءِ

وقال آخر: [الكامل]

والمرءُ يُلْحِقُهُ بفتيانِ النَّدى خلُقُ الكريمِ ولَيْس بالوُضَّاءِ

و﴿كُبَّارًا﴾ بالتشديد أعظم في المبالغة، والماكرون: هم الرؤساء، والقادة، فيكون قد روعي لفظ ﴿مَن﴾ بقوله: ﴿لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ﴾ وروعي معناها بقوله: (مكَرُوا) ومكرهم: احتيالهم في الدين، وكيدهم لنوح، على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام، وتحريش السفلة على أذاه، وصد الناس عن الإيمان به، والميل إليه، والاستماع منه. وقيل: مكرهم: هو قولهم: لا تذرُنَّ آلهتكم، وتعبدوا إله نوح.

هذا؛ والمكر أصله في لسان العرب: الاحتيال، والخديعة، وقد مكر به، يمكر، فهو ماكر، ومكَّار. قال الشاعر: [الطويل]

قهرْتُ العِدَا لا مُسْتَعِيناً بِعُصْبَةٍ ولكنْ بأنواعِ الخديعةِ وَالْمَكْرِ

وقال زياد بن يسار ـ وهو الشاهد رقم [١٠٢١] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»، والشاهد رقم [٧] من كتابنا: «فتح رب البرية» ـ: [الطويل]

تـعـلَّـمْ شِـفـاءَ الـنـفـسِ قَـهْـرَ عـدوِّهَـا فـبـالِـغْ بِـلُـطْـفٍ فـي الـتَّـحَـيُّـلِ والْـمَـكْـرِ

هذا، ونسب المكر إلى الله في كثير من الآيات، مثل قوله تعالى في سورة (الرعد) رقم [٤٢]: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ وهو بمعنى المجازاة، والعقاب، والانتقام.

الإعراب: (مكروا): ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿مَكْرًا﴾: مفعول مطلق. ﴿كُبَّارًا﴾: صفة له، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿لَّمْ يَزِدْهُ...﴾ إلخ فهي من جملة الصلة، لا محل لها.

﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾

الشرح: ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي: قال الرؤساء، والكبراء من قوم نوح. وقيل: كفار قريش. ولا وجه له قطعاً. ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي: لا تتركوا آلهتكم التي تعبدونها. ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا...﴾ إلخ: هذا تخصيص بعد تعميم؛ لأنهم كانت لهم أصنام غير هذه الخمسة، وهذه أعظمها عندهم، وهذا على مثال قوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [٢٣٨]: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾، وقوله تعالى في سورة (الأحزاب) رقم [٧]: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾. وانظر التعميم بعد التخصيص في الآية الأخيرة، وكلاهما من باب الإطناب، وهو من المحسنات البديعية.

قال محمد بن كعب القرظي ـ رضي الله عنه ـ: هذه أسماء قوم صالحين، كانوا بين آدم ونوح، فلما ماتوا كان أتباعهم يقتدون بهم، ويأخذون بعدهم بأخذهم في العبادة، فجاءهم إبليس ـ لعنه الله ـ، وقال لهم: لو صورتم صورهم كان ذلك أنشط لكم، وأشوق للعبادة، ففعلوا ذلك. ثم نشأ قوم بعدهم، فقال لهم إبليس ـ أخزاه الله ـ: إن الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم، فابتداء عبادة الأوثان كان من ذلك، وسميت تلك الصور بهذه الأسماء؛ لأنهم صوروها على صور أولئك القوم الصالحين من المسلمين.

وبهذا المعنى فسر ما جاء في الصحيحين من حديث عائشة: أن أم حبيبة، وأم سلمة ـ رضي الله عنهن ـ، ذكرتا كنيسة رأيْنَهَا بأرضِ الحبشةِ تسمى: ماريةَ، فيها تصاويرُ فذكرتا لرسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «**إنَّ أولئكَ كانُوا إذا ماتَ الرجلُ الصالحُ منهم بَنَوْا على قَبْرِهِ مسجداً، ثم صوَّرُوا فيهِ تلكَ الصورَ، أولئكَ شرُّ الخلقِ عند الله يومَ الْقِيَامَةِ**». هذا؛ وقال السيوطي في كتابه مبهمات القرآن: وذكر تقي الدين بن مخلد: أن وداً، وسواعاً، ويغوث، ويعوق، ونسراً كانوا أولاد آدم لصلبه. حكاه ابن عساكر. وقد أخرج ابن أبي حاتم مثله عن عروة. انتهى.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: صارت الأوثان، التي كانت تعبد قوم نوح في العرب بعدُ، أما وَد؛ فهو أول صنم عبد من دون الله، وكان في العرب لقبيلة بني كلب بدُومة الجندل، وفيه يقول شاعرهم: [البسيط]

حَيَّاكَ وَدٌّ فَإنَّا لا يحِلُّ لَنَا لَهْوُ النِّساءِ وإنَّ الدِّينَ قَدْ عَزَمَا

وأما سواع؛ فكان لهذيل بساحل البحر. وأما يغوث؛ فكان لغطيف من مراد بالجوف من سبأ. وأما يعوق؛ فكان لهمدان في اليمن، وفيه يقول مالك بن نمط الهمداني: [الوافر]

يَرِيشُ اللهُ في الدنيا وَيَبْرِي ولا يَبْرِي يَعُوقُ ولا يَرِيشُ

وأما نسر؛ فكان لذي الكلاع من حِمْيَر. وكانت للعرب أصنام أخر، فاللات كانت لثقيف، والعزى كانت لسليم، وغطفان، وجشم، ومناة كانت لخزاعة بقديد، وأساف، ونائلة، وهبل كانت لأهل مكة، ولذلك سمَّت العرب أنفسهم بـ: عبد ودٍّ، وعبد يغوث، وعبد العزى، وعبد مناة، ونحو ذلك من الأسماء.

هذا؛ وأساف اسم رجل، ونائلة اسم امرأة، كلاهما من قبيلة جرهم، قد خلا أساف بنائلة في جوف الكعبة، وزنى بها، فمسخهما الله حجرين، فأصبح الناس، فوجدوهما داخل الكعبة حجرين، فوضعوا أحدهما على الصفا، والثاني على المروة للاعتبار، والاتعاظ، ثم زين الشيطان لأحفاد الأولين عبادتهما. وقيل: كان أساف بحيال الحجر الأسود، ونائلة بحيال الركن اليماني، وهبل في جوف الكعبة.

الإعراب: ﴿وَقَالُوا۟﴾: الواو: حرف عطف. (قالوا): فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَذَرُنَّ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: ﴿لَا﴾ وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، وواو الجماعة المحذوفة المدلول عليها بالضمة فاعله، والنون للتوكيد حرف لا محل له، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿وَقَالُوا۟...﴾ إلخ معطوفة على جملة: ﴿لَّمْ يَزِدْهُ...﴾ إلخ لا محل لها مثلها. ﴿ءَالِهَتَكُمْ﴾: مفعول به، والكاف في محل جر بالإضافة، وجملة: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا﴾ معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها، والأسماء الأربعة معطوفة على ﴿وَدًّا﴾، و﴿يَغُوثَ﴾ و(يعوق) ممنوعان من الصرف للعلمية، ووزن الفعل إن كانا عربيين، وللعلمية والعجمة إن كانا أعجميين. وقرأ الأعمش بصرفهما: (ولا يغوثاً ويعوقاً) لأمرين: أحدهما أنه صرفهما للتناسب؛ إذ قبلهما اسمان منصرفان، وبعدهما اسم منصرف، كما صرف (سلاسل) في سورة (الدهر) رقم [٤]. والثاني: أنه جاء على لغة من يصرف غير المنصرف مطلقاً، وهي لغة حكاها الكسائي. انتهى. جمل نقلاً عن السمين. ولم تذكر (لا) مع الأسماء الثلاثة لكثرة التكرار، وعدم اللبس.

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا ﴿٢٤﴾﴾

الشرح: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾: الضمير للرؤساء، والكبراء؛ أي: أضلوا كثيراً من أتباعهم، فهو عطف على قوله: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا﴾ وقيل: الضمير يعود إلى الأصنام المذكورة في الآية السابقة، والمعنى ضل بسببها كثير من الناس، فإنه قد استمرت عبادتها في العرب، والعجم، وسائر صنوف بني آدم، نظيره قوله تعالى حكاية عن قول إبراهيم على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ فإسناد الإضلال إلى الأصنام مجاز عقلي؛ لأنها سبب في حصول الإضلال، والهادي والمضل في الحقيقة هو الله وحده. وانظر الآية رقم [١٧] من سورة (المزمل). هذا؛ وقد جمع الضمير العائد على الأصنام بالواو التي هي لجماعة الذكور العقلاء؛ لأن الكفار كانوا يخاطبونها مخاطبة من يعقل، فنزلت منزلتهم.

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا﴾: دعاء من نوح عليه السلام على قومه؛ لتمردهم، وكفرهم، وعنادهم. وهذا منه عليه السلام لما أَيِسَ من إيمانهم بإخبار الله له بقوله: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ رقم [٣٦] من سورة (هود) عليه السلام، كما دعا موسى ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ على فرعون، وملئه بقوله: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ...﴾ إلخ رقم [٨٨] من سورة (يونس) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام.

قال الزمخشري: فإن قلت: كيف جاز أن يريد نوح لهم الضلال، ويدعو الله بزيادته؟! قلت: المراد بالضلال أن يخذلوا، ويمنعوا الألطاف لتصميمهم على الكفر، ووقوع اليأس من إيمانهم، وذلك حسن، وجميل، ويجوز الدعاء به، بل لا يحسن الدعاء بخلافه. ويجوز أن يريد بالضلال: الضياع، والهلاك. وأحسن منه قول الخازن: إنما دعا عليهم بعد أن أعلمه الله: أنهم لا يؤمنون، وهو قوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ من سورة (هود) كما رأيت.

الإعراب: ﴿وَقَدْ﴾: الواو: واو الحال. (قد): حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿أَضَلُّوا۟﴾: فعل ماض، وفاعله، والألف للتفريق. ﴿كَثِيرًا﴾: مفعول به، وهو في الأصل صفة مفعول به، التقدير: أضلوا ناساً كثيراً، والجملة الفعلية في محل نصب حال من واو الجماعة. بقوله: (قالوا)، أو من: ود، وما عطف عليه حسب ما رأيت في الشرح من اعتبار رجوعه إلى الكبراء، أو إلى الأصنام، وعلى الاعتبارين؛ فالرابط: الواو، والضمير. هذا؛ واعتبر بعضهم الجملة مقولة لقول محذوف، التقدير: وقال: قد أضلوا. وهذا القول المقدر معطوف على القول السابق، أي: قال: إنهم عصوني، وقال: قد أضلوا. وهذا ينافي الشرح المتقدم، فالجملة الفعلية هذه من مقول نوح ضمناً لا صراحةً، لوقوعها حالاً عاملها الفعل (قالوا) المعطوف مع مقوله كله على جملة: ﴿لَّمْ يَزِدْهُ...﴾ إلخ الواقعة صلة للموصول، كما رأيت سابقاً، فتبقى الجملة

التالية معطوفة على جملة: ﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ﴾ فهي من مقول نوح بسبب العطف. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): دعائية. ﴿تَزِدِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: (لا)، والفاعل تقديره: «أنت». ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: مفعول به أول. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿ضَلَٰلًا﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِي...﴾ إلخ، وقول الجلال: عطف على: (قد أضلوا) لا أحبذه أبداً.

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾

الشرح: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ﴾ أي: أغرقوا بالطوفان من أجل خطيئاتهم، جمع: خطيئة، فقد جمعت بالألف والتاء، كما في قوله تعالى في سورة (الأعراف) رقم [١٦١]: ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ﴾ وقرئ: (مما خَطاياكُم) كما في قوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [٥٨]: ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ فهو جمع تكسير، كما تجمع على: فعالل، فتقول: «خَطائِئُ» مثل: صحائف جمع صحيفة، وأصله خَطايِء مثل: صحايِف، فقل في إعلاله تحركت الياء فيهما، وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً، ولم يعتد بالألف الزائدة؛ لأنها حاجز غير حصين، فالتقى ساكنان: الألف الأصلية، والألف المنقلبة عن الياء، فقلبت هذه همزة، فصار (خطائِيء) على فعالل، فلما اجتمعت الهمزتان، قلبت الثانية ياءً؛ لأن قبلها كسرة، ثم استثقلت، والجمع ثقيل، وهو معتل مع ذلك، فقلبت الياء ألفاً، ثم قلبت الهمزة الأولى ياءً لخفائها بين الألفين. أما خطايا فهو جمع خَطِيَّة، وأصلها: خطيئة، فقلبت الهمزة ياءً، وأدغمت الياء فصار: خَطِيَّة.

﴿فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ أي: بعد إغراقهم. قال القشيري: وهذا يدل على عذاب القبر، ومنكروه يقولون: صاروا مستحقين دخول النار، أو عرض عليهم أماكنهم من النار، كما قال تعالى في سورة (غافر) رقم [٤٦]: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ وقد ذكرت هناك: أنه يستدل بها على عذاب القبر أيضاً. وروى أبو روق عن الضحاك: أنه قال: يعني: عُذِّبوا بالنار في الدنيا مع الغرق في الدنيا في حالة واحدة؛ كانوا يغرقون في جانب، ويحترقون في الماء من جانب. وبه قال القرطبي، والخازن، والزمخشري، وأنشد أبو بكر بن الأنباري: [البسيط]

الخَلْقُ مجتمعٌ طَوْراً وَمُفْتَرِقٌ والحادثاتُ فنونٌ ذاتُ أطوارِ
لا تَعْجَبَنَّ لأَضْدادٍ إنِ اجْتَمَعَتْ فَاللهُ يَجْمَعُ بينَ الماءِ والنارِ

هذا؛ والنار: جوهر لطيف مضيء محرق، وهي من المؤنث المجازي، وقد تذكر، وأصلها: نَوَر، تحركت الواو، وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً، وتصغيرها نويرة، والجمع أنْوُر، ونيران،

ونِيرة، قلبت الواو فيهما ياءً لانكسار ما قبلها، ويكنى بها عن جهنم التي سيعذب بها الكافرين، والفاسقين، والمجرمين، كما أنها تستعار للشدة، والضيق، والبلاء، قال الشاعر: [الطويل]

وألقى على قَيْسٍ مِنَ النارِ جَذْوَةً شديداً عليها حرُّهَا وَالْتِهابُهَا

فهي مستعارة في هذا البيت لشدة النكاية؛ التي أذاقها قبيلة قيس، والفعل: نار، ينور يستعمل لازماً، ومتعدياً إذا بدئ بهمزة التعدية، كما في قولك: أنارت الشمس الكون. ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾ أي: تنصرهم، وتمنعهم من العذاب الذي نزل بهم، فهو تعريض لهم باتخاذهم آلهة من دون الله لا تقدر على نصرهم، قال تعالى في سورة (الأنبياء) رقم [٤٣]: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾.

الإعراب: ﴿مِّمَّا﴾: (مِنْ): حرف جر، و(ما) صلة. ﴿خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾: اسم مجرور بـ: (مِنْ)، والجار والمجرور متعلقان بما بعدهما. ﴿أُغْرِقُوا﴾: فعل ماض مبني للمجهول مبني على الضم، الواو نائب فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها، والتي بعدها معطوفة عليها، لا محل لها مثلها. ﴿نَارًا﴾: مفعول به ثان، والمفعول الأول واو الجماعة؛ التي هي نائب فاعل. ﴿فَلَمْ﴾: الفاء: حرف عطف. (لم): حرف نفي وقلب وجزم. ﴿يَجِدُوا﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: (لم)، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿لَهُم﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما وهما في محل نصب مفعوله الثاني. ﴿مِّن دُونِ﴾: متعلقان بمحذوف حال من ﴿أَنصَارًا﴾، كان صفةً له، فلما قدم عليه صار حالاً، وبعضهم يعتبرهما مفعولاً ثانياً، تقدم على الأول و﴿دُونِ﴾ مضاف، و﴿اللَّهِ﴾ مضاف إليه. ﴿أَنصَارًا﴾: مفعول به، والجملة: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها.

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦)﴾

الشرح: توجه نوح ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ بهذا الدعاء حينما أيس من إيمان قومه بإعلام الله له: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ رقم [٣٦] من سورة (هود) عليه السلام، فأجاب الله دعوته، وأغرق أمته. وقيل: سبب دعائه: أن رجلاً من قومه حمل ولداً صغيراً على كتفه فمر به على نوح، فقال: احذر هذا فإنه يضلك، فقال: يا أبت أنزلني! فأنزله، فرماه فشجه، فحينئذ غضب، فدعا عليهم. وقال محمد بن كعب، ومقاتل، والربيع، وعطية، وابن زيد: إنما قال هذا حينما أخرج الله كل مؤمن من أصلابهم، وأرحام نسائهم، وأعقم أرحام النساء، وأصلاب الرجال قبل العذاب بسبعين سنة. قال قتادة: ولم يكن فيهم صبي وقت العذاب.

قال ابن العربي: دعا نوح على قومه أجمعين، ودعا النبي ﷺ على من تحزب على المؤمنين، وألَّب عليهم، وكان هذا أصلاً في الدعاء على الكافرين في الجملة، فأما كافر معين

لم تعلم خاتمته؛ فلا يدعى عليه؛ لأن مآله عندنا مجهول، وربما كان عند الله معلوم الخاتمة بالسعادة، وإنما خص النبي ﷺ بالدعاء عتبة، وشيبة، وأصحابهما لعلمه بمآلهم، وما كشف له من الغطاء عن حالهم، والله أعلم. انتهى. قرطبي. وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٦٨] من سورة (الأحزاب) بشأن اللعن تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

هذا؛ وقال أبو السعود ـ رحمه الله تعالى ـ: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ...﴾ إلخ عطف على نظيره السابق، وقوله: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ...﴾ إلخ اعتراض وسط بين دعائه عليه السلام، للإيذان من أول الأمر بأن ما أصابهم من الإغراق، والإحراق لم يصبهم إلا لأجل خطاياهم؛ التي عددها نوح، وإشارة إلى أن استحقاقهم للإهلاك لأجلها. وهذا منه ـ رحمه الله ـ بيان للحكمة في تأخيره الدعاء عن قوله: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ﴾ مع أن الدعاء مقدم في الواقع على إغراقهم.

هذا؛ و(ديَّار) بمعنى: أحد، وديَّار، وأحد لا يستعملان إلا بعد نفي، أوشبهه، ومنه الآية الكريمة، وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ وقال الشاعر ـ وهو الشاهد رقم [٨١٣] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»، والشاهد رقم [٧٣] من كتابنا: «فتح رب البرية» ـ: [البسيط]

وَمَا نُبَالِي إِذَا مَا كُنْتِ جَارَتَنَا ... أَلَّا يُجَاوِرَنَا إِلَّاكِ دَيَّارُ

ووزن ديَّار: فيْعال من الدور، أو من الدار، وأصله دَيْوَار، فلما اجتمعت الواو والياء، وسبقت إحداهما بالسكون، قلبت الواو ياءً، وأدغمت الياء في الياء، ولو كان وزنه فعَّالاً بتكرير العين لكان دوَّاراً. هذا؛ ومثل ديَّار، وأحد في المعنى، وتقدم النفي عليهما: عَرِيب، قال عَبيدُ بنُ الأبرص من معلقته رقم [٣]: [مخلع البسيط]

فَعَرْدَةٌ فَقَفَا حِبِرٍّ ... لَيْسَ بِهَا مِنْهُمُ عَرِيبُ

الإعراب: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ﴾: الجملة الفعلية معطوفة على مثلها في الآية رقم [٢١] وهي مثلها في الإعراب. ﴿لَا﴾: دعائية. ﴿تَذَرْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: ﴿لَا﴾، والفاعل مستتر تقديره: «أنت». ﴿عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من ﴿دَيَّارًا﴾ كان صفة له، فلما قدم عليه؛ صار حالاً على القاعدة: «نعت النكرة إذا تقدم عليها صار حالاً». ﴿دَيَّارًا﴾: مفعول به، وجملة: ﴿لَا تَذَرْ...﴾ إلخ في محل نصب مقول القول.

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾

الشرح: قال نوح ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ هذا الكلام لعلمه بالتجربة من أحوالهم: أن أولادهم يكونون مثلهم؛ لأنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فعرف طباعهم وأحوالهم، وكان الرجل منهم ينطلق إليه بابنه، ويقول له: احذر هذا؛ فإنه كذاب، وإن

أبي حذرني منه، فيموت الكبير، وينشأ الصغير على ذلك. وقد ذكرت لك في سورة (هود) أنه تعاقب عليه أربعة أجيال، كل جيل يكون أكفر وأخبث من سابقه، وانظر ما ذكرته في الآية السابقة، كيف أعقم الله أصلاب الرجال، وأرحام النساء، قبل الطوفان بأربعين، أو سبعين سنة، لذا فقد استجاب الله له دعاءه، فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين، حتى ولد نوح لصلبه؛ الذي اعتزل عن أبيه، وقال: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَوْ رَحِمَ اللهُ مِنْ قومِ نوحٍ أحَداً؛ لَرَحِمَ امرأةً لما رأت الماءَ؛ حملتْ ولدها، ثم صعِدت الجبلَ، فلما بلغها الماءُ؛ صعدتْ بِهِ منكبَها، فلما بلغ الماءُ منكبَها؛ وضعتْ ولدها على رأْسِها، فلما بلغ الماءُ رأسَها؛ رفعتْ ولدَها بيدِها، فلو رحمَ اللهُ منهم أحَداً؛ لرَحِمَ هذِه المرأةَ**». أخرجه ابن أبي حاتم، قال ابن كثير: حديث غريب، ورجاله ثقات، أقول: وهذا يتنافى مع ما قدمته من عقم رجالهم، ونسائهم، فليتأمل! والله أعلم.

الإعراب: ﴿إِنَّكَ﴾: حرف مشبه بالفعل، والكاف اسمها. ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿تَذَرْهُمْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط، والفاعل مستتر تقديره: «أنت»، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية. ويقال: لأنها شرط غير ظرفي. ﴿يُضِلُّوا﴾: فعل مضارع جواب الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿عِبَادَكَ﴾: مفعول به، والكاف في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جملة جواب الشرط، ولم تقترن بالفاء، ولا بـ: «إذا» الفجائية، و﴿إِن﴾ ومدخولها في محل رفع خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّكَ...﴾ إلخ في محل نصب مقول القول، وفيها معنى التعليل. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية. ﴿يَلِدُوا﴾: فعل مضارع معطوف على ما قبله مجزوم مثله، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر، ﴿فَاجِرًا﴾: مفعول به. ﴿كَفَّارًا﴾: صفة ﴿فَاجِرًا﴾ مؤكدة.

﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾

الشرح: ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي﴾: وذلك أنه لما دعا على الكفار، قال: رب اغفر لي. يعني: ما صدر مني من ترك الأفضل. وقيل: يحتمل: أنه حين دعا على الكفار: أنه إنما دعا عليهم بسبب تأذيه منهم، فكان ذلك الدعاء عليهم كالانتقام منهم، فاستغفر من ذلك، لما فيه من طلب حظ النفس، أو لأنه ترك الاحتمال. انتهى. خازن. ﴿وَلِوَالِدَيَّ﴾: وكانا مسلمين، واسم أبيه: لمك، واسم أمه: شمخى بوزن سكرى، بنت أنوش. وقيل: هما آدم وحواء. ولا وجه له، وقرئ:

(لِوَلِدَيَّ) يريد ساماً، وحاماً. ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ﴾: منزلي، أو مسجدي، أو سفينتي. ﴿مُؤْمِنًا﴾: لأنه علم: أنه من دخل بيته مؤمناً، لا يعود إلى الكفر. ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾: دعاء لجميع المؤمنين، والمؤمنات، وذلك يعم الأحياء منهم، والأموات، إن شاء الله تعالى، ولهذا يستحب مثل هذا الدعاء اقتداءً بنوح عليه السلام، وبما جاء في الآثار، والأدعية المشهورة المشروعة. وفي هذه ذكر العام بعد الخاص عكس ما رأيته في الآية رقم [٢٣]. ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ أي: هلاكاً، ودماراً. قال تعالى في سورة (الأعراف) رقم [١٣٩] حكاية عن موسى لبني إسرائيل الذين طلبوا منه إلهاً غير الله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ وتبر يتبر من بابي قتل وتعب إذا هلك، يتعدى بالتضعيف، فيقال: تبره، والاسم: التبار، قال تعالى في سورة (الإسراء) رقم [٧]: ﴿وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا﴾.

فهلكوا جميعاً. وقيل: غرق معهم صبيانهم، لكن لا على وجه العقاب لهم، بل لتشديد عذاب آبائهم، وأمهاتهم بإرادة هلاك أطفالهم، الذين كانوا أعز عليهم من أنفسهم، قال عليه الصلاة والسلام: «**يَهْلِكون مهلكاً واحداً، ويصدرون مصادِر شتّى**». وعن الحسن: أنه سئل عن ذلك، فقال: علم الله براءتهم، فأهلكهم بغير عذاب. وقيل: أعقم الله أرحام نسائهم، وأيبس الله أصلاب الآباء قبل الطوفان، فلم يكن معهم صبي حين غرقوا، كما رأيته سابقاً، والله أعلم.

الإعراب: ﴿رَّبِّ﴾: منادى حذف منه أداة النداء منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم... إلخ، وانظر إعراب: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ في الآية رقم [٢]. ﴿ٱغْفِرْ﴾: فعل دعاء، وفاعله مستتر تقديره: «أنت». ﴿لِى﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. (لوالدي): جار ومجرور معطوفان على ما قبلهما، وعلامة الجر الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه مثنى، وحذفت النون للإضافة، وياء المتكلم في محل جر بالإضافة. ﴿وَلِمَن﴾: الواو: حرف عطف. (لمن): جار ومجرور معطوفان على ما قبلهما. ﴿دَخَلَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (مَنْ) وهو العائد، والجملة الفعلية صلة (مَنْ) لا محل لها. ﴿بَيْتِيَ﴾: ظرف مكان متعلق بما قبله، فهو منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة، والياء في محل جر بالإضافة. ﴿مُؤْمِنًا﴾: حال من فاعل ﴿دَخَلَ﴾. ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾: الواو: حرف عطف. (للمؤمنين): جار ومجرور معطوفان على ما قبلهما. ﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): دعائية. ﴿تَزِدِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: (لا)، والفاعل مستتر تقديره: «أنت». ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: مفعول به أول. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿تَبَارًا﴾: مفعول به ثان، والآية بكاملها في محل نصب مقول القول؛ لأنها من قول نوح على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام.

خاتمة: جاء في قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ما يلي: ذكر الكتاب الكريم: أن نوحاً عليه السلام مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وذكرت التوراة: أن آدم عمَّر ثلاثين

وتسعمائة سنةً، وذكرت أيضاً: أن الطوفان ابتدأ في السنة الأولى بعد ستمئة سنة من ولادة نوح عليه السلام، وذكرت كثيراً من الأنبياء، وغيرهم، وأنهم عمروا عمراً طويلاً، ونحن لا نجد معمراً يعمر مثل هذا العمر، أو نصفه، أو ربعه من زمن طويل، وهؤلاء الفراعنة في مصر نجد أجسامهم كأجسام أهل هذه الأيام، وأعمارهم لا تختلف عن أعمارنا، وقد مر لهم أربعون قرناً، أو أكثر، فكيف يكون ذلك؟.

والذي أراه: أنه لا مانع من أن يعمر آدم، ومن قرب منه أعماراً طويلةً؛ لأن النوع الإنساني كان في بدء نشأته لم يحمل هموماً، ولم تعتورْه الأمراض المختلفة، ولم تنهك قوته الأطعمة، التي لا يقدر على هضمها، فكان من المعقول أن يعيش طويلاً، وأما نحن، وأمثالنا ممن كانوا قبل أربعين قرناً، فقد جئنا بعد أن أنهكت النوع الإنساني الأمراض، وطحنته الأدواء، فالواحد منا عصارة لآلاف الأمراض، التي انتابت آباءه، وأمهاته، فلم تعد قوانا تتحمل العمر الطويل.

وعند العلماء بالطب، والأحوال الاجتماعية: أن الإنسان قواه محدودة، والحياة العريضة تستنفذها بسرعة بخلاف الحياة الضيقة، فإنها تكون طويلة لقلة ما يستنفذ من قوى الأجسام بتلك الحياة، فنحن الآن لا نعيش عيشة البساطة، التي كان يعيشها آدم، ومن قرب منه، بل نتفنن في أنواع الطعام، ولذائذ المعيشة بما ينهك قوانا، فلا غرابة أن تكون أعمارنا قصيرة، وقد اجتمعت عليها الأمراض المتوارثة، والتبسط في العيش. ويقول بعض الأطباء الألمان: إن إنسان هذا الزمان يمكن أن يعيش ثلاثمائة سنة إذا اتبع نظاماً خاصاً.

وهناك رأي آخر، وهو أن الأقوام الأولين كانوا يعدون كل شهر عاماً، فإذا قالوا ألفاً ومئتيْ سنة، فإنما يعنون مئة عام من أعوامنا، وقد أشار إلى ذلك المعري بقوله: [الخفيف]

لَسْتُ أَدْرِي مَا هُنَّ فِي الْمَشْهُورِ ... ورَوَوْا لِلْمُعَمَّرِينَ أُمُوراً
مِ عَدُّوا سِنِيهِمْ بِالشُّهُورِ ... أتراهُمْ فِيمَا تَقَضَّى مِنَ الأيَا
كَانَ عَاماً لَدَيهِمُ فِي الدُّهُورِ ... كُلَّمَا لاحَ لِلْعُيُونِ هِلالٌ
عَقْلَ يَنْثَنِي فِي حَالَةِ الْمَبْهُورِ ... هَكَذا يَنْبَغِي وإلَّا فَإنَّ الْـ

ولكني متمسك برأيي، وهو الأول، وإن كان بعض الأطباء يرى الإصابة بالأمراض تورث نسلهم مناعة. انتهى بحروفه.

أقول وبالله التوفيق: كل ما ذكره مردود عليه، أولاً ما قاله المعري باطل لا أساس له بشيء من الصحة، فما يقول المعري وغيره في قوله تعالى في حق أصحاب الكهف في سورة (الكهف) رقم [٢٥]: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ لا تحتمل الآية الكريمة ما ادعاه المعري، وكذلك قوله تعالى الصريح: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ والسنة، والعام،

والحول ألفاظ مترادفة في اللغة العربية. وماذا يقول النجار، والمعري في الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**خَلَقَ اللهُ آدمَ وطولُهُ سِتُّونَ ذِراعاً**». ثم تناقصت الأعمار، والطول؛ حتى وصلنا إلى ما نراه فينا اليوم من قصر الأجسام، وقلة الأعمار، وقصرها. ثم ما ذكره عن التوراة هل يجوز لمسلم أن يحتج وأن يستشهد بالكتب التي ذكر الله أنها محرفة ومزيفة، ثم قال: وهؤلاء الفراعنة في مصر. . .إلخ، وهذا غير صحيح قطعاً، فقد ثبت: أن فرعون موسى عاش أربعمئة سنة لم يشك فيها جوعاً، ولا ألماً في جمسه، ولو شكا شيئاً لما ادعى الألوهية. وما قاله بعض الأطباء الألمان مضروب به عرض الحائط.

ثم ما احتج به هو من أن تنوع الأغذية، والهموم الكثيرة هي التي أضعفت أجسام إنسان اليوم، وغاب عنه ما ذكر في الأحاديث من تقاصر الأعمار، وتصاغر الأجسام، فهل يوجد في هذه الأيام إنسان طوله كطول آدم، أو أحد بنيه، لماذا لم يذكر قول الرسول ﷺ: «**يَا رَبِّ جَعلتَ أمتي أقصَر الأممِ أعماراً، وأقلَّهَا أعْمَالاً**». ولماذا لم يذكر قوله تعالى في سورة (الأعراف) رقم [٣٤]: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، ومثلها في سورة (يونس) رقم [٤٩] وفي سورة (النحل) رقم [٦١].

ولماذا لم يذكر النجار حياة البساطة التي كان يحياها الرسول ﷺ وصحابته الكرام، وهل عمّر أحد منهم أكثر من تسعين سنة إلا في النادر القليل جداً؛ لذا فالقول الحق: أن الله قدر الأعمار، والآجال، والأرزاق، وهو الخبير العليم الحكيم بما قدر، وقضى. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

انتهت سورة (نوح) بعون الله وتوفيقه شرحاً وإعراباً.

والحمد لله رب العالمين.

سورة الجن

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة (الجن) مكية في قول الجميع، وهي ثمان وعشرون آيةً، ومئتان وخمس وثمانون كلمةً، وثمانمئة وسبعون حرفاً.

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾﴾

الشرح: اختلف قديماً في ثبوت وجود الجن، فأنكر وجودهم معظم الفلاسفة، واعترف بوجودهم جمع منهم، وسموهم بالأرواح السفلية، وزعموا: أنهم أسرع إجابة من الأرواح الفلكية، إلا أنهم أضعف، وأما جمهور أرباب الملل، وهم أتباع الرسل، والشرائع، فقد اعترفوا بوجود الجن، لكن اختلفوا في ماهيتهم، فقيل: الجن حيوان هوائي يتشكل بأشكال مختلفة. وقيل: إنها جواهر، وليست بأجسام، ولا أعراض، ثم هذه الجواهر أنواع مختلفة بالماهية، فبعضها خيرة كريمة محبة للخيرات، وبعضها دنيئة خسيسة شريرة محبة للشرور، والآفات، ولا يعلم عدة أنواعهم إلا الله تعالى.

وقيل: إنهم أجسام مختلفة الماهية، لكن تجمعهم صفة واحدة، وهي كونهم حاصلين في الحيِّز، موصوفين بالطول، والعرض، والعمق، وينقسمون إلى لطيف، وكثيف، وعلوي، وسفلي، ولا يمتنع في بعض الأجسام اللطيفة الهوائية أن تكون مخالفة لسائر أنواع الأجسام في الماهية، وأن يكون لها علم مخصوص، وقدرة مخصوصة على أفعال عجيبة، أو شاقة يعجز البشر عن مثلها، وقد يتشكلون بأشكال مختلفة، وذلك بإقدار الله تعالى إياهم على ذلك. وقيل: إن الأجسام متساوية في تمام الماهية، وليست البنية شرطاً للحياة، وهذا قول الأشعري، وجمهور أتباعه، وشذ تأويل المعتزلة من هذه الأمة، فأنكروا وجود الجن، وقالوا: البنية شرط الحياة، وأنه لا بد من صلابة البنية حتى يكون قادراً على الأفعال الشاقة. وهذا قول منكر، وصاحب هذا القول ينكر خرق العادات، ورد ما ثبت وجوده بنص الكتاب، والسنة. انتهى خازن؛ علماً بأن الزمخشري صرح في كشافه بوجود الجن.

هذا؛ واختلف الرواة: هل رأى النبي ﷺ الجن؟ فأثبتها ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ فيما رواه عنه الإمام مسلم في صحيحه، وقد تقدم حديثه في تفسير سورة (الأحقاف)، عند قوله

تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ رقم [٢٩] وأنكرها ابن عباس - رضي الله عنهما -، فيما رواه عنه البخاري، ومسلم. قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن، ولا رآهم، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين، وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ فقيل: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قالوا: وما ذاك إلا من شيء حدث؟ فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء؟ فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة بالنبي ﷺ، وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن؛ استمعوا له، وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، فرجعوا إلى قومهم ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ زاد في روايةٍ: وإنما أوحي إليه قول الجن. أخرجاه في الصحيحين.

قال القرطبي في شرح مسلم في حديث ابن عباس - رضي الله عنهما -: هذا معناه: أنه لم يقصدهم بالقراءة، بل لما تفرقوا يطلبون الخبر، الذي حال بينهم وبين استراق السمع؛ صادف هؤلاء النفرُ رسولَ الله ﷺ يصلي بأصحابه، وعلى هذا فهو ﷺ لم يعلم باستماعهم، وإنما أعلمه الله عز وجل بما أوحي إليه من قوله: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ وأما حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - فقضية أخرى، وجن آخرون.

والحاصل من الكتاب، والسنة: العلم القطعي بأن الجن، والشياطين موجودون متعبَّدُون بالأحكام الشرعية على النحو الذي يليق بخلقهم وبحالهم، وأن النبي ﷺ رسول إلى الإنس والجن، فمن دخل في دينه؛ فهو من المؤمنين معهم في الدنيا، والآخرة، والجنة، ومن كفر به، فهو من الشياطين المبعدين المعذبين فيها، والنار مستقره، وهذا الحديث يقتضي: أن الرجم بالنجوم لم يكن قبل البعث، وذهب قوم إلى أنه كان قبل مبعثه ﷺ، وآخرون إلى أنه كان؛ لكن زاد بهذا المبعث، وبهذا القول يرتفع التعارض بين الحديثين. هذا آخر كلام القرطبي، والله أعلم. انتهى. خازن. هذا؛ وانظر ما ذكرته في سورة (الأحقاف) فإنه جيد والحمد لله.

هذا؛ وعكاظ: سويقة معروفة بقرب مكة، كان العرب يقصدونها في كل سنة مرة في الجاهلية، وأول الإسلام، وتهامة كل ما نزل عن نجد من بلاد الحجاز سميت تهامة، لتغير هوائها، ومكة من تهامة معدودة، ونخلة: واد من أودية مكة قريب منها.

التفسير: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ أي: قل: يا محمد أوحي إليَّ، ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي: استمعوا إلى قراءتي القرآن. ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ أي: الذين استمعوا القرآن قالوا لقومهم. ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾: عظيماً بديعاً مبايناً لكلام الناس في حسن نظمه، ودقة معناه، وفصاحته، وبلاغته. وانظر الفرق بين (الملائكة) و(الجن) في آخر هذه السورة.

هذا؛ وأصل الوحي: الإشارة السريعة، والوحي: الكتاب المنزل على الرسول المرسل لقومه، مثل: موسى، وعيسى، ومحمد، صلى الله عليهم، وسلم أجمعين، والوحي أيضاً: الكتابة، والرسالة، والإلهام، والكلام الخفي، وكل ما ألقيته إلى غيرك. وتسخير الطير لما خلق له إلهام. والوحي إلى النحل، وتسخيرها لما خلقها الله له إلهام أيضاً، كما رأيت في سورة (النحل) رقم [٦٨]. قال تعالى في سورة (طه) رقم [٥٠] حكاية عن قول موسى ـ على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ جواباً لفرعون: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ هذا؛ و﴿نَفَرٌ﴾ يطلق على ما دون العشرة، مثل: رهط، ومعشر، ونحو ذلك، والجمع: أنفار، والنسبة إليه نفري. وقال الزجاج: النفير جمع: نفر، كالعبيد جمع: عبد. وأما (العجب) بفتح العين، والجيم؛ فهو انفعال نفساني يعتري الإنسان عند استعظامه، أو استطرافه، أو إنكاره ما يرد عليه. وقال الراغب: العجب حالة تعرض للإنسان بسبب الشيء، وليس هو شيئاً له في ذاته حالة حقيقية، بل هو بحسب الإضافات إلى من يعرف السبب، ومن لا يعرفه، وحقيقة أعجبني كذا: ظهر لي ظهوراً لم أعرف سببه. هذا؛ والعجب بضم العين وسكون الجيم رؤية النفس، وحقيقته أن يرى الإنسان نفسه فوق غيره علماً، أو ورعاً، أو أدباً، أو غير ذلك، ويعتقد: أن له منزلة لا يدانيه فيها سواه، وهذا هو الكبر الذي يدخل صاحبه جهنم، وبئس المصير، وهذا لا يكون إلا من ضعيف الإيمان، وناقص العقل، وميت الضمير، والوجدان الإنساني، ورحم الله من يقول: [الكامل]

مَلأى السَّنَابِلِ تَنْحَنِي بِتَوَاضُعٍ ... وَالْفَارِغَاتُ رُؤُوسُهُنَّ شَوَامِخُ

الإعراب: ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت». ﴿أُوحِىَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول. ﴿إِلَىَّ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿أَنَّهُ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿ٱسْتَمَعَ﴾: فعل ماض. ﴿نَفَرٌ﴾: فاعله. ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾: متعلقان بمحذوف صفة ﴿نَفَرٌ﴾، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (أن)، و(أن) واسمها وخبرها في تأويل مصدر في محل رفع نائب فاعل ﴿أُوحِىَ﴾ والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، والجملة الفعلية: ﴿قُلْ أُوحِىَ...﴾ إلخ ابتدائية لا محل لها من الإعراب. ﴿فَقَالُوٓا۟﴾: الفاء: حرف عطف. (قالوا): فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿إِنَّا﴾: حرف مشبه بالفعل، و(نا): اسمها حذفت نونها، وبقيت الألف دليلاً عليها. ﴿سَمِعْنَا﴾: فعل، وفاعل. ﴿قُرْءَانًا﴾: مفعول به. ﴿عَجَبًا﴾: صفة له، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿فَقَالُوٓا۟...﴾ إلخ معطوفة على جملة: ﴿ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ...﴾ إلخ فهي في محل رفع مثلها.

﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾

الشرح: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾: يدعو إلى الصواب، يعني: التوحيد، والإيمان بالله، ومعرفته. والرشد: الاهتداء، والاستقامة على طريق الحق، وضده: الغي، والضلال. قال تعالى

في سورة (البقرة) رقم [٢٥٦]: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ﴾ والرَّشَد، بفتح الشين، والرشاد: طريق الهدى والخير، قال تعالى في سورة (غافر): ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ رقم [٣٨]. والراشد هو المهتدي إلى محاسن الأعمال، ومكارم الأخلاق. قال تعالى في سورة (الحجرات) رقم [٧]: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾.

﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ﴾ أي: صدقنا، وأيقنا أنه من عند الله. ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ أي: لن نعود إلى ما كنا عليه من الشرك، وفيه دليل على أن أولئك النفر كانوا مشركين. قيل: كانوا يهوداً. وقيل: كانوا نصارى. وقيل: كانوا مجوساً ومشركين.

هذا؛ والغرض، بل والحكمة من الإخبار عن استماع الجن، توبيخ، وتقريع قريش، والعرب في كونهم تباطؤوا عن الإيمان؛ إذ كانت الجن خيراً منهم، وأسرع إلى الإيمان، فإنهم من حين ما سمعوا القرآن استعظموه، وآمنوا به، ورجعوا إلى قومهم منذرين، بخلاف العرب الذين نزل بلسانهم، فإنهم كذبوا، واستهزؤوا، وهم يعلمون: أنه كلام معجز، وأن محمداً ﷺ أمي لا يقرأ ولا يكتب، وشتان ما بين موقف الإنس، والجن؛ الذين أسرعوا إلى الإيمان، واستجابوا لله، ورسوله.

الإعراب: ﴿يَهْدِىٓ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل يعود إلى (القرآن)، ومفعوله محذوف، تقديره: يهدي الخلق، والجملة الفعلية في محل نصب صفة ثانية لـ: ﴿قُرْءَانًا﴾، أو في محل نصب حال منه بعد وصفه بما تقدم. ﴿إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾: متعلقان بما قبلهما. (آمنا): فعل، وفاعل، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿سَمِعْنَا...﴾ إلخ ﴿بِهِۦۖ﴾ جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿وَلَن﴾: الواو: حرف عطف. (لن): حرف نفي ونصب واستقبال. ﴿نُّشْرِكَ﴾: فعل مضارع، منصوب بـ: (لن)، والفاعل مستتر تقديره: «نحن». ﴿بِرَبِّنَآ﴾: متعلقان بما قبلهما. و(نا): في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿أَحَدًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، وفيه اختلاف الجمل المتعاطفة في الحال، والماضي، والاستقبال.

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾

الشرح: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ﴾: عظم، وتقدس، وارتفع، وعلا، وتنزه. ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾: جلال ربنا، وعظمته. ومنه قول أنس ـ رضي الله عنه ـ كان الرجل إذا قرأ (البقرة) و(آل عمران) جدَّ فينا، أي: عظم قدره. وقيل: الجد: الغنى، ومنه الحديث من قول النبي ﷺ: «**ولا ينفعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ**». أي: لا ينفع ذا الغنى غناه. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: عظمت قدرة ربنا. وقيل: أمر ربنا. وقيل: آلاؤه، ونعماؤه على خلقه. ولا تنس: أن الجد أبو الأب، وأبو الأم.

وهو بكسر الجيم: الاجتهاد، والمثابرة على العمل، وضد الهزل أيضاً، والجَد بفتح الجيم: الحظ، والبخت ضد النحس. ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً﴾: زوجة. ﴿وَلَا وَلَدًا﴾: كما يقول كفار الجن، والإنس. ومعنى الآية: تنزه جلال ربنا، وعظمته، وكبرياؤه أن يتخذ صاحبة وولداً للاستئناس بهما، والحاجة إليهما، والله منزه عن كل نقص.

تنبيه: يقرأ في هذه السورة، وما يعطف عليها إلى آخر السورة بفتح همزة (أَنَّ) عطفاً على المصدر المؤول بقوله تعالى: ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ﴾ ليكون المعطوف في محل رفع مثله، ويقرأ بكسر الهمزة عطفاً على قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا﴾ ليكون المعطوف في محل نصب مقول القول مثله، ولا خلاف في كسر ما بعد القول، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ﴾.

الإعراب: ﴿وَأَنَّهُ﴾: الواو: حرف عطف. (أنه): حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿تَعَٰلَىٰ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، وهو متصرف. ﴿جَدُّ﴾: فاعله، وهو مضاف، و﴿رَبِّنَا﴾ مضاف إليه، و(نا) في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (أنَّ)، والكلام معطوف على ما قبله على الاعتبارين اللذين ذكرتهما لك. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿ٱتَّخَذَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿رَبِّنَا﴾. ﴿صَٰحِبَةً﴾: مفعول به. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): صلة لتأكيد النفي. ﴿وَلَدًا﴾: معطوف على ما قبله، والجملة الفعلية في محل نصب حال من ﴿رَبِّنَا﴾ وساغ مجيء الحال من المضاف إليه؛ لأن المضاف كجزئه، وهو سائغ، قال ابن مالك ـ رحمه الله تعالى ـ: [الرجز]

وَلَا تُجِزْ حَالاً مِنَ الْمُضَافِ لَهْ ... إِلَّا إِذَا اقْتَضَى الْمُضَافُ عَمَلَهْ

أَوْ كَانَ جُزْءَ مَا لَهُ أُضِيفَا ... أَوْ مِثْلَ جُزْئِهِ فَلَا تَحِيفَا

هذا؛ وقيل: إن جملة: ﴿مَا ٱتَّخَذَ...﴾ إلخ في محل رفع خبر (إن)، و(إن) جملة ﴿تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ معترضة بين اسم أن وخبرها، ولا بأس به، فهو في قوة الأول. هذا؛ وقيل: في الجملة المعترضة استعارة تصريحية، ولا أرى له وجهاً صحيحاً.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾﴾

الشرح: ﴿وَأَنَّهُۥ﴾: الحال، والشأن. ﴿كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾: جاهلنا، قيل: هو إبليس في قول مجاهد، وابن جريج، وقتادة. ورواه أبو بردة بن أبي موسى عن أبيه عن النبي ﷺ. وقيل: المشركون من الجن. قال قتادة: عصاه سفيه الجن، كما عصاه سفيه الإنس. هذا؛ والشطط والاشتطاط: الغلو في الكفر، وهو الجور، أو الكذب، وأصله: البعد، فيعبر به عن الجور لبعده عن العدل، وعن الكذب لبعده عن الصدق. قال الشاعر: [الطويل]

بِأَيَّةِ حَالٍ حَكَّمُوا فِيكَ فَاشْتَطُّوا ... وَمَا ذَاكَ إِلَّا حَيْثُ يَمَّمَكَ الْوَخْطُ

يممك: قصدك، والوخط: الطعن بالرمح، ومن معانيه أيضاً: الشيب. وقال أعشى بني قيس بن ثعلبة: وهو من الأول: [البسيط]

أَتَنْتَهُونَ وَلَنْ يَنْهَى ذَوِي شَطَطٍ ... كَالطَّعْنِ يَذْهَبُ فِيهِ الزَّيْتُ وَالْفُتُلُ

هذا؛ وسفِه نفسَه سفهاً، وسفاهةً: استمهنها، وأذلها، واستخف بها. قال المبرد، وثعلب ـ رحمهما الله ـ: سفِه بالكسر متعد، وبالضم لازم، ويشهد له ما جاء عن النبي ﷺ قوله: «**الكبرُ أنْ تسفهَ الحقَّ، وتغمِصَ الناسَ**». والأول من باب طرب، والثاني من باب ظرف.

هذا؛ وجاء في المختار: وقولهم: سَفِه نفسَه، وغبِن رأيَه، وبطِر عيْشَه، وألِم بطنَه، ووفِق أمرَه، ورشِد أمرَه، كان الأصل: سفهتْ نفسُ زيدٍ، ورشِد أمْرُه، فلما حُوِّل الفعل إلى الرَّجُل؛ انتصب ما بعده بوقوع الفعل عليه؛ لأنه صار في معنى: سفَّه نفسه بالتشديد، هذا قول البصريين، والكسائي، ويجوز عندهم تقديم المنصوب، كما يجوز غلامَهُ ضربَ زيدٌ. وقال الفراء: لما حُوِّل الفعل من النفس إلى صاحبها؛ خرج ما بعده مفسراً ليدل على أن السفه فيه، وكان حكمه أن يكون سفِه زيدٌ نفساً؛ لأن المفسِّر لا يكون إلا نكرة، ولكنه تُرِك على إضافته، ونُصب كنصب النكرة تشبيهاً بها، ولا يجوز عنده تقديمه؛ لأن المفسِّر لا يتقدم، ومثله قولهم: ضِقْتُ بِهِ ذرعاً، وطبْتُ به نفساً، والمعنى: ضاق ذرعي به، وطابت نفسي به. انتهى. بحروفه.

الإعراب: (أنه): حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿يَقُولُ﴾: فعل مضارع. ﴿سَفِيهُنَا﴾: تنازعه الفعلان ﴿كَانَ﴾ ويقول، فالأول يطلبه اسماً له، والثاني يطلبه فاعلاً له، فإن أعطيته للأول؛ أضمرت في الثاني فاعلاً له، وإن أعطيته للثاني؛ أضمرت في الأول اسماً له، والثاني أولى عند البصريين لقربه، والأول أولى عند الكوفيين لسبقه وانظر الآية رقم [٧]. هذا؛ وأجاز مكي اعتبار اسم ﴿كَانَ﴾ ضميراً يعود على اسم (أنَّ) فتبقى الجملة الفعلية خبراً لها، وعليه فلا تنازع في العمل. و(نا) ضمير متصل في محل جر بالإضافة. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من ﴿شَطَطًا﴾ كان صفة له، فلما قدم عليه؛ صار حالاً، وجملة: ﴿يَقُولُ...﴾ إلخ في محل نصب خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة: ﴿كَانَ...﴾ إلخ في محل رفع خبر أنَّ، وأنَّ واسمها، وخبرها معطوف على سابقه على الوجهين المعتبرين فيه. ﴿شَطَطًا﴾: صفة مفعول مطلق محذوف، التقدير: قولاً شططاً.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾

الشرح: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾: حسبنا. ﴿أَن لَّن تَقُولَ﴾: قال الجمل ـ رحمه الله تعالى ـ: هذا اعتذار من هؤلاء النفر عما صدر منهم قبل الإيمان من نسبة الولد، والصاحبة إليه تعالى. ومحصل الاعتذار: أنهم يقولون: إنا ظننا، واعتقدنا: أن أحداً لا يكذب على الله، وأن ما قاله سفهاؤنا

من نسبة الصاحبة، والولد إليه حقٌّ، وصدقٌ، فلما سمعنا القرآن وأسلمنا؛ علمنا: أنه كذب. انتهى. هذا؛ وإن الظن في الشريعة قسمان: محمود، ومذموم، فالمحمود منه: ما سلم معه دين الظان، ودين المظنون به عند بلوغه. والمذموم ضده بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ الآية رقم [١٢] من سورة (الحجرات)، وقوله تعالى في سورة (النور) رقم [١٢]: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾، وقوله تعالى في سورة (الفتح) رقم [١٢]: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾. هذا؛ وينبغي للإنسان أن يحسن ظنه بالناس، ولا يسيء ظنه بهم استجابة لأمر الله تعالى في آية (الحجرات): ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ إلا إذا ظهر من أحدهم ما يخالف الشرع الشريف. ولا يسيء الظن بهم إلا الذي أعماله سيئة. قال الشاعر: [الطويل]

إِذَا سَاءَ فِعْلُ الْمَرْءِ سَاءَتْ ظُنُونُهُ وَصَدَّقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوَهُّمِ

وكذلك ينبغي للمسلم أن يحسن ظنه بالله تعالى بأن الله يرحمه، ويعفو عنه، ففي الحديث القدسي يقول الله تعالى: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عبدِي بِي...**» إلخ، ولكن ينبغي أن يقرن حسن ظنه بالله بحسن العمل، وإلا فهو ظن خاطئ، وزعم فاسد، ففي الحديث الشريف يقول الرسول ﷺ: «**ليسَ الإيمانُ بالتمنِّي، ولَا بالتحلّي، ولكنْ ما وقرَ في القلبِ، وصَدَّقَهُ العملُ، إن قوماً ألهتهُم الأمانيُّ؛ حتى خرجُوا من الدنيا ولا حسنةَ لهمْ، وقالوا: نحسِنُ الظنَّ باللهِ، كذَبُوا! لَوْ أَحْسَنُوا الظنَّ؛ لأحْسَنُوا العملَ**». ومفرد ﴿ٱلْإِنسُ﴾ إنسان، انظر الآية رقم [١٩] من سورة (المعارج)، وانظر الكلام على الجن في الآية الأخيرة من هذه (السورة) ولا تنس الطباق بين (الإنس) و(الجن).

الإعراب: ﴿وَأَنَّا﴾: الواو: حرف عطف. (أنَّ): حرف مشبه بالفعل، و(نا): اسمها. ﴿ظَنَنَّآ﴾: فعل، وفاعل. ﴿أَن﴾: حرف مشبه بالفعل مخفف من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، التقدير: أنه. ﴿لَّن﴾: حرف ناصب. ﴿تَقُولَ﴾: فعل مضارع. ﴿ٱلْإِنسُ﴾: فاعله. ﴿وَٱلْجِنُّ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلقان بالفعل ﴿تَقُولَ﴾، أو هما متعلقان بمحذوف حال من ﴿كَذِبًا﴾ كان نعتاً له، فلما قدم عليه صار حالاً على القاعدة: «نعت النكرة إذا تقدم عليها؛ صار حالاً»، ﴿كَذِبًا﴾: مفعول به، أو نعت مفعول مطلق محذوف، التقدير قولاً كذباً، وجملة: ﴿لَّن تَقُولَ...﴾ إلخ في محل رفع خبر (أنَّ)، و(أنَّ) واسمها وخبرها في تأويل مصدر في محل رفع معطوف على مثله في الآية رقم [١]، وعلى قراءة كسر الهمزة فالجملة معطوفة على: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ فهي في محل نصب مقول القول مثلها.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾

الشرح: كان الرجل من العرب في الجاهلية إذا سافر، فأمسى في أرض قفر؛ قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه، فيبيت في أمن، وجوار منهم حتى يصبح. روى البغوي

بإسناد الثعلبي عن كَرْدَمِ بن أبي السائب الأنصاريّ ـ رضي الله عنه ـ قال: خرجْتُ مع أبي إلى المدينة في حاجةٍ، وذلك أولَ ما ذُكرَ رسولُ اللهِ ﷺ بمكة، فآوانَا المبيتُ إلى راعي غنَم، فلما انتصَف الليل جاء ذئب، فأخذ حملاً من الغنم، فوثب الراعي، فقال: يا عامر الوادي جارك، فنادى منادٍ لا نراه، يقول: يا سرحان أرسله، فأتى الحمل يشتد حتى دخل الغنم، ولم تصبه كدمة، وأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ...﴾ إلخ، انتهى خازن وقرطبي وغيرهما. وخذ ما يلي:

حدث بعض الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ قال: خرجت في طلب إبل لي، فأدركتها، ثم أردت النوم ـ وكنا إذا نزلنا بواد قلنا: نعوذ بعزيز هذا الوادي ـ فتوسدت ناقتي، وقلت: أعوذ بعزيز هذا الوادي، فإذا هاتف يقول: [الرجز]

ويحكَ عُذْ باللهِ ذِي الجلالِ ... ومنزِلِ الحرامِ والحلالِ
ووحِّد اللهَ ولَا تُبالي ... ما كَيْدُ ذِي الجِنِّ من الأهوالِ
إذ تذكرُ اللهَ على الأحوالِ ... وفي سهولِ الأرضِ والجبالِ
قد صارَ كيدُ الجنِّ في سفالِ ... إلا النبي وصالحَ الأعمالِ

فقلت له: [الرجز]

يا أيُّها القَائلُ ما تقولُ؟ ... أرشدٌ عندكَ أمْ تضْليلُ؟

فقال: [الرجز]

جاءَ رسولُ اللهِ بِالْخَيْراتِ ... جاءَ بياسينَ وحاميماتِ
وسورٍ بعدُ مفصلاتِ ... يأمرُ بالصَّلاةِ والزكاةِ
ويزجرُ الأقوامَ عن مناةِ ... قد كنَّ في الإسلامِ منكراتِ

فقلت: أما إنه لو كان لي من يؤدي إبلي هذه إلى أهلي؛ لأتيته حتى أسلم، فقال: أنا أؤديها، فركبت بعيراً منها، ثم قدمت فإذا النبي ﷺ على المنبر (وفي رواية: فوافيت الناس في صلاة الجمعة) فبينا أنا أنيخ راحلتي؛ إذ خرج إليّ أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ، فقال لي: يقول لك رسول الله ﷺ: ادخل، فدخلت، فلما رآني؛ قال: «**فما فعل الرجل؟**». وفي رواية: «**ما فعل الشيخُ الذي ضمنَ لكَ أن يؤدِّيَ إبلكَ، أما إنه قد أداها سالمةً!**». وقد قص الله على نبيه ﷺ ما كان عليه الناس قبل بعثته من أن الإنسان إذا نزل منزلاً مخوفاً، قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهائه بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ...﴾ إلخ.

هذا؛ و﴿رِجَالٌ﴾ جمع: رجل، وهو مأخوذ من الرجولة بمعنى الشهامة، والحمية، والنخوة، ومن لم يتصف بذلك؛ فليس رجلاً بالمعنى الصحيح، والمرأة مأخوذة من المرء، وهو الرجل؛ لأن حواء أخذت من ضلع آدم، كما رأيت فيما سبق؛ لذا جعلت نهمتها في الرجل، وأما الرجل فقد جعلت نهمته في التراب، أي: حطام الدنيا؛ لأن آدم خلق من تراب. ونص الآية صريح على أن لفظ الرجال يطلق على الجن خلافاً لمن منع ذلك.

﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي: زاد الجن الإنس رهقاً، أي: خطيئةً، وإثماً. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. والرهق: الإثم في كلام العرب، وغشيان المحارم. ورجل رهق: إذا كان كذلك، قال تعالى في سورة (يونس) على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام في حق الذين أحسنوا الحسنى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ رقم [٢٦]، وقال في حق الذين كسبوا السيئات: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ رقم [٢٧] منها أيضاً. هذا؛ وقال الأعشى: [البسيط]

لا شَيْءَ ينفعُني مِنْ دونِ رُؤْيَتِها هَلْ يَشْتَفِي وَامِقٌ ما لَمْ يُصِبْ رَهَقا؟

يعني: إثماً، وأضيفت الزيادة إلى الجن؛ إذ كانوا سبباً لها. وقال مجاهد: المعنى: زاد الإنس الجن طغياناً، وتمرداً بهذا التعوذ؛ حتى قالت عظماء الجن: سدنا الإنس، والجن. ولا شك أن الاستعاذة بالجن دون الاستعاذة بالله كفر، وشرك.

الإعراب: ﴿وَأَنَّهُ﴾: الواو: حرف عطف. (أنَّ): حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿رِجَالٌ﴾: اسم ﴿كَانَ﴾. ﴿مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة ﴿رِجَالٌ﴾. ﴿يَعُوذُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، الواو فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿بِرِجَالٍ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾: متعلقان بمحذوف صفة ﴿رِجَالٌ﴾. وجملة: ﴿كَانَ...﴾ إلخ في محل رفع خبر أن، و (أنه كان...) إلخ معطوف على الكلام قبله على الوجهين المعتبرين فيه. ﴿فَزَادُوهُمْ﴾: ماض، وفاعله، ومفعوله الأول. ﴿رَهَقًا﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب مثلها.

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾

الشرح: هذا من قول الله تعالى للإنس، لا من قول الجن. والمعنى: أن الجن ظنوا كما ظنت الإنس أن لن يبعث الله رسولاً إلى خلقه يقيم به الحجة عليهم. أو المعنى: ظن الجن كما ظننتم يا معشر قريش أن لن يبعث الله أحداً بعد موته، ولكنَّ الجن لما سمعوا القرآن؛ اهتدوا، وأقروا بالبعث؛ فهلا أقررتم مثلهم؟! ففيه توبيخ شديد للمنكرين البعث من البشر، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿وَأَنَّهُمْ﴾: الواو: حرف عطف. (أنهم): حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿ظَنُّواْ﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿كَمَا﴾: الكاف: حرف تشبيه، وجر. و(ما): مصدرية. ﴿ظَنَنتُمْ﴾: فعل، وفاعل، و(ما) والفعل (ظنَّ) في تأويل مصدر في محل جر بالكاف، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لمصدر محذوف، التقدير: ظنوا ظناً كائناً مثل ظنكم، وهذا ليس مذهب سيبويه، وإنما مذهبه في مثل هذا التركيب أن يكون منصوباً على الحال من المصدر المضمر المفهوم من الفعل المتقدم، وإنما أحوج سيبويه إلى هذا؛ لأن حذف الموصوف، وإقامة الصفة مقامه لا يجوز إلا في مواضع محصورة، وليس هذا منها. ﴿أَن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، التقدير: أنه. ﴿لَّن﴾: حرف ناصب. ﴿يَبْعَثَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ: (لَنْ). ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿أَحَدًا﴾: مفعول به، وجملة: ﴿لَّن يَبْعَثَ...﴾ إلخ في محل رفع خبر (أنَّ)، و﴿أَن﴾ المخففة واسمها المحذوف، وخبرها في تأويل مصدر في محل نصب سد مسد مفعولي الظن، والمسألة من باب التنازع؛ لأن ﴿ظَنُّواْ﴾ يطلب مفعولين، و﴿ظَنَنتُمْ﴾ كذلك، وهو من إعمال الثاني للحذف من الأول، أو من إعمال الأول للحذف من الثاني، والأول أولى عند الكوفيين لسبقه، والثاني أولى عند البصريين لقربه، قال ابن مالك رحمه الله في ألفيته: [الرجز]

إنْ عامِلانِ اقْتَضَيا في اسمٍ عَمَلْ ... قَبْلُ فَلِلْواحِدِ مِنْهُمَا الْعَمَلْ
وَالثَّانِي أولَى عِنْدَ أهْلِ الْبَصْرَهْ ... واختارَ عَكْساً غَيْرُهُمْ ذَا أسْرَهْ

وجملة: ﴿ظَنُّواْ...﴾ إلخ في محل رفع خبر (أنَّ)، والمصدر المؤول؛ والأحرى: والكلام: (أنهم ظنوا. . .) إلخ معطوف على ما قبله على الوجهين المعتبرين فيه.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾﴾

الشرح: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ أي: قصدنا، وطلبنا السماء، كما جرت عادتنا باستراق السمع، فاللمس مستعار للطلب، يقال: لمسه والتمسه، وتلمسه، كطلبه، واطلبه، وتطلبه، قال الشاعر وهو يزيد بن الحكم الكلابي: [الطويل]

مَسَسْنَا مِنَ الآباءِ شَيْئاً وكُلُّنَا ... إلى نَسَبٍ في قَومِهِ غيرُ واضِعِ

﴿فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا﴾ أي: حفظة من الملائكة، جمع: حارس، مثل: ركب جمع راكب، وخدم جمع خادم، ولذلك وصف بـ: (شديد) لو ذهب إلى معناه؛ لقيل: شداداً، مثل قولنا: السلف الصالح، بمعنى الصالحين. (شهباً): جمع شهاب، وهو انقضاض الكواكب المحرقة لهم، وجمع الحرس: أحراس. قال امرؤ القيس في معلقته رقم [٣٢] ـ وهو الشاهد رقم [٤٧٢] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الطويل]

تَـجَـاوَزْتُ أَحْـرَاسـاً إِلَـيْـهَـا ومـعْـشَـراً عَـلـيَّ حِـراصـاً لَـوْ يُـسِـرُّونَ مَـقْـتَـلِـي

الإعراب: ﴿وَأَنَّا﴾: الواو: حرف عطف. (أنَّ): حرف مشبه بالفعل، و(نا): اسمها. ﴿لَمَسْنَا﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (أنَّ). ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾: مفعول به، و ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ معطوف على المصدر المؤول في الآية الأولى، فهو في محل رفع مثله، وعلى قراءة الآية بكسر الهمزة فالجملة معطوفة على قوله: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا...﴾ إلخ فهي في محل نصب مقول القول مثلها. ﴿فَوَجَدْنَٰهَا﴾: الفاء: حرف عطف. (وجدناها): فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل رفع مثلها. ﴿مُلِئَتْ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل يعود إلى ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾ تقديره: «هي». ﴿حَرَسًا﴾: تمييز. وقيل: حال، ولا وجه له. ﴿شَدِيدًا﴾: صفة ﴿حَرَسًا﴾. ﴿وَشُهُبًا﴾: معطوف على: ﴿حَرَسًا﴾ وجملة: ﴿مُلِئَتْ...﴾ إلخ في محل نصب مفعول به ثان، وأجيز اعتبارها في محل نصب حال من الضمير المنصوب، والرابط: الضمير فقط، وتقدر: «قد» قبلها لتقربها من الحال، وهذا على تأويل (وجدناها) بـ: «صادفناها». فيكون قد اكتفى بمفعول واحد.

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾

الشرح: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا﴾: من السماء. ﴿مَقَٰعِدَ﴾: مواضع، ومراكز. ﴿لِلسَّمْعِ﴾: للاستماع، واستراق السمع من الملائكة. ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ﴾: فمن يحاول استراق السمع في هذه الأيام. ﴿يَجِدْ لَهُۥ...﴾ إلخ: أي: يجد شهاباً ينتظره بالمرصاد يحرقه، ويهلكه. وقيل: شهاباً من الكواكب، ورصداً من الملائكة. وانظر الآية رقم [٢٧] الآتية.

تنبيه: اختلفوا هل كانت الشياطين تُقذَف قبل مبعث النبي ﷺ، أو ذلك أمر حدث بمبعثه؟ فقال قوم: لم تكن السماء تحرس في الفترة بين عيسى، ومحمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ خمسمئة عام، وإنما كان من أجل بعثة النبي ﷺ، فلما بعث محمد ﷺ منعوا من السموات كلها، وحرست بالملائكة، والشهب. وقال عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: لما كان اليوم الذي نبئ فيه رسول الله ﷺ منعت الشياطين، ورموا بالشهب.

وقال الزمخشري: والصحيح: أنه كان قبل المبعث، وقد جاء ذكره في شعر أهل الجاهلية قال بشر بن أبي خازم: [الكامل]

وَالْـعِـيـرُ يَـرْهَـقُـهَـا الْـخَـبَـارُ، يَـتْـبَـعُـهُ نَـقْـعٌ يَـثُـور تـخـالُـهُ طُـنُـبَـا

وقال أوس بن حجر، وهو جاهلي: [الكامل]

وَانْـقَـضَّ كَـالـدُّرِّيِّ يَـتْـبَـعُـهُ نَـقْـعٌ يـثُـور تـخـالُـهُ طُـنُـبَـا

وهذا قول الأكثرين، وقد أنكر الجاحظ البيتين، وقال: كل شعر روي فيه فهو مصنوع، وأن الرمي لم يكن قبل المبعث. والقول بالرمي أصح، لقوله تعالى: ﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ وهذا إخبار عن الجن: أنه زيد في حرس السماء؛ حتى امتلأت منهم، ولما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، قال: بينما النبي ﷺ جالس في نفر من أصحابه؛ إذ رمي بنجم، فقال: «**ما كُنْتُمْ تقولونَ في مثلِ هذَا في الجاهليةِ؟**». قالوا: كنا نقول: يموت عظيم، أو يولد عظيم، فقال ﷺ: «**إنها لا تُرْمَى لموتِ أحدٍ، ولا لحياتِهِ، ولكنْ رَبُّنَا سُبْحَانَهُ وتعالَى إذا قضَى أمْراً في السماءِ؛ سبَّحَ حملةُ الْعرشِ، ثم سبَّحَ أهلُ كلِّ سماءٍ حتى ينتهي التسبيح إلى هذهِ السماءِ، ويسْتَخبرُ أهلُ السماءِ حملةَ العرشِ ماذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ فيخبرونَهُمْ، ويخبرُ أهلُ كلِّ سَمَاءٍ، حتى ينتهيَ الخبرُ إلى هذِهِ، فتَتَخطَّفُ الجِنُّ، فيُرْمَوْنَ، فمَا جاؤوا به فهو حقٌّ، ولكنهمْ يَزِيدونَ فيهِ**»

قال الحافظ: فلو قال قائل: كيف تتعرض الجن لإحراق نفسها بسبب استماع خبر، بعد أن صار ذلك معلوماً لهم؟! فالجواب: أن الله تعالى ينسيهم ذلك حتى تعظم المحنة، كما ينسى إبليس في كل وقت: أنه لا يسلم، وأن الله تعالى قال له: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [٣٥] من سورة (الحجر)، ورقم [٧٨] من سورة (صٓ)، ولولا هذا لما تحقق التكليف. وأحسن من هذا ما ذكرته في سورة (الملك) رقم [٥]. تأمل، وتدبر، وربك أعلم.

الإعراب: ﴿وَأَنَّا﴾: الواو: حرف عطف. (أنَّ): حرف مشبه بالفعل، ونا: اسمها. ﴿كُنَّا﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون، و(نا): اسمه. ﴿نَقْعُدُ﴾: فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: «نحن». ﴿مِنْهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من ﴿مَقَاعِدَ﴾ كان نعتاً له، على مثال ما رأيت في الآية رقم [٥]. ﴿مَقَاعِدَ﴾: ظرف مكان متعلق بما قبله. ﴿لِلسَّمْعِ﴾: متعلقان بالفعل ﴿نَقْعُدُ﴾، والجملة الفعلية في محل نصب خبر (كان)، وجملة: ﴿كُنَّا...﴾ إلخ في محل رفع خبر (أنَّ)، و(أنَّ) واسمها وخبرها كلام معطوف على ما قبله على الوجهين المعتبرين فيه. ﴿فَمَن﴾: الفاء: حرف تفريع واستئناف. (مَنْ): اسم شرط جازم، مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يَسْتَمِعِ﴾: فعل مضارع فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ) تقديره: «هو»، والمفعول محذوف، يدل عليه المقام. ﴿ٱلْآنَ﴾: ظرف زمان متعلق بما قبله. ﴿يَجِدْ﴾: فعل مضارع جواب الشرط، والفاعل يعود إلى (من)، تقديره: «هو». ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور في محل نصب مفعول به ثان، تقدم على الأول. أو هما متعلقان بمحذوف حال من ﴿رَّصَدًا﴾ كان صفة له، وعلقهما الجمل بـ: ﴿رَّصَدًا﴾ نفسه. ﴿شِهَابًا﴾: مفعول به. ﴿رَّصَدًا﴾: صفة ﴿شِهَابًا﴾، والجملة الفعلية: ﴿يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ لا محل لها؛ لأنها جملة جواب الشرط، ولم تقترن بالفاء، ولا بإذا الفجائية، وخبر المبتدأ، الذي هو (مَنْ) مختلف فيه، فقيل: جملة الشرط. وقيل: هو جملة الجواب. وقيل: الجملتان، وهو المرجح لدى المعاصرين، والجملة الاسمية معترضة بين المتعاطفات، كما هو ظاهر.

تنبيه: أمَّا ﴿ٱلۡـَٔانَ﴾ في هذه الآية، وأمثالها، فهي كلمة ملازمة للظرفية الزمانية غالباً، مبنية على الفتح دائماً؛ لتضمنها معنى الإشارة، وألفها منقلبة عن واو، لقولهم في معناها: الأوان. وقيل: عن ياء؛ لأنه من آن يئين: إذا قرب. وقيل: أصله أوان، قلبت الواو ألفاً، ثم حذفت لالتقاء الساكنين. ورد بأن الواو قبل الألف لا تقلب كالجواد، والسواد. وقيل: حذفت الألف، وغيرت الواو إلى الألف، كما قالوا: راح، ورواح، استعملوه مرة على: فَعَل، ومرة على: فَعَال، كزمن، وزمان. وقال ابن هشام ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه شذور الذهب: والآن اسم لزمن حضر جميعه، أو بعضه: فالأول نحو قوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [٧١]: ﴿قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾. والثاني: نحو قوله تعالى: ﴿فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ﴾ وقد تعرب كقول أبي صخر الهذلي: [الطويل]

لِسَلْمَى بِذَاتِ الخَالِ دارٌ عَرَفْتُهَا ... وأُخْرَى بِذَاتِ الجِزْعِ آيَاتُهَا سَطْرُ

كَأَنَّهُمَا مِلآنِ لَمْ يَتَغَيَّرَا ... وَقَدْ مَرَّ لِلدَّارَيْنِ مِنْ بعدِنَا عَصْرُ

أصله: «كأنهما مِنَ الآنِ» فحذف نون (مِنْ) لالتقائها ساكنة مع لام الآن، ولم يحركها لالتقاء الساكنين، كما هو الغالب، وأعرب (الآن) فخفضه بالكسرة. انتهى. وقد اختلف في علة بنائه اختلافاً كثيراً. انظر: «همع الهوامع».

﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠﴾

الشرح: قال الجن حينما حُرِست السموات من استراقهم السمع، ورموا بالشهب: لا نعلم نحن معشر الجن ما الله فاعل بسكان الأرض، ولا نعلم: هل امتلاء السموات بالحرس، والشهب لعذاب يريد الله أن ينزله بأهل الأرض، أم يريد الله بهم خيراً، وفلاحاً، ونجاحاً، بأن يبعث فيهم رسولاً مرشداً يرشدهم إلى الحق والصواب، وإلى الطريق المستقيم؟ وهذا من أدب الجن حيث نسبوا الخير إلى الله، ولم ينسبوا الشر إليه صراحة، وأين هذا من قول إبراهيم ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ في سورة (الشعراء) رقم [٨٠]: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾، ومثله قول الخضر ـ عليه السلام ـ في سورة (الكهف) رقم [٧٩]: ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾، وقوله في سورة (الكهف) أيضاً رقم [٨٢]: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾ حيث نسب العيب لنفسه، وبلوغ الأشد إلى الله تعالى؛ لأنه خير لهما، ورحمة من الله. هذا؛ وخذ قوله تعالى في سورة (سبأ) رقم [٥٠]: ﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ﴾.

قال ابن زيد: قال إبليس: لا ندري هل أراد الله بهذا المنع أن يُنزل على أهل الأرض عذاباً، أو يُرسل رسولاً إليهم؟ والمعتمد: أنه من قول الجن كما قدمته. قال ابن كثير: وقد

كانت الكواكب يرمى بها قبل ذلك، وهذا هو الذي حملهم على تطلب السبب، فأخذوا يضربون مشارق الأرض، ومغاربها، فرأوْا رسول الله ﷺ يقرأ بأصحابه في الصلاة، فعرفوا: أن هذا هو الذي حفظت السماء من أجله، فدنوْا منه حرصاً على سماع القرآن، ثم أسلموا.

هذا؛ ولا شك: أنه لما حدث هذا الأمر، وهو كثرة الشهب في السماء، والرمي بها؛ هال ذلك الإنس، والجن، وانزعجوا له، وظنوا: أن ذلك لخراب العالم، فأتوا إبليس، فحدثوه بالذي كان من أمرهم، فقال: ائتوني من كل أرض بقبضة من تراب أشمها، فأتوْه، فشمها، فقال: صاحبكم بمكة، فبعث سبعة نفر من جن نصيبين، فقدموا مكة، فوجدوا النبي ﷺ قائماً يصلي بأصحابه. ولا تنس ما ذكرته لك: أن الرمي كان في الجاهلية قبل الإسلام، فلما بعث النبي ﷺ زيد فيه زيادة لفتت نظر الإنس، والجن إلى ذلك، والله أعلم بمراده.

هذا؛ والإرادة: نزوع النفس، وميلها إلى الفعل بحيث يحملها عليه. ويقال للقوة التي هي مبدأ النزوع. والأول مع الفعل، والثاني قبله، وكلا المعنيين غير متصور اتصاف الباري تعالى به، ولذا اختلف في معنى إرادته سبحانه وتعالى، فقيل: إرادته لأفعاله: أنه غير ساهٍ، ولا مكره، ولأفعال غيره أمره بها، فعلى هذا لم تكن المعاصي بإرادته. وقيل: علمه باشتمال الأمر على النظام الأكمل، والوجه الأصلح، وهذا الأخير هو المقبول؛ لأن الله تعالى لا يأمر بالفحشاء، ولا يرضى لعباده الكفر. هذا؛ ولم يرد لفعل الإرادة، ولا لفعل المشيئة أمر فيما أعلم، فهما ناقصا التصرف، وقد كثر حذف مفعول هذين الفعلين حتى لا يكاد ينطق به إلا في الشيء المستغرب، مثل هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ رقم [١٧] من سورة (الأنبياء)، وقال الشاعر الخزيمي: [الطويل]

فَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبكي دماً لبَكَيْتُهُ عَلَيْهِ وَلَكِنْ ساحَةُ الصَّبْرِ أَوْسَعُ

وقيد بعضهم حذف مفعول هذين الفعلين بعد «لو»، وليس كذلك.

الإعراب: ﴿وَأَنَّا﴾: الواو: حرف عطف. (أنَّ): حرف مشبه بالفعل، و(نا): اسمها. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿نَدْرِيٓ﴾: فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل مستتر وجوباً، تقديره: «نحن»، وهو معلق عن العمل لفظاً بسبب الاستفهام. ﴿أَشَرٌّ﴾: الهمزة: حرف استفهام. (شر): أجيز فيه وجهان: أحسنهما الرفع على أنه نائب فاعل بفعل محذوف، التقدير: أأريد شر؟ والثاني: أنه مبتدأ سوغ الابتداء به، وهو نكرة تقدم الاستفهام عليه. ﴿أُرِيدَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل يعود إلى (شر)، والجملة الفعلية مفسرة على الوجه الأول بـ: (شرٌّ)، وفي محل رفع خبره على الوجه الثاني فيه. ﴿بِمَن﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: متعلقان بمحذوف صلة الموصول. ﴿أَمْ﴾: حرف عطف. ﴿أَرَادَ﴾: فعل ماض. ﴿بِهِمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿رَبُّهُمْ﴾: فاعل (أراد)، والهاء في محل جر

بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿رَشَدًا﴾: مفعول به. وجملة: ﴿أَرَادَ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، وهذا هو الذي رجح اعتبار (شر) نائب فاعل بفعل محذوف لتتعادل الجملتان، وتكون ﴿أَمْ﴾ متصلة. هذا؛ والكلام: ﴿أَشَرٌّ...﴾ إلخ في محل نصب سد مسد مفعولي الفعل: ﴿نَدْرِيٓ﴾، والجملة الفعلية هذه في محل رفع خبر (أن)، و(أن) واسمها، وخبرها معطوف على ما قبله من كلام على الوجهين المعتبرين فيه.

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾

الشرح: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾: الكاملون في الصلاح، العاملون بما يرضي الله. ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ أي: الذين ليس صلاحهم كاملاً، أو الذين ليس لهم صلاح، وهم الكفار. ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ أي: فرقاً شتى، وأدياناً مختلفة، وأهواءً متباينة، ومنه قول الشاعر: [البسيط]

الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الهادِي بطاعَتِهِ ... في فتنةِ الناسِ إذْ أَهْوَاؤُهُمْ قِدَدُ

والمعنى: لم يكن جميع الجن كفاراً، بل كانوا مختلفين، منهم كفار، ومنهم مؤمنون صلحاء، ومنهم مؤمنون غير صلحاء على حد قوله تعالى في سورة (فاطر) رقم [٣٢]: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾. وقال المسيب: كنا مسلمين، ويهود، ونصارى، ومجوس. وقال السدي: في الجن مثلكم قدرية ومرجئة، وخوارج، ورافضة، وشيعة، وسنية، أقول: وهذا يحتمل أن يكون بعد الرسالة المحمدية، وأما قبل الرسالة فهم كما قال المسيب؛ لأنه كان في الجن من آمن بموسى، وعيسى ـ على نبينا، وعليهما، وعلى جميع الأنبياء، والمرسلين ألف صلاة، وألف سلام ـ بدليل ما حكى الله من قولهم في سورة (الأحقاف) رقم [٣٠]: ﴿مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

و(الطرائق): جمع: الطريقة، وهي مذهب الرجل، أي: كنَّا فِرقاً مختلفة. وخذ قوله تعالى في سورة (المؤمنون) رقم [١٧]: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ و(القدد): نحو من الطرائق، وهو توكيد لها، واحدها: قدَّة، يقال: لكل طريق قِدَّة، وأصلها من: قد السيور، وهو قطعها. قال لبيد ـ رضي الله عنه ـ يرثي أخاه أربد: [المنسرح]

لَمْ تَبْلُغِ العينُ كُلَّ نَهْمَتِهَا ... لَيْلَةَ تُمْسِي الجيادُ كالْقِدَدِ

وقال آخر: [الرمل]

وَلَقَدْ قُلْتُ وزيدٌ حاسرٌ ... يومَ ولَّتْ خيلُ عمرٍو قِدَدَا

والقِدُّ بالكسر: سيرٌ يُقَدُّ من جلد مدبوغ، ويقال: ماله قِدٌّ، ولا قِحْف، فالقِدُّ: إناء من جلد، والقِحْف: من خشب، وانظر ما ذكرته بشأن ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في سورة (المنافقون) رقم [١٠]. هذا؛

وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة العباس بن أحمد الدمشقي قال: سمعت بعض الجن؛ وأنا في منزل لي بالليل ينشد: [الطويل]

قُلُوبٌ بَرَاها الحبُّ حتى تَعَلَّقَتْ ... مَذَاهِبُهَا في كلِّ غَرْبٍ وشَارِقِ

تَهِيمُ بحبِّ اللهِ واللهُ رَبُّهَا ... معلَّقَةٌ باللهِ دُونَ الخلائقِ

الإعراب: ﴿وَأَنَّا﴾: الواو: حرف عطف. (أنَّ): حرف مشبه بالفعل، و(نا) اسمها. ﴿مِنَّا﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾: مبتدأ مؤخر مرفوع، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض من التنوين في الاسم المفرد، والجملة الاسمية في محل رفع خبر (أنَّ)، و(أنَّ) واسمها وخبرها معطوف على ما قبله على الوجهين المعتبرين فيه. (منَّا): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم أيضاً. ﴿دُونَ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف صفة لموصوف محذوف، التقدير: ومنا فريق كائن دون ذلك، أو ومنا ناس دون ذلك، على حد قوله تعالى في سورة (الأعراف) رقم [١٦٨]: ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾. هذا؛ وقال ابن هشام ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه الشذور: «دون» اسم مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ مؤخر، وبني على الفتح لإبهامه، وإضافته إلى مبني، وهو اسم الإشارة. ولو جاءت القراءة برفع ﴿دُونَ﴾ لكان ذلك جائزاً، كما قال الشاعر: [الطويل]

أَلَمْ تَرَيَا أنِّي حَمَيْتُ حقيقتي ... وَبَاشَرْتُ حَدَّ الْمَوْتِ والموتُ دُونُهَا

الرواية (دونُها) بالرفع. انتهى. وقال الجمل نقلاً عن السمين: فيه وجهان: أحدهما: أن ﴿دُونَ﴾ بمعنى: «غير» أي: ومنا غير الصالحين، وهو مبتدأ، وإنما فتح لإضافته إلى غير متمكن، كقوله تعالى في سورة (الأنعام) رقم [٩٤]: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ فيمن نصب على أحد الأقوال، وإلى هذا نحا الأخفش، الثاني: أن ﴿دُونَ﴾ على بابها من الظرفية، وأنها صفة لموصوف محذوف، تقديره: ومنا فريق، أو فوج دون ذلك، وحذف الموصوف مع «مِنْ» التبعيضية كثير، كقولهم: منا ظعَنَ، ومنا أقام، أي: منا فريق. انتهى. و﴿دُونَ﴾ مضاف، و﴿ذَٰلِكَ﴾ اسم إشارة مبني على السكون في محل جر بالإضافة، والجملة الاسمية: ﴿مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ وما عطف عليها في محل رفع خبر (أنَّ)، و(أنَّ) واسمها، وخبرها معطوف على ما قبله. ﴿كُنَّا﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون، و(نا): اسمها. ﴿طَرَآئِقَ﴾: خبرها، وهو على تأويل: ذوي طرائق، أو في طرائق. ﴿قِدَدًا﴾: صفة لها، والجملة الفعلية في محل نصب حال من (نا)، والرابط: الضمير فقط، وهي على تقدير «قد» قبلها لتقربها من الحال، وإن اعتبرتها مستأنفة؛ فلا محل لها.

تنبيه: ما تقدم هو الإعراب الظاهر، والأصح: أن مضمون الجار والمجرور ﴿مِنَّا﴾ مبتدأ، و﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ هو الخبر؛ لأن (مِنْ) الجارة دالة على التبعيض، أي: بعضهم الصالحون، وجمع

الضمير يؤيد ذلك، ويؤيده عطف (كثير) عليه في الآية رقم [٦٦] من سورة (المائدة)، وعطف (أكثرهم) عليه في الآية رقم [١١٠] من سورة (آل عمران)، وخذ قول الحماسي: [الكامل]

مِنْهُمْ لُيُوثٌ لا تُرامُ وَبَعْضُهُمْ ... مِمَّا قَمِشْتَ وَضَمَّ حَبْلُ الْحاطِبِ

حيث قابل لفظ «منهم» بما هو مبتدأ، أعني لفظة «بعضهم» وهذا مما يدل على أن مضمون «منهم» مبتدأ. هذا؛ وليوث: جمع: ليث، وهو السبع. لا ترام: لا تقصد. قمشت: جمعت من هنا، وهناك، والمراد: رذالة الناس. والقمش الرديء من كل شيء.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾

الشرح: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾: قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: الظن بمعنى العلم، واليقين بخلافه في الآية رقم [٥] ورقم [٧]. وقال الجمل: أي: علمنا، وتيقنا بالتفكر والاستدلال في آيات الله أنا في قبضة الملك، وسلطانه لن نفوته بهرب، ولا غيره. انتهى. ﴿أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ﴾: والمعنى: تيقنا، وتأكدنا أننا لن نعجز الله، ولن نفوته أينما كنا سواء في الأرض، أو حاولنا الهرب إلى السماء، فإن الله قادر على عذابنا؛ إن عصيناه أينما كنا، وأينما ذهبنا.

الإعراب: ﴿وَأَنَّا﴾: الواو: حرف عطف. (أنَّ): حرف مشبه بالفعل. و(نا): اسمها، حذفت نونها، وبقيت الألف دليلاً عليها. ﴿ظَنَنَّآ﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (أنَّ)، والمصدر المؤول منها، ومن اسمها، وخبرها في محل رفع معطوف على مثله في الآية رقم [١]، وعلى قراءة كسر الهمزة فالجملة الاسمية معطوفة على: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾، فهي مثلها في محل نصب مقول القول. ﴿أَن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، التقدير: أنه. ﴿لَّن﴾: حرف نفي، ونصب، واستقبال. ﴿نُّعْجِزَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ: ﴿لَّن﴾ والفاعل مستتر فيه تقديره: «نحن». ﴿ٱللَّهَ﴾: منصوب على التعظيم. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلقان بمحذوف حال من الفاعل المستتر، التقدير: كائنين في الأرض، والجملة الفعلية: ﴿لَّن نُّعْجِزَ...﴾ إلخ في محل رفع خبر (أن) المخففة من الثقيلة، وهي واسمها المحذوف وخبرها في تأويل مصدر في محل نصب سد مسد مفعولي ﴿ظَنَنَّآ﴾، وجملة: ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُۥ﴾ معطوفة على ما قبلها فهي في محل رفع مثلها. ﴿هَرَبًا﴾: حال من الفاعل المستتر، فهو مصدر بمعنى: هاربين.

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾

الشرح: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي: القرآن. ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾: صدقنا به، وبمحمد ﷺ. ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ﴾: وينفذ لأوامره، وينزجر عن معاصيه، وزواجره. ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا﴾: نقصاً من حسناته، ﴿وَلَا رَهَقًا﴾: ظلماً بالزيادة في سيئاته. وانظر ﴿رَهَقًا﴾ في الآية رقم [٦].

الإعراب: ﴿وَأَنَّا﴾: الواو: حرف عطف. (أنَّ): حرف مشبه بالفعل، و(نا): اسمها. ﴿لَمَّا﴾: حرف وجود لوجود عند سيبويه، وبعضهم يقول: حرف وجوب لوجوب، وهي عند ابن السراج، والفارسي، وابن جني، وجماعة ظرف زمان بمعنى: حين، تتطلب جملتين مرتبطتين ببعضهما ارتباط فعل الشرط بجوابه، وصوب ابن هشام الأول، والمشهور الثاني. ﴿سَمِعْنَا﴾: فعل، وفاعل. ﴿ٱلْهُدَىٰٓ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذر، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿لَمَّا﴾ إليها على اعتبارها ظرفاً، ولا محل لها على اعتبار ﴿لَمَّا﴾ حرفاً. ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل، وفاعل. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية جواب ﴿لَمَّا﴾ لا محل لها، و(لما) ومدخولها في محل رفع خبر (أنَّ)، و﴿وَأَنَّا لَمَّا...﴾ إلخ معطوف على ما قبله في الآية السابقة على الوجهين المعتبرين فيه.

﴿فَمَن﴾: الفاء: حرف استئناف، وتفريع. (مَنْ): اسم شرط جازم، مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يُؤْمِنۢ﴾: فعل مضارع فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ)، تقديره: «هو». ﴿بِرَبِّهِۦ﴾: متعلقان بما قبلهما، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿فَلَا﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (لا): نافية. ﴿يَخَافُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى من أيضاً. ﴿بَخْسًا﴾: مفعول به. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية، ويقال: صلة لتأكيد النفي. ﴿رَهَقًا﴾: معطوف على ﴿بَخْسًا﴾، وجملة: (لا يخاف...) إلخ في محل رفع خبر المبتدأ، التقدير: فلا هو يخاف، وعليه فالجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محل لها؛ لأنها لم تحل محل المفرد. وخبر المبتدأ الذي هو (من) مختلف فيه، فقيل: هو جملة الشرط. وقيل: جملة الجواب. وقيل: الجملتان، وهو المرجح لدى المعاصرين، والجملة الاسمية: (من...) إلخ مستأنفة ومفرعة عما قبلها، لا محل لها.

قال الزمخشري ـ رحمه الله تعالى ـ: فإن قلت: أي: فائدة في رفع الفعل يخاف، وتقدير مبتدأ قبله، حتى يقع خبراً له، ووجوب إدخال الفاء، وكان ذلك كله مستغنىً عنه بأن يقال: لا يخف، قلت: الفائدة فيه أنه إذا فعل ذلك، فكأنه قيل: فهو لا يخاف، فكان دالاً على تحقيق أن المؤمن ناج لا محالة، وأنه هو المختص بذلك دون غيره. انتهى. ولولا تقدير مبتدأ قبل الفعل، لقيل: فلا يخف. هذا؛ وقرأ الأعمش (فلا يخف) على النهي.

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾﴾

الشرح: ﴿وَأَنَّا مِنَّا...﴾ إلخ: أي: وأنا بعد سماعنا القرآن منا من أسلم، وصدق برسالة محمد ﷺ، ومنا من جار عن الحق، وكفر. يقال: قسط الرجل: إذا جار، وأقسط: إذا عدل، فالأول من الثلاثي، والثاني من الرباعي، واسم الفاعل من الأول: قاسط، كما في الآية الكريمة

ومن الثاني: مقسِط. قال تعالى في سورة (الحجرات) رقم [٩]: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ هذا هو المشهور خلافاً للزجاج في جعلهما سواء، ومثل آية (الحجرات) قول الحارث بن حلزة اليشكري في معلقته رقم [٦٨]: [الخفيف]

مَلِكٌ مُقْسِطٌ، وَأَكْمَلُ مَنْ يَمْـ ... ـشِي، ومِنْ دُونِ مَا لَدَيْهِ الثَّنَاءُ

﴿فَمَنْ أَسْلَمَ...﴾ إلخ: أي: فمن اهتدى واعتنق الإسلام، واهتدى بهدي الرسول ﷺ وسار على منهاجه القويم، فأولئك الذين قصدوا الرشد، وأرادوا الفلاح، وسلكوا طريق السعادة، والنجاة. والتحري: بذل المجهود في الوصول إلى المقصود. هذا؛ ومن الثلاثي بمعنى: الجور، والظلم قول الشاعر: [الكامل]

قَوْمٌ هُمُ قَتَلُوا ابْنَ هِنْدٍ عَنْوَةً ... عَمْراً وهُمْ قَسَطُوا علَى النُّعمانِ

فائدة: يروى: أن الحجاج قال لسعيد بن جبير ـ رضي الله عنه ـ حينَ أراد قتله: ما تقول فيّ؟ قال: قاسط عادل، فقال من حوله: ما أحسن ما قال! حسبوا: أنه يصف الحجاج بالقسط، والعدل، فقال الحجاج: يا جهلة! إنه سماني ظالماً مشركاً، وتلا لهم قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾، وقوله تعالى في أول سورة (الأنعام): ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾. هذا؛ ولا تنس الطباق بين ﴿ٱلْمُسْلِمُونَ﴾ و﴿ٱلْقَٰسِطُونَ﴾.

الإعراب: ﴿وَأَنَّا﴾: الواو: حرف عطف. (أنَّ): حرف مشبه بالفعل، و(نا): اسمها. ﴿مِنَّا﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿ٱلْمُسْلِمُونَ﴾: مبتدأ مؤخر مرفوع، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض من التنوين في الاسم المفرد، والجملة الاسمية في محل رفع خبر (أنَّ)، والتي بعدها معطوفة عليها، فهي في محل رفع مثلها. ﴿وَأَنَّا مِنَّا...﴾ إلخ معطوف على ما قبله على الوجهين المعتبرين فيه. ﴿فَمَنْ﴾: الفاء: حرف استئناف، وتفريع. (مَنْ): اسم شرط مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿أَسْلَمَ﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، والفاعل ضمير مستتر تقديره: «هو»، يعود إلى (مَنْ). ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (أولئك): اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿تَحَرَّوْاْ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف المحذوفة لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة، التي هي فاعله، والألف للتفريق. ﴿رَشَدًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محل لها؛ لأنها لم تحل محل المفرد، وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلف فيه: فقيل: جملة الشرط. وقيل: جملة الجواب. وقيل: الجملتان، وهو المرجح لدى المعاصرين. هذا؛ وإن اعتبرت (مَنْ) اسماً موصولاً فهو مبتدأ، وجملة: (أسلم) صلته، والجملة الاسمية: (أولئك...) إلخ في محل رفع خبره، واقترنت

بالفاء؛ لأن الموصول يشبه الشرط في العموم، وعلى الاعتبارين فالجملة الاسمية مستأنفة، ومفرعة عما قبلها، لا محل لها.

﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾

الشرح: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾: الجائرون عن طريق الإيمان، والحق، والصواب. ﴿فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾: وقوداً لجهنم. فإن قيل: الجن مخلوقون من النار، فكيف يكونون حطباً لها، أجيب بأنهم وإن خلقوا منها، لكنهم تغيروا عن تلك الكيفية، فصاروا لحماً، ودماً. هكذا قيل. وأيضاً النار قويها قد يأكل ضعيفها، فيكون الضعيف حطباً للقوي. انتهى. جمل بتصرف.

وقال الخازن: فإن قلت: قد تمسك بظاهر هذه الآية من لا يرى لمؤمني الجن ثواباً، وذلك؛ لأن الله تعالى ذكر عقاب الكافرين منهم، ولم يذكر ثواب المؤمنين منهم، قلت: ليس فيه تمسك له، وكفى بقوله تعالى: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ فذكر سبب الثواب، والله أعدل، وأكرم من أن يعاقب القاسط، ولا يثيب الراشد. انتهى. هذا؛ وذكرت لك مراراً: أنهم يثابون على الأعمال الصالحة.

الإعراب: ﴿وَأَمَّا﴾: الواو: حرف استئناف. (أمّا): أداة شرط، وتفصيل، وتوكيد، أما كونها أداة شرط؛ لأنها قائمة مقام أداة الشرط، وفعله بدليل لزوم الفاء بعدها؛ إذ الأصل مهما يك من شيء؛ فالقاسطون. . . إلخ. فأنيبت (أمّا) مناب «مهما، ويك من شيء» فصار: وأما القاسطون . . . إلخ. وأما كونها أداة تفصيل؛ لأنها في الغالب تكون مسبوقة بكلام مجمل، وهي تفصله، ويعلم ذلك من تتبع مواقعها. وأما كونها أداة توكيد؛ لأنها تحقق الجواب، وتفيد: أنه واقع لا محالة؛ لكونها علقته على أمر متيقن. ﴿ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾: مبتدأ. ﴿فَكَانُوا۟﴾: الفاء: واقعة في جواب (أمّا). (كانوا): فعل ماض ناقص مبني على الضم، والواو اسمه، والألف للتفريق. ﴿لِجَهَنَّمَ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من ﴿حَطَبًا﴾، كان صفة له، فلما قدم عليه؛ صار حالاً، على القاعدة: «نعت النكرة إذا تقدم عليها؛ صار حالاً» وعلامة الجر الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية، والعجمة. ﴿حَطَبًا﴾: خبر (كان)، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية (أما القاسطون. . .) إلخ مستأنفة.

تنبيه: لقد ذكرت لك: أن (أنّا، وأنّهم، وأنّه) ونحو ذلك فيه وجهان: أحدهما: فتح الهمزة على تأويل مصدر في محل رفع عطفاً على المصدر المعتبر في محل رفع نائب فاعل في الآية الأولى. وثانيهما: كسر الهمزة على اعتبار الجملة اسمية في محل نصب مقول القول عطفاً على قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا﴾ في الآية الأولى أيضاً، ويستثنى من ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ...﴾ إلخ، ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا...﴾ إلخ، فهاتان الآيتان معترضتان؛ لأنهما ليستا من كلام الجن.

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ١٦﴾

الشرح: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ أي: لو آمن هؤلاء الكفار، واستقاموا على شريعة الله تعالى. ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ أي: لبسطنا لهم في الرزق، ووسعنا عليهم في الدنيا زيادة على ما يحصل لهم في الآخرة من النعيم المقيم، وبذلك يحوزون عز الدنيا، وسعادة الآخرة. هذا؛ وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾: الجن القاسطون؛ الذين تقدم ذكرهم، ووصفهم، والمعنى لو استقام الجن على الطريقة المثلى الحسنى؛ لأنعمنا عليهم، وإنما ذكر الماء كناية عن طيب العيش، وكثرة المنافع. والمعتمد الأول، فهو كقوله تعالى في سورة (الأعراف) رقم [٩٦]: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وقال تعالى في حق أهل الكتابين في سورة (المائدة) رقم [٦٦]: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمۚ﴾.

هذا؛ والغدق بفتح الدال، وكسرها لغتان في الماء الغزير، ومنه: الغيداق للماء الكثير، وللرجل الكثير العدد، والكثير النطق، ويقال: غدقت عينه، تغدق، أي: هطل دمعها غدقاً. والله أعلم، وأجل، وأكرم، ولا تنس: أن الله تعالى كنى عن رخاء العيش بكثرة المطر؛ لأنه سببه.

هذا؛ ومصدر استقام: استقامة، والأصل: اسْتِقْوَام، فقل في إعلاله: اجتمع معنا حرف صحيح ساكن، وحرف علة متحرك، والحرف الصحيح أولى بالحركة من حرف العلة، فنقلت حركة الواو إلى القاف قبلها، وتحركت الواو بحسب الأصل، وانفتح ما قبلها بحسب الحال، فقلبت ألفاً، فاجتمع ألفان: الألف المنقلبة، وألف الاستفعال. فحذفت ألف الاستفعال لالتقاء الساكنين، وعوض عنها التاء في الآخر، وقد يستغنى عن هذه التاء في حال الإضافة، ومنه قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: إقامتها. والإعلال المتقدم إنما هو بالنقل والقلب والحذف معاً، ومثل هذا المصدر: استعانة، واستعاذة، ونحوهما.

الإعراب: ﴿وَأَلَّوِ﴾: الواو: حرف عطف. (أنْ): حرف مشبه بالفعل مخفف من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، التقدير: ولو أنهم. (لو): حرف لما كان سيقع لوقوع غيره. ﴿ٱسْتَقَٰمُواْ﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾: متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي. ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم﴾: اللام: واقعة في جواب (لو). (أسقيناهم): فعل، وفاعل، ومفعول به أول. ﴿مَّآءً﴾: مفعول به ثان. ﴿غَدَقًا﴾: صفة ﴿مَّآءً﴾، والجملة الفعلية جواب (لو)، لا محل لها، ولو ومدخولها في محل رفع خبر (أنْ) المخففة، والمصدر المؤول من: (أن) المخففة واسمها المحذوف وخبرها معطوف على ما قبله على مثال ما رأيت سابقاً.

هذا؛ وقال الأنباري: ومن كسر الحروف، وفتح: (وأنْ لَوِ اسْتَقَامُوا) أضمر يميناً تاماً، تأويلها: والله أن لو استقاموا على الطريقة. كما يقال في الكلام: والله أنْ قمتَ لقمتُ، ووالله لو قمتَ لقمتُ. قال الشاعر: [الوافر]

أَمَــا وَاللهِ أَنْ لَــوْ كُــنْــتَ حُــرّاً وَمَــا بِــالْــحُــرِّ أَنْــتَ وَلَا الْــعَــتِــيــقِ

وهذا الشاهد رقم [٤١] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»، انظر شرحه، وإعرابه، ومحل الشاهد فيه هناك.

﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾

الشرح: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ﴾ أي: لنختبرهم كيف شكرهم فيه على تلك النعم. والمعتمد: أن المراد بالضمير المنصوب: كفار قريش، بعد أن حبس الله عنهم المطر سبع سنين، والمراد بالضمير المجرور: الماء. قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: أينما كان الماء كان المال، وأينما كان المال كانت الفتنة. وقال سعيد بن المسيب، وعطاء بن أبي رباح، والضحاك، وقتادة، ومقاتل، وعطية، وعبيد بن عمير، والحسن ـ رضي الله عنهم ـ: كان والله أصحاب النبي ﷺ سامعين مطيعين، ففتحت عليهم كنوز كسرى، وقيصر، والمقوقس، والنجاشي، ففتنوا بها، فوثبوا على إمامهم، فقتلوه. يعني: عثمان ـ رضي الله عنه ـ.

﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾: يعني القرآن. قاله ابن زيد. وفي إعراضه عنه وجهان: أحدهما: عن القبول؛ إن قيل: إنها في أهل الكفر. الثاني: عن العمل؛ إن قيل: إنها في أهل الإيمان. وقيل: يعرض عن طاعة الله، وعبادته. ﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾: يدخله ربه عذاباً شديداً شاقاً لا راحة فيه. وقال عكرمة: هو صخرة ملساء في جهنم يكلف صعودها، فإذا انتهى إلى أعلاها حُدِر إلى جهنم. قال تعالى في سورة (المدثر): ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ انظر شرحها هناك، فإنه جيد، وخذ مما يناسب فحوى الآية.

فعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**أَخْوَفُ ما أخافُ عليْكمُ ما يُخْرِجِ اللهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرةِ الدنيا**». قالُوا: ومَا زَهْرَةُ الدُّنْيا؟ قالَ: «**بركاتُ الأرضِ**». أخرجه مسلم. وأخرج البخاري، ومسلم من حديث عمرو بن عوف الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**أَبْشِرُوا، وأَمِّلُوا ما يَسُرُّكُمْ، فواللهِ ما الْفَقْرَ أخشَى عليْكُمْ، ولكِنْ أخشَى أَنْ تُبْسَطَ الدنيا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فتَنَافسُوها، وتُهْلِكَكُم كمَا أَهْلَكَتهُمْ!**».

الإعراب: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ﴾: فعل مضارع منصوب بـ: «أن» مضمرة بعد لام التعليل، والفاعل مستتر تقديره: «نحن»، والهاء مفعول به، و«أن» المضمرة والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر باللام، والجار والمجرور متعلقان بالفعل: (أسقيناهم). ﴿فِيهِۚ﴾: جار ومجرور متعلقان

بالفعل قبلهما. ﴿وَمَن﴾: الواو: حرف استئناف. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يُعْرِضْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ)، تقديره: «هو». ﴿عَن ذِكْرِ﴾: متعلقان بما قبلهما، و﴿ذِكْرِ﴾ مضاف، و﴿رَبِّهِۦ﴾ مضاف إليه، من إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله محذوف، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿يَسْلُكْهُ﴾: فعل مضارع جواب الشرط مجزوم، والفاعل يعود إلى (مَنْ) أيضاً، والهاء مفعول به أول. ﴿عَذَابًا﴾: مفعول به ثان على تضمين الفعل معنى: ندخله. وقيل: منصوب بنزع الخافض. ﴿صَعَدًا﴾: صفة ﴿عَذَابًا﴾، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جملة جواب الشرط، ولم تقترن بالفاء، ولا بـ: «إذا» الفجائية، وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلف فيه، كما رأيت في الآية رقم [١٤]، والجملة الاسمية: (من يعرض...) إلخ مستأنفة، لا محل لها.

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾

الشرح: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ أي: مختصة لله، فلا يجوز أن يشرك معه أحد في المساجد، ولذا قال: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ أي: فلا تعبدوا فيها إلا الله تعالى. قال قتادة: كان اليهود، والنصارى إذا دخلوا كنائسهم، وبِيَعَهم؛ أشركوا بالله فيها، فأمر الله المؤمنين أن يخلصوا الدعوة لله، إذا دخلوا المساجد كلها. وروي عن سعيد بن جبير ـ رضي الله عنه ـ: أن المراد بالمساجد: الأعضاء التي يسجد عليها الإنسان، وهي سبعة: الجبهة، واليدان، والركبتان، والقدمان. والمعنى: أن هذه الأعضاء؛ التي يقع عليها السجود مخلوقة لله، فلا تسجدوا عليها لغيره.

فعن العباس ـ رضي الله عنه ـ: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**إذَا سجدَ العبدُ، سجدَ معَهُ سَبْعَةُ آرَابٍ: وجهُهُ، وكفَّاهُ، ورُكْبتَاهُ، وقَدَمَاهُ**». والآراب: الأعضاء. أخرجه مسلم. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: أمرنا النبي ﷺ أن نسجد على سبعةِ أعضاء، وأن لا نكفَّ شعراً، ولا ثوباً: الجبهة، واليدين، والركبتين، والقدمين، كف الشعر: عقصه، وغرز طرفه في أعلى الضفيرة، وقد نهى عن ذلك. وقيل: أراد بالمساجد كلها: بقاع الأرض كلها؛ لأن الأرض كلها جعلت مسجداً للنبي ﷺ. والمعتمد الأول. وخذ ما يلي:

فعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**إذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يعتادُ المساجِدَ؛ فَاشْهَدُوا لَهُ بالإيمانِ. قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: إنَّما يَعْمُرُ مسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ**». أخرجه الترمذي، وابن ماجه، والحاكم، وغيرهم.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا يتوَضأُ أحَدُكُم، فَيُحْسِنَ وُضُوءَهُ فيُسْبِغَهُ، ثُمَّ يأتِي الْمَسْجِدَ، لا يُرِيدُ إلَّا الصَّلَاةَ، إلَّا يَتَبَشْبَشُ اللهُ إليْه، كَمَا يَتَبَشبشُ أهلُ**

الغائبِ بطَلْعَتِهِ». رواه ابن خزيمة، والحاكم، وغيرهما. وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ عُمَّارَ بيوتِ اللهِ هُمْ أهلُ اللهِ عزَّ وجلَّ**». رواه الطبراني في الأوسط. وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ ألِفَ الْمَسْجِدَ أَلِفَهُ اللهُ**». رواه الطبراني في الأوسط، وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ للمساجدِ أوتاداً، الملائكةُ جلساؤهُمْ، إنْ غَابُوا؛ يَفْتَقِدُوهُمْ، وإن مَرِضُوا؛ عَادُوهُمْ، وإنْ كانُوا في حاجةٍ؛ أعَانوهُمْ**». ثم قال: «**جليسُ المسجدِ على ثلاثِ خِصالٍ: أخٌ مُسْتفادٌ، أوْ كلمةُ حكمةٍ، أو رحمةٌ مُنْتَظَرَةٌ**». رواه الإمام أحمد، والحاكم، وقال: صحيح على شرطهما.

وعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الْمَسْجِدُ بيتُ كلِّ تقيٍّ، وتكفَّلَ اللهُ لِمَنْ كانَ المسجدُ بَيْتَهُ بالرُّوحِ، والرحمةِ، والجوازِ على الصِّراطِ إلى رِضْوَانِ اللهِ إلى الْجَنَّةِ**». رواه الطبراني، والبزار. وعن سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ: أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ توضَّأ في بيتِهِ، فأحسنَ الوضوءَ، ثم أتَى المسْجِدَ؛ فهو زَائِرُ اللهِ، وحقٌّ على المزورِ أنْ يُكْرِمَ الزائِرَ**». رواه الطبراني، والبيهقي، وانظر ما ذكرته في سورة (النور) رقم [٣٦] إن أردت الزيادة.

الإعراب: ﴿وَأَنَّ﴾: الواو: حرف عطف. (أنَّ): حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلْمَسَٰجِدَ﴾: اسمها. ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر (أنَّ)، و(أنَّ) واسمها، وخبرها في تأويل مصدر في محل رفع معطوف على: ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ﴾. وقال الخليل: التقدير: ولأن المساجد لله، وبه قال ابن هشام في المغني، ولم يبيِّنا العطف، والتعليق. وأرى: أن الجار، والمجرور متعلقان على قولهما بالفعل بعدهما. وعلى قولهما فالفاء: حرف استئناف. وعلى ما ذكرته أولاً فالفاء الفصيحة؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر، التقدير: وإذا كانت المساجد لله؛ فلا تدعوا. (لا): ناهية. ﴿تَدْعُواْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: (لا)، وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محل لها على الوجهين المعتبرين بالفاء. ﴿مَعَ﴾: ظرف مكان متعلق بالفعل ﴿تَدْعُواْ﴾، أو هو متعلق بمحذوف حال من ﴿أَحَدًا﴾ كان نعتاً له، فلما قدم عليه؛ صار حالاً، و﴿مَعَ﴾ مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه. ﴿أَحَدًا﴾: مفعول به.

فائدة: روى الضحاك عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ كان إذا دخل المسجد؛ قدم رجله اليمنى، وقال: «﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ **اللهم أنا عبدُكَ وزائِرُك، وعلى كلِّ مزورٍ حقٌّ، وأنتَ خيرُ مزورٍ، فأسألُكَ برحمتِكَ أن تفك رقبتي من النار**». وإذا خرج من المسجد قدم رجله اليسرى، وقال: «**اللهم صُبَّ عليَّ الخيرَ صبّاً، ولا تنزع عني صالح ما أعطيتني أبداً، ولا تجعل معيشتي كدّاً، واجعل لي في الأرض جدّاً**». أي: غنىً. انتهى. قرطبي. أقول: وفي الأمكنة القذرة، كالمراحيض، ونحوها، يقدم اليسرى عند الدخول، واليمنى عند الخروج.

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾

الشرح: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾: محمد ﷺ. ﴿يَدْعُوهُ﴾: يعبده ببطن نخلة، يركع، ويسجد، ويقوم، ويقعد. ﴿كَادُوا۟ يَكُونُونَ﴾: الضمير عائد على الجن. ﴿عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ أي: يزدحمون عليه متراكمين تعجباً مما رأوْا من عبادته، وسمعوا من قراءته. قال الزبير بن العوام: هم الجن حين سمعوا القرآن من النبي ﷺ، أي: كادوا يركب بعضهم بعضاً، وروي عن مكحول: إن الجن بايعوا رسول الله ﷺ في هذه الليلة، وكانوا سبعين ألفاً، وفرغوا من بيعته عند انشقاق الفجر. ويضعفه قوله تعالى: ﴿ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ﴾.

وقيل: المعنى: كاد المشركون يركب بعضهم بعضاً حرداً على النبي ﷺ. وقال الحسن، وقتادة، وابن زيد: يعني لما قدم محمد بالدعوة تلبدت الإنس، والجن على هذا الأمر؛ ليطفئوه، وأبى الله إلا أن ينصره، ويتم نوره. ومعنى ﴿لِبَدًا﴾ جماعاتٍ، وهو من تلبد الشيء على الشيء، أي: تجمع، ومنه: اللبد الذي يفرش لتراكم صوفه، وكل شيء ألصقته إلصاقاً شديداً فقد لبدته، ولُبَد جمع لبدة، مثل: قربة، وقرب، ويقال للشعر الذي على ظهر الأسد: لبدة وجمعها لبد. قال زهير في معلقته رقم [٤٣]: [الطويل]

لَدَى أَسَدٍ شَاكِي السِّلَاحِ مُقَذَّفٍ ... لَهُ لِبَدٌ أظفارُهُ لَمْ تُقَلَّمِ

ويقال للجراد الكثير: لبد، وفيه أربع لغات، وقراءات. وقيل اللُّبد بضم اللام وفتح الباء الشيء الدائم، ومنه قيل لنسر لقمان: لبد؛ لدوامه، وطول مدته. قال النابغة الذبياني في معلقته رقم [٦] ـ انظر شرحه فيها، وشرح بيت زهير، وهو مما امتن الله به عليَّ في إعراب المعلقات العشر ـ: [البسيط]

أضْحَتْ خَلَاءً، وَأَضْحَى أَهْلُهَا احتملُوا ... أخنى عليْها الَّذي أخنى على لُبَدِ

ولا تنس أن لبداً جاء بقوله تعالى في سورة (البلد): ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ بمعنى الكثير، واللبد أيضاً: المقيم، الذي لا يسافر، ولا يبرح منزله. قال الراعي النميري: [البسيط]

مِن امْرِئٍ ذي سماحٍ لا تزالُ لهُ ... بزلاءُ يعيَا بِها الْجَثَّامَةُ اللُّبَدُ

بعد هذا فالإضافة بـ: (عبد الله) إضافة تشريف، وتعظيم، وتبجيل، وتكريم، وذكر العبودية مقام عظيم، ولو كان للنبي ﷺ اسم أشرف منه؛ لسماه به في ليلة الإسراء والمعراج؛ حيث قال جل شأنه في تلك الحالة العلية: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾. وفي معناه أنشدوا: [السريع]

يا قومُ قَلْبي عِنْدَ زَهْرَاءِ ... يَعْرِفُهُ السَّامِعُ وَالرَّائِي

لا تـــدْعُـــنـــي إلَّا بِـــيَـــا عَـــبْـــدَهَـــا فـــإنـــهُ أشـــرفُ أَسْـــمَـــائـــي

علماً بأنه ﷺ لم يذكر باسمه الصريح في القرآن الكريم، إلا قليلاً، ذكر باسم محمد في سورة (آل عمران)، وسورة (الأحزاب)، وسورة (محمد)، وسورة (الفتح)، وذكر باسم أحمد في سورة (الصف)، وذكر باسم طه في سورة (طه)، وذكر باسم ياسين في سورة (يس). هذا؛ والعبد: الإنسان حرّاً كان، أو رقيقاً، ويجمع على: عبيد، وعباد، وأعبُد، وعُبدان، وعَبَدة، وغير ذلك. قال القشيري: لما رفعه الله إلى حضرته السنية، وأرقاه فوق الكواكب العلوية؛ ألزمه العبودية تواضعاً للأمة.

أما «كاد» فهو فعل يدل على مقاربة وقوع الفعل بعده، ولذا لم تدخل عليه «أنْ»؛ لأنه يخلص الفعل للاستقبال، وإذا دخل عليه حرف النفي دل على أن الفعل بعدها وقع، كما في قوله تعالى في سورة (البقرة): ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ وإذا لم يدخل عليها حرف النفي، لم يكن الفعل بعدها واقعاً، ولكنه قارب الوقوع، والفعل منها واوي العين، فـ «كاد» أصله كوِد بكسر الواو، كخوِف، فتحركت الواو، وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً، فصار: كاد، ويكاد أصله: يَكْوَد، كيعلم، فقل في إعلاله: نقلت فتحة الواو إلى الكاف قبلها؛ لأن الحرف الصحيح أولى بالحركة من حرف العلة، ثم يقال: تحركت الواو بحسب الأصل. وانفتح ما قبلها الآن، فقلبت ألفاً، فصار يكاد بوزن يخاف، ومصدرها: الكوْد، كالخوْف، وهذا في الناقصة، وأما كاد التامة فهي يائية العين المفتوحة في الماضي، كباع، ومصدره الكيْد، كالبيع، ولذا جاء المضارع في القرآن مختلفاً، فمن الأول الناقص: قوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾، ومن الثاني التام قوله تعالى: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ ومعنى الناقص: المقاربة، ومعنى التام: المكر، والحيلة، والأول ناقص التصرف، ويحتاج إلى مرفوع، ومنصوب، والثاني تام التصرف، ويكتفي بالفاعل، وينصب المفعول به.

فائدة: قد تأتي كاد بمعنى أراد. قاله محب الدين الخطيب شارح شواهد الكشاف، وجعل منه قول الأفوه الأودي: [البسيط]

والـبـيْـتُ لا يُـبْـتَـنَـى إلا بـأَعْـمِـدَةٍ ولا عـــمـــادَ إذا لَـــمْ تُـــرْسَ أَوْتَـــادُ

فـــإنْ تَـــجَـــمَّـــعَ أســبــابٌ وأعــمــدةٌ وســاكــنٌ بــلــغُــوا الأمْــر الــذِي كَــادُوا

أي: الذي أرادوا. ومنه قول الآخر: [الكامل]

كِـــدْنَـــا وكِـــدْتِ، وتـــلـــكَ خـــيـــرُ إرادةٍ لـوْ عـاد مِـن زَمَـنِ الـصَّـبـابـةِ مـا مَـضَـى

أي: أردنا، وأردتِ. دليله: (تلكَ خيْرُ إرادةٍ).

تنبيه: شاع على الألسن أن نفي (كاد) إثبات، وإثباتها نفي، ولذا ألغز المعري بقوله: [الطويل]

أَنَـحْـوِيَّ هـذَا الـعـصـرِ مـا هِـيَ لـفـظَـةٌ جَـرَتْ فـي لِـسـانَـيْ جُـرْهُـمٍ وثـمـودِ

إذا اسْتُعْمِلَتْ في صورةِ الجحدِ أثْبَتَتْ وَإنْ أثْبَتَتْ قامَتْ مقامَ جُحُودِ

فأجابه الشيخ جمال الدين بن مالك صاحب الألفية بقوله: [الطويل]

نَعَمْ هِي كادَ المرءُ أنْ يَرِدَ الحِمى فتأتِي لإثباتٍ بِنَفْيِ وُرُودِ

وفي عكسِها ما كادَ أن يَرِدَ الحمى فَخُذْ نَظمَها فالعلمُ غيرُ بعيدِ

وقد اتفقت كلمة النحاة على أن (كاد) كسائر الأفعال، وكلامهم متقارب في المعنى في هذا الشأن، انظر الشاهد رقم [١١٢٧] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» والأشموني، وغيرهما. وهاأنذا أسوق لك ما ذكره السيوطي ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه (همع الهوامع) لتكون على بصيرة من أمرك.

قال ـ رحمه الله تعالى ـ: والتحقيق: أنها كسائر الأفعال، نفيها نفي، وإثباتها إثبات، إلا أن معناها المقاربة، لا وقوع الفعل، فنفيها نفي لمقاربة الفعل، ويلزم منه نفي الفعل ضرورة أنَّ من لم يقارب الفعل لم يقع منه الفعل، وإثباتها إثبات لمقاربة الفعل، ولا يلزم من مقاربته وقوعه، فقولك: (كاد زيدٌ يقومُ) معناه: قارب القيام، ولم يقم، ومنه قوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ﴾ أي: يقارب الإضاءة، إلا أنه لم يضئ، وقولك: (لم يكد زيد يقوم) معناه لم يقارب القيام، فضلاً عن أن يصدر منه، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَاۗ﴾ أي: لم يقارب أن يراها، فضلاً عن أن يرى، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ أي: لا يقارب إساغته، فضلاً عن أن يسيغه. وعلى هذا الزجاجي، وغيره. وذهب قوم، منهم ابن جني إلى أن نفيها يدل على وقوع الفعل ببطء لـ: آية: ﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ رقم [٧١] من سورة (البقرة)، فإنهم فعلوا بعد بطء، والجواب: أنها محمولة على وقتين، أي: فذبحوها بعد تكرار الأمر عليهم بذبحها، وما كادوا يذبحونها قبل ذلك، ولا قاربوا الذبح، بل أنكروا أشد الإنكار بدليل قولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًاۖ﴾.

وقال ابن هشام في مغنيه: فالجواب: أنه إخبار عن حالهم في أول الأمر، فإنهم كانوا أولاً بعداء عن ذبحها، بدليل ما يتلى علينا من تعنتهم، وتكرار سؤالهم. انتهى.

الإعراب: ﴿وَأَنَّهُۥ﴾: الواو: حرف عطف. (أنه): حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمه. ﴿لَمَّا﴾: انظر الآية رقم [١٣]. ﴿قَامَ﴾: فعل ماض. ﴿عَبْدُ﴾: فاعله، و﴿عَبْدُ﴾ مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿لَمَّا﴾ إليها على اعتبارها ظرفاً، ولا محل لها على اعتبار ﴿لَمَّا﴾ حرفاً. ﴿يَدْعُوهُ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الواو للثقل، والفاعل يعود إلى: ﴿عَبْدُ ٱللَّهِ﴾، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية في محل نصب حال من: ﴿عَبْدُ ٱللَّهِ﴾، والرابط: الضمير العائد إليه. هذا؛ وإن اعتبرت ﴿قَامَ﴾ من أفعال الشروع؛ فالجملة الفعلية في محل نصب خبرها. ﴿كَادُواْ﴾: فعل ماض ناقص مبني على الضم، والواو اسمه،

والألف للتفريق. ﴿يَكُونُونَ﴾: فعل مضارع ناقص مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، الواو اسمه. ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: ﴿لِبَدًا﴾ بعدهما؛ الذي هو خبر ﴿يَكُونُونَ﴾، أو بمحذوف حال منه على مثال ما سبق، وجملة: ﴿يَكُونُونَ...﴾ إلخ في محل نصب خبر ﴿كَادُوا﴾، والجملة الفعلية جواب ﴿لَمَّا﴾ لا محل له، و﴿لَمَّا﴾ ومدخولها في محل رفع خبر (أنَّ)، و(أنَّ) واسمها وخبرها في تأويل مصدر معطوف على الوجهين المعتبرين فيه.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾

الشرح: ﴿قُلْ﴾: خطاب للنبي ﷺ ففيه التفات من الغيبة، وقرئ: (قال) بلفظ الماضي، وعليه فلا التفات. ﴿إِنَّمَآ أَدْعُواْ﴾: أعبد. وقيل: هو بمعنى: أسمي، ولذا قدر الجلال له مفعولاً ثانياً؛ لأنه بهذا المعنى ينصب مفعولين، ومنه قول الشاعر: [الطويل]

دَعَتْني أخاهَا أمُّ عمرٍو ولمْ أكنْ ... أخاهَا ولمْ أرْضَعْ لَهَا بِلِبَانِ

دَعَتْني أخاهَا بعدَمَا كَانَ بيْنَنَا ... مِنَ الْفِعْلِ ما لا يَفعلُ الأخوانِ

﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾: قال القرطبي، وغيره: سبب نزول هذه الآية أن كفار قريش قالوا للنبي ﷺ: إنك جئت بأمر عظيم، وقد عاديت الناس كلهم، فارجع عن هذا فنحن نجيرك. فنزلت الآية. وفي الآية التفات من الغيبة إلى الخطاب. انظر الالتفات في سورة (الملك).

الإعراب: ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله تقديره: «أنت»، وعلى قراءته، بالماضي، فالفاعل تقديره: «هو» يعود إلى النبي ﷺ. ﴿إِنَّمَآ﴾: كافة ومكفوفة. ﴿أَدْعُواْ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الواو، والفاعل مستتر تقديره: «أنا». ﴿رَبِّي﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة، والياء في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، وعلى اعتباره بمعنى التسمية فالمفعول الثاني محذوف، تقديره: أدعو ربي إلهاً، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول. وجملة: ﴿قُلْ...﴾ إلخ مستأنفة، لا محل لها. ﴿وَلَآ﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية. ﴿أُشْرِكُ﴾: فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: «أنا». ﴿بِهِۦٓ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من ﴿أَحَدًا﴾ الذي هو مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب مقول القول أيضاً.

﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾

الشرح: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ...﴾ إلخ: أي: قل يا محمد لهؤلاء الكافرين: إني لا أقدر أن أدفع عنكم ضراً، ولا أسوق لكم خيراً، وإنما يملك ذلك القوي القاهر رب العالمين. والرشاد:

والرُّشْد، والرَّشَد: الهدى، والخير، والفلاح، والنجاح، والضَّرُّ بفتح الضاد شائع في كل ضرر، ومصيبة، وبالضم خاص بما في النفس، كمرض، وهزال، وقد نظم بعضهم الفرق بينهما، كما أورد معاني أُخَر لهما، فقال: [الرجز]

وضِدُّ نفعٍ قيل فيه ضَرُّ ... وجودُ ضَرَّةٍ لعرسٍ ضِرُّ

وسوءُ حالِ المرءِ ذاكَ ضُرُّ ... كَذَا هزالُ مرضٍ أو كِبْرُ

وفي القاموس المحيط: الضُّر، والضَّر، والضرر: ضد النفع، والشدة، والضيق، وسوء الحال، والنقصان يدخل في الشيء، والجمع: أضرار. ولا تنس الطباق بين ﴿ضَرًّا﴾ و﴿رَشَدًا﴾ وهو من المحسنات البديعية.

الإعراب: ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت». ﴿إِنِّي﴾: حرف مشبه بالفعل، وياء المتكلم اسمه. ﴿لَآ﴾: نافية. ﴿أَمْلِكُ﴾: فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: «أنا». ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، أو هما متعلقان بما بعدهما على التنازع. ﴿ضَرًّا﴾: مفعول به. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية، ويقال: صلة لتأكيد النفي. ﴿رَشَدًا﴾: معطوف على ما قبله، وجملة: ﴿لَآ أَمْلِكُ...﴾ إلخ في محل رفع خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قُلْ...﴾ إلخ مستأنفة، لا محل لها.

﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾

الشرح: ﴿قُلْ﴾: الخطاب لسيد الخلق وحبيب الحق ﷺ. ﴿إِنِّي لَن يُجِيرَنِي﴾: لن ينقذني أحد من عذاب الله؛ إن عصيته. فهو كقوله تعالى حكاية عن قول صالح ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ رقم [٦٣] من سورة (هود)، ومثله في الآية رقم [٣٠] منها. ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾: ملجأً ألجأ إليه، ونصيراً أعتمد عليه، وملاذاً ألوذ به، ومنه قول الشاعر: [البسيط]

يا لهفَ نفسِي ولَهفِي غيرُ مجديةٍ ... عني ومَا مِنْ قضاءِ اللهِ مُلْتَحَدُ

الإعراب: ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت». ﴿إِنِّي﴾: حرف مشبه بالفعل، وياء المتكلم اسمها. ﴿لَن﴾: حرف نفي، ونصب، واستقبال. ﴿يُجِيرَنِي﴾: فعل مضارع منصوب بـ: ﴿لَن﴾، والنون للوقاية، وياء المتكلم مفعول به. ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿أَحَدٌ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قُلْ...﴾ إلخ مستأنفة، لا محل لها. ﴿وَلَنْ﴾: الواو: حرف عطف. (لن): حرف ناصب. ﴿أَجِدَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ: ﴿لَن﴾، والفاعل مستتر، تقديره: «أنا». ﴿مِن دُونِهِۦ﴾:

متعلقان بما قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال مما بعدهما، كان صفة له، فلما قدم عليه؛ صار حالاً. وبعضهم يعتبرهما مفعولاً ثانياً تقدم على الأول. ﴿مُلْتَحَدًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية: (لن أجد. . .) إلخ معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب مقول القول مثلها.

﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾

الشرح: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ﴾ أي: لا أجد ملجأً، وملاذاً إلا إذا بلغت رسالة ربي، ونصحتكم، وأرشدتكم كما أمرني الله، فحينئذ يجيرني ربي من العذاب. فهو كقوله تعالى في سورة (المائدة) رقم [٦٧]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾

قال ابن كثير: أي: لا يجيرني من الله، ويخلصني منه إلا إبلاغي الرسالة، التي أوجب أداءها عليَّ. انتهى. أي: فإن فيما ذكر الأمان، والنجاة من غضب الله، وسخطه.

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾: يخالف أوامرهما، ونواهيهما فيما يأمران به، وينهيان عنه، ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾، فيه دليل على أن المراد بالعصيان: الشرك؛ لأن المؤمن لا يخلد في النار. وقيل: هو المعاصي غير الشرك، ويكون الخلود والأبد كناية عن طول المكث في نار جهنم. أو يكون المعنى: إلا أن أعفو عنهم، أو تلحقهم شفاعة، ولا محالة إذا خرجوا من الدنيا على الإيمان لا يخلدون. هذا؛ والأبد: الزمان الطويل الذي ليس له حد، فإذا قلت: لا أكلمك أبداً، فالأبد من وقت التكلم إلى آخر العمر.

الإعراب: ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿بَلَٰغًا﴾: مستثنىً من مفعولي: أملك، وهما ﴿ضَرًّا﴾ و﴿رَشَدًا﴾ بعد تأويلهما بـ: شيئاً، كأنه قال: لا أملك لكم شيئاً إلا بلاغاً، فهو استثناء متصل. هكذا قرر في بعض حواشي البيضاوي، وعبارة السمين قوله إلا بلاغاً فيه أوجه: أحدها: أنه استثناء منقطع؛ لأن البلاغ من الله لا يكون داخلاً تحت قوله: ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾؛ لأنه لا يكون من دون الله، بل يكون من الله، وبإعانته، وتوفيقه. الثاني: أنه متصل، والمعنى لن أجد سبباً إليه، وأعتصم به إلا أن أبلغ، وأطيع، فيجيرني، وإذا كان متصلاً؛ جاز نصبه من وجهين: أحدهما (وهو الأرجح): أن يكون بدلاً من ﴿مُلْتَحَدًا﴾؛ لأن الكلام غير موجب. والثاني: أنه منصوب على الاستثناء. وإلى البدلية ذهب أبو إسحاق. الثالث: أنه مستثنىً من قوله: ﴿لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا﴾. انتهى. جمل، أقول: وعلى القول بالبدلية من ﴿مُلْتَحَدًا﴾، فلا اعتراض، وعلى القول بالبدلية من مفعول ﴿أَمْلِكُ﴾ فالآية السابقة معترضة بين البدل، والمبدل منه، وبه قال الزمخشري.

هذا؛ وقيل: ﴿بَلَٰغًا﴾ مفعول مطلق فعله محذوف، و﴿إِلَّا﴾ أصله: (إنْ لّا) فـ: (إنْ) حرف شرط جازم، و(لا) نافية بمعنى: «لم»، والمعنى: لن أجد من دونه ملتحداً؛ إن لم أبلغ رسالات

ربي بلاغاً. نقله مكي، والقرطبي بلفظ: قيل. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: متعلقان بـ: ﴿بَلَٰغًا﴾ أو بمحذوف صفة له. ﴿وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾: معطوف على ﴿بَلَٰغًا﴾ منصوب مثله، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم، والهاء في محل جر بالإضافة.

﴿وَمَن﴾: الواو: حرف استئناف. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يَعْصِ﴾: فعل مضارع فعل الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف حرف العلة من آخره، وهو الياء، والكسرة قبلها دليل عليها، والفاعل مستتر، تقديره: «هو»، يعود إلى (مَنْ). ﴿ٱللَّهَ﴾: مفعول به، ويقال: منصوب على التعظيم. ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾: معطوف على ما قبله، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿فَإِنَّ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (إنَّ): حرف مشبه بالفعل. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر (إنَّ) تقدم على اسمها. ﴿نَارَ﴾: اسم (إنَّ) مؤخر، وهو مضاف، و﴿جَهَنَّمَ﴾ مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف، للعلمية، والعجمة. ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال من الضمير المجرور باللام، وقد روعي فيه معنى (مَنْ)، كما رأيت في الشرح، وفاعله مستتر فيه. ﴿فِيهَآ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: ﴿خَٰلِدِينَ﴾. ﴿أَبَدًا﴾: ظرف زمان متعلق به أيضاً، والجملة الاسمية: (إنَّ له...) إلخ في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محل لها؛ لأنها لم تحل محل المفرد. هذا؛ وقرئ بفتح همزة (أنَّ) وعليه فـ: (أنَّ) واسمها وخبرها في تأويل مصدر في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: فجزاؤه الخلود في نار جهنم، مثل قوله تعالى في سورة (الأنفال) رقم [٤١]: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾، وقوله تعالى في سورة (الحج) رقم [٤]: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلف فيه كما رأيت في الآية رقم [١٤]. والجملة الاسمية: ﴿وَمَن يَعْصِ...﴾ إلخ مستأنفة، لا محل لها.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾

الشرح: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ﴾: من العذاب، والهلاك في الدنيا، كوقعة بدر؛ التي أذلهم الله فيها، ونكس رؤوسهم، وأخمد شوكتهم. أو المراد: العذاب؛ الذي سيلاقونه في الآخرة في نار الجحيم. ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾: حينئذ علم اليقين، علماً لا يشوبه شك، ولا ارتياب. ﴿مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا﴾: معيناً، ومساعداً. ﴿وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾: وأقل رجالاً، ونفراً، وجنداً، هل هم، أم المؤمنون الموحدون؟! ولا شك: أن الله ناصر عباده المؤمنين، فهم الأقوى ناصراً، والأكثر عدداً؛ لأن الله معهم وملائكته الأبرار. قال تعالى في سورة (غافر) رقم [٥١]: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ رقم [٤٧] من سورة (الروم)، انظر شرحهما في محلهما؛ تجد: أن النصر مشروط بالإيمان الحقيقي، والكامل.

هذا؛ وأصل ﴿رَأَوْا﴾ (رَأى) فلما اتصل به واو الجماعة صار (رآوا) فالتقى ساكنان: الألف والواو، فحذفت الألف لالتقاء الساكنين. ثم تحرك الواو بالضمة إن وليها ساكن مثل (رأوُا الآيات) ولم تحرك بالكسرة؛ لأن الكسرة لا تناسبها. وقيل: تحرك بالضم دون غيره، ليفرق بين الواو الأصلية وبين واو الجماعة في نحو قولك: (لَوِ اجتهدْتَ لَنجحتَ). وقيل: تضم؛ لأن الضمة أخف من الكسرة؛ لأنها من جنس الواو. وقيل: تحرك بحركة الياء المحذوفة. وقيل: غير ذلك.

الإعراب: ﴿حَتَّىٰٓ﴾: حرف ابتداء. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك، مبني على السكون في محل نصب. ﴿رَأَوۡاْ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف المحذوفة، لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة، التي هي فاعله، والألف للتفريق، وهو بصري، فلذا اكتفى بمفعول واحد. ﴿مَا﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة، مبنية على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿يُوعَدُونَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو نائب فاعله، والجملة الفعلية صلة ﴿مَا﴾ أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: الذي، أو شيئاً يوعدونه، وجملة: ﴿رَأَوۡاْ...﴾ إلخ في محل جر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على المشهور المرجوح؛ لاقتران جوابها هنا بالفاء؛ لأن الفاء لا يعمل ما بعدها فيما قبلها. ﴿فَسَيَعۡلَمُونَ﴾: الفاء: واقعة في جواب ﴿إِذَا﴾. السين: حرف مفيد للتوكيد، والتحقيق هنا. (يعلمون): فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله. ﴿مَنۡ﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿أَضۡعَفُ﴾: خبر مبتدأ محذوف، التقدير: هو أضعف، والجملة الاسمية صلة الموصول، لا محل لها. هذا؛ وأجيز اعتبار ﴿مَنۡ﴾ اسم استفهام مبتدأ، و﴿أَضۡعَفُ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل نصب مفعول به على أن الفعل قد علق عن العمل لفظاً بالاستفهام. ﴿نَاصِرٗا﴾: تمييز. ﴿وَأَقَلُّ﴾: الواو: حرف عطف. (أقل): معطوف على ﴿أَضۡعَفُ﴾. ﴿عَدَدٗا﴾: تمييز، وجملة: (سيعلمون...) إلخ جواب ﴿إِذَا﴾، لا محل لها، و﴿إِذَا﴾ ومدخولها كلام مستأنف، لا محل له. هذا؛ وأجيز اعتبار ﴿إِذَا﴾ مجرورةً بـ: ﴿حَتَّىٰٓ﴾، وهو رأي: الأخفش دائماً في مثل هذا التركيب، والمعنى هنا يؤيده، لذا قال الجلال ـ رحمه الله تعالى ـ: ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ابتدائية فيها معنى الغاية لمقدر قبلها، أي: لا يزالون مستمرين على كفرهم إلى أن يروْا...إلخ.

﴿قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾

الشرح: ﴿قُلۡ﴾: خطاب للنبي ﷺ، ﴿إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء الكافرين المستهزئين بما تعدهم من العذاب، والهلاك: ما أدري: هل هذا العذاب الذي توعدونه قريب زمنه. ﴿أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا﴾ أي: أم هو بعيد له مدة طويلة وأجل محدود؟!.

قال المفسرون: كان النبي ﷺ، كلما خوف الكافرين نار جهنم، وحذرهم أهوال الساعة؛ أظهروا الاستخفاف بقوله، وسألوه متى هذا العذاب؟! ومتى تقوم الساعة؟! فأمره الله تعالى أن يقول لهم: لا أدري وقت ذلك، هل هو قريب، أم بعيد؟ وقيل: المستهزئ والسائل العذاب هو النضر بن الحارث، وكان هذا شأنه، وقد أمر الرسول ﷺ بقتله صبراً حينما وقع أسيراً بأيدي المسلمين في غزوة بدر. انظر ما ذكرته في سورة (الأنفال) رقم [٣٢].

قال الزمخشري ـ رحمه الله تعالى ـ: فإن قلت: ما معنى قوله تعالى: ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾ والأمد يكون قريباً، وبعيداً، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ رقم [٣٠] من سورة (آل عمران)؟ قلت: كان رسول الله ﷺ يستقرب الموعد، فكأنه قال: ما أدري أهو حال متوقع في كل ساعة، أم مؤجل ضربت له غاية؟. انتهى.

وفي الخطيب: فإن قيل: أليس أنه ﷺ قال: «**بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين**». فكان عالماً بقرب وقوع القيامة، فكيف قال هاهنا: لا أدري أقريب أم بعيد. . .إلخ؟!. أجيب بأن المراد بقرب وقوع الذي علمه هو: أن ما بقي من الدنيا أقل مما انقضى، فهذا القدر من القرب معلوم، وأما معرفة مقدار القرب؛ فغير معلوم. انتهى. جمل.

الإعراب: ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت». ﴿إِنْ﴾: حرف نفي بمعنى: «ما». ﴿أَدْرِىٓ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل مستتر تقديره: «أنا»، وهو معلق عن العمل لفظاً بسبب الاستفهام. ﴿أَقَرِيبٌ﴾: الهمزة: حرف استفهام. (قريب): خبر مقدم. ﴿مَّا﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع مبتدأ مؤخر، وأجيز اعتبارها مصدرية، وهو ضعيف، ويجوز اعتبار (قريب) مبتدأ، و﴿مَّا﴾ فاعلاً به ساداً مسد الخبر لاعتماد الوصف على الاستفهام، والجملة الاسمية في محل نصب سدت مسد مفعولي أدري المعلق عن العمل لفظاً بهمزة الاستفهام، والجملة الفعلية: ﴿إِنْ أَدْرِىٓ...﴾ إلخ في محل نصب مقول القول، وانظر مثل هذه الجملة في الآية رقم [١٠٩] من سورة (الأنبياء)، معنىً، ومحلاً، وإعراباً. ﴿أَمْ﴾: حرف عطف. ﴿يَجْعَلُ﴾: فعل مضارع. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من ﴿أَمَدًا﴾، كان صفةً له، فلما قدم عليه؛ صار حالاً، وبعضهم يعتبر الجار والمجرور في محل نصب مفعول به ثان. ﴿رَبِّىٓ﴾: فاعل مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة، والياء في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿أَمَدًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿إِنْ أَدْرِىٓ...﴾ إلخ فهي في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قُلْ...﴾ إلخ مستأنفة، لا محل لها.

﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾

الشرح: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾: الغيب: ما غاب عن العباد، وانظر ما ذكرته في الآية رقم [١٢] من سورة (الملك). ﴿فَلَا يُظْهِرُ﴾: فلا يطلع. ﴿عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ﴾ أي: على الغيب المخصوص به علمه. ﴿أَحَدًا﴾: من الناس.

هذا؛ و«أحد» أصله: وَحَد؛ لأنه من الوحدة، فأبدلت الواو همزة، وهذا قليل في المفتوحة، إنما يحسن في المضمومة والمكسورة، مثل قولهم في وُجوه: أُجوه، وفي وِسادة: إسادة، وهو مرادف للواحد في موضعين: أحدهما: وصف الباري جل علاه، فيقال: هو الواحد، وهو الأحد. والثاني: أسماء العدد، فيقال: أحد وعشرون، وواحد وعشرون. وفي غير هذين الموضعين يفرق بينهما في الاستعمال، فلا يستعمل أحد إلا في النفي، وهو كثير في الكلام، أو في الإثبات مضافاً، كما في قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ بخلاف الواحد، وقولهم: «ما في الدار أحد»، هو اسم لمن يعقل، ويستوي فيه المفرد، والمثنى، والجمع، والمذكر، والمؤنث. قال تعالى: ﴿يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ رقم [٣٢] من سورة (الأحزاب)، وقوله جل ذكره في سورة (الحاقة) رقم [٤٧]: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ﴾.

هذا؛ و«أحد» أكمل من الواحد، ألا ترى أنك إذا قلت: فلان لا يقوم له واحد؛ جاز في المعنى أن يقوم له اثنان، فأكثر، بخلاف قولك: لا يقوم له أحد. وفي الأحد خصوصية ليست في الواحد، تقول: ليس في الدار أحد، فيجوز ألا يكون في الدار الدواب، والطير، والوحش، والإنس، فيعم الناس، وغيرهم، بخلاف ليس في الدار واحد، فإنه مخصوص بالآدميين.

ويأتي «الأحد» في كلام العرب بمعنى الواحد، فيستعمل في النفي، والإثبات، نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي: واحد، وقوله تعالى في سورة (الكهف) رقم [١٩]: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ﴾ أي: واحداً منكم، وبغير معنى الواحد، فلا يستعمل إلا في النفي، تقول: ما جاءني من أحد، ومنه قوله تعالى في سورة (البلد): ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ و«واحد» يستعمل فيهما مطلقاً، و«أحد» يستعمل في المذكر، والمؤنث، كما رأيت في آية (الأحزاب)، بخلاف الواحد، فلا يقال: كواحد من النساء، بل كواحدة، و«أحد» يصلح للإفراد، والجمع، ولهذا؛ وصف به في آية (الحاقة) المتقدمة، بخلاف الواحد. و«الأحد» له جمع من لفظه، وهو: الأحدون، والآحاد، وليس للواحد جمع من لفظه، فلا يقال: واحدون، بل اثنان، وثلاثة. و«الأحد» ممتنع من الدخول في شيء من الحساب، بخلاف الواحد، فتلخص من ذلك سبعة فروق. انتهى.

الإعراب: ﴿عَـٰلِمُ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هو عالم، وأجيز اعتباره بدلاً من ﴿رَبِّىٓ﴾، أو عطف بيان له، وقرئ بنصبه على المدح بفعل محذوف، و﴿عَـٰلِمُ﴾ مضاف،

و﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ مضاف إليه، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الاسمية المقدرة: «هو عالم» مستأنفة، لا محل لها، واعتبارها حالاً من ﴿رَبِّيٓ﴾ ضعيف. ﴿فَلَا﴾: الفاء: حرف استئناف، وتفريع. (لا): نافية. ﴿يُظۡهِرُ﴾: فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: «هو» يعود على ما قبله، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ﴾: متعلقان بما قبلهما، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿أَحَدًا﴾: مفعول به.

﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾﴾

الشرح: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ أي: فإن الله يظهره على شيء من غيبه، فهو كقوله تعالى في آية الكرسي: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾؛ لأن الرسل مؤيدون بالمعجزات، ومنها: الإخبار عن بعض الغائبات. قال تعالى حكاية عن قول عيسى ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ في سورة (آل عمران) رقم [٤٩]: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡ﴾ والمعنى لا يظهر الله على غيبه إلا من اصطفى للنبوة، فإنه يطلعه على ما يشاء من غيبه ليكون ذلك دالاً على نبوته.

قال العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ: لما تمدح سبحانه بعلم الغيب، واستأثر به دون خلقه؛ كان فيه دليل على أنه لا يعلم الغيب أحد سواه، ثم استثنى مَن ارتضاه من الرسل، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزة لهم، ودلالة صادقة على نبوتهم، وليس المنجم، ومن ضاهاه ممَّن يضرب بالحصى، وينظر في الكتب، ويزجر بالطير ممن ارتضاه الله من رسول، فيطلعه على ما يشاء من غيبه، بل هو كافر بالله، مفتر عليه بحدسه، وتخمينه، وكذبه.

قال بعض العلماء: وليت شعري ما يقول المنجم في سفينة ركب فيها ألف إنسان، على اختلاف أحوالهم، وتباين رتبهم، فيهم: الملك، والسوقة، والعالم، والجاهل، والغني، والفقير، والكبير، والصغير، مع اختلاف طوالعهم، وتباين مواليدهم، ودرجات نجومهم، فعمهم حكم الغرق في ساعة واحدة؟ فإن قال المنجم قبحه الله تعالى: إنما أغرقهم الطالع، الذي ركبوا فيه، فيكون على مقتضى ذلك: أن هذا الطالع أبطل أحكام تلك الطوالع كلها على اختلافها عند ولادة كل واحد منهم، وما يقتضيه طالعه المخصوص به، فلا فائدة أبداً في عمل المواليد، ولا دلالة فيها على شقي، ولا سعيد، ولم يبق إلا معاندة القرآن العظيم، وفيه استحلال دمه على هذا التنجيم، ولقد أحسن الشاعر حيث قال: [الكامل]

حَكَمَ الْمُنَجِّمُ أَنَّ طالِعَ مَوْلِدِي ... يَقْضِي عَلَيَّ بِمِيتَةِ الغَرَقِ
قُلْ لِلْمُنَجِّمِ صَبْحَةَ الطوفانِ هَلْ ... وُلِدَ الجَمِيعُ بِكَوكَبِ الغَرقِ؟!

قيل لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ لما أراد لقاء الخوارج: أتلقاهم؛ والقمر في العقرب؟! فقال ـ رضي الله عنه ـ، وكرم الله وجهه: فأين قمرهم؟! وكان ذلك في آخر الشهر، فانظر إلى هذه الكلمة التي أجاب بها، وما فيها من المبالغة في الرد على من يقول بالتنجيم، والإفحام لكل جاهل يحقق أحكام النجوم! وقال له مسافر بن عوف: يا أمير المؤمنين! لا تسر في هذه الساعة، وسر في ثلاث ساعات يمضين من النهار، فقال له ـ رضي الله عنه ـ: ولم؟ قال: إنك إن سرت في هذه الساعة؛ أصابك، وأصاب أصحابك بلاء، وضر شديد، وإن سرت في الساعة التي أمرتك بها ظفرت، وظهرت، وأصبت ما طلبت! فقال ـ رضي الله عنه ـ: ما كان لمحمد ﷺ منجم، ولا لنا من بعده، في كلام طويل يحتج فيه بآيات التنزيل، فمن صدقك في هذا القول لَمْ آمنْ عليه أن يكون كمن اتخذ من دون الله نداً، أو ضداً. اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ثم قال للمتكلم: نكذبك، ونخالفك، ونسير في الساعة التي تنهانا عنها.

ثم أقبل على الناس، فقال: أيها الناس! إياكم وتعلم النجوم إلا ما تهتدون به في ظلمات البر، والبحر، وإنما المنجم كالساحر، والساحر كالكافر، والكافر في النار، والله لئن بلغني أنك تنظر في النجوم، وتعمل بها؛ لأخلدنك في الحبس ما بقيتَ، وبقيتُ! ولأحرمنك العطاء ما كان لي سلطان! ثم سافر في الساعة التي نهاه عنها، ولقي القوم، فقتلهم، وهي وقعة النهروان الثابتة في الصحيح لمسلم، ثم قال: لو سرنا في الساعة، التي أمرنا بها، وظفرنا، وظهرنا؛ لقال قائل: سار في الساعة، التي أمر بها المنجم، ما كان لمحمد ﷺ منجم، ولا لنا من بعده، وفتح الله علينا بلاد كسرى، وقيصر، وسائر البلدان، ثم قال: أيها الناس! توكلوا على الله، وثقوا به، فإنه يكفي عن سواه. انتهى. قرطبي بحروفه.

أقول: ومن هذه المشكاة ما قيل للمعتصم العباس حينما أراد غزو عمورية، ولكنه خالف المنجم، وانتصر، وفي ذلك قال شاعره أبو تمام: [البسيط]

السَّيْفُ أصدقُ أنباءً مِنَ الكُتُبِ ... في حَدِّهِ الحدُّ بيْنَ الجِدِّ واللعِبِ

أقول: نص الآية الكريمة يفيد صراحة: أن الله عز وجل يطلع من ارتضى، واختار من الرسل على شيء من الغيب، وكذلك يطلع بعض أوليائه على شيء منه، وقد أثبت أهل السنة كرامات الأولياء، خلافاً للمعتزلة، وأن الله ـ عز وجل ـ يجوز أن يلهم بعض أوليائه وقوع بعض الوقائع في المستقبل، فيخبر به، وهو من إطلاع الله إياه على ذلك، ويدل على ذلك ما روي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لقَدْ كانَ فِيمَن قبلكمْ مِنَ الأمَمِ ناسٌ مُحَدَّثون، من غيرِ أنْ يكونوا أنبياءَ، وإنْ يكنْ في أمتي أحدٌ؛ فإنه عمرُ بن الخطاب**». أخرجه البخاري. قال ابن وهب: تفسير «محدثون»: ملهمون. ولمسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن

النبي ﷺ أنه كان يقول: «**قَدْ كانَ في الأمم قبلكم محدَّثون، فإنْ يكنْ في أمَّتي منهم أحدٌ، فإن عمرَ بن الخطابِ منهم**». ففي هذا إثبات كرامات الأولياء. انتهى. خازن بتصرف.

أما الكهانة فقد نهى الرسول ﷺ عنها، ونهى عن تصديق الكهان، وعن الجلوس إليهم، والأخذ منهم. وخذ ما يلي:

عن عمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَيْسَ منَّا مَنْ تَطيَّر، أو تُطُيِّرَ له، أو تكهَّن، أو تُكُهِّنَ له، أو سحَرَ، أو سُحِرَ لهُ، ومن أتى كاهناً فصدَّقه بما يقول؛ فقد كفر بما أُنْزِل على محمد ﷺ**». رواه الطبراني، والبزار، ورحم الله من يقول: [البسيط]

لا يعلمُ المرءُ ليلاً ما يُصَبِّحُهُ ... إلا كواذبَ مِمَّا يخبرُ الفالُ

والفألُ والزجرُ والكهَّانُ كلُّهُمُ ... مُضَلِّلُون ودونَ الْغَيْبِ أقفالُ

وقال آخر: [البسيط]

دَعِ المنجمَ يَكْبُو في ضلالَتِه ... إن ادَّعى عِلْمَ ما يَجْرِي بهِ الفلكُ

تفرَّدَ اللهُ بالعِلمِ القَديمِ فلَا ... يشرِكُهُ فيهِ إنسانٌ ولا مَلَكُ

﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ﴾: يدخل. ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾: من أمامه. ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾: والمراد جميع جهاته. ﴿رَصَدًا﴾: حراساً من الملائكة يحرسونه، والضمير يعود إلى من ارتضاه، فيحفظ الوحي من استراق الشياطين السمع، وإلقائه إلى الكهنة. قال الضحاك: ما بعث الله نبياً إلا ومعه ملائكة يحرسونه من الشياطين عن أن يتشبهوا بصورة الملك، فإذا جاءه شيطان في صورة الملك. قالوا: هذا شيطان؛ فاحذره، وإن جاءه الملك؛ قالوا: هذا رسول ربك.

هذا؛ والرصد: القوم يرصدون كالحرس، يستوي فيه الواحد، والجمع، والمذكر، والمؤنث، وربما قالوا: أرصاداً، والراصد للشيء: الراقب له، يقال: رصده، يرصده رَصْداً، ورَصَداً، والترصد: الترقب، والمرصد: موضع الرصد، وفي سورة (التوبة) رقم [٥]: ﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾، وفيها أيضاً رقم [١٠٧]: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾. ومعنى ﴿يَسْلُكُ﴾ يرسل ويجعل مِنْ أمام الرسول المرتضى وَمِنْ خلفه ملائكة حراساً يحفظونه من الجن، ويحرسونه في ضبط ما يلقيه الله تعالى إليه من علم الغيب. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

هذا؛ والتعبير عن الأمام، والخلف بقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ كثير في القرآن الكريم، وإن اختص كل موضع بتفسير حسب مقتضيات الأحوال، واختلافها، فمثلاً قوله تعالى في الآية رقم [٢٨] من سورة (الأنبياء) يفسر بغير ما في هذه الآية، وكذلك الآية رقم [٩] من

سورة (سبأ): ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، والآية رقم [١١٠] من سورة (طه) كلتاهما تخالفان معنى قوله تعالى: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ الآية رقم [٦٤] من سورة (مريم) على نبينا، وحبيبنا، وعليها ألف صلاة، وألف سلام، وهكذا والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿مَنِ﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مستثنىً من ﴿أَحَدًا﴾، فهو استثناء متصل، وجوز السمين اعتباره منقطعاً؛ أي: لكن من ارتضاه، فإنه يظهره على ما يشاء من غيبه بالوحي، ثم قال: ويجوز أن تكون من شرطية، أو موصولة متضمنة معنى الشرط، وقوله: ﴿فَإِنَّهُۥ...﴾ إلخ خبر المبتدأ على القولين، وهو من الاستثناء المنقطع أيضاً. انتهى. وتفصيله كما يلي:

﴿مَنِ﴾: اسم شرط مبني على السكون في محل نصب مفعول به مقدم لفعل شرطه، أو هو في محل رفع مبتدأ، والأول أقوى؛ لأن الفعل بعده متعد، ولم يستوف مفعوله. ﴿ٱرْتَضَىٰ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف في محل جزم فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (الله). ﴿مِن رَّسُولٍ﴾: متعلقان بمحذوف حال مِن: (مَنْ)، و﴿مِن﴾ بيان لما أبهم في (مَنْ). ﴿فَإِنَّهُۥ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (إنه): حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿يَسْلُكُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى (الله) أيضاً. ﴿مِنۢ بَيْنِ﴾: متعلقان بما قبلهما، و﴿بَيْنِ﴾ مضاف، و﴿يَدَيْهِ﴾ مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه مثنى صورة، وحذفت النون للإضافة، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾: معطوفان على ما قبلهما. ﴿رَصَدًا﴾: مفعول به، وجملة: ﴿يَسْلُكُ...﴾ إلخ في محل رفع خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محل لها؛ لأنها لم تحل محل المفرد، وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلف فيه، كما رأيت في الآية رقم [١٤]. هذا؛ وإن اعتبرت (مَنْ) اسماً موصولاً فهي مبتدأ، والجملة بعدها صلة، والعائد محذوف، التقدير: الذي ارتضاه، والجملة الاسمية: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ...﴾ إلخ في محل رفع خبره، واقترنت بالفاء؛ لأن الموصول يشبه الشرط في العموم، والكلام: ﴿مَنِ ٱرْتَضَىٰ...﴾ إلخ في محل نصب على الاستثناء المنقطع، كما رأيته سابقاً.

﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾

الشرح: ﴿لِّيَعْلَمَ﴾ أي: ليعلم محمد ﷺ: أنَّ جبريل عليه السلام قد بلغ إليه رسالات ربه. وقيل: معناه: ليعلم محمد ﷺ: أن الرسل قبله قد أبلغوا رسالات ربهم إلى أقوامهم، وأن الله حفظهم، ودفع عنهم. وقيل: معناه: ليعلم الله علم ظهور، فإنه تعالى عالم بما كان، وما يكون أن رسله الكرام قد بلغوا عنه وحيه كما أوحاه إليهم محفوظاً من الزيادة، والنقصان، فلا يخفى

عليه شيء من أمورهم، فقد قال المفسرون: ما جاء في القرآن من تعليل لعلم الله تعالى كقوله في سورة (البقرة) رقم [١٤٣]: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾، وقوله تعالى في سورة (آل عمران) رقم [١٤٠]: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾، ومنها أيضاً رقم [١٦٦]: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وبعدها: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ فإنما هو علم ظهور، لا علم بداء، فإن الله تعالى عالم بالأشياء أزلاً، وإنما يظهر علمه لعباده. ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أي: أحاط علمه بما عند الرسل، وبما عند الملائكة، فلا يخفى عليه شيء من أمورهم.

﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ أي: علم الله تعالى علم ضبط، واستقصاء جميع الأشياء، المنبثة في الأرضين والسموات، من القطر، والرمل، وورق الأشجار، وزبد البحار، فلا يغيب عنه شيء، ولا يخفى عليه أمر، فكيف لا يحيط علماً بما عند رسله من رسالاته، ووحيه؛ التي أمرهم بتبليغها إلى خلقه؟! وكيف يمكن لرسله أن يفرطوا في تلك الرسالات، أو يزيدوا، أو ينقصوا، أو يحرفوا فيها، أو يغيروا منها، وهو تعالى محيط بها، محص لجميع الأشياء، جليلها وحقيرها؟ قال تعالى في سورة (الأنعام) رقم [٥٩]: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

الإعراب: ﴿لِّيَعْلَمَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ: «أن» مضمرة بعد لام التعليل، والفاعل يعود إلى الله، أو إلى الرسول حسبما رأيت في الشرح، و«أن» المضمرة والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر باللام، والجار والمجرور متعلقان بالفعل ﴿يَسْلُكُ﴾ على اعتبار الفاعل عائداً إلى (الله)، أو بمحذوف تقديره: أخبرناه على اعتبار الفاعل عائداً إلى الرسول ﷺ. ﴿أَن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، التقدير: أنه. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿أَبْلَغُواْ﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية في محل رفع خبر ﴿أَن﴾، والمصدر المؤول من ﴿أَن﴾ واسمها، وخبرها في محل نصب سد مسد مفعول (يعلم). ﴿رِسَٰلَٰتِ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم، و﴿رِسَٰلَٰتِ﴾ مضاف، و﴿رَبِّهِمْ﴾ مضاف إليه، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿وَأَحَاطَ﴾: الواو: واو الحال. (أحاط): فعل ماض، والفاعل يعود إلى (الله)، وهذا يؤكد عود فاعل (يعلم) إلى (الله)، والجملة الفعلية في محل نصب حال من فاعل (يعلم) المستتر، والرابط: الواو، والضمير، وهي على تقدير «قد» قبلها. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿لَدَيْهِمْ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة (ما)، فهو منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف المنقلبة ياء لاتصاله

بالضمير، الذي هو في محل جر بالإضافة. ﴿وَأَحۡصَىٰ﴾: الواو: حرف عطف. (أحصى): فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى (الله). ﴿كُلَّ﴾: مفعول به، و﴿كُلَّ﴾ مضاف، و﴿شَيۡءٍ﴾ مضاف إليه، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب حال مثلها. ﴿عَدَدَۢا﴾: تمييز، وقال الزمخشري، ومتابعوه: حال. هذا؛ وأجيز اعتباره مفعولاً مطلقاً؛ لأن أحصى بمعنى عدَّ.

تنبيه: أذكر لك هنا الفرق بين الملائكة، والجن من تعريف علماء التوحيد للملائكة، والجن بما يلي: فالملائكة: أجسام نورانية لطيفة قادرة على التشكل، والتمثل بأية صورة أرادوا، لا يأكلون، ولا يشربون، لا يبولون، ولا يتغوطون، لا ينامون، ولا يموتون، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، لا يتناسلون، ولا يتناكحون، يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس، لا يوصفون بذكورة، ولا بأنوثة، فمن وصفهم بذكورة فسق، ومن وصفهم بأنوثة كفر، ولهم قدرة خارقة، ولا تحكم عليهم الصورة، وهم كثيرون، لا يعلم عددهم إلا الله تعالى. قال تعالى في سورة (المدثر): ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ يقومون بأعمال مختلفة، كل فيما وكل إليه من أعمال، ورؤساؤهم عشرة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل، ورقيب، وعتيد، ومنكر، ونكير، ورضوان خازن الجنة، ومالك خازن النار، ويتشكلون بأشكال حسنة.

أما الجن؛ فهم أجسام نارية سفلية، مخلوقون من مارج من نار، أي: من أخلاط نار صافية، وأنهم قادرون على التشكل بأية صورة أرادوا، وفي الغالب يتشكلون بصور مخيفة، وأنهم يتناسلون، ولهم ذرية، وفيهم الذكر، والأنثى، وهم مكلفون كالبشر، وفيهم المؤمن والكافر، وأن الصورة تحكم عليهم. ومما تقدم يتبين لنا بوضوح أن بين خلق الملائكة، وبين خلق الجن تفاوتاً واضحاً، وتبايناً ظاهراً في أصل الجبلة، والخلقة.

فالملائكة مخلوقون من نور، والجن مخلوقون من نار، يدل لذلك قول النبي ﷺ: «**خلِقَتِ الملائكةُ من نورٍ، وخُلِقَ الجانُّ من مارِجٍ من نارٍ، وخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لكم**». رواه مسلم، وقال تعالى في سورة (الحجر) رقم [٢٧]: ﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾.

والملائكة ليس لهم نسل ولا ذرية، بخلاف الجن، فإنهم يتناسلون ويتناكحون، ولهم نسل وذرية. قال تعالى في سورة (الكهف) رقم [٥٠]: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ﴾ فالملائكة يخلقهم الله خلقاً جديداً مبتدأً؛ لأنه ليس فيهم ذكر، أو أنثى، حتى يحصل التناسل، أما الجن؛ ففيهم الذكر، والأنثى، ويقع بينهم التناكح والتناسل، كما هو الحال بين البشر.

والملائكة قادرون على التمثل بأمثال الأشياء، والتشكل بالأشكال الجسمانية، المحسوسة فقد ثبت ذلك في النصوص العديدة من الكتاب والسنة. قال تعالى عن جبريل عليه السلام:

﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ وقال تعالى عن ضيوف إبراهيم من الملائكة الأبرار: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ...﴾ إلخ. الآيات من سورة (الذاريات) فقد دخلوا عليه في صورة رجال، وحين قدم لهم الطعام امتنعوا عن الأكل، فأوجس منهم خيفة، فأخبروه: أنهم ليسوا بشراً، وإنما هم ملائكة أرسلهم الله لإهلاك المكذبين من قوم لوط.

وحين قدم الملائكة على نبي الله لوط عليه السلام، جاؤوه على صورة شباب مرد حسان، مما جعل السفهاء يطمعون بفعل الفاحشة بهم؛ حيث جاؤوا يتسابقون إلى دار لوط، عليه السلام. كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ...﴾ إلخ الآيات رقم [٧٨] وما بعدها من سورة (هود) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام.

فالملائكة إذاً قادرون على التصور، والتشكل بأية صورة شاؤوا، وقد ثبت في الصحيحين عن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ؛ إذ طلع علينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثوبِ، شديدُ سوادِ الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، فسأل رسول الله ﷺ عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعن الساعة، فأجابه الرسول عنها بالتفصيل، وأخيراً سأل الصحابة: «**أتدرون مَنِ السَّائِلُ؟**». قالوا: الله، ورسوله أعلم! قال: «**فإنه جبريل أتاكم يعلمكم أمور دينكم**».

والجن أيضاً قادرون على التمثل، والتشكل بأية صورة شاؤوا، فقد اجتمعوا برسول الله ﷺ في صورة نفر من الرجال، وسمعوا القرآن، ثم رجعوا إلى قومهم منذرين، كما قال تعالى في سورة (الأحقاف) رقم [٢٩]: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾. فهم يشبهون الملائكة من هذه الناحية، وهي قدرة التمثل، والتشكل بأي صورة شاؤوا، ولكنهم يختلفون عن الملائكة في أنهم تحكم عليهم الصورة، بينما الملائكة لا تحكم عليهم الصورة، بمعنى: أن الجني لو تصور وتشكل في صورة إنسان، أو طير، وصوب إنسان سهماً نحوه، فإن الجني يموت، كما لو قتله إنسان بسيف، أو رمح، فيجري عليه حكم الصورة، بخلاف الملك إذا ما سدد إنسان سهماً نحوه، أو جني عليه بجناية، فلا يناله شيء من الأذى فيما لو تشكل بصورة إنسان، أو غيره. ثم إن الملائكة يختلفون عن الجن في أنهم لا يأكلون، ولا يشربون، وليس فيهم نزوع إلى البشر، وليس عندهم استعداد للمعصية، بل خلقوا على الاستقامة، وجبلوا على العبادة، والطاعة، كما قال تعالى في سورة (الأنبياء) رقم [٢٠]: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾، وأما الجن؛ ففيهم المؤمن، والكافر، والبر، والفاجر، فهم كالبشر في هذه الناحية، كما قال تعالى عن إبليس في سورة (الكهف) رقم [٥٠]: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾. وما ذكر في هذه السورة رقم [١٤] يدل كذلك على أن فيهم المسلم، والكافر. وهم مكلفون بالتكاليف الشرعية كسائر البشر. قال تعالى في سورة (الذاريات): ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

ولهم رسل، وأنبياء يبلغونهم أوامر الله، ونواهيه، كما قال تعالى في سورة (الأنعام) رقم [١٣٠]: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا﴾ انظر شرحها في محلها، فقوله تعالى: (منكم) يدل على أن هناك رسلاً من الإنس، ورسلاً من الجن. وبه قال الضحاك، ومقاتل. وأما رسالة محمد ﷺ؛ فهي عامة لجميع الخلق: إنسهم، وجنهم، كما قال تعالى في الآية رقم [١] من سورة (الفرقان): ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ ومثلها كثير.

والجن مخلوقون قبل الإنس، يدل لذلك قوله تعالى في سورة (الحجر): ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ انظر شرح الآيتين هناك، والجن يرون البشر، ولا يرونهم يدل لذلك قوله تعالى في سورة (الأعراف) رقم [٢٧]: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. ثم إن الملائكة يختلفون عن الجن في أن لهم قدرة عجيبة خارقة، فهم يستطيعون أن يقتلعوا الجبال، ويغوصوا البحار، ويقلبوا الأرض بأهلها، كما فعل الملائكة بقوم لوط، وكما اقتلع جبريل عليه السلام جبل الطور، ورفعه فوق بني إسرائيل، كما قال تعالى في سورة (الأعراف) رقم [١٧١]: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾.

وللملائكة أجنحة، فمنهم من له جناحان، ومن له ثلاثة، أو أربعة، أو أكثر. انظر الآية رقم [١] من سورة (فاطر) تجد ما يسرك، ويثلج صدرك. هذا؛ والشياطين فرقة من الجن، وهم المردة العصاة، ورئيسهم إبليس اللعين عليه لعنة الله، فكل متمرد من الجن يسمى: شيطاناً، كما أن كل عاص من الإنس يسمى فاسقاً، وكل جاحد يسمى كافراً، فكل شيطان جني، وليس كل جني شيطاناً، والله الموفق والمعين. انتهى. كله من كتاب «النبوة والأنبياء» للصابوني بتصرف كبير. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

انتهت سورة (الجن) شرحاً وإعراباً بتوفيق الله، وفضله.

والحمد لله رب العالمين

سورة المزمل

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة (المزمل) مكية كلها في قول الحسن، وعكرمة، وعطاء، وجابر. وقال ابن عباس، وقتادة: إلا آيتين منها: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ...﴾ إلخ، والتي تليها، ذكره الماوردي. وقال الثعلبي: قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ إلى آخر السورة، فإنه نزل بالمدينة. انتهى. قرطبي. وما قاله الثعلبي هو الصحيح، والمعتمد. وما نسب إلى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فهو ضعيف؛ لأن الأمر بالصبر، والهجر الجميل كان في مكة، وليس في المدينة، فليتأمل، وهي عشرون آيةً، ومئتان وخمس وثمانون كلمةً، وثمانمئة، وثمانية وثلاثون حرفاً. انتهى. خازن.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤﴾

الشرح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾: هذا خطاب للنبي ﷺ، والمزمل: المتلفف بثيابه، يقال: تزمل بثوبه، أي: التف به، وتغطى، وزمل غيره: غطاه، وهو بكسر الميم اسم فاعل، وبفتحها اسم مفعول. قال امرؤ القيس في معلقته رقم [٨٨]: [الطويل]

كَأَنَّ ثَبِيراً فِي عَرَانِينِ وَبْلِهِ ... كَبِيرُ أُنَاسٍ فِي بِجَادٍ مُزَمَّلِ

و﴿ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ أصله المتزمل، فأدغمت التاء في الزاي، ومثله: ﴿ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ معنىً، وأصلاً. وخطاب النبي ﷺ بهذا الوصف، فيه تأنيس، وملاطفة له ﷺ. قال السهيلي: في خطابه بهذا الاسم فائدتان: إحداهما الملاحظة، فإن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب، وترك معاتبته سمَّوْه، ونادَوْه باسم مشتق من حالته، التي هو عليها، كقول النبي ﷺ لعلي ـ رضي الله عنه ـ حين غاضب فاطمة ـ رضي الله عنها ـ، وقد نام، ولصق بجنبه التراب: «**قم أبا تراب**». إشعاراً بأنه ملاطف له، وغير عاتب عليه، وصار ذلك لقباً له من أحب ألقابه. وكذلك قوله ﷺ لحذيفة ـ رضي الله عنه ـ: «**قم يا نومان**». وكان نائماً ملاطفةً له، وإشعاراً بترك العتب، وكان ذلك في الخندق. والفائدة الثانية: التنبيه لكل متزمل راقد ليله ليتنبه إلى قيام الليل، وذكرِ الله تعالى فيه؛ لأنه الاسم المشتق من الفعل. ويشترك فيه المخاطب، وكل من اتصف بتلك الصفة. وسبب هذا

التزمل، والتدثر ما روي في البخاري (باب أول نزول الوحي): أن النبي ﷺ لما جاءه جبريل عليه السلام، وهو في غار حراء في ابتداء الوحي، وحصل ما حصل من ضمه إلى صدره ثلاث مرات، وإرساله؛ نزل من غار حراء يرجف فؤاده، فدخل على خديجة ـ رضي الله عنها ـ، وقال: «**زمِّلوني زملوني، لقد خشيت على نفسي**». وأخبرها بما جرى له. وزمِّلوني بمعنى: دثروني، وكلاهما بمعنى غطوني. انتهى. قرطبي وغيره بتصرف.

هذا؛ وقيل في ذلك أقوال كثيرة، والمعتمد ما ذكرته، وأبعد الأقوال عن الحقيقة والواقع ما ذكره النخعي: أن النبي ﷺ كان متزملاً بقطيفة، نصفها على عائشة ـ رضي الله عنها ـ وأنها مرط، طوله أربعةَ عشرَ ذراعاً. قالت: نصفه عليَّ وأنا نائمة، ونصفه على النبي ﷺ، وهو يصلي، والله ما كان خزاً، ولا قزاً، ولا مرعزىً، ولا إبريسماً، ولا صوفاً! كان سداه شعراً، ولحمته وبراً. ذكره الثعلبي. وقد ذكرت لك في مقدمة السورة عن الثعلبي نفسه: أن المعتمد: أن السورة مكية ما عدا الآية الأخيرة منها فإنها مدنية، فهل يصح هذا؟!.

﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾: هذا؛ واختلف هل كان قيام الليل فرضاً، أو نفلاً؟ والدلائل تقوي: أن قيامه كان فرضاً، ثم نسخ، واختلف: هل كان فرضاً على النبي ﷺ وحده، أو عليه، وعلى من كان قبله من الأنبياء، أو عليه، وعلى أمته؟ على ثلاثة أقوال: الأول: قول سعيد بن جبير ـ رحمه الله تعالى ـ؛ لتوجه الخطاب له وحده. الثاني: قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان قيام الليل فريضة على النبي ﷺ، وعلى الأنبياء قبله. الثالث: قول عائشة، وابن عباس أيضاً: أنه كان فرضاً عليه وعلى أمته. انتهى. جمل، نقلاً من الخطيب، والخازن، والقرطبي باختصار. وانظر ما اختص به النبي ﷺ من أشياء في الآية رقم [٥٠] من سورة (الأحزاب).

واختلف في الناسخ لفريضة قيام الليل، فقيل: الصلوات الخمس. وقيل: أول هذه السورة منسوخ بآخرها. وخذ ما يلي عن زرارة بن أوفى: أن سعد بن هشام بن عامر ـ رضي الله عنه ـ أراد أن يغزو في سبيل الله... الحديث، وفيه فقلت لعائشة ـ رضي الله عنها ـ: أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ؟ فقالت: ألستَ تقرأ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ...﴾ إلخ؟ قلت: بلى! قالت: فإن الله عز وجل افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام ﷺ وأصحابه حولاً، وأمسك الله عز وجل خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء، حتى أنزل الله عز وجل في آخر هذه السورة التخفيف، فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة. وذكر الحديث. وذكر وكيع، ويَعْلَى قالا: حدثنا مسعر عن سماك الحنفي قال: سمعت ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يقول: لما أنزل أول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ كانوا يقومون نحواً من قيامهم في شهر رمضان حتى نزل آخرها، وكان بين أولها، وآخرها نحو من سنة. وقال سعيد بن جبير ـ رحمه الله تعالى ـ: مكث النبي ﷺ وأصحابه عشر سنين يقومون الليل، فنزل بعد عشر سنين: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ...﴾ إلخ، فخفف الله عنهم.

بعد هذا أقول وبالله التوفيق: إذا اعتمدنا ما ذكرته عن الثعلبي في المقدمة: أن أول السورة نزل في بدء الوحي، والآية الأخيرة نزلت في المدينة، فيكون ما ذكر عن عائشة، وابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فيه تعارض، واضطراب، وأقرب إلى الصواب أن يقال: نَسْخُ فرضية قيام الليل كان بفريضة الصلوات الخمس. ويكون قول سعيد بن جبير أقرب من الصواب؛ لأن عشر سنين تكون بين نزول أول السورة في مكة، ونزول آخرها في المدينة. والله أعلم، وأجل، وأكرم.

﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾: فكان ذلك تخفيفاً؛ إذ لم يكن زمان القيام محدوداً، والمعنى: قم نصف الليل، أو انقص من النصف قليلاً إلى الثلث. ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ أي: زد على النصف إلى الثلثين، فكأنه قال: قم ثلثي الليل، أو نصفه، أو ثلثه. ولا تنس الطباق بين ﴿ٱنقُصْ﴾ و﴿زِدْ﴾ وهو من المحسنات البديعية. وبالإضافة لما ذكرته في سورة (الإسراء) رقم [٧٩]، وسورة (الفرقان) رقم [٦٤]، وسورة (السجدة) رقم [١٦] خذ ما يلي:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: «**يَنْزِلُ اللهُ عز وجل إلى سماءِ الدُّنيا كلَّ ليلةٍ حينَ يَمضي ثلثُ الليلِ الأوَّلُ، فيقولُ: أنَا الملكُ! أنا الملِكُ! منْ ذَا الذي يدعوني، فأستجيبَ له؟ من ذا الذي يسألني فأعطِيَهُ؟ من ذا الذي يستغفرني فأغفرَ لهُ؟ فلا يزال كذلك حتى يضيءَ الفجرُ**». أخرجه الإمام مسلم في صحيحه. وقد جاء في كتاب النسائي عن أبي هريرة، وأبي سعيد ـ رضي الله عنهما ـ قالا: قال رسول الله ﷺ: «**إن اللهَ عز وجل يمهلُ؛ حتى يمضيَ شطرُ الليلِ الأوَّل، ثم يأمرُ منادِياً، يقولُ: هل مِنْ داعٍ يُستجابُ لَهُ؟ هل مِنْ مستغفرٍ يُغفرُ لهُ؟ هل من سائلٍ يُعْطَى؟**». وخرّج ابن ماجه من حديث ابن شهاب، عن أبي سلمة، وأبي عبد الله الأغر، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «**ينزِلُ رَبُّنا تباركَ وتعالَى حينَ يبقى ثلثُ الليْلِ الآخِرُ كلَّ ليلةٍ، فيقولُ: مَنْ يسألني فأعطيَهُ؟ من يدعوني فأستجيبَ لَهُ؟ من يستغفرني فأغفِرَ لهُ؟ حتى يطلع الفجرُ**». فكانوا يستحبون صلاة آخر الليل على أوله. قال علماؤنا: وبهذا الترتيب انتظم الحديث، والقرآن، فإنهما يبصران من مشكاة واحدة. انتهى. قرطبي، أقول: والنزول المذكور مستمر كل ليلة إلى أن تطلع الشمس من مغربها.

أقول: وفي معنى النزول مذهبان: مذهب الخلف التأويل، يقولون: تنزل رحمة الله ورضوانه وجوده، وكرمه، وإحسانه؛ بمعنى: تفتح أبواب ذلك. ومذهب السلف التفويض: يقولون: نزول لا نعلمه، أو يقولون: نزول يليق به تعالى. وهذا الحديث من المتشابهات، مثل قوله تعالى في سورة (طه): ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ وغير ذلك كثير.

هذا؛ وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أن رسول الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تَتَفطَّرَ قدماه، فقلتُ لهُ: لِمَ تصنعُ هذَا؛ وقد غُفِرَ لكَ ما تقدمَ مِنْ ذنبِكَ، ومَا تَأَخَّرَ؟ قال: «**أفَلَا أحِبُّ أن أكونَ عبداً شكوراً؟!**». رواه البخاري، ومسلم. وهذا بعد أن نسخ فرضية قيام الليل عنه ﷺ، فعبادته لم تكن

طمعاً في جنة، ولا خوفاً من نار، وإنما هي شكر لله على ما أنعم عليه مِنْ نعم كثيرة، أجلها الرسالة إلى الخلق أجمعين. والشكر يستوجب المزيد من النعم. قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

ومعلوم أن تفطُّرَ قدميه ﷺ وتورُّمَ قدميه ـ كما في رواية أخرى ـ لم يكن من كثرة السجود، والركوع، والقيام، والقعود. لا، وإنما هو من إطالة القيام، والركوع، وغيرهما. فقد روي: أنه ﷺ كان يقوم الليل بأربع ركعات، يقرأ في الركعة الأولى سورة (البقرة)، وفي الثانية سورة (آل عمران)، وفي الثالثة سورة (النساء)، وفي الرابعة سورة (المائدة) وركوعه كان بمقدار خمسين آية، وسجوده بمقدار سبعين آية.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «**أَحَبُّ الصلاةِ إلى اللهِ صلاةُ داودَ، وأحبُّ الصيامِ إلى اللهِ صيامُ داودَ، كانَ ينامُ نِصْفَ اللَّيلِ، ويقومُ ثُلُثَهُ، وينام سُدُسَهُ، ويصومُ يوماً، ويُفْطِرُ يوماً**». رواه الستة.

﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ أي: اقرأه بترتيل، وتؤدة، وتبيين حروف، وإشباع حركات، بحيث يتمكن السامع من عدها. قال مجاهد: أحب الناس في القراءة إلى الله أعقلهم عنه. والترتيل: التنضيد، والتنسيق، وحسن النظام، ومنه ثغر رتل بكسر التاء وفتحها: إذا كانت أسنانه حسنة التنضيد والنظام، وقال أبو بكر بن طاهر: تدبَّرْ في لطائف خطابه، وطالِبْ نفسك بالقيام بأحكامِهِ، وقلبَكَ بفهمِ معانيه، وسرك بالإقبالِ عليه.

وعن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُؤْتَى بقارئ القرآنِ يَوْمَ القيامَةِ، فيُوقف في أولِ دَرَجِ الجنةِ، ويُقالُ لَهُ: اقرأْ، وارقَ، ورَتل كما كنتَ تُرَتِّل في الدنيا، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤُها**». أخرجه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه.

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**الماهِرُ بالقرآنِ مع السفرةِ الكرامِ البررةِ، والذي يَقْرأ القرآنَ وَيَتَتَعْتَع فيهِ، وهو عليه شَاقٌّ، لَهُ أَجْرَانِ**». رواه الستة.

هذا؛ وقيل: الترتيل: هو التوقف، والترسل، والتمهل، والتفهم، وتبيين القراءة حرفاً حرفاً، أثره في أثر بعض. وقيل: إن الله لما أمر بقيام الليل أتبعه بترتيل القرآن، حتى يتمكن المصلي من حضور القلب، والتأمل، والتفكر في حقائق الآيات، ومعانيها، فعند الوصول إلى ذكر الله تعالى يستشعر بقلبه عظمة المذكور، وجلاله. وعند ذكر الوعد، والوعيد يحصل الرجاء، والخوف. وعند ذكر القصص والأمثال يحصل الاعتبار، فيستنير القلب عند ذلك بنور المعرفة. والإسراع في القراءة لا يحصل فيها ذلك، فظهر بذلك: أن المقصود من الترتيل، إنما هو حضور القلب عند القراءة.

وعن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ، وقد سألها يَعْلَى بن مالك عن قراءة رسول الله ﷺ وصلاته، فقالت: مالكم وصلاته؟ ثم نعتت قراءته، فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً. أخرجه النسائي.

وعن أبي وائل شقيق بن سلمة؛ قال: جاء رجل إلى ابن مسعود؛ قال: إني لأقرأ المفصل في ركعة. قال عبد الله ـ رضي الله عنه ـ: هذًّا كهذِّ الشعر! إن أقواماً يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقِيَهُمْ. وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قام النبي ﷺ بآية من القرآن. أخرجه الترمذي، وللنسائي عن أبي ذر نحوه، وزاد: والآية من سورة (المائدة): ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: يرددها في صلاته في ليله.

وعن سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ، ونحن نقرأ، فقال: «**الحمد لله كتابُ اللهِ واحدٌ، وفيكم الأحمرُ، وفيكم الأبيضُ، وفيكم الأسودُ، اقرؤوا الْقُرآنَ قَبْلَ أن يقرأه أقوامٌ يقيمونه كما يُقَامُ السهمُ يتعجلون قراءتَهُ، ولا يتأجَّلُونَهُ، لا يُجَاوِزُ تَراقِيَهُمْ**». أخرجه أبو داود، وغيره. انتهى. خازن بتصرف.

الإعراب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: (يا): أداة نداء، تنوب مناب أدعو، أو أنادي. (أيها): منادى نكرة مقصودة مبنية على الضم في محل نصب بأداة النداء، و(ها): حرف تنبيه، لا محل له، أقحم للتوكيد، وهو عوض من المضاف إليه، ولا يجوز اعتبار الهاء ضميراً في محل جر بالإضافة؛ لأنه يجب حينئذ نصب المنادى. ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾: بدل من (أيُّ). ﴿قُمِ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر، تقديره: «أنت». ﴿ٱلَّيْلَ﴾: ظرف زمان متعلق بما قبله، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية كالجملة الندائية قبلها. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿قَلِيلًا﴾: مستثنىً بإلا من ﴿ٱلَّيْلَ﴾. ﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾: قال أبو البقاء: فيه وجهان: أحدهما: هو بدل من ﴿ٱلَّيْلَ﴾ بدل بعض من كل، و﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ استثناء من (نصف)، والثاني: هو بدل من ﴿قَلِيلًا﴾ وهو أشبه بظاهر الآية. انتهى. ومثله في الكشاف، والقرطبي، وعزا الأول للزجاج. والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿أَوِ﴾: حرف عطف، وتخيير. ﴿ٱنقُصْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت»، والجملة معطوفة على ما قبلها. (قليلاً): صفة زمان محذوف متعلق بالفعل قبله، التقدير: أو انقص منه زماناً قليلاً. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف، وتخيير أيضاً. ﴿زِدْ﴾: فعل أمر، وفاعله تقديره: «أنت»، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿وَرَتِّلِ﴾: الواو: حرف عطف. (رتل): فعل أمر، وفاعله: أنت، والجملة الفعلية معطوفة أيضاً. ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾: مفعول به. ﴿تَرْتِيلًا﴾: مفعول مطلق.

﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾

الشرح: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قولاً شديداً. وقيل: يعني: كلاماً جليلاً ذا خطر، وعظمة؛ لأنه كلام رب العالمين، وكل شيء له خطر ومقدار فهو ثقيل. والمعنى: صَيِّرْ نفسك مستعدة لقبول هذا القول العظيم الثقيل الشاق. وقيل: سماه ثقيلاً؛ لما فيه من الأوامر، والنواهي، فإن فيه كلفة، ومشقة على الأنفس. وقيل: ثقيلاً؛ لما فيه من الوعد والوعيد،

والحلال والحرام، والحدود والفرائض والأحكام. وقيل: ثقيلاً على المنافقين؛ لأنه يبين عيوبهم، ويظهر نفاقهم. وقيل: هو خفيف على اللسان بالتلاوة، ثقيل في الميزان بالثواب يوم القيامة. وقيل: سماه ثقيلاً لما فيه من المحكم، والمتشابه، والناسخ، والمنسوخ.

وقيل: ثقيلاً في الوحي، وذلك: أنه ﷺ كان إذا نزل عليه القرآن، والوحي يجد له مشقة. فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن الحارث بن هشام ـ رضي الله عنه ـ سأل رسول الله ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «**أحْياناً يأتِيني في مثلِ صلْصَلَةِ الجرسِ، وهو أشدُّهُ عليَّ، فَيُفْصِمُ عني، وقدْ وعَيْتُ عنه ما قال، وأحياناً يتمثَّلُ لي الملكُ رجلاً، فيُكلِّمُني، فأعِي ما يقولُ**». قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليومِ الشديدِ البردِ، فَيُفصِمُ عنه، وإنَّ جَبِينَهُ لَيتفَصَّدُ عَرَقاً، أخرجه البخاري، وعنها أيضاً قالت: إنْ كان لَيُوحى إلى رسول الله ﷺ وهوَ على راحلتِهِ، فتضربُ بجرانِهَا (صدْرِها) الأرضَ، فما تستطيع أن تتحرك حتى يُسَرَّى عنه؛ يعني: الوحي ينتهي. رواه الإمام أحمد. وعن زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ قال: أنزل على رسول الله ﷺ الوحيُ، وفخذهُ على فخذِي، فكادَتْ ترضُّ فخذِي. انتهى. خازن، وقرطبي، ومختصر ابن كثير.

الإعراب: ﴿إِنَّا﴾: (إنَّ): حرف مشبه بالفعل، و(نا): اسمها، حذفت نونها، وبقيت الألف دليلاً عليها. ﴿سَنُلْقِي﴾: السين: حرف استقبال، وهو مفيد هنا للتوكيد قطعاً؛ لأنه وعد من الكريم. (نلقي): فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل ضمير مستتر تقديره: «نحن». ﴿عَلَيْكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿قَوْلًا﴾: مفعول به. ﴿ثَقِيلًا﴾: صفة له، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية مبتدأة، أو مستأنفة، لا محل لها على الاعتبارين. وعن الزمخشري قال: معترضة بين الأمر بقيام الليل، وبين تعليله الآتي.

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۞٦﴾

الشرح: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾: النفس الناشئة في الليل؛ التي تنشأ من مضجعها إلى العبادة، أي: تنهض، وترتفع، من: نشأت السحابة، إذا ارتفعت، ونشأ من مكانه، ونشر: إذا نهض. قال الشاعر: [الطويل]

نَشَأْنَا إلى خُوصٍ بَرَى نَيَّهَا السُّرَى ... وألصقَ منها مُشْرِفَاتِ الْقَماحِدِ

معنى البيت: نهضنا وقمنا إلى خوص، جمع: خوصاء، وهي الناقة المرتفعة الأعلى، الضخمة الأسفل. برى نيها: أي: أذاب شحمها سير الليل. والقماحد: جمع القَمَحْدُوَة بسكون الحاء، وهو مؤخر القذال، وهي فأس الرأس المشرفة على النقرة. والمعنى: قصدنا إلى ناقة

مهزولة من السُّرى ورحلنا. و﴿نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ قيام الليل على أن الناشئة مصدر من: نشأ: إذا قام، ونهض على فاعلة، كالعافية، ويدل عليه ما روي عن عبيد بن عمير ـ رضي الله عنه ـ. قال: قلت لعائشة: رجل قام من أول الليل أتقولين له: قام ناشئة؟ قالت: لا؛ إنما الناشئة القيام بعد النوم، ففسرت الناشئة بالقيام عن المضجع، أو الناشئة: العبادة، التي تنشأ بالليل، أي: تحدث، وترتفع. وقيل: هي ساعات الليل كلها؛ لأنها تحدث واحدة بعد أخرى. وقيل: الساعات الأول من الليل؛ لأن لفظ: «نشأ» يعطي الابتداء، فكان بالأولية أولى، ومنه قول الشاعر: [الوافر]

ولَــوْلَا أن يُــقَــالَ صَــبَــا نُــصَــيْــبٌ   لَــقُــلْــتُ بِــنَــفْــسِــي الــنَّــشْــأُ الــصِّــغَــارُ

وكان علي بن الحسين، الملقب بزين العابدين ـ رضي الله عنهما ـ يصلي بين المغرب، والعشاء، ويقول: هذه ناشئة الليل. وخذ ما يلي:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ صَلَّى بعدَ المغربِ سِتَّ ركعَاتٍ لَمْ يَتَكَلَّمْ فِيمَا بَيْنَهُنَّ بِسُوءٍ؛ عُدِلَنْ بعبادةِ ثِنْتيْ عَشْرةَ سنةً»**. رواه ابن ماجه، والترمذي، وابن خزيمة. وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ﷺ قال: **«مَنْ صَلَّى بعْدَ المغربِ عِشرينَ رَكْعَةً بَنى اللهُ لَهُ بَيْتاً في الْجنةِ»**. رواه الترمذي. وعن الأسود بن يزيد ـ رضي الله عنه ـ. قال: قال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: نِعْمَ سَاعَةُ الْغَفْلَةِ! يعني الصلاةَ فيما بين المغربِ، والعشاءِ. رواه الطبراني.

﴿هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا﴾ أي: إنها أثقل على المصلي من ساعات النهار، وذلك: أن الليل وقت منام، وراحة، فمن صلى فيه؛ فقد تحمل المشقة العظيمة. أو المعنى: أشد مواطأة، يواطئ القلب اللسان، إن أردت النفس، أو يواطئ فيها قلب القائم لسانه، إن أردت القيام، أو العبادة، أو الساعات، أو أشد موافقة لما يراد من الخشوع، والإخلاص. وعن الحسن: أشد موافقة بين السر، والعلانية؛ لانقطاع رؤية الخلائق، ولذا قرئ: (هِيَ أَشَدُّ وِطَاءً).

على أنه مصدر: واطأت: وِطاءً، ومواطأةً، إذا وافقته، وتواطؤوا عليه، أي: توافقوا. فالمعنى: أشد موافقة بين القلب، والبصر، والسمع، واللسان؛ لانقطاع الأصوات، والحركات. قال الله تعالى في سورة (التوبة) رقم [٣٧] في بيان ما كان الجاهليون يفعلونه من تحليل، وتحريم: ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي: ليوافقوا.

﴿وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ أي: أشد استقامةً، وأثبت قراءةً؛ لأن الأصوات هادئة، والدنيا ساكنة، فلا يضطرب على المصلي ما يقرؤه.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿نَاشِئَةَ﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ وهو مضاف، و﴿ٱلَّيۡلِ﴾ مضاف إليه من إضافة اسم الفاعل لظرفه، وفاعله مستتر فيه، أو من إضافة المصدر لظرفه على حد قوله تعالى في سورة (سبأ) رقم [٣٣]: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾. ﴿هِيَ﴾: ضمير منفصل مبني على

الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿أَشَدُّ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل رفع خبر ﴿إِنَّ﴾. هذا؛ وإن اعتبرت الضمير فصلاً ف: ﴿أَشَدُّ﴾ خبرها، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ...﴾ إلخ تعليل للأمر السابق، وعليه فالجملة الاسمية: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي...﴾ إلخ معترضة بين التعليل والمعلل. ﴿وَأَقْوَمُ﴾: معطوف على ﴿أَشَدُّ﴾. ﴿قِيلًا﴾: تمييز مثل ﴿وَطْئًا﴾. تأمل، وتدبر.

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾

الشرح: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ أي: تصرفاً في حوائجك، إقبالاً، وإدباراً، ذهاباً، وإياباً، وهو مصدر: سَبَح، وقد استعير من السباحة في الماء للتصرف في الحوائج، والسبح: الجري والدوران، ومنه: السابح في الماء لتقلبه بيديه، ورجليه، وفرس سابح: شديد الجري. قال امرؤ القيس في معلقته رقم [٦٧]: [الطويل]

مِسَحٌّ إذَا مَا السَّابِحَاتُ عَلَى الْوَنَى ... أَثَرْنَ الْغُبَارَ بِالْكَدِيدِ الْمُرَكَّلِ

وقال تعالى في سورة (النازعات): ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا﴾. هذا؛ وقيل: سبحاً طويلاً: فراغاً طويلاً لنومك، وتصرفك في حوائجك أفضل من الليل، كما يتردد السابح في الماء. قال الشاعر: [الطويل]

أَبَاحُوا لَكُمْ شَرقَ الْبِلَادِ وَغَرْبَهَا ... فَفِيهَا لَكُمْ يَا صَاحِ سَبْحٌ مِنَ السَّبْحِ

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿لَكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ﴿إِنَّ﴾ تقدم على اسمها. ﴿فِي ٱلنَّهَارِ﴾: متعلقان بالخبر المحذوف، أو بمحذوف خبر ثان، أو بمحذوف حال من الضمير المستتر في الخبر المحذوف، وبعضهم يعلقهما بمحذوف حال من ﴿سَبْحًا﴾. ﴿سَبْحًا﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر. ﴿طَوِيلًا﴾: صفة ﴿سَبْحًا﴾، والجملة الاسمية مبتدأة، أو مستأنفة، لا محل لها على الاعتبارين.

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾

الشرح: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ أي: دم على ذكره في ليلك، ونهارك، واحرص عليه. وذكر الله تعالى يتناول كل ما كان من ذكر طيب، من تسبيح، وتحميد، وتهليل، وتكبير، وتمجيد، وتقديس، وتوحيد، وصلاة، وتلاوة قرآن، ودراسة علم، وغير ذلك مما كان الرسول ﷺ يستغرق به ساعات ليله، ونهاره. وقال الجلال: أي: قل: بسم الله الرحمن الرحيم في ابتداء قراءتك. قال الجمل: أي: سواء قرأت في الصلاة، أو خارجها. وهذا إذا قرأ من أول السورة، وأما إذا قرأ من أثناء سورة؛ فإنه إن كان في غير الصلاة؛ سُنَّ له أن يبسمل، وإن كان فيها لم تسن له البسملة؛ لأن قراءة السورة بعد الفاتحة تعد قراءة واحدة.

﴿وَتَبَتَّلْ﴾: انقطع إليه في العبادة. ﴿تَبْتِيلًا﴾: انقطاعاً. التبتل: الانقطاع إلى عبادة الله عز وجل، وسميت مريم البتول؛ لانقطاعها إلى الله تعالى، وعبادته. ويقال للراهب: متبتل؛ لانقطاعه عن الناس، وانفراده بالعبادة. قال امرؤ القيس في معلقته رقم [٥٠]: [الطويل]

تُضِيءُ الظَّلَامَ بِالْعِشَاءِ كَأَنَّهَا مَنَارَةُ مُمْسَىٰ رَاهِبٍ مُتَبَتِّلِ

وفي الحديث النهي عن التبتل، وقد ذكرت في سورة (المائدة) رقم [٨٧] في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ...﴾ إلخ. رأي الدين في الكراهية لمن أراد التبتل، والانقطاع إلى العبادة، وأراد أن يسلك سبيل الرهبانية بما فيه كفاية. وجملة القول: فالتبتل المأمور به في القرآن: الانقطاع إلى الله بإخلاص العبادة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ سورة (البينة) رقم [٥]. والتبتل المنهي عنه في الأحاديث الشريفة هو سلوك مسلك النصارى في ترك النكاح، والعزوف عن الدنيا، والاعتزال في الصوامع، لكن عند فساد الزمان يكون خير مال المسلم غنماً يتبع بها شعف الجبال، ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن. قال ابن العربي عن عصره: وأما اليوم وقد مرجت عهود الناس، وخفت أماناتهم، واستولى الحرام على الحطام، فالعزلة خير من الخلطة، والعزبة أفضل من التأهل.

بعد هذا فقد قال الخازن ـ رحمه الله تعالى ـ: فإن قلت: كيف قال ﴿تَبْتِيلًا﴾ مكان: تبتلاً، ولم يجئ على مصدره، أي: على تَفَعُّل، مثل تكلَّم تَكَلُّماً؟ قلت: جاء ﴿تَبْتِيلًا﴾ على بتِّل نفسك إليه تبتيلاً، فوقع المصدر موضع مقارنه في المعنى، فيكون التقدير: وبتل نفسك إليه تبتيلاً، فهو كقوله تعالى في سورة (نوح): ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ وقيل: لأن معنى تبتل: بتل نفسك، فجيء به على معناه مراعاة لحق الفواصل. وقيل: الأصل في تبتل أن يقال: تبتلت تبتيلاً، وتبتلت تبتلاً، فتبتيلاً محمول على معنى تبتل إليه تبتيلاً. وقيل: عدل عن هذه العبارة لدقيقة لطيفة، وهي أن المقصود إنما هو التبتل، وأما التبتيل فهو تصرف، والمشتغل بالتصرف، لا يكون متبتلاً إلى الله تعالى؛ لأن المشتغل بغير الله لا يكون منقطعاً إليه إلا أنه لا بد من التبتيل حتى يحصل التبتل؛ فذكر أولاً التبتل؛ لأنه المقصود، وذكر التبتيل ثانياً إشعاراً بأنه لا بد منه. انتهى. هذا؛ وتبتيل مصدر: بتل، على حد قول ابن مالك في ألفيته: [الرجز]

وَغَيْرُ ذِي ثَلَاثَةٍ مَقِيسُ مَصْدَرُهُ كَقُدِّسَ التَّقْدِيسُ

الإعراب: ﴿وَٱذْكُرِ﴾: الواو: حرف عطف. (اذكر): فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت». ﴿ٱسْمَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿رَبِّكَ﴾ مضاف إليه، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها في الآية رقم [٥] والجملة الاسمية قبلها معترضة بين المتعاطفين. ﴿وَتَبَتَّلْ﴾: الواو: حرف عطف.

(تبتل): أمر، وفاعله: «أنت». ﴿إِلَيۡهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿تَبۡتِيلٗا﴾: مفعول مطلق، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها.

﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩﴾

الشرح: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾، انظر الآية رقم [٤٠] من سورة (المعارج)، ففيها الكفاية، وأضيف هنا: أنه كان من حق (المشرق) و(المغرب) فتح العين، وهي الراء؛ لأن المصدر الميمي، واسمي الزمان، والمكان إذا أخذ أحدهما من فعل ثلاثي مفتوح العين، أو مضمومها في المضارع أن يكون بفتح العين قياساً، ولكن التلاوة جاءت بكسرها. وأيضاً جاء كثير بكسر العين، وهو مذكور في كتب النحو، من ذلك المسجِد والمنبِت، والمسقِط، والمرفِق، والمنخِر، والمجزِر، والتحقيق: أنها أسماء نوعية، غير جارية على فعلها، وإلا فلا مانع من الفتح. هذا؛ وتقديم (المشرق) بجميع حالاته يوحي بأفضليته على (المغرب).

﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ أي: على كل من خالفك بأن تفوض إليه جميع أمورك، فإنه يكفيكها. قال البقاعي ـ رحمه الله تعالى ـ: وليس ذلك بأن يترك الإنسان كل عمل، فإن ذلك طمع فارغ، بل بالإجماع في طلب كل ما ندب الإنسان إلى طلبه ليكون متوكلاً في السبب، منتظراً للمسبب، فلا يهمل الأسباب، ويتركها طامعاً في المسببات؛ لأنه حينئذٍ كمن يطلب الولد من غير زوجةٍ، وهو مخالف لحكمة هذه الدار المبنية على الأسباب. انتهى. جمل نقلاً من الخطيب. وانظر التوكل في سورة (المجادلة) رقم [١٠] قال تعالى في سورة (هود) رقم [١٢٣]: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ ولا تنس الطباق بين (المشرق) و(المغرب)، وهو من المحسنات البديعية.

الإعراب: ﴿رَّبُّ﴾: بالرفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هو رب، أو هو مبتدأ، خبره: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾. ويقرأ بالجر على أنه بدل من: ﴿رَبِّكَ﴾ مجرور على القسم بإضمار حرف القسم، كقولك: الله لأفعلن، وجوابه (لا إله إلا الله) وقال أبو البقاء: ويقرأ بالنصب على إضمار أعني، أو بدلاً من: ﴿ٱسۡمَ﴾، أو بفعل يفسره: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ﴾، والقراءة الأولى، والثانية سبعيتان، والثالثة غير سبعية، و﴿رَّبُّ﴾ مضاف، و﴿ٱلۡمَشۡرِقِ﴾ مضاف إليه من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾: معطوف على ما قبله.

﴿لَآ﴾: نافية للجنس تعمل عمل (إنَّ). ﴿إِلَٰهَ﴾: اسم (لا) مبني على الفتح في محل نصب، والخبر محذوف، التقدير موجود. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿هُوَ﴾: فيه ثلاثة أوجه: الأول: كونه بدلاً من اسم ﴿لَآ﴾ على المحل؛ إذ محله الرفع على الابتداء. والثاني: كونه بدلاً من ﴿لَآ﴾ واسمها؛ لأنها وما بعدها في محل رفع بالابتداء. والثالث: كونه بدلاً من الضمير المستكن في الخبر المحذوف، وهو الأقوى، والجملة الاسمية في محل رفع خبر رب على وجهٍ مرَّ ذكره، أو

جواب القسم على جره كما رأيت، أو في محل نصب حال من الضمير المستتر في (ربِّ) على نصبه، والكلام مستأنف، أو معترض بين الجمل المتعاطفة. ﴿فَٱتَّخِذۡهُ﴾: الفاء: هي الفصيحة؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر، التقدير: وإذا كان ذلك هو الشأن، والحال؛ فاتخذه. (اتخذه): فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت»، والهاء مفعول به أول. ﴿وَكِيلًا﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جواب للشرط المقدر بـ: «إذا».

﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرًا جَمِيلًا ١٠﴾

الشرح: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: اصبر على أذى هؤلاء السفهاء المكذبين فيما يتقولونه عليك من قولهم: ساحر، شاعر، مجنون. ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرًا جَمِيلًا﴾: الهجر الجميل: هو الذي لا أذية معه، وقال تعالى في سورة (المعارج): ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرًا جَمِيلًا﴾ والصبر الجميل: هو الذي لا شكاية معه. وقال تعالى في سورة (الحجر) رقم [٨٥]: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ والصفح الجميل: هو الذي لا عتاب معه. وما في الآية ونحوه كان قبل أن يؤمر بالقتال، ثم أمر ﷺ بقتالهم وقتلهم، والحكمة في هذا: أن المؤمنين كانوا بمكة قلة مستضعفين، فأمروا بالصبر، وبالمجاهدة الكلامية؛ حتى يعدوا أنفسهم بهذه التربية الروحية على مناجزة الأعداء، وحتى يكثر عددهم، فيقفوا في وجه الطغيان، أما قبل الوصول إلى هذه المرحلة، فينبغي الصبر، والاقتصار على الدعوة باللسان، وهذا ما حصل، فبعد الهجرة إلى المدينة المنورة صار المسلمون أهلاً للمناجزة، وحمل السلاح في وجه الكفار، كما في غزوة بدر الكبرى، وغيرها.

بعد هذا؛ فالصبر: حبس النفس عن الجزع عند المصيبة، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش، وهو مرُّ المذاق لا يكاد يطاق، إلا أنه حلو العواقب، يفوز صاحبه بأسنى المطالب، كما قال القائل: [البسيط]

الصَّبْرُ مِثْلُ اسْمِهِ مُرٌّ مَذَاقَتُهُ ... لكِنْ عواقِبُهُ أحلَى مِنَ العسلِ

وبالجملة فنفع الصبر مشهور، والحض عليه في الكتاب والسنة مقرر مسطور، وهو على ثلاثة أنواع: صبر على الطاعة، وصبر على المعصية، وصبر على البلاء. ولا تنس: أن من أسماء الله تعالى الصبور، وفسر بالذي لا يعجل بالعقوبة على من عصاه. هذا؛ وقد قال تعالى في سورة (الرعد) رقم [٢٢]: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: طلباً لمرضاته، وهذا هو الصبر المحمود، وهو أن يكون الإنسان صابراً لوجه الله تعالى، راضياً بما نزل به من الله، طالباً بذلك الصبر ثوابه من الله تعالى، محتسباً أجره على الله، فهذا هو الصبر الذي يدخل صاحبه رضوان الله، وأما إذا صبر الإنسان؛ ليقال: ما أكمل صبره، وما أشد قوته على تحمل النوائب، أو يصبر؛ لئلا يعاب على الجزع، أو يصبر؛ لئلا تشمت به الأعداء، فهذا كله مذموم، لا ينيل صاحبه الدرجات العلى، والمقام الرفيع عند الله، وقد يعرضه لشديد غضب الله، ونقمته.

ثم اعلم: أن الصبر ذكر في القرآن في خمسة وتسعين موضعاً، ومن أجمعها آية (البقرة)، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ...﴾ إلخ، الآية رقم [١٥٥] وما بعدها، ومن آنفها قوله تعالى في سورة (صٓ) في حق أيوب ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ رقم [٤٤]: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ﴾ قرن هاء الصبر بنون العظمة، ومن أبهجها قوله تعالى في سورة (الرعد): ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾.

الإعراب: ﴿وَٱصْبِرْ﴾: الواو: حرف عطف. (اصبر): فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت» ﴿عَلَىٰ﴾: حرف جر. ﴿مَا﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل جر بعلى، والجار والمجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله، والجملة الفعلية صلة ﴿مَا﴾، أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: اصبر على الذي، أو شيء يقولونه. هذا؛ وإن اعتبرت (ما) مصدرية تؤول مع ما بعدها بمصدر في محل جر بـ: ﴿عَلَىٰ﴾ التقدير: اصبر على قولهم، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها من جمل، والكلام: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ...﴾ إلخ معترض بين الجمل المتعاطفة. ﴿وَٱهْجُرْهُمْ﴾: الواو: حرف عطف. (اهجرهم): فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت»، والهاء مفعول به. ﴿هَجْرًا﴾: مفعول مطلق. ﴿جَمِيلًا﴾: صفة له، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها.

﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾

الشرح: ﴿وَذَرْنِي...﴾ إلخ: أي: دعني يا محمد وهؤلاء المكذبين بآياتي أصحاب الغنى، والثروة، والتنعم في الدنيا، وأصحاب الترف، والبطر، فأنا أكفيك شرهم. نزلت في صناديد قريش، ورؤساء مكة من المستهزئين. قال تعالى في سورة (الحجر) رقم [٩٥]: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾. ﴿أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ﴾: أصحاب التنعم، والترفه، فالنعمة بفتح النون: التنعم، والمعروف، والصنيعة، والمنة، وما أنعم به عليك غيرك. وبالكسر: الإنعام. وقد تمد، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ﴾ سورة (هود) رقم [١٠] وبالضم: المسرة. ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ أي: أمهلهم زمناً يسيراً؛ حتى ينالوا العذاب الشديد. قال المفسرون: أمهلهم الله تعالى إلى أن هاجر رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة المنورة، فلما خرج من مكة؛ سلط الله عليهم السنين المجدبة، وهو العذاب العام، ثم قتل صناديدهم ببدر، وهو العذاب الخاص. هذا؛ وفي الآية تهديد ووعيد للكافرين، خذ قوله تعالى في سورة (الزخرف) رقم [٨٣]، وأيضاً في سورة (المعارج) رقم [٤٢]: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾، وفي سورة (الحجر) رقم [٣]: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

الإعراب: ﴿وَذَرْنِي﴾: الواو: حرف عطف. (ذرني): فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت»، والنون للوقاية، والياء مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. (المكذبين):

معطوف على ياء المتكلم، أو هو مفعول معه، فهو منصوب على الاعتبارين، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض من التنوين في الاسم المفرد. ﴿أُوْلِى﴾: صفة المكذبين منصوب مثله، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، وحذفت النون للإضافة، و﴿أُوْلِى﴾ مضاف، و﴿النَّعْمَةِ﴾ مضاف إليه. ﴿وَمَهِّلْهُمْ﴾: الواو: حرف عطف. (مهلهم): فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت»، والهاء مفعول به. ﴿قَلِيلًا﴾: صفة «زمان» محذوف، التقدير: زماناً قليلاً، أو صفة مفعول مطلق، التقدير: تمهيلاً قليلاً، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها.

﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ﴾: عندنا في الآخرة. ﴿أَنكَالًا﴾: الأنكال: القيود. قاله الحسن، ومجاهد، وغيرهما، واحدها: نِكل، وهو ما منع الإنسان من الحركة، وقد سمي نِكلاً؛ لأنه يُنَكَّل به. قال الشعبي ـ رحمه الله تعالى ـ: أترون أن الله تعالى جعل الأنكال في أرجل أهل النار خشية أن يهربوا، لا والله! ولكنهم إذا أرادوا أن يرتفعوا استفلت بهم، وقال الكلبي: الأنكال الأغلال، والأول أعرف في اللغة، ومنه قول الخنساء ـ رضي الله عنها ـ: [المتقارب]

دَعَاكَ فَقَطَّعْتَ أَنْكَالَهُ وَقَدْ كُنَّ قَبْلَكَ لَا تُقْطَعُ

وقيل: إنه أنواع العذاب الشديد. قاله مقاتل. وقد جاء: أن النبي ﷺ قال: «**إن الله يحب النَّكَل على النَّكَل**». بالتحريك قاله الجوهري. قيل: وما النَّكل؟ قال: «**الرجل القوي المجرب على الفرس القوي المجرب**». ذكره الماوردي. قال: ومن ذلك سمي القيد نكلاً لقوته، وكذلك الغل، وكل عذاب قوي شديد. والجحيم: النار المؤججة. هذا؛ والنكال: العذاب الشديد. انظر سورة (النازعات) رقم [٢٥].

هذا؛ و﴿لَدَيْنَآ﴾ ظرف مكان بمعنى: عند، وهي معربة مثلها، وقد تستعملان في الزمان، وإذا أضيف «لدى» إلى مضمر كما هنا قلبت ألفه ياءً عند جميع العرب، إلا بني الحارث بن كعب، وبني خناعة، فلا يقلبونها، تسوية بين الظاهر، والمضمر، كما لا يقلبون ألف «على» و«إلى»، ونحوهما، وعلى لغتهم جاء قول الشاعر: [الوافر]

إلَاكُمْ يَا خُنَاعَةُ لا إلَانَا عَزَا النَّاسُ الضَّرَاعَةَ والهَوَانَا
فَلَوْ بَرأَتْ عقولُكُم بَصَرْتُمْ بأَنَّ دَوَاءَ دَائِكُم لَدَانَا
وذلكم إذَا وَاثَقْتُمُونَا عَلَى قَصْرِ اعْتِمَادِكُمُ عَلَانَا

ثم اعلم: أن «عند» أمكن من «لدى» من وجهين: أحدهما: أنها تكون ظرفاً للأعيان، والمعاني، تقول: هذا القول عندي صواب، وعند فلان علم به. ويمتنع ذلك في: «لدى» ذكره ابن الشجري في أماليه، ومبرمان في حواشيه. والثاني: أنك تقول: عندي مال؛ وإن كان غائباً، ولا تقول: لديَّ مال إلا إذا كان حَاضِراً. قاله جماعة منهم: الحريري، وأبو هلال العسكري، وابن الشجري، وزعم المعري: أنه لا فرق بينهما، وقول غيره أصح. انتهى. «فتح القريب المجيب».

﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ أي: غير سائغ، يأخذ بالحلق، لا هو نازل، ولا هو خارج، وهو الغسلين، والزقوم، والضريع. قال تعالى في سورة (الحاقة): ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾، وقال تعالى في سورة (الدخان): ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾، وقال تعالى في سورة (الغاشية): ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ وقال حُمْران بن أعين: قرأ النبي ﷺ: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا...﴾ إلخ، فصعق. وقال خُلَيد بن حسان: أمسى الحسن عندنا صائماً، فأتيته بطعام، فعرضت له هذه الآية: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا...﴾ إلخ، فقال: ارفع طعامك، فلما كانت الثانية؛ أتيته بطعام، فعرضت له هذه الآية، فقال: ارفعوه، ومثله في الثالثة، فانطلق ابنه إلى ثابت البناني، ويزيد الضبي، ويحيى البكَّاء، فحدثهم، فجاؤوه، فلم يزالوا به حتى شرب سويقاً. والغصة: الشجا، وهو ما ينشب في الحلق من عظم، أو غيره، وجمعها: غُصَص. والغَصص (بفتح الغين): مصدر قولك: غصصت يا رجل، تَغَص، فأنت غاص بالطعام، وغَصَّان، وأغصصته أنا، والمنزل غاصٌّ بالقوم؛ أي: ممتلىء بهم. انتهى. قرطبي وانظر سورة (الغاشية) تجد ما يسرك.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿لَدَيْنَآ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر ﴿إِنَّ﴾، تقدم على اسمها، فهو منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف المنقلبة ياءً حينما اتصل به ضمير متحرك، و(نا): ضمير متصل في محل جر بالإضافة. ﴿أَنكَالًا﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها. ﴿وَجَحِيمًا﴾: معطوف على ما قبله. ﴿وَطَعَامًا﴾: معطوف أيضاً. ﴿ذَا﴾: صفة (طعاماً) منصوب مثله، وعلامة نصبه الألف نيابة عن الفتحة؛ لأنه من الأسماء الخمسة، و﴿ذَا﴾ مضاف، و﴿غُصَّةٍ﴾ مضاف إليه. ﴿وَعَذَابًا﴾: معطوف على ما قبله. ﴿أَلِيمًا﴾: صفة (عذاباً).

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾

الشرح: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾: يوم تتزلزل الأرض، وتهتز بمن عليها، اهتزازاً عنيفاً شديداً هي، وسائر الجبال. قال تعالى في سورة (الواقعة): ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾. ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾: الكثيب: الرمل المجتمع. قال حسان ـ رضي الله عنه ـ: [الوافر]

عَـرَفْـتُ دِيَـارَ زَيْـنَـبَ بِـالْـكَـثِـيـبِ   كَـخَـطِّ الْـوَحْـيِ فـي الْـوَرَقِ الْـقَـشِـيـبِ

﴿مَّهِيلًا﴾: سائلاً بعد اجتماعه، والمهيل: هو الذي إذا وطئته بالقدم؛ زل من تحتها، وإذا أخذت أسفله؛ انهال. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أي: رملاً سائلاً متناثراً. قال ابن كثير: تصير الجبال ككثبان الرمال، بعدما كانت حجارة صماء، ثم إنها تنسف نسفاً، فلا يبقى منها شيء إلا ذهب، كقوله تعالى في سورة (طه): ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ أي: لا شيء يرتفع، ولا شيء ينخفض. انتهى. وقال تعالى في سورة (الواقعة): ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾.

هذا؛ و(كانت) بمعنى: (تكون) والتعبير بالماضي عن المستقبل لتحقق الوقوع، وهو مستعمل في القرآن الكريم بكثرة، أما «مهيل» فهو اسم مفعول، أصله: مَهْيُول، فقل في إعلاله: اجتمع معنا حرف صحيح ساكن، وحرف علة متحرك، والحرف الصحيح أولى بالحركة من حرف العلة، فنقلت حركة الياء إلى الهاء قبلها بعد سلب سكونها، فصار (مَهُيول) فالتقى ساكنان: الياء والواو، فحذفت الواو لالتقاء الساكنين. فصار (مَهُيْل) ثم قلبت الضمة كسرة لمناسبة الياء، فصار: «مَهِيلاً» ومثل «مهيل»: مبيع، ومعين، وغير ذلك كثير. قال عباس بن مرداس ـ رضي الله عنه ـ: [الكامل]

قَدْ كَانَ قَوْمُكَ يَحْسَبُونَكَ سَيِّداً وَإِخَالُ أَنَّكَ سَيِّدٌ مَعْيُونُ

الإعراب: ﴿يَوْمَ﴾: ظرف زمان متعلق بخبر ﴿إِنَّ﴾ المحذوف لما فيه من معنى الفعل، أي: استقر للكفار لدينا كذا، وكذا. قاله الزمخشري، ومن تبعه. وقال القرطبي: أي: ينكل بهم، ويعذبون يوم ترجف. وقيل: متعلق بمحذوف صفة (عذاباً). ﴿تَرْجُفُ﴾: فعل مضارع. ﴿ٱلْأَرْضُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿يَوْمَ﴾ إليها. ﴿وَٱلْجِبَالُ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿وَكَانَتِ﴾: الواو: حرف عطف. (كانت): فعل ماض ناقص، والتاء حرف لا محل له. ﴿ٱلْجِبَالُ﴾: اسمها. ﴿كَثِيبًا﴾: خبرها. ﴿مَّهِيلًا﴾: صفة ﴿كَثِيبًا﴾، والجملة: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، فهي في محل جر مثلها.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾

الشرح: بعد أن ذكر الله تعالى العذاب المؤلم الذي أعده للمشركين، ومكانه؛ وهو الجحيم، وآلاته؛ وهي القيود، وطعام الزقوم، ونحوه، ووقته؛ وهو عند اضطراب الأرض، وتزلزلها بمن عليها، وأراد بذلك تخويف المكذبين، وتهديدهم بأنه تعالى سيعاقبهم بذلك كله؛ إن بقوا مستمرين في تكذيبهم لرسول الله ﷺ، ثم أعقبه بتذكيرهم بما حل بالأمم الباغية التي قد خلت من قبلهم، وكيف عصت، وتمردت، فأنزل بها من أمره ما نزل، وضرب لهم المثل بفرعون الجبار فقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ يا أهل مكة. ﴿رَسُولًا﴾: يعني محمداً ﷺ.

﴿شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: يشهد بالتبليغ، وإيمان من آمن منكم، وكفر من كفر. وخذ قوله تعالى في سورة (النساء) رقم [٤١]: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾ انظر شرحها هناك تجد ما يسرك، ويثلج صدرك. هذا؛ وفي قوله تعالى: ﴿أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب، ولو جرى على الأصل؛ لقال: إنا أرسلنا إليهم، انظر الالتفات في سورة (الملك) رقم [٢٠].

﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا﴾: يعني موسى بن عمران، على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام. وإنما خص فرعون، وموسى بالذكر من بين سائر الأمم، والرسل؛ لأن محمداً ﷺ آذاه أهل مكة، واستخفوا به؛ لأنه ولد فيهم كما أن فرعون ازدرى بموسى، وآذاه؛ لأنه رباه في حجره وبلاطه، لذا قال له، كما حكى الله عنه في سورة (الشعراء) رقم [١٨]: ﴿قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾.

الإعراب: ﴿إِنَّآ﴾: (إنَّ): حرف مشبه بالفعل، و(نا): اسمها، حذفت نونها، وبقيت الألف دليلاً عليها. ﴿أَرۡسَلۡنَآ﴾: فعل، وفاعل. ﴿إِلَيۡكُمۡ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿رَسُولٗا﴾: مفعول به. ﴿شَٰهِدًا﴾: صفة له. ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: ﴿شَٰهِدًا﴾، وجملة: ﴿أَرۡسَلۡنَآ...﴾ إلخ في محل رفع خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ...﴾ إلخ مبتدأة، أو مستأنفة، لا محل لها. ﴿كَمَآ﴾: الكاف: حرف تشبيه، وجر. (ما): مصدرية. ﴿أَرۡسَلۡنَآ﴾: فعل، وفاعل. ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، وعلامة الجر الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة. ﴿رَسُولٗا﴾: مفعول به، و(ما) والفعل ﴿أَرۡسَلۡنَآ﴾ في تأويل مصدر في محل جر بالكاف، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لموصوف محذوف يقع مفعولاً مطلقاً، التقدير: إنا أرسلنا إليكم رسولاً.... إرسالاً كائناً مثل إرسالنا إلى فرعون رسولاً. وهذا ليس مذهب سيبويه، وإنما مذهبه في مثل هذا التركيب أن يكون منصوباً على الحال من المصدر المضمر المفهوم من الفعل المتقدم. وإنما أحوج سيبويه إلى هذا؛ لأن حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه لا يجوز إلا في مواضع محصورة، وليس هذا منها.

﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ١٦﴾

الشرح: ﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ﴾: إنما عرفه لتقديم ذكره، وهذه (أل) العهدية، والعرب إذا قدمت اسماً، ثم حكت عنه ثانياً، أتوا به معرفاً، أو أتوا بضميره لئلا يلتبس بغيره، نحو رأيت رجلاً، فأكرمت الرجل، أو فأكرمته، ولو قلت: فأكرمت رجلاً لتوهم: أنه غير الأول، وسيأتي تحقيق هذا في سورة (الشرح) إن شاء الله تعالى. وقد قال الرسول ﷺ: «**لنْ يغلِبَ عسْرٌ يُسْرَيْنِ**». انتهى. سمين.

﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾: شديداً. وفي القرطبي: أي: ثقيلاً شديداً، وضرب وبيل، وعذاب وبيل، أي: شديد. قاله ابن عباس ومجاهد، ومنه: مطر وابل، أي: شديد. قاله الأخفش. قال تعالى في سورة (البقرة) رقم [٢٦٥]: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ وقيل: ﴿أَخْذًا وَبِيلًا﴾: أخذاً مهلكاً، والمعنى عاقبناه عقوبةً غليظةً، ومنه قول أرطاة بن سهية، وهو الشاهد رقم [٦٨٣] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الوافر]

أَكَلْتَ بَنِيكَ أَكْلَ الضَّبِّ حَتَّى ... وجَدْتَ مرارةَ الْكَلأ الْوَبِيلِ

وماء وبيل، أي: وخيم غير مريء، وكلأ مستوْبَل، وطعام وبيل، ومسْتَوْبَل، إذا لم يمرئ، ولم يُستمرأ. قال زهير في معلقته رقم [٣٨]: [الطويل]

فَقَضَّوْا مَنَايَا بَيْنَهُمْ ثُمَّ أَصْدَرُوا ... إِلَى كَلأ مُسْتَوْبَلٍ مُتَوَخِّمِ

وقالت الخنساء: [الوافر]

لَقَدْ أُكِلَتْ بَجِيلَةُ يَوْمَ لاَقَتْ ... فوارِسَ مَالِكٍ أكلاً وبيلا

والوبيل أيضاً: العصا الضخمة. قال الشاعر: [الطويل]

لوْ أصبحَ في يُمْنى يَدَيَّ زِمَامُهَا ... وَفِي كَفِّيَ الأُخْرَى وَبِيلٌ نُحَاذِرُهْ

وكذلك الموبل بكسر الباء، والموبلة أيضاً: الحزمة من الحطب. وكذلك الوبيل. قال طرفة في معلقته رقم [٩٦]: [الطويل]

فَمَرَّتْ كَهَاةٌ ذَاتُ خَيْفٍ جُلاَلَةٌ ... عَقِيلَةُ شَيْخٍ كَالْوَبِيلِ يَلَنْدَدِ

الإعراب: ﴿فَعَصَىٰ﴾: الفاء: حرف عطف. (عصى): فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر. ﴿فِرْعَوْنُ﴾: فاعله. ﴿ٱلرَّسُولَ﴾: مفعول، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿أَرْسَلْنَآ...﴾ إلخ فهي تؤول مثلها بالمصدر. (أخذناه): فعل، وفاعل، ومفعول به. ﴿أَخْذًا﴾: مفعول مطلق. ﴿وَبِيلًا﴾: صفة له، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لها حكمها.

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾﴾

الشرح: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ أي: كيف لكم بالتقوى يوم القيامة؛ إن كفرتم في الدنيا؟! المعنى لا سبيل إلى التقوى؛ إذا وافيتم يوم القيامة. وقيل: المعنى: فكيف تتقون العذاب يوم القيامة؟ وبأي: شيء تتحصنون من عذاب ذلك اليوم؟ وكيف تنجون منه إن كفرتم في الدنيا؟ انتهى. خازن. وقال الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ: أي: بأي صلاة تتقون العذاب؟ بأي صوم تتقون العذاب؟

وقال قتادة ـ رحمه الله تعالى ـ: والله ما يتقي من كفر بالله ذلك اليوم بشيء. هذا؛ وانظر شرح التقوى في الآية رقم [٣] من سورة (نوح) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام.

﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾: فإسناد الجعل إلى اليوم مجاز عقلي؛ لأن اليوم محل جعلهم شيباً فالجعل المذكور واقع في اليوم، والجاعل حقيقة هو الله تعالى، ومثل هذه الآية قوله تعالى في سورة (الأنفال) رقم [٢]: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ فإسناد الزيادة إلى الآيات مجاز عقلي؛ لأنها سبب في الزيادة، والذي يزيد حقيقة هو الله تعالى، وانظر الآية رقم [٢٤] من سورة (نوح) فهو مثله.

هذا؛ ويصير الولدان شيباً حين يقال لآدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ: قم فابعث بعث النار من ذريتك. فعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله عز وجل يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيكَ، وسعديْكَ، والخيرُ في يديْكَ! فينادَى بصوتٍ: إن الله يأمركَ أن تخرجَ منْ ذريتك بعثَ النارِ. قال: يا رب! وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمئة وتسعة وتسعون، فحينئذ تضع الحامل حملها، ويشيب الوليد، وترى الناسَ سكارَى، وما همْ بسكارَى، ولكن عذابَ اللهِ شديدٌ؛ فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم**». قالوا: يا رسول الله أينا ذلك الرجل؟ فقال النبي ﷺ: «**أبْشِرُوا فإنَّ مِنْ يأجوجَ ومأجوجَ تسعَمِئَةٍ وتسعةً وتِسْعينَ، ومنكم واحداً**»، ثم قال: «**أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود، وإني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة!**» فكبرنا، ثم قال: «**ثلث أهل الجنة!**» فكبرنا، ثم قال: «**شطر أهل الجنة! فكبرنا**». متفق عليه.

هذا؛ وقال الزمخشري، وتبعه البيضاوي، والنسفي: جعل الولدان شيباً مثل في الشدة، يقال في اليوم الشديد: يوم يشيب نواصي الأطفال. والأصل فيه: أن الهموم، والأحزان إذا تفاقمت على الإنسان؛ أسرع فيه الشيب. قال أبو الطيب المتنبي: [الكامل]

والهمُّ يخترمُ الجَسِيمَ نَحافةً ... ويُشيبُ ناصيةَ الصبيِّ فَيَهْرَمُ

ثم قال الزمخشري ـ رحمه الله تعالى ـ: وقد مر بي في بعض الكتب أن رجلاً أمسى فاحم الشعر كحنك الغراب، وأصبح، وهو أبيض الرأس واللحية كالثغامة، فسئل عن ذلك، فقال: أُريتُ القيامة، والجنة، والنار في المنام، ورأيت الناس يقادون في السلاسل إلى النار، فمن هول ذلك أصبحت، كما ترون.

هذا؛ والشيب، والشيبة بياض الشعر، والمشيب عبارة عن الحيوان في زمان تكون قوته فيه غير غريزية. أما الشباب فهو الزمن الذي تكون فيه حرارة الحيوان الغريزية مشبوبة، أي: قوية مشتعلة. هذا قول الأصمعي، وقال الجوهري: الشيب، والمشيب بمعنى واحد، وخذ ما يلي لتروح عن نفسك، فقد قال أبو الطيب المتنبي: [البسيط]

ضيفٌ ألَمَّ برأسي غَيْرَ مُحْتَشِمِ ... والشَّيْبُ أحسنُ فعْلاً منه بِاللَّمَمِ
ابْعَدْ بَعِدْتَ بياضاً لا بَياضَ لهُ ... لأَنْتَ أسودُ في عَيْني مِنَ الظُّلَمِ

وقال أبو تمام الطائي: [الطويل]

لهُ منظرٌ في العَيْنِ أَبْيَضُ ناصِعٌ ... ولَكِنَّهُ في القلبِ أسودُ سافِعُ

وقال حميد بن ثور، وينسب إلى معروف بن عبد الرحمن: [الرجز]

لِكُلِّ دهْرٍ قد لَبِسْتُ أثْوُبَا ... حتَّى اكتَسَى الرأسُ قِنَاعاً أشْيَبَا
أمْلَحَ لَا لَذّاً ولا مُحَبَّبَا ... أكْرَهَ جِلبابٍ إذَا تُجِلْبِبَا

وقال أبو العتاهية: [الوافر]

عَرِيتُ مِنَ الشبابِ وكُنْتُ غُصْناً ... كمَا يَعْرى مِنَ الورقِ الْقَضِيب
بكَيْتُ عَلَى الشبابِ بدمعِ عَيْني ... فلَمْ يُغْنِ البكاءُ ولا النَّحِيبُ
ألَا لَيْتَ الشبابَ يعودُ يوماً ... فأُخْبِرَهُ بِمَا فعَلَ الْمَشِيبُ

وخذ قول البوصيري ـ رحمه الله تعالى ـ: [البسيط]

فَإنَّ أمَّارَتي بالسُّوءِ ما اتَّعظَتْ ... مِنْ جَهْلِهَا بنذيرِ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ
وَلَا أَعَدَّتْ مِنَ الفعلِ الجميلِ قِرى ... ضَيْفٍ ألَمَّ بِرأسِي غَيْر محتشِمِ
لَوْ كُنْتُ أعلَمُ أنِّي ما أوقِّرُهُ ... كَتَمْتُ سِرّاً بَدَا لِي منهُ بالْكَتَمِ

الإعراب: ﴿فَكَيْفَ﴾: الفاء: حرف استئناف. (كيف): اسم استفهام مبني على الفتح في محل نصب حال عامله ما بعده. ﴿تَتَّقُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿كَفَرْتُمْ﴾: فعل ماض مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والتاء فاعله، ومتعلقه محذوف، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي، وجواب الشرط محذوف، التقدير: إن كفرتم؛ فكيف تتقون؟! ﴿يَوْمًا﴾: مفعول به لـ: ﴿تَتَّقُونَ﴾، وقيل: هو ظرف متعلق به. وقيل: منصوب بنزع الخافض. والجملة الشرطية معترضة بين الفعل، ومفعوله. وقيل: إن يوماً مفعول لـ: ﴿كَفَرْتُمْ﴾ على تأويله بـ: «جحدتم» والأول أقوى. ﴿يَجْعَلُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿يَوْمًا﴾. وقيل: يعود إلى الله، والمعتمد الأول. ﴿الْوِلْدَانَ﴾: مفعول به أول. ﴿شِيبًا﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية صفة (يوماً)، وعلى اعتبار الفاعل يعود إلى (الله)، فتحتاج الجملة الفعلية إلى رابط، التقدير: يجعل فيه الولدان شيباً.

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ١٨﴾

الشرح: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦۚ﴾: متشققة فيه، أي: في ذلك اليوم لهوله، هذا أحسن ما قيل به. هذا؛ ولم يؤنث ﴿مُنفَطِرٌۢ﴾ مع أنه خبر عن ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾، وأجيب عن ذلك بأجوبة: منها: أن هذه الصيغة صيغة نسب، أي: ذات انفطار، نحو امرأة مرضع، وحائض، أي: ذات إرضاع، وذات حيض، ومنها: أنها لم يؤنث؛ لأن السماء بمعنى السقف. قال تعالى في سورة (الأنبياء) رقم [٣٢]: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ﴾ ومنها: أن السماء تذكر وتؤنث، ومنها: أنها اسم جنس يفرق بينه وبين واحده بالتاء فيقال: سماءة، ولهذا قال الفارسي: هو كقوله تعالى في سورة (القمر) رقم [٧]: ﴿كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ﴾. و﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ رقم [٢٠] من سورة (القمر) أيضاً، يعني: فجاء على أحد الجائزين.

﴿كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا﴾ أي: كان وعد الله بالقيامة، والحساب، والجزاء كائناً لا شك فيه، ولا خلف. وقال مقاتل ـ رحمه الله تعالى ـ: كان وعده بأن يظهر دينه على الدين كله. انتهى. قرطبي. أقول: وقد ذكر ما قاله مقاتل في كثير من الآيات مثل آية (الصف) رقم [٩] ونحوه، وقد حقق الله وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، أي: جند الرحمن، أما بعد أن صار المسلمون جنوداً للشيطان؛ فلا يُنصرون. هذا؛ وعلى عود الضمير لـ: (ليوم) فيكون المعنى: وعد يوم القيامة واقعاً لا ريب فيه.

الإعراب: ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾: مبتدأ. ﴿مُنفَطِرٌۢ﴾: خبره. ﴿بِهِۦۚ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما؛ لأنه اسم فاعل، والجملة الاسمية في محل نصب صفة ثانية لـ: ﴿يَوۡمٗا﴾، أو هي في محل نصب حال منه بعد وصفه بما تقدم، والرابط: الضمير فقط. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿وَعۡدُهُۥ﴾: اسم (كان)، والهاء في محل جر بالإضافة من إضافة المصدر لفاعله، وهذا على عود الضمير إلى الله، ولم يجر له ذكر لعلمه من المقام، وعلى عوده إلى (اليوم) فتكون الإضافة من إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله محذوف، والجملة الفعلية مفيدة للتعليل، لا محل لها. ﴿مَفۡعُولًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ١٩﴾

الشرح: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ أي: الآيات، أو السورة بكاملها. وقيل: آيات القرآن؛ إذ هو كالسورة الواحدة. ﴿تَذۡكِرَةٞۖ﴾: عظة للخلق أجمعين، لما فيها من الزواجر، والقوارع. ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: فمن شاء من الغافلين الناسين، أو المعرضين كبراً وعناداً عن عبادة الله، وطاعته؛ فليستفد من هذه التذكرة قبل فوات الأوان، وليسلك طريقاً موصلاً إلى الرحمن بالطاعة والإيمان. فالأسباب ميسَّرة، والسبل معبَّدة؛ لأن الله تعالى قد أظهر الحقائق بما

وضع من الحجج الدامغة، والبراهين الساطعة، والدلائل القاطعة، وما يتذكر إلا أولو الأبصار. وما ينتفع إلا أولو الألباب. هذا؛ والآية مذكورة بحروفها في سورة (الدهر) رقم [٢٩] انظر تفسيرها هناك؛ ففيها فضل زيادة.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿هَٰذِهِۦ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل نصب اسمها، والهاء حرف تنبيه لا محل له. ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها، ﴿فَمَن﴾: الفاء: حرف تفريع، واستئناف. والأولى اعتبارها الفصيحة؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر؛ إذ التقدير: وإذا كان ما ذكره حاصلاً، وواقعاً؛ فمن شاء أن يتخذ مرجعاً إلى ثواب ربه؛ فعل ذلك بالإيمان، والطاعة. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿شَآءَ﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ) تقديره: «هو»، ومفعوله محذوف، التقدير: شاء النجاة. ﴿ٱتَّخَذَ﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم جواب الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ) أيضاً. ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من ﴿سَبِيلًا﴾ كان صفة له، فلما قدم عليه؛ صار حالاً، وهو أولى من تعليقهما بالفعل قبلهما. والهاء في محل جر بالإضافة من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿سَبِيلًا﴾: مفعول به، وجملة: ﴿ٱتَّخَذَ...﴾ إلخ لا محل لها؛ لأنها جملة جواب الشرط، ولم تقترن بالفاء، ولا بـ: «إذا» الفجائية، وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلف فيه، كما رأيت في الآية رقم [١٤] من سورة (الجن) مع صحة، وجواز اعتبار (مَنْ) اسماً موصولاً. هذا؛ وكلام القرطبي يوحي: أن الجواب محذوف، حيث قدر الكلام: من أراد أن يؤمن ويتخذ بذلك إلى ربه سبيلاً، أي: طريقاً إلى رضاه، ورحمته؛ فليرغب في ذلك. ولا حاجة إلى هذا التكلف بعد الذي ذكرته، والجملة الاسمية: (من شاء. . .) إلخ مستأنفة، لا محل لها، تأمل، وتدبر.

﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ٢٠﴾

الشرح: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ...﴾ إلخ: أي: ربك يا محمد يعلم: أنك تقوم مع أصحابك في الليل للتهجد، والعبادة أقل من ثلثي الليل، وتارة تقومون نصفه، وتارة ثلثه. قال تعالى في سورة

(الذاريات) في حق المحسنين، وفي الثناء عليهم: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ وقد ذكرت لك في أول هذه السورة: أن قيام الليل كان واجباً على النبي ﷺ وعلى أصحابه، وقد كلفوا أن يقوموا ساعات من الليل طويلة، لا تقلُّ عن ثلثه، كما هو صريح أول السورة. وهذه الآية بينت تنفيذه؛ لأن قيام الليل، وإحياءه بأنواع الطاعات المختلفة: من ذكرٍ، وصلاةٍ، وتلاوة قرآن يقوي أبدانهم، ويزكي أرواحهم، ويعودهم الخشونة في العيش، واجتناب ما عليه المترفون من الراحة، والانغماس في الملذات، كلفهم الله تعالى بذلك؛ ليعدَّهم إعداداً روحانياً، وجسمانياً للقيام بأعباء الدعوة الجديدة، وتحمل المشاق في سبيل نشر هذا الدين، ويا لها من تربية كريمة مجيدة تنشئ الرجال، وتعدُّ الأجيال! وانظر ما ذكرته من إخلادهم للراحة، والترف في الآية رقم [١٦] من سورة (الحديد)، وذكرت لك في أول السورة: أن هذه الآية نسخت قيام الليل الواجب على النبي ﷺ وعلى أصحابه على القول الأصح والمعتمد، وبقيت سنيته. هذا؛ وقال الزمخشري، وتبعه البيضاوي، والنسفي: وإنما استعير الأدنى ـ وهو الأقرب ـ للأقل؛ لأن المسافة بين الشيئين إذا دنت؛ قلَّ ما بينهما من الأحياز، وإذا بعدت كثر ذلك. وقرئ بنصب (نصفه) و(ثلثه) وجرهما.

﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ أي: من المؤمنين كانوا يقومون الليل معك للتأسي، والاقتداء بك، ومنهم من كان لا يدري كم صلى من الليل، وكم بقي، فكان يقوم الليل كله احتياطاً، فقاموا؛ حتى تورمت أقدامهم، وامْتُقعت ألوانهم، ولذا قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: والله جل جلاله هو العالم بمقادير الليل، والنهار، وأجزائهما، وساعاتهما، لا يفوته علم ما تفعلون من قيام هذه الساعات في ظلمة الليل ابتغاء رضوانه. وهو تعالى المدبر لأمر الليل، والنهار بالزيادة، والنقصان. فتارة يعتدلان، وتارة يأخذ هذا من هذا، وهذا من هذا. ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾ أي: تحصوا الليل؛ لتقوموا فيما يجب عليكم قيامه لا بقيام جميعه، وهذا يشق عليكم.

﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: عاد عليكم بالعفو، والتخفيف، والمعنى: عفا عنكم ما لا تحيطون بعلمه، ورفع المشقة عنكم بنسخ وجوب قيام الليل، وبقاء سنيته. وقال البيضاوي: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: بالترخيص في ترك القيام المقدر، ورفع التبعة فيه، كما رفع التبعة عن التائب من الذنب. انتهى. وهذا يدل على أنه كان منهم مَنْ ترك بعض ما أمر به.

﴿فَٱقۡرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ أي: فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل، وإنما عبر عن الصلاة بالقراءة؛ لأن القراءة أحد أجزاء الصلاة، بل هي الركن الأهم فيها. قال تعالى في سورة (الإسراء) رقم [١١]: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ﴾ أي: بقراءتك ﴿وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا﴾ أي: بقراءتك، وقد استدل أبو حنيفة ـ رحمه الله تعالى ـ بهذه الآية على أنه لا يجب تعيين قراءة الفاتحة في الصلاة، واعتضد بحديث المسيء صلاته، الذي رواه الشيخان: «**ثمَّ اقْرَأْ ما تيسرَ معكَ مِنَ القرآنِ**».

والجمهور على: أن المراد دراسة القرآن، وحفظه حتى لا يتعرض للنسيان، وعليه الشافعي - رحمه الله تعالى -؛ لذا أوجب قراءة الفاتحة في كل ركعة على الإمام، والمقتدي، والمنفرد في صلاته، واستدل بحديث عبادة بن الصامت - رضي الله عنه -: أن رسول الله ﷺ قال: **«لا صلاةَ لمنْ لمْ يقرأْ بفاتحة الكتابِ»**. أخرجه البخاري، ومسلم. وانظر تفصيل ذلك في الآية رقم [٢٠٤] من سورة (الأعراف) تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾: والمريض يضعف عن التهجد بالليل، فخفف الله عز وجل عنه لأجل ضعفه، وعجزه عنه، فخفف عنكم رحمة بكم. ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يسافرون في الأرض للتجارة، وطلب الرزق. ﴿يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أي: يطلبون من فضل الله الرزق. ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني: الغزاة المجاهدين، وذلك؛ لأن المجاهد، والمسافر مشتغل بالنهار بالأعمال الشاقة، فلو لم ينم بالليل؛ لتوالت عليه أسباب المشقة، فخفف الله عنهم أجمعين.

فأنت ترى: أن الله جلت قدرته، وتعالت حكمته سوى في هذه الآية بين درجة المجاهدين والمكتسبين المال الحلال للنفقة على نفسه، وعياله، والإحسان، والإفضال على يتيم، أو أرملة، أو فقير بائس، فكان هذا دليلاً واضحاً على أن الكسب من مال حلال بمنزلة الجهاد؛ لأنه جمعه مع الجهاد في سبيل الله. فقد روى إبراهيم عن علقمة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما مِنْ جالبٍ يجلبُ طعاماً من بلدٍ إلى بلدٍ، فيبيعهُ بسعر يومِه، إلا كانتْ منزلته عندَ اللهِ منزلةَ الشهداءِ، ثم قرأ رسول الله ﷺ:** ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ...﴾ إلخ». وقال ابن عمر - رضي الله عنهما -: ما خلق الله موتة أموتها بعد الموت في سبيل الله أحب إليّ من الموت بين شعبتي رحلي، أبتغي من فضل الله ضارباً في الأرض. انتهى. قرطبي، وخذ ما يلي:

فعن كعب بن عجرة - رضي الله عنه - قال: مرَّ على النبي ﷺ رجل، فرأى أصحابه من جلده، ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله! لو كان هذا في سبيل! فقال رسول الله ﷺ: **«إنْ كانَ خرجَ يسعَى على ولدِهِ صغاراً؛ فهو في سبيلِ اللهِ، وإنْ كان خَرجَ يسعى على أبَويْنِ شيخيْنِ كبيرينِ؛ فهو في سَبيلِ اللهِ، وإن كانَ خرجَ يسْعَى رياءً، ومفاخرةً؛ فهو في سبيلِ الشيطان»**. رواه الطبراني. وأحاديث الرسول ﷺ في الترغيب في العمل كثيرة مشهورة مسطورة، والشعر العربي طافح بذلك، وخذ قول صالح بن عبد القدوس في الحكم: [الكامل]

وإذا رأيتَ الرزقَ ضاقَ ببلدةٍ ... وخشيتَ فيها أن يضيقَ المكسبُ

فارحَلْ فأرضُ اللهِ واسعةُ الفضا ... طولاً وعرضاً شرقُها والمغرِبُ

وعن بعض السلف أنه كان بواسط، فجهز سفينة حنطة إلى البصرة، وكتب إلى وكيله: بع الطعام يوم تدخل البصرة، ولا تؤخره إلى غد، فوافق سعة في السعر، فقال التجار للوكيل: إن

أخرته جمعة ربحت فيه أضعافه، فأخره جمعة فربح فيه أمثاله، فكتب إلى صاحبه بذلك، فكتب إليه صاحب الطعام: يا هذا! إنا كنا قنعنا بربح يسير مع سلامة ديننا، وقد جنيت علينا جناية، فإذا أتاك كتابي هذا فخذ المال، وتصدق به على فقراء البصرة، وليتني أنجو من الاحتكار كفافاً لا عليَّ، ولا لي.

ويروى: أن غلاماً من أهل مكة كان ملازماً للمسجد، فافتقده ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ، فمشى إلى بيته، فقالت أمه: هو على طعام له يبيعه، فلقيه، فقال له: يا بني! مالك وللطعام؟ فهلَّا إبلاً، فهلَّا بقراً، فهلَّا غنماً، إن صاحب الطعام يحب المَحْل، وصاحب الماشية يحب الغيث.

﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾ أي: صلوا ما أمكن، فأوجب الله من صلاة الليل ما تيسر، ثم نسخ ذلك بإيجاب الصلوات الخمس حسب ما رأيت فيما تقدم، وكررت هذه الجملة للتأكيد. ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: الواجبة على الوجه الأكمل. ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: المفروضة كاملة.

﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًاۚ﴾: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يريد سوى الزكاة، من صلة الرحم، وقِرى الضيف. وقيل: يريد سائر الصدقات، وذلك بأن يخرجها على أحسن وجه من كسب طيب، ومن أكثر الأموال نفعاً للفقراء، ومراعاة النية، والإخلاص، وابتغاء مرضاة الله تعالى بما يخرج، والصرف إلى المستحق. وانظر سورة (الحديد) رقم [١١] فالبحث فيها وافٍ كافٍ.

﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: ثوابه، وأجره مدخر عند الله. والعندية عندية تشريف، وتكريم، لا عندية مكان، وإحاطة ﴿هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ﴾: يعني الذي قدمتم؛ لأنفسكم، وادخرتموه عند الله خير من الذي أخرتموه، ولم تقدموه. وروى البغوي بسنده عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيكُمْ مالُهُ أحبُّ إليْهِ مِنْ مالِ وَارِثِهِ؟**». قالوا: يا رسول الله! ما منا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه. قال: «**اعلمُوا ما تقولون**». قالوا: ما نعلم إلا ذلك يا رسول الله؟! قال: «**ما منكمْ رجلٌ إلا مالُ وارثِهِ أحبُّ إليهِ مِنْ مالِهِ**». قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «**إنما مالُ أحدِكُمْ ما قدَّمَ، ومالُ وارثِهِ ما أخَّر**». أي: ترك بعد موته لورثته، رواه البخاري مختصراً. ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ﴾: لذنوبكم، وتقصيركم في قيام الليل، أو استغفروا الله في جميع أحوالكم، فإن الإنسان لا يخلو من تفريط في طاعة الله تعالى. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾: لجميع ذنوب عباده؛ إن استغفروا، وتابوا. ﴿رَّحِيمُۢ﴾: بهم.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿رَبَّكَ﴾: اسمها، والكاف في محل جر بالإضافة من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿يَعۡلَمُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿رَبَّكَ﴾. ﴿أَنَّكَ﴾: حرف مشبه بالفعل، والكاف اسمها. ﴿تَقُومُ﴾: فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: «أنت». ﴿أَدۡنَىٰ﴾: ظرف زمان منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف متعلق بما قبله. ﴿مِن ثُلُثَيِ﴾: متعلقان بـ: ﴿أَدۡنَىٰ﴾، وعلامة الجر الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه مثنى، وحذفت

النون للإضافة، وهو مضاف، و﴿ٱلَّيۡلِ﴾ مضاف إليه، وجملة ﴿تَقُومُ﴾ في محل رفع خبر (أنَّ)، و(أنَّ) واسمها، وخبرها في تأويل مصدر في محل نصب سد مسد مفعول ﴿يَعۡلَمُ﴾ وجملة: ﴿يَعۡلَمُ...﴾ إلخ في محل رفع خبر ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية هذه مبتدأة، أو مستأنفة، لا محل لها. (نصفه، أو ثلثه): بالنصب معطوفان على معنى: «أنك تقوم أقل من الثلثين، وتقوم النصف، أو الثلث». قاله الزمخشري. وقال أبو البقاء: معطوفان على (أدنى)، وهو قول مكي، وهو أوضح من قول الزمخشري، وعلى قراءة الجر معطوفان على (ثلثي الليل) على معنى: تقوم أقل من ثلثي الليل، وأقل من النصف، والثلث.

﴿وَطَآئِفَةٞ﴾: معطوف على فاعل ﴿تَقُومُ﴾ المستتر، وجاز ذلك من غير تأكيد للفصل بالكلمات الكثيرة. ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة (طائفة). ﴿مَعَكَۚ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة الموصول، والكاف في محل جر بالإضافة، وعطف (طائفة) على فاعل ﴿تَقُومُ﴾ المستتر، قال ابن مالك ـ رحمه الله تعالى ـ في ألفيته: [الرجز]

وَإِنْ عَلَى ضَمِيرِ رَفْعٍ مُتَّصِلْ عَطَفْتَ فَافْصِلْ بِالضَّمِيرِ المُنْفَصِلْ
أو فَاصِلٍ مَا وبِلَا فَصْلٍ يَرِدْ فِي النَّظْمِ فَاشِياً وضَعْفَهُ اعْتَقِدْ

هذا؛ ويجوز على بعْدٍ اعتبار (طائفة) فاعلاً لفعل محذوف، التقدير: وتقوم طائفة، كما يجوز على بعْدٍ أيضاً اعتبار (طائفة) مبتدأ، والخبر محذوفاً، التقدير: وطائفة من الذين معك يقومون... إلخ. والأول أقوى. ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: استئنافية. (الله): مبتدأ. ﴿يُقَدِّرُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى (الله)، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها، وإن اعتبرتها في محل نصب حال من الضمير المستتر في صلة الموصول؛ فلست مفنداً، ويكون الرابط: الواو فقط. ﴿ٱلَّيۡلَ﴾: مفعول به. ﴿وَٱلنَّهَارَۚ﴾: معطوف عليه.

﴿عَلِمَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (الله). ﴿أَن﴾: حرف مشبه بالفعل مخفف من الثقيلة، واسمه ضمير الشأن محذوف، التقدير: أنه. ﴿لَّن﴾: حرف ناصب. ﴿تُحۡصُوهُ﴾: فعل مضارع منصوب بـ: ﴿لَّن﴾، وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها، وإن اعتبرتها في محل نصب حال من فاعل ﴿يُقَدِّرُ﴾ المستتر؛ فلست مفنداً، بل هو الأقوى، ويكون الرابط الضمير فقط، وهي على تقدير «قد» قبلها لتقربها من الحال. ﴿فَتَابَ﴾: الفاء: حرف عطف. (تاب): فعل ماض، والفاعل يعود إلى (الله). ﴿عَلَيۡكُمۡۖ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿عَلِمَ أَن لَّن...﴾ إلخ على الوجهين المعتبرين فيها.

﴿فَٱقۡرَءُواْ﴾: الفاء: هي الفصيحة؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر. (اقرؤوا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جواب

شرط غير جازم، التقدير: وإذا كان ذلك حاصلاً، وواقعاً؛ فاقرؤوا... إلخ. ﴿مَا﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿تَيَسَّرَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿مَا﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿مَا﴾. ﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾: متعلقان بمحذوف حال من فاعل ﴿تَيَسَّرَ﴾، و﴿مِنَ﴾ بيان لما أبهم في ﴿مَا﴾، والجملة الشرطية معطوفة على ما قبلها.

﴿عَلِمَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (الله). ﴿أَن﴾: حرف مشبه بالفعل مخفف من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف. ﴿سَيَكُونُ﴾: السين: حرف استقبال، مفيد للتأكيد. (يكون): فعل مضارع ناقص. ﴿مِنكُم﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر (يكون) تقدم على اسمه. ﴿مَّرْضَىٰ﴾: اسم (يكون) مؤخر مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر، وجملة: ﴿سَيَكُونُ...﴾ إلخ في محل رفع خبر ﴿أَن﴾، و﴿أَن﴾ المخففة، واسمها وخبرها في تأويل مصدر في محل نصب سد مسد مفعول ﴿عَلِمَ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿وَءَاخَرُونَ﴾: الواو: حرف عطف. (آخرون): معطوف على (مرضى) مرفوع مثله، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض من التنوين في الاسم المفرد. ﴿يَضْرِبُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل رفع صفة (آخرون). ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلقان بما قبلهما، وجملة: ﴿يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الضمير فقط، وإعرابها واضح. ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: معطوف على (آخرون يضربون في الأرض) وإعرابه مثله بلا فارق. ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ إعرابه مثل إعراب سابقه بلا فارق. هذا؛ وقيل: (آخرون)، مبتدأ، خبره جملة: ﴿يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وأيضاً (آخرون) الثاني مبتدأ خبره: جملة: ﴿يُقَٰتِلُونَ...﴾ إلخ، والمعنى لا يؤيده؛ لأنهما داخلان في معلوم الله عز وجل.

﴿وَأَقِيمُوا۟﴾: الواو: حرف عطف. (أقيموا): فعل أمر مبني على حذف النون لاتصاله بواو الجماعة التي هي فاعله، والألف للتفريق. ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، والجملتان بعدها معطوفتان عليها. ﴿قَرْضًا﴾: مفعول مطلق. ﴿حَسَنًا﴾: صفة ﴿قَرْضًا﴾.

﴿وَمَا﴾: الواو: حرف استئناف. (ما): اسم شرط مبني على السكون في محل نصب مفعول به مقدم لفعل شرطه. ﴿تُقَدِّمُوا۟﴾: فعل مضارع فعل الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف النون، والواو: فاعله، والألف للتفريق. ﴿لِأَنفُسِكُم﴾: متعلقان بما قبلهما، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال منْ (ما)، و﴿مِّنْ﴾ بيان لما أبهم فيها. ﴿تَجِدُوهُ﴾: فعل مضارع جواب الشرط مجزوم... إلخ، والواو فاعله، والهاء مفعوله الأول، والجملة الفعلية جواب الشرط لا محل لها؛ لأنها لم تقترن بالفاء ولا بـ: «إذا» الفجائية. ﴿عِندَ﴾: ظرف مكان متعلق بالفعل قبله، و﴿عِندَ﴾ مضاف، و(الله): مضاف إليه. ﴿هُوَ﴾: ضمير

فصل لا محل له، وجاز أن يكون الضمير فصلاً؛ وإن لم يقع بين معرفتين؛ لأنه وقع بين معرفة، ونكرة شبه المعرفة، وهو ﴿خَيْرًا﴾؛ لأن أفعل التفضيل يشبه المعرفة لعدم دخول (أل) عليه هنا. ﴿خَيْرًا﴾: مفعول به ثان. ﴿وَأَعْظَمَ﴾: الواو: حرف عطف. (أعظم): معطوف على ما قبله. ﴿أَجْرًا﴾: تمييز، بعد هذا إن اعتبرت (ما) مبتدأ فيكون مفعول ﴿تُقَدِّمُوا﴾ محذوفاً، وخبر المبتدأ مختلف فيه كما ذكرته لك مراراً، والجملة الشرطية على الاعتبارين معترضة بين الجمل المتعاطفة؛ لأن جملة: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ معطوفة على الجمل الفعلية السابقة، والجملة الاسمية: (إن الله...) إلخ تعليلية لا محل لها. تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

انتهت سورة (المزمل) شرحاً وإعراباً بفضل الله وتوفيقه.

والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ المُدَّثِّر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة (المدثر) مكية في قول الجميع. وقال الخازن ـ رحمه الله تعالى ـ: غير آية من آخرها. وهي ست وخمسون آية، ومئتان وخمس وخمسون كلمةً، وألف حرف وعشرة أحرف. انتهى. خازن.

اختلف في أول ما نزل من القرآن اختلافاً طويلاً، وتحقيق المعتمد منه، وطريق الجمع بين الأحاديث المتناقضة فيه: أن أول ما نزل على الإطلاق: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾، وأول ما نزل بعد فترة الوحي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾.

فعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «**كنتُ على جبلِ حراءٍ، فنُودِيتُ: يا محمدُ! إنك رسولُ اللهِ، فنظْرتُ عن يميني، وعن يساري، فلم أرَ شيئاً، فنظرْتُ فوقي؛ فإذَا بِهِ قاعدٌ على عرشٍ بين السماء والأرض** ـ يعني: الملك الذي ناداه قاعد على كرسي بين السماء والأرض ـ **فرُعِبْتُ، ورَجَعْتُ إلى خديجة، فقلت: دثروني دثروني، فنزل جبريل، وقال**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾».

وعن الزهري: إن أول ما نزل سورة (اقرأ) إلى قوله تعالى: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ثم انقطع الوحي، فحزن رسول الله ﷺ، وجعل يعلو شواهق الجبال، فأتاه جبريل عليه السلام، وقال: إنك نبي الله، فرجع إلى خديجة ـ رضي الله عنها ـ فقال: «**دثِّروني، وصبوا عليَّ ماءً بارداً**». فنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾﴾

الشرح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾: أصله: المتدثر، وهو الذي يتدثر في ثيابه؛ أي: يتلفف، ويتغطى ليستدفىء بها. وانظر ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ في السورة السابقة فهو مثله في إعلاله، وأجمعوا على أنه رسول الله ﷺ، وإنما سماه مدثراً؛ لقوله ﷺ لخديجة ـ رضي الله عنها ـ: «**دثروني**». وقيل: معناه: يا أيها المدثر بدثار النبوة، والرسالة. من قولهم: ألبسه الله لباس التقوى، فجعل النبوة كالدثار، واللباس مجازاً، واستعارةً.

هذا؛ وقال القرطبي: هذا النداء ملاطفة في الخطاب من الكريم إلى الحبيب؛ إذ ناداه بحاله، وعبر عنه بصفته، فلم يقل: يا محمد! ليستشعر اللين، والملاطفة من ربه، كما رأيت في شرح ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾. هذا؛ والدثار: هو كل ما كان من الثياب فوق الشعار، والشعار الثوب الذي يلي الجسد، وقال الرسول ﷺ في مدح الأنصار: «**الأنصارُ شِعارٌ، والناسُ دِثَارٌ**».

﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ أي: قم من مضجعك قيام عزم وجد ونشاط، وخوِّف قومك من عذاب الله؛ إن لم يؤمنوا، واشتغل بالإنذار؛ الذي تحملته، ولا تلتفت لما يقوله قومك فيك من افتراءات.
﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي: عظم ربك، ونزهه عما يقوله عبدة الأوثان، وصِفْه بأنه أكبر، وأعظم من أن يكون له شريك في الملك، أو صاحبة، أو ولد. وقد صار هذا اللفظ بعرف الشرع في تكبير العبادات كلها، أذاناً، وإقامةً، وصلاةً، وذكراً، وجهاداً، واستعظاماً للشيء العظيم، واستنكاراً للشيء الغريب. وقد ذكر أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ قام رسول الله ﷺ. قال: «**الله أكبر**». وعلم: أن الشيطان لا يأمر بذلك، وكبرت خديجة ـ رضي الله عنها ـ أيضاً، وأيقنت: أن الوحي من الله تعالى.

فائدة: هذه الجملة تقرأ بالعكس، ولا يتغير لفظها، ولا معناها، وأيضاً قوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾ ومثلهما قول الشاعر، وهو القاضي الجرجاني: [الوافر]

مَـــوَدَّتُـــهُ تَـــدُومُ لِـــكُـــلِّ هَـــوْلٍ وَهَـــلْ كُـــلٌّ مَـــودَّتُـــهُ تَـــدُومُ؟

ويحكى عن العماد الكاتب: أنه لقي القاضي الفاضل، وهو راكب فرساً، فقال له: سِر فَلَا كَبَابِكَ الفرسُ، فقال له القاضي: دامَ عُلَا الْعِمادِ.

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾: خطاب للنبي ﷺ أمر بأن تكون ثيابه طاهرة من النجاسات؛ لأن طهارة الثياب شرط في الصلاة، لا تصح إلا بها، وهي الأوْلى، والأحب في غير الصلاة، وقبيح بالمؤمن الطيب أن يحمل خبثاً! وقيل: هو أمر بتقصيرها، ومخالفة العرب في تطويلهم الثياب، وجرهم الذيول، وذلك ما لا يؤمن معه إصابة النجاسة. وقيل: هو أمر بتطهير النفس مما يستقذر من الأفعال، ويستهجن من العادات، يقال: فلان طاهر الثياب، وطاهر الذيل، والأردان: إذا وصفوه بالنقاء من المعايب، ومدانس الأخلاق، ومنه قول امرئ القيس. وقيل هو لأبي كبشة: [الطويل]

ثِـيَـابُ بَـنِـي عَـوْفٍ طَـهَـارَى نَـقِـيَّـةٌ وأَوْجُـهُـهُـمْ بِـيـضُ الـمَـسَـافِـرِ غُـرَّانُ

ويقال: فلان دنس الثياب للغادر، وذلك؛ لأن الثوب الإنسان، ويشتمل عليه، فكنى به عنه، ومنه قول الشاعر، وكله من باب الكناية: [الرجز]

لَا هُـــمَّ إنَّ عَـــامِـــرَ بْـــنَ جَـــهْـــمِ أَوْذَمَ حَـــجَّـــاً فِـــي ثِـــيَـــابٍ دُسْـــمِ

أوذم الحج: أوجبه على نفسه بالإحرام، وثياب دسم: وسخة، ومعنى البيت: أنه حج، وهو متدنس بالذنوب، وملطخ بالمعاصي، والسيئات، ألا ترى إلى قولهم: أعجبني زيد ثوبه. كما يقولون: أعجبني زيد عقله، وخلقه. ويقولون: المجد في ثوبه، والكرم تحت حلته. قال الشاعر: [الوافر]

وَيَحْيَى لا يُلَامُ بِسُوءِ خُلْقٍ وَيَحْيَى طَاهِرُ الأَثْوَابِ حُرُّ

ولأن الغالب: أن من طهَّر باطنه، ونقَّاه عُنِيَ بتطهير الظاهر، وتنقيته، وأبى إلا اجتناب الخبث، وإيثار الطهر في كل شيء. انتهى. كشاف، وقال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: فيه ثمانية أقوال: أحدها: أن المراد بالثياب: العمل. الثاني: القلب. الثالث: النفس. الرابع: الجسم. الخامس: الأهل. السادس: الخلق. السابع: الدين. الثامن: الثياب الملبوسات على الظاهر. وعاد فشرح كل واحد شرحاً وافياً.

﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾: أصل الرجز: العذاب، وهو بكسر الراء، وهي قراءة الجمهور، وقرأ حفص، ومجاهد بضم الراء، فقيل: هما بمعنى واحد، يراد بهما هنا الأصنام، والأوثان. وقال تعالى في سورة (البقرة) رقم [٥٩] وقريب منها في سورة (الأعراف) رقم [١٦٢]: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾. وذكر الرجز بمعنى العذاب أيضاً في سورة (الأعراف) برقم [١٣٤] و [١٣٥]. والمعنى: اهجر ما يؤدي إلى الرجز من عبادة الأوثان، وغيرها من المآثم. والمعنى: الثبات على هجره؛ لأنه كان بريئاً منه منزهاً عن كل أقذار الجاهلية. وذلك كما يقول المسلم في صلاته: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ليس معناه: أنه ليس على الهداية، بل المراد ثبتنا على هذه الهداية.

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ أي: لا تعط عطاءً، وتستكثره؛ لأن الكريم يستقل ما يعطي وإنْ كان كثيراً. أو لا تعط عطاءً؛ وأنت تطمع أن يعوض من الموهوب له أكثر من الموهوب. وهذا جائز شرعاً، وفيه وجهان: أحدهما: أن يكون نهياً خاصاً برسول الله ﷺ؛ لأن الله اختار له أشرف الآداب، وأحسن الأخلاق. والثاني: أن يكون نهي تنزيه، لا تحريم له، ولأمته.

﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ أي: تحلَّ بالصبر لوجه الله تعالى على أذى المشركين، وعلى أعباء الرسالة، وعلى عبادته، وطاعته على جميع أوامره، ونواهيه. وينبغي أن تعلم: أن النبي ﷺ قد صار نبياً بنزول سورة (اقرأ) عليه، وبنزول سورة (المدثر) صار رسولاً، لقوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾.

الإعراب: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾: انظر مثلها في أول سورة (المزمل). ﴿قُمْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت»، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية كالجملة الندائية قبلها. ﴿فَأَنذِرْ﴾: الفاء: حرف عطف. (أنذر): فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت»، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿وَرَبَّكَ﴾: الواو: حرف عطف. (ربك): مفعول به مقدم، والكاف في

محل جر بالإضافة من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿فَكَبِّرْ﴾: الفاء: واقعة في جواب شرط محذوف، التقدير: وأياً ما كان؛ فلا تدع تكبيره؛ أي: أي شيء حدث، ووقع؛ فلا تدع تكبيره. وهو مفاد قول المفسرين، وأرى صحة اعتبار الفاء صلة، ولا حاجة لهذه التقديرات، وهذه التكلفات. (كبر): فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت»، والجملة الفعلية جواب للشرط المقدر على قول المفسرين، ومعطوفة على ما قبلها على اعتبار الفاء صلة، والجملتان بعدها معطوفتان عليها، والكلام عليهما مثلها.

﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): ناهية. ﴿تَمْنُن﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: (لا) الناهية، والفاعل مستتر تقديره: «أنت»، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿تَسْتَكْثِرُ﴾: فعل مضارع مرفوع، والفاعل مستتر تقديره: «أنت»، والجملة الفعلية في محل نصب حال من فاعل ﴿تَمْنُن﴾ المستتر، والرابط الضمير فقط، التقدير: لا تعط مستكثراً. هذا؛ وقرأ الحسن البصري (تستكثِرْ) بالسكون. وفيه ثلاثة أوجه: أحدها: أن يكون بدلاً من ﴿تَمْنُن﴾ أي: لا تر ما تعطيه كثيراً. والثاني: أنَّه قَدَّر الوقف عليه؛ لكونه رأس آية، فسكَّنه لأجل الوقف، ثم وصله بنية الوقف. والثالث: أن يكون سكنه لتناسب رؤوس الآية، وهي: ﴿فَأَنذِرْ...﴾ إلخ، انتهى. قطر الندى، ومغني اللبيب. وقيل: مجزوم بجواب النهي، ولا وجه له؛ لأن المعنى يختل بتقدير إنْ قبل (لا) ومن شروط الجزم بعد النهي صحة وقوع «إن» قبل «لا»، إلا إذا كان المعنى: إن لا تمتن بعملك تزدد من الثواب لسلامة ذلك من الإبطال بالمن. وهذا عكس ما رأيته في الشرح. تأمل. هذا؛ وقرأ الأعمش، ويحيى بالنصب على توهم لام التعليل. قال: ولا تمنن لتستكثر. وقيل: هو على إضمار «أنْ» مثل قول طرفة بن العبد في معلقته رقم [٦٠]: [الطويل]

أَلَا أَيُّهَذَا الزَّاجِرِي أَحْضُرَ الوَغَى وأنْ أشهدَ اللَّذَّاتِ هَلْ أنتَ مُخْلِدِي؟

وقراءة الرفع سبعية، بخلاف قراءة السكون، والنصب. ﴿وَلِرَبِّكَ﴾: الواو: حرف عطف. (لربك): متعلقان بما بعدهما، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿فَٱصْبِرْ﴾: الفاء: قل فيها ما رأيته بما قبلها. (اصبر): فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت»، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، ولا تنس: أن تقديم المفعول في جميع الآيات يفيد الاختصاص.

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾

الشرح: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾: إذا نفخ في الصور. والناقور: فاعول من النقر، وهو القرع الذي هو سبب الصوت، والنقر في كلام العرب: الصوت، ومنه قول امرىء القيس: [الطويل]

أُخَفِّضُهُ بِالنَّقْرِ لَمَّا عَلَوْتُهُ ويرفعُ طَرْفاً غيْرَ خَافٍ غَضِيضِ

انظر ما ذكرته في شأن «الصور» والنافخ فيه، وهو إسرافيل ـ عليه السلام ـ في الآية رقم [١٣] من سورة (الحاقة) تجد ما يسرك، ويثلج صدرك، وأذكر هنا قوله تعالى في سورة (قٓ) رقم [٤١]: ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ فالمنادي هو إسرافيل عليه السلام، ونداؤه في الحشر فيقولُ: أيتها العظامُ الباليةُ! أيتها الأوصالُ المتقطعةُ! أيتها اللحومُ المتمزقةُ! أيتها الشعورُ المتفرقةُ! إن الله يأمركُنَّ أنْ تجتمعن لفصل القضاء.

﴿فَذَٰلِكَ﴾ أي: وقت النقر، أي: النفخ في الصور. ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ أي: شديد. ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: على من كفر بالله، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقضاء، والقدر خيره، وشره. ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ أي: غير سهل، ولا هين، وذلك؛ لأن عقدهم لا تنحل إلا إلى عقدة أشد منها، ولا يجتازون عقبة إلا وبعدها أصعب منها، بخلاف المؤمنين الموحدين المذنبين، فإن عقدهم تنحل إلى ما هو أخف منها؛ حتى يدخلوا الجنة برحمة الله تعالى.

قال الزمخشري ـ رحمه الله تعالى ـ: فإن قلت: فما فائدة قوله: ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ و﴿عَسِيرٌ﴾ مغن عنه؟ قلت: لما قال: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فقصر العسر عليهم؛ قال: ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ ليؤذن بأنه لا يكون عليهم كما يكون على المؤمنين يسيراً هيناً؛ ليجمع بين وعيد الكافرين، وزيادة غلظهم، وبشارة المؤمنين، وتسليتهم. ويجوز أن يراد: أنه عسير، لا يرجى أن يرجع يسيراً، كما كان يرجى تيسير العسير من أمور الدنيا، بل إنهم يناقشون الحساب، وتسود وجوههم، ويحشرون زُرقاً، ويفتضحون على رؤوس الأشهاد.

وعن أبي حيان؛ قال: أَمَّنا زرارة بن أوفى قاضي البصرة في صلاة الصبح، فقرأ هذه السورة، فلما وصل إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ...﴾ إلخ، شهق شهقة، ثم خر ميتاً ـ رحمه الله ـ. هذا؛ والتعبير عن النفخ وعن الصور بالنقر في الناقور، لبيان هول الأمر، وشدته، فإن النقر في كلام العرب معناه: الصوت، وإذا اشتد الصوت؛ أصبح مفزعاً. وينبغي أن تعلم أن الله تعالى لما ذكر ما يتعلق بإرشاد النبي ﷺ ذكر بعده وعيد الأشقياء بقوله: ﴿فَإِذَا نُقِرَ...﴾ إلخ.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾: التنوين ينوب عن جملة محذوفة دلت عليها الغاية، أي: يوم ينقر في الناقور، و(إذ) مضافة لهذه الجملة، فحذفت الجملة الفعلية، وعوض عنها التنوين، وكسرت الذال لالتقاء الساكنين، كما كسرت الهاء في: صهٍ، ومهٍ عند تنوينهما، ومثل ذلك قل في: حينئذٍ، وساعتئذٍ، ونحوهما. قال تعالى في سورة (الواقعة) رقم [٨٤]: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ أي: حين إذ بلغت الروح الحلقوم تنظرون.

﴿غَيْرُ﴾: اسم شديد الإبهام، فلا يتعرف بالإضافة لمعرفة، وغيرها، وهو ملازم للإضافة، ويجوز أن يقطع عنها؛ إن فهم المعنى، أو تقدمت كلمة ليس عليها، يقال: قبضت عشرة ليس

غيرُ، وهو مبني على الفتح، أو على الضم خلاف، وإن أردت الزيادة؛ فانظر مبحثها في كتابنا: «فتح القريب المجيب».

هذا؛ والمراد بـ: ﴿يَوۡمٌ﴾ في الآية الكريمة يوم القيامة، وهو مقدار ألف سنة من أيام الدنيا كما في الآية رقم [٤٧] من سورة (الحج)، وأما اليوم في الدنيا فهو الوقت من طلوع الشمس إلى غروبها، وهذا في العرف، وأما اليوم الشرعي فهو من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، كما يطلق اليوم على الليل، والنهار معاً، وقد يراد به الوقت مطلقاً، تقول: ذخرتك لهذا اليوم، أي: لهذا الوقت، والجمع: أيَّام، وأصله: أَيْوَام، فقلبت الواو ياء، وأدغمت الياء في الياء، وجمع الجمع: أيَاوِيم، وأيام العرب: وقائعها، وحروبها، وأيام الله: نعمه، ونقمه. قال تعالى في سورة (إبراهيم) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ رقم [٥]، ويقال: فلان ابن الأيام، أي: العارف بأحوالها، ويقال: أنا ابن اليوم، أي: أعتبر حالي فيما أنا فيه.

الإعراب: ﴿فَإِذَا﴾: الفاء: حرف سبب، واستئناف. (إذا): ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك، مبني على السكون في محل نصب. ﴿نُقِرَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول. ﴿فِي ٱلنَّاقُورِ﴾: جار ومجرور في محل رفع نائب فاعل. وقيل: نائب الفاعل ضمير مستتر تقديره: «هو» أي: إسرافيل. ولا وجه له قطعاً، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ولا يجوز اعتبارها في محل جر بإضافة (إذا) إليها، وتعليق (إذا) بجوابها؛ لأن الجواب قد اقترن بالفاء، ولا يعمل ما بعد الفاء فيما قبلها. أفاده ابن هشام في المغني. ﴿فَذَٰلِكَ﴾: الفاء: واقعة في جواب (إذا). (ذلك): اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب، لا محل له. ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾: بدل من اسم الإشارة مبني على الفتح في محل رفع، وبني لإضافته إلى غير متمكن، وهو (إذ)، فإنه في الأصل مبني على السكون. هذا؛ وأجيز تعليقه بـ: ﴿عَسِيرٌ﴾، ﴿يَوۡمٌ﴾: خبر المبتدأ. ﴿عَسِيرٌ﴾: صفة يوم. والجملة الاسمية: (ذلك...) إلخ جواب (إذا) لا محل لها، و(إذا) ومدخولها كلام مستأنف، لا محل له. ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: متعلقان بـ: ﴿عَسِيرٌ﴾ أو بمحذوف صفة له، أو بمحذوف حال من الضمير المستتر فيه. أفاده ابن هشام في المغني. ﴿غَيۡرُ﴾: صفة ثانية لـ: ﴿يَوۡمٌ﴾، و﴿غَيۡرُ﴾ مضاف، و﴿يَسِيرٍ﴾ مضاف إليه، كما قال ابن هشام: ويحتمل تعليق الجار والمجرور ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ بـ: ﴿يَسِيرٍ﴾، وجعل منه قوله تعالى في سورة (الزخرف) رقم [١٨]: ﴿وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٍ﴾ وقول الشاعر، وهو الشاهد رقم [١١٤٠] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الطويل]

فَتىً هُوَ حَقّاً غَيْرُ مُلْغٍ تَوَلَّهْ ... ولَا تَتَّخِذْ يَوْماً سِواهُ بَدِيلَا

وأيضاً قول أبي زبيد الطائي، وهو الشاهد رقم [١١٤١] من الكتاب المذكور: [البسيط]

إنَّ امْرَأً خَصَّنِي يوماً مودَّتَهُ ... على التنائي لعِنْدِي غيْرُ مَكْفُورِ

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾﴾

الشرح: ﴿ذَرْنِي﴾: اتركني، ودعني، وهي كلمة وعيد، وتهديد. ﴿وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ أي: خلقته في بطن أمه، وأبرزته إلى الوجود وحيداً، لا مال له، ولا ولد، ثم أعطيته بعد ذلك ما أعطيته من النعم. وأجمع المفسرون على أنه الوليد بن المغيرة المخزومي، وإنما خُصَّ بالذكر؛ وإن كان الناس خلقوا مثله؛ لاختصاصه بكفر النعمة، وكثرة إيذائه للرسول ﷺ، وكان يسمى الوحيد في قومه، وريحانة قريش، وهو الذي قالوا فيه كما حكى الله عنهم في سورة (الزخرف) رقم [٣١]: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ وقال قوم: إن قوله تعالى: ﴿وَحِيدًا﴾ يرجع إلى الرب جل وعلا على معنيين: أحدهما: ذرني وحدي معه؛ فأنا أجزيك في الانتقام منه عن كل منتقم. والثاني: أني انفردت بخلقه، ولم يشركني فيه أحد، فأنا أهلكه، ولا أحتاج إلى ناصر في إهلاكه. وقيل: الوحيد الذي لا يُعرف أبوه، وكان الوليد معروفاً بأنه دعي، كما ذكرت ذلك في سورة (نٓ) رقم [١٣].

﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا﴾ أي: خولته، وأعطيته مالاً ممدوداً، وهو ما كان للوليد بين مكة والطائف من الإبل، ونحوها، والنعم، والجنان، والعبيد، والجواري. كذا كان ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يقول. وقال مقاتل ـ رحمه الله تعالى ـ: كان له بستان لا ينقطع خيره شتاءً، ولا صيفاً.

﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ أي: حضوراً لا يغيبون عنه في تصرف يتمتع بلقائهم، لا يحتاجون إلى سفر لطلب المعاش استغناء بماله، ونعمته، ولا يحتاج أن يرسلهم في مصالحه لكثرة خدمه. أو كانوا شهوداً في المحافل، والأندية لوجاهتهم، وقد كانوا عشرة، أسلم منهم ثلاثة: خالد سيف الله، وكان أسلم قبله الوليد، وهشام أسلم بعد فتح مكة، وقد زلق الزمخشري، وتبعه البيضاوي، والنسفي كعادتهما، وقال به الخازن أيضاً؛ حيث ذكروا إسلام عمارة، ولم يذكروا إسلام الوليد بن الوليد، علماً بأن عمارة هلك على كفره في بلاد الحبشة بعد أن بعثته قريش بصحبة عمرو بن العاص إلى النجاشي ليرد المسلمين؛ الذين هاجروا إلى الحبشة إلى كفار قريش، وقد استعمل عمرو بن العاص له مكيدة، فكانت سبب هلاكه، وعمارة المذكور كان أجمل فتيان قريش، وهو الذي قدمته قريش لأبي طالب يتبناه، ويسلم لهم الرسول ﷺ، فقال لهم أبو طالب: أرأيتم ناقة تحن إلى غير فصيلها؟.

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا﴾ أي: بسطت له في العيش بسطاً؛ حتى أقام ببلدته مطمئناً مترفهاً، يُرجع إلى رأيه. والتمهيد عند العرب: التوطئة، والتهيئة، ومنه: مَهْدَ الصبي. ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ أي: مالاً، وولداً، وجاهاً، وتمهيداً على ما أوتيه. وهو استبعاد لطمعه، أو لأنه لا مزيد على ما

أوتيه؛ لأنه لا يناسب ما هو عليه من كفران النعم، ومعاندة المنعم. وانظر الطمع في الآية رقم [٢٨] من سورة (الحاقة)، وانظر شرح المال في الآية رقم [١٢] من سورة (نوح) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام.

الإعراب: ﴿ذَرْنِي﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت»، والنون للوقاية، وياء المتكلم مفعول به، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية. ﴿وَمَنْ﴾: الواو: حرف عطف. (مَنْ): اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به، أو هو معطوف على ياء المتكلم. ﴿خَلَقْتُ﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها، والعائد محذوف، التقدير: الذي خلقته. ﴿وَحِيدًا﴾: حال من (مَنْ)، أو من ضميره المحذوف، وهو مفعول ﴿خَلَقْتُ﴾، أو هو حال من ياء المتكلم، أو من تاء الفاعل. انظر الشرح. ﴿وَجَعَلْتُ﴾: الواو: حرف عطف. (جعلت): فعل، وفاعل. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محل مفعوله الثاني تقدم على الأول. ﴿مَالًا﴾: مفعول به. ﴿مَّمْدُودًا﴾: صفة ﴿مَالًا﴾. ﴿وَبَنِينَ﴾: معطوف على ﴿مَالًا﴾ منصوب مثله، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، والنون عوض من التنوين في الاسم المفرد. ﴿شُهُودًا﴾: صفة (بنين)، وجملة: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ...﴾ إلخ معطوفة على جملة: ﴿خَلَقْتُ...﴾ إلخ فهي في حيز صلة الموصول. ﴿وَمَهَّدتُّ﴾: فعل، وفاعل. (له): متعلقان بما قبلهما. ﴿تَمْهِيدًا﴾: مفعول مطلق، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي من جملة الصلة. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿يَطْمَعُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى (مَنْ). ﴿أَنْ أَزِيدَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ: ﴿أَنْ﴾، والفاعل تقديره: «أنا»، والمفعول محذوف، التقدير: أن أزيده، و(أن) والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به، أو هو في محل نصب بنزع الخافض، التقدير: ثم يطمع في الزيادة على ما ذكر من المال، والبنين، والتمهيد. وجملة: ﴿يَطْمَعُ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، فهي من جملة الصلة.

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَـٰتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا (١٧)﴾

الشرح: ﴿كَلَّآ﴾ أي: لا أفعل، ولا أزيده. قالوا: فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقصان من ماله، وولده؛ حتى هلك. انظر كيف كان هلاكه في الآية رقم [٩٥] من سورة (الحجر). وقيل: كان يقول: إن كان محمد صادقاً فيما يدعيه من وجود الجنة، فما خُلِقَتْ إلَّا لِي. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَـٰتِنَا عَنِيدًا﴾ أي: معانداً للنبي ﷺ، ولما جاء به. هذا؛ والعنيد: المعاند للحق، المجانب له. والعنيد، والعَنود، والعاند: المعاندُ للحق، والمخالف له، وفعله يأتي من الباب الأول، والثاني، والرابع، والخامس، والمصدر عَنْداً، وعنُوداً، وعَنَداً، وهو مأخوذ من العنَد، وهو الناحية، والعاند: البعير؛ الذي يجور عن الطريق، ويعدل عن القصد، والجمع: عُنَّد مثل: راكِع، ورُكَّع، وأنشد أبو عبيدة قول الحارثي ـ وهو الشاهد رقم [١١٦٠] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الرجز]

إِذَا رَكِبْتُ فَاجْعَلُونِي وَسَطاً إِنِّي كَبِيرٌ لَا أُطِيقُ الْعُنَّدَا

وقال أبو صالح: عنيداً معناه: مباعداً. قال الشاعر: [الطويل]

أَرَانَا عَلَى حَالٍ تُفَرِّقُ بَيْنَنَا نَوى غُرْبَةٍ إِنَّ الْفِرَاقَ عَنُودُ

وعرق عاند: إذا لم يرقأ دمه، وجمع العنيد: عُنُد مثل رغيف، ورُغُف. ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾: سأكلفه مشقة من العذاب لا راحة له فيها، والإرهاق في كلام العرب: أن يُحمل الإنسان على الشيء. و«**الصَّعود: جبل من نار يتصعَّدُ فيه الكافر سبعين خريفاً، ثم يهوي به كذلك فيه أبداً**». رواه أبو سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ﷺ، وخرجه الترمذي، وقال: حديث غريب.

وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ قال: «**هو جَبلٌ مِنْ نَارٍ يُكَلَّف أنْ يصْعَدَهُ، فإذَا وضعَ يَدَهُ؛ ذَابَتْ، فإذا رفعها؛ عَادَتْ، وإذا وضعَ رِجْلَهُ؛ ذابَتْ، فإذا رفعها؛ عَادَتْ، يصْعَدُ سبعينَ خريفاً، ثم يَهْوِي كذَلِك**». ورواه الترمذي، وأحمد، والحاكم.

أما القول في ﴿كَلَّآ﴾ فإني أنقله لك بحروفه من مغني اللبيب لابن هشام ـ طيب الله ثراه ـ لتكون على بصيرة من أمرك. قال ـ رحمه الله تعالى ـ: وهي عند سيبويه، والخليل، والمبرد، والزجاج، وأكثر البصريين حرف معناه: الردع، والزجر، لا معنى لها عندهم إلا ذلك؛ حتى إنهم يجيزون أبداً الوقف عليها، والابتداء بما بعدها، وحتى قال جماعة منهم: متى سمعت ﴿كَلَّآ﴾ في سورة فاحكم بأنها مكية. وفيه نظر؛ لأن لزوم المكية إنما يكون عن اختصاص الْعُتُوِّ بها، لا عن غلبته، ثم لا تمتنع الإشارة إلى عُتُوٍّ سابق. ثم لا يظهر معنى الزجر في ﴿كَلَّآ﴾ المسبوقة بنحو قوله تعالى في سورة (الانفطار): ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا﴾ وقوله جل شأنه: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ كَلَّآ﴾، سورة (المطففين)، وقوله تعالت حكمته: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩ كَلَّا...﴾ إلخ، سورة (القيامة).

وقولهم: المعنى انته عن ترك الإيمان بالتصوير في أي: صورة ما شاء الله، وبالبعث، وعن العجلة بالقرآن تعسف؛ إذ لم يتقدم في الأولين حكاية نفي ذلك عن أحد، ولطول الفصل في الثالثة بين كَلَّا وذكر الْعَجَلة، وأيضاً فإن أول ما نزل خمس آيات من أول سورة (العلق)، ثم نزل قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦﴾ فجاءت في افتتاح الكلام، الوارد منها في التنزيل ثلاثة وثلاثون موضعاً كلها في النصف الأخير، وذلك في خمسَ عشْرَةَ سورةً منه، وكلها مكية. قال الديربي في تفسيره المنظوم: [الطويل]

وَمَا نَزَلَتْ كَلَّا بِيثْرِبَ فَاعْلَمَنْ وَلَمْ تَأْتِ فِي الْقُرْآنِ فِي نِصْفِهِ الأَعْلَى

ورأى الكسائي وأبو حاتم ومَنْ وافقهما: أن معنى الردع، والزجر ليس مستمراً فيها، فزادوا فيها معنىً ثانياً، يصح أن يوقف دونها، ويبتدأ بها، ثم اختلفوا في تعيين ذلك على ثلاثة أقوال:

أحدها: للكسائي، ومتابعيه. قالوا: تكون بمعنى حقاً. والثاني: لأبي حاتم، ومتابعيه. قالوا: تكون بمعنى «ألا» الاستفتاحية. والثالث: للنضر بن شميل، والفراء، ومن وافقهما. قالوا: تكون حرف جواب بمنزلة: إي، ونعم، وحملوا عليه قوله تعالى: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ...﴾ إلخ الآتي في هذه السورة، فقالوا: معناه: إي والقمر.

وقول أبي حاتم عندي أولى من قولهما؛ لأنه أكثر اطراداً، فإن قول النضر لا يَتأتَّى في آيتي (المؤمنون) و(الشعراء) على ما سيأتي. وقول الكسائي لا يتأتَّى في نحو قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾، وقوله جل شأنه: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾، وقوله تعالت حكمته: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ الآيات الثلاث من سورة (المطففين)؛ لأن همزة (أنَّ) تكسر بعد «ألا» الاستفتاحية، ولا تكسر بعد: «حقاً»، ولا بعد ما كان بمعناها، ولأن تفسير حرف بحرف أولى من تفسير حرف باسم. وأما قول مكي: إن ﴿كَلَّآ﴾ على رأي الكسائي اسم إذا كانت بمعنى حقاً؛ فبعيد؛ لأن اشتراك اللفظ بين الاسمية والحرفية قليل، ومخالف للأصل، ومُحْوِجٌ لتكلف دعوى علة لبنائها، وإلا؛ فلِمَ نُوِّنَتْ؟!.

وإذا صلح الموضع للردع، ولغيره؛ جاز الوقف عليها، والابتداء بها على اختلاف التقديرين. والأرجح حملها على الردع؛ لأنه الغالب فيها، وذلك نحو قوله تعالى في سورة (مريم) على نبينا، وعليها ألف صلاة، وألف سلام: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾، وقوله جل شأنه فيها أيضاً: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾.

وقد تتعين للردع، أو الاستفتاح، نحو قوله تعالى في سورة (المؤمنون): ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾؛ لأنها لو كانت بمعنى حقاً؛ لما كُسِرت همزة (إنَّ)، ولو كانت بمعنى نعم لكانت للوعد بالرجوع؛ لأنها بعد الطلب، كما يقال: أكرم فلاناً، فتقول: نعم، ونحو قوله تعالى في سورة (الشعراء): ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ وذلك لكسر (إنَّ)، ولأن نعم بعد الخبر للتصديق.

وقد يمتنع كونها للزجر، نحو قوله تعالى الآتي في هذه السورة: ﴿وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ﴾ إذ ليس قبلها ما يصح رده. وقول الطبري، وجماعة: إنه لما نزل في عدد خزنة جهنم قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال بعضهم: اكفوني اثنين، وأنا أكفيكم سبعة عشر فنزل: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾﴾ زجراً له هو قولُ مُتَعَسِّف، أو تَعَسُّفٌ؛ لأن الآية لم تتضمن ذلك. انتهى. مغني.

أقول: ويتلخص من هذا أن الأكثر في ﴿كَلَّآ﴾ أن تكون حرف ردع زجر، وذلك إذا سبقها كلام يستدعي ذلك، ولا ردع في سورة (الانفطار)، ولا في سورة (العلق)، ولا في سورة (المطففين)، وما جرى مجراهن، وإنما هي للتنبيه، والاستفتاح كما هو واضح، وتكون بمعنى: إي، أي: حرف

جواب، كما في قوله تعالى الآتي: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ﴾ ولا تكون بمعنى حقاً كما بينه ابن هشام ـ رحمه الله تعالى ـ لعدم فتح همزة (إنَّ) بعدها. ونقل الجمل عن السمين للنحويين فيها ستة مذاهب، والمعتمد ما لخصته لك من مغني اللبيب لابن هشام طيب الله ثراه، وجعل الجنة مأوانا، ومأواه.

الإعراب: ﴿كَلَّآ﴾: حرف ردع وزجر هنا. ﴿إِنَّهُۥ﴾: (إنَّ): حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمه. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه ضمير مستتر تقديره: «هو» يعود إلى (مَنْ). ﴿لِأٓيَٰتِنَا﴾: متعلقان بما بعدهما، و(نا): في محل جر بالإضافة. ﴿عَنِيدًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية مبتدأة، أو مستأنفة، لا محل لها على الاعتبارين، وفيها معنى التعليل للردع والزجر. ﴿سَأُرْهِقُهُۥ﴾: السين: حرف استقبال، وهو مفيد للتأكيد هنا، تأكيد الوعيد، والتهديد. (أرهقه): فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: «أنا»، والهاء مفعول به أول. ﴿صَعُودًا﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. هذا؛ وإن اعتبرت الكلام من قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي...﴾ إلخ، في محل نصب مقول القول لقول محذوف، التقدير: قال الله تعالى: ذرني... إلخ؛ فلست مفنداً.

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ أي: فكر في الأمر الذي يريده، ونظر فيه، وتدبره، ورتب في قلبه كلاماً، وهيأه لذلك الأمر، وهو المراد بقوله، و﴿وَقَدَّرَ﴾ أي: وقدر ذلك الكلام في قلبه، وذلك: أن الله تعالى لما أنزل على نبيه ﷺ من سورة (غافر): ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ...﴾ إلخ إلى قوله: ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾، قام النبي ﷺ في المسجد يصلي؛ والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته، فلما فطن النبي ﷺ لاستماعه؛ أعاد قراءة الآية، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بني مخزوم، فقال: والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً، ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو، وما يُعْلَى عليه، ثم انصرف إلى منزله.

فقالت قريش: صبأ والله الوليد! لتصبونّ قريش كلها! فقال أبو جهل الخبيث: أنا أكفيكموه، فانطلق حتى جلس إلى جنب الوليد حزيناً، فقال له الوليد: ما لي أراك حزيناً يا بن أخي؟! فقال: ما يمنعني أن أحزن، وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك فيها على كبر سنك، ويزعمون: أنك زينت كلام محمد، وأنك تدخل على ابن أبي كبشة، وابن أبي قحافة؛ لتنال من

فضل طعامهما! فغضب الوليد، وقال: ألم تعلم قريش أني من أكثرهم مالاً، وولداً؟ وهل شبع محمد، وأصحابه من الطعام حتى يكون لهم فضل طعام؟!.

ثم قام مع أبي جهل الخبيث حتى أتى مجلس قومه، فقال لهم: تزعمون أن محمداً مجنون؛ فهل رأيتموه يخنق قط؟ قالوا: اللهم لا! قال: تزعمون: أنه كاهن؛ فهل رأيتموه قط تكهن؟ قالوا: اللهم لا! قال: تزعمون: أنه شاعر، فهل رأيتموه ينطق بالشعر قط؟ قالوا: اللهم لا! قال: تزعمون: أنه كذاب، فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب؟! قالوا: اللهم لا! (كان الرسول ﷺ يسمى قبل النبوة الأمين لصدقه) فقالت قريش للوليد: فما هو؟ فتفكر في نفسه، ثم قال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل، وأهله، وولده، ومواليه، فهو ساحر، وما يقوله سحرٌ يؤثر. فذلك قوله عز وجل: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ﴾ أي: في أمر النبي ﷺ والقرآن، ﴿وَقَدَّرَ﴾ في نفسه ماذا يمكنه أن يقوله في شأنه ﷺ والقرآن. انتهى. خازن. ومثله في الكشاف، والقرطبي، وغيرهما، وانظر ما ذكرته بشأن الوليد في سورة (نٓ) رقم [١٠] وما بعدها. ويشبه هذا ما ذكرته بشأن عتبة بن ربيعة في صدر سورة (فصلت)، انظر رقم [١٣] منها.

﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ أي: لعن كيف قدر؟! وقال بعضهم، معناه: قهر، وغلب. وكل مذلَّلٍ مُقتَّل. قال امرؤ القيس في معلقته رقم [٣٠]: [الطويل]

وَمَا ذَرَفَتْ عَيْنَاكِ إلا لِتَضْرِبِي ... بِسَهْمَيْكِ في أَعْشَارِ قلبٍ مُقَتَّلِ

قال الزمخشري ـ رحمه الله تعالى ـ: تعجيب من تقديره، وإصابته فيه المحزَّ ورميه الغرض الذي كانت تنتحيه قريش. أو ثناء عليه على طريقة الاستهزاء به، على معنى قول القائل: قتله الله ما أشجعه! وأخزاه الله ما أشعره! للإشعار بأنه قد بلغ المبلغ، الذي هو حقيق بأن يحسد، ويدعو عليه حاسده بذلك، والجملة الثانية تأكيد للأولى.

﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾: بأي: شيء يرد الحق، ويدفعه؟ ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ أي: كلح. ﴿وَبَسَرَ﴾: قطب بين عينيه كالمتهم المتفكر في شيء يدبره. وقيل: كلح وجهه، وتقطب جبينه في وجوه المؤمنين، ومنه قوله تعالى في سورة (القيامة): ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ ومنه قول بشر بن أبي خازم: [المتقارب]

صَبَحْنَا تَمِيماً غداةَ الجِفَارِ ... بِشَهْبَاءَ مَلْمُومَةٍ بَاسِرَهْ

وقال توبة بن الحمير صاحب ليلى الأخيلية: [الطويل]

وقَدْ رَابَنِي مِنهَا صدودٌ رَأَيْتُهُ ... وإعرَاضُهَا عَنْ حَاجَتِي وبُسُورهَا

وقيل: إن ظهور العبوس في الوجه بعد المحاورة، وظهور البسور في الوجه قبل المحاورة. ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ أي: ولى، وأعرض ذاهباً إلى أهله. ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ أي: عن الإيمان حين دُعيَ إليه. ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ﴾ أي: ما هذا الذي أتى به محمد ﷺ. ﴿إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ أي: سحر يأثره، وينقله عن غيره. ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ أي: ما هذا إلا كلام المخلوقين، تنخدع به القلوب كما تنخدع بالسحر.

هذا؛ و(بشر) يطلق على الإنسان ذكراً كان، أو أنثى، مفرداً كان، أو جمعاً، مثل كلمة الفلك، تطلق على المفرد والجمع، وسمي بنو آدم بشراً لِبُدُوِّ بشرتهم، التي هي ظاهر الجلد، بخلاف أكثر المخلوقات فإنها مكسوة بالشعر، أو بالصوف، أو بالريش. هذا؛ و(بشر) يطلق على الواحد، كما في قوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ الآية رقم [١٧] من سورة (مريم). ولذا ثني في قوله تعالى: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ الآية رقم [٤٧] من سورة (المؤمنون)، كما يطلق على الجمع، كما في الآية التي بين أيدينا، وقوله تعالى في سورة (مريم) رقم [٢٦]: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾.

هذا؛ وقال الزمخشري ـ رحمه الله تعالى ـ: فإن قلت: ما معنى ﴿ثُمَّ﴾ الداخلة في تكرير الدعاء؟ قلت: الدلالة على أن الكرَّة الثانية أبلغ من الأولى، ونحوه قول حميد بن ثور الهلالي: [الطويل]

وَمَـالِـي مِـنْ ذَنْـبٍ إِلَـيْـهِـمْ عَـلِـمْـتُـهُ ... سِوَى أنني قدْ قُلْتُ يا سرحةُ اسْلَمِي

نعَمْ فاسْلمي ثم اسْلمي ثُمَّت اسلمي ... ثـلاثُ تـحـيـاتٍ وَإِنْ لَـمْ تَـكَـلَّـمِـي

فإن قلت: ما معنى المتوسطة بين الأفعال التي بعدها؟ قلت: الدلالة على أنه قد تأنَّى في التأمل وتمهل وكأن بين الأفعال المتناسقة تراخٍ وتباعد، فإن قلت: فلم قيل: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ﴾ بالفاء بعد عطف ما قبله بـ: ﴿ثُمَّ﴾؟ قلت: لأن الكلمة لما خطرت بباله بعد التطلب لم يتمالك أن نطق بها من غير تَلَبُّث. فإن قلت: فلم لم يوسط حرف العطف بين الجملتين؟ قلت: لأن الأخرى جرت من الأولى مجرى التوكيد من المؤكد. انتهى. كشاف.

هذا؛ والسحر كل ما لطف، ودق، يقال: سحره: إذا أبدى له أمراً يدق عليه، ويخفى، وقال الغزالي ـ رحمه الله تعالى ـ في الإحياء ما نصه: السحر نوع يستفاد من العلم بخواص الجواهر، وبأمور حسابية في مطالع النجوم، فيتخذ من تلك الخواص هيكل على صورة الشخص المسحور، ويترصد له وقت مخصوص من المطالع، وتقرن به كلمات يتلفظ بها من الكفر، والفحش المخالف للشرع، ويتوصل بسببها إلى الاستغاثة بالشياطين، ويحصل من مجموع ذلك بحكم إجراء الله العادة أحوال غريبة في الشخص المسحور. انتهى. هذا؛ والمعتمد: إن تعلمه لدفع الضرر عن نفسه، أو عن غيره، أو اتخذه الشخص ذريعة للاتقاء عن الاغترار بمثله؛ بقي على الإيمان، فلا كفر باعتقاد حقيقته، وجواز العمل به من غير إضرار بأحد.

الإعراب: ﴿إِنَّهُۥ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمه. ﴿فَكَّرَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى الوليد المحدث عنه، والجملة الفعلية مع المتعلق المحذوف في محل رفع خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية تعليل للوعيد، والتهديد. (قدر): فعل ماض، والفاعل تقديره: «هو»، والجملة الفعلية

معطوفة على ما قبلها. ﴿فَقُتِلَ﴾: الفاء: حرف عطف. (قتل): فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل يعود إلى الوليد أيضاً. والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿كَيۡفَ﴾: اسم استفهام مبني على الفتح في محل نصب حال من فاعل ﴿قَدَّرَ﴾ بعده. ﴿قَدَّرَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى الوليد، والجملة الفعلية فيها معنى التعليل للعنه، والتي بعدها معطوفة عليها، وهي مؤكدة لها، والجمل ﴿نَظَرَ﴾، ﴿عَبَسَ﴾، ﴿وَبَسَرَ﴾، ﴿أَدۡبَرَ﴾، ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ معطوفة على جملة: (قتل...) إلخ وهي في محل رفع مثلها. ﴿فَقَالَ﴾: الفاء: حرف عطف. (قال): فعل ماض، والفاعل يعود إلى الوليد أيضاً. ﴿إِنۡ﴾: حرف نفي بمعنى ما. ﴿هَٰذَآ﴾: الهاء: حرف تنبيه لا محل له. (ذا): اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿سِحۡرٞ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، وجملة: (قال...) إلخ معطوفة على ما قبلها. ﴿يُؤۡثَرُ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول، ونائب الفاعل يعود إلى ﴿سِحۡرٞ﴾، والجملة الفعلية صفة ﴿سِحۡرٞ﴾، وجملة: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ﴾ كالتأكيد لسابقتها، ولذلك لم تعطف عليها، وإعرابها واضح إن شاء الله تعالى، و﴿قَوۡلُ﴾ مضاف، و﴿ٱلۡبَشَرِ﴾ مضاف إليه من إضافة المصدر لفاعله.

﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾

الشرح: ﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ﴾: سأدخله سقر؛ كي يَصْلى حرها. هذا؛ وقال الجوهري: يقال: صَلَيْتُ الرجل ناراً، إذا أدخلته النَّار، وجعلته يصلاها، فإن ألقيته فيها إلقاء كأنك تريد الإحراقَ قلتَ: أصْلَيْتُهُ بالألف، وصَلَّيْتُهُ تَصْلِيَةً، ويقال أيضاً: صَلِيَ بالأمر: إذا قاسى حره وشدته، واصطليتُ بالنار، وتصَلَّيْتُ بها إذا اسْتَدْفَأْتُ بها، وفلان لا يُصْطَلَى بناره: إذا كان شجاعاً لا يُطاق. ﴿سَقَرَ﴾: واد من أودية النار، ودركة من دركاتها، وهو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث. قال ابن مالك ـ رحمه الله تعالى ـ في باب ما لا ينصرف: [الرجز]

كَذَا مُؤَنَّثٌ بِهَاءٍ مُطْلَقَا ... وشَرْطُ مَنْعِ العَارِ كَونَهُ ارْتَقَى

فَوقَ الثلاثِ أو كَجُورَ، أو سَقَرْ ... أو زَيْدٍ اسْمَ امْرأةٍ لا اسْمَ ذَكَرْ

وإنما سميت سقر من: سقرته الشمس: إذا أذابته، ولوحته، وأحرقت جلدة وجهه. وروى أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «**سألَ موسَى ربَّهُ، فقال: أيْ رَبِّ! أيُّ عبادِكَ أفقرُ؟ فقالَ: صاحِبُ سَقَر**». ذكره الثعلبي.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾: هذه مبالغة في وصفها، أي: وما أعلمك أي شيء هي؟ وهي كلمة تهويل، وتعظيم لشأنها، وأمرها. ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ﴾ أي: لا تترك لهم عظماً، ولا لحماً، ولا دماً

إلا أحرقته. وكرر اللفظ تأكيداً؛ لأن اللفظين مترادفان، وهما بمعنى واحد. وقال مجاهد ـ رحمه الله تعالى ـ: لا تبقي مَن فيها حياً، ولا تذره ميتاً، بل تحرقهم كلما جُدّدوا.

هذا؛ وقال مكي بن أبي طالب القيسي: إنما حذفت الواو من (تَذَرُ)؛ لأنه حمل على نظيره في الاستعمال، والمعنى، وهو «يَدَعُ»؛ لأنه بمعناه، ولأنهما جميعاً لم يستعمل منهما ماضٍ، فحمل «يذر» على «يدع» فحذفت فاؤه، كما حذفت في يدع، وإنما حذفت في «يدع» لوقوعها بين ياء، وكسرة، ولأن فتحة الدال عارضة، إنما انفتحت من أجل حرف الحلق، والكسر أصلها، فبني الكلام على أصله، وقدر ذلك فيه، فحذفت واو «يدع» لذلك، وحمل عليه «يذر»؛ لأنه بمعناه، ومشابه له في امتناع استعمال الماضي. انتهى. وانظر ما قيل في ماضي «يدع» في الآية رقم [٣] من سورة (الضحى).

﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ أي: مغيرة للوجوه، والأبدان. من: لاحه: إذا غيره. قال أبو رزين: تلفح النار وجوههم لفحة، تدعها أشد سواداً من الليل، والعرب تقول: لاحه البرد، والحر، والسقم، والحزن: إذا غيره، ومنه قول الشاعر: [الرجز]

تقولُ ما لاحكَ يا مُسافِرُ يا بنَةَ عمِّي لَاحني الهوَاجِرُ

وقال آخر: [الطويل]

وتعجبُ هندٌ أنْ رأتْني شاحِباً تقولُ لشيْء لوَّحته السَّمَائم

وقال لبيد ـ رضي الله عنه ـ في معلقته رقم [٢٥]: [الكامل]

أو ملمعٌ وسَقَتْ لأحقبَ لاحَهُ طَرْدُ الفحولِ وضربُهَا وَكِدَامُها

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ. ﴿لَوَّاحَةٌ﴾ أي: تلوح للبشر من مسيرة خمسمئة عام. وقال الحسن وابن كيسان: تلوح لهم جهنم حتى يروْها عياناً. قال تعالى في سورة (الشعراء): ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾، وفي سورة (النازعات): ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾، وفي سورة (التكاثر): ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾. هذا؛ وفي (البشر) وجهان: أحدهما: أنه الإنس من أهل النار، والثاني: أنه جمع بشرة، وهي جلدة الإنسان الظاهرة.

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أي: على سقر تسعة عشر ملكاً يلقون فيها أهلها. ثم قيل: هم خزنتها: مالك أحد العشرة الملائكة المقربين، وثمانية عشر ملكاً، ويحتمل أن يكون هذا العدد نقباء، وتحت أمرهم ملائكة كثيرون. وعلى الأول أكثر المفسرين، ولا ينكر هذا؛ لأنه إذا كان ملك واحد يقبض أرواح جميع الخلائق، كان أحرى أن يكون تسعة عشر ملكاً على عذاب الخلائق. وقال ابن جريج: نعت النبي ﷺ خزنة جهنم، فقال: «**فكأن أعينَهُم البرق، وكأنَّ أفواهَهُم الصياصي، يجرون أشعارهم، لأحدهم من القوة مثل قوة الثقلين، يسوق أحدهم الأمة، وعلى رقبته جبل، فيرميهم في النار، ويرمي فوقهم الجبل**». انتهى. قرطبي وكشاف.

ويروى بيد كل ملك منهم مِرْزَبَة: لها شعبتان، فيضرب الضربة، فيهوي بها في النار سبعين ألفاً. وعن عمرو بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ: كل واحد منهم يدفع بالدفعة الواحدة في جهنم أكثر من ربيعة، ومضر. وذكر ابن وهب قال: حدثنا عبد الرحمن بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ في خزنة جهنم: «**ما بينَ مَنْكِبَيْ أحدِهِمْ كمَا بينَ المشرقِ والمغربِ**».

هذا؛ وقال ابن عباس، وقتادة، والضحاك ـ رضي الله عنهم ـ: لما نزل: ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾ قال أبو جهل الخبيث لقريش: ثكلتكم أمهاتكم، أسمع ابن أبي كبشة يخبركم: أن خزنة جهنم تسعة عشر، وأنتم الدُّهم (العدد الكثير) والشجعان، أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم؟! فقال أبو الأشد بن كلدة الجمحي، وكان شديد البطش: أنا أكفيكم سبعة عشر، فاكفوني أنتم اثنين، فأنزل الله الآية التالية.

فائدة: البسملة تسعة عشر حرفاً بعدد خزنة جهنم فليكثر المسلم من ذكرها في جميع تصرفاته، فهي حرز، وحصن من خزنة جهنم إن شاء الله تعالى.

الإعراب: ﴿سَأُصۡلِيهِ﴾: السين: حرف استقبال، وهي تفيد تحقيق الوعيد، والتهديد. (أصليه): فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل مستتر تقديره: «أنا». والهاء مفعول به. ﴿سَقَرَ﴾: مفعول به ثان، أو هو ظرف مكان متعلق بما قبله، والجملة الفعلية بدل من قوله تعالى: ﴿سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ قاله الزمخشري، وتبعه البيضاوي، والنسفي. أو هي مستأنفة. ﴿وَمَآ﴾: الواو: حرف استئناف. (ما): اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿أَدۡرَىٰكَ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى (ما)، تقديره: «هو»، والكاف مفعول به أول. ﴿مَا سَقَرُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية في محل نصب سدت مسد مفعول ﴿أَدۡرَىٰكَ﴾ الثاني المعلق عن العمل لفظاً بسبب الاستفهام، وقال زاده: في محل نصب سدت مسد المفعول الثاني والثالث لـ: (أدرى) بمعنى أعلم، والجملة الفعلية ﴿أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾ في محل رفع خبر المبتدأ، الذي هو (ما)، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها.

﴿لَا﴾: نافية. ﴿تُبۡقِي﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل يعود إلى ﴿سَقَرُ﴾، والجملة الفعلية في محل نصب حال من ﴿سَقَرُ﴾، والرابط الضمير فقط، وهي حال مقدرة، وجملة: ﴿وَلَا تَذَرُ﴾ معطوفة عليها، فهي في محل نصب حال مثلها، وأجيز فيهما الاستئناف، ومفعول الفعلين محذوف، التقدير: لا تبقي ما ألقي فيها، ولا تذره. ﴿لَوَّاحَةٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هي لواحة، والجملة الاسمية في محل نصب حال أخرى، أو هي مستأنفة، لا محل لها. هذا؛ وقرئ بنصبها على الحال، وفيها ثلاثة أوجه: أحدها: أنها حال من ﴿سَقَرُ﴾ والعامل فيها معنى التعظيم، والتهويل. والثاني: أنها حال من فاعل ﴿لَا تُبۡقِي﴾. والثالث: أنها حال من فاعل (لا تذر)، واعتبرها الزمخشري وتبعه البيضاوي منصوبة

على الاختصاص للتهويل. وبه قال القرطبي. ﴿لِلْبَشَرِ﴾: متعلقان بـ: ﴿لَوَّاحَةٌ﴾. ﴿عَلَيْهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾: جزءان عدديان مبنيان على الفتح في محل رفع مبتدأ مؤخر. هذا؛ وقد حذف تمييز العدد، كما حذف تمييز العدد في الآيتين رقم [٦٥] و[٦٦] من سورة (الأنفال)، والجملة الاسمية يجوز فيها ما جاز بالجملتين الفعليتين: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾.

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾

الشرح: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾: خزنتها. ﴿إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي: لم نجعلهم رجالاً من جنسكم تقدرون على مقاومتهم كما تدعون. وقيل: جعلهم الله ملائكة؛ لأنهم خلاف جنس المعذبين من الجن، والإنس، فلا يأخذهم ما يأخذ المجانس من الرأفة، والرقة، ولا يستروِحون إليهم، ولأنهم أقوم خلق الله بحق الله، وبالغضب له، فتؤمن هوادتهم مع الكافرين، ولأنهم أشد خلق الله بأساً وأقواهم بطشاً، فقوتهم أعظم من قوة الإنس، والجن، ولذلك جعل رسول البشر من جنسهم ليكون له رأفة ورحمة بهم. وهنا يرد سؤال، وهو: أنَّه ثبت في الأخبار: أنَّ الملائكة مخلوقون من النور؛ فكيف تطيق المكث في النار؟! أجيب بأن الله تعالى قادر على كل الممكنات، فكما لا استبعاد في أنه يبقى أهل النار في مثل ذلك العذاب الشديد أبد الآباد، ولا يموتون، فكذا لا استبعاد في إبقاء الملائكة هناك من غير ألم.

﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾ أي: تسعة عشر. ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾: اختباراً، وامتحاناً للناس، ولا سيما الكفار منهم؛ لأن حال هذه العدة الناقصة واحداً من عقد العشرين أن يفتتن بها من لا يؤمن بالله، وبحكمته، ويعترض، ويستهزئ، ولا يذعن إذعان المؤمن، وإن خفي عليه وجه الحكمة. وفي البيضاوي: وما جعلنا عددهم إلا العدد الذي اقتضى فتنتهم، وهو التسعة عشر، فعبر بالأثر، وهو الفتنة عن المؤثر، وهو خصوص التسعة عشر، تنبيهاً على أنه لا ينفك عنه، وافتتانهم به، استقلالهم له، واستهزاؤهم، واستبعادهم أن يتولى هذا العدد القليل أكثر الثقلين. انتهى.

﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: ليوقن، ويتأكد الذين أُعْطُوا التوراة، والإنجيل: أن عِدة خزنة جهنم موافقة لما عندهم. ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ يعني: من آمن من أهل الكتاب يزدادون تصديقاً بمحمد ﷺ؛ لأن ذلك العدد كان موجوداً في كتابهم، وأخبر به النبي ﷺ على وفق ما عندهم من غير سابقة دراسة، وتعلم علم، إنما حصل له ذلك بالوحي السماوي، فازدادوا بذلك إيماناً، وتصديقاً بمحمد ﷺ وبرسالته.

﴿وَلَا يَرْتَابَ﴾ أي: ولا يشك. ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: في عددهم. وإنما قال: ﴿وَلَا يَرْتَابَ﴾، وإن كان الاستيقان يدل على نفي الارتياب، ليجمع لهم بين إثبات اليقين، ونفي الشك، وذلك أبلغ، وآكد؛ لأن فيه تعريضاً بحال غيرهم، كأنه قال: وليخالف حالهم حال الناس المرتابين من أهل الكفر والنفاق.

﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: المراد بمرض شك ونفاق، و﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ أهل مكة، والمرض حقيقة فيما يعرض للبدن، فيخرجه عن الاعتدال اللائق به، ويوجب الخلل في أفعاله، وقد يؤدي إلى الموت، واستعير هنا لما في قلوب المنافقين من الجهل، وفساد العقيدة.

قال الخازن ـ رحمه الله تعالى ـ: فإن قلت: لم يكن بمكة نفاق، فكيف قال: وليقول الذين في قلوبهم مرض، وهم المنافقون؛ وهذه السورة مكية؟! قلت: لأنه كان في علم الله تعالى أن النفاق سيحدث، فأخبره الله عما سيكون، وهو كسائر الإخبار بالغيوب، فعلى هذا تصير الآية معجزة للنبي ﷺ؛ لأنه إخبار عن غيب سيقع، وقد وقع على وفق الخبر. وقيل: يحتمل أن يراد بالذين في قلوبهم مرض أهل مكة؛ لأن فيهم من هو شاك، وفيهم من هو قاطع بالكذب. انتهى.

﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا﴾: يعني أي شيء أراد الله بهذا المثل العجيب، وإنما سمَّوْه مثلاً؛ لأنه استعارة من المثل المضروب؛ لأنه مما غرب من الكلام، وبدع استغراباً منهم لهذا العدد، واستبعاداً له، والمعنى: أي غرض قصد في جعل الملائكة تسعة عشر، لا عشرين، ومرادهم بذلك إنكار هذا من أصله، وإنه ليس من عند الله، فلهذا سمَّوْه مثلاً.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل إضلال منكر هذا العدد، وهدي مصدقه والمؤمن به. ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾: إضلاله، وخزيه. ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾: هدايته، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة، والبراهين الساطعة ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾. ولا تنس الالتفات من الغيبة إلى الخطاب. وانظر الالتفات في سورة (الملك) رقم [٢٠]. ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: ما يعلم عدد الملائكة وكثرتهم إلا هو جل شأنه، وتعالت حكمته، لئلا يتوهم متوهم: أنهم تسعة عشر فقط، وقد ثبت في حديث الإسراء، والمعراج في صفة البيت المعمور الذي في السماء السابعة: «**فإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك يطوفون به إذا خرجوا لم يعودوا إليه، آخر ما عليهم**». هذا معنى حديث صحيح مخرج في الصحيحين.

وروى الإمام أحمد في مسنده عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ. قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني أرَى ما لَا ترَوْنَ، وأسمعُ ما لا تسمعونَ، أطَّتِ السماءُ، وحقَّ لها أن تَئِطَّ، ما فيها موضعُ أربعِ أصابعَ إلا عليه ملكٌ ساجدٌ، لو علمتم ما أعلم؛ لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، ولا تلذذتم بالنساءِ على الفُرشاتِ، ولخرَجتم إلى الصُّعُدات تجأَرون إلَى اللهِ تعالى**». فقال أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ: والله لَوددت أني شجرةٌ تُعْضَدُ! أخرجه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن غريب.

وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما في السموات السبعِ موضِعُ قدَم، ولا شبرٍ، ولا كفٌ؛ إلا وفيه ملكٌ قائمٌ، أو ملكٌ ساجدٌ، أو ملكٌ راكعٌ، فإذا كان يوم القيامة؛ قالوا جميعاً: سبحانك! ما عبدناك حق عبادتك؛ إلا أنا لم نشرك بك شيئاً**». أخرجه الطبراني. وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: إن من السموات سماءً ما فيها موضع شبر إلا وعليه جبهة ملك، أو قدماه قائم، ثم قرأ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ سورة (الصافات).

﴿وَمَا هِيَ﴾ أي: وما هذه النار التي هي سقر ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ﴾: عظة، وتذكير. ﴿لِلْبَشَرِ﴾: للخلق أجمعين. هذا؛ وقيل: نار الدنيا تذكرة لنار الآخرة، وهذا إذا عرف ابن آدم أن نار الدنيا جزء من سبعين جزءاً من نار الآخرة، وخذ ما يلي:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**نارُكُمْ هذِهِ ما يُوقِدُ بنُو آدمَ جزءٌ واحدٌ مِنْ سبعينَ جزءاً مِنْ نارِ جَهَنَّمَ**». قالوا: والله إنْ كانَتْ لكافيةً. قال: «**إنها فُضِّلَتْ عليها بتسعةٍ وستينَ جُزْءاً، كلُّهُنَّ مِثلُ حَرِّهَا**». رواه البخاري، ومسلم، ومالك، والترمذي. وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**أُوقِدَ على النارِ ألفُ سنةٍ حتى احمرتْ، ثمَّ أوقد عليها ألْفُ سنةٍ حتى ابيضَّتْ، ثم أُوقِدَ عليها ألْفُ سنةٍ حتى اسودَّتْ، فهي سوداءُ مظلمةٌ، كالليْلِ المظلِمِ**». رواه الترمذي، وابن ماجه، والبيهقي. هذا؛ و«ألف» بالرفع نائب فاعل، وإن نصب؛ فهو ظرف، ونائب الفاعل: الجار والمجرور عليها.

بعد هذا فمصدر الفعل ﴿يُضِلُّ﴾ الإضلال، وهو خلق فعل الضلال في العبد، والهداية: خلق فعل الاهتداء في العبد. هذا هو الحقيقة عند أهل السنة، وقد يعترض بعض الناس على خلق فعل الضلال في العبد، فيقول: إذاً لا مؤاخذة على العبد، فكيف يعذبه الله؟! والجواب أن معنى خلق الضلال... إلخ. تقدير ضلاله، وهذا التقدير مبني على علم الله الأزلي بأن هذا العبد لو ترك وشأنه، لم يختر سوى الكفر والضلال، وفعل المعاصي والسيئات، ولذا قدره الله عليه، بدليل قوله تعالى في سورة (الأنعام) رقم [٢٨]: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ وهذا بعد أن تمنوا الرجوع إلى الدنيا ليكونوا مؤمنين، فأكذبهم الله بأنهم لو قُدِّر ردهم، ورجوعهم إلى الدنيا؛ لا يختارون إلا الكفر، والأعمال الفاسدة. هذا؛ وبالإضافة إلى اختيار الضلال بعد أن بين الله لكل واحد الخير والشر، والحسن والقبيح، كما قال الله عز وجل: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ أي: بينا له طريق الخير والشر، وحذر من اتباع الطرق المعوجة. قال تعالى في سورة (الأنعام) رقم [١٥٣]: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ﴾ والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

هذا؛ وقال علماء التوحيد: ليس معنى إضلال الله لفريق، وهدايته لفريق: أنه تعالى يجبر كُلّاً منهما على الضلالة، والهدى، ولا أنه تعالى يكرههم على سلوك سبيلي الخير، والشر،

كَلَّا؛ فإن هذا الإكراه منافٍ للعدل الإلهي، بل منافٍ لحكمة التشريع السماوي، ولا يتفق مع نصوص الشريعة المتواترة القاطعة، الدالة على أن العبد له إرادة، واختيار، هما مناط التكليف والمؤاخذة، وكذلك فهم الصحابة والسلف الصالح، فقد سأل رجل علياً ـ رضي الله عنه ـ فقال: أكان مسيرك إلى الشام (يعني: لقتال أهلها) بقضاء الله، وقدره؟ فقال له: ويحك! لعلك ظننت قضاءً لازماً، وقدراً حاتماً، ولو كان كذلك لبطل الثواب، والعقاب، وسقط الوعد، والوعيد، إن الله سبحانه أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، ولم ينزل الكتب للعباد عبثاً، ولا خلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾. انتهى. وعلى ضوء هذا يفهم معنى الهداية، والإضلال. انتهى. صابوني.

ولا تنسَ المقابلةَ بين ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ و﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۚ﴾.

الإعراب: ﴿وَمَا﴾: الواو: واو الحال. (ما): نافية. ﴿جَعَلْنَآ﴾: فعل، وفاعل. ﴿أَصْحَٰبَ﴾: مفعول به أول، وهو مضاف، و﴿ٱلنَّارِ﴾ مضاف إليه. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿مَلَٰٓئِكَةًۙ﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية في محل نصب حال من مضمون الجملة الاسمية السابقة، والرابط: الواو فقط، أو هي مستأنفة، لا محل لها، والجملة التي بعدها معطوفة عليها، و﴿فِتْنَةً﴾ مفعول به ثان على حذف مضاف، التقدير: إلا سبب فتنة. ﴿لِّلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: ﴿فِتْنَةً﴾، أو بمحذوف صفة له. ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق، والمتعلق محذوف، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل لها.

﴿لِيَسْتَيْقِنَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ: «أن» مضمرة بعد لام التعليل، و«أن» المضمرة، والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر باللام، والجار والمجرور متعلقان بالفعل ﴿جَعَلْنَآ﴾ الثانية. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع فاعل. ﴿أُوتُواْ﴾: فعل ماض مبني للمجهول مبني على الضم، والواو نائب فاعله، وهو المفعول الأول، والألف للتفريق. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿وَيَزْدَادَ﴾: فعل مضارع معطوف على ما قبله منصوب مثله. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: فاعله، وجملة: ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ مع المتعلق المحذوف صلة الموصول، لا محل لها. ﴿إِيمَٰنًاۙ﴾: مفعول ثان. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية. ﴿يَرْتَابَ﴾: معطوف على ما قبله منصوب أيضاً. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: فاعله، والجملة الفعلية بعده صلته لا محل لها. ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَۙ﴾: معطوف على الموصول مرفوع مثله، وعلامة رفعه الواو... إلخ.

(ليقول): فعل مضارع منصوب بـ: «أن» مضمرة بعد لام التعليل، و«أن» المضمرة، والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر باللام، والجار والمجرور معطوفان على: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ...﴾ إلخ ﴿ٱلَّذِينَ﴾: فاعل (يقول). ﴿فِى قُلُوبِهِم﴾: متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿مَّرَضٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية صلة الموصول، لا محل لها. هذا؛ وإن اعتبرت الجار والمجرور متعلقين

بمحذوف صلة الموصول؛ فـ: مرض يكون فاعلاً بمتعلقه، أي: بالصلة المحذوفة، وهي لا تكون إلا فعلاً. ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ﴾: معطوف على الاسم الموصول مرفوع مثله... إلخ.

﴿مَاذَآ﴾: اسم استفهام مركب مبني على السكون في محل نصب مفعول به مقدم. ﴿أَرَادَ ٱللَّهُ﴾: فعل، وفاعل، وإن اعتبرت (ما) اسم استفهام مفرداً مبنياً على السكون في محل رفع مبتدأ، و(ذا) اسماً موصولاً مبنياً على السكون في محل رفع خبره، فالجملة الفعلية: ﴿أَرَادَ ٱللَّهُ﴾ صلة الموصول لا محل لها، والعائد محذوف، التقدير: ما الذي أراده الله. والجملة سواء أكانت فعلية، أم اسمية في محل نصب مقول القول. ﴿بِهَٰذَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والهاء حرف تنبيه مقحم بين الجار والمجرور، لا محل له. ﴿مَثَلٗا﴾: حال، مثل قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ﴾، أو هو تمييز لاسم الإشارة.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: الكاف: حرف تشبيه وجر، و(ذا): اسم إشارة مبني على السكون في محل جر بالكاف، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف، عامله ما بعده، التقدير: يضل الله من يشاء إضلاله إضلالاً مثل إضلال الكافرين، والمنافقين. ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾: مضارع، وفاعله. ﴿مَن﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة صلة الموصول لا محل لها، والعائد محذوف، التقدير: يشاء إضلاله، وجملة: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ...﴾ إلخ مستأنفة، لا محل لها، وجملة: ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ معطوفة عليها، لا محل لها مثلها.

﴿وَمَا﴾: الواو: واو الحال. (ما): نافية. ﴿يَعۡلَمُ﴾: فعل مضارع. ﴿جُنُودَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿رَبِّكَ﴾ مضاف إليه، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿هُوَ﴾: ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع فاعل ﴿يَعۡلَمُ﴾، والجملة الفعلية في محل نصب حال من لفظ الجلالة، والرابط: الواو فقط، وإن اعتبرتها مستأنفة؛ فلا محل لها. ﴿وَمَا﴾: الواو: حرف عطف، أو حرف استئناف. (ما): نافية. ﴿هِيَ﴾: ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿ذِكۡرَىٰ﴾: خبر المبتدأ مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر. ﴿لِلۡبَشَرِ﴾: متعلقان بـ: ﴿ذِكۡرَىٰ﴾، أو بمحذوف صلة لها، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، أو هي مستأنفة.

﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾

الشرح: ﴿كَلَّا﴾ أي: لا يتعظون، ولا يتذكرون. وقيل: معناه: ليس الأمر كما يقول من زعم: أنه يكفي أصحابه خزنة جهنم. ﴿وَٱلۡقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيۡلِ...﴾ إلخ: أقسم الله تعالى بهذه الأشياء لشرف ذواتها، ولما فيها من الدلالة على عجيب صنعته، وقدرته. والمعنى: أقسم بالقمر، وبهذه

الأشياء. ومثل هذا كثير في أوائل السور، وأثنائها. قال الشعبي ـ رحمه الله تعالى ـ: الخالق يقسم بما شاء من خلقه، والمخلوق لا ينبغي أن يقسم إلا بالخالق. وقال أبو حيان ـ رحمه الله تعالى ـ: أقسم الله بهذه الأشياء تشريفاً لها، وتنبيهاً على ما ظهر فيها من عجائب الله، وقدرته، وقوام الوجود بإيجادها. وقيل: فيه مضمر، تقديره: ورب القمر، أي: المقسم به محذوف، وقد ورد التصريح به في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ رقم [٢٣] من سورة (الذاريات).

هذا؛ وفي هذه الآيات أقسام ثلاثة جوابها قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ الواو الأولى للقسم، والواوات بعدها للعطف، كما قال الخطيب، أو كل واحد منها للقسم، كما قاله السمين. أقول: والأول أقوى؛ لأن قول السمين يحوج إلى تقدير جواب لكل قسم. وقد بينت ذلك في الشاهد رقم [٨٠] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» وخذه، وهو قول أبي صخر الهذلي: [الطويل]

أَمَا وَالَّذِي أَبْكَى وأضحكَ والَّذِي ... أَمَاتَ وَأَحْيَا وَالَّذِي أَمْرُهُ أَمْرُ

لَقَدْ تَرَكَتْنِي أَحْسُدُ الْوَحْشَ أَنْ أرَى ... أَلِيفَيْنِ منها لا يَرُوعُهُمَا الذُّعْرُ

﴿وَٱلْقَمَرِ﴾: أقسم الله به لكثرة منافعه، وتنويهاً بشأنه. ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ أي: ولى ذاهباً، وقرئ: (دَبَر) وهما لغتان، يقال: دَبَر، وأدْبَر، وكذلك: قَبَل الليل، وأقْبل، وقد قالوا: أمسِ الدابرِ والمدْبِر. قال صخر بن عمرو بن الشريد السلمي أخو الخنساء ـ رضي الله عنها ـ: [الكامل]

وَلَقَدْ قتلناكُمْ ثُناءً ومَوْحداً ... وتركتُ مُرَّةَ مِثْلَ أَمْسِ الدَّابِرِ

وقيل: دبر بمعنى: أقبل. تقول العرب: دبرني فلان، أي: جاء خلفي، فالليل يأتي خلف النهار، وأقسم الله بالليل؛ لأنه وقت نزول الرحمات، ولا سيما الثلث الأخير منه، ففي الحديث الشريف: «**إذا كان الثلث الأخير من الليل؛ فإن الله ينزل فيه إلى سماء الدنيا، فيقول: هلْ من مسْتَغْفِرٍ، فأغفرَ لهُ؟ هل مِنْ مسترحمٍ، فأرحمَهُ؟ هل من مُبْتَلىً فأعافيَهُ؟ هل من كذا؟ هل من كذا؟ حتى يطلع الفجر**». أخرجه البخاري، وغيره. وهذا الحديث من المتشابهات، فالخلف يقولون: ينزل رحمته، وجوده، وكرمه، وأهل السلف يقولون: نزول لا نعلمه. وقيل: إن ابن تيمية كان يخطب على منبر دمشق، وقد قرأ الحديث، وقال: ينزل ربنا هكذا، ونزل درجات، فإن صحت الرواية عنه؛ فيكون من التجسيم.

﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾: أضاء، وقرئ: (سَفَر)، وهما لغتان، يقال: سفر وجه فلان، وأسفر: إذا أضاء. وفي حديث النبي ﷺ: «**أَسْفِرُوا بِالْفَجْرِ، فَإِنَّهُ أعظمُ لِلأَجْرِ**». أي: صلوا صلاة الفجر مسفرين. وقيل: طولوها إلى الإسفار، والإسفار: الإنارة، والإضاءة، والإشراق. وهو مصدر الفعل: «أسفر» وهو بكسر الهمزة هنا، وهو بفتح الهمزة جمع: سفر، وهو الكتاب الكبير، كما

رأيت في سورة (الجمعة) رقم [٥]. هذا؛ وسفرت المرأة عن وجهها، فهي سافر، وعلى هذا ففي إسفار استعارة؛ لأن معنى: سفر الثلاثي طرح الظلمة عن وجهه.

فائدة: إذ، وإذا حرفا توقيت، ف: «إذ» للماضي، و«إذا» للمستقبل، وقد توضع إحداهما موضع الأخرى. وقال المبرد ـ رحمه الله تعالى ـ: إذا جاء «إذ» مع المستقبل كان معناه ماضياً، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ﴾، ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ معناه: إذ مكروا، وإذا قلت. وإذا جاء (إذا) مع الماضي كان معناه مستقبلاً كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ﴾، ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾، ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ معناه: يجيء.

﴿إِنَّهَا﴾ أي: سقر المذكورة فيما تقدم. ﴿لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾: لإحدى البلايا العظام، والدواهي الشداد، والكبر جمع الكبرى، مثل: الصغر جمع الصغرى، والعظم جمع العظمى. والكبر: العظائم من العقوبات. قال الراجز: [الرجز]

يـابْنَ الْـمُـعَـلَّـى نَـزَلَـتْ إِحْـدَى الـكُـبَـرْ دَاهِـيَـةُ الـدَّهْـرِ وصَـمَّـاءُ الْـغِـيَـرْ

﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾: قيل: يحتمل أن يكون ﴿نَذِيرًا﴾ صفة لـ: «النار»، والمعنى: أن النار نذير للبشر. قال الحسن ـ رحمه الله تعالى ـ: والله ما أنذر الخلائق بشيء أدهى من النار! وقيل: يجوز أن يكون ﴿نَذِيرًا﴾ صفة لله تعالى. والمعنى: أنا لكم منها نذير فاتقوها. وقيل: هو صفة للنبي ﷺ، ومعناه: يا أيها المدثر قم نذيراً للبشر فأنذر. انتهى. خازن، وانظر الإعراب.

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ أي: يتقدم في الخير، والطاعة، أو يتأخر عنهما، فيقع في الشر، والمعصية. والمعنى: أن الإنذار قد حصل لكل واحد ممن آمن، أو كفر. وقد تمسك بهذه الآية من يرى أن العبد غير مجبور على الفعل، وأنه متمكن من فعل نفسه، فيكون مثل قوله تعالى في سورة (الكهف) رقم [٢٩]: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾. وأجيب عنه بأن مشيئته تابعة لمشيئة الله تعالى. وقيل: إضافة المشيئة إلى المخاطبين على سبيل التهديد، كقوله تعالى في سورة (فصلت) رقم [٤٠]: ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾، وقيل: هذه المشيئة لله تعالى. والمعنى: لمن شاء الله منكم أن يتقدم، أو يتأخر. وبين ﴿يَتَقَدَّمَ﴾ و﴿يَتَأَخَّرَ﴾ طباق واضح.

الإعراب: ﴿كَلَّا﴾: قيل: هي هنا حرف ردع وزجر. وقيل: هي هنا بمعنى «ألا» الاستفتاحية، وعلى الأول يوقف عليها، ويبتدأ بما بعدها، وعلى الثاني يوقف على: (البشر) ويبتدأ بها. ﴿وَٱلْقَمَرِ﴾: جار ومجرور متعلقان بفعل محذوف، تقديره: أقسم. ﴿وَٱلَّيْلِ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان مبني على السكون في محل نصب متعلق بفعل القسم المقدر. ﴿أَدْبَرَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (الليل)، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿إِذْ﴾ إليها. ﴿وَٱلصُّبْحِ﴾: الواو: حرف عطف. (الصبح): معطوف على ما قبله. ﴿إِذَآ﴾: ظرف مجرد عن الشرطية مبني على السكون في محل نصب متعلق بفعل القسم المقدر. ﴿أَسْفَرَ﴾: فعل ماض،

والفاعل يعود إلى (الصبح)، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿إِذَآ﴾ إليها. ﴿إِنَّهَا﴾: (إنَّ): حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿لَإِحْدَى﴾: اللام: هي المزحلقة. (إحدى): خبر (إنَّ) مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف، و(إحدى) مضاف، و﴿ٱلْكُبَرِ﴾ مضاف إليه، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّهَا...﴾ إلخ جواب القسم: ﴿وَٱلْقَمَرِ﴾ وما عطف عليه، وإن اعتبرت كلَّ لفظٍ قسماً مستقلاً، فالجملة الاسمية جواب للأول، وحذف جواب القسمين الآخرين لدلالة الأول عليهما.

﴿نَذِيرًا﴾: فيها أوجه: أحدها: أنه تمييز عن إحدى لما تضمنته من معنى التعظيم، كأنه قيل: أعظم الكبر إنذاراً. والثاني: أنه مصدر بمعنى الإنذار أيضاً، ولكنه نصب بفعل مقدر. قاله الفراء. الثالث: أنه فعيل بمعنى: مُفْعَل، وهو حال من الضمير في ﴿إِنَّهَا﴾. قاله الزجاج. الرابع: أنه حال من الضمير في (إحدى) لما تضمنته من معنى التعظيم، كأنه قيل: أعظم الكبر منذرة. الخامس: أنه حال من فاعل ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ في أول السورة. السادس: أنه مصدر منصوب بـ: (أنذر) أول السورة. السابع: أنه حال من ﴿ٱلْكُبَرِ﴾. الثامن: أنه حال من ضمير ﴿ٱلْكُبَرِ﴾. التاسع: هو حال من (إحدى الكبر). قاله ابن عطية. العاشر: أنه منصوب بإضمار: أعني. وقيل غير ذلك. انتهى. جمل نقلاً عن السمين. هذا؛ وذكر أبو البقاء سبعة أوجه، مما تقدم، ثم قال: وفي هذه الأقوال ما لا نرتضيه، ولكن حكيناها، والمختار أن يكون حالاً مما دلت عليه الجملة، تقديره: عظمت عليه نذيراً. انتهى. وقرئ برفعه على أنه خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هي نذير.

﴿لِمَن﴾: جار ومجرور بدل من قوله ﴿لِّلْبَشَرِ﴾ بإعادة الجار. هذا؛ وأجاز الزمخشري، وتبعه البيضاوي اعتبار الجار والمجرور خبراً مقدماً، والمصدر المؤول مبتدأ مؤخراً. وهو ضعيف معنىً، كما هو واضح. ﴿شَآءَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (مَنْ)، وهو العائد. ﴿مِنكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من فاعل ﴿شَآءَ﴾ المستتر، و(مِنْ) بيان لما أبهم في: (مَنْ). ﴿أَن يَتَقَدَّمَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ: ﴿أَن﴾، والفاعل يعود إلى (مَنْ)، والمصدر المؤول من: ﴿أَن يَتَقَدَّمَ﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿يَتَأَخَّرَ﴾: معطوف على ما قبله فهو داخل معه في المصدرية، والمفعولية وجملة: ﴿شَآءَ...﴾ إلخ صلة الموصول، لا محل لها.

﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾

الشرح: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾: مرتهنة بكسبها، مأخوذة بعملها، إما خلّصها، وإما أوبقها، وليست أي: ﴿رَهِينَةٌ﴾، تأنيث ﴿رَهِينٌ﴾ في قوله تعالى في سورة (الطور) رقم [٢١]: ﴿كُلُّ ٱمْرِيۭ۟ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ لتأنيث النفس، وإنما هو بمعنى الرهن، كالشتيمة بمعنى الشتم، كأنه قيل: كل نفس بما كسبت رهين، ومنه قول عبد الرحمن بن زيد العذري: [الطويل]

أبعدَ الَّذِي بالنَّعْفِ نَعْفِ كُوَيْكِبٍ رهينةُ رَمْسٍ ذِي ترابٍ وَجَنْدَلِ؟

ومعنى الآية: كل نفس محبوسة بعملها. ومنه قول الرسول ﷺ: «**الْغُلَامُ مُرْتَهَنٌ بِعَقِيقَتِهِ**». بمعنى: لا ينفع والديه إذا لم يعق عنه؛ أي: محبوس عن الشفاعة لوالديه عند الله بكسبها، لا تنفك حتى تؤدي ما عليها من الحقوق، والعقوبات. ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ أي: الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم، أو الذين يؤخذ بهم ذات اليمين، فإنهم غير مرتهنين بذنوبهم في النار؛ لأنهم فكوا رقاب أنفسهم بأعمالهم الحسنة، كما يفك الراهن رهنه بأداء الحق الذي عليه. وجملة القول فيهم: إنهم الذين آمنوا الإيمان الكامل، واجتنبوا الأعمال الموبقات، و حافظوا على الطاعات بقدر استطاعتهم استجابة لأمر ربهم: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ الآية رقم [١٦] من سورة (التغابن).

﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي: يسأل بعضهم بعضاً. ﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الذين استحقوا الخلود في النار. قال الجلال: وهذا التساؤل يكون بعد إخراج الموحدين من النار. والمعنى: أن أصحاب اليمين يسألون من أخرجوا من النار عن المجرمين الذين بقوا فيها مخلدين. ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾: في المخاطبين بهذا السؤال وجهان: الأول: هم من أخرجوا من النار من الموحدين. والثاني: هم الكافرون الذين استحقوا الخلود. والسؤال سؤال توبيخ وتقريع على الوجهين، فعلى الأول يسأل بعضهم بعضاً، وعلى الثاني يسألون عن غيرهم.

هذا؛ وقيل: يكون السؤال مشافهة للكافرين المخلدين حينما يراهم المؤمنون في النار. قال الكلبي: فيسأل الرجل من أهل الجنة الرجل من أهل النار باسمه، فيقول له: يا فلان! أقول: وتقول المرأة من أهل الجنة للمرأة من أهل النار: يا فلانة! ما سلكك في سقر؟ وقيل: إن المؤمنين يسألون الملائكة عن أقربائهم، فتسأل الملائكة المشركين، فيقولون لهم: ما سلككم في سقر؟ والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه. هذا؛ و﴿سَلَكَكُمْ﴾ أدخلكم، وقوله تعالى في سورة (الشعراء) رقم [٢٠٠]: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: أدخلناه. أما قوله تعالى في سورة (نوح) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ فهو بمعنى: لتتخذوا. هذا؛ والسلك: إدخال الشيء، في الشيء كالخيط في المخيط، والرمح في المطعون.

الإعراب: ﴿كُلُّ﴾: مبتدأ، وهو مضاف، و﴿نَفْسٍ﴾ مضاف إليه. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: ﴿رَهِينَةٌ﴾ بعدهما، و(ما): تحتمل الموصولة، والموصوفة. فعلى الأولين مبنية على السكون في محل جر بالباء، والجملة الفعلية بعدها صلتها، أو صفتها، والرابط، أو العائد محذوف، التقدير: بالذي، أو بشيء كسبته، وعلى اعتبارها مصدرية تؤول بما بعدها بمصدر في محل جر بالباء، التقدير: بكسبها. ﴿رَهِينَةٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿أَصْحَابَ﴾: مستثنىً بـ: ﴿إِلَّا﴾، و﴿أَصْحَابَ﴾ مضاف، و﴿الْيَمِينِ﴾ مضاف إليه. ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾: متعلقان بمحذوف حال من ﴿أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾، أو من واو الجماعة في ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾

قاله أبو البقاء، وقال الجمل نقلاً عن السمين: متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هم في جنات، والجملة الاسمية هذه مستأنفة؛ لأنها بمنزلة جواب سؤال نشأ من الاستثناء، كأنه قيل: فما شأنهم، وحالهم؟ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر ثان للمبتدأ الذي رأيت تقديره، أو هي مستأنفة، لا محل لها. هذا؛ وأجاز السمين تعليق الجار والمجرور ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ بالفعل ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾. ﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محل نصب مفعوله، وهناك مضاف محذوف، التقدير: عن حال المجرمين.

﴿مَا﴾: اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿سَلَكَكُمْ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿مَا﴾، والكاف مفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول لقول محذوف، التقدير: يقولون: ما سلككم، وهذه الجملة مفسرة لـ: ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾. ﴿فِي سَقَرَ﴾: متعلقان بما قبلهما، وعلامة الجر الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية، والتأنيث. انظر قول ابن مالك فيما تقدم.

﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾

الشرح: ﴿قَالُوا۟﴾ أي: المجرمون الذين أسلكوا في سقر. ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ أي: لم نؤد الصلاة، ولم نعتقد بفرضيتها. وانظر ما أذكره في سورة (الماعون) إن شاء الله تعالى. ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ أي: لم نكن نتصدق، ونحسن إلى الفقراء، والمساكين. قال ابن كثير: مرادهم في الآيتين: ما عبدنا ربنا، ولا أحسنا إلى خلقه من جنسنا. ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ أي: وكنا نتحدث بالباطل مع أهل الغواية، والضلالة، ونقع معهم فيما لا ينبغي من الأباطيل. والخوض: هو كثرة الكلام بما لا ينبغي من الباطل، وشبهه. هذا؛ والخوض الدخول في الشيء كالماء، ونحوه، وقد استعير هنا للحديث بالباطل، والبهتان، والافتراء. وخذ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ الآية رقم [٦٨] من سورة (الأنعام)، وانظر سورة (المعارج) رقم [٤٢].

﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: نكذب بيوم القيامة، وبالجزاء، والمعاد. وإنما أخره لتعظيمه، والتنويه بشأنه؛ لأنه أعظم جرائمهم، وأفحشها. وهذا تخصيص بعد تعميم؛ لأن الخوض في الباطل عام شامل لتكذيب يوم الدين، وغيره، أي: وكنا بعد ذلك كله مكذبين بيوم القيامة.

﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ أي: حتى جاءنا الموت، ومقدماته، ونحن في تلك المنكرات، والضلالات، فإنه متيقن لحاقه كل حي مخلوق. وكان عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ يقول:

مَا رَأَيْتُ يَقِيناً أَشْبَهَ بِالشَّكِّ مِنْ يَقِينِ الناسِ بالموْتِ، ثُمَّ لَا يَسْتَعِدُّونَ لَهُ. هذا؛ وقال تعالى في الآية رقم [٩٩] من سورة (الحجر): ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ انظرها هناك ففيها بحث قيم.

هذا؛ و﴿نَكُ﴾ أصله: (نكونُ) فلما دخل الجازم، صار لَمْ نكونْ، فحذفت الواو لالتقاء الساكنين، فصار (لَمْ نَكُنْ) ثم حذفت النون للتخفيف، ولكثرة الاستعمال. وهذا الحذف جائز، وغير لازم، وله شروط أن يكون مضارعاً ناقصاً من (كان)، وأن يكون مجزوماً بالسكون، وأن لا يكون بعده ساكن، ولا يتصل به ضمير متحرك، كما في الآية الكريمة، وغيرها كثير فقد ذكر هذا اللفظ باختلاف أحرف المضارعة في ثمانية وعشرين موضعاً، وهو وارد في الكلام العربي شعراً، ونثراً، ولا تحذف النون عند فقد أحد الشروط إلا في ضرورة الشعر، كما في قول الشاعر، وهو الشاهد رقم [٢٤٤] من كتابنا: «فتح رب البرية»: [الطويل]

إِذَا لَمْ تَكُ الْحَاجَاتُ مِنْ هِمَّةِ الْفَتَى فَلَيْسَ بِمُغْنٍ عنكَ عَقْدُ الرَّتَائِمِ

وقول الخنجر بن صخر الأسدي، وهو الشاهد رقم [٢٤٣] من كتابنا المذكور: [الطويل]

فإنْ لَمْ تكُ المِرْآةُ أبدتْ وِسَامَةً فَقَدْ أَبْدَتِ المرآةُ جَبْهَةَ ضَيْغَمِ

هذا؛ وقرئ شاذاً قوله تعالى في أول سورة (البينة): (لم يك الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين...) إلخ، ولم تحذف النون في قول أبي الأسود الدؤلي لجريانه على القاعدة: [الطويل]

دَعِ الخمرَ تشربْهَا الْغُوَاةُ فَإِنَّنِي رَأَيْتُ أخَاهَا مُجْزِئاً بِمَكَانِهَا

فَإِلَّا يَكُنْهَا أوْ تَكُنْهُ فإنَّهُ أخُوهَا غَذَتْهُ أُمُّهُ بِلِبَانِهَا

وأخيراً خذ قول ابن مالك ـ رحمه الله تعالى ـ في ألفيته: [الرجز]

ومِنْ مُضَارِعٍ لِكَانَ مُنْجَزِمْ تُحْذَفُ نُونٌ وهْوَ حذْفٌ مَا الْتُزِمْ

الإعراب: ﴿قَالُواْ﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿لَمۡ﴾: حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿نَكُ﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ: ﴿لَمۡ﴾ وعلامة جزمه السكون على النون المحذوفة للتخفيف، واسمه مستتر فيه وجوباً، تقديره: «نحن». ﴿مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ﴾: جار مجرور متعلقان بمحذوف خبر ﴿نَكُ﴾، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالُواْ...﴾ إلخ مستأنفة، لا محل لها وهي في المعنى جواب الاستفهام. ﴿وَلَمۡ نَكُ﴾: مثل سابقه. ﴿نُطۡعِمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله مستتر تقديره: «نحن». ﴿ٱلۡمِسۡكِينَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل نصب خبر: ﴿نَكُ﴾، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿وَكُنَّا﴾: الواو: حرف عطف. (كنا): فعل ماض ناقص مبني على السكون، و(نا): اسمه. ﴿نَخُوضُ﴾: فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: «نحن»، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول أيضاً.

﴿مَعَ﴾: ظرف مكان متعلق بالفعل قبله، وهو مضاف، و﴿ٱلۡخَآئِضِينَ﴾ مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض من التنوين في الاسم المفرد. ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ﴾: مثل ما قبله في إعرابه، وفي محله. ﴿بِيَوۡمِ﴾: متعلقان بما قبلهما، و(يوم) مضاف، و﴿ٱلدِّينِ﴾: مضاف إليه. ﴿حَتَّىٰٓ﴾: حرف غاية وجر بعدها: «أن» مضمرة. ﴿أَتَىٰنَا﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف في محل نصب بأن المضمرة، و(نا): مفعول به. ﴿ٱلۡيَقِينُ﴾: فاعله، و«أن» المضمرة والفعل (أتى) في تأويل مصدر في محل جر بـ: ﴿حَتَّىٰٓ﴾، والجار والمجرور متعلقان بالفعل ﴿نُكَذِّبُ﴾.

﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ﴿٥٠﴾ فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ ﴿٥١﴾﴾

الشرح: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ...﴾ إلخ: قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: هذا دليل على صحة الشفاعة للمذنبين، وذلك أن قوماً من أهل التوحيد عُذِّبوا بذنوبهم، ثم شُفع فيهم، فرحمهم الله بتوحيدهم، والشفاعة، فأخرجوا من النار، وليس للكفار شفيع يشفع فيهم. فهي نفي للشفاعة فيهم من أصلها، ومثله في سورة (غافر) رقم [١٨]: ﴿وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾. هذا؛ وقال عبد الله بن مسعود: يشفع نبيكم ﷺ رابع أربعة: جبريل، ثم إبراهيم، ثم موسى، أو عيسى، ثم نبيكم ﷺ، ثم الملائكة، ثم النبيون، ثم الصديقون، ثم الشهداء، ويبقى قوم في جهنم، فيقال لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ...﴾ إلخ قال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: فهؤلاء هم الذين يبقون في جهنم. وقال عمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ: الشفاعة نافعة لكل أحد دون هؤلاء الذين تسمعون.

هذا؛ والشفاعة في الأصل التوسل، وابتغاء الخير، والذي يكون منه التوسل يسمى الشفيع. والشفاعة في الآخرة لا تكون إلا حسنة؛ لأنها لطلب الخير الخالص، وأما في الدنيا فتكون حسنة، وأكثرها سيئة، فالشفاعة الحسنة هي التي روعي فيها حق مسلم، ودفع بها عنه شر، أو جلب إليه خير، وابتغي بها وجه الله، ولم تؤخذ عليها رشوة، وكانت في أمر جائز، لا في حد من حدود الله، ولا في حق من حقوق الناس، والسيئة ما كانت بخلاف ذلك. والدستور في ذلك قوله تعالى في سورة (النساء) رقم [٨٥]: ﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ﴾. هذا؛ وقيل: الشفاعة الحسنة هي الدعوة للمسلم؛ لأنها في معنى الشفاعة إلى الله. فعن النبي ﷺ قوله: «**مَنْ دَعَا لأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ؛ اسْتُجِيبَ لَهُ، وقال لَهُ الملَكُ: ولَكَ مِثْلُ ذَلِكَ**». فذلك النصيب.

﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ﴾ أي: فما لهؤلاء المشركين معرضين عن القرآن، وآياته، وما فيه من المواعظ البليغة، والنصائح القيمة، والإرشادات العظيمة؟! قال مقاتل ـ رحمه الله تعالى ـ:

الإعراض عن القرآن من وجهين: أحدهما: الجحود، والإنكار، والوجه الآخر: ترك العمل بما فيه. أقول: والأول يشمل الكافرين. والثاني يشمل المسلمين المستهترين بلا ريب، ولا شك.

﴿كَأَنَّهُمْ﴾ أي: كأن هؤلاء الكفار في فرارهم من محمد ﷺ. ﴿حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أراد الحمر الوحشية. أي: نافرة، وقرئ بفتح الفاء بمعنى: مُنَفَّرة مذعورة، يقال: نفرت، واستنفرت، بمعنى واحد. ﴿فَرَّتْ﴾: نفرت، وهربت. ﴿مِن قَسْوَرَةٍ﴾ أي: أسد، شبههم الله تعالى بالحمر النافرة مذمةً لهم، وتهجيناً، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الحمر الوحشية إذا عاينت الأسد؛ هربت، كذلك هؤلاء المشركون إذا رأوا محمداً ﷺ هربوا منه كما يهرب الحمار من الأسد، ثم قال: والقسورة: الأسد. وفي كتاب الحيوان للدميري للأسد أكثر من مئة اسم. هذا؛ وقال بعض أهل اللغة: إن القسور: الرامي، وجمعه: القسورة. وكذا قال سعيد بن جبير، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وابن كيسان: القسورة هم الرماة والصيادون، ورواه عطاء عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، وأبو ظبيان عن أبي موسى الأشعري. وروى أبو جمرة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: ما أعلم القسورة الأسد في لغة أحد من العرب، ولكنها عُصَب الرجال. قال: فالقسورة جمع: الرجال، وأنشد: [الرجز]

يا بنتُ كوني خيرةً لِخَيِّرهْ ... أخوالُها الجِنُّ وأهلُ الْقَسْوَرَهْ

وقال زيد بن أسلم: ﴿مِن قَسْوَرَةٍ﴾: من رجال أقوياء، وكل شديد عند العرب فهو: قسورة، وقَسْور، وقال لبيد بن ربيعة ـ رضي الله عنه ـ: [الطويل]

إذَا ما هَتَفْنَا هتْفةً في نَديِّنَا ... أتَانَا الرِّجالُ العائدونَ الْقَساوِرُ

و(حُمر) جمع: حمار، وهو معروف، يكون وحشياً، ويكون أهلياً، وأنثاه: أتان، ويقال: حمارة أيضاً، ويجمع على: حمير، وحمُر، وحمور، وحمرات. وكلها للكثرة، ويجمع جمع قلة على: أحمرة. قال الراعي النميري، أو القتال الكلابي، وهو الشاهد رقم [٣٢] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [البسيط]

هُنَّ الحرائِرُ لا ربَّاتُ أحْمِرَةٍ ... سُودُ المحاجِرِ لا يَقْرَأْنَ بالسُّوَرِ

والحمار الأهلي يوصف بالهداية إلى سلوك الطرقات؛ التي مشى فيها؛ ولو مرة واحدة، وبحدة السمع، وللناس في مدحه، وذمه أقوال متباينة بحسب الأغراض، وقد أطال الدميري الكلام عليه في كتابه: «حياة الحيوان». هذا؛ والالتفات من التكلم في الآيات السابقة إلى الغيبة في هذه الآيات ظاهر لا خفاء فيه. انظر الالتفات في الآية رقم [٢٠] من سورة (الملك)، ولا تنس التشبيه التمثيلي بقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ...﴾ إلخ.

الإعراب: ﴿فَمَا﴾: الفاء: حرف تفريع، واستئناف. (ما): نافية. ﴿تَنفَعُهُمْ﴾: فعل مضارع، والهاء مفعول به. ﴿شَفَٰعَةُ﴾: فاعله، وهو مضاف، و﴿ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ مضاف إليه، والجملة الفعلية

مستأنفة، لا محل لها. ﴿فَمَا﴾: الفاء: حرف استئناف. (ما): اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها. ﴿عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ﴾: متعلقان بما بعدهما. ﴿مُعْرِضِينَ﴾: حال من الضمير المجرور باللام منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض من التنوين في الاسم المفرد. ﴿كَأَنَّهُمْ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿حُمُرٌ﴾: خبرها. ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾: صفة ﴿حُمُرٌ﴾، والجملة الاسمية: ﴿كَأَنَّهُمْ...﴾ إلخ في محل نصب حال ثانية من الضمير المجرور باللام، أو من الضمير المستتر في ﴿مُعْرِضِينَ﴾، فهي حال متداخلة، وأجاز أبو البقاء اعتبارها بدلاً من ﴿مُعْرِضِينَ﴾. ﴿فَرَّتْ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث، والفاعل يعود إلى ﴿حُمُرٌ﴾، والجملة الفعلية في محل رفع صفة ﴿حُمُرٌ﴾ ثانية، أو في محل نصب حال منها بعد وصفها بما تقدم و«قد» قبلها مقدرة. ﴿مِن قَسْوَرَةٍ﴾: متعلقان بما قبلهما.

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾﴾

الشرح: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ...﴾ إلخ: إضراب انتقالي عن محذوف هو جواب الاستفهام السابق، كأنه قيل: فلا جواب لهم عن هذا السؤال، أي: لا سبب لهم في الإعراض، بل يريد. . .إلخ جمل. وفي الخطيب: وذلك: أن أبا جهل، وجماعة من قريش. قالوا: يا محمد! لن نؤمن بك حتى تأتي كل واحد منا بكتاب من السماء، عنوانه: من رب العالمين إلى فلان بن فلان، ونؤمر فيه باتباعك. ونظيره ما حكاه الله من قولهم في سورة (الإسراء) رقم [٩٣]: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كانوا يقولون: إن كان محمد صادقاً؛ فليصبح عند كل رجل منا صحيفة فيها براءته، وأمنه من النار. وقال الكلبي: إن المشركين قالوا: يا محمد! بلغنا: أن الرجل من بني إسرائيل كان يصبح مكتوباً عند رأسه ذنبه وكفارته، فائتنا بمثل ذلك. والمراد من الآية بيان تفننهم، وإمعانهم في الضلالة.

﴿كَلَّا﴾ أي: لا يكون ذلك؛ لأن إنزال الصحف، والكتب من السماء خاص بالأنبياء، والمرسلين. ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ أي: لا يخافون عذاب الآخرة، ولو خافوا عذاب النار؛ لما اقترحوا هذه الآيات بعد قيام الأدلة؛ لأنه لما حصلت المعجزات الكثيرة، وشاهدوها بأعينهم؛ كفت في الدلالة على صحة النبوة، فطلب الزيادة يكون من باب التعنت. وانظر شرح ﴿ٱمْرِئٍ﴾ في الآية رقم [٣٤] من سورة (عبس).

الإعراب: ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب انتقالي. ﴿يُرِيدُ﴾: فعل مضارع. ﴿كُلُّ﴾: فاعله، وهو مضاف، و﴿ٱمْرِئٍ﴾ مضاف إليه. ﴿مِّنْهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة ﴿ٱمْرِئٍ﴾. ﴿أَن يُؤْتَىٰ﴾: فعل

مضارع مبني للمجهول منصوب بـ: «أن»، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذر، ونائب الفاعل يعود إلى ﴿ٱمۡرِيٕ﴾، تقديره: «هو»، وهو المفعول الأول. ﴿صُحُفًا﴾: مفعول به ثان. ﴿مُّنَشَّرَةً﴾: صفة ﴿صُحُفًا﴾. و﴿أَن يُؤۡتَىٰ﴾ في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به، وجملة: ﴿بَلۡ يُرِيدُ...﴾ إلخ مستأنفة، لا محل لها. ﴿كَلَّا﴾: حرف ردع وزجر. ﴿بَل﴾: حرف إضراب انتقالي مثل سابقه. ﴿لَّا﴾: نافية. ﴿يَخَافُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع... إلخ، والواو فاعله، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿ٱلۡأٓخِرَةَ﴾: مفعول به، وهو على حذف مضاف، التقدير: عذاب الآخرة.

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾

الشرح: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن. ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾: عظة بالغة. هذا؛ وأنث في سورة (عبس) في قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾ لتأنيث الخبر. ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي: فمن شاء أن يذكره، ولا ينساه، ويجعله نصب عينيه؛ فليفعل، فإن فائدة ذلك راجعة إليه. وقال الزمخشري: والضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ و﴿ذَكَرَهُۥ﴾ للتذكرة في قوله: ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ﴾ وإنما ذكر؛ لأنها في معنى الذكر، أو القرآن.

﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: إلا أن يشاء الله لهم الهدى، فيتذكروا، ويتعظوا، فهو كقوله تعالى في سورة (الدهر) رقم [٣٠]: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ وهو تصريح بأن فعل العبد بمشيئة الله. وقال الزمخشري ميلاً إلى اعتزاله: يعني إلا أن يقسرهم على الذكر، ويلجئهم إليه؛ لأنه مطبوع على قلوبهم معلوم: أنهم لا يؤمنون اختياراً. قال ابن كثير: وفيه تسلية للنبي ﷺ، وترويح عن قلبه الشريف مما كان يخامره من إعراضهم عنه، وتكذيبهم له.

﴿هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ أي: هو جل وعلا أهل لأن يتقى لشدة عقابه، وأهل؛ لأن يغفر الذنوب لكرمه، وسعة رحمته. قال الآلوسي: أي: حقيق بأن يتقى عذابه ويطاع، وحقيق بأن يغفر لمن آمن به، وأطاعه. انتهى. صفوة التفاسير.

هذا؛ وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ: أنه قال في هذه الآية، «**يقول الله تعالى: أَنَا أَهْلٌ أَنْ أُتَّقَى، فَمَنِ اتَّقَانِي، فَلَمْ يَجْعَلْ مَعِي إِلهاً؛ فأنا أَهْلٌ أَنْ أَغْفِرَ لَهُ**». أخرجه أحمد، والترمذي، والحاكم، وابن ماجه. هذا؛ وقال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: وفي بعض التفاسير: هو أهل المغفرة لمن تاب إليه من الذنوب الكبار، وأهل المغفرة أيضاً للذنوب الصغار باجتناب الذنوب الكبار.

هذا؛ وأهل في هذه الآية بمعنى: مستوجب، ومستحق، ومالك، وصاحب، وفي الدعاء: اللهم عاملنا بما أنت له أهل، ولا تعاملنا بما نحن له أهل. وهو يصلح للواحد، والجمع،

والتذكير، والتأنيث، ومستأهل لكذا بمعنى ما تقدم، واستأهله: استوجبه لغة جيدة، وإنكار الجوهري باطل. انتهى. قاموس بتصرف كبير مني. و(أهل) اسم جمع لا واحد له من لفظه، مثل: معشر، ورهط. والأهل: العشيرة، وذو القربى. ويطلق على الزوجة، وعلى الأتباع، وأهل بيت النبي ﷺ: أزواجه، وبناته، وصهره علي ـ رضي الله عنه ـ والرجال من نسله، والجمع: أهلون، وأهال، وآهال، وأهْلات، وأهَلات. وبالأولين قرئ قوله تعالى في سورة (التحريم) رقم [٦]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾.

الإعراب: ﴿كَلَّآ﴾: تكرير لما قبلها، وتوكيد لها. وقيل: هي هنا بمعنى «ألا» الاستفتاحية. ﴿إِنَّهُۥ﴾: (إنَّ): حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾: خبرها، والجملة الاسمية مبتدأة، أو مستأنفة، لا محل لها. ﴿فَمَن﴾: الفاء: حرف عطف، وتفريع. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿شَآءَ﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ)، تقديره: «هو»، ومفعوله محذوف، انظر تقديره في الشرح. ﴿ذَكَرَهُۥ﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم جواب الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ) أيضاً، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جملة جواب الشرط، ولم تقترن بالفاء، ولا بـ: «إذا» الفجائية، وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلف فيه، كما رأيت في الآية رقم [١٤] من سورة (الجن). هذا؛ وإن اعتبرت (مَنْ) اسماً موصولاً؛ فهي مبتدأ، وجملة ﴿شَآءَ﴾ صلتها، وجملة ﴿ذَكَرَهُۥ﴾ في محل رفع خبرها، والجملة الاسمية على الاعتبارين معطوفة على ما قبلها.

﴿وَمَا﴾: الواو: حرف استئناف. (ما): نافية. ﴿يَذۡكُرُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع...إلخ، والواو فاعله، ومفعوله محذوف، وعلى اعتباره بمعنى: يتعظون فهو لازم لا مفعول له، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿إِلَّآ﴾: حرف استثناء. ﴿أَن يَشَآءَ﴾: مضارع منصوب بـ: ﴿أَن﴾ ومفعوله محذوف. ﴿ٱللَّهُۚ﴾: فاعله، والمصدر المؤول من: ﴿أَن يَشَآءَ﴾ في محل نصب على الاستثناء، قدره أبو البقاء: إلا وقت مشيئة الله عز وجل. وقال مكي: أو في موضع خفض على إضمار الخافض؛ أي: إلا بمشيئة الله تعالى، وعليه فالجار والمجرور متعلقان بمحذوف في محل نصب مستثنىً من عموم الأحوال. ﴿هُوَ﴾: ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿أَهۡلُ﴾: خبره، وهو مضاف، و﴿ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ مضاف إليه مجرور، وعلامة جره كسرة مقدرة على الألف للتعذر، والجملة الاسمية مفيدة للتعليل لا محل لها، والتي بعدها معطوفة عليها.

انتهت سورة (المدثر) شرحاً، وإعراباً، بحمد الله، وتوفيقه.

والحمد لله رب العالمين.

سورة القيامة

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة (القيامة) مكية، وهي أربعون آية، ومئة وتسع وتسعون كلمةً، وستمئة واثنان وخمسون حرفاً.

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢﴾

الشرح: ﴿لَآ أُقۡسِمُ...﴾ إلخ: اختلف في ﴿لَآ﴾ على أوجه: أحدها: قيل: إنها صلة، أي: زائدة، وجاز وقوعها في أول السورة؛ لأن القرآن متصل بعضه ببعض، فهو في حكم كلام واحد، ولهذا قد يذكر الشيء في سورة، ويجيء جوابه في سورة أخرى، كقوله تعالى في سورة (الحجر) رقم [٦]: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾، وجوابه: قوله تعالى في سورة (القلم): ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ ومعنى الكلام: أقسم بيوم القيامة. قاله ابن عباس، وابن جبير، وأبو عبيدة ـ رضي الله عنهم ـ. ومثله قول الشاعر: [الطويل]

تَذَكَّرْتُ لَيْلَى فاعْتَرَتْنِي صَبَابَةٌ فكادَ صَمِيمُ القَلْبِ لا يَتَقَطَّعُ

أراد: فكان صميم القلب يتقطع. وحكى أبو الليث السمرقندي: أجمع المفسرون: أن المعنى: أقسم، وقال الخازن: وفيه ضعف؛ لأن القرآن في حكم السورة الواحدة في عدم التناقض، لا أن تقرن سورة بما بعدها، فذلك غير جائز. انتهى. وهو الحق الذي لا محيص عنه. وقال بعضهم: ﴿لَآ﴾ رد لكلامهم؛ حيث أنكروا الحشر، والنشر. فقال: ليس الأمر كما تزعمون، وهذا قول الفراء، فقد قال: وكثير من النحويين يقولون (لا) صلة، ولا يجوز أن يُبدأ بجحد (نفي) ثم يُجعل صلة؛ لأن هذا لو كان كذلك؛ لم يعرف خبر فيه جحد من خبر لا جحد فيه (لا نفي فيه) ولكن القرآن جاء بالرد على الذين أنكروا البعث، والجنة، والنار، فجاء الإقسام بالرد عليهم، وإدخال (لا) النافية على فعل القسم مستفيض في كلام العرب، وأشعارهم. قال امرؤ القيس ـ وهو الشاهد رقم [٤٥٦] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [المتقارب]

فَلَا وأبِيكِ ابْنَةَ العَامِرِيِّ لَا يَدَّعِي القَوْمُ أَنِّي أَفِرْ

وأيضاً قول المتنخل الهذلي ـ وهو الشاهد رقم [١٠٨٦] من كتابنا المذكور ـ: [الوافر]

فَـلَا وَاللهِ نَـادَى الـحَـيُّ قَـوْمِـي هُـدُوّاً بِـالْـمَـسَـاءَةِ وَالـعِـلَاطِ

قالوا: وفائدتها: تأكيد القسم في الرد كقولك: لا والله ما ذاك! تريد والله! فيجوز حذفها، لكنه أبلغ في الرد مع إثباتها. هذا؛ وقيل: اللام لام الابتداء، فأشبعت بالمد. فتولدت الألف، ويؤيده قراءة ابن كثير: (لأُقْسِم) بغير ألف المد، ويعبر عن قراءة ابن كثير بالقصر، وعلى هذه القراءة فاللام لام الابتداء، وجملة: (أقسم بيوم القيامة) في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: لأنا أقسم بيوم القيامة، ولو أريد به الاستقبال؛ للزمت النون، وقد جاء حذف النون مع الفعل الذي يراد به الاستقبال، وهو شاذ، وعن قراءة الباقين بالمد، ولا خلاف في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ في المد؛ لأنه يختل المعنى بالقصر. وانظر ما ذكرته عن ابن هشام في الآية رقم [٧٥] من سورة (الواقعة)، وفي سورة (الحاقة) رقم [٣٨].

هذا؛ و﴿أُقۡسِمُ﴾ في هذه الآية وغيرها بمعنى: أحلف، وأصله من: القسامة، وهي الأيمان تقسم على الأولياء في دم القتيل الملوث به شخص، وسمي الحلف قسماً؛ لأنه يكون عند انقسام الناس إلى مصدق، ومكذب. وماضيه رباعي، فهمزته تثبت في الماضي، والأمر، وهي همزة قطع، وتحذف في المضارع مع ضم حرف المضارعة، كما رأيته في الآية رقم [٥٥] من سورة (الروم) والحمد لله. هذا؛ وأما قسم الثلاثي، فإنه بمعنى: جزأ، وفرق. قال تعالى في سورة (الزخرف) رقم [٣٢]: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ ومضارعه بفتح حرف المضارعة، وهمزته في الأمر همزة وصل، وهو متعدٍّ إذا كان ثلاثياً من القسمة كما في آية (الزخرف)، ولازم إذا كان رباعياً بمعنى الحلف كما في هذه السورة، وغيرها، لكنه يتعدى بحرف الجر.

وأخيراً: فالقسم بيوم القيامة، وأشباهه برب هذه الأشياء على الحقيقة، فكأنه قال: برب القيامة... إلخ. وقيل: لله تعالى أن يقسم بما شاء من خلقه، ووجه المناسبة بالجمع بين (يوم القيامة) و(النفس اللوامة) بالقسم أن في يوم القيامة تظهر أحوال النفوس اللوامة من الشقاوة، أو السعادة، فلهذا حسن الجمع بينهما في القسم. وقيل: إنما وقع القسم بالنفس اللوامة، على معنى التعظيم لها، من حيث أنها أبداً تستحق فعلها، واجتهادها في طاعة الله تعالى. وقيل: إنه أقسم بيوم القيامة، ولم يقسم بالنفس اللوامة، فكأنه قال: أقسم بيوم القيامة تعظيماً لها، ولا أقسم بالنفس اللوامة تحقيراً لها؛ لأن النفس الكافرة، أو الفاجرة، لا يقسم بها. انتهى. خازن بتصرف.

أما يوم القيامة؛ فهو اليوم الذي يقوم فيه الناس من قبورهم للحساب، والجزاء، وأصل القيامة: القِوامة؛ لأنها من: قام يقوم، قلبت الواو ياءً لمناسبة الكسرة. هذا؛ وروى البغوي في تفسير القيامة عن المغيرة بن شعبة. قال: يقولون: القيامة، وقيامة أحدهم موته، وشهد علقمة جنازة، فلما دفنت؛ قال: أما هذا فقد قامت قيامته. وفيه ضعف لاتفاق المفسرين على أن المراد

به: القيامة الكبرى لسياق الآيات في ذلك. انتهى. خازن. وأقول: القيامة: كبرى، وصغرى، فالكبرى: هي خروج الناس من قبورهم للحساب، والجزاء، والصغرى: هي موت كل إنسان.

هذا؛ وأما النفس؛ فإنها تجمع في القلة: أنفس، وفي الكثرة: نفوس، والنفس: تؤنث باعتبار الروح، وتذكر باعتبار الشخص؛ أي: فإنها تطلق على الذات أيضاً، سواء أكان ذكراً أم أنثى؟ فعلى الأول قيل: جسم لطيف مشتبك بالجسم اشتباك الماء بالعود الأخضر الرطب، فتكون سارية في جميع البدن.

قال الجنيد ـ رحمه الله تعالى ـ: الروح شيء استأثر الله بعلمه، ولم يطلع عليه أحداً من خلقه، فلا يجوز البحث عنه بأكثر من أنه موجود. قال تعالى في سورة (الإسراء): ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وقال بعضهم: إن هناك لطيفة ربانية لا يعلمها إلا الله تعالى، فمن حيث تفكرها تسمى: عقلاً، ومن حيث حياة الجسد بها تسمى: روحاً، ومن حيث شهوتها تسمى: نفساً، فالثلاثة متحدة بالذات، مختلفة بالاعتبار. وهذا ما تدل عليه الآثار الصحاح.

هذا؛ وقد ذكر القرآن الكريم: أن النفس خمس مراتب: الأمارة بالسوء، واللوامة، والمطمئنة، والراضية، والمرضية، ويزاد: الملهمة، والكاملة. فالأمارة بالسوء هي التي تأمر صاحبها بالسوء، ولا تأمر بالخير إلا نادراً، وهي مقهورة، ومحكومة للشهوات، وإن سكنت لأداء الواجبات الإلهية، وأذعنت لاتباع الحق، لكن بقي فيها ميل للشهوات؛ سميت: لوامة. وإن زال هذا الميل، وقويت على معارضة الشهوات، وزاد ميلها إلى عالم القدس، وتلقت الإلهامات؛ سميت: ملهمة، فإن سكن اضطرابها، ولم يبق للنفس الشهوانية حكم أصلاً؛ سميت مطمئنة. فإن ترقت من هذا، وأسقطت المقامات من عينها، وفنيت عن جميع مراداتها؛ سميت راضية. فإن زاد هذا الحال عليها؛ صارت مرضية عند الحق، وعند الخلق، فإن أمرت بالرجوع إلى العباد لإرشادهم، وتكميلهم؛ سميت كاملة، فالنفس سبع طبقات، ولها سبع درجات، كما ذكرت، وقدمت.

وأخيراً خذ ما ذكره القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ وفي الخبر عن النبي ﷺ: أنه قال: «**مَا تَقُولُونَ في صاحِبٍ لكُمْ، إنْ أكْرَمْتُمُوهُ، وَأَطْعَمْتُموهُ، وَكَسَوْتُمُوهُ؛ أَفْضَى بِكُمْ إلى شَر غَايةٍ، وَإِنْ أَهَنْتُمُوهُ، وأَعْرَيْتُمُوهُ، وأجمعتُمُوهُ أَفْضَى بِكُمْ إِلَى خَيْرِ غَايَةٍ؟**». قالوا: يا رسولَ الله! هذا شرُّ صاحب! قال: «**فوالَّذِي نَفْسِي بيدِهِ إنهَا لَنُفُوسُكُمْ التي بينَ جُنُوبِكُمْ**». انتهى. هذا؛ وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «**ليس من نفسٍ برة، ولا فاجرة إلا وتلوم نفسها يوم القيامة، إن عملت خيراً؛ قالت: كيف لم أزدد، وإن عملت شراً؛ قالت: يا ليتني أقصرت عن الشر!**».

الإعراب: ﴿لَآ﴾: انظر ما قيل فيها من أوجه الإعراب في الشرح. ﴿أُقْسِمُ﴾: فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: «أنا». ﴿بِيَوْمِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، و(يوم) مضاف، و﴿ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ مضاف

إليه، والجملة الفعلية مبتدأة لا محل لها من الإعراب، والتي بعدها معطوفة عليها، وإعرابها مثلها مع ملاحظة: أنه لا يجوز اعتبار (لا) صلة؛ لأنه يختل المعنى عن ذلك. ﴿ٱللَّوَّامَةِ﴾: صفة النفس.

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾

الشرح: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أيظن الإنسان. وحسب، يحسب من باب: تعب في لغة جميع العرب إلا بني كنانة، فإنهم يكسرون المضارع مع كسر الماضي أيضاً على غير قياس. وقد قرئ المضارع بفتح السين، وكسرها. والمصدر: الحسبان بكسر الحاء، وحسبت المال حسباً من باب: قتل بمعنى: أحصيته عدداً. هذا؛ والحسبان: قوة أحد النقيضين على الآخر، كالظن بخلاف الشك، فهو الوقوف بينهما. أما العلم؛ فهو القطع على أحدهما. والحسبان، والظن يتعلقان بمضامين الجمل، للدلالة على جهة ثبوتها، ولذلك اقتضى كل واحد منهما مفعولين متلازمين، أصلهما مبتدأ وخبر، أو ما يسد مسدهما. وانظر شرح ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ في الآية رقم [١٩] من سورة (المعارج). ﴿أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ أي: نعيدها خلقاً جديداً بعد أن صارت رفاتاً، ورميماً مختلطة التراب، وبعدما نسفتها الرياح، فطيرتها في أباعد.

نزلت هذه الآية في عدي بن ربيعة حليف بني زهرة، وهو ختن الأخنس بن شريق الثقفي، وكان الرسول ﷺ يقول: «**اللهم اكفني جارَيِ السوء: عدي بن ربيعة، والأخنس بن شريق**». وذلك أن عدياً أتى النبي ﷺ فقال: يا محمد! حدثني متى تكون القيامة؟ وكيف أمرها، وحالها؟ فأخبره النبي ﷺ، فقال عدي: لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك، ولم أؤمن بك، أو يجمع الله العظام؟! فأنزل الله عز وجل: ﴿أَيَحْسَبُ...﴾ إلخ. بعد هذا أقول: إن ما تعنت به عدي شبيه بما تعنت به أُبَيُّ بن خلف الجمحي، كما رأيت في الآية رقم [٧٧] من سورة (يس).

﴿بَلَىٰ﴾: انظر الآية رقم [٩] من سورة (الملك). ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾: يعني: أنامله، فنجعل أصابع يديه، ورجليه شيئاً واحداً كخف البعير، أو كحافر الحمار، فلا يقدر أن يرتفق بها بالقبض، والبسط، والأعمال اللطيفة، كالكتابة، والخياطة، وغيرهما. وقيل: المعنى أيظن الكافر أن لن نقدر على جمع عظامه بعد تفريقها، وتفتتها بعد الموت؟ بلى نقدر على جمع عظامه؛ حتى نعيد السلاميات على صغرها إلى أماكنها، ونؤلف بينها حتى تستوي البنان، فمن يقدر على جمع العظام الصغار؛ فهو على جمع كبارها أقدر، وهذا القول أقرب إلى الصواب.

هذا؛ والبنان جمعٌ، أو اسم جمع لـ: بنانة؟ قولان، والبنان عند العرب: الأصابع واحدها: بنانة. قال النابغة الذبياني: [الكامل]

بِمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كَأَنَّ بَنَانَهُ عَنَمٌ يَكَادُ مِنَ اللَّطَافَةِ يُعْقَدُ

وقال عنترة: [الوافر]

وَأَنَّ الـــمـــوتَ طـــوْعُ يـــدي إِذَا مَـــا وصَـــلْـــتُ بَـــنَـــانــهـــا بِـــالــهِـــنْـــدُوَانـــي

هذا؛ وقال الأستاذ محمد علي الصابوني في كتابه «التبيان في علوم القرآن»: في القرن الماضي سنة [١٨٨٤] استعملت في انكلترا رسمياً طريقة للتعرف على الشخص بواسطة بصمات الأصابع، وأصبحت هذه الطريقة متبعة في جميع البلاد، وذلك؛ لأن بشرة الأصابع مغطاة بخطوط دقيقة، وعلى عدة أنواع (أقْوَاس، عراوٍ، دَوَّامات) وهذه الخطوط لا تتغير مدى الحياة، وجميع أعضاء الجسم تتشابه أحياناً، ولكن الأصابع لها مميزات خاصة؛ إذ إنها لا تتشابه، ولا تتقارب، وهنا المعجزة الإلهية، فلماذا اختار الله سبحانه بنان الإنسان في إقامة الدليل على البعث؟ ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ...﴾ إلخ. انتهى. وانظر قوله تعالى في سورة (الأنفال) رقم [١٢]: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾. والله أعلم بمراده.

الإعراب: ﴿أَيَحْسَبُ﴾: الهمزة: حرف استفهام. (يحسب): فعل مضارع. ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾: فاعله. ﴿أَلَّن﴾: (أن): حرف مشبه بالفعل مخفف من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، التقدير: أنه. (لن): حرف نفي، ونصب، واستقبال. ﴿نَّجْمَعَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ: (لن)، والفاعل مستتر تقديره: «نحن». ﴿عِظَامَهُۥ﴾: مفعول به، والهاء ضمير متصل في محل جر بالإضافة، وجملة: (لن نجمع. . .) إلخ في محل رفع خبر (أن)، و(أن) واسمها المحذوف، وخبرها في تأويل مصدر في محل نصب سد مسد مفعولي (يحسب)، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿بَلَىٰ﴾: حرف جواب. ﴿قَٰدِرِينَ﴾: حال من فاعل فعل محذوف، التقدير: بلى نجمعها قادرين، ونقل عن سيبويه: أنه يعتبره مفعولاً ثانياً. والنقل غير صحيح. وقيل: خبر لـ: «كان» محذوفة، التقدير: بلى كنا قادرين. وفيه ضعف؛ لأنه ليس من المواضع التي تحذف فيها (كان). وقرئ شاذاً برفعه على أنه خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: بلى نحن قادرون. ﴿عَلَىٰٓ﴾: حرف جر. ﴿أَن﴾: حرف مصدري، ونصب. ﴿نُّسَوِّىَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ: (أن)، والفاعل مستتر تقديره: «نحن». ﴿بَنَانَهُۥ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة، و﴿أَن نُّسَوِّىَ﴾ في تأويل مصدر في محل جر بـ: ﴿عَلَىٰٓ﴾، والجار والمجرور متعلقان بـ: ﴿قَٰدِرِينَ﴾؛ لأنه جمع اسم فاعل، لذا ففيه ضمير مستتر تقديره: «نحن».

﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾﴾

الشرح: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: الكافر. ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ أي: ليدوم على فجوره، وعصيانه فيما يستقبله من الزمان ما عاش، لا ينزع عن المعاصي، ولا يتوب. وقال سعيد بن جبير ـ رضي الله عنه ـ: يقدم الذنب، ويؤخر التوبة، ويقول: سوف أتوب، سوف أعمل؛ حتى يأتيه الموت على سوء حاله، وشر أعماله. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يكذب بما أمامه من البعث، والحساب. انتهى. وسمي الكافر، والفاسق فاجراً؛ لميله عن الحق. هذا؛ ومما يدل على أن

الفجور التكذيب ما ذكره القتبي، وغيره: أن أعرابياً قصد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، وشكا إليه نقب إبله، ودبرها، وسأله أن يحمله على غيرها، فلم يحمله، فقال الأعرابي - وهذا هو الشاهد رقم [٥١٢] من كتابنا: «فتح رب البرية» -: [الرجز]

أَقْسَمَ بِاللهِ أَبُو حَفْصٍ عُمَرْ مَا مَسَّهَا مِنْ نَقَبٍ وَلَا دَبَرْ
فَاغْفِرْ لَهُ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ فَجَرْ

يعني: إن كان كذبني فيما ذكرت. ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: متى يكون يوم القيامة؟! والمعنى: أن الكافر يسأل سؤال متعنت مستبعد لقيام الساعة، وهو كقوله تعالى في كثير من الآيات: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾، وقد رد الله عليهم بقوله في سورة (سبأ): ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾.

الإعراب: ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب انتقالي، ويصح أن تكون عاطفة. قال الزمخشري، وتبعه البيضاوي، والنسفي: ﴿بَلْ يُرِيدُ﴾ عطف على (يحسب) فيجوز أن يكون مثله استفهاماً، وأن يكون إيجاباً. ﴿يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾: فعل مضارع وفاعله، والجملة الفعلية لا محل لها على جميع الوجوه المعتبرة بـ: ﴿بَلْ﴾. ﴿لِيَفْجُرَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ: «أن» مضمرة بعد لام التعليل، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ تقديره: «هو»، و«أن» المضمرة، والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر بلام التعليل، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وعليه فالمفعول محذوف، التقدير: يريد الإنسان الثبات، والدوام على ما هو عليه من الفجور، والتكذيب بيوم القيامة. هذا؛ ويجوز اعتبار اللام صلة، والمصدر المؤول في محل نصب مفعول به محلاً، وفي محل جر باللام لفظاً، فيكون التقدير: بل يريد الإنسان الفجور، وقد ورد التصريح بذلك في قوله تعالى في سورة (التوبة) رقم [٣٢]: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ...﴾ إلخ، وكأن هذه اللام زيدت مع فعل الإرادة توكيداً له؛ لما فيها من معنى التقوية. وهناك قول ثالث: أن اللام بمعنى «أن» الناصبة، وأنها ناصبة للفعل بنفسها. قال الفراء: العرب تجعل لام كي في موضع «أن» في: (أراد، وأمر) وإليه ذهب الكسائي أيضاً. انتهى. سمين في غير هذا الموضع. هذا؛ ومثل هذه الآية قوله تعالى في سورة (النساء) رقم [٢٦]: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾، والآية رقم [٧١] من سورة (الأنعام): ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، والآية رقم [٣٣] من سورة (الأحزاب)، والآية رقم [٨] من سورة (الصف)، ومثل ذلك كله قول كثير عزة - وهو الشاهد رقم [٣٩٤] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» -: [الطويل]

أُرِيدُ لِأَنْسَى ذِكْرَهَا فَكَأَنَّمَا تَمَثَّلُ لِي لَيْلَى بِكُلِّ سَبِيلِ

﴿أَمَامَهُۥ﴾: ظرف مكان استعير للزمان هنا متعلق بالفعل قبله، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿يَسْـَٔلُ﴾: فعل مضارع، وفاعله يعود إلى ﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ تقديره: «هو»، وهو معلق عن العمل لفظاً

بسبب الاستفهام بعده. ﴿أَيَّانَ﴾: اسم استفهام مبني على الفتح في محل نصب على الظرفية الزمانية متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿يَوْمُ﴾: مبتدأ مؤخر، وهو مضاف، و﴿ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ مضاف إليه، والجملة الاسمية في محل نصب سدت مسد مفعولي ﴿يَسْـَٔلُ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة، وقال أبو البقاء: تفسير لـ: (يفجر) فتكون مفسرة، مستأنفة، أو بدلاً من الجملة قبلها؛ لأن التفسير يكون بالاستئناف، وبالبدل. انتهى. نقلاً عن السمين.

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾

الشرح: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾: يقرأ الفعل بفتح الراء من باب: دخل، فيكون المعنى: لمع بصر الكافر من شدة شخوصه، فتراه لا يطرف. قال مجاهد، وغيره: هذا عند الموت. وقال الحسن: هذا يوم القيامة. أقول: فيكون كقوله تعالى في سورة (إبراهيم) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ رقم [٤٢]، وقوله تعالى في سورة (الأنبياء) رقم [٩٧]: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾. هذا؛ وقرأ الكثيرون: ﴿بَرِقَ﴾ بكسر الراء من باب: تعب، ومعناه: تحيّر، فلم يَطرف. قاله أبو عمرو، والزجاج، وغيرهما. قال ذو الرمة: [الطويل]

وَلَوْ أَنَّ لُقْمَانَ الحَكِيمَ تَعَرَّضَتْ ... لِعَيْنَيْهِ مَيٌّ سَافِراً كَادَ يَبْرَقُ

وقال الفراء، والخليل: برق بالكسر: فزع، وبُهت، والعرب تقول للإنسان المتحير المبهوت: قد بَرِق فهو برِقٌ، وأنشد الفراء قول طرفة بن العبد: [المتقارب]

فَنَفْسَكَ فَانْعَ ولا تَنْعَنِي ... وَدَاوِ الْكُلُومَ وَلَا تَبْرَقِ

أي: لا تفزع من كثرة الكلوم التي بك. وقيل: إن كسر الراء وفتحها لغتان بمعنى واحد. انتهى. قرطبي بتصرف. وأجمل القول الجلال ـ رحمه الله تعالى ـ، فقال: بكسر الراء، وفتحها: دهش وتحيَّر؛ لما رأى ممَّا كان يكذب به.

﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ أي: ذهب ضوءه. والخسوف في الدنيا ينجلي، بخلاف الآخرة، فإنه لا يعود ضوءه. هذا؛ وانظر الخسف في الآية رقم [١٦] من سورة (الملك). وقد قرئ (خسف) بالبناء للمعلوم، والمجهول. ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ أي: جمع بينهما في ذهاب ضوئهما، وقال النسفي ـ رحمه الله تعالى ـ: أي: جمع بينهما في الطلوع من المغرب، أو جُمِعَا في ذهاب الضوء، أو يجمعان، فيقذفان في البحر فيكون نار الله الكبرى. وقال ابن عباس، وابن مسعود ـ رضي الله عنهما ـ: جمع بينهما، أي: قرن بينهما في طلوعهما من المغرب أسودين مكورين مظلمين مقرنين،

كأنهما ثوران عقيران. وقال عطاء بن يسار ـ رحمه الله تعالى ـ: يجمع بينهما يوم القيامة، ثم يقذفان في البحر، فيكونان نار الله الكبرى. وقال علي وابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يجعلان في الحجب، وقد يجمعان في نار جهنم؛ لأنهما قد عُبِدَا من دون الله، ولا تكون النار عذاباً لهما؛ لأنهما جماد، وإنما يفعل ذلك بهما زيادة في تبكيت الكافرين، وحسرتهم.

﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾: الكافر، والظالم، والفاسد، والمفسد. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم إذ برق البصر، وخسف القمر، وجمع... إلخ. ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ أي: المهرب، والملجأ، والملاذ. قال نفيل بن حبيب الحميري ـ وهو ممن كان في جند أبرهة الذي قصد هدم الكعبة المعظمة، فقصمه الله، وهو الشاهد رقم [٥٥١] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»، والشاهد رقم [٤٢٣] من كتابنا: «فتح رب البرية» ـ: [الرجز]

أَيْـنَ الـمـفَـرُّ وَالإِلـهُ الـطَّـالِـبُ ... وَالأَشْـرَمُ الْـمَـغْـلُـوبُ لَـيْـسَ الـغـالِـبُ؟

ويحتمل في الآية المفر من الله استحياءً منه، أو من نار جهنم حذراً منها. هذا؛ ويقرأ بفتح الميم، والفاء، على أنه مصدر، ويقرأ بفتح الميم، وكسر الفاء على أنه اسم مكان. ويقرأ بكسر الميم وفتح الفاء على أنه الإنسان الجيد الفرار. وعليه فالمعنى: أين الإنسان الجيد الفرار، فهل ينجو من عذاب الله، وانتقامه؟! قال امرؤ القيس في معلقته رقم [٦٤] في وصف حصانه: [الطويل]

مِـكَـرٍّ مِـفَـرٍّ مُـقْـبِـلٍ مُـدْبِـرٍ مـعَـاً ... كـجلـمـودِ صَخْـرٍ حَـطَّـهُ الـسيْـلُ مِنْ عَـلِ

الإعراب: ﴿فَإِذَا﴾: الفاء: حرف استئناف، وتفريع. (إذا): ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك، مبني على السكون في محل نصب. ﴿بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾: ماض، وفاعله، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذا) إليها على المشهور المرجوح، وجملة: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ معطوفة عليها، فهي في محل جر مثلها. ﴿وَجُمِعَ﴾: الواو: حرف عطف. (جمع): فعل ماض مبني للمجهول، ولم يؤنث لأمرين: أولهما: لأن الشمس مؤنث مجازي، والثاني: لعله من باب تغليب القمر على الشمس. ﴿ٱلشَّمْسُ﴾: نائب فاعله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل جر مثلها. ﴿وَٱلْقَمَرُ﴾: معطوف على ﴿ٱلشَّمْسُ﴾.

﴿يَقُولُ﴾: فعل مضارع. ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية مع مقولها جواب (إذا) لا محل لها، و(إذا) ومدخولها كلام مستأنف، لا محل له. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: (يوم): ظرف زمان متعلق بالفعل ﴿يَقُولُ﴾. و(إذ) ظرف لما مضى من الزمان مبني على السكون في محل جر بالإضافة، والتنوين عوض من جملة محذوفة، انظر تقديرها في الشرح. ﴿أَيْنَ﴾: اسم استفهام مبني على الفتح في محل نصب على الظرفية المكانية متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿ٱلْمَفَرُّ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول.

﴿كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣)﴾

الشرح: ﴿كَلَّا﴾: انظر الآية رقم [١٦] من سورة (المدثر). ﴿لَا وَزَرَ﴾ أي: لا ملجأ من النار يتحصن به من استحق دخولها من الكافرين، والظالمين، والفاسقين، والفاجرين. وهذه الآية كقوله تعالى في سورة (الشورى) رقم [٤٧]: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾. هذا؛ والوزر في اللغة: ما يلجأ إليه من حصن، أو جبل، أو غيرهما. قال الشاعر: [المتقارب]

لَعَمْرِي مَا لِلْفَتَى مِنْ وَزَرْ ... مِنَ الموتِ يُدْرِكُهُ وَالْكِبَرْ

قال السدي: كانوا في الدنيا إذا فزعوا؛ تحصنوا في الجبال، فقال الله لهم: لا وزر يعصمكم يومئذ مني. قال طرفة: [الرمل]

وَلَقَدْ تَعْلَمُ بَكْرٌ أَنَّنَا ... فَاضِلُو الرَّأْيِ وَفِي الرَّوْعِ وَزَرْ

وقال الخازن: وأصل الوزر: الجبل المنيع. وكل ما التجأت إليه، وتحصنت به فهو وزر، ومنه قول كعب بن مالك: [البسيط]

النَّاس آلَتْ عَلَيْنَا فيكَ لَيْسَ لَنَا ... إلَّا السُّيُوفُ وأَطْرَافُ الْقَنَا وَزَرُ

هذا؛ و﴿وَزَرَ﴾ مصدر، وهو بفتح الواو، والزاي، ويأتي المصدر أيضاً بفتح الواو، وكسرها مع سكون الزاي، لكنه بمعنى: الإثم، والثقل. قال تعالى في سورة (فاطر) رقم [١٨]: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، ومن المعنيين يؤخذ اسم وزير السلطان، فإنه يحمل ثقل دولته، ويلجأ إليه السلطان في المهمات، فيستشيره بذلك. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ﴾: يوم يبرق البصر، ويخسف القمر، ويجمع الشمس، والقمر. ﴿الْمُسْتَقَرُّ﴾: المرجع، والمصير، وهو كقوله تعالى في سورة (النجم) رقم [٤٢]: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾. قال الصابوني: والمقصود من الآيات: بيان أهوال الآخرة، فالأبصار تنبهر يوم القيامة، وتخشع، وتحار من شدة الأهوال، ومن عظم ما تشاهده من الأمور العظيمة، والإنسان يطيش عقله، ويذهب رشده، ويبحث عن النجاة، والمخلص، ولكن هيهات! فقد جاءت القيامة، وانتهت الحياة. انتهى.

﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ أي: يخبر الإنسان في ذلك اليوم بجميع أعماله، صغيرها، وكبيرها، وعظيمها، وحقيرها، ما قدمه منها في حياته، وما أخره بعد مماته، من سنة حسنة، أو سيئة، وسنّها في حياته، سواء كان براً، أو فاجراً، صالحاً، أو طالحاً. ونحو الآية قوله تعالى في سورة (المجادلة) رقم [٦]: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾. وخذ ما يلي: ومعنى الآية الكريمة ما تقدم، وهو جيد، وخذ قول أبي العتاهية الصوفي ـ رحمه الله تعالى ـ: [الوافر]

فَلَوْ أَنَّا إِذَا مِتْنَا تُرِكْنَا لَكَانَ الْمَوْتُ راحةَ كلِّ حَيِّ
وَلَكِنَّا إِذَا مِتْنَا بُعِثْنَا ونُسْأَلُ بعدَ ذَا عن كلِّ شَيِّ

خرج ابن ماجه في سننه من حديث الزهري: حدثني أبو عبد الله الأغر عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ مِمَّا يَلْحَقُ المؤمِنَ مِنْ عَمَلِهِ، وحسناتِهِ بعد موتِهِ علماً علَّمه، ونشرَهُ، وولداً صالحاً تركه، أو مصحفاً ورَّثه، أو مسجداً بناهُ، أوْ بيتاً لِابنِ السبيلِ بناهُ، أو نهراً أجراهُ، أو صدقةً أخرجها مِنْ مالِهِ في صحتِهِ، وحياتِهِ، تلحقُهُ مِنْ بعدِ مَوْتِهِ**». وخرجه أبو نعيم الحافظ بمعناه من حديث قتادة عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**سبْعٌ يَجْرِي أجْرُهُنَّ للعبدِ بعدَ موتِهِ؛ وهوَ في قَبْرِهِ، مَنْ عَلَّمَ علماً، أو أجرى نهراً، أو حفَرَ بئْراً، أو غرس نَخْلاً، أوْ بنى مسجداً، أو ورَّثَ مُصْحَفاً، أوْ تركَ ولداً يسْتَغْفِر لَهُ بعدَ موتِهِ**». انتهى. قرطبي.

وعن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ قال: سأل رجل على عهد رسول الله ﷺ فأمسك القوم، ثم إن رجلاً أعطاه، فأعطى القوم، فقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ سَنَّ خَيْراً فاسْتُنَّ به؛ كانَ لَهُ أَجْرُهُ، ومثلُ أجورِ مَنْ تَبِعَهُ غَيْرَ مُنْتَقَصٍ مِنْ أجورِهِمْ شَيْئاً، وَمَنْ سَنَّ شَرّاً، فاسْتُنَّ بِهِ كانَ عليهِ وِزْرُهُ، ومثلُ أوزَارِ مَنْ تبِعَهُ غَيْرَ مُنْتَقَصٍ مِنْ أوْزَارِهِمْ شَيْئاً**». رواه الإمام أحمد، ورواه الإمام مسلم بأطول من هذا عن جرير بن عبد الله البجلي. هذا؛ وانظر شرح «نبأ، ينبئ» في الآية رقم [٣] من سورة (التحريم) فإنه جيد جداً، ولا تنس الطباق بين ﴿قَدَّمَ﴾ و(أخر).

الإعراب: ﴿كَلَّا﴾: حرف ردع، وزجر هنا. ﴿لَا﴾: نافية للجنس تعمل عمل «إنَّ». ﴿وَزَرَ﴾: اسم ﴿لَا﴾ مبني على الفتح في محل نصب، والخبر محذوف، تقديره: لا وزر له، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم، والكاف ضمير في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل المستقر، ولا يتعلق به؛ لأنه مصدر، ولا يتقدم معمول المصدر عليه، وإن كان اسم مكان؛ فلا عمل له ألبتة. انتهى. جمل نقلاً عن السمين. أقول: ومن المعلوم أنه يتوسع في الظرف والجار والمجرور ما لا يتوسع بغيرهما، ﴿الْمُسْتَقَرُّ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة، أو تعليلية، لا محل لها على الاعتبارين.

﴿يُنَبَّؤُا﴾: فعل مضارع مبني للمجهول. ﴿الْإِنسَانُ﴾: نائب فاعله، وهو المفعول الأول، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: (يوم): ظرف زمان متعلق بما قبله، و(إذ) في محل جر بالإضافة، وانظر في الشرح تقدير الجملة المضاف إليها. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة، فهي مبنية على السكون في محل جر بالباء. ﴿قَدَّمَ﴾: ماض، والفاعل يعود إلى الإنسان، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: بالذي، أو بشيء قدمه، وأخره. تأمل، وتدبر، وربك أعلم.

﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ (١٥)﴾

الشرح: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾: قال الأخفش: جعل الله الإنسان هو البصيرة، كما تقول للرجل: أنت حجة على نفسك، والبصيرة: الحجة. قال تعالى في سورة (الأنعام) رقم [١٠٤]: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ﴾. وقال الزمخشري: بصيرة: حجة بينة، وصفت بالبصارة على المجاز، كما وصفت الآيات بالإبصار في قوله تعالى في سورة (النمل) رقم [١٣]: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾.

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أي: شاهد، وهو شهود جوارحه عليه، يداه بما بطش بهما، ورجلاه بما مشى عليهما، وعيناه بما أبصر بهما. والبصيرة: الشاهد، ودليل هذا التأويل قوله تعالى في سورة (النور) رقم [٢٤]: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وجاز تأنيث (البصيرة) لأن المراد بالإنسان هنا: جوارحه؛ لأنها شاهدة على نفس الإنسان، فكأنه قال: بل الجوارح على نفس الإنسان بصيرة. انتهى. قرطبي. وعلى قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ تكون التاء للمبالغة، كعلامة. وقيل: المراد بالبصيرة: الكاتبان اللذان يكتبان ما يكون منه مِنْ خير، أو شر.

﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾: ولو جاء بكل معذرة يعتذر بها عن نفسه، ويجادل عنها، فإنه لا ينفعه؛ لأنه قد شهد عليه شاهد من نفسه. وقال الضحاك: ولو أرخى ستوره، وقال المعاذير الستور، واحدها: معذار، والستر بلغة أهل اليمن معذار. قال الشاعر: [الطويل]

وَلَكِنَّهَا ضَنَّتْ بِمَنْزِلِ سَاعَةٍ ... عَلَيْنَا وَأَطَّتْ فَوقَهَا بِالْمَعَاذِرِ

والأول أولى بالاعتبار. قال تعالى في سورة (غافر) رقم [٥٢]: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾، وقوله تعالى في سورة (المرسلات) رقم [٣٦]: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ فالمعاذير على هذا مأخوذ من العذر. قال الشاعر: [الطويل]

وَإِيَّاكَ وَالأَمْرَ الَّذِي إِنْ تَوَسَّعَتْ ... مَوارِدُهُ ضَاقَتْ عَلَيْكَ الْمَصَادِرُ

فَمَا حَسَنٌ أَنْ يَعْذِرَ الْمَرْءُ نَفْسَهُ ... وَلَيْسَ لَهُ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ عَاذِرُ

والدليل على هذا قوله تعالى في سورة (الأنعام) رقم [٢٣]: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، وقوله تعالى في سورة (المجادلة) رقم [١٨]: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ...﴾ إلخ، وقد قال تعالى في سورة (فصلت) رقم [٢٤]: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾. هذا؛ ولا تنس التشبيه البليغ، حيث شبه المجيء بالعذر بإلقاء الدلو في البئر للاستسقاء به، فيكون فيه تشبيه لذلك بالماء المزيل للعطش. وانظر شرح الإنسان في سورة (المعارج) رقم [١٩].

الإعراب: ﴿بَلِ﴾: حرف إضراب، وانتقال. ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾: مبتدأ. ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿بَصِيرَةٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل رفع خبر المبتدأ. هذا؛ وأجيز اعتبار ﴿بَصِيرَةٌ﴾ خبر عن ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾، والجار والمجرور متعلقان به. كما أجيز اعتبار الجار والمجرور متعلقين بمحذوف خبر المبتدأ، و﴿بَصِيرَةٌ﴾ فاعلاً بمتعلق الجار والمجرور. وهذا أقوى من الثاني. والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها.

﴿وَلَوْ﴾: الواو: واو الحال. (لو): وصلية. ﴿أَلْقَىٰ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ تقديره: «هو». ﴿مَعَاذِيرَهُۥ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة المصدر لفاعله، والجملة الفعلية في محل نصب حال من الضمير في ﴿بَصِيرَةٌ﴾. هذا؛ واعتبر الجلال (لو) شرطية، وقدر جوابها بقوله: ولو جاء بكل معذرة؛ ما قبلت منه. وعليه ف: (لو) ومدخولها كلام مستأنف، لا محل له، ولا يصح اعتباره حالاً؛ لأن (لو) لتعليق الشرط في المستقبل، وهو يتنافى مع الحال، خلافاً لما قاله سليمان الجمل ـ رحمه الله تعالى ـ.

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾

الشرح: عن سعيد بن جبير ـ رحمه الله تعالى ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه القرآن؛ يحرك به لسانه، يريد أن يحفظه، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ...﴾ إلخ قال: فكان يحرك به شفتيه. وحرّك سفيان شفتيه. قال أبو عيسى الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، ولفظ مسلم: عن ابن جبير عن ابن عباس؛ قال: كان النبي ﷺ يعالج من التنزيل شدة، كان يحرك شفتيه، فقال لي ابن عباس: أنا أحركهما، كما كان رسول الله ﷺ يحركهما، فقال سعيد: أنا أحركهما، كما كان ابن عباس يحركهما، فحرك شفتيه. انتهى. قرطبي. والمعنى: لا تحرك لسانك بقراءة الوحي ما دام جبريل ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يقرأ. ﴿لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾: لتأخذه على عجلة، ولئلا ينفلت منك.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي: جمعه في صدرك، ثم تقرأه. ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ أي: قرأه عليك جبريل نيابة عنا. ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ أي: اقرأ بعد انتهاء قراءة جبريل. فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل عليه السلام استمع، وإذا انطلق جبريل، قرأه النبي ﷺ كما أقرأه، كما وعد الله تعالى، ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة (طه) رقم [١١٤]: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾. انظر شرحها هناك؛ تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

وقال عامر الشعبي ـ رحمه الله تعالى ـ: إنما كان يعجل بذكره إذا نزل عليه مِنْ حبِّه له، وحلاوته في لسانه، فنهي عن ذلك؛ حتى يجتمع؛ لأن بعضه مرتبط ببعض. وقيل: كان ﷺ إذا

نزل عليه؛ حرك لسانه مع الوحي مخافة أن ينساه، فنزلت الآيات المذكورة هنا، ونزلت آية (طه)، ونزل قوله تعالى في سورة (الأعلى): ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾. ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أي: تفسير ما فيه من الحدود، والحلال، والحرام، والوعد، والوعيد.

هذا؛ و(قرآن) مشتق من قريت الماء في الحوض: إذا جمعته، فكأنه قد جمع فيه الحكم، والمواعظ، والآداب، والقصص، والفروض، وجميع الأحكام، وكملت فيه جميع الفوائد الهادية إلى طريق الرشاد. وخذ قول عمرو بن كلثوم في معلقته رقم [١٧]: [الوافر]

ذِرَاعَــيْ عَــيْــطَــلٍ أدْمَــاءَ بِــكْــرٍ ... هِـجَـانِ الـلَّـوْنِ لَـمْ تَـقْـرَأْ جَـنِـيـنَـا

«لم تقرأ جنينا»: لم تضم، ولم تجمع في رحمها ولداً قط. وهو في اللغة مصدر بمعنى الجمع، يقال: قرأت الشيء قرآناً إذا جمعته، وبمعنى القراءة، يقال: قرأت الكتاب قراءة، وقرآناً، ثم نقل إلى هذا المجموع المقروء المنزل على الرسول ﷺ، المنقول عنه بالتواتر فيما بين الدفتين، المتعبد بتلاوته، المبدوء بسورة (الفاتحة)، المختتم بسورة (الناس). وهذا التعريف متفق عليه بين العلماء، والأصوليين. أنزله الله؛ ليكون دستوراً للأمة، وهدايةً للخلق أجمعين، وليكون آيةً على صدق الرسول ﷺ، وبرهاناً ساطعاً على نبوته، ورسالته، وحجةً قائمةً إلى يوم الدين، تشهد بأنه تنزيل الحكيم الحميد، بل هو المعجزة الخالدة، التي تتحدى الأجيال، والأمم على كر الأزمان، ومر الدهور، ورحم الله شوقي؛ إذ يقول: [البسيط]

جَـاءَ الـنَّـبِـيُّـونَ بِـالآيَـاتِ فَـانْـصَـرَمَـتْ ... وَجِـئْـتَـنَـا بِـكِـتَـابٍ غَـيْـرِ مُـنْـصَـرِمِ

آيَـاتُـهُ كُـلَّـمَـا طَـالَ الْـمَـدَى جُـدَدٌ ... يَـزِيـنُـهُـنَّ جَـمَـالُ الْـعِـتْـقِ وَالْـقِـدَمِ

وللقرآن أسماء عديدة، كلها تدل على رفعة شأنه، وعلو مكانته، وعلى أنه أشرف كتاب سماوي على الإطلاق، فيسمى: القرآن، والفرقان، والتنزيل، والذكر، والكتاب، والنور، والهدى... إلخ، كما وصفه الله بأوصاف عديدة، منها: نور، وهدى، ورحمة، وشفاء، وموعظة، وعزيز، ومبارك، وبشير، ونذير... إلى غير ذلك من الأوصاف التي تشعر بعظمته، وقدسيته. ويحرم على المحدث حدثاً أكبر: قراءته، ومسه، وحمله. وعلى المحدث حدثاً أصغر حمله ومسه، ولا يمنع من قراءته عن ظهر قلب. قال تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾. والمناسبة بين هذه الآيات، والتي قبلها واضحة؛ لأن تلك تضمنت الإعراض عن آيات الله، وهذه تضمنت المبادرة إليها بحفظها ورعايتها.

هذا؛ ويكثر النهي في القرآن الكريم عن العجلة، واستعجال الشيء قبل أوانه، وهذا النهي أكثر ما يوجه للكافرين؛ الذين طلبوا استعجال العذاب، وقد يوجه إلى بني آدم جميعاً، وقد توجه إلى النبي ﷺ في الآيات التي رأيتها هنا، بينما حث الله تعالى على المسارعة إلى فعل الطاعات،

فقال في سورة (آل عمران) رقم [١٣٣]: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، وقال في سورة (الحديد) رقم [٢١]: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ...﴾ إلخ، كما وصف أنبياءه، ورسله بأنهم كانوا يسارعون في الخيرات، وهذا لا يناقض: «العجلةُ مِنَ الشَّيْطَانِ، والتَّأنِّي مِنَ الرحمن»؛ لأن المسارعة إلى الطاعات مستثناة من ذلك، كما أن هناك أموراً تسن المبادرة إلى فعلها، كأداء الصلاة المكتوبة؛ إذا دخل وقتها، وقضاء الدين بحق الموسر، وتزويج البكر البالغ؛ إذا أتى الكفء، ودفن الميت، وإكرام الضيف؛ إذا نزل. وخذ ما يلي: فعن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ له: «**يا عَلِيُّ! ثلاثٌ لا تُؤَخِّرْهَا: الصلاةُ إذَا أَتَتْ، والْجَنَازَةُ إِذَا حَضَرَتْ، والأَيِّمُ إذَا وَجَدَتْ كُفْؤاً**». أخرجه الترمذي، وجاء في الشعر العربي الحث على العجلة. قال بشار بن برد الأعمى: [البسيط]

مَنْ راقَبَ النـاسَ لَمْ يظفرْ بحاجَتِهِ ... وفازَ بالطَّيِّبَاتِ الفاتِكُ اللَّهِجُ

واختصره سلم الخاسر، فقال: [مخلع البسيط]

مَنْ راقبَ الناسَ ماتَ هَمّاً ... وفازَ باللذةِ الجسورُ

ونسب للأعشى ولغيره ما يلي: [البسيط]

وَرُبَّمَا ضَرَّ بعْضَ الناسِ بطؤهُمُ ... وَكَانَ خَيْراً لَهُمْ لَوْ أَنَّهُمْ عَجِلُوا

الإعراب: ﴿لَا تُحَرِّكۡ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: ﴿لَا﴾ الناهية، والفاعل مستتر تقديره: «أنت». ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿لِسَانَكَ﴾: مفعول به، والكاف ضمير متصل في محل جر بالإضافة. ﴿لِتَعۡجَلَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ: «أن» مضمرة جوازاً بعد لام التعليل، والفاعل تقديره: «أنت»، و«أن» المضمرة والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر بلام التعليل، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿بِهِۦٓ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿عَلَيۡنَا﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ﴿إِنَّ﴾ تقدم على اسمها. ﴿جَمۡعَهُۥ﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر. ﴿وَقُرۡءَانَهُۥ﴾: معطوف على ما قبله، والهاء فيهما في محل جر بالإضافة، من إضافة المصدر لمفعوله، وفاعلهما محذوف، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا...﴾ إلخ تعليل للنهي، لا محل لها، وجملة: ﴿لَا تُحَرِّكۡ...﴾ إلخ لا محل لها ابتدائية.

﴿فَإِذَا﴾: الفاء: حرف استئناف، وتفريع. (إذا): ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك، مبني على السكون في محل نصب. ﴿قَرَأۡنَٰهُ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذا) إليها على المشهور المرجوح؛ لاقتران الجواب هنا بالفاء، ولا يعمل ما بعد الفاء فيما قبلها. ﴿فَٱتَّبِعۡ﴾: الفاء: واقعة في جواب (إذا). (اتبع): فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت»، والجملة الفعلية جواب (إذا) لا محل

لها، و(إذا) ومدخولها كلام مستأنف، لا محل له. ﴿قُرْءَانَهُۥ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ إعراب هذه الجملة مثل إعراب: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ بلا فارق بينهما، وهي معطوفة عليها، وعليه ف: (إذا) ومدخولها كلام معترض بينهما.

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْأَخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾

الشرح: ﴿كَلَّا﴾: ردع للكافرين، ومن على شاكلتهم من الفاسقين، وخطاب لهم فيه: أنهم منهمكون في جميع الدنيا، معرضون عن الآخرة، والعمل لها. ومثل هاتين الآيتين قوله تعالى في سورة الدهر رقم [٢٧]: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾. وقال الزمخشري، وتبعه البيضاوي، والنسفي: ردع لرسول الله ﷺ عن عادة العجلة، وإنكار لها، وحث على الأناة والتؤدة. ولا أسلمه أبداً. ولا تنس قوله تعالى في سورة (الروم) رقم [٧]: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾. وفي الآيتين التفات من الغيبة إلى الخطاب، وقرىء الفعلان بالياء على الغيبة.

الإعراب: ﴿كَلَّا﴾: حرف ردع، وزجر. ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب. ﴿تُحِبُّونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله. ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها، والتي بعدها معطوفة عليها، وإعرابها مثلها.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾

الشرح: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾: الأول من النضرة التي هي الحسن، والنعمة. والثاني من النظر، أي: وجوه المؤمنين مشرقة حسنة ناعمة، يقال: نضرهم الله، ينضرهم نضرةً، ونضارةً، وهو الإشراق، والعيش، والغنى، ومنه الحديث الذي رواه أبو سعيد الخدري، وجمعٌ من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ عن النبي ﷺ: «**نَضَّرَ اللهُ امْرَءاً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا...**» **إلخ**. رواه البزار، وابن حبان. ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾: إلى خالقها، ومالكها ناظرة نظراً لا ريب فيه، ولا شك. ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ﴾ أي: وجوه الكفار يوم القيامة كالحة كاسفة عابسة.

وفي المختار: بسَر الرجل وجهه: كلح، وبابه دخل، يقال: عبس وبسَر، وانظر سورة (المدثر) رقم [٢٢]. ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾: توقن وتعلم، والفاقرة: الداهية والأمر العظيم، يقال: فقرته الفاقرة؛ أي: كسرت فقار ظهره. وقال الأصمعي: أصلها: الوسم على أنف البعير بحديدة، أو نار حتى يخلص إلى العظم، يقال: فقرت أنف البعير: إذا حزته بحديدة، ثم جعلت على موضع الحزِّ الجرِيرَ ـ أي: **الحبل** ـ وعليه وترٌ مَلْويٌّ لِتذلِّله وَتَرُوِّضَه. قال النابغة: [الطويل]

أَبَـى لِـيَ قَـبْـرٌ لا يَـزَالُ مُـقَـابِـلـي ... وضَـربَـةُ فَـأْسٍ فـوقَ رَأْسِـيَ فَـاقِـرَهْ

تنبيه: الآيتان الأوليان تصرحان برؤية الله يوم القيامة، وهذا ما يراه علماء السنة من أن رؤية الله سبحانه وتعالى ممكنة غير مستحيلة عقلاً، وأجمعوا على وقوعها في الآخرة، وأن المؤمنين يروْن الله سبحانه وتعالى دون الكافرين بدليل قوله تعالى في سورة (المطففين): ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾. قال الإمام مالك ـ رحمه الله تعالى ـ: لما حجب أعداءه، فلم يروه؛ تجلى لأوليائه؛ حتى رأوه، ولو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة لم يعير الكافرون بالحجاب. وقال الإمام الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ: لما حجب قوماً بالسخط؛ دل على أن قوماً يرونه بالرضا، ثم قال: أما والله لو لم يوقن محمد بن إدريس بأنه يرى ربه في الميعاد؛ لما عبده في الدنيا. وهذا كلام المدللين. هذا؛ وقد قال تعالى في سورة (يونس) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ...﴾ إلخ، رقم [٢٦]، وقال تعالى في سورة (قٓ) رقم [٣٥]: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ وأخيراً لا تنس المقابلة اللطيفة بين نضارة وجوه المؤمنين، وكلاحة وجوه المجرمين.

هذا؛ وزعمت طوائف أهل البدع كالمعتزلة، والخوارج، وبعض المرجئة: أن الله تعالى لا يراه أحد من خلقه، وأن رؤيته مستحيلة عقلاً في الدنيا، وفي الآخرة، واستدلوا بقوله تعالى في سورة (الأنعام) رقم [١٠٣]: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ وهذا الذي قالوه خطأ صريح، وجهل قبيح، وقد تظاهرت أدلة الكتاب، والسنة، وإجماع الصحابة، فمن بعدهم من سلف الأمة على إثبات رؤية الله تعالى، وقد رواها نحو من عشرين صحابياً عن رسول الله ﷺ، وآيات القرآن فيها مشهورة، واعتراضات المبتدعة عليها لها أجوبة مسطورة في كتب أهل الكلام من أهل السنة.

ثم مذهب أهل الحق: أن الرؤية قوة يجعلها الله في خلقه، ولا يشترط فيها اتصال الأشعة، ولا مقابلة المرئي، ولا غير ذلك، وأما الأحاديث الواردة في إثبات الرؤية، فمنها ما روي عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ أَدْنَى أهلِ الْجَنَّةِ منزلةً لَمَنْ ينظُرُ إِلَى جِنانِهِ، وأزواجِهِ، ونعيمِهِ، وخَدَمِهِ وسُرُرِهِ مسيرةَ ألفِ سنةٍ، وأكرَمهُمْ عَلَى اللهِ مَنْ ينظرُ إِلَى وجهِهِ غُدْوَةً وَعَشِيَّةً**». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أخرجه الترمذي.

وعن جرير بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فنَظَر إِلَى الْقَمَرِ ليلةَ البدْرِ، وقالَ: «**إنكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُم عِياناً، كما ترون الْقَمَرَ، لَا تُضَامُّونَ في رؤيتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عن صلاةٍ قبلَ طلوعِ الشمسِ، وقبلَ غروبها؛ فَافعَلُوا**». ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾» متفق عليه.

وعن صهيب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا دخلَ أهلُ الجنةِ الجنَّةَ؛ يقول الله عز وجل: تريدونَ شَيْئاً أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الجنةَ، وتُنَجِّينَا مِنَ**

النَّارِ؟ قال: **«فَيُكْشَفُ الحِجَابُ، فَمَا أُعْطُوا شيئاً أحبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إلى رَبِّهِمْ»**. ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾. رواه مسلم، وغيره.

وعن أبي رَزِين الْعُقَيْلي ـ رضي الله عنه ـ قال: يا رسول الله! أكلنا يرى ربه مُخْلِياً بهِ يوم القيامة؟ قال: **«نعم»**. قلت: وما آية ذلك في خلقه؟ قال: **«يَا أَبَا رَزِين! أَلَيْسَ كُلُّكُمْ يَرَى الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ مُخْلِياً به؟»**. قلتُ: بَلى! قال: **«فَاللهُ أعْظَمُ، إنما هُوَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ، فاللهُ أَجَلُّ، وأعظَمُ»**. أخرجه أبو داود.

تنبيه: رؤية الله تعالى جائزة عقلاً، دنيا، وأخرى؛ لأنه موجود، وكل موجود يصح أن يرى، فربنا جل علاه يصح أن يرى، لكن لم تقع دنيا لغير نبينا ﷺ، وواجبة شرعاً للمؤمنين في الآخرة كما أطبق عليه أهل السنة للكتاب، والسنة، والإجماع، وحسبك ما ذكرته فيما تقدم.
قال إبراهيم اللقاني ـ رحمه الله تعالى ـ في جوهرته: [الرجز]

وَمِنْهُ أَنْ يُنْظَرَ بِالأَبْصَارِ لَكِنْ بِلَا كَيْفٍ وَلَا انْحِصَارِ
لِلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بِجَائِزٍ عُلِّقَتْ هذَا وَلِلْمُخْتَارِ دُنْيَا ثَبَتَتْ

وأنكر المعتزلة رؤية الله تعالى في الآخرة مستدلين بقوله تعالى لموسى ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام لما سأل الله الرؤية ـ: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾ رقم [١٤٣] من سورة (الأعراف) فقالوا: النفي بـ: ﴿لَن﴾ للتأبيد، وليس صحيحاً! انظر شرحها هناك تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

هذا؛ ورؤية الله يوم القيامة تكون من غير تكيف بكيفية من كيفيات الحوادث، من مقابلة، و جهة وتحيز. وأنكر المعتزلة رؤية الله في الآخرة، وشنوا حرباً شعواءَ على أهل السنة، وانتحتوا من قول أهل السنة بلا كيف البلكفة. قال الزمخشري يهجو أهل السنة: [الكامل]

لَجَمَاعَةٌ سَمَّوْا هَوَاهُمْ سُنَّةً وجماعةٌ حُمُرٌ لَعمري مُوكَفَهْ
قَدْ شَبَّهُوهُ بِخَلْقِهِ فتخوَّفُوا شُنَعَ الورَى فتسَتَّرُوا بِالْبَلْكَفَهْ

ورد عليه السيد البليدي بقوله: [الكامل]

هَلْ نَحْنُ مِنْ أَهْلِ الْهَوَى أَوْ أَنْتُمُ؟ وَمَنِ الَّذِي مِنَّا حَمِيرٌ مُوكَفَهْ؟
اعْكِسْ تُصِبْ فَالْوَصْفُ فِيكُمْ ظَاهِرٌ كَالشَّمْسِ فَارْجِعْ عَنْ مَقَالِ الزَّخْرَفَهْ
يَكْفِيكَ فِي رَدِّي عَلَيْكَ بِأَنَّنَا نَحْتَجُّ بِالآيَاتِ لا بِالسَّفْسَفَهْ
وَبِنَفْيِ رؤيتِهِ فَأَنْتَ حُرِمْتَهَا إنْ لَمْ تَقُلْ بِكَلامِ أَهْلِ الْمَعْرِفَهْ
فَنَرَاهُ فِي الأُخْرَى بِلَا كَيْفِيَّةٍ وَكَذَاكَ مِنْ غَيْرِ ارْتِسَامٍ لِلصِّفَهْ

وقال بعضهم في الرد عليه أيضاً هو أبو حيان النحوي المشهور: [الكامل]

شَبَّهْتَ جَهْلاً صدرَ أُمَّةِ أحْمَدٍ وذَوِي الْبَصَائِرِ بالحميرِ الْمُوكَفَهْ
وجبَ الخسارُ عَلَيْكَ فَانْظُرْ مُنْصِفاً في آيةِ الأَعْرَافِ فهيَ الْمُنْصِفَهْ
أتَرَى الكلِيمَ أتَى بجهْلٍ مَا أتَى؟ وأتَى شُيُوخُكَ مَا أتَوْا عَنْ مَعْرِفَهْ
إن الْوُجُوهَ إليهِ ناظرةٌ بِذَا جَاءَ الكِتَابُ فَقُلْتُمُ: هذَا سَفَهْ
نطَقَ الكِتَابُ وأنْتَ تنْطِقُ بِالْهَوَى فهوَى الْهَوى بِكَ فِي الْمَهاوِي الْمُتْلِفَهْ

انتهى.. من حاشية الباجوري على جوهرة التوحيد للمرحوم إبراهيم اللقاني.

بعد هذا فالمعتزلة طائفة من المسلمين يرون: أن أفعال الخير من الله، وأن أفعال الشر من فعل الإنسان، وأن الله تعالى يجب عليه رعاية الأصلح للعباد. قال اللقاني في الرد عليهم: [الرجز]

وَقَوْلُهُمْ: إنَّ الصلاحَ وَاجِبُ عَلَيْهِ زُورٌ مَا عَلَيْهِ وَاجِبُ
أَلَمْ يَرَوْا إيلامَهُ الأطفالا وشِبْهَهَا فحَاذِرِ الْمُحَالا
وجَائِزٌ عَلَيْهِ خَلْقُ الشَّرِّ والخيرِ كالإسلام وجَهْلِ الكفْرِ

وأن القرآن محدث مخلوق، ليس بقديم، وأن الله تعالى ليس بمرئي يوم القيامة. قال اللقاني في الرد عليهم: [الرجز]

وَنَزِّهِ القُرآنَ أيْ كلامَهْ عَنِ الحدوثِ واحْذَرِ انْتِقَامَهْ
وكلُّ نَصٍّ لِلْحُدوثِ دَلَّا احْمِلْ عَلَى اللفظِ الَّذِي قَدْ دَلَّا

وأن المؤمن إذا ارتكب الكبيرة كان في منزلة بين المنزلتين. يعنون بذلك: أنه ليس بمؤمن، ولا بكافر، وأن من دخل النار لم يخرج منها. قال اللقاني في الرد عليهم: [الرجز]

ومَنْ يَمُتْ ولَمْ يَتُبْ مِنْ ذَنْبِهِ فَأَمْرُهُ مُفَوَّضٌ لِرَبِّهِ
ووَاجِبٌ تعذِيبُ بعْضِ ارتكَبْ كَبِيرةً ثُمَّ الخلودُ مجْتَنبْ

وأن المقتول غير ميت بأجله. فقال اللقاني في الرد عليهم: [الرجز]

وَميِّتٌ بِعمرِهِ مَنْ يُقتَلُ وغَيْرُ هذا بَاطِلٌ لا يُقْبَلُ

وأن الإيمان: قول، وعمل، واعتقاد (وهذا لا بأس به) ويرون: أن إعجاز القرآن في الصرف عنه، لا أنه معجز بنفسه، ولو لم يصرف العرب عن معارضته؛ لأتوْا بما يعارضه، وأن المعدوم شيء، وأن الحسن، والقبح عقليان، وأن الله تعالى حي بذاته، لا بحياة، وعالم لذاته لا بعلم، وقادر لذاته لا بقدرة، فهم ينفون صفات المعاني.

هذا؛ ومن مشهوري المعتزلة، وأعيانهم الجاحظ، وأبو الهذيل العلاف، وإبراهيم النظام وواصل بن عطاء، وأحمد بن حابط، وبشر بن المعتمر، ومعمر بن عباد السلمي، وأبو موسى عيسى الملقب بالمزداد، ويعرف بـ: راهب المعتزلة، وثمامة بن أشرس، وهشام بن عمر الفوطي، وأبو الحسن بن أبي عمر، والخياط، والأستاذ الكعبي، وأبو علي الجبائي أستاذ الشيخ أبي الحسن الأشعري أولاً، وابنه أبو هشام عبد السلام، ولا تنس الزمخشري، وأبا علي الفارسي، وهما إمامان في النحو، ويقال: إن الزمخشري رجع عن اعتزاله قبل وفاته، وسموا معتزلة؛ لأن واصل بن عطاء كان من تلاميذ الحسن البصري، واختلف معه في بعض المسائل التي ذكرتها لك واعتزل حلقته، وتبعه من ذكرت لك، فسموا معتزلة لهذا.

الإعراب: ﴿وُجُوهٌ﴾: مبتدأ. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: (يوم): ظرف زمان متعلق بما بعده، و(إذ) ظرف لما مضى من الزمان مبني على السكون في محل جر بالإضافة، والتنوين عوض عن جملة محذوفة، التقدير: يوم إذ تقوم القيامة. ﴿نَّاضِرَةٌ﴾: خبر المبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة هنا العطف عليها، وكون الموضع موضع تفصيل، ومثل الآية الكريمة قول امرئ القيس ـ وهو الشاهد رقم [٨٥١] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [المتقارب]

فَأَقْبَلْتُ زَحْفاً عَلَى الرُّكْبَتَيْنِ   فَثَوْبٌ نَسِيتُ، وَثَوْبٌ أَجُرُّ

﴿نَّاضِرَةٌ﴾: خبر المبتدأ. ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما بعدهما، و(ها): في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿نَاظِرَةٌ﴾: حبر ثان للمبتدأ، أو خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هي ناظرة، وتعود الجملة لتكون في محل رفع خبر ثان لـ: ﴿وُجُوهٌ﴾ وسوغ السمين اعتبار ناضرة صفة لـ: ﴿وُجُوهٌ﴾، واعتبار ﴿نَاظِرَةٌ﴾ خبراً له، وسوغ اعتبار ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ خبراً لـ: ﴿وُجُوهٌ﴾، وسوغ بـ: ﴿نَاظِرَةٌ﴾ ثلاثة وجوه: اعتباره نعتاً لوجوه، أو خبراً ثانياً، أو خبراً لمبتدأ محذوف. هذا؛ وقال بعض غلاة المعتزلة ﴿إِلَىٰ﴾ ههنا اسم بمعنى النعمة، وهي مفعول به مقدم لـ: ﴿نَاظِرَةٌ﴾، و﴿إِلَىٰ﴾ مضاف، و﴿رَبِّهَا﴾ مضاف إليه، والمعنى عندهم: وجوه يومئذ ناظرة منتظرة نعمة ربها، والمراد أصحاب الوجوه، وقد رأيت في الشرح مذهبهم، وتفنيده. تأمل، وتدبر، وربك أعلم.

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾: إعراب هذه الكلمات مثل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ بلا فارق. ﴿تَظُنُّ﴾: فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: «هي» يعود إلى ﴿وُجُوهٌ﴾. ﴿أَن﴾: حرف مصدري، ونصب. ﴿يُفْعَلَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول منصوب بـ: ﴿أَن﴾. ﴿بِهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿فَاقِرَةٌ﴾: نائب فاعل ﴿يُفْعَلَ﴾، و﴿أَن﴾ والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل نصب سد مسد مفعولي الفعل ﴿تَظُنُّ﴾، والجملة الفعلية في محل رفع خبر ثان للمبتدأ ﴿وُجُوهٌ﴾، أو في محل رفع صفة له، والحالية لا تجوز؛ لأن الفعل مستقبل، والجملة الاسمية: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾: معطوفة على ما قبلها لا محل لها مثلها، الأولى بالاستئناف، والثانية بالإتباع.

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾

الشرح: ﴿كَلَّآ﴾: ردع، وزجر عن إيثار الدنيا على الآخرة، كأنه قيل: ارتدعوا عن ذلك، وتنبهوا على ما بين أيديكم من الموت؛ الذي تنقطع عنده العاجلة عنكم، وتنتقلون إلى الآجلة، التي تبقون فيها مخلدين. ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾: الفاعل يراد به الروح، أي: إذا بلغت الروح التراقي. فأخبر عما لم يجر له ذكر لعلم المخاطب به. ومثل هذه الآية قوله تعالى في سورة (الواقعة): ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾، وقوله تعالى في سورة (صٓ) رقم [٣٢]: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾، وقوله تعالى في سورة (هود) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ رقم [٤٤]، وفي سورة (لقمان) رقم [١٦]، وسورة (النساء) رقم [٤٠]. ومثل هذه الآيات قول حاتم الطائي: [الطويل]

لَعَمْرُكَ مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عَنِ امْرِئٍ ... إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْماً وضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

وأيضاً قول سوار بن المضرب السعدي ـ وهو الشاهد رقم [١٩١] من كتابنا: «فتح رب البرية» ـ يخاطب به الحجاج حين فرض البعث مع المهلب بن أبي صفرة لقتال الخوارج: [الطويل]

إِذَا كَانَ لَا يُرْضِيكَ حَتَّى تَرُدَّنِي ... إِلَى قَطَرِيٍّ لَا إِخَالُكَ رَاضِيَا

﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾: جمع: ترقوة، وهي العظام المكتنفة لنقرة النحر، وهو مقدم الحلق من أعلى الصدر، وهو موضع الحشرجة، التي رأيتها في بيت حاتم، ومنه قول دريد بن الصمة: [الوافر]

وَرُبَّ عَظِيمَةٍ دَافَعْتُ عَنْهُمْ ... وَقَدْ بَلَغَتْ نُفُوسُهُمُ التَّرَاقِي

وقد يكنى عن الإشفاء على الموت ببلوغ النفس التراقي، والمقصود تذكيرهم شدة الحال عند نزول الموت. ﴿وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ﴾ أي: من راقٍ يرقي، أي: يشفي من الموت. قاله ميمون بن مهران، وأبو قلابة، وقتادة، وابن عباس ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ. ومنه قول الشاعر: [البسيط]

هَلْ لِلْفَتَى مِنْ بَنَاتِ الدَّهْرِ مِنْ وَاقِ؟ ... أَمْ هَلْ لَهُ مِنْ حِمَامِ الْمَوْتِ مِنْ رَاقِ؟

وقيل: هذا من قول الملائكة، الذين يحضرونه عند الموت، يقول بعضهم لبعض: من يرقى بروحه، إذا خرجت من جسده، فيصعد بها ملائكة الرحمة، أو ملائكة العذاب. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أنه مِنْ: رَقِيَ يرقى: إذا صعد. هذا؛ وعلى التفسير الأول فـ: ﴿رَاقٖ﴾ اسم فاعل مِنْ: رَقَى، يَرْقِي بالفتح في الماضي، والكسر في المضارع. وعلى التفسير الثاني فهو مِنْ: رَقِيَ، يَرْقَى بالكسر في الماضي، والفتح في المضارع.

هذا؛ و﴿رَاقٖ﴾ أصله: راقيٌ، أو راقيٍ بضمة على الياء علامة للرفع، أو بكسرة علامة للجر، وبتنوين الصرف، لكن استثقلت الضمة، أو الكسرة على الياء بعد كسرة، فسكنت الياء، فالتقى

ساكنان: الياء والتنوين، فحذفت الياء لعلة الالتقاء، وبقيت القاف على ما كانت عليه قبل الإعلال، فقيل: راقٍ بالكسر، وإنما لم يقل بالرفع؛ لأن الياء محذوفة لعلة الالتقاء، فهي كالثابتة، فتمنع الرفع للقاف، وهكذا قل في إعلال كل اسم منقوص مجرد من «أل» والإضافة، سواء أكان ثلاثياً، أم رباعياً؟.

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ أي: أيقن مَنْ بلغت روحه التراقي. ولم يتقدم له ذكر أيضاً، وإنما فهم من فحوى الجملة السابقة، والمراد بـ: ﴿ٱلْفِرَاقُ﴾ فراقه الدنيا، والأهل، والمال، والولد، وذلك حين عاين الملائكة. قال الشاعر: [الوافر]

فِـراقٌ لَـيْـسَ يُـشْـبِـهُـهُ فـراقُ قـدِ انـقـطـعَ الـرَّجَـاءُ عَـنِ الـتـلَاقِ

﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ أي: فاتصلت الشدة بالشدة، شدة آخر الدنيا بشدة أول الآخرة. قاله ابن عباس، والحسن، وغيرهما. وقال الشعبي، وغيره: المعنى التفت ساقا الإنسان عند الموت من شدة الكرب. وقال قتادة: أما رأيته إذا أشرف على الموت يضرب إحدى رجليه على الأخرى. وقال الضحاك، وابن زيد: اجتمع عليه أمران شديدان، الناس يجهزون جسده، والملائكة يجهزون روحه. والعرب لا تذكر الساق إلا في المحن، والشدائد العظام، ومنه قولهم: قامت الدنيا على ساق، وقامت الحرب على ساق، استعارة لشدتها. قال الشاعر: [الرجز]

صَـبْـراً أُمَـامُ إنَّـهُ شَـرٌّ بَـاقِ وَقَـامَـتِ الْـحَـرْبُ بِـنَـا عَـلَـى سَـاقِ

وانظر ما ذكرته في سورة (القلم) رقم [٤٢]. وقال قوم: الكافر تُعذب روحه عند خروج نفسه، فهذه الساق الأولى، ثم يكون بعدها ساق البعث، وشدائده. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: إلى خالقك. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة. ﴿ٱلْمَسَاقُ﴾ أي: مرجع العباد إلى الله تعالى، يساقون إليه؛ ليفصل بينهم. وفي بعض التفاسير قال: يسوقه ملكه الذي كان يحفظ عليه السيئات. هذا؛ والمساق: المصدر من: ساق، يسوق، مثل: المقال من قال، يقول، فهما مصدران ميمِّيان.

الإعراب: ﴿كَلَّآ﴾: حرف ردع، وزجر. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك، مبني على السكون في محل نصب. ﴿بَلَغَتِ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث، والفاعل محذوف، يدل عليه المقام، كما رأيت في الشرح. ﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على المشهور المرجوح. ﴿وَقِيلَ﴾: الواو: حرف عطف. (قيل): فعل ماض مبني للمجهول. ﴿مَنْ﴾: اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿رَاقٍ﴾: خبر المبتدأ مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين، والجملة الاسمية في محل رفع نائب فاعل (قيل) أفاده ابن هشام في مغنيه، وهذا يكون جارياً على القاعدة العامة: «يحذف الفاعل، ويقام المفعول به مقام الفاعل» وهذا لا غبار عليه، وقد ذكرت لك مراراً: أن بعضهم يعتبر نائب الفاعل ضميراً مستتراً تقديره:

«هو»، يعود إلى المصدر المفهوم من الفعل، أو هو محذوف يدل عليه المقام، التقدير: وقيل قول. وبعضهم يعتبر الجار، والمجرور: (لهم) المذكور، أو المقدر كما هنا في محل رفع نائب فاعل، والمعتمد الأول، وأيده ابن هشام في المغني، حيث قال: إن الجملة التي يراد لفظها، يحكم لها بحكم المفردات، ولهذا تقع مبتدأ، نحو: «**لا حوْلَ ولا قوةَ إلَّا باللهِ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنةِ**». ونحو (زَعَمُوا: مَطِيَّةُ الْكَذِبِ) وقول معاوية بن خليل النصري شاعر إسلامي ـ وهو الشاهد رقم [٧٩٣] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» إعراب شواهد مغني اللبيب ـ. [الطويل]

وَمَــا رَاعَــنِــي إِلَّا يَــسِــيــرُ بِــشُــرْطَــةٍ وَعَــهْــدِي بِــهِ قَــيْــنــاً يَــسِــيــرُ بِــكِــيــرِ

والجملة الفعلية: ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ﴾ معطوفة على ما قبلها، فهي في محل جر مثلها. ﴿وَظَنَّ﴾: الواو: حرف عطف. (ظن): فعل ماض، والفاعل يعود إلى ما يفهم من المقام، أي: ظن الذي بلغت روحه التراقي. ﴿أَنَّهُ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء في محل نصب اسمه. ﴿ٱلْفِرَاقُ﴾: خبر (أنَّ)، و(أنَّ) واسمها، وخبرها في تأويل مصدر في محل نصب سد مسد مفعولي (ظنَّ)، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل جر مثلها. (التفت): فعل ماض، والتاء للتأنيث. ﴿ٱلسَّاقُ﴾: فاعل. ﴿بِٱلسَّاقِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وتعليقهما بحال من ﴿ٱلسَّاقُ﴾ الأولى جيد معنىً، أي: حالة كون الساق ملتفة بالساق الثانية. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: (يوم): ظرف زمان متعلق بالخبر المحذوف، أو بمحذوف خبر ثان، أو بمحذوف حال من الضمير المستتر في الخبر المحذوف، وتعليقه بالمصدر بعده ضعيف؛ لأن المصدر لا يعمل مؤخراً، وقد يجاب بأنه يتوسع في الظرف والجار، والمجرور ما لا يتوسع في غيرهما؛ و(إذ) ظرف لما مضى من الزمان مبني على السكون في محل جر بالإضافة، والتنوين عوض عن جملة محذوفة، التقدير: يوم إذ تلتف الساق بالساق. ﴿ٱلْمَسَاقُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية تدل، أو قائمة مقام جواب ﴿إِذَا﴾ التقدير: إذا بلغت الروح الحلقوم تساق إلى حكم ربها، و﴿إِذَا﴾ ومدخولها كلام مستأنف، لا محل له.

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾

الشرح: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾: يعني أبا جهل الخبيث لم يصدق بالقرآن، ولا بالرسول ﷺ، ولم يصل لله تعالى. وقيل: يرجع هذا إلى الإنسان في أول السورة، وهو اسم جنس. والأولى التعميم لكل من لم يصدق، ولم يصل من الكافرين، والفاجرين، والفاسدين المفسدين؛ لأن خصوص السبب لا يمنع التعميم إلى يوم القيامة. وقيل: صدق من: التصدق، والمعنى: فلا تصدق بشيء يدخره عند الله. هذا؛ وكررت (لا) في الجملة الثانية؛ لأن المقرر في القواعد النحوية: أن (لا) إذا دخلت على جملة اسمية، ولم تعمل فيها، أو دخلت على فعل ماض؛ وجب

تكرارها. ذكر ذلك ابن هشام ـ رحمه الله ـ في المغني. وانظر الشاهد رقم [٤٤٣] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» وما بعده تجد ما يسرك، ويثلج صدرك. هذا؛ و(لا) هنا بمعنى: لم؛ إذ المعنى لم يصدق، ولم يصل، والعرب تقول: لا ذهب، ولا جاء، أي: لم يذهب، ولم يجئ، فحرف النفي ينفي الماضي، كما ينفي المستقبل، ومنه قول زهير في معلقته رقم [٤٠]: [الطويل]

وَكَانَ طَوَى كَشْحاً عَلَى مُسْتَكِنَّةٍ فَلَا هُوَ أَبْدَاهَا، وَلَمْ يَتَقَدَّمِ

﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: كذب بالقرآن، وتولى عن الإيمان. هذا؛ والتولي، والإعراض، والإدبار عن الشيء يكون بالجسم، ويستعمل في الإعراض عن الأمور المعنوية، والاعتقادات اتساعاً، ومجازاً. ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ أي: يتبختر، ويختال في مشيته افتخاراً، وإعجاباً بنفسه، من: المطا، وهو الظهر. والمعنى يلوي مطاه تبختراً في مشيته، أصله يَتَمَطَّطُ من تمطَّط، أي: تمدد، ومن لازم التبختر ذلك، فهو يقرب من معنى الأول، ويفارقه في مادته؛ إذ مادة الأول (م ط و) ومادة الثاني (م ط ط) وإنما أبدلت الطاء الثالثة ياء كراهة اجتماع الأمثال، ثم قلبت ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها. والمطيطاء: التبختر، ومد اليدين في المشي، وفي الخبر: «**إذا مَشَتْ أُمَّتي الْمُطَيْطَاءَ، وخدمتهمْ فارسٌ، والرومُ كان بأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ**» والمطيط، والمطيطة: الماء الخاثر في أسفل الحوض؛ لأنه يتمطط، أي: يتمدد، والمطيطاء من المصغرات، التي لم يستعمل لها مكبر.

﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ...﴾ إلخ: تهديد بعد تهديد، ووعيد بعد وعيد، أي: فهو وعيد أربعة لأربعة، كما روي: أنها نزلت في أبي جهل، الجاهل بربه، فقال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: لا صدق رسول الله، ولا وقف بين يدي الله فصلى، ولكن كذب رسول الله، وتولى عن التصلية بين يديه تعالى، فترك التصديق خصلة، والتكذيب خصلة، وترك الصلاة خصلة، والتولي عن الله تعالى خصلة، فجاء الوعيد أربعة مقابلة لترك الخصال الأربعة.

وفي أسباب النزول للسيوطي: وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما نزل: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال أبو جهل الخبيث: ثكلتكم أمهاتكم يخبركم ابن أبي كبشة: أن خزنة جهنم تسعة عشر، وأنتم الدهم، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم؟! فأوحى الله إلى رسوله ﷺ أن يأتي أبا جهل، فيقول: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ...﴾ إلخ. وأخرج النسائي عن سعيد بن جبير ـ رحمه الله تعالى ـ: أنه سأل ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن قوله: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ أشيء قاله رسول الله ﷺ من قبل نفسه، أم أمره الله به؟ قال: بل قاله من قبل نفسه، ثم أنزله الله. انتهى. ولا تنس: أن الله تعالى صرعه شر صرعة، وقتله شر قتلة، وكان النبي ﷺ يقول: «**إن لكل أمة فرعوناً، وإن فرعون هذه الأمة أبو جهل**».

وروي: أن النبي ﷺ خرج من المسجد ذات يوم، فاستقبله أبو جهل على باب المسجد مما يلي باب بني مخزوم، فأخذ رسول الله ﷺ بيده، فهزه مرة، أو مرتين، ثم قال له: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ

﴿فَأَوْلَىٰ﴾ فقال أبو جهل الخبيث: أتهددني؟ فو الله إني لأعز أهل الوادي وأكرمه، ونزل على رسول الله ﷺ كما قال لأبي جهل. قال الشاعر: [الوافر]

فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى ... وهلْ لِلدَّرِّ يُحْلَبُ مِنْ مَرَدِّ

وقيل: معناه: الويل لك، ومنه قول الخنساء ـ رضي الله عنها ـ: [المتقارب]

هَمَمْتُ بِنَفْسِيَ كُلَّ الهُمُومِ ... فأَوْلَى لِنَفْسِيَ أَوْلَى لَهَا

سَأَحْمِلُ نَفْسِي عَلَى آلَةٍ ... فَإِمَّا عَلَيْهَا وَإِمَّا لَهَا

والمعنى للآية الكريمة: الويل لك حياً، والويل لك ميتاً، والويل لك يوم البعث، والويل لك يوم تدخل النار. وقال الأصمعي ـ رحمه الله تعالى ـ: أولى في كلام العرب معناه: مقاربة الهلاك، كأنه يقول: قد وليت الهلاك، قد دانيت الهلاك. وأصله من الولي، وهو القرب. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ أي: يقربون منكم، وقد استحسن ثعلب، والنحاس ما قاله الأصمعي، وأنشد الأصمعي قول الشاعر: [الوافر]

فَعَادَى بَيْنَ هَادِيَتَيْنِ مِنْهَا ... وَأَوْلَى أَنْ يَزِيدَ عَلَى الثَّلَاثِ

هذا؛ وانظر الشاهد رقم [٦٩٤] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» وما يتعلق به.

الإعراب: ﴿فَلَا﴾: الفاء: حرف عطف. (لا): نافية. ﴿صَدَّقَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى أبي جهل، أو إلى الإنسان، وهو أولى. انظر الشرح، والمتعلق محذوف. انظر تقديره في الشرح. والجملة الفعلية معطوفة على قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ...﴾ إلخ. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية. ﴿صَلَّىٰ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والفاعل تقديره: «هو»، والمتعلق محذوف أيضاً، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿وَلَٰكِن﴾: الواو: حرف عطف. (لكن): حرف استدراك مهمل لا عمل له. ﴿كَذَّبَ﴾: فعل ماض، والفاعل: «هو». (تولى): فعل ماض، والفاعل: «هو»، ومتعلق الفعلين محذوف. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿ذَهَبَ﴾: فعل ماض، والفاعل تقديره: «هو». ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾: متعلقان بما قبلهما، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر، والفاعل تقديره: «هو»، والجملة الفعلية في محل نصب حال من فاعل ﴿ذَهَبَ﴾ المستتر، والرابط: الضمير فقط. ﴿أَوْلَىٰ﴾: فعل ماض، أو اسم فعل ماض. قاله الأصمعي، والمبرد، معناه: قربه ما يهلكه، وفاعله مضمر يدل عليه السياق، كأنه قيل: أولى هو، وقد ارتضى هذا الرأي: ثعلب، فقال: لم يقل أحد في ﴿أَوْلَىٰ﴾ أحسن مما قاله الأصمعي، والأكثرون: أنه اسم، وعليه في إعرابه أوجه: أحدها: أنه مبتدأ، خبره الجار، والمجرور، التقدير: فالهلاك لك. والثاني: خبر مبتدأ مضمر، تقديره: العقاب، أو الهلاك أولى لك. والثالث: أنه مبتدأ، و﴿لَكَ﴾ متعلقان به، والخبر

محذوف، التقدير: أولى بك العقاب، أو الهلاك. انتهى. من سورة (محمد ﷺ)، وقد ذكر أبو البقاء هنا اعتباره اسماً، أو اسم فعل، وذكر الجلال هنا: أنه اسم فعل بمعنى: وليك ما تكره، واللام زائدة، والكاف مفعول به، والفاعل ضمير مستتر يعود على ما تقدم. ﴿أَوْلَىٰ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: فهو أولى، أي: فهو أفعل تفضيل، فدلت الأولى على الدعاء عليه بقرب المكروه منه، ودلت الثانية على الدعاء عليه بأن يكون أقرب إليه من غيره، والكلام كله مستأنف، والآية الثانية معطوفة على ما قبلها، وإعرابها مثلها بلا فارق، وهي مفيدة للتوكيد. هذا؛ وقال القرطبي، وغيره: ولم ينصرف ﴿أَوْلَىٰ﴾؛ لأنه صار علماً للوعيد، فصار كرجل اسمه: أحمد.

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾

الشرح: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: الكافر، والفاجر، والفاسق. ﴿أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ أي: هملاً لا يؤمر، ولا ينهى، ولا يكلف في الدنيا بطاعة، وعبادة، ولا يحاسب في الآخرة، كالبهائم المرسلة. قال تعالى في سورة (المؤمنون) رقم [١١٥]: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ انظر شرحها هناك؛ تجد ما يسرك، ويثلج صدرك. هذا؛ و﴿سُدًى﴾ مهملاً، يقال: إبل سدى؛ أي: مهملة؛ أي: ترعى بلا راعٍ، وأسديت حاجتي؛ أي: ضيعتها، ومعنى أسدى إليه معروفاً: أنه جعله بمنزلة الضائع عند المسدى إليه، لا يذكره، ولا يمن به عليه، والسُّدَى أيضاً: ندى الليل، وبه يعيش الزرع، وأسديت إليه معروفاً: اتخذته عنده. هذا؛ وسدًى أصله: (سدياً) بضم السين، وفتح الدال، وتحريك الياء منونة، فقلبت الياء ألفاً لتحركها، وانفتاح ما قبلها، فاجتمع ساكنان: الألف، والتنوين، الذي يرسم ألفاً في حالة النصب بحسب الأصل، فحذفت الألف لالتقاء الساكنين، فصار: (سدًى) وإنما أتوْا بياء أخرى لتدل على الياء المحذوفة الأصلية، بخلاف ما إذا لم يأتوا بها، وقالوا: (سُداً) فلا يوجد ما يدل عليها. هذا؛ وقيل: «أيحسب أن يترك سدىً» أي: في قبره كذلك أبداً، لا يُبعث، ولا يحاسب، ولا يجازى. ومنه قول الشاعر: [المتقارب]

فَأُقْسِمُ بِاللهِ جَهْدَ الْيَمِينِ ... مَا تَرَكَ اللهُ شَيْئاً سُدَى

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ أي: يصب في الرحم، ويراق. يقال: منى الرجل، وأمنى من المني، وسميت منىً، (المكان قرب مكة) بهذا الاسم لما يمنى فيها من الدماء، أي: يراق. وقيل: تمْنى: تقدر. قاله أبو عبيدة، يقال: منيت الشيء: إذا قدرته، ومني له، أي: قدر له. قال أبو قلابة الهذلي: [البسيط]

وَلَا تَقُولَنْ لِشَيْءٍ سوفَ أفْعَلُهُ ... حَتَّى تُلَاقِيَ ما يُمْني لَكَ الْمَانِي

وقال آخر: [البسيط]

لَا تَأْمَنَنَّ وَإِنْ أَمْسَيْتَ فِي حَرَمٍ حَتَّى تُلَاقِي مَا يَمْنِي لَكَ الْمَانِي

أي: ما يقدر لك القادر، وفي هذا تنبيه على كمال قدرته جل شأنه؛ لأن النطفة شيء واحد، خلق الله منها أعضاءً مختلفةً، وطباعاً متباينةً، وخلق منها الذكر، والأنثى، وهذا من عجيب صنعته، وكمال قدرته. هذا؛ ولم تذكر كلمة ﴿سُدًى﴾ في غير هذه السورة، وانظر: إعلال ﴿يَكُ﴾ في سورة (المدثر) رقم [٤٣].

الإعراب: ﴿أَيَحْسَبُ﴾: الهمزة: حرف استفهام إنكاري توبيخي. (يحسب الإنسان): فعل مضارع، وفاعله. ﴿أَن﴾: حرف مصدري، ونصب. ﴿يُتْرَكَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول منصوب بـ: (أنْ)، ونائب الفاعل مستتر تقديره: «هو»، يعود إلى الإنسان. ﴿سُدًى﴾: حال من نائب الفاعل المستتر، أو هو مفعول به ثان لـ: ﴿يُتْرَكَ﴾ فهو منصوب على الوجهين، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين، والثابتة دليل عليها، وليست عينها، و﴿أَن﴾ والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل نصب سد مسد مفعولي (يحسب)، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿أَلَمْ﴾: الهمزة: حرف استفهام وتقرير. (لم): حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿يَكُ﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ: (لم) وعلامة جزمه السكون على النون المحذوفة للتخفيف، واسمه ضمير مستتر تقديره: هو يعود إلى الإنسان. ﴿نُطْفَةً﴾: خبر ﴿يَكُ﴾. ﴿مِّن مَّنِيٍّ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة ﴿نُطْفَةً﴾. ﴿يُمْنَىٰ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر، ونائب الفاعل يعود إلى ﴿مَّنِيٍّ﴾، والجملة الفعلية في محل جر صفة ﴿مَّنِيٍّ﴾، والجملة الفعلية: ﴿أَلَمْ يَكُ...﴾ إلخ قال الجمل فيها: هي استدلال على قوله سابقاً: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ وهو يفيد أنها تفسير لتلك الآية. هذا؛ ويقرأ: (تُمْنَى) بتاء المضارعة، وعليه فنائب الفاعل يعود إلى ﴿نُطْفَةً﴾، والجملة الفعلية في محل نصب صفة ثانية لـ: ﴿نُطْفَةً﴾، أو في محل نصب حال منها بعد وصفها بما تقدم.

﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾

الشرح: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ أي: صار المني قطعة دم جامد بعد أربعين يوماً من استقراره في الرحم، وفي سورة (الكهف) رقم [٣٧] قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ وسواه تسوية، وعدله تعديلاً بجعل الروح، وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٥] من سورة (الحج)، وأيضاً في سورة (المؤمنون) رقم [١٤] تجد ما يسرك، ويثلج صدرك. هذا؛ والخلق له معانٍ: منها: الإيجاد، والإبداع، ولا موجد، ولا مبدع إلا الله تعالى. ومنها التقدير. قال زهير بن أبي سلمى من قصيدة يمدح بها هرم بن سنان المري: [الكامل]

وَلأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْـ ـضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي

معناه: أنت تقدر الأمور، وتقطعها، وغيرك لا يفعل ذلك، وقد قال البيضاوي: المعنى: فقدَّره، فعدَّله. ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ﴾: الصنفين، والضمير يعود إلى الإنسان، أو إلى المني. ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾: يجتمعان في الرحم تارةً، وينفرد كل منهما عن الآخر تارةً، وهو الغالب كما هو مشاهد، وواقع. وانظر تفصيل ذلك في سورة (الشورى) رقم [٥٠].

هذا؛ وقد قال تعالى في سورة (الذاريات) رقم [٤٩]: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي: صنفين، ونوعين مختلفين. قال ابن زيد: أي: ذكراً، وأنثى، وحلواً، وحامضاً، ونحو ذلك، وقال مجاهد ـ رحمه الله تعالى ـ: الذكر، والأنثى من كل شيء، من السماء، والأرض، والشمس، والقمر، والليل، والنهار، والنور، والظلمة، والسهل، والجبل، والإنس، والجن، والخير، والشر، والبكرة، والعشي، وكالأشياء المختلفة الألوان والطعوم، والأراييح، والأصوات. أي: جعلنا هذا كدلالة على قدرتنا، ومن قدر على هذا؛ فهو أقدر على الإعادة. هذا؛ ويضاف زوجية بين الإيمان، والكفر، والجنة، والنار، والسعادة، والشقاوة، والحسن، والقبح، حتى الحيوانات، والنباتات.

هذا؛ وقد قال تعالى في سورة (يس) رقم [٣٦]: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾. قال محمد علي الصابوني: سبحان الله، ما أعظم قدرة الله! لقد كان السائد: أن الزوجية تكون بين الإنسان، والحيوان فقط، وجاء القرآن بالمعجزة الباهرة، المثبتة لما اكتشفه العلم الحديث منذ زمن قريب، وهي أن الزوجية بين الإنسان، والحيوان، والنبات، والذرة، وسائر الكائنات، فقد ثبت: أن الذرة، وهي أصغر أجزاء المادة، مؤلفة من زوجين مختلفين من الإشعاع الكهربائي: سالب، وموجب، يتزاوجان، فيتحدان، وأن بين النبات أعضاء مذكرة، وأعضاء مؤنثة. فسبحان العلي القدير القائل: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ...﴾ إلخ. هذا؛ وقوله تعالى في سورة (الذاريات): ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ عمم الزوجية في الإنسان، والحيوان، والنبات، وفي كل شيء مما نعلمه، ومما لا نعلمه. فسبحان الإله العلي القدير العليم، الذي أحاط علمه بكل الألوان، وأحصى كل شيء عدداً! انتهى.

الإعراب: ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه ضمير مستتر تقديره: «هو». ﴿عَلَقَةً﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿فَخَلَقَ﴾: الفاء: حرف عطف. (خلق): فعل ماض، والفاعل يعود إلى الله، ولم يتقدم له ذكر، لكنه مفهوم من المقام. ومفعوله محذوف، التقدير: خلقه، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿فَسَوَّىٰ﴾: الفاء: حرف عطف. (سَوَّىٰ): فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى (الله) أيضاً، ومفعوله محذوف، التقدير: فسواه، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها أيضاً. ﴿فَجَعَلَ﴾: الفاء: حرف عطف. (جعل): فعل ماض، والفاعل يعود إلى (الله) أيضاً. ﴿مِنْهُ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿ٱلزَّوْجَيْنِ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنه مثنى، والنون عوض من التنوين في الاسم المفرد. ﴿ٱلذَّكَرَ﴾: بدل من الزوجين بدل

بعض من كل. ﴿وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾: معطوف على ما قبله منصوب مثله، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذر، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها.

﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾

الشرح: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ﴾ أي: أليس الذي قدر على خلق الإنسان من نطفة مذرة، وخلق الموجودات كلها من العدم. ﴿عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: على أن يعيد هذه الأجسام كهيئتها بعد فنائها للحساب والجزاء، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ مِنْكُمْ** ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ **فانتهى إلى آخرها** ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ **فليقل: بلى! وأنا على ذلك من الشاهدين، ومَنْ قرأ:** ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ **فانتهى إلى** ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ **فليقلْ: بلى! ومَنْ قرأ** ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ **فبلغ:** ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ **فليقل: آمَنَّا بالله**». أخرجه أبو داود. وله عن موسى بن أبي عائشة قال: كان رجل يصلي فوق بيته، فكان إذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ قال: سبحانك اللهمَّ، بلى! فسألوه عن ذلك، فقال: سمعته من رسول الله ﷺ. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿أَلَيْسَ﴾: الهمزة: حرف استفهام، وتقرير بالنسبة للمؤمنين، واستفهام، وتوبيخ، وتقريع بالنسبة للكافرين، والمنكرين للبعث، والجزاء. (ليس): فعل ماض ناقص. ﴿ذَٰلِكَ﴾: (ذا): اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع اسم (ليس)، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب، لا محل له. ﴿بِقَٰدِرٍ﴾: الباء: حرف جر صلة. (قادر): خبر (ليس) منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد، وفاعله مستتر فيه. ﴿عَلَىٰٓ﴾: حرف جر، والمصدر المؤول من: ﴿أَن يُحْـِۧىَ﴾ في محل جر بـ: ﴿عَلَىٰٓ﴾، والجار، والمجرور متعلقان بـ: (قادر)، وفاعل ﴿يُحْـِۧىَ﴾ يعود إلى (الله) المفهوم من المقام. ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذر، وجملة: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ...﴾ إلخ مستأنفة، لا محل لها. تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه، وسلم.

انتهت سورة (القيامة) شرحاً وإعراباً بفضل الله وتوفيقه.

والحمد لله رب العالمين.

سورة الإنسان

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة (الدهر) وتسمى سورة (الإنسان) أيضاً مكية في قول ابن عباس، ومقاتل، والكلبي. وقال الجمهور: مدنية. وقيل: فيها مكي من قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ إلى آخر السورة، وما تقدمه مدني. وهي إحدى وثلاثون آيةً، ومئتان وأربعون كلمةً، وألف وأربعة وخمسون حرفاً. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ...﴾ إلخ (السجدة)، و﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ...﴾ إلخ أخرجه مسلم.

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾

الشرح: ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾: قال الكسائي، والفراء، وأبو عبيدة: ﴿هَلْ﴾ بمعنى: «قد»، والمعنى: قد أتى على الإنسان، كما تقول: هل رأيت صنيع فلان، وقد علمت: أنه قد رآه. وتقول: هل أكرمتك؟ هل وعظتك؟ ومقصودك: أن تقرره بأنك قد أكرمته، ووعظته. وبه قال القرطبي، والخازن في قوله تعالى في سورة (النازعات): ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ وذكر الزمخشري: أنه منقول عن سيبويه، وذكر قول زيد الخير، وهو الشاهد رقم [٦٥٧] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [البسيط]

سَائِلْ فَوَارِسَ يَرْبُوعٍ بِشَدَّتِنَا ... أَهَلْ رَأَوْنَا بِسَفْحِ الْقَاعِ وَالأَكَمِ؟

وقد كذَّب ابن هشام الزمخشري بأن سيبويه لم يقل به، وقد ردَّ البغدادي على ابن هشام في تكذيبه الزمخشري بقوله: إن الزمخشري إمام حافظ، ثقة مأمون فيما ينقله، فكان ينبغي له التأدب معه، لشأنه الرفيع، ومقامه المنيع. انظر الكلام على الشاهد المذكور آنفاً تجد ما يسرك، ويثلج صدرك. هذا؛ وعبارة السمين: في ﴿هَلْ﴾ هذه وجهان: أحدهما: أنها على بابها من الاستفهام المحض. والثاني: أنها بمعنى: قد. وقال مكي في تقرير كونها على بابها من الاستفهام، الذي معناه التقرير: وهو تقرير لمن أنكر البعث، فلا بد أن يقول: نعم قد مضى دهر طويل، لا إنسان فيه، فيقال له: مَن أحدثه بعد أن لم يكن، وكوَّنه بعد عدمه، كيف يمتنع عليه بعثه، وإحياؤه بعد موته؟! وهو معنى قوله تعالى في سورة (الواقعة) رقم [٦٢]: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: فهلّا تذكرون، فتعلمون: أن من أنشأ شيئاً بعد أن لم يكن على غير مثال سبق قادر على إعادته بعد موته، وعدمه. انتهى. بتصرف.

هذا؛ والحين: الوقت قليلاً كان، أو كثيراً، والمدة من الزمن قصيرة كانت، أو طويلة، وجمعه: أحيان، وجمع الجمع: أحايين. هذا؛ والحين بفتح الحاء: الهلاك، والموت. هذا؛ وقال قتادة، والزجاج في قوله تعالى في آخر سورة (صٓ): ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾: بعد الموت. وقال ابن عباس، وعكرمة، وابن زيد ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ: يعني: يوم القيامة. وكان الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: يا بن آدم! عند الموت يأتيك الخبر اليقين. وسئل عكرمة عمن حلف ليصنعن كذا إلى حين. قال: إن من الحين ما لا تدركه، كقوله تعالى في سورة (صٓ): ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾، ومنه ما تدركه، كقوله تعالى في سورة (إبراهيم) رقم [٢٥]: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ من صِرام النخل إلى طلوعه ستة أشهر.

﴿عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ أي: آدم، على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام. ﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾: يعني مدة أربعين سنة، وهو طين ملقىً، فعن أنس ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: «**لما صوَّر الله آدم في الجنة، تركه الله ما شاء أن يتركه، فجعل إبليس يطوف به، وينظر إليه، فلما رآه أجوف؛ عرف أنه خلْقٌ لا يتمالك**». رواه مسلم، وروي في تفسير الآية: أن آدم عليه السلام بقي أربعين سنةً طيناً، وأربعين سنةً حمأً مسنوناً، وأربعين سنةً صلصالاً كالفخار، فتم خلقه بعد مئة وعشرين سنةً، ثم نفخ فيه الروح.

﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ أي: لا يُذكر، ولا يعرف، ولا يُدرى ما اسمه، ولا ما يراد به؟ وذلك قبل أن ينفخ فيه الروح كان شيئاً، ولم يكن شيئاً يذكر. روي عن عمر: أنه سمع رجلاً يقرأ هذه الآية: ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: ليتها تَمَّتْ، يعني ليته بقي على ما كان عليه؛ أي: لا يذكر أبداً، فلا يلد، ولا يبتلى بأولاده، ويروى مثله عن أبي بكر، وابن مسعود ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ. ثم لما عرف الله الملائكة: أنه جعل آدم خليفة في الأرض، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ الآية رقم [٣٠] من سورة (البقرة)، وحمَّله الأمانة التي عجزت السموات، والأرض، والجبال عنها، وذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا...﴾ إلخ. الآية رقم [٧٢] من سورة (الأحزاب)، ظهر فضله على الكل، فصار مذكوراً؛ وإن كان مذكوراً لله. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿هَلْ﴾: حرف استفهام. ويقال: للتشويق. وانظر الشرح. ﴿أَتَىٰ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر. ﴿عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿حِينٌ﴾: فاعل ﴿أَتَىٰ﴾، والجملة الفعلية ابتدائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾: متعلقان بمحذوف صفة ﴿حِينٌ﴾. ﴿لَمْ﴾: حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿يَكُن﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ: ﴿لَمْ﴾، واسمه ضمير مستتر تقديره: «هو» يعود إلى الإنسان. ﴿شَيْـًٔا﴾: خبر ﴿يَكُن﴾. ﴿مَّذْكُورًا﴾: صفة ﴿شَيْـًٔا﴾، والجملة الفعلية في محل نصب حال من ﴿ٱلْإِنسَٰنِ﴾، أو هي في محل رفع صفة ﴿حِينٌ﴾، أو هي في محل نصب حال منه بعد وصفه بما تقدم، والرابط على

الأول: الضمير، وعلى الاعتبارين الأخيرين؛ فالرابط محذوف، التقدير: لم يكن فيه شيئاً مذكوراً. والأول أظهر لفظاً، ومعنىً. انتهى. جمل نقلاً من السمين.

تنبيه: الدهر: الزمان قل، أو كثر، لكن قال بعضهم: إطلاقه على الزمن القليل مجاز، واتساع، ويطلق أيضاً على الأبد، ويقع على مدة الدنيا كلها. ودهر الدهارير: زمن الشدائد. قال الفرزدق من قصيدة يمدح فيها يزيد بن عبد الملك: [البسيط]

بِالْبَاعِثِ الْوَارِثِ الأمواتِ قَدْ ضَمِنَتْ إِيَّاهُمُ الأَرْضُ فِي دَهْرِ الدَّهَارِيرِ

وجمع الدهر: دهور. ودهر الإنسان: الزمن الذي يعيش فيه، والدُّهري بضم الدال: الرجل المسن، وبفتحها: الملحد الذي لا يعتقد بوجود الخالق جل وعلا. والدهر لا يثبت على وتيرة واحدة، بل هو يتقلب بالإنسان، من حالة إلى حالة. قال العجاج بن رؤبة ـ وهو الشاهد رقم [١٢] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الرجز]

أَطَرَباً وَأَنْتَ قِنَّسْرِيُّ؟ وَالدَّهْرُ بِالإِنْسَانِ دَوَّارِيُّ

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله عز وجل: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدهْرَ، وأنَا الدَّهْرُ، بيدِي الأمْرُ، أُقَلِّبُ الليْلَ وَالنَّهارَ**». وفي رواية: «**يُؤْذِينِي ابْنُ آدَم، ويقول: يا خَيْبَةَ الدَّهْرِ! فلَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: يا خَيْبَةَ الدهرِ؛ فإني أنَا الدَّهْرُ، أُقَلِّبُ لَيْلَهُ، وَنَهَارَهُ، فَإِذَا شِئْتُ قَبَضْتُهُمَا**». وفي رواية: «**يَسُبُّ ابنُ آدَمَ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ بيدِي اللَّيْلُ، وَالنَّهَارُ**». ومعنى هذه الأحاديث: أن العرب كان من شأنها ذم الدهر، وسبه عند النوازل؛ لأنهم كانوا ينسبون إلى الدهر ما يصيبهم من المصائب، والمكاره، فيقولون: أصابتهم قوارع الدهر، وأبادهم الدهر، كما أخبر الله عز وجل حكاية عنهم بقوله: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ رقم [٢٤] سورة (الجاثية)، فإذا أضافوا إلى الدهر ما نالهم من الشدائد، وسبوا فاعلها، كان مرجع سبهم إلى الله تعالى؛ إذ هو الفاعل في الحقيقة للأمور التي يضيفوها إلى الدهر، لا الدهر نفسه فاعلها، فنهوا عن سب الدهر. وقيل لهم: لا تسبوا فاعل ذلك، فإنه هو الله عز وجل، والدهر مُتَصرَّف فيه يقع به التأثير، كما يقع بكم، والله أعلم. انتهى. خازن.

هذا؛ وكثيراً ما نسمع في أيامنا هذه من يلعن، ويسُب الساعة، واليوم الذي رأى فيه فلاناً، أو باع، أو اشترى كذا، أو عامل فلاناً، أو الساعة التي جرى فيها قرانه بزوجته، وهي بزوجها، ليبوءوا بغضب الله، وسخطه، وقد يكونون من المصلين الصائمين، ولقد أحسن أبو علي الثقفي؛ إذ يقول: [السريع]

يَا عَاتِبَ الدَّهْرِ إِذَا نَابَهُ لَا تَلُمِ الدَّهْرَ عَلَى غَدْرِهِ

الدَّهْرُ مَأْمُورٌ لَهُ آمِرٌ وَيَنْتَهِي الدَّهْرُ إِلَى أَمْرِهِ

كَـمْ كَـافِـرٍ أمـوالُـهُ جَـمَّـةٌ تَـزْدَادُ أَضْـعَـافاً عـلَـى كُـفْـرِهِ
وَمُـؤْمِـنٍ لَـيْـسَ لَـهُ دِرْهَـمٌ يَـزْدَادُ إيـمَـانـاً عـلَـى فَـقْـرِهِ

وروي: أن سالم بن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهم ـ كان كثيراً ما يذكر الدهر، فزجره أبوه، وقال له: إياك يا بني وذكر الدهر: [الطويل]

فَمَا الدَّهْرُ بالجاني لِشَيْءٍ لِحينِهِ وَلَا جَالِبِ الْبَلْوَى فلا تَشتمِ الدَّهْرَا
ولكنْ مَتَى ما يبعثِ اللهُ بَاعِثاً عَلَى مَعْشَرٍ يَجْعَلْ مياسِيرَهُمْ عُسْرا

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾: يعني ابن آدم بلا خلاف. وقال الخازن ـ رحمه الله تعالى ـ: فالإنسان في الموضعين واحد، فعلى هذا يكون معنى قوله: ﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ طائفة من الدهر غير مقدرة ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ يعني: أنهم كانوا نطفاً في الأصلاب، ثم علقاً، ومضغاً في الأرحام، لم يذكروا بشيء. ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يعني: ولد آدم. انتهى. ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾: من ماء ينطف، أي: يقطر، وهو المني، وكل ماء قليل في وعاء فهو نطفة، كقول عبد الله بن رواحة ـ رضي الله عنه ـ يعاتب نفسه، لما تهيبت وتخوفت القتال والنزال في غزوة مؤتة: [الرجز]

مَالِي أَرَاكِ تَكْرَهِينَ الْجَنَّةْ؟ هَلْ أَنْتِ إِلَّا نُطْفَةٌ فِي شَنَّةْ؟

الشَّنَّة: القربة، وجمع نطفة: نُطَف، ونِطَاف. ﴿أَمْشَاجٍ﴾: أخلاط، واحدها: مِشْج، ومَشِيج، مثل: خِدْن، وخَدِين. قال رؤبة: [الرجز]

يَطْرَحْنَ كُلَّ مُعَجَّلٍ نَشَّاجِ لَمْ يُكْسَ جِلْداً فِي دَمٍ أَمْشَاجِ

ويقال: مشَجْتُ هذا بهذا، أي: خلطته، فهو ممشوج، ومشيج، مثل: مخلوط، وخليط، وقال المبرد: واحد الأمشاج: مشَيج، يقال: مشَج، يمشج: إذا اختلط، وهو هنا اختلاط النطفة بالدم. قال الشماخ: [الوافر]

طَوَتْ أَحْشَاءَ مُرْتِجَةٍ لِوَقْتٍ عَلَى مَشَجٍ سُلَالَتُهُ مَهِينُ

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وغيره: يعني: ماء الرجل، وماء المرأة يختلطان في الرحم، فيكون منهما الولد، فماء الرجل أبيض غليظ، وماء المرأة أصفر رقيق، فأيهما علا صاحبه؛ كان الشبه له، وما كان من عصب، وعظم؛ فمن ماء الرجل، وما كان من لحم ودم وشعر فمن ماء المرأة. وقيل: الأمشاج: اختلاف ألوان النطفة، فنطفة الرجل بيضاء، ونطفة المرأة صفراء، وكل لونين اختلطا فهما أمشاج. وقيل: الأمشاج: أطوار الخلق، نطفة، ثم علقةً، ثم مضغةً، ثم عظماً، ثم

يكسوه لحماً، ثم ينشئه خلقاً آخر، انظر سورة (المؤمنون) الآية رقم [١٢] وما بعدها. وقيل: إن الله تعالى جعل في النطفة أخلاطاً من الطبائع، التي تكون في الإنسان، من الحرارة، والبرودة، والرطوبة، واليبوسة، فعلى هذا يكون التقدير: من نطفة ذات أمشاج، وخذ ما يلي:

فعن أبي أيوب ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء حبر من اليهود إلى النبي ﷺ، فقال: أخبرني عن ماء الرجل، وماء المرأة، فقال: «**ماءُ الرجلِ أبْيَضُ غَلِيظٌ، ومَاءُ المرْأةِ أصفرُ رَقيقٌ، فَإذَا عَلَا مَاءُ المرأةِ آنثَتْ، وإذَا عَلَا مَاء الرَّجْلِ أذْكَرَتْ**». فقال الحبر: أشهد أن لَا إلهَ إلا اللهُ وأنَّك رسولُ اللهِ.

﴿نَّبْتَلِيهِ﴾: نختبره بالأوامر، والنواهي، والخير، والشر من صحة، ومرض، من فقر وغنى. . . إلخ. ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾: قال الفراء: فيه تقديم، وتأخير، التقدير: فجعلناه سميعاً بصيراً؛ لنبتليه؛ لأن الابتلاء لا يقع إلا بعد تمام الخلقة. وقال الزمخشري: هو من التعسف. ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ أي: عظيم السمع، والبصر، والبصيرة.

فائدة: ورد في بعض الكتب: أن الله سبحانه وتعالى يقول: يا بْنَ آدمَ! جعلتُ لك قراراً في بطنِ أمِّك، وغشيْتُ وجهك بغشاء لئلا تفزع مِنَ الرحمِ، وجعلتُ لك متكأ عن يمينك، ومتكأ عن شمالك، فأما الذي عنْ يمينكَ؛ فالطحالُ، وأمَّا الذي عن شِمالِك؛ فالكبدُ، وعلمتك القيامَ، والقعودَ في بطنِ أُمِّكَ، فهل يقدرُ على ذلك أحدٌ غيري، فلما أَنْ تمتْ مدةُ حملِك؛ أوحيْتُ إلى الملكِ الموكلِ بالأرحامِ أن يخرجَكَ، فأخرجكَ على ريشةٍ منْ جناحيْهِ، لا لكَ سنٌّ تقطعْ، ولا يدٌ تبطشُ، ولاقدمٌ تسعى بها، وأنبعْتُ لكَ عِرقين في صدر أمِّكَ، يجريان لبناً خالصاً، حاراً في الشتاء، بارداً في الصيف، وألقيْتُ محبتكَ في قلبِ أبويْكَ، فلا يشبعانِ؛ حتى تشبعَ، ولا يرقدانِ؛ حتى ترقُدَ، فلمَّا أَنْ قَوِيَ ظَهْرُكَ، واشتدَّ أزرُكَ؛ بارزتني بالمعاصي، واعتمدْتَ على المخلوقين، ولم تعتمدْ عليَّ، وتسترْتَ مِمَّنْ يراكَ، وبارزْتَني بالمعاصي في خلواتِكَ، ولمْ تستحِ مني، ومع هذا: إن دعوتني؛ أجبْتُك، وإن سألْتني؛ أعطيْتُكَ، وإن تبْتَ، وارتجعتَ إليَّ؛ قبلْتُكَ.

الإعراب: ﴿إِنَّا﴾: حرف مشبه بالفعل، و(نا): اسمها، حذفت نونها، وبقيت الألف دليلاً عليها. ﴿خَلَقْنَا﴾: فعل، وفاعل. ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾: مفعول به. ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: مخلوقاً من نطفة. والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية مبتدأة، أو مستأنفة، لا محل لها. ﴿أَمْشَاجٍ﴾: صفة ﴿نُّطْفَةٍ﴾ ووقع الجمع صفة لمفرد؛ لأنه في معنى الجمع كما رأيت في الشرح، وأجيز اعتباره بدلاً من ﴿نُّطْفَةٍ﴾. ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل مستتر فيه وجوباً، تقديره: «نحن»، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية في محل نصب حال من (نا) أي: خلقناه مبتلين له؛ بمعنى: مريدين ابتلاءه، فهي حال مقدرة، كقولك: مررت برجل معه صقر صائداً به غداً، تريد قاصداً به لصيد غداً، ويجوز أن يراد: ناقلين له من حال إلى حال.

فسمي ذلك ابتلاء على طريق الاستعارة. انتهى. كشاف. هذا؛ وأجيز اعتبارها حالاً مقارنة، إن كان المعنى: نبتليه بتصريفه في بطن أمه، نطفة، ثم علقة، كما قال ابن عباس - رضي الله عنهما -، انظر أنواع الحال في الآية رقم [١٩] من سورة (المعارج) تجد ما يسرك، ويثلج صدرك. ﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾: الفاء: حرف عطف. (جعلناه): فعل، وفاعل، ومفعول به أول. ﴿سَمِيعًۢا﴾: مفعول به ثان؛ لأن (جعل) من أفعال التحويل. ﴿بَصِيرًا﴾: من تعدد المفعول الثاني، أو هو من تعدد الحال، إن اقتصر الفعل على مفعول واحد، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿خَلَقْنَا...﴾ إلخ فهي في محل رفع مثلها، وأفاد كلام الجلال، والجمل: أنها معطوفة عليه إرادة الابتلاء، لا الابتلاء، وهذا منه لتوجيه العطف المذكور.

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾

الشرح: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: بيّنا له، وعرّفناه طريق الهدى، والضلال، والخير، والشر ببعثة الرسل، فآمن، أو كفر، كقوله تعالى في سورة (البلد): ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ والمراد من هداية السبيل: نصب الدلائل، وإنزال الكتب على الرسل مع تهيئة العقل، والسمع، والبصر للنظر والتفكير في ذلك. قال مكي: و(إمَّا) هنا للتخيير على بابها، ومعنى التخيير: أن الله تعالى يخبرنا: أنه اختار قوماً للسعادة، وقوماً للشقاء، فالمعنى: إما أن يخلقه شقياً، وهذا من أبين ما يدل على أن الله تعالى قدر الأشياء كلها. وخلق قوماً للسعادة، وبعملها يعملون، وقوماً للشقاوة، وبعملها يعملون، فالتخيير هو إعلام من الله تعالى لنا: أنه يختار ما يشاء، وليس التخيير للإنسان. انتهى مكي. وهذا لا يجعل للعبد اختياراً، والمعتمد: أن له اختياراً، كما تقدم، وقال تعالى في سورة (فصلت) رقم [١٧]: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾.

تنبيه: لما كان الشكر قل من يتصف به. قال ﴿شَاكِرًا﴾ من غير مبالغة، ولما كان الكفر كثيراً من يتصف به، ويكثر وقوعه من الإنسان بخلاف الشكر. قال: ﴿كَفُورًا﴾ بصيغة المبالغة.

هذا؛ ول: «إمَّا» خمسة معان: أحدها: الشك، نحو: جاء إما زيد، وإما عمرو، إذا لم تعلم الجائي منهما.

الثاني: الإبهام، كما في قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية رقم [١٠٦] من سورة (التوبة).

الثالث: التخيير، وهو ما في الآية التي نحن بصدد شرحها، وقوله تعالى في سورة (طه) رقم [٦٥]: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ ومثلها الآية من سورة (الأعراف) رقم [١١٤]، وأيضاً الآية رقم [٨٦] من سورة (الكهف).

الرابع: الإباحة، نحو: «**تعلَّمْ إمَّا فقهاً، وإمَّا نحواً**».

الخامس: التفصيل، وجعل منه الآية التي نحن بصدد شرحها. انتهى. مغني اللبيب باختصار. أقول: والتفصيل هو المعنى الذي لا يفارقها مع كل من المعاني السابقة.

الإعراب: ﴿إِنَّا﴾: (إنَّ): حرف مشبه بالفعل، و(نا): اسمها، حذفت نونها، وبقيت ألفها دليلاً عليها. ﴿هَدَيْنَٰهُ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به أول. ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إن)، والجملة الاسمية تعليل لقوله: (نبتليه) لا محل لها. ﴿إِمَّا﴾: أداة شرط، وتفصيل. ﴿شَاكِرًا﴾: حال من الضمير المنصوب، وأجاز الزمخشري اعتباره حالاً من ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾، وتبعه البيضاوي، والنسفي على ذلك. ﴿وَإِمَّا كَفُورًا﴾: معطوف على ما قبله، وقال البيضاوي: ووصف ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ بذلك مجاز.

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾: هيأنا في جهنم. ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾: جمع: كافر، والكفر ستر الحق بالجحود، والإنكار. وكفر فلان النعمة، يكفرها كفراً، وكفوراً، وكفراناً: إذا جحدها، وسترها، وأخفاها. قال تعالى في سورة (إبراهيم) على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ رقم [٧] ومثل هذه الآية كثير. وكفر الشيء: ستره، وغطاه، وسمي الكافر كافراً؛ لأنه يغطي نعم الله بجحدها، وعبادته غيره. وسمي الزارع كافراً؛ لأنه يلقي البذر في الأرض، ويغطيه، ويستره بالتراب. قال تعالى في تشبيه حال الدنيا: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ رقم [٢٠] من سورة (الحديد). وسمي الليل كافراً؛ لأنه يغطي، ويستر كل شيء بظلمته. قال لبيد بن ربيعة الصحابي في معلقته رقم [٦٥]: [الكامل]

حَتَّى إِذَا أَلْقَتْ يَداً فِي كَافِرٍ ... وَأَجَنَّ عَوْرَاتِ الثُّغُورِ ظَلَامُهَا

هذا؛ ويطلق لفظ الكافر على النهر. قال المتلمس حين ألقى الصحيفة في النهر: [الطويل]

وَأَلْقَيْتُهَا بِالثَّنْيِ مِنْ جَنْبِ كَافِرٍ ... كَذَلِكَ أُلْقِي كُلَّ رَأْيٍ مُضَلَّلِ

رَضِيتُ لَهَا بِالْمَاءِ لَمَّا رَأَيْتُهَا ... يَجُولُ بِهَا التَّيَّارُ فِي كُلِّ جَدْوَلِ

﴿سَلَٰسِلَا۟﴾: جمع: سلسلة، وهي القيد، طول كل سلسلة سبعون ذراعاً. انظر ما ذكرته في سورة (الحاقة) رقم [٣٢] تجد ما يسرك، ويثلج صدرك. ويقرأ: (سلاسلاً) منوناً وهي قراءة حفص عن عاصم، والباقون بغير تنوين، ومثله: (قواريراً) في الآية رقم [١٦] فمن صرف؛ فله أربع حجج: أحدها: أن الجموع أشبهت الآحاد، فجمعت جمع الآحاد، فجعلت في حكم الآحاد، فصرفت. الثانية: أن الأخفش حكى عن العرب صرف جميع ما لا ينصرف إلا (أفعل) التفضيل. وكذا قال الكسائي، والفراء، وأنشد ابن الأنباري في ذلك قول عمرو بن كلثوم في معلقته رقم [٤٦]: [الوافر]

كَـأَنَّ سُـيُـوفَـنَـا فِـيـنَـا وَفِـيـهِـمْ مَـخَـارِيـقٌ بِـأَيْـدِي لَاعِـبِـيـنَـا

وقال لبيد ـ رضي الله عنه ـ في معلقته رقم [٧٣]: [الكامل]

وَجَـزُورِ أَيْـسَـارٍ دَعَـوْتُ لِـحَـتْـفِـهَـا بِـمَـغَـالِـقٍ مُـتَـشَـابِـهٍ أَجْـسَـامُـهَـا

وله أيضاً في معلقته رقم [٨٠]: [الكامل]

فـضـلاً وذُو كـرَمٍ يُـعِـيـنُ عَـلَـى الـنَّـدى سَـمْـحٌ كَـسُـوبُ رغـائـبٍ غَـنَّـامُـهَـا

فصرف مخاريق، ومغالق، ورغائب، وسبيلها ألا تصرف، وعلل ذلك بأن هذا الجمع لما كان يجمع، فقال الرسول ﷺ: «**صَواحباتُ يُوسف**». وجاء في الشعر: (نَوَاكِسِي الأَبْصَارِ) أشبه المفرد، فجرى فيه الصرف، وقال بعض الشعراء: [الرجز]

وَالـصَّـرْفُ فِـي الـجـمـعِ أتَـى كَـثِـيـرا حَـتَّـى ادَّعَـى قـومٌ بـهِ الـتَّـخْـيِـيـرا

والحجة الثالثة: أن يقال: نونت (قواريراً) الأول؛ لأنه رأس آية، ورؤوس الآي جاءت بالتنوين. والحجة الرابعة: اتباع المصاحف. وقد احتج من لم يصرفهن بأن قال: إن كل جمع بعد الألف، منه ثلاثة أحرف، أو حرفان، أو حرف مشدد لم يصرف في معرفة، ولا نكرة، فالذي بعد الألف منه ثلاثة أحرف، مثل: (قناديل، ودنانير، ومناديل) والذي بعد الألف منه حرفان، مثل: (مساجد، وصوامع) والذي بعد الألف منه حرف مشدد: «**شوابُّ ودوَابُّ**». انظر (غافر) رقم [٧١].

﴿وَأَغْلَـٰلًا﴾: جمع غُلّ، يقال: في رقبته غل من حديد، ومنه للمرأة السيئة الخلق: غل قَمِل، وأصله أن الغل كان يتخذ من جلد، وعليه شعر، فَيَقْمَل، والغل، والغلة: حرارة العطش، وكل ذلك بضم الغين، وهو بكسرها: الحقد، ورحم الله من يقول: [البسيط]

يَـا طَـالِـبَ الْـعَـيْـشِ فـي أَمْـنٍ وَفِـي دَعَـةٍ رَغْـداً بِـلَا قَـتَـرٍ صَـفْـواً بـلَا رَنَـقِ

خَـلِّـصْ فُـؤادَكَ مِـنْ غـلٍّ ومِـنْ حَـسَـدٍ الغِلُّ في الـقـلـبِ مثل الـغـلّ فـي الـعُـنـقِ

هذا؛ وقال التيمي: لو أن غلاً من أغلال جهنم وضع على جبل لوهصه حتى يبلغ الماء الأسود. هذا؛ و(السلاسل) جمع: سلسلة، وهي معروفة. قال الراغب: وتسلسل الشيء: اضطرب، كأنه تصور منه تسلسل متردد، فتردد لفظه تنبيه على تردد معناه، وماء سلسل متردد في مقره، وخذ قوله تعالى في سورة (الحاقة) في حق من يأخذ كتابه بشماله بعد أن يدعو بالثبور، وعظائم الأمور: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾.

الإعراب: ﴿إِنَّآ﴾: (إنَّ): حرف مشبه بالفعل، و(نا): اسمها، حذفت نونها، وبقيت الألف دليلاً عليها. ﴿أَعْتَدْنَا﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية مبتدأ، أو مستأنفة، لا محل لها. ﴿لِلْكَـٰفِرِينَ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿سَلَـٰسِلَا۟﴾: مفعول به، وما بعده معطوف عليه.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾

الشرح: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ أي: أهل الصدق، واحدهم: بَرّ، وهو من امتثل أمر الله تعالى. وقيل: واحدهم بار، مثل: شاهد، وأشهاد، وفي الصحاح: وجمع البر: الأبرار، وجمع البار: البررة. وفلان يبر خالقه، ويتبرره، أي: يطيعه. وروي عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ وفي الجمل: عن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «**إنما سَمَّاهُمُ اللهُ جلَّ ثناؤُهُ الأبرارَ؛ لأنهمْ بَرُّوا الآباءَ، والأبناءَ، كما أن لِوالدِك عليك حقاً، كَذلك لولدِك عليْكَ حَقٌّ**». وقال الحسن: البر الذي لا يؤذي الذر، وانظر سورة (عبس) [١٦].

﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾: الكأس عند أهل اللغة شامل لكل إناء مع شرابه، فإن كان فارغاً فليس بكأس. قال الضحاك، والسدي: كل كأس في القرآن فهي الخمر، والعرب تقول للإناء إذا كان فيه خمر: كأس، فإذا لم يكن فيه خمر قالوا: إناء، وقدح، كما يقال للخوان إذا كان عليه طعام: مائدة، فإذا لم يكن عليه طعام، لم يقل له: مائدة. قال أبو الحسن بن كيسان: ومنه: ظعينة للهودج إذا كان فيه المرأة. وأضيف: أنه لا يقال: ذنوب، وسجل إلا وفيه ماء، وإلا؛ فهو دلو. ولا يقال: جراب إلا وهو مدبوغ، وإلا؛ فهو إهاب. ولا يقال: قلم إلا وهو مِبْرًى، وإلا؛ فهو أنبوب. ولا يقال للمكان: نادٍ إلا إذا كان فيه أهله. هذا؛ والكأس تذكر، وتؤنث؛ لأنها من المؤنث المجازي، فمن التأنيث الآية التي نحن بصدد شرحها، وقوله تعالى في سورة (الصافات) رقم [٤٦]: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝٤٥ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ ومن التذكير قولك: هذا كأس. هذا؛ والجمع: كؤوس، وأكؤس، وكأسات، وكِئاس. ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ أي: شوْبها، وخلْطها. قال حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ: [الوافر]

كَأَنَّ سَبِيئَةً مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ ... يَكُونُ مِزَاجَهَا عَسَلٌ وَمَاءُ

وهذا هو الشاهد رقم [٨٢٣] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»، ومنه مزاج البدن، وهو ما يمازجه من الصفراء، والسوداء، والحرارة، والبرودة. ﴿كَافُورًا﴾: قال المفسرون: الكافور: طيب معروف يستحضر من أشجار ببلاد الهند، والصين، وهو من أنفس أنواع الطيب عند العرب، والمراد: أن من شرب تلك الكأس وجدها في طيب رائحتها، وفَوَحان شذاها كالكافور. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الكافور: اسم عين ماء في الجنة، يقال لها: عين الكافور، تمتزج الكأس بماء هذه العين، وتختم بالمسك، فتكون ألذ شراب. وقيل: أراد كالكافور في بياضه، وطيب رائحته، وبرده؛ لأن الكافور لا يشرب. وقال مقاتل: ليس بكافور الدنيا، ولكن سمى الله ما عنده بما عندكم حتى تهتدي لها القلوب. هذا؛ ولم يذكر (الكافور) في غير هذه السورة. هذا؛ ولما ذكر الله ما أعده للأشقياء من السعير؛ ذكر الأبرار المتقين، وما

أعده لهم من النعيم المقيم في جنات النعيم. هذا؛ والكافور أيضاً: وعاء طلع النخل، وكذلك الكُفُرَّى. قاله الأصمعي. وأما قول الراعي: [البسيط]

تَكْسُو الْمَفَارِقَ وَاللَّبَّاتِ ذَا أَرَجٍ ... مِنْ قُصْبِ مُعْتَلِفِ الْكَافُورِ دَرَّاجِ

فإن الظبي الذي يكون منه المسك، إنما يرعى سنبل الطيب، فجعله كافوراً.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلْأَبْرَارَ﴾: اسمها. ﴿يَشْرَبُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ). ﴿مِن كَأْسٍ﴾: متعلقان بمحذوف صفة لمفعول محذوف، التقدير: يشربون ماءً كائناً من كأس. وقيل: ﴿مِن﴾ صلة، و﴿كَأْسٍ﴾ مفعول به. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿مِزَاجُهَا﴾: اسم ﴿كَانَ﴾، و(ها): في محل جر بالإضافة. ﴿كَافُورًا﴾: خبرها، والجملة الفعلية في محل جر صفة: ﴿كَأْسٍ﴾.

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾

الشرح: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي: منها. قال أبو ذؤيب الهذلي يصف السحاب على اعتقاد العرب، ومثلهم العصريون في هذا الزمن من أن الغيوم تدنو من البحر في أماكن مخصوصة، فتمتد منها خراطيم عظيمة كخراطيم الفيلة، فتشرب بها من مائه، فيسمع لها عند ذلك صوت مزعج، ثم تصعد إلى الجو، وترتفع، فيلطف ذلك الماء، ويعذب بإذن الله تعالى في زمن صعودها، ثم تمطره حيث شاء الله، ـ وهو الشاهد رقم [١٥٨] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الطويل]

شَرِبْنَ بِمَاءِ الْبَحْرِ ثُمَّ تَرَفَّعَتْ ... مَتَى لُجَجٍ خُضْرٍ لَهُنَّ نَئِيجُ

﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾: أولياء الله، والإضافة إضافة تشريف، وانظر ما ذكرته في الآية رقم [١٩] من سورة (الجن). ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي: يقودونها إلى حيث شاؤوا من منازلهم وقصورهم تفجيراً سهلاً لا يمتنع عليهم. قيل: إن الرجل ليمشي في بيوتاته، ويصعد إلى قصوره، وبيده قضيب يشير به إلى الماء، فيجري معه حيثما دار في منازله على مستوى الأرض في غير أخدود، ويتبعه حيثما صعد إلى أعلى قصوره. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

هذا؛ و(العين) تطلق على الماء الجاري، أو النابع من الأرض، وجمعها في القلة: أعين، وفي الكثرة: عيون. قال تعالى في سورة (الذاريات)، وغيرها: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ وتجمع أيضاً في الكثرة على: أعيان، وهذا غير مشهور، وقليل الاستعمال. كما تطلق (العين) على العين الباصرة، وهو أشهر، وأكثر ما تستعمل في ذلك، كما تطلق على الجاسوس، كما في قولك: بث الأمير عيونه في المدينة؛ أي: جواسيسه، كما تطلق على ذات الشخص، كما في

قولك: جاء عليٌّ عينه، وتطلق على الشمس. وعين الشيء: خياره، وتطلق على النقد من ذهب، وغيره. وإليك قول الشاعر: [البسيط]

وَاسْتَخْدَمُوا الْعَيْنَ مِنِّي وَهْيَ جَارِيَةٌ وَقَدْ سَمَحْتُ بِهَا أَيَّامَ وَصْلِهِمُ

فالمراد بـ: «العين» نفسه، وذاته، والمراد بـ: «جارية» عينه الباصرة، التي تجري بالدمع، والمراد بقوله: «بها» نقد الذهب. وهذا يسمى في فن البديع استخداماً، وتطلق العين على أشياء كثيرة، وعلى المطر الهاطل من السحاب. قال عنترة في معلقته رقم [٢٩] - وهو الشاهد رقم [٣٥٩] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» -: [الكامل]

جَادَتْ عَلَيْهِ كُلُّ عَيْنٍ ثَرَّةٍ فَتَرَكْنَ كُلَّ حَدِيقَةٍ كَالدِّرْهَمِ

هذا؛ وأعيان القوم: أشرافهم. وبنو الأعيان: الإخوة من الأبوين.

الإعراب: ﴿عَيْنًا﴾: بدل من ﴿كَافُورًا﴾ على حذف مضاف، أي: ماء عين. وفي السمين: في نصبها أوجه: أحدها: أنها بدل من ﴿كَافُورًا﴾. الثاني: أنها بدل من محل: ﴿مِن كَأْسٍ﴾. الثالث: أنها مفعول ﴿يَشْرَبُونَ﴾ أي: يشربون عيناً من ﴿كَأْسٍ﴾. الرابع: أن ينتصب على الاختصاص. الخامس: أنها مفعول لـ: ﴿يَشْرَبُونَ﴾ مقدراً، يفسره ما بعده. السادس: أنها مفعول به بإضمار «يعطون». السابع: أنها منصوبة على الحال من الضمير في: ﴿مِزَاجُهَا﴾. قاله مكي. انتهى. جمل باختصار كبير. أقول: والحالية غير مسلمة؛ لأن ﴿عَيْنًا﴾ جامدة، والحال تكون مشتقة. ﴿يَشْرَبُ﴾: فعل مضارع. ﴿بِهَا﴾: في الباء أوجه: أحدها: أنها صلة، والهاء مفعول به، أي: يشربها. الثاني: أنها بمعنى: «مِنْ» وقد ذكرته في الشرح. الثالث: أنها جارة أصلية، والجار، والمجرور متعلقان بمحذوف حال من: ﴿عَيْنًا﴾ أي: ممزوجة بها. وساغ ذلك لوصف ﴿عَيْنًا﴾ بالجملة الفعلية. الرابع: أنها جارة أصلية، والجار، والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما. الخامس: أنها على تضمين ﴿يَشْرَبُونَ﴾ معنى: يلتذون بها شاربين. السادس: أنها على تضمين ﴿يَشْرَبُ﴾ معنى: يرتوي، أي: يرتوي بها عباد الله. ﴿عِبَادُ﴾: فاعل ﴿يَشْرَبُ﴾، و﴿عِبَادُ﴾ مضاف، و﴿اللَّهِ﴾ مضاف إليه، والجملة الفعلية في محل نصب صفة ﴿عَيْنًا﴾. ﴿يُفَجِّرُونَهَا﴾: فعل مضارع، وفاعله، ومفعوله، والجملة الفعلية في محل نصب حال من ﴿عِبَادُ اللَّهِ﴾، والرابط: الضمير فقط. ﴿تَفْجِيرًا﴾: مفعول مطلق مؤكد لعامله.

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾

الشرح: ﴿يُوفُونَ﴾: الضمير يعود إلى ﴿الْأَبْرَارَ﴾. ﴿بِالنَّذْرِ﴾: النذر: حقيقته ما أوجبه المكلف على نفسه من شيء يفعله. وإن شئت قلت في حده: النذر هو إيجاب المكلف على

نفسه من الطاعات ما لو لم يوجبه؛ لم يلزمه. قال تعالى في سورة (الحج) رقم [٢٩]: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ أراد جميع ما ينذره المسلم من حج، وهدي، وصوم، وصدقة... إلخ، أمروا بوفاء النذر مطلقاً إلا ما كان في معصية، فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ. قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ نذرَ أنْ يطيعَ اللهَ؛ فلْيَفِ بنذرِهِ، ومَنْ نذرَ أنْ يَعْصيَ اللهَ؛ فلا يفِ به**». رواه البخاري. وفي رواية: «**فلْيُطِعْه، ولَا يَعْصِهِ**». وعنها: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا نذرَ في معْصِيَةِ اللهِ، وكفارَتُهُ كفارَةُ يمينٍ**». أخرجه الترمذي، وأبو داود، والنسائي. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: استفتى سعد بن عبادة ـ رضي الله عنه ـ رسول الله ﷺ في نذرٍ كان على أمِّهِ، فتُوفِّيتْ قبل أن تقضيَهُ، فأمره أن يقضيَهُ عنها. أخرجه الجماعة. وفي الآية دليل على وجوب الوفاء بالنذر، وهذا مبالغة في وصف الأبرار بأداء الواجبات؛ لأن من وفى بما أوجب على نفسه؛ كان لما أوجبه الله عليه أوفى. وعن عمران بن الحصين ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**خَيْرُ الْقُرونِ قَرْنِي، ثُمَّ الذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الذِينَ يَلونَهُمْ، ثمَّ يكونُ بَعْدَهُمْ قَومٌ يَشْهَدُونَ، ولا يُسْتَشْهَدُونَ، ويخُونُونَ، وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، ويَنذِرونَ، ولا يُوفُونَ، ويَظْهَرَ فِيهِمُ السِّمَنُ**». رواه البخاري، ومسلم.

﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا﴾ أي: يوم القيامة. ﴿كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ أي: منتشراً فاشياً ممتداً. وقيل: استطار خوفه في أهل السموات، وأهل الأرض، وفي أولياء الله، وأعدائه. وقيل: فشا شره في السموات فانشقت، وتناثرت الكواكب، وفزعت الملائكة، وكورت الشمس، والقمر، وفي الأرض فتشققت الجبال، وغارت المياه، ونسفت الجبال، فكانت هباءً منبثاً. هذا؛ والعرب تقول: استطار الصدع في القارورة، والزجاجة، واستطال إذا امتد. قال الأعشى: [المتقارب]

وَبَانَتْ وَقَدْ أَوْرَثَتْ فِي الْفُؤَا دِ صَدْعاً عَلَى نَأْيِهَا مُسْتَطِيرَا

ويقال: استطار الحريق: إذا انتشر. واستطار الفجر: إذا انتشر الضوء. قال حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ مشيراً إلى ما فعله المسلمون ببني قريظة الذين نقضوا العهد، ونكثوا الميثاق مع النبي ﷺ: [الوافر]

وَهَانَ عَلَى سَرَاةِ بَنِي لُؤَيٍّ حَرِيقٌ بِالْبُوَيْرَةِ مُسْتَطِيرُ

هذا؛ وقد قال الخازن ـ رحمه الله تعالى ـ: لما وصف الله تعالى ثواب الأبرار في الآخرة؛ وصف أعمالهم في الدنيا؛ حتى استوجبوا هذا الثواب. وقال الكلبي: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ أي: يتممون العهود؛ لقوله تعالى في كثير من الآيات: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾، وقوله جل ذكره في أول سورة (المائدة): ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ أمروا بالوفاء بهما؛ لأنهم عقدوهما على أنفسهم باعتقادهم الإيمان. وأقول: بقولهم: لا إله إلا الله محمد رسول الله. ومن لوازم هذه الكلمة ومن متطلباتها الوفاء بالعهود، بل وكل ما أمر الله به، وكل ما نهى عنه من لوازمها، ومتطلباتها، ودليل ذلك

قول الرسول ﷺ: «**مَنْ قَالَ: لا إلهَ إلا اللهُ مخلِصاً دخلَ الجنةَ**». قيلَ: وما إخلاصُها؟ قالَ: «**أنْ تحْجُزَهُ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ**». رواه الطبراني في الأوسط عن زيد بن أرقم ـ رضي الله عنه ـ، وفي الكبير؛ إلا أنه قال: «**أنْ تَحْجُزَهُ عَمَّا حَرَّمَ اللهُ**».

الإعراب: ﴿يُوفُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله. ﴿بِٱلنَّذۡرِ﴾: متعلقان بما قبلهما، واعتبار الباء هنا صلة، فالمعنى يؤيده، وعليه فـ: (النذر) مفعول به فهو منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد، والجملة الفعلية مستأنفة استئنافاً بيانياً، كأنه قيل: بم استحقوا هذا النعيم؟ وجملة: ﴿وَيَخَافُونَ يَوۡمًا﴾ معطوفة عليها، لا محل لها مثلها. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿شَرُّهُۥ﴾: اسمها، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿مُسۡتَطِيرًا﴾: خبرها، والجملة الفعلية في محل نصب صفة ﴿يَوۡمًا﴾.

﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾

الشرح: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد ـ رضي الله عنهما ـ: على حب الطعام، وقلته، وشهوتهم له، والحاجة إليه. انتهى. وعليه فقد وصفهم الله تعالى بأنهم يؤثرون غيرهم على أنفسهم بالطعام، ويواسو أهل الحاجة به، وذلك؛ لأن أشرف أنواع الإحسان، والبر إطعام الطعام؛ لأن به قوام الأبدان. وقال أبو سليمان الداراني: على حب الله تعالى، أقول: وكلاهما صحيح، وجيد. ومثل هذه الآية في إرجاع الضمير قوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [١٧٦]: ﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ...﴾ إلخ. ﴿مِسۡكِينًا﴾ أي: ذا مسكنة، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**لَيْسَ المسكينُ الذي تَرُدُّهُ اللقمةُ، واللقمتانِ، والتمرةُ، والتمرتانِ، ولكن المسكينُ الَّذِي لَا يَجِدُ غنىً يُغْنِيهِ، ولا يُفْطَنُ لَهُ، فيُتَصَدَّقَ عَلَيْهِ، ولا يَقُومُ فيَسْأَلُ الناسَ**». رواه البخاري، ومسلم.

﴿وَيَتِيمًا﴾ أي: صغيراً، وهو الذي فقد أباه الذي يكتسب له، وينفق عليه، روى منصور عن الحسن: أن يتيماً كان يحضر طعام ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ، فدعا ذات يوم بطعامه، وطلب اليتيم فلم يجده، ثم جاء بعدما فرغ ابن عمر من طعامه، فلم يجد الطعام، فدعا له بسويق، وعسل، فقال: دونك هذا؛ فوالله ما غبنت! قال الحسن وابن عمر: والله ما غُبن!.

﴿وَأَسِيرًا﴾: قيل: هو المسجون من أهل القبلة، يعني: من المسلمين. وقيل: هو من أهل الشرك، أمر الله المسلمين بالأسرى أن يحسنوا إليهم، وأن أسراهم يومئذ أهل الشرك. قال الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ: كان رسول الله ﷺ يُؤتَى بالأسير، فيدفعه إلى بعض المسلمين، ويقول له: أحسن إليه، فيكون عنده اليومين، والثلاثة، فيؤثره على نفسه، ويشهد لذلك أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم

عند الغداء. فعلى هذا الوجه يجوز إطعام الأسرى، وإن كانوا على غير ديننا، وأنه يرجى ثوابه، ولا يجوز أن يعطى من الصدقة الواجبة؛ كالزكاة، والكفارات على اختلاف أنواعها، والنذور. وقيل: الأسير: المملوك. وهو قول عكرمة، واختاره ابن جرير لعموم الآية للمسلم، والمشرك، وقد وصى رسول الله ﷺ بالإحسان إلى الأرقاء؛ حتى كان آخر ما وصى به أن جعل يقول: «**الصلاةَ، وما ملكتْ أيْمَانكُمْ**». وقيل: الأسير: المرأة؛ لقول النبي ﷺ: «**اتقوا الله في النِّسَاءِ، فَإنهُنَّ عَوان عِنْدَكُمْ**».

هذا؛ واختلفوا في سبب نزول الآية، وما بعدها، فقيل: نزلت في رجل من الأنصار، يقال له: أبو الدحداح صام يوماً، فلما كان وقت الإفطار؛ جاءه مسكين، ويتيم، وأسير، فأطعمهم ثلاثة أرغفة، وبقي له، ولأهله رغيف واحد. وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنها نزلت في علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه وكرّم الله وجهه ـ وذلك: أنه عمل ليهودي على شيء من شعير، فقبض ذلك الشعير، فطحنت السيدة فاطمة ـ رضي الله عنها ـ ثلثه، وأصلحوا منه شيئاً يأكلونه، فلما فرغوا منه؛ أتى مسكين، فسأل، فأعطوه ذلك، ثم عملوا الثلث الثاني، فلما فرغوا منه؛ أتى يتيم فسأل، فأعطوه ذلك. ثم عملوا الباقي، فلما تم نضجه؛ أتى أسير من المشركين، فسأل فأعطوه ذلك، وطوَوْا يومهم، وليلتهم، فنزلت هذه الآية. أقول: وخصوص السبب لا يمنع التعميم، فكل من أطعم المسكين، واليتيم، والأسير لله تعالى، وآثر على نفسه تشمله الآية.

هذا؛ وقد ذكر النقاش، والثعلبي، والقشيري، وغير واحد من المفسرين في قصة علي، وفاطمة ـ رضي الله عنهما ـ حديثاً لا يصح، ولا يثبت. رواه جابر الجعفي عن قنبر مولى علي ـ رضي الله عنه ـ وفي تلك القصة قطع شعرية منسوبة إلى عليٍّ وإلى فاطمة، وإلى المسكين، واليتيم، والأسير، يخاطبون بها بيت النبوة. ولقد أحسن أبو حيان ـ رحمه الله تعالى ـ إذ يقول فيها: وذكر النقاش في ذلك حكاية طويلة جداً ظاهرة الاختلاق لسفساف ألفاظها، وكسر أبياتها، وسفاطة معانيها.

هذا؛ وقد ذكر القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ القصة المختلقة، والأشعار المزيفة كلها، ثم قال: وليت شعري مَنْ حفظ هذه الأبيات كل ليلة عن علي وفاطمة ـ رضي الله عنهما ـ، وإجابة كل واحد منهما صاحبه، حتى أدّاه إلى هؤلاء الرواة؟ فهذا وأشباهه من أحاديث أهل السجون فيما أرى، بلغني أن قوماً يخلدون في السجون، فيبقون بلا حيلة، فيكتبون أحاديث في السمر، وأشباهه، ومثل هذه الأحاديث المفتعلة، فإذا صارت إلى الجهابذة؛ رمَوْا بها، وزيفوها. وما من شيء إلا وله آفة ومكيدة، وآفة الدِّين وكيده أكثر. انتهى.

الإعراب: ﴿وَيُطْعِمُونَ﴾: الواو: حرف عطف. (يطعمون): فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها أيضاً. ﴿ٱلطَّعَامَ﴾: مفعول به أول. ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما على عود الضمير إليه، والهاء في محل جر بالإضافة، من

إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله محذوف، التقدير: على حبهم الله، أو على حبهم الطعام. ﴿مِسْكِينًا﴾: مفعول به ثان، وما بعده معطوف عليه.

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾

الشرح: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾: لأجل الله، وطلب ثوابه، ومرضاته؛ أي: يقولون ذلك بألسنتهم للمسكين، واليتيم، والأسير. ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً﴾: مكافأة على ذلك. ﴿وَلَا شُكُورًا﴾ أي: ولا أن تثنوا علينا بذلك. قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: كذلك كانت نياتهم في الدنيا حين أطعموا، وعن سالم عن مجاهد؛ قال: أما إنهم ما تكلموا به، ولكن علمه الله جل ثناؤه منهم، فأثنى به عليهم؛ ليرغب في ذلك راغب. وقيل: قالوا ذلك؛ ليقتدي بهم غيرهم، وذلك: أن الإحسان إلى الغير تارةً يكون لأجل الله تعالى، لا يراد به غيره، فهذا هو الإخلاص، وهذا ما فعله الصديق - رضي الله عنه - وأثنى الله به عليه في قوله في سورة (الليل): ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾.

وتارةً يكون لطلب المكافأة، أو لطلب الحمد، والثناء من الناس، أو لهما، وهذان القسمان مردودان، لا يقبلهما الله تعالى؛ لأن فيهما رياءً، وشركاً، انظر الآية رقم [٢٦٢] من سورة (البقرة)، والرسول ﷺ قد شدد النكير على المرائين، والأحاديث في ذلك كثيرة مسطورة، أكتفي منها بما يلي: عن شداد بن أوس - رضي الله عنه -: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**مَنْ صامَ يُرائي؛ فقدْ أشركَ، ومَنْ صلَّى يُرَائي؛ فقدْ أشرك، ومَنْ تصدَّقَ يُرائي فقدْ أشْرَكَ**». رواه البيهقي.

هذا؛ ولا يفوتني أن أذكر أن شكر المعروف واجب، والثناء على فاعله من غير أن يبتغيه لا بأس به. وخذ ما يلي: فعن جابر - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ أُعْطِيَ عطاءً، فوجدَ؛ فلْيَجْزِ بِهِ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؛ فَلْيُثْنِ، فإنَّ مَنْ أَثْنَى؛ فقدْ شَكَرَ، ومَنْ كَتَمَ؛ فقدْ كَفَرَ، وَمَنْ تَحلَّى بما لَمْ يُعْطَ؛ كانَ كلابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ**». أخرجه الترمذي. وعن أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ معروفٌ، فقالَ لفاعِلِهِ: جزاكَ اللهُ خيراً؛ فقدْ أبلغَ فِي الثَّنَاءِ**».

وعن النعمان بن بشير - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ لَمْ يَشْكُرِ القليلَ لَمْ يَشْكُرِ الكثيرَ، وَمَنْ لَمْ يشكرِ الناسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ، والتحدُّثُ بِنِعْمَةِ اللهِ شكرٌ، وتركُها كفرٌ، والجماعةُ رحمةٌ، والفرقةُ عذابٌ**». ورحم الله من يقول: [الطويل]

وَمَنْ لَمْ يُؤَدِّ الشكرَ لِلنَّاسِ لَمْ يَكُنْ ... لإحسَانِ رَبِّ النَّاسِ يَوْماً بِشَاكِرِ

ولا تنس: أن الله جل ثناؤه قد قرن شكره بشكر الوالدين، وذلك بقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ رقم [١٤] من سورة (لقمان).

الإعراب: ﴿إِنَّمَا﴾: كافة ومكفوفة. ﴿نُطْعِمُكُمْ﴾: فعل مضارع، والفاعل مستتر فيه وجوباً تقديره: «نحن»، والكاف مفعول به، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول بلفظ المقال، أو بلسان الحال، كما رأيت في الشرح وفيها معنى التعليل. ﴿لِوَجْهِ﴾: متعلقان بما قبلهما، و(وجه) مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿نُرِيدُ﴾: فعل مضارع، والفاعل تقديره: «نحن». ﴿مِنكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، أو هما متعلقان بما بعدهما على التنازع. ﴿جَزَآءً﴾: مفعول به. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية. ﴿شُكُورًا﴾: معطوف على ما قبله. وجملة: ﴿لَا نُرِيدُ...﴾ إلخ في محل نصب حال، من فاعل ﴿نُطْعِمُكُمْ﴾ المستتر، والرابط الضمير فقط.

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾

الشرح: المعنى: إنَّ إحساننا إليكم، وإيثارنا إياكم بالطعام للخوف من شدة ذلك اليوم، لا لطلب مكافأتكم، ووصف اليوم بالعبوس مجاز على طريقين: أن يوصف بصفة أهله من الأشقياء، كقولهم: نهارُك صائمٌ، فقد قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل منه عرق كالقطران. وأن يشبه في شدته، وضرره بالأسد العبوس، أو بالشجاع الباسل. هذا؛ وعن ابن عباس أيضاً: العبوس: الضيق، والقمطرير: الطويل. وقيل: القمطرير: الشديد، تقول العرب: يوم قمطرير، وقماطر، وعصيب بمعنىً، وأنشد الفراء قول الشاعر: [الطويل]

بَنِي عَمِّنَا هَلْ تَذْكُرُونَ بَلاءَنَا ... عَلَيْكُمْ إِذَا مَا كَانَ يومٌ قُمَاطِرُ؟

وقال الأخفش: القمطرير: أشد ما يكون من الأيام، وأطوله في البلاء. قال الشاعر: [الطويل]

فَفِرُّوا إذا ما الحربُ ثَارَ غُبَارُهَا ... وَلَجَّ بِهَا الْيَوْمُ العبوسُ الْقُمَاطِرُ

وقال أبو عبيدة: يقال: رجل قَمْطرير، أي: متقبِّض ما بين العينين. وقال الزجاج: يقال: اقْمَطَرَّت الناقة: إذا رفعت ذنبها، وجمعت قطريها، وزمت بأنفها، فاشتقه من الْقُطْر، وجعل الميم زائدة. قال أسد بن ناعصة: [الخفيف]

وَاصْطَلَيْتُ الْحُروبَ في كُلِّ يَوْمٍ ... باسِلِ الشَّرِّ قَمْطَرِيرِ الصَّبَاحِ

الإعراب: ﴿إِنَّا﴾: (إنَّ): حرف مشبه بالفعل، و(نا): اسمها، حذفت نونها، وبقيت الألف دليلاً عليها. ﴿نَخَافُ﴾: فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: «نحن». ﴿مِن رَّبِّنَا﴾: متعلقان بما قبلهما، و(نا): ضمير متصل في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿يَوْمًا﴾: مفعول به. ﴿عَبُوسًا﴾: صفة ﴿يَوْمًا﴾. ﴿قَمْطَرِيرًا﴾: صفة ثانية، وجملة: ﴿نَخَافُ...﴾ إلخ في محل رفع خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية تعليل للإطعام، وهي من جملة مقول القول.

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾

الشرح: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ...﴾ إلخ: أي: حفظهم الله، ودفع عنهم بأس ذلك اليوم، وشدته، وعذابه. ﴿وَلَقَّىٰهُمْ﴾ أي: آتاهم، وأعطاهم حين لقوه يوم القيامة. ﴿نَضْرَةً﴾: حسناً في الوجوه. ﴿وَسُرُورًا﴾: فرحاً في القلوب. وفي النضرة ثلاثة أوجه: أحدها: البياض، والنقاء. قاله الضحاك. الثاني: الحسن، والبهاء. قاله ابن جبير. الثالث: أثر النعمة. قاله ابن زيد. وهذا كقوله تعالى في سورة (عبس): ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ وذلك: أن القلب إذا سر؛ استنار الوجه. قال كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ في حديثه الطويل عن تخلفه في غزوة تبوك، وكان رسول الله ﷺ: «**إِذَا سُرَّ؛ استنارَ وجْهُهُ؛ حتى كأنَّهُ فِلْقَةُ قَمَرٍ**». وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «**دخل عليَّ رسولُ الله ﷺ مسروراً، تبرُقُ أساريرُ وجهِهِ**». من حديث الإفك الطويل.

الإعراب: ﴿فَوَقَىٰهُمُ﴾: الفاء: حرف سبب، واستئناف، أو وتفريع. (وقاهم): فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والهاء مفعول به أول. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿شَرَّ﴾: مفعول به ثان، وهو مضاف، و﴿ذَٰلِكَ﴾ اسم إشارة مبني على السكون في محل جر بالإضافة، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب، لا محل له. ﴿ٱلْيَوْمِ﴾: بدل من اسم الإشارة، أو عطف بيان عليه، والجملة الفعلية: (وقاهم...) إلخ مستأنفة، لا محل لها، والتي بعدها معطوفة عليها وإعرابها مثلها بلا فارق.

﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾

الشرح: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟﴾ أي: بصبرهم على طاعة الله، واجتناب معصيته، وعلى البلاء، الذي من جملته الفقر، والجوع، مع الوفاء بالنذر، والإيثار. وانظر الآية رقم [١٠] من سورة (المزمل) هذا؛ والجزاء، والمجازاة، والمكافأة على عمل ما تكون في الخير، وتكون في الشر. فمن الأول: ما في الآية الكريمة، وقوله تعالى في سورة (الرحمن): ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ والثاني كثير وذلك حينما يذكر عذاب الكافرين والظالمين، والفاسقين مثل: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. هذا؛ والفعل: جزى، يجزي ينصب مفعولين.

﴿جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾: قال الزمخشري: فإن قلت: ما معنى ذكر الحرير مع الجنة؟ قلت: المعنى وجزاهم ربهم بصبرهم على الإيثار، وما يؤدي إليه من الجوع، والعري بستاناً، فيه مأكل هني، وحريراً فيه ملبس بهيٌّ. انتهى. وقد قال الرسول ﷺ: «**مَنْ لَبِسَ الْحَرِيرَ في الدُّنْيا، لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الآخِرَةِ**». وإنما ألبسهم الله إياه في الجنة عوضاً عن حبسهم أنفسهم في الدنيا عن الملابس التي حرم الله فيها. وانظر الآية رقم [١٥] الآتية.

الإعراب: ﴿وَجَزَىٰهُم﴾: الواو: حرف عطف. (جزاهم): فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى (الله)، والهاء مفعول به أول. ﴿بِمَا﴾: الباء: حرف جر. (ما): مصدرية. ﴿صَبَرُواْ﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق، والمتعلق محذوف، انظر الشرح، و(ما) والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بالباء، والجار، والمجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿جَنَّةً﴾: مفعول به ثان. (حريراً): معطوف على ما قبله، والجملة الفعلية (جزاهم...) إلخ معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾

الشرح: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ أي: مضطجعين، أو متربعين. وفي القاموس: توكأ عليه: تحامل، واعتمد. واتكأ: جعل له متكأً، وقوله ﷺ: «**أَمَّا أنَا فلا آكُلُ مُتكِئاً**». أي: جالساً جلوس المتمكن المتربع، ونحوه من الهيئات المستدعية لكثرة الأكل، بل كان جلوسه ﷺ للأكل مستوفزاً مقعياً غير متربع ولا متمكن، وليس المراد الميل على شق، كما يظنه عوام الطلبة. هذا؛ وأصل متكئين: موتكئين، واتكأ أصله: اوْتكأ، والتكأة أصلها: التُّوْكأة، فقلبت الواو تاء، وأدغمت في التاء. هذا؛ و﴿ٱلْأَرَآئِكِ﴾ السرر في الحجال، واحدها: أريكة، مثل: سفينة وسفائن، والمراد بها: نحو القبة تغلق على السرير، وتزين بها العروس. قال الشاعر: [الطويل]

كَأَنَّ احْمِرَارَ الْوَرْدِ فَوْقَ غُصُونِهِ ... بوقتِ الضحى في رَوْضَةِ الْمتضَاحِكِ
خُدُودُ عَذَارَى قَدْ خجِلْنَ مِنَ الْحَيَا ... تَهَادَيْنَ بِالرَّيحَانِ فَوْقَ الأَرَائِكِ

وقيل: الأريكة لا تكون إلا في حجلة على سرير، وإلا؛ فهي وسادة. قال ذو الرمة: [الطويل]

خُدُودٌ جَنَتْ في اللَيْلِ حَتَّى كَأَنَّمَا ... يُبَاشِرْنَ بِالْمِعْزَاءِ مَسَّ الأَرَائِكِ

﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ أي: لا يرون في الجنة شدة حر كحر الشمس، ولا برداً مفرطاً كبرد الدنيا. قال الأعشى: [المتقارب]

مُنَعَّمَةٌ طِفْلَةٌ كَالْمَهَا ... ةِ لَمْ تَرَ شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيرا

وعن أبي صالح عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اشتكتِ النَّارُ إلى رَبِّها عز وجلَّ. قالتْ: يا رَبِّ! أكلَ بَعْضي بَعْضاً. فجعلَ لَها نَفَسَيْنِ: نَفَساً في الشتاءِ، ونَفَساً في الصيفِ، فشِدَّةُ ما تجدونَ مِنَ الْبَردِ مِنْ زمهَريرِها، وشدَّةُ ما تجدونَ من الْحَرِّ في الصَّيْفِ مِنْ سَمُومِهَا**». أخرجه الشيخان والترمذي مع اختلاف في بعض الألفاظ. وعن النبي ﷺ أنه قال: «**إن هواءَ الجنةِ سَجْسَجٌ، لا حرَّ، ولا بَرْدَ**». والسجسج الظل الممتد، كما بين طلوع الفجر، وطلوع الشمس.

وقال مُرَّة الهمداني: الزمهرير: البرد القاطع. وقال مقاتل بن حيان: هو شيء مثل رؤوس الإبر، ينزل من السماء في غاية البرد. وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: هو لون من العذاب، وهو البرد الشديد، حتى إن أهل النار إذا ألقوا فيه سألوا الله أن يعذبهم بالنار ألف سنة أهون عليهم من عذاب الزمهرير يوماً واحداً. قال أبو النجم العجلي: [الرجز]

أَوْ كُنْتَ رِيحاً كُنْتَ زَمْهَرِيراً

هذا؛ ولعلك تدرك معي: أن العقول كانت تستبعد، بل وتستنكر وجود الحر، والبرد في نار جهنم، ولكن في هذه الأيام تسلم العقول السليمة، والفطر المستقيمة بذلك، وذلك بعد التأمل في الكهرباء التي يصدر عنها الحر، والبرد، وهذا مشاهد، ومرئي لا خفاء فيه، ولا تنس استنكار كفار قريش لوجود شجرة الزقوم في النار، وقد بينه في كثير من الآيات. هذا؛ وقال ثعلب: الزمهرير القمر بلغة طيِّئ. قال شاعرهم: [الرجز]

وَلَيْلَةٍ ظَلامُهَا قَدِ اعْتَكَرْ قَطَعْتُهَا وَالزَّمْهَرِيرُ مَا زَهَرْ

أي: لم يطلع القمر. فالمعنى لا يرون فيها شمساً كشمس الدنيا، ولا قمراً كقمر الدنيا؛ أي: إنهم في ضياء مستديم، لا ليل فيه، ولا نهار؛ لأن ضوء النهار بالشمس، وضوء الليل بالقمر، انظر ما ذكرته في سورة (مريم) رقم [٦٢] بعد هذا القول: المعتمد الأول، وهو وجود الزمهرير في نار جهنم، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾: حال من الضمير المنصوب، وقال الجلال: حال من مرفوع «ادخلوها» المقدر، وأجاز أبو البقاء، والزمخشري اعتباره صفة لـ: ﴿جَنَّةً﴾ ومنعه مكي لعدم الضمير الرابط، وأجيب بتقدير: متكئين هم فيها؛ لجريان الصفة على غير من هي له، وفاعله ضمير مستتر فيه. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾. ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾: متعلقان بمحذوف حال من الضمير المستتر بـ: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾. وقيل: العكس بتعليقهما، وإن علقتهما جميعاً بـ: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ فلست مفنداً. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَرَوْنَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿شَمْسًا﴾: مفعول به. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية. ﴿زَمْهَرِيرًا﴾: معطوف على ما قبله، والجملة الفعلية في محل نصب حال من الضمير المستتر في ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ فتكون حالاً متداخلة، أو هي حال متكررة، كما أجيز اعتبارها صفة ﴿جَنَّةً﴾.

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ۝١٤﴾

الشرح: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا﴾ أي: ظل الأشجار في الجنة قريبة من الأبرار، فهي مظلّة عليهم زيادة في نعيمهم، وإن كان لا شمس، ولا قمر ثَمَّ، كما أن أمشاطهم الذهب، والفضة، وإن كان

لا وسخ، ولا شعث ثَمَّ، وإنما هي للتلذذ، والترفه. ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ أي: سخرت ثمارها لهم تسخيراً، يأكلون منها قياماً، وقعوداً، ومضطجعين، ويتناولونها كيف شاؤوا، وعلى أي حال أرادوا، وفي سورة (الحاقة): ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾، وفي سورة (الرحمن) الآية [٥٤]: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ هذا؛ و﴿قُطُوفُهَا﴾ جمع: قِطف بكسر القاف بمعنى مفعول، كالذِّبح بمعنى المذبوح، وهو ما يجتنيه الجاني من الثمار، وأما القَطف بالفتح؛ فالمصدر، والقطاف بالفتح، والكسر: وقت القطاف. هذا؛ والمذلل: القريب المتناول من قولهم: حائط ذليل، أي: قصير، و﴿ذَلُولٌ﴾ لم تذلل للركوب، ولا للسقي، ولا للحرث. قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ رقم [٧١] من سورة (البقرة) وقال امرؤ القيس من معلقته رقم [٤٧]: [الطويل]

وَكَشْحٍ لَطِيفٍ كَالْجَدِيلِ مُخَصَّرٍ وَسَاقٍ كَأُنْبُوبِ السَّقِيِّ الْمُذَلَّلِ

تنبيه: قال الجمل نقلاً عن كرخي: فإن قيل: كيف يوصف ظلها، أي: ظل ما فيها من الأشجار. مع أن الظل إنما يوجد حيث توجد الشمس، ولا شمس في الجنة؛ حتى يظل أهلها ما فيها من الأشجار؟ فالجواب أن المراد: أن أشجار الجنة تكون بحيث لو كانت هناك شمس، لكان ظل تلك الأشجار قريباً منهم. انتهى.

الإعراب: ﴿وَدَانِيَةً﴾: فيها أوجه: أحدها: أنها عطف على محل ﴿لَا يَرَوْنَ﴾، الثاني: أنها معطوفة على ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ فيكون فيها ما فيها، ودخلت الواو للدلالة على أن الأمرين يجتمعان لهم، كأنه قيل: وجزاهم جنة جامعين فيها بين السلامة من الحر، والقر، ودنو الظلال عليهم. الثالث: أنها صفة لموصوف محذوف، أي: وجنة دانية. قاله أبو البقاء. الرابع: أنها صفة لـ: ﴿جَنَّةً﴾ الملفوظ بها. قاله الزجاج. انتهى. جمل نقلاً عن السمين. هذا؛ وقال الفراء: منصوب على المدح، أي: دنت دانية. هذا؛ وقرئ برفع (دانية) على أنه خبر مقدم، و﴿ظِلَالُهَا﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل نصب حال من فاعل ﴿لَا يَرَوْنَ﴾. قاله الزمخشري. وقال مكي: في موضع الحال من الهاء، والميم، أو من المضمر في ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ وقول الزمخشري أحق بالاعتبار. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: (دانية). ﴿ظِلَالُهَا﴾: فاعل بدانية، أو هو مبتدأ مؤخر حسبما رأيت. هذا؛ وينبغي أن تعلم: أن (دانية) في الأصل صفة ﴿ظِلَالُهَا﴾ فلما تقدم النعت على المنعوت انتصب، ومثله قوله تعالى في سورة (الأنبياء) رقم [٣]: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ وقوله تعالى في سورة (القلم) رقم [٤٢]: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾. ﴿وَذُلِّلَتْ﴾: الواو: واو الحال. (ذللت): فعل ماض مبني للمجهول، والتاء للتأنيث. ﴿قُطُوفُهَا﴾: نائب فاعل، و(ها): في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية معطوفة على (دانية) فهي في محل نصب حال مثلها، وهي على تقدير: «قد» قبلها. هذا؛ وقال الزمخشري: فإن قلت: فعلام عطف: ﴿وَذُلِّلَتْ﴾؟ قلت: هي إذا رفعت (دانية) جملة فعلية معطوفة على جملة ابتدائية، وإذا نصبتها على الحال، فهي حال من

(دانية) أي: تدنو ظلالها عليهم في حال تذليل قطوفها لهم، أو معطوفة عليها، أي: ودانية عليهم ظلالها، ومذللة قطوفها، وإذا نصبت ﴿وَدَانِيَةً﴾ على الوصف، فهي صفة مثلها، ألا ترى أنك لو قلت: جنة ذللت قطوفها كان صحيحاً. ﴿تَذْلِيلًا﴾: مفعول مطلق.

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾﴾

الشرح: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾ أي: يدور على هؤلاء الأبرار الخدم إذا أرادوا الشراب بآنية من فضة. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء، أي: ما في الجنة أشرف، وأعلى، وأنقى! ثم لم تنف الأواني الذهبية، بل المعنى: يسقون في أواني الفضة، وقد يسقون في أواني الذهب، وقد قال تعالى في سورة (الزخرف) رقم [٧١]: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾، والمعنى: أن لهم في الجنة أطعمة، وأشربة، يطاف بها عليهم في صحاف من ذهب، وأكواب، ولم يذكر الأطعمة، والأشربة؛ لأنه يعلم: أنه لا معنى للإطافة بالصحاف، والأكواب، والآنية عليهم من غير أن يكون فيها شيء.

وفي الصحيحين عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**لَا تَلْبَسُوا الْحَرِيرَ، ولا الدِّيبَاجَ، ولَا تَشْرَبُوا في آنِيَةِ الذَّهَبِ، وَالْفِضَّةِ، وَلَا تَأْكُلُوا في صِحَافِهِمَا، فَإِنَّهَا لهمْ في الدُّنْيَا، ولكمْ في الآخِرَةِ**». وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أَهْلَ الْجَنَّةِ يأكلونَ فِيهَا، ويَشْرَبُونَ، ولا يتْفِلُونَ، وَلَا يَبُولُونَ، وَلَا يمْتَخِطُونَ**». قالوا: فمَا بَالُ الطعَام؟ قال: «**جُشَاءٌ، ورَشْحٌ كرَشْحِ الْمِسْكِ، يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ، وَالتَّحْمِيدَ، والتكبيرَ كما يُلْهَمُونَ النَّفَسَ**». وروى الأئمة من حديث أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ﷺ قال: «**الَّذِي يشربُ في آنِيَةِ الذَّهَبِ، والْفِضَّةِ؛ إِنَّمَا يُجَرْجِرُ في بَطْنِهِ نارَ جهَنَمَ**». وقال: «**لَا تَشْرَبُوا فِي آنِيَةِ الذَّهَبِ، وَالْفِضَّةِ، ولا تَأْكُلُوا في صِحَافِهِما**».

وهذا يقتضي التحريم، ولا خلاف في ذلك. ويقاس على الأكل، والشرب سائر الاستعمالات. وأيضاً: الاقتناء لقوله ﷺ في الذهب، والحرير: «**هذانِ حرامٌ لذكورِ أمتي حِلٌّ لإناثِها**».

هذا؛ و(أكواب) جمع: كوب، وهو وعاء مدور، لا أذن له، ولا عروة بخلاف الإبريق فإن له ذلك، والملاحظ: أن لفظ: (أكواب) جاء بسورة (الزخرف) وفي هذه السورة، وفي سورة (الواقعة) و(الغاشية) بلفظ الجمع ولم يأت له مفرد قطعاً؛ لأنه لا يتهيأ فيها ما يجعلها في النطق، والظهور، والرقة، والانكشاف، وحسن التناسب كلفظ: (أكواب) الذي هو الجمع، وقل مثله في: أباريق، فإنه لم يستعمل منه مفرد، ولم يذكر إلا في سورة (الواقعة)، ومفرده: إبريق، سمي بذلك؛ لأنه يبرق لونه من صفائه. هذا؛ وقد جاء لفظ الكوب مفرداً في قول عدي بن زيد: [السريع]

مُــتَّــكِــئــاً تُــقْــرَعُ أَبْــوَابُــهُ يَــسْــعَــى عَــلَــيْــهِ الــعــبــدُ بــالــكــوبِ

قال الزمخشري ـ رحمه الله تعالى ـ: فإن قلت: ما معنى ﴿كَانَتْ﴾؟ قلت: هو من (يكون) في قوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ أي: تكونت قوارير بتكوين الله تفخيماً لتلك الخلقة العجيبة الشأن، الجامعة بين صفتي الجوهرين المتباينين، ومنه كان في قوله تعالى: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾، ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾.

هذا؛ والقوارير: الزجاج الأبيض الجميل، وهو جمع: القارورة. وفي المصباح: القارورة: إناء من زجاج، والجمع: القوارير، والقارورة أيضاً: وعاء الرطب، والتمر، وهي القوصرة. وتطلق القارورة على المرأة؛ لأن الولد، أو المني يقر في رحمها، كما يقر الشيء في الإناء، أو تشبيهاً لها بآنية الزجاج لضعفها، وفي الحديث الشريف من قول النبي ﷺ: «**رِفقاً بالقوارير**». قال الأزهري: والعرب تكني عن المرأة بالقارورة، والقوصرة. انتهى. وفي القاموس المحيط: والقارورة: حدقة العين، وما قرَّ فيه الشراب، أو نحوه، أو يخص بالزجاج، و﴿قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ﴾ أي: من زجاج في بياض الفضة، وصفاء الزجاج. وانظر ما قيل في صرف (سلاسل) فهو مثله.

الإعراب: ﴿وَيُطَافُ﴾: الواو: حرف عطف، أو حرف استئناف. (يطاف): فعل مضارع مبني للمجهول. ﴿عَلَيْهِم﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، أو هما في محل رفع نائب فاعله، ومثلهما قوله: ﴿بِـَٔانِيَةٍ﴾. ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾: متعلقان بمحذوف صفة (آنية). ﴿وَأَكْوَابٍ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿كَانَتْ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه ضمير مستتر تقديره: «هي»، يعود إلى (أكواب). ﴿قَوَارِيرَا۟﴾: خبر (كان) وإن اعتبرتها تامة فـ: ﴿قَوَارِيرَا۟﴾ حال من فاعلها المستتر، والجملة الفعلية صفة (أكواب).

﴿قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾

الشرح: ﴿قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ﴾: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ليس في الجنة شيء إلا قد أعطيتم في الدنيا شبهه إلا القوارير من فضة، وقال: لو أخذت فضة من فضة الدنيا فضربتها؛ حتى تجعلها مثل جناح الذباب لم تر من ورائها الماء، ولكن قوارير الجنة مثل الفضة في صفاء القوارير. والمعنى: يرى ما في باطنها من ظاهرها. ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أي: قدروا الكؤوس على قدر ريهم، وكفايتهم لا تزيد، ولا تنقص، والمعنى: أن السقاة، والخدم الذين يطوفون عليهم، يقدرونها لهم، ثم يسقونها، وهو ألذ للشارب لكونه على مقدار حاجته، لا يفضل عنها، ولا يعجز، وعن مجاهد: لا تفيض، ولا تغيض. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿قَوَارِيرَا۟﴾: بدل مما قبله. ﴿مِن فِضَّةٍ﴾: متعلقان بمحذوف صفة ﴿قَوَارِيرَا۟﴾. ﴿قَدَّرُوهَا﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به. ﴿تَقْدِيرًا﴾: مفعول مطلق، والجملة الفعلية في محل نصب صفة ثانية لـ: ﴿قَوَارِيرَا۟﴾، أو في محل نصب حال منه بعد وصفه بما تقدم.

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾﴾

الشرح: ﴿وَيُسْقَوْنَ﴾ أي: الأبرار. ﴿فِيهَا﴾: في الجنة. ﴿كَأْسًا﴾ أي: مملوءة خمراً من خمر الآخرة، المنزهة عن اللغو، والرفث. ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾: شوبها، وخلطها. ﴿زَنجَبِيلًا﴾ والمعنى: يسقى هؤلاء الأبرار في الجنة كأساً من الخمر ممزوجة بالزنجبيل، والعرب تستلذ من الشراب ما مزج بالزنجبيل لطيب رائحته، فتارة يمزج للأبرار الشراب بالكافور، وهو بارد، وتارة بالزنجبيل، وهو حار ليعتدل الأمر، وأما المقربون؛ فإنهم يشربون من كل منهما صرفاً، كما قاله قتادة، وغير واحد. وكانت العرب تستلذ من الشراب ما يمزج بالزنجبيل لطيب رائحته؛ لأنه يحذو اللسان، ويهضم المأكول، فرغبوا في نعيم الآخرة بما اعتقدوه نهاية النعمة، والطيب. وقال المسيب بن عَلَس يصف ثغر المرأة: [الكامل]

وَكَأَنَّ طَعْمَ الزَّنْجَبِيلِ بِهِ ... إِذْ ذُقْتَهُ وسُلَافَةَ الْخَمْرِ

وقال الأعشى: [المتقارب]

كَأَنَّ الْقَرَنْفُلَ والزنجبيـ ... ـلَ بَاتَا بِفِيهَا وَأَرْياً مَشُورا

وقال بعض بني تميم ـ وهو الشاهد رقم [٦٨٧] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الرجز]

وَا بِأَبِي أَنْتَ وَفُوكِ الأَشْنَبُ ... كَأَنَّمَا ذُرَّ عَلَيْهِ الزَّرْنَبُ

أَوْ زَنْجَبِيلٌ وَهْوَ عِنْدي أطيَبُ

هذا؛ والأرْيُ: العسل. و«مشور» مستخرج من بيوت النحل. والشنب: رقة الأسنان. وقيل: عذوبة الفم، والزرنب: نبت طيب من نبات البادية.

الإعراب: ﴿وَيُسْقَوْنَ﴾: الواو: حرف عطف. (يسقون): فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو نائب فاعله، وهو المفعول الأول. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿كَأْسًا﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: (يطاف...) إلخ على الوجهين المعتبرين فيها. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿مِزَاجُهَا﴾: اسمها، و(ها) في محل جر بالإضافة. ﴿زَنجَبِيلًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، والجملة الفعلية في محل نصب صفة ﴿كَأْسًا﴾.

﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾

الشرح: ﴿تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾: السلسبيل: الشراب اللذيذ، وهو فَعْلَلِيل من السَّلاسة، تقول العرب: هذا شراب سَلِسٌ، وسَلْسَالٌ، وسَلْسَلٌ وسَلْسَبِيل بمعنىً. أي: طيب الطعم لذيذه، وفي الصحاح: وتسلسل الماء في الحلق: جرى، وسلسلتُه أنا: صببته فيه. وماء سَلْسل، وسَلْسال: سهل الدخول

في الحلق لعذوبته، وصفائه. وقال الزجاج: السلسبيل في اللغة: اسم لما كان في غاية السَّلاسة، فكأن العين سميت بصفتها. وقيل: حديدة الجرية سميت سلسبيلاً؛ لأنها تسيل عليهم في طرقهم ومنازلهم، تنبع من أصل العرش من جنة عدن إلى سائر الجنان، وبه قال ابن عباس - رضي الله عنهما -. ومنه قول حسان بن ثابت - رضي الله عنه - في مدح آل جفنة قبل إسلامه: [الكامل]

يَسْقُونَ مَنْ وردَ الْبَرِيصَ عَلَيْهِمُ بَرَدَى يُصَفَّقُ بالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ

وقال أبو كبير الهذلي - وهو الشاهد رقم [٤٤٩] من كتابنا: «فتح رب البرية»، وهو في «فتح القريب المجيب» أيضاً -: [الكامل]

أَمْ لَا سَبِيلَ إلى الشَّبَابِ وَذِكْرُهُ أَشْهَى إِلَيَّ مِنَ الرَّحِيقِ السَّلْسَلِ

هذا؛ وقد عزوْا إلى علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أن معناه: سلْ سبيلاً إليها، وهذا غير مستقيم على ظاهره إلا أن يراد أن جملة قول القائل: سلْ سبيلاً جعلت علماً للعين، كما قيل: (تأبط شرّاً) و(ذَرَى حبّاً) وسميت بذلك؛ لأنه لا يشرب منها إلا من سأل إليها سبيلاً بالعمل الصالح، وهو مع استقامته في العربية تكلف، وابتداع، وعزوهُ إلى مثل علي - رضي الله عنه - أبدع، وفي شعر بعض المحدثين: [الخفيف]

سَلْ سَبِيلاً فِيهَا إِلَى رَاحَةِ النَّفْـ سِ بِرَاحٍ كَأَنَّهَا سَلْسَبِيلُ

انتهى. كشاف واستبعد ابن هشام في المغني الاعتبارين. هذا؛ وقال صاحب منجد الطلاب: سلسبيل: اسم عين يقولون: إنها في الجنة. انتهى. نعم! نقول: إنها في الجنة، ولاحظ له فيها قطعاً، بل هي محرمة عليه وعلى من على شاكلته بلا شك. وقال ابن الأعرابي: لم أسمع السلسبيل إلا في القرآن، وقال مكي: هو اسم أعجمي نكرة، فلذلك صرف، ووزنه مثل: درْدَبِيس، وزنه: فَعْفَلِيل. وانظر الآية.

الإعراب: ﴿عَيْنًا﴾: بدل من ﴿زَنجَبِيلًا﴾. وقيل: بدل من ﴿كَأْسًا﴾، وأجيز اعتباره منصوباً بفعل مضمر، أي: يسقون عيناً، وأجيز نصبه بإسقاط الخافض، أي: من عين. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة ﴿عَيْنًا﴾. ﴿تُسَمَّىٰ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر، ونائب الفاعل تقديره: «هي» يعود إلى ﴿عَيْنًا﴾ وهو المفعول الأول. ﴿سَلْسَبِيلًا﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية في محل نصب صفة ثانية لـ: ﴿عَيْنًا﴾، أو في محل نصب حال منها بعد وصفها.

﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ١٩﴾

الشرح: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: غلمان لا يموتون، ولا يهرمون، ولا يتغيرون، ولا ينتقلون من حالة إلى حالة. ومنه قول امرئ القيس: [الطويل]

وَهَـلْ يَـنْـعَـمَـنْ إِلَّا سَـعِـيـدٌ مُـخَـلَّـدٌ قَـلِـيـلُ الْـهُـمُـومِ مَـا يَـبِـيـتُ بِـأَوْجَـالِ

وقال سعيد بن جبير ـ رحمه الله تعالى ـ: ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ مقرَّطون، والخلد: القرط، وهو الحلقة تعلق في الأذن. قال الشاعر: [الطويل]

ومُـخَـلَّـداتٌ بِـالـلُّـجَـيْـنِ كَـأَنَّـمَـا أَعْـجَـازُهُـنَّ أَقَـاوِزُ الـكُـثْـبَـانِ

فهم على سن واحدة أنشأهم الله لأهل الجنة يطوفون كما شاؤوا من غير ولادة. وقال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ والحسن البصري: الولدان هاهنا ولدان المسلمين؛ الذين يموتون صغاراً، ولا حسنة لهم ولا سيئة. وقال سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ: أطفال المشركين هم خدم أهل الجنة. وقال الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ: لم يكن لهم حسنات يجزون بها، ولا سيئات يعاقبون عليها، فوضعوا هذا الموضع. والمقصود: أن أهل الجنة على أتم السرور، والنعمة، والنعمة إنما تتم باحتفاف الخدم، والولدان بالإنسان.

أقول: ما نسب إلى علي، والحسن ضعيف جداً؛ لأن أولاد المسلمين الصغار، يكونون مع آبائهم، وأمهاتهم، وهو من جملة السرور، بل من أعظم السرور اجتماعهم بهم. قال تعالى في سورة (الطور) رقم [٢١]: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ وتشبهها آية (الرعد) رقم [٢٣] ولأن من المؤمنين من لا ولد له، فلو خدمه ولد غيره كان منقصة بأبي الخادم، وقول سلمان الفارسي أولى بالاعتبار؛ لأنه قد اختلف في أولاد المشركين على ثلاثة مذاهب، فقال الأكثرون: هم في النار تبعاً لآبائهم، وتوقف فيهم طائفة، والمذهب الثالث، (وهو الصحيح) الذي ذهب إليه المحققون: أنهم من أهل الجنة. ولكل مذهب دليل ليس هنا موضعه. وقال الخازن في سورة (الواقعة): والصحيح الذي لا معدل عنه إن شاء الله تعالى: أنهم ولدان خلقوا في الجنة لخدمة أهل الجنة كالحور العين، ولم يولدوا، ولم يخلقوا عن ولادة. ولا بأس به!.

﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ أي: أبصرتهم. ﴿حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ أي: ظننتهم من حسنهم، وكثرتهم، وصفاء ألوانهم لؤلؤاً في مجالسهم، ومنازلهم، شبهوا باللؤلؤ المنثور هنا وهناك، واللؤلؤ إذا نثر بساطاً، كان أحسن منه منظوماً. وعن المأمون العباسي: أنه ليلة زفت إليه بوران بنت الحسن بن سهل، وهو على بساط منسوج من ذهب، وقد نثرت عليه نساء دار الخلافة اللؤلؤ، فنظر إليه منثوراً على ذلك البساط، فاستحسن المنظر. وقال: لله در أبي نواس، كأنه أبصر هذا؛ حيث قال: [البسيط]

كَـأَنَّ صُـغْـرَى وَكُـبْـرَى مِـنْ فَـقَـاقِـعِـهَـا حَـصْـبَـاءُ دُرٍّ عَـلَـى أَرْضٍ مِـنَ الـذَّهَـبِ

وقيل: شبهوا باللؤلؤ الرطب؛ إذا نثر من صدفه؛ لأنه أحسن، وأكثر رواءً. وقيل: إنما شبهوا بالمنثور؛ لأنهم سراع في الخدمة، بخلاف الحور العين؛ إذ شبههن الله باللؤلؤ المكنون المخزون؛ لأنهن لا يمتهن بالخدمة، وذلك بقوله تعالى في سورة (الواقعة): ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾

﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ كما وصفهم الله باللؤلؤ المكنون للتفنن، وذلك في سورة (الطور) رقم [٢٤] بقوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ انظر شرح هذه الآية في محلها.

وفي قوله تعالى: ﴿حَسِبْتَهُمْ...﴾ إلخ، تشبيه مأخوذ من معنى حسبتهم، وهو تشبيه بديع، فقد شبه الولدان باللؤلؤ المنثور، فهو قسم من أقسام التشبيه جاءت فيه الأداة فعلاً من أفعال الظن، ومثله قوله تعالى في سورة (الكهف) رقم [١٨]: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾، وقوله تعالى في سورة (النمل) رقم [٤٤]: ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾.

الإعراب: ﴿وَيَطُوفُ﴾: الواو: حرف عطف. (يطوف): فعل مضارع. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿وِلْدَٰنٌ﴾: فاعل (يطوف). ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾: صفة ﴿وِلْدَٰنٌ﴾ مرفوع، وعلامة رفعه الواو... إلخ، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه صالح لغير ذلك، مبني على السكون في محل نصب. ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على المشهور المرجوح. ﴿حَسِبْتَهُمْ﴾: فعل ماض، وفاعله، ومفعوله الأول. ﴿لُؤْلُؤًا﴾: مفعول به ثان. ﴿مَّنثُورًا﴾: صفة له، والجملة الفعلية جواب ﴿إِذَا﴾، لا محل لها، و﴿إِذَا﴾ ومدخولها في محل رفع صفة ثانية لـ: ﴿وِلْدَٰنٌ﴾، أو هو كلام مستأنف، لا محل له.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾: خطاب للنبي ﷺ، أو لكل من يدخل الجنة، وحذف المفعول للتعميم. ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا﴾: النعيم: سائر ما يتنعم به. ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ أي: مملكة لله هناك عظيمة، وسلطاناً باهراً، وثبت في الصحيح: أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجاً منها، وآخر أهل الجنة دخولاً إليها: «**إن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها**». وفي الحديث عن ابن عمر مرفوعاً: «**إِنَّ أدْنَى أهلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً لمَنْ يَنظرُ في ملكِهِ مَسِيرةَ أَلْفَيْ سَنَةٍ، ينظُرُ إلى أقْصَاهُ، كَمَا يَنْظرُ إلى أدْنَاهُ**». فإذا كان هذا عطاء الله تعالى لأدنى أهل الجنة، فما ظنك بمن هو أعلى منزلة، وأحظى عنده تعالى؟ وقال سفيان الثوري ـ رحمه الله تعالى ـ: بلغنا: أن المُلك الكبير هو تسليم الملائكة عليهم. وقيل: كون التيجان على رؤوسهم كما تكون على رؤوس الملوك في الدنيا، وأعظمهم منزلة من ينظر إلى وجه ربه كلَّ يوم. هذا؛ وَ﴿ثَمَّ﴾ هنا بفتح الثاء ظرف مكان، وهي بخلاف «ثُمَّ» بضم الثاء، انظر الآية رقم [٣٢] من سورة (الحاقة). والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

تنبيه: ذكر السيوطي في: «أسباب النزول» فقال: وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال: دخل عمر على النبي ﷺ، وهو راقد على حصير من جريد؛ وقد أثر في جنبه، فبكى عمر ـ رضي الله عنه ـ فقال: «**ما يبكيك**»؟! قال: ذكرت كسرى، وملكه، وهرمز، وملكه، وصاحب الحبشة، وملكه، وأنت رسول الله تنام على حصير من جريد! فقال رسول الله ﷺ: «**أَمَا تَرْضَى أنَّ لهم**

الدنيا، ولنَا الآخِرةَ؟!». فأنزل اللهُ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ...﴾ إلخ، وانظر ما ذكرته في سورة (الأحقاف) رقم [٢٠] فإنه جيد.

الإعراب: ﴿وَإِذَا﴾: الواو: حرف عطف. (إذا): انظر الآية السابقة. ﴿رَأَيْتَ﴾: فعل، وفاعل، والمفعول لم يذكر، ولا يُنوى، ولا يسمى محذوفاً؛ لأن الفعل نزل منزلة ما لا مفعول له إذا المراد الإعلام بمجرد إيقاع الفاعل للفعل، أفاده ابن هشام في المغني. وقال الفراء: ﴿ثَمَّ﴾ مفعول به لرأيت. وقال أيضاً: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ تقديره: مَا ثَمَّ، فحذفت «ما»، وقامت ﴿ثَمَّ﴾ مقام «ما»، ورد هذا الزمخشري، فقد قال: ومن قال معناه: ما ثَمَّ فقد أخطأ؛ لأن ﴿ثَمَّ﴾ صلة لـ: «ما» ولا يجوز إسقاط الموصول وترك الصلة، وما قاله الزمخشري محجوج بقوله حسان ـ رضي الله عنه ـ في هجاء أبي سفيان ـ وهو الشاهد رقم [١٠٥٨] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» إعراب شواهد مغني اللبيب ـ: [الوافر]

أَمَنْ يَهْجُو رسُولَ اللهِ مِنْكُمْ ... ويَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ

التقدير: ومن يمدحه... إلخ. ﴿ثَمَّ﴾: ظرف مكان بمعنى هنالك مبني على الفتح في محل نصب متعلق بالفعل ﴿رَأَيْتَ﴾، أو هو متعلق بمحذوف صلة الموصول المحذوف، أو هو في محل نصب مفعول به حسبما رأيت في الشرح، وجملة: ﴿رَأَيْتَ ثَمَّ﴾ في محل جر بإضافة (إذا) إليها. ﴿رَأَيْتَ﴾: فعل، وفاعل. ﴿نَعِيمًا﴾: مفعول به. (ملكاً): معطوف على ما قبله. ﴿كَبِيرًا﴾: صفة (ملكاً)، وجملة: ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا...﴾ إلخ جواب (إذا)، لا محل لها، و(إذا) ومدخولها كلام معطوف على ما قبله. هذا؛ وانظر حذف مفعول رأيت في سورة (التكاثر)، فإنه جيد والحمد لله.

﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾

الشرح: ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾: يقرأ بسكون الياء، وتحريكها بالفتحة. انظر الإعراب، وهو بمعنى: فوقه. ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ﴾ أي: ما يعلوهم من الثياب، وما يتجملون به، إنما هو من سندس، وهو ما رقَّ من الحرير. ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾: هو ما غلظ من الحرير، وقد يطلق على النوعين اسم: الديباج. هذا؛ وقيل: السندس يكون مما يلي أبدانهم، والإستبرق، وهو ما فيه بريق ولمعان يكون فوق الأول، كما هو المعهود في لباس الدنيا: ثياب داخلية، وثياب فوقها. هذا؛ و﴿ثِيَابُ﴾ جمع: ثوب، أصله: ثِواب، قلبت الواو ياءً لانكسار ما قبلها، ومثله: صِيام، وحِياض... إلخ، وانظر ما ذكرته برقم [٧] من سورة (نوح) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام. والإستبرق: مختلف فيه، هل هو عربي، مشتق أصله من البريق، أو هو معرب، أصله استبرهْ؟ خلاف بين اللغويين.

قال الزمخشري: فإن قلت: ذكر هاهنا: أن أساورهم من فضة، وفي موضع آخر أنها من ذهب؟ قلت: هَبْ أنه قيل: وحُلُّوا أساور من ذهب، ومن فضة، وهذا صحيح لا إشكال فيه على أنهم يسورون بالجنسين، إما على المعاقبة، وإما على الجمع، كما تزاوج نساء الدنيا بين أنواع الحلي، وتجمع بينها، وما أحسن بالمعصم أن يكون فيه سواران: سوار من ذهب، وسوار من فضة! ولا تنس: أن التعبير بالماضي (حلوا) عن المستقبل: «يحلون» لتحقق وقوعه.

وقال سعيد بن جبير ـ رحمه الله تعالى ـ: على كل واحد منهم ثلاثة أسورة: واحد من ذهب، وواحد من ورِق، وواحد من لؤلؤ. وهو المنصوص عليه في القرآن، في سورة (الكهف) رقم [٣١]، وفي سورة (الحج) رقم [٢٣]، وأيضاً في سورة (فاطر) رقم [٣٣]، وقال هنا: ﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾. وخص اللون الأخضر بالذكر هنا وفي سورة (الكهف) رقم [٣١]؛ لأنه أحسن الألوان، وأكثرها طراوة، وأعلاها بهجة، ولأن البياض يبدد النظر، ويؤلم، والسواد يذم، والخضرة بينهما، وذلك يجمع الشعاع.

﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ...﴾ إلخ يعني: طاهراً من الأقذار، والأدران، لم تمسه الأيدي، ولم تدنسه الأرجل كخمر الدنيا. وقيل: إنه لا يستحيل بولاً، ولكنه يستحيل رشحاً في أبدانهم، كرشح المسك، وذلك: أنهم يُؤْتَوْن بالطعام، ثم من بعده يؤتَوْنَ بالشراب الطهور، فيشربون منه، فتطهر بطونهم، ويصير ما أكلوا رشحاً، يخرج من جلودهم أطيب من المسك الأذفر، وتضمر بطونهم، وتعود شهياتهم. وقيل: الشراب الطهور هو عين ماء على باب الجنة، من شرب منه نزع الله ما كان في قلبه من غل، وغش، وحسد، وكبر. . .إلخ. ولا تنس أن (الطهور) صيغة مبالغة.

وكل ما ذكر في هذه الآيات من النعيم المعد للأبرار مع ما ذكر من الأغلال، والسعير في الآية رقم [٤] المعد للكافرين، والفجار إنما هو على طريقة القرآن في المقارنة بين حال الأبرار، وحال الفجار، وتلك سنة اقتضتها حكمة العليم الخبير، ورحمته في كتابه بأن لا يذكر التكذيب من الكافرين، والمنافقين؛ إلا ويذكر التصديق من المؤمنين، ولا يذكر الإيمان؛ إلا ويذكر الكفر، ولا يذكر الجنة، ونعيمها؛ إلا ويذكر النار، وجحيمها، ولا يذكر الرحمة؛ إلا ويذكر الغضب، والسخط، ليكون المؤمن راغباً، راهباً، خائفاً، راجياً.

كما روي عن علي ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: إذا انتهى أهل الجنة إلى باب الجنة؛ وجدوا هنالك عينين، فكأنما ألهموا ذلك، فشربوا من إحداهما، فأذهب الله ما في بطونهم من أذى، ثم اغتسلوا من الأخرى، فجرت عليهم نضرة النعيم. فأخبر سبحانه وتعالى بحالهم الظاهر، وجمالهم الباطن. هذا؛ وانظر قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ في سورة (الأعراف) رقم [٤٣] وسورة (الحجر) رقم [٤٧].

هذا؛ والفعل: (سقاهم) من الثلاثي، كما يأتي من الرباعي: أسقى، وهما بمعنى واحد، تقول: سقى الله هذه البلاد الغيث، وأسقاها الغيث، فيكون بالهمزة تارةً، وبدونه أخرى، وشاهد

المهموز قوله تعالى في سورة (المرسلات) رقم [٢٧]، وشاهد غير المهموز الآية التي نحن بصدد شرحها، ويحتملهما قوله تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾ وقوله جل ذكره في سورة (المطففين): ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ وقد ورد اللغتان في قول لبيد ـ رضي الله عنه ـ: [الوافر]

سَقَى قَوْمِي بَنِي مَجْدٍ وَأَسْقَى نُمَيْراً والْقَبَائِلَ مِنْ هِلَالِ

ولكنه حذف المفعول الثاني من كليهما، كما حذف المفعولان من الأفعال المذكورة في سورة (القصص): ﴿يَسْقُونَ﴾ ﴿لَا نَسْقِى﴾، ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾. هذا؛ وفرق الأعلم بين المهموز وغيره، فقال: تقول: سقيتك ماءً: إذا ناولته إياه يشربه، وتقول: أسقيتك إذا حصلت له سقيا.

الإعراب: ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾: فعلى قراءته بسكون الياء ففيه أوجه: أظهرها: أن يكون خبراً مقدماً، و﴿ثِيَابُ﴾ مبتدأ مؤخر، والثاني: أن (عاليْهم) مبتدأ، و﴿ثِيَابُ﴾ فاعل به سد مسد الخبر، وإن لم يعتمد على وصف، أو نفي، أو استفهام، وهذا قول الأخفش، والكوفيين. والثالث: أن (عاليْهم) منصوب، وإنما سكن تخفيفاً. قاله أبو البقاء، ويجري فيه الاعتباران المذكوران من الإعراب. وعلى قراءته بالنصب ففيه أوجه: أحدها: أنه ظرف مكان بمعنى: فوقهم، فهو متعلق بمحذوف خبر مقدم، و﴿ثِيَابُ﴾ مبتدأ مؤخر، وعلى جميع الوجوه المذكورة فالجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها. والثاني: أن ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ حال من الضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾. الثالث: أنه حال من مفعول ﴿حَسِبْتَهُمْ﴾. الرابع: أنه حال من مضاف مقدر؛ أي: رأيت أهل نعيم وملك كبير عاليهم، فـ: ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ حال من «أهل» المقدر، ذكر هذه الأوجه الثلاثة الزمخشري، وغيره. والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وهذا على اعتباره حالاً، وأما على اعتباره ظرف مكان؛ فالإضافة محضة، وحقيقية. و﴿ثِيَابُ﴾ مضاف، و﴿سُندُسٍ﴾ مضاف إليه.

﴿خُضْرٌ﴾: يقرأ بالرفع على أنه صفة ﴿ثِيَابُ﴾، وبالجر على أنه صفة ﴿سُندُسٍ﴾. ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾: يقرأ بالرفع عطفاً على ﴿ثِيَابُ﴾، ويقرأ بالجر عطفاً على ﴿سُندُسٍ﴾. ﴿وَحُلُّوٓا۟﴾: الواو: واو الحال. (حلوا): فعل ماض مبني للمجهول، مبني على الضم، والواو نائب فاعله، وهو المفعول الأول، والألف للتفريق. ﴿أَسَاوِرَ﴾: مفعول به ثان. ﴿مِن فِضَّةٍ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة ﴿أَسَاوِرَ﴾، والجملة الفعلية في محل نصب حال من الضمير في ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾، العائد إلى ﴿وِلْدَٰنٌ﴾، والرابط: الواو، والضمير، وهي على تقدير «قد» قبلها، وإن عطفتها على جملة (يطوف) فلست مفنداً.

﴿وَسَقَىٰهُمْ﴾: الواو: حرف عطف. (سقاهم): فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والهاء مفعول به أول. ﴿رَبُّهُمْ﴾: فاعل مرفوع، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿شَرَابًا﴾: مفعول به ثان. ﴿طَهُورًا﴾: صفة (شراباً)، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، على الاعتبارين فيها.

﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ...﴾ إلخ: أي: يقال لهم: إنما هذا جزاؤكم، وثوابكم. وهذا يكون بعد دخولهم فيها، ومشاهدتهم نعيمها، كما يقال لهم: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ سورة (الحاقة) رقم [٢٤]. وكقوله تعالى: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ سورة (الأعراف) رقم [٤٣]. ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم﴾: عملكم. ﴿مَّشْكُورًا﴾ أي: عند الله، وشكره للعبد قبول طاعته، وثناؤه عليه، وإثابته إياه.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿هَٰذَا﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل نصب اسم ﴿إِنَّ﴾، والهاء حرف تنبيه لا محل له. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها يعود إلى اسم الإشارة. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: ﴿جَزَآءً﴾ بعدهما. ﴿جَزَآءً﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة: ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ في محل رفع خبر ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول لقول محذوف، انظر تقديره في الشرح، والقول المحذوف، ومقوله كلام مستأنف، لا محل له. (كان): فعل ماض ناقص. ﴿سَعْيُكُم﴾: اسم (كان)، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة المصدر لفاعله. ﴿مَّشْكُورًا﴾: خبر (كان)، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل رفع مثلها.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾: هذا خطاب لسيد الخلق، وحبيب الحق ﷺ. ﴿ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: متفرقاً آية بعد آية، ولم ننزله جملة واحدة. والمعنى: أنزلنا عليك القرآن متفرقاً لحكمة بالغة، تقتضي تخصيص كل شيء بوقت معين، والمقصود من ذلك تثبيت قلب رسول الله ﷺ، وشرح صدره، وأن الذي أنزله إليه وحي منه، ليس بكهانة، ولا سحر؛ لتزول تلك الوحشة؛ التي حصلت له ﷺ من قول الكفار: إنه سحر، أو شعر، أو كهانة.

هذا؛ و﴿نَزَّلْنَا﴾ بتشديد الزاي بمعنى: أنزلنا، والفرق بين الفعلين: أن أنزل يفيد: أن القرآن، أو السورة إنما نزل دفعة واحدة، وأما نزَّل فيفيد: أن القرآن نزل مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة على حسب الوقائع، ومقتضيات الأحوال على ما نرى عليه أهل الشعر، والخطابة. وهذا مما يريب القرشيين، كما حكى سبحانه وتعالى عنهم بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ فبين سبحانه الحكمة من ذلك بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ سورة (الفرقان) رقم [٣٢] هذا؛ وانظر شرح (نا) في سورة (نوح) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام رقم [١].

الإعراب: ﴿إِنَّا﴾: (إنَّ): حرف مشبه بالفعل، و(نا): اسمها، حذفت نونها، وبقيت الألف دليلاً عليها. ﴿نَحْنُ﴾: ضمير منفصل فيه ثلاثة أوجه: أحدها: أنه ضمير فصل لا محل له من الإعراب. والثاني: أنه توكيد لاسم (إنَّ) على المحل. والثالث: أنه في محل رفع مبتدأ. ﴿نَزَّلْنَا﴾: فعل، وفاعل. ﴿عَلَيْكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿الْقُرْآنَ﴾: مفعول به. ﴿تَنزِيلًا﴾: مفعول مطلق، والجملة الفعلية: ﴿نَزَّلْنَا...﴾ إلخ في محل رفع خبر (إنَّ) على الوجه: الأول، والثاني في الضمير، وفي محل رفع خبره على الوجه الثالث فيه، وعليه: فالجملة الاسمية في محل رفع خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّا نَحْنُ...﴾ إلخ مستأنفة، لا محل لها.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾

الشرح: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: لعبادته، فهي من الحكمة المحضة. وقيل: معناه فاصبر لحكم ربك في تأخير الإذن بالقتال. وقيل: هو عام في جميع التكاليف، أي: فاصبر لحكم ربك في كل ما حكم الله به، سواء كان تكليفاً خاصاً، كالعبادات، والطاعات، أو عاماً متعلقاً بالغير، كالتبليغ، وأداء الرسالة، وتحمل المشاق، وغير ذلك.

﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ أي: لا تطع الكافرين، والمنافقين؛ إن أرادوا صدك عما أنزل إليك، بل بلغ ما أنزل إليك من ربك، وتوكل عليه، فإن الله يعصمك من الناس، فالآثم: هو الفاجر في أفعاله، والكفور: هو الكافر قلبه. قال تعالى في سورة (الأحزاب) رقم [٤٨]: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

هذا؛ وقيل: أراد بالآثم، والكفور: أبا جهل، وذلك: أنه لما فرضت الصلاة على النبي ﷺ نهاه أبو جهل عنها. وقال: لئن رأيت محمداً يصلي؛ لأطأنَّ على عنقه! وقيل: أراد بالآثم: عتبة بن ربيعة، وبالكفور: الوليد بن المغيرة، وذلك: أنهما قالا للنبي ﷺ: إن كنت صنعت ما صنعت لأجل النساء والمال، فارجع عن هذا الأمر! وقال عتبة: أنا أزوجك ابنتي، وأسوقها إليك بغير مهر. وقال الوليد: أنا أعطيك من المال حتى ترضى، فارجع عن هذا الأمر! فأنزل الله هذه الآية. فإن قلت: هل من فرق بين الآثم، والكفور؟ قلت: نعم، الآثم: هو المقدم على المعاصي؛ أي: معصية كانت، والكفور: هو الجاحد، فكل كفور آثم، ولا ينعكس؛ لأن مَنْ عبد غير الله؛ فقد اجتمع في حقه هذان الوصفان؛ لأنه لما عبد غير الله؛ فقد عصاه، وجحد نعمه عليه. انتهى خازن. هذا؛ و(كفور) صيغة مبالغة، ومعناها: المبالغ في الكفر، والجحود. وقيل: ﴿أَوْ﴾ هنا بمعنى الواو، فيكون قد جمع بين الوصفين.

الإعراب: ﴿فَاصْبِرْ﴾: الفاء: هي الفصيحة؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر، التقدير: وإذا كان ما ذكر من تنزيل القرآن واقعاً، وحاصلاً من عندنا لا من عند غيرنا؛ فاصبر. (اصبر): فعل أمر،

وفاعله مستتر فيه تقديره: «أنت». ﴿لِحُكْمِ﴾: متعلقان بما قبلهما، و(حكم) مضاف، و﴿رَبِّكَ﴾ مضاف إليه من إضافة المصدر لفاعله، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جواب لشرط غير جازم. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): ناهية. ﴿تُطِعْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: (لا) الناهية، وفاعله مستتر تقديره: «أنت». ﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، أو هما متعلقان بما بعدهما. ﴿ءَاثِمًا﴾: مفعول به. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿كَفُورًا﴾: معطوف على ما قبله، وجملة ﴿وَلَا...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها.

تنبيه: قيل: ﴿أَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ أوكد من الواو؛ لأن الواو؛ إذا قلت: «لا تطع زيداً، وعمراً» فأطاع أحدهما كان غير عاص؛ لأنه أمره ألا يطيع الاثنين، فإذا قال: «لا تطع زيداً، أو عمراً»؛ فـ: «أو» قد دلت على أن كل واحد منهما أهل أن يعصى، كما أنك إذا قلت: «لا تخالف الحسن، أو ابن سيرين»، أو «اتبع الحسن، أو ابن سيرين» فقد قلت: هذان أهل أن يتبعا، وكل واحد منهما أهل لأن يتبع. قاله الزجاج. وقال الفراء: ﴿أَوْ﴾ هنا بمنزلة «لا» كأنه قال: ولا كفوراً، وأنشد قول مالك بن عمرو القضاعي: [المنسرح]

لا وَجْدَ ثُكْلَى كَمَا وَجَدْتُ ولَا ... وَجْدَ عَجُولٍ أَضَلَّهَا رُبَعُ

أَوْ وَجْدَ شَيْخٍ أَضَلَّ نَاقَتَهُ ... يَوْمَ تَوَافَى الحَجِيجُ فَانْدَفَعُوا

العجول من النساء، والإبل: الوالِهُ التي فقدت ولدها، سميت بذلك؛ لعجلتها في جيئتها، وذهابها جزعاً، وهي هنا الناقة، والرُّبع، كمُضر: الفصيل ينتج في الربيع، والشيخ من تجاوز الأربعين، أو الخمسين من عمره، والوجد في البيتين: الحزن، واللهفة، ولا في أول البيتين تصلح؛ لأن تكون نافية للوحدة، ولأن تكون نافية للجنس، لذا يجوز رفع (وجد) ونصبه. انتهى قرطبي ما عدا الشرح بعد البيتين.

هذا؛ وقال ابن هشام في المغني: ومن الغريب: أن جماعة منهم ابن مالك ذكروا مجيء أو بمعنى الواو، ثم ذكروا: أنها تجيء بمعنى (ولا) بعد النهي، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ وبعد النفي، كقوله تعالى في سورة (النور) رقم [٦١]: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ﴾ وهذه هي تلك بعينها، وإنما جاءت (لا) توكيداً للنفي السابق، ومانعةً من توهم تعليق النفي بالمجموع، لا بكل واحد، وذلك مستفاد من دليل خارج عن اللفظ، وهو الإجماع، ونظيره قولك: (لا يحل لك الزنا، والسرقة) ولو تركت (لا) في التقدير لم يضر ذلك. انتهى. مغني. ومثله في الجني الداني، وزاد على المغني حيث أورد البيتين السابقين؛ اللذين نقلتهما من القرطبي، وخرجهما الدكتور فخر الدين قباوة في تعليقه على الجني الداني للحسن بن قاسم المرادي للشاعر المذكور.

﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٢٥ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ٢٦﴾

الشرح: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ أي: صل لربك، وأكثر من عبادته، وطاعته. ﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾: في الصباح، والمساء، في الصباح صلاة الصبح، وفي المساء صلاة الظهر، وصلاة العصر. ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ﴾ يعني: صلاة المغرب، وصلاة العشاء، فعلى هذا تكون الآية جامعة لمواقيت الصلاة الخمس، كما في قوله تعالى في سورة (الروم): ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾. ﴿وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾: المراد به: صلاة التطوع بعد المكتوبة، وهو التهجد في الليل. وقد استوفيت الكلام على ذلك في سورة (المزمل)، وانظر شرح ﴿ٱلَّيۡلِ﴾ في سورة (نوح) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام رقم [٥].

تنبيه: لقد جاء لفظ التسبيح في القرآن الكريم بالماضي أحياناً، وبالمضارع أحياناً، وبالأمر أحياناً، وبالمصدر أحياناً أخرى استيعاباً لهذه المادة من جميع جهاتها، وألفاظها، وهي أربع: المصدر، والماضي، والمضارع، والأمر. وهذا الفعل بألفاظه الأربعة قد عُدِّي باللام تارةً، مثل قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾، وقوله جلت حكمته: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ وبنفسه أخرى، مثل قوله تعالى شأنه في هذه الآية: ﴿وَسَبِّحۡهُ﴾ وفي سورة (الفتح) رقم [٩]: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾، وفي سورة (الأحزاب) رقم [٤٢]: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾، وفي آخر سورة (ق): ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ وأصله التعدي بنفسه؛ لأن معنى سبحته: بعدته من السوء، منقول من: سبَحَ: إذا ذهب، وبعُد، فاللام إما أن تكون مثل: نصحته، ونصحت له، وشكرته، وشكرت له، وإما أن يراد بـ: سبَّح لله: اكتسب التسبيح لأجل الله، ولوجهه خالصاً. انتهى نسفي من سورة (الحديد). هذا؛ وفي الآية الكريمة دليل على عدم ما قاله بعض أهل المعاني والبيان: أن الجمع بين الحاء، والهاء في كلمة واحدة، يخرجها عن فصاحتها، وجعلوا من ذلك قول أبي تمام: [الطويل]

كَرِيمٌ مَتَى أمْدَحْهُ أمْدَحْه والوَرَى ... مَعِي وإذَا مَا لُمْتُهُ لُمْتُهُ وَحْدِي

ويمكن أن يفرق بين ما أنشدوه، وبين الآية الكريمة بأن التكرار في البيت هو المخرج له عن الفصاحة، بخلاف الآية، فإنه لا تكرار فيها. انتهى جمل نقلاً عن السمين. المراد: تكرار الكلمات.

هذا؛ و(البكرة) بمعنى: الغدوة، يقال: بكَّر بالتشديد، وابتكر، وأبكر، وباكر، وبكَر بالتخفيف: خرج في وقت البكرة. قال زهير في معلقته رقم [١٣]: [الطويل]

بَكَرْنَ بُكُوراً وَاسْتَحرنَ بِسُحْرَةٍ ... فَهُنَّ وَوَادي الرَّسِّ كَالْيَدِ فِي الْفَمِ

بمعنى: خرجت النسوة في وقت البكرة. وقيل: بكر بالتخفيف: جاء بكرة، وبكّر بالتشديد؛ فإنه للمبادرة أي وقت كان، ومنه: بكِّروا لصلاة المغرب، أي: صلوها عند قرص الشمس. انتهى. مختار. هذا؛ والبكرة، والغداة، والغدو النصف الأول من النهار. والأصيل، والعشي: النصف الآخر من النهار، مع اختلاف في تحديد كلٍّ منهما. والأصيل: الوقت بين العصر، والمغرب على الراجح، ويجمع على آصال، وعلى أصائل، وأُصُل، وأصلان. وقيل: الآصال جمع: أُصُل، والأُصُل جمع: أصيل، ثم أصائل جمع الجمع. قال أبو ذؤيب الهذلي: [الطويل]

لَعَمْرِي لأَنْتَ الْبَيْتُ أكرم أَهْلَهُ وَأَجْلِسُ فِي أَفْيَائِهِ بِالأَصَائِلِ

هذا؛ ويطلق الأصيل على الشعاع الممتد من الشمس مثل الحبال، ويشبه لون أشعته في الماء لون الذهب. وأضيف: أن مِنْ جمع الأصيل على أُصُل قول الأعشى في معلقته رقم [١٤]: [البسيط]

يَوْماً بأطيبَ مِنْهَا نَشْرَ رَائِحَةٍ وَلَا بِأَحْسَنَ مِنْهَا إِذْ دَنَا الأُصُلُ

الإعراب: ﴿وَٱذْكُرِ﴾: الواو: حرف عطف. (اذكر): فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت». ﴿ٱسْمَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿رَبِّكَ﴾ مضاف إليه، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿بُكْرَةً﴾: ظرف زمان متعلق بالفعل قبله. ﴿وَأَصِيلًا﴾: معطوف على ما قبله. ﴿وَمِنَ﴾: الواو: حرف عطف. (من الليل): متعلقان بما بعدهما. ﴿فَٱسْجُدْ﴾: الفاء: صلة لتحسين اللفظ، إلا إذا قدرت فعلاً محذوفاً قبل (من الليل)، فتكون حرف عطف، والفعلان: المحذوف، والمذكور معطوفان على: اذكر السابق. (اسجد): فعل أمر، وفاعله مستتر فيه تقديره: «أنت». ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿وَسَبِّحْهُ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر، تقديره: «أنت»، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿لَيْلًا﴾: ظرف زمان متعلق بما قبله. ﴿طَوِيلًا﴾: صفة ﴿لَيْلًا﴾.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: كفار مكة. ﴿يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾: الدار العاجلة، وهي الدنيا. قال تعالى في سورة (الإسراء) رقم [١٨]: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ...﴾ إلخ، وانظر سورة (القيامة) رقم [٢٠]. ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ﴾: أمامهم؛ أي: ما يقدمون عليه. ﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾: شديداً، وهو يوم القيامة، والمعنى: إنهم يتركونه، فلا يؤمنون به، ولا يعملون له. هذا؛ وفي الآية مقابلة لطيفة، حيث قابل بين المحبة، والترك، وبين العاجلة، والباقية. ووصف اليوم بالثقل على المجاز؛ لأنه من صفات الأعيان لا المعاني. والمعنى: ويذرون أمامهم؛ أي: ما يقدمون عليه يوماً يجعل الولدان شيباً لشدة أهواله، وما يلقون فيه من المقت، والسخط، والعذاب المعد لهم فيه. وفي الكشاف، والبيضاوي: استعير الثقل لشدته، وهوله، من الشيء

الثقيل الباهظ لحامله، ونحوه: قوله تعالى في سورة (الأعراف) رقم [١٨٦] في وصف الساعة: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾.

والوراء يأتي بمعنى: ما خلف الظهر، ويأتي بمعنى: قدام، وأمام، فهو من الأضداد. قال تعالى في سورة (الكهف) رقم [٧٩]: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ أي: أمامهم. وقال تعالى شأنه في سورة (المؤمنون) رقم [١٠٠]: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ وقال عبيد بن الأبرص: [الطويل]

أَلَيْسَ وَرَائِي إِنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي ... أَدُبُّ مَعَ الْوِلْدَانِ أزحفُ كالنَّسْرِ

وخذ قول لبيد ـ رضي الله عنه ـ، وهو صحابي من بني ربيعة، وهو من المعمرين: [الطويل]

أَلَيْسَ ورَائي إنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي ... لُزُومُ الْعَصَا تُحْنَى عَلَيْهَا الأَصَابِعُ

أُخَبِّرُ أخبارَ القرونِ الَّتِي مَضَتْ ... أَدِبُّ كَأَنِّي كُلَّمَا قُمْتُ رَاكِعُ

المعنى: أليس أمامي، وقدامي. كما يأتي «وراء» بمعنى: بعد، خذ قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ أي: من بعد إسحاق، الآية رقم [٧١] من سورة (هود) على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام. وقال النابغة الذبياني، من قصيدة يعتذر فيها إلى النعمان بن المنذر. [الطويل]

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً ... وَلَيْسَ وَرَاءَ اللهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ

أي: وليس بعد الله جل جلاله. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: من بعده الآية رقم [١٧] من سورة (إبراهيم) على حبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام. ومن مجيئه بمعنى أمام، وقدام قول سوار بن المضرب السعدي، وكان قد هرب من الحجاج حين فرض البعث مع المهلب بن أبي صفرة لقتال الخوارج: [الطويل]

أَيَرْجُو بَنُو مَرْوَانَ سَمْعِي وطَاعَتِي ... وقَوْمي تَمِيمٌ وَالْفَلَاةُ وَرَائِيَا

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل نصب اسمها، والهاء حرف تنبيه لا محل له. ﴿يُحِبُّونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله. ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية تعليل لما قبلها من النهي، والأمر، لا محل لها. ﴿وَيَذَرُونَ﴾: الواو: حرف عطف. (يذرون): فعل مضارع، وفاعله. ﴿وَرَآءَهُمْ﴾: ظرف مكان متعلق بما قبله، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿يَوْمًا﴾: مفعول به. ﴿ثَقِيلًا﴾: صفة له، وجملة: ﴿وَيَذَرُونَ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، فهي في محل رفع مثلها.

﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾

الشرح: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ﴾: أوجدناهم من العدم، ولم يكونوا شيئاً مذكوراً. ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾: قوينا خلقهم، وأحكمنا ربط مفاصلهم بالأعصاب، والعروق؛ حتى كانوا أقوياء أشداء. هذا؛ و(الأسر) الربط، والتوثيق، ومنه: أسر الرجل، إذا أوثق بالقدِّ، وهو الإسار، وفرس مأسور الخلق؛ أي: قوي الخلق. والمعنى: شددنا توصيل عظامهم، بعضها ببعض، وتوثيق مفاصلهم بالأعصاب. ومثله جارية معصوبة الخلق، ومجدولته، ويقال: أسره الله جل ثناؤه: إذا شدّد خلقه. قال لبيد بن ربيعة الصحابي ـ رضي الله عنه ـ: [الرمل]

سَاهِمُ الْوَجْهِ شَدِيدٌ أَسْرُهُ مُشْرِفُ الْحَارِكِ مَحْبُوكُ الْكَتِدْ

ويروى: «محبوكُ الكَفِل» أي: مدمجه، والكفل بفتحتين للدابة، وغيرها: العجز، أو الردف، والجمع: أكفال. وقال الأخطل: [الكامل]

مِنْ كُلِّ مُجْتَنَبٍ شَدِيدٍ أَسْرُهُ سَلِسِ الْقِيَادِ تَخَالُهُ مُخْتَالَا

مجتنب: مفتعل من الجنيبة، وهي الفرس تقاد، ولا تركب، وكانوا يركبون الإبل، ويجتنبون الخيل، فإذا صاروا إلى الحرب؛ ركبوا الخيل. وقال مجاهد في تفسير الأَسْر: هو الشرج؛ أي: إذا خرج البول، والغائط تقبض الموضع، وهو بفتح الهمزة، وبضمها: احتباس البول كالحصر في الغائط. وجميع ما ذكر من المعاني للأسر موجود في القاموس المحيط. وبالجملة فقد خرج الكلام مخرج الامتنان عليهم بالنعم حين قابلوها بالكفر، والفسوق، والفجور، والمعنى: سويت خلقهم، وأحكمته بالقوى، ثم هم يكفرون بي.

﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يقول الله: لو نشاء؛ لأهلكناهم، وجئنا بأطوع منهم. وعنه أيضاً: لغيَّرنا محاسنهم إلى أسمج الصور، وأقبحها. روى الأول عنه أبو صالح، والثاني رواه الضحاك عنه. انتهى قرطبي. هذا؛ وزلق الزمخشري حيث قال: وحقه أن يجيء بـ: «إن»، لا بـ: «إذا»، كقوله تعالى في آخر سورة (محمد ﷺ): ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾، وقوله تعالى في سورة (النساء) رقم [١٣٣]: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾، وفي سورة (الأنعام) رقم [١٣٣]: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾، وأيضاً في سورة (إبراهيم) [١٩] وفي سورة (فاطر): ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

والجواب والرد على الزمخشري الذي زلق: أن «إذا» تستعمل في المحقق، و«إن» تستعمل في المحتمل، ومشيئة الله التبديل لمَّا لم تقع؛ كانت غير محققة، فكان المقام لـ: (إن)، بخلاف

ما إذا أراد الله التنفيذ، فتكون مشيئة الله التبديل محققة، فكان المقام لـ: (إذا)، وبالجملة فاستعمال (إذا) موضع (إنْ)، وبالعكس هو من التفنن في الكلام، والتقارض في الألفاظ. ولله في كتابه أسرار وأسرار غابت عن كثير من الناس، ولا سيما الملحدون، والفجار.

الإعراب: ﴿نَّحۡنُ﴾: ضمير منفصل مبني على الضم في محل رفع مبتدأ. ﴿خَلَقۡنَٰهُمۡ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ. والتي بعدها معطوفة عليها، فهي في محل رفع مثلها، وإعرابها واضح، إن شاء الله تعالى، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها. ﴿وَإِذَا﴾: الواو: حرف عطف. (إذا): انظر الآية رقم [١٩]. ﴿شِئۡنَا﴾: فعل، وفاعل، والمفعول محذوف، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذا) إليها على المشهور المرجوح. ﴿بَدَّلۡنَآ﴾: فعل، وفاعل. ﴿أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾: مفعول به أول، والهاء في محل جر بالإضافة، والمفعول الثاني محذوف، التقدير: بدلنا أمثالهم بدلاً منهم، ﴿تَبۡدِيلًا﴾: مفعول مطلق، والجملة الفعلية جواب (إذا) لا محل لها، و(إذا) ومدخولها كلام معطوف على ما قبله، أو هو مستأنف، لا محل له على الاعتبارين.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ٢٩﴾

الشرح: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ أي: السورة، وما ذكر فيها. ﴿تَذۡكِرَةٞۖ﴾: عظة للخلق؛ لأن في تصفحها تنبيهات للغافلين، وفي تدبرها، وتفهمها فوائد جمة للطالبين السالكين ممن ألقى سمعه، وأحضر قلبه، وكانت نفسه مقبلة على ما ألقى سمعه إليه، وما وعاه قلبه. انتهى جمل نقلاً عن الخطيب بتصرف. ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ...﴾ إلخ أي: اتخذ لنفسه في الدنيا طريقاً موصلاً إلى طاعة الله، وطلب مرضاته، وذلك بالإقبال عليها، والتقرب إليه، وهذه الآية مما يتمسك بها القدرية، يقولون: اتخاذ السبيل هو عبارة عن التقرب إلى الله تعالى، وهو إلى اختيار العبد، ومشيئته. قال أهل السنة: ويرد عليهم الآية التالية، وما أحسن ما نقله الجمل عن الخطيب في هذا الصدد حيث قال بعد قوله: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ...﴾ إلخ أي: لأنَّا بينا الأمور غاية البيان، وكشفنا اللبس، وأزلنا جميع موانع الفهم، فلم يبق مانع من استطراق الطريق غير مشيئة العبد. انتهى. هذا؛ والآية مذكورة بحروفها في سورة (المزمل) برقم [١٩] انظرها؛ ففيها فائدة، وانظر الإعراب هناك؛ فإنه وافٍ كافٍ، ولا حاجة إلى المزيد عليه.

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ٣٠﴾

الشرح: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ أي: الطاعة والاستقامة على الطريق السوي، واتخاذ السبيل المستقيم إلى الله. ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: إلا بمشيئة الله تعالى؛ لأن الأمر إليه، ومشيئة الله مستلزمة لفعل العبد، فجميع ما يصدر عن العبد بمشيئة الله جل جلاله، وتعالى شأنه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

﴿كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: عليم بأحوال خلقه، حكيم في تدبيره، وصنعه، عليم بمن يستحق الهداية، فييسرها له، ويقيض له أسبابها، وعليم بمن يستحق الغواية، فيصرفه عن الهدى، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة.

هذا؛ وقد علق أحمد بن المنير الإسكندري المالكي على قول الزمخشري في كشافه. ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾: الطاعة. ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ...﴾ إلخ: يقسرهم عليها بقوله: وهذا من تحريفاته للنصوص، وتسوره على خزائن الكتاب العزيز، كدأب الشطار، واللصوص، فلنقطع يد حجته التي أعدها، وذلك حكم هذه السرقة وحدها، فنقول: الله تعالى نفى، وأثبت على سبيل الحصر، الذي لا حصر، ولا نصر أوضح منه! ألا ترى: أن كلمة التوحيد اقتصر بها على النفي، والإثبات؛ لأن هذا النظم أعلق شيء بالحصر، وأدله عليه، فنفى الله تعالى أن يفعل العبد شيئاً فيه اختيار، ومشيئة إلا أن يكون الله تعالى قد شاء ذلك الفعل، فمقتضاه: ما لم يشأ الله وقوعه من العبد، لا يقع من العبد، وما شاء منه وقوعه؛ وقع، وهو رديف: «مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، ومَا لَمْ يَشأْ لَمْ يَكُنْ».

وانظر إدخاله القسر في تعطيل الآية، لا تأويلها كيف ناقض به؟ فإن معنى الآية عنده: أن مشيئة العبد الفعل، لا تكون إلا إذا قسره الله عليها، والقسر مناف للمشيئة، فصار الحاصل: أن مشيئة العبد لا توجد إلا إذا انتفت، فإذاً لا مشيئة للعبد ألبتة، ولا اختيار، وما هو إلا فرَّ من إثبات قدرة للعبد غير مؤثرة، ومشيئة غير خالفة؛ ليتم له إثبات قدرة، ومشيئة مؤثرين، فوقع في سلب القدرة، والمشيئة أصلاً، ورأساً، وحيث لزم الحيد عن الاعتزال انحرف بالكلية إلى الطرف الأقصى متحيزاً إلى الجبر، فيا بعد ما توجه بسوء نظره! والله الموفق. انتهى بحروفه.

الإعراب: ﴿وَمَا﴾: الواو: حرف استئناف. (ما): نافية. ﴿تَشَآءُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع... إلخ، والواو فاعله، ومفعوله محذوف، انظر تقديره في الشرح، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿إِلَّآ﴾: أداة حصر، أو استثناء. ﴿أَن﴾: حرف مصدري ونصب. ﴿يَشَآءَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ: ﴿أَن﴾. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله، والمفعول محذوف، و﴿أَن﴾ والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر بإضافته لظرف محذوف، التقدير: إلا وقت مشيئة الله. قاله أبو البقاء، ونقله الجمل عن السمين. وقال مكي: المصدر المؤول في موضع نصب على الاستثناء، أو في موضع خفض على قول الخليل بإضمار الخافض، وعلى قول غيره هي في موضع نصب؛ إذ قد حذف الخافض.

أقول: وكلامه غير واضح، وشرحه: أن الجار، والمجرور (على تقدير الجار) متعلقان بمحذوف مستثنىً من عموم الأحوال، وكذلك الظرف الذي رأيت تقديره على قول أبي البقاء والسمين متعلق بمحذوف حال مستثنىً... إلخ. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها.

﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمه مستتر تقديره: «هو». ﴿عَلِيمًا﴾: خبر أول. ﴿حَكِيمًا﴾: خبر ثان، والجملة الفعلية في محل رفع خبر ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية تعليلية، أو مستأنفة، لا محل لها.

﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾

الشرح: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: في دينه. وقيل: في جنته، فإن فسرت الرحمة بالدين؛ كان ذلك من الله تعالى، وإن فسرت بالجنة؛ كان دخول الجنة بسبب مشيئة الله جل جلاله، وتعالى شأنه، وفضله، وإحسانه، لا بسبب الاستحقاق، وهو فحوى قول الرسول ﷺ: **«لَنْ يُدخِلَ أحداً عملُهُ الجنَّةَ»**. قالوا: وَلَا أَنْتَ يا رسولَ اللهِ! قَالَ: **«وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يتغمدني اللهُ بفضلِهِ، وَرَحْمَتِهِ، فسدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَلَا يَتَمنيَنَّ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ، إِمَّا مُحْسِناً؛ فلعلَّهُ أَنْ يزدَادَ، وإِمَّا مُسِيئاً؛ فلعلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَ»**. أخرجه البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ﴾ أي: هيأ الله للظالمين عذاباً أليماً؛ لأنهم وضعوا العبادة غير موضعها. قال النسفي ـ رحمه الله تعالى ـ: والآية حجة على المعتزلة؛ لأنهم يقولون: قد شاء أن يدخل كلاً في رحمته؛ لأنه شاء إيمان الكل، ولله أن يدخل من يشاء في رحمته، وهو الذي علم منه أن يختار الهدى.

الإعراب: ﴿يُدْخِلُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى الله. ﴿مَن﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى الله، والمفعول محذوف وهو العائد، أو الرابط، والجملة الفعلية صلة (مَنْ) أو صفتها. ﴿فِى رَحْمَتِهِۦ﴾: متعلقان بما قبلهما، والهاء في محل جر بالإضافة، وجملة: ﴿يُدْخِلُ...﴾ إلخ في محل نصب حال من اسم (كان) المستتر، أو في محل نصب خبر ثالث لها، وهي بمعنى المستقبل هنا. ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾: مفعول به لفعل محذوف، التقدير: ويعذب الظالمين، وبعضهم يقدر: (أوعد، وكافأ) ولا ينصبه ما بعده؛ لأنه غير متعد، ولكنه يفسره في المعنى، ومثل هذه الآية قول الربيع بن ضبع الفزاري: [المنسرح]

أَصْبَحْتُ لَا أَحْمِلُ السِّلَاحَ ولَا ... أَمْلِكُ رَأْسَ الْبَعِيرِ إِنْ نَفَرَا

وَالذِّئْبَ أَخْشَاهُ إِنْ مَرَرْتُ بِهِ ... وَحْدِي وَأَخْشَى الرِّيَاحَ وَالْمَطَرَا

التقدير: أخشى الذئب أخشاه. قال الزجاج: والاختيار النصب، وإن جاز الرفع، تقول: أعطيت زيداً، وعمراً أعددت له براً. فيختار النصب، أي: وبررت عمراً، أو أبر عمراً، وقوله تعالى في سورة (الشورى) رقم [٨]: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ارتفع (الظالمون)؛ لأنه لم يذكر بعده فعل يقع عليه، فينصب في المعنى، فلم يجز العطف على

المنصوب قبله، فارتفع بالابتداء، وها هنا قوله: ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ يدل على: «ويعذب» فجاز النصب. هذا؛ وقرأ أبان بن عثمان: (والظالمون) رفعاً بالابتداء، والخبر ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾ وعليه فالجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها. وأيضاً إذا اعتبرتها فعلية على قراءة النصب معطوفة على ما قبلها، واعتبار الجملة على الوجهين في محل نصب حال من فاعل ﴿يُدْخِلُ﴾ و﴿يَشَآءُ﴾ المستتر جيد، ويكون الرابط: الواو، وفاعل ﴿أَعَدَّ﴾ المستتر، وتقدر «قد» قبلها على اعتبارها فعلية. ﴿أَعَدَّ﴾: فعل ماض، والفاعل مستتر تقديره: «هو». ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿عَذَابًا﴾: مفعول به. ﴿أَلِيمًا﴾: صفة له، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (الظالمون) على رفعه، ومفسرة للجملة المقدرة قبله على نصبه. تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، والحمد لله رب العالمين.

انتهت سورة (الدهر) شرحاً، وإعراباً بحمد الله، وتوفيقه.

والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ المُرْسَلَاتِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة (المرسلات) وهي مكية بالاتفاق، وآياتها خمسون، وكلماتها مئة وثمانون، وحروفها ثمانمئة وستة عشر. وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: نزلت: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ على النبي ﷺ ليلة الجن، ونحن معه نسير حتى أوينا إلى غار بمنى، فنزلت، فبينما نحن نتلقاها منه، وإن فاه لَرَطْبٌ بها؛ إذ وثبت علينا حية، فقال النبي ﷺ: «**اقْتُلُوهَا**». فابتدرناها، فذهبت، فقال النبي ﷺ: «**وُقِيَتْ شَرَّكُمْ، كَمَا وُقِيتُمْ شَرَّهَا**». أخرجه البخاري، ورواه مسلم مع اختلاف في بعض ألفاظه. والغار المذكور مشهور في منى يسمى غار المرسلات.

وعن كريب مولى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قرأت سورة: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ فسمعتني أم الفضل امرأةُ العباس، فبكتْ. وقالت: والله يا بني لقد أذكرتني بقراءتك هذه السورة؛ إنها لآخر ما سمعته من رسول الله ﷺ يقرأ بها في صلاة المغرب. أخرجاه في الصحيحين من طريق مالك عن الزهري.

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾﴾

الشرح: اختلف المفسرون اختلافاً كبيراً في تفسير هذه الآيات الخمس، فبعضهم حملها جميعاً على الرياح، وبعضهم حملها جميعاً على الملائكة، وبعضهم فصل، وتوقف الإمام ابن جرير، وقد اخترنا ما ذهب إليه ابن كثير، وما رجحه صاحب التسهيل؛ حيث قال: والأظهر في: (الْمُرْسَلاتِ، وَالْعَاصِفَاتِ): أنها الرياح؛ لأن وصف الريح بالعصف حقيقة، والأظهر في (النَّاشِراتِ، والفارِقَاتِ): أنها الملائكة؛ لأن قوله: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ المذكورة بعدها هي الملائكة. ولم يقل أحد: إنها الرياح، ولذلك عطف المتجانسين بالفاء، فقال: (والْمُرْسَلاتِ فَالْعَاصِفَاتِ) ثم عطف ما ليس من جنسها بالواو، فقال: (والنَّاشِرَاتِ) ثم عطف بالفاء، وهذا قول جيد.

هذا؛ ومعنى ﴿عُرْفًا﴾: يتبع بعضها بعضاً كعرف الفرس، تقول العرب: الناس إلى فلان عرف واحد: إذا توجهوا إليه، فأكثروا. وقيل: (عرفاً): كثيراً. والأول أقوى. ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾

أي: الرياح الشديدة الهبوب بغير اختلاف قاله المهدوي. وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: هي الرياح العواصف تأتي بالعصف، وهو ورق الزرع، وحطامه. أقول: ويؤيده قوله تعالى في سورة (يونس) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾. ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾﴾: يعني الرياح اللينة. وقال ابن مسعود، ومجاهد: هي الرياح يرسلها الله تعالى بشراً بين يدي رحمته؛ أي: تنشر السحاب للغيث. ويؤيده قوله تعالى في سورة (الأعراف) رقم [٥٧] وفي سورة (الفرقان) رقم [٤٨]: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾

وما يشبه ذلك في سورة (النمل) رقم [٦٣]، وفي سورة (الروم) رقم [٤٦]: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ...﴾ إلخ. وقيل: المراد الملائكة الموكلون بالسحب ينشرونها، وهو ضعيف، وأضعف منه القول: إنها آيات القرآن تنشر الهداية، والمعرفة في قلوب المؤمنين.

﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا﴾: الملائكة تنزل بالفرق بين الحق والباطل. وعن الضحاك عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ما تفرقه الملائكة من الأقوات والأرزاق والآجال، وعن مجاهد قال: (الفارقات) الرياح تفرق بين السحاب، وتبدده. وهو ضعيف. وعن قتادة قال: (الفارقات): الآيات القرآنية، فرق الله بها بين الحق، والباطل، والحلال، والحرام، والمعتمد الأول بدليل: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ فإنهم الملائكة بالإجماع، أي: يلقون كتب الله عز وجل إلى الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام.

هذا؛ وقد قيل: ليس المراد من هذه الآيات؛ بل الكلمات الخمس شيئاً واحداً بعينه. فعلى هذا يكون المراد بقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾ الرياح، ويكون المراد بقوله: ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾: الملائكة. بعد هذا ينبغي أن تعرف حكم الفاء إذا جاءت عاطفة في الصفات، كما في هذه الآيات هنا، وفي أوائل (الصافات)، وأوائل (النازعات) وخذ قول ابن زيابة، ـ وهو الشاهد رقم [٢٩٦] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [السريع]

يَا لَهْفَ زَيَّابَةَ لِلْحَارِثِ الصَّا ... بِحِ فَالْغَانِمِ فَالآيِبِ

قيل: إما أن تدل هذه الصفات على ترتيب معانيها في الوجود، كما في هذا البيت، كأنه قال: الذي صبَّح، فغنم، فآبَ. وإما أن تدل على ترتيب موصوفاتها في ذلك، كقول النبي ﷺ: «**رَحِمَ اللهُ الْمُحَلِّقِينَ فَالْمُقَصِّرِينَ**». وإما على ترتيبها في التفاوت من بعض الوجوه، كقولك: خذ الأفضل، فالأكمل، واعمل الأحسن، فالأجمل. انتهى كشاف، وقرطبي بتصرف.

قال الخازن ـ رحمه الله تعالى ـ: فإن قلت: وما المجانسة بين الرياح، والملائكة حتى جمع بينهما في القسم؟ قلت: الملائكة روحانيون، فهم بسبب لطافتهم، وسرعة حركاتهم شابهوا الرياح، فحصلت المجانسة بينهما من هذا الوجه، فحسن الجمع بينهما في القسم.

هذا؛ وذكرت لك في مناسبات كثيرة عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: (إِنَّ الرِّيَاحَ ثمانٌ: أربعٌ مِنْهَا عَذَابٌ، وَهِيَ الْقَاصِفُ والعاصِفُ، والصَّرْصَرُ والْعَقِيمُ، وأَرْبَعٌ مِنْهَا رَحْمَةٌ، وهيَ النَّاشِراتُ والْمُبَشِّرَاتُ والْمُرْسَلاتُ وَالذَّارِيَاتُ). هذا؛ وإنما أقسم الله تعالى بالمرسلات وبما بعده، ومثل هذا كثير في أوائل السور، وأثنائها. قال الشعبي ـ رحمه الله تعالى ـ: الخالق يقسم بما شاء من خلقه، والمخلوق لا ينبغي له أن يقسم إلا بالخالق. وقال أبو حيان ـ رحمه الله تعالى ـ: أقسم الله بهذه الأشياء تشريفاً لها، وتنبيهاً على ما يظهر من عجائب الله، وقدرته، وقوام الوجود بإيجادها. وقيل: فيه مضمر، تقديره: ورب المرسلات. . . إلخ.

﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ أي: الملائكة ألقت ذكراً على الرسل بسبب الوحي؛ إما عذراً للذين يعتذرون إلى الله بتوبتهم، واستغفارهم إذا رأوا نعمة الله في الغيث، ونحوه، فيشكرونها. وإما إنذاراً للذين لا يشكرون الله، وينسبون ذلك إلى الأنواء، وغيرها من الأسباب. وقيل: ﴿أَوْ﴾ هنا بمعنى الواو، فتكون الملائكة قد ألقت الذكر للإعذار، والإنذار معاً.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾: هذا هو جواب القسم، أي: إن ما وعدتم به من قيام الساعة، والنفخ في الصور، وبعث الأجساد، وجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، ومجازاة كل واحد بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، إن هذا كله لواقع؛ أي: لكائن، لا محالة، فلا مجال للشك والافتراء. هذا؛ وجواب القسم المتكرر في أول سورة (الذاريات) قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ وهو يشبه الجواب هنا، ولا تنس الطباق بين ﴿عُذْرًا﴾ و﴿نُذْرًا﴾.

الإعراب: ﴿وَالْمُرْسَلَٰتِ﴾: الواو: حرف قسم وجر. (المرسلات): مقسم به مجرور، أو المقسم به محذوف كما رأيت تقديره في الشرح، وهو صفة لموصوف محذوف، التقدير: ورب الرياح المرسلات، ونائب فاعله مستتر يعود إلى الرياح، والجار، والمجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره: أقسم، أو أحلف. ﴿عُرْفًا﴾: حال من الضمير المستكن في (المرسلات)، والمعنى على التشبيه؛ أي: حال كونها عرفاً؛ أي: شبيهة بعرف الفرس؛ من حيث تتابعها، وتلاحقها. وقال الزمخشري، وتبعه البيضاوي، والنسفي: و﴿عُرْفًا﴾ نقيض النكر، وانتصابه على العلة (مفعول لأجله) أي: أرسلن للإحسان، والمعروف. أو بمعنى المتابعة من عرف الفرس، وانتصابه على الحال. وعلى تفسير المرسلات بالملائكة، فهو منصوب على نزع الخافض، التقدير: والمرسلات بالعرف. قاله أبو البقاء، ومكي. ﴿فَالْعَٰصِفَٰتِ﴾: الفاء: حرف عطف. (العاصفات): معطوف على (المرسلات). ﴿عَصْفًا﴾: مفعول مطلق مؤكد لعامله، وهو (العاصفات). ﴿وَالنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝ فَالْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا﴾ هذه الكلمات معطوفة على ما قبلها، وهي مثلها بلا فارق. هذا؛ وقال القرطبي: (والناشرات) بالواو؛ لأنه استئناف قسم آخر. ولا وجه له؛ لأن الجواب الآتي لجميع المتعاطفات بالواو، أو بالفاء. ﴿فَالْمُلْقِيَٰتِ﴾: معطوف على ما قبله، وفاعل الجميع مستتر تقديره: «هي». ﴿ذِكْرًا﴾: مفعول به لما قبله بلا شك.

﴿عُذْرًا﴾: مفعول لأجله؛ إذ المعنى الملقيات ذكراً للإعذار، والإنذار. أو هما حال، التقدير: يلقون الذكر في حال الإعذار، والإنذار؛ أي: معذرين، ومنذرين. وأجاز أبو البقاء اعتبارهما بدلاً من ﴿ذِكْرًا﴾ وهو قول للزمخشري ومن تبعه، كما أجاز أبو البقاء اعتبارهما مفعولين لـ: ﴿ذِكْرًا﴾. ﴿إِنَّمَا﴾: (إنَّ): حرف مشبه بالفعل. (ما): اسم موصول مبني على السكون في محل نصب اسم (إنَّ). ﴿تُوعَدُونَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع، ونائب الفاعل الواو، وهو المفعول الأول، والمفعول الثاني وهو العائد محذوف؛ إذ التقدير: إن الذي توعدونه. ﴿لَوَٰقِعٌ﴾: اللام: هي المزحلقة. (واقع): خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية جواب للقسم الأول، وما عطف عليه، وانظر ما ذكرته في أول النازعات بشأن الجواب للجميع، فإنه جيد. هذا؛ وإن اعتبرت (ما) مصدرية، فتؤول مع ما بعدها بمصدر في محل نصب اسم (إنَّ) التقدير: إن وعد الله لواقع.

﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾

الشرح: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾: ذهب ضوءها ومحي نورها، أو محقت ذواتها، فهو كقوله تعالى في سورة (التكوير): ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾، وفي سورة (الانفطار): ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾. ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾: فتحت، وشقت، مثل قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ وقوله تعالى في سورة (النبأ): ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾. ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾: قلعت من أماكنها، وهو مثل قوله تعالى في سورة (طه) رقم [١٠٥]: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ والنسف: الأخذ بسرعة، مثل الخطف، يقال: نسفت الشيء، وأنسفته: إذا أخذته كله بسرعة، ونحوه قوله تعالى في سورة (الواقعة): ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾، وقوله تعالى في سورة (المزمل) الآية [١٤]: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ ومثل ذلك في المعنى كثير.

﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ أي: جمعت لوقتها ليوم القيامة. وقال مجاهد والزجاج: المراد بهذا التأقيت تبيين الوقت، الذي فيه يحضرون للشهادة على أممهم، والوقت: الأجل الذي يكون عنده الشيء المؤخر إليه، والمعنى الإجمالي: جمعت لميقات يوم معلوم، وهو يوم القيامة؛ ليشهدوا على الأمم، ونحوه قوله تعالى في سورة (المائدة) رقم [١٠٩]: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ...﴾ إلخ. هذا؛ وقرئ: (وُقِّتَتْ) والمعنى واحد، وإبدال الهمزة واواً كثير ومستعمل مثل: (وجوه وأجوه) ﴿لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ أي: أخرت، وهذا تعظيم لذلك اليوم، فهو استفهام على التعظيم، والمعنى: جمعت الرسل في ذلك اليوم، لتعذيب من كذبهم، وتعظيم من آمن بهم. ثم بين ذلك اليوم، فقال تعالى: ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يوم يفصل الرحمن فيه بين الخلائق بأعمالهم إلى الجنة، أو إلى النار.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾: هذا استفهام للتعظيم والتهويل؛ أي: وما أعلمك أيها الإنسان بيوم الفصل وشدته وهوله؟ فإن ذلك اليوم أعظم من أن يعرف أمره إنسان، أو يحيط به عقل، أو وجدان. قال الإمام فخر الرازي: عجب العباد من تعظيم ذلك اليوم، فقال: لأي يوم أجلت الأمور المتعلقة بهؤلاء الرسل، وهي تعذيب من كذبهم، وتعظيم من آمن بهم، وظهور ما كانوا يدعون الخلق إلى الإيمان به، من الأهوال والعرض والحساب.

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي: هلاك كبير، وخسار عظيم في ذلك اليوم لأولئك المكذبين بهذا اليوم الموعود. قال المفسرون: كرر هذه الجملة في هذه السورة عشر مرات لمزيد الترغيب والترهيب، وفي كل جملة وردت إخبار عن أشياء عن أحوال الآخرة، وتذكير بأحوال الدنيا، فناسب أن يذكر الوعيد عقيب كل جملة منها بالويل والدمار للكفرة الفجار، ولما ذكر الله جلت قدرته في سورة (الدهر) السابقة بعضاً من أحوال الكفار في الآخرة، وأطنب في وصف أحوال المؤمنين هناك، جاء في هذه السورة بالإطناب في وصف الكفار، والإيجاز في وصف المؤمنين.

هذا؛ وفائدة التكرار لقوله تعالى: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ في هذه السورة أن يجدد الكفار والفجار عند سماع كل نبأ اتعاظاً، وخوفاً من عقاب الله لهم في الآخرة، إن هم أصروا على تكذيبهم، ومثله التكرير لقوله تعالى في سورة (القمر): ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ١٦ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾، وأيضاً التكرير لقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ في سورة (الرحمن).

هذا؛ و﴿وَيۡلٞ﴾ كلمة تقولها العرب لكل من وقع في هلكة، وأصلها في اللغة: العذاب، والهلاك. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الويل: شدة العذاب، يقال: ويلَه وويلَك وويلي، وفي الندبة: ويْلَاهْ! وتقول: ويلٌ لزيد، وويلاً لعمرو، فالرفع على الابتداء، والنصب على إضمار الفعل، هذا إذا لم تضفه، وأما إذا أضفته؛ فليس إلا النصب؛ لأنك لو رفعته لم يكن له خبر بخلافه في قول الأعشى وهو البيت رقم [٢١] من معلقته: [البسيط]

قَالَتْ هُرَيْرَةُ لَمَّا جِئْتُ زَائِرَهَا وَيْلِي عَلَيْكَ وَوَيْلِي مِنْكَ يَا رَجُلُ

وقال عطاء بن يسار ـ رحمه الله تعالى ـ: الويل واد في جهنم لو أرسلت فيه الجبال؛ لماعت من شدة حره. انتهى. مختار الصحاح. وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الْوَيْلُ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ يَهْوِي فِيهِ الْكَافِرُ أَرْبَعِينَ خَرِيفاً قَبْلَ أَنْ يَبْلغ قَعْرَهُ**». أخرجه الترمذي. هذا؛ والويل مصدر لم يستعمل منه فعل؛ لأن فاءه، وعينه معتلتان، ومثله: وَيْح، ووَيْس، ووَيْب، وهو لا يثنى، ولا يجمع. وقيل يجمع على: ويلات بدليل قول امرئ القيس في معلقته رقم [١٨]: [الطويل]

وَيَوْمَ دَخَلْتُ الْخِدْرَ خِدْرَ عُنَيْزَة فَقَالَتْ: لَكَ الْوَيْلَاتُ إِنَّكَ مُرْجِلِي

وإذا أضيفت هذه الأسماء؛ فالأحسن النصب على المفعولية المطلقة، وإذا لم تضف؛ فالواجب فيها الرفع على الابتداء، وهي نكرات، وساغ ذلك لتضمنها معنىً خاصاً. هذا؛ وويل: نقيض وأل، وهو النجاة. وقد ينادى الويل إذا أضيف لياء المتكلم، أو نا، وسبقته أداة النداء، مثل قوله تعالى في سورة (هود) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام، حكاية عن قول سارة زوج إبراهيم على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ رقم [٧٢]، وقوله تعالى في سورة (الكهف) حكاية عن قول الكافرين يوم القيامة: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ رقم [٤٩]. ولا تنس أنه قد أنث (الويل) في الآيتين المذكورتين، وأيضاً في الآية رقم [٣١] من سورة (المائدة)، ورقم [٢٨] من سورة (الفرقان) والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿فَإِذَا﴾: الفاء: حرف استئناف. (إذا): ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك، مبني على السكون في محل نصب. ﴿ٱلنُّجُومُ﴾: فاعل لفعل محذوف، يفسره المذكور بعده عند البصريين ما عدا الأخفش منهم، وللكوفيين في هذه الآية وشبهها ثلاثة أقوال: الأول: وافقوا فيه البصريين. والثاني: هو فاعل مقدم للفعل بعده؛ إذ يجوز عندهم أن يتقدم الفاعل على الفعل كما يتأخر عنه. والقول الثالث لهم: هو مبتدأ، والجملة الفعلية بعده خبره، انظر الكلام على الشاهد رقم [٩٩٠] من كتابنا: «فتح القريب المجيب». ففيه بحث واف كاف، والجملة الفعلية على قول البصريين في محل جر بإضافة (إذا) إليها على المشهور المرجوح، وجواب (إذا) محذوف، التقدير: فإذا طمست النجوم؛ وقع ما توعدون، لدلالة قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ عليه. وقيل: هو قوله تعالى: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ على إضمار القول؛ أي: يقال: لأي يوم أجلت، فالفعل في الحقيقة هو الجواب. وقيل: الجواب هو ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ نقله مكي، وهو غلط؛ لأنه لو كان جواباً؛ للزمته الفاء لكونه جملة اسمية. انتهى جمل نقلاً عن السمين. ﴿طُمِسَتْ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، والتاء للتأنيث، ونائب الفاعل يعود إلى ﴿ٱلنُّجُومُ﴾، والجملة الفعلية مفسرة لشرط (إذا) عند البصريين، وهي في محل رفع خبر المبتدأ عند الكوفيين، والجمل: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ كلها معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها؛ لأن الأولى مستأنفة.

﴿لِأَيِّ﴾: جار ومجرور متعلقان بما بعدهما، و(أي): مضاف، و﴿يَوْمٍ﴾ مضاف إليه. ﴿أُجِّلَتْ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، والتاء للتأنيث، ونائب الفاعل يعود إلى ﴿ٱلرُّسُلُ﴾، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول لقول محذوف، التقدير: يقال: لأي يوم أجلت، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها، أو هي جواب لـ: (إذا) كما رأيت سابقاً. ﴿لِيَوْمِ﴾: جار ومجرور بدل من قوله: ﴿لِأَيِّ﴾ بإعادة العامل. وقيل: بل متعلقان بفعل محذوف، التقدير: أجلت ليوم، و(يوم) مضاف، و﴿ٱلْفَصْلِ﴾ مضاف إليه.

﴿وَمَآ﴾: الواو: حرف استئناف. وقيل: حرف عطف. (ما): اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿أَدْرَىٰكَ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى (ما) تقديره: «هو»، والكاف مفعول به أول. ﴿مَا﴾: مبتدأ. ﴿يَوْمُ﴾: خبره، و﴿يَوْمُ﴾ مضاف، و﴿ٱلْفَصْلِ﴾ مضاف إليه، والجملة الاسمية في محل نصب سدت مسد مفعول ﴿أَدْرَىٰكَ﴾ الثاني المعلق عن العمل لفظاً بسبب الاستفهام. وقال زاده: في محل نصب سدت مسد المفعول الثاني والثالث لـ: (أدرى) لأنه بمعنى: أعلم، والجملة الفعلية: ﴿أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ في محل رفع خبر المبتدأ، الذي هو (ما) على الوجهين، والجملة الاسمية، لا محل لها على الوجهين المعتبرين بالواو. ﴿وَيْلٌ﴾: مبتدأ. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: (يوم): ظرف زمان متعلق بـ: ﴿وَيْلٌ﴾ لما فيه من معنى الهلاك، و(إذ) ظرف مبني على السكون في محل جر بالإضافة، والتنوين عوض من جملة محذوفة مضافة إذ إليها. ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾: متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ مستأنفة على المعتمد لا محل لها.

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾

الشرح: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: ألم نهلك السابقين من لدن آدم إلى عهد محمد ﷺ كقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح... إلخ، بتكذيبهم؟! ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ﴾ أي: السالكين سبيلهم في الكفر، والتكذيب، وهم كفار قريش؛ أي: نهلكهم بتكذيبهم محمد ﷺ، وصدهم الناس عن الدخول في دين الله. ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: نهلك جميع المجرمين في كل وقت وحين. وهذا وعد من العلي القدير. هذا؛ وقيل: المراد بـ: ﴿ٱلْآخِرِينَ﴾ قوم لوط، وشعيب، وموسى. ولا أراه قوياً، وإنما أعتمد الأول. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾: انظر التكرار في الآية السابقة. وقال البيضاوي: فليس تكراراً، وكذا إن أطلق التكذيب، أو علق في الموضعين بواحد؛ لأن الويل الأول لعذاب الآخرة، وهذا للإهلاك في الدنيا مع أن التكرير للتوكيد حسن شائع في كلام العرب. هذا؛ ولا تنس الطباق بين ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ و﴿ٱلْآخِرِينَ﴾.

الإعراب: ﴿أَلَمْ﴾ الهمزة: حرف استفهام، وتقرير. (لم): حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿نُهْلِكِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: (لم)، والفاعل مستتر تقديره: «نحن». ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿نُتْبِعُهُمُ﴾: فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: «نحن» والهاء مفعول به أول. ﴿ٱلْآخِرِينَ﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، أو هي مستأنفة؛ لأن هلاك الآخرين لم يقع بعد.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: الكاف: حرف تشبيه وجر، و(ذا): اسم إشارة مبني على السكون في محل جر بالكاف، والجار، والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف، عامله ما بعده، التقدير: نفعل بالمجرمين فعلاً كائناً مثل فعلنا بالأولين، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿نَفْعَلُ﴾: فعل مضارع، والفاعل تقديره: «نحن». ﴿بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾: متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها.

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾

الشرح: هذا نوع آخر من تخويف الكفار، وهو من وجهين: الأول: أنه تعالى ذكرهم عظيم إنعامه عليهم، وكل من كانت نعمه تعالى عليه أكثر؛ كانت خيانته في حقه تعالى أقبح، وأفحش. الثاني: أنه تعالى ذكرهم: أنه قادر على الابتداء، والقادر على الابتداء؛ قادر على الإعادة. فلما أنكروا هذه الدلالة الظاهرة؛ لا جرم قال تعالى في حقهم: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة (السجدة): ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾. انتهى جمل نقلاً من الخطيب.

والمعنى: ألم نخلقكم يا معشر الكفار من ماء مهين ضعيف حقير، هو مني الرجل؟! وفي الحديث القدسي، يقول الله عز وجل: «**ابنَ آدمَ أنَّى تُعْجِزُني، وقدْ خلقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هذِهِ؟!**». فقد روي: أن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه، فوضع عليها أصبعه، ثم قال: «**يقول الله عز وجل: ابنَ آدمَ أنَّى تُعْجِزني وقدْ خلقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ؟! حتى إذا سَوَّيْتُكَ، وعدَّلْتُكَ مشيْتَ بين بُرْدَيْكَ، وللأرضِ منكَ وَئِيدٌ، فجمعت، ومَنَعْتَ، حتى إذا بلغتِ التراقيَ؛ قلْتَ: أتصدَّقُ، وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ؟!**». أخرجه الإمام أحمد، وابن ماجه.

﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ أي: فجعلنا الماء المهين في مكان حريز، وهو الرحم. سمي مكيناً؛ لاستقرار النطفة فيه إلى وقت الولادة يحفظ فيه المني من الآفات المفسدة له كالهواء، ونحوه. ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾: إلى مقدار معلوم من الوقت قدره الله تعالى للولادة، لا يعلم ذلك غيره. ﴿فَقَدَرْنَا﴾: على ذلك، أو فقدَّرناه من التقدير؛ أي: قدرنا ذلك تقديراً. ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾: نحن على ذلك حيث خلقناه في أحسن صورة وهيئة!.

هذا؛ و(نِعْمَ) فعل ماض جامد لإنشاء المدح، وضدها: «بِئس» لإنشاء الذم. قال في المختار: نِعْمَ منقول من «نَعِم فلان» بفتح النون وكسر العين: إذا أصابته النعمة، و«بِئْس» منقول من «بَئِس فلان» بفتح الباء وكسر الهمزة: إذا أصابه بؤس، فنُقِلا إلى المدح، والذم، فشابها

الحروف، فلم يتصرفا، وفيهما أربع لغات: نِعْم، وبِئْس بكسر فسكون، وهي أفصحن، وهي لغة القرآن، ثم: نِعِم، وبِئِس بكسر أولهما، وثانيهما، غير أن الغالب في نِعِم أن يجيء بعدها (ما) كقوله تعالى في سورة (النساء) رقم [٥٨]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾، وقوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [٢٧١]: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾. وبئس جاءت بعدها (ما) على اللغة الفصحى، كقوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [٩٠]: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ وقد تكرر هذا التركيب في القرآن كثيراً. واللغة الثالثة: نَعْم وبَئْس بفتح فسكون، والرابعة نَعِم وبَئِس بفتح فكسر، وهي الأصل فيهما.

ولا بد لهما من شيئين: فاعل، ومخصوص بالمدح، أو الذم، ويشترط في الفاعل أن يكون مقروناً بـ: «أل»، كما في قوله تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾، أو مضافاً لمقترن بها، كما في قوله تعالى: ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ والقول بفعليتهما إنما هو قول البصريين، والكسائي بدليل دخول تاء التأنيث عليهما في قول الرسول ﷺ: **«مَنْ تَوَضَّأَ يَوْمَ الجمعةِ؛ فَبِهَا ونِعْمَتْ، ومَنِ اغتَسَلَ فَالْغُسْلُ أَفْضَلُ»**. وقال الكوفيون إلا الكسائي: هما اسمان بدليل دخول حرف الجر عليهما في قول أعرابي. وقد أخبر بأن امرأته ولدت بنتاً له: **«وَاللهِ مَا هِيَ بِنِعْمَ الْوَلَدُ، نصْرُها بُكاءٌ، وَبِرُّهَا سَرِقَةٌ»**. وقول غيره: **«نِعْمَ السَّيْرُ علَى بِئْسَ الْعيْرُ»**. وأوله البصريون على حذف كلام مقدر؛ إذ التقدير: والله ما هي بولدٍ مقولٍ فيه: نِعْمَ الولدُ! ونِعْمَ السيرُ على عَيْرٍ مقولٍ فيه: بئس العيرُ! والمعتمد في ذلك قول البصريين، ويلزم الكوفيين جر الولد، والعير بسبب الإضافة. والرواية بالرفع لا غير.

الإعراب: ﴿أَلَمْ﴾: الهمزة: حرف استفهام وتقدير. (لم): حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿نَخْلُقكُّم﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: (لم)، والفاعل مستتر تقديره: «نحن»، والكاف مفعول به، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿مِّن مَّآءٍ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿مَّهِينٍ﴾: صفة ﴿مَّآءٍ﴾. ﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾: الفاء: حرف عطف. (جعلناه): فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها. ﴿فِى قَرَارٍ﴾: متعلقان بما قبلهما، وهما في محل المفعول الثاني له. ﴿مَّكِينٍ﴾: صفة (قرار). ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من الضمير المنصوب؛ أي: مؤخراً إلى ﴿قَدَرٍ﴾. ﴿مَّعْلُومٍ﴾: صفة ﴿قَدَرٍ﴾. ﴿فَقَدَرْنَا﴾: الفاء: حرف عطف. (قدرنا): فعل، وفاعل، ومفعوله محذوف. التقدير: قدرنا ذلك تقديراً، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها أيضاً. ﴿فَنِعْمَ﴾: الفاء: حرف عطف. (نعم): فعل ماض لإنشاء المدح. ﴿ٱلْقَٰدِرُونَ﴾: فاعله مرفوع، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض من التنوين في الاسم المفرد، والمخصوص بالمدح محذوف، التقدير: الممدوحون: نحن، والكلام معطوف على ما قبله، لا محل له مثله.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾

الشرح: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ أي: ضامة، تضم الأحياء على ظهرها، والأموات في بطنها. وهذا يدل على وجوب مواراة الميت ودفنه، ودفن شعره، وسائر ما يزيله عنه. قال الرسول ﷺ: «**قُصُّوا أَظَافِرَكُمْ، وادْفُنُوا قُلامَاتِكُمْ**». قال المفسرون: الكفت: الجمع، والضم، فالأرض تجمع، وتضم إليها جميع البشر، فهي كالأم لهم، الأحياء يسكنون فوق ظهرها في المنازل، والدور، والأموات يسكنون في بطنها في القبور. قال تعالى في سورة (طه) رقم [٥٥]: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾. وخذ قول الشاعر: [الوافر]

فَأَنْتَ الْيَوْمَ فَوْقَ الأَرْضِ حَيَّاً وَأَنْتَ غَداً تَضُمُّكَ فِي كِفَاتِ

هذا؛ وقد قال الزمخشري هناك: عدد الله على الخلق ما علق بالأرض من مرافقهم، حيث جعلها لهم فراشاً، ومهاداً يتقلبون عليها، وسوى لهم فيها مسالك يترددون فيها كيف شاؤوا، وأنبت لهم فيها أصناف النبات؛ التي منها أقواتهم، وعلوفات بهائمهم، وهي أصلهم الذي تفرعوا منه، وأمهم التي ولدوا منها، ثم هي كفاتهم؛ إذا ماتوا، ومن ثم قال رسول الله ﷺ: «**تَمَسَّحُوا بِالأَرْضِ فَإِنَّهَا بِكُمْ بَرَّةٌ**». انتهى. هذا؛ وخذ ما رواه ربيعة الجرشي ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**اسْتَقِيمُوا وَنِعِمَّا إِنِ اسْتَقَمْتُمْ، وَحَافِظُوا عَلَى الْوُضوءِ فإن خيرَ أعمالِكُم الصلاةُ، وتَحفَّظُوا مِنَ الأرضِ؛ فإنها أُمُّكُم، وإنهُ لَيْسَ أحَدٌ عَامِلٌ عَلَيْهَا خيراً، أو شرّاً إلَّا وهيَ مخبرةٌ بِهِ**». رواه الطبراني.

هذا؛ وقد ورد بأن الأرض تضم كل إنسان يدفن فيها بعد موته؛ لأنها أمه، والأم من بني آدم تضم ولدها إذا كان غائباً، وحضر، ولكن ضمة الأرض للعبد المؤمن، والأمة المؤمنة ضمة عطف، ولطف، وشفقة، وحنان، وضمها للكافر، والفاجر، والفاسق، والأمة من ذلك ضمة غضب، وسخط، وقسوة، وإزعاج. اللهم وفقنا للعمل بكتابك، وللاهتداء بهدي نبيك محمد ﷺ!

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ﴾ أي: جعلنا في الأرض جبالاً راسخات، عاليات مرتفعات لئلا تضطرب بكم، ومنه شمخ بأنفه إذا رفعه كبراً. قال تعالى في سورة (الأنبياء) رقم [٣١]: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾، ومثلها في (النحل) رقم [١٥]، ومثلها في سورة (الرعد) رقم [٣]. وقال تعالى في سورة (فصلت) رقم [١٠]: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا﴾ انظر شرحها هناك فإنه جيد جداً جداً والحمد لله.

هذا؛ وقد قال الصابوني في كتابه: «صفوة التفاسير»: لقد كشف القرآن عن حكمة وجود الجبال فوق الأرض قبل أن يكتشفها العلم الحديث، فالجبال كالأوتاد للأرض تثبتها، وتقيها

الاضطراب والميدان، كما تقي أوتاد الخيمة الخيمة، وقد كشف الوحي عن هذا المعنى، فقال في سورة (النحل) رقم [١٥]: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ ولولا هذه الجبال الشاهقة؛ لكانت الأرض بما في جوفها من الغازات، والأبخرة، والمواد المتراكمة المشتعلة دائمة الاضطراب، والخفقان، ولكانت كالريشة في مهب الهواء. فسبحان الحكيم العليم! على أن في خلق الجبال الشوامخ نعمة أخرى هي: نشوء السحب فوقها، وهطول الأمطار والثلوج عليها، فتتكون بسبب ذلك الأنهار، والعيون، وثم تكثر الأشجار، والزروع. فالجبال مخازن للثلوج، والأمطار، ومستودعات عامة لبركات السماء، ولهذا قرن تعالى بها نعمة الماء، فقال: ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ فلله ما أبدع أسرار القرآن. انتهى.

هذا؛ و(الفرات) الماء العذب، يشرب منه، ويسقى الزرع. وفي القاموس: فرت الماء، ككرم فُرُوْتَةً عذب. قال تعالى في سورة (الفرقان) رقم [٥٣]: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ وقال يزيد بن الصعق ـ وهو الشاهد رقم [٣٥١] من كتابنا: «فتح رب البرية» ـ: [الوافر]

فَسَاغَ لِيَ الشَّرَابُ وَكُنْتُ قَبْلاً ... أَكَادُ أَغَصُّ بِالْمَاءِ الْفُرَاتِ

الإعراب: ﴿أَلَمْ﴾: الهمزة: حرف استفهام، وتقرير. (لم): حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿نَجْعَلِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: (لم)، والفاعل مستتر تقديره: «نحن». ﴿ٱلْأَرْضَ﴾: مفعول به أول. ﴿كِفَاتًا﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾: حالان عاملهما، وصاحبهما، مضمون الجملة السابقة، التقدير: تضمهم، وتجمعهم الأرض في هاتين الحالتين. وقيل: هما مفعولان لـ: ﴿كِفَاتًا﴾؛ لأنه مصدر: كفت، يكفت. وقيل: بل هو جمع: كافت، كصيام، وقيام في جمع: صائم، وقائم. ﴿وَجَعَلْنَا﴾: الواو: حرف عطف. (جعلنا): فعل، وفاعل. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، وهما في محل المفعول الثاني، تقدم على الأول. ﴿رَوَٰسِيَ﴾: مفعول به، وهو صفة لموصول محذوف. ﴿شَٰمِخَٰتٍ﴾: صفة ثانية للموصوف المحذوف، وإن اعتبرته حالاً منه بعد وصفه بـ: ﴿رَوَٰسِيَ﴾ فلست مفنداً، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها. ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم﴾: الواو: حرف عطف. (أسقيناكم): فعل، وفاعل، ومفعول به أول. ﴿مَّآءً﴾: مفعول به ثان. ﴿فُرَاتًا﴾: صفة ﴿مَّآءً﴾، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها أيضاً. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾: انظر إعراب هذه الجملة برقم [١٥].

﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾

الشرح: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ...﴾ إلخ: أي: يقال للكفار: اذهبوا إلى ما كنتم به تكذبون من

العذاب؛ يعني: النار فقد شاهدتموها عياناً. ﴿انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ﴾ أي: دخان، سماه الله ظلاً تهكماً، واستهزاءً بالمكذبين. ﴿ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ أي: الدخان الذي يرتفع من نار جهنم يتشعب إلى ثلاث شعب، وهذا شأن الدخان العظيم في الدنيا، إذا ارتفع تشعب. وقيل: يخرج لسان من النار، فيحيط بالكفار كالسرداق، ويتشعب من دخانها ثلاث شعب. فتظلهم؛ حتى يفرغ من حسابهم، والمؤمنون في ظل العرش، ولاسيما المذكورون في قول النبي ﷺ: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ: الإمامُ العادلُ، وشابٌّ نشأ في عبادةِ رَبِّهِ عزَّ وجلَّ، ورجلٌ قَلْبُهُ مُعلَّقٌ في المساجدِ. ورجلانِ تحابَّا في اللهِ، اجتمعَا علَى ذلِكَ، وتفرقَا عليْهِ، ورَجُلٌ دَعَتْهُ امرأةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وجمالٍ، فقالَ: إني أخافُ اللهَ، ورجلٌ ذكرَ اللهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ**». أخرجه البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ أي: ليس هو كالظل الذي يقي حر الشمس. فهو تهكم بهم، وتعريض بأن ظلهم غير ظل المؤمنين. ﴿وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ بمعنى: لا يدفع عنهم من لهب جهنم شيئاً، واللهب: ما يعلو على النار إذا اضطرمت من أحمر، وأصفر، وأخضر. قيل: يتفرق الدخان المذكور ثلاث شعب: شعبة تقف فوق الكافر، وشعبة عن يمينه، وشعبة عن يساره.

﴿إِنَّهَا﴾: الضمير يعود إلى جهنم؛ لأنها مفهوم من سياق الكلام. ﴿تَرْمِي بِشَرَرٍ﴾: جمع شررة، مثل: رقبة، ورقاب، ورحبة، ورحاب. ﴿كَٱلْقَصْرِ﴾ أي: كل شررة من نار جهنم كالقصر العظيم من القصور في عظمها. وقيل: هو الغليظ من الشجر الواحدة: قصرة، مثل: جمرة، وجمر، وقرئ بفتحتين، وهي أعناق الإبل، أو أعناق النخل، مثل شجرة وشجر. ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ جمع: جمل، وتجمع «الجمالة» جمع الجمع على: جمالات. هذا؛ وقيل: القصر: الجبل العظيم، فشبه الله الشرر بالقصر في مقاديره، ثم شبهه في لونه بالجمالات الصفر، وهي الإبل السود، والعرب تسمي السود من الإبل: صفراً. قال الأعشى: [الخفيف]

تِلْكَ خَيْلِي مِنْهُ وَتِلْكَ رِكَابِي ... هُنَّ صُفْرٌ أوْلَادُهَا كَالزَّبِيبِ

أي: هن سود، وإنما سميت السود من الإبل صفراً؛ لأنه يشوب سوادها شيء من صفرة، كما قيل لبيض الظباء: الأدم؛ لأن بياضها تعلوه كدرة، والشرر إذا تطاير، وسقط؛ وفيه بقية من لون النار أشبه الإبل السود؛ لما يشوبها من صفرة. وفي شعر عمران بن حطان الخارجي: [الطويل]

دَعَتْهُمْ بأعْلَى صَوْتِهَا وَرَمَتْهُمُ ... بِمِثْلِ الْجِمَالِ الصُّفْرِ نَزَّاعَةُ الشَّوَى

هذا ففي قوله تعالى: ﴿تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ تشبيه مرسل مجمل. وفي قوله جل ذكره: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ تشبيه مرسل مفصل. هذا؛ وقال أبو العلاء: [الكامل]

حَمْرَاءُ ساطِعَةُ الذَّوَائِبِ في الدُّجَى ... تَرْمِي بِكُلِّ شَرَارَةٍ كَطِرَافِ

فشبهها بالطراف، وهو بيت الأدم في العظم، والحمرة، وكأنه قصد بخبثه أن يزيد على تشبيه القرآن ولتبجحه بما سول له من توهم الزيادة جاء في صدر بيته بقوله: «حمراء» توطئة لها، ومناداة عليها، وتنبيهاً للسامعين على مكانها، ولقد عمي ـ جمع الله عليه عمى الدارين ـ عن قوله عزل وجل: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ فإنه بمنزلة قوله (كبيت أحمر) وعلى أن التشبيه بالقصر، وهو الحصن تشبيه من جهتين، من جهة العظم، ومن جهة الطول في الهواء، وفي التشبيه بالجمالات، وهي القلوص بل القلص تشبيه من ثلاث جهات: من جهة العظم، والطول، والصفرة، فأبعد الله إغرابه في أطرافه، وما نفخ شدقيه من استطرافه. انتهى. كشاف من بيت المعري إلى هنا. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿إِلَىٰ مَا﴾: متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول لقول محذوف، والقائل لهم الملائكة، و﴿مَا﴾ موصولة مبنية على السكون في محل جر بـ: ﴿إِلَىٰ﴾. ﴿كُنتُم﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون، والتاء اسمه. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان بما بعدهما، وجملة: «تكذبون به» المقدرة في محل نصب خبر (كان)، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها، وجملة: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ﴾ تأكيد لسابقتها، أو هي بدل منها. ﴿ذِى﴾: صفة ﴿ظِلٍّ﴾ مجرور مثله، وعلامة جره الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه من الأسماء الخمسة، و﴿ذِى﴾ مضاف، و﴿ثَلَٰثِ﴾ مضاف إليه، و﴿ثَلَٰثِ﴾ مضاف، و﴿شُعَبٍ﴾ مضاف إليه. ﴿لَّا﴾: نافية. ﴿ظَلِيلٍ﴾: صفة ثانية لـ: ﴿ظِلٍّ﴾ وتوسطت ﴿لَّا﴾ بين الصفة والموصوف، كما في قوله تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ رقم [٣٥] من سورة (النور)، وأيضاً قوله تعالى في سورة (الواقعة): ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ وقبله بآيات: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية. ﴿يُغْنِى﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل يعود إلى ﴿ظِلٍّ﴾. ﴿مِنَ ٱللَّهَبِ﴾: متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية في محل رفع صفة ثالثة لظل، وهي صفة منفية أيضاً، وجيء بالصفة الأولى اسماً، وبالثانية فعلاً دلالة على نفي ثبوت هذه الصفة، ونفي التجدد، والحدوث للإغناء عن اللهب. انتهى جمل نقلاً عن السمين.

هذا؛ وأرى جواز اعتبار الجملة الفعلية في محل نصب حال من ﴿ظِلٍّ﴾؛ لأنه وصف بصفتين قبلها، والنكرة إذا وصفت تخصصت، فتأتي الحال منها بلا ضعف. قال ابن مالك ـ رحمه الله تعالى ـ في ألفيته: [الرجز]

وَلَمْ يُنَكَّرْ غَالِباً ذُو الْحَالِ إِنْ ... لَمْ يَتَأَخَّرْ أَوْ يُخَصَّصْ أَوْ يَبِنْ

﴿إِنَّهَا﴾: حرف مشبه بالفعل، و(ها): اسمها. ﴿تَرْمِى﴾: فعل مضارع مرفوع... إلخ، والفاعل يعود إلى جهنم المفهومة من سياق الكلام، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ)،

والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها. ﴿بِشَرَرٍ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿كَالْقَصْرِ﴾: متعلقان بمحذوف صفة (شرر). هذا؛ وإن اعتبرت الكاف اسماً بمعنى مثل، فهي الصفة، وتكون مضافة، و(القصر) مضاف إليه. ﴿كَأَنَّهُ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿جِمَالَتٌ﴾: خبرها. ﴿صُفْرٌ﴾: صفة ﴿جِمَالَتٌ﴾، والجملة الاسمية في محل جر صفة ثانية لـ: (شرر)، أو في محل نصب حال منه بعد وصفه بما تقدم على مثال ما تقدم. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ انظر إعرابها ومحلها في الآية رقم [١٥].

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾﴾

الشرح: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾: يعني بحجةٍ تنفعهم. قيل: هذا في بعض مواطن القيامة، ومواقفها، وذلك؛ لأن في بعضها يتكلمون، وفي بعضها يختصمون، وفي بعضها يختم على أفواههم، فلا ينطقون. وهذا مروي مثله عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ. ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾: انظر سورة (غافر) رقم [٥٢].

والمعنى: لا يكون لهم إذن، واعتذار. قال الجنيد ـ رحمه الله تعالى ـ: أي: عذر لمن أعرض عن منعمه، وجحده، وكفر أياديه، ونعمه؟! فإن قلت: قد توهم أن لهم عذراً، ولكن قد منعوا من ذكره؛ قلت: ليس لهم عذر في الحقيقة؛ لأنه قد تقدم الإعذار، والإنذار في الدنيا، فلم يبق لهم عذر في الآخرة، ولكن ربما تخيلوا خيالاً فاسداً: أن لهم عذراً، فلم يؤذن لهم في ذلك العذر الفاسد. انتهى. خازن.

وقال أيضاً: عطف ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾ على ما قبله، واختير ذلك؛ لأن رؤوس الآي بالنون، فلو قال: فيعتذروا لم يوافق الآيات. والعرب تستحب وفاق الفواصل، كما تستحب وفاق القوافي، والقرآن نزل على ما تستحب العرب من موافقة المقاطع، والمعنى لا يكون إذن، واعتذار. انتهى.

هذا؛ وقال الجلال: عطف على (يؤذن) من غير تسبب عنه، فهو داخل في حيز النفي؛ أي: لا إذن، فلا اعتذار. قال الجمل: ما قاله جواب عما يقال: إن العطف بالفاء، أو بالواو على المنفي يقتضي نصب المعطوف؛ فلم رفع في الآية؟ وحاصل الجواب: أنه إنما ينصب إذا كان متسبباً عن المنفي، نحو قوله تعالى في سورة (فاطر) رقم [٣٦]: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ أما إذا لم يكن متسبباً، كما هنا، وإنما قصد توجه النفي إلى كل من المعطوف، والمعطوف عليه، فإنه يرفع. انتهى. جمل. أقول: ومثل ذلك قوله تعالى في سورة (الحج) رقم [٦٣]: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ حيث رفع (تصبح) ولم ينصب بعد الفاء؛ لأن خضرة الأرض لا تتسبب عن الرؤية، وإنما تتسبب عن نزول المطر.

وفي السمين: وفي رفع ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾ وجهان: أحدهما: أنه مستأنف؛ أي: فهم يعتذرون. قال أبو البقاء: ويكون المعنى: أنهم لا ينطقون نطقاً ينفعهم، أو ينطقون في بعض المواقف، ولا ينطقون في بعضها. والثاني: أنه معطوف على ﴿يُؤْذَنُ﴾ فيكون منفياً، ولو نصب لكان مسبباً عنه. وقال ابن عطية: ولم ينصب في جواب النفي لتشابه رؤوس الآي، والوجهان جائزان. انتهى جمل. والله أعلم بمراده، وأسراره كتابه.

الإعراب: ﴿هَٰذَا﴾: الهاء: حرف تنبيه لا محل له. (ذا): اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يَوْمُ﴾: خبر المبتدأ. ويقرأ بالنصب على أنه ظرف زمان متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، والكوفيون يعتبرونه مبنياً على الفتح في محل رفع خبر المبتدأ، ومثل هذه الآية قوله تعالى في سورة (المائدة) رقم [١١٩]: ﴿قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ...﴾ إلخ. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَنطِقُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع... إلخ، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (يوم) إليها، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية. ﴿يُؤْذَنُ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور في محل رفع نائب فاعل، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل جر مثلها. ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾: الفاء: حرف عطف. (يعتذرون): مضارع، وفاعله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، وانظر الشرح. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾: انظر رقم [١٥].

﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾

الشرح: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ أي: يقال لهم يوم القيامة: هذا هو يوم الفصل بين العباد، يفصل فيه بين المحق، والمبطل، وبين المحسن، والمسيء، فيثيب المحق المحسن، ويعاقب فيه المبطل المسيء. ﴿جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يجمع الذين كذبوا محمداً ﷺ، ويجمع الذين كذبوا النبيين قبله. والجملة الفعلية هذه فيها معنى التوكيد للجملة الاسمية قبلها؛ لأنه إذا كان يوم الفصل بين السعداء، والأشقياء، وبين الأمم ورسلهم؛ فلا بد من جمع الأولين، والآخرين، حتى يقع الفصل بينهم. هذا؛ والتعبير بالماضي عن المستقبل إنما هو لتحقق الوقوع، وهذا أسلوب بلاغي مستعمل في القرآن الكريم كثيراً.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾: توبيخ، وتقريع للكافرين يوم القيامة على كيدهم لدين الله، وأتباعه، وتسجيل عليهم بالعجز، والذلة، والإهانة. وقيل: المعنى: إن قدرتم على حربي؛ فحاربوني! وقيل: المعنى: إن قدرتم على أن تتخلصوا من قبضتي، وتنجوا من حكمي؛ فافعلوا، فإنكم لا تقدرون على ذلك! كما قال تعالى في سورة (الرحمن): ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾

وعن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: (إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحدٍ، ينفذُهُمْ، ويسمَعُهُم الداعي، ويقول الله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٨ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ اليومَ لا يَنْجُو مِنِّي جَبَّارٌ عنيدٌ، وَلَا شَيْطَانٌ مَرِيدٌ). أخرجه ابن أبي حاتم، وانظر (جَمَعَ) في سورة (المعارج) رقم [١٨].

الإعراب: ﴿هَٰذَا يَوْمُ﴾: مبتدأ، وخبر، و﴿يَوْمُ﴾ مضاف، و﴿ٱلْفَصْلِ﴾ مضاف إليه، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول لقول محذوف، انظر تقديره في الشرح. ﴿جَمَعْنَٰكُمْ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة الفعلية في محل نصب حال من يوم الفصل، والرابط محذوف، التقدير: جمعناكم فيه، والعامل في الحال اسم الإشارة، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾، ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾، وقيل: مفسرة موضحة لقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾. ﴿وَٱلْأَوَّلِينَ﴾: معطوف على (الكاف)، أو هو مفعول معه، فهو منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مذكر سالم.

﴿فَإِن﴾: الفاء: حرف استئناف. (إن): حرف شرط جازم. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ﴿كَانَ﴾ تقدم على اسمها. ﴿كَيْدٌ﴾: اسمها مؤخر، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي. ﴿فَكِيدُونِ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (كيدون): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والنون للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة، المدلول عليها بالكسرة مفعول به، والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محل لها؛ لأنها لم تحل محل المفرد، و(إنْ) ومدخولها كلام مستأنف بالنسبة لما قبله، وهو في محل نصب مقول القول للقول المحذوف. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ انظر رقم [١٥].

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ۝٤١ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝٤٢ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٤٣ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٤٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٥﴾

الشرح: لما ذكر الله في سورة (الدهر) السابقة أحوال الكفار في الآخرة على سبيل الاختصار، وأطنب في ذكر أحوال المؤمنين الأبرار فيها؛ ذكر في هذه السورة أحوال الكفار على سبيل الإطناب، وأحوال المؤمنين على سبيل الإيجاز، فوقع التعادل بين السورتين. انتهى جمل نقلاً من البحر.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: الذين خافوا ربهم في الدنيا، واتقوا عذابه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه. ﴿فِي ظِلَٰلٍ﴾ أي: تكاثف أشجار؛ إذ لا شمس يظل من حرها. ﴿وَعُيُونٍ﴾: من ماء، وعسل، ولبن، وخمر، كما قال تعالى في سورة (محمد ﷺ) رقم [١٥]: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ

﴿ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾. هذا؛ وقال تعالى في سورة (يس) رقم [٥٦]: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾. وقال تعالى في سورة (الذاريات) رقم [١٥]: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾.

﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: وفواكه كثيرة متنوعة مما يستلذون، ويستطيبون. قال تعالى في سورة (الواقعة): ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾، وقال تعالى فيها أيضاً: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾. ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: ويقال لهم على سبيل الأنس، والتكريم: كلوا أكلاً لذيذاً، واشربوا شرباً هنيئاً بسبب ما قدمتم في الدنيا من صالح الأعمال. وهذه الآية مذكورة في سورة (الطور) برقم [١٩]. وقال تعالى في سورة (الحاقة) رقم [٢٤]: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ انظر ما ذكرته في شرحها هناك تجد ما يسرك، ويثلج صدرك، فالبحث قيم جداً؛ إن شاء الله تعالى.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: هذه الآية مكررة كثيراً فقد ذكرت في سورة (الصافات) وحدها خمس مرات، وهي تذكر بعد ذكر الصالحين، وما عملوا من أعمال صالحة، والمعنى: نثيب المحسنين العمل ثواباً عظيماً، ونجزيهم جزاءً جزيلاً، وما أكثر ما يذكر ضدها ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ والمعنى: نعاقب المسيئين العمل، والظالمين، والمفترين، والخبثاء عقاباً شديداً، ونعذبهم عذاباً أليماً.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ منصوب، وعلامة نصبه الياء... إلخ. ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾: متعلقان بمحذوف خبر ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية مبتدأة، أو مستأنفة، لا محل لها. ﴿وَعُيُونٍ﴾: معطوف على ﴿ظِلَٰلٍ﴾. ﴿وَفَوَٰكِهَ﴾: معطوف أيضاً مجرور مثله، وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف لصيغة منتهى الجموع، وهي علة تقوم مقام علتين من موانع الصرف. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة (فواكه)، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة. ﴿يَشْتَهُونَ﴾: فعل مضارع، وفاعله، والجملة الفعلية صلة (ما)، أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: من الذي، أو من شيء يشتهونه. ﴿كُلُوا۟﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول لقول محذوف، يقع حالاً من الضمير المستقر في ﴿ظِلَٰلٍ﴾، والقائل لهم الله، أو الملائكة، وجملة: ﴿وَٱشْرَبُوا۟﴾ معطوفة عليها، ومفعول الفعلين محذوف للاختصار، والتعميم أيضاً.

﴿هَنِيٓـًٔا﴾: حال من واو الجماعة، بمعنى: مهنئين، أو هو صفة مفعول مطلق محذوف، التقدير: كلوا أكلاً هنيئاً، واشربوا شرباً هنيئاً. وفاعله مستتر محذوف لدلالة ما قبله عليه، التقدير: هنيئاً لكم الأكل. وهنيئاً لكم الشرب. وقيل: الفاعل (ما) المجرورة بالباء، وعليه يكون مثله قول كثير عزة: [الطويل]

هَـنِـيـئـاً مَـرِيـئـاً غـيـرَ داءٍ مُـخَـامِـرٍ   لِـعَـزَّةَ مِـنْ أعْـراضِـنَـا مَـا اسْـتَـحَـلَّـتِ

فيكون مثل (ما) يرتفع بالفعل؛ أي: كما تقول: هنأكم ما كنتم تعملون، أو هنأكم الأكل، والشرب. فعلى الأول الباء زائدة في الفاعل، وعلى الثاني فالباء أصلية. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: ﴿هَنِيٓـًٔا﴾، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون، والتاء اسمه، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ في محل نصب خبر (كان)، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: هنيئاً بالذي، أو بشيء كنتم تعملونه، وعلى اعتبار (ما) مصدرية تؤول بما بعدها بمصدر في محل جر بالباء، التقدير: هنيئاً بعملكم.

﴿إِنَّا﴾: (إنَّ): حرف مشبه بالفعل، و(نا): اسمها، حذفت نونها، وبقيت الألف دليلاً عليها. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: الكاف: حرف تشبيه وجر، و(ذا): اسم إشارة مبني على السكون في محل جر بالكاف، والجار، والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف، عامله ما بعده، التقدير: نجزي المحسنين جزاء كائناً مثل جزاء المتقين. واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿نَجْزِى﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل مستتر تقديره: «نحن». ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: مفعول به... إلخ، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية تعليل للأمر، لا محل لها. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾: انظر إعرابها الآية رقم [١٥].

﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾﴾

الشرح: ﴿كُلُوا۟﴾: خطاب للكفار في الدنيا على وجه التهديد، كقوله تعالى لهم: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ الآية رقم [٤٠] من سورة (فصلت). هذا؛ وإن كان في ظاهر اللفظ أمراً، إلا أنه في المعنى نهي بليغ، وزجر عظيم، واعتبره الزمخشري فيما يخاطبون به في الآخرة، وعلله بقوله: يقال لهم ذلك في الآخرة إيذاناً بأنهم كانوا في الدنيا أحقاء بأن يقال لهم، وكانوا من أهله تذكيراً بحالهم السمجة، وبما جنوْا على أنفسهم من إيثار المتاع القليل على النعيم، والملك الخالد. وفي طريقته قول فاطمة بنت الأخرم الخزاعية تبكي إخوتها، وتندبهم ـ وهو الشاهد رقم [٣٦٢] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» إعراب شواهد مغنى اللبيب ـ: [المديد]

إِخْـوَتـي لا تَـبْـعَـدُوا أَبَـداً   وَبَـلَـى وَاللهِ قَـدْ بَـعِـدُوا

كُـلُّ مَـا حَـيٍّ وَإِنْ أَمِـرُوا   وَارِدُو الْـحَـوْضِ الَّـذِي وَرَدُوا

وما قاله الزمخشري لم يوافقه أحد عليه. ﴿وَتَمَتَّعُوا۟﴾ أي: تمتعوا من دنياكم، واستمتعوا بلذائذها الفانية. كما هو شأن البهائم التي همها ملء بطونها، ونيل شهواتها زماناً قليلاً إلى

منتهى آجالكم، وانقضاء أعماركم. ﴿إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ﴾: كافرون، فاسدون، مفسدون، لا تستحقون الإنعام، والتكريم.

قال بعض العلماء: التمتع بالدنيا من أفعال الكافرين، والسعي لها من أفعال الظالمين، والاطمئنان إليها من أفعال الكاذبين، والسكون فيها على حد الإذن، والأخذ منها على قدر الحاجة من أفعال عوام المؤمنين، والإعراض عنها من أفعال الزاهدين، وأهل الحقيقة أجل خطراً من أن يؤثر فيهم حب الدنيا، وبغضها، وجمعها، وتركها. انتهى جمل نقلاً من الخطيب. وما أحسن قولهم: الكافر يتمتع، والمنافق يتزين، والمؤمن يتزود. هذا؛ وقد قال تعالى في سورة (لقمان) رقم [٢٤]: ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾.

هذا؛ والتمتع: التلذذ بالشيء، والانتفاع به، ومثله: الاستمتاع، والاسم: المتعة. فهنيئاً لمن تمتع واستمتع بالحلال المباح! وويل، ثم ويل لمن تمتع، واستمتع بالحرام! هذا؛ والمتعة بكسر الميم وضمها: اسم للتمتيع، والزاد القليل، وما يتمتع به من الصيد، والطعام، ومتعة المرأة: ما وصلت به بعد الطلاق من نحو قميص، وإزار، وملحفة. قال تعالى في سورة (البقرة) رقم [٢٣٦]: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾. والمراد من الآية، وأمثالها الأمر للكفار بأن يتمتعوا بدنياهم قليلاً، أو بعبادتهم الأوثان، أو باتباعهم الأهواء، فإنها من قبيل الشهوات التي يتمتع بها، وفي التهديد بصيغة الأمر إيذان بأن المهدَّد عليه كالمطلوب؛ لإفضائه إلى المهدد به.

الإعراب: ﴿كُلُواْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، ومفعوله محذوف، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول لقول محذوف، وجملة: ﴿وَتَمَتَّعُواْ﴾ معطوفة عليها. ﴿قَلِيلًا﴾: صفة «زمان» محذوف؛ أي: زماناً قليلاً، أو صفة «مصدر» محذوف، التقدير: تمتيعاً قليلاً. ﴿إِنَّكُم﴾: (إنَّ): حرف مشبه بالفعل، والكاف اسمها. ﴿مُّجۡرِمُونَ﴾: خبر (إنَّ) مرفوع، وعلامة رفعه الواو، والجملة الاسمية تعليل للأمر، لا محل لها. ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾: انظر الآية رقم [١٥].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي: للكافرين المكذبين بيوم الحساب، والجزاء. ﴿ٱرۡكَعُواْ﴾: صلوا. ﴿لَا يَرۡكَعُونَ﴾: لا يصلون. قاله مجاهد. وقال مقاتل: نزلت في بني ثقيف، امتنعوا من الصلاة، فنزل ذلك فيهم. قال لهم النبي ﷺ: **«أسلموا»**. وأمرهم بالصلاة، فقالوا: لا ننحني

فإنها مسبة علينا. فقال ﷺ: «**لا خيرَ في دِينٍ، ليسَ فيهِ رُكُوعٌ ولا سُجُودٌ**». يذكر: أن مالكاً ـ رحمه الله ـ دخل المسجد بعد صلاة العصر، وهو ممن لا يرى الركوع بعد العصر، فجلس، ولم يركع، فقال له صبي: يا شيخ! قم فاركع، فقام، فركع، ولم يحاجه بما يراه مذهباً، فقيل له في ذلك. فقال: خشيت أن أكون من الذين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ﴾.

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إنما يقال لهم هذا في الآخرة حين يُدعون إلى السجود، فلا يستطيعون. انتهى أقول: انظر ما ذكرته في سورة (القلم) رقم [٤٢] تجد ما يسرك، ويثلج صدرك. هذا؛ وقال ابن العربي: هذه الآية حجة على وجوب الركوع، وإنزاله ركناً في الصلاة، وقد انعقد الإجماع عليه. هذا؛ وقد قال تعالى في سورة (البقرة) رقم [٤٣]: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، وقال جل ذكره في سورة (آل عمران) رقم [٤٣]: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، وقال عز وجل في سورة (الحج) رقم [٧٧]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ﴾.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ﴾: بعد القرآن. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: إذا لم يؤمنوا به، وهو معجز في ذاته، مشتمل على الحجج الواضحة، والمعاني الشريفة. هذا؛ وقد جاء التعبير عن القرآن بالحديث في كثير من الآيات قال تعالى في سورة (الطور) رقم [٣٤]: ﴿فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ وقال في سورة (الواقعة): ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾، وقال في سورة (القلم) الآية [٤٣]: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾، وقد قال تعالى في سورة (الأعراف) رقم [١٨٤]: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ انظر ما ذكرته في آخر سورة (القيامة).

الإعراب: ﴿وَإِذَا﴾: الواو: حرف استئناف. (إذا): انظر الآية رقم [٨]. ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول. ﴿لَهُمُ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿ٱرْكَعُواْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية في محل رفع نائب فاعل ﴿قِيلَ﴾ أفاده ابن هشام في مغنيه، وهذا يكون جارياً على القاعدة العامة: «يحذف الفاعل ويقام المفعول به مقامه». وهذا لا غبار عليه، وقد ذكرت لك مراراً أن بعضهم يعتبر نائب الفاعل ضميراً مستتراً تقديره: «هو»، يعود إلى المصدر المفهوم من الفعل، أو هو محذوف يدل عليه المقام؛ أي: وقيل قول، وبعضهم يعتبر الجار، والمجرور (لهم) المذكور، أو المقدر في كثير من الآيات هو نائب الفاعل. والمعتمد الأول، وأيده ابن هشام في المغني، حيث قال: إن الجملة التي يراد بها لفظها، يحكم لها بحكم المفردات، ولهذا تقع مبتدأ، نحو: (لا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ: كنزٌ مِنْ كُنُوزِ الجنةِ) ونحو: (زعموا: مطيةُ الكذبِ) وجملة: ﴿قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ﴾ في محل جر بإضافة (إذا) إليها، على المرجوح المشهور. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَرْكَعُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله، والجملة الفعلية جواب (إذا) لا محل لها، و(إذا) ومدخولها كلام مستأنف، لا محل له. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾: انظر الآية رقم [١٥].

﴿فَبِأَيِّ﴾: الفاء: هي الفصيحة. (بأي): جار ومجرور متعلقان بالفعل بعدهما، و(أي): مضاف، و﴿حَدِيثٍ﴾ مضاف إليه. ﴿بَعْدَهُۥ﴾: ظرف زمان متعلق بمحذوف صفة ﴿حَدِيثٍ﴾، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جواب شرط غير جازم، التقدير: وإذا كان ما ذكر واقعاً، وحاصلاً؛ فبأي: حديث بعد القرآن يؤمنون؛ إذا لم يؤمنوا به؟! ولم يتقدم للقرآن ذكر؛ لأنه مفهوم من المقام. والكلام كله مستأنف، لا محل له. تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه وسلم.

انتهت سورة (المرسلات) شرحاً، وإعراباً بعون الله وتوفيقه.

والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ النَّبَإِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة (النبأ) وتسمى سورة التساؤل مكية، وهي أربعون آيةً، أو إحدى وأربعون، ومئة وثلاث وسبعون كلمةً، وتسعمئة وسبعون حرفاً. انتهى خازن.

الجزء ٣٠

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ (١) عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ (٢) ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥)﴾

الشرح: ﴿عَمَّ﴾: كلمة مؤلفة من حرف، واسم، فالحرف: (عَن) الجارة، والاسم (ما) الاستفهامية، وقد حذفت ألفها، كما تحذف مع كل جار، نحو قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾، ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾، ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ وذلك للفرق بين الموصولة، والاستفهامية. ويقال: للفرْق بين الخبر، والاستخبار، ومن شواهدها الشعرية قول الكميت ـ وهو الشاهد رقم [٥٥٤] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: إعراب شواهد مغني اللبيب ـ: [الطويل]

فَتِلْكَ وُلَاةُ السُّوءِ قَدْ طَالَ مُكْثُهُمْ فَحَتَّامَ حَتَّامَ الْعَنَاءُ الْمُطَوَّلُ؟!

وأيضاً قول عمرو بن معد يكرب الزبيدي المذحجي ـ رضي الله عنه ـ وهو الشاهد رقم [٢٥٠] من الكتاب المذكور، وأيضاً رقم [٤٥٤] من كتابنا: «فتح رب البرية»: [الطويل]

عَلَامَ تَقُوْلُ: الرُّمْحُ يُثْقِلُ عَاتِقِي إِذَا أَنَا لَمْ أَطْعَنْ إِذَا الْخَيْلُ كَرَّتِ؟

هذا؛ وقرأ عكرمة، وعيسى بن عمر: (عَمَّا) بإثبات الألف، وهي قراءة فوق السبعة، ومنه قول حسان بن المنذر ـ رضي الله عنه ـ يهجو رجلاً من بني مخزوم ـ وهو الشاهد رقم [٥٥٦] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الوافر]

عَلَى مَا قَامَ يَشْتِمُنِي لَئِيمٌ كَخِنْزِيرٍ تَمَرَّغَ فِي دَمَانِ؟

هذا؛ وقرأ ابن كثير (عَمَّهْ) بهاء السكت وصلاً، وهذا يكون في الوقف، فيكون أجرى الوصل مجرى الوقف. ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾: يسأل بعضهم بعضاً، والضمير يعود إلى قريش؛ إذ هم المقصودون بذلك، روي: أن النبي ﷺ لما بعث؛ جعل المشركون يتساءلون بينهم، فيقولون: ما الذي أتى به محمد، ويتجادلون فيما بعث به، فبعضهم يقول: شعر، وبعضهم يقول: سحر،

وبعضهم يقول: كهانة، فنزلت هذه السورة. ومناسبتها لما قبلها ظاهرة، لما ذكر في قوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ وكانوا يتجادلون فيه، ويتساءلون عنه، فقال: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ والاستفهام عن هذا فيه تفخيم، وتهويل، وتقرير، وتعجيب. انتهى. جمل.

﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾: بيان لذلك الشيء، والاستفهام لتفخيمه؛ لأنه تعالى لا تخفى عليه خافية، وهو ما جاء به النبي ﷺ من القرآن المشتمل على البعث، وغيره.

﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾: فمن فسر النبأ العظيم بالقرآن؛ قال: اختلافهم فيه قولهم: إنه سحر، أو شعر، أو كهانة، أو نحو ذلك مما قالوه في القرآن. ومن فسر النبأ العظيم بالبعث؛ قال: اختلافهم فيه: فمن مصدق به، وهم المؤمنون، ومن مكذب به، وهم الكافرون. ومن فسره بنبوة محمد ﷺ؛ قال: اختلافهم فيه كاختلافهم في القرآن.

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾: ردع فيه معنى الوعيد، والتهديد؛ أي: سيعلمون عاقبة تكذيبهم حين ينكشف الأمر يعني في القيامة، وسيعلمون صدق ما جاء به محمد ﷺ من القرآن، ومما ذكره لهم من البعث بعد الموت، والتكرير للتوكيد. انظر مثله في سورة (ن) رقم [٥]، وفي سورة (التكاثر).

هذا؛ والنبأ: الخبر وزناً، ومعنىً. ويقال: النبأ أخص من الخبر؛ لأن النبأ لا يطلق إلا على كل ما له شأن، وخطر من الأنباء. وقال الراغب: النبأ خبر ذو فائدة، يحصل به علم، أو غلبة ظن، ولا يقال للخبر في الأصل: نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة، وحقه أن يتعرى عن الكذب كالمتواتر، وخبر الله تعالى، وخبر الرسول ﷺ. هذا؛ والفعل منه من الأفعال التي تنصب ثلاثة مفاعيل، وقد يجيء الفعل منه غير مضمن معنى: أعلم، فيتعدى لواحد بنفسه، وللآخر بحرف الجر، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ رقم [١٤] من سورة (المائدة)، والآية رقم [٦] من سورة (المجادلة)، وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٣] من سورة (التحريم) تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

الإعراب: ﴿عَمَّ﴾: (عن): حرف جر. (ما): اسم استفهام مبني على السكون في محل جر بـ: (عَنْ)، حذفت ألفها كما رأيت في الشرح، وبقيت الفتحة دليلاً عليها، والجار، والمجرور متعلقان بما بعدهما. ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع. . .إلخ، والواو فاعله، والجملة الفعلية مبتدأة لا محل لها. ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ﴾: متعلقان بفعل محذوف لدلالة ما قبله عليه، ولا يجوز أن يتعلقا بالفعل المذكور؛ لأنه كان يلزم دخول حرف الاستفهام، فيكون التقدير: أعن النبأ العظيم؟ ويكون الجار والمجرور بدلاً من قوله: ﴿عَمَّ﴾ كقولك: كم مالك؟ أثلاثون، أم أربعون؟ فوجب لما ذكرناه من امتناع تعلقهما بالفعل المذكور، وإنما يتعلقان بفعل مقدر. وقيل: الاستفهام مقدر قبل عن الثانية والمقدر كالمذكور. ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾: صفة ﴿ٱلنَّبَإِ﴾.

﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول مبني على السكون، وفيه ثلاثة أوجه: الأول: على أنه في محل جر صفة، أو هو بدل من ﴿ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾. والثاني: على أنه في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف،

التقدير: هو الذي. والثالث: على أنه في محل نصب مفعول به لفعل محذوف، التقدير: أعني الذي. ﴿هُمْ﴾: ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بما بعدهما. ﴿مُخْتَلِفُونَ﴾: خبر المبتدأ مرفوع، والجملة الاسمية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿كَلَّا﴾: حرف ردع وزجر. ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾: السين: حرف استقبال. (يعلمون): فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والمفعول محذوف للاختصار، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول لقول محذوف، والتي بعدها معطوفة عليها ومؤكدة لها.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾

الشرح: بعد أن هدد الله الكافرين، وتوعدهم بالعقاب الشديد، والعذاب الأليم، وفي ضمنه وعد للمؤمنين بالجزاء الحسن؛ ذكر الله أشياء من عجائب صنعه؛ ليستدلوا بذلك على توحيده، ويعلموا: أنه قادر على إيجاد العالم بعد عدمه، ثم فنائه، ثم بعثه للحساب، والثواب، والعقاب، فقال:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا﴾ أي: فراشاً، وبساطاً؛ لتستقر عليها الأقدام، كما قال تعالى في سورة (البقرة) رقم [٢٢]: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾، وقال في سورة (نوح) ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ والمعنى: ألم نجعل هذه الأرض التي تسكنونها ممهدة للاستقرار عليها، والتقلب في أنحائها؟ جعلناها لكم كالفراش، والبساط؛ لتستقروا عليها، كما يتقلب الإنسان على فراشه، وبساطه. قال في التسهيل: شبه الله الأرض بالبساط، والفراش في امتدادها، واستقرار الناس عليها. وأخذ بعضهم من الآيات: أن الأرض غير كروية. وفي ذلك نظر.

هذا؛ وقال الآلوسي ـ رحمه الله تعالى ـ: وليس في الآيات دلالة على أن الأرض مبسوطة غير كروية؛ لأن الكرة العظيمة يرى كل من عليها ما يليه مسطحاً. ثم إن اعتقاد الكروية، أو عدمها ليس بلازم في الشريعة، لكن كرويتها كالأمر اليقيني، ومعنى جعلها بساطاً، ومهاداً، وفراشاً؛ أي: تتقلبون عليها كالبساط... إلخ. وانظر الآية رقم [٤٨] من سورة (الذاريات).

﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾: انظر الآية رقم [٢٧] من سورة (المرسلات). ﴿وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: وجعلناكم أيها الناس أصنافاً: ذكوراً، وإناثاً؛ لينتظم أمر النكاح؛ الذي يحصل به التناسل. وانظر ما ذكرته في سورة (القيامة) رقم [٣٩] تجد ما يسرك، ويثلج صدرك. ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾: راحة للأبدان بالانقطاع عن الأشغال، وأصل السبات من التمدد. وقيل للنوم: سبات؛ لأنه بالتمدد يكون، وفي التمدد معنى الراحة. وقيل: السبت: القطع، فالنوم انقطاع عن

الأعمال، ومنه سبت اليهود؛ لانقطاعهم عن الأعمال فيه. هذا؛ وسبت الشيء: قطعه، وسبت الرأس: حلقه. والسبت مصدر، ويوم من أيام الأسبوع، وجمعه: أسبت، وسبوت، والسبت أيضاً: النوام، والفرس، والجواد، والرجل الداهية. هذا؛ والسبت بكسر السين: الجلد المدبوغ. قال عنترة في وصف الشجاع الذي افتخر بقتله ـ وهو البيت من معلقته رقم [٧٣]، وأيضاً هو الشاهد رقم [٣٠٦] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الكامل]

بَطَلٌ كَأَنَّ ثِيَابَهُ فِي سَرْحَةٍ يُحْذَى نِعَالَ السِّبْتِ لَيْسَ بِتَوْءَمِ

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي: ستراً للخلق يقوم مقام اللباس في ستر البدن. قال الطبري: وصف الليل باللباس تشبيهاً من حيث يستر الأشياء ويغشاها. ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ أي: وقت معاش؛ أي: متصرفاً فيه لطلب المعاش، وهو كل ما يعاش به من المطعم، والمشرب، والملبس، وغير ذلك. وفي الكشاف: لباساً يستركم عن العيون، إذا أردتم هرباً من عدو، أو بياتاً له، أو إخفاء ما لا تحبون الإطلاع عليه من كثير من الأمور. قال أبو الطيب المتنبي من قصيدته التي مدح بها كافور الإخشيدي: [الطويل]

وَكَمْ لِظَلَامِ اللَّيْلِ عِندكَ مِنْ يَدٍ تُخَبِّرُ أنَّ الْمَانَوِيَّة تكذبُ

ومن المعلوم من مذهب المانوية: أن الخير منسوب إلى النور، والشر منسوب إلى الظلام، فكذبهم أبو الطيب بأن نعمته، وخيريته إنما حصلت من الظلام، وبيَّن تلك النعمة في قوله بعده: [الطويل]

وَقَاكَ رَدَى الأعداءِ تَسْرِي إلَيْهِمُ وزارَكَ فيهِ ذُو الدلالِ المحجَّبُ

وهذه الآيات مع دلالتها على قدرة الخالق، فيها إظهار لنعمته على خلقه؛ لأن في الاحتجاب بستر الليل فوائد دينية، ودنيوية، وقد كثر الامتنان من الله على خلقه، بذلك مثل قوله تعالى في سورة (الفرقان) الآية رقم [٤٧]: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾، وأيضاً قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الآية رقم [١٢] من سورة (الإسراء)، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ الآية رقم [٢٣] من سورة (الروم).

هذا؛ وفي الآيات تشبيه بليغ؛ إذ أصل الكلام: جعلنا الأرض كالمهاد الذي يفترشه النائم، وجعلنا الجبال كالأوتاد التي تثبت الدعائم، وجعلنا الليل كاللباس في الستر، والخفاء، فحذف أداة التشبيه، ووجه الشبه، فأصبح بليغاً. وبعضهم يعتبر الجميع من باب الاستعارة. ولا تنس المقابلة في الآيتين رقم [١٠ و١١] حيث قابل بين الليل، والنهار، والراحة، والعمل، وهو من المحسنات البديعية.

هذا؛ والنوم قسمان: نوم العين، ونوم القلب، فنوم العين: فترة طبيعية تعتري الحيوان، وتتعطل حواسه بها، وأما نوم القلب: فهو تعطيل القوى المدركة. والثاني: لم يقع من النبي ﷺ؛ لأن قلبه لا ينام، كما في حديث الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «**إنَّ عينيَّ تنامانِ، ولا ينامُ قلبي**». ورحم الله البوصيري إذ قال: [البسيط]

لَا تُنْكِرِ الْوَحْيَ مِنْ رُؤْيَاهُ إنَّ لَهُ قَلْباً إذَا نَامَتِ الْعَيْنَانِ لَمْ يَنَمِ

هذا؛ والمنام مصدر ميمي بمعنى النوم، أو هو اسم مكان بمعنى موضعه، أو اسم زمان بمعنى زمانه؛ لأن «مفعلاً» يصلح لهذا كله. هذا؛ والنوم هو الموتة الصغرى، لذا أرشدنا سيد الخلق، وحبيب الحق ﷺ أن نقول عند القيام من النوم: «**سُبْحَانَ مَنْ أَحْيَانَا بعدَما أَمَاتَنَا وإِلَيْهِ النشورُ**». والجنة لا نوم فيها، انظر الآية رقم [٢٤] الآتية.

الإعراب: ﴿أَلَمْ﴾: (الهمزة): حرف استفهام، وتقرير. (لم): حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿نَجْعَلِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: (لم)، والفاعل مستتر تقديره: «نحن». ﴿ٱلْأَرْضَ﴾: مفعول به أول. ﴿مِهَٰدًا﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾: معطوفان على: ﴿ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾. ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به. ﴿أَزْوَٰجًا﴾: حال من الكاف والميم بمعنى متجانسين متشابهين. قال مكي: وخلق بمعنى: ابتدع، فلذلك لا يتعدى إلا إلى مفعول واحد. أقول: ولا مانع من اعتبار خلق بمعنى: جعل، فتكون قد نصبت مفعولين، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها، والجمل الثلاث الآتية معطوفة عليها أيضاً، وإعرابها واضح إن شاء الله تعالى، وهي: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾.

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾

الشرح: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ أي: وبنينا فوقكم أيها الناس سبع سموات، محكمة الخلق، بديعة الصنع، متينة في إحكامها، وإتقانها، لا تتأثر بمرور العصور والأزمان، خلقناها بقدرتنا لتكون كالسقف للأرض، كقوله تعالى في سورة (الأنبياء) رقم [٣٢]: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾، وقال تعالى في سورة (نوح) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ انظر شرحها فإنه جيد. ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ أي: وخلقنا لكم شمساً منيرةً ساطعة، يتوهج ضوءُها، ويتوقد لأهل الأرض كلهم، دائمة الحرارة، والتوقد. قال أهل اللغة: الوهاج: المتوقد الشديد الإضاءة؛ الذي يضطرم، ويلتهب من شدة لهبه.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ أي: وأنزلنا من السحب التي حان وقت إمطارها ماءً دافقاً منهمراً بشدة، وقوة. قال في التسهيل: المعصرات: هي السحب، مأخوذة من العصر؛ لأن السحاب ينعصر، فينزل منه الماء، شبهت السحابة التي حان وقت إمطارها بالجارية التي قد دنا حيضها؛ ولم تحض قال أبو النجم العجلي، ونسب لليث المجاشعي: [الرجز]

تَمْشِي الْهُوَيْنَى مائلاً خِمارُهَا ... قَدْ أَعْصَرَتْ أَوْ قَدْ دَنَا إِعْصَارُهَا

وقال عمر بن أبي ربيعة المخزومي: [الطويل]

فكان مِجَنِّي دُونَ مَنْ كُنْتُ أتقِي ... ثَلَاثَ شُخُوصٍ كَاعِبَانِ وَمُعْصِرُ

هذا؛ وقيل: المعصرات: الرياح، يقال: أعصرت الرياح، تعصر إعصاراً: إذا أثارت العجاج، وهي الإعصار. وقيل: المعصرات السماء، والأصح: أن المعصرات السحاب، كذا المعروف: أن الغيث منها، وانظر سورة (الواقعة) رقم [٦٩] حيث أطلق على السحب لفظ المزن، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه. هذا؛ وماءً ثجاجاً دافقاً منهمراً بشدة وقوة، يقال: ثجحت دمه فأنا أثجه ثَجّاً، والثجاج في الآية المنصب. قال عَبيد بن الأبرص: [البسيط]

فَثَجَّ أعْلَاهُ ثُمَّ ارْتَجَّ أَسْفَلُهُ ... وَضَاقَ ذَرْعاً بحَمْلِ الماءِ مُنْصَاحِ

وفي حديث النبي ﷺ: أنه سئل عن الحج المبرور، فقال: «**العجُّ، والثجُّ**». فالعج: رفع الصوت بالتلبية، والثج إراقة الدماء، وذبح الهدايا. ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ﴾: بذلك الماء. ﴿حَبًّا﴾: كالحنطة، والشعير، وغير ذلك. ﴿وَنَبَاتًا﴾: من الأبِّ، وهو ما تأكله الدواب من الحشيش، والتبن، كما قال تعالى في سورة (طه) رقم [٥٤]: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾، وقوله تعالى في سورة (الرحمن) رقم [١٢]: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾ ورحم الله زيد بن عمرو بن نفيل؛ الذي كان متحنفاً قبيل الإسلام؛ إذ قال من قصيدة له مشهورة: [الطويل]

وَقُولَا لَهُ مَنْ يُنْبِتُ الحبَّ في الثرى ... فيُصْبِحُ مِنْهُ الْبَقْلُ يَهْتَزُّ رَابِيَا
ويخْرُجُ منهُ حَبُّهُ في رُؤوسِهِ ... فَفِي ذَاكَ آياتٌ لِمَنْ كَانَ وَاعِيَا

﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ أي: وحدائق، وبساتين كثيرة الأشجار، والأغصان، ملتف بعضها على بعض، لكثرة أغصانها، وتقارب أشجارها. ولا واحد له من لفظه، كالأوزاع، والأخياف. وقيل: الواحد: لِفٌّ بكسر اللام، وضمها. وقال صاحب الإقليد: أنشدني الحسن بن علي الطوسي، وهو له: [الرمل]

جَنَّةٌ لُفٌّ وعَيْشٌ مُغْدِقٌ ... وَنَدَامَى كُلُّهُمْ بِيضٌ زُهُرْ

هذا؛ و(جعل) في الآية رقم [١٣] نصب مفعولاً واحداً، مثل: خلق، وأنشأ، وأوجد، والفرق بين خلق، وجعل الذي له مفعول واحد: أن الخلق فيه معنى التقدير، والجعل فيه معنى

التضمين، ولذا عبر سبحانه في كثير من الآيات عن إحداث النور، والظلمات بالجعل. فقال في كثير من الآيات: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ تنبيهاً على أنهما لا يقومان بأنفسهما، كما زعمت المجوس، بخلاف الخلق فإن فيه معنى الإيجاد، والإنشاء، ولذا عبر سبحانه وتعالى في كثير من الآيات عن إيجاد السموات، والأرض بالخلق، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿وَبَنَيْنَا﴾: الواو: حرف عطف. (بنينا): فعل، وفاعل. ﴿فَوْقَكُمْ﴾: ظرف مكان متعلق بما قبله، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿سَبْعًا﴾: مفعول به. ﴿شِدَادًا﴾: صفة له، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها أيضاً، والتي بعدها: (جعلنا سراجاً وهاجاً) معطوفة على ما قبلها أيضاً. (أنزلنا): فعل، وفاعل. ﴿مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾: متعلقان بما قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من ﴿مَآءً﴾، كان صفة له، فلما قدم عليه صار حالاً على القاعدة: «نعت النكرة إذا تقدم عليها صار حالاً». ﴿لِّنُخْرِجَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ: «أن» مضمرة بعد لام التعليل، والفاعل مستتر تقديره: «نحن». ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿حَبًّا﴾: مفعول به. ﴿وَنَبَاتًا﴾: معطوف على ما قبله، و«أن» المضمرة والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر باللام، والجار، والمجرور متعلقان بالفعل (أنزلنا). ﴿وَجَنَّٰتٍ﴾: معطوف على ما قبله منصوب مثله، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم. ﴿أَلْفَافًا﴾: صفة (جنات).

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾

الشرح: ذكر الله الأدلة التسع المتقدمة على قدرته تعالى، كبرهان واضح على إمكان البعث، والنشور والجزاء، فإن من قدر على هذه الأشياء قادر على البعث، والإحياء، ولهذا قال: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾ أي: إن يوم الحساب، والجزاء، ويوم الفصل بين الخلائق، له وقت محدود، معلوم في علمه تعالى، وقضائه، لا يتقدم، ولا يتأخر. قال تعالى في سورة (هود) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾.

قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: وسمي: يوم الفصل؛ لأن الله تعالى يفصل فيه بين خلقه، وقد جعله الله وقتاً، ومجمعاً، وميعاداً للأولين، والآخرين، وانظر الآية رقم [٣٨] من سورة (المرسلات). هذا؛ وميقات أصله: موقات، فقلبت الواو ياءً لمناسبة الكسرة قبلها، وقل مثله في: ميعاد، وميثاق... إلخ.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾: انظر الآية رقم [١٣] من سورة (الحاقة) ففيها الكفاية. ﴿فَتَأْتُونَ﴾: فتساقون إلى المحشر. ﴿أَفْوَاجًا﴾ أي: أمماً، كل أمة مع إمامهم. وقيل: زمراً، وجماعاتٍ،

الواحد: فوج، وهذا اسم جمع لا واحد له من لفظه، مثل: قوم، ورهط، ومعشر... إلخ، وجمعه أفواج، وفؤوج. وجمع الجمع: أفاوج، وأفاييج، وأفاويج، والثلاثة بصيغة منتهى الجموع.

هذا؛ وروي من حديث معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت: يا رسول الله! أرأيتَ قول الله عز وجل: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾؟! فقال النبي ﷺ: «**يا معاذُ! لقد سألتَ عن أمرٍ عظيمٍ**». ثم أرسل عينيه باكياً، ثم قال: «**يُحشرُ عشرةُ أصنافٍ مِنْ أمتي أشتاتاً، قد ميزهم الله تعالى من جماعاتِ المسلمين، وبدَّلَ صورَهم، فمنهم على صورةِ القردة، وبعضُهم على صورةِ الخنازير، وبعضُهم مُنَكَّسون، أرجلُهم أعلَاهم، ووجوهُهم يُسْحَبُون عليها، وبعضُهم عُميٌ يترددون، وبعضُهم صمٌّ بكمٌ لا يعقلون، وبعضُهم يَمْضغون ألسِنَتَهم، فهي مُدَلَّاة على صدورِهم، يسيل القيحُ من أفواههم لعاباً، يتقذرهم أهلُ الجمعِ، وبعضُهم مُقَطَّعةٌ أيديهم، وأرجلُهم، وبعضُهم مُصَلَّبون على جذوعٍ من النارِ، وبعضُهم أشدُّ نتناً من الجِيَفِ، وبعضُهم يَلبسُون جلابيب سابغةً من القطران، لاصقةً بجلودهم. فأما الذين على صورة القردة؛ فالقتَّات من الناس (النَّمام). وأما الذين على صورةِ الخنازير؛ فأهلُ السحتِ، والحرامِ، والمكسِ. وأمَّا المنكَّسُون رؤوسُهم، ووجوهُهم؛ فأكلةُ الرِّبا، وأما العميُ؛ فالذين يجورون في الحكم. وأما الصمُّ، البكمُ؛ فالذين يعجبون بأعمالهم. وأما الذين يمضغون ألسِنَتهم؛ فالعلماءُ، والقُصَّاصُ الذين يخالف قولُهم فعلَهم. وأما المقطَّعةُ أيديهم، وأرجلُهم؛ فالذين يؤذون الجيرانَ. وأما المصلبون على جذوعٍ من النارِ؛ فالسعاة بالناس إلى السلطان. وأمَّا الذين هم أشدُّ نتناً مِن الجيفِ؛ فالذين يتمتعون بالشهواتِ، واللذاتِ (المحرمات) ويمنعون حقَّ اللهِ في أموالهم. وأما الذين يلبسون الجلابيب؛ فأهلُ الكبرِ، والفخرِ، والخيلاءِ**». انتهى قرطبي وكشاف.

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ أي: فتحت لنزول الملائكة، كما قال تعالى في سورة (الفرقان) رقم [٢٥]: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ وقيل: تقطعت، فكانت قطعاً كالأبواب. وانظر قوله تعالى في سورة (المرسلات): ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾ فهو جيد. ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ أي: لا شيء، كما أن السراب كذلك، يظنه الرائي ماءً، وليس بماءٍ. وقيل: (سيرت) نسفت من أصولها. وقيل: أزيلت من مواضعها. وقال تعالى في سورة (طه): ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ فالآية فيها تشبيه بليغ.

هذا؛ ويقال: إن الله تعالى وصف الجبال يوم القيامة بصفات مختلفة، ترجع كلها إلى تفريغ الأرض منها، وإبراز ما تواريه، فأول الصفات: الاندكاك، وذلك قبل الزلزلة. قال تعالى في سورة (الفجر): ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا﴾، ثم تصير كالعهن المنفوش، وذلك إذا صارت السماء كالمهل، وقد جمع بينهما في سورة (المعارج) حيث قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾. والحالة الثالثة أن تصير كالهباء، وذلك أن تتقطع بعد أن كانت كالعهن. قال تعالى

في سورة (الواقعة): ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾. والحالة الرابعة أن تنسف؛ لأنها مع الأحوال المتقدمة قارة في مواضعها، والأرض تحتها غير بارزة، فتنسفها عنها لتبرز. قال تعالى في سورة (طه): ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾، وقال في سورة (الكهف) رقم [٤٨]: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً...﴾ إلخ. والحالة الخامسة: أن الرياح ترفعها على وجه الأرض، فتظهرها شعاعاً في الهواء كأنها غبار، فمن نظر إليها من بعد؛ حسبها لتكاثفها أجساداً جامدةً، وهي في الحقيقة مارَّة؛ إلا أن مرورها من وراء الرياح كأنها مندكة متفتتة، فقال تعالى في سورة (النمل) رقم [٨٨]: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾. والحالة السادسة أن تكون سراباً، فمن نظر إلى مواضعها لم يجد فيها شيئاً منها، كالسراب. قال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ وهذا كله إنما يقع بعد النفخة الأولى على المعتمد. وأخيراً: فالجبال مفرده: جبل، ويجمع على: أجبل أيضاً.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿يَوْمَ﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ وهو مضاف، و﴿ٱلْفَصْلِ﴾: مضاف إليه. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه ضمير مستتر يعود إلى ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾. ﴿مِيقَـٰتًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾. والجملة الفعلية في محل رفع خبر ﴿إِنَّ﴾. والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها. ﴿يَوْمَ﴾: بدل من: ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾، وأجاز أبو البقاء أن يكون بدلاً من: ﴿مِيقَـٰتًا﴾، أو هو منصوب بفعل محذوف، تقديره: أعني. ﴿يُنفَخُ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول. ﴿فِى ٱلصُّورِ﴾: الجار، والمجرور في محل رفع نائب فاعل ﴿يُنفَخُ﴾، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿يَوْمَ﴾ إليها. ﴿فَتَأْتُونَ﴾: الفاء: حرف عطف. (تأتون): فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله. ﴿أَفْوَاجًا﴾: حال من واو الجماعة، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل جر مثلها. ﴿وَفُتِحَتِ﴾: الواو: حرف عطف. (فتحت): فعل ماض مبني للمجهول، والتاء للتأنيث. ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾: نائب فاعله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل جر مثلها. وقيل: الجملة في محل نصب حال، فتحتاج إلى تقدير: «قد» قبلها، والجمل الفعلية الثلاث بعدها معطوفة عليها، وإعرابها مثلها بلا فارق، وهو واضح إن شاء الله تعالى.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ۝٢٢ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ۝٢٣ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝٢٥ جَزَآءً وِفَاقًا ۝٢٦﴾

الشرح: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ أي: معدة مترصدة، مُتفعِّل من الرصد، وهو الترقب؛ أي: هي متطلعة لمن يأتي، ويلقى فيها، والمرصاد: مِفْعَال من أبنية المبالغة كالمِعْطار، والمِغْيار، والمِهْذار... إلخ، فكأنه يكثر من جهنم انتظارها للكفار، كما يترصد الإنسان، ويترقب عدوه؛ ليأخذه على حين غرة، والمرصاد: الطريق، وجهنم طريق، وممرٌّ إلى الجنة، فلا

سبيل إلى الجنة؛ حتى يقطع النار. وتوضيح هذا؛ وشرحه: أن الصراط يوضع على متن جهنم، ويمر عليه الأولون، والآخرون، والأنبياء، والمرسلون. وهذا فحوى قوله تعالى في سورة رقم [٧١] (مريم) على نبينا، وعليها ألف صلاة، وألف سلام: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾. انظر شرحها هناك. وقال الحسن وقتادة: لا يدخل أحد الجنة؛ حتى يجتاز النار، فإن كان معه جواز؛ نجا، وإلا؛ احتبس.

وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن على جسر جهنم (الصراط) سبع محابس، يسأل العبد عند أولها عن شهادة أن لا إله إلا الله، فإن جاء بها تامةً؛ جاز إلى الثاني، فيسأل عن الصلوات الخمس، فإن جاء بها تامةً؛ جاز إلى الثالث، فيسأل عن الزكاة؛ فإن جاء بها تامةً؛ جاز إلى الرابع، فيسأل عن الصوم، فإن جاء به تاماً جاز إلى الخامس، فيسأل عن الحج، فإن جاء به تاماً جاز إلى السادس، فيسأل عن العمرة، فإن جاء بها تامةً؛ جاز إلى السابع، فيسأل عن المظالم، فإن خرج منها، وإلا؛ يقال: انظروا، فإن كان له تطوع؛ أكملت به أعماله، فإذا فرغ؛ انطلق به إلى الجنة. انتهى خازن. هذا؛ وإكمال نقص الفرائض من التطوع جاء عن النبي ﷺ فخذه بحروفه فيما يلي:

فعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أولَ مَا افترضَ اللهُ علَى الناسِ مِنْ دينهم الصلاةُ، وآخِرُ ما يَبْقَى الصلاةُ، وأوَّلُ مَا يُحَاسَبُ به العبدُ الصلاةُ، فيقولُ اللهُ: انظروا في صَلاةِ عبدي، فإن كانت تامَّةً؛ كُتِبَتْ تامَّةً، وإن كانَتْ ناقِصَةً؛ قَالَ: انظروا؛ هلْ لعبدي مِنْ تَطوُّعٍ؟ فإن وُجِدَ لَهُ تَطوُّعٌ؛ تَمَّتْ الفريضةُ من التطوعِ، ثم يقولُ: انظروا هل زكَاتُهُ تامةً؟ فإن كانَتْ تَامَّةً؛ كُتِبَتْ تامةً، وإن كَانَتْ نَاقِصَةً؛ قالَ: انظروا هلْ لَهُ صَدَقةٌ؟ فإن كانَتْ لَهُ صَدَقةٌ؛ تمَّت لهُ زكاتُهُ؟**». رواه أبو يعلى.

وأقول: ويمكن قياس الحج، والصوم على ما ذكر في الحديث من الصلاة، والزكاة. والله أعلم، وأجل، وأكرم.

﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾: مرجعاً يرجعون إليها، ومنزلاً، ومأوىً يستقرون بها. وانظر «الطغيان» في سورة (النازعات). ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ أي: مقيمين في جهنم ما دامت الأحقاب، وهي لا تنقطع. فكلما مضى حقُبٌ؛ جاء حقُبٌ، والحقب بضمتين: الدهر، والأحقاب: الدهور. والحِقْبَة بالكسر: السنة، والجمع: حِقَب. قال متمم بن نويرة في رثاء أخيه مالك ـ وهو الشاهد رقم [٣٨٤] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الطويل]

وَكُنَّا كَنَدْمَانَيْ جَذِيمَةَ حِقْبَةً ... مِنَ الدَّهْرِ حتى قِيلَ لَنْ يَتَصَدَّعَا

فلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكاً ... لِطُولِ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبِتْ لَيْلَةً مَعَا

والحقب بضم القاف وسكونها: ثمانون سنة، وهو المعتمد. وقيل: أكثر من ذلك، أو أقل. هذا؛ وكل سنة اثنا عشر شهراً، وكل شهر ثلاثون يوماً، وكل يوم ألف سنة، يروى ذلك عن علي ـ رضي الله عنه وكرَّم الله وجهه ـ. قال الخازن ـ رحمه الله تعالى ـ: فإن قلت: الأحقاب وإن طالت متناهية، وعذاب الكفار في جهنم غير متناهٍ، فما معنى قوله: ﴿أَحْقَابًا﴾؟.

قلت: ذكروا فيه وجوهاً: أحدها: ما روي عن الحسن ـ رحمه الله تعالى ـ قال: الله تعالى لم يجعل لأهل النار مدة، بل قال: ﴿لَّبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ فوالله ما هو إلا أنه إذا مضى حقب؛ دخل حقب آخر، ثم آخر إلى الأبد! فليس للأحقاب عدة إلا الخلود. وروي عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: لو علم أهل النار أنهم يلبثون في النار: عدد حصى الدنيا؛ لفرحوا، ولو علم أهل الجنة: أنهم يلبثون في الجنة عدد الحصى؛ لحزنوا.

الوجه الثاني: أن لفظ الأحقاب لا يدل على نهاية، والحقب الواحد متناهٍ. والمعنى: أنهم يلبثون فيها أحقاباً. ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا﴾ أي: في تلك الأحقاب ﴿بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ فهذا توقيت؛ لأنواع العذاب؛ الذي يبدلونه، لا توقيت للبثهم فيها.

الوجه الثالث: أن الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ يعني: أن العدد قد ارتفع، والخلود قد حصل. انتهى.

تنبيه: قال الإمام الرازي ـ رحمه الله تعالى ـ: قال قوم: إن عذاب الله للكافرين منقطع، وله نهاية، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿لَّبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ وبأن معصية الظالم متناهية، فالعقاب عليها بما لا يتناهى ظلم! والجواب: أن قوله تعالى: ﴿أَحْقَابًا﴾ لا يقتضي أن له نهاية؛ لأن العرب يعبرون به، وبنحوه عن الدوام، ولا ظلم في ذلك؛ لأن الكافر كان عازماً على الكفر ما دام حياً، فعوقب دائماً، ولم يعاقب بالدائم إلا على دائم، ولم يكن عذابه إلا جزاءً وفاقاً. انتهى جمل في سورة (هود) على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام.

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾: ﴿فِيهَا﴾ في الأحقاب. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: البرد: النوم. وبه قال أبو عبيدة، وغيره من أئمة اللغة، وبه قال صاحب المختار، وذكر الآية الكريمة مستدلاً بها، وقال العرجي عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان ـ رضي الله عنه ـ: [الطويل]

وَلَوْ شِئْتُ حَرَّمْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُمُ ... وَإِنْ شِئْتُ لَمْ أَطْعَمْ نُقَاخاً وَلَا بَرْدا

النقاخ: هو الماء العذب؛ الذي ينقخ الفؤاد ببرده، والبرد: النوم. وقاله مجاهد، والسدي، والكسائي، والفضل بن خالد، وأبو معاذ النحوي، وأنشدوا قول الكندي: [الكامل]

بَرَدَتْ مَرَاشِفُهَا عَلَيَّ فَصَدَّنِي ... عَنْهَا وعَنْ تَقْبِيلِهَا الْبَرْدُ

يعني: النوم، والعرب تقول: منع البَرْدُ البَرْدَ، يعني: أذهب البَرْدُ النَّوْمَ، وقد سئل النبي ﷺ: هل في الجنة نوم؟ فقال: «**لَا؛ النومُ أَخُو الموتِ، والجنةُ لا مَوْتَ فِيهَا**». فكذلك النار لا موت

فيها، وإطلاق البرد على النوم لغة هذيل. ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾: الحميم: الماء الحار، وكثير ذكره في القرآن الكريم. والغساق: صديد يسيل من جلود أهل النار، ولم يذكر إلا في هذه السورة. وفي سورة (ص) رقم [٥٧]. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الغساق: الزمهرير يحرقهم ببرده. وقيل: الحميم: الحار الذي قد انتهى حره، والغساق ضده، وهو البارد الذي لا يستطاع من شدة برده المؤلم. فعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لَوْ أَنَّ دَلْواً مِنْ غَسَّاقٍ يُهْرَاقُ في الدُّنْيَا؛ لأَنْتَنَ أَهْلُ الدُّنْيَا**». أخرجه الإمام أحمد، ورواه الترمذي، وابن جرير أيضاً. وقال مجاهد، ومقاتل: هو الثلج البارد الذي قد انتهى برده. وقال غيرهما: إنه يحرق ببرده، كما يحرق الحميم بحره. وقال عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ: هو قيح غليظ، لو وقع شيء منه بالمشرق؛ لأنتن مَن في المغرب، ولو وقع شيء منه بالمغرب؛ لأنتن مَن في المشرق. وقال قتادة: هو ما يسيل من فروج الزناة، ومن نتن لحوم الكفرة، وجلودهم من الصديد، والقيح، والنتن. وقال محمد بن كعب القرظي ـ رضي الله عنه ـ: هو عصارة أهل النار، وهذا القول أشبه. يقال: غسق الجرح، يغسق غسقاً: إذا خرج منه ماء أصفر. قال الشاعر: [البسيط]

إذَا ما تَذَكَّرْتُ الحياةَ وطِيْبَهَا   إلَيَّ جَرَى دَمْعٌ مِنَ اللَّيْلِ غَاسِقُ

﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ أي: جوزوا بذلك جزاءً ذا وفاق لأعمالهم، أو موافقاً لها، فالوفاق بمعنى الموافقة، كالقتال بمعنى المقاتلة. وقال الفراء أيضاً: هو جمع الوِفق، والوِفق، واللِّفق واحد. وقال مقاتل: وافق العذاب الذنب، فلا ذنب أعظم من الشرك، ولا عذاب أعظم من النار. والله أعلم بمراده.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿جَهَنَّمَ﴾: اسمها. ﴿كَانَتْ﴾: فعل ماض ناقص، والتاء للتأنيث، واسمها ضمير يعود إلى ﴿جَهَنَّمَ﴾. ﴿مِرْصَادًا﴾: خبر (كان)، والجملة الفعلية في محل رفع خبر ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها. ﴿لِّلطَّاغِينَ﴾: متعلقان بـ: ﴿مِرْصَادًا﴾، أو بمحذوف صفة، أو هما متعلقان بمحذوف حال من: ﴿مَئَابًا﴾، كان صفة له، فلما قدم عليه؛ صار حالاً. ﴿مَئَابًا﴾: بدل من ﴿مِرْصَادًا﴾، لذا قيل: خبر ثان لـ: ﴿كَانَتْ﴾. ﴿لَّبِثِينَ﴾: حال من الضمير المستتر في (الطاغين). ﴿فِيهَآ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: ﴿لَّبِثِينَ﴾. ﴿أَحْقَابًا﴾: ظرف زمان متعلق به أيضاً. ﴿لَّا﴾: نافية. ﴿يَذُوقُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع... إلخ، والواو فاعله. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿بَرْدًا﴾: مفعول به. ﴿وَلَا﴾: (الواو): حرف عطف. (لا): نافية مؤكدة. ﴿شَرَابًا﴾: معطوف على ما قبله، والجملة الفعلية فيها أوجه: أحدها: أنها مستأنفة. والثاني: أنها في محل نصب حال من الضمير في: ﴿لَّبِثِينَ﴾ أي: لابثين غير ذائقين، فهي حال متداخلة. والثالث: أنها في محل نصب صفة لـ: ﴿أَحْقَابًا﴾.

﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿حَمِيمًا﴾: مستثنىً منقطع على تفسير البرد بالنوم. وقيل: هو متصل على تفسيره بالبرد الحقيقي، وهو قول أبي حيان، وجوز الكواشي الأمرين، وجوز اعتباره بدلاً

من: ﴿شَرَابًا﴾، وهو الأحسن؛ لأن الكلام تام منفي. (غساقاً): معطوف عليه. ﴿جَزَآءً﴾: مفعول مطلق، عامله محذوف، التقدير: جوزوا جزاءً، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها، أو هي في محل نصب حال من واو الجماعة، وتحتاج إلى تقدير: «قد» قبلها. ﴿وِفَاقًا﴾: صفة: ﴿جَزَآءً﴾.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: الطاغين الكافرين. ﴿كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ﴾: لا يخافون. وانظر ما ذكرته في الآية رقم [١٣] من سورة (نوح) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام.

﴿حِسَابًا﴾ أي: محاسبة لأعمالهم؛ أي: إنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث، فيخافون الحساب، والجزاء، والعقاب. ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا﴾ أي: بما جاءت به الأنبياء. وقيل: بما أنزلنا من الكتب. و﴿كِذَّابًا﴾ بمعنى: تكذيباً. و«فعَّال» بمعنى «تفعيل» مطرد شائع في كلام الفصحاء، وهي قراءة العامة. قال الفراء: هي لغة يمانية فصيحة، يقولون: كذّبت به كذَّاباً، وخرقت القميص خِرَّاقاً. وكل فعل في وزن: فعَّل؛ فمصدره: «فعَّال» مشدد في لغتهم. هذا؛ وقرأ علي ـ رضي الله عنه ـ: (كِذَاباً) بالتخفيف، وهو مصدر أيضاً. وقال أبو علي الفارسي: التخفيف، والتشديد جميعاً مصدر المكاذبة، كقول الأعشى: [مجزوء الكامل]

فَصَدَقْتُهَا وَكَذَبْتُهَا ... وَالْمَرْءُ يَنْفَعُهُ كِذَابُهْ

ومثله قول الآخر: [الطويل]

وَإِنَّ مَدِيحَ النَّاسِ حَقٌّ وباطِلٌ ... ومَدْحُكَ حقٌّ لَيْسَ فِيهِ كِذَابُ

وقال الزمخشري: هو مثل قوله تعالى في سورة (نوح) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ وهذا يعني: أنه اسم مصدر، لا مصدر؛ لأنه نقص عن حروف فعله لفظاً، وتقديراً بدون تعويض، مثل: سلام، وكلام، وعذاب. ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا﴾ أي: بيناه، وأثبتناه في كتاب، وهو اللوح المحفوظ. وقيل: معناه: وكل شيء علمناه علماً لا يزول، ولا يتغير، ولا يتبدل. والمعنى: أنا عالم بجميع ما فعلوه من خير، وشر، وأنا أجازيهم على قدر أعمالهم جزاءً وفاقاً. قال تعالى في سورة (القمر): ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾، وقال تعالى في سورة (الانفطار): ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ﴾.

﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾: قال أبو برزة ـ رضي الله عنه ـ سألت النبي ﷺ عن أشد آية في القرآن، فقال: قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن...﴾ إلخ؛ أي: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ رقم [٥٦] من سورة (النساء)، وقوله تعالى في سورة (الإسراء) رقم [٩٧]: ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ

﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾. هذا؛ وزاد، يزيد ضد: نقص، ينقص، يكون لازماً، كقولك: زاد المال درهماً، ويكون متعدياً لمفعولين، كما في الآية الكريمة، وقولك: زاد الله خالداً خيراً، بمعنى: جزاه الله خيراً، وأما قولك: زاد المال درهماً، والبر مداً؛ فدرهماً ومداً تمييز. ومثله قل في: نقص، فمن المتعدي لمفعولين قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾.

هذا؛ والذوق يكون محسوساً، ومعنىً، وقد يوضع موضع الابتلاء والاختبار، تقول: اركب هذا الفرس فذقه؛ أي: اختبره، وانظر فلاناً؛ فذق ما عنده. قال الشماخ يصف قوساً: [الطويل]

فَذَاقَ فَأَعْطَتْهُ مِنَ اللِّينِ جَانِباً كَفى وَلَهاً أَنْ يُغْرِقَ السَّهْمَ حَاجِزُ

وقد يعبر بالذوق عما يطرأ على النفس، وإن لم يكن مطعوماً؛ لإحساسها به كإحساسها بذوق المطعوم. قال عمر بن أبي ربيعة المخزومي: [الطويل]

فَذُقْ هجْرَهَا إنْ كُنْتَ تزعمُ أنَّهَا فَسَادٌ ألا يَا رُبَّمَا كذبَ الزَّعْمُ

وتقول: ذقت ما عند فلان؛ أي: خبرته، وذقت القوس: إذا جذبت وترها؛ لتنظر ما شدتها؟ وأذاقه الله وبال أمره؛ أي: عقوبة كفره، ومعاصيه. قال طفيل بن سعد الغنوي: [الطويل]

فَذُوقُوا كَمَا ذُقْنَا غَدَاةَ مُحَجَّرٍ مِنَ الْغَيْظِ فِي أَكْبَادِنَا وَالتَّحَوُّبِ

وتذوقته؛ أي: ذقته شيئاً، فشيئاً، وأمر مستذاق؛ أي: مجرب معلوم. قال الشاعر: [الوافر]

وَعَهْدُ الْغَانِيَاتِ كَعَهْدِ قَيْنٍ وَنَتْ عِنْدَ الْجَعَائِلِ مُسْتَذَاقِ

وأصله: الذوق في الفم، و﴿ذُوقُواْ﴾ في كثير من الآيات للإهانة. وفيه استعارة تبعية تخييلية. وذكر العذاب في كثير من الآيات استعارة مكنية؛ حيث شبه العذاب بشيء يدرك بحاسة الأكل، وشبه الذوق بصورة ما يذاق، وأثبت للذوق تَخْييلاً.

الإعراب: ﴿إِنَّهُمْ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ماض ناقص مبني على الضم، والواو اسمه، والألف للتفريق. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَرْجُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله. ﴿حِسَابًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية تعليل للعذاب المذكور. ﴿وَكَذَّبُواْ﴾: الواو: حرف عطف. (كذبوا): فعل ماض، وفاعله، والألف للتفريق. ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، و(نا): في محل جر بالإضافة. ﴿كِذَّابًا﴾: مفعول مطلق، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل رفع مثلها. ﴿وَكُلَّ﴾: الواو: حرف عطف. (كل): مفعول به لفعل محذوف يفسره المذكور بعده، وهو ما يسمى بالنصب على الاشتغال، والآية مثل قوله تعالى في سورة (الإسراء) رقم [١٢]: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾، ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ﴾. هذا؛ وقرئ برفع (كل) على أنه مبتدأ، و(كل) مضاف، و﴿شَيْءٍ﴾ مضاف إليه. ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة مفسرة

للجملة المحذوفة على نصب (كل)، وفي محل رفع خبره على رفعه، وعلى الاعتبارين فالجملة معترضة بين السبب، ومسببه، فإن قوله: ﴿فَذُوقُوا...﴾ إلخ مسبب عن تكذيبهم. ﴿كِتَٰبًا﴾: فيه أوجه: أحدها: أنه مفعول مطلق عامله: ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾؛ لأنه من معناه؛ إذ التقدير: أحصيناه إحصاءً. والثاني: أنه مفعول مطلق لـ: (أحصينا)؛ لأنه في معنى كتبنا كتاباً، فالتجوز في نفس الفعل. قال الزمخشري: لالتقاء الإحصاء والكتب في معنى الضبط، والتحصيل. الثالث: أنه منصوب على الحال؛ لأنه بمعنى: مكتوباً في اللوح، وفي صحف الحفظة. انتهى جمل نقلاً عن السمين. هذا؛ وأرى جواز اعتباره في محل نصب بنزع الخافض، التقدير: أحصيناه في كتاب، ولعلك تدرك معي: أن هذا أولى بالاعتبار.

﴿فَذُوقُوا﴾: الفاء: حرف عطف على رأي: من يجيز عطف الإنشاء على الخبر، وابن هشام يعتبرها للسببية المحضة، وأراها هنا الفصيحة؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر، كما ستراه في التقدير. (ذوقوا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والمفعول محذوف للتعميم، والاختصار، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جواب لشرط غير جازم؛ إذ التقدير، وإذا كان ذلك حاصلاً منهم، وواقعاً فيقال لهم: ذوقوا؛ مع ملاحظة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب. والشرط المقدر، ومدخوله كلام معطوف على ما قبله لا محل له مثله. ﴿فَلَن﴾: الفاء: حرف تعليل. (لن): حرف نفي، ونصب، واستقبال. ﴿نَّزِيدَكُمْ﴾: فعل مضارع منصوب بـ: (لن)، والفاعل مستتر، تقديره: «نحن»، والكاف مفعوله الأول. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿عَذَابًا﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية تعليل للأمر، لا محل لها.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾: فوزاً، وظفراً بالبغية، والمراد. وقيل: موضع فوز، ونجاة، وخلاص مما فيه أهل النار، ولذلك قيل للفلاة؛ إذا قل ماؤها: مفازة تفاؤلاً بالخلاص منها، ويحتمل أن يفسر الفوز بالأمرين جميعاً؛ لأنهم فازوا بمعنى: نجوا من العذاب، وفازوا بما حصل لهم من النعيم. ﴿حَدَآئِقَ﴾ أي: بساتين، فيها جميع أنواع الشجر المثمر، جمع: حديقة. ﴿وَأَعْنَٰبًا﴾: جمع: عنب، والمراد: الكروم؛ التي فيها العنب. ﴿وَكَوَاعِبَ﴾: جمع: كاعِب، وهي الأنثى التي استدار ثديها مع ارتفاع يسير، فصار كالكعب، وهو يكون في سن البلوغ، وكل شيء مرتفع مدور، أو مربع، يقال له: كعب، وسميت الكعبة في المسجد الحرام كعبة؛ لارتفاعها مع التربيع. والعرب تسمي كل بيت مرتفع: كعبة، والأولى أن تقول: سميت لارتفاع قدرها، وسمو مكانتها. هذا؛ و﴿وَكَوَاعِبَ﴾ لم يذكر في غير هذه السورة. هذا؛ ولم يذكر أحد من المفسرين نوع

هذه الكواعب: أهي من نساء الدنيا؟ أم هي من الحور العين؟ سوى ما نقله القرطبي عن الضحاك قوله: كواعب العذارى، ثم قال: ومنه قول قيس بن عاصم المنقري: [الطويل]

وَكَمْ مِنْ حَصَانٍ قَدْ حَوَيْنَا كَرِيمَةٍ وَمِنْ كَاعِبٍ لَمْ تَدْرِ مَا الْبُؤْسُ مُعْصِرِ؟

أقول: والله أعلم: أنهن من الحور العين؛ اللاتي يخلقهن الله في الجنة بدليل قوله تعالى في سورة (الواقعة): ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ ومعنى ﴿أَتْرَابًا﴾ متساويات في السن، والشباب، بنات ثلاث وثلاثين سنة، واشتقاقه من التراب، فإنه يمسهن في وقت واحد. وقيل: متآخيات، لا يتباغضن، ولا يتغايرن، ولا يتحاسدْن، ومثلهن أزواجهن في السن؛ لأن التحاب بين الأقران أثبت، وكانت العرب تميل إلى من جاوزت حدَّ الصبا، وانحطت عن الكبر. هذا؛ ويقال في النساء: أتراب، وفي الرجال: أقران. هذا؛ وأتراب جمع: ترب بكسر التاء، وسكون الراء، كحمل، وأحمال، وهو المساوي لك في العمر. قال الشاعر ـ وهو الشاهد رقم [١٣٩] من كتابنا: «فتح رب البرية» ـ: [البسيط]

لَوْلَا تَوَقُّعُ مُعْتَرٍّ فَأُرْضِيَهُ مَا كُنْتُ أُوثِرُ أَتْرَاباً عَلَى تِرْبِ

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾: قال الحسن، وقتادة، وابن زيد، وابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ: مترعة، مملوءة، يقال: أدهقت الكأس؛ أي: ملأتها، وكأس دهاق؛ أي: ممتلئة. قال خداش بن زهير: [الوافر]

أَتَانَا عَامِرٌ يَبْغِي قِرَانَا فَأَتْرَعْنَا لَهُ كَأْساً دِهَاقَا

وقال سعيد بن جبير، وعكرمة، ومجاهد، وابن عباس أيضاً: متتابعة، يتبع بعضها بعضاً. ومنه: ادَّهَقَتِ الحجارة ادِّهاقاً، وهو شدة تلازبها، ودخول بعضها في بعض، فالمتتابع، كالمتداخل، وعن عكرمة أيضاً، وزيد بن أسلم: صافية. قال الشاعر: [الوافر]

لأَنْتَ إِلَى الْفُؤَادِ أَحَبُّ قُرْباً مِنَ الصَّادِي إِلَى كَأْسٍ دِهَاقِ

هذا؛ والمراد بالكأس: الخمرة الموجودة فيها، انظر الآية رقم [٥] من سورة الدهر، ولم يذكر دهاق في غير هذه السورة. ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة. ﴿لَغْوًا﴾: اللغو: الباطل، وهو ما يُلغى من الكلام، ويطرح. وقيل: هو القبيح من القول، والمعنى: ليس فيها لغو، فيسمع. ﴿وَلَا كِذَّٰبًا﴾: لا يُكذِّب بعضهم بعضاً، ولا يسمعون كذباً. هذا؛ وقد قال تعالى في سورة (الواقعة): ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾.

﴿جَزَآءً﴾: مجازاة، ومكافأة للمتقين. ﴿مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً﴾: تكرماً، وتفضلاً من ربك بمقتضى وعده، ولكن لا يجب عليه شيء. وتوضيح هذا: أن ذلك تفضل، وعطاء في نفس الأمر، وجزاء مبني على الاستحقاق من حيث إنه تعالى وعده لأهل الطاعة. ﴿حِسَابًا﴾: كافياً، وفي القاموس:

وحسبك درهم: كفاك، وشيء حساب: كافٍ، ومنه: ﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾، وأحسبه: أرضاه. وقال قتادة: حساباً؛ أي: كثيراً، يقال: أحسبت فلاناً؛ أي: كثّرت له العطاء؛ حتى قال: حسبي. وقالت امرأة من قشير: [الطويل]

وَنُقْفِي وَلِيدَ الْحَيِّ إِنْ كَانَ جَائِعاً ونحسِبُهُ إِنْ كانَ لَيْسَ بِجَائِعِ

المعنى: نقفي وليد الحي؛ أي: نؤثره بالقفية، وهي ما يؤثر به الضيف، والصبي. هذا؛ ومن الأول قوله تعالى في سورة (الأنفال) رقم [٦٤]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: كافيك الله، ومثلها في (آل عمران) رقم [١٧٣]، وفي سورة (المائدة) رقم [١٠٤] وغير ذلك كثير. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

تنبيه: بعد أن ذكر الله حال الكفار في الآيات السابقة، وما أعد لهم من العقاب الشديد، والعذاب الأليم، ذكر حال المؤمنين في هذه الآيات، وما أعد لهم من النعيم المقيم في جنات النعيم، وذلك من باب المقابلة، وتلك سنة اقتضتها حكمة العليم الخبير، ورحمته في كتابه حيث لم يذكر التكذيب من الكافرين، والمنافقين؛ إلا ويذكر التصديق من المؤمنين. ولا يذكر الإيمان؛ إلا ويذكر الكفر، ولا يذكر الجنة، ونعيمها؛ إلا ويذكر النار وجحيمها، ولا يذكر الرحمة؛ إلا ويذكر الغضب، والسخط؛ ليكون المؤمن راغباً، راهباً، خائفاً، راجياً.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ﴿إِنَّ﴾ تقدم على اسمها. ﴿مَفَازًا﴾: اسمها المؤخر. ﴿حَدَآئِقَ﴾: بدل من: ﴿مَفَازًا﴾ أو عطف بيان عليه. ﴿وَأَعۡنَٰبًا﴾: معطوف عليه. ﴿وَكَوَاعِبَ﴾: معطوف عليه أيضاً. ﴿أَتۡرَابًا﴾: صفة (كواعب). ﴿وَكَأۡسًا دِهَاقًا﴾: معطوفان على ما قبلهما، وهما: موصوف، وصفته. ﴿لَّا﴾: نافية. ﴿يَسۡمَعُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿لَغۡوًا﴾: مفعول به. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية مؤكدة للنفي قبلها. ﴿كِذَّٰبًا﴾: معطوف على ما قبله، والجملة الفعلية في محل نصب حال من الضمير المستتر في خبر ﴿إِنَّ﴾ المحذوف المقدر. وقيل: حال من (المتقين). والأول أقوى. ﴿جَزَآءً﴾: مفعول مطلق، عامله محذوف، التقدير: جوزوا جزاءً، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها، أو هي في محل نصب حال من واو الجماعة، وهي تحتاج إلى تقدير «قد» قبلها. ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾: متعلقان بـ: ﴿جَزَآءً﴾، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿عَطَآءً﴾: بدل من ﴿جَزَآءً﴾ بدل كل من كل. ﴿حِسَابًا﴾: صفة ﴿عَطَآءً﴾.

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابًا ٣٧﴾

الشرح: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾: مالكهما، ومدبِّر شؤونهما، ومبدعهما على غير مثال سبق، ومتصرف فيهما تصرف الملاك، فإن وجودهما، وانتظامهما على هذا النمط البديع الصنع

من أوضح الأدلة على وجود الله، ووحدانيته، واستقلاله بملكهما، وتصرفهما. هذا؛ ولم يقل بينهن، مع أن السموات سبع، والأرضين سبع؛ لأنه أراد ما بين الصنفين، أو النوعين، أو الشيئين، كقول القطامي: [الوافر]

أَلَـمْ يَـحْـزُنْـكَ أَنَّ حِـبـالَ قَـيْـسٍ وَتَـغْـلِـبَ قـدْ تَـبَـايَـنَـتَـا انْـقِـطَـاعـا

أراد: وحبال تغلب، فثنى، والحبال جمع، فثناهما؛ لأنه أراد الشيئين، أو النوعين، أو ثناهما على تأويلهما بالجماعة. قال الشاعر يذم عاملاً على الصدقات: [البسيط]

سَعَـى عِـقَـالاً فَـلَـمْ يَـتْـرُكْ لَـنَـا سَـبَـداً فَـكَـيْـفَ لَـوْ قَـدْ سَعَـىٰ عَـمْـرٌو عِـقَـالَـيْـنِ؟

لأَصْـبَـحَ الـنَّـاسُ أَوْبَـاداً وَلَـمْ يَـجِـدُوا عِـنْـدَ الـتَّـفَـرُّقِ فـي الْـهَـيْـجَـا جِـمَـالَـيْـنِ

فقد ثنى جمالاً؛ الذي هو جمع جمل. والعقال: صدقة عام، والسَّبَد: المال القليل. واللبد: المال الكثير. وأوباداً: هلكى، جمع: وَبْد، فهو يقول: صار عمرو عاملاً على الصدقات في سنة واحدة، فظلم، وأخذ أموال الناس بغير حق؛ حتى لم يبق لنا إلا شيء قليل من المال، فكيف تكون حالنا، أو كيف يبقى لأحد شيء لو صار عمرو عاملاً في زكاة عامين؟! ثم أقسم فقال: والله لو صار عمرو عاملاً سنتين؛ لصارت القبيلة هلكى! فلا يكون لهم عند التفرق في الحرب جمالان، فيختل أمر الغزوات.

﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ أي: لا يملكون أن يسألوه إلا فيما أذن لهم فيه. وقيل: الخطاب: الكلام؛ أي: لا يملكون أن يخاطبوا الرب سبحانه إلا بإذنه، دليله قوله تعالى في سورة (هود) على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ وقيل: أراد الكفار ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ أي: شفاعة، فأما المؤمنون فيشفعون، ولكن لا يكون هذا إلا بعد أن يؤذن لهم، تحقيقاً لقوله تعالى في آية الكرسي رقم [٢٥٤] من سورة (البقرة): ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، وقوله تعالى في سورة (طه) رقم ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾.

الإعراب: ﴿رَّبِّ﴾: بدل من ﴿رَّبِّكَ﴾، وهو مضاف، و﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مضاف إليه، من إضافة اسم الفاعل إلى مفعوله، وفاعله مستتر فيه: ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: الواو: حرف عطف. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ما قبله. (ما): اسم موصول مبني على السكون في محل جر معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. ﴿بَيْنَهُمَا﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة الموصول، والهاء في محل جر بالإضافة، والميم، والألف حرفان دالان على التثنية. ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾: بدل من (رب) الأول، أو من الثاني. ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَمْلِكُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع. . .إلخ، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب حال من المضاف المحذوف؛ إذ التقدير: أهل السموات، والأرض. والرابط:

الضمير فقط. ﴿مِنْهُ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وأجيز اعتبار (من) بمعنى اللام، فتتعلق بـ: ﴿خِطَابًا﴾ بعدهما، فيكون التقدير: لا يملكون خطاباً له. ﴿خِطَابًا﴾: مفعول به، وهذا الإعراب إنما هو على قراءة حفص، وخذ ما يلي:

فقد قرئ برفع: (ربُّ) و(الرحمن) وفي إعرابهما وجهان: الوجه الأول: اعتبار (ربُّ) مبتدأ، و(الرحمنُ) خبراً له، والوجه الثاني: اعتبار: (ربُّ) خبراً لمبتدأ محذوف، و(الرحمنُ) بدلاً منه. كما قرئ بجر: (رب) وإعرابه كما ذكرت، ورفع (الرحمنُ) وفي إعرابه وجهان: الوجه الأول اعتباره مبتدأ، والجملة الفعلية بعده خبره، والرابط الضمير المجرور بـ: (مِنْ)، وعليه فالجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها. والوجه الثاني: اعتبار (الرحمن) خبراً لمبتدأ محذوف، التقدير: هو الرحمن، والجملة الاسمية مستأنفة. والجملة الفعلية تحتمل وجهين: الاستئناف، والحالية من (الرحمنُ). كما قرئ برفع: (ربُّ) على اعتباره خبراً لمبتدأ محذوف، وخفض: (الرحمن) على اعتباره بدلاً، أو نعتاً لـ: ﴿رَّبِّكَ﴾ وعليه تكون الجملة الاسمية معترضة بين البدل، والمبدل منه، أو بين النعت، ومنعوته.

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾

الشرح: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾: المراد باليوم يوم القيامة بلا شك، واختلف في الروح على أقوال كثيرة. قيل: هو جبريل عليه السلام. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الروح ملك من الملائكة ما خلق الله مخلوقاً أعظم منه، فإذا كان يوم القيامة قام وحده صفاً، وقامت الملائكة كلهم صفاً واحداً، فيكون من عظم خلقه مثلهم. وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: الروح ملك عظيم أعظم من السموات، والأرض، والجبال، وهو في السماء الرابعة، يسبح الله كل يوم اثني عشر ألف تسبيحة، يخلق الله من كل تسبيحة ملكاً يجيء يوم القيامة صفاً وحده. وقيل: الروح خلق على صورة بني آدم، وليسوا بناسٍ، يقومون صفاً، والملائكة صفاً، هؤلاء جند وهؤلاء جند. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الروح خلق على صورة بني آدم، وما ينزل من السماء ملك، إلا ومعه واحد منهم. وعنه: أنهم بنو آدم، يقومون صفاً، والملائكة صفاً. وقيل: سماطان. سماط من الروح، وسماط من الملائكة. انتهى. خازن. وفي القرطبي أطول منه، وفي الكشاف أخصر منه.

والأظهر: أن المراد بالروح هنا: جبريل، عليه الصلاة والسلام، كما قال سعيد بن جبير، والضحاك، ويؤيده قوله تعالى في سورة (الشعراء): ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ وانظر مثله في سورة (القدر)، وعلى هذا؛ فالروح من جملة الملائكة، فيكون قد ذكر

مرتين: مرةً استقلالاً، ومرةً مع الملائكة، تنبيهاً على جلالة قدره، ومكانته عند ربه، مع ملاحظة ذكره هنا قبل الملائكة، وفي سورة (القدر) بعد الملائكة، فالأول هو من ذكر الخاص قبل العام، وفي سورة (القدر) من ذكر الخاص بعد العام، وانظر ما ذكرته في سورة (المعارج) رقم [٤] ففيها كبير فائدة.

﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ يعني: الخلق كلهم إجلالاً لعظمة الله تعالى جل جلاله، وتبارك شأنه وعطاؤه، ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي: في الكلام. وقيل: في الشفاعة؛ أي: تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ الآية رقم [٢٨] من سورة (الأنبياء)، وكما ثبت في الصحيح من قول النبي ﷺ: «**وَلَا يَتَكَلَّمُ يومئذٍ إلا الرسل**». قال البيضاوي: ـ رحمه الله تعالى ـ: هذه الآية تقرير، وتوكيد لقوله في الآية السابقة ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ فإن هؤلاء الذين هم أفضل الخلائق، وأقربهم من الله تعالى، إذا لم يقدروا أن يتكلموا بما يكون صواباً كالشفاعة لمن ارتضى إلا بإذنه؛ فكيف يملكه غيرهم؟! ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي: في الكلام، أو في الشفاعة. ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ أي: حقاً، ومن القول الصواب، والحق قول: (لا إله إلا الله) إن عمل بمقتضاها، كما ذكرته مراراً، وتكراراً. هذا؛ وقيل: الاستثناء يرجع إلى الروح والملائكة، فيكون المعنى: لا يشفعون إلا في شخص أذن الرحمن في الشفاعة له، وذلك الشخص ممن كان يقول صواباً في الدنيا، وهو (لا إله إلّا الله) مع الإخلاص بها، وإخلاصها: أن تحجزه عن محارم الله تعالى، كما ورد من قول النبي ﷺ:

«**مَنْ قالَ: لا إلهَ إلا اللهُ مخلصاً دخل الجنةَ**». قيل: وما إخلاصها؟ قال: «**أنْ تَحجُزَهُ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ**». وفي روايةٍ: «**أن تحجُزَهُ عَمَّا حَرمَ اللهُ عَلَيْهِ**». رواه الطبراني في الكبير، والأوسط عن زيد بن أرقم ـ رضي الله عنه ـ. هذا؛ وأصل الصواب: السداد في القول، والفعل، وهو من: أصاب، يصيب إصابة، كالجواب من: أجاب، يجيب إجابة.

الإعراب: ﴿يَوْمَ﴾: ظرف زمان متعلق بـ: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾، وأجاز الزمخشري تعليقه بـ: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾، وأجاز أبو البقاء تعليقه بـ: ﴿خِطَابًا﴾، والمعتمد الأول. وجملة: ﴿يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ في محل جر بإضافة ﴿يَوْمَ﴾ إليها. ﴿صَفًّا﴾: حال من: ﴿ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، وجاز ذلك؛ لأنه مصدر يؤول بـ: مُصْطَفِّين. ﴿لَّا﴾: نافية. ﴿يَتَكَلَّمُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع... إلخ، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب حال من: ﴿ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، فهي حال متعددة، أو من الضمير المستتر بـ: مُصْطَفِّين، فتكون حالاً متداخلة، وإن اعتبرتها مستأنفة؛ فلا محل لها. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، أو أداة حصر. ﴿مَنْ﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب على الاستثناء من واو الجماعة، أو في محل رفع بدلاً من الواو. وهو أقوى؛ لأن الكلام تام منفي. وهو اختيار ابن مالك في ألفيته. وجملة: ﴿أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ صلة الموصول، لا محل لها،

والعائد الضمير المجرور محلاً باللام. ﴿وَقَالَ﴾: الواو: حرف عطف. (قال): فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿مَنْ﴾. ﴿صَوَابًا﴾: صفة مفعول مطلق محذوف، التقدير: وقال قولاً صواباً، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾﴾

الشرح: ﴿ذَٰلِكَ﴾: الإشارة إلى اليوم الذي يقوم فيه الروح والملائكة صفّاً. ﴿ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الكائن الواقع لا محالة، ولا شك، ولا ريب فيه. ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ أي: فمن شاء أن يسلك إلى ربه مرجعاً كريماً بالإيمان، والعمل الصالح؛ فليفعل، وهو حثٌّ، وترغيب في العمل الصالح، والتزوُّد من هذه الدنيا الفانية. وفي سورة (الدهر) رقم [٢٩]، وفي سورة (المزمل) رقم [١٩]: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾.

هذا؛ والحق ضد الباطل. قال الراغب: أصل الحق: المطابقة، والموافقة، كمطابقة رجل الباب في حُقِّه لدورانه على الاستقامة. والحق يقال لموجد الشيء بحسب ما تقتضيه الحكمة، ولذلك قيل في الله تعالى: هو الحق. وللموجود بحسب مقتضى الحكمة، ولذلك يقال: فعل الله كله حق، نحو: الموت حق، والحساب حق. . . إلخ. وللاعتقاد في الشيء المطابق لما عليه ذلك الشيء في نفسه، نحو: اعتقاد زيد في الجنة حق. وللفعل، والقول الواقعين بحسب ما يجب، وقدر ما يجب، في الوقت الذي يجب، نحو: قولك حق، وفعلك حق. ويقال: أحققت ذا؛ أي: أثبته حقاً، أو حكمت بكونه حقاً. انتهى بغدادي.

هذا؛ والرب يطلق، ويراد به المالك، والسيد، ومنه قوله تعالى حكاية عن قول يوسف ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، وقوله أيضاً: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا...﴾ إلخ. وقال الأعشى: [الكامل]

رَبِّـي كَـرِيـمٌ لا يُـكَـدِّرُ نِـعْـمَـةً ... وَإِذَا تُـنُـوشِـدَ فـي الـمَـهَـارِقِ أَنْـشَـدا

كما يقال: رب الدار، ورب الأسرة؛ أي: مالكهما، ومتولي شؤونهما. كما يراد به المربي، والمصلح، يقال: ربَّ فلان الضيعة يَرُبُّها: إذا أصلحها، والله سبحانه وتعالى مالك العالمين، ومربيهم، وموصلهم إلى كمالهم شيئاً، فشيئاً بجعل النطفة علقةً، ثم بجعل العلقة مضغةً، ثم بجعل المضغة عظاماً، ثم يكسو العظام لحماً، ثم يصوره، ويجعل فيه الروح، ثم يخرجه خلقاً آخر؛ وهو صغير ضعيف. فلا يزال ينميه، وينشيه؛ حتى يجعله رجلاً، أو امرأةً كاملين. هذا؛ ولا يطلق لفظ الرب على غير الله تعالى إلا مقيداً بالإضافة، مثل قولك: رب الدار، ورب الناقة، ونحو ذلك، والمراد: المعبود بحق. وهو المراد منه تعالى عند الإطلاق، ولا يجمع إذا كان بهذا المعنى، ويجمع إذا كان معبوداً بالباطل. قال تعالى حكاية عن قول

يوسف ـ عليه السلام ـ لصاحبي السجن: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ كما يجمع؛ إذا كان بأحد المعاني السابقة. قال الشاعر: [الطويل]

هَنِيئاً لأَرْبَابِ الْبُيُوتِ بُيُوتُهُمْ وَلِلآكِلِينَ التَّمْرَ مَخْمَسَ مَخْمَسَا

وهو اسم فاعل بجميع معانيه السابقة، أصله: رابب، ثم خفف بحذف الألف، وإدخال أحد المثلين في الآخر.

الإعراب: ﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿ٱلْيَوْمُ﴾: خبره. ﴿ٱلْحَقُّ﴾: صفته، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها. ﴿فَمَن﴾: الفاء: هي الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر، وإذا كان الأمر كما ذكر من تحقق اليوم المذكور لا محالة فمن شاء أن يتخذ مرجعاً إلى ثواب ربه؛ الذي ذكر شأنه العظيم؛ فعل ذلك بالإيمان، والطاعة. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿شَآءَ﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، والفاعل يعود إلى من، والمفعول محذوف، التقدير: فمن شاء النجاة. ﴿ٱتَّخَذَ﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم جواب الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ) أيضاً. ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾: متعلقان بـ: ﴿مَـَٔابًا﴾ بعدهما، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. هذا؛ وإن علقت الجار، والمجرور بمحذوف حال من ﴿مَـَٔابًا﴾ فلست مفنداً. ﴿مَـَٔابًا﴾: مفعول به، وجملة: ﴿ٱتَّخَذَ...﴾ إلخ لا محل لها؛ لأنها جملة جواب الشرط، ولم تقترن بالفاء، ولا بإذا الفجائية، وخبر المبتدأ الذي هو (من) مختلف فيه، كما ذكرته لك مراراً، والمرجح: أنه جملة الشرط، والجواب، وهذه الجملة مذكورة في سورة (المزمل) برقم [١٩]. والجملة الشرطية لا محل لها؛ لأنها جواب لشرط غير جازم يقدر بـ: «إذا»، والكلام كله معطوف على الجملة الاسمية قبله، لا محل له مثلها.

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ﴾: الخطاب لكفار قريش، ويعم جميع بني آدم، والمعنى: حذرناكم، وخوفناكم، ونحذركم، ونخوفكم. ﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾ يعني: عذاب الآخرة قريب لتحققه، وكل ما هو آتٍ قريب، وأوله نزول الموت؛ لأن من مات؛ فقد قامت قيامته، فإن كان من أهل الجنة؛ نزلت عليه ملائكة الرحمة، تزف له البشرى بالجنة، والرضا، والرضوان، وإن كان من أهل النار؛ نزلت عليه ملائكة العذاب، تبشره بالنار، وغضب العزيز الجبار. ﴿يَوْمَ يَنظُرُ

﴿ٱلْمَرْءُ﴾: كل امرئ مسلماً كان، أو كافراً، ذكراً كان، أو أنثى. وهذا العموم يؤخذ من أل الاستغراقية، والمعنى: يرى كل ما قدمه مثبتاً في صحيفته خيراً كان، أو شراً. ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾: من الشر، لقوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ سورة (آل عمران) ومثلها في (الأنفال) رقم [٥١]، وأيضاً في (الحج) رقم [١٠] وتخصيص الأيدي بالذكر؛ لأن أكثر الأعمال تقع بها، وإن احتمل ألّا يكون للأيدي مدخل فيما ارتكب من الآثام، كالعين، والأذن، والرجل، وغير ذلك من الجوارح الباطنة، وهذا ظاهر لا خفاء فيه.

ويقول الكافر: ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبَا﴾: قال عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ:

إذا كان يوم القيامة؛ مدت الأرض مَدّ الأديم، وحشر الدواب، والبهائم، والوحوش، ثم يجعل القصاص بين البهائم، حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء نطحتها، فإذا فرغ من القصاص بينها. قيل لها: كوني تراباً، فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبَا﴾. وقيل: يقول الله عز وجل للبهائم بعد القصاص: إنا خلقناكم، وسخرناكم لبني آدم، وكنتم مطيعين لهم أيام حياتكم، فارجعوا إلى ما كنتم عليه، كونوا تراباً، فإذا رأى الكافر ذلك تمنى. وقال: يا ليتني كنت في الدنيا في صورة بعض هذه البهائم، وكنت اليوم تراباً! وقيل: إذا قضى الله بين الناس، وأُمر بأهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار. وقيل لسائر المخلوقات سوى الناس، والجن: عودوا تراباً، فيعودون تراباً، فحينئذ يقول الكافر: ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبَا﴾.

هذا؛ وقد بينت لك في سورة (الأحقاف) رقم [٢٩] وما بعدها، وفي أول سورة (الجن) أن الجن مكلفون بالتكاليف الشرعية، ويثابون، ويعاقبون، فالمؤمن يدخل الجنة، والكافر يدخل النار، كبني آدم، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

هذا؛ وأصل كُنْتُ: كَوَنْتُ، فقل في إعلاله: تحركت الواو، وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً، فصار: (كَانْتُ) فالتقى ساكنان: الألف وسكون النون، فحذفت الألف لالتقاء الساكنين، فصار: (كَنْتُ) بفتح الكاف، ثم أبدلت الفتحة ضمة لتدل على الواو المحذوفة، فصار: كُنْتُ. وهناك إعلال آخر، وهو أن تقول: أصل الفعل: كَوَن، فلما اتصل بضمير رفع متحرك نقل إلى باب فَعُل، فصار: (كَوُنْتُ) ثم نقلت حركة الواو إلى الكاف قبلها، فصار: (كُوْنتُ) فالتقى ساكنان: العين المعتلة ولام الفعل، فحذفت العين، وهي الواو لالتقاء الساكنين، فصار (كُنْتُ) وهكذا قل في إعلال كل فعل أجوف واوي مسند إلى ضمير رفع متحرك، مثل: قام، وقال، ونحوهما.

الإعراب: ﴿إِنَّآ﴾: حرف مشبه بالفعل. و(نا): اسمها، حذفت نونها، وبقيت الألف دليلاً عليها. ﴿أَنذَرْنَٰكُمْ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول أول. ﴿عَذَابًا﴾: مفعول به ثان. ﴿قَرِيبًا﴾: صفة عذاباً، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها. ﴿يَوْمَ﴾: ظرف زمان متعلق بـ: ﴿عَذَابًا﴾. وقال أبو البقاء: صفة لـ: (قريب)، ولا وجه له، ولو

قال: متعلق به؛ لكان أحسن. ﴿يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ﴾: مضارع وفاعله، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿يَوْمَ﴾ إليها. ﴿مَا﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿قَدَّمَتْ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث. ﴿يَدَاهُ﴾: فاعل مرفوع، وعلامة رفعه الألف؛ لأنه مثنى، وحذفت النون للإضافة، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها، والعائد محذوف، التقدير: الذي قدمته يداه. هذا؛ وأجيز اعتبار (ما) استفهامية في محل نصب مفعول به مقدم، التقدير: أيُّ شيء قدمت يداه، وعليه فالجملة الفعلية في محل نصب مفعول به لـ: ﴿يَنظُرُ﴾، ويكون قد علق بـ: (ما) عن العمل لفظاً، لا محلاً.

﴿وَيَقُولُ﴾: الواو: حرف عطف. (يقول): مضارع. ﴿ٱلْكَافِرُ﴾: فاعله. (يا): حرف تنبيه. وقيل: أداة نداء، والمنادى محذوف، وهو ضعيف. (ليتني): حرف مشبه بالفعل، والنون للوقاية، وياء المتكلم اسمها. ﴿كُنتُ﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون، والتاء اسمها. ﴿تُرَابًا﴾: خبر (كان)، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (ليت)، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿وَيَقُولُ...﴾ إلخ معطوفة على جملة: ﴿يَنظُرُ...﴾ إلخ فهي في محل جر مثلها. تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه، وسلم.

انتهت سورة (النبأ) بعون الله وتوفيقه، شرحاً وإعراباً.

والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة (النازعات)، وهي مكية بالإجماع، وهي خمس، أو ست وأربعون آيةً، ومئة وسبع وتسعون كلمةً، وسبعمائة وثلاثة وخمسون حرفاً.

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥)﴾

الشرح: قال الخازن ـ رحمه الله تعالى ـ: اختلفت عبارات المفسرين في هذه الكلمات: هل هي صفات لشيء واحد، أم لأشياء مختلفة على أوجه؟ واتفقوا على أن المراد بقوله تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ وصف لشيء واحد، وهم الملائكة.

الوجه الأول في قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ يعني: الملائكة تنزع أرواحَ الكفار من أقاصي أجسامهم، كما يغرق النازع في القوس، فيبلغ بها غاية المدى، والغرق من: الإغراق؛ أي: والنازعات إغراقاً. وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: إن ملك الموت، وأعوانه، ينزعون روح الكافر، كما ينزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبتل، فتخرج روح الكافر كالغريق في الماء. ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ الملائكة تنشط نفس المؤمن؛ أي: تسلها سلاً رفيقاً، فتقبضها كما يُنشط العقال من يد البعير. وإنما خص النزع بنفس الكافر، والنشط بنفس المؤمن؛ لأن بينهما فرقاً، فالنزع: جذب بشدة، والنشط: جذب برفق. ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ يعني: الملائكة، يقبضون أرواح المؤمنين، يسلونها سلاً رفيقاً، ثم يدعونها حتى تستريح، ثم يستخرجونها كالسابح في الماء، يتحرك فيه برفق، ولطافة. وقيل: هم الملائكة ينزلون من السماء مسرعين، كالفرس الجواد إذا أسرع في جريه؛ يقال له: سابح. ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ يعني: الملائكة، سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح. وقيل: هم الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة.

الوجه الثاني في قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ يعني: النفوس حين تنزع من الجسد، فتغرق في الصدر، ثم تخرج. ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هي نفوس المؤمنين تنشط للخروج عند الموت لما ترى من الكرامة، وذلك؛ لأنه يعرض عليه مقعده قبل

الموت في الجنة. قال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: هي أرواح الكفار تنشط بين الجلد، والأظفار؛ حتى تخرج من أفواههم بالكرب، والغم. ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ يعني: أرواح المؤمنين تسبح في المكرمات. ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ يعني: استباقها إلى الحضرة المقدسة.

الوجه الثالث في قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ يعني: النجوم تنزع من أفق إلى أفق، تطلع، ثم تغيب، كالثور الناشط من بلد إلى بلد، والهموم تنشط بصاحبها. قال هميان بن قحافة: [الرجز]

أَمْسَتْ هُمُومِي تَنْشِطُ الْمَنَاشِطَا ... الشَّامَ بِي طَوْراً وطَوْراً وَاسِطَا

﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ يعني: النجوم، والشمس، والقمر، يسبحون في الفلك. ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ يعني: النجوم، يسبق بعضها بعضاً في السير.

الوجه الرابع في قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ يعني: خيل الغزاة، تنزع في أعنتها، وتغرق في عرقها، وهي (الناشطات نشطاً)؛ لأنها تخرج بسرعة إلى ميدانها، وهي: (السابحات سبحاً) و(السابقات سبقاً)؛ لأنها تسبح في جريها، وتسابق لإدراك الغاية. قال عنترة: [مجزوء الكامل]

وَالْخَيْلُ تَعْلَمُ حِينَ تَسْـ ... ـبَحُ فِي حِيَاضِ الْمَوْتِ سَبْحَا

وقال امرؤ القيس في معلقته رقم [٦٧]: [الطويل]

مِسَحٌّ إِذَا مَا السَّابِحَاتُ عَلَى الْوَنَى ... أَثَرْنَ غُبَاراً بِالْكَدِيدِ الْمُرَكَّلِ

الوجه الخامس في قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ يعني: الغزاة حين تنزع قسيها في الرمي. فتبلغ غاية المد، وهو قوله: ﴿غَرْقًا﴾. ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ أي: السهام في الرمي ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝٣ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ يعني: الخيل، والإبل حين يخرجها أصحابها إلى الغزو.

الوجه السادس: ليس المراد بهذه الكلمات شيئاً واحداً، فقوله: ﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾ يعني: ملك الموت ينزع النفوس غرقاً حتى بلغ بها الغاية. ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ يعني: النفس تنشط من القدمين، بمعنى: تجذب. ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ يعني السفن. ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ يعني: مسابقة نفوس المؤمنين إلى الخيرات، والطاعات. أما قوله تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ فأجمعوا على أنهم الملائكة.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هم الملائكة، وكلوا بأمور عرفهم الله عز وجل العمل بها. وقال عبد الرحمن بن سابط: يدبر الأمر في الدنيا أربعة أملاك: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل. فأما جبريل، عليه الصلاة، والسلام؛ فموكل بالرياح، والجنود (ومهمته الأولى السفارة بين الله وبين رسله). وأما ميكائيل، عليه الصلاة، والسلام؛ فموكل بالقطر، والنبات. وأما ملك الموت عزرائيل، عليه الصلاة، والسلام؛ فموكل بقبض الأرواح، وأما إسرافيل عليه الصلاة والسلام، فهو ينزل عليهم بالأمر من الله تعالى (ومهمته الأولى نفخ الصور الذي ينتظر الأمر به). انتهى. بتصرف، ومثله في القرطبي، والكشاف.

أقسم الله بهذه الأشياء لشرفها، ولله أن يقسم بما يشاء من خلقه، والمخلوق لا ينبغي أن يقسم إلا بالخالق، ومثل ذلك في أول (الذاريات)، وأول (المرسلات) أو يكون التقدير: ورب هذه الأشياء وجواب القسم محذوف، تقديره: لتبعثن ولتحاسبن. وقيل: جوابه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ الآية الآتية. قال ابن هشام في المغني: وفيه بعد. وقيل: هو قوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾.

أقول: والمعتمد الوجه الأول، وهو أن المراد بالنازعات وما عطف عليه الملائكة، وإنما جاءت هذه الأقسام بلفظ التأنيث، والكل وصف للملائكة مع أنهم ليسوا إناثاً؛ لأن المقسم به طوائف من الملائكة، فكأنه قيل: وطوائف الملائكة النازعات، والطوائف: جمع: طائفة، وهي مؤنثة.

الإعراب: ﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾: جار ومجرور متعلقان بفعل محذوف، تقديره: أقسم بالنازعات، أو التقدير: أقسم برب النازعات. ﴿غَرْقًا﴾: مفعول مطلق عامله ما قبله، لملاقاته له في المعنى على حذف الزوائد؛ إذ الأصل: والنازعات إغراقاً، أوهو منصوب على الحال على حذف مضاف؛ إذ التقدير: ذوات إغراق، والأسماء الآتية كلها معطوفة على (النازعات) و﴿نَشْطًا﴾ و﴿سَبْحًا﴾ و﴿سَبْقًا﴾ مفعول مطلق لا غير. ﴿أَمْرًا﴾: مفعول به لما قبله، وفي كل الأسماء المتقدمة ضمير مستتر هو الفاعل. تأمل، وتدبر، وربك أعلم. هذا؛ وانظر حكم الفاء في أول سورة (المرسلات).

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾

الشرح: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ يعني: النفخة الأولى، يتزلزل، ويتحرك لها كل شيء، ويموت منها جميع الخلق. هذا؛ والإسناد إليها مجازي؛ لأنها سببه، كقوله تعالى في سورة (المزمل): ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾. هذا؛ وقال القرطبي.

وليست الرجفة ها هنا من الحركة فقط، بل من قولهم: رجف الرعد، يرجف رجفاً، ورجيفاً؛ أي: أظهر الصوت، والحركة، ومنه سميت الأراجيف؛ لاضطراب الأصوات بها، وإفاضة الناس فيها. قال منازل بن ربيعة المنقري في هجو رؤبة بن العجاج: [البسيط]

أَبِالأَراجِيفِ يَابْنَ اللُّؤْمِ تُوعِدُني وفي الأراجيفِ خِلْتُ اللُّؤْمَ وَالْخَوَرَا

﴿تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ أي: النفخة الثانية ردفت الأولى، وبينهما أربعون سنةً. قال ابن عباس، وقتادة، والحسن ـ رضي الله عنهم ـ: هما الصيحتان: الأولى تميت كل شيء بإذن الله تعالى،

والأخرى تحيي كل شيء بإذن الله عز وجل. هذا؛ وخذ قوله تعالى في سورة (الزمر) رقم [٦٨]: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ انظر شرحها هناك.

وعن أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ كان إذا ذهب ربع الليل؛ قام، ثم قال: **«يَا أيها الناسُ! اذكرُوا اللهَ، جَاءَتِ الراجفةُ، تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ، جاءَ الموتُ بِمَا فِيهِ»**. رواه البغوي بسند الثعلبي، وزاد ابن كثير، فقال رجل: يا رسول الله! أرأيت إن جعلتُ صلاتي كُلَّها عليك؟ قال: **«إذاً يَكْفِيَكَ اللهُ مَا أَهَمَّكَ مِنْ دُنْيَاكَ وَآخِرَتِكَ»**. ثم قال: رواه أحمد، والترمذي. ولفظ الترمذي: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل؛ قام، فقال: **«يَا أَيُّها النَّاسُ! اذكُرُوا اللهَ، جَاءَتِ الراجِفَةُ، تَتْبَعُهَا الرادفةُ، جاءَ الموتُ بمَا فِيهِ»**. انتهى. ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾: خائفة، وجلة. يقال: وجف القلب، يجف وجيفاً: إذا خفق. كما يقال: وجب، يجب وجيباً، ومنه: وجيف الفرس، والناقة في العدو. والإيجاف: حمل الدابة على السير السريع. قال الشاعر: [الرجز]

بُدِّلْنَ بَعْدَ جِرَّةٍ صَرِيفَا وَبَعْدَ طُولِ النَّفَسِ الْوَجِيفَا

ومنه قول النبي ﷺ في الإفاضة من عرفات: **«لَيْسَ البِرُّ بإيجَافِ الْخَيْلِ، وَلَا إيضاع الإبل على هينتكم!»**. يقال: وجف الفرس: إذا أسرع، وأوجفته أنا؛ أي: حركته، وأتعبته، ومنه قول تميم بن مقبل: [الطويل]

مَذَاوِيدُ بالبيضِ الحديثِ صِقَالُهَا عَنِ الرَّكْبِ أَحْيَاناً إِذَا الرَّكْبُ أَوْجَفُوا

وخذ قوله تعالى في سورة (الحشر) رقم [٦]: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ...﴾ إلخ.

﴿أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ﴾: منكسرة، ذليلة من هول ما ترى. والمراد: أبصار أصحاب القلوب، فهو على حذف المضاف. وهذا كثير مستعمل في الآيات القرآنية، وفي الكلام العربي: نثره، ونظمه. ومثل هذه الآية قوله تعالى في سورة (القلم) رقم [٤٣]: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾. ﴿يَقُولُونَ﴾ أي: الكافرون المكذبون المنكرون للبعث، إذا قيل لهم: إنكم تبعثون؛ قالوا منكرين متعجبين: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ﴾ أي: أنرد بعد موتنا إلى أول الأمر، فنعود أحياء كما كنا قبل الموت؟! وهذا الإنكار منهم كثير. يقال: رجع فلان في حافرته، وعلى حافرته؛ أي: رجع من حيث جاء. قاله قتادة. وأنشد ابن الأعرابي: [الوافر]

أَحَافِرةٌ عَلَى صَلَعٍ وشَيْبٍ مَعَاذَ اللهِ مِنْ سَفَهٍ وَعَارِ

يقول الشاعر: أأرجع إلى ما كنت عليه في شبابي من الغزل، والصبا بعد أن شبت، وصلعت؟! وقيل: الحافرة: الأرض التي تُحفر فيها قبورهم، فهي بمعنى: محفورة. وقيل: الحافرة: العاجلة؛ أي: أئنا لمردودون إلى الدنيا، فنصير أحياءً كما كنا؟ قال الشاعر: [السريع]

آلَـيْـتُ لَا أَنْسَـاكُـم فَـاعْـلَـمُـوا حَـتَّـى يُـرَدَّ الـنَـاسُ فـي الْـحَـافِـرهْ

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً﴾ أي: بالية متفتتة، يقال: نخر العظم (بكسر الخاء) أي: بلي، وتفتت. وقرئ: (ناخرة). وفي الصحاح: والناخر من العظام؛ الذي تدخل الريح فيه، ثم تخرج منه، ولها نخير. وقيل: هما لغتان بمعنى، تقول العرب: نَخِر الشيء، فهو نخِر، وناخِر، كقولهم: طمع، فهو طمِع، وطامِع، وحذِر، وحاذِر، وبخِل وباخِل، وفرِه، وفارِه. قال الشاعر: [الطويل]

يَـظَـلُّ بـهَـا الـشَّـيْـخُ الَّـذِي كَـانَ بَـادِنـاً يَــدِبُّ عَــلَــى عُــوجٍ لَــهُ نَــخِــرَاتِ

وقد قرئ: ﴿أَءِنَّا﴾ ﴿أَءِذَا﴾ بقراءات كثيرة، فجملتها تسعة، وكلها سبعية. وقولهم هذا تعجب منهم، واستبعاد للبعث بعد الموت، وفناء الجسد، وقد تكرر في القرآن الكريم ذكر ذلك عنهم، وشاعرهم هو الذي يقول: [الوافر]

أَلَا مَــنْ بَــلِّــغ الــرحــمــنَ عــنِّــي بــأَنِّــي تَــارِكٌ شــهــرَ الــصِّــيَــامِ؟

أَيُــوعِــدُنَــا ابْــنُ كَــبْــشَــةَ أَنْ سَــنَــحْــيَــا وَكَــيْــفَ حــيَــاةُ أَصْــدَاءٍ وَهَــامِ؟

أَتُــتْــرَكُ أَنْ تَــردَّ الــمــوتَ عــنــي وتُــحــيــيــنــي إذا بَــلِــيــتْ عِــظَــامــي؟

فهو يقصد بابن كبشة النبي ﷺ، وأبو كبشة كنية زوج حليمة السعدية مرضعته ﷺ، فقد كانوا يطلقون عليه ذلك تحقيراً له ﷺ، ولكنهم لم يتأملوا: أنهم كانوا قبل ذلك تراباً، فخلقهم الله، وأظهرهم إلى الوجود، وهم ظنوا: أن البعث، والإعادة يكونان في الدنيا، وهم لم يروْا أحداً رجع إلى الدنيا ممَّن تقدمهم.

﴿قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ أي: رجعة ذات خسران، أو خاسر أصحابها، فهو من الإسناد المجازي، والمعنى: إنها إن صحت، وبعثنا ـ كما يقول محمد ﷺ ـ فنحن خاسرون إذاً لتكذيبنا بها! وهذا استهزاء منهم. هذا؛ والكرة في الأصل مصدر، يقال: كر، يكر، كراً، وكرةً، والكر، والكرة: الرجوع، والرجعة. والمراد به هنا: المرة من ذلك، وهو مصدر لا يثنى، ولا يجمع. قال تعالى في سورة (الإسراء) رقم [٦]: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾. وأما تثنيته في سورة (الملك) رقم [٤] وذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ...﴾ إلخ. فليس على حقيقته، بل المراد منه التكثير، بدليل ما بعده.

﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾: قال في الكشاف: فإن قلت: بم تعلق قوله: (فإنما هي...) إلخ قلت: بمحذوف معناه: لا تستصعبوها، فإنما هي زجرة واحدة. يعني: لا تحسبوا تلك الكَرَّة صعبة على الله عز وجل، فإنها سهلة هينة في قدرته، ما هي إلا صيحة واحدة. يريد: النفخة الأولى.

﴿فَإِذَا هُم﴾ أي: الخلائق أجمعون أحياء على وجه الأرض بعد أن كانوا أمواتاً في جوفها. من قولهم: زجر البعير: إذا صاح عليه. ﴿بِالسَّاهِرَةِ﴾ أي: على وجه الأرض بعدما كانوا في بطنها. قال الفراء: سميت بهذا الاسم؛ لأن فيها نوم الحيوان، وسهرهم، والعرب تسمِّي الفلاة، ووجه الأرض: ساهرة، بمعنى: ذات سهر؛ لأنه يُسهر فيها، خوفاً منها، فوصفها بصفة ما فيها. واستدل ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ والمفسرون بقول أمية بن أبي الصلت ـ وهو الشاهد رقم [٣٠٣] من كتابنا: «فتح رب البرية» ـ: [الوافر]

وَفِيهَا لَحْمُ سَاهِرَةٍ وَبَحْرٌ ... وَمَا فَاهُوا بِهِ أَبَداً مُقِيمُ

ويقال: الساهور: ظل الساهرة، وهي وجه الأرض. قال أبو كبير الهذلي: [الكامل]

يَرْتَدْنَ ساهِرةً كَأنَّ جَمِيمَها ... وَعَمِيمَهَا أسدافُ لَيْلٍ مُظْلِمِ

الجميم بالجيم: النبت؛ الذي قد نبت، وارتفع قليلاً، ولم يتم كل التمام. والعميم: التام من النبت. والأسداف: جمع: سدَف بالتحريك، وهو ظلمة الليل. ويقال: الساهر كالغلاف للقمر، يدخل فيه؛ إذا كسف، وأنشدوا قول أمية بن أبي الصلت: [الكامل]

لا نقْصَ فِيهِ غَيْرَ أنَّ خَبِيئَهُ ... قَمَرٌ وساهورٌ يُسَلُّ ويُغْمَدُ

وأنشدوا لآخر في وصف امرأة: [البسيط]

كَأَنَّهَا عِرْقُ سَامٍ عِنْدَ ضَارِبِهِ ... أَوْ شُقَّةٌ خَرَجَتْ مِنْ جَوْفِ سَاهُورِ

ويقال: الساهرة: الأرض البيضاء المستوية سميت بذلك؛ لأن السراب يجري فيها، من قولهم: عين ساهرة: جارية الماء، وفي ضدها: نائمة. قال الأشعث بن قيس: [الطويل]

وسَاهِرَةٍ يَضْحَى السَّرَابُ مُجَلِّلاً ... لِأقْطَارِهَا قَدْ جِئْتُهَا مُتَلَثِّمَا

أو لأن سالكها لا ينام خوف الهلكة. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿يَوْمَ﴾: ظرف زمان متعلق بجواب القسم، التقدير: لتبعثن يوم ترجف. وقيل: هو الجواب على تقدير اللام، فيكون التقدير: لهو يوم. . .إلخ، وعليه فالظرف متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، والجواب لكل المتعاطفات، وإلا احتيج لتعدد الجواب، ومثل هذه الآيات باكتفاءِ جواب للجميع قول أبي صخر الهذلي ـ وهو الشاهد رقم [٨٠] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الطويل]

أَمَا وَالَّذِي أَبْكَى وَأضحَكَ وَالَّذِي ... أمَاتَ وَأَحْيَا والَّذِي أمْرُهُ الأمْرُ

لَقَدْ تَرَكَتْنِي أحْسُدُ الْوَحْشَ أَنْ أرَى ... أَلِيفَيْنِ مِنْهَا لا يَرُوعُهُمَا الذُّعْرُ

﴿تَرْجُفُ﴾: فعل مضارع. ﴿الرَّاجِفَةُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿يَوْمَ﴾ إليها. ﴿تَتْبَعُهَا﴾: فعل مضارع. (وها): مفعول به. ﴿الرَّادِفَةُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية في محل

نصب حال من ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾ والرابط: الضمير فقط. ﴿قُلُوبٌ﴾: مبتدأ. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف زمان متعلق بما بعده، و(إذ) ظرف زمان أيضاً مبني على السكون في محل جر بالإضافة، والتنوين عوض من جملة محذوفة، التقدير: يوم إذ ترجف الراجفة. ﴿وَاجِفَةٌ﴾: صفة ﴿قُلُوبٌ﴾. ﴿أَبْصَـٰرُهَا﴾: مبتدأ، و(ها) في محل جر بالإضافة. ﴿خَـٰشِعَةٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل رفع خبر المبتدأ: ﴿قُلُوبٌ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها. ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل مضارع، والواو فاعله. ﴿أَءِنَّا﴾: الهمزة: حرف استفهام إنكاري. (إنَّ): حرف مشبه بالفعل، و(نا): اسمها، حذفت نونها، وبقيت الألف دليلاً عليها. ﴿لَمَرْدُودُونَ﴾: اللام: هي المزحلقة. (مردودون): خبر إن مرفوع، وعلامة رفعه الواو. ﴿فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾: متعلقان بمردودون، أو بمحذوف حال من الضمير المستتر فيه، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، والجملة الفعلية في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف التقدير: هم يقولون... إلخ. والجملة الاسمية هذه مستأنفة لا محل لها. ﴿أَءِذَا﴾: الهمزة: حرف استفهام إنكاري. (إذا): ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك، مبني على السكون في محل نصب متعلق بمحذوف يقدر مؤخراً، ولا يعمل فيه (مردودون)؛ لأنه لا يعمل ما قبل الاستفهام فيما بعده، التقدير: أئذا كنا عظاماً نخرة؛ نرد، ونبعث؟! وهذه الجملة هي جواب (إذا). ﴿كُنَّا﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون، و(نا): اسمها. ﴿عِظَـٰمًا﴾: خبرها. ﴿نَّخِرَةً﴾: صفة ﴿عِظَـٰمًا﴾، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذا) إليها، و(إذا) ومدخولها في محل نصب مقول القول.

﴿قَالُوا۟﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿تِلْكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب، لا محل له. ﴿إِذًا﴾: حرف جواب وجزاء. ﴿كَرَّةٌ﴾: خبر المبتدأ. ﴿خَاسِرَةٌ﴾: صفة له، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالُوا۟...﴾ إلخ مستأنفة، لا محل لها. ﴿فَإِنَّمَا﴾: الفاء: حرف استئناف. (إنما): كافة، ومكفوفة. ﴿هِىَ﴾: مبتدأ. ﴿زَجْرَةٌ﴾: خبره، ﴿وَٰحِدَةٌ﴾: صفة لها، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول لقول محذوف، التقدير: قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ...﴾ إلخ.

﴿فَإِذَا﴾: الفاء: حرف عطف، وتعقيب، وخذ ما قاله السيوطي ـ رحمه الله تعالى ـ فيها: اختلف في هذه الفاء، فقال المازني: هي زائدة لازمة للتأكيد؛ لأن «إذا» الفجائية فيها معنى الإتباع، ولذا وقعت في جواب الشرط موقع الفاء. وهذا ما اختاره ابن جني. وقال مبرمان: هي عاطفة لجملة (إذا) ومدخولها على الجملة قبلها. واختاره الشلوبين الصغير، وأيده أبو حيان؛ لوقوع ﴿ثُمَّ﴾ موقعها في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾. وقال الزجاج: دخلت على حد دخولها في جواب الشرط. انتهى. أي: فهي للسببية المحضة. وفي مغني اللبيب نحو هذا.

(إذا): كلمة دالة على المفاجأة هنا، وهي تختص بالدخول على الجمل الاسمية، ولا تحتاج إلى جواب، ولا تقع في الابتداء، ومعناها الحال، لا الاستقبال، نحو خرجت؛ فإذا الأسد

بالباب، وهي حرف عند الأخفش وابن مالك، ويرجحه: (خرجْتُ فإذَا إنَّ زَيْداً بِالْبَابِ)؛ لأن «إنَّ» لا يعمل ما بعدها فيما قبلها. وظرف مكان عند المبرد، وابن عصفور. وظرف زمان عند الزجاج، والزمخشري. وزعم الأخير: أنَّ عاملها فعل مشتق من لفظ المفاجأة. ولا يعرف هذا لغير الزمخشري، وإنما ناصبها عندهم الخبر في نحو: (خرجْتُ فَإذا زَيْدٌ جَالِسٌ) والمقدر في نحو: (فَإذَا الأسدُ) أي: حاضر، وإذا قدرت: أنها الخبر؛ فعاملها مُسْتَقِرٌّ، أو استقرَّ، ولم يقع الخبر معها في التنزيل إلا مصرحاً به. انتهى. ملخصاً من «مغني اللبيب».

وعلى اعتبارها ظرف زمان، أو مكان، فهي هنا متعلقة بالساهرة. ﴿هُم﴾: ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿بِالسَّاهِرَةِ﴾: متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ. هذا؛ واعتبر الجلال الجملة جواب شرط شرط محذوف، التقدير: فإذا نفخت النفخة الأولى؛ فإذا هم بالساهرة. وعليه: فالفاء واقعة في جواب هذا الشرط المقدر.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾

الشرح: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾: هذا استفهام تشويق، وترغيب لسماع القصة؛ أي: هل جاءك يا محمد خبر موسى الكليم؟ وقال القرطبي، والخازن: ﴿هَلْ﴾ بمعنى: قد، والمعنى: على التحقيق قد أتاك حديث موسى. انظر ما ذكرته في أول سورة (الدهر). وقال الجمل نقلاً عن الخطيب: كلام مستأنف وارد لتسلية رسول الله ﷺ؛ أي: أليس قد أتاك حديث موسى، فيسليك على تكذيب قومك، ويهددهم عليه بأن يصيبهم مثل ما أصاب مَنْ هو أعظم منهم، وهو فرعون، فإنه كان أقوى أهل الأرض بما كان له من كثرة الجنود، فلما أصر على التكذيب، ولم يرجع، ولا أفاده التأديب؛ أغرقناه، وقومه، ولم نبق منهم أحداً، وقد كانوا لا يحصون عدداً، فقد قيل: إن طليعته كانت على عدد بني إسرائيل ستمئة ألف، فكيف بقومك الضعاف. انتهى.

﴿إِذْ نَادَاهُ﴾ أي: حين ناجاه ربه. ﴿بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾: المطهر المبارك. ﴿طُوًى﴾: اسم الوادي الذي حصل فيه الكلام في أسفل جبل طور سيناء. وفي ﴿طُوًى﴾ ثلاث قراءات: الأولى بضم الطاء والتنوين، والثانية بضم الطاء من غير تنوين؛ لأنه معدول، مثل: عمر، وقثم. قال الفراء: طوى: واد بين المدينة، ومصر. قال: وهو معدول عن طاوٍ، كما عدل عمر عن عامر، القراءة الثالثة بكسر الطاء والتنوين على معنى المقدَّس مرة بعد مرة. قاله الزجاج، وأنشد قول عدي بن زيد: [الطويل]

أَعَاذِلَ إنَّ اللُّؤْمَ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ عَلَيَّ طِوىً مِنْ غَيِّكَ الْمُتَرَدِّدِ

أي: هو لومٌ مكرر عليَّ. هذا؛ و﴿ٱلْمُقَدَّسِ﴾ المطهر غاية الطهر بتشريف الله تعالى له بإنزال النبوة فيه، المفيضة للبركات. هذا؛ وسمي الوادي المقدس طوًى؛ لأنه طوي فيه الشر عن بني إسرائيل، ومن أراد الله من خلقه، ونشر فيه بركات النبوة على جميع أهل الأرض، المسلم بإسلامه، وغيره برفع عذاب الاستئصال عنه، فإن العلماء قالوا: إن عذاب الاستئصال ارتفع حين أنزلت التوراة، وهو وادٍ بالطور بين أيلة، ومصر. انتهى جمل نقلاً عن الخطيب.

هذا؛ والوادي: هو المنفرج بين جبلين، يجري فيه السيل، ويجمع على: أودية، وأوديات، وأوادية، وأوداء، وأوداه. قال جرير: [الوافر]

عَـرفْـتُ بِـبُـرْقَـةِ الأوْدَاه رَسْـمـاً مُـحِـيـلاً طَـالَ عَـهْـدُكَ مِـنْ رُسُـومِ

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أي: جاوز الحد في الطغيان، والظلم، والفساد. هذا؛ وفرعون: قال المسعودي: لا يعرف لفرعون تفسير في العربية، وظاهر كلام الجوهري أنه مشتق من معنى العتوِّ، فإنه قال: والفراعنة: العتاة، وقد تفرعن، وهو ذو فرعنة؛ أي: دهاء ومكر. انتهى. وفرعون لقب لمن ملك العمالقة في مصر، كقيصر، وكسرى لملكي الروم، والفرس، وكان فرعون موسى مصعب بن الريان. وقيل: ابنه الوليد من بقايا قوم عاد، وفرعون يوسف ـ على نبينا، وعليه، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ألف صلاة، وألف سلام ـ ريان بن الوليد، وبينهما أكثر من أربعمئة سنة. وكان ملك فرعون موسى أربعمئة سنة، وعاش ستمئة وعشرين سنة، ولم ير مكروهاً قط، ولو حصل له في تلك المدة جوع يوم، أو وجع يوم؛ لما ادَّعى الربوبية، فلم يبق لما نقله القرطبي عن الحسن: كان فرعون علجاً من همدان. وعن مجاهد. قال: كان من أهل إصطخر. وعن الحسن أيضاً قال: كان من أهل أصبهان. يقال له: ذو ظفر، طوله أربعة أشبار، فلم يبق لهذه الأقوال وجه. ولا تنس: أن فرعون هذه الأمة هو أبو جهل الخبيث. قال الرسول ﷺ: **«وفرعَوْني أشدُّ مِنْ فِرْعَوْنِ مُوسَى»**.

هذا؛ وأما موسى فأصله: (موشى) مركباً من اسمين: «مو» الماء، و«شا»: الشجر، والعرب تلفظه: موسى بالسين، وسبب تسميته بذلك أن امرأة فرعون التقطته من نهر النيل بين الماء والشجر، لما ألقته أمه فيه، كما رأيت في سورة (طه)، وسورة (القصص).

﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: تسلم، فتطهر من الذنوب، والآثام بالإسلام. ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ أي: وأرشدك إلى معرفة ربك، وطاعته، فتتقيه، وتخشاه؛ لأن الخشية لا تكون إلا بالمعرفة. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ رقم [٢٨] من سورة (فاطر)، وعن بعض الحكماء: اعْرِفِ اللهَ، فمن عرف الله؛ لم يقدر أن يعصيه طرفة عين. فالخشية ملاك الأمر، ومن خشي الله أتى منه كل خير، ومن أمن اجترأ على كل شر. بدأ مخاطبته بالاستفهام؛ الذي معناه العرض، كما يقول الرجل لضيفه: هل لك أن تنزل بنا؟ وأردفه الكلام الرقيق، يستدعيه

باللطف في القول، ويستنزله بالمداراة عن عتوه، كما أمر الله بذلك في قوله تعالى في سورة (طه) رقم [٤٤]: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ وإنما خص فرعون بالذكر، وإن كانت دعوة موسى شاملة لجميع قومه؛ لأن فرعون كان أعظمهم، فكانت دعوته دعوة لجميع قومه.

وقال صخر بن جويرية: لما بعث الله موسى إلى فرعون؛ قال له: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ ولن يفعل، فقال: يا رب! كيف أذهب إليه، وقد علمتَ: أنه لا يفعل؟ فأوحى الله إليه أن امض إلى ما أمرتك به، فإن في السماء اثني عشر ألف ملك يطلبون علم القدر فلم يبلغوه ولا يدركوه! والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿هَلْ﴾: حرف استفهام، انظر ما ذكرته في الشرح. ﴿أَتَىٰكَ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والكاف مفعول به. ﴿حَدِيثُ﴾: فاعله، وهو مضاف، و﴿مُوسَىٰٓ﴾ مضاف إليه مجرور، وعلامة جره كسرة مقدرة على الألف للتعذر. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان مبني على السكون في محل نصب متعلق بـ: ﴿حَدِيثُ﴾، لا بـ: ﴿أَتَىٰكَ﴾ لاختلاف وقتيهما. ومثله في سورة (الذاريات) رقم [٢٥]. ﴿نَادَىٰهُ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والهاء مفعول به. ﴿رَبُّهُۥ﴾: فاعله، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿إِذْ﴾ إليها. ﴿بِٱلْوَادِ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من الضمير المنصوب؛ أي: حالة كون موسى بالوادي، وعلامة الجر كسرة مقدرة على الياء للثقل. ﴿ٱلْمُقَدَّسِ﴾: صفة (الوادي). ﴿طُوًى﴾: بدل من (الوادي)، فهو مجرور، وعلامة جره كسرة مقدرة على الألف للتعذر. وقال مكي: ومن كسر الطاء فهو في موضع نصب على أنه مصدر، تقديره: بالوادي المقدس مرتين. انتهى؛ أي: فكأنه مصدر دل على العدد. هذا؛ والجملة الفعلية: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ...﴾ إلخ مستأنفة، لا محل لها.

﴿ٱذْهَبْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت»، والجملة الفعلية يجوز أن تكون تفسيراً للنداء، ويجوز أن تكون في محل نصب مقول القول لقول محذوف، التقدير: فقال له: اذهب، وعليه فالجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿نَادَىٰهُ...﴾ إلخ فهي في محل جر مثلها. وقيل: هي على تقدير: «أن» قبلها؛ أي: أن اذهب، وقرئ شاذاً: (أن اذهب)، و(أن) هذه الظاهرة، أو المقدرة يحتمل أن تكون تفسيرية، وأن تكون مصدرية؛ أي: ناداه بكذا. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، وعلامة الجر الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف، والمانع له علتان: العلمية، والعجمة. ﴿إِنَّهُۥ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿طَغَىٰ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى ﴿فِرْعَوْنَ﴾، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية تعليل للأمر، لا محل لها.

﴿فَقُلْ﴾: الفاء: حرف عطف. (قل): فعل أمر، وفاعله: أنت. ﴿هَل﴾: حرف استفهام. ﴿لَّكَ﴾: جار ومجرور، متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هل لك سبيل. ﴿إِلَىٰٓ﴾: حرف جر. ﴿أَن﴾: حرف مصدري، ونصب. ﴿تَزَكَّىٰ﴾: فعل مضارع أصله: تتزكى. فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً، فهو منصوب بـ: ﴿أَن﴾، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذر، والفاعل مستتر تقديره: «أنت»، و﴿أَن﴾ المصدرية، والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر بـ: ﴿إِلَىٰٓ﴾، والجار، والمجرور متعلقان بالمبتدأ المحذوف، المقدر بـ: «سبيل»، أو بـ: «رغبة إلى التزكية»، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، وجملة: (قل...) إلخ معطوفة على جملة: ﴿ٱذْهَبْ...﴾ إلخ فهي مقولة للقول المحذوف مثلها. (أهديك): معطوف على ما قبله، والفاعل مستتر تقديره: «أنا»، والكاف مفعول به. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. (تخشى): معطوف على ما قبله منصوب مثله، ويحتمل أن النصب بـ: «أن» مضمرة بعد الفاء لتقدم الاستفهام عليها. والفاعل تقديره: «أنت».

﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾

الشرح: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾: قبل هذه الآية كلام محذوف، التقدير: فذهب موسى إلى فرعون، فدعاه إلى الإيمان، وكلمه، فلما أبى الاستجابة له؛ أراه المعجزة الكبرى، وهي اليد البيضاء، وقلب العصا حية تسعى. ولم تثن؛ لأنهما في حكم آية واحدة. ﴿فَكَذَّبَ﴾: فرعون بالمعجزة. وقال: إنها سحر، وكذب موسى بقوله: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾. ﴿وَعَصَىٰ﴾: الله تعالى. ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ أي: ولى مدبراً عن الإيمان. ﴿يَسْعَىٰ﴾ أي: يعمل بالفساد في الأرض. وقيل: يعمل في نكاية موسى. ﴿فَحَشَرَ﴾ أي: جمع قومه، وجنوده، وجمع السحرة أيضاً، كقوله تعالى في سورة (الشعراء) رقم [٥٣]: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾، ومثلها في السورة نفسها رقم [٣٦]، وأيضاً في سورة (الأعراف) رقم [١١١]. ﴿فَنَادَىٰ﴾: في المقام الذي اجتمعوا فيه معه. ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: لا رب فوقي. وقيل: أراد: أن الأصنام أرباب، وهو ربهم، وربها. وقيل: أراد: القادة، والرؤساء، والسادة هو ربهم، وأولئك هم أرباب السفلة تحتهم.

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ﴾: فعاقبه عقاباً شديداً. ﴿نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾: المراد بالآخرة: يوم القيامة، والأولى الإغراق في الدنيا، أو المراد كلمتاه: الآخرة، وهي: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ والأولى، وهي قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ الآية رقم [٣٨] من سورة (القصص)،

وكان بين الكلمتين أربعون سنة. قاله ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ والمعنى: أمهله في الأولى، ثم عذبه في الثانية، والنكال بمعنى التنكيل، كالسلام بمعنى التسليم، والنكال أيضاً: اسم لما جعل نكالاً للغير؛ أي: عقوبة له حتى يعتبر به. يقال: نكل فلان بفلان: إذا أثخنه عقوبة، والكلمة من الامتناع، ومنه النكول عن اليمين، والنكل: القيد. انظر سورة (المزمل) رقم [١٢]. هذا؛ وقد قال تعالى في سورة (البقرة) رقم [٦٦]: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾، وقال جل ذكره في سورة (المائدة) رقم [٣٨]: ﴿فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾: في إهلاك فرعون، وقومه. ﴿لَعِبْرَةً﴾: لعظةً، واعتباراً. ﴿لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾: يخاف الله. ولا تنس الطباق بين ﴿ٱلْءَاخِرَةِ﴾ و(الأولى) وهو من المحسنات البديعية.

هذا؛ وروى السلمي عن ابن عطاء: الخشية أتم من الخوف؛ لأنها صفة العلماء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ أي: العلماء به. وعن الواسطي: أوائل العلم الخشية، ثم الإجلال، ثم التعظيم، ثم الهيبة، ثم الفناء. وعن بعضهم: من تحقق بالخوف؛ ألهاه خوفه عن كل مفروح به، وألزمه الكمد إلى أن يظهر له الأمن من خوفه. وانظر ما نقلته عن الزمخشري في الآية رقم [١٩]. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿فَأَرَىٰهُ﴾: الفاء: حرف عطف. (أراه): فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى موسى، والهاء مفعول به أول. ﴿ٱلْءَايَةَ﴾: مفعول به ثان، والفعل بصري، لكنه تعدى إلى الثاني بالهمزة. ﴿ٱلْكُبْرَىٰ﴾: صفة ﴿ٱلْءَايَةَ﴾، والجملة الفعلية معطوفة على الكلام المقدر قبلها. ﴿فَكَذَّبَ﴾: الفاء: حرف عطف. (كذب): فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿فِرْعَوْنَ﴾، والمفعول محذوف، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، والتي بعدها معطوفة عليها أيضاً، والمفعول محذوف أيضاً، وجملة: ﴿أَدْبَرَ﴾ معطوفة أيضاً. ﴿يَسْعَىٰ﴾: فعل مضارع مرفوع... إلخ، والفاعل يعود إلى ﴿فِرْعَوْنَ﴾ أيضاً، والمتعلق محذوف، والجملة الفعلية في محل نصب حال من فاعل ﴿أَدْبَرَ﴾ المستتر، والرابط: الضمير فقط، وجملة: (حشر) وجملة: (نادى) كلتاهما معطوفتان على ما قبلهما. ﴿فَقَالَ﴾: الفاء: حرف عطف. (قال): فعل ماض، والفاعل يعود إلى (فرعون). ﴿أَنَا۠﴾: ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿رَبُّكُمُ﴾: خبر المبتدأ، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾: صفة له مرفوع مثله، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، وجملة: (قال...) إلخ معطوفة على ما قبلها.

﴿فَأَخَذَهُ﴾: الفاء: حرف عطف. (أخذه): فعل ماض، والهاء مفعول به. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها أيضاً. ﴿نَكَالَ﴾: مفعول مطلق عامله أخذ من معناه. قال الجمل: والتجوز إما في الفعل؛ أي: نكل بالأخذ نكال الآخرة والأولى، وإما في

المصدر؛ أي: أخذه أخذ نكال. ويجوز أن يكون مفعولاً لأجله؛ أي: لأجل نكاله. انتهى سمين. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ﴿إِنَّ﴾ تقدم على اسمها، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب، لا محل له. ﴿لَعِبْرَةً﴾: اللام: لام الابتداء. (عبرة): اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها. ﴿لِّمَن﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة (عبرة). ﴿يَخْشَىٰ﴾: فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف، والفاعل يعود إلى (مَنْ) وهو العائد، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل له.

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾

الشرح: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾: الاستفهام للتوبيخ، والتقريع، والخطاب لكفار قريش، والمعنى: أخلقكم بعد الموت أشد، وأصعب، أم خلق السماء عندكم في تقديركم؟ فإن كلا الأمرين بالنسبة إلى قدرة الله واحد؛ لأن خلق الإنسان على صغره، وضعفه إذا أضيف إلى خلق السماء مع عظمها، وعظم أحوالها؛ كان يسيراً. فبين الله تعالى: أن خلقها أعظم، وإذا كان كذلك؛ كان خلقكم بعد الموت أهون على الله تعالى، فكيف تنكرون ذلك؟! مع علمكم بأنه خلق السموات، والأرض، ولا تنكرون ذلك؟ قال تعالى في سورة (غافر) رقم [٥٧]: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾، وقال في سورة (يس) رقم [٨١]: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ﴾ وما يشبهها في الآية رقم [٣٣] من سورة (الأحقاف). ﴿بَنَىٰهَا﴾: رفعها عالية فوقكم محكمة البناء، بلا عمد، ولا أوتاد تحملها. قال تعالى في سورة (الرعد) رقم [٢]: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ﴾.

﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ أي: رفع جرم السماء، وأعلى سقفها فوقكم، فجعلها مستوية، لا تفاوت فيها، ولا شقوق، ولا فطور. قال تعالى في سورة (الملك) رقم [٣]: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾. هذا؛ ويقال: سمكت الشيء؛ أي: رفعته في الهواء، وسمك الشيء سموكاً: ارتفع. قال الفرزدق من قصيدة يفخر فيها بقومه على جرير، وقومه ـ وهو الشاهد رقم [١١٢] من كتابنا: «فتح رب البرية» ـ: [الكامل]

إِنَّ الذِي سمكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا ... بَيْتاً دَعَائِمُهُ أعَزُّ وأطْوَلُ

وقد نقضها جرير بقصيدة من بحرها مع اختلاف حركة الروي حيث يقول: [الكامل]

أَخْزَى الذِي سَمَكَ السَّمَاءَ مُجَاشِعاً ... وبَنَى بناءَكَ في الحضِيضِ الأسْفَلِ

قال ابن كثير: أي: جعلها عالية البناء، بعيدة الفناء، مستوية الأرجاء، مكللة بالكواكب في الليلة الظلماء. ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أي: جعله مظلماً، غطِش الليل، وأغطشه الله، كقولك: ظلِم الليل، وأظلمه الله وهي لغة بني أنمار، ويقال: أغطش الليل بنفسه، وأغطشه الله، كما يقال: أظلم الليل وأظلمه الله، والغطش، والغبش: الظلمة. ورجل أغطش؛ أي: أعمى، أو شبيه به، وقد غطش، والمرأة غطشاء، ويقال: ليلة غطشاء، وليل أغطش، وفلاة غطشىٰ: لا يُهتدىٰ لها. وقال الأعشى: [المتقارب]

وَيَهْمَاءَ بِاللَّيْلِ غَطْشَى الْفَلا ... ةِ يُؤْنِسُنِي صَوتُ فَيَّادِهَا

الفياد ـ بفتح الفاء، وضمها ـ ذكر البوم. وقال الأعشى أيضاً: [المتقارب]

عَقَرْتُ لَهُمْ مَوْهِناً نَاقَتِي ... وَغَامِرُهُمْ مُدْلَهِمٌّ غَطِشْ

يعني بغامرهم: ليلهم؛ لأنه غمرهم بسواده، وأضاف الليل إلى السماء؛ لأن الليل يكون بغروب الشمس، والشمس مضاف إلى السماء، ويقال: نجوم الليل؛ لأن ظهورها بالليل. ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ أي: أبرز نهارها، وضوءها، وشمسها. وأضاف الضحىٰ إلى السماء كما أضاف إليها الليل؛ لأن فيها سبب الظلام، والضياء، وهو غروب الشمس، وطلوعها، وإنما عبر سبحانه عن النهار بالضحى؛ لأنه أكمل أجزاء النهار في النور، والضوء.

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾: بسطها. والعرب تقول: دحوت الشيء أدحوه دُحُوّاً: إذا بسطته. قال أمية بن أبي الصلت؛ الذي آمن شعره، ولم يؤمن لسانه: [الوافر]

وَبَثَّ الْخَلْقَ فِيهَا إِذْ دَحَاهَا ... فَهُمْ قُطَّانُهَا حَتَّى التَّنَادِي

وقيل: دحاها سواها، ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل: [المتقارب]

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ ... لَهُ الأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْراً ثِقَالَا

دَحَاهَا فَلَمَّا استَوتْ شَدَّهَا ... بِأَيْدٍ وأرْسى عَلَيْهَا الجِبَالا

ولا ينافي القول ببسطها القول بكروية الأرض، فإن ذلك مقطوع به حتى قال الإمام الفخر الرازي ما نصه: وكانت الأرض أولاً كالكرة المجتمعة، ثم إن الله تعالى مدها، وبسطها، وليس معنى (دحاها) مجرد البسط، بل المراد: أنه بسطها بسطاً مهيأً لنبات الأقوات، يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ والجسم العظيم يكون ظاهره كالسطح المستوي. انتهى وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٦] من سورة (النبأ) عن الآلوسي.

هذا؛ وقد قال الخازن ـ رحمه الله تعالى ـ: فإن قلت: ظاهر هذه الآية يقتضي: أن الأرض خلقت بعد السماء بدليل قوله تعالى بعد ذلك، وقد قال تعالى في سورة (فصلت) رقم [١١]: ﴿ثُمَّ

ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ...﴾ إلخ، فكيف الجمع بين الآيتين، وما معناهما؟ قلت: خلق الله الأرض أولاً مجتمعة، ثم سمك السماء ثانياً، ثم دحا الأرض بمعنى بسطها، ومدها ثالثاً، فحصل بهذا التفسير الجمع بين الآيتين، وزال الإشكال. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: خلق الله الأرض بأقواتها من غير أن يدحوها قبل السماء، ثم استوى إلى السماء، فسواهن سبع سموات، ثم دحا الأرض بعد ذلك. انتهى وانظر آية (فصلت) المذكورة ففيها فوائد جمة. هذا؛ ويقال: دَحَا، يَدْحُو دحواً، ودَحى يدْحَى دحياً، كقولهم: طغَى، يطغَى، ويطغُو، وطَغِي، يطغي، ومحا، يمحو، ويَمْحَى، ولَحَى العود: يلْحَى، ويَلْحُو، فمن قال: يدْحُو قال: دحوْت، ومن قال: يدحَى قال: دحيْتُ.

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ أي: أخرج من الأرض عيون الماء المتفجرة، وأجرى فيها الأنهار، وأنبت فيها الكلأ، والمرعى مما يأكله الناس، والأنعام. قال القتبي: دل بشيئين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتاً، ومتاعاً للأنام من العشب، والشجر، والحب، والثمر، والعصف، والحطب، واللباس، والنار، والملح؛ لأن النار من العيدان، والملح من الماء، وفي الآية الكريمة استعارة تصريحية، فقد شبه أكل الناس برعي الأنعام، واستعير الرعي للإنسان بجامع أكل الإنسان، والحيوان من النباتات. ففيه استعارة لطيفة، ولا تنس المقابلة بين الآيات.

﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ أي: أثبتها في الأرض، وجعلها كالأوتاد لتستقر، وتسكن بأهلها. انظر الآية رقم [٢٧] من سورة (المرسلات). ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾ أي: منفعة لكم. ﴿وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ أي: لجميع الحيوانات التي تنتفعون بها مدة احتياجكم إليها في هذه الدار إلى أن ينتهي الأمد، وينقضي الأجل. وانظر «التمتع» في سورة (المرسلات) رقم [٤٦] فإنه جيد.

الإعراب: ﴿ءَأَنتُمْ﴾: (الهمزة): حرف استفهام، وتوبيخ وتقريع. (أنتم): ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿أَشَدُّ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها. ﴿خَلْقًا﴾: تمييز. ﴿أَمِ﴾: حرف عطف، وهي هنا متصلة. ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾: مبتدأ، وخبره محذوف لدلالة ما قبله عليه، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها. ﴿بَنَىٰهَا﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى (الله). و(ها): مفعول به، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها، أو هي في محل نصب حال من (السماء) والرابط: الضمير، وهذا على رأي: من يجيز مجيء الحال من المبتدأ. ﴿رَفَعَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى الله. ﴿سَمْكَهَا﴾: مفعول به، و(ها): في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية تفسير لكيفية البناء، فهي في محل نصب حال مثل سابقتها. وقيل: هي بدل منها، والتي بعدها معطوفة عليها بالفاء العاطفة. ﴿وَأَغْطَشَ﴾: الواو: حرف عطف. (أغطش): فعل ماض، والفاعل يعود إلى الله أيضاً. ﴿لَيْلَهَا﴾: مفعول به، و(ها): في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، والتي بعدها معطوفة عليها أيضاً.

(الأرض): مفعول به لفعل محذوف، يفسره المذكور بعده. ﴿بَعْدَ﴾: ظرف زمان متعلق بالفعل المحذوف، أو هو متعلق بما بعده، و﴿بَعْدَ﴾ مضاف، و﴿ذَٰلِكَ﴾ اسم إشارة مبني على السكون في محل جر بالإضافة، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب، لا محل له. ﴿دَحَىٰهَآ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى (الله)، والجملة الفعلية مفسرة لا محل لها. هذا؛ ويقرأ برفع (الأرض) على أنه مبتدأ، فتكون الجملة الفعلية في محل رفع خبره. وعلى الاعتبارين فالكلام مستأنف، لا محل له، وجملة: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ في محل نصب حال من فاعل ﴿دَحَىٰهَآ﴾ المستتر، والرابط: الضمير فقط، وهي على تقدير «قد» قبلها، وإعرابها ظاهر إن شاء الله تعالى. (والجبال أرساها) إعرابها مثل إعراب: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ على الوجهين المعتبرين فيها بلا فارق، ولا تنس: أن فاعل الأفعال المتقدمة يعود إلى غير مذكور، وإنما يفهم من سياق الكلام، انظر ما ذكرته بشأن ذلك في الآية رقم [٢٦] من سورة (القيامة).

﴿مَتَٰعًا﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف مدلول عليه بسياق الكلام، التقدير: متعناكم بها تمتيعاً، أو هو مفعول لأجله، عامله محذوف أيضاً، التقدير: فعل الله ذلك منفعة لكم. ﴿لَّكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: ﴿مَتَٰعًا﴾. (لأنعامكم): جار ومجرور معطوفان على ما قبلهما، والكاف ضمير في محل جر بالإضافة.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾

الشرح: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾: يعني النفخة الثانية التي ينفخ إسرافيل عليه السلام في الصور. قاله ابن عباس في رواية الضحاك عنه، وهو قول الحسن. وقول آخر لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنها القيامة، سميت بذلك؛ لأنها تطم على كل شيء، فتعم ما سواها لعظم هولها. كما قال تعالى في سورة (القمر): ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ وقال المبرد: الطامة عند العرب: الداهية؛ التي لا تستطاع. وقال القاسم بن الوليد الهمداني: الطامة الكبرى: حين يُساق أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار. وكما قال المبرد: الطامة عند العرب: الداهية التي طمت وعظمت. قال الشاعر: [الرمل]

إنَّ بَعْضَ الحُبِّ يُعمِي وَيُصِمْ ... وَكَذَاكَ البُغْضُ أَدْهَى وَأَطَمْ

هذا؛ وكما تطلق الطامة على النفخة الثانية يطلق عليها لفظ: الصاخة، ولفظ: القارعة، والواقعة، والحاقة، والمراد بكل ذلك: يوم القيامة، وما فيه من الأهوال العظام، والشدائد الجسام ولعلك تدرك معي: أن الله تعالى لما ذكر خلق السموات، والأرض، وما أبدع فيهما من عجائب الخلق، والتكوين؛ ليقيم الدليل على إمكان الحشر عقلاً؛ أخبر بعد ذلك عن وقوعه

فعلاً، فقال: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ...﴾ إلخ. ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ أي: ما عمل من خير، أو شر؛ وكان قد نسي ما عمل؛ وقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ آخر سورة (النبأ). ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ أي: ظهرت لكل من ينظر. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يكشف عنها تتلظى، فيراها كلُّ ذي بصر لظهورها ظهوراً بيناً من المؤمنين، والكفار، إلا أن الجحيم مكان الكفار، ومأواهم، والمؤمنون يمرُّون عليها، وهذا يؤيده قوله تعالى في سورة (مريم): ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ ولا ينافيه قوله تعالى في سورة (الشعراء) رقم [٩١]: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ لأنها برزت للغاوين بالمكث فيها، وللمؤمنين بمرورهم عليها.

الإعراب: ﴿فَإِذَا﴾: الفاء: حرف استئناف. (إذا): انظر الآية رقم [١١]. ﴿جَآءَتِ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث. ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾: فاعله. ﴿ٱلْكُبْرَىٰ﴾: صفة ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾ مرفوع مثله، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذا) إليها على المشهور المرجوح، وجوابها محذوف. إذ التقدير: إذا جاءت الطامة الكبرىٰ؛ دخل أهل النار النار، وأهل الجنة الجنة. و(إذا) ومدخولها كلام مستأنف، لا محل له. ﴿يَوْمَ﴾: ظرف زمان بدل من (إذا). ﴿يَتَذَكَّرُ﴾: فعل مضارع. ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (يوم) إليها. ﴿مَا﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿سَعَىٰ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿مَا﴾ أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: يتذكر الإنسان الذي، أو شيئاً سعاه. هذا؛ وإن اعتبرت (ما) مصدرية تؤول مع ما بعدها بمصدر في محل نصب مفعول به. التقدير: يتذكر الإنسان سعيه. (برزت): فعل ماض مبني للمجهول، والتاء للتأنيث. ﴿ٱلْجَحِيمُ﴾: نائب فاعله. ﴿لِمَن﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿يَرَىٰ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف، والفاعل يعود إلى (مَنْ) وهو العائد، وهو لازم؛ لأنه بمعنى: ينظر، ويُبْصِر، والجملة الفعلية صلة (مَنْ) أو صفتها على اعتبارها نكرة موصوفة، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿جَآءَتِ...﴾ إلخ فهي في محل جر مثلها. قاله الجمل. وأرى جواز اعتبارها في محل نصب حال من ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾، أو من ﴿مَا﴾، والرابط: الواو فقط، وهي على تقدير «قد» قبلها.

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾

الشرح: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ أي: تجاوز الحد في الكفر، والعصيان، والفساد، والإفساد. ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾: فضلها على الآخرة بأن عمل لها، وانهمك في حطامها الفاني، ولم يقدم

لآخرته عملاً صالحاً. قال القرطبي: نزلت في النضر، وابنه الحارث، وهي عامة في كل كافر؛ بل وفي كل مسلم كذاب منافق آثر الحياة الدنيا على الآخرة. ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾: هي مستقره، ومأواه، فـ: (أل) بدل من الضمير المحذوف المقدر، ومثل هذه الآية قوله تعالى في سورة (المعارج) رقم [٣٧]: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ إذ التقدير: عن يمينك، وعن شمالك. وهذا عند الكوفيين، وعند البصريين وعلى رأسهم سيبويه، التقدير: هي المأوى له. ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾: أي: حذر وقوفه، ومقامه بين يدي الله عز وجل يوم القيامة؛ لعلمه بأنه راجع إلى الله تعالى في ذلك اليوم، فيكفُّ عن محارم الله، ويقف عند حدوده؛ التي حدها له. قال تعالى في سورة (الرحمن): ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾. ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي: زجرها عن المعاصي، والمحارم؛ التي مَن فعلها دخل النار. قال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: أنتم في زمان يقود الحقُّ الهوى، وسيأتي زمان يقود الهوى الحقَّ، فنعوذ بالله من ذلك الزمان! ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي: المنزل، وفي هذه الآيات مقابلة واضحة لا خفاء فيها.

قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: والآيتان نزلتا في مصعب بن عمير ـ رضي الله عنه ـ وأخيه عامر بن عمير، فقد روي: أن عامراً أسر يوم بدر. فأخذه الأنصار، فقالوا: من أنت؟ فقال: أنا أخو مصعب بن عمير. فلم يشدوه في الوثاق، وأكرموه، وبيتوه عندهم، فلما أصبحوا؛ حدثوا مصعباً ـ رضي الله عنه ـ حديثه. فقال: ما هو لي بأخ، شدوا أسيركم، فإن أمَّه أكثر أهل البطحاء حلياً، ومالاً، فأوثقوه؛ حتى بعثت أمُّه في فدائه.

وأما مصعب ـ رضي الله عنه ـ فقد وقى رسول الله ﷺ بنفسه يوم أحد حين تفرق الناس عنه حتى نفذت المشاقص في جوفه ـ وهي السهام ـ فلما رآه رسول الله ﷺ متشحطاً في دمه؛ قال: «**عند الله أحتسبك!**». وقال لأصحابه: «**لقد رأيته؛ وعليه بردان ما تعرف قيمتهما، وإن شراك نعليه من ذهب**». هذا؛ وفسرت ﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ بوقوف العبد مقامه بين يدي الله؛ لأن المقام إنما هو للعبد، لا لله لتنزهه عن المكان، وأضيف إليه تعالى لملابسته له تعالى من حيث كونه بين يديه، ومقاماً لحسابه. وانظر ما ذكرته في سورة (الرحمن) رقم [٤٦] تجد ما يسرك، ويثلج صدرك، ولا تنس المقابلة بين هذه الآيات، والطباق بين ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾، و﴿ٱلْجَحِيمَ﴾.

هذا؛ ولقد وصف الله تعالى في هذه الآية وغيرها الحياة التي يحياها ابن آدم بالدنيا لدناءتها، وحقارتها، وأنها لا تساوي عنده جناح بعوضة، ولو كانت تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها جرعة ماء، ورحم الله الحريري إذ يقول: [الكامل]

يَا خَاطِبَ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ إِنَّهَا شَرَكُ الرَّدَى وقَرَارَةُ الأَكْدَارِ
دَارٌ مَتَى مَا أَضْحَكَتْ في يَوْمِهَا أَبْكَتْ غَداً تَبّاً لَهَا مِنْ دَارِ

أو هي من الدنو، وهو القرب؛ لأنها في متناول يد الإنسان ما دام حيّاً، وما أحسن قول الإمام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ في وصفها: [الطويل]

وَمَا هِيَ إلَّا جِيفَةٌ مُسْتَحِيلَةٌ عَلَيْهَا كِلَابٌ هَمُّهُنَّ اجْتِذَابُهَا
فَإن تَجْتَنِبْها كُنْتَ سِلْماً لأهلِهَا وَإنْ تَجْتَذِبهَا نَازَعَتْكَ كِلابُهَا

الإعراب: ﴿فَأَمَّا﴾: الفاء: حرف استئناف. (أما): أداة شرط، وتفصيل، وتوكيد، أما كونها أداة شرط؛ فلأنها تقوم مقام أداة الشرط، وفعله بدليل لزوم الفاء بعدها؛ إذ الأصل مهما يك من شيء فمن طغى... إلخ، فأنيبت (أما) مناب «مهما» و«يك من شيء»، فصار (أَمَّا مَنْ طغى... فإنَّ الجحيم...) إلخ وأما كونها أداة تفصيل؛ فلأنها في الغالب تكون مسبوقة بكلام مجمل، وهي تفصله، ويعلم ذلك من تتبع مواقعها. وأما كونها أداة توكيد؛ فلأنها تحقق الجواب، وتفيد: أنه واقع لا محالة؛ لكونها علقته على أمر متيقن.

﴿مَن﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿طَغَىٰ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى ﴿مَن﴾، وهو العائد، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. (آثر): فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿مَن﴾ أيضاً. ﴿ٱلْحَيَوٰةَ﴾: مفعول به. ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة ﴿ٱلْحَيَوٰةَ﴾ منصوب مثله، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذر، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها. ﴿فَإِنَّ﴾: الفاء: واقعة في جواب (أما). (إنَّ): حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلْجَحِيمَ﴾: اسم (إنَّ). ﴿هِيَ﴾: ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿ٱلْمَأْوَىٰ﴾: خبر المبتدأ مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر، والجملة الاسمية في محل رفع خبر المبتدأ. هذا؛ وإن اعتبرت الضمير فصلاً؛ فالمأوى يكون خبر (إنَّ)، وعلى الوجهين فالجملة الاسمية: (إن الجحيم هي المأوى) في محل رفع خبر المبتدأ؛ الذي هو (مَنْ)، والجملة الاسمية: (أما من...) إلخ مستأنفة، لا محل لها. هذا؛ وقال الجلال، والزمخشري، وتبعه النسفي: إن الجملة الاسمية جواب قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ على حد قول القائل: إذا جاء بنو تميم؛ فأما العاصي فأهنه، وأما الطائع؛ فأكرمه.

وفي هذا نوع تساهل؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ...﴾ إلخ. بيان لحال الناس في الدنيا، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ بيان لحالهم في الآخرة، فالأولى ما سلكه غيرهم من أن الجواب محذوف يدل عليه التفصيل المذكور: فقدَّره بعضهم: دخل أهل النار النار، وأهل الجنة الجنة، وقدره بعضهم بقوله: كان من عظائم الشؤون ما لم تشاهده العيون. انتهى. جمل بتصرف. وإعراب: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ...﴾ إلخ، مثل سابقه، لا خفاء فيه إن شاء الله تعالى.

هذا؛ و«الهوى» يقصر، ويمد، والمراد بالأول: الحب، والعشق، والغرام، وهو أيضاً محبة الإنسان للشيء، وغلبته على قلبه، وعقله. قال تعالى في سورة (الفرقان) رقم [٤٣]: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾، ومثلها في الآية رقم [٢٣] من سورة (الجاثية). وقد نهى الله عنه في سورة (النساء) رقم [١٣٥] بقوله: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ ومدح مَن يخالفه بقوله:

﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي: نهاها عن شهواتها، وما تدعو إليه من معاصي الله تعالى. ويراد بالممدود ما بين السماء والأرض، وقد جاء الهوى بمعنى العشق ممدوداً في الشعر، ومنه قول الشاعر: [الطويل]

وَهَانَ عَلَى أَسْمَاءَ إِن شَطَّتِ النَّوَى ... نَحِنُّ إِلَيها والهواء يتوقُ

وإليك هذين البيتين فإنَّهما من النُّكت الحسان: [الكامل]

جُمِعَ الهواءُ مع الهوى في مُهْجَتي ... فَتَكَامَلَتْ في أضْلُعِي نَارَانِ

فَقَصَرْتُ بِالْمَمْدُودِ عَنْ نَيْلِ الْمُنَى ... وَمددْتُ بِالمقصورِ في أكْفَانِي

وقال أبو عبيدة ـ رحمه الله تعالى ـ: لم نجد الهوى يوضع إلا موضع الشر؛ لأنه لا يقال: فلان يهوى الخير، بل يقال: فلان يحب الخير، وجمعه: أهواء، وجمع الممدود أهوية. وقال الشعبي ـ رحمه الله تعالى ـ: إنما سمي الهوى هوًى؛ لأنه يهوي بصاحبه إلى النار. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ما ذكر الله هوًى في القرآن إلا ذمه. وذكر آيات كثيرة. وقال عبد الله ابن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ﷺ: **«لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حتى يكونَ هَوَاهُ تَبعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ»**. وقال أبو أمامة الباهلي ـ رضي الله عنه ـ سمعت النبي ﷺ يقول: **«مَا عُبِدَ تحْتَ السماءِ إلهٌ أبغضُ إلَى اللهِ مِنَ الهوى»**.

وقال شداد بن أوس ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ: **«الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْد الْمَوتِ، والعاجزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمنَّى على اللهِ الأمانيَّ»**.

وقال النبي ﷺ: **«إذا رَأيْتَ شُحاً مُطَاعاً، وهَوًى متبعاً، ودُنياً مؤثرةً، وإعجابَ كلِّ ذِي رأيٍ برَأْيِهِ؛ فعليْكَ بخاصَّةِ نفْسِكَ، ودعْ عنكَ أمْرَ الْعَامَّةِ»**. من حديث طويل، أخرجه ابن ماجه، والترمذي عن أبي أمية الشيباني عن أبي ثعلبة الخشني ـ رضي الله عنهم ـ أجمعين. وقال أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ من حديث طويل عن النبي ﷺ:

«وَثَلاثٌ مهْلِكَاتٌ: شحٌّ مُطَاعٌ، وهوًى متبعٌ، وإعجابُ المرْءِ بنفسِهِ». رواه البيهقي، وغيره.

وقال الأصمعي: سمعت رجلاً يقول: [الكامل]

إنَّ الهوانَ هُوَ الهوَى قُلِبَ اسْمُهُ ... فإذَا هَوِيتَ فقدْ لَقِيتَ هَوَانَا

وسئل ابن المقفع عن الهوى، فقال: هوان سرقت نونه. فأخذه شاعر فنظمه، فقال: [الكامل]

نُونُ الهوانِ مِنَ الهوى مَسْرُوقَةٌ ... فَإذَا هَوِيتَ فقدْ لَقِيتَ هَوانَا

ولابن دريد ـ رحمه الله تعالى ـ قوله: [الطويل]

إذا طَالَبَتْك النفسُ يوماً بشهوةٍ ... وكانَ إِلَيْهَا لِلْخِلَافِ طَرِيقُ

فَدعْهَا وخالِفْ ما استطعتَ فإنَّما ... هَوَاكَ عَدُوٌّ والخلافُ صَدِيقُ

ولأبي عبيد الطوسي ـ رحمه الله تعالى ـ قوله: [الرجز]

والنفْسُ إنْ أعطيْتَهَا مُنَاهَا ... فاغرَةٌ نحوَ هَوَاهَا فَاهَا

وقال سهل بن عبد الله التستري: هواكَ داؤكَ، فإن خالفته فَدَوَاؤُكَ. وللعلماء في هذا الباب في ذم الهوى، ومخالفته كتب، وأبواب أشرنا إلى ما فيه كفاية منه، وحسبك الآيات التي نحن بصدد شرحها.

هذا؛ و﴿ٱلْمَأْوَىٰ﴾ المقر، والملجأ. قال الجوهري: المأوى: كل مكان يأوي إليه شيء ليلاً كان، أو نهاراً، وقد أوى فلان إلى منزله يأوي أَوْياً، وإواءً، ومنه قوله تعالى حكاية عن قول ابن نوح ـ على نبينا، وحبيبنا وعلى نوحٍ ألف صلاة، وألف سلام ـ: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾. وآويته أنا إيواءً، وأويته: إذا أنزلته بك بمعنىً، و«المثوى» بمعناه في كل ما تقدم، ويفرق بينهما: أن المثوى مكان الإقامة المنبئة عن المكث، وأما المأوى فهو المكان الذي يأوي إليه الإنسان، ولو موقتاً، والقرينة تبين طول المكث، كما في الآيات الكثيرة؛ التي تنص: أن النار مأوى الكافرين، والظالمين، والفاسدين المفسدين الذين يدَّعون الإسلام، والإسلام منهم براء. وقدم المأوى على المثوى في قوله تعالى في سورة (آل عمران) رقم [١٥١]: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾؛ لأنه على الترتيب الوجودي يأوي، ثم يثوي.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾

الشرح: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: سأل مشركو مكة رسول الله ﷺ متى تكون الساعة استهزاءً؟ فأنزل الله عز وجل الآية. هذا؛ و«سأل» تارة يكون لاقتضاء معنىً في نفس المسؤول، فيتعدى بـ: «عَنْ» كهذه الآية، وقد يكون لاقتضاء مالٍ، ونحوه، فيتعدى لاثنين، نحو: سألت زيداً مالاً. ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾: متى وقوعها؟ وقيل: متى إثباتها، واستقرارها؟ ورسو الشيء: ثباته، واستقراره، ومنه: رسا الجبل، وأرسى السفينة. وهذا على فتح الميم، والأول على ضم الميم، وعلى الاعتبارين فالجملة استعارة تصريحية. وهذه الجملة مذكورة في سورة (الأعراف) برقم [١٨٧]، وقال تعالى في سورة (الأحزاب) رقم [٦٣]: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ...﴾ إلخ.

فقد أمر الله رسوله ﷺ بهذه الآية بأن يجيبهم بقوله: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، وفي آية (الأعراف) بأن يجيبهم بقوله: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ وهذا السؤال تكرر من المشركين ومن اليهود، وقوله تعالى في كثير من السور: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾

برهان قاطع على ذلك، ومعنى: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يطلع عليه ملكاً، ولا نبياً؛ لأنه تعالى استأثر به.

﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ أي: ليس علمها إليك حتى تذكرها لهم؛ لأنها من الغيوب التي استأثر الله بعلمها، فلماذا يسألونك عنها، ويلحون في السؤال؟ هذا؛ وروى الزهري عن عروة بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ قال: لم يزل النبي ﷺ يسأل عن الساعة حتى نزلت: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ أي: منتهى علمها، فكأنه عليه الصلاة والسلام لما أكثروا عليه السؤال سأل الله أن يعرفه ذلك، فقيل له: لا تسأل، فلست في شيء من ذلك. قال تعالى في سورة (الأعراف) رقم [١٨٧]: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ أي: عالم بها كثير السؤال عنها.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ أي: منتهى علمها، لا يعلم متى تقوم إلا هو. ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ أي: لم تبعث يا محمد لتعلمهم بوقت الساعة، وتحديده، وإنما بعثت لتنذر مِنْ أهوالها مَنْ يخاف شدائدها، وخص الإنذار بمن يخشى؛ لأنهم المنتفعون به، وإن كان الرسول ﷺ منذراً ومخوفاً لكل مكلف.

تنبيه: الساعة: القيامة سميت بذلك؛ لأنها تفجأ الناس بغتة في ساعة، لا يعلمها إلا الله تبارك وتعالى. وقيل: سميت ساعة لسرعة الحساب فيها؛ لأن حساب الخلائق يوم القيامة يكون في ساعة، أو أقل من ذلك. قال تعالى في كثير من الآيات: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ ولا تَنْسَ: أن ساعة كل إنسان، وقيامته وقت مقدمات موته، وما فيه من أهوال، ولذا قال النبي ﷺ: «**مَنْ مَاتَ فقدْ قامَتْ قِيامَتُهُ**». وقيل: سميت الساعة بذلك؛ لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا، وقد ثبت: أن لقيام الساعة علامات، وهي صغرى، وكبرى، فالصغرى قد ظهر جميعها، كقبض العلم الشرعي، وتقارب الزمان، وفيض المال، وكثرة الزلازل، وكثرة القتل، وتطاول البدو في البنيان، وكثرة الفجور، والفسوق، وغير ذلك مما هو واقع، ومشاهد الآن.

أما العلامات الكبرى فخذها مما يلي، فعن حذيفة بن أسيد الغفاري ـ رضي الله عنه ـ قال: طلع علينا رسول الله ﷺ، ونحن نتذاكر الساعة، فقال: «**ما تَذاكرونَ؟**». قالوا: نتذاكر الساعة قال: «**إنّهَا لَنْ تَقُومَ حتى ترَوْا قبْلَهَا عَشْر آياتٍ، فذكر الدخانَ، والدجالَ، والدابةَ، وطلوعَ الشمسِ مِنْ مغربها، ونُزُولَ عيسى ابنِ مريمَ، ويأجوجَ، ومأجوجَ، وثلاثةَ خسوفٍ: خسفٍ بالمشرقِ، وخسفٍ بالمغرب، وخسفٍ بجزيرةِ العربِ، وآخرُ ذلك نارٌ تخرج مِنَ اليمنِ، تطردُ الناسَ إلى محْشرِهِمْ**». أخرجه مسلم.

أقول: ما ذكر في الحديث الشريف بعضه من علاماتها، وبعضه من مبادئها، كخروج الدابة، وطلوع الشمس من مغربها، فعند ذلك يغلق باب التوبة، ولا ينفع نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل، انظر الآية رقم [١٥٨] من سورة (الأنعام).

تنبيه: قال المحققون من العلماء: سبب إخفاء علم الساعة، ووقت قيامها عن العباد؛ ليكونوا دائماً على خوف، وحذر منها؛ لأنهم إذا لم يعلموا متى يكون ذلك الوقت؟ كانوا على وجل وخوف منها، فيكون ذلك أدعى لهم إلى الطاعة، والمسارعة إلى التوبة، وأزجر لهم عن المعصية. فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لتقومنَّ الساعةُ، وقد نشر الرجلانِ ثوبهما بينهما، فلَا يتبايعانِه، ولا يطويانِهِ، ولتقومنَّ الساعةُ، وقد انصرف الرجلُ بلبن لقحتِهِ، فلا يطعمهُ، ولتقومنَّ الساعةُ، وهو يليط حوضَهُ، فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة، وقد رفع أكلته إلى فيه، فلا يطعمها**». متفق عليه.

هذا؛ وقد أخفى الله أموراً أخرى مثل ليلة القدر في شهر رمضان، وساعة الإجابة يوم الجمعة؛ ليجتهد المؤمن، والمؤمنة في ليالي رمضان في العبادة، وليكونا: مجتهدين في الدعاء كل يوم الجمعة، وليلته، كما أخفى الله رضاه في طاعة من الطاعات، وأخفى غضبه في معصية من المعاصي ليجتهدا في جميع الطاعات، وليجتنبا جميع المعاصي، والسيئات. وانظر آخر سورة (لقمان) إن أردت الزيادة.

الإعراب: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾: فعل مضارع، وفاعله، ومفعوله الأول. ﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾: متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿أَيَّانَ﴾: اسم استفهام مبني على الفتح في محل نصب على الظرفية الزمانية متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿مُرْسَىٰهَا﴾: مبتدأ مؤخر مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر، و(ها): في محل جر بالإضافة، والجملة الاسمية في محل نصب مفعول به ثان لـ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾، وهو معلق عن العمل به لفظاً بسبب الاستفهام. ﴿فِيمَ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿أَنتَ﴾: ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ مؤخر. ﴿مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾: جار ومجرور متعلقان بالخبر المحذوف، و(ها) في محل جر بالإضافة، والمعنى: أنت في أي شيء من ذكراها؟ هذا؛ وقيل: الجار، والمجرور ﴿فِيمَ﴾ متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: فيم هذا السؤال، فتم الكلام، ثم استأنف بجملة: ﴿أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ بياناً لسبب الإنكار عن سؤالهم.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: متعلقان بمحذوف خبر مقدم، والكاف في محل جر بالإضافة من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿مُنتَهَىٰهَآ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها. ﴿إِنَّمَآ﴾: كافة، ومكفوفة. ﴿أَنتَ﴾: مبتدأ. ﴿مُنذِرُ﴾: خبر المبتدأ، وهو مضاف، و﴿مَن﴾ اسم موصول مبني على السكون في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. هذا؛ ويقرأ بتنوين (منذر)، فيكون اسم الموصول مفعولاً صريحاً. ﴿يَخْشَىٰهَا﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر، و(ها) مفعول به، والفاعل ضمير مستتر يعود إلى (مَنْ)، وهو العائد، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ...﴾ إلخ مستأنفة، لا محل لها أيضاً.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾

الشرح: ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ أي: المشركين الذين يسألون عن الساعة، وعن وقوعها متى يكون؟ ﴿يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ أي: يوم يشاهدون أهوالها بأعينهم. ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ أي: لم يقيموا في الدنيا، أو في القبور. ﴿إِلَّا عَشِيَّةً﴾ أي: قدر عشية. ﴿أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ أي: قدر الضحا الذي يلي تلك العشية، والمراد: تقليل مدة الدنيا في نظرهم حين يشاهدون القيامة، وأهوالها. قال تعالى في سورة (الأحقاف) رقم [٣٥]: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾، وقال تعالى في سورة (يونس) على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ رقم [٤٥].

فائدة: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إذا عسر على المرأة ولدها تكتب هاتين الآيتين، والكلمتين في صحيفة ثم تغسل وتسقى منها، وهي: (بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله العظيم الحليم الكريم، سُبْحَانَ اللهِ رَبِّ السمواتِ، وَرَبِّ الأَرْضِ، وَرَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيم)، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

هذا؛ وقال الفراء: يقول القائل: وهل للعشية ضحاً؟ وإنما الضحا لصدر النهار، ولكن أضيف الضحا إلى العشية، وهو اليوم الذي يكون فيه على عادة العرب، يقولون: آتيك الغداة، أو عشيتها، وآتيك العشية، أو غداتها، فتكون العشية في معنى آخر النهار، والغداة في معنى أول النهار. قال الفراء: وأنشدني بعض بني عقيل: [الرجز]

نَحْنُ صَبَحْنَا عامِراً في دَارِهَا ... جُرْداً تَعَادَى طَرَفَيْ نَهَارِهَا

عَشِيَّةَ الهِلَالِ أَوْ سِرَارِهَا

أراد عشية الهلال، أو عشية سرار العشية، فهو أشد من: آتيك الغداة، أو عشيّها. انتهى. قرطبي. وقال الزمخشري: صحت الإضافة لما بينهما من الملابسة؛ لاجتماعهما في نهار واحد. انتهى. وقال الجمل نقلاً عن الخطيب: والمراد: ساعة من نهار من أوله، أو آخره، لم يستكملوا نهاراً تاماً، ولم يجمعوا بين طرفيه. انتهى. واعتبره ابن هشام في شذور الذهب من ظروف الزمان المركبة، ومنه قول الشاعر: [الوافر]

وَمَنْ لا يصرف الْوَاشِينَ عَنْهُ ... صَبَاحَ مَسَاءَ يَبْغُوهُ خَبَالَا

ثم قال: ولو أضفت، فقلت: صباح مساءٍ؛ لجاز؛ أي: صباحاً ذا مساءٍ، فلذلك أضفته إليه لما بينهما من المناسبة، وإن كان الصباح، والمساء لا يجتمعان. ونظيره في الإضافة قوله

تعالى: ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ فأضيف الضحى إلى ضمير العشية. وقيل: الأصل: أو ضحى يومها، ثم حذف المضاف. ولا حاجة إلى هذا. انتهى.

هذا؛ وقال الجوهري في صحاحه: العشي، والعشية من صلاة المغرب إلى العتمة، تقول: أتيته عَشِيَّةَ أمْسِ، وعَشِيَّ أمس، وتصغير العشي: عُشَيَّانٌ على غير قياسِ مكبرِه، والجمع عُشَيَّانَات، وتصغير العشية عُشَيْشِيَة، والجمع عُشَيْشِيَات، والعِشاء مثل العشي، والعِشاءان: المغرب، والعتمة. وزعم قوم: أن العشاء من زوال الشمس إلى طلوع الفجر، وأنشدوا: [الوافر]

غَدَوْنَا غُدْوَةً سَحَراً بِلَيْلٍ   عِشَاءً بَعْدَمَا انْتَصَفَ النَّهَارُ

هذا؛ وقال الأزهري: العشي ما بين زوال الشمس، وغروبها. وهذا هو المعتمد عنده. أقول: والمعتمد: أنه الوقت من قبيل العصر إلى المغرب، وهو ما رأيته في تفسير الآية؛ وإن أفتاك الناس وأفتوْك. وقال الماوردي: والفرق بين المساء، والعِشاء: أن المساء بدو الظلام بعد المغيب، والعشاء: آخر النهار عند ميل الشمس للمغيب، وهو مأخوذ من عَشا العين، وهو نقص النور من الناظر كنقص نور الشمس.

هذا؛ وقد قوبل العشي بالإبكار في قوله تعالى لزكريا ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ رقم [٤١] من سورة (آل عمران) وقد قوبل بالغدو في قوله تعالى في حق فرعون وأشياعه: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ رقم [٤٦] من سورة (غافر)، وقوبل بالغداة في قوله تعالى لنبينا، وحبيبنا ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ رقم [٢٨] من سورة (الكهف)، وقوبلت العشية بالضحى في الآية التي نحن بصدد شرحها. تأمل، وتدبر.

الإعراب: ﴿كَأَنَّهُمْ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿يَوْمَ﴾: ظرف زمان متعلق بـ: (كأنَّ) لما فيها من معنى الفعل أشبه، أو يشبهون، ومثل هذه الآية قول القطامي: [الطويل]

كَأَنَّ الْعُقَيْلِيِّينَ يَوْمَ لَقِيتُهُمْ   فِرَاخُ الْقَطَا لَاقَيْنَ أَجْدَلَ بَازِيَا

وأيضاً قول يزيد بن الحكم الثقفي ـ وهو الشاهد رقم [٦٩٢] من كتابنا «فتح القريب المجيب» إعراب شواهد مغني اللبيب ـ. [البسيط]

كَأَنَّنِي حِينَ أُمْسِي لَا تُكَلِّمُنِي   مُتَيَّمٌ يَشْتَهِي مَا لَيْسَ مَوْجُودَا

﴿يَرَوْنَهَا﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله. و(ها): مفعول به، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (يوم) إليها. ﴿لَمْ﴾: حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿يَلْبَثُوٓاْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: ﴿لَمْ﴾ وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (كأن)، والجملة الاسمية مستأنفة،

لا محل لها. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿عَشِيَّةً﴾: ظرف زمان متعلق بالفعل ﴿يَلْبَثُوٓا﴾. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿ضُحَىٰهَا﴾: معطوف على ﴿عَشِيَّةً﴾، منصوب مثله، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذر، و(ها): في محل جر بالإضافة. تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه وسلم.

انتهت سورة (النازعات) بعون الله وتوفيقه.

والحمد لله رب العالمين.

سورة عبس

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة (عبس) وتسمى سورة السفرة، وسورة الأعمى مكية في قول الجميع، وهي إحدى وأربعون آيةً، ومئة وثلاثون كلمةً، وخمسمئة وثلاثة وثلاثون حرفاً. انتهى خازن.

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤﴾

الشرح: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾: كلح بوجهه، وقطب، وأعرض عنه. وانظر «التولي» في سورة (القيامة) رقم [٣٢]. ﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾: هو ابن أم مكتوم، واسمه عبد الله. وقيل: عمرو بن شريح بن مالك بن ربيعة القرشي الفهري من بني عامر بن لؤي، وأم مكتوم أم أبيه، واسمها: عاتكة بنت عامر المخزومي، وهو ابن خالة خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها ـ أسلم قديماً بمكة، وذلك: أنه أتى النبي ﷺ، وهو يحدث صناديد قريش: عتبة بن ربيعة، وأبا جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب، وأبي بن خلف، وأخاه أمية، والوليد بن المغيرة، يدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم أولئك الأشراف الذين كان يخاطبهم، فيتقوى بهم الإسلام، ويسلم بإسلامهم أتباعهم، فتعلو كلمة الله.

فقال: يا رسول الله! أقرئني، وعلمني مما علمك الله! وكرر ذلك، وهو لا يعلم تشاغل النبي ﷺ بالقوم، فكره رسول الله ﷺ قطعه لكلامه، وعبس، وأعرض عنه، وأقبل على القوم الذين يكلمهم. وقال في نفسه: يقول هؤلاء الصناديد إنما اتبعه الصبيان، والعبيد، والسفلة، والعميان. فأنزل الله هذه الآيات معاتبة لرسول الله ﷺ، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يكرمه إذا رآه، ويقول: «**مرحباً بمن عاتبني فيه ربي!**». ويقول له: «**هل لك من حاجة؟**». واستخلفه على المدينة مرتين في غزوتين، وكان من المهاجرين الأولين. وقيل: قتل شهيداً بالقادسية. قال أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: فرأيته يوم القادسية راكباً، وعليه درع، ومعه راية سوداء.

قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: نظير هذه الآية في العتاب قوله تعالى في سورة (الأنعام) رقم [٥٢]: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾، وكذلك قوله في سورة

(الكهف) رقم [٢٨]: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾

قال العلماء: ما فعله ابن أم مكتوم كان من سوء الأدب لو كان عالماً: أن النبي ﷺ مشغول بغيره، وأنه يرجو إسلامهم، ولكن الله تعالى عاتبه؛ حتى لا تنكسر قلوب أهل الصفة، أو ليعلم: أن المؤمن الفقير خير من الغني، وكان النظر إلى المؤمن أولى، وإن كان فقيراً أصلح وأولى من الأمر الآخر، وهو الإقبال على الأغنياء طمعاً في إيمانهم، وإن كان ذلك أيضاً نوعاً من المصلحة.

وقال ابن زيد ـ رحمه الله تعالى ـ: إنما عبس النبي ﷺ لابن أم مكتوم، وأعرض عنه؛ لأنه أشار إلى الذي كان يقوده أن يكفه، فدفعه ابن أم مكتوم وأبى إلا أن يكلم النبي ﷺ حتى يعلمه، فكان في هذا نوع جفاء منه، ومع هذا أنزل الله في حقه على نبيه ﷺ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ بلفظ الإخبار عن الغائب تعظيماً له، ولم يقل: عبست، وتوليت، ثم أقبل عليه بمواجهة الخطاب تأنيساً له، فقال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ أي: وما يعلمك يا محمد، ويخبرك لعل هذا الأعمى الذي عبست في وجهه يتطهر من ذنوبه بما يتلقاه عنك من العلم، والمعرفة. ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ أي: أو يتعظ بما يسمع، فتنفعه موعظتك. هذا؛ وابن أم مكتوم كان مؤمناً قديماً، فهو مطهر من الشرك، وإنما المراد تطهيره من الذنوب، والسيئات.

هذا؛ وقد استدل بهذه الآيات من يرى صدور الذنب من الأنبياء؛ إذ قالوا: لمَّا عاتبه الله في ذلك الفعل؛ دل على أن ذلك الفعل كان معصية. وهذا بعيد؛ فإنا قد بينا: أن ذلك كان هو الواجب المتعين إلا بحسب هذا الاعتبار الواحد، وهو أنه يوهم تقديم الأغنياء على الفقراء، وذلك غير لائق بصلابة الرسول ﷺ، وإذا كان كذلك؛ كان ذلك جارياً مجرى ترك الاحتياط، وترك الأفضل، فلم يكن ذلك ذنباً ألبتة. انتهى. الفخر الرازي. وقال ابن حزم: وأما قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ الآيات، فإنه كان ﷺ قد جلس إليه بعض عظماء قريش، ورجا إسلامهم، وعلم: أنه لو أسلم؛ لأسلم بإسلامه ناس كثيرون، وظهر الدين، وعلم: أن هذا الأعمى الذي يسأله عن أشياء من أمور الدين لا يفوته، وهو حاضر معه، فاشتغل عنه النبي ﷺ بما خاف فوته من عظيم الخير، مما لا يخاف فوته، وهذا غاية النظر في الدين، والاجتهاد في نصرة القرآن في ظاهر الأمر، ونهاية التقريب إلى الله؛ الذي لو فعله اليوم منا فاعل؛ لأُجِر، فعاتبه الله تعالى؛ إذ كان الأولى عند الله أن يُقبل على ذلك الأعمى الفاضل البر التقي، ويترك أولئك المعاندين. انتهى. النبوة والأنبياء للصابوني. هذا؛ وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٤٣] من سورة (التوبة). ففيها بحث جيد.

الإعراب: ﴿عَبَسَ﴾: فعل ماض، والفاعل محذوف يدل عليه المقام، وسياق الكلام؛ إذ المراد به سيد الخلق وحبيب الحق ﷺ، والجملة الفعلية ابتدائية لا محل لها من الإعراب.

﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾: الواو: حرف عطف. (تولى): فعل ماض، والفاعل كذلك محذوف، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها. ﴿أَن﴾: حرف مصدري، ونصب. ﴿جَآءَهُ﴾: فعل ماض. ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾: فاعله مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر، والهاء مفعول به، و﴿أَن﴾ والفعل (جاء) في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به، أو هو في محل جر بحرف جر محذوف، التقدير: عبس، وتولى لمجيء الأعمى وهو الأولى. ﴿وَمَا﴾: الواو: حرف استئناف. (ما): اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يُدْرِيكَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل يعود إلى (ما)، تقديره: «هو»، والكاف مفعول به أول. ﴿لَعَلَّهُۥ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمه. ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾: أصله: يتزكى، فقلبت التاء زاياً، ثم أدغمت بالزاي، فهو مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (لعلَّ)، والجملة الاسمية في محل نصب سدت مسد مفعول ﴿يُدْرِيكَ﴾ الثاني. وقيل: في محل نصب مفعوليه: الثاني، والثالث، وهذا على اعتبار الفعل تعدى إلى ثلاثة مفاعيل بهمزة التعدية. وقيل: المفعول الثاني محذوف، التقدير: وما يدريك أمره، وعاقبة حاله، ويطلعك عليه، وقوله: ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ جملة مستأنفة، لا محل لها. والمعتمد ما ذكرته أولاً. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿يَذَّكَّرُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾ أيضاً، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾. ﴿فَتَنفَعَهُ﴾: الفاء: للسببية. (تنفعه): فعل مضارع منصوب بـ: «أن» مضمرة بعد الفاء، والهاء مفعول به. ﴿ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾: فاعل مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر، و«أن» المضمرة والفعل المضارع في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الفعل السابق، التقدير: لعل تزكية وتذكرة نافعة له. هذا؛ ويقرأ برفع الفعل (تنفع)، وعليه فالجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل رفع مثلها.

﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾

الشرح: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ أي: كان ذا ثروة، وغنىً، فاستغنى عن الإيمان، وعمَّا عندك من العلوم، والمعارف؛ التي ينطوي عليها القرآن. ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ أي: تتعرض له، وتقبل عليه، وتصغي لكلامه. قال الراعي النميري: [الطويل]

تَصَدَّى لِوَضَّاحٍ كَأَنَّ جَبِينَهُ ... سِرَاجُ الدُّجَى يَحْنِي إِلَيْهِ ٱلْأَسَاوِرُ

الأساور ـ جمع: الإسوار بكسر الهمزة، وضمها ـ: قائد الفُرْس. وقيل: هو الجيد الرمي بالسهام. وقيل: هو الجيد الثبات على ظهر الفرس، والجمع: أساورة، وأساور.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ أي: لا يؤمن، ولا يهتدي، وإنما عليك البلاغ، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ﴾ والمعنى لا حرج عليك أن لا يتطهر من دنس الكفر، والفجور، والعصيان، ولست بمطالب بهدايته. قال الآلوسي ـ رحمه الله ـ: وفيه مزيد تنفير له ﷺ عن مصاحبتهم، فإن الإقبال على المدبر مخل بالمروءة كما قال الشاعر: [البسيط]

وَاللهِ لَوْ كَرِهَتْ كَفِّي مُصَاحَبَتِي يَوْماً لَقُلْتُ لَهَا عَنْ صُحْبَتِي بِينِي

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾: يسرع في طلب الخير، والعلم، ويريد الهداية، والمزيد منها. ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾: يخاف الله، ويتقيه، ويعمل صالحاً. ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ أي: تعرض عنه بوجهك، وتتشاغل عنه بغيره. هذا؛ والتلهي من اللهو، وهو اللعب. قال الحارث بن حلزة في معلقته رقم [١٥]: في وصف ناقته التي يقطع بها الصحاري، والقفار: [الخفيف]

أَتَلَهَّى بِهَا الْهَوَاجِرَ إذْ كُـ ـلُّ ابْنِ هَمٍّ بَلِيَّةٌ عَمْيَاءُ

وهذا المعنى غير مراد بالآية قطعاً؛ لأنه لا يليق بمقام النبوة. هذا؛ وأصل تلهى: تتلهى، فحذفت منه إحدى التاءين تخفيفاً، ومثله: ﴿تَصَدَّىٰ﴾ أصله: تتصدى، وهذا الحذف كثير في العربية شعراً، ونثراً.

قال ابن كثير: ومن هاهنا أمر الله تعالى رسوله ﷺ ألَّا يخصَّ بالإنذار أحداً، بل يساوي فيه بين الشريف، والضعيف، والفقير، والغني، والسادة، والعبيد، والرجال، والنساء، والصغار، والكبار، ثم الله يهدي به من يشاء إلى صراط مستقيم، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة. انتهى. ورحم الله الإمام مالكاً؛ إذ قال للمنصور: إن هذا العلم لا ينتفع به الخاصة؛ إذا حرمه العامة. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿أَمَّا﴾: أداة شرط، وتوكيد، وتفصيل، انظر الآية رقم [٣٧] من سورة (النازعات). ﴿مَنِ﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿ٱسْتَغْنَىٰ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى ﴿مَنِ﴾ وهو العائد، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿فَأَنتَ﴾: الفاء: واقعة في جواب ﴿أَمَّا﴾. (أنت): ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور متعلقان بما بعدهما. ﴿تَصَدَّىٰ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر، والفاعل مستتر تقديره: «أنت»، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: (أنت...) إلخ في محل رفع خبر المبتدأ الذي هو ﴿مَن﴾، والجملة الاسمية هذه مستأنفة، لا محل لها.

﴿وَمَا﴾: الواو: واو الحال. (ما): نافية. ﴿عَلَيْكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿أَلَّا﴾: (أنْ): حرف مصدري، ونصب. (لا): نافية. ﴿يَزَّكَّىٰ﴾: فعل مضارع منصوب بـ: (أنْ)، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى ﴿مَن﴾ أيضاً، و(أنْ)

والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل رفع مبتدأ مؤخر، التقدير: عدم تزكيته ما كائن، أو ما حرج، ولا مؤاخذة عليك بسببها، والجملة الاسمية في محل نصب حال من فاعل ﴿تَصَدَّىٰ﴾، والرابط: الواو، والضمير. هذا؛ وأجيز اعتبار (ما) استفهامية مبنية على السكون في محل رفع مبتدأ، واعتبار الجار، والمجرور متعلقين بمحذوف في محل رفع خبره، واعتبار المصدر في محل جر بحرف جر محذوف، التقدير: أي شيء عليك في كونه لا يفلح، ولا يتطهر من دنس الكفر؟! وهذا يعني: أن الجار، والمجرور متعلقان بـ: (ما) الاستفهامية لما فيها من معنى الفعل، أو هما متعلقان بالخبر المحذوف، وعلى هذا الوجه من الاعتبار لا تكون الجملة في محل نصب حال، بل هي مستأنفة؛ لأن الحال لا تكون جملة إنشائية، والاستفهام إنشاء. ومثل هذه الآية في وجهي الإعراب قول الشاعر ـ وهو الشاهد رقم [٧٣]: من كتابنا: «فتح رب البرية» والشاهد رقم [٨١٣]: من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [البسيط]

وَمَا نُبَالِي إذَا مَا كُنْتِ جَارَتَنَا ... أَلَّا يُجَاوِرَنَا إِلَّاكِ دَيَّارُ

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ﴾: هو مثل الآية رقم [٥]. ﴿يَسْعَىٰ﴾: فعل مضارع مرفوع، والفاعل يعود إلى (من)، والجملة الفعلية في محل نصب حال من فاعل ﴿جَآءَكَ﴾، والرابط: الضمير فقط. ﴿وَهُوَ﴾: الواو: واو الحال. (هو): ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ، وجملة: ﴿يَخْشَىٰ﴾ في محل رفع خبره، والجملة الاسمية في محل نصب حال من فاعل ﴿يَسْعَىٰ﴾ فهي حال متداخلة، أو من فاعل ﴿جَآءَكَ﴾ فهي حال متكررة، والرابط: الواو، والضمير. ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾: مثل: ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ محلاً وإعراباً. والله الموفق، والمعين.

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾

الشرح: ﴿كَلَّآ﴾: ردع؛ أي: لا تعد إلى مثل ذلك يا محمد! وانظر الآية رقم [١٦]: من سورة (المدثر). ﴿إِنَّهَا﴾ أي: الآيات، أو السورة، أو القرآن كله. ﴿تَذْكِرَةٌ﴾: موعظة، وتذكير، وتبصرة لمن يتعظ، ويتذكر. ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي: اتعظ، وتذكر بالقرآن. قال الجرجاني: ﴿إِنَّهَا﴾ أي: القرآن، والقرآن مذكر؛ إلا أنه لما جعل القرآن تذكرة؛ أخرجه على لفظ التذكرة، ولو ذكَّره لجاز، كما قال في موضع آخر: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾ سورة (المدثر) رقم [٥٤]. انظرها هناك فالكلام عليها جيد. قال المفسرون: كان النبي ﷺ بعد هذا العتاب لا يعبس في وجه فقير قط، ولا يتصدى لغني أبداً، وكان الفقراء في مجلسه أمراء، وكان إذا دخل ابن أم مكتوم؛ يبسط له رداءه، ويقول: «**مرحباً بمن عاتبني فيه ربي**». ثم بعد هذا البيان أخبر عن جلالة قدر القرآن، فقال: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ أي: هو في صحف مكرمة عند الله. وقيل: مكرمة؛ لأنها نزل بها كرام

الملائكة: جبريل، وميكائيل، وغيرهما. ﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾: رفيعة القدر عند الله، ومكانتها عالية، منزهة عن أيدي الشياطين، وعن كل دنس ونقص. ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ أي: بأيدي ملائكة كرام، جعلهم الله سفراء بينه، وبين رسله الذين اصطفاهم للتبليغ، فهم بررة، لم يتدنسوا بمعصية قط. و﴿بَرَرَةٍ﴾ جمع: بار، مثله: كافر، وكفرة، وساحر، وسحرة. وفاجر، وفجرة. يقال: بر، وبار: إذا كان أهلاً للصدق، ومنه بر فلان في يمينه؛ أي: صدق، وفلان يبر خالقه، ويتبرره؛ أي: يطيعه. فمعنى بررة مطيعين لله، صادقين لله في أعمالهم. هذا؛ وفي الصحاح: وجمع البر: الأبرار، وجمع البار: البررة، انتهى. قال تعالى في سورة (الدهر) رقم [٥]: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ...﴾ إلخ. وفي سورة (الانفطار) و(المطففين) ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾.

وروى أبو صالح عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: ﴿سَفَرَةٍ﴾: كتبة، وهم الملائكة الكرام الكاتبون لأعمال العباد في الأسفار؛ التي هي الكتب، واحدهم: سافر، والكتاب: هو السفر، وجمعه: أسفار. قال تعالى في سورة (الجمعة) رقم [٥] في حق علماء اليهود اللؤماء: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾.

قال الزجاج: وإنما قيل للكتاب: سفر (بكسر السين) وللكاتب: سافر؛ لأن معناه: أنه يبين الشيء ويوضحه، يقال: أسفر الصبح: إذا أضاء، وسفرت المرأة: إذا كشفت النقاب عن وجهها. قال: ومنه: سفرت بين القوم، أسفر سفارة: أصلحت بينهم. وقاله الفراء، وأنشد قول القائل: [الوافر]

فَمَا أَدَعُ السِّفَارَةَ بَيْنَ قَوْمِي ولا أَمْشِي بِغِشٍّ إنْ مَشَيْتُ

والسفير: الرسول، والمصلح بين القوم. والجمع: سفراء، مثل: فقيه، وفقهاء. هذا؛ واليد تستعمل في الأصل للجارحة، وتطلق ويراد بها: القوة، والقدرة. قال تعالى في سورة (الذاريات): ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾ وخذ قول عروة بن حزام العذري ـ وهو الشاهد رقم [١١٦] من كتابنا: «فتح رب البرية» ـ: [الطويل]

وَحُمِّلْتُ زَفْرَاتِ الضُّحَى فَأَطَقْتُهَا وَمَالِي بِزَفْرَاتِ الْعَشِيِّ يَدَانِ

قال تعالى في سورة (يس) رقم [٧١]: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ كما تطلق على النعمة، والمعروف، يقال: لفلان يدٌ عندي. أي: نعمة، ومعروف، وإحسان. وتطلق على الحيلة والتدبير، يقال: لا يد لي في هذا الأمر؛ أي: لا حيلة لي فيه، ولا تدبير. وينبغي أن تعلم: أن (الأيد) في آية (الذاريات) مفرد، وليس بجمع، ومثلها قوله تعالى في سورة (ص) رقم [١٧]: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾. وينبغي أن تعلم: أن تفسير اليد بالقوة في سورة (الذاريات) وغيرها، إنما هو قول الخلف، وأما السلف؛ فإنهم يقولون: لله يدٌ لا نعلمها. أو يقولون: له يد تليق به. ومذهب الخلف مذهب التأويل، ومذهب السلف مذهب التفويض.

الإعراب: ﴿كَلَّآ﴾: حرف ردع، وزجر. ﴿إِنَّهَا﴾: (إنَّ): حرف مشبه بالفعل، و(ها): اسمها. ﴿تَذْكِرَةٌ﴾: خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها. ﴿فَمَن﴾: الفاء: حرف استئناف، وتفريع، أو هي الفصيحة. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿شَآءَ﴾: فعل ماضٍ مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ)، تقديره: «هو». ﴿ذَكَرَهُۥ﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم جواب الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ) أيضاً، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جملة جواب الشرط، ولم تقترن بالفاء، ولا بـ: «إذا» الفجائية، وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلف فيه، فقيل: جملة الشرط. وقيل: جملة الجواب. وقيل: الجملتان، وهو المرجح لدى المعاصرين. هذا؛ وإن اعتبرت (مَنْ) اسماً موصولاً؛ فهو مبتدأ، والجملة بعده صلته، وجملة: ﴿ذَكَرَهُۥ﴾ في محل رفع خبره، والجملة الاسمية لا محل لها على الوجهين المعتبرين في الفاء؛ لأنها معترضة بين ما قبلها، وما بعدها.

﴿فِى صُحُفٍ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة ﴿تَذْكِرَةٌ﴾، أو في محل نصب حال من الهاء، أو هما متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هو، أو هي، وتعود الجملة الاسمية لتكون صفة ﴿تَذْكِرَةٌ﴾، أو في محل نصب حال من الهاء. وقال الجلال: خبر ثانٍ؛ لأنها، وما قبلها اعتراض. ﴿مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ﴾: صفات ﴿صُحُفٍ﴾. ﴿بِأَيْدِى﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة رابعة لـ: ﴿صُحُفٍ﴾، أو في محل نصب حال منها بعد وصفها بما تقدم. هذا؛ وتعليق أبي البقاء الجار، والمجرور بما تعلق به ﴿فِى صُحُفٍ﴾ لا وجه له ألبتة؛ لأن المعنى لا يؤيده. و(أيدي) مضاف، و﴿سَفَرَةٍ﴾ مضاف إليه، وهو صفة لموصوف محذوف، التقدير: (بأيدي ملائكة سفرة). ﴿كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾: صفتان لـ: «ملائكة» المقدر.

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝٢٣﴾

الشرح: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ أي: لعن الإنسان الكافر، وطرد من رحمة الله ما أشد كفره بالله مع كثرة إحسانه إليه، وأياديه عنده! قال الآلوسي ـ رحمه الله تعالى ـ: والآية دعاء عليه بأشنع الدعوات، وأفظعها، وتعجيب من إفراطه في الكفر، والعصيان، وهذا في غاية الإيجاز، والبيان. وأصل ﴿قُتِلَ﴾ الدعاء بالقتل، والهلاك، ثم جرى مجرى: لعن، وقبح. وهو مع اختصاره يدل على سخط عظيم، وذم بليغ.

هذا؛ وروى الضحاك عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: نزلت الآيات في عتيبة بن أبي لهب، وكان من قصته: أنه كان قد خطب أم كلثوم بنت النبي ﷺ، ولم يدخل بها، وكان نكاح

المشرك للمسلمة غير ممنوع في صدر الإسلام، ثم حرمه الله تعالى بقوله: ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ﴾ الآية رقم [٢٢٠]: من سورة (البقرة)، وبقوله تعالى في صلح الحديبية: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ الآية رقم [١٠]: من سورة (الممتحنة)، فلمَّا نزلت سورة: (المسد)، قال عتيبة لعنه الله، وقد أراد الذهاب إلى الشام: لآتين محمداً، فلأوذينه في ربه، فأتاه، فقال: يا محمد! هو كافر بالنجم. وفي رواية: برب النجم إذا هوى، وبالذي دنا، فتدلى، ثم بصق في وجه النبي ﷺ، ورد عليه ابنته، فقال النبي ﷺ: «**اللهم ابعث عليه كلباً من كلابك**». وكان أبو طالب حاضراً، فوجم لها أبو طالب. وقال: «ما أغناك يا بن أخي عن هذه الدعوة؟» فرجع عتيبة إلى أبيه، فأخبره بذلك، ثم خرج إلى الشام في جماعة، فنزلوا منزلاً، فأشرف عليهم راهب من دير، فقال لهم: إن هذه الأرض مسبعة، فقال أبو لهب لأصحابه: إنكم قد عرفتم نسبي، وحقي، فقالوا: أجل يا أبا لهب! فقال: أعينونا يا معشر قريش هذه الليلة، فإني أخاف على ابني دعوة محمد، فاجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة، ثم افرشوا لابني عليه، ثم افرشوا لكم حوله، ففعلوا، ثم جمعوا جمالهم، وأناخوها، وأحدقوا بعتيبة، فجاء الأسد يتشمم وجوههم حتى ضرب عتيبة، فقتله، وفي رواية فضخ رأسه، فقال وهو بآخر رمق: ألم أقل لكم: إن محمداً أصدق الناس لهجة! ومات؟ فقال أبوه: قد عرفت والله ما كان يتفلت من دعوة محمد ﷺ. انتهى. زيني دحلان.

﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ أي: من أي شيء خلق الله هذا الكافر، فهو يتكبر، ويتعاظم بنفسه؟! وهو استفهام معناه التقرير، والتحقير لأصله. ثم بين الله ذلك بقوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ يعني: خلقه أطواراً، نطفة، ثم علقة، ثم مضغة إلى آخر خلقه. وقيل: (قدره) يعني: خلق رأسه، وعينيه، ويديه، ورجليه على قدر ما أراده، وحسناً، ودميماً، وقصيراً، وطويلاً، وشقياً، وسعيداً، وسواه إنساناً كاملاً، كما قال تعالى في سورة (الكهف) حكاية عن قول الصاحب المؤمن لقول صاحبه الكافر الجاحد نعمة الله عليه: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ رقم [٣٧]: من سورة (الكهف). قال الأحنف بن قيس ـ رحمه الله تعالى ـ: عجبت لمن جرى في مجرى البول مرتين كيف يتكبر؟! وينسب هذا القول إلى الحسن البصري أيضاً. ونظر المطرف بن عبد الله إلى المهلب بن أبي صفرة، وعليه حلة يسحبها، ويمشي الخيلاء؛ فقال له: يا أبا عبد الله! ما هذه المشية التي يبغضها الله، ورسوله؟! فقال له: أما تعرف من أنا؟ قال له: بلى أعرفك، أوَّلك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وحشوك فيما بين ذلك بول وعذرة.

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يسره للخروج من بطن أمه. هذا؛ وثبت: أن رأس المولود في بطن أمه من فوق، ورجليه من تحت. فهو في بطن أمه على الانتصاب فإذا جاء وقت خروجه؛ انقلب بإلهام من الله تعالى. انتهى. الفخر الرازي. وقال

مجاهد: يسره لطريق الخير، أو الشر؛ أي: بين له ذلك، كما قال تعالى في سورة (الدهر) رقم [٣]: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

وقاله الحسن، وعطاء، وابن عباس في رواية أبي صالح عنه. وقال أبو بكر بن طاهر: يسر على كل أحد ما خلقه له، وقدره عليه، ودليله قول النبي ﷺ: «**اعْمَلوا فكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ لَهُ**».

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ أي: جعل له قبراً يوارى فيه إكراماً له، ولم يجعله ممَّا يلقى على وجه الأرض، تأكله الطير، والوحوش، والبهائم، ولذلك لما قتل قابيل أخاه هابيل، فلم يدرِ كيف يواري جثته؟ حمله على عاتقه؛ حتى أنتن، فبعث الله إليه غرابين، فاقتتلا؛ حتى قتل أحدهما الآخر، ثم حفر القاتل حفرة بمنقاره، ورجليه، ثم ألقاه فيها، وواراه التراب، وقابيل ينظر، فلما رأى ذلك من فعل الغراب؛ فعل بأخيه هابيل مثل ذلك، فواراه التراب، وذلك سنة متبعة في بني آدم إلى يوم القيامة. هذا؛ و(أقبره) جعل له قبراً، وأمر أن يقبر. وقال (أقبره): ولم يقل: قبره؛ لأن القابر هو الدافن بيده. قال الأعشى: [السريع]

لَوْ أَسْنَدَتْ مَيْتاً إِلَى نَحْرِهَا عَاش وَلَمْ يُنْقَلْ إِلَى قَابِرِ

يقال: قبرت الميت: إذا دفنته، وأقبره الله؛ أي: صيره بحيث يقبر، وجعل له قبراً. تقول العرب: بترت ذنب البعير، وأبتره الله، وعضبت قرن الثور، وأعضبه الله، وطردت فلاناً، والله أطرده؛ أي: صيره طريداً. وانظر سورة (التكاثر).

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ أي: أحياه بعد موته، وبعثه للحساب، والجزاء. هذا؛ ويقرأ: (شاء نشره) بغير همزة لغتان فصيحتان بمعنىً، يقال: أنشر الله الميت، ونشره. قال الأعشى: [السريع]

حَتى يَقُولَ النَّاسُ مِمَّا رَأَوْا يا عَجَباً لِلْمَيِّتِ النَّاشِرِ

هذا؛ والتعبير بقوله تعالى: ﴿إِذَا شَآءَ﴾ إشعار بأن وقت المشيئة غير معلوم، وأما سائر الأحوال المذكورة قبل ذلك، فإنها تعلم أوقاتها من بعض الوجوه، فلم تفوض إلى مشيئته تعالى.

﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ أي: ليرتدع، وينزجر الكافر عن تكبره، وتجبره، فإنه لم يؤدِ ما فرض عليه، ولم يفعل ما كلفه به ربه من الإيمان، والطاعة. وكان ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يقول: لم يفِ بالميثاق الذي أخذ عليه في صلب آدم. فهو يعني ما ذكر في سورة (الأعراف) رقم [١٧١]: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ...﴾ إلخ.

هذا؛ و«أمر» يتعدى لمفعولين، تارةً بنفسه، كما في قولك: أمرتك الخير، وتارةً يتعدى للثاني بحرف الجر، كما في قولك: أمرتك بالخير، ومثله: استغفر، واختار، وكَنَى، وسمى، ودعا، وصَدَّق، وزوَّج، وكال، ووزن، انظر سورة (المطففين) رقم [٣] وأيضاً نصح، وشكر. فمثال «استغفر»، وقد نصب مفعولين صريحين قول الشاعر: [البسيط]

أَسْتَغْفِرُ اللهَ ذَنْباً لَسْتُ مُحْصِيَهُ رَبَّ الْعِبَادِ إِلَيْهِ الْوَجْهُ وَالْعَمَلُ

ومثال «أمر» وقد نصب مفعولين صريحين قول عمرو بن معد يكرب الزبيدي ـ رضي الله عنه ـ ـ وهو الشاهد رقم [٤٨٥]: من كتابنا: «فتح رب البرية»، والشاهد رقم [٥٩٧]: من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: إعراب شواهد مغني اللبيب ـ: [البسيط]

أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ فافعَلْ مَا أُمِرْتَ بِهِ فَقَدْ تَرَكْتُكَ ذَا مَالٍ وَذَا نَشَبِ

وتقول: نصحتك، ونصحت له، وشكرتك، وشكرت لك.

هذا؛ والأمر من: أَمَر مُرْ، وأصله: أؤمُرْ، لكن لم يستعمل على الأصل، وحذفت الهمزتان تخفيفاً لاجتماع الضمات، وهذا الحذف واقع في الأمر المأخوذ من: أخذ، وأكل أيضاً، فيقال: خُذْ، وكُلْ، وقد قالوا: أؤمُرْ، وأؤخُذْ، فاستعملا على الأصل، ومنه (أْؤمُرْ) في الآية رقم [١٩٩] من سورة (الأعراف)، ورقم [١٣٢]: من سورة (طه)، ورقم [١٧] من سورة (لقمان).

تنبيه: قال الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله تعالى ـ: القضاء يحتمل الحكم، كقوله تعالى: ﴿لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي: ليحكم ما قد علم أنه يكون كائناً، أو ليتم أمراً كان قد أراده، وما أراد كونه؛ فهو مفعول لا محالة. انتهى. والماضي: قضى، والمصدر «قضاء» بالمد؛ لأن لام الفعل ياء؛ إذ أصل ماضيه (قَضَيَ). بفتح الياء، فقلبت ألفاً لتحركها، وانفتاح ما قبلها، فقلبت ألفاً، فاجتمع ألفان، فأبدلت الثانية همزة، فصار: قضاءً ممدوداً، وجمع القضاء: أقضية كعطاء، وأعطية، وهو في الأصل: إحكام الشيء، وإمضاؤه، والفراغ منه، كما في قول الشاعر ـ وهو الشاهد رقم [١٧٩] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الخفيف]

وجْهُكَ الْبَدْرُ لا بَلِ الشَّمْسُ لَوْ لَمْ يُقْضَ لِلشَّمْسِ كَسْفَةٌ أَوْ أُفُولُ

ويكون بمعنى الأمر، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾. وبمعنى العلم، تقول: قضيت بكذا؛ أي: أعلمتك به. وبمعنى الإتمام، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. وبمعنى الفعل، قال تعالى حكاية عن قول السحرة لفرعون: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾. وبمعنى الإرادة، وهو كثير، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾. وبمعنى الموت كقوله تعالى حكاية عن قول أهل النار: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾. وانظر معنى الآية التي نحن بصدد شرحها. وبمعنى الكتابة، قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي: مكتوباً في اللوح المحفوظ. وبمعنى الفصل، قال تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. وبمعنى الخلق، كما في قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾. وبمعنى بلوغ المراد، والأرب. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾. وبمعنى وفاء الدين، تقول: قضى فلان ما عليه: إذا أوفى ذمته، وأبرأها مما عليه من ديون. انتهى. قسطلاني شرح البخاري بتصرف. وأضيف: أنه يكون بمعنى أوحينا، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ إلخ.

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: فإذا كان القضاء يحتمل هذه المعاني، فلا يجوز إطلاق القول بأن المعاصي بقضاء الله؛ لأنه إن أريد به الأمر؛ فلا خلاف: أنه لا يجوز ذلك؛ لأن الله تعالى لم يأمر بها، فإنه لا يأمر بالفحشاء. وقال زكريا بن سلام: جاء رجل إلى الحسن البصري، فقال: إنه طلق امرأته ثلاثاً، فقال: إنك قد عصيت ربك، وبانت منك! فقال الرجل: قضى الله ذلك عليَّ، فقال الحسن، وكان فصيحاً: ما قضى الله ذلك؛ أي: ما أمر الله به، وقرأ قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾. انتهى. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿قُتِلَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول. ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾: نائب فاعل، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾: ﴿مَآ﴾: نكرة تامة بمعنى شيء مبنية على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿أَكْفَرَهُۥ﴾: فعل ماض جامد مبني على الفتح، والفاعل مستتر فيه وجوباً تقديره: «هو» يعود إلى ﴿مَآ﴾، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر ﴿مَآ﴾. هذا؛ وأجيز اعتبار ﴿مَآ﴾ استفهامية في محل رفع مبتدأ، والجملة الفعلية في محل رفع خبرها، التقدير: أي شيء دعاه إلى الكفر؟ وعلى الوجهين فالجملة اسمية، وهي مستأنفة، لا محل لها. وهناك أوجه أخر في إعراب هذه الجملة ضربت عنها صفحاً للاختصار. ﴿مِنْ أَيِّ﴾: متعلقان بالفعل بعدهما، و﴿أَيِّ﴾: مضاف، و﴿شَيْءٍ﴾: مضاف إليه. ﴿خَلَقَهُۥ﴾: فعل ماض، والهاء مفعول به، والفاعل محذوف، أو هو ضمير يعود إلى (الله)، وهو غير مذكور، لكنه مفهوم من المقام، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾: متعلقان بما بعدهما. ﴿خَلَقَهُۥ﴾: فعل ماض، ومفعوله، والفاعل مثل سابقه مفهوم من المقام، والجملة الفعلية بدل من سابقتها، وبيان لها. هذا؛ وإن اعتبرت الجار، والمجرور ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ بدلاً مما قبلهما؛ فالجملة الفعلية تكون مستأنفة، لا محل لها، وجملة: (قدره) معطوفة عليها على الوجهين المعتبرين فيها. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾: مفعول به لفعل محذوف، يفسره المذكور بعده. هذا؛ وقيل: إن الضمير للإنسان، و﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ ظرف مكان، أو هو مفعول ثان للفعل المفسر بما بعده، التقدير: يسره السبيل، وعلى هذا فالفعل يتضمن معنى: أعطى. وتقدم مثله في قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ الآية رقم [٣] من سورة (الدهر). ﴿يَسَّرَهُۥ﴾: فعل ماض، والهاء مفعول به، والفاعل يعود إلى (الله)، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، وجملة: ﴿أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ معطوفتان أيضاً.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك مبني على السكون في محل نصب. ﴿شَآءَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (الله)، والمفعول محذوف، التقدير: شاء نشره، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على المشهور المرجوح، وجملة (أنشره) جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها، و﴿إِذَا﴾ ومدخولها معطوف على ما قبله، لا محل له مثله، ﴿كَلَّا﴾: ردع، وزجر للإنسان عما هو عليه من التكبر، والتجبر، والترفع، والإصرار على إنكار التوحيد، وإنكار البعث والحساب. هذا؛ وقيل: ﴿كَلَّا﴾

بمعنى: حَقًّا. ﴿لَمَّا﴾: حرف نفي، وقلب، وجزم. هذا؛ وقال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: (ما) زائدة مثل قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ وهذا يعني: أن اللام للأمر، وهي مكسورة، ولم يقرأ أحد بذلك. ﴿يَقْضِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: ﴿لَمَّا﴾، وعلامة جزمه حذف حرف العلة من آخره، وهو الياء، والكسرة قبلها دليل عليها، والفاعل يعود إلى (الله). ﴿مَآ﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿أَمَرَهُۥ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (الله)، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها، والعائد محذوف، التقدير: الذي أمره الله به. وجملة: ﴿كَلَّا لَمَّا...﴾ إلخ مستأنفة.

تنبيه: لقد رأيت: أن الفاعل في الأفعال الثمانية المتقدمة المذكورة قد عاد إلى غير مذكور لفهمه من سياق الكلام، والمقام يدل عليه، وهذا مستعمل في القرآن الكريم، والكلام العربي، من ذلك قوله تعالى في سورة (الواقعة): ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾، وفي سورة (ص) رقم [٣٢]، وفي سورة (هود) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام رقم [٤٤]، وفي سورة (لقمان) رقم [١٦]، وسورة (النساء) رقم [٤٠]، وفي سورة (القيامة) رقم [٢٦] انظر هذه الآيات في محالها؛ تجد ما يسرك، ويثلج صدرك؟

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾

الشرح: قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: لماذا ذكر الله جل ثناؤه ابتداء خلق الإنسان؛ ذكر ما يسر من رزقه؛ أي: فلينظر كيف خلق الله طعامه. وهذا النظر نظر القلب بالفكر؛ أي: ليتدبر كيف خلق الله طعامه الذي هو قوام حياته، وكيف هيأ له أسباب المعاش؛ ليستعد بها للمعاد، وروي عن الحسن، ومجاهد قالا: أي: فلينظر إلى مدخل الطعام، ومخرجه. وروى ابن أبي خيثمة عن الضحاك بن سفيان الكلابي قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا ضَحَّاكُ مَا طَعَامُكَ؟**». قلت: يا رسول الله! اللحمُ، واللبنُ. قال: «**نعم يصيرُ إلى مَاذَا؟**». قلت: إلى ما قد علمته! قال: «**فإنَّ الله ضربَ مَا يَخْرُجُ مِن ابْن آدَمَ مَثَلاً للدُّنْيَا**». وقال أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ: قال النبي ﷺ: «**إن مطعم ابن آدم، جُعِلَ مثلاً لِلدُّنْيَا وإن قَزَّحَهُ، وَمَلَّحَهُ، فانظرْ إلى ما يَصِيرُ**». والمعنى: إن المطعم، وإن تكلف الإنسان التنوق في صنعته، وتطييبه، فإنه عائد إلى حال يكره، ويستقذر، فكذلك الدنيا المحروص على عمارتها، ونظم أسبابها راجعة إلى خراب وإدبار. انتهى. قرطبي. والمراد بالإنسان: ابن آدم.

﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾: المراد: المطر الذي ينزل من السماء، والذي يتسبب عنه النبات في الأرض. ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾: فيخرج منها النبات على اختلاف أنواعه، ومنافعه. فقيل: هو

من باب الإسناد الحقيقي. وقيل: بل هو من باب الإسناد المجازي من باب إسناد الفعل إلى السبب.

﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا﴾ أي: الحبوب التي يتغذى منها الإنسان، كالقمح، والشعير، والذرة، ونحو ذلك. ﴿وَعِنَبٗا﴾: وهذا غذاء من وجه، وفاكهة من وجه، فلهذا أتبعه الحبَّ. ﴿وَقَضۡبٗا﴾: هو القت، وهو الرطب سمي بذلك؛ لأنه يقتضب؛ أي: يقطع في كل الأيام، كالبقول؛ التي تقضب مرة بعد مرة. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو الرطب؛ لأنه يقضب من النخل، ولأنه ذكر بعد العنب. وقال الخليل: القضب: الفصفصة الرطبة. ﴿وَزَيۡتُونٗا﴾ أي: شجرة الزيتون؛ التي يستخرج منها الزيت، انظر ما ذكرته في الآية رقم [٢٠] من سورة (المؤمنون). ﴿وَنَخۡلٗا﴾ أي: شجر النخيل. ﴿وَحَدَآئِقَ﴾ أي: بساتين، واحدها: حديقة. قال الكلبي: كل شيء أحيط عليه من نخيل، أو شجر؛ فهو حديقة، وما لم يحط عليه؛ فليس بحديقة. ﴿غُلۡبٗا﴾: عظاماً شجرها. يقال: شجرة غلباء، ويقال: الغلب الشجر الملتف بعضه على بعض. ويقال للأسد: الأغلب؛ لأنه مصمت العنق، لا يلتفت إلا جميعه. قال العجاج: [الرجز]

مَا زِلْتُ يَوْمَ الْبَيْنِ أَلْوِي صُلْبِي ... والرَّأسَ حَتَّى صِرْتُ مِثْلَ الأَغْلَبِ

ورجل أغلب بين الغلب: إذا كان غليظ الرقبة. والأصل في الوصف بالغلب الرقاب، فاستعير. قال عمرو بن معدي كرب الزبيدي ـ رضي الله عنه ـ: [الكامل]

يَمْشِي بِهَا غُلْبُ الرِّقَابِ كَأَنَّهُمْ ... بُزْلٌ كُسِينَ مِنَ الْكُحَيْلِ جِلَالَا

والكحيل: نوع من القطران، تطلى به الإبل الجرب، ولايستعمل إلا مصغراً. ﴿وَفَٰكِهَةٗ﴾: يعني: جميع ألوان الفاكهة التي خلقها الله للتفكه، والتلذذ. ﴿وَأَبّٗا﴾ يعني: الكلأ، والمرعى؛ الذي لم يزرعه الناس مما يأكله الدواب، والأنعام. وقال ابن عباس، والحسن ـ رضي الله عنهما ـ: الأب: كل ما أنبتت الأرض مما لا يأكله الناس، وما يأكله الآدميون هو الحصيد، ومنه قول الشاعر في مدح النبي ﷺ: [الطويل]

لَهُ دَعْوَةٌ مَيْمُونَةٌ رِيحُهَا الصَّبَا ... بِهَا يُنْبِتُ اللهُ الحَصِيدَةَ وَالأَبَّا

وقال إبراهيم التيمي: سئل أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ عن تفسير الفاكهة، والأب، فقال: أيُّ سماء تظلني، وأيُّ أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم؟ وقال أنس ـ رضي الله عنه ـ: سمعت عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قرأ هذه الآية، ثم قال: كل هذا قد عرفناه، فما الأب؟ ثم رفع عصاً كانت بيده وقال: هذا لعمر الله التكلف، وما عليك يا بن أم عمر ألا تدري ما الأب؟! ثم قال: اتبعوا ما بُيِّن لكم من هذا الكتاب، وما لا؛ فدعوه.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «**خُلِقْتُمْ من سبع، ورُزِقْتُمْ مِنْ سَبْعٍ، فَاسْجُدُوا للهِ عَلَى سَبْعٍ**». وإنَّما أراد: بقوله: «**خلقتم من سبعٍ**». يعني: من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة. . .إلخ

الآيات من سورة (المؤمنون) رقم [١٣ و١٤]. والرزق من سبع، وهو قوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا...﴾ إلخ. وانظر استدلال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بهذه الآيات، وبآيات سورة (المؤمنون) رقم [١٣ و١٤]: على ليلة القدر في سورة (المؤمنون).

﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ﴾ يعني، الفواكه، والحب بأنواعه رزق لكم. والكلأ بأنواعه رزق لبهائمكم، وحيواناتكم. قال ابن كثير: وفي هذه الآيات امتنان على العباد، وفيها استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء الأجسام بعدما كانت عظاماً باليةً، وأوصالاً متقطعةً متفرقةً. والله أعلم بمراده.

الإعراب: ﴿فَلۡيَنظُرِ﴾: الفاء: حرف استئناف. اللام: لام الأمر. (ينظر): فعل مضارع مجزوم بلام الأمر. ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿أَنَّا﴾: (أنَّ): حرف مشبه بالفعل، و(نا): اسمها، حذفت نونها، وبقيت الألف دليلاً عليها. ﴿صَبَبۡنَا﴾: فعل، وفاعل. ﴿ٱلۡمَآءَ﴾: مفعول به. ﴿صَبّٗا﴾: مفعول مطلق، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (أنَّ)، و(أنَّ) واسمها، وخبرها في تأويل مصدر في محل جر بدل اشتمال من ﴿طَعَامِهِۦٓ﴾. وقيل: على تقدير اللام، أي: لأنا، والأول أقوى. هذا؛ وقرىء بكسر الهمزة، وعليه: فالجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها، وجملة: ﴿شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا﴾ معطوفة على ما قبلها، فهي في محل رفع مثلها، وأيضاً جملة: (أَنْبَتْنَا فيهَا حَباً) معطوفة عليها، والإعراب مثلها بلا فارق. ﴿وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا...﴾ إلخ: الأسماء كلها معطوفة على ﴿حَبّٗا﴾، و﴿غُلۡبٗا﴾: صفة (حدائق). ﴿مَّتَٰعٗا﴾: مفعول مطلق عامله محذوف، التقدير: تمتعون به تمتيعاً. وانظر سورة (النازعات) رقم [٣٣]، أو هو مفعول لأجله، عامله محذوف، التقدير: فعل ذلك متاعاً، والجملة الفعلية هذه في محل نصب حال، أو هي مستأنفة، لا محل لها، وهو أقوى. ﴿لَّكُمۡ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: ﴿مَّتَٰعٗا﴾، أو بمحذوف صفة له. ﴿وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾: الواو: حرف عطف. (لأنعامكم): معطوفان على ما قبلهما، والكاف في محل جر بالإضافة.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ٣٣ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧﴾

الشرح: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾: قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: لما ذكر أمر المعاش؛ ذكر أمر المعاد؛ ليتزودوا له بالأعمال الصالحة، وبالإنفاق مما امتن الله به عليهم، و﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ الصيحة التي تكون عنها القيامة، وهي النفخة الثانية، تصيخ الأسماع؛ أي: تصمها، فلا تسمع إلا ما يُدْعَى به للأحياء. هذا؛ وانظر ما ذكرته في ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾ في سورة (النازعات) رقم [٣٤].

هذا؛ وذكر ناس من المفسرين؛ قالوا: تصيخ لها الأسماع؛ من قولك: أصاخ إلى كذا؛ أي: استمع إليه، ومنه الحديث: «**مَا مِنْ دَابةٍ إِلَّا وَهيَ مُصِيخَةٌ يَوْمَ الجمعةِ شَفَقاً مِن السَّاعَةِ إلا الجنَّ والإِنسَ**». قال الشاعر: [السريع]

يُصِيخُ لِلنَّبْأَةِ أَسْمَاعَهُ إِصَاخَةَ النَّاشِدِ لِلْمُنْشِدِ

وأيضاً قول الآخر، وهو الشاهد رقم [١٨]: من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الكامل]

فأَصَاخَ يَرْجُو أن يكونَ حَياً ويقولُ مِنْ فَرَحٍ: هَيَا رَبَّا

والمعتمد القول الأول في تفسير ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾، فإنها بمعنى: الداهية مثل: ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾.

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ...﴾ إلخ أي: إنه لا يلتفت إلى واحد من هؤلاء لشغله بنفسه. والمراد من الفرار: التباعد، والسبب في ذلك الاحتراز عن المطالبة بالحقوق، فالأخ يقول: ما واسيتني بمالك. والأبوان يقولان: قصرت في برنا، وحقوقنا. والصاحبة تقول: لم توفني حقي. والبنون يقولون: ما علمتنا. وقيل: يفر المؤمن من موالاة هؤلاء، ونصرتهم. والمعنى: أن هؤلاء الذين كانوا يقربونهم في الدنيا، ويتقوون بهم، ويتعززون بهم يفرون منهم في الدار الآخرة، وفائدة الترتيب كأنه قيل: يوم يفر المرء من أخيه بل من أبويه؛ لأنهما أقرب من الأخوة، بل من الصاحبة والولد؛ لأن تعلقه بهما أشد من تعلقه بالأبوين. وانظر سورة (المعارج) رقم [١٢ و١٣ و١٤]: تجد ما يسرك.

﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ أي: حالة تشغله عن غيره؛ لعلمه: أنهم لا ينفعونه، ولا يغنون عنه شيئاً، كما قال تعالى في سورة (الدخان) رقم [٤١]: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، وقال تعالى في سورة (لقمان) رقم [٣٣]: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ انظر شرحها هناك تجد ما يسرك، ويثلج صدرك. وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ. قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يُحْشَرُ الناسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً، عُرَاةً، غُرْلاً**». قلت: يا رسول الله! الرجال، والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟! قال: «**يا عائشة! الأمرُ أشدُّ مِنْ أنْ ينظُرَ بعضُهُمْ إلى بَعْضٍ**». أخرجه مسلم. وخرج الترمذي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أن النبي ﷺ قال: «**يُحْشَرُونَ حفاةً عراةً غرلاً**». فقالت امرأة: أينظر بعضنا عورة بعض؟ قال: «**يا فلانة لِكُلِّ امْرِئٍ مِنهُمْ يَومَئِذٍ شَأنٌ يُغْنِيهِ**». هذا؛ ويقرأ: (يَعْنِيهِ) أي: يصرفه ويصده عن قرابته.

هذا؛ والأغرل: الأقلف، والغرلة: هي الجلدة التي تزال عند ختان الذكر، والأنثى، ويقال لها: القلفة، والمراد: أن ابن آدم يحشر يوم القيامة تام الأجزاء كما ولد، فإن قطع شيء من جسده يعاد إليه يوم القيامة.

هذا؛ وأما كلمة (امرئ) فأصلها: المرء، ولما كثر استعمالهم لها حتى أصبحت تستعمل للدلالة على الإنسان، وعلى الحيوان مجازاً، وكان الهمز في آخرها ثقيلاً بعد السكون خففوها بحذف الهمزة، وإلقاء حركتها على الراء، فقالوا: المرء، وبذلك أشبهت الراء منها النون من (ابن) في تلقي حركات الإعراب، ولإعلالهم هذه الكلمة كثيراً بحذف الهمز، شبهوها بما حذف آخره، نحو (اسْم، ابن، اسْت) فجبروها بهمزة وصل في حالة التنكير، ثم ردوا إليها الهمزة، فقالوا: امرؤ، وبذلك أصبحت تعرب من مكانين، فتظهر حركات الإعراب فيها على الراء، والهمزة، فتقول: هذا امرُؤٌ، ورأيت امرءاً، ومررت بامرِئٍ. قال تعالى: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا هَلَكَ﴾، ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ﴾، ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾.

هذا؛ ومثل (امرئ) كلمة (ابن) إذا زيدت في آخرها (ما) فإن حركة الإعراب تظهر على النون، والميم، فتقول: حضر ابْنُمٌ، ورأيت ابْنَماً، ومررت بِابْنِمٍ، ولا ثالث لهما في اللغة العربية، فاحفظه؛ فإنه جيد.

الإعراب: ﴿فَإِذَا﴾: الفاء: حرف استئناف. (إذا): ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك مبني على السكون في محل نصب. ﴿جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ﴾ انظر الآية رقم [٣٤] من سورة (النازعات). فالإعراب مثله بلا فارق، وجواب (إذا) محذوف، دل عليه قوله: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ...﴾ إلخ؛ أي: اشتغل كل واحد بنفسه. ﴿يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (يوم) إليها. ﴿مِنْ أَخِيهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، وعلامة الجر الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه من الأسماء الخمسة، والهاء ضمير متصل في محل جر بالإضافة. ﴿وَأُمِّهِۦ﴾: الواو: حرف عطف. (أمه): معطوف على ما قبله. ﴿وَأَبِيهِ﴾: معطوف أيضاً مجرور مثله، وعلامة جره الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه من الأسماء الخمسة، ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾: معطوفان أيضاً على ما قبلهما، وعلامة جر (بنيه) الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، وحذفت النون للإضافة، والهاء في الكل ضمير متصل في محل جر بالإضافة. ﴿لِكُلِّ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم، و(كل) مضاف، و﴿ٱمْرِيٍٕ﴾ مضاف إليه. ﴿مِّنْهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة ﴿ٱمْرِيٍٕ﴾. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: (يومَ): ظرف زمان متعلق بالفعل بعده، و(إذ) ظرف زمان أيضاً مبني على السكون في محل جر بالإضافة، والتنوين عوض من جملة محذوفة؛ إذ التقدير: يوم إذ تجيء الصاخة. ﴿شَأْنٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿يُغْنِيهِ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل يعود إلى ﴿شَأْنٌ﴾، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع صفة ﴿شَأْنٌ﴾، والجملة الاسمية: ﴿لِكُلِّ...﴾ إلخ مستأنفة، لا محل لها، وهي دليل جواب (إذا) كما رأيت، و(إذا) ومدخولها كلام مستأنف، لا محل له.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾

الشرح: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ أي: مشرقة مضيئة، قد علمت ما لها من الفوز العظيم، والنعيم المقيم، وهي وجوه المؤمنين؛ الذين عملوا الصالحات، وتسابقوا في الدنيا إلى الطاعات. وقيل: مسفرة من قيام الليل. وقيل: من أثر الوضوء. والأولى التعميم، كما ذكرت أولاً. ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ أي: مسرورة، فرحة بما تنال من كرامة الله، ورضوانه. ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ أي: غبار، ودخان، وكدورة، وكآبة الهم الذي نزل بهم. ﴿تَرْهَقُهَا﴾: تعلوها، وتغشاها، ويقال: أرهقه طغياناً؛ أي: أغشاه إياه، وأرهقه إثماً؛ حتى رهقه؛ أي: حمله إثماً؛ حتى حمله، وأرهقه عسراً: كلفه إياه، يقال: لا ترهقني لا أرهقك الله! أي: لا تعسرني لا أعسرك الله! انتهى. مختار. هذا؛ والرهق: الغشيان، ومنه غلام مراهق: إذا غشي الاحتلام. ورهقه بالكسر، يرهقه رهقاً: غشيه. وذلك حين يرفع المؤمنون رؤوسهم؛ ووجوههم أشد بياضاً من الثلج، وتسود وجوه الكافرين، والمنافقين؛ حتى ترجع أشد سواداً من القار. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الذين تكون حالتهم، وهيئتهم ما ذكر. ﴿هُمُ ٱلْكَفَرَةُ﴾: جمع: كافر. ﴿ٱلْفَجَرَةُ﴾: جمع: فاجر، وهو الكاذب المفتري على الله. هذا؛ والقترة: كسوف، وسواد. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ذلة، وشدة، والقتر في كلام العرب: الغبار، جمع: القترة. قاله أبو عبيد، وأنشد للفرزدق: [البسيط]

مُـتَـوَّجٌ بِـرِدَاءِ الْـمُـلْـكِ يَـتْـبَـعُـهُ ... مَـوْجٌ تَـرَى فَـوْقَـهُ الـرَّايَـاتِ وَالْـقَـتَـرَا

هذا؛ و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف زمان مضاف لظرف آخر، والتنوين في الثاني ينوب عن جملة محذوفة دلت عليها الغاية، التقدير: يوم إذ تجيء الصاخة، و(إذ) مضافة لهذه الجملة، فحذفت الجملة الفعلية، وعوض عنها التنوين، وكسرت الذال لالتقاء الساكنين، كما كسرت في صهٍ ومهٍ عند تنوينهما، ومثل ذلك قل في حينئذٍ وساعتئذٍ ونحوهما. قال تعالى في سورة (الواقعة) رقم [٨٤]: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ أي: حين إذ بلغت الروح الحلقوم تنظرون.

الإعراب: ﴿وُجُوهٌ﴾: مبتدأ سوغ الابتداء به التنويع. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: (يوم): ظرف زمان متعلق بما بعده، و(إذ) ظرف زمان مبني على السكون في محل جر بالإضافة. ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾: خبر المبتدأ. ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾: خبران آخران للمبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها. ﴿وَوُجُوهٌ﴾: الواو: حرف عطف. (وجوه): مبتدأ. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف زمان متعلق بـ: ﴿غَبَرَةٌ﴾ لما فيها من معنى المشتق. وقيل: متعلق بالفعل ﴿تَرْهَقُهَا﴾، والأول أقوى. و(إذ) في محل جر بالإضافة، ولا يجوز أن يتعلق الظرف بمحذوف خبر مقدم؛ لأنه ظرف زمان لا يخبر به عن الجثة. قال ابن مالك ـ رحمه الله تعالى ـ في ألفيته: [الرجز]

وَلَا يَـــكُـــونُ اسْـــمُ زَمَـــانٍ خَـــبَـــرَا عَـــنْ جُـــثَّـــةٍ وَإِنْ يُـــفِـــدْ فَـــأَخْـــبِـــرَا

﴿عَلَيْهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿غَبَرَةٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: (وجوه...) إلخ معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها. ﴿تَرْهَقُهَا﴾: فعل مضارع، و(ها): مفعول به. ﴿قَتَرَةٌ﴾: فاعله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر ثانٍ للمبتدأ. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل، لا محل له. ﴿ٱلْكَفَرَةُ﴾: خبر المبتدأ. ﴿ٱلْفَجَرَةُ﴾: خبر ثانٍ. هذا؛ وإن اعتبرت الضمير مبتدأ ثانياً، و﴿ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ خبرين عنه؛ فالجملة الاسمية تكون في محل رفع خبر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها، تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

انتهت سورة (عبس) شرحاً وإعراباً بعون الله وتوفيقه.

والحمد لله رب العالمين.

سورة التكوير

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة (التكوير) مكية في قول الجميع، وهي تسع وعشرون آية، ومئة وأربع كلمات، وخمسمئة وثلاثون حرفاً. وفي الترمذي عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ سَرَّهُ أن ينظرَ إلى يوم القيامةِ، كأنهُ رَأْيُ الْعَيْنِ، فليقرأْ**: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾». قال: هذا حديث حسن غريب. هذا؛ وذكرتُ في أول سورة (هود) على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: أنَّ ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال أبو بكر - رضي الله عنه - يا رسول الله! قد شبتَ! قال: «**شيبتني (هود) و(الواقعة) و(المرسلات) و(عم يتساءلون)** و﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾». أخرجه الترمذي. وقال: حديث حسن غريب. وفي رواية غيره؛ قال: قلتُ: (يا رسول الله! عُجِّلَ إليْكَ الشيْبُ، قَالَ: «**شَيَّبَتْنِي (هود) وأخواتُهَا: (الحاقةُ) و(الواقعةُ)**، و﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾».

قال بعض العلماء: سبب شيبه ﷺ من هذه السور المذكورة في الحديث، لما فيها من ذكر القيامة، والبعث، والحساب، والجنة والنار. والله أعلم بمراد رسول الله ﷺ.

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾﴾

الشرح: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾: قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: أظلمت، وغورت. وقيل: اضمحلت، وذهبت. قال ابن كثير: والصواب من القول عندنا في ذلك: أن التكوير جمع الشيء بعضه على بعض، ومنه تكوير العمامة، وجمع الثياب بعضها إلى بعض، فمعنى قوله تعالى: ﴿كُوِّرَتْ﴾ جمع بعضها إلى بعض، ثم لفت، فرُمِيَ بها، وإذا فُعِل بها ذلك؛ ذهب ضوءها. روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أنه قال: يكور الله الشمس، والقمر، والنجوم يوم القيامة في البحر، ويبعث ريحاً دبوراً، فتضرمها ناراً. وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «**الشمسُ والقمرُ يُكَوَّران يومَ القيامةِ**». أخرجه البخاري. هذا؛ وفي المصباح: كار العمامة كوراً من باب: قال، والجمع: أكوار، مثل: ثوب، وأثواب.

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾: انتثرت، مثل قوله تعالى في سورة (الانفطار): ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: تساقطت، وتغيرت، فلم يبقَ لها ضوء لزوالها عن أماكنها. انتهى. قال القرطبي: وذلك: أنها قناديل معلقة بين السماء، والأرض، بسلاسل من نور، وتلك السلاسل بأيدي ملائكة من نور، فإذا جاءت النفخة الأولى؛ مات من في الأرض، ومن في السموات، فتناثرت تلك الكواكب، وتساقطت السلاسل من أيدي الملائكة؛ لأنه مات من كان يمسكها. هذا؛ وسميت النجوم نجوماً لظهورها في السماء بضوئها. هذا؛ والأصل في الانكدار: الانصباب. وقال أبو عبيدة: انكدرت انصبت، كما تنصب العقاب إذا كسرت. قال العجاج يصف صقراً: [الرجز]

أَبْصَر حرماتِ فلاةٍ فانكَدَرْ تَقَضِّي الْبَازِي إذَا البازِي كَسَرْ

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ يعني: قلعت من الأرض، وسيرت في الهواء، كقوله تعالى في سورة (الكهف) رقم [٤٧]: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ وانظر ما ذكرته في سورة (النبأ) رقم [٢٠] ففيها الشفاء الكافي لقلبك. والحمد لله.

﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾: النوق الحوامل التي أتى عليها عشرة أشهر من حملها، واحدتها: عشراء، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع لتمام سنة، وبعدما تضع أيضاً، ومن عادة العرب أن يسموا الشيء باسمه المتقدم، وإن كان قد جاوز ذلك، يقول الرجل لفرسه، وقد قرح: هاتوا مهري، وقربوا مهري يسميه باسمه المتقدم. قال عنترة: [الكامل]

لَا تَذْكُرِي مُهْرِي وَمَا أَطْعَمْتُهُ فَيَكُونَ جِلْدُكِ مِثْلَ جِلْدِ ٱلأَجْرَبِ

وخذ قوله تعالى في سورة (النساء) رقم [٢]: ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ...﴾ إلخ، وقال جل ذكره فيها أيضاً رقم [٥]: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَـٰمَىٰ...﴾ إلخ فإن فيها الدواء الشافي لقلبك، والفضل لله.

وإنما خص العشار بالذكر؛ لأنها أعز ما تكون عند العرب، وليس يعطلها أهلها إلا حال القيامة، وهذا على وجه المثل؛ لأن في القيامة لا تكون ناقة عشراء، ولا غيرها، ولكن أراد به المثل. فإذا كان يوم القيامة عطلت، وتركت هملاً بلا راع، أهملها أهلها، وقد كانوا ملازمين لأذنابها، ولم يكن مال أعجب إليهم منها؛ لما جاءهم من أهوال يوم القيامة. هذا؛ ويقال: ناقة عشراء، وناقتان عشراوان، ونوق عشار، وعشراوات، يبدلون من همزة التأنيث واواً على القاعدة في تثنية الممدود، وجمعه. وهي أنفس ما يكون عند أهلها، روي: أن النبي ﷺ مر في أصحابه بعشار من النوق. فغض بصره، فقيل له: هذه أنفس أموالنا؛ فلم لا تنظر إليها؟! فقال: «**قد نهاني الله عن ذلك**». ثم تلا: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا...﴾ إلخ. الآية رقم [٨٨]: من سورة (الحجر)، ورقم [١٣١]: من سورة (طه).

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أي: جمعت، والحشر: الجمع. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: يحشر كل شيء حتى الذباب. وقال: تحشر الوحوش غداً؛ أي: تجمع حتى يقتص لبعضها من بعض، فيقتص للجماء من القرناء، ثم يقال لها: كوني تراباً، فتموت، انظر ما ذكرته في آخر سورة (النبأ) رقم [٤٠]. وقيل: المعنى: أن الوحوش مع نفرتها اليوم من الناس، وتنددها في الصحارى تجمع غداً، وتضم إلى الناس من أهوال ذلك اليوم.

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أوقدت، فصارت ناراً تضطرم. وقيل: فجر بعضها في بعض، العذب، والملح؛ حتى صارت البحار كلها بحراً واحداً. وقيل: صارت مياهها من حميم أهل النار. وقيل: سجرت؛ أي: يبست، وذهب ماؤها، فلم تبقَ فيها قطرة، انظر ما ذكرته في سورة (الطور) رقم [٦]: والفضل لله العلي القدير.

قال أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ: ست آيات قبل يوم القيامة، بينما الناس في أسواقهم؛ إذ ذهب ضوء الشمس، وبدت النجوم، فتحيروا، ودُهشوا، فبينما هم كذلك ينظرون إذ تناثرت النجوم، فبينما هم كذلك؛ إذ وقعت الجبال على الأرض، وتساقطت فتحركت، واضطربت، واحترقت، وفزعت الإنس، والجن، واختلطت الدواب، والطير، والوحش، وماج بعضهم ببعض، فذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ فحينئذٍ تقول الجن للإنس: نحن نأتيكم بالخبر، فينطلقون إلى البحر؛ فإذا هو نار تأجج، فبينما هم كذلك؛ إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى، وإلى السماء السابعة العليا، فبينما هم كذلك؛ إذ جاءتهم ريح، فأماتتهم. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: هي اثنتا عشرة خصلة: ستة في الدنيا، وستة في الآخرة، وهي ما ذكر بعد هذه، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ...﴾ إلخ والله أعلم بمراده.

الإعراب: ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك، مبني على السكون في محل نصب. ﴿ٱلشَّمْسُ﴾: نائب فاعل لفعل محذوف، يفسره المذكور بعده، وهذا عند البصريين، وعند الكوفيين فيه ثلاثة أوجه: الأول: وافقوا فيه البصريين. والثاني: اعتبار ﴿ٱلشَّمْسُ﴾ نائب فاعل مقدماً. والثالث: اعتبار ﴿ٱلشَّمْسُ﴾ مبتدأ، والجملة الفعلية بعده خبره. انظر الشاهد رقم [٩٩٠]: من كتابنا: «فتح القريب المجيب»، والكلام عليه فإنه جيد جداً؛ والحمد الله. ﴿كُوِّرَتْ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، والتاء للتأنيث حرف لا محل لها، ونائب الفاعل يعود إلى ﴿ٱلشَّمْسُ﴾، والجملة الفعلية مفسرة لا محل لها على مذهب البصريين، وهو المعتمد في هذه المسألة، والفعل المحذوف، وفاعله جملة فعلية في محل جر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على المشهور المرجوح، وكل الجمل الآتية إعرابها مثلها، وهي جمل متعاطفة، وجواب الجميع قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ ولا تنس: أن الأسماء المتقدمة، بعضها فاعل، وبعضها نائب فاعل.

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ﴿١٣﴾ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ﴿١٤﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾: قال النعمان بن بشير ـ رضي الله عنهما ـ. قال النبي ﷺ: «**يُقْرَن كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون كعمله**». وقال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: يقرن الفاجر مع الفاجر، ويقرن الصالح مع الصالح. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ذلك حين يكون الناس أزواجاً ثلاثة: السابقون زوج، وأصحاب اليمين زوج، وأصحاب الشمال زوج، وهذا فحوى قوله تعالى في سورة (الواقعة): ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ﴾. وقيل: يلحق كل امرئ بشيعته، اليهودي باليهود، والنصراني بالنصارى. وقيل: زوجت النفوس بأعمالها؛ أي: قرنت. وقيل: زوجت نفوس المؤمنين بالحور العين، وقرنت نفوس الكافرين والمنافقين والفاسقين بالشياطين. قال تعالى في سورة (الصافات): ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾. هذا؛ وانظر شرح (النفس) في الآية رقم [٢]: من سورة (القيامة).

﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ﴾: الموءودة: المقتولة، وهي الأنثى التي دفنت؛ وهي حية. سميت بذلك لما يطرح عليها من التراب، فيؤودها؛ أي: يثقلها حتى تموت، وكانت العرب تفعل ذلك في الجاهلية تدفن البنات حية مخافة العار، والحاجة. وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كانت المرأة في الجاهلية إذا حملت، وكان أوان ولادتها قد قرب؛ حفرت حفيرة، فتمخضت على رأس الحفيرة، فإن ولدت جارية؛ رمت بها في الحفيرة، وردت التراب عليها، وإذا ولدت غلاماً؛ حبسته. وقيل: كان الرجل في الجاهلية إذا ولدت له بنت، وأراد بقاءها حية ألبسها جبة صوف، أو شعر، وتركها ترعى الإبل، والغنم في البادية، وإذا أراد تركها حتى تشب، فإذا بلغت قال: لأمها طيبيها، وزينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها، وقد حفر لها بئراً في الصحراء، فيبلغ بها البئر، فيقول لها: انظري فيها، فإذا نظرت فيها دفعها من ورائها، ويهيل عليها التراب؛ حتى تسوى بالأرض، انظر ما ذكرته في سورة (النحل) رقم [٥٨] وما بعدها تجد ما يسرك، ويثلج صدرك. وانظر ما ذكرته في سورة (الأنعام) رقم [١٤٠]. هذا؛ وكان ذوو الشرف من العرب يمتنعون من وأد البنات، ويمنعون منه حتى افتخر به الفرزدق، فقال: [المتقارب]

وَجَدِّي الَّذِي مَنَعَ الْوَائِدَاتِ ... فَأَحْيَا الْوَئِيدَ فَلَمْ تُوأَدِ

يريد جده صعصعة، كان يشتريهن من آبائهن، فجاء الإسلام، وقد أحيا صعصعة سبعين موءودة. وقال قتادة: كانت الجاهلية يقتل أحدهم ابنته، ويغذو كلبه، فعاتبهم الله على ذلك، وتوعدهم بقوله: ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ﴾.

هذا؛ وجاء قيس بن عاصم المنقري ـ رضي الله عنه ـ إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! إني وأدت ثمان بنات كنَّ لي في الجاهلية. قال: «**فأعتق عن كل واحدة منهن رقبة**». قال: يا رسول الله! إني صاحب إبل. قال: «**فأهد عن كل واحدة منهن بدنة إن شئت**». هذا؛ وقوله تعالى: ﴿سُئِلَتْ﴾ سؤال الموءودة سؤال توبيخ لقاتلها، كما يقال للطفل؛ إذا ضُرب: لم ضُرِبت، وما ذنبك؟! هذا؛ ويقرأ: (وإِذَا الموءُودَةُ سأَلَتْ). وعليه فالمعنى: تتعلق الجارية بأبيها، فتقول: بأي ذنب قتلتني؟! فلا يكون له عذر. وختاماً: قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: وفيه دليل بَيِّن على أن أطفال المشركين لا يعذبون، وعلى أن التعذيب لا يستحق إلا بذنب.

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ﴾ أي: فتحت بعد أن كانت مطوية، والمراد: صحف الأعمال التي كتبت الملائكة فيها ما فعل أهلها من خير، وشر، تطوى بالموت، وتنشر في يوم القيامة، فيقف كل إنسان على صحيفته، فيعلم ما فيها، ولو كان في الدنيا لم يقرأ، ولم يكتب، ومهما كانت لغته، فيقال له: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ الآية رقم [١٤] من سورة (الإسراء). فعند ذلك يقول، كما حكى الله: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ رقم [٤٩]: من سورة (الكهف). هذا؛ ويقرأ: (نشرت) بتشديد الشين، وتخفيفها.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ﴾ أي: نزعت، وطويت. وقيل: قلعت كما يقلع السقف. وقيل: كشفت، وأزيلت عمن فيها. انتهى. خازن. وقال القرطبي: الكشط: قلع عن شدة التزاق، فالسماء تكشط، ككشط الجلد عن الكبش، وغيره، والقشط: لغة فيه، وقرئ بالقاف، وهي قراءة شاذة، فالسماء تنزع من مكانها كما ينزع الغطاء عن الشيء. وقيل: تطوى كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ﴾ الآية رقم [١٠٤]: من سورة (الأنبياء).

﴿وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ﴾: أوقدت، فأضرمت للكفار، وزيد في إحمائها. قال قتادة: سعَّرها غضب الله، وخطايا بني آدم. وفي الترمذي: عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ﷺ قال: «**أوقد على النار ألف سنةٍ؛ حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنةٍ؛ حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنةٍ؛ حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة، كالليل المظلم**». وروي الحديث موقوفاً على أبي هريرة. وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: تلا النبي ﷺ هذه الآية: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ فقال: «**أوقِدَ عليها ألفُ عام؛ حتَّى احمرَّتْ، وألفُ عام حتى ابيضَّتَ، وألف عامٍ حتَّى اسودَّتَ، فهي سوداءُ مظلمةٌ لا يضيءُ لَهبُهَا**». رواه البيهقي، والأصبهاني.

﴿وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ﴾: أدنيت، وقربت من المتقين، كما قال تعالى في سورة (ق): ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ﴾. قال الحسن البصري: إنهم يقربون منها، لا أنها تزول عن موضعها. ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾: يعني عند ذلك تعلم كل نفس ما أحضرت من خير، وشر، وفي سورة (الانفطار): ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ وفي الصحيحين عن عدي بن حاتم ـ رضي الله عنه ـ

قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلَّا وسَيُكَلِّمُهُ اللهُ ما بينهُ وبينَهُ تَرْجُمانٌ، فينظرُ أيمنَ منه، فلا يرى إلا ما قدَّمَهُ، وينْظُرُ أشأمَ منهُ، فلا يَرَى إلا ما قدَّمَهُ بيْن يديْهِ، فتستقبلهُ النارُ؛ فَمَنْ استطاعَ مِنْكُمْ أَنْ يتقيَ النارَ، ولوْ بشِقِّ تمرَةٍ؛ فَلْيَفْعَلْ**». ولا تنس الطباق بين: الجحيم، والجنة، فهو من المحسنات البديعية. وانظر سورة (الانفطار) رقم [٥].

الإعراب: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ...﴾ إلخ: الإعراب مثل الآية الأولى بلا فارق، والجمل المتعاطفة مثلها. ﴿بِأَيِّ﴾: متعلقان بالفعل بعدهما، و(أي): مضاف، و﴿ذَنۢبٍ﴾ مضاف إليه. ﴿قُتِلَتْ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، والتاء للتأنيث، والجملة الفعلية في محل نصب مفعول به ثانٍ، للفعل: (سئل)، والمفعول الأول نائب الفاعل العائد على ﴿ٱلْمَوْءُۥدَةُ﴾. ﴿عَلِمَتْ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث. ﴿نَفْسٌ﴾: فاعل. ﴿مَّآ﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب مفعول به، والفعل هنا بمعنى: عرف، يكتفي بمفعول واحد. ﴿أَحْضَرَتْ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث، والفاعل يعود إلى ﴿نَفْسٌ﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿مَّآ﴾ أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: علمت نفس الذي، أو شيئاً أحضرته، والجملة الفعلية جواب (إذا) الأولى، وما عطف عليها.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾

الشرح: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ...﴾ إلخ: اختلف في (لا) على أوجه: أحدها: أن (لا) صلة؛ أي: زائدة، وجاز وقوعها في أول السورة؛ لأن القرآن متصل بعضه ببعض، فهو في حكم كلام واحد، ولهذا قد يذكر الشيء في سورة، ويجيء جوابه في سورة أخرى، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ الآية رقم [٢] من سورة (الحجر)، وجوابه قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ الآية رقم [٢] من سورة (القلم)، ومعنى الكلام: أقسم بالخنس. قاله ابن عباس، وابن جبير وأبو عبيدة ـ رضي الله عنهم ـ، ومثله قول الشاعر: [الطويل]

تَذَكَّرْتُ لَيْلَى فَاعْتَرَتْنِي صَبَابَةٌ ... فَكَادَ صَمِيمُ الْقَلْبِ لَا يَتَقَطَّعُ

أراد: فكاد صميم القلب يتقطع. وحكى أبو الليث السمرقندي: أجمع المفسرون: أن المعنى: أقسم. وقال الخازن: وفيه ضعف؛ لأن القرآن في حكم السورة الواحدة في عدم التناقض، لا أن تقرن سورة بما بعدها، فذلك غير جائز. انتهى. وهو الحق الذي لا محيص عنه. وقال بعضهم: (لا): رد لكلامهم؛ حيث أنكروا الحشر، والنشر، فقال: ليس الأمر كما تزعمون!

وهذا قول الفراء، فقد قال: وكثير من النحويين يقولون (لا) صلة، ولا يجوز أن يبدأ بجحد (نفي) ثم بجحد يجعل صلة؛ لأن هذا لو كان كذلك؛ لم يعرف خبر فيه جحد من خبر لا جحد فيه (لا نفي فيه)، ولكن القرآن جاء بالرد على الذين أنكروا البعث، والجنة، والنار، فجاء الإقسام بالرد عليهم، وإدخال (لا) النافية على فعل القسم مستفيض في كلام العرب، وأشعارهم. قال امرؤ القيس ـ وهو الشاهد رقم [٤٥٦] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [المتقارب]

فَـلَا وَأَبِـيـكِ ابْـنَـةَ الْـعَـامِـرِيِّ لَا يَـدَّعِـي الْـقَـوْمُ أَنِّـي أَفِـر

وأيضاً قول المتنخل الهذلي ـ وهو الشاهد رقم [١٠٨٦] من كتابنا المذكور ـ: [الوافر]

فَـلَا وَاللهِ نَـادَى الْـحَـيُّ قَـوْمِـي هُـدُوّاً بِـالْـمَـسَـاءَةِ وَالْـعِـلَاطِ

قالوا: وفائدتها تأكيد القسم في الرد كقولك: لا والله ما ذاك! تريد والله، فيجوز حذفها، لكنه أبلغ في الرد مع إثباتها. هذا؛ وقيل: اللام لام الابتداء، فأشبعت بالمد، فتولدت الألف، ويؤيده قراءة ابن كثير (لأُقْسِمُ) بغير ألف المد، ويعبر عن قراءة ابن كثير بالقصر، وعلى هذه القراءة، فاللام لام الابتداء، وجملة: (أقسم بالخنس) في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: لأنا أقسم بالخنس، ولو أريد به الاستقبال للزمت النون، وقد جاء حذف النون مع الفعل الذي يراد به الاستقبال، وهو شاذ، وعن قراءة الباقين بالمد. وانظر ما أذكره في سورة (البلد) عن ابن هشام ـ رحمه الله تعالى ـ.

هذا؛ و(الخنس الجوار الكنس): هي النجوم تبدو بالليل، فتظهر، وتخنس بالنهار تحت نور الشمس، ونحو هذا المعنى عن علي ـ كرم الله وجهه، ورضي الله عنه ـ. وقيل: هي النجوم الخمسة: زحل، والمشتري، والمريخ، والزهرة، وعطارد، تخنس في مجاريها؛ أي: ترجع وراءها في الفلك، وتكنس؛ أي: تستتر وقت اختفائها. وقيل: هي الظباء، وهي رواية عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ. وقيل: هي بقر الوحش. وهو قول ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ. والكناس: مكان الظبية؛ التي تأوي إليه. هذا؛ ويقال: خنس عنه، يخنس بالضم خنوساً: تأخر، وأخنسه غيره: إذا خلفه، ومضى عنه، والخنس: تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل في الأرنبة. والرجل أخنس، والمرأة خنساء. والخنساء: الشاعرة المشهورة لقبت بذلك لما ذكرت، واسمها الحقيقي: تماضر. والجواري جمع: جارية، من: جرى، يجري. وانظر ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ في سورة (الناس).

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾: إذا أقبل، أو أدبر، فهو من الأضداد، والمعنيان يرجعان إلى شيء واحد، وهو ابتداء الظلام في أوله، وإدباره في آخره. قال علقمة بن قرط ـ وهو قول القرطبي ـ وقال الزمخشري ـ وأكده محب الدين الخطيب ـ هو من قول العجاج: [الرجز]

حَـتَّـى إِذَا الـصُّـبْـحُ لَـهَـا تَـنَـفَّـسَـا وَانْـجَـابَ عَـنْـهَـا لَـيْـلُـهَـا وَعَـسْـعَـسَـا

هذا؛ و«عسعسع»: موضع في البادية. قال امرؤ القيس: [الطويل]

أَلِمَّا علَى الربْعِ الْقديمِ بِعَسْعَسَا كَأَنِّي أُنَادِي، أَوْ أُكَلِّمُ أَخْرَسَا

و«عسعس» أيضاً: اسم رجل. قال الراجز: [الرجز]

وَعَسْعَسٌ نِعْمَ الْفَتَى تَبَيَّاه

أي: تعتمده، ويقال للذئب: الْعَسْعَس، والعسْعَاس، والعسَّاس؛ لأنه يعس بالليل، ويطلب الطعام، ويقال للقنافذ: العساعس؛ لكثرة ترددها في الليل. هذا؛ وسعسع مثل عسعس في معنييه، فهو مقلوبه. ولا تنس: أن في الكلام استعارة مكنية، فقد شبه الليل بإنسان يقبل، ويدبر، ثم حذف المشبه، وأخذ منه شيئاً من لوازمه وهي لفظة ﴿عَسْعَسَ﴾، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ فيه استعارة مكنية.

هذا؛ واللغة العربية غنية بالكلمات التي تعني الضدين، وتحتمل معنيين متقابلين، منها ما رأيته من لفظ: عسعس، ومنها لفظ «الغابرين» في كثير من الآيات، فإنه اسم فاعل من: غبر الشيء: بقي، وغبر أيضاً: مضى، ومنها لفظ «جلل» للعظيم، والحقير، فمن الأول قول الحارث بن وعلة بن ذهل ابن شيبان الذهلي ـ وهو الشاهد رقم [١٩٢] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الكامل]

فَلَئِنْ عَفَوْتُ لأَعْفُوَنْ جَلَلاً وَلَئِنْ سَطَوْتُ لأُوهِنَنْ عَظْمِي

ومن الثاني قول امرئ القيس لمَّا قتل أبوه وهو الشاهد رقم [١٩٣] من كتابنا المذكور: [المتقارب]

بِقَتْلِ بَنِي أَسَدٍ رَبَّهُمْ أَلَا كُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ جَلَلْ

أي: هين، وحقير لا قيمة له، ومنها: «الجوْن» للأبيض، والأسود. ومنها: «الْبَيْن» للقرب، والبعد. ومنها: «الصريم» لليل، والنهار. وبهما فسر قوله تعالى في سورة (القلم): ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ ومنها: «الناصع» للأبيض، والأسود، ومنها: «الناهل» للريَّان، والظمآن، و«السليم» للديغ، والصحيح، ومنها: «وراء» بمعنى: خلف، وأمام، وشَعَبْتُ الشيء: أصلحته، وشققته، و«الصارخ» لِلْمُغيث، والْمُسْتغيث، و«الهاجد» للمصلي في الليل، والنائم، ومنها «الوهدة» للانحدار، والارتفاع، ومنها: «التعزير» للإكرام، والإهانة، و«التقريظ» للمدح والذم، ومنها: «ترِب» للغني، والفقير، ومنها: «الإهماد» للسرعة في السير، والإقامة، ومنها: «الْقُرْء» للحيض، والطهر. ومنه قيل في قوله تعالى في الآية رقم [٦٢] من سورة (طه)، وفي الآية رقم [٣] من سورة (الأنبياء): ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى﴾، وأيضاً قوله تعالى في الآية رقم [٥٤] من سورة (يونس) على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ كما قيل به في قول امرئ القيس ـ وهو الشاهد رقم [٤٧٢]: من كتابنا: «فتح القريب المجيب»، ورقم [٣٢] من معلقته ـ: [الطويل]

تَـجَـاوَزْتُ أَحْـرَاسـاً عـلـيْـهَـا وَمَـعْـشَـراً عَـلَـيَّ حِـرَاصـاً لَـوْ يُـسِـرُّونَ مَـقْـتَـلِـي

حيث قيل: إن الفعل بمعنى: أخفوا، وأظهروا.

﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي: أقبل، وبدا أوله. وقيل: أسفر. وفي تنفسه قولان:

أحدهما: أن في إقبال الصبح روحاً، ونسيماً، فجعل ذلك نفساً على المجاز. الثاني: أنه شبه الليل بالمكروب المحزون، فإذا تنفس؛ وجد راحة، فكأنه تخلص من الحزن، فعبر عنه بالتنفس، فهو استعارة لطيفة، حيث شبه إقبال النهار، وسطوع الضياء بنسمات الهواء العليل؛ التي تحيي القلوب. واستعار لفظ التنفس لإقبال النهار بعد الظلام الدامس على طريقة الاستعارة التصريحية. وهذا من لطيف الاستعارة، وأبلغها تصويراً؛ حيث عبر عنه بتنفس الصبح.

﴿إِنَّهُ﴾ أي: القرآن. ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾: لا أرى حاجة إلى المزيد على ما ذكرته في الآية رقم [٤٠] من سورة (الحاقة) والمرجح هنا: أن المراد به: جبريل، عليه السلام، بدليل الآيات الآتية. ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾: هو كقوله تعالى في سورة (النجم): ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾: وكان من قوة جبريل عليه الصلاة والسلام: أنه اقتلع قرى قوم لوط الأربع من الماء الأسود، وحملها على جناحه حتى سمعت الملائكة صياح الديكة، ثم جعل عاليها سافلها. وكان من قوته: أنه أبصر إبليس ـ لعنه الله ـ يكلم عيسى ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ على بعض أعقاب الأرض المقدسة، فنفحه بجناحه نفحة ألقاه إلى أقصى جبل بالهند، وأنه صاح صيحة بقوم صالح، فأصبحوا جاثمين، وأنه يهبط من السماء إلى الأرض، ثم يصعد في أسرع من رد الطرف. انتهى. خازن. ﴿عِندَ ذِي الْعَرْشِ﴾ أي: عند صاحب العرش ومالكه، وهو الله تعالى. وانظر شرح العرش في الآية رقم [١٧] من سورة (الحاقة). ﴿مَكِينٍ﴾ أي: صاحب منزلة عالية، ومكانة رفيعة عند الله عز وجل، فروي عن أبي صالح قال: يدخل جبريل سبعين سرادقاً بغير إذن.

﴿مُطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي: تطيعه الملائكة في السموات. قال الحسن ـ رحمه الله تعالى ـ: فرض الله على أهل السموات طاعة جبريل عليه السلام، كما فرض على أهل الأرض طاعة محمد ﷺ، ومن طاعة الملائكة له: أنهم فتحوا له السموات السبع ليلة الإسراء، وفتح خزنة الجنة له أبوابها، وكذلك فتح له خزنة النار أبوابها؛ حتى نظر إليها. ﴿أَمِينٍ﴾ أي: على وحي الله؛ لأنبيائه، وخاب الفسقة الفجرة الذين يقولون: إن جبريل تاه؛ حيث كلف بإعطاء الرسالة لعلي بن أبي طالب، فتاه فأعطاها لمحمد ﷺ، لذا روي: أنهم يقولون في آخر صلاتهم: يا حَيْفَه! يا حيْفَه! تاه الأمين! تاه الأمين! ويضربون بأيديهم على أفخاذهم، فهذا ختم الصلاة عندهم بدون سلام، فإن كان هذا صحيحاً عنهم؛ فهم كفار بلا ريب، ولا شك، واليهود والنصارى أحسن حالاً منهم.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ يعني: محمداً ﷺ والخطاب لأهل مكة. ﴿بِمَجْنُونٍ﴾: هذا أيضاً من جواب القسم، أقسم الله على أن القرآن نزل به جبريل عليه السلام، وأن محمداً ﷺ ليس بمجنون، كما

يقول أهل مكة، وذلك أنهم قالوا: إنه مجنون، وأن ما يقوله ليس هو إلا من عند نفسه، فنفى الله عنه الجنون وكون القرآن من عند نفسه. هذا؛ وقال تعالى في سورة (النجم): ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾.

هذا؛ وقال الإمام ما معناه: كما أنه سبحانه وتعالى أجرى على جبريل ـ عليه السلام ـ هذه الصفات هاهنا أجرى على نبينا ﷺ صفات في قوله تعالى في سورة (الأحزاب): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾، فإفراد أحد الشخصين بالذكر، وإجراء صفاته عليه لا يدل على انتفاء تلك الصفات عن الآخر. وقال القاضي: واستدل به على فضل جبريل على محمد، عليهما الصلاة والسلام؛ حيث عدد فضائل جبريل، واقتصر على نفي الجنون عن النبي ﷺ، وهو ضعيف؛ إذ المقصود منه رد قولهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ رقم [١٠٣] من سورة (النحل)، وقولهم: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ الآية رقم [٨] من سورة (سبأ) لا تعداد فضلهما، والموازنة بينهما. ثم إنك إذا أمعنت النظر وقفت على أن إجراء تلك الصفات على جبريل في هذا المقام إدماج لتعظيم رسول الله ﷺ، وأنه بلغ من المكانة وعلو المنزلة عند ذي العرش بأن جعل السفير بينه، وبينه مثل هذا الملك المقرب المطاع الأمين، فالقول في هذه الصفات بالنسبة لرسول الله ﷺ رفعة منزلة له كالقول في قوله: ﴿ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ بالنسبة إلى رفعة منزلة جبريل عليه السلام، كما سبق، والله أعلم. انتهى. جمل نقلاً من هنا، وهناك.

الإعراب: ﴿فَلَآ﴾: الفاء: حرف استئناف. (لا): نافية، أو صلة، أو هي لام الابتداء حسب ما رأيت في الشرح. ﴿أُقْسِمُ﴾: فعل مضارع، والفاعل مستتر فيه وجوباً تقديره: «أنا»، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها، وهي في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، على اعتبار اللام لام الابتداء، فتكون الجملة اسمية، وهي مستأنفة أيضاً. ﴿بِٱلْخُنَّسِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿ٱلْجَوَارِ﴾: صفة (الخنس) مجرور مثله، وعلامة جره كسرة مقدرة على الياء للثقل. ﴿ٱلْكُنَّسِ﴾: صفة ثانية. وقيل: صفة ﴿ٱلْجَوَارِ﴾. ﴿وَٱلَّيْلِ﴾: الواو: حرف عطف. وقيل: واو قسم ثانٍ. (الليل): معطوف على (الخنس)، أو هو مجرور بواو القسم، والجار، والمجرور متعلقان بفعل محذوف، تقديره: أقسم. ﴿إِذَا﴾: ظرف زمان مجرد عن الشرطية مبني على السكون في محل نصب، وفي عامله أوجه، وعلى كل واحد منها إشكال: أحد الأوجه: أنه متعلق بفعل القسم المحذوف، التقدير: أقسم بالليل وقت عسعسته. قاله أبو البقاء، وغيره. وهو مشكل؛ فإن فعل القسم إنشاء، والإنشاء حال، و﴿إِذَا﴾ لِمَا يستقبل من الزمان، فكيف يتلاقيان؟! الثاني: أن العامل فيه مقدر على أنه حال من (الليل) أي: أقسم به حال كونه مستقراً في زمان عسعسته، وهو مشكل من وجهين: أحدهما: أن الليل جثة، والزمان لا يكون حالاً من الجثة، كما لا يكون خبراً عنها. والثاني: أن ﴿إِذَا﴾ للمستقبل، فكيف يكون حالاً؟! وقد أجيب عن الأول بأن

المراد بالليل لازم معناه، وهو المظلم. وأجيب عن الثاني بأنها حال مقدرة. الثالث: أن العامل في الظرف نفس الليل. قاله أبو البقاء أيضاً، وفيه نظر؛ لأن الليل لا يعمل في الظرف؛ لأنه اسم جامد. وقد يقال: إن الليل يوصف، والتقدير: والليل المظلم في وقت عسعسته. انتهى. جمل من سورة (النجم). ﴿عَسْعَسَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى الليل، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها. ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ معطوف على ما قبله، وإعرابه مثله بلا فارق.

﴿إِنَّهُ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿لَقَوْلُ﴾: خبر (إنَّ)، واللام هي المزحلقة، والجملة الاسمية جواب القسم: (لا أقسم...) إلخ. وما عطف عليه، على اعتبار الواو حرف عطف، وعلى اعتبارها حرف قسم، وجر يكون الجواب محذوفاً، لدلالة جواب القسم الأول عليه، و(قول) مضاف، و﴿رَسُولٍ﴾ مضاف إليه، من إضافة المصدر لفاعله. ﴿كَرِيمٍ﴾: صفة ﴿رَسُولٍ﴾. ﴿ذِي﴾: صفة ثانية لـ: ﴿رَسُولٍ﴾ مجرور مثله، وعلامة جره الياء نيابةً عن الكسرة؛ لأنه من الأسماء الخمسة، و﴿ذِي﴾ مضاف، و﴿قُوَّةٍ﴾ مضاف إليه.

﴿عِندَ﴾: ظرف مكان متعلق بـ: ﴿مَكِينٍ﴾ بعده، أو هو متعلق بمحذوف حال منه. و﴿عِندَ﴾ مضاف، و﴿ذِي﴾ مضاف إليه، و﴿ذِي﴾ مضاف، و﴿الْعَرْشِ﴾ مضاف إليه. ﴿مَكِينٍ﴾: صفة ثالثة لـ: ﴿رَسُولٍ﴾. ﴿مُطَاعٍ﴾: صفة رابعة. ﴿ثَمَّ﴾: ظرف مكان بمعنى هناك مبني على الفتح في محل نصب متعلق بـ: ﴿مُطَاعٍ﴾. ﴿أَمِينٍ﴾: صفة خامسة لـ: ﴿رَسُولٍ﴾.

﴿وَمَا﴾: الواو: حرف عطف. (ما): نافية تعمل عمل: «ليس». ﴿صَاحِبُكُم﴾: اسم ما، والكاف ضمير متصل في محل جر بالإضافة. ﴿بِمَجْنُونٍ﴾: الباء: حرف جر صلة. (مجنون): خبر (ما) منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد، والجملة الاسمية معطوفة على قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ...﴾ إلخ فهي من جملة جواب القسم.

﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾

الشرح: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾: الفاعل يعود إلى الرسول ﷺ، والضمير المنصوب يعود إلى جبريل، عليه ألف صلاة، وألف سلام. (الأفق المبين): يعني بالأفق الأعلى، وهو صريح قوله تعالى في سورة (النجم): ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ من ناحية المشرق إلى حيث تطلع الشمس. هذا؛ وقيل: الأفق المبين: أقطار السماء، ونواحيها. قال الفرزدق ـ وهو الشاهد رقم [١١٦٨] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الطويل]

أَخَـذْنَـا بِـآفَـاقِ الـسَّـمَـاءِ عَـلَـيْـكُـمُ لَـنَـا قَـمَـراهَـا وَالـنُّـجومُ الـطَّـوَالِـعُ

فقد رأى الرسول ﷺ جبريل عليه الصلاة والسلام على صورته التي خلق فيها مرتين: مرة في الأرض، ومرة في السماء، أما التي في الأرض؛ فخذها برواية البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**إني أحِبُّ أن أرَاكَ في صُورتِكَ؛ الَّتي تكُونُ فِيها فِي السَّمَاءِ**». قال: «**لن تَقْوى عَلَى ذَلِكَ!**». قال: «**بلى!**». قال: «**فأين تشاءُ أنْ أتخيلَ لكَ**»؟ قال: «**بالأبطح**». قال: «**لا يسعني**». قال: «**فبمنى**». قال: «**لا يسعني**» قال: «**فبعرفات**». قال: «**ذلك بالحري أن يسعني**». رواية القرطبي، ورواية الخازن: قال: لا يسعني ذلك. قال: «**فبحراء**». قال: «**إن يسعني**». فواعده، فخرج النبي ﷺ في ذلك الوقت، فإذا هو بجبريل قد أقبل من حيال عرفات بخشخشة، وكلكلة، قد ملأ ما بين المشرق والمغرب ورأسه في السماء، ورجلاه في الأرض، فلما رآه النبي ﷺ خرَّ مغشياً عليه، فتحول جبريل عليه السلام عن صورته، وضمه إلى صدره. وقال: «**يا محمد! لا تخف! فكيف لو رأيت إسرافيل، ورأسه تحت العرش، ورجلاه في تخوم الأرض السابعة، وإن العرش لعلى كاهله، وإنه ليتضاءل أحياناً من مخافة الله جل جلاله، وعلا علاؤه، وشأنه حتى يصير، مثل الصعْو، يعني العصفور؟! (وفي رواية القرطبي مثل الوصع)، حتى ما يحمل عرش ربك إلا عظمته**». انتهى. قرطبي، وخازن. هذا؛ وفي المختار: الْوَصَع: طائر أصغر من العصفور، وهو بفتح الصاد، وسكونها، والجمع: وِصعان، وفيه أيضاً: الصَّعْوة: طائر، والجمع: صَعْو، وصِعَاء.

هذا؛ والمرة الثانية التي رأى فيها النبي ﷺ جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ كانت بعد الأولى، وكانت ليلة الإسراء، والمعراج عند سِدْرَةِ المنتهى، وهي صريح قوله تعالى في سورة (النجم): ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ...﴾ إلخ الآيات، وفي المرة الثانية ثبت فؤاد النبي ﷺ، فلم يغش عليه كما في المرة الأولى، وهو صريح قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ انظر سورة (النجم)؛ تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾: على ما يخبره من الوحي إليه، وما اطلع عليه من الغيوب مما كان غائباً من علمه من أحوال الأمم الماضية. ﴿بِضَنِينٍ﴾ أي: ببخيل، من ضننت بالشيء، أضن ضناً، فهو ضنين، يقول: إنه يأتيه علم الغيب، ولا يبخل به عليكم، ويخبركم به، ولا يكتمه كما يكتم الكاهن ما عنده؛ حتى يأخذ عليه حلواناً، وهو أجرة الكاهن. قال الشاعر: [الطويل]

أَجُـودُ بِـمَـكْـنُـونِ الْـحَـدِيـثِ وَإِنَّـنِـي بِـسِـرِّكَ عَـمَّـنْ سَـالَـنِـي لَـضَـنِـيـنُ

هذا؛ ويقرأ: (بظنين) بالظاء المعجمة؛ أي: بمتهم، والظنة: التهمة. قال الشاعر: [الطويل]

أَمَـا وَكِـتَـابِ اللهِ لَا عَـنْ شَـنَـاءَةٍ هُـجِـرْتُ ولـكِـنَّ الـظَّـنِـيـنَ ظَـنِـيـنُ

وقيل: (بظنين) بضعيف. حكاه الفراء، والمبرد، يقال: رجل ظنين؛ أي: ضعيف، وبئر ظنون: إذا كانت قليلة الماء. قال الأعشى: [السريع]

مَا جُعِلَ الْجُدُّ الظَّنُونُ الَّذي جُنِّبَ صَوْبَ اللَّجِبِ الْمَاطِرِ
مِثْلَ الْفُرَاتِيِّ إِذَا مَا طَمَا يَقْذِفُ بِالْبُوصِيِّ وَالْمَاهِرِ

والظنون: الدَّين الذي لا يدرى أيقضيه آخذه، أم لا؟ ومنه حديث علي - رضي الله عنه وكرم الله وجهه - في الرجل يكون له الدين الظَّنون. قال: يزكيه لما مضى إذا قبضه إن كان صادقاً. والظنون: الرجل السيئ الخلق، فهو لفظ مشترك. ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي: القرآن. ﴿بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾: مرجوم ملعون، كما قالت قريش؛ أي: ليس بشعر، ولا بسحر، ولا بكهانة، فقد كانوا يقولون: إن شيطاناً يلقيه على لسانه. فنفى الله ذلك عنه. قال تعالى في سورة (الشعراء) رقم [٢١٠]: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ أي: ليس هو بقول بعض المسترقة للسمع، وبوحيهم إلى أوليائهم من الكهنة. ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ أي: فأين تعدلون عن القرآن، وفيه الشفاء، والهدى، والبيان. وقيل: معناه: أي طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة؛ التي قد بينت لكم؟! وهذا كما يقال لتارك الجادة المستقيمة اعتسافاً، أو ذاهباً في بنات الطريق: أين تذهب؟ مثلت حالهم بحاله في تركهم الحق، وعدولهم عنه إلى الباطل.

الإعراب: ﴿وَلَقَدْ﴾: الواو: حرف قسم وجر، والمقسم به محذوف، التقدير: والله. والجار، والمجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره: أقسم. اللام: واقعة في جواب القسم. (قد): حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿رَءَاهُ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف، والفاعل يعود إلى النبي ﷺ، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها، والكلام مستأنف، لا محل له. وقال الجمل: معطوف على قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ فهو من جملة المقسم عليه. ﴿بِٱلْأُفُقِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿ٱلْمُبِينِ﴾: صفة (الأفق). ﴿وَمَا﴾: الواو: واو الحال. (ما): نافية حجازية. ﴿هُوَ﴾: ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع اسم (ما). ﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾: متعلقان بما بعدهما. ﴿بِضَنِينٍ﴾: الباء: حرف جر صلة. (ضنين): خبر (ما) منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد، والجملة الاسمية في محل نصب حال من فاعل (رأى) المستتر، والرابط: الواو، والضمير. ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ﴾: مثل سابقه في الإعراب، و(قول) مضاف، و﴿شَيْطَٰنٍ﴾ مضاف إليه من إضافة المصدر لفاعله. ﴿رَّجِيمٍ﴾: صفة ﴿شَيْطَٰنٍ﴾، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب حال مثلها. ﴿فَأَيْنَ﴾: الفاء: هي الفصيحة. (أين): اسم استفهام مبني على الفتح في محل نصب على الظرفية المكانية متعلق بما بعده. ﴿تَذْهَبُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع... إلخ، والواو فاعله، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جواب لشرط مقدر، التقدير: وإذا كان ما ذكر واقعاً فإلى أين تذهبون به؟! والكلام مستأنف، لا محل له.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

الشرح: ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ. ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾: موعظة للخلق أجمعين. ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ أي: يتبع الحق، ويقيم عليه، وينتفع به، فكأنه لم يوعظ به غيره، وإن كان الناس جميعاً موعوظين به. ثم بين الله جلت قدرته: أن مشيئة العبد موقوفة بمشيئته، فقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ...﴾ إلخ: أعلمهم الله: أن المشيئة في التوفيق للاستقامة إليه، وأنهم لا يقدرون على ذلك إلا بمشيئة الله، وتوفيقه. وفيه إعلام: أن أحداً لا يعمل خيراً إلا بتوفيق الله تعالى، ولا يعمل شراً إلا بخذلانه، ومشيئته.

يروى: أن أبا جهل ـ لعنه الله ـ قال لما نزل قوله تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ الأمر إلينا إن شئنا استقمنا، وإن شئنا لم نستقم، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ...﴾ إلخ. قال الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ: والله ما شاءت العرب الإسلام حتى شاءه الله لها! وقال وهب بن منبه: قرأت في سبعة وثمانين كتاباً مما أنزل الله على الأنبياء: من جعل إلى نفسه شيئاً من المشيئة؛ فقد كفر. وخذ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ الآية رقم [١١١] من سورة (الأنعام). وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الآية رقم [١٠٠] من سورة (يونس) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام، والآي في هذا كثير، وكذلك أحاديث النبي ﷺ تبين أن الهداية هداية الله تعالى.

هذا؛ وانظر شرح (العالمين) في الآية رقم [٥٢] من سورة (القلم)، وشرح ﴿أَرَادَ﴾ و﴿شَاءَ﴾ في الآية رقم [١٠] من سورة (الجن)، وشرح لفظ الجلالة في الآية رقم [٣] من سورة (نوح) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام. أما ﴿يَسْتَقِيمَ﴾ فأصله: (يَسْتَقْوِم) فقل في إعلاله: اجتمع معنا حرف صحيح ساكن، وحرف علة متحرك، والحرف الصحيح أولى بالحركة من حرف العلة، فنقلت حركة الواو إلى القاف قبلها، فصار (يَسْتَقِوْم) ثم قلبت الواو ياءً لمناسبة الكسرة، فصار: يَسْتَقِيم.

الإعراب: ﴿إِنْ﴾: حرف نفي بمعنى: ما. ﴿هُوَ﴾: ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿ذِكْرٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها. ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: ﴿ذِكْرٌ﴾، أو بمحذوف صفة له، وعلامة الجر الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد. ﴿لِمَن﴾: جار ومجرور بدل من للعالمين بإعادة الجار. ﴿شَاءَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (مَنْ)، وهو العائد. والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿مِنكُمْ﴾: جار ومجرور

متعلقان بما قبلهما. وقيل: متعلقان بمحذوف حال، ولا وجه له. ﴿أَن يَسْتَقِيمَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ: ﴿أَن﴾، والفاعل يعود إلى (مَنْ)، والمصدر المؤول في محل نصب مفعول به. ﴿وَمَا﴾: الواو: واو الحال. (ما): نافية. ﴿تَشَآءُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله، والمفعول محذوف، التقدير: وما تشاؤون الاستقامة، والجملة الفعلية في محل نصب حال من كاف الخطاب، والرابط: الواو، والضمير. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء. ﴿أَن يَشَآءَ﴾: مضارع منصوب بأن، والمفعول محذوف، التقدير: أن يشاء الاستقامة لكم. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعل. ﴿رَبُّ﴾: بدل من لفظ الجلالة، وهو مضاف، و﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مضاف إليه من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والمصدر المؤول في محل جر بالإضافة لظرف زمان محذوف، التقدير: إلا وقت مشيئة الله. قاله البيضاوي، وأبو البقاء. وقال مكي: ﴿أَن﴾ وما معها في موضع خفض بإضمار الباء، أو في موضع نصب بحذف الخافض، تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

انتهت سورة (التكوير) شرحاً وإعراباً بحمد الله وتوفيقه.

والحمد لله رب العالمين.

سورة الانفطار

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة (الانفطار) مكية في قول الجميع، وهي تسع عشرة آيةً، وثمانون كلمةً، وثلاثمئة وسبعة وعشرون حرفاً. انظر ما ذكرته في أول سورة (التكوير)، والله الموفق، والمعين.

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ٥﴾

الشرح: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ أي: تشققت بأمر الله تعالى لنزول الملائكة، كقوله تعالى في سورة (الفرقان) رقم [٢٥]: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾. وقيل: تفطرت لهيبة الله تعالى. والفطر: الشق عن الشيء. يقال: فطرته، فانفطر. قال تعالى في سورة (المزمل): ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ﴾ ومنه: فطر ناب البعير: طلع، فهو بعير فاطر، وتفطر الشيء: تشقق، وسيف فطار؛ أي: فيه تشقق. قال عنترة: [الوافر]

وسَيْفِي كَالْعَقِيقَةِ وَهْوَ كِمْعِي ... سِلَاحِي لَا أَفَلَّ وَلَا فُطَارَا

العقيقة: شعاع البرق الذي يبدو كالسيف، والكمع: الضجيع. وقد ذكر ﴿فَاطِرِ﴾ و(فطر) في كثير من الآيات. وانظر الآية رقم [٣] من سورة (الملك). ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾ أي: تساقطت. وانظر ما ذكرته في سورة (التكوير). هذا؛ ويقال: نثرت الشيء، أنثره نثراً، فانتثر، والاسم: النثار بكسر النون، وبضمها: ما تناثر من الشيء. ففي هذه الآية استعارة مكنية، حيث شبه الكواكب بجواهر قُطِعَ سلكها، فتناثرت متفرقة، وطوى ذكر المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الانتثار على طريق الاستعارة المكنية.

﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ﴾ أي: فجر بعضها في بعض فصارت بحراً واحداً، وزال الحاجز الذي ذكر الله في سورة (الرحمن) بقوله: ﴿بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ﴾، وفي سورة (الفرقان) بقوله: ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾. وقال الحسن ـ رحمه الله ـ: ﴿فُجِّرَتۡ﴾ ذهب ماؤها، ويبست، وذلك: أنها أولاً راكدة مجتمعة، فإذا فجرت؛ تفرقت، فذهب ماؤها. ﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ﴾ أي: قلبت، وأخرج ما فيها من أهلها أحياءً، يقال: بعثرت المتاع: قلبته ظهراً لبطن، وبعثرت الحوض،

وبحثرته: إذا هدمته، وجعلت أسفله أعلاه. وقال قوم منهم الفراء: ﴿بُعْثِرَتْ﴾ أخرجت ما في بطنها من الذهب والفضة، وإن من أشراط الساعة أن تخرج الأرض ذهبها، وفضتها. قال تعالى في سورة (الزلزلة): ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾. ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾: مثل قوله تعالى في سورة (القيامة): ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ وانظر سورة (التكوير) رقم [١٤]. هذا؛ وتنكير ﴿نَفْسٌ﴾ يفيد التكثير. وانظر سورة (العاديات) رقم [٩].

هذا؛ وقال الجمل نقلاً عن الرازي: واعلم: أن المراد من هذه الآيات: أنه إذا وقعت هذه الأشياء؛ التي هي أشراط الساعة، فهناك يحصل الحشر، والنشر، وهي هاهنا أربعة: اثنان منها يتعلقان بالعلويات، واثنان يتعلقان بالسفليات. والمراد بهذه الآيات بيان تخريب العالم، وفناء الدنيا، وانقطاع التكاليف. والسماء كالسقف، والأرض كالبناء، ومن أراد تخريب دار؛ فإنه يبدأ أولاً بتخريب السقف، ثم يلزم من تخريب السماء انتثار الكواكب، ثم بعد تخريب السماء، والكواكب يخرب كل ما على وجه الأرض من البحار، ثم بعد ذلك تخرب الأرض؛ التي فيها الأموات، وأشار لذلك بقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ ثم إن قوله: ﴿مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ يقتضي فعلاً، وتركاً، فإن كان قد قدم الكبائر، وأخر العمل الصالح؛ فمأواه النار، وإن كان قد قدم العمل الصالح، وأخر الكبائر؛ فمأواه الجنة، فيحصل العلم الإجمالي في أول زمان الحشر؛ لأن المطيع يرى آثار السعادة في أول الأمر، وأما العلم التفصيلي؛ فلا يحصل إلا عند قراءة الكتب، والمحاسبة. انتهى.

هذا؛ وتفسيره ـ رحمه الله تعالى ـ: ﴿مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ بما تقدم، قد يكون غير وافٍ بالغرض، والأحسن، والأولى هو ما ذكرته في تفسير، وشرح قوله تعالى في سورة (القيامة) رقم [١٣]: ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ انظره فإنه جيد. هذا؛ ولا تنس الطباق بين (قدمت) و(أخرت)، وكذلك السجع المرصَّع، وهو ما تراه في الآيات مختومةً بتاء التأنيث الساكنة، وهو من المحسنات البديعية، وهو ناتج من توافق الفواصل رعاية لرؤوس الآيات، ومثل ذلك سورة (التكوير) كلها.

الإعراب: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ...﴾ إلخ: مثل قوله تعالى في سورة (التكوير): ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ...﴾ إلخ بلا فارق. ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ إعراب هذه الكلمات مثل إعراب قوله تعالى في سورة (التكوير): ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ جملاً، وإفراداً بلا فارق بينهما، فلا حاجة إلى إعراب هذه الآيات هنا، والله الموفق، والمعين، وبه أستعين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾﴾

الشرح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ أي: ما خدعك، وسوّل لك الباطل؛ حتى صنعت ما صنعت، وضيعت ما أوجب الله عليك؟! والمعنى: ما الذي أمنك من عقابه؟ قيل:

نزلت في الوليد بن المغيرة. وقيل: في أبي بن خلف. وقيل: نزلت في أبي الأشد بن كلدة الجمحي، واسمه أسيد. وقيل: كلدة بن خلف، وكان كافراً، ضرب النبي ﷺ، فلم يعاقبه الله، وأنزل هذه الآية. وقيل: الآية عامة في كل كافر، وعاصٍ، وهو الأولى.

يقول الله: ﴿مَا غَرَّكَ﴾ قيل: غرَّه حمقه، وجهله. وقيل: غرَّه تسويل الشيطان. وقيل: غرَّه عفو الله عنه؛ حيث لم يعاجله بالعقوبة في أول مرة. ﴿بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ أي: المتجاوز عنك، فهو بكرمه لم يعاجلك بعقوبته، بل بسط لك المدة لرجاء التوبة. قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: ما منكم من أحد إلا سيخلو الله عز وجل به يوم القيامة، فيقول له: يا بن آدم ما غرك بي؟ يا بن آدم ماذا عملت فيما علمت؟ يا بن آدم ماذا أجبت المرسلين؟ قيل للفضيل بن عياض: لو أقامك الله يوم القيامة بين يديه، فقال لك: يا بن آدم ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ ماذا كنت تقول؟ قال: أقول: غرني ستورك المرخاة؛ لأن الكريم هو الستار. نظمه ابن السماك، فقال: [السريع]

يَا كَاتِمَ الذَّنْبِ أَمَا تَسْتَحِي ... واللهُ فِي الخَلْوَةِ ثَانِيكَا
غَرَّكَ مِنْ رَبِّكَ إِمْهَالُهُ ... وَسَتْرُهُ طُولَ مَسَاوِيكَا

وقال يحيى بن معاذ الرازي: لو أقامني بين يديه وقال: ما غرك بي؟ أقول: غرني برك بي سالفاً، وآنفاً. وقال أبو بكر الوراق: لو قال لي: ما غرك بربك؟ لقلت: غرني كرم الكريم. وقال بعض أهل الإشارة: إنما قال: ﴿بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ دون سائر أسمائه، وصفاته، كأنه لقنه حجته في الإجابة، حتى يقول: غرني كرم الكريم. انتهى. خازن بتصرف.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾: أوجدك من العدم بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً، وكان ذلك من نطفة مذرة. ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ أي: جعلك سوياً سالم الأعضاء في بطن أمك، فجعل لك عينين تبصر فيهما، وأذنين تسمع بهما، ويدين تبطش بهما، ورجلين تسعى بهما. ﴿فَعَدَلَكَ﴾: يقرأ بتشديد الدال: أي: فصيرك معتدلاً متناسب الخلق من غير تفاوت فيه، فلم يجعل إحدى اليدين أطول، ولا إحدى العينين أوسع، ولا بعض الأعضاء أبيض، وبعضها أسود. وقيل: معناه: جعلك قائماً معتدلاً حسن الصورة، ولم يجعلك كالبهيمة، تأكل، وتشرب منحنياً. قال تعالى في سورة (التين): ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾. ويقرأ بتخفيف الدال، وعليه فالمعنى: فأمالك وصرفك إلى أي صورة شاء، إما حسناً، وإما قبيحاً، وإما طويلاً وإما قصيراً، انظر ما ذكرته في آيات (السجدة) رقم [٧ و٨ و٩]، وفي سورة (الأعلى) أيضاً.

﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ أي: إن شاء في صورة إنسان، وإن شاء في صورة حمار، وإن شاء في صورة قرد، وإن شاء في صورة خنزير. وقال مكحول: إن شاء ذكراً، وإن شاء أنثى. وقيل: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ من الصور المختلفة، بحسب الطول، والقصر، والحسن،

والقبح، والذكورة، والأنوثة، وفي هذه دلالة على قدرة الصانع المختار القادر المقتدر، وذلك: أنه لما اختلفت الهيئات، والصفات؛ دل ذلك على كمال القدرة، واتساع الصنعة، وأنَّ المدبر المختار هو الله تعالى.

هذا؛ ويستدل بهذه الآية مَنْ يقول بتناسخ الأرواح، فهم يقولون: إن الإنسان إذا مات، وخرجت روحه من بين جنبيه؛ تحل بجسد آخر، فإن كانت صالحة طاهرة، عمل صاحبها الطاعات؛ تحلُّ بجسد إنسان عاقل كريم، وإن كانت خبيثة، عمل صاحبها المعاصي، والإضرار للناس، والإفساد في الأرض؛ تحل بجسد حيوان، أو وحش، أو هوام. . .إلخ، وحلولها في الجسد الخبيث عقوبة لها، حتى إذا طهرت، وتهذبت يموت الجسد الخبيث، ثم تعود فتحل بجسد إنسان آخر عاقل كريم، وهذا التناسخ يقوله الهندوس في الهند، ويوجد في البلاد العربية من يقول به. وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٦١] من سورة (الواقعة).

تنبيه: تلا النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾. فقال: «**غره جهله**». وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: غره حمقه، وجهله. وقال الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ: غره والله شيطانه الخبيث! أي: زين له المعاصي. وقال له: افعل ما شئت، فربك الكريم الذي تفضل عليك بما تفضل به أولاً، وهو متفضل عليك آخراً؛ حتى ورطه، وأوقعه في المعاصي. هذا؛ ولا تنس: أن الشيطان اللعين يتبرأ من الذي أغواه، انظر الآية رقم [٢٢] من سورة (إبراهيم) على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام.

﴿كَلَّا﴾: ردع عن الاغترار بكرم الله، وعن الغفلة عن طاعته، وعبادته. ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾: الخطاب لأهل مكة ومن على شاكلتهم من الملاحدة في هذا الزمن؛ الذين ينكرون الصلاة، وغيرها من العبادات المعلومة من الدين بالضرورة. وهو إضراب انتقالي إلى بيان ما هو السبب الأصلي في اغترارهم.

الإعراب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: (يا): أداة نداء تنوب مناب: أدعو، أو أنادي. (أيها): منادى نكرة مقصودة مبنية على الضم في محل نصب بأداة النداء، و(ها): حرف تنبيه لا محل له، أقحم للتوكيد، وهو عوض من المضاف إليه، ولا يجوز اعتبار الهاء ضميراً في محل جر بالإضافة؛ لأنه يجب حينئذٍ نصب المنادى. ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾: بدل من (أيُّ) أو عطف بيان عليه، والجملة الندائية مبتدأة، أو مستأنفة، لا محل لها على الاعتبارين. ﴿مَا﴾: اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿غَرَّكَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿مَا﴾، والكاف مفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر ﴿مَا﴾، والجملة الاسمية لا محل لها مثل الجملة الندائية قبلها. ﴿بِرَبِّكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿ٱلْكَرِيمِ﴾: صفة (ربك). ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل جر صفة ثانية. ﴿خَلَقَكَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلَّذِى﴾ وهو

العائد، والكاف مفعول به، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل لها، وجملة: (سواك فعدلك) معطوفتان عليها، لا محل لهما مثلها.

﴿فِيٓ أَيِّ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل ﴿رَكَّبَكَ﴾، و﴿مَّا﴾ بعدهما مزيدة، أو هما متعلقان بمحذوف حال من الكاف؛ أي: ركبك حال كونه حاصلاً في بعض الصور. أو هما متعلقان بالفعل: (عدلك)، التقدير: وضعك في صورة أي صورة. ذكر ذلك ابن هشام في المغني، واعترض عليه في الأخير بأن معنى (أي) الاستفهام فلها صدر الكلام، فكيف يعمل فيها ما قبلها.

هذا؛ وأجيز اعتبار (ما) أداة شرط جازمة تجزم فعلين، فقد جزمت الفعلين بعدها، وعليه فالجملة الشرطية بمجموعها في محل جر صفة ﴿صُورَةٍ﴾. ﴿شَآءَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ربك، والمفعول محذوف، والجملة الفعلية في محل جر صفة ﴿صُورَةٍ﴾ على اعتبار ﴿مَّا﴾ زائدة، ومبتدأة لا محل لها على اعتبار ﴿مَّا﴾ أداة شرط. ﴿رَكَّبَكَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (ربك)، والكاف مفعول به، والجملة الفعلية لا محل لها على اعتبار (ما) شرطية، وفي محل نصب حال من فاعل ﴿خَلَقَكَ﴾ و(سواك) و(عدلك) على اعتبار (ما) زائدة، وهي على تقدير «قد» قبلها.

﴿كَلَّا﴾: حرف ردع عن الاغترار بكرم الله تعالى. وقال القرطبي: يجوز أن تكون بمعنى: حقاً، وبمعنى: ألا الاستفتاحية، فيبتدأ بها، ويجوز أن تكون بمعنى «لا» النافية، على أن يكون المعنى: ليس الأمر كما تقولون من أنكم في عبادتكم غير الله محقون. ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب انتقالي. ﴿تُكَذِّبُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله. ﴿بِٱلدِّينِ﴾: متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها.

﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ﴾ أي: رقباء من الملائكة. ﴿كِرَامٗا كَٰتِبِينَ﴾: كراماً على الله، كقوله تعالى في سورة (عبس) رقم [١٦]: ﴿كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾. ﴿كَٰتِبِينَ﴾: يكتبون أعمالكم، وأقوالكم. ﴿يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾: لا يخفى عليهم شيء من أقوالكم، وأفعالكم، وما أحراك أن تنظر ما ذكرته في الآية رقم [١١] من سورة (الرعد): ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ...﴾ إلخ، وأن تنظر قوله تعالى في سورة (ق): ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾. وانظر سورة (الطارق)، وخذ هنا ما يلي:

فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى حالتين: الخراءة، أو الجماع، فإذا اغتسل أحدكم، فليستتر بجرم حائطٍ، أو بغيره، أو ليستره أخوه**».

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن اللهَ ينهاكمْ عنِ التعرِّي، فاسْتَحْيوا مِنْ ملائكةِ اللهِ الذين معَكمْ الكاتِبِيْنَ الَّذِينَ لا يُفَارِقونكُمْ إلا عِنْدَ إحدَى ثلاثِ حالاتٍ: الغائطِ، والجنابةِ، والغسلِ، فإذَا اغتَسَلَ أحدُكمْ بالعراء، فلْيَسْتَتِرِ بثوبِهِ، أو بجرمِ حائطٍ، أو ببعيرِهِ**». وسبب ورود هذا الحديث: أن النبي ﷺ رأى رجلاً يغتسل بفلاة من الأرض. وروي عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: لا يزال الملك مولياً عن العبد ما زال بادي العورة، وروي: أن العبد إذا دخل الحمام بدون مئزر؛ لعنه ملكاه.

واختلف الناس في الكفار: هل عليهم حفظة، أم لا؟ فقال بعضهم: لا؛ لأن أمرهم ظاهر، وعملهم واحد. قال الله تعالى في سورة (الرحمن) رقم [٤١]: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ وقيل: بل عليهم حفظة بدليل الآيات التي نحن بصدد شرحها، وقوله تعالى في سورة (الحاقة): ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾. وقوله تعالى في سورة (الانشقاق): ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ فأخبر الله: أن الكفار يكون لهم كتاب، ويكون عليهم حفظة. فإن قيل: الذي على يمينه؛ أي شيء يكتب، ولا حسنة له؟ قيل له: الذي يكتب عن شماله يكون بإذن صاحبه، ويكون شاهداً على ذلك؛ وإن لم يكتب. والله أعلم.

سئل سفيان الثوري ـ رحمه الله تعالى ـ: كيف تعلم الملائكة: أن العبد قد همَّ بحسنة، أو سيئة؟! قال: إذا هم العبد بحسنة؛ وجدوا منه ريح المسك، وإذا هم بسيئة؛ وجدوا منه ريح النتن. هذا؛ ومن المعلوم، والمحفوظ: أن الحفظة من الملائكة غير الكتبة، انظر آية (الرعد) وآية (ق) ففيهما تفصيل، وتوضيح لذلك.

الإعراب: ﴿وَإِنَّ﴾: الواو: واو الحال. (إن): حرف مشبه بالفعل. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر (إن) تقدم على اسمها. ﴿لَحَٰفِظِينَ﴾: اللام: لام الابتداء. (حافظين): اسم (إنَّ) مؤخر منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنه اسم فاعل جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد، وفاعله مستتر فيه، ومفعوله محذوف، التقدير: أعمالكم. أو حافظين لكم، والجملة الاسمية في محل نصب حال من واو الجماعة في ﴿تُكَذِّبُونَ﴾، والرابط: الواو، والضمير وجوز اعتبارها مستأنفة. ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾: صفتان لـ: (حافظين)، وعند التأمل يتبين لك: أن الثلاثة صفات لموصوف محذوف هم: «الملائكة». ﴿يَعْلَمُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله. ﴿مَا﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب مفعول به، والجملة الفعلية بعدها صلتها، أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: يعلمون الذي، أو شيئاً يفعلونه. هذا؛ وإن اعتبرت ﴿مَا﴾ مصدرية؛ فهي تؤول مع الفعل بعدها بمصدر في محل نصب مفعول به، التقدير: يعلمون فعلهم، والجملة الفعلية في محل نصب صفة ثالثة لـ: (حافظين)، أو صفة رابعة، وإن اعتبرتها في محل نصب حال من الضمير المستتر بـ: (حافظين) فلست مفنداً.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ أي: الذين بروا في وعودهم، وصدقوا في إيمانهم بأداء ما افترض الله عليهم، واجتناب معاصيه، وبروا الناس بالإحسان إليهم، واللطف بهم، والرفق في معاملاتهم، ومعاشرتهم. وانظر سورة (الدهر) رقم [٥]. ﴿لَفِى نَعِيمٍ﴾: لفي بهجة، وسرور لا يوصف، يتنعمون في رياض الجنة، بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وهم مخلدون في ذلك، لا يبرحون، ولا يهرمون. هذا؛ والنعيم: التنعم، والترفه، وأيضاً النعيم: النعمة بفتح النون، يقال: نعمه الله، وناعمه، وامرأة منعمة ومناعمة بمعنى، والمعنى إن الأبرار في الجنات يتنعمون. ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ﴾ أي: الكفرة، والفسقة، والملاحدة؛ الذين عصوْا ربهم في الدنيا، وخالفوا أوامره. ﴿لَفِى جَحِيمٍ﴾: لفي نار محرقة، وعذاب دائم مقيم في دار الجحيم. ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾: يدخلونها، ويقاسون حرها. ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾: يوم الحساب، والجزاء؛ الذي كانوا يكذبون به في الدنيا. ما ألطف هذه المقابلة في الآيتين بين الأبرار، والفجار! وفيهما أيضاً فنُّ الترصيع، وكل ذلك من المحسنات البديعية. ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ أي: لا يغيبون عن العذاب ساعة واحدة، ولا يخفف عنهم من عذاب النار، ولا يجابون إلى ما يسألون من الموت، أو الراحة؛ ولو يوماً واحداً. وقيل: معناه: وما يغيبون عنها قبل ذلك؛ إذ كانوا يجدون سمومها في القبور، وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ رقم [٣٧] من سورة (المائدة)، وأيضاً سورة (البقرة) رقم [١٦٧].

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلْأَبْرَارَ﴾: اسمها. ﴿لَفِى﴾: اللام: هي المزحلقة. (في نعيم): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية مبتدأة، أو مستأنفة، لا محل لها على الاعتبارين، والتي بعدها معطوفة عليها، وإعرابها مثلها. ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾: فعل مضارع مرفوع، وفاعله، ومفعوله، والجملة الفعلية في محل نصب حال من الضمير المستتر في الجار، والمجرور لوقوعهما خبراً عن ﴿إِنَّ﴾، وإن اعتبرتها مستأنفة؛ فلا محل لها. وأجاز أبو البقاء اعتبارها صفة لـ: ﴿جَحِيمٍ﴾، والرابط: الضمير المنصوب. ﴿يَوْمَ﴾: ظرف زمان متعلق بالفعل قبله، و﴿يَوْمَ﴾ مضاف، و﴿ٱلدِّينِ﴾ مضاف إليه. ﴿وَمَا﴾: الواو: واو الحال. (ما): نافية حجازية تعمل عمل: «ليس». ﴿هُمْ﴾: ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع اسم (ما). ﴿عَنْهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما بعدهما. ﴿بِغَآئِبِينَ﴾: الباء: حرف جر صلة. (غائبين): خبر (ما) مجرور لفظاً، منصوب محلاً، والجملة الاسمية في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الواو، والضمير، وإن اعتبرتها مستأنفة؛ فلا محل لها.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٌ لِّنَفۡسٍ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ۝١٩﴾

الشرح: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ أي: أي شيء يوم الدين؟ تفخيماً لشأنه، وتعظيماً لهوله؛ أي: حقه أن يستفهم عنه لعظمه، فوضع الظاهر موضع الضمير لزيادة التهويل. ﴿ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ المعنى: وأي شيء علمته عن يوم الدين؟ أي: إنك لا علم لك بكنهه، ومدى عظمه؛ لأنه من العظم، والشدة بحيث لا تبلغ حقيقته دراية المخلوقين، ومعرفتهم، والخطاب للنبي ﷺ، ويعم كل عاقل فاهم، يهمه شأن يوم الدين.

والنبي ﷺ كان عالماً بيوم الدين، ولكن بالصفة، فقيل تفخيماً لشأنه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ أي: كأنك لست تعلمه؛ إذا لم تعاينه. قال يحيى بن سلام ـ رحمه الله تعالى ـ: بلغني أن كل شيء في القرآن ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد أدراه إياه، وعلمه، وكل شيء قال: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾؟ فهو مما لم يعلمه. وقال سفيان بن عيينة ـ رحمه الله تعالى ـ: كل شيء قال فيه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فإنه أخبر به، وكل شيء قال فيه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فإنه لم يخبر به.

﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٌ لِّنَفۡسٍ شَيۡـٔٗاۖ﴾ أي: لا تملك نفس كافرة لنفس كافرة شيئاً من المنفعة، وكذلك المؤمنة لا تستطيع ذلك لغيرها بوجه، وإنما تملك الشفاعة، والمنفعة لغيرها بالإذن، وهو صريح قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ كقوله تعالى في سورة (غافر) رقم [١٦]: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ هذا؛ وفي هذه الآيات من البلاغة فنُّ الإطناب بتكرير الجملة، وإعادتها.

بعد هذا فالفعل: «درى» بمعنى: علم من أفعال اليقين، فينصب مفعولين كقول الشاعر، وهو الشاهد رقم [٦] من كتابنا: «فتح رب البرية»: [الطويل]

دُرِيتَ الْوَفِيَّ العهد يا عمرُو فاغتَبِطْ فَإِنَّ اغْتِبَاطاً بالْوَفاءِ حَمِيدُ

وهو قليل؛ إذ الكثير المستعمل فيه أن يتعدى إلى واحد بالباء، نحو دريت بكذا، فإن دخلت عليه همزة النقل؛ تعدى إلى واحد بنفسه، وإلى واحد بالباء، نحو قوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ﴾ الآية رقم [١٦] من سورة (يونس) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام. قال شيخ الإسلام: ومحل ذلك إذا لم يدخل على الفعل استفهام، وإلا تعدى إلى ثلاثة مفاعيل، نحو قوله تعالى في سورة (القارعة): ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾؟ فالكاف مفعول أول، والجملة الاسمية سدت مسد المفعولين. انتهى.

والذي في «الهمع» و«المغني» ـ قيل: وهو الأوجه ـ: أن الجملة الاسمية سدت مسدَّ المفعول الثاني المتعدي إليه بالحرف، فتكون في محل نصب بإسقاط الجار، كما في فكرت:

أهذا صحيح أم لا؟ أي: فكرت بما ذكر. انتهى. جرجاوي، وينبغي أن تعلم أن الفعل أدراك هنا معلق عن العمل لفظاً بسبب الاستفهام بعده، والكوفيون يجرون الترجي مجرى الاستفهام في التعليق، إلا أن النحويين لم يعدوا «لعل» من المعلقات، والحق مع الكوفيين، وهو ظاهر في قوله تعالى في سورة (عبس): ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾، وقوله جل شأنه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ سورة (الأحزاب) رقم [٦٣] فإن كان «درى» بمعنى: «ختل»؛ أي: خدع كان متعدياً إلى واحد بنفسه، مثل دريت الصيد؛ أي: ختلته، وخدعته. قال الأخطل التغلبي: [الطويل]

فَإِن كُنْتَ قَدْ أَقْصَدْتَنِي إِذْ رَمَيْتَنِي ... بِسَهْمِكَ فَالرَّامِي يَصِيدُ وَلَا يَدْرِي

أي: يصيد، ولا يختل. ومثله قول الآخر: [الطويل]

فإن كنتُ لا أدْرِي الظِّبَاءَ فإنني ... أَدُسُّ لها تحتَ التراب الدَّوَاهِيَا

أي: لا أختل، وإن كانت بمعنى: حك، مثل: درى رأسه بالمدرى؛ أي: حك رأسه بالمشط؛ فهو كذلك. هذا؛ وانظر شرح اليوم في الآية رقم [٩] من سورة (المدثر). هذا؛ و﴿يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ يوم الدينونة، والحساب، والجزاء. والدِّين (بكسر الدال): اسم لجميع ما يتعبد به الله تعالى، والدِّين أيضاً: الملة، والشريعة. ومن هذا قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ رقم [٧٦] من سورة (يوسف) على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام. و﴿يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾: يوم الحساب، والجزاء، وهو ما في الآية الكريمة التي نحن بصدد شرحها، ومنه: كما تدين تدان؛ أي: كما تفعل؛ تجازى. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: يوم الدين يوم حساب الخلائق، يدينهم بأعمالهم، إن خيراً؛ فخيرٌ، وإن شراً؛ فشرٌّ؛ إلا من عفا الله عنه، والأمر أمره، ثم قرأ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾. هذا؛ والدَّين بفتح الدال القرض المؤجل، وجمع الأول: أديان، وجمع الثاني: ديون، وأدْيُن. هذا؛ والدينونة: القضاء، والحساب. والديانة اسم لجميع ما يتعبد به الله تعالى. هذا؛ والدين: العادة، والعمل، ومنه قول الشاعر: [الوافر]

تَقُولُ إِذَا أَدَرْتُ لَهَا وَضِينِي ... فَهَذَا دِينُهَا أَبَدَاً وَدِينِي

الإعراب: ﴿وَمَآ﴾: الواو: حرف استئناف. (ما): اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿أَدْرَىٰكَ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى (ما)، تقديره: «هو»، والكاف مفعول به أول. ﴿مَا يَوْمُ﴾: مبتدأ، وخبر، والجملة الاسمية في محل نصب سدت مسد مفعول: ﴿أَدْرَىٰكَ﴾ الثاني المعلق عن العمل لفظاً بسبب الاستفهام. وقال زاده: في محل نصب سدت مسد المفعول الثاني، والثالث؛ لأنه بمعنى: أعلم، و﴿يَوْمُ﴾ مضاف، و﴿ٱلدِّينِ﴾ مضاف إليه، وجملة: ﴿أَدْرَىٰكَ...﴾ إلخ في محل رفع خبر المبتدأ. والجملة الاسمية: (ما أدراك...) إلخ مستأنفة، لا محل لها، والتي بعدها معطوفة عليها، لا محل لها

مثلها، وإعرابها مثلها بلا فارق. ﴿يَوۡمَ﴾: مفعول به لفعل محذوف، التقدير: اذكر، ويقرأ بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هو يوم. هذا؛ وقال الزمخشري: هو بدل من ﴿يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ على القراءتين، فعلى الرفع؛ فظاهر، وعلى الفتح؛ فهو مبني على الفتح في محل رفع. وقال الكوفيون بقول الزمخشري. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿تَمۡلِكُ﴾: فعل مضارع. ﴿نَفۡسٌ﴾: فاعله. ﴿لِّنَفۡسٍ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿شَيۡـٔٗاۖ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿يَوۡمُ﴾ إليها. ﴿وَٱلۡأَمۡرُ﴾: الواو: حرف استئناف. (الأمر): مبتدأ. ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾: (يوم): ظرف زمان متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، و(إذ) ظرف زمان مبني على السكون في محل جر بالإضافة، والتنوين عوض من جملة محذوفة، التقدير: يوم إذ لا تملك نفس... إلخ. ﴿لِّلَّهِ﴾: متعلقان بالخبر المحذوف، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها، واعتبارها حالاً ضعيف. تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

انتهت سورة (الانفطار) شرحاً، وإعراباً بحمد الله وتوفيقه.

والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ المُطَفِّفِينَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة (المطففين) مكية في قول ابن مسعود، والضحاك، ومقاتل، ومدنية في قول الحسن، وعكرمة. وقال مقاتل: وهي أول سورة نزلت في المدينة. وقال ابن عباس، وقتادة ـ رضي الله عنهما ـ: مدنية إلا ثمانَ آيات من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ إلى آخرها مكي. وقال الكلبي، وجابر بن زيد: نزلت بين مكة والمدينة. وهي ست وثلاثون آيةً، ومئة وتسع وستون كلمةً، وسبعمئة وثلاثون حرفاً.

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾

الشرح: قال الجمل: ومناسبة هذه السورة لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر حال السعداء والأشقياء، ويوم الجزاء وعظم ذكر ما أعد لبعض العصاة، ذكرهم بأخسِّ ما يقع من المعصية، وهي التطفيف؛ الذي لا يكاد يجدي شيئاً من تكثير المال، وتنميته. انتهى. نقلاً من البحر.

هذا؛ وروى النسائي، وابن ماجه عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة؛ كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك. قال الفراء: فهم أوفى الناس كيلاً إلى يومهم هذا. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أيضاً؛ قال: هي أول سورة نزلت على رسول الله ﷺ ساعة نزل المدينة، وكان هذا فيهم، كانوا إذا اشترَوْا؛ استوفوْا بكيل راجح، فإذا باعوا؛ بخسوا المكيال، والميزان، فلما نزلت هذه السورة؛ انتهوْا، فهم أوفى الناس كيلاً إلى يومهم هذا.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ لأصحاب الكيل، والوزن: «**إِنَّكُمْ قدْ وُلِّيتُمْ أَمْراً فِيهِ هَلَكَتِ ٱلأُمَمُ السَّالِفَةُ قَبْلَكُمْ**». رواه الترمذي، والحاكم. هذا؛ وقد كان قوم شعيب ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ يبخسون الكيل، والميزان، فأخذهم الله بذلك، وقد ذكرت قصتهم في سورة (الأعراف) و(الشعراء)، و(هود) وغير ذلك مفصلةً تفصيلاً وافياً.

وعنه أيضاً؛ قال: قال النبي ﷺ: «**خمسٌ بخمس، ما نَقَضَ قَوْمٌ الْعَهْدَ؛ إلا سلَّطَ اللهُ عليْهِمْ عَدُوَّهُمْ. ولا حَكَمُوا بِغَيْرِ ما أَنْزَلَ اللهُ؛ إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الْفَقْرُ. وَمَا ظَهَرتِ الفاحشة فِيهِمْ؛ إِلَّا ظَهَرَ فِيهِمُ الطَّاعونُ. وَمَا طَفَّفُوا الكيْلَ؛ إلا مُنِعُوا النباتَ، وَأُخِذُوا بالسِّنين. وَلَا مَنَعُوا الزكاةَ إلا حُبِسَ عنهمُ الْمَطَرُ**». أخرجه أبو بكر البزار.

وعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ، فقال: «**يا معْشَرَ المهاجِرينَ! خمسُ خصالٍ إذا ابْتُلِيتمْ بِهِنَّ ـ وأعُوذُ باللهِ أَنْ تدرِكوهُنَّ ـ لَمْ تَظْهَر الْفَاحِشَةُ في قَوْمٍ قَطُّ؛ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا؛ إِلَّا فشَا فِيهِمُ الطاعُونُ، والأوجاعُ؛ التي لَمْ تكُنْ مضتْ في أسْلَافِهِم الَّذِينَ مَضَوْا. ولَمْ يَنْقُصُوا المكيالَ، والميزانَ؛ إلا أُخِذُوا بالسِّنين، وشدةِ المَؤُوْنَةِ، وجَوْرِ السلطانِ عَلَيْهِمْ، ولَمْ يمْنَعُوا زَكَاةَ أمْوَالِهِمْ؛ إلا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا البهائِمُ؛ لَمْ يُمْطَرُوا، ولَمْ يَنقُضُوا عهدَ اللهِ، وعهدَ رسولِهِ؛ إِلَّا سلَّطَ اللهُ علَيهِم عدُوّاً من غيْرِهِم، فأَخَذُوا بعضَ ما في أيدِيهِمْ. وَمَا لَمْ تحكمْ أَئِمَّتهُمْ بكتابِ اللهِ، ويتَخَيَّرُوا فِيمَا أنزلَ اللهُ؛ إلا جَعَلَ اللهُ بأْسَهُم بَيْنَهُمْ**». رواه ابن ماجه، والبيهقي، والبزار.

هذا؛ وقد قال تعالى في سورة (الإسراء) رقم [٣٥]: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾، وقال جل ذكره في سورة (الرحمن) رقم [٩]: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ بعد هذا انظر شرح ﴿وَيْلٌ﴾ في الآية رقم [١٥] من سورة (المرسلات).

أما (المطففين) فهو جمع: مطفف مأخوذ من التطفيف، وهو القليل، والمطفف هو المقل حق صاحبه بنقصانه حقه في كيل، أو وزن. وقال الزجاج: إنما قيل للفاعل من هذا: مطفف؛ لأنه لا يكاد يسرق من المكيال، والميزان إلا الشيء الطفيف الخفيف. هذا؛ وقال بعض العلماء: التطفيف في الكيل والوزن والوضوء والصلاة، وفي الموطأ: قال الإمام مالك ـ رحمه الله تعالى ـ: ويقال: لكل شيء وفاء، وتطفيف. وروي عن سالم بن أبي الجعد؛ قال: الصلاة بمكيال، فمن أوفى؛ أوفى الله له، ومن طفف؛ فقد علمتم ما قال الله عز وجل في ذلك: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ أي: إذا اكتالوا من الناس؛ استوفوْا؛ لأنفسهم الكيل، والوزن، فيأخذون حقهم بالوافي، والزائد، فوقعت ﴿عَلَى﴾ موقع: «مِنْ» على التقارض بين الحرفين. والتقارض باب من أبواب النحو. انظره في كتابنا: «فتح القريب المجيب».

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾ أي: كالوا لهم بالمكيال، أو وزنوا لهم بالميزان، فحذف حرف الجر من الكلمتين، مثل: نصحتك، ونصحت لك، وشكرتك، وشكرت لك. وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٢٣] من سورة (عبس) وهو من كلام أهل الحجاز، ومن جاورهم من قيس. قال الزجاج: لا يجوز الوقف على (كالوا) و(وزنوا) حتى تصل به (هم). قال: ومن الناس من يجعلها توكيداً، ويجيز الوقف على (كالوا) و(وزنوا). والأول الاختيار؛ لأنها حرف واحد. وهو

قول الكسائي. قال أبو عبيد: وكان عيسى بن عمر يجعلها حرفين؛ أي: كلمتين، ويقف على (كالوا) و(وزنوا) ويبتدئ: (هم يخسرون). قال أبو عبيد: والاختيار أن يكونا كلمة واحدة من جهتين: إحداهما الخط، وذلك أنهم كتبوهما بغير ألف، ولو كانتا مقطوعتين؛ لكانتا (كالوا) و(وزنوا) بالألف. والأخرى: أنه يقال: كلتك، ووزنتك، بمعنى: كلت لك، ووزنت لك، وهو كلام عربي. كما يقال: صدتك، وصدت لك، وكسبتك، وكسبت لك. وكذلك: شكرتك، ونصحتك. هذا؛ وقد قال تعالى في سورة (يس) رقم [٣٩]: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾، وقال في سورة (يونس) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ رقم [٥] إذ التقدير: قدرنا له، وقدر له، ومثل الآيات قول الشاعر ـ وهو الشاهد رقم [٧٦] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» والشاهد رقم [١٠١] من كتابنا: «فتح رب البرية» ـ: [الكامل]

وَلَقَدْ جَنَيْتُكَ أَكْمُؤاً وَعَسَاقِلاً ... وَلَقَدْ نَهَيْتُكَ عَنْ بَنَاتِ ٱلأَوْبَرِ

﴿يُخْسِرُونَ﴾: ينقصون الكيل، والميزان. وهذا الوعيد يلحق من يأخذ لنفسه زائداً، ويدفع إلى غيره ناقصاً. ويتناول الوعيد القليل، والكثير، لكن إذا لم يتب منه، فإن تاب منه، ورد الحقوق إلى أصحابها؛ قبلت توبته، ومن فعل ذلك، وأصر عليه؛ كان مصراً على كبيرة من الكبائر. وذلك؛ لأن عامة الخلق محتاجون إلى المعاملات، وهي مبنية على أمر الكيل، والوزن، والذرع، فلهذا السبب عظم أمر الكيل، والوزن، وأمر الله بالوفاء فيهما في كثير من الآيات.

هذا؛ وقال نافع مولى ابن عمر: كان ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ يمر بالبائع، فيقول: (اتقِ الله، وأوفِ الكيلَ، والوزنَ بالقسط، فإنَّ المطففين يُوقفون يومَ القيامةِ؛ حتى يلجمهم العرقُ) أي: فيكون عرقهم على قدر تفاوتهم في التطفيف، فمنهم من يكون عرقه إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿وَيْلٌ﴾: مبتدأ سوغ الابتداء به ـ وهو نكرة ـ؛ لأنه بمعنى العذاب، وهو دعاء عليهم، والدعاء من المسوغات، سواء كان دعاء له، نحو: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾، أو عليه، كهذه الآية. ﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مبتدأة لا محل لها. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل جر بدلاً من المطففين، أو هو صفة له، أو هو في محلِّ نصب مفعولاً به لفعل محذوفٍ، التقدير: أذمُّ الذين. أو هو في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هم الذين. والوجه الأول على الإتباع، والثاني، والثالث على القطع. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك، مبني على السكون في محل نصب. ﴿ٱكْتَالُواْ﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على المشهور

المرجوح. ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو بالفعل بعدهما. ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها. وقيل جواب (إذا) محذوف، تقديره: قبضوا منهم. وجملة: ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ في محل نصب حال من فاعل الفعل المحذوف. وهو تكلف لا داعي له. هكذا قيل في جواب (إذا) الثانية. و(إذا) ومدخولها صلة الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ لا محل له. (إذا): مثل سابقتها. ﴿كَالُوهُمْ﴾: فعل ماض، وفاعله، ومفعوله، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذا) إليها كما رأيت سابقاً. ﴿وَّزَنُوهُمْ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. وانظر شرح الجملتين. ﴿يُخْسِرُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع. . .إلخ، والواو فاعله، والمفعول محذوف يدل عليه المقام، والجملة الفعلية جواب (إذا) لا محل لها، و(إذا) ومدخولها كلام معطوف على ما قبله، فهو من جملة الصلة.

﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾

الشرح: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾: ألا يعلم، ويوقن، ويستيقن. ﴿أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾: من قبورهم للحساب والجزاء. ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني: يوم القيامة، ففيه إنكار، وتعجيب عظيم من حالهم في الاجتراء على التطفيف، كأنهم لا يخطر ببالهم، ولا يخمنون تخميناً: أنهم مبعوثون، ومحاسبون على أعمالهم. ولو اعتقدوا: أنهم مبعوثون ومحاسبون، ما نقصوا في الكيل والميزان.

وعن عبد الملك بن مروان: أن أعرابياً قال له: سمعتَ ما قال الله في المطففين؟! أراد بذلك: أن المطفف قد توجه عليه هذا الوعيد العظيم؛ الذي سمعت به، فما ظنك بنفسك، وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل، ولا وزن؟! ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: يقوم الناس من قبورهم للحساب، والجزاء، ويقفون بين يدي رب العالمين؛ ليحاسبهم على أعمالهم؛ التي عملوها في الدنيا. وهذا اليوم ذكرت أهواله في سورة (التكوير). وانظر طوله، وما قيل فيه في أول سورة (المعارج) وفي سورة (السجدة) وخذ ما يلي هنا:

قال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: قال النبي ﷺ لبشير الغفاري ـ رضي الله عنه ـ: «**كيفَ أنتَ صانعٌ في يومٍ يقومُ الناسُ فيه مقدارَ ثلاثمئَةِ سنةٍ لِربِّ العالمينَ، لا يَأتِيهِمْ فيهِ خبرٌ، ولا يُؤْمر فيه بأمرٍ**». قال بشير: المستعان الله! وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**إنهُ لَيُخَفَّفُ عنِ المؤمِنِ حتى يكونَ أخفَّ عليْهِ مِنْ صلاةِ المكتوبةِ يُصَلِّيها في الدنيا**». هذا؛ وقد قال الله تعالى في سورة (يونس) وقوله الحق: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ثم وصفهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ جعلنا الله منهم بفضله، وكرمه، ومنّه آمين.

تنبيه: القيام لله رب العالمين سبحانه شيء حقير بالإضافة إلى عظمته، وحقه، فأما قيام الناس بعضهم لبعض، فاختلف فيه الناس، فمنهم من أجازه، ومنهم من منعه، وقد روي: أن

النبي ﷺ قام إلى جعفر ابن عمه حين قدم من الحبشة، واعتنقه، وقام طلحة بن عبيد الله لكعب ابن مالك يوم تيب عليه. وقال النبي ﷺ للأنصار حين طلع عليهم سعد بن معاذ في غزوة بني قريظة: «**قوموا لِسيِّدكم**». وقال أيضاً ﷺ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَتَمثَّلَ لهُ الناسُ قياماً؛ فليتبوأْ مقْعَدَهُ من النارِ**». وذلك يرجع إلى حال الرجل، ونيته، فإن انتظر ذلك، واعتقده لنفسه؛ فهو ممنوع. وإن كان على طريق البشاشة، والوصلة؛ فإنه جائز، وخاصة عند الأسباب كالقدوم من السفر، ونحوه. انتهى. قرطبي. أقول: ولا بأس به عند المماثلة، والمكافأة، وأعني بذلك: أن الشخص إن كان يقوم لمن يقوم له، ويحترمه؛ فلا بأس! وأما إن كان لا يقوم للناس، ويريد أن يتمثل له الناس قياماً؛ فهذا الحرام، فإنه من الكبر، والغطرسة، والعجرفة بغير حق.

الإعراب: ﴿أَلَا﴾: الهمزة: حرف استفهام دخلت على (لا) النافية للتوبيخ، والتأنيب. ﴿يَظُنُّ﴾: فعل مضارع. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع فاعل، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿أَنَّهُم﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿مَّبْعُوثُونَ﴾: خبر (أنَّ) مرفوع، وعلامة رفعه الواو، و(أنَّ) واسمها، وخبرها في تأويل مصدر في محل نصب سد مسد مفعولي ﴿يَظُنُّ﴾. ﴿لِيَوْمٍ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: ﴿مَّبْعُوثُونَ﴾. ﴿عَظِيمٍ﴾: صفة (يوم).

﴿يَوْمَ﴾: ظرف زمان متعلق بـ: ﴿مَّبْعُوثُونَ﴾، أو هو متعلق بفعل محذوف يدل عليه ﴿مَّبْعُوثُونَ﴾ والمعنى: يبعثون يوم. وقيل: بدل من (يَوْم) وهو مبني على الفتح في محل جر. وقيل: منصوب بفعل محذوف، التقدير: أعني، أو اذكر. وجملة: ﴿يَقُومُ ٱلنَّاسُ﴾ في محل جر بإضافة ﴿يَوْمَ﴾ إليها. ﴿لِرَبِّ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، و(رب) مضاف، و﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، والنون عوض من التنوين في الاسم المفرد، والإضافة من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾

الشرح: ﴿كَلَّآ﴾: ردع، وتنبيه؛ أي: ردعهم عما كانوا عليه من التطفيف، والغفلة عن البعث، والحساب، والجزاء، ونبههم على أنه مما يجب أن يتاب عنه، ويندم عليه، ثم أتبعه وعيد الفجار على العموم؛ لذا فليرتدعوا عنه! فعلى هذا تم الكلام هنا. وقيل: ﴿كَلَّآ﴾ ابتداء يتصل بما بعده على معنى: حقاً.

﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾ أي: الذي كتبت فيه أعمالهم. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إن أرواح الفجار وأعمالهم. ﴿لَفِى سِجِّينٍ﴾: قال ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: هي الأرض السابعة

السفلى، وفيها أرواح الكفار. وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**سِجِّينٌ: أسفلُ سبعِ أرضينَ، وعليونَ: في السماءِ السابعةِ تحتَ العرشِ**». وقال شمر بن عطية: جاء ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ إلى كعب الأحبار، فقال: أخبرني عن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ قال كعب: إن روح الفاجر يصعد بها إلى السماء، فتأبى السماء أن تقبلها، ثم يهبط بها إلى الأرض، فتأبى أن تقبلها، فتدخل تحت سبع أرضين حتى ينتهي إلى سجين، وهو موضع خد إبليس، فيخرج لها من سجين رق، فيرقم، ويختم، ويوضع تحت خد إبليس لمعرفتها الهلاك بحساب يوم القيامة. انتهى. خازن.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ أي: ليس ذلك مما كنت تعلمه أنت، ولا قومك يا محمد! وروى أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**سجِّينٌ جُبٌّ في جهنمَ، وهوَ مفتوحٌ**». وقال أبو عبيدة والأخفش، والزجاج: ﴿لَفِى سِجِّينٍ﴾ لفي حبس، وضيق شديد (فِعِّيل) من السجن، كما يقال: فِسِّيق وشِرِّيب. قال ابن مقبل: [البسيط]

ورُفْقَةٍ يَضْرِبُونَ الْبَيْضَ ضَاحِيَةً ضَرْباً تَوَاصَتْ بِهِ ٱلأبطَالُ سِجِّينَا

والمعنى: كتابهم في حبس. جعل ذلك دليلاً على خساسة منزلتهم، أو لأنه يحل من الإعراض عنه، والإبعاد له محل الزجر، والهوان. وهذا دليل على خبث أعمالهم، وتحقير الله إياها.

﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ أي: مكتوب فيه أعمالهم مثبتة عليهم، كالرقم في الثوب، لا ينسى، ولا يمحى؛ حتى يحاسبوا به، ويجازوا عليه. وقال قتادة: أي: مكتوب، رُقِم لهم بشر، لا يزاد فيهم أحد، ولا ينقص منهم أحد. وقال الضحاك: ﴿مَّرْقُومٌ﴾: مختوم بلغة حمير، وأصل الرقم: الكتابة. قال الشاعر: [الطويل]

سَأَرْقُمُ فِي الماءِ الْقَرَاحِ إِلَيْكُمُ عَلَى بُعْدِكُمْ إِنْ كَانَ لِلْمَاءِ رَاقِمُ

قال النسفي ـ رحمه الله تعالى ـ نقلاً عن الكشاف: فإن قلت: قد أخبر الله عن كتاب الفجار بأنه في سجين، وفسر سجيناً بكتاب مرقوم، فكأنه قيل: إن كتابهم في كتاب مرقوم؛ فما معناه؟!

قلت: سجين كتاب جامع هو ديوان الشر، دوَّن الله فيه أعمال الشياطين، والكفرة من الجن، والإنس، وهو كتاب مرقوم مسطور، بَيِّن الكتابة، أو معلم، يعلم من رآه: أنه لا خير فيه، من: رقم الثياب علامتها. والمعنى: أن ما كتب من أعمال الفجار مثبت في ذلك الديوان، وسمي سجيناً فعيلاً من السجن، وهو الحبس، والتضييق؛ لأنه سبب الحبس، والتضييق في جهنم، أو لأنه مطروح تحت الأرض السابعة في مكان موحش مظلم، وهو مسكن إبليس، وذريته، وهو اسم علم منقول من وصف، كحاتم، منصرف لوجود سبب واحد، وهو العلمية

فحسب. هذا؛ و﴿الْفُجَّارِ﴾ جمع: فاجر. والمراد بهم: الكفار. وكثيراً ما نجد من أبناء المسلمين من هو أفجر من الكفار: يظلم، ويعتدي على حقوق غيره، لا يخاف رباً، ولا يحترم قانوناً، ولا يرعى ذمةً، وعهداً، يكذب، ويخون، ويخلف الوعد، ويغش في بيعه، وشرائه، ويلف، ويدور في أخذه، وعطائه.

• ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾: هلاك، ووبال، وخزي، ونكال للذين يكذبون بيوم الجزاء، والحساب، والفصل بين العباد، وتمييز الحق من الباطل. و(يوم الدين) هو يوم القيامة الذي يدين الله فيه الناس؛ أي: يحاسبهم. ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ﴾: وما يكذب بيوم الدين، والجزاء. ﴿إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾: متجاوز الحد الذي حدَّه الله له، فيطغى، ويبغي، ويفسد في الأرض، بل ويعيث فيها فساداً. ﴿أَثِيمٍ﴾: كثير الآثام لكثرة فساده في الأرض، وطغيانه على الناس.

﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ أي: تقرأ عليه آيات القرآن. ﴿قَالَ﴾: ذلك المعتدي الأثيم. ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾: أكاذيب الأولين وأحاديثهم وأباطيلهم؛ التي كتبوها، وزخرفوها. والقائل هو النضر بن الحارث من بني عبد الدار. قال البيضاوي: وإسناده إلى الجميع إسناد ما فعله رئيس القوم إليهم، فإنه كان قاضيهم، وصاحب مشورتهم، كان قد خرج إلى الحيرة في التجارة، فاشترى أحاديث كليلة، ودمنة، وكسرى، وقيصر، فلما قص رسول الله ﷺ أخبار من مضى؛ قال النضر: لو شئت لقلت مثل هذا! وكان يقول: يأتيكم محمد بأخبار عاد، وثمود، وأنا آتيكم بأخبار القياصرة، والأكاسرة! يقصد بذلك أذى النبي ﷺ. فلما حصلت غزوة بدر الكبرى، وقع أسيراً في أيدي المسلمين، فأمر الرسول ﷺ بقتله صبراً، فحزنت عليه أخته: «قتيلة»، وأرسلت أبياتاً للنبي ﷺ مطلعها: [الكامل]

أمحمدٌ وَلأَنْتَ نَجْلُ نجيبةٍ ... في قَوْمِهَا والفحلُ فحْلٌ مُعْرِقُ
مَا كَانَ ضَرَّكَ لَوْ مَنَنْتَ ورُبَّمَا ... مَنَّ الفتَى وَهُوَ الْمَغِيظُ الْمُحنَقُ

فلما سمع النبي ﷺ قصيدتها. قال: «**لو سمعتها تقول هذا قبل أن أقتله؛ ما قتلته، ولعفوت عنه**». ثم قال: «**لا تقتل قريش أحداً بعد هذا صبراً**». انظر الشاهد رقم [٤٧٠] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»، تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

هذا؛ و﴿أَسَاطِيرُ﴾ جمع: أسطورة، وإسطارة (بكسر الهمزة)، فالأول مثل: أحدوثة، وأضحوكة، وأعجوبة، وجمعها: أحاديث، وأضاحيك، وأعاجيب. وقيل: واحدها سطر، بفتح السين والطاء. وأسطار: جمع، وأساطير: جمع الجمع، مثل: أقوال، وأقاويل، هذا؛ وسطر الكتابة جمعه في القلة: أسطر، وفي الكثرة: سطور، مثل: فَلْس، وأَفْلُسٌ، وَفُلُوس. هذا؛ وقد قيل في معنى ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾: إنها التُّرَّهات، وهي عند العرب غامضة، ومسالك وعرة مشكلة، يقول قائلها: أخذنا في التُّرَّهات، بمعنى عدلنا عن الطريق الواضح إلى الطريق المشكل الذي لا

يعرف، فجعلت الترهات مثلاً لما لا يعرف، ولا يتضح من الأمور المشكلة الغامضة؛ التي لا أصل لها.

﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾: جمع: أول، وفيه مسائل: الأولى: الصحيح أن أصله: (أَوْأَل) بوزن أفعل، قلبت الهمزة الثانية واواً، ثم أدغمت في الأولى، بدليل قولهم في الجمع: أوائل. وقيل: أصله: (وَوَّل) بوزن: فوْعل، قلبت الواو الأولى همزة، وإنما لم يجمع على أواول لاستثقالهم اجتماع الواوين بينهما ألف الجمع.

الثانية: الصحيح: أن أول لا يستلزم ثانياً، وإنما معناه: ابتداء الشيء، ثم قد يكون له ثانٍ، وقد لا يكون، تقول: هذا أول مال اكتسبته، وقد لا تكتسب بعده شيئاً، وقد تكتسب. وقيل: إنه يستلزم ثانياً، كما أن الآخر يقتضي أولاً، فلو قال: إن كان أول ولد تلدينه ذكراً؛ فأنت طالق، فولدت ذكراً، ولم تلد غيره، وقع الطلاق على الأول دون الثاني.

الثالثة: لأول استعمالان: أحدهما: أن يكون صفة؛ أي: أفعل تفضيل بمعنى الأسبق، فيعطى هذا حكم أفعل التفضيل من منع الصرف، وعدم تأنيثه بالتاء، ودخول مِنْ عليه، نحو: هذا أول من هذين، ولقيته عاماً أول. والثاني أن يكون اسماً مصروفاً، نحو لقيته عاماً أولاً، ومنه قولهم: ما له أولٌ، ولا آخرٌ. قال أبو حيان: في محفوظي: أن هذا يؤنث بالتاء، ويصرف أيضاً، فيقال: أولةٌ، وآخرةٌ. انتهى. همع الهوامع شرح جمع الجوامع.

الإعراب: ﴿كَلَّآ﴾: حرف ردع، وزجر، أو حرف تنبيه بمعنى: حقاً. انظر الشرح. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبَّه بالفعل. ﴿كِتَٰبَ﴾: اسم (إنَّ)، و﴿كِتَٰبَ﴾: مضاف، و﴿ٱلْفُجَّارِ﴾ مضاف إليه. ﴿لَفِى﴾: اللام: هي المزحلقة. (في سجين): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية مبتدأة، أو مستأنفة، لا محل لها على الاعتبارين. ﴿وَمَآ﴾: الواو: حرف استئناف. (ما): اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿أَدْرَىٰكَ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى (ما) الاستفهامية، والكاف مفعول به أول، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها. ﴿مَا سِجِّينٌ﴾: مبتدأ، وخبر، والجملة الاسمية في محل نصب سدت مسد مفعول ﴿أَدْرَىٰكَ﴾ الثاني المعلق عن العمل لفظاً بسبب الاستفهام. وقال زاده: في محل نصب سدت مسد المفعول الثاني والثالث لـ: ﴿أَدْرَىٰكَ﴾؛ لأنه بمعنى: أعلم. ﴿كِتَٰبٌ﴾: بدل من ﴿سِجِّينٌ﴾، أو هو خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هو كتاب، وهذا على تفسير النسفي الذي رأيته، وعلى اعتبار ﴿سِجِّينٌ﴾ اسم مكان، أو اسم موضع؛ فكتاب خبر (إنَّ)، والجار، والمجرور: (في سجين) متعلقان بـ: ﴿مَّرْقُومٌ﴾. وقيل: ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبر ثان لـ: ﴿إِنَّ﴾. ﴿مَّرْقُومٌ﴾: صفة ﴿كِتَٰبَ﴾، وعلى هذين الوجهين؛ فالجملة الاسمية: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ معترضة لا محل لها.

﴿وَيۡلٞ﴾: مبتدأ. ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾: (يوم): ظرف زمان متعلق بـ: ﴿وَيۡلٞ﴾ لما فيه من معنى الهلاك، و(إذ) ظرف زمان أيضاً مبني على السكون في محل جر بالإضافة، والتنوين عوض من جملة محذوفة مضافة (إذ) إليها. ﴿لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ. والجملة الاسمية: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ مستأنفة، لا محل لها على المعتمد. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل جر صفة (المكذبين) أو بدل منه، أو هو في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هم الذين، أو هو في محل نصب مفعول به لفعل محذوف، التقدير: أذم الذين. ﴿يُكَذِّبُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿بِيَوۡمِ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، و(يوم) مضاف، و﴿ٱلدِّينِ﴾: مضاف إليه. ﴿وَمَا﴾: الواو: واو الحال. (ما): نافية. ﴿يُكَذِّبُ﴾: فعل مضارع. ﴿بِهِۦٓ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿كُلُّ﴾: فاعل يكذب، وهو مضاف، و﴿مُعۡتَدٍ﴾ مضاف إليه مجرور، وعلامة جره كسرة مقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين، و(معتد) صفة لموصوف محذوف. ﴿أَثِيمٍ﴾: صفة ثانية للموصوف المحذوف، وجملة: (ما يكذب...) إلخ في محل نصب حال من (يوم الدين) والرابط: الواو، والضمير.

﴿إِذَا﴾: انظر الآية رقم [١]. ﴿تُتۡلَىٰ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر. ﴿عَلَيۡهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿ءَايَٰتُنَا﴾: نائب فاعل ﴿تُتۡلَىٰ﴾. و(نا): ضمير متصل في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على المشهور المرجوح. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (كل معتد)، تقديره: هو. ﴿أَسَٰطِيرُ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: ما يقوله محمد، أو: يأتي به أساطير، وهو مضاف، و﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والجملة الاسمية: «ما يقوله محمد أساطير» في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالَ...﴾ إلخ جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها، و﴿إِذَا﴾ ومدخولها في محل جر صفة ثالثة للموصوف المحذوف.

﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾

الشرح: ﴿كَلَّاۖ﴾: حرف ردع وزجر؛ أي: ليس ما يأتي به محمد ﷺ أساطير الأولين، ﴿بَلۡۜ رَانَ﴾: غطى. ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾: من الكفر، والمعاصي، والسيئات. فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ العبدَ إذَا أخطأ خطيئةً؛ نُكِتَتْ في قلبِهِ نكتةٌ سوداءُ، فإذا هو نَزَعَ، واسْتَغْفَرَ الله، وتابَ؛ صَقُلَ قلبُهُ، فإن عادَ؛ زِيدَ فيها؛ حتى تعلوَ قَلْبَهُ، وهو الران الذي ذكر الله في كتابه**: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾». رواه الترمذي. وقال: حديث حسن صحيح. ولذا قال المفسرون: هو الذنب على الذنب؛ حتى يسود القلب. قال مجاهد: هو الرجل يذنب الذنب، فيحيط الذنب بقلبه، ثم يذنب الذنب؛ فيحيط الذنب بقلبه؛ حتى تغشى الذنوب قلبه.

أقول وبالله التوفيق: إن هذا في حق الفسقة الفجرة من المسلمين، أما الكافر؛ فإنه مطبوع على قلبه، ولاحظّ له في هذا الحديث، وأقوال المفسرين بدليل قوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [٧]: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾. وما أكثر أبناء المسلمين في هذه الأيام الذين غطى الران على قلوبهم بسبب كسبهم المعاصي، والسيئات، وإعراضهم عن ذكر الله، وطاعتهم له! لذا أرشدهم الرسول ﷺ إلى الدواء الذي يزيل هذا الران؛ فعن عبد الله ابن عمرو ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ: أنه كان يقول: «**إنَّ لِكُلِّ شيءٍ صَقالَةً، وإن صَقالَةَ الْقُلُوبِ ذِكْرُ اللهِ...**». إلخ رواه البيهقي. وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ لِلْقُلُوبِ صَدأً كصدأ النُّحاسِ، وَجِلَاؤُهَا الاسْتِغْفارُ**». رواه البيهقي أيضاً.

وقال أبو معاذ: الرين: أن يسود القلب من الذنوب. والطبع: أن يطبع على القلب، وهو أشد من الرين، والإقفال: أشد من الطبع، وهو أن يقفل على القلب. قال تعالى: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ الآية رقم [٢٤] من سورة (محمد ﷺ).

هذا؛ وأصل الرين: الغلبة، ومعنى الآية: أن الذنوب، والمعاصي غلبت على قلوبهم، وأحاطت بها. يقال: ران على قلبه ذنبه، يرين ريناً، وريوناً؛ أي: غلب. وقال أبو عبيدة: كل ما غلبك؛ فقد ران عليك، وران بك، ورانك. وقال الشاعر: [الطويل]

وَكَمْ رَانَ مِنْ ذَنْبٍ على قلبِ فاجِرٍ ... فَتَابَ مِنَ الذَّنْبِ الَّذي رانَ وانْجَلى

ورانت الخمر على عقله: غلبته، وران عليه النعاس: إذا غطاه. ومنه قول أبي زبيد يصف رجلاً شرب؛ حتى غلبه الشراب سكراً، فقال: [الخفيف]

ثُمَّ لَمَّا رَآه رَانَتْ بِهِ الْخَمْـ ... ـرُ وأَلّا تَرِينَهُ بِاتِّقَاءِ

فقوله: رانت به الخمر؛ أي: غلبت على عقله، وقلبه. هذا؛ وينبغي أن تعلم: أن الرَّيْن في الآية الكريمة، والحديث الشريف إنما هو شيء معنوي، وليس بمادي، وتفسيره: أننا لو أخذنا قلب الكافر، أو قلب الفاجر الفاسق؛ لا نجد غطاءً مادياً يحيط بالقلب، ولا نجد قلب أحدهما أسود وقلب المؤمن أبيض، أو أحمر... إلخ فثبت ما قلته ـ والحمد لله ـ من أنه معنوي، لا حسيٌّ ولا مادي. هذا؛ وما تقدم هو من اليائي، أما الواوي، فيقال: ران، يرون روناً: الأمر اشتد، وعظم. ورانت الليلة: اشتد هولها، أو غمها.

هذا؛ والقلب قطعة صغيرة على هيئة الصَّنَوْبرة، خلقها الله في الآدمي، وجعلها محلاً للعلم، فيحصي به العبد من العلوم ما لا يسع في أسفار، يكتبه الله بالخط الإلهي، ويضبطه فيه بالحفظ الرباني حتى يحصيه، ولا ينسى منه شيئاً، وهو بين لَمَّتَيْنِ: لَمَةٍ من المَلَكِ، ولمةٍ من الشيطان، كما قال النبي ﷺ، فأمَّا لَمَّةُ المَلَك؛ فإيعادٌ بالخير، وتصديقٌ بالحق، وأما لمةُ الشيطان؛ فإيعاد بالشر، وتكذيب بالحق، فمن وجد الأول؛ فليعلم: أنه من الله، وليحمد الله،

ومن وجد الثاني فليتعوَّذْ بالله من الشيطان. ثم قرأ الرسول ﷺ قوله تعالى في سورة (البقرة): ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾. هـذا؛ واللَّمة بفتح اللام: الخطرة الواحدة من الإلمام، وهو القرب من الشيء والمراد بها في الحديث التي تقع في القلب من فعل خيرٍ، أو شرٍّ، فأما لمة الشيطان؛ فوسوسة. وأما لمة الملك؛ فإلهام من الله تعالى.

الإعراب: ﴿كَلَّا﴾: حرف ردع، وزجر. ﴿بَلْ﴾: حرف انتقال، وإضراب. ﴿رَانَ﴾: فعل ماضٍ. ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والهاء ضمير متصل في محل جر بالإضافة. ﴿مَّا﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل رفع فاعل ﴿رَانَ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ماضٍ ناقص مبني على الضم، والواو اسمه، والألف للتفريق. ﴿يَكْسِبُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب خبر (كان)، والجملة الفعلية صلة ﴿مَّا﴾ أو صفتها. والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: الذي، أو شيء كانوا يكسبونه. هذا؛ وإن اعتبرت (ما) مصدرية تؤول مع ما بعدها بمصدر في محل رفع فاعل، والتقدير: ران على قلوبهم كسبهم السيئات، والمعاصي.

﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾

الشرح: ﴿كَلَّآ﴾: هنا بمعنى: حقاً. ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني: الكفار. ﴿عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة. ﴿لَّمَحْجُوبُونَ﴾: قال الزجاج: في هذه الآية دليل على أنَّ الله عزَّ وجلَّ يُرى في يوم القيامة، ولولا ذلك ما كان في هذه الآية فائدة، ولا خست منزلة الكفار بأنَّهم يحجبون. وقال جل ثناؤه في سورة (القيامة): ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ فأعلم الله جلَّ ثناؤه أن المؤمنين ينظرون إليه، وأعلم أنَّ الكفار محجوبون عنه. وقال مالك بن أنس ـ رحمه الله تعالى ـ في هذه الآية: لما حجب أعداءه، فلم يروْه؛ تجلَّىٰ؛ لأوليائه حتى رأوه. وقال الشافعي ـ رضي الله عنه ـ: لما حجب قوماً بالسخط؛ دل على أن قوماً يرونه بالرضا. ثم قال: أما والله لو لم يوقن محمد بن إدريس: أنه يرى ربه في المعاد؛ لما عبده في الدنيا. وهذا كلام المدللين. وقال الحسين بن الفضل: لما حجبهم في الدنيا عن نور توحيده؛ حجبهم في الآخرة عن رؤيته. وانظر ما ذكرته في سورة (القيامة) رقم [٢٢ و٢٣] ففيها الدواء الشافي لقلبك.

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: ملازموها، ومحترقون فيها، غير خارجين منها. قال تعالى في سورة (النساء) رقم [٥٦]: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾. وقال تعالى في سورة (الإسراء) رقم [٩٧]: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾. ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾:

أي: تقول لهم خزنة جهنم على وجه التقريع، والتوبيخ: هذا جزاء الذي كذبتم به رسل الله في الدنيا، وكذبتم وقوعه في الآخرة. والله أعلم.

الإعراب: ﴿كَلَّآ﴾: حرف ابتداء بمعنى: حقاً. ﴿إِنَّهُمْ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿عَن رَّبِّهِمْ﴾: متعلقان بـ: (محجوبون) بعدهما، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف زمان متعلق بما بعده، و(إذ) ظرف زمان أيضاً مبني على السكون في محل جر بالإضافة، والتنوين عوض من جملة محذوفة، والتقدير: يوم إذ يحشر الناس. ﴿لَّمَحْجُوبُونَ﴾: خبر (إنَّ) مرفوع، وعلامة رفعه الواو... إلخ، واللام هي المزحلقة، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّهُمْ...﴾ إلخ مستأنفة، لا محل لها. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿إِنَّهُمْ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿لَصَالُواْ﴾: اللام: هي لام الابتداء زحلقت إلى الخبر. (صالو): خبر (إنَّ) مرفوع، وعلامة رفعه الواو، وحذفت النون للإضافة، و(صالو) مضاف، و﴿الْجَحِيمِ﴾ مضاف إليه، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿يُقَالُ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول. ﴿هَٰذَا﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، والهاء حرف تنبيه لا محل له. ﴿الَّذِى﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع خبر المبتدأ. ﴿كُنتُم﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون، والتاء اسمه. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان بما بعدهما، وجملة: «تكذبون به» في محل نصب خبر (كان). وجملة: ﴿كُنتُم...﴾ إلخ صلة الموصول، لا محل لها، والجملة الاسمية: ﴿هَٰذَا الَّذِى...﴾ إلخ في محل رفع نائب فاعل ﴿يُقَالُ﴾. أفاده ابن هشام في المغني، وهذا يكون جارياً على القاعدة العامة: «يحذف الفاعل، ويقام المفعول به مقامه». وهذا لا غبار عليه. وقد ذكرت لك مراراً: أن بعضهم يعتبر نائب الفاعل ضميراً مستتراً تقديره: «هو» يعود إلى المصدر المفهوم من الفعل، أو هو محذوف، يدل عليه المقام؛ أي: ويقال قول، وبعضهم يعتبر الجار، والمجرور: «لهم» المذكور، أو المقدر، كما هنا في محل رفع نائب فاعل، والمعتمد الأول. وأيده ابن هشام في المغني، حيث قال: إن الجملة التي يراد بها لفظها يحكم لها بحكم المفردات، ولهذا تقع مبتدأ، نحو (لا حول ولا قوة إلا باللهِ: كَنْزٌ مِنْ كنوزِ الجنَّةِ) ونحو (زعموا: مطيةُ الكذبِ) وجملة: ﴿يُقَالُ...﴾ إلخ معطوفة على خبر (إنَّ)، فهي في محل رفع مثله.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ الْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾

الشرح: ﴿كَلَّآ﴾: ردع، وزجر؛ أي: ليس الأمر كما يزعمون من مساواة الفجار بالأبرار في دار القرار، بل كتابهم في سجين، وكتاب الأبرار في عليين. وعن كعب الأحبار؛ قال: إن

روح المؤمن إذا قبضت صُعِد بها إلى السماء، وفتحت لها أبواب السماء، وتلقتها الملائكة بالبشرى، ثم يخرجون معها؛ حتى ينتهوا معها إلى العرش، فيخرج لهم من تحت العرش رق، فيرقم، ويختم فيه النجاة من الحساب يوم القيامة، ويشهده المقربون.

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿عِلِّيُّونَ﴾ لوح من زبرجدة خضراء، معلق بالعرش، أعمالهم مكتوبة فيه. وقال الفراء: ﴿عِلِّيُّونَ﴾ ارتفاع بعد ارتفاع. وقال: هو اسم موضوع على صفة الجمع، ولا واحد له من لفظه، كقولك: عشرون، وثلاثون، والعرب إذا جمعت جمعاً، ولم يكن له بناء من واحده، ولا تثنية؛ قالوا في المذكر، والمؤنث بالنون. ومن حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أهلَ عِلِّيِّين لَينظرون إلى الجنةِ من كذَا، فإذا أشرفَ رَجُلٌ مِنْ أهلِ عليين؛ أشرقتِ الجنةُ لضياءِ وجهِهِ، فيقولون: مَا هَذَا النورُ؟ فيُقَالُ: أشرفَ رجلٌ مِنْ أهلِ عليين الأبْرَارِ أهلِ الطَّاعةِ، والصِّدْقِ**». وفي خبر آخر: «**إن أهل الجنة ليرون أهل عليين كما يرى الكوكب الدُّرِّيُّ في أفق السماء**». فهذا يدل على أن عليين اسم الموضع المرتفع.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ أي: ما الذي أعلمك يا محمد أي شيء عليون؟! على جهة التفخيم، والتعظيم له في المنزلة الرفيعة. ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ أي: مكتوب فيه: إن فلاناً أمن من النار رقماً يا له من رقم ما أبهاه، وما أجمله!. ﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ أي: يحضرونه، ويحفظونه. أو يشهدون بما فيه يوم القيامة لتعظيمه. والمعنى: يشهد عمل الأبرار مقربو كل سماء من الملائكة. ولا تنس المقابلة بين ﴿ٱلۡفُجَّارِ﴾ وما لهم، وبين ﴿ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ ومصيرهم. وتلك سنة الله في كتابه الكريم، فلا يذكر الإيمان؛ إلا ويذكر الكفر، ولا يذكر الجنة؛ إلا ويذكر النار، ولا يذكر الرحمة؛ إلا ويذكر السخط؛ ليكون المؤمن راغباً راهباً.

هذا؛ وروي: أن الملائكة تصعد بعمل العبد، فيستقبلونه فإذا انتهوْا به إلى ما شاء الله من سلطانه؛ أوحى إليهم: إنكم الحفظة على عبدي، وأنا الرقيب على ما في قلبه، وإنه أخلص لي عمله، فاجعلوه في عليين، فقد غفرت له! وإنها لتصعد بعمل العبد، فيتركونه، فإذا انتهوْا به إلى ما شاء الله؛ أوحى إليهم: أنتم الحفظة على عبدي، وأنا الرقيب على ما في قلبه، وإنه لم يخلص لي عمله، فاجعلوه في سجين! والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿كَلَّآ﴾: حرف ردع وزجر، أو حرف بمعنى: حقاً. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿كِتَٰبَ﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ وهو مضاف، و﴿ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ مضاف إليه. ﴿لَفِي﴾: اللام: هي لام الابتداء، زحلقت إلى الخبر. (في عليين): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ﴿إِنَّ﴾ وعلامة الجر الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، والنون عوض من التنوين في الاسم المفرد، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها. ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ إعراب هذه الآية مثل إعراب ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ﴾ بلا فارق. ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾: هو مثل الآية رقم [٩] بلا فارق. ﴿يَشۡهَدُهُ﴾: فعل

مضارع، والهاء مفعول به. ﴿الْمُقَرَّبُونَ﴾: فاعله مرفوع. . . إلخ، والجملة الفعلية في محل رفع صفة ثانية لـ: ﴿كِتَابٌ﴾.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤)﴾

الشرح: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾: انظر الآية رقم [١٣] من سورة (الانفطار). ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾: جمع: أريكة. وانظر ما ذكرته في الآية رقم [١٣] من سورة (الدهر) تجد ما يسرك، ويثلج صدرك. ﴿يَنظُرُونَ﴾: إلى ما أعد الله لهم من الكرامات. وقيل: ينظرون إلى أعدائهم في النار كيف يعذبون. وقيل: ينظرون إلى ربهم. ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ أي: بهجته، وغضارته، ونوره. يقال: أنضر النبات: إذا أزهر، ونوّر، والمعنى: إذا رأيتهم تعرف: أنهم من أهل النعمة لما ترى على وجوههم من النور، والحسن، والبياض. هذا؛ والنضرة في الوجه، والسرور في القلب.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿الْأَبْرَارَ﴾: اسمها. ﴿لَفِي﴾: اللام: هي المزحلقة. (في نعيم): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها. ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾: متعلقان بما بعدهما. ﴿يَنظُرُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع. . . إلخ، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب حال من الضمير المستقر في الخبر المحذوف، أو هي في محل رفع خبر ثان، أو هي مستأنفة، لا محل لها.

﴿تَعْرِفُ﴾: فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: «أنت». ويقرأ الفعل بالبناء للمجهول، ورفع (نضرة) على أنه نائب فاعله. ﴿فِي وُجُوهِهِمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿نَضْرَةَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿النَّعِيمِ﴾ مضاف إليه، والجملة الفعلية في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الضمير فقط، وهي حال متداخلة، وإن اعتبرتها مستأنفة؛ فلا محل لها.

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٢٨)﴾

الشرح: ﴿يُسْقَوْنَ﴾ أي: الأبرار. وانظر الآية رقم [٢١] من سورة (الدهر) فالبحث فيها جيد. ﴿مِن رَّحِيقٍ﴾ أي: من شراب لا غش فيه. قاله الأخفش، والزجاج. وقيل: الرحيق: الخمر الصافية، الطيبة البيضاء، والرحيق اسم من أسماء الخمر. قال حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ: [الكامل]

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ الْبَرِيصَ عَلَيْهِمُ ... بَرَدَى يُصَفِّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ

وقال أبو الكبير الهذلي ـ وهو الشاهد رقم [١٢١] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»، والشاهد رقم [٤٤٩] كتابنا «فتح رب البرية» ـ: [الكامل]

أَمْ لَا سَبِيلَ إِلَى الشَّبَابِ وَذِكْرُهُ أَشْهَى إِلَيَّ مِنَ الرَّحِيقِ السَّلْسَلِ

﴿مَّخْتُومٍ﴾: على إنائها، ومنع من أن تمسه الأيدي إلى أن يفك ختمه الأبرار، فإن قلت: فقد قال الله تعالى في سورة (محمد ﷺ) الآية رقم [١٥]: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ﴾ والنهر لا يختم عليه، فكيف طريق الجمع بين الآيتين؟! قلت: يحتمل أن يكون المذكور في هذه الآية في أوانٍ مختوم عليها، وهي غير تلك الخمر التي في الأنهار، وإنما ختم عليها لشرفها، ونفاستها. انتهى. خازن. هذا؛ ولا تنس: أن الله جلت قدرته نفى عنها الغول الذي يسلب العقل؛ الذي يكون في خمر الدنيا. قال تعالى في سورة (الصافات): ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ فاسمها في الجنة خمر، لكن طعمها أحلى من العسل، ولونها أبيض من اللبن، وهي أبرد من الثلج! نسأل الله أن يوفقنا إلى العمل الصالح في الدنيا لنفوز بفضل الله علينا في الآخرة!.

﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ أي: طينته التي ختم عليه بها مسك، بخلاف خمر الدنيا، فإن ختامها طين، أمر الله تعالى بالختم عليه إكراماً لأصحابها. وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: مختوم؛ أي: ممزوج ختامه؛ أي: آخر طعمه، وعاقبته مسك. وقيل: يخرج لهم بالكافور، ويختم لهم بالمسك، وهو حسن وجيد؛ لأن سبيل الأشربة أن يكون الكدر في آخرها، فوصف شراب أهل الجنة بأن رائحة آخره رائحة المسك. هذا؛ والخاتم، والختام متقاربان في المعنى، إلا أن الخاتم الاسم، والختام المصدر. قاله الفراء. وقال الفرزدق: [الوافر]

خَرَجْنَ إِلَيَّ لَمْ يُطْمَثْنَ قَبْلِي وَهُنَّ أَصَحُّ مِنْ بَيْضِ النَّعَامِ

فَبِتْنَ بِجَانِبَيَّ مُصَرَّعَاتٍ وَبِتُّ أَفُضُّ أغلَاقَ الخِتَامِ

هذا؛ وفي قوله تعالى: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ تشبيه بليغ؛ إذ الأصل ختامه كالمسك في الطيب، والبهجة. فحذف منه الأداة، ووجه الشبه: فأصبح بليغاً.

﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ أي: وفي هذا النعيم، والشراب الهنيء. ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ أي: فليرغب بالمبادرة إلى طاعة الله الراغبون، وليتسابق المتسابقون. نظيره قوله تعالى في سورة (الصافات): ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾. ﴿وَمِزَاجُهُۥ﴾ أي: مزاج ذلك الرحيق، وخلطه. ﴿مِن تَسْنِيمٍ﴾ أي: شراب ينصبُّ عليهم من غرفهم، ومنازلهم، وهو أشرف شراب أهل الجنة، وهو مأخوذ من العلو، ومنه: سنام البعير؛ لأنه أعلاه، ومنه أيضاً: سنام الجبل، وهو قمته العليا، وكذلك ﴿تَسْنِيمٍ﴾. وروي عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: ﴿تَسْنِيمٍ﴾ عين في الجنة يشرب بها المقربون صرفاً، ويمزج منها كأس أصحاب اليمين، فتطيب. وقال ابن عباس

ـ رضي الله عنهما ـ: هذا مما قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ سورة (السجدة) رقم [١٧].

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾: فإنهم يشربونها صرفاً؛ لأنهم لم يشتغلوا بغير الله، ويمزج لسائر أهل الجنة. وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٦] من سورة (الدهر)، تجد ما يسرك ويثلج صدرك.

الإعراب: ﴿يُسْقَوْنَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو نائب فاعله، وهو المفعول الأول، والجملة الفعلية محلها مثل جملة: ﴿تَعْرِفُ...﴾ إلخ ﴿مِن رَّحِيقٍ﴾: متعلقان بما قبلهما، وهما في محل نصب المفعول الثاني. ﴿مَّخْتُومٍ﴾: صفة له، والجملة الاسمية: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ في محل رفع صفة ثانية لـ: ﴿رَّحِيقٍ﴾، أو في محل نصب حال منه بعد وصفه بما تقدم. ﴿وَفِي﴾: الواو: حرف استئناف. (في ذلك): جار ومجرور متعلقان بما بعدهما، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿فَلْيَتَنَافَسِ﴾: الفاء: صلة، أو هي حرف استئناف، والواو صلة. (ليتنافس): فعل مضارع مجزوم بلام الأمر. ﴿ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾: فاعل مرفوع، وعلامة رفعه الواو... إلخ، والجملة الفعلية مستأنفة، ومثل هذه الجملة في إعرابها قوله تعالى في كثير من السور: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾. ﴿وَمِزَاجُهُۥ﴾: الواو: حرف عطف. (مزاجه): مبتدأ، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿مِن تَسْنِيمٍ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على جملة: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ وما بينهما معترض لا محل له. ﴿عَيْنًا﴾: مفعول به لفعل محذوف، التقدير: أمدح عيناً. وقيل: التقدير: يسقون عيناً، وهو قول الأخفش. وعند الفراء منصوب بـ: ﴿تَسْنِيمٍ﴾ على أنه مصدر من: السنام. وقال الزجاج: نصب على الحال من: ﴿تَسْنِيمٍ﴾، ولا أسلمه؛ لأن ﴿عَيْنًا﴾ اسم جامد، والحال يجب أن يكون مشتقاً. ﴿يَشْرَبُ﴾: فعل مضارع. ﴿بِهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل نصب صفة ﴿عَيْنًا﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾: كفروا. يعني: كفار قريش، كأبي جهل، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وغيرهم من مترفي أهل مكة. ﴿كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ أي: مِنْ عَمَّار، وخباب، وصهيب، وبلال، وأصحابهم من فقراء المؤمنين. ﴿يَضْحَكُونَ﴾ أي: منهم على وجه السخرية، والاستهزاء، ويقولون عنهم: جاء ملوك الأرض! قوموا لملوك الأرض! ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ﴾ أي: مر المؤمنون الفقراء بالكفار الأغنياء. ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ أي: يغمز بعضهم بعضاً، ويشيرون بأعينهم إلى الفقراء المؤمنين سخريةً، واستهزاءً. هذا؛ والغمز: العيب، والطعن. وهو أيضاً:

الجس، واللمس باليد. قال زياد الأعجم - وهو الشاهد رقم [١٠٤] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»، والشاهد رقم [١٤٦] من كتابنا: «فتح رب البرية» -: [الوافر]

وكُنْتُ إِذَا غَمَزْتُ قَنَاةَ قَوْمٍ كَسَرْتُ كُعُوبَهَا أَوْ تَسْتَقِيمَا

وقال جرير مفترياً على أخت الفرزدق: [الكامل]

غمزَ ابنُ مُرةَ يا فرزْدَقُ كَيْنَهَا غمْزَ الطبيبِ نَغَانِغَ المَعْذُورِ

هذا؛ والغمز، واللمز حرام. قال الرسول ﷺ: «**الهمَّازُونَ، واللَّمَّازُونَ، والمشَّاؤُونَ بالنَّمِيمَةِ، الباغونَ لِلْبُرَآءِ الْعَيْبَ يَحْشُرُهُمُ اللهُ في وجوه الكلاب**». رواه ابن حبان عن العلاء بن الحارث - رضي الله عنه -. وينبغي أن تعلم: أن الله سبحانه وتعالى لما وصف كرامة الأبرار في الآخرة؛ ذكر بعد ذلك قبح معاملة الكفار معهم في الدنيا، ثم بين: أن ذلك سينقلب على الكفار في الآخرة. والمقصود منه تسلية المؤمنين، وتقوية قلوبهم، فحكى الله عن الكفار أربعة أشياء من العلامات القبيحة؛ فأولها ضحكهم من الذين آمنوا، وآخرها: قولهم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾.

هذا؛ وقال مقاتل: نزلت الآية في علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - جاء في نفر من المسلمين إلى النبي ﷺ، فلمزهم المنافقون، وضحكوا عليهم، وتغامزوا.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب اسم (إنَّ). ﴿أَجْرَمُواْ﴾: فعل ماض، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ماض ناقص، والواو: اسمه، والألف للتفريق. ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلقان بما بعدهما. وجملة: ﴿ءَامَنُواْ﴾: مع المتعلق المحذوف صلة الموصول لا محل لها. وجملة: «يضحكون من الذين آمنوا» في محل نصب خبر (كان). وجملة: ﴿كَانُواْ...﴾ إلخ في محل رفع خبر (إنَّ). والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ...﴾ إلخ مستأنفة، لا محل لها. ﴿وَإِذَا﴾: (الواو): حرف عطف. (إذا): انظر الآية رقم [١]. ﴿مَرُّواْ﴾: فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذا) إليها. ﴿بِهِمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والجملة الفعلية جواب إذا لا محل لها، و(إذا) ومدخولها معطوف على جملة: ﴿كَانُواْ...﴾ إلخ فهو في محل رفع مثله.

﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ﴾: رجعوا وانصرفوا ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ﴾: أصحابهم، وذويهم، ومنازلهم. ﴿ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾: رجعوا متلذذين بذكرهم، والسخرية منهم. أو المعنى: رجعوا معجبين بما هم

فيه من الشرك ومعاندة الحق. ويقرأ: (فاكهين): بالألف. قال الفراء: وهما لغتان مثل: طمِع، وطامع، وحذِر، وحاذِر.

الإعراب: ﴿وَإِذَا﴾: الواو: حرف عطف. (إذا): انظر الآية رقم [١]. ﴿انقَلَبُوا﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذا) إليها. ﴿إِلَى أَهْلِهِمُ﴾: متعلقان بما قبلهما، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿انقَلَبُوا﴾: ماض، وفاعله، والجملة جواب (إذا) لا محل لها. ﴿فَكِهِينَ﴾: حال من واو الجماعة منصوب، وعلامة نصبه الياء... إلخ، و(إذا) ومدخولها معطوف على جملة ﴿يَضْحَكُونَ﴾ فهو في محل رفع مثلها.

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾ أي: رأى المشركون أصحاب النبي ﷺ ﴿قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ أي: أصحاب النبي ﷺ. ﴿لَضَالُّونَ﴾ أي: هم في ضلال، يأتون محمداً، ويروْن: أنهم على شيء يعتد به. ﴿وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ أي: وما أرسلوا من جهة الله موكلين بهم، يحفظون عليهم أحوالهم، ويشهدون برشدهم، وضلالهم، وهذا تهكم بهم، وإشعار بأن ما اجترؤوا عليه من القول من وظائف الرسل من جهته تعالى.

الإعراب: ﴿وَإِذَا﴾: الواو: حرف عطف. (إذا): انظر الآية رقم [١] ﴿رَأَوْهُمْ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين، والواو فاعله، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذا) إليها. ﴿قَالُوا﴾: فعل ماض، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿هَؤُلَاءِ﴾: الهاء: حرف تنبيه. (أولاء): اسم إشارة مبني على الكسر في محل نصب اسم ﴿إِنَّ﴾. ﴿لَضَالُّونَ﴾: اللام: هي المزحلقة. (ضالون): خبر ﴿إِنَّ﴾ مرفوع... إلخ، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالُوا...﴾ إلخ جواب (إذا) لا محل لها، و(إذا) ومدخولها كلام معطوف على ما قبله. ﴿وَمَا﴾: الواو: واو الحال. (ما): نافية. ﴿أُرْسِلُوا﴾: فعل ماض مبني للمجهول مبني على الضم، والواو نائب فاعله، والألف للتفريق. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿حَافِظِينَ﴾: حال من واو الجماعة، أو هو مفعول به ثانٍ منصوب... إلخ، وجملة: ﴿وَمَا أُرْسِلُوا...﴾ إلخ في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الواو، والضمير.

﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

الشرح: ﴿فَالْيَوْمَ﴾ يعني: هذا اليوم؛ الذي هو يوم القيامة. ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾: بمحمد ﷺ رسولاً، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن كتاباً. ﴿مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾: كما ضحك الكفار منهم في

الدنيا. ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾: قال ابن المبارك: ذُكر لنا: أن كعباً كان يقول: إن بين الجنة، والنار كُوىً، فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدوٍّ له كان في الدنيا اطلع من بعض الكوى. قال الله تعالى في سورة (الصافات) الآية رقم [٥٥]: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾. قال: ذُكر لنا: أنه اطلع فرأى جماجم القوم تغلي. وذكر ابن المبارك أيضاً؛ قال: أخبرنا الكلبي عن أبي صالح في قوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [١٥]: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾. قال: يقال لأهل النار؛ وهم في النار: اخرجوا! فتفتح لهم أبواب النار، فإذا رأوْها قد فتحت؛ أقبلوا إليها يريدون الخروج، والمؤمنون على الأرائك ينظرون إليهم، فإذا انتهوْا إلى أبوابها؛ غلِّقت دونهم، فذلك قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ ويضحك المؤمنون منهم حين غلِّقت دونهم، فذلك قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ...﴾ إلخ. وفي سبب هذا الضحك وجوه: منها: أن الكفار كانوا يضحكون على المؤمنين في الدنيا بسبب ما هم فيه من الضر، والبؤس، وفي الآخرة يضحك المؤمنون على الكفار بسبب ما هم فيه من الصغار، والهوان بعد العز، والكبر، ومن ألوان العذاب بعد النعيم، والترفه. ومنها: أنهم علموا: أنهم كانوا في الدنيا على غير شيء، وأنهم باعوا الباقي بالفاني. ومنها: أنهم يروْن أنفسهم قد فازوا بالنعيم المقيم. ومنها أنه يقال لأهل النار؛ وهم فيها: اخرجوا، وتفتح لهم أبوابها، فإذا رأوْها؛ وقد فتحت أبوابها؛ أقبلوا إليها يريدون الخروج، والمؤمنون ينظرون إليهم، فإذا انتهوْا إلى أبوابها؛ أغلقت دونهم. يفعل ذلك بهم مراراً، فذلك سبب الضحك. ومنها: أنهم إذا دخلوا الجنة، وأجلسوا على الأرائك؛ ينظرون إلى الكفار كيف يعذبون في النار، ويرفعون أصواتهم بالويل، والثبور، ويلعن بعضهم بعضاً؟. انتهى. جمل نقلاً من الخطيب.

﴿هَلْ ثُوِّبَ﴾ أي: هل جوزي الكفار، وأثيبوا؟! وهو من: ثاب، يثوب: إذا رجع، وثوب، وأثيب بمعنى واحد. قال أوس بن حجر، يخاطب مؤنثاً من: امرأة، أو نفسه، أو ناقته: [الطويل]

سَأَجْزِيكِ أَوْ يُجْزِيكِ عَنِّي مُثَوِّبٌ وحَسْبُكِ أَنْ يُثْنَى عَلَيْكِ وتُحْمَدِي

هذا؛ والتثويب في أذان الفجر أن يقول المؤذن بعد قوله: (حي على الفلاح): (الصلاة خير من النوم). ورجل ثيب، وامرأة ثيب. قال ابن السكيت: وهو الذي دخل بامرأة، وهي التي دُخِلَ بها. والثواب، والمثوبة: جزاء الطاعة. قال تعالى في سورة (البقرة) رقم [١٠٣]: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ هذا؛ وينبغي للقارئ، والسامع أن يقول في آخر هذه الآية: نعم.

الإعراب: ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾: الفاء: حرف استئناف. (اليوم): ظرف زمان متعلق بالفعل ﴿يَضْحَكُونَ﴾. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ، وجملة: ﴿ءَامَنُوا۟﴾ مع المتعلق المحذوف صلة الموصول، لا محل لها. ﴿مِنَ ٱلْكُفَّارِ﴾: متعلقان بما بعدهما. ﴿يَضْحَكُونَ﴾: فعل

مضارع مرفوع... إلخ، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها. ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾: متعلقان بما بعدهما. ﴿يَنظُرُونَ﴾: فعل مضارع، وفاعله. والجملة الفعلية في محل نصب حال من فاعل ﴿يَضْحَكُونَ﴾. ﴿هَلْ﴾: حرف استفهام. ﴿ثُوِّبَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول. ﴿ٱلْكُفَّارُ﴾: نائب فاعل، وهو المفعول الأول. ﴿مَا﴾: تحتمل الموصولة، والموصوفة والمصدرية. فعلى الأولين مبنية على السكون في محل نصب مفعول به ثانٍ. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ماض ناقص مبني على الضم، والواو اسمه، والألف للتفريق، وجملة: ﴿يَفْعَلُونَ﴾: في محل نصب خبر (كان)، وجملة: ﴿كَانُوا۟...﴾ إلخ صلة ﴿مَا﴾، أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: الذي، أو شيئاً كانوا يفعلونه، وعلى اعتبار (ما) مصدرية تؤول مع الفعل بعدها بمصدر في محل نصب مفعول به ثانٍ، التقدير: هل ثوب الكفار فعلهم؟! وجملة: ﴿هَلْ ثُوِّبَ...﴾ إلخ في محل نصب مفعول به للفعل ﴿يَنظُرُونَ﴾ المعلق عن العمل لفظاً بسبب الاستفهام، أو هي في محل نصب مقول القول لقول محذوف، التقدير: يقول بعض المؤمنين لبعض: هل ثوب... إلخ، أو هي مستأنفة، لا محل لها. تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله، وصحبه، وسلم.

انتهت سورة (المطففين) شرحاً وإعراباً بحمد الله وتوفيقه.

والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ الانْشِقَاقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة (الانشقاق) مكية في قول الجميع، وهي خمس وعشرون آيةً، ومئة وسبع كلماتٍ، وأربعمئة وثلاثون حرفاً. انتهى. خازن.

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥)﴾

الشرح: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾: تصدعت وتشققت، وهو مثل قوله تعالى في سورة (الانفطار): ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ قال علي ـ رضي الله عنه وكرم الله وجهه ـ: تتشقق من المجرة. والمجرة (بوزن المضرة) باب السماء. وأهل الهيئة يقولون: إنها نجوم صغار مختلطة غير متميزة في الحسن. ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ أي: سمعت، وحق لها أن تسمع، وخضعت، وذلت، وحق لها أن تخضع، وتذل، فلم تأب، ولم تمتنع. ومن الأول قول النبي ﷺ: «**مَا أَذِنَ اللهُ لِشيْءٍ كَإِذْنِهِ لِنَبيٍّ يَتَغَنَّى بالقرآنِ**». أي: ما استمع الله لشيء. قال قعنب ابن أم صاحب ـ وهو الشاهد رقم [١١٧٦] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [البسيط]

صُمٌّ إِذَا سَمِعُوا خَيْراً ذُكِرْتُ بِهِ ... وَإِنْ ذُكِرْتُ بِشَرٍّ عِنْدَهُمْ أَذِنُوا
جَهْلاً عَلَيْنَا وجُبْناً مِنْ عدُوِّهمُ ... فَبِئْسَتِ الخَلَّتانِ الجهلُ والجُبُنُ
إِنْ يَسْمَعُوا سُبَّةً طَارُوا بِهَا فَرحاً ... عَنِّي ومَا يَسْمَعُوا مِنْ صالحٍ دَفَنُوا

وذكر القرطبي البيت الأول، ولم يعزه لأحد، وذكر البيت الثالث، وعزاه إلى قعنب أيضاً، مع تغيير فيه كما يلي: [البسيط]

إن يَأْذَنُوا ريبةً طارُوا بها فرحاً ... وما هُمُ أَذِنُوا مِنْ صَالِحٍ دفَنُوا

ومن المعنى الثاني، وهو: خضعت، وذلت، وحقَّ لها أن تفعل ذلك: قول كثير عزة: [الطويل]

فَإِنْ تَكُنِ الْعُتْبَى فأهلاً ومرحباً ... وَحُقَّتْ لَهَا الْعُتْبَى لدَيْنَا وَقَلَّتِ

﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ أي: بُسطت، ودُكت جبالها. قال النبي ﷺ: «تُمَدُّ مَدَّ ٱلأَدِيمِ». أي: الجلد؛ لأن الأديم إذا مد؛ زال كل انثناء فيه، وامتد، واستوى. وقال ابن عباس، وابن مسعود ـ رضي الله عنهما ـ: ويزداد في سعتها كذا، وكذا، لوقوف الخلائق عليها للحساب؛ حتى لا يكون لأحد من البشر إلا موضع قدمه لكثرة الخلائق فيها، وقد رأيت في سورة (إبراهيم) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام أن الأرض تبدل بأرض أخرى.

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ أي: أخرجت ما فيها من الأموات، وتخلَّت عنهم، وكذلك تخرج ما في بطنها من كنوزها، ومعادنها؛ أي: خلا جوفها، فليس يبقى في جوفها شيء، وذلك يؤذن بعظم الأمر، كما تلقي الحامل ما في بطنها عند الشدة. هذا؛ ووصفت الأرض بالإلقاء، والتخلية توسعاً، وإلا فالتحقيق :أن المخرج لتلك الأشياء هو الله تعالى. ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾: ليس هذا تكراراً؛ لأن الأول في السماء، وهذا في الأرض. وأخيراً لا تنس قوله تعالى في سورة (الزلزلة): ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾.

تنبيه: في قوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ استعارة مكنية، فقد شبهت حال السماء في انقيادها لتأثير قدرة الله تعالى بانقياد المستمع المطواع للأمر. وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ استعارة مكنية أيضاً، فقد شبهت حال الأرض بحال المرأة الحامل، تلقي ما فيها عند الشدة والهول، ثم حذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الإلقاء.

الإعراب: ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك مبني على السكون في محل نصب. ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾: فاعل بفعل محذوف يفسره المذكور بعده، وهذا عند البصريين، وعند الكوفيين فيه ثلاثة أوجه: الأول: وافقوا فيه البصريين. والثاني: اعتبار ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ فاعلاً مقدماً، والثالث: اعتبار ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ مبتدأ، والجملة الفعلية بعده خبره، انظر الشاهد رقم [٩٩٠] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»، فإنه جيد، والحمد لله. ﴿ٱنشَقَّتْ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ والجملة الفعلية مفسرة، لا محل لها عند البصريين، وهو المعتمدُ في هذه المسألة، والفعل المحذوف، وفاعله جملة فعلية في محل جر بإضافة: ﴿إِذَا﴾ إليها على المشهور المرجوح. ﴿وَأَذِنَتْ﴾: الواو: حرف عطف. (أذنت): فعل ماض، والتاء للتأنيث، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿ٱنشَقَّتْ﴾ لا محل لها مثلها. ﴿لِرَبِّهَا﴾: متعلقان بما قبلهما، وها في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿وَحُقَّتْ﴾: الواو: حرف عطف. (حقت): فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل يعود إلى ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾، والتاء للتأنيث، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها لا محل لها أيضاً، والكلام الآتي كله معطوف على ما قبله، وإعرابه مثله بلا فارق.

هذا؛ واختلف في جواب ﴿إِذَا﴾، فقال الفراء: (أذنت) والواو زائدة، وكذلك: (ألقت) وقال الكسائي: الجواب: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ...﴾ إلخ، وقيل: الجواب محذوف، تقديره: يقال:

يا أيها الإنسان. وقيل: التقدير: بعثتم. أو جوزيتم. وقيل: ﴿إِذَا﴾ مبتدأ، و(إذا الأرض. . .) إلخ خبره، والواو زائدة. حكي عن الأخفش. وقيل: إنها لا جواب لها، والتقدير: اذكر إذا، ولا أعتمد قولاً مما تقدم، وإنما الجواب محذوف، تقديره: علمت نفس ما قدمت، وأخرت. مثل سورة (التكوير) و(الانفطار).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾

الشرح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾: المراد بالإنسان الجنس، فهو للاستغراق؛ أي: يا بن آدم. ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ أي: عامل لربك عملاً، فأنت تلاقيه، وتجده يوم القيامة مسجلاً في صحيفة أعمالك. وقيل: الضمير يعود إلى ﴿رَبِّكَ﴾ والأولى عوده إلى ﴿كَدْحًا﴾؛ لأنه أقرب مذكور، وهو يشمل عمل الخير، وعمل الشر. هذا؛ والكدح في كلام العرب: العمل، والكسب. قال ابن مقبل: [الطويل]

وَمَا الدَّهْرُ إلا تَارَتَانِ فمِنْهُمَا أَمُوتُ وَأُخْرى أَبْتَغي الْعَيْشَ أَكْدَحُ

التقدير: فمنهما تارة أموت، وتارة أخرى. . . وقال آخر: [الكامل]

وَمَضَتْ بَشَاشَةُ كلِّ عيْشٍ صَالحٍ وبَقِيتُ أَكْدَحُ لِلْحيَاةِ وأَنْصَبُ

هذا؛ وفي المختار: الكدح: العمل، والسعي، والكد، والكسب. وهو أيضاً الخدش، وباب الكل: قطع. وبوجهه كدوح؛ أي: خدوش، وهو يكدح لعياله، ويكتدح؛ أي: يكتسب.

الإعراب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: (يا): أداة نداء تنوب مناب: أدعو، أو أنادي. (أيها): نكرة مقصودة مبنية على الضم في محل نصب بأداة النداء، وها: حرف تنبيه، لا محل له، أقحم للتوكيد، وهو عوض من المضاف إليه، ولا يجوز اعتبار الهاء ضميراً في محل جر بالإضافة؛ لأنه يجب حينئذٍ نصب المنادى. ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾: بعضهم يعرب هذا اللفظ، وأمثاله بدلاً، وبعضهم يعربه نعتاً، والقول الفصل: أن الاسم الواقع بعد «أي»، وبعد اسم الإشارة، إن كان مشتقاً؛ فهو نعت، وإن كان جامداً ـ كما هنا ـ فهو بدل، أو عطف بيان. والمتبوع ـ أعني: أي ـ منصوب محلاً، وكذا التابع ـ أعني: الإنسان، وأمثاله ـ فهو منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة الإتباع اللفظية، وإنما أتبعت ضمة البناء مع أنها لا تتبع؛ لأنها وإن كانت ضمة بناء، لكنها عارضة، فأشبهت ضمة الإعراب، فلذا جاز إتباعها. أفاده الصبان؛ لأنه قال: والمتجه وفاقاً لبعضهم: أن ضمة التابع إتباع، لا إعراب، ولا بناء. وقيل: إن رفع التابع المذكور إعراب، واستشكل بعدم المقتضي للرفع، وأجيب بأن العامل يقدر من لفظ عامل المتبوع مبنياً للمجهول نحو يُدْعَى، وهو مع ما فيه من التكلف يؤدي إلى قطع المتبوع. وقيل: إن

رفع التابع المذكور بناء؛ لأن المنادى في الحقيقة هو المحلّى بأل، ولكن لما لم يمكن إدخال حرف النداء عليه؛ توصلوا إلى ندائه بـ: (أي): مع قرنها بحرف التنبيه. ورده بعضهم بأن المراعى في الإعراب اللفظ، وأن الأول منادىً، والثاني تابع له. والإعراب السائد أن تقول: مرفوع تبعاً للفظه. انتهى. جرجاوي.

هذا؛ والأخفش يعتبر (أيُّ) في مثل هذه الآية موصولة، و(النَّاسُ) خبراً لمبتدأ محذوف، والجملة الاسمية صلة، وعائد، التقدير: يا من هو الإنسان، على أنه قد حذف العائد حذفاً لازماً كما في قول امرئ القيس في معلقته رقم [١٣]: [الطويل]

أَلَا رُبَّ يَوْمٍ صَالِحٍ لَكَ مِنْهُمَا ... وَلَا سِيَّمَا يَوْمٌ بِدارةِ جُلْجُلِ

وهذا هو الشاهد رقم [٢٤٢] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» وما قاله الأخفش لا يعتد به عند جمهرة النحاة. ﴿إِنَّكَ﴾: حرف مشبه بالفعل، والكاف اسمه. ﴿كَادِحٌ﴾: خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية كالجملة الندائية قبلها. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: ﴿كَادِحٌ﴾؛ لأنه اسم فاعل، لذا ففيه ضمير مستتر هو فاعله، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿كَدْحًا﴾: مفعول مطلق. ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾: الفاء: حرف عطف. (ملاقيه): معطوف على ﴿كَادِحٌ﴾ عطف مفرد على مفرد، أو هو خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: فأنت ملاقيه، فيكون العطف عطف جملة على جملة سابقة مثلها. ورأيت فيما سبق من يقول: الجملة جواب (إذا) وهو مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾

الشرح: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾: هذا تفصيل لأحوال الناس يوم القيامة. وإعطاء الكتاب باليمين دليل على النجاة من العذاب، والفوز بالجنة. ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾: «سوف» من الله تفيد التوكيد، والتحقيق، لا التسويف، والإهمال، والنسيان. والحساب اليسير: هو أن تعرض عليه أعماله، فيعرف بالطاعة، والمعصية، ثم يثاب على الطاعة، ويتجاوز له عن المعصية، يقول الله له: يا عبدي! سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك الآن! فهذا هو الحساب اليسير؛ لأنه لا شدة فيه، ولا مناقشة، ولا يقال له: لم فعلت هذا؛ ولا يطالب بالعذر فيه، ولا الحجة عليه؟ فإنه متى طولب بذلك؛ لم يجد عذراً، ولا حجة، فيفتضح. ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾: يرجع إلى أزواجه في الجنة من الحور العين، والآدميات فرحاً، مغتبطاً، قرير العين، مطمئن الفؤاد بما أوتي من الخير، والكرامة.

فعن ابن أبي مليكة: أن عائشة ـ رضي الله عنها ـ كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه؛ حتى تعرفه، وأن النبي ﷺ قال: «**مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ**». قالت، فقلت: يا رسولَ الله أوليس يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ قالت: فقال: «**فَإِنَّما ذَلِكِ الْعَرْضُ، ولَكِنْ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ**». متفق عليه. فجملة القول: إن العرض مخاطبة السرار: فعلت يا عبدي كذا، وكذا، وكذا؛ تعرف ذلك؟ فيقول: نعم يا رب! فيقول الله له: قد غفرتها لك! وهذا لمن ـ رضي الله عنه ـ، ورجحت حسناته على سيئاته.

الإعراب: ﴿فَأَمَّا﴾: الفاء: حرف تفريع، واستئناف. (أما): أداة شرط، وتفصيل، وتوكيد، أما كونها أداة شرط؛ فلأنها قائمة مقام أداة الشرط، وفعله بدليل لزوم الفاء بعدها؛ إذ الأصل: مهما يك من شيء؛ فمن أوتي كتابه بيمينه... إلخ، فأنيبت (أمَّا) مناب «مهما ويك من شيء»، فصار: أما من... إلخ، وأما كونها أداة تفصيل؛ فلأنها في الغالب تكون مسبوقة بكلام مجمل، وهي تفصله، ويعلم ذلك من تتبع مواقعها. وأما كونها أداة توكيد؛ فلأنها تحقق الجواب، وتفيد: أنه واقع لا محالة؛ لكونها علقته على أمر متيقن.

﴿مَنْ﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، ﴿أُوتِيَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل تقديره: «هو» يعود إلى ﴿مَنْ﴾، وهو العائد، وهو المفعول الأول. ﴿كِتَٰبَهُۥ﴾: مفعول به ثانٍ، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿فَسَوْفَ﴾: الفاء: واقعة في جواب (أمَّا). (سوف): حرف استقبال، وهو يفيد التوكيد هنا، كما رأيت في الشرح. ﴿يُحَاسَبُ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول، ونائب الفاعل تقديره: «هو» يعود إلى (مَنْ) أيضاً. ﴿حِسَابًا﴾: مفعول مطلق. ﴿يَسِيرًا﴾: صفة له، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ الذي هو (مَنْ)، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها. ﴿وَيَنقَلِبُ﴾: الواو: حرف عطف. (ينقلب): فعل مضارع، والفاعل يعود إلى (مَنْ). ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾: متعلقان بما قبلهما، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿مَسْرُورًا﴾: حال من الفاعل المستتر. والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. فهي في محل رفع مثلها.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾

الشرح: فهذا مقابلة لما في الآية الأولى. قيل: نزلت هذه الآية في الأسود بن عبد الأسد أخي أبي سلمة. قاله ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ثم هي عامة في كل مؤمن، وكافر. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يمد يده اليمنى؛ ليأخذ كتابه، فيجذبه ملك، فيخلع يمينه، فيأخذ كتابه **بشماله** من وراء ظهره، وهذا لا ينافي ما ذكر في سورة (الحاقة): ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ

﴿بِشِمَالِهِ﴾ لإمكان الجمع بينهما بأن تغل يمناه إلى عنقه، وتجعل يسراه وراء ظهره؛ بأن تخلع يده اليسرى من موضعها، فتجعل وراء ظهره. وقيل: يحتمل أن يكون بعضهم يعطى كتابه بشماله، وبعضهم من وراء ظهره، وعندما يؤتى كتابه من غير يمينه يعلم: أنه من أهل النار، فيقول: واثبوراه تعال! فهذا أوانك، وحينك. روي عن النبي ﷺ: أنه قال: «**أولُ مَنْ يقولُهُ إبليسُ، وذلِكَ أنه أوَّلُ مَنْ يكْسَى حُلَّةً مِنَ النَّارِ، فَتُوضَعُ علَى حاجِبَيْهِ، ويسحبُهَا مِنْ خلْفِهِ، وذرِّيَّتُهُ من خَلْفِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: وَاثُبُورَاهُ!**».

فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: ذكرتُ النارَ، فبكيتُ، فقال رسول الله ﷺ: «**ما يُبكيكِ؟**». قلتُ: ذكرتُ النارَ، فبكيتُ، فهل تذكرونَ أهليكُمْ يَوْمَ القيامةِ؟ فقال: «**أمَّا في ثلاثةِ مواطنَ؛ فلا يذكرُ أحدٌ أحداً: عندَ الميزانِ؛ حتى يعلمَ أيخفُّ ميزانُهُ، أمْ يثقلُ؟ وعندَ تطايرِ الصُّحُفِ؛ حتى يعلمَ أيْنَ يقعُ كتابُهُ في يمينِهِ، أمْ وراءَ ظَهْرِهِ؟ وعندَ الصِّراط إذَا وُضِعَ بَيْنَ ظهْرَي جهنمَ؛ حتَّى يجوزَ**». ثم إن كان هذا في الكفرة، وما قبله في المؤمنين المتقين؛ فلا تعرض هنا للعصاة، كما ذهب إليه أبو حيان. وقيل: إنه لا بعد في إدخالهم في أهل اليمين، إما؛ لأنهم يعطون كتبهم في اليمين بعد الخروج من النار، أو قبله فرقاً بينهم وبين الكفرة. هذا؛ والثبور: الهلاك، والخسار، والدمار. فهو يتمنى الهلاك، والموت. ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ أي: يحترق في النار، فهو كقوله تعالى في سورة (الواقعة): ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾، وقوله تعالى في سورة (المطففين): ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ وانظر شرح (وراء) في الآية رقم [٢٧] من سورة (الدهر). وانظر شرح الكتاب في الآية رقم [٢] من سورة (الأحقاف) تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

الإعراب: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۝١٠ فَسَوْفَ﴾: إعراب هذا الكلام مثل إعراب سابقه بلا فارق، و﴿وَرَاءَ﴾ منصوب بنزع الخافض؛ أي: من وراء. ﴿يَدْعُوا﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الواو للثقل، والفاعل مستتر تقديره: «هو»، يعود إلى ﴿مَنْ﴾. ﴿ثُبُورًا﴾: مفعول به. وقيل: هو مفعول مطلق عامله محذوف؛ أي: ثبرنا ثبوراً. قاله الزجاج. وقال أبو البقاء: عامله: يدعو من غير لفظه. وانظر سورة (الفرقان) رقم [١٣]، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ الذي هو (مَنْ). ﴿وَيَصْلَىٰ﴾: الواو: حرف عطف. (يصلى): فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف، والفاعل يعود إلى ﴿مَنْ﴾ أيضاً. ﴿سَعِيرًا﴾: مفعول به. والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها فهي في محل رفع مثلها.

﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ۝١٥﴾

الشرح: قال ابن زيد ـ رحمه الله تعالى ـ: وصف الله أهل الجنة بالمخافة، والحزن، والبكاء، والشفقة في الدنيا، فأعقبهم به النعيم، والسرور في الآخرة، وقرأ قوله تعالى في سورة

(الطور): ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾. قال: ووصف أهل النار بالسرور في الدنيا، والضحك فيها، والتفكه فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾. وقيل: كان لنفسه متابعاً، وفي مراتع هواه واقعاً، فأبدله الله تعالى بذلك السرور غماً دائماً، لا ينقطع.

﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أي: علم، وتيقن بزعمه أن لن يرجع حياً مبعوثاً، فيحاسب، ثم يثاب، أو يعاقب. يقال: حار، يحور: إذا رجع. قال لبيد ـ رضي الله عنه ـ: [الطويل]

وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا كَالشِّهَابِ وَضَوئِهِ يَحُورُ رَمَاداً بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعُ

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ما كنت أدري ما يحور؛ حتى سمعت أعرابية تدعو بنية لها: حوري، حوري؛ أي: ارجعي إليَّ. فالحور في كلام العرب: الرجوع، ومنه قول النبي ﷺ: «**اللهم إني أعوذ بك من الحوْر بعد الكوْر**». يعني: من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة. ويروى الحديث: (بعد الكوْن) ومعناه: من انتشار الأمر بعد تمامه. وسئل معمر عن الْحَوْر بعد الكوْن، فقال: هو الكنتي، فقال له عبد الرزاق: وما الكنتيُّ؟ فقال: الرجل يكون صالحاً، ثم يتحول رجل سوء. قال أبو عمرو: يقال للرجل إذا شاخ: كنتي، كأنه نسب إلى قوله: كنت في شبابي كذا. قال الشاعر ـ قال السيوطي: هو الأعشى ـ: [الطويل]

فَأَصْبَحْتُ كُنْتِياً وأصْبَحْتُ عَاجِناً وشَرُّ خِصَالِ الْمَرءِ كنتُ وَعَاجِنُ

عجن الرجل: إذا نهض معتمداً على الأرض من الكبر، فهو شبيه بالذي يعجن العجين. والكنتي: هو الذي يقول: كنت شجاعاً، وكنت كريماً، وكنت... إلخ. والكانِيُّ: هو الذي يقول: كان لي مال، وكنت أهب، وكنت أعطي، وكان لي خيل، وكنت أركب. وانظر شرح ﴿كَانَ﴾ في الآية رقم [١٠] من سورة (نوح) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام. ﴿بَلَىٰٓ﴾ أي: ليس الأمر كما ظن، بل يحور، ويرجع، ويبعث، ويحاسب. وانظر شرح ﴿بَلَىٰٓ﴾ في الآية رقم [٩] من سورة (الملك). ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ أي: من يوم خلقه إلى أن يبعثه، بل وعالماً بما سبق له من الشقاء والسعادة.

الإعراب: ﴿إِنَّهُۥ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمه. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه يعود إلى ﴿مَنْ﴾، تقديره: «هو». ﴿فِىٓ أَهْلِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان بما بعدهما، والهاء في محل جر بالإضافة، ﴿مَسْرُورًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية مستأنفة، أو تعليلية لا محل لها. ﴿إِنَّهُۥ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿ظَنَّ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿مَنْ﴾. ﴿أَن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، التقدير: أنه. ﴿لَّن﴾: حرف نفي، ونصب، واستقبال. ﴿يَحُورَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ: ﴿لَّن﴾، والفاعل مستتر يعود إلى ﴿مَنْ﴾ أيضاً، والجملة الفعلية في محل رفع خبر ﴿أَن﴾

المخففة من الثقيلة، و(أنْ) واسمها، وخبرها في تأويل مصدر في محل نصب سد مسد مفعولي ﴿ظَنَّ﴾، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنّ)، والجملة الاسمية فيها معنى التوكيد لما قبلها، أو هي بدل منها. ﴿بَلَىٰٓ﴾: حرف جواب. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿رَبَّهُۥ﴾: اسمها، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه يعود إلى ﴿رَبَّهُۥ﴾. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان بما بعدهما. ﴿بَصِيرًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، والجملة الفعلية في محل رفع خبر ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية جواب قسم مقدر. قاله الجمل نقلاً عن السمين، والكلام فيه معنى التعليل لما أفادته ﴿بَلَىٰٓ﴾.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾﴾

الشرح: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾: انظر الآية رقم [١٥] من سورة (التكوير) ففيها الكفاية. ﴿بِٱلشَّفَقِ﴾: قال مجاهد ـ رحمه الله تعالى ـ: الشفق: هو النهار كله، وحجته في ذلك: أنه عطف عليه الليل، فيجب أن يكون المذكور أولاً النهار، فعلى هذا الوجه يكون القسم بالليل، والنهار اللذين فيهما معاش العالم، وسكونه. وقيل: هو ما بقي من النهار. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وأكثر المفسرين: هو الحمرة التي تبقى في الأفق بعد غروب الشمس. وهو مذهب عامة العلماء. وقيل: هو البياض الذي يعقب تلك الحمرة، وهو مذهب أبي حنيفة. والأول مذهب الشافعي، ومالك، وأحمد، وأبي يوسف، والأوزاعي، وإسحاق، وغيرهم، والتوقيت اليوم على مذهب أبي حنيفة في بلادنا، ولا بأس به فإن فيه التحقيق، وهو أمكن في أمر العبادة. تأمل.

ثم قيل: أصل الكلمة من: رقة الشيء، يقال: شيء شفق؛ أي: لا تماسك له لرقته، وأشفق عليه؛ أي: رق قلبه عليه، والشفقة من الإشفاق، وهو رقة القلب، وكذلك الشفق. قال إسحاق ابن خلف. وقيل: هو لابن المعلَّى: [البسيط]

تَهْوَى حَيَاتِي وأَهْوَى مَوْتَهَا شَفَقاً ... وَالْمَوْتُ أكرمُ نَزَّالٍ عَلَى الْحُرَمِ

والشفق: الرديء من الشيء، يقال: عطاء مشَفِّق؛ أي: مقلل. قال الكميت: [الكامل]

مَلِكٌ أغَرُّ مِنَ الملوكِ تحلَّبَتْ ... لِلسَّائِلِينَ يَدَاهُ غَيْرُ مُشَفِّقِ

﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ أي: جمع، وضم، ولف، فالليل: يجمع، ويضم ما كان منتشراً بالنهار من الخلق، والدواب، والهوام. وذلك: أن الليل إذا أقبل؛ أوى كل شيء إلى مأواه. قال ضابئ بن الحارث البرجمي: [الطويل]

فَإِنِّي وَإِيَّاكُمْ وشَوْقاً إِلَيْكُمْ ... كقابضِ ماءٍ لَمْ تَسِقْهُ أَنامِلُهْ

يقول: ليس في يدي من ذلك شيء، كما أنه ليس في يد القابض على الماء شيء، فإذا جلل الليل الجبال، والأشجار، والبحار والأرض، فاجتمعت له؛ فقد وسقها، والْوَسْق: ضمك الشيء بعضه إلى بعض، تقول: وسقْتُه، أسقُه وسْقاً. ومنه قيل: للطعام الكثير المجتمع: وسق، وهو ستون صاعاً. وقيل: معنى (ما وسق): ما عمل فيه، ويحتمل أن يكون المراد: تهجد العباد فيه. فيجوز أن يقسم به.

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ أي: تم، واجتمع، واستوى، وذلك في الأيام البيض. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: استوى. وقال الفراء: اتساقه: امتلاؤه، واستواؤه: ليالي البدر، وهو افتعال من الوسق؛ الذي هو الجمع، يقال: وسقته، فاتسق، كما يقال: وصلته، فاتصل. ويقال: أمر فلان متسق؛ أي: مجتمع على الصلاح، منتظم.

﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾: يقرأ الفعل بفتح الباء خطاباً للنبي ﷺ؛ أي: لتركبَنَّ يا محمد حالاً بعد حال. قاله ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ. أي: لتركبن يا محمد سماءً بعد سماء، ودرجةً بعد درجة، ورتبةً بعد رتبةٍ في القربة من الله تعالى. قاله الشعبي، وهذا كان في ليلة الإسراء بلا ريب. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أيضاً: هذا خطاب لنبيكم، ومعناه: يكون لك الظفر، والغلبة على المشركين؛ حتى يختم الله لك بجميل العاقبة، فلا يحزنك تكذيبهم، وتماديهم في كفرهم!

وقيل: لتركبن أيها الإنسان حالاً بعد حال من كونك نطفة، ثم علقةً، ثم مضغةً، ثم حياً، وميتاً، وغنياً، وفقيراً. فالخطاب للإنسان المذكور في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ هذا؛ وقرأ الأكثرون بضم باء الفعل على خطاب الجمع، والمعنى: لتركبن أيها الناس حالاً بعد حال، وأمراً بعد أمر، رخاءً بعد شدة، وشدةً بعد رخاء، وغِنىً بعد فقر، وفقراً بعد غنىً، وصحةً بعد سقمٍ، وسقماً بعد صحةٍ، ورحم الله من قال: [الطويل]

ثَمَانِيَةٌ لِلْمَرْءِ لَا بُدَّ مِنْهُمُ ... وَكُلُّ امْرِئٍ لا بُدَّ لَهُ ثَمَانِيَهْ
فرحٌ وحزنٌ واجتماعٌ وفرقةٌ ... وعُسْرٌ ويسرٌ ثمَّ سقمٌ وعافِيَهْ

وقال الشاعر: [البسيط]

كَذَلِكَ المرءُ إنْ يُنْسَأْ لهُ أجَلٌ ... يَرْكَبْ عَلَى طَبَقٍ مِنْ بَعْدِهِ طَبَقُ

وقال الأقرع بن حابس التميمي: [البسيط]

إِنِّي امْرُؤٌ قَدْ حَلَبْتُ الدَّهْرَ أَشْطُرَهُ ... وَسَاقَنِي طَبَقٌ مِنْهُ إِلَىٰ طَبَقِ

وهذا أدل دليل على حدوث العالم، وإثبات الصانع. قالت الحكماء: من كان اليوم على حالة، وغداً على حالة أخرى؛ فليعلم: أن تدبيره إلى سواه. وقيل لأبي بكر الوراق: ما الدليل

على أن لهذا العالم صانعاً؟ فقال: تحويل الحالات، وعجز القوة، وضعف الأركان، وقهر المنية، ونسخ العزيمة. ويقال: أتانا طبق من الناس، وطبق من الجراد؛ أي: جماعة. وقال العباس ـ رضي الله عنه ـ في مدح النبي ﷺ: [المنسرح]

وَأَنْتَ لَمَّا وُلِدْتَ أَشْرَقَتِ الأَرْ ... ضُ وَضَاءَتْ بِنُورِكَ الأُفُقُ

وقال أيضاً: [المنسرح]

تُنْقَلُ مِنْ صَالَبٍ إِلَى رَحِمٍ ... إِذَا مَضَى عَالَمٌ بَدَا طَبَقُ

أي: قرن من الناس. وقيل: معناه: لتركبن سنن من كان قبلكم وأحوالهم. فعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «**لَتَتَّبِعُنَّ سنَنَ مَنْ كانَ قبْلَكمْ، وأحْوالَهُمْ شِبْراً بشبْرٍ، وذراعاً بذراعٍ ـ وفي رواية: (شِبْراً بَعْدَ شِبْرٍ، وذِرَاعاً بَعْدَ ذِرَاعٍ) ـ حتى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ؛ لَتَبِعْتُمُوهمْ**». قلنا: يا رسول الله! اليهود، والنصارى. قال: «**فمن؟**». متفق عليه.

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؟ يعني أي شيء يمنعهم من الإيمان بعد ما وضحت لهم الآيات، وقامت الدلالات، وهذا استفهام إنكار. وقيل: تعجيب؛ أي: اعجبوا منهم في ترك الإيمان مع هذه الآيات.

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ أي: لا يصلون، فعبر عن الصلاة بالسجود؛ لأنه جزء منها. وقيل: أراد به سجود التلاوة، وهذه السجدة إحدى سجدات القرآن عند الشافعي، ومن وافقه، فعن رافع قال: صليت مع أبي هريرة العتمة، فقرأ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ فسجد، فقلت: ما هذه؟ قال: سجدت بها خلف أبي القاسم ﷺ فلا أزال أسجد حتى ألقاه. ولمسلم عنه، قال: سجدنا مع رسول الله ﷺ في: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾. ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ وكان ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ لا يراها من عزائم السجود في المفصل. وبه قال الإمام مالك ـ رحمه الله تعالى ـ وروى أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ: كان آخر فعل النبي ﷺ ترك السجود في المفصل. والأول أصح، وعليه الأكثرون.

وسجود التلاوة يسن للقارئ، والسامع والمستمع. والدليل على ذلك سجود النبي ﷺ فعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: أن النبي ﷺ كان يقرأ القرآن، فيقرأ آية فيها سجدة، فيسجد، ونسجد معه؛ حتى ما يجد بعضنا موضعاً لمكان جبهته في غير وقت صلاة. متفق عليه. وانظر رأيه في المفصل المذكور آنفاً.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا قرأ ابنُ آدمَ السجدةَ، فسَجَدَ؛ اعتزَلَ الشَّيْطانُ يَبْكي، ويَقُولُ: يَا وَيْلَتَا أُمِرَ ابنُ آدمَ بالسجودِ، فسجد، فلهُ الجنةُ، وأُمِرْتُ بالسجودِ فَأَبَيْتُ فلِيَ النَّارُ!**». رواه مسلم.

هذا؛ وشروط سجود التلاوة هي شروط الصلاة، وتزيد عند الشافعي بأنها تحتاج إلى نية كنية الصلاة، وسلام كسلام الصلاة. وهي فورية عند الشافعي، وعلى التراخي عند أبي حنيفة، لذا إذا كان القارئ، أو السامع لا يستطيع السجود لعدم طهارته، أو لعدم قدرته على السجود لمانع يمنعه منه؛ يكفيه أن يقول: (سبحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، ولا إلهَ إلا اللهُ واللهُ أكبرُ) أربع مرات. وهذا عند الشافعي، وأما عند أبي حنيفة، فيقضيها بعد التمكن من فعلها؛ ولو بعد أيام، وإذا كانت في الصلاة، فلا تؤدى إلا بالسجود لها عند الشافعي، وعند أبي حنيفة تؤدى بركوع الصلاة إذا نواها معه. والله أعلم.

الإعراب: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾: انظر الآية رقم [١٥] من سورة (التكوير). ﴿وَٱلَّيۡلِ﴾: الواو: حرف عطف. (الليل): معطوف على الشفق. ﴿وَمَا﴾: الواو: حرف عطف. (ما): تحتمل الموصولة، والموصوفة والمصدرية، فعلى الأولين مبنية على السكون في محل جر معطوفة على (الليل) و(الشفق)، فهي من جملة المقسم به. ﴿وَسَقَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (الليل)، والجملة الفعلية صلة (ما)، أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: والذي، أو شيء وسقه، وعلى اعتبار (ما) مصدرية تؤول مع الفعل بمصدر في محل جر معطوف على (الشفق) و(الليل)، التقدير: ووسقه. ﴿وَٱلۡقَمَرِ﴾: الواو: حرف عطف. (القمر): معطوف على ما قبله فهو من جملة المقسم به. ﴿إِذَا﴾: ظرف زمان مجرد من الشرطية مبني على السكون في محل نصب، وفي عامله أوجه: وعلى كل واحد منها إشكال: أحد الأوجه: أنه متعلق بفعل القسم المحذوف، التقدير: أقسم بالقمر وقت اتساقه. قاله أبو البقاء، وغيره. وهو مشكل، فإن فعل القسم إنشاء، والإنشاء حال، و(إذا) لما يستقبل من الزمان؛ فكيف يتلاقيان؟ الثاني: أن العامل فيه مقدر على أنه حال من القمر؛ أي: أقسم به حال كونه مستقراً في زمان اتساقه، وهو مشكل من وجهين: أحدهما: أن القمر جثة، والزمان لا يكون حالاً من الجثة، كما لا يكون خبراً عنها، والثاني: أن (إذا) للمستقبل؛ فكيف يكون حالاً؟! وقد أجيب عن الأول بأن المراد بالقمر لازم معناه، وهو المضيء. وأجيب عن الثاني بأنها حال مقدرة. الثالث: أن العامل في الظرف نفس القمر. قاله أبو البقاء أيضاً، وفيه نظر؛ لأن القمر لا يعمل في الظرف؛ لأنه اسم جامد. وقد يقال: إن القمر يوصف، والتقدير: والقمر المضيء في وقت اتساقه. انتهى. جمل من سورة (النجم). ﴿ٱتَّسَقَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (القمر)، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها.

﴿لَتَرۡكَبُنَّ﴾: اللام: واقعة في جواب القسم. (تَرْكَبُنَّ): فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه النون المحذوفة لتوالي الأمثال، وواو الجماعة المحذوف المدلول عليها بالضمة فاعله. هذا؛ ويقرأ بكسر الباء، فيكون الفاعل ياء المؤنثة المحذوفة لالتقاء الساكنين المدلول عليها بالكسرة،

وهي عائدة على النفس، ونون التوكيد حرف لا محل له. ﴿طَبَقًا﴾: مفعول به. وقيل: حال. وليس بشيء. ﴿عَن طَبَقٍ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة: ﴿طَبَقًا﴾ وجوَّز الزمخشري اعتبارهما متعلقين بمحذوف حال من الفاعل في ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾. ﴿فَمَا﴾: الفاء: حرف استئناف. (ما): اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب حال من الضمير المستتر في الخبر المحذوف، والعامل في الحال اسم الاستفهام؛ لما فيه من معنى الفعل، والجملة الاسمية: (مالهم لا يؤمنون) مستأنفة، لا محل لها. ﴿وَإِذَا﴾: الواو: حرف عطف. (إذا): ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك، مبني على السكون في محل نصب. ﴿قُرِئَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول. ﴿عَلَيْهِمُ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿الْقُرْآنُ﴾: نائب فاعل ﴿قُرِئَ﴾، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذا) إليها. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَسْجُدُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية جواب (إذا)، لا محل لها، و(إذا) ومدخولها كلام معطوف على الجملة الاسمية السابقة لا محل له مثلها. وقال السمين: معطوفة على جملة: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فهو في محل نصب حال مثلها. وهذا يتناقض مع (إذا) التي هي للمستقبل؛ اللهم إلا أن يقال: إن الكلام على حكاية حال ماضية، فيصح هذا الاعتبار؛ الذي قال به السمين. هذا؛ وقيل: الفاء في الآيتين الفاء الفصيحة، ولا وجه له، وإنما هي للاستئناف.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾﴾

الشرح: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ﴾ أي: بالإسلام، وبالقرآن، وبالحساب، والجزاء، وبمحمد ﷺ. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ أي: بما يضمرون في أنفسهم من التكذيب. وقال مجاهد: يكتمون من أفعالهم. وقال ابن زيد: يجمعون من الأعمال الصالحة، والسيئة. مأخوذ من الوعاء الذي يجمع ما فيه. يقال: أوعيت الزاد، والمتاع: إذا جعلته في الوعاء. قال الشاعر: [البسيط]

اَلْخَيْرُ أَبْقَى وإنْ طَالَ الزَّمانُ بِهِ ... والشَّرُّ أَخْبَثُ مَا أَوْعَيْتَ مِنْ زَادِ

ووعاه: حفظه، تقول: وعيت الحديث، أعيه وعياً. قال تعالى في سورة (الحاقة): ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾، وقال تعالى في سورة (المعارج): ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ انظر شرح الآيتين هناك.

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: موجع في جهنم بسبب عنادهم، وتكذيبهم، وكفرهم. هذا؛ والبشارة عبارة عن الخبر السار؛ الذي يظهر على بشرة الوجه أثر الفرح به، ولما كان ذلك الفرح والسرور يوجبان تغير بشرة الوجه؛ كان كذلك الحزن، والغم يظهر أثرهما على الوجه، وهو

الكمودة؛ التي تعلو الوجه عند الغم، والحزن. فثبت بهذا: أن البشارة لفظ مشترك بين الخبر السار والخبر المحزن، فصح قوله تعالى في سورة (النحل): ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ولكن قد تستعمل البشارة بالشر، وبما يسوء على سبيل التهكم، والاستهزاء. كما في هذه الآية، وغيرها كثير. في سورة (آل عمران) رقم [٢١]، وفي سورة (التوبة) رقم [٣٤]. وانظر سورة (الزخرف) رقم [١٧].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: بالله، ورسوله، واليوم الآخر، والقضاء خيره وشره من الله تعالى. ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: الأعمال الصالحات على تفاوتها، واختلاف أنواعها، وتباين درجاتها وهذا يوحي إيحاءً قوياً: أن الإيمان والعمل الصالح قرينان، لا يقبل الله أحدهما بدون صاحبه، وهو ما تفيده أحاديث النبي ﷺ، وهذا ما يسمى في علم البديع: احتراساً.

﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ﴾: غير منقوص، ولا مقطوع في الآخرة. وانظر سورة (التين) إن شاء الله تعالى تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

الإعراب: ﴿بَلِ﴾: حرف إضراب، وانتقال. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿كَفَرُوا۟﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق، والمتعلق محذوف، انظر الشرح. والجملة الفعلية لا محل لها صلة الموصول. ﴿يُكَذِّبُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها. ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: حرف عطف. (الله): مبتدأ. ﴿أَعْلَمُ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها لا محل لها مثلها، وإن اعتبرتها في محل نصب حال من واو الجماعة؛ فلست مفنداً، ويكون الرابط: الواو، والضمير، وهو واو الجماعة. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: ﴿أَعْلَمُ﴾، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة والمصدرية، فعلى الأولين مبنية على السكون في محل جر بالباء، والجملة الفعلية بعدها صلتها، أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: والله أعلم بالذي، أو بشيء يعونه، وعلى اعتبارها مصدرية تؤول مع الفعل بعدها بمصدر في محل جر بالباء، التقدير: بوعيهم، والجار، والمجرور متعلقان بـ: ﴿أَعْلَمُ﴾ أيضاً. ﴿فَبَشِّرْهُم﴾: الفاء: حرف عطف على رأي. مَن يجيز عطف الإنشاء على الخبر، وابن هشام يعتبرها للسببية المحضة، وأراها الفصيحة؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر. (بشرهم): فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت»، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جواب الشرط المقدر بـ: «إذا». ﴿بِعَذَابٍ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿أَلِيمٍ﴾: صفة (عذاب). ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء منقطع. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب على الاستثناء، وجملة: ﴿ءَامَنُوا۟﴾: صلة الموصول لا محل لها، وجملة (عملوا): معطوفة عليها لا محل لها مثلها. ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛

لأنه جمع مؤنث سالم. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿أَجْرٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿غَيْرُ﴾: صفة ﴿أَجْرٌ﴾، و﴿غَيْرُ﴾ مضاف، و﴿مَمْنُونٍ﴾ مضاف إليه، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها، أو هي في محل نصب حال من واو الجماعة. هذا؛ وإن اعتبرت ﴿الَّذِينَ﴾ مبتدأ، والجملة الاسمية خبره، ومضمون الجملة الاسمية: ﴿الَّذِينَ...﴾ إلخ مستثنىً من مضمون الكلام السابق؛ فلا بأس به! والمعنى يؤيده. تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

انتهت سورة (الانشقاق) شرحاً وإعراباً بعون الله وتوفيقه.

والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ البُرُوجِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة (البروج) وهي مكية باتفاق، وهي اثنتان وعشرون آيةً، ومئة وتسع كلمات، وأربعمئة وخمسة وستون حرفاً.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۝١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشۡهُودٍ ۝٣﴾

الشرح: ﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾: هذا قسم، وإنما أقسم الله تعالى في هذه السورة، وفي أوائل (المرسلات) و(الذاريات) و(الصافات) أقسم بهذه الأشياء لشرف ذواتها، ولما فيها من الدلالة على عجيب صنعته، وقدرته. والمعنى: أقسم بالذاريات، والمرسلات، والسماء، وبهذه الأشياء. . .إلخ. قال الشعبي ـ رحمه الله تعالى ـ: الخالق يقسم بما شاء من خلقه، والمخلوق لا ينبغي أن يقسم إلا بالخالق. وقال أبو حيان ـ رحمه الله تعالى ـ: أقسم الله بهذه الأشياء تشريفاً لها، وتعظيماً لشأنها على ما يظهر فيها من عجائب صنع الله، وقدرته، وقوام الوجود بإيجادها. وقيل: المقسم به مضمر، تقديره: ورب السماء، ونحوه. وانظر شرح ﴿ذَاتِ﴾ في سورة (الملك) رقم [١٣].

﴿ٱلۡبُرُوجِ﴾: جمع: برج، وهي منازل للكواكب السبعة السيارة، وأصل البروج: القصور العالية. قال تعالى في سورة (النساء) رقم [٧٨]: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ﴾ سميت هذه المنازل بروجاً؛ لأنها للكواكب السيارة كالمنازل الرفيعة التي هي القصور لسكانها، وهي اثنا عشر، مختلفة الهيئات، والخواص مع ما دل عليه الرصد، والتجربة مع بساطة السماء، وأسماؤها: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس ،والجدي، والدلو، والحوت. والكواكب السيارة هي: المريخ، وله الحمل، والعقرب. والزهرة، ولها الثور، والميزان. وعطارد، ويمنع من الصرف لصيغة منتهى الجموع، وله الجوزاء، والسنبلة، والقمر، وله السرطان. والشمس، ولها الأسد. والمشتري، وله القوس، والحوت. وزحل، ويمنع من الصرف للعلمية والعدل، وله الجدي والدلو.

والعرب تعد معرفة مواقع النجوم وأبوابها من أجلِّ العلوم، ويستدلون بها على الطرقات، والأوقات، والخصب، والجدب. وقالوا: الفلك اثنا عشر برجاً، كل برج ميلان، ونصف،

وأصل البروج: الظهور، ومنه تبرج المرأة بإظهار زينتها، وهذه البروج تنزلها الشمس في مسيرها، وهذه البروج مقسومة على ثمانية وعشرين منزلاً، لكل برج منزلان، وثلث منزل، وهذه البروج الاثنا عشر مقسمة على فصول السنة كما يلي: فللربيع: الحمل، والثور، والجوزاء. وللصيف: السرطان، والأسد، والسنبلة. وللخريف: الميزان، والعقرب، والقوس. وللشتاء: الجدي، والدلو، والحوت. وانظر منازل القمر في الآية رقم [٣٩] من سورة (يس) تجد ما يسرك.

﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ﴾ أي: يوم القيامة من غير اختلاف بين أهل التأويل. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: وعد أهل السماء وأهل الأرض أن يجتمعوا فيه. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ﴾ الآية رقم [٨٧] من سورة (النساء).

﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ﴾: اختلف فيهما اختلافاً كبيراً: فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اليومُ الموعودُ يَوْمُ القيامة، والمشهودُ يومُ عرفة، والشاهدُ يومُ الجمعةِ، ما طلعت الشمسُ، ولا غربتْ على يوم أفضلَ مِنْ يوم الجمعة، فيه سَاعَةٌ لا يوافِقُها عبدٌ مؤمِنٌ يدعو اللهَ بخيرٍ؛ إلا استجابَ اللهُ لهُ، ولا يستعيذُ مِنْ شَرٍّ؛ إلا أعاذهُ اللهُ مِنهُ**». أخرجه الترمذي، وضعف أحد رواته من قبل حفظه. وهذا قول ابن عباس، والأكثرين: أن الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة.

وقيل: الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم النحر. وقيل: الشاهد يوم التروية، والمشهود يوم عرفة. وإنما حسن القسم بهذه الأيام، لعظمها، وشرفها، واجتماع المسلمين فيها. وقيل: الشاهد هو الله، والمشهود يوم القيامة. وقيل: الشاهد هم الأنبياء، والمشهود عليهم هم الأمم. وقيل: الشاهد هو الملك، والمشهود عليه هو آدم، وذريته. وقيل: الشاهد هذه الأمة، ونبيها ﷺ، والمشهود عليهم هم الأمم المتقدمة. وقيل: الشاهد الأنبياء، والمشهود له هو محمد ﷺ؛ لأن الأنبياء قد شهدوا له بالنبوة.

هذا؛ وكذلك سائر الأيام، والليالي، فكل يوم شاهد، وكذا كل ليلة، ودليله ما رواه أبو نعيم الحافظ عن معاوية بن قرة، عن معقل بن يسار ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**لَيْسَ مِنْ يَوْمٍ يأْتي عَلَى الْعَبْدِ إِلَّا يُنَادِي فيهِ: يا بْنَ آدمَ! أنَا خلقٌ جديدٌ، وأنَا فيما تعملُ عليْكَ شهيدٌ، فاعملْ فيَّ خيْراً؛ أشهدْ لَكَ بِهِ غداً، فإنِّي لوْ قدْ مضيْتُ؛ لَمْ تَرَنِي أبَداً، ويقولُ الليلُ مثلَ ذَلِكَ**». انتهى. قرطبي.

الإعراب: ﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾: جار ومجرور متعلقان بفعل محذوف، تقديره: أقسم. ﴿ذَاتِ﴾: صفة (السماء)، و﴿ذَاتِ﴾ مضاف، و﴿ٱلۡبُرُوجِ﴾ مضاف إليه. ﴿وَٱلۡيَوۡمِ﴾: الواو: حرف عطف. (اليوم): معطوف على (السماء). ﴿ٱلۡمَوۡعُودِ﴾: صفة (اليوم) وهناك ضمير محذوف به تتم الصفة، التقدير: الموعود به، ولولا ذلك ما صحت الصفة. مكي. ﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ﴾: معطوفان على ما قبلهما، وجواب القسم ما يأتي.

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾﴾

الشرح: ﴿قُتِلَ﴾: لعن. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كل شيء في القرآن (قتل) فهو: لُعِن. ﴿ٱلْأُخْدُودِ﴾: الشق العظيم المستطيل في الأرض، كالخندق، وجمعه: أخاديد، ومنه: الخد لمجاري الدموع، والمخدة؛ لأن الخد يوضع عليها. ويقال: تخدد وجه الرجل: إذا صارت فيه أخاديد من جراح، ونحوه. قال طرفة في معلقته رقم [١١]: [الطويل]

وَوَجْـهٌ كَـأَنَّ الـشَّـمْـسَ حَـلَّـتْ رِدَاءَهَـا ... عَـلَـيْـهِ نَـقِـيُّ الـلَّـوْنِ لَـمْ يَـتَـخَـدَّدِ

﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾: صاحبة الوقود بفتح الواو؛ أي: ما توقد به النار، وأما بضمها؛ فهو المصدر، وكذلك الاسم منه، وبعضهم قال: كلٌّ من الفتح، والضم يجري في المصدر، والآلة، وكذا يقال في الوضوء، والسحور، والطهور، ونحو ذلك، ولكن المشهور الأول، والمراد في الآلة مادة الفعل كالماء في الوضوء، والحطب في الوقود، والطعام في السحور، والمراد بالمصدر الفعل والحدث.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ أي: عند النار، وعلى بمعنى: عند. وقيل: (عليها) على ما يدنو منها من حافات الأخدود. قال الأعشى وهو الشاهد رقم [٢٤٧] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الطويل]

تُـشَـبُّ لِـمَـقْـرُورَيْـنِ يَـصْـطَـلِـيَـانِـهَـا ... وَبَـاتَ عَـلَـى الـنَّـارِ الـنَّـدَى وَالْـمُـحَـلِّـقُ

﴿وَهُمْ﴾ أي: الملك الكافر الذي خدَّ الأخدود وأصحابه. ﴿عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: من الإحراق في النار، والتعذيب. ﴿شُهُودٌ﴾: حضور. وقيل: يشهدون: أن المؤمنين ضلال حين تركوا عبادة الأصنام. وقيل: يشهد بعضهم لبعض عند الملك: أن أحداً منهم لم يفرط فيما أمر به، وفوض إليه من التعذيب. وفيه حث للمؤمنين على الصبر، وتحمل أذى أهل مكة. وذلك: أن هذه القصة كانت مشهورة عند أهل مكة، فذكر الله ذلك لأصحاب رسول الله ﷺ يحملهم بذلك على الصبر، وتحمل المكاره في الدين. واختلفوا في أصحاب الأخدود، وأكتفي برواية مسلم عن صهيب ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**كان مَلِكٌ فيمنْ كان قبْلكُمْ، وكان له ساحر، فلما كَبِرَ الساحر قال للملَكِ: إني قد كبِرْتُ فابعثْ إليَّ غلاماً أُعَلِّمْه السِّحر، فبعث إليه غلاماً يعلمه، وكان في طريقه إذا سلك إليه راهبٌ، فقعد إليه، وسمع منه، فأعجبه كلامُه، فكان إذا أتى الساحر؛ مرَّ بالراهب، وقعد إليه، فإذا أتى الساحر؛ ضربه، وإذا رجع من السَّاحر قعد إلى الراهب، وسمع كلامَه، فإذا أتى أهله؛ ضربوه، فشكا ذلك إلى الرَّاهب.**

فقال: إذا خشيت الساحر؛ قل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك؛ فقل: حبسني الساحر، فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم: الراهب أفضل،

أم الساحر؟ فأخذ حجراً، ثم قال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر؛ فاقتل هذه الدابة؛ حتى يمضي الناس، فرماها، فقتلها، فمضى الناس، فأتى الراهب، فأخبره، فقال له الراهب: أي بني! أنت أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت؛ فلا تدل عليَّ. فكان الغلام يبرئ الأكمه، والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك كان قد عمي، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما هاهنا لك أجمع؛ إن أنت شفيتني. قال: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله عزَّ وجلَّ، فإن آمنت بالله؛ دعوت الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فشفاك! فآمَنَ به، فشفاه الله، عزَّ وجلَّ، فأتى الملك، فجلس إليه، كما كان يجلس، فقال الملك له: من رد عليك بصرك؟ فقال: ربي، فقال: ألك رب غيري؟ قال: ربي، وربك الله! فأخذه، فلم يزل يعذبه حتى دله على الغلام، فجيء بالغلام فقال له الملك؛ أي بني! إنه قد بلغ من سحرك ما تبرئ به الأكمه والأبرص، وتفعل وتفعل، فقال: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله عزَّ وجلَّ، فأخذه، فلم يزل يعذبه حتى دله على الراهب، فجيء بالراهب. فقال له: ارجع عن دينك! فأبى، فدعا بالميشار، فوضع الميشار في مفرق رأسه، فشقه به؛ حتى وقع شقاه، ثم جيء بجليس الملك، فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فدعا بالميشار، فوضعه في مفرق رأسه، فشقه به؛ حتى وقع شقاه، ثم جيء بالغلام، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال لهم: اذهبوا به إلى جبل كذا، وكذا، فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه؛ وإلا فاطرحوه. فذهبوا به، فصعدوا به الجبل، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت! فرجف بهم الجبل، فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله! فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به، فاحملوه في قُرقُور (سفينة صغيرة) فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه؛ وإلا فاقذفوه. فذهبوا به، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت! فانكفأت بهم السفينة، فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى! ثم قال للملك: إنك لست بقاتلي؛ حتى تفعل ما آمرك به. فقال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع نخلٍ، ثم خذ سهماً من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله ربِّ الغلام، ثم ارمني به، فإنك إن فعلت ذلك؛ قتلتني! فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهماً من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: باسم الله ربِّ الغلام، ثم رماه، فوقع السهم في صدغه، فوضع يده على صدغه موضع السهم فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام! فأتي الملك، فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر. قد والله نزل بك حَذَرُك! قد آمن الناس. فأمر بالأخدود في أفواه السكك، فحفرت، وأضرم النيران. وقال: من لم يرجع عن دينه، فأقحموه فيها. ففعلوا، فجاءت امرأة؛ ومعها صبي لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أُمَّهْ! اصبري، فإنك على الحق». هذا حديثٌ صحيحٌ أخرجه مسلم.

وفي هذا الحديث إثبات كرامات الأولياء، وفيه جواز الكذب في مصلحة ترجع إلى الدين، وفيه إنقاذ النفس من الهلاك، والدابة حية عظيمة، أو أسد. وهذه الحادثة كانت في الفترة بين عيسى، ومحمد ﷺ، واختلف في مكانها، فقيل: كانت في اليمن. وقيل: كانت بنجران. وقيل: كانت في الحبشة. هذا؛ وقد قال صاحب السيرة الحلبية، وقد تكلم جماعة في المهد، نظمهم الجلال السيوطي ـ رحمه الله تعالى ـ في قوله: [الطويل]

تَكَلَّمَ في المَهْدِ النبيُّ محمدٌ ... ويَحْيَى وعِيسَى والخليلُ ومَرْيَمُ
وَمُبْرِي جُرَيْجٍ ثم شاهدُ يوسفٍ ... وطفلٌ لدَى الأُخدودِ يَرْويهِ مُسْلِمُ
وَطِفْلٌ عَلَيْهِ مُرَّ بالأمةِ التي ... يُقَالُ لَهَا تَزنِيْ وَلَا تَتَكَلَّمُ
وماشِطَةٌ في عَهْدِ فرعونَ طِفْلُهَا ... وفي زَمَنِ الْهَادِي المباركِ يُخْتَمُ

قال بعضهم: لكن النبي ﷺ حصر من تكلم في المهد في ثلاثة، ولم يذكر نفسه، فقد روي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «**لَمْ يتكلمْ في المهدِ إلا ثلاثةٌ: عيسَى، وصاحبُ جريجٍ، وابنُ المرأةِ التي مُرَّ عليها بامرأةٍ، يقال لها: إنها زَنَتْ**». وقد يقال: هذا الحصر إضافي؛ أي: ثلاثة من بني إسرائيل، أو إن ذلك كان قبل أن يعلم بما زاد. انتهى. والله أعلم.

الإعراب: ﴿قُتِلَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول. ﴿أَصْحَٰبُ﴾: نائب فاعله، و﴿أَصْحَٰبُ﴾ مضاف، و(الأخدود) مضاف إليه، والجملة الفعلية جواب القسم، وحذف صدرها، التقدير: لقد قتل، وإنما احتيج لهذا المقدر؛ لأن المشهور عند النحاة: أن الماضي المثبت المتصرف؛ الذي لم يتقدم معموله إذا وقع جواباً للقسم؛ تلزمه اللام وقد، ولا يجوز الاقتصار على إحداهما إلا عند طول الكلام، كما في قوله تعالى في سورة (الشمس): ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا...﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾، أو في ضرورة، وعلى هذا فجملة: ﴿قُتِلَ...﴾ إلخ خبرية، وليست دعائية، والأصل أن تكون دعائية دالة على الجواب، كأنه قيل: أقسم بهذه الأشياء على أنهم؛ أي: كفار مكة ملعونون، كما لعن أصحاب الأخدود. انتهى. جمل نقلاً من أبي السعود. هذا؛ وعلى إبقاء الجملة على أصلها؛ فالجواب محذوف، فيكون الجواب محذوفاً تقديره: لتبعثن. وهذا اختيار ابن الأنباري. وقيل: الجواب جملة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟...﴾ إلخ، وقيل: جملة: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ...﴾ إلخ وهو ضعيف؛ لأن الكلام قد طال. ﴿ٱلنَّارِ﴾: بدل اشتمال من: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾؛ لأن الأخدود مشتمل على النار، وحينئذٍ فلا بد من ضمير مقدر؛ أي: النار فيه. وقال الكوفيون: هو مخفوض على الجوار. قاله مكي. هذا؛ وقال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: وقرأ أشهب العقيلي وأبو السماك العدوي، وابن السميقع: (النارُ ذاتُ) بالرفع فيهما؛ أي: فهما مبتدأ، وخبر، وتكون الجملة فيها معنى التفسير لـ: ﴿ٱلْأُخْدُودِ﴾. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان مبني على السكون في محل نصب متعلق بالفعل: ﴿قُتِلَ﴾. ﴿هُمْ﴾: ضمير

منفصل مبني على السكون في محلِّ رفع مبتدأ. ﴿عَلَيْهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما بعدهما. ﴿قُعُودٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل جر بإضافة ﴿إِذْ﴾ إليها.

﴿وَهُمْ﴾: الواو: حرف عطف. (هم): مبتدأ. ﴿عَلَىٰ مَا﴾: متعلقان بـ: ﴿شُهُودٌ﴾ بعدهما، و﴿مَا﴾ تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية، فعلى الأولين مبنية على السكون في محل جر بـ: ﴿عَلَىٰ﴾. ﴿يَفْعَلُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية صلة ﴿مَا﴾ أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: على الذي، أو على شيء يفعلونه، وعلى اعتبارها مصدرية تؤول مع ما بعدها بمصدر في محل جر، التقدير: على فعلهم. ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. وقيل: متعلقان بمحذوف حال من واو الجماعة. ﴿شُهُودٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: ﴿وَهُمْ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، فهي في محل جر مثلها.

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾

الشرح: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا﴾: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ما كرهوا منهم. بمعنى: ما عاب الملك، وأشياعه الذين عاونوه من الذين حرقهم ـ وهم المؤمنون ـ إلا الإيمان بالله وحده، وهذا لا يستوجب التحريق، فهذا استثناء صفة مدح من صفة ذم منفية. ومنه قول النابغة الذبياني في مدح الغسانيين: [الطويل]

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

هذا ما يسمى في فن البديع تأكيد المدح بما يشبه الذم، ومنه قول قيس بن الرقيات: [المنسرح]

مَا نَقَمُوا مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ إِلَّا ... أَنَّهُمْ يَحْلُمُونَ إِنْ غَضِبُوا

ومنه قوله تعالى في سورة (التوبة) رقم [٧٤]: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾ وقوله تعالى في سورة (الأعراف) رقم [١٢٦]: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ وقوله جل ذكره في سورة (المائدة) رقم [٥٩]: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ هذا؛ والفعل نقم يأتي من باب ضرب، تقول: نَقَم يَنْقِم، ويأتي من باب: فهم، تقول: نَقِمَ يَنْقَمُ لغتان، والأولى هي الفصحى. ﴿الْعَزِيزِ﴾: القوي الغالب؛ الذي لا يغلب، ﴿الْحَمِيدِ﴾: المحمود بكل لسان، الممجد في كل مكان على كل حال، وهو مستحق للحمد في ذاته، تحمده الملائكة، وتنطق بحمده ذرات المخلوقات.

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: وما فيهما من عبيد، ومال، وخلق، وأفلاك وكواكب في السماء، وما على ظهر الأرض من جبال، وأنهار، وبحار... إلخ فكل ذلك هو ملك لله تعالى،

لا يشركه فيه أحد، وما يملكه الإنسان في هذه الدنيا الفانية؛ فإنما هو ملك له في الظاهر، قد منحه الله له؛ ليتمتع به على سبيل الوكالة، والأمانة. وويل ثم ويل لمن قصر في الوكالة، وخان في الأمانة! واللام مفيدة للملك الحقيقي؛ الذي هو اتساع المقدور لمن له تدبير الأمور. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: عالم بأعمال خلقه، لا تخفى عليه خافية. ففيه وعد للمؤمنين، ووعيد عظيم للكافرين، والظالمين، والفاجرين.

الإعراب: ﴿وَمَا﴾: الواو: حرف استئناف. (ما): نافية. ﴿نَقَمُوا۟﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية مستأنفة، وإن اعتبرتها في محل نصب حال من واو الجماعة، أو من (المؤمنين) فلست مفنداً. والرابط على الاعتبارين: الواو، والضمير. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء. ﴿أَن﴾: حرف مصدري، ونصب. ﴿يُؤْمِنُوا۟﴾: فعل مضارع منصوب بأن، وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، و﴿أَن يُؤْمِنُوا۟﴾ في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به، أو هو في محل نصب مفعول لأجله، التقدير: لأجل إيمانهم. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾: بدلان من لفظ الجلالة؛ لأنهما اسمان، وليسا بصفتين.

﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل جر صفة، أو هو في محل جر بدل ثالث من لفظ الجلالة، أو هو في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هو الذي، أو هو في محل نصب مفعول به لفعل محذوف، التقدير: أعني الذي. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿مُلْكُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية صلة الموصول لا محل لها، و﴿مُلْكُ﴾ مضاف، و﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مضاف إليه. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: واو الحال. (الله): مبتدأ. ﴿عَلَىٰ كُلِّ﴾: متعلقان بـ: ﴿شَهِيدٌ﴾ بعدهما، و﴿كُلِّ﴾ مضاف، و﴿شَيْءٍ﴾ مضاف إليه. ﴿شَهِيدٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: ﴿وَٱللَّهُ...﴾ إلخ في محل نصب حال من لفظ الجلالة، والرابط: الواو، وإعادة اللفظ الكريم. وإن اعتبرتها مستأنفة؛ فلا محل لها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: حرقوهم بالنار، والعرب تقول: فتن فلان الدرهم: إذا أدخله الكور؛ لينظر جودته، ودينار مفتون؛ أي: مجود. ونظيره قوله تعالى في سورة (الذاريات) رقم [١٣]: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ أي: يحرقون في النار، وهو من قولهم: فتنت الذهب؛ أي: أحرقته، لتختبره، وأصل الفتنة: الامتحان، والاختبار. وهي بهذا المعنى كثيرة في القرآن الكريم. قال تعالى في سورة (الأنبياء) رقم [٣٥]: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم

بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾هذا؛ ويسمى الصائغ: الفتان، وكذلك الشيطان، وورِق فتين: أي: فضة محترقة. وانظر سورة (الصافات) رقم [١٦٢]. ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾ أي: من قبيح صنيعهم مع ما أظهره الله لهذا الملك الجبار الظالم، وقومه من الآيات البينات على يدي الغلام. وفيه دليل واضح على أنهم لو تابوا، وآمنوا؛ قبل منهم، ويخرجون من هذا الوعيد، وأن الله تعالى يقبل منهم التوبة، وأن توبة القاتل مقبولة.

قال الرازي: ويحتمل أن يكون المراد كل من فعل ذلك. قال: وهذا أولى؛ لأن اللفظ عام، والحكم بالتخصيص ترك الظاهر من غير دليل. ولما كانت التوبة مقبولة قبل الغرغرة، ولو طال الزمان، عبر سبحانه بأداة التراخي. فقال: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾.

﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾: بسبب كفرهم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾: بما أحرقوا المؤمنين. وقيل: لهم عذاب الحريق في الدنيا، وذلك: أن الله أحرقهم بالنار؛ التي أحرقوا فيها المؤمنين، ارتفعت إليهم من الأخدود، فأحرقتهم، ولهم عذاب جهنم في الآخرة.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب اسم ﴿إِنَّ﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الياء. . . إلخ. ﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾: الواو: حرف عطف. (المؤمنات): معطوف على ما قبله منصوب مثله، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿لَمْ﴾: حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿يَتُوبُوا۟﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: ﴿لَمْ﴾ والواو فاعله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها لا محل لها مثلها.

(لهم): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿عَذَابُ﴾: مبتدأ مؤخر، و﴿عَذَابُ﴾ مضاف، و﴿جَهَنَّمَ﴾ مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية، والعجمة، والجملة الاسمية في محل رفع خبر ﴿إِنَّ﴾ والتي بعدها معطوفة عليها، فهي في محل رفع مثلها، ودخلت الفاء على الخبر؛ لأن الموصول يشبه الشرط في العموم، فهي هنا صلة. قال البيضاوي: ومنع سيبويه إدخال الفاء في خبر (إنَّ) كليت، ولعل، ولم يتعرض ابن هشام ـ رحمه الله تعالى ـ لدخول الفاء على خبر (إنَّ)، أو إحدى أخواتها والذي تعرض لذلك الأشموني ـ رحمه الله تعالى ـ حيث قال: وإذا دخل شيء من نواسخ الابتداء على المبتدأ الذي اقترن خبره بالفاء أزال الفاء، إنْ لم يكن إنَّ، أو أنَّ، أو لكنَّ بإجماع المحققين، فإن كان الناسخ: إنَّ، أو أنَّ، أو لكنَّ جاز بقاء الفاء. نص على ذلك في (إنَّ) و(أنَّ) سيبويه، وهو الصحيح الذي ورد نص القرآن المجيد به، وأورد آيات كثيرة من جملتها الآية التي نحن بصدد شرحها، فأنت ترى أن البيضاوي ـ رحمه الله تعالى ـ قد نقل عن سيبويه عكس ما ذكره الأشموني، والمنقول عن الأخفش ـ رحمه الله تعالى ـ أنه هو الذي منع دخول الفاء الزائدة على

خبر المبتدأ المنسوخ بأي ناسخ كان. والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ...﴾ إلخ مبتدأة، أو مستأنفة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: هؤلاء الذين كانوا آمنوا بالله؛ أي: صدقوا به، وبرسله. ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: على اختلاف درجاتها، وتفاوت مراتبها. ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾: حدائق، وبساتين، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون. ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: تحت قصورها وغرفها وأسرتها، وجميع أماكنها، يتلذذون بنعيمها، وبردها في نظير ذلك الحَرِّ الذي صبروا عليه في الدنيا، ويزول عنهم بؤس ذلك العذاب برؤية ذلك مع خضرة الجنات جميع المضار، والأحزان، وهذا في مقابلة ما ذكر في الآية السابقة. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما يعطونه في الآخرة من النعيم المقيم. ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي: العظيم؛ الذي لا فوز يشبهه.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسمها، وجملة: ﴿ءَامَنُواْ﴾ صلة الموصول، لا محل لها، والتي بعدها معطوفة عليها. ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿جَنَّٰتٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل رفع خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿تَجْرِي﴾: فعل مضارع مرفوع. ﴿مِن تَحْتِهَا﴾: متعلقان بما قبلهما، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية في محل رفع صفة ﴿جَنَّٰتٌ﴾. ﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب، لا محل له. ﴿ٱلْفَوْزُ﴾: خبر المبتدأ. ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾: صفة له، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها، وأيضاً الجملة الاسمية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾ إلخ مستأنفة، لا محل لها.

تنبيه بل فائدة: لقد اقترنت الجملة الاسمية الواقعة خبراً لـ: ﴿إِنَّ﴾ في الآية السابقة بالفاء، ولم تقترن هنا؛ لأن عذاب جهنم، وعذاب الحريق مسبب عن تحريق الكافرين المؤمنين في النار، أما دخول الجنة، والفوز بنعيمها؛ فليس مسبباً عن الإيمان، وعمل الصالحات، بل هو محض فضل من الله تعالى. فقد قال الرسول ﷺ: «**لَنْ يُدْخِلَ أحداً عملُهُ الْجَنَّةَ. قالوا: ولَا أَنْتَ يا رسولَ اللهِ! قالَ: وَلَا أَنا إِلّا أَنْ يَتَغَمَّدني اللهُ بفضلِهِ، ورحمتِهِ، فسدِّدُوا، وَقَارِبُوا**». أخرجه البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ. وانظر سورة (الزخرف) رقم [٧٢].

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ أي: أخذه الجبابرة، والظلمة، وهو كقوله تعالى في سورة (هود) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام الآية رقم [١٠٢]: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ والبطش: الأخذ بقوة، وعنف، وبطشت اليد: إذا عملت، فهي باطشة. قال عمرو بن كلثوم التغلبي في معلقته رقم [١٠٧]: [الوافر]

لَنَا الدُّنْيَا ومَنْ أضحَى علَيهَا ... ونبطِشُ حِينَ نَبْطِشُ قَادِرِينَا

﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ أي: يخلقهم ابتداء، ثم يعيدهم، بعد أن صيرهم تراباً. دل باقتداره على الإبداء، والإعادة على شدة بطشه. أو أوعد الكفرة بأنه يعيدهم، كما بدأهم؛ ليبطش بهم؛ إذ لم يشكروا نعمة الإبداء، وكذبوا بالإعادة. وفي سورة (يونس) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ والمعروف: أن البدء يكون من نطفة مذرة، والإعادة تكون يوم القيامة بعد موته، وإهلاكه، وتناثر جميع أجزائه.

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ أي: الساتر للعيوب، العافي عن الذنوب، لا يفضح عباده المؤمنين في الدنيا، ولا في الآخرة. ﴿ٱلْوَدُودُ﴾ المحبُّ لأوليائه المؤمنين المطيعين، كما يحب أحدنا أخاه بالبشرى، والمحبة. وقيل: هو المتودد إلى أوليائه بالعفو، والمغفرة. هذا؛ وحكى المبرد عن إسماعيل بن إسحاق القاضي: أن الودود هو الذي لا ولد له، وأنشد قول الشاعر: [المتقارب]

وَأَرْكَبُ فِي الرَّوْعِ عُرْيَانَةً ... ذَلُولَ الجِنَاحِ لِقَاحاً وَدُودَا

أي: لا ولد لها تحن إليه. فيصير معنى الآية: إنه سبحانه وتعالى يغفر لعباده المؤمنين، وليس له ولد يغفر لهم من أجله. ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾: صاحب العرش، وخالقه، ومالكه، ومتصرف فيه. ﴿ٱلْمَجِيدُ﴾: يقرأ بالجر صفة للعرش، ويقرأ بالرفع على أنه خبر للمبتدأ؛ الذي هو الضمير. واختاره أبو عبيد، وأبو حاتم؛ لأن المجد نهاية الكرم، والفضل، و﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ اسم من أسماء الله الحسنى، وهو من صفات التعالي، والجلال، والعظمة، وذلك لا يليق إلا بالله تعالى المتعالي عن صفات النقصان، المتصف بصفات الكمال. وانظر شرح ﴿ٱلْعَرْشِ﴾ في الآية رقم [١٧] من سورة (الحاقة). ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾: يعني: إنه لا يعجزه شيء، ولا يمتنع منه شيء طلبه. وقيل: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ لا يعترض عليه معترض، ولا يغلبه غالب، فهو يدخل أولياءه الجنة برحمته، لا يمنعه من ذلك مانع، ويدخل أعداءه النار بعدله، لا ينصرهم منه ناصر، وصيغة «فعّال» للمبالغة، كما هي معروفة، وهذه الآية دلت على أن جميع أفعال العباد مخلوقة لله تعالى، لا كما يقول المعتزلة: إن العبد يخلق

أفعال نفسه، ودلت على أنه تعالى لا يجب عليه شيء؛ لأنها دالة على أنه فعله بحسب إرادته. وانظر الإرادة في الآية رقم [١٠] من سورة (الجن). هذا؛ وقد قال تعالى في سورة (هود) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام الآية رقم [١٠٧]: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

فائدة: عن أبي السفر ـ هو سعيد بن يحمد الهمداني ـ قال: دخل ناس من أصحاب النبي ﷺ على أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ في مرضه؛ الذي توفي فيه، فقالوا له: ألا نأتيك بطبيب؟ قال: قد رآني. قالوا: فما قال لك؟ قال: قال: إني فعال لما أريد. انتهى. قرطبي. والله أعلم بمراده.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿بَطْشَ﴾: اسمها، وهو مضاف، و﴿رَبِّكَ﴾ مضاف إليه، من إضافة المصدر لفاعله، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿لَشَدِيدٌ﴾: اللام: هي المزحلقة. (شديد): خبر ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية مبتدأة، أو مستأنفة، لا محل لها. ﴿إِنَّهُۥ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿هُوَ﴾: توكيد لاسم ﴿إِنَّ﴾ على المحل، أو هو ضمير فصل، لا محل له. ﴿يُبْدِئُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿رَبِّكَ﴾، والجملة الفعلية في محل رفع خبر ﴿إِنَّ﴾. هذا؛ وإن اعتبرت الضمير مبتدأ، والجملة الفعلية في محل رفع خبره، فالجملة الاسمية: ﴿هُوَ يُبْدِئُ﴾ في محل رفع خبر ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية مفيدة للتعليل، لا محل لها، وجملة (يعيد) معطوفة على ما قبلها، فهي في محل رفع مثلها.

﴿وَهُوَ﴾: الواو: واو الحال، (هو): ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ، والأسماء الآتية كلها أخبار متعددة للمبتدأ، أو هي أخبار لمبتدآت محذوفة، التقدير: هو الغفور، هو الودود... إلخ. قال ابن مالك ـ رحمه الله تعالى ـ في ألفيته: [الرجز]

وَأَخْبَرُوا بِاثْنَيْنِ، أَوْ بِأَكْثَرَا عَنْ وَاحِدٍ كَهُمْ سَرَاةٌ شُعَرَا

﴿ذُو﴾: خبر على الاعتبارين، فهو مرفوع، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمة؛ لأنه من الأسماء الخمسة، و﴿ذُو﴾ مضاف، و﴿الْعَرْشِ﴾ مضاف إليه. ﴿الْمَجِيدُ﴾: خبر آخر على رواية رفعه، وصفة لـ: ﴿الْعَرْشِ﴾ على رواية جره. ﴿فَعَّالٌ﴾: خبر آخر، أو خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هو فعال. وهذا على القطع لا الإتباع. ﴿لِّمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: ﴿فَعَّالٌ﴾، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة فهي مبنية على السكون في محل جر باللام. هذا؛ وقد اعتبر ابن هشام اللام في مغنيه زائدة، وسماها: لام التقوية، فإذاً (ما) مجرورة لفظاً منصوبة محلاً، مثل قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾، وقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾، و﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾، و﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ وأورد قول حاتم الطائي. وقيل: هو لقيس بن عاصم المنقري ـ رضي الله عنه ـ: [الطويل]

إِذَا مَا صَنَعْتِ الزَّادَ فَالْتَمِسِي لَهُ أَكِيلاً فَإِنِّي لَسْتُ آكِلَهُ وَحْدِي

وهذا هو الشاهد رقم [٣٩٨] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» والجملة الفعلية بعد (ما) صلتها، والعائد محذوف؛ إذ التقدير: فعال للذي، أو لشيء يريده.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩)﴾

الشرح: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾؟ استفهام للتشويق؛ أي: هل بلغك يا محمد! خبر الجموع الكافرة؛ الذين تجندوا لحرب الرسل، والأنبياء؟! هل بلغك ما أحل الله بهم من البأس، وما أنزل عليهم من النقمة والعذاب؟! فهو يؤنسه بذلك، ويسليه. ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾: هذا بيان للجنود، وهم كانوا أشد بأساً، وأقوى مراساً من كفار قريش، ومع ذلك فقد أخذهم الله بذنوبهم، ولم يبالِ بهم. ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ أي: لم يعتبر كفار قريش بما حلَّ بأولئك الكفرة المكذبين، بل هم مستمرون في التكذيب، فهم أشد منهم كفراً، وطغياناً، وإنما خص فرعون، وثمود بالذكر؛ لأن ثمود في بلاد العرب، وقصتهم عند كفار قريش مشهورة، وإن كانوا من المتقدمين، وأمر فرعون كان مشهوراً عند جميع الناس من أهل الكتاب، وغيرهم، وكان من المتأخرين في الهلاك، فدل بهما على أمثالهما في الهلاك. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿هَلْ﴾: حرف استفهام. ﴿أَتَاكَ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والكاف مفعول به. ﴿حَدِيثُ﴾: فاعل، وهو مضاف، و﴿الْجُنُودِ﴾ مضاف إليه، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿فِرْعَوْنَ﴾: بدل من ﴿الْجُنُودِ﴾ مجرور مثله، وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة. ﴿وَثَمُودَ﴾: الواو: حرف عطف. (ثمود): معطوف على ﴿فِرْعَوْنَ﴾ مجرور أيضاً، وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث. ﴿بَلِ﴾: حرف عطف وانتقال. ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ، والجملة الفعلية صلة له. ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾: متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها.

تنبيه: قوله تعالى: ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾ أي: تكذيب شديد. فإنهم سمعوا قصتهم، ورأوْا آثار هلاكهم، وكذبوا أشد من تكذيبهم. ففيه عدول عن: «يكذبون» إلى جعلهم في التكذيب، وأنه لشدته أحاط بهم إحاطة الظرف بمظروفه، أو إحاطة البحر بالغريق فيه مع ما في تنكيره من الدلالة على تعظيمه، وتهويله، ففيه استعارة تبعية في كلمة: ﴿فِي﴾. انتهى. جمل نقلاً من السمين.

﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٢٢)﴾

الشرح: ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾ أي: عالم بأحوالهم، وقادر عليهم، وهم لا يعجزونه، والإحاطة بهم من ورائهم مَثَلٌ؛ لأنهم لا يفوتونه، كما لا يفوت الشيء المحيط به، فالمراد:

بالقدرة على مجازاتهم. هذا؛ وقال الجمل نقلاً عن الخطيب: فيه وجوه: أحدها أن المراد وصف اقتداره عليهم، وأنهم في قبضته، وحصره، كالمحاط إذا أحيط به من ورائه، ينسد عليه مسلكه، فلا يجد مهرباً، يقول الله تعالى: فهم كذا في قبضتي، وأنا قادر على إهلاكهم، ومعالجتهم بالعذاب على تكذيبهم إياك، فلا تجزع من تكذيبهم إياك، فليسوا يفوتونني إذا أردت الانتقام منهم! ثانيها: أن يكون المراد من هذه الإحاطة قرب إهلاكهم، كقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ رقم [٢٢] من سورة (يونس) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام، فهو عبارة عن مشارفة الهلاك، ثالثها: أنه تعالى محيط بأعمالهم؛ أي: عالم بها، فيجازيهم عليها. انتهى.

هذا؛ و﴿مُّحِيطُۢ﴾ أصله: «مُحْيِط» فقل في إعلاله: اجتمع معنا حرف صحيح ساكن، وحرف علة متحرك، والحرف الصحيح أولى بالحركة من حرف العلة، فنقلت حركة الياء، وهي الكسرة إلى الحاء قبلها بعد سلب سكونها، فصار ﴿مُّحِيطُۢ﴾. ومثله: مبين، ومهين... إلخ. وانظر شرح (وراء) في الآية رقم [٢٧] من سورة (الإنسان).

﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ﴾ أي: شريف كريم، كثير النفع والخير، والناس محتاجون إليه في أحكام الدين والدنيا، لا كما يزعم المشركون أنه شعر وكهانة. ﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ أي: مكتوب، ومسجل في لوح، وهو محفوظ عند الله تعالى من وصول الشياطين إليه، وقيل: هو أمُّ الكتاب، ومنه تنسخ جميع الكتب السماوية. وسمي محفوظاً؛ لأنه حفظ من الشياطين، ومن الزيادة، والنقص، وهو عن يمين العرش. وروى الضحاك عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: اللوح المحفوظ من ياقوتة حمراء، أعلاه معقود بالعرش، وأسفله في حجر مَلَكٍ، يقال له: ماطريون، كتابه نور، وقلمه نور، ينظر الله عزَّ وجلَّ فيه كل يوم ثلاثمئة وستين نظرة، ليس منها نظرة إلا وهو يفعل ما يشاء، يرفع وضيعاً، ويضع رفيعاً، ويغني فقيراً، ويفقر غنياً، ويحيي، ويميت، ويفعل ما يشاء، لا إله إلا هو. وفيه أصناف الخلق، والخليقة، وبيان أمورهم، وذكر آجالهم، وأرزاقهم، وأعمالهم، والأقضية النافذة فيهم، ومآل عواقب أمورهم، وهو أمُّ الكتاب.

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أول شيء كتبه الله تعالى في اللوح المحفوظ «**إنِّي أنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا محمدٌ رسولي، مَنِ اسْتَسْلَمَ لِقضائِي، وصَبَر على بلائي، وشكَرَ لِنعمائي، كتبته صدِّيقاً، وبعثته مع الصدِّيقين، ومَن لمْ يَسْتَسْلمْ لقضائي، ولم يصبر على بلائي، ولم يشكر نعمائي؛ فلْيَتَّخِذْ إلهاً سِوايَ**». وكتب الحجاج إلى محمد ابن الحنفية ـ رضي الله عنهما ـ يتوعَّدُه، فكتب إليه ابن الحنفية: بلغني: أن لله تعالى في كل يوم ثلاثمئة وستين نظرة في اللوح المحفوظ، يُعز، ويذل، ويبتلي، ويفرج، ويفعل ما يريد، فلعلَّ نظرة منها تشغلك بنفسك، فتشتغل بها، ولا تتفرغ.

وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: إن في صدر اللوح: لا إله إلا الله وحده، دينه الإسلام، ومحمد عبده، ورسوله، فمن آمن بالله عزَّ وجلَّ، وصدَّق

بوعده، واتبع رسله؛ أدخله الجنة. وقال: واللوح لوح من درة بيضاء طوله ما بين السماء والأرض، وعرضه ما بين المشرق والمغرب، وحافتاه الدرُّ والياقوت، ودفتاه ياقوتة حمراء، وقلمه من نور، وكلامه سر معقود بالعرش، وأصله في حجر ملك. هذا؛ وكل شيء يجري في الكون مسجل في اللوح من قديم الأزل. وانظر القلم؛ الذي خط فيه كل شيء في سورة (القلم).

الإعراب: ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: حرف استئناف. (الله): مبتدأ. ﴿مِن وَرَآئِهِم﴾: متعلقان بما بعدهما، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿مُّحِيطُۢ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها. ﴿بَلْ﴾: حرف عطف، وانتقال. ﴿هُوَ قُرْءَانٌ﴾: مبتدأ، وخبر، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها. ﴿مَّجِيدٌ﴾: صفة ﴿قُرْءَانٌ﴾. ﴿فِى لَوْحٍ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة ثانية لـ: ﴿قُرْءَانٌ﴾، أو في محل نصب حال منه بعد وصفه بما تقدم. ﴿مَّحْفُوظٍۭ﴾: يقرأ بالرفع على أنه نعت لـ: ﴿قُرْءَانٌ﴾، وبالجر نعتاً لـ: ﴿لَوْحٍ﴾.

تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

انتهت سورة (البروج) شرحاً، وإعراباً بتوفيق الله، ومعونته.

والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ الطَّارِقِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة (الطارق) مكية على قول الجميع، وهي سبع عشرة آيةً، وإحدى وستون كلمةً، ومئتان وتسعة وثلاثون حرفاً. روى النسائي عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال: صلى معاذ بن جبل المغرب، فقرأ: (البقرة) و(النساء)، فقال النبي ﷺ: «**أَفَتَّانٌ أنتَ يا معاذُ؟ ما كان يكفيك أن تقرأ بـ:** ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾، و﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾، **ونحوها؟!**». رواه النسائي، فمعاذ - رضي الله عنه - صلى المغرب إماماً في مسجد حيِّهِ، فقرأ السورتين الكريمتين فشكاه المصلون إلى النبي ﷺ فقال له ما قال، أما مسلمو هذا الزمن؛ فإنهم لو صلى إمامهم وقرأ بـ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ ونحوها، فإنهم يملون ويضجرون. وهذا واقع، ومشاهد في هذا الزمن.

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾﴾

الشرح: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾: أقسم الله بهما. انظر السورة السابقة؛ ففيها الكفاية. هذا؛ و(الطارق): النجم، واختلف فيه، فقيل: هو زحل الكوكب الذي في السماء السابعة. ذكره محمد بن الحسن في تفسيره، وذكر له أخباراً؛ الله أعلم بصحتها. وقال ابن زيد: هو الثريا. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - هو الجَدْيُ، وعنه أيضاً، وعن علي - رضي الله عنهما -: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ نجم في السماء السابعة لا يسكنها غيره من النجوم، فإذا أخذت النجوم أمكنتها من السماء، هبط فكان معها، ثم يرجع إلى مكانه من السماء السابعة، وهو زحل، فهو طارق حين ينزل، وطارق حين يصعد.

وروى أبو صالح عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: كان رسول الله ﷺ قاعداً مع أبي طالب، فانحط نجم، فامتلأت الأرض نوراً، ففزع أبو طالب. وقال: أيُّ شيء هذا؟ فقال ﷺ: «**هذا نجم رُمِيَ به، وهو آية من آيات الله**». فعجب أبو طالب، ونزل: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾. وكل من أتاك ليلاً فهو طارق. قال امرؤ القيس في معلقته رقم [٢٣] - وهو الشاهد رقم [٤٨٠] من كتابنا: «فتح رب البرية» -: [الطويل]

فَمِثْلِكِ حُبْلى قد طَرَقْتُ ومُرْضِعٍ ... فألْهَيْتُها عَنْ ذِي تَمائِمَ مُحْوِلِ

وقال أيضاً - وقيل: هو لعلقمة الفحل -: [الطويل]

أَلَـمْ تَـرَيَـانِـي كُـلَّـمَـا جِـئْـتُ طَـارِقـاً وَجَـدْتُ بِـهَـا طِـيـبـاً وإنْ لَـمْ تُـطَـيَّـبِ

فالطارق: النجم، اسم جنس سمي بذلك؛ لأنه يطرق ليلاً، ومنه الحديث: «**نهى النبي ﷺ أَنْ يَطْرُقَ المسافرُ أهلَهُ لَيْلاً؛ كَيْ تَسْتَحِدَّ المغيبةُ، وتمْتَشِطَ الشَّعِثَةُ**». والعرب تسمي كل قاصد في الليل: طارقاً. يقال: طرق فلان: إذا جاء بليل. وقد طرق، يطرق طروقاً، فهو طارق، وفي الصحاح: والطارق: النجم الذي يقال له: كوكب الصبح ومنه قول هند بنت طارق بن بياضة الإيادي من مقطوعة قالتها في حرب الفرس لإياد، وتمثلت بها هند أم معاوية فيما بعد في وقعة أُحد: [مجزوء الرجز]

نَـــحْـــنُ بَـــنَـــاتِ طَـــارِقٍ نَـــمْـــشِـــي عَـــلَـــى الـــنَّـــمَـــارِقِ

فهي تريد: إن أبانا في الشرف كالنجم المضيء. وقال قوم: إنه قد يكون نهاراً، والعرب تقول: أتيتك اليوم طرقتين. أي: مرتين، ومنه قول النبي ﷺ: «**اللهمَّ إني أعوذُ بك مِنْ شرِّ طوارقِ الليلِ والنهارِ؛ إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن!**». وقال جرير في الطروق: [الكامل]

طَـرَقَـتْـكَ صـائِـدَةُ الـقـلـوبِ ولـيـسَ ذَا حِـيـنَ الـزيـارةِ فـارْجـعـي بِـسَـلَامِ

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾؟ هذا تفخيم لشأن المقسم به. وانظر سورة (الانفطار). ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ أي: المضيء. قال تعالى في سورة (الصافات): ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ يقال: ثقب ثقوباً، وثقابةً: إذا أضاء، وثقوبه: ضوءه، والعرب تقول: أثقب نارك؛ أي: أضئها. قال الشاعر: [الطويل]

أَذَاعَ بِـهِ فـي الـنَّـاسِ حـتـى كـأَنَّـهُ بِـعَـلْـيَـاءَ نـارٌ أُوقِـدَتْ بِـثُـقُـوبِ

والثقوب: ما تشعل به النار من دقاق العيدان. هذا؛ ورجل ثاقب الرأي: إذا كان صحيح التفكير، نافذ البصيرة. هذا؛ وقال الصاوي، وغيره: قد كثر منه تعالى في كتابه المجيد ذكر الشمس والقمر، والنجوم؛ لأن أحوالها في أشكالها، وسيرها، ومطالعها، ومغاربها عجيبة دالة على انفراد خالقها بالكمالات؛ لأن الصنعة تدل على الصانع. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾: جار ومجرور متعلقان بفعل محذوف، تقديره: أقسم. وانظر ما ذكرته في أول سورة (البروج) و(المرسلات) و(الذاريات) بشأن هذا القسم، والمقسم به. ﴿وَٱلطَّارِقِ﴾: الواو: حرف عطف. (الطارق): معطوف على ما قبله. ﴿وَمَآ﴾: الواو: حرف عطف. (ما): اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿أَدْرَىٰكَ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى (ما) تقديره: «هو»، والكاف مفعول به أول. ﴿مَا ٱلطَّارِقُ﴾: مبتدأ، وخبر، والجملة الاسمية في محل نصب سدت مسد مفعول ﴿أَدْرَىٰكَ﴾ الثاني المعلق عن العمل لفظاً بسبب الاستفهام. وقال زاده: في محل نصب سدت مسد المفعول الثاني، والثالث لـ: ﴿أَدْرَىٰكَ﴾؛ لأنه بمعنى: أعلم، والجملة الفعلية: ﴿أَدْرَىٰكَ...﴾ إلخ في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، واعتبارها معترضة أولى. ﴿ٱلنَّجْمُ﴾:

خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هو النجم. ﴿الثَّاقِبُ﴾: صفة له، والجملة الاسمية في محل نصب حال من ﴿الطَّارِقُ﴾، والعامل في الحال اسم الاستفهام.

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾

الشرح: قال قتادة: حَفَظَةٌ يحفظون عليك رزقك، وعملك، وأجلك. وقيل: المعنى إن كل نفس إلا عليها حافظ يحفظها من الآفات حتى يسلمها إلى القدر؛ أي: المقادير. هذا؛ وقد روي عن النبي ﷺ: أنه قال: «**وُكِّل بالمؤمن ملائكة يذبون عنه ما لم يقدر عليه، كما يذب عن قصعة العسل الذباب ولو وُكِل العبد إلى نفسه طرفة عين؛ لاختطفته الشياطين**». أقول: وهذا الحفظ يشمل المؤمن، والفاجر، والفاسق، والكافر بلا ريب. وانظر ما ذكرته في الآية رقم [١٠] من سورة (الانفطار). هذا؛ ويقرأ بتشديد الميم، وتخفيفها.

الإعراب: ﴿إِن﴾: حرف نفي بمعنى: «ما». ﴿كُلُّ﴾: مبتدأ، وهو مضاف، و﴿نَفْسٍ﴾ مضاف إليه. ﴿لَّمَّا﴾: حرف بمعنى: «إلا» مفيدة للحصر. ﴿عَلَيْهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿حَافِظٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل رفع خبر المبتدأ. هذا؛ وإن اعتبرت الجار، والمجرور متعلقين بمحذوف خبر ﴿كُلُّ﴾، فـ: ﴿حَافِظٌ﴾ يكون فاعلاً بمتعلق الجار، والمجرور. هذا؛ وعلى قراءة تخفيف الميم فـ: ﴿إِن﴾ مخففة من الثقيلة مهملة، و﴿كُلُّ﴾ مبتدأ، واللام هي الفارقة بين النفي والإثبات، وهي لازمة. قال ابن مالك ـ رحمه الله تعالى ـ: [الرجز]

وخُفِّفَتْ إنَّ فَقَلَّ الْعَمَلُ وَتَلْزَمُ اللَّامُ إذَا مَا تُهْمَلُ

وما صلة، وباقي الإعراب مثل ما تقدم بلا فارق، وأجيز تعليق ﴿عَلَيْهَا﴾ بـ: ﴿حَافِظٌ﴾ على أنه خبر ﴿كُلُّ﴾، والجملة الاسمية على الاعتبارين جواب القسم لا محل لها، وما بينهما كلام معترض لا محل له. هذا؛ ومثل هذه الآية قوله تعالى في سورة (يس) رقم [٣٢]: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾، وقوله في سورة (الزخرف) رقم [٣٥]: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وخذ قول الشاعر ـ وهو الشاهد رقم [٥١٥] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الرجز]

قَالَتْ لَهُ بِاللَّهِ يَا ذَا الْبُرْدَيْنِ لَمَّا غَنِثْتَ نَفَساً أو اثْنَيْنِ

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾

الشرح: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: ابن آدم. والمعنى: فلينظر الإنسان نظر تفكر، واعتبار. ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾؟: من أي شيء خلقه الله؟ قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: وجه الاتصال بما قبله:

توصية الإنسان بالنظر في أول أمره، وسنته الأولى، حتى يعلم: أن من أنشأه قادر على إعادته وجزائه، فيعمل ليوم الإعادة، والجزاء، ولا يملي على حافظه إلا ما يسره في عاقبة أمره. وانظر الكلام على ﴿عَمَّ﴾ في سورة (النبأ) رقم [١].

﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ أي: من المني المتدفق؛ الذي ينصب بقوة، وشدة، يتدفق من الرجل، والمرأة، فيتكون منه الولد بقدرة الله، والدفق: صب الماء، و﴿دَافِقٍ﴾ بمعنى مدفوق، كما قالوا: سر كاتم؛ أي: مكتوم، والمراد ماء الرجل، والمرأة؛ لأن الإنسان مخلوق منهما، لكن جعلهما ماءً واحداً لامتزاجهما.

هذا؛ وفي الجمل: و﴿دَافِقٍ﴾ من صيغ النسب، كلابن، وتامر؛ أي: ذي دفق، وهو صادق على الفاعل، والمفعول، أو هو مجاز في الإسناد، فأسند إلى الماء ما لصاحبه مبالغة، أو هو استعارة مكنية، أو تخييلية، أو مصرحة بجعله دافقاً؛ لأنه لتتابع قطراته كأنه يدفق بعضه بعضاً؛ أي: يدفعه كما أشار له ابن عطية. انتهى. نقلاً من الشهاب.

﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ﴾ أي: الظَّهر، وفيه لغات أربع: صُلْب، وصُلُب. وقرئ بهما، وصَلَب، وصَالَب، ومنه قول العباس ـ رضي الله عنه ـ: [المنسرح]

تُنْقَلُ مِنْ صَالَبٍ إِلَى رَحِمٍ ... إِذَا مَضَى عَالَمٌ بَدَا طَبَقُ

ويجمع على: أصلاب، وأصلب، وصلبة، ويقال: هو من صلب فلان. أي: من نسله، وولده.

﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾: عظام الصدر، والصلب: فقار الظهر، ويسمى سلسلة الظهر، والأول من المرأة والثاني من الرجل، ومن الأول قول امرئ القيس في معلقته رقم [٣٠]: [الطويل]

مُهَفْهَفَةٌ بَيْضَاءُ غَيرُ مُفَاضَةٍ ... تَرَائِبُهَا مَصْقُولَةٌ كَالسَّجَنْجَلِ

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الترائب: موضع القلادة في الصدر، وعنه ما بين ثدييها، والمشهور من كلام العرب: أنها عظام الصدر، والنحر. قال دريد بن الصمة: [الطويل]

فَإِنْ تُدْبِرُوا نَأْخُذْكُمُ في ظُهُورِكُمْ ... وَإِنْ تُقْبِلُوا نَأْخُذْكُمُ فِي التَّرَائِبِ

وقال المخبل السعدي: [الكامل]

والزَّعْفَرانُ عَلَى تَرَائِبِهَا ... شَرِقٌ بِهِ اللَّبَّاتُ وَالنَّحْرُ

وواحد الترائب: تريبة، مثل: صحيفة، وصحائف. قال المثقب العبدي: [الوافر]

ومِنْ ذَهَبٍ يَسُنُّ عَلَى تَرِيبٍ ... كَلَوْنِ الْعَاجِ لَيْسَ بِذِي غُضُونِ

وقد جمعت على (ترائب) باعتبار ما حولها، وما أحاط بها، ولم يجمع الصلب كما جمعت التريبة، وكذلك تقول العرب: رأيت خلاخيل المرأة، وثديها: وإنما لها ثديان، وخلخالان.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الله جل ثناؤه. ﴿عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ أي: أن الله تعالى قادر على أن يرد النطفة في الإحليل. وقيل: قادر على أن يرد الماء في الصلب الذي خرج منه. وقيل: معناه إن شئت رددته من الكبر إلى الشباب، ومن الشباب إلى الصبا، ومن الصبا إلى النطفة. وقيل: معناه وإن الذي قدر على خلق الإنسان ابتداءً، قادر على إعادته حياً بعد موته، وهو أهون عليه، ولا صعب على الله، وهذا القول هو الأصحُّ، وأحقُّ بالاعتبار بمعنى الآية لقوله جلَّ ذكره بعده ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾.

ومعنى ﴿تُبْلَى﴾ تظهر الخبايا، والأمور المستورة في الدنيا. وقيل: ﴿تُبْلَى﴾ تعرف. قال الراجز: [الرجز]

قَدْ كُنْتَ قَبْلَ الْيَوْمِ تَزْدَرِينِي فَالْيَوْمَ أَبْلُوكَ وتَبْتَلِينِي

و﴿ٱلسَّرَآئِرُ﴾ جمع: سريرة، وهي كل ما كان استسره الإنسان من خير، أو شَر، وأضمره من إيمان وكفر، كما قال الأحوص: [الطويل]

إِذَا رُمْتُ عنها سُلوةً قال شافعٌ مِن الحبّ ميعادُ السُّلُوِّ الْمقابِرُ

سيبقى لهَا في مضمرِ القلْبِ والحشَا سريرَةُ وُدٍّ يَوْمَ تُبلَى السَّرائرُ

وقيل: ﴿ٱلسَّرَآئِرُ﴾ فرائض الأعمال، كالصوم والصَّلاة، والزكاة، والوضوء، والغسل من الجنابة. فكل هذه سرائر بين العبد وبين ربه عزَّ وجلَّ، وذلك؛ لأن العبد قد يقول في الدنيا: صليت؛ ولم يصلِّ، وصمت؛ ولم يصم، وزكيت؛ ولم يزكِ، واغتسلت؛ ولم يغتسل، فإذا كان يوم القيامة يختبر؛ حتى يظهر من أداها، ومن ضيعها. قال عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: يبدي الله يوم القيامة كل سر خفي، فيكون زَيْناً في وجوه، وشَيْناً في وجوه. فمن أدى الفرائض، كما أمر؛ كان وجهه مشرقاً مستنيراً يوم القيامة. ومن ضيعها، أو انتقص منها شيئاً؛ كان وجهه أغبر. والله عالم بكل شيء، ولكن يظهر ما ذكر علامات للمؤمنين، وفيه ما فيه من السرور، والغبطة، والحبور.

قال محمد علي الصابوني ـ جزاه الله خيراً ـ: اكتشف الطب الحديث: أن هذا السائل من مني الإنسان يحوي حيوانات صغيرة، تسمى: (الحيوانات المنوية) وهي لا ترى بالعين المجردة، إنما ترى (بالمكروسكوب) وكل حيوان منها، له رأس، ورقبة، وذيل، يشبه دودة العلق في شكلها، ورسمها، وأن هذا الحيوان يختلط بالبويضة الأنثوية، فيلقحها، فإذا ما تم اللقاح؛ انطبق عنق الرحم، فلم يدخل بعده شيء إلى الرحم، وأما بقية الحيوانات؛ فتموت، وهذه الناحية العلمية: (وهي: أن الحيوان المنوي يشبه العلق في الشكل، والرسم). قد أثبتها القرآن في سورة (العلق): ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ فهذه الآية معجزة بليغة من معجزات القرآن، لم يظهر وقت نزولها، ولا بعده بمئات السنين إلى أن اكتشف المجهر المكبر المذكور، وعرف كيف يتكون الإنسان بقدرة الله. انتهى.

الإعراب: ﴿فَلْيَنظُرِ﴾: الفاء: حرف استئناف. وقيل: الفاء الفصيحة. وليس بشيء يعتد به. (لينظر): فعل مضارع مجزوم بلام الأمر. ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها، والفعل معلق عن العمل لفظاً بسبب الاستفهام. ﴿مِمَّ﴾: جار ومجرور متعلقان بما بعدهما، و(ما) اسم استفهام مبني على السكون في محل جر بـ: (من)، وحذفت ألفها فرقاً بين الخبر، والاستخبار.

﴿خُلِقَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفعل يعود إلى ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾، تقديره: «هو»، والجملة الفعلية في محل نصب مفعول به للفعل: (ينظر). ﴿خُلِقَ﴾: بدل من سابقه، والأول مطلق، والثاني مقيد بالجار، والمجرور. وقيل: الجملة مستأنفة، وليس بشيء. ﴿مِن مَّآءٍ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿دَافِقٍ﴾: صفة ﴿مَّآءٍ﴾. ﴿يَخْرُجُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿مَّآءٍ﴾، والجملة الفعلية في محل جر صفة ثانية لـ: ﴿مَّآءٍ﴾، أو في محل نصب حال منه بعد وصفه بما تقدم. ﴿مِنۢ بَيْنِ﴾: متعلقان بما قبلهما، و﴿بَيْنِ﴾ مضاف، و﴿ٱلصُّلْبِ﴾ مضاف إليه. وقيل: ﴿بَيْنِ﴾ مقحمة بين الجار، والمجرور. ﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾: الواو: حرف عطف. (الترائب): معطوف على ما قبله. ﴿إِنَّهُۥ﴾: (إنَّ): حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿عَلَىٰ رَجْعِهِۦ﴾: متعلقان بما بعدهما، والهاء في محل جر بالإضافة من إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله محذوف. ﴿لَقَادِرٌ﴾: خبر (إنَّ)، واللام هي لام الابتداء زحلقت إلى الخبر، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّهُۥ...﴾ إلخ تعليلية لا محل لها. ﴿يَوْمَ﴾: ظرف زمان متعلق بالمصدر ﴿رَجْعِهِۦ﴾ ولا يجوز تعليقه بـ: (قادر)؛ لأن الله تعالى قادر في كل الأوقات، لا تختص قدرته بوقت دون وقت، وفي المغني: ﴿يَوْمَ﴾ متعلق بفعل محذوف تقديره: يرجعه، ولا يتعلق بالمصدر: ﴿رَجْعِهِۦ﴾؛ لأنه فصل بينه، وبين معموله بالأجنبي، وهو قوله: (قادر). ﴿تُبْلَى﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر. ﴿ٱلسَّرَآئِرُ﴾: نائب فاعل، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿يَوْمَ﴾ إليها.

﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾

الشرح: ﴿فَمَا لَهُۥ﴾: للإنسان المعاند للحق، المنكر للبعث، والحساب، والجزاء، ﴿مِن قُوَّةٍ﴾: يمتنع بها من عذاب الله، وغضبه، وانتقامه. ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾: ينصره من عذاب الله، وسخطه، ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ أي: ذات المطر، ترجع كل سنة بمطر بعد مطر، وترجع به كل وقت، وحين. قاله أهل اللغة، وأنشدوا للمتنخل يصف سيفاً شبهه بالماء: [السريع]

أَبْيَضُ كَالرَّجْعِ رَسُوبٌ إِذَا ... مَا ثَاخَ فِي مُحْتَفَلٍ يَخْتَلِي

ثاخت قدمه في الوحل، تثوخ، وتثيخ: خاضت وغابت فيه. وقد يسمى المطر أيضاً: أوباً كما يسمى رجعاً. قال المتنخل الهذلي: [البسيط]

رَبَّــاءُ شَـمَّــاءُ لَا يَــأْوِي لِـقُـلَّــتِـهَــا إِلَّا الــســحَــابُ وإِلَّا الأَوْبُ والــسَّــبَــلُ

﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ أي: تتصدع، وتنشق عن النبات، والشجر، والأنهار. قال تعالى في سورة: (عبس): ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾. ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن. ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾: فاصل بين الحق، والباطل، كما قيل له: «فرقان» يفرق بين الحق، والباطل. ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾: باللعب، والعبث، والباطل، و(الهزل) ضد الجد، وقد هزل، يهزل. قال الكميت: [الطويل]

أرَانَـا عَـلَـى حُـبِّ الْـحَـيَـاةِ وَطُـولِـهَـا يُـجَـدُّ بِـنَـا فـي كُـلِّ يَـوْمٍ وَنَـهْـزِلُ

هذا؛ وروى الحارث عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كتابُ اللهِ فيه نَبَأُ ما قبلكمْ، وخَبَرُ ما بعدكمْ، وحكمُ ما بينكمْ، هو الفصلُ، ليس بالهزل. مَنْ تركه من جبار؛ قصمه الله. ومَن ابتغى الهُدى في غيره؛ أضلَّه الله. وهو حبْلُ اللهِ المتِينُ، وهو الذكرُ الحكيمُ، وهوَ الصراطُ المستقيمُ، وهو الذي لا تَزِيغُ به الأهواءُ، ولا تلتبسُ به الألسِنَةُ، ولا يشبعُ مِنْهُ العلماءُ، ولا يخلُقُ على كثرةِ الردِّ، ولا تنقضي عجائِبُهُ، هو الذِي لَمْ ينتَهِ الجِنُّ إذْ سمعته؛ حتى قالوا:** ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾، **من قال به؛ صَدَقَ، ومَنْ عمل بِهِ؛ أُجِرَ، ومَنْ حكمَ به؛ عدلَ، ومَن دعَا إليه؛ هُدِيَ إلى صراطٍ مستقيمٍ**».

هذا؛ والقول يطلق على خمسة معان: أحدها: اللفظ الدال على معنى، الثاني: حديث النفس، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ﴾. الثالث: الحركة، والإمالة، يقال: قالت النخلة؛ أي: مالت. الرابع: ما يشهد به الحال كما في قوله تعالى: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾. الخامس: الاعتقاد، كما تقول: هذا قول المعتزلة، وهذا قول الأشاعرة. أي: ما يعتقدونه. وانظر الكلام بعد الإعراب.

الإعراب: ﴿فَمَا﴾: الفاء: حرف عطف. (ما): نافية. ﴿لَهُۥ﴾: جار، ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿مِن﴾: حرف جر صلة. ﴿قُوَّةٍ﴾: مبتدأ مؤخر مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية السابقة، فهي في محل جر مثلها. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية، أو هي صلة لتوكيد النفي. ﴿نَاصِرٍ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾: جار ومجرور متعلقان بفعل محذوف، تقديره: أقسم. وانظر ما ذكرته في أول السورة. ﴿ذَاتِ﴾: صفة (السماء)، وهو مضاف، و﴿ٱلرَّجْعِ﴾ مضاف إليه. ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ۝١٢﴾: معطوف على ما قبله، وهو مثله في إعرابه. ﴿إِنَّهُۥ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿لَقَوْلٌ﴾: خبرها، واللام المزحلقة. ﴿فَصْلٌ﴾: صفة (قول)، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّهُۥ...﴾ إلخ جواب القسم لا محل لها. ﴿وَمَا﴾: الواو: حرف عطف. (ما): نافية حجازية تعمل عمل: «ليس»، أو هي مهملة لا عمل لها. ﴿هُوَ﴾: ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع اسم (ما)، أو هو في محل رفع مبتدأ.

﴿بِٱلْهَزْلِ﴾: الباء: حرف جر صلة. (الهزل): خبر (ما)، أو خبر المبتدأ، فهو مجرور لفظاً، منصوب، أو مرفوع محلاً، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها، وإن اعتبرتها في محل نصب حال من اسم (إنَّ) فالمعنى لا يأباه، وعليه فالرابط: الواو، والضمير.

تنبيه: بمناسبة الكلام على القول: فأتكلم على الكلام، فأقول: أما الكلام بالنسبة للبشر، فهو يدل على أحد ثلاثة أمور:

أولها: الحدث الذي يدل عليه لفظ التكليم، تقول: أعجبني كلامك، تريد تكليمك إياه. وقال الشاعر: [البسيط]

قَالُوا كَلامُكَ هِنْداً وَهْيَ مُصْغِيَةٌ ... يَشْفِيكَ قُلْتُ صَحِيحٌ ذَاكَ لَوْ كَانَا

ثانيها: ما يدور في النفس من هواجس، وخواطر، وكل ما يعبر عنه باللفظ؛ لإفادة السامع ما قام بنفس المخاطب، فيسمى هذا الذي تخيلته في نفسك كلاماً في اللغة العربية. تأمل قول الأخطل التغلبي: [الكامل]

لَا يُعْجِبَنَّكَ مِنْ خَطِيبٍ خُطْبَةٌ ... حَتَّى يَكُونَ مَعَ الْكَلَامِ أَصِيلَا

إنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْفُؤَادِ وَإِنَّمَا ... جُعِلَ اللِّسَانُ مع الفُؤَادِ دَلِيلَا

وثالثها: كل ما تحصل به الفائدة، سواء أكان ما حصلت به لفظاً، أو خطًّا، أو إشارةً، أو دلالةَ حالٍ؟ انظر إلى قول العرب (القلَمُ أَحَدُ اللِّسَانَيْنِ) وانظر إلى تسمية المسلمين ما بين دَفَّتَي المصحفِ: (كَلَام اللهِ) ثم انظر إلى قوله تعالى: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾، وقال جلّ شأنه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾. وإلى كلمته جلت حكمته: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾. ثم انظر إلى قول عمر بن أبي ربيعة؛ الذي نفى الكلام اللفظي عن محبوبته، وأثبت لعينها القول، وذلك في قوله: [الطويل]

أَشَارَتْ بِطَرْفِ الْعَيْنِ خِيفَةَ أَهْلِهَا ... إِشَارَةَ مَحْزُونٍ وَلَمْ تَتَكَلَّمِ

فَأَيْقَنْتُ أَنَّ الطَّرْفَ قَدْ قَالَ مَرْحَباً ... وَأَهْلاً وَسَهْلاً بِالْحَبِيبِ الْمُتَيَّمِ

ثم انظر إلى قول نصيب بن رباح: [الطويل]

فَعَاجُوا فَأَثْنَوْا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ ... وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنَتْ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: مشركي قريش. ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾: يحتالون بالمكر بالنبي ﷺ، وذلك حين اجتمعوا في دار الندوة، وتشاوروا فيه في ليلة الهجرة، يريدون الفتك بالنبي ﷺ. ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ أي:

أجازيهم على كيدهم بالإمهال، ثم النكال؛ حيث أخذهم أخذ عزيز مقتدر، كقوله تعالى في سورة (القلم): ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال أبو السعود: أي: أقابلهم بكيد متين، لا يمكن ردُّه حيث أستدرجهم من حيث لا يعلمون. هذا؛ والكيد: الحيلة، والمكر، والخبث، والخداع، وهو بهذه المعاني مستحيل في حقه تعالى، وإنما هو هنا بمعنى: الجزاء، والعقاب. وإنما ذكره بلفظ الكيد من باب المقابلة. وهذا ما يسمى عند البلغاء بالمشاكلة؛ أي: ذكر الله سبحانه جزاءهم وعقابهم من جنس صنيعهم. ومنه قوله تعالى في سورة (التوبة) رقم [٦٧]: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، وقوله تعالى في سورة (الشورى) رقم [٤٠]: ﴿وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ ومثل هذا كثير في الآيات القرآنية، والمراد: مقابلة القبيح بمثله، وإذا قال: أخزاك الله؛ فقل له: أخزاك الله، وإذا شتمك فاشتمه بمثلها، ولا تعتد. وخذ قول ابن الرقعمق في المشاكلة: [الكامل]

أَصْحَابُنَا قَصَدُوا الصبوحَ بِسُحْرَةٍ وَأَتَى رسولُهُمُ إِلَيَّ خَصِيصَا
قَالُوا اقْتَرِحْ شَيْئاً نُجِدْ لكَ طَبْخَهُ قُلْتُ اطْبُخُوا لِي جُبَّةً وقَمِيصا

وقال عمرو بن كلثوم في معلقته رقم [١١٤]: [الوافر]

أَلَا لا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا

فسمى جزاء الجهل: جهلاً لازدواج الكلام، وحسن تجانس اللفظ، فالجملة الثانية على مثل لفظ الأولى، وهي تخالفها في المعنى؛ لأن ذلك أخف على اللسان. ومن ذلك قول الرسول ﷺ: **«فَإِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ؛ حَتَّى تَمَلُّوا»**. فمعناه: أن الله تعالى لا يقطع عنكم فضله؛ حتى تملوا من مسألته، وتزهدوا فيها؛ لأن الله لا يَمَل في الحقيقة، وإنما نسب الملل إليه لازدواج اللفظين.

﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: لا تستعجل عليهم، ولا تدع بهلاكهم. ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾: أمهلهم قليلاً، فسوف ترى ما أصنع بهم! وهذا منتهى الوعيد، والتهديد، ويقال: مهلاً يا فلان! أي: رفقاً، وسكوناً. قال امرؤ القيس في معلقته رقم [٢٦] وهو الشاهد رقم [٤] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الطويل]

أَفَاطِمُ مَهْلاً بَعْضَ هَذَا التَّدَلُّلِ وإن كُنْتِ قدْ أَزْمَعْتِ صَرْمِي فَأَجْمِلِي

و(الرويد) في كلام العرب تصغير: رُوْد، وكذا قال أبو عبيد، وأنشد قول الجموح الظفري: [البسيط]

تَكَادُ لَا تَنَلِ الْبَطْحَاءُ وَطْأَتَهَا كأنها ثَمِلٌ يَمْشِي عَلَى رُودِ

و(رُوَيْد) مصغر تصغير الترخيم من إرْوَاد، وهو مصدر: أَرْوَدَ، يُرْوِد.

وله أربعة أوجه: اسم للفعل، وصفة، وحال، ومصدر، فالاسم نحو قولك: رُوَيْدَ عمراً. أي: **أَرْوِدْ عمراً** بمعنى: أمهله، فهو اسم فعل أمر مبني على السكون، وفاعله مستتر فيه.

والصفة: نحو قولك: ساروا سيراً رُوَيْداً. والحال: نحو قولك: سار القوم رُوَيْداً (لما اتصل بالمعرفة؛ صار حالاً لها). والمصدر: نحو قولك: رُوَيْدَ عمرٍو بالإضافة. كقوله تعالى في سورة (محمد ﷺ) رقم [٤]: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾. قال جميعه الجوهري، والذي في الآية من هذه الوجوه، أن يكون نعتاً للمصدر. أي: إمهالاً رويداً، ويجوز أن يكون للحال. أي: أمهلهم غير مستعجل لهم العذاب. انتهى. قرطبي، ولا تنس: أن هذه الآية منسوخة بآية السيف. قال تعالى في سورة (التوبة) رقم [٥]: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾، وقال تعالى في سورة (البقرة) رقم [١٩١]: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾، وقال في سورة (النساء) رقم [٩١]: ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾، وآية (الحج) رقم [٣٩]: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾.

الإعراب: ﴿إِنَّهُمْ﴾: (إنَّ): حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها، ﴿يَكِيدُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله. ﴿كَيْدًا﴾: مفعول مطلق، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية مبتدأة، أو تعليلية، أو مستأنفة، لا محل لها. ﴿وَأَكِيدُ﴾: الواو: حرف عطف. (أكيد): فعل مضارع، والفاعل مستتر، تقديره: «أنا»، ﴿كَيْدًا﴾: مفعول مطلق، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل رفع مثلها. ﴿فَمَهِّلِ﴾: الفاء: الفصيحة. (مهل): فعل أمر، وفاعله تقديره: «أنت». ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الياء. . .إلخ، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جواب شرط غير جازم، التقدير: وإذا كان ما ذكر واقعاً، وحاصلاً ـ ولو بعد حين ـ فمهل الكافرين. ﴿أَمْهِلْهُمْ﴾: أمر وفاعله، ومفعوله، والجملة توكيد لسابقتها. ﴿رُوَيْدًۢا﴾: صفة مفعول مطلق محذوف، أو حال. انظر الشرح.

تنبيه: بل خاتمة: قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ بل هو جد كلُّه، فيجب أن يكون مهيباً في الصدور، معظماً في القلوب، يترفع به قارئه، وسامعه عن أن يلمَّ بهزل، أو يتفكه بمزاح، وأن يلقي ذهنه إلى جبار السموات، والأرض، يخاطبه، فيأمره، وينهاه، ويعده، ويوعده؛ حتى إذا لم يستفزه الفزع، والخوف، ولم تتبالغ فيه الخشية؛ فأدنى أمره أن يكون جاداً غير هازل، فقد نفى الله عن المشركين ذلك في قوله في آخر سورة (النجم): ﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾. انتهى. جمل نقلاً عن الخطيب. تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

انتهت سورة (الطارق) شرحاً وإعراباً بحمد الله وتوفيقه.

والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ الأَعْلَى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة (الأعلى) مكية في قول الجمهور. وقال الضَّحَّاك مدنية. وهي تسع عشرة آيةً، واثنتان وسبعون كلمةً، ومئتان وواحد وتسعون حرفاً. انتهى. خازن. وقال النووي ـ رحمه الله تعالى ـ: وكان النبي ﷺ يحبها لكثرة ما اشتملت عليه من العلوم، والخيرات، وعن عبد الرحمن بن جريج؛ قال: سألنا عائشة ـ رضي الله عنها ـ بأي شيء كان رسول الله ﷺ يوتر؟ قالت: كان يقرأ في الأولى بـ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وفي الثانية بـ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وفي الثالثة بـ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين. أخرجه أبو داود، والنسائي، والترمذي. وقال: حديث حسن غريب. انتهى. جمل والخازن.

وروى مسلم، وأهل السنن عن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ كان يقرأ في العيدين، ويوم الجمعة بـ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾، وربما اجتمعا في يوم واحد، فقرأهما.

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾﴾

الشرح: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ أي: نزه يا محمد ربَّك العلي الكبير عن صفات النقص، وعما يقوله الظالمون، وعما لا يليق به سبحانه وتعالى من النقائص، والقبائح. فقد روي: أنه لما نزل: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال الرسول ﷺ: «**اجعلوها في سجودكم**». ولما نزل: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ من سورة (الواقعة) قال الرسول ﷺ: «**اجعلوها في ركوعكم**». أخرجه أبو داود عن عقبة ابن عامر ـ رضي الله عنه ـ. هذا؛ والتسبيح يأتي بمعنى الدعاء. قال جرير: [الطويل]

فَلَا تَنْسَ تَسْبِيحَ الضُّحَىٰ إِنَّ يُوسُفاً ... دَعَا رَبَّهُ فَاخْتَارَهُ حِينَ سَبَّحَا

هذا؛ وقد جاء لفظ التسبيح في القرآن الكريم بالماضي أحياناً، وبالمضارع أحياناً، وبالأمر أحياناً، وبالمصدر أحياناً أخرى، استيعاباً لهذه المادة من جميع جهاتها، وألفاظها، وهي أربع المصدر، والماضي، والمضارع، والأمر. وهذا الفعل بألفاظه الأربعة قد عدي باللام تارة، مثل

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾، وقوله جلت حكمته: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ...﴾ إلخ. وبنفسه أخرى، مثل الآية الكريمة التي نحن بصدد شرحها، وقوله تعالى في سورة (الفتح) رقم [٩]: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾، وفي سورة (الأحزاب) رقم [٤٢]: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، وقوله تعالى في آخر سورة (قٓ): ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾، وأصله التعدي بنفسه؛ لأن معنى «سبحته»: بعدته من السوء، منقول من: سبح إذا ذهب، وبعد، فاللام إما أن تكون مثل: نصحته، ونصحت له، وشكرته، وشكرت له، وإما أن يراد: يسبح لله: اكتسب التسبيح لأجل الله، ولوجهه خالصاً. انتهى. نسفي من سورة (الحديد).

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أي: خلق جميع المخلوقات، فأتقن خلقها، وأبدع صنعها في أجمل الأشكال، وأحسن الهيئات. قال في البحر: أي: كلَّ شيء فسواه، بحيث لم يأتِ متفاوتاً، بل متناسباً على إحكام، وإتقان، للدلالة على أنه صادر من عالم حكيم. انتهى. صابوني، والمعنى: خلق كل ذي روح فسوى اليدين، والرجلين، والعينين. وقيل: خلق الإنسان مستوياً معتدل القامة. وانظر سورة (الانفطار) رقم [٧] وانظر سورة (التين) أيضاً.

﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾: قيل: قدر الأرزاق، وهدى لاكتسابها. وقيل: قدر لكل شيء شكله فهدى؛ أي: عرف كيف يأتي الذكر، والأنثى، سواء أكان من الإنسان، أو من الحيوان حتى الذبابة. وقيل: قدر مدة الجنين في الرحم، وهداه إلى الخروج منه. وقيل: قدر لأقوام الشقاوة، والسعادة لأقوام، ثم هدى كل فريق من الطائفتين لسلوك سبيل ما قدر له، وعليه، فهذه الآية كقوله تعالى في سورة (طه) رقم [٥٠]: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ انظر شرحها هناك، فعن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الخلَائِقِ قبلَ أَنْ يَخْلُقَ السمواتِ والأرضَ بخمسينَ ألفَ سَنَةٍ، وكانَ عرشُهُ علَى الْماءِ**». أخرجه مسلم.

وفي الجمل نقلاً عن الخطيب: أي: أوقع تقديره في أجناس الأشياء، وأنواعها وأشخاصها، ومقاديرها، وصفاتها، وأفعالها، وآجالها، وغير ذلك من أحوالها. فجعل البطش لليد، والمشي للرجل، والسمع للأذن، والبصر للعين، ونحو ذلك. وقوله: ﴿فَهَدَىٰ﴾ أي: هدى الإنسان، ودله لسبيل الخير، والشر، والسعادة، والشقاوة، وهدى الأنعام لمراعيها. وقيل: المعنى: قدر أقواتهم، وأرزاقهم، وهداهم لمعاشهم إن كانوا بشراً، ولمراعيهم إن كانوا وحوشاً، ومن ذلك هدايات الإنسان إلى مصالحه من أغذيته، وأدويته، وأمور دنياه، ودينه، وإلهامات البهائم، والطيور، وهوام الأرض إلى معاشها ومصالحها. انتهى.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾: بعد أن ذكر ما يختص بالإنسان؛ أتبعه بما يختص بالحيوان من الحشائش، والأعشاب. وجميع أنواع النباتات، والزروع، من أخضر، وأصفر، وأحمر، وأبيض، وغير ذلك. ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً﴾ يابساً، هشيماً، بالياً كالغثاء الذي تراه فوق السيل. وغثاء

السيل: حميله، وغثت نفسه، تغثى غثياً من باب رمى، وغثياناً، وهو اضطرابها؛ حتى تكاد تتقيأ من خلط ينصبُّ إلى فم المعدة. ﴿أَحْوَىٰ﴾ أي: أسود بعد الخضرة، وذلك: أن الكلأ إذا جف، وييس؛ اسودَّ. قال امرؤ القيس في معلقته رقم [٨٩]: [الطويل]

كَأَنَّ ذُرَا رَأْسِ الْمُجَيْمِرِ غُدْوَةً ... مِنَ السَّيْلِ والإِغْثَاءِ فَلْكَةُ مِغْزَلِ

و(الأحوى) الأسود؛ أي: إن النبات يضرب إلى الحوة من شدة الخضرة، كالأسود، والحوة: السواد، قال ذو الرُّمَّة: [البسيط]

لمياءُ في شَفَتَيْهَا حُوَّةٌ لَعسٌ ... وفي اللِّثَاتِ وفي أَنْيَابِها شَنَبُ

ويقال: رجل أحوى، وامرأة حواء، وجمعهما: حُوٌّ، مثل: أحمر، وحمر، وقد حويت. وبعير أحوى: إذا خالط خضرته سوادٌ وصفرة.

تنبيه: تنزيه الله عز وجل عن كل ما لا يليق به في ذاته، وصفاته، وأسمائه، وأفعاله، وأحكامه واجب. فأما في ذاته؛ فأن تعتقد: أنها ليست من الجواهر، والأعراض، وأما في صفاته؛ فأن تعتقد: أنها ليست محدثة، ولا متناهية، ولا ناقصة. وأما في أفعاله؛ فأن تعتقد: أنه سبحانه مطلق، لا اعتراض لأحد عليه في أمرٍ من الأمور. وأما في أسمائه؛ فأن لا تذكره سبحانه إلا بالأسماء التي لا توهم نقصاً بوجه من الوجوه، سواء ورد الإذن فيها، أم لم يرد. وأما في أحكامه سبحانه؛ فأن تعلم: أنه ما كلفنا لنفع يعود إليه، بل لمحض المالكية. انتهى. جمل نقلاً عن الخطيب.

الإعراب: ﴿سَبِّحِ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت». ﴿اسْمَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿رَبِّكَ﴾ مضاف إليه. وقيل: اسم صلة. قاله ابن عباس، والسدي، والمعنى: عظِّم ربك الأعلى، فالمراد تعظيم المسمى. ومنه قول: لبيد ـ رضي الله عنه ـ وانظره في الشاهد رقم [٩٧٦] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الطويل]

إلى الحَوْلِ ثمَّ اسمُ السَّلامِ عَلَيْكُمَا ... ومَنْ يَبْكِ حَوْلاً كامِلاً فَقَدِ اعْتَذَر

وعليه ف: ﴿رَبِّكَ﴾ مفعول به، مجرور لفظاً، منصوب محلاً، والكاف في محل جر بالإضافة من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه.

﴿الْأَعْلَى﴾: صفة لـ: ﴿رَبِّكَ﴾، أو صفة ﴿اسْمَ﴾، فعلى الأول هو مجرور، وعلى الثاني هو منصوب، والكسرة، أو الفتحة مقدرة على الألف للتعذر. ﴿الَّذِي﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب صفة ثانية لـ: ﴿اسْمَ﴾، أو في محل جر صفة ثانية لـ: ﴿رَبِّكَ﴾ إلا أن اعتبار ﴿الْأَعْلَى﴾ صفة لـ: ﴿اسْمَ﴾ يمنع جعل ﴿الَّذِي﴾ صفة لـ: ﴿رَبِّكَ﴾، بل يتعين حينئذٍ جعله نعتاً لـ: ﴿اسْمَ﴾، أو نعتاً مقطوعاً لئلا يلزم الفصل بين الموصوف، وصفته بصفة غيره؛ إذ يصير التركيب مثل قولك: جاءني غلام هند العاقل الحسنة، وهو ممتنع. انتهى. سمين.

هذا؛ ويجوز في العربية اعتبار الموصول خبراً لمبتدأ محذوف، التقدير: هو الذي، أو في محل نصب بفعل محذوف، التقدير: أعني الذي. وهذان الوجهان لا يناسبان المقام مع جلال الله، وعظمته. ﴿خَلَقَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلَّذِى﴾ وهو العائد، والمفعول محذوف للتعميم، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. (سوى): فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلَّذِى﴾، والمفعول محذوف، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها. ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ هذا الكلام معطوف على ما قبله، وهو مثله في إعرابه بلا فارق. (جعله): فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلَّذِى﴾ أيضاً، والهاء مفعول به أول. ﴿غُثَآءً﴾: مفعول به ثانٍ. ﴿أَحْوَىٰ﴾: قيل: صفة ﴿غُثَآءً﴾، وصحح ابن هشام اعتباره حالاً من ﴿ٱلْمَرْعَىٰ﴾، وأخر لتناسب الفواصل، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها.

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾

الشرح: ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ أي: سنقرأ عليك القرآن يا محمد بواسطة جبريل. ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾: هذا إخبار من الله، ووعد منه تعالى لنبيه ﷺ بأنه سيقرئه قراءة لا ينساها. وهذه بشارة من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لحبيبه ﷺ بإعطائه آية بينة، وهي أن يقرأ عليه جبريل ما يقرأ عليه من الوحي؛ وهو أمي لا يقرأ، ولا يكتب، فيحفظه، ولا ينساه. وهذه الآية تدل على المعجزة من وجهين: الأول: أنه كان رجلاً أمياً، فحفظه لهذا الكتاب المطول من غير دراسة، ولا تكرار خارق للعادة، فيكون معجزة. الثاني: أن هذه السورة من أول ما نزل بمكة، فهذا إخبار عن أمر عجيب، مخالف للعادة سيقع في المستقبل، وقد وقع، فيكون هذا إخباراً، فيكون معجزاً. انتهى. جمل نقلاً من الخطيب. وفي الخازن: وذلك أن النبي ﷺ كان إذا نزل عليه جبريل بالوحي لم يفرغ جبريل من آخر الآية حتى يتكلم بأولها رسول الله ﷺ مخافة أن ينساها، فأنزل الله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾: فلم ينس شيئاً بعد ذلك. وانظر ما ذكرته في سورة (القيامة) الآية رقم [١٦] وما بعدها؛ تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾: يعني أن تنساه، وهو ما نسخ الله تعالى تلاوته من القرآن، ورفعه بالصدور. وقيل: معناه إلا ما شاء الله أن تنساه، ثم تذكره بعد ذلك، كما صح من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: سمع رسول الله ﷺ رجلاً يقرأ في سورة بالليل، فقال: «**رحمه الله! لقد أذكرني كذا، وكذا آية، كنت أنسيتها من سورة كذا، وكذا**». وفي رواية: «**كنت أسقطتهن من سورة كذا**». أخرجاه في الصحيحين.

﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾: من القول، والفعل. والمعنى: يعلم السر، والعلانية، قال الله تعالى في سورة (الأنعام): ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾. وقال في سورة (النحل): ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا

تَعۡلَمُونَ﴾. ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ أي: نهون عليك أن تعمل خيراً، ونسهله عليك حتى تعمله. وقيل: نوفقك للشريعة اليسرى، وهي الحنيفية السمحة. وروي من قول النبي ﷺ: «**بُعِثْتُ بالحنيفيةِ السمحةِ**». وعن العرباض بن سارية ـ رضي الله عنه ـ: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**لَقَدْ تركتكُمْ عَلَى مِثْلِ الْبَيْضَاءِ، ليلُها كنهارِهَا لا يَزِيغُ عنْهَا إِلَّا هَالِكٌ**». رواه ابن أبي عاصم في كتاب السنَّة.

الإعراب: ﴿سَنُقۡرِئُكَ﴾: السين: حرف تنفيس، واستقبال، ووعد وهي في حق الله تعالى تفيد التحقيق، والتوكيد. (نقرئك): فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: «نحن»، والكاف مفعول به، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿فَلَا﴾: الفاء: حرف تعليل. (لا): نافية. ﴿تَنسَىٰٓ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر، والفاعل مستتر تقديره: «أنت»، والمفعول محذوف التقدير: فلا تنسى منه شيئاً. هذا؛ وأجيز اعتبار (لا) ناهية، والفعل مجزوماً بها، والألف للإشباع، ومنع مكي أن يكون نهياً؛ لأنه لا ينهى عما ليس باختياره. وهذا غير لازم؛ إذ المعنى أن النهي عن تعاطي أسباب النسيان، وهو شائع. فسقط ما قاله. انتهى. جمل نقلاً من السمين. وعلى اعتبار النهي فالفاء هي الفصيحة إذاً؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿مَا﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب على الاستثناء. وقيل: (ما) هي المفعول به لـ: ﴿تَنسَىٰٓ﴾ وهو ضعيف. ﴿شَآءَ﴾: فعل ماض. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله، والمفعول محذوف، انظر تقديره في الشرح. والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿إِنَّهُۥ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿يَعۡلَمُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى (الله). ﴿ٱلۡجَهۡرَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية تعليل لمشيئة الله تعالى، لا محل لها. (ما): اسم موصول مبني على السكون في محل نصب معطوف على الجهر. ﴿يَخۡفَىٰ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى (ما) وهو العائد، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل لها. ﴿وَنُيَسِّرُكَ﴾: الواو: حرف عطف. (نيسرك): فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: «نحن»، والكاف مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها. وقال الجمل: معطوفة على: (نقرئك) كما ينبئ عنه الالتفات إلى الحكاية، فهو داخل في حيز التنفيس، وما بينهما اعتراض وارد للتعليل. انتهى. ﴿لِلۡيُسۡرَىٰ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، وعلامة الجر كسرة مقدرة على الألف للتعذر.

﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ۝١٠﴾

الشرح: ﴿فَذَكِّرۡ﴾: أمرٌ للرسول ﷺ. والمعنى: فعظ قومك يا محمد بالقرآن. ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ أي: الموعظة. روى يونس عن الحسن البصري؛ قال: تذكرة للمؤمن، وحجة على

الكافر. وكان ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يقول: تنفع أوليائي، ولا تنفع أعدائي. وقال الجرجاني: التذكير واجب وإن لم ينفع. والمعنى: فذكر إن نفعت الذكرى، أو لم تنفع، فحذف، كما قال تعالى في سورة (النحل) رقم [٨١]: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾. وقال ابن كثير: أي: ذكر حيث تنفع التذكرة. ومن هاهنا يؤخذ الأدب في نشر العلم، فلا يضعه عند غير أهله، كما قال علي ـ رضي الله عنه ـ: (ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم). وقال: حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟! والظاهر: أن أمره بالتذكير مشروط بنفع الذكرى، وهذا الشرط إنما جيء به توبيخاً لقريش؛ أي: فذكر إن نفعت الذكرى في هؤلاء الطغاة العتاة، ومعناه استبعاد انتفاعهم بالذكرى، كما قال أبو تمام ـ رحمه الله تعالى ـ: [الوافر]

لَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَياً ... ولٰكِنْ لَا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي

هذا؛ وقال الفخر الرازي ـ رحمه الله تعالى ـ: واعلم: أنه ﷺ كان مبعوثاً إلى الكل، فيجب عليه أن يذكرهم، سواء نفعتهم الذكرى، أم لم تنفعهم؟ والجواب: أنه تعالى ذكر أشرف الحالتين، ونبه على الحالة الأخرى. كقوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ والتقدير: فذكر إن نفعت الذكرى، أو لم تنفع، وأجيب عنه أيضاً بأن التذكير العام واجب في أول الأمر، وأما التكرير، فلعله يجب عند رجاء حصول المقصود، فلهذا المعنى قيده بهذا الشرط، والتذكير المأمور به: هل هو محصور في عشر مرات، أو غير محصور، والجواب أن الضابط فيه العرف.

﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾: سينتفع بهذه الذكرى، والموعظة من يخاف الله. قال الفخر الرازي ـ رحمه الله تعالى ـ: اعلم: أن الناس في أمر المعاد على ثلاثة أقسام: منهم من قطع بصحة المعاد، ومنهم من جوز وجوده، ولكنه غير قاطع فيه بالنفي، والإثبات، ومنه من أصر على إنكاره (أي: المعاد) وقطع بأنه لا يكون، فالقسمان الأولان، تكون الخشية حاصلة لهما، وأما القسم الثالث فلا خشية، ولا خوف، فلما قال الله جلَّ ذكره: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ بين: أن الذي تنفعه الذكرى مَنْ يخشى، ولما كان الانتفاع بالذكرى مبنياً على حصول الخشية في القلب، وصفات القلوب لا يطلع عليها إلا الله، وجب على الرسول ﷺ تعميم الدعوة تحصيلاً للمقصود، فإن المقصود تذكير من ينتفع بالتذكير، ولا سبيل إليه إلا بتعميم التذكير، والسين في: ﴿سَيَذَّكَّرُ﴾ بمعنى سوف، وسوف من الله واجب كقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ انتهى. جمل. نقلاً من الفخر.

هذا؛ والخشية: خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، وهو المراد منه بخشية عباد الله المؤمنين المتكررة في القرآن الكريم. هذا؛ والماضي: خَشِيَ، والمصدر: خَشْيَة، والرجل: خشيانُ، والمرأة: خَشْيَا، وهذا المكان أَخشى من ذلك؛ أي: أشد خوفاً. هذا؛ وقد يأتي الفعل «خشي» بمعنى: علم القلبية. قال الشاعر المسلم: [الكامل]

وَلَـقَـدْ خَـشِـيْـتُ بـأَنَّ مَـن تَـبِـعَ الْـهُـدَى   سَـكَـنَ الـجِـنَـانَ مَـع الـنَّـبِـيِّ مُـحَـمَّـدِ

قالوا: معناه: علمت. وقوله تعالى في سورة (الكهف) رقم [٨١]: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾ قال الأخفش: معناه: كرهنا. والله أعلم بمراده.

الإعراب: ﴿فَذَكِّرۡ﴾: الفاء: هي الفصيحة. (ذكر): فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت»، والمفعول محذوف للتعميم. والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جواب لشرط غير جازم مقدر بـ: «إذا»، التقدير: وإذا كان ما ذكر حاصلاً، وواقعاً؛ فذكر. ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿نَّفَعَتِ﴾: فعل ماض في محل جزم فعل الشرط، والتاء للتأنيث. ﴿ٱلذِّكۡرَىٰ﴾: فاعل مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه، والجملة الشرطية مرتبطة بما قبلها غير منفكة عنها. ﴿سَيَذَّكَّرُ﴾: السين: حرف استقبال. (يذكر): فعل مضارع. ﴿مَن﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع فاعل، والجملة الفعلية مستأنفة، وجملة ﴿يَخۡشَىٰ﴾ صلة الموصول، لا محل لها.

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى (١١) ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ (١٣)﴾

الشرح: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى﴾ أي: يرفض الموعظة، ويبتعد عن قبولها الكافر المبالغ في الشقاوة. وهذا المقدر له ذلك في علم الله الأزلي. ﴿ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾: هي نار الآخرة، والنار الصغرى هي نار الدنيا. فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**نَارُكُمْ هَذِهِ مما يُوقِدُ بنو آدمَ جُزْءٌ واحدٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنْ نَارِ جهنَّمَ**». قَالُوا: وَاللهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً! قَالَ: «**إِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِينَ جُزْءاً، كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا**». رواه البخاري، ومسلم، وغيرهما.

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ أي: لا يموت، فيستريح من العذاب، ولا يحيا حياة تنفعه، كقوله تعالى في سورة (فاطر) رقم [٣٦]: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ﴾، وقوله تعالى في سورة (إبراهيم) رقم [١٧]: ﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ﴾، وقال الشاعر: [الطويل]

أَلَا مَـن لِـنَـفْـسٍ لا تَـمـوتُ فـيـنـقـضِـي   عَـنَـاهَـا وَلَا تَـحْـيَـا حَـيَـاةً لَـهـا طَـعْـمُ

وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أمَّا أهلُ النارِ الذين همْ أهلُها فإنهم لا يَموتونَ، ولا يَحْيَوْن، ولكنْ أُنَاسٌ تُصِيبُهم النارُ بذنوبهم (أو قال: بخطاياهم) فيميتهم إماتةً؛ حتى إذا مَا صاروا فحماً؛ أُذِنَ في الشفاعة، فجيء بهم ضَبائِرَ ضَبَائرَ، فبُثُّوا على أنهارِ الجنةِ، فيقالُ: يا أهلَ الجنةِ! أَفِيضوا عليهمْ. فينبتونَ نباتَ الحبةِ في حميلِ السَّيْلِ**». رواه الإمام مسلم، وأحمد. ولا تنس الطباق بين ﴿يَمُوتُ﴾ و﴿يَحۡيَىٰ﴾ والمقابلة بين الآيتين [١٠]و[١١].

الإعراب: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾: الواو: حرف عطف. (يتجنبها): فعل مضارع، و(ها): مفعول به. ﴿الْأَشْقَى﴾: فاعله مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها. ﴿الَّذِي﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع صفة ﴿الْأَشْقَى﴾، أو هو في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هو الذي، أو هو في محل نصب مفعول به لفعل محذوف، التقدير: أعني، أو أذم. ﴿يَصْلَى﴾: فعل مضارع مرفوع. . .إلخ، والفاعل يعود إلى ﴿الَّذِي﴾ وهو العائد. ﴿النَّارَ﴾: مفعول به. ﴿الْكُبْرَى﴾: صفة ﴿النَّارَ﴾ منصوب مثله، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذر، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَمُوتُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿الَّذِي﴾ والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، والتي بعدها معطوفة عليها. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥)﴾

الشرح: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾: فاز، ونجا. ﴿مَن تَزَكَّى﴾: من طهر نفسه بالإيمان، وأخلص عمله للرحمن، روى جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ. قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾ أي: «**من شهد أن لا إله إلا الله، وخلع الأنداد، وشهد أني رسول الله**».

وروى عطاء عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: نزلت في عثمان ـ رضي الله عنه ـ قال: كان بالمدينة منافق، وكانت له نخلة بالمدينة مائلة إلى دار رجل من الأنصار، فكانت إذا هبت الرياح أسقطت البسر، والرطب إلى دار الأنصاري، فيأكل هو، وعياله منه. فخاصمه المنافق، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأرسل إلى المنافق، وهو لا يعلم نفاقه، فقال: «**إن أخاك الأنصاري ذكر: أن بسرك، ورطبك يقع إلى منزله، فيأكل، هو وعياله، فهل لك أن أعطيك نخلة في الجنة بدلها؟!**». فقال: أبيع عاجلاً بآجل؟ لا أفعل! فذكروا: أن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ أعطاه حائطاً من نخل بدل نخلته، ففيه نزلت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾ ونزلت في المنافق: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾. وذكر الضحَّاك أنها نزلت في أبي بكر.

هذا؛ وقيل: قد أفلح من كان عمله زاكياً. قيل: هو صدقة الفطر. روي عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾ قال: أعطى صدقة الفطر. ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ قال: خرج إلى العيد، فصلى. وكان ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ يقول: رحم الله امرءاً تصدق، ثم صلى، ثم يقرأ الآية. وقال نافع ـ رضي الله عنه ـ، كان ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ إذا صلى الغداة يوم العيد. قال: يا نافع! أخرجت الصدقة؟ فإن قلت: نعم؛ مضى إلى المصلى، وإن قلت: لا؛ قال: فالآن فأخرجها، فإنما هذه الآية في هذا: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥)﴾.

فإن قلت: فما وجه هذا التأويل، وهذه السورة مكية، ولم يكن بمكة عيد، ولا زكاة فطر؟ قلت: يجوز أن يكون النزول سابقاً على الحكم، كما قال تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾، وهذه السورة مكية، وظهر أثر الحل يوم فتح مكة، وكذا نزل بمكة: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ من سورة (القمر) وكان ذلك يوم بدر. قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: كنتُ لا أدري أي جمع سيهزم؟ فلما كانت غزوة بدر رأيت النبي ﷺ يثب في الدرع، ويقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾. ووجه آخر، وهو: أنه كان في علم الله تعالى: أنه سيكون ذلك، فأخبر عنه. وقيل: ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ يعني: الصلوات الخمس. وقيل: أراد بالذكر: تكبيرات العيد، وبالصلاة: صلاة العيد. انتهى. خازن.

الإعراب: ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿أَفْلَحَ﴾: فعل ماض. ﴿مَن﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع فاعل، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿تَزَكَّىٰ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى (من)، وهو العائد، والجملة الفعلية صلة ﴿مَن﴾ لا محل لها. ﴿وَذَكَرَ﴾: الواو: حرف عطف. (ذكر): فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿مَن﴾. ﴿ٱسْمَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿رَبِّهِۦ﴾ مضاف إليه، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الفعلية معطوفة على جملة الصلة، لا محل لها مثلها، والتي بعدها معطوفة عليها لا محل لها أيضاً.

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾

الشرح: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾: المعنى: الدنيا فانية، والآخرة باقية، والباقي خير من الفاني، وأنتم تؤثرون الفاني على الباقي. قال عرفجة الأشج: كنا عند عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ فقرأ هذه الآية، فقال: أتدرون لِمَ آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة؟ قلنا: لا! قال: لأن الدنيا حضرت، وعجل لنا طعامُها، وشرابُها، ونساؤُها، ولذتها، وبهجتها، وإن الآخرة غُيبت، وزويت عنا، فأخذنا العاجل، وتركنا الآجل. وهذا يعني: أن الخطاب يعم الناس أجمعين، والمؤمنون لهم الحظ الأكبر من هذا الخطاب؛ لينزجروا، ويتعظوا، ويكون في الكلام التفات من الغيبة في الآيات السابقة إلى الخطاب في هذه الآية. وانظر الالتفات في الآية رقم [٢٠] من سورة: (الملك) هذا؛ ويقرأ: (يؤثرون) بالياء؛ فعليه؛ فالكلام راجع للأشقياء، ولا التفات. وانظر شرح ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ في الآية رقم [٣٨] من سورة (النازعات).

﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي: والحال أن الآخرة خير من الدنيا، وأبقى، والباقي خير من الفاني، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى؟! وكيف يهتم عاقل بدار الغرور، ويترك الاهتمام بدار البقاء، والخلود؟! وقد قال النبي ﷺ: «**مَا الدنيا في الآخرة إلَّا كَمَا يَضَعُ أَحَدُكُمْ إصبعَهُ في اليمِّ، فلينظرْ بِمَ يَرْجِعُ؟!**». أخرجه مسلم عن المستورد أخي بني فهر ـ رضي الله عنه ـ، وأشار يحيى بن

يحيى بالسبابة. وعن سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو كانت الدُّنيا تعدِلُ عندَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ما سَقَى كافِراً مِنْهَا شربَةَ ماءٍ**». رواه ابن ماجه، والترمذي.

وقال مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ: لو كانت الدنيا من ذهب يفنى، والآخرة من خزف يبقى، لكان الواجب أن يؤثر خزف يبقى على ذهب يفنى، فكيف؛ والآخرة من ذهب يبقى، والدنيا من خزف يفنى؟! هذا؛ والأحاديث في ذم الدنيا كثيرة مشهورة في كتاب: «الترغيب والترهيب». للحافظ المنذري، وغيره.

الإعراب: ﴿بَلْ﴾: حرف عطف، وإضراب. ﴿تُؤْثِرُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع... إلخ، والواو فاعله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها أيضاً. ﴿ٱلْحَيَوٰةَ﴾: مفعول به. ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة ﴿ٱلْحَيَوٰةَ﴾ منصوب مثله، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذر. ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ﴾: (الواو): واو الحال. (الآخرة): مبتدأ. ﴿خَيْرٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من الحياة الدنيا، والرابط: الواو، وضمير مقدر بـ: خير منها. ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾: الواو: حرف عطف. (أبقى): معطوف على ما قبله مرفوع مثله، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: الذي ذكر من قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ...﴾ إلخ. وهو أربع آيات. ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾: يعني الكتب المنزلة عليهما، ولم يرد: أن هذه الألفاظ بعينها في تلك الصحف، وإنما هو على المعنى؛ أي: إن معنى هذا الكلام وارد في تلك الصحف، واستدل الحنفية بذلك على جواز قراءة القرآن بالفارسية في الصلاة؛ لأنه جعله مذكوراً في تلك الصحف مع أنه لم يكن فيها بهذا النظم، وبهذه اللغة.

هذا؛ وروي عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ أنه سأل النبي ﷺ كم أنزل الله من كتاب؟: فقال: «**مئة وأربعة كتب، منها على آدم عشر صحف، وعلى شيث خمسون صحيفةً، وعلى أخنوخ (وهو: إدريس) ثلاثون صحيفةً، وعلى إبراهيم عشر صحائف، والتوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان**». والمحفوظ زيادة على ذلك: عشر صحائف أنزلت على موسى، فيكون المجموع مئة وأربع عشرة بعدد سور القرآن الكريم.

فعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: دخلت المسجد، فقال رسول الله ﷺ: «**إن للمسجد تحية**». فقلت: وما تحيته يا رسول الله؟! قال: «**ركعتانِ تَركعهما**». قلت: يا رسول الله! هل أنزل الله عليك شيئاً مما كان في صحف إبراهيم، وموسى؟ قال: «**يا أبا ذر! اقرأ**: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ...﴾ إلى ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾». قلت: يا رسول الله! فما كانت صحف موسى؟ قال:

«كانت عبراً كلها، عَجِبْتُ لِمَنْ أيْقنَ بالموتِ كيْفَ يفرحُ؟ وعجبْتُ لمن أيقن بالنَّار كيف يضحكُ؟! وعجبت لمن رأى الدنيا، وتقلبها بأهلها كيف يطمئنُّ إليها؟! وعجبت لمن أيقن بالقدر، ثم يغضَبُ؟! وعَجِبْتُ لِمَنْ أيقنَ بالحساب، ثم لا يعمل؟!». قال: قلت: يا رسول الله! فما كانَتْ صحفُ إبراهيمَ؟ قَالَ: «**كَانَتْ أَمثالاً كلُّهَا: أيها الملكُ المتَسلِّطُ، المبتلَى المغرور، إني لم أبعثك؛ لتجمعَ الدنيا بعضها على بعض، ولكن بعثتك لترد عني دعوة المظلوم، فإني لا أردها، ولو كانت من فم كافر. وكان فيها أمثال: وعلى العاقل أن يكون له ثلاث ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، يفكر فيها في صنع الله، عزَّ وجلَّ، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم، والمشرب. وعلى العاقل ألَّا يكون ظاعناً إلا في ثلاث: تزود لمعاد، ومَرَمَّةٍ لمعاش، ولذة في غير محرم. وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه، ومن عدّ كلامه من عمله؛ قلَّ كلامه إلا فيما يعنيه**». أخرج هذا الحديث رزين في كتابه. وذكره ابن الأثير في كتابه جامع الأصول، ولم يعلِّم عليه شيئاً.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿هَٰذَا﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل نصب اسم ﴿إِنَّ﴾، والهاء حرف تنبيه، لا محل له. ﴿لَفِى﴾: (اللام): هي المزحلقة. (في الصحف): متعلقان بمحذوف خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾: صفة لـ: ﴿ٱلصُّحُفِ﴾. ﴿صُحُفِ﴾: بدل مما قبله، وهو مضاف، و﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾: مضاف إليه. ﴿وَمُوسَىٰ﴾: الواو: حرف عطف. (موسى): معطوف على ما قبله، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ هَٰذَا...﴾ إلخ مستأنفة، لا محل لها. تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وسلم.

انتهت سورة (الأعلى) شرحاً، وإعراباً.

والحمد لله رب العالمين.

سورة الغاشية

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة (الغاشية) مكية في قول الجميع، وهي ست وعشرون آيةً، واثنتان وتسعون كلمةً، وثلاثمئة، وأحد وثمانون حرفاً. وانظر حديث النعمان بن بشير ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ في أول سورة (الأعلى).

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾﴾

الشرح: ﴿هَلْ﴾ بمعنى: قد، كقوله تعالى في سورة (الدهر) رقم [١]: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ...﴾ إلخ قاله قطرب، انظر سورة (الدهر) فالبحث فيها قيم. ﴿حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ المعنى: هل سمعت، أو قرأت حديث الغاشية؟ وهي الداهية العظيمة؛ التي تغشى الناس، وتعمهم بشدائدها، وأهوالها، وهي القيامة. قال المفسرون: سميت غاشية؛ لأنها تغشى الخلائق بأهوالها، وشدائدها، وتعمهم بما فيها من المكاره، والكوارث العظيمة. ودليله قوله تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ الآية رقم [٥٠] من سورة (إبراهيم) على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام. وقال تعالى في سورة (العنكبوت) رقم [٥٥]: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾. وقيل: معنى ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ أي: هذا لم يكن من علمك، ولا من علم قومك. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لم يكن أتاه قبل ذلك على هذا التفصيل المذكور هاهنا.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾: ذليلة، وكل متذلل ساكن خاشع، يقال: خشع في صلاته: إذا تذلل، ونكّس رأسه. وخشع الصوت: خَفِيَ. قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾. والمراد بالوجوه: أصحابها، فهو من إطلاق الجزء وإرادة الكل، وهذا من باب المجاز المرسل، ولأن الوجه أشرف أعضاء الإنسان فعبر به عنه. وانظر (الخشوع) في الآية رقم [٢١] من سورة (الحشر).

﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ أي: دائبة العمل فيما يتعبها، ويشقيها في النار. قال المفسرون: هذه الآية في الكفار، يتعبون، ويشقون بسبب جر السلاسل، والأغلال، وخوضهم في النار خوض الإبل في الوحل، والصعود، والهبوط في تلالها، ودركاتها، كما قال تعالى في سورة (غافر): ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ وهذا جزاء تكبرهم في

الدنيا عن عبادة الله، وانهماكهم في اللذات، والشهوات. وقال القرطبي: فهذا في الدنيا؛ لأن الآخرة ليست دار عمل، فالمعنى: وجوه عاملة ناصبة في الدنيا، خاشعة في الآخرة. قال أهل اللغة: يقال للرجل إذا دأب في سيره: قد عمل، يعمل عملاً. ويقال للسَّحاب إذا دام برقةٍ: قد عمل يعمل عملاً، وذا سحاب عَمِل. قال ساعدة بن جؤية الهذلي ـ وهذا هو الشاهد رقم [٨٠٢] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [البسيط]

حَتَّى شَآهَا كَلِيلٌ مَوْهِناً عَمِلٌ ... بَاتَتْ طِرَاباً وَبَاتَ اللَّيْلَ لَمْ يَنَمِ

﴿نَّاصِبَةٌ﴾: تعبة، يقال: نَصِب بكسر الصاد، ينصَب نَصَباً: إذا تعب، وفي سورة (الكهف) قوله تعالى حكاية عن قول موسى ـ على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ رقم [٦٣]، وانظر سورة (الشرح). وانظر ما ذكرته في أول سورة (التكوير).

روي أن عمر ـ رضي الله عنه ـ لما قدم الشام أتاه راهب شيخ كبير عليه سواد. فلما رآه عمر جعل يبكي، فقيل له: ما يبكيك يا أمير المؤمنين! إنه نصراني؟ فقال: ذكرت قول الله عزّ وجلّ: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ فبكيت رحمة عليه. وروي: أنه قال: هذا المسكين طلب أمراً فلم يصبه، ورجا رجاء، فأخطأه. وقال الجمل: والآية نزلت في القسيسين، وعباد الأوثان، وفي كل مجتهد في كفر. انتهى. نقلاً من البحر المحيط، وهذا لم يقل به غيره، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿هَلْ﴾: حرف استفهام، وتشويق. وانظر الشرح. ﴿أَتَاكَ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر. ﴿حَدِيثُ﴾: فاعله، وهو مضاف، و﴿الْغَاشِيَةِ﴾ مضاف إليه، والجملة الفعلية مبتدأة لا محل لها. ﴿وُجُوهٌ﴾: مبتدأ، جوز الابتداء به؛ لأنه في موضع التنويع. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: (يوم): ظرف زمان متعلق بـ: ﴿خَاشِعَةٌ﴾، و(إذ) ظرف مبني على السكون في محل جر بالإضافة، والتنوين عوض من جملة محذوفة، التقدير: يوم إذ تغشاهم. ﴿خَاشِعَةٌ﴾: خبر أول. ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾: خبران آخران. هذا؛ وجوز اعتبارهما خبرين لمبتدأين محذوفين، التقدير: هي عاملة، هي ناصبة. وترجع الجملتان في محل رفع خبرين للمبتدأ، أو هما مستأنفتان، لا محل لهما. هذا؛ وأجيز اعتبار الأسماء الثلاثة صفات لوجوه، واعتبار الجملة الفعلية: ﴿تَصْلَىٰ...﴾ إلخ هي الخبر، والجملة الاسمية: ﴿وُجُوهٌ...﴾ إلخ مستأنفة، وهي بمنزلة جواب لسؤال نشأ من الاستفهام التشويقي.

﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۝٥﴾

الشرح: ﴿تَصْلَىٰ...﴾ إلخ: أي: يصيبها صلاؤها، وحرُّها. ﴿حَامِيَةً﴾: شديدة الحر؛ أي: قد أوقدت، وأحميت المدة الطويلة، كما قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾. ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ أي: متناهية في الحرارة، قد أوقدت عليها جهنم مذ خلقت، لو وقعت منها قطرة على جبال الدنيا؛

لذابت، فيدفعون إليها وروداً عطاشاً، فهذا شرابهم. قال تعالى في سورة (الرحمن): ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ رقم [٤٤] انظر شرحها هناك تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

هذا؛ فإن قيل: ما معنى وصفها بالحمي، وهي لا تكون إلا حامية، وهو أقل أحوالها. فما وجه المبالغة بهذه الصفة الناقصة؟ قيل: قد اختلف في المراد بـ الـ: ﴿حَامِيَةً﴾ على أقوال: أحدها: أنَّ المراد بذلك: أنها دائمة الحمي، وليست كنار الدنيا التي ينقطع حميها بانطفائها. الثاني: أنها تَحْمِي نفسها عن أن تطاق ملامستها، أو ترام مُمَاسَّتها، كما يحمي الأسد عرينه. ومثله قول النابغة الذبياني: [البسيط]

تَـعْـدُو الـذِّئَـابُ عَـلَـى مَـنْ لا كِـلَابَ لَـهُ ... وتَـتَّـقِـي صَـوْلَـةَ الْـمُـسْـتَـأسِـدِ الْـحَـامـي

الثالث: أنها حامية حَمْي غيظ، وغضب، مبالغة في شدة الانتقام. كما يقال: قد حَمِي فلان: إذا اغتاظ، وغضب عند إرادة الانتقام. وقد بين الله تعالى بقوله هذا المعنى، فقال: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ سورة (الملك) رقم [٨] وانظر الأحاديث الشريفة في سورة (القارعة).

الإعراب: ﴿تَصْلَىٰ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر، والفاعل مستتر تقديره: «هي» يعود إلى ﴿وُجُوهٌ﴾، والجملة الفعلية في محل رفع خبر آخر لـ: ﴿وُجُوهٌ﴾ وإن اعتبرتها مستأنفة؛ فلا محل لها، ﴿نَارًا﴾: مفعول به. ﴿حَامِيَةً﴾: صفة له. ﴿تُسْقَىٰ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره: «هي» يعود إلى ﴿وُجُوهٌ﴾ أيضاً، والجملة الفعلية في محل نصب صفة ثانية لـ: ﴿نَارًا﴾، أو هي في محل نصب حال منه بعد وصفه بما تقدم. ﴿مِنْ عَيْنٍ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿ءَانِيَةٍ﴾: صفة ﴿عَيْنٍ﴾.

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾

الشرح: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ﴾ أي: لأهل النار. ﴿طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾: لمَّا ذكر شراب أهل النار ذكر طعامهم. قال عكرمة، ومجاهد: الضريع: نبت ذو شوك لاصق بالأرض، تسميه قريش الشِّبْرق، إذا كان رطباً، فإذا يبس؛ فهو الضريع، لا تقربه دابة، ولا بهيمة، ولا ترعاه، وهو سم قاتل، وهو أخبث الطعام، وأشنعه. قال أبو ذؤيب الهذلي: [الطويل]

رَعَـى الـشِّـبْـرِقَ الـرَّيَّـانَ حَـتَّـى إذا ذَوَىٰ ... وعـادَ ضَـرِيـعـاً بـانَ مِـنْـهُ الـنـحـائِـصُ

(والنحائص): جمع النحوص بفتح النون، وهي الأتان الوحشية الحائل؛ التي لا ولد لها.

وقال قيس بن عيزارة الهذلي: [الكامل]

وحُـبِـسْـنَ فـي هَـزْمِ الـضـريـعِ فـكُـلُّـهَـا ... حَـدْبَـاءُ دامـيـةُ الْـيَـدَيْـنِ حَـرُودُ

يصف الشاعر نوقاً حبسن في مرعَى سوء غير ناجع، هزلهن، فكلهن داميات الأيدي من وضعها على الضريع ذي الشوك، قليلة اللبن. هذا؛ وقد قال تعالى في سورة (الحاقة): ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ وقال هنا: ﴿إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ وهو غير الغسلين، ووجه الجمع بين الآيتين: أن النار دركات، فمنهم مَنْ طعامه الزقوم، ومنهم مَنْ طعامه الغسلين، ومنهم من طعامه الضريع، ومنهم مَنْ شرابه الحميم، ومنهم مَنْ شرابه الصديد. ودركات النار على قدر الذنوب، وتقع العقوبات على قدرها.

فعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: يُلْقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب، فيستغيثون منه، فيغاثون بالضريع؛ الذي لا يسمن، ولا يغني من جوع، فيأكلونه لا يغني عنهم شيئاً، فيستغيثون، فيغاثون بطعام ذي غصة، فيَغَصُّون به، فيذكرون: أنهم كانوا في الدنيا يجيزون الغصص بالماء، فيستغيثون بالشراب، فيرفع لهم بالكلاليب، فإذا دنا من وجوههم شواها، فإذا وقع في بطونهم قطع أمعاءهم، وما في بطونهم، فيستغيثون بالملائكة، فيقولون: في سورة (غافر): ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ...﴾ إلخ. أخرجه الترمذي، وغيره.

أقول: كله مأخوذ من الآيات القرآنية. قال تعالى هنا: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ...﴾ إلخ، وقال تعالى في سورة (المزمل): ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾، وقال في سورة (محمد ﷺ): ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾، وقال تعالى في سورة (الكهف) رقم [٢٩]: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾.

وجاء في الحديث عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يرفعه: «**الضريعُ شجرٌ في النارِ، يشْبِهُ الشوكَ، أَمَرُّ من الصَّبْرِ، وأنتنُ من الجيفةِ، وأشدُّ حرارة من النارِ**». وقال بعض المفسرين: فلما نزلت هذه الآية قال بعض المشركين: إن إبلنا لتسمن على الضريع، وكذبوا في ذلك، فإن الإبل إنما ترعاه ما دام رطباً، ويسمى شِبْرقاً، فإذا يبس لا يأكله شيء، وعلى تقدير أن يصدقوا؛ فيكون المعنى: إن طعامكم في جهنم من ضريع ليس من جنس ضريعكم في الدنيا إنما هو ضريع غير مسمن، ولا مغنٍ من جوع.

﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾ يعني: أن هذا الطعام لا تقدر البهائم على أكله، فكيف يقدر الإنسان على أكله، فهو لا يسمن، ولا يغني من جوع، فمنفعتا الغذاء منتفيتان عنه، وهما: دفع الجوع، وإفادة السمن.

الإعراب: ﴿لَّيْسَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ﴿لَّيْسَ﴾ تقدم على اسمها. ﴿طَعَامٌ﴾: اسمها مؤخر، والجملة الفعلية يجوز فيها ما جاز بجملة: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿مِن ضَرِيعٍ﴾: متعلقان بمحذوف حال مستثنًى من عموم الأحوال. ﴿لَّا﴾: نافية. ﴿يُسْمِنُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿ضَرِيعٍ﴾، والمفعول

محذوف، والجملة الفعلية في محل جر صفة ﴿ضَرِيعٍ﴾. وقيل: صفة ﴿طَعَامٌ﴾، وهو ضعيف. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية، ويقال: صلة لتأكيد النفي. ﴿يُغْنِي﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل يعود إلى ﴿ضَرِيعٍ﴾ أيضاً. والمفعول محذوف، التقدير: لا يسمن آكله، ولا يغنيه. والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿مِن جُوعٍ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من الضمير المحذوف، وقيل: ﴿مِن﴾ صلة، و﴿جُوعٍ﴾ مفعول به. وهو ضعيف.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾﴾

الشرح: لما ذكر حال الأشقياء أهل النار؛ ذكر حال السعداء أهل الجنة. وهذا من باب المقابلة؛ التي ذكرتها لك كثيراً. وهي أن الله جلت قدرته جرت سنته في كتابه: أنه لم يذكر حال الأشقياء؛ إلا ويذكر حال السعداء، ولا التصديق من المؤمنين؛ إلا ويذكر التكذيب من الكافرين، ولا يذكر الجنة، ونعيمها؛ إلا ويذكر النار، وجحيمها، ولا يذكر الرحمة؛ إلا ويذكر الغضب، والسخط. ليكون المؤمن راغباً راهباً، خائفاً راجياً.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾: حسنة ذات بهجة، وحسن. وقيل: متنعمة، وهي وجوه المؤمنين، نَعِمت وترفهت بما جوزيت من عملها الصالح، وهي ذات إشراق، ونضارة، كقوله تعالى في سورة (المطففين): ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾. ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ أي: لعملها الذي عملته في الدنيا. أو المعنى: بسبب سعيها. وهو الأولى. ﴿رَاضِيَةٌ﴾: في الآخرة حيث أعطيت الجنة بعملها، ورضيت؛ لأن عملها أورثها جنات النعيم، والسرور، والحبور، وراحة البال، وهناءة الضمير.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي: مرتفعة؛ لأنها فوق السموات السبع، كما رأيت في سورة (المطففين) وغيرها. وقيل: عالية القدر؛ لأن فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون، وهم في الغرفات آمنون. ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾ أي: كلاماً ساقطاً غير مرضي، من كذب وبهتان، وإثم وباطل، وشتم، وغير ذلك؛ لأن أهل الجنة، لا يتكلمون إلا بالحكمة، وحمد الله على ما رزقهم من النعيم المقيم، والخير العميم.

الإعراب: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾: إعراب هذه الجملة مثل إعراب الآية رقم [٢] بلا فارق بينهما. وقال القرطبي: وفيها واو مضمرة، المعنى: ووجوه يومئذٍ، ليفصل بينها وبين الوجوه المتقدمة. أقول: ويؤيد ذلك التصريح بالواو في سورة (القيامة) وسورة (عبس) والله ولي التوفيق. وقال به ابن هشام في المغني، وأورد قول الحطيئة ـ وهو الشاهد رقم [١٠٩] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [البسيط]

إنَّ امْـرَأً رَهْـطُـهُ بـالـشَّـامِ مَـنْـزِلُـهُ بِـرَمْـلِ يَـبْـرِيـنَ جـاراً شَـدَّ مَـا اغْـتَـرَبَـا

إذ التقدير: ومنزله برمل، وهذه الجملة معطوفة على ما قبلها بواو محذوفة. ﴿لِّسَعْيِهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما بعدهما. ﴿رَاضِيَةٌ﴾: خبر ثانٍ لـ: ﴿وُجُوهٌ﴾ الواقع مبتدأ. ﴿فِي جَنَّةٍ﴾: متعلقان بمحذوف خبر آخر لـ: ﴿وُجُوهٌ﴾، أو بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هي في جنة، وتكون الجملة في محل رفع خبر آخر لـ: ﴿وُجُوهٌ﴾. ﴿عَالِيَةٍ﴾: صفة ﴿جَنَّةٍ﴾. ﴿لَّا﴾: نافية. ﴿تَسْمَعُ﴾: فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: «أنت»، أو هي؛ أي: الوجوه، والجملة الفعلية في محل جر صفة ثانية لـ: ﴿جَنَّةٍ﴾، أو في محل نصب حال منها بعد وصفها بما بعدها، والرابط: الضمير فقط. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿لَاغِيَةً﴾: مفعول به.

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾

الشرح: ﴿فِيهَا﴾: في الجنة. ﴿عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ أي: بماء متدفق، وأنواع الأشربة اللذيذة على وجه الأرض من غير أخدود. وقيل: تجري حيث أرادوا من منازلهم، وقصورهم. وانظر شرح ﴿عَيْنًا﴾ في سورة (الدهر) رقم [٦]. ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ أي: عالية. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ألواحها من ذهب مكللة بالزبرجد، والياقوت، مرتفعة ما لم يجئ أهلها، فإذا أراد أهلها الجلوس عليها؛ تواضعت لهم؛ حتى يجلسوا عليها، ثم ترتفع إلى مواضعها.

﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ أي: أباريق وأوانٍ، والإبريق: هو ما له عروة، وخرطوم. والكوب: إناء ليس له عروة، ولا خرطوم. والملاحظ: أن لفظ (أكواب) جاء هنا وفي سورة (الزخرف) و(الواقعة) وسورة (الدهر) بلفظ الجمع، ولم يأتِ له مفرد قطعاً؛ لأنه لا يتهيأ فيها ما يجعلها في النطق من الظهور، والرقة، والانكشاف، وحسن التناسب كلفظ (أكواب) الذي هو الجمع. ومعنى ﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾ معدة مهيأة لهم. وقيل: موضوعة على حافات العين الجارية، كلما أرادوا الشرب منها؛ وجدوها مملوءةً. ويجوز أن يراد موضوعة عن حد الكبار، أوساط بين الصغر، والكبر، كقوله تعالى في سورة (الدهر): ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾.

﴿وَنَمَارِقُ﴾: جمع نمرقة بضم النون، والراء، وكسرهما، لغتان، أشهرهما الأولى، وهي: وسادة صغيرة ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾؛ أي: واحدة إلى جنب الأخرى. قال الشاعر: [الطويل]

وَإِنَّـا لَـنُـجْـرِي الْـكَـأْسَ بَـيْـنَ شُـرُوبِـنَـا وبَـيْـنَ أَبِـي قَـابُـوسَ فَـوْقَ الـنَّـمَـارِقِ

وقال آخر: [الطويل]

كُـهُـولٌ وشُـبَّـانٌ حِـسَـانٌ وُجُـوهُـهُـمْ عَـلَـى سُـرُرٍ مَـصْـفُـوفَـةٍ وَنَـمَـارِقِ

وانظر قول هند في أول سورة (الطارق). ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾: قال أبو عبيدة: الزرابيُّ: البسط. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الزرابي: الطنافس؛ التي لها خمل رقيق، واحدتها زَرْبِيَّة. وقاله الكلبي، والفراء. والـ: ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ المبسوطة. وقيل: متفرقة في المجالس. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف في محل رفع خبر مقدم. ﴿عَيْنٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿جَارِيَةٌ﴾: صفة ﴿عَيْنٌ﴾، والجملة الاسمية يجوز فيها ما جاز بالجملة الفعلية قبلها، وإن اعتبرتها مستأنفة؛ فلا محل لها، وكذلك جملة: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ يجوز فيها ذلك، وإعرابها مثلها. ﴿وَأَكْوَابٌ﴾: الواو: حرف عطف. (أكواب): معطوف على ﴿سُرُرٌ﴾، و﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾ صفة له، وكذا ما بعده معطوف على ﴿سُرُرٌ﴾ وصِفتان لهما.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾

الشرح: قال المفسرون: لما ذكر الله عزَّ وجلَّ مصير أهل الإيمان، والطاعة، ومصير أهل الكفر، والفجور؛ تعجب كفار قريش من ذلك، فكذبوا، وأنكروا، فذكرهم الله جليل صنعته، وعظيم قدرته، وأنه قادر على كل شيء، كما خلق الحيوانات، والسَّماء، والأرض. وخصَّ الإبل بالذكر، وقدَّمها؛ لأنها مِن أنفس أموال العرب، ولهم فيها منافع كثيرة. والمعنى: أنَّ الذي صنع لهم هذه الدنيا هو الذي صنع لأهل الجنة ولأهل النار ما صنع.

وتكلم علماء التفسير في وجه تخصيص الإبل بالذكر من بين سائر الحيوانات، فقال مقاتل: لأن العرب لم يروا بهيمة قط أعظم منها، ولم يشاهدوا الفيل إلا النادر منهم. وقال الكلبي: لأنها تنهض بحملها وقد كانت باركة. وقال قتادة: لما ذكر الله ارتفاع سرر الجنة، وفرشها. قالوا: كيف نصعد؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وسئل الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ عن هذه الآية. وقيل له: الفيل أعظم في الأعجوبة، فقال: أما الفيل فإنَّ العرب بعيدة العهد به، ثم هو لا خير فيه؛ لأنه لا يركب ظهره، ولا يؤكل لحمه، ولا يحلب درُّه، والإبل أعز مال العرب، وأنفسه، تأكل النوى، والقت، وغيره، وتخرج اللبن. ومن منافع الإبل: أنها مع عظمها تلين للحمل الثقيل، وتنقاد للقائد الضعيف، حتى إن الصبي الصغير يأخذ بزمامها، فيذهب بها حيث شاء. ومنها: أنها فضلت على سائر الحيوانات بأشياء.

وذلك: أن جميع الحيوانات تقتنى إما للزينة، أو للركوب، أو للحمل، أو لِلَّبن، أو لأجل اللحم، ولا توجد هذه الخصال إلا في الإبل، فإنها زينة، وتركب، فيقطع عليها المفازات

البعيدة، وتحمل الثقيل، وتحلب الكثير، ويأكل من لحمها الجم الغفير، وتصبر على العطش عدة أيام. ومنها: أنه يحمل عليها، وهي باركة، ثم تنهض، وكان شريح القاضي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: اخرجوا بنا إلى الإبل؛ لننظر كيف خلقت.

فإن قلت: كيف حسن ذكر الإبل مع السماء، والأرض، والجبال، ولا مناسبة بينهما؟! ولِمَ بدأ بذكر الإبل قبل السماء، والأرض، والجبال؟ قلت: لما كان المراد ذكر الدلائل الدالة على توحيده، وقدرته، وأنه الخالق لهذه الأشياء جميعها، وكانت الإبل من أعظم شيء عند العرب، فينظرون إليها ليلاً، ونهاراً، ويصاحبونها ظعناً، وسفراً؛ ذكرهم عظيم نعمته عليهم فيها. ولهذا بدأ بها؛ لأنها من أعجب الحيوانات عندهم. انتهى. كله من الخازن. وما أحراك أن تنظر ما ذكر في سورة (يس) الآية رقم [٧١] وما بعدها.

هذا؛ وقال القرطبي: وقيل: الإبل هنا القطع العظيمة من السَّحاب. قاله المبرد. قال الثعلبي: وقيل في الإبل هنا: السحاب، ولم أجد لذلك أصلاً في كتب الأئمة. قلت: قد ذكر الأصمعي قال أبو عمرو: من قرأها بالتخفيف عنى به البعير، ومن قرأها بالتثقيل (ٱلإِبِلِّ) عنى بها السحاب التي تحمل الماء للمطر. انتهى. قرطبي بتصرف كبير.

هذا؛ والإبل: اسم جمع لا واحد له من لفظه، فمفرده: جمل، أو ناقة، والبعير يشملهما كالإنسان للرجل، والمرأة، وقوله تعالى حكاية عن قول أولاد يعقوب لأبيهم: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍۖ﴾ دليل واضح على ذلك. هذا؛ ويجمع على: آبال، والإبل مؤنثة؛ لأن أسماء الجموع التي لا واحد لها من لفظها، إذا كانت لغير الآدميين، مثل: خيل، وغنم، وإبل، فالتأنيث لها لازم، وإذا قالوا: خيلان، وغنمان، وإبلان، فإنما يريدون قطيعين من الخيل، والغنم، والإبل.

﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾: فوق الأرض بغير عمد، ولا ينالها شيء. قال تعالى في سورة (الرعد) رقم [٢]: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ﴾. ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ أي: على الأرض نصباً ثابتاً راسخاً لا يزول. وذلك: أن الأرض لما دحيت؛ مادت، فأرساها بالجبال، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ رقم [٣١] من سورة (الأنبياء)، وفي سورة (النحل) رقم [١٥]: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾. ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ أي: بُسطت، ومهدت بحيث يستقر على ظهرها كل شيء. أثبت علماء المسلمين: أن الأرض كروية الشكل كالإمام الفخر الرازي، وأبي السعود، والآلوسي. ومعنى كونها مسطحة، أو مبسوطة، فإنما هي بالنسبة لعظمتها وسمتها، أو بالنسبة للناظرين، فليس في القرآن ما يخالف الحقائق العلمية. وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٣٠] من سورة (النازعات).

هذا؛ وقد قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: المعنى: هل يقدر أحد أن يخلق مثل الإبل، أو يرفع مثل السماء، أو ينصب مثل الجبال، أو يسطح مثل الأرض غير الله القادر على كل شيء؟!

الإعراب: ﴿أَفَلَا﴾: الهمزة: حرف استفهام، وتوبيخ. الفاء: حرف عطف. (لا): نافية. ﴿يَنظُرُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع... إلخ، والواو فاعله، وهو معلق عن العمل لفظاً بسبب الاستفهام. ﴿إِلَى ٱلْإِبِلِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام مبني على الفتح في محل نصب حال من نائب فاعل ﴿خُلِقَتْ﴾ بعده، تقدم على صاحبه، وعامله. ﴿خُلِقَتْ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، والتاء للتأنيث، ونائب الفاعل يعود إلى ﴿ٱلْإِبِلِ﴾، والجملة الفعلية في محل جر بدل اشتمال من الإبل، والجملة الفعلية: ﴿يَنظُرُونَ...﴾ إلخ معطوفة على جملة محذوفة. وتقدير الكلام: أينكرون، فلا ينظرون إلى الإبل كيفية خلقها؟! والجمل بعدها معطوفة عليها، وهي مثلها في الإعراب، والتقدير؛ إذ التقدير: وينظرون إلى السماء كيفية رفعها... إلخ. هذا؛ ومثل هذه الآيات في إبدال الجملة مما قبلها، قوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [٢٥٨]: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾، فالجملة الفعلية: ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ بدل اشتمال من العظام، التقدير: وانظر إلى العظام كيفية نشزها، وأيضاً قوله تعالى في سورة (الفرقان) رقم [٤٥]: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ التقدير: ألم تر إلى ربك كيفية مده الظل؟ وأيضاً قول الفرزدق ـ وهو الشاهد رقم [٣٧٣] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: إعراب شواهد مغني اللبيب ـ: [الطويل]

إلى الله أشكو بالمدينة حاجةً وبالشَّامِ أُخرى كيفَ يلتقيانِ

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾

الشرح: ﴿فَذَكِّرْ...﴾ إلخ: أي: فذكرهم يا محمد، وعظهم إنما أنت مذكر، وواعظ، ومخوف. ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ أي: لست عليهم بمسلط، فتقتلهم، أو تكرههم على الإيمان. وهذه الآية، وأمثالها منسوخ بآية السيف. انظر آخر سورة (الطارق) القريبة منك. والمسيطر: القاهر الغالب، من: سيطر عليه: إذا راقبه، وحفظه، أو قهره. ولم يأتِ على: «مفيعل» إلا خمسة ألفاظ: أربعة صفة اسم فاعل، وهي مُهَيْمن، ومُبَيْقِر، ومُبَيْسِط، ومُبَيْطِر، وواحد اسم جبل، وهو: الْمُجَيْمر. قال امرؤ القيس في معلقته رقم [٨٩]: [الطويل]

كأنَّ ذُرَى رأْسِ الْمُجَيْمِرِ غُدْوَةً مِنَ السَّيْلِ وَالإغْثَاء فَلْكَةُ مِغْزَلِ

هذا؛ ويقرأ بالسين، والصاد، ومثله: (المسيطرون) في سورة (الطور). هذا؛ وفي الصحاح: المسيطر، والمصيطر: المسلط على الشيء؛ ليشرف عليه، ويتعهد أحواله، ويكتب أعماله، وأقواله. ولم يرد هذا اللفظ في غير هذه السورة، وفي سورة (الطور)، والآية مثل قوله

تعالى في آخر سورة (قٓ): ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٍ﴾. وقال تعالى في سورة (الشورى): ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ رقم [٤٨].

﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ أي: تولى عن الوعظ، والتذكير، فإن لله الولاية، والقهر. ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ﴾: وهي جهنم الدائم عذابها. وإنما قال: ﴿ٱلۡأَكۡبَرَ﴾؛ لأنهم عذبوا في الدنيا بالجوع، والقحط، والأسر، والقتل. روي أن علياً ـ رضي الله عنه ـ أتي برجل من السبأيين ارتد، فاستتابه ثلاثة أيام، فلم يعاود الإسلام، فضرب عنقه، وقرأ: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ والمشهور أنهم كانوا سبعة من السبأيين. قالوا له: أنت الإله، فنهاهم، فلم ينتهوا، فقتلهم.

﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ﴾ أي: إن إلينا رجوعهم بالموت، والبعث، لا إلى أحد سوانا، لا استقلالاً ولا اشتراكاً، ثم إن علينا حسابهم في المحشر، لا على غيرنا، و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في الرتبة لا في الزمان، فإن الترتيب الزماني بين إيابهم، وحسابهم، لا بين كون إيابهم إليه تعالى، وحسابهم عليه تعالى، فإنهما أمران مستمران. وجمع الضمير في ﴿إِيَابَهُمۡ﴾ و﴿حِسَابَهُم﴾ باعتبار معنى ﴿مَن﴾ كما أن إفراده في: (يعذبه) باعتبار لفظها، وفي تصدير الجملتين بـ: ﴿إِنَّ﴾ وتقديم خبرها، وعطف الثانية على الأولى بكلمة ﴿ثُمَّ﴾ المفيدة لبعد منزلة الحساب في الشدة من الإنباء عن غاية السخط الموجب لتشديد العذاب ما لا يخفى. انتهى. أبو السعود. وقال الخطيب: فإن قيل: ما معنى تقديم الظرف؟ أجيب: بأن معناه: التشديد في الوعيد، وأن إيابهم ليس إلا إلى الجبار المقتدر على الانتقام، وأن حسابهم ليس إلا عليه، وهو الذي يحاسب على النقير، والقطمير. انتهى. جمل. وليس على الله واجب، وإنما المراد: التشديد بالوعيد.

﴿لَّسۡتَ﴾: حذفت عينه لالتقاء الساكنين: الياء والسين، إذا أصلة لَيِسَ بكسر الياء، ثم سكنت الياء للتخفيف، ولم تقلب ألفاً على القياس؛ لأن التخفيف بالتسكين في الجامد أسهل من القلب، فلما اتصل بضمير رفع متحرك سكنت العين، فالتقى ساكنان: الياء والسين، فحذفت الياء لالتقاء الساكنين.

هذا؛ والإياب: الرجوع، وهو مصدر آب، يؤوب، وأصله: إوَاب مثل: القيام، والصيام، أبدلت الواو ياءً لانكسار ما قبلها واعتلالها في الفعل، ويقرأ بتشديد الياء، وأصله: إيْواب على: فِيْعال، فاجتمعت الواو، والياء، وسبقت الأولى بالسكون، فأبدلت الواو ياء، وأدغمت الياء في الياء، وخذ قول عَبِيد بن الأبرص في معلقته رقم [١٦]: [مخلع البسيط]

وكــلُّ ذِي غــيــبــةٍ يَــؤُوْبُ وَغَــائِــبُ الْــمَــوْتِ لَا يَــؤُوْبُ

الإعراب: ﴿فَذَكِّرۡ﴾: الفاء: هي الفصيحة؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر، التقدير: وإذا كان ما ذكر حاصلاً، وواقعاً؛ فذكر. (ذكر): فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت»، والمفعول محذوف للتعميم، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جواب للشرط المقدر بـ: «إذا». ﴿إِنَّمَآ﴾:

كافة، ومكفوفة. ﴿أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾: مبتدأ، وخبر، والجملة الاسمية تعليل للأمر لا محل لها. ﴿لَّسْتَ﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون، والتاء اسمه. ﴿عَلَيْهِم﴾: جار ومجرور متعلقان بما بعدهما. ﴿بِمُصَيْطِرٍ﴾: الباء: حرف جر صلة. (مصيطر): خبر (ليس) منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد، والجملة الفعلية تعليل آخر للتذكير، لا محل لها أيضاً.

﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿مَن﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب على الاستثناء المنقطع من الضمير في: ﴿عَلَيْهِم﴾. وقيل: متصل، ويكون مستثنىً من مفعول ﴿فَذَكِّرْ﴾ أي: فذكر عبادي إلا من تولى. وقيل: ﴿مَن﴾ بدل من الضمير في ﴿عَلَيْهِم﴾، وهذه الأوجه في الإعراب تجعل جملة: ﴿فَيُعَذِّبُهُ...﴾ إلخ مستأنفة منقطعة عما قبلها، لذا فالوجه: اعتبار ﴿مَن﴾ اسم شرط جازماً مبنياً على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿تَوَلَّىٰ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف في محل جزم فعل الشرط، والفاعل يعود إلى ﴿مَن﴾ تقديره: «هو». ﴿وَكَفَرَ﴾: الواو: حرف عطف. (كفر): فعل ماض، وفاعله مستتر أيضاً، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿فَيُعَذِّبُهُ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (يعذبه): فعل مضارع، ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. والهاء مفعول به. ﴿ٱلْعَذَابَ﴾: مفعول مطلق. ﴿ٱلْأَكْبَرَ﴾: صفة له، والجملة الفعلية في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: فهو يعذبه، والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط، وجملة الشرط، وجملة الجواب كلتاهما في محل رفع خبر المبتدأ الذي هو ﴿مَن﴾. هذا؛ وإن اعتبرت ﴿مَن﴾ اسماً موصولاً؛ فهو مبتدأ، والجملة الفعلية بعده صلته، وخبره جملة: ﴿فَيُعَذِّبُهُ...﴾ إلخ. ودخلت الفاء على خبره؛ لأن الموصول يشبه الشرط في العموم، وعلى جميع الاعتبارات فالجملة الاسمية: ﴿مَن...﴾ إلخ في محل نصب على الاستثناء المنقطع، ومثل هذه الآية في إعرابها الآية رقم [١٦٠] من سورة (البقرة)، والآية رقم [٦٠] من سورة (مريم)، والآية رقم [٧٠] من سورة (الفرقان).

﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿إِلَيْنَآ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ﴿إِنَّ﴾ تقدم على اسمها. ﴿إِيَابَهُمْ﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الاسمية مفيدة للتعليل، لا محل لها، والتي بعدها معطوفة عليها، وإعرابها مثلها بلا فارق.

تنبيه: جاء في مغني اللبيب ما نصه: وتستعمل «كيف» على وجهين: أحدهما أن تكون شرطاً، فيقتضي فعلين متفقي اللفظ، والمعنى غير مجزومين، نحو كيف تصنعُ؛ أصنعُ، ولا يجوز: كيف تجلسْ أذهبْ باتفاق، ولا كيف تجلسْ أجلسْ بالجزم عند البصريين إلا قطرباً لمخالفتها لأدوات الشرط بوجوب موافقة جوابها لشرطها، كما مرَّ. وقيل: يجوز مطلقاً، وإليه ذهب قطرب، والكوفيون. وقيل: يجوز بشرط اقترانها بما. قالوا: ومن ورودها شرطاً: ﴿يُنفِقُ

كَيْفَ يَشَآءُ﴾ و﴿يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ و﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ وجوابها في ذلك كله محذوف لدلالة ما قبله عليه. وهذا يشكل على إطلاقهم أن جوابها يجب مماثلته لشرطها.

وقد استدرك بعض المعلقين على المغني، فقال: أجاب بعضهم بأنه يمكن أن يقدر الجواب موافقاً للشرط بأن يقدر الجواب فعل مشيئة متعلق بالفعل السابق، وهو دال عليه؛ لأن الفعل الاختياري يستلزم المشيئة، والأصل كيف يشاء أمراً؛ يشاء التصوير في الأرحام. كيف يشاء أمراً؛ يشاء الإنفاق، كيف يشاء أمراً؛ يشاء بسطه. غاية الأمر أن متعلق الفعلين مختلف، وهذا جواب بعيد؛ لأنهم قالوا: لدلالة ما قبله؛ لأن المتبادر: أنه دال على الجواب، وعلى رفع الإشكال، فيكون ما قبلها دالاً على متعلق جوابها، لا على نفس جوابها. وقد علمت دفع هذا بأن الفعل الاختياري، وهو الفعل الواقع قبلها يستلزم المشيئة، وهو الجواب المحذوف. تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

انتهت سورة (الغاشية) شرحاً، وإعراباً.

والحمد لله رب العالمين.

سورة الفجر

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة (الفجر) مكية، وهي تسع وعشرون. وقيل: ثلاثون آيةً، ومئة وتسع وثلاثون كلمةً، وخمسمئة وسبعة وتسعون حرفاً. انتهى. خازن.

﴿وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾﴾

الشرح: ﴿وَٱلْفَجْرِ...﴾ إلخ: أقسم الله عزّ وجلّ بالفجر وما بعده لشرف هذه الأشياء، وما فيها من الفوائد الدينية، وهي أنها دلائل باهرة، وبراهين قاطعة على التوحيد، وفيها من الفوائد الدنيوية: أنها تبعث على الشكر. وانظر ما ذكرته بشأن هذا القسم في أول سورة (المرسلات) و(الذاريات) تجد ما يسرك.

واختلفوا في معاني هذه الألفاظ، فروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: (الفجر) هو انفجار الصبح في كل يوم، أقسم الله تعالى به لما يحصل فيه من انقضاء الليل، وظهور الضوء، وانتشار الناس، وسائر الحيوانات في طلب الأرزاق، وذلك يشبه نشر الموتى من قبورهم للبعث والحساب، والجزاء. قال تعالى في سورة (التكوير) رقم [١٨]: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾. وعن ابن عباس أيضاً: أنه صلاة الفجر، والمعنى: أنه أقسم بصلاة الفجر؛ لأنها مفتتح النهار، ولأنها مشهودة، يشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار. قال تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ سورة (الإسراء) رقم [٧٨]. وقيل: إنه فجر معين، واختلفوا فيه، فقيل: هو فجر أول يوم من المحرَّم؛ لأنه منه تنفجر السنة. وقيل: هو فجر ذي الحجة؛ لأنه قرن به الليالي العشر. وقيل: هو فجر يوم النحر؛ لأن فيه أكثر مناسك الحج، وفيه القربات المتنوعة.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾: قيل: إنما نكرها لما فيها من الفضل، والشرف؛ الذي لا يحصل في غيرها. واختلف فيها، فقد روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنها العشر الأول من ذي الحجة؛ لأنها أيام الاشتغال بأعمال الحج. وأخرج الترمذي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «**ما مِنْ أيّامٍ العملُ فيهنَّ أحَبُّ إلىَ الله منْ عَشْرِ ذي الحجةِ**». قالُوا: ولا الجهادُ يا رسولَ الله؟ قالَ: «**ولا الجهادُ في سبيلِ الله؛ إلا رجل خرجَ بنفسِهِ، ومالِهِ، ثم لَمْ يرجعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ**». ورواه البخاري أيضاً عن ابن عباس مرفوعاً. وروي عن ابن عباس أيضاً؛

قال: هي العشر الأواخر من رمضان؛ لأن فيها ليلة القدر، ولأن رسول الله ﷺ كان إذا دخل العشر الأخير من رمضان أحيا ليله، وشد مئزره، وأيقظ أهله للعبادة. وقيل: هي العشر الأول من المحرم، وهو تنبيه على شرفه، ولأن فيه يوم عاشوراء. وهو أضعفها. وأقواها الأول.

﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾: الشفع: الاثنان، والوتر: الفرد. واختلف في ذلك أيضاً؛ قيل: الشفع: هو الخلق، والوتر: هو الله تعالى. يروى ذلك عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ. وقيل: الشفع: هو الخلق كالإيمان، والكفر. والهدى، والضلالة. والسعادة، والشقاوة. والليل، والنهار. والأرض، والسماء. والشمس، والقمر. والبر، والبحر. والنور، والظلمة. والجنّ، والإنس. والوتر: هو الله تعالى. وقيل: الخلق كله فيه شفع، وفيه وتر. وقيل: الصلوات الخمس منها شفع، ومنها وتر. عن عمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ سُئل عن الشفع، والوتر، فقال: «**هي الصلاة، بعضها شفع، وبعضها وتر**». أخرجه الترمذي. وقال: حديث غريب. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «**الشفع صلاة الغداة، والوتر صلاة المغرب**».

وقال أبو بكر الوراق: الشفع تضاد أوصاف المخلوقين: العز، والذل. والقدرة، والعجز. والقوة، والضعف. والعلم، والجهل. والحياة، والموت. والبصر، والعمى. والسمع، والصمم. والكلام، والخرس. والوتر: انفراد صفات الله تعالى: عزٌّ بلا ذل، وقدرة بلا عجز. وقوة بلا ضعف. وعلم بلا جهل. وحياة بلا موت. وبصر بلا عمى. وكلام بلا خرس. وسمع بلا صمم. وما وازاها. وقال الحسين بن الفضيل: الشفع: درجات الجنة، وهي ثمان، والوتر: دركات النار، وهي سبع، فكأنه أقسم بالجنة، والنار. وقيل: غير ذلك.

وقال أبو حيان ـ رحمه الله تعالى ـ: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ ذكر في كتاب التحرير، والتحبير فيهما ستة وثلاثين قولاً ضجرنا قراءتها فضلاً عن كتابتها في كتابنا هذا. وقال الزمخشري: وقد أكثروا في الشفع، والوتر؛ حتى كادوا يستوعبون معظم ما يقعان فيه، وذلك قليل الطائل، جدير بالتلهي عنه. هذا؛ ويجمع الشفع على :أشفاع، وشفاع، ويجمع الوتر على: أوتار. هذا؛ ويقرأ (الوتر) بفتح الواو، وكسرها لغتان كالحِبْر والحَبْر. والفتح لغة قريش، ومن والاها، والكسر لغة تميم. ولا تنس الطباق بين (الشفع) و(الوتر)، وهو من المحسنات البديعية.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾: هذا قسم خامس، بعد أن أقسم الله بالليالي العشر على الخصوص، أقسم الله بالليل على العموم. ومعنى: يسري؛ أي: يُسْرَى فيه، كما يقال: ليل قائمٌ، ونهارٌ صائمٌ. قال جرير: [الطويل]

لَقَدْ لُمْتِنَا يا أمَّ غَيْلَانَ في السُّرَى وَنِمْتِ ومَا لَيْلُ المَطِيِّ بِنَائِمِ

ومنه قوله تعالى في سورة (سبأ) رقم [٣٣]: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ انظر شرحها هناك؛ فإنه جيد. وهذا قول أكثر أهل المعاني، وهو قول القتبي، والأخفش، فهو مجاز في الإسناد،

بإسناد ما للشيء للزمان، كما يسند للمكان فيقال: نهر جارٍ، والظاهر: أنه مجاز مرسل، أو استعارة. وقال أكثر المفسرين: معنى يسري: سار، وذهب، مثل قوله تعالى في سورة (المدثر): ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ﴾، وفي سورة (التكوير): ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾. واختلف في (الليل) أيضاً. قيل: هي ليلة المزدلفة خاصة لاختصاصها باجتماع الناس فيها لطاعة الله. وقيل: ليلة القدر لسراية الرحمة فيها، واختصاصها بزيادة الثواب فيها، وأقول من جهتي: لعلها ليلة الجمعة، ولعلها ليلة المولد النبوي الشريف. وقيل: أراد عموم الليل كله.

هذا؛ وأسرى فيه لغتان: سرى، وأسرى، وقرئ في (الدخان)، و(الشعراء) بقطع الهمزة ووصلها، فالأول من الرباعي، والثاني من الثلاثي، وقد جمع حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ بين اللغتين في بيت واحد؛ حيث قال: [الكامل]

حَيِّ النَّضِيرَةَ رَبَّةَ الْخِدْرِ ... أَسَرَتْ إِلَيكَ وَلَمْ تَكُنْ تَسْرِي

وسرى، وأسرى بمعنى واحد، وهو قول أبي عبيد، والثانية لغة أهل الحجاز، وبها جاء القرآن الكريم في كثير من الآيات، وهما بمعنى: سار الليل عامته. وقيل: «سرى» لأول الليل و«أسرى» لآخره، وهو قول الليث، وأما سار فهو مختص بالنهار، وليس مقلوباً من: «سرى»، فهو بمعنى: مشى. هذا؛ والسُّرَى، والإسراء: السير في الليل، يقال: سَرَى، يسرِي سُرًى، ومَسْرًى، وسريةً، وسرايةً. وأسرى إسراءً. هذا؛ والسرى يذكر، ويؤنث، ولم يحك اللحياني فيه إلا التأنيث، وكأنهم جعلوه جمع: سرية.

هذا؛ وحذفت الياء من آخر (يسري)؛ لأنه رأس آية، وقرئ بإثباتها في الوصل، كما قرئ بإثبات الياء في الوصل، والوقف على الأصل؛ لأنها ليست بمجزومة. قال الخليل: تسقط الياء منها اتفاقاً لرؤوس الآي. قال الفراء: قد تحذف العرب الياء، وتكتفي بكسر ما قبلها، وأنشد لبعضهم: [الرجز]

كَفَّاكَ كَفٌّ ما تُلِيقُ دِرْهَما ... جوداً وأخرى تُعْطِ بِالسَّيْفِ الدِّمَا

الإعراب: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ﴾: جار ومجرور متعلقان بفعل محذوف، تقديره أقسم. وانظر ما ذكرته في سورة (المرسلات) و(الذاريات) بشأن المقسم به، وسأعيده في أول سورة (الشمس) الآتية إن شاء الله تعالى. ﴿وَلَيَالٍ﴾: الواو: حرف عطف. (ليال): معطوف على (الفجر) مجرور مثله، وعلامة جره فتحة مقدرة على الياء المحذوفة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف لصيغة منتهى الجموع؛ إذ الأصل: ولَيَالِيَ، فحذفت الياء للتخفيف، لا للإعلال، وإنما قدرت الفتحة مع خفتها لنيابتها عن الكسرة، ونائب الثقيل ثقيل. انتهى. ملخصاً من مغني اللبيب. ﴿عَشۡرٍ﴾: صفة (ليال). ﴿وَٱلشَّفۡعِ﴾، ﴿وَٱلۡوَتۡرِ﴾، ﴿وَٱلَّيۡلِ﴾: هذه الأسماء معطوفة على (الفجر). ﴿إِذَا﴾: ظرف مجرد عن الشرطية مبني على السكون في محل نصب، وفي عامله أوجه، وعلى كل واحد

منها إشكال: أحد الأوجه: أنه متعلق بفعل القسم المحذوف، التقدير: أقسم بالليل وقت سراه. قاله أبو البقاء، وغيره، وهو مشكل، فإن فعل القسم إنشاء، والإنشاء حال، و(إذا) لما يستقبل من الزمان؛ فكيف يتلاقيان؟! الثاني: أن العامل فيه مقدر على أنه حال من الليل؛ أي: أقسم به حال كونه مستقراً في زمان سريانه. وهو مشكل من وجهين: أحدهما: أن الليل جثة، والزمان لا يكون من الجثة، كما لا يكون خبراً عنها. والثاني: أنَّ ﴿إِذَا﴾ للمستقبل، فكيف يكون حالاً، وقد أجيب عن الأول بأن المراد بالليل لازم معناه، وهو المظلم. وأجيب عن الثاني بأنها حال مقدرة. الثالث: أن العامل في الظرف نفس الليل. قاله أبو البقاء أيضاً، وفيه نظر؛ لأن الليل لا يعمل في الظرف؛ لأنه اسم جامد. وقد يقال: إن الليل يوصف، والتقدير: والليل المظلم في وقت سراه. انتهى. جمل من سورة (النجم). ﴿يَسْرِ﴾: فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء المحذوفة كما رأيت، والفاعل يعود إلى (الليل)، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها.

﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾﴾

الشرح: ﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ...﴾ إلخ: تحقيق، وتقرير لفخامة شأن الأمور المقسم بها، وكونها أموراً خليقة حقيقة بالإعظام، والإجلال عند أرباب العقول والأفهام، وتنبيه على أن الإقسام بها أمر معتد به، خليق بأن يؤكد به الأخبار على طريقة قوله تعالى في سورة (الواقعة): ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ وذلك إشارة إما إلى الأمور المقسم بها، والتذكير بتأويل ما ذكر، أو إلى الإقسام بها، وأياً ما كان فما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو رتبة المشار إليه، وبعد منزلته في الفضل، والشرف. انتهى. جمل نقلاً من أبي السعود، ومعنى (لذي حجر): لذي لب، وعقل. قال الشاعر: [البسيط]

وكَيْفَ يُرَجَّى أنْ تَتُوبَ وَإنَّمَا يُرَجَّى مِنَ الفِتيانِ مَنْ كانَ ذَا حِجْرِ؟

هذا؛ وأصل الحجر: المنع، يقال لمن ملك نفسه ومنعها من السيئات، والمعاصي: إنه لذو حجر، ومنه سمي الحجر لامتناعه بصلابته، ولذلك سميت الغرفة حجرة لامتناع ما فيها بها. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ سورة (الحجرات) رقم [٤]. وقال الفراء: تقول العرب: إنه لذو حجر إذا كان قاهراً لنفسه ضابطاً لها، كأنه أخذ من حَجَرات على الرجل.

وفي الخازن: ﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما أقسمت به من هذه الأشياء. ﴿قَسَمٌ﴾: مقنع، ومكتفي في القسم. ﴿لِّذِى حِجْرٍ﴾: لذي عقل، سمي بذلك؛ لأنه يحجر صاحبه عما لا يحل له، ولا ينبغي. كما سمي عقلاً؛ لأنه يعقل صاحبه عن القبائح، وسمي: نهية قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ سورة (طه) رقم [١٢٨] وأصل الحجر: المنع، ولا يقال: ذو حجر إلا لمن

هو قاهر لنفسه، ضابط لها عما لا يليق، كأنه حجر على نفسه، ومنعها ما تريد. والمعنى: أن من كان ذا لبٍّ وعقلٍ عَلِم: أنَّ ما أقسم الله عز وجل به من هذه الأشياء، فيه عجائب، ودلائل تدل على توحيده، وربوبيته، فهو حقيق بأن يقسم به لدلالته على خالقه. انتهى. بتصرف.

هذا؛ والحجر يطلق على أشياء كثيرة: حجر الإنسان بفتح الحاء، وكسرها، وهو ما بين يديه من ثوبه، ويقال: نشأ فلان في حجر فلان؛ أي: تحت رعايته، وعنايته. قال تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم...﴾ إلخ سورة (النساء) رقم [٢٣]. وهو بفتح الحاء: المنع من التصرفات المالية لصغر، أو سفه، أو فلس، وغير ذلك. والحجر يطلق على الفرس الأنثى، وهو بكسر الحاء، وعلى العقل كما رأيت، ويطلق على حجر إسماعيل بجوار الكعبة المعظمة، وعلى حجر ثمود؛ أي: بلادهم. قال تعالى في سورة (الحجر): ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ والحجر يطلق على الحرام، وفي سورة (الفرقان): ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ وقال الشاعر: [الطويل]

أَلَا أَصْبَحَتْ أَسْمَاءُ حِجْراً محرَّما وَأَصْبَحْتُ مِنْ أَدنى حُمُوَّتِهَا حَمَا

أراد ألا أصبحت أسماء حراماً محرماً. قاله رجل كانت له امرأة، فطلقها، وتزوجها أخوه؛ أي: أصبحت أخا زوجها بعد أن كنت زوجها، وقد نظم بعضهم المعاني المتقدمة بقوله: [البسيط]

رَكِبْتُ حِجْراً وَطُفْتُ الْبَيْتَ خَلْفَ الْحِجْرِ وَحُزْتُ حِجْراً عَظِيماً فِي دُخُولِ الْحِجْر

لِلهِ حَجْرٌ مَنَعَنِي مِنْ دُخُولِ الْحِجْر مَا قُلْتُ حِجْراً وَلَوْ أُعْطِيتُ مِلْءَ الْحِجْر

الإعراب: ﴿هَلْ﴾: حرف تقرير، أو حرف تحقيق وتأكيد. قال مقاتل: هل هنا في موضع إن، تقديره: إن في ذلك قسماً لذي حجر. ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف في محل رفع خبر مقدم، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿قَسَمٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿لِّذِي﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة قسم، وعلامة الجر الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه من الأسماء الخمسة، و(ذي): مضاف، و﴿حِجْرٍ﴾: مضاف إليه، والجملة الاسمية جواب القسم الأول وما عطف عليه على قول مقاتل ـ رحمه الله تعالى ـ. وقيل: الجواب محذوف، تقديره: ليعذبن. وقيل: الجواب قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ وعلى هذين القولين فالجملة الاسمية (هل في ذلك...) إلخ. معترضة بين القسم وجوابه، وقد أفادت الكلام تقويةً وتسديداً.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾﴾

الشرح: ﴿أَلَمْ تَرَ...﴾ إلخ خطاب للنبي ﷺ، وهو عام لكل أحد، والمعنى: ألم يبلغك يا محمد، ويصل إلى علمك ماذا فعل الله بعاد قوم هود؟ وكان أمر عاد، وثمود عند العرب

مشهوراً؛ إذ كانوا في بلادهم، وحجر ثمود موجود إلى اليوم بوادي القرى، وأمر فرعون كانوا يسمعونه من جيرانهم من أهل الكتاب، واستفاضت به الأخبار، وبلاد فرعون متصلة بأرض العرب. ﴿بِعَادٍ﴾ أي: بقوم عاد، وكانوا أشداء أقوياء. روى شهر بن حوشب عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: كان الرجلُ من قوم عاد ليتخذ المصراع من حجارةٍ، ولو اجتمع عليه خمسمئة من هذه الأمة لم يستطيعوا أن يقلوه، وكان أحدهم يُدخل قدمه في الأرض فتدخل فيها. لذا ذكرهم نبيهم هود بهذا، فقال تعالى في سورة (الأعراف): ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ الآية رقم [١٥] من سورة (فصلت).

هذا؛ وعاد في الأصل ابن عوص بن إرم بن سام بن نوح، على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام، فعلى هذا ف ﴿إِرَمَ﴾ هو جد عاد، ثم جعل لفظ عاد اسماً للقبيلة، كما يقال لبني هاشم: هاشم، ولبني تميم: تميم، ثم قيل للأولين منهم: عادٌ الأولى، وعادُ إرم تسمية لهم باسم جدهم. ولمن بعدهم: عادٌ الأخيرة. قال ابن الرقيات: [المنسرح]

أدركَ عَـــاداً وقَـــبْـــلَـــهُ إرَمَـــا ... مَـــجْـــداً تَـــلِـــيـــداً بَـــنَـــاهُ أَوَّلُـــهُـــمْ

وقال معمر: «إرم» إليه مجمع عاد، وثمود، وكان يقال: عاد إرم، وعاد ثمود، وكانت القبائل تنتسب إلى إرم. وقال ابن إسحاق: كان سام بن نوح له أولاد، منهم: إرم بن سام، وأرفخشذ بن سام، فمن ولد إرم بن سام العمالقة، والفراعنة، والجبابرة، والملوك الطغاة، والعصاة.

﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ أي: الطول، يقال: رجل مُعَمَّد: إذا كان طويلاً. قال قتادة: كان طول الواحد منهم اثنا عشر ذراعاً. وعن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة أيضاً كانوا عماداً لقومهم. يقال: فلان عماد القوم، وعمودهم؛ أي: سيدهم. وقيل: ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ أي: الأبنية الرفيعة المرفوعة على العمد، وكانوا ينصبون الأعمدة، فيبنون عليها القصور. قال ابن زيد: ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ يعني: إحكام البنيان بالعمد. وفي الصحاح: والعماد: الأبنية الرفيعة، تذكر، وتؤنث. قال عمرو بن كلثوم في معلقته رقم [٣٩]: [الوافر]

وَنَـــحْـــنُ إذاَ عِـــمَـــادُ الْـــحَـــيِّ خَـــرَّتْ ... عَـــلَـــى ٱلأَحْـــفَـــاضِ نـــمـــنَـــعُ مَـــنْ يَـــلِـــيـــنَـــا

﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾: الضمير يرجع إلى القبيلة؛ أي: لم يخلق مثل القبيلة في البلاد قوةً، وشدة، وعظم أجساد، وطول قامة. ومن جعل إرم مدينة؛ قدر محذوفاً، المعنى: كيف فعل ربك بمدينة عاد إرم، أو بعاد صاحبة إرم. وإرم على هذا مؤنثة معرفة. وروي: أنه كان لعاد ابنان: شداد، وشديد، فملكا، وقهرا، ثم مات شديد، وخلص الأمر لشداد، فملك الدنيا،

ودانت له ملوكها، فسمع بذكر الجنة، فقال: أبني مثلها، فبنى إرم في بعض صحارى عدن في ثلاثمئة سنة، وكان عمره تسعمئة سنة، وهي مدينة عظيمة، قصورها من الذهب، والفضة، وأساطينها من الزبرجد، والياقوت، وفيها أصناف الأشجار، والأنهار المطردة، ولما تم بناؤها؛ سار إليها بأهل مملكته، فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة، بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا. وعن عبد الله بن قلابة: أنه خرج في طلب إبل له، فوقع عليها، فحمل ما قدر عليه مما ثَمَّ، وبلغ معاوية خبره، فاستحضره، فقص عليه، فبعث إلى كعب فسأله، فقال: هي إرم ذات العماد، وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر أشقر قصير، على حاجبه خال، وعلى عقبه خال، يخرج في طلب إبل له، ثم التفت فأبصر ابن قلابة. وقال: هذا والله ذلك الرجل!.

تنبيه: ذكرت لك فيما مضى: أنه ملك الدنيا مؤمنان، وكافران، فأما المؤمنان؛ فهما سليمان ابن داود، وإسكندر ذو القرنين، وأما الكافران؛ فهما: بختنصر ملك بابل، وشداد بن عاد.

الإعراب: ﴿أَلَمْ﴾: الهمزة: حرف تقرير، واستفهام. (لم): حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: (لم)، وعلامة جزمه حذف حرف العلة من آخره، وهو الألف، والفتحة قبلها دليل عليها، والفاعل مستتر تقديره: «أنت». ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام مبني على الفتح في محل نصب حال، تقدم على صاحبه، وعامله، وهو معلق للفعل قبله عن العمل لفظاً. وانظر ما ذكرته في أول سورة (الفيل) فإنه جيد، جيد، وهذا مثله. ﴿فَعَلَ﴾: ماض، ﴿رَبُّكَ﴾: فاعله، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الفعلية في محل نصب سدت مسد مفعولي الفعل (ترى) وهو قلبي، انظر الشرح، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿بِعَادٍ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿إِرَمَ﴾: بدل من (عاد)، أو عطف بيان عليه، وهذا على اعتباره علم على شخص، أو علم على قبيلة، وأما على اعتباره اسم بلدة، أو اسم أرض؛ فهو على حذف مضاف، التقدير: بعاد صاحب إرم. والتقدير على الأول: بعادٍ إرمَ صاحبِ ذاتِ العمادِ، ولم ينصرف إرم قبيلةً كانت، أو أرضاً، فهو مجرور، وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية، والتأنيث، فهو إما مضاف، وإما مضاف إليه، كما رأيت، و«صاحب» صفة (عاد)، وهو مضاف، و﴿إِرَمَ﴾ مضاف إليه. . .إلخ، و«صاحب» صفة ﴿إِرَمَ﴾ على التقدير الأول، و«صاحب» مضاف، و﴿ذَاتِ﴾ مضاف إليه، و«صاحب» صفة (عاد) أو بدل منه على اعتبار ﴿إِرَمَ﴾ اسم بلدة، أو اسم أرض، و﴿ذَاتِ﴾ مضاف، و﴿ٱلْعِمَادِ﴾ مضاف إليه. ﴿ٱلَّتِى﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل جر صفة ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ ويجوز أن يقطع عما قبله على إضمار مبتدأ، التقدير: هي التي، أو على تقدير فعل: أعني التي. ﴿لَمْ﴾: حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿يُخْلَقْ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مجزوم بـ: ﴿لَمْ﴾. ﴿مِثْلُهَا﴾: نائب فاعل، وها في محل جر بالإضافة. ﴿فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها.

﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩﴾

الشرح: (ثمود): قوم صالح، على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام. ﴿جَابُوا۟﴾: قطعوا. ومنه: فلان يجوب البلاد؛ أي: يقطعها. قال الشاعر، وكان قد نزل على ابن الزبير في مكة، فكتب له بستين وَسْقاً يأخذها بالكوفة، فقال: [البسيط]

راحتْ رواحاً قَلُوصي وهي حامِدَةٌ ... آلَ الزُّبَيْرِ ولمْ تعدل بهمْ أَحَدا

راحتْ بستينَ وَسْقاً في حَقِيبَتِهَا ... ما حُمِّلتْ حملها الأدنى ولا السَّددَا

ما إن رأيْتُ قَلُوصا قبلها حَمَلَتْ ... سِتِّين وَسْقاً ولا جابتْ بهِ بلدَا

ورحم الله أحمد شوقي؛ إذ يقول في قصيدته نهج البردة البيت رقم [٨٦] في مديح المصطفى ﷺ: [البسيط]

جُبْتَ السمواتِ أوْ ما فوقهنَّ بِهِمْ ... عَلى مُنَوَّرَةٍ دُرِّيَّةِ اللُّجُمِ

قال المفسرون: أول من نحت الجبال، والصخور، والرخام: ثمود، فبنوْا من المدائن ألفاً وسبعمئة مدينة، كلها من الحجارة، ومن الدور، والمنازل ألفيْ ألفٍ وسبعمئة كلها من الحجارة، وقد قال تعالى في سورة (الحجر) رقم [٨٢]: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ وقال في سورة (الشعراء) رقم [١٤٩]: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ وكانوا لقوتهم يخرجون الصخور، وينقبون الجبال، ويجعلونها بيوتاً؛ لأنفسهم، وقد ذكرت قصتهم مفصلة في سورة (الأعراف) و(هود) و(الشعراء).

(بالوادي): أي: بوادي القرى. قاله محمد بن إسحاق. وروى أبو الأشهب عن أبي نضرة ـ رضي الله عنه ـ قال: أتى رسول الله ﷺ في غزوة تبوك على وادي ثمود، وهو على فرس أشقر، فقال: «**أسرعوا؛ فإنكم في واد ملعون**». وروي: أنه ﷺ نهاهم عن شرب مائه، وأكل ما طبخوا به، وعجنوا من مائه. هذا؛ والوادي هو المنفرج بين جبلين يجري فيه السيل، ويجمع على أودية، وأوديات. وأوادية، وأوداء، وأوداه. قال جرير: [الوافر]

عَرَفْتُ بِبُرْقَةِ الأوْداهِ رَسْماً ... مُحِيلاً طالَ عَهْدُكَ مِنْ رُسُومِ

ولم أعثر على «وديان» مع أنه كثير ومستعمل. هذا؛ وقد قال أبو البقاء في جمع واد على أودية، وجمع فاعل على أفعلة شاذ، ولم نسمعه في غير هذا الحرف، ووجهه أن فاعلاً قد جاء بمعنى فعيل، وكما جاء فعيل وأفعلة كجريب وأجربة كذلك فاعل. انتهى من سورة (الرعد) الآية [١٧]. .

هذا؛ وثمود: قبيلة أخرى من قبائل العرب كعاد، سموا باسم أبيهم الأكبر ثمود بن غابر، ابن سام، **بن نوح**، وهو أخو جديس بن غابر، وكانت مساكن ثمود الحجر بين الحجاز والشام

إلى وادي القرى وما حوله. قال أبو عمرو بن العلاء: سميت ثمود لقلة مائها، والثمد الماء القليل، والأول هو المعتمد، ومنع من الصرف؛ لأنه جعل اسماً لمؤنث، وهو القبيلة. ونبيهم هو صالح، على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام، وصرف (عاد) لسكون وسطه.

الإعراب: ﴿وَثَمُودَ﴾: الواو: حرف عطف. (ثمود): معطوف على عاد مجرور مثله، وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية، والتأنيث. ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل جر صفة ثمود، أو هو بدل منه، ويجوز قطعه عن (ثمود) على إضمار مبتدأ، أو إضمار فعل، والجملة الفعلية بعده صلته. ﴿بِالْوَادِ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من ﴿الصَّخْرَ﴾، وعلامة الجر كسرة مقدرة على الياء المحذوفة لمناسبة رؤوس الآي.

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾

الشرح: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ أي: صاحب الجنود، والعساكر، والجموع، والجيوش؛ التي تشد ملكه. قاله ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، وقوله تعالى في سورة (ص) رقم [١٢]: ﴿ذِي الْأَوْتَادِ﴾ فسر هناك بالبناء المحكم. وقيل: ذو الملك الشديد الثابت، والعرب تقول: هو في عز ثابت الأوتاد، يريدون بذلك: أنه دائم شديد. قال الأسود بن يعفر: [الكامل]

ولقد غَنَوْا فيها بأنْعَمِ عِيشَةٍ ... في ظلِّ مُلْكٍ ثابتِ الأوْتادِ

وأصله من ثبات البيت المطنب بأوتاده. قال الأفوه الأودي: [البسيط]

والْبَيْتُ لا يُبْتَنَى إلَّا بأعمدةٍ ... وَلَا عِمَادَ إذَا لَمْ تُرْسَ أوتادُ

فاستعير لثبات العز، والملك، واستقامة الأمر، وهي استعارة بليغة، فقد شبه الملك بخيمة عظيمة شدت أطنابها بالأوتاد لتثبت، وترسخ، ولا تقتلعها الرياح، ففيه استعارة مكنية. وذكر الأوتاد تخييل. وقيل: ﴿ذِي الْأَوْتَادِ﴾ ذو القوة، والبطش. وقال الكلبي، ومقاتل: كان فرعون يعذب الناس بالأوتاد، وكان إذا غضب على أحد مده مستلقياً بين أربعة أوتاد في الأرض، ويرسل عليه الحيات، والعقارب؛ حتى يموت. وقيل: كان يشبح المعذب بين أربع سوار، كل طرف من أطرافه إلى سارية مضروب فيها وتد من حديد، ويتركه؛ حتى يموت. هذا؛ ومفرده: وتِد، وهو ما رُزَّ في الحائط، أو في الأرض من خشب، وغيره، وهو بكسر التاء، وفتحها لغة. قال الشاعر: [البسيط]

ولا يُقِيمُ على ضَيْمٍ يُرادُ به ... إلَّا الأذلَّان: عَيْرُ الحيِّ، وَالوتِدُ

هـذا عـلـى الـخـسـفِ مَـربـوطٌ بِـرمَّـتِـهِ وذَا يُـشَـجُّ فَـلا يـرثِـي لَـهُ أحَـدُ

وأهل نجد يسكنون التاء، فيدغمونها بعد قلبها دالاً بالدال الثانية، فيبقى: ودٌّ، وهي لغة العامة الشائعة، وودْتُ الوتد، أتده وتداً من باب: وعد: أثبته بحائط، أو بالأرض، وأوتدته لغة. انتهى. من المصباح.

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾: تمردوا وعتوْا وتجاوزوا الحد في الظلم والعدوان، والضمير يعود إلى عاد وثمود وفرعون. وقيل: يعود إلى فرعون وجنوده، والأول أولى بالاعتبار. ﴿فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ﴾ أي: الظلم والاعتداء والجور والأذى مع الكفر، والتعالي في الأرض، والفساد ضد الصلاح، فكما أن الصلاح يتناول جميع أقسام البر، فكذلك الفساد يتناول جميع أقسام الإثم. ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: أفرغ عليهم، وألقى، وأنزل بهم ﴿رَبُّكَ﴾ يقال: صَبَّ على فلان نعمة؛ أي: ألقاها عليه. قال النابغة في مدح النعمان بن المنذر: [الطويل]

فـصَـبَّ عـلـيـه اللهُ أحـسـنَ صُـنْـعِـهِ وكـان لَـهُ بـيـن الـبـريَّـةِ نـاصِـرَا

﴿سَوۡطَ عَذَابٍ﴾: نوع عذاب. ويقال: شدة عذاب؛ لأن السوط كان عندهم نهاية ما يعذب به. قال الشاعر: [الطويل]

أَلَـمْ تَـرَ أنَّ اللهَ أظْـهَـرَ دِيـنَـهُ وَصَـبَّ عـلـى الـكـفـارِ سَـوْطَ عَـذَابِ

وقال الفراء: هي كلمة تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب. وأصل ذلك: أن السوط هو عذابهم الذي يعذبون به، فجرى لكل عذاب؛ إذ كان فيه عندهم غاية العذاب. فأهلكت عاد بالريح، وثمود بالصيحة، وفرعون بالغرق. قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾.

هذا؛ والسوط الذي يضرب به يكون من جلد، وغيره، والجمع: أسواط، وسياط، وساطه: ضربه بالسوط. وقد استعير هذا لنوعٍ من أنواع العذاب، كما هو واضح. والسوط: خلط الشيء بعضه ببعض.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ أي: يرصد أعمال العباد، فلا يفوته منها شيء؛ ليجازيهم بها يوم القيامة. ففيه استعارة تمثيلية: شبه كونه تعالى حافظاً لأعمال العباد، مراقباً لها، ومجازياً على نقيرها، وقطميرها بحيث لا ينجو منه أحد بحال مَنْ قعد على الطرق مترصداً لمن يسلكها؛ ليأخذه، فيوقع به ما يريد، ثم أطلق لفظ أحدهما على الآخر. انتهى. نقلاً من الشهاب. وانظر ما ذكرته في سورة (النبأ) رقم [٢١] تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

بعد هذا فخذ ما يلي: روى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن فرعون ـ لعنه الله ـ إنما سمي ذا الأوتاد؛ لأنه كان عنده امرأة مؤمنة، وهي امرأة خازنه حزقيل، وكان مؤمناً كتم إيمانه مئة سنة ـ انظر سورة (غافر) رقم [٢٨] وما بعدها ـ وكانت امرأته

ماشطةَ بنتِ فرعون، فبينما هي ذات يوم تمشط رأس بنت فرعون؛ إذ سقط المشط من يدها، فقالت: تعس من كفر بالله! فقالت بنت فرعون: وهل لك من إله غير أبي؟! فقالت: إلهي وإله أبيك، وإله السموات، والأرض واحدٌ لا شريك له! فقامت، ودخلت على أبيها؛ وهي تبكي! فقال لها: ما يبكيك؟ قالت: الماشطة امرأة خازنك تزعم: أنَّ إلهك، وإلهها، وإله السموات، والأرض واحدٌ لا شريك له! فأرسل إليها، فسألها عن ذلك، فقالت: صدقتْ! فقال لها: ويحك! اكفري بإلهك، وقري أني إلهك! قالت: لا أفعل، فمدها بين أربعة أوتاد، ثم أرسل عليها الحيات، والعقارب. وقال لها: اكفري بالله، وإلا عذبتك بهذا العذاب شهرين! فقالت: لو عذبتني سبعين شهراً ما كفرت بالله! وكان لها ابنتان، فجاء بابنتها الكبرى، فذبحها على قلبها، ثم قال لها: اكفري بالله، وإلا ذبحت الصغرى على فيك! وكانت رضيعاً، فقالت: لو ذبحت من في الأرض على فيَّ ما كفرت بالله عز وجل! فأتى بابنتها، فلما اضطجعت على صدرها، وأراد ذبحها؛ جزعت المرأة فأطلق الله لسان ابنتها، فتكلمت، وهي من الأربعة الذين تكلموا في المهد صغاراً أطفالاً، وقالت: يا أماه لا تجزعي، فإن الله قد بنى لك بيتاً في الجنة، فاصبري، فإنك تفضين إلى رحمة الله وكرامته! فذبحت، فلم تلبث الأم أن ماتت. أسكنها الله الجنة!.

قال: وبعث في طلب زوجها حزقيل، فلم يقدروا عليه. فقيل لفرعون: إنه رؤي في موضع كذا في جبل، فبعث رجلين في طلبه، فانتهى إليه الرجلان، وهو يصلي، وثلاثة صفوف من الوحش خلفه يصلُّون، فلما رأوا ذلك؛ انصرفوا. فقال حزقيل: اللهم إنك تعلم أني كتمت إيماني مئة سنة، ولم يظهر علي أحد، فأيما هذين الرجلين كتم عليَّ فاهده إلى دينك، وأعطه من الدنيا سؤله! وأي هذين الرجلين أظهر عليَّ؛ فعجل عقوبته في الدنيا، واجعل مصيره في الآخرة إلى النار! فانصرف الرجلان إلى فرعون، فأما أحدهما؛ فاعتبر، وآمن، وأما الآخر؛ فأخبر فرعون بالقصة على رؤوس الملأ، فقال فرعون ـ لعنه الله ـ: وهل معك غيرك؟ قال: نعم فلان، فدعا به، فقال: أحق ما يقول هذا؟ قال: ما رأيت مما يقول شيئاً، فأعطاه فرعون، وأجزل، وأما الآخر فقتله، ثم صلبه. وأما حزقيل؛ فإنه خرج مع موسى إلى أرض فلسطين، وكان من الناجين مع بني إسرائيل.

قال: وكان فرعون قد تزوج امرأة من أجمل نساء بني إسرائيل، يقال لها: آسية بنت مزاحم، فرأت ما صنع فرعون بالماشطة، فقالت: وكيف يسعني أن أصبر على ما يفعل فرعون؛ وأنا مسلمة، وفرعون كافر، فبينما هي كذلك تؤامر نفسها؛ إذ دخل عليها فرعون، فجلس قريباً منها، فقالت: يا فرعون! أنت أشر الخلق، وأخبثهم، عمدت إلى الماشطة، فقتلتها! قال: فلعل بك الجنون؛ الذي كان بها. قالت: ما بي جنون، إن إلهها، وإلهي، وإله السموات، والأرض واحد لا شريك له! فبصق عليها، وضربها، وأرسل إلى أبيها، وأمها، فدعاهما. وقال لهما: إن الجنون الذي كان بالماشطة أصابها. قالت: أعوذ بالله من ذلك، إني أشهد: أن ربي، وربك،

ورب السموات، والأرض واحد، لا شريك له! فقال لها أبوها: يا آسية! ألست من خير نساء العماليق، وزوجك إله العماليق؟ قالت: أعوذ بالله من ذلك! إن كان ما يقول حقاً؛ فقولا له: يتوجني تاجاً تكون الشمس أمامه، والقمر خلفه، والكواكب حوله.

فقال لهما فرعون ـ لعنه الله ـ: اخرجا عني، ثم مدها بين أربعة أوتاد يعذبها، ففتح الله لها باباً إلى الجنة؛ ليهون عليها ما يصنع بها فرعون، فعند ذلك قالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ الآية رقم [١١] من سورة (التحريم)، فقبض الله روحها، وأدخلها الجنة. انتهى. كله من الخازن. وانظر الذين تكلموا في المهد في سورة (البروج) رقم [٤].

الإعراب: ﴿وَفِرْعَوْنَ﴾: الواو: حرف عطف. (فرعون): معطوف على (عاد) و(ثمود) مجرور مثلهما، وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية، والعجمة. ﴿ذِى﴾: صفة (فرعون) مجرور مثله، وعلامة جره الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه من الأسماء الخمسة، و﴿ذِى﴾ مضاف، و﴿ٱلْأَوْتَادِ﴾ مضاف إليه. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل جر صفة، أو بدل من (عاد) و(ثمود) و(فرعون)، ويجوز قطعه من وجهين: أحدهما على إضمار مبتدأ، التقدير: هم الذين، والثاني على إضمار فعل، التقدير: أعني، أو أذم.

﴿طَغَوْا۟﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف المحذوفة لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة؛ التي هي فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾: متعلقان بما قبلهما، وجملة: ﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ معطوفة على جملة الصلة، لا محل لها مثلها. ﴿فَصَبَّ﴾: الفاء: حرف عطف. (صب): فعل ماض. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿رَبُّكَ﴾: فاعله، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿سَوْطَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿عَذَابٍ﴾: مضاف إليه، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها أيضاً. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿رَبَّكَ﴾: اسمها، والكاف في محل جر بالإضافة... إلخ. ﴿لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾: اللام: هي المزحلقة. (بالمرصاد): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية تعليل لما قبلها. قال أبو السعود ـ رحمه الله تعالى ـ: إيذاناً بأن كفار قومه ﷺ سيصيبهم مثل ما أصاب المذكورين من العذاب، كما ينبئ عنه التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره ﷺ. انتهى.

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾

الشرح: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: الكافر. وذكر ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بعض زعماء قريش بأسمائهم، والأولى التعميم؛ لأن التخصيص؛ أي: خصوص السبب لا يمنع التعميم. ﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾: اختبره، وامتحنه بالنعمة، والرخاء، وبسط العيش. ﴿فَأَكْرَمَهُۥ﴾: بالمال، والولد،

والمنصب، والجاه، والصحة، والعافية، وغير ذلك من متع الحياة، ولذائذها. ﴿وَنَعَّمَهُۥ﴾: ورفهه بما أنعم عليه. ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾: بما أعطاني، فيفرح بذلك، ولا يحمده، ولا يشكره. هذا؛ وقابل قوله: ﴿وَنَعَّمَهُۥ﴾، بقوله: ﴿فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ﴾، ولم يقابل قوله: ﴿فَأَكۡرَمَهُۥ﴾: بلفظ: «فأهانه»؛ لأنه ليس مَنْ ضيق عليه في الرزق؛ كان ذلك إهانة له! ألا ترى إلى ناس كثيرين من أهل التقوى، والصلاح مُضيَّقاً عليهم في الرزق.

فإن قيل: كيف سُمِّيَ كلٌّ من الأمرين: من بسط الرزق، وتقتيره ابتلاءً؟ أجيب بأن كلاً منهما اختبار للعبد، فإذا بسط له؛ فقد اختبر حاله: أيشكر، أم يكفر؟ وإذا قدر عليه رزقه؛ فقد اختبر حاله: أيصبر، أم يجزع؟ فالحكمة فيهما واحدة. فإن قيل: فهلَّا قال: فأهانه، وقدر عليه رزقه، كما قال: فأكرمه ونعمه؟ أجيب بأن البسط إكرام من الله لعبده بإنعامه عليه متفضلاً، وأما التقتير؛ فليس بإهانة له؛ لأن الإخلال بالتفضيل لا يكون إهانة، ولكن يكون تركاً للكرامة، وقد يكون المنعم مكرماً ومهيناً، وغير مكرم، ولا مهين، فمثلاً إذا أهدى لك زيد هدية؛ قلت: يكرمني بالهدية، وإذا لم يهد إليك؛ لا تقول: أهانني، ولا أكرمني. انتهى. جمل.

الإعراب: ﴿فَأَمَّا﴾: الفاء: حرف استئناف. وقال الزمخشري: فإن قلت: بم اتصل قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ قلت: اتصل بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾، فكأنه قيل: إن الله تعالى لا يريد من الإنسان إلا الطاعة، فأما الإنسان؛ فلا يريد ذلك، ولا يهمه إلا العاجلة. انتهى. يعني بالتعلق من حيث المعنى. وفي كلامه نفحة اعتزالية واضحة.

(أما): أداة شرط، وتفصيل، وتوكيد، أما كونها أداة شرط؛ فلأنها قائمة مقام أداة الشرط، وفعله، بدليل لزوم الفاء بعدها؛ إذ الأصل: مهما يكن من شيء. وأما كونها أداة تفصيل؛ فلأنها في الغالب تكون مسبوقة بكلام مجمل، وهي تفصله. ويعلم ذلك مَنْ تتبع مواقعها. وأما كونها أداة توكيد؛ فلأنها تحقق الجواب، وتفيد: أنه واقع لا محالة؛ لكونها علقته على أمر متيقن.

﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾: مبتدأ. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك مبني على السكون في محل نصب. ﴿مَا﴾: صلة. ﴿ٱبۡتَلَىٰهُ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر. ﴿رَبُّهُۥ﴾: فاعل، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها، وجواب ﴿إِذَا﴾ محذوف، لدلالة ما بعده عليه، والجملة الشرطية معترضة بين المبتدأ، والخبر، ومفاد كلام الجَمَل: أنَّ ﴿إِذَا﴾ ظرف مجرد عن الشرطية معلق بما بعده. فقد قال ـ رحمه الله تعالى ـ: والظرف المتوسط بين المبتدأ والخبر في نية التأخير، كأنه قال: فأما الإنسان؛ فقائل: ربي أكرمني وقت الابتلاء، وجملة: (أكرمه ونعمه) معطوفتان على ما قبلهما، فهما في محل جر مثلها.

﴿فَيَقُولُ﴾: الفاء: واقعة في جواب (أما). (يقول): فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾. ﴿رَبِّىٓ﴾: مبتدأ مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة، والياء في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿أَكْرَمَنِ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿رَبِّىٓ﴾ والنون للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة المدلول عليها بالكسرة في محل رفع فاعل، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، وجملة: (يقول...) إلخ في محل رفع خبر المبتدأ الذي هو الإنسان. هذا؛ وقرئ بإثبات ياء المتكلم، وحذفها في الفعلين ﴿أَكْرَمَنِ﴾ و﴿أَهَٰنَنِ﴾، ولا يخفى عليك أن النون تسكن في الوقف، ومثل ذلك قول الأعشى ـ وهو الشاهد رقم [١٢٩] من كتابنا: «فتح رب البرية» ـ: [المتقارب]

فَهَلْ يَمْنَعَنِّي ارْتِيَادِي الْبِلَا دَ مِنْ حَذَرِ الْمَوتِ أنْ يَأْتِيَنْ؟

وَمِنْ شَانِئٍ كَاسِفٍ وَجْهُهُ إذَا مَا انْتَسَبْتُ لَهُ أنْكَرَنْ

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾

الشرح: (قدر): ضيق. ﴿عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾: أعطاه على قدر البلغة، والحاجة. ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ أي: أذلني بالفقر، وأولاني هواناً بسببه. وهذه صفة الكافر؛ الذي لا يؤمن بيوم القيامة، والجزاء فيه، وإنما الكرامة عنده، والهوان بكثرة حظوظ الدنيا، وقلتها. فأما المؤمن؛ فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته، وتوفيقه المؤدي إلى حظوظ الآخرة، وإن وسّع عليه في الدنيا؛ حمده، وشكره.

قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: قلت: الآيتان صفة كل كافر، وكثير من المسلمين يظن أن ما أعطاه الله لكرامته، وفضيلته عند الله، وربما يقول بجهله: لو لم أستحق هذا لم يعطنيه الله. وكذا إن قتر عليه يظن: أن ذلك لهوانه على الله. انتهى. وهذا ظن فاسد، وزعم كاذب، وخذ ما يلي:

فالرسول ﷺ قال: «**وإن الله عزَّ وجلَّ يُعطِي الدنيا مَنْ يُحِبُّ، ومَنْ لا يحبّ، ولا يُعطي الدينَ إلا لِمَنْ أحبَّ. فمَنْ أَعْطاهُ الدِّين؛ فقدْ أَحَبَّهُ**». من حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ. وعن أبي سعيد الخدري، ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «**إن اللهَ عزَّ وجلّ لَيحْمِي عَبْدَهُ المؤمنَ من الدنيا، وهو يحبه كما تَحْمُون مريضكم الطعَامَ والشرابَ**». رواه الحاكم.

هذا؛ ولا تنس: أن الله جلت قدرته، وتعالت حكمته. قال: ﴿ٱبْتَلَىٰهُ﴾ في حالة الغنى، والسعة. وقال: ﴿ٱبْتَلَىٰهُ﴾ في حالة الفقر، والضيق. فهذا التصريح بأن الخير اختبار، وامتحان، والشر اختبار، وامتحان. كيف لا؟ وقد قال تعالى في سورة (الأعراف) رقم [١٦٨]: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم

بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. وقال في سورة (الأنبياء) رقم [٣٥]: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾. والصحة، والعافية، والمال، والولد، والجوارح كلها نعم، فهي ابتلاء، واختبار، وامتحان، والأمراض، والآفات، والمصائب، والمتاعب في الدنيا كلها ابتلاء، واختبار، وامتحان، وخذ ما يلي:

فعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: «**إنَّ الله عَزَّ وجل قال: "يا عيسى إني باعثٌ من بعدك أمةً إن أصابهم ما يحبُّون؛ حمدوا الله، وإن أصابهم ما يكرهون؛ احتسبوا، وصبروا، ولا حلم، ولا علم فقال: يا ربِّ كَيْفَ يكونُ هذَا؟! قالَ: أُعْطِيهِمْ من حِلْمِي وعِلْمِي**». رواه الحاكم، وقال: صحيح على شرط البخاري. هذا؛ ولا أرى حاجة إلى إعراب الآية، فإن إعرابها مثل سابقتها بلا فارق مع ملاحظة أن المبتدأ محذوف، وجملة: ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ﴾ في محل رفع خبره، التقدير: وأما هو؛ أي: الإنسان... إلخ. هذا؛ والمقابلة واضحة بين الآيتين الكريمتين. هذا؛ وقال ابن كيسان: ويقال: أبلاه، وبلاه في الخير، والشر، وأنشد قول زهير في ممدوحيه: هرم بن سنان، والحارث بن عوف المرِّيّيْن: [الطويل]

جَـزَى الله بـالإحـسـانِ مـا فَـعَـلَا بـكُـمْ وأبـلاهـمَـا خـيـرَ الـبـلاءِ الـذي يَـبْـلُـو

فجمع بين اللغتين. وقيل: الأكثر في الخير: أبليته، وفي الشر: بلوته، وفي الاختبار: ابتليته، وبلوته. قاله النحاس.

﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَـٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾

الشرح: ﴿كَلَّا﴾: ردع، وزجر، وردٌّ لما يظنه الكافر، والفاجر، فليس الغنى لفضله، ولا الفقر لهوانه، وإنما الفقر، والغنى، والعز، والذلة من تقدير العزيز العليم، وقضائه، وحكمه، وحكمته. وفي الحديث القدسي يقول الله عزَّ وجلَّ: «**كلَّا إني لا أكرم مَنْ أكرمتُ بكثرة الدنيا، ولا أهينُ مَنْ أهنتُ بقلَّتها، إنَّما أكرم مَنْ أكرمتُ بطاعتي، وأهين مَنْ أهنتُ بمعصيتي**».

﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾: لا تحسنون إليه، ولا تعطونه حقَّه من الميراث، فهو إخبار عن ما كانوا يصنعونه. فهو إضرابٌ من قبيح إلى أقبح للترقي في ذمهم. قال مقاتل ـ رحمه الله تعالى ـ: نزلت في قدامة بن مظعون: كان يتيماً في حجر أمية بن خلف، وكان يدفعه عن حقِّه، ولا يعطيه ماله، وكانوا في الجاهلية لا يورثون أنثى، ولا صغيراً، بل ينفرد بالميراث الرجال المقاتلون، وكانوا يقولون: كيف نعطي أموالنا لمن لا يذود عنا، ولا يحمي حمانا؟!.

﴿وَلَا تَحَـٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾: ولا تحثون أنفسكم، وأهليكم، ومن يتصل بكم من أقاربكم، وأصدقائكم على إطعام الفقراء، والمساكين مما يفضل عنكم من أموالكم. هذا؛

وأصل الفعل: تتحاضون، فحذفت تاء المضارعة للتخفيف، وهو كثير مستعمل في القرآن الكريم، واللغة العربية، والفعل يدل على المفاعلة، وقرئ: (تحضون)، وفي سورة (الحاقة): ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ وكذا في سورة (الماعون) رقم [٣].

﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾: ميراث اليتامى، والنساء، وأصله: الوراث فأبدلوا الواو تاء؛ لأنه من ورثت، كما قالوا في تجاه، وتخمة، وتكأة، وتؤدة، ونحو ذلك. ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ أي: شديداً، وأصل اللم، واللمم في الكلام العربي: الجمع الشديد. يقال: لممت الشيء ألمه لمّاً إذا جمعته من هنا، وهناك. قال الحطيئة: [الطويل]

إذَا كـانَ لَـمّـاً يُـتْـبِـعُ الـذَّمَّ أَهْـلَـهُ … فـلا قـدَّسَ الـرحـمـنُ تـلـكَ الـطـواحِـنَـا

أي: إذا كان الأكل ذا لم. وجمع بين ما يحمد، وما لا يحمد: فلا ينفك الذم عن صاحب الأكل يتبعه. ومنه يقال: لَمَّ الله شعثه. أي: جمع ما تفرق من أموره. قال النابغة الذبياني: [الطويل]

ولـسـتَ بـمـسـتـبـقٍ أخـاً لَا تَـلُـمُّـهُ … عَـلَـى شَـعَـثٍ أَيُّ الـرجـالِ الـمُـهَـذَّبُ؟

وقيل: يأكلون ما جمعه الميت من الظلم؛ وهم عالمون بذلك، فيلمون في الأكل بين حرامه، وحلاله. ويجوز أن يذم الوارث الذي ظفر بالمال سهلاً مهلاً من غير أن يعرق فيه جبينه فيسرف في إنفاقه، ويأكله أكلاً واسعاً، جامعاً بين المشتهيات من الأطعمة، والأشربة، والفواكه، كما يفعل الورّاث البطّالون.

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أي: كثيراً، حلاله، وحرامه، والجم: الكثير، ومنه: جمَّ الماء في الحوض: إذا اجتمع، وكثر. قال أبو خراش الهذلي ـ والصحيح: أنه لأمية بن أبي الصلت، وهو الشاهد رقم [٤٤٦] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الرجز]

إنْ تَـغْـفِـرِ الـلَّـهُـمَّ تَـغْـفِـرْ جَـمَّـا … وأَيُّ عَـبْـدٍ لَـكَ لَا أَلَـمَّـا؟

هذا؛ وتقرأ الأفعال الأربعة بتاء المضارعة على الالتفات من الغيبة في الأفعال السابقة إلى الخطاب هنا، كما تقرأ بالياء، وعليه فلا التفات.

تنبيه: قال الجمل ـ رحمه الله تعالى ـ: وكان حكم الإرث عندهم من بقايا شريعة إسماعيل، على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام؛ أي: مما هو معلوم لهم، وثابت عندهم بطريق عادتهم، وغيروا، وبدلوا، فلا يقال: السورة مكية، وآية المواريث مدنية، ولا يعلم الحل، والحرمة إلا من الشرع. انتهى. بتصرف، إذاً فالمراد توبيخهم، وتقريعهم على تحريفهم، وتبديلهم. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿كَلَّا﴾: حرف ردع وزجر. وانظر الآية رقم [١٦] من سورة (المدثر). ﴿بَل﴾: حرف إضراب. ﴿لَّا﴾: نافية. ﴿تُكْرِمُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون؛ لأنه

من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، ﴿ٱلْيَتِيمَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها، والتي بعدها معطوفة عليها، و﴿طَعَامِ﴾ مضاف، و﴿ٱلْمِسْكِينِ﴾ مضاف إليه، من إضافة اسم المصدر لمفعوله، وفاعله محذوف، والتي بعدها معطوفة عليها، وإعرابها واضح إن شاء الله. ﴿أَكْلًا﴾: مفعول مطلق. ﴿لَّمًّا﴾: صفة له. ﴿حُبًّا﴾: مفعول مطلق. ﴿جَمًّا﴾: صفة له.

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾

الشرح: ﴿كَلَّآ﴾ أي: ما هكذا ينبغي أن يكون الأمر، فهو ردٌّ وزجرٌ، وردعٌ لانكبابهم على الدنيا، وجمعهم لها، فإن من فعل ذلك يندم يوم تُدَكُّ الأرض، ولا ينفع الندم. والمعنى: ارتدعوا أيها الغافلون، وانزجروا عن ذلك، فإن أمامكم أهوالاً عظيمة يوم القيامة، وذلك حين تزلزل الأرض، وتحرك تحريكاً متتابعاً. هذا؛ وفي المختار: الدكُّ: الدقُّ، وقد دكَّه: إذا ضربه، وكسره، وسواه بالأرض. وبابه: ردَّ، ومنه قوله تعالى في سورة (الحاقة): ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾. قال الأخفش: هي أرض دك، والجمع: دكوك. والآية الكريمة تفيد: أن الأرض يبدل شكلها، وهيئتها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ رقم [٤٨] من سورة (إبراهيم) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام. وانظر ما ذكرته في سورة (الحاقة) رقم [١٤]، وفي سورة (النبأ) رقم [٢٠].

الإعراب: ﴿كَلَّآ﴾: حرف ردع، وزجر. ﴿إِذَا﴾: انظر الآية رقم [١٥]. ﴿دُكَّتِ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، والتاء للتأنيث. ﴿ٱلْأَرْضُ﴾: نائب فاعله، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها، وجواب ﴿إِذَا﴾ محذوف، يدل عليه الكلام الآتي، وهو ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ وصحح السمين: أنه هو الخبر. ﴿دَكًّا﴾: مفعول مطلق. ﴿دَكًّا﴾: مفعول مطلق مؤكد لما قبله. وهما مصدران في موضع الحال على رأي: أبي حيان، والزمخشري، كقرأت الكتاب باباً باباً.

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾

الشرح: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أي: أمره، وقضاؤه، وهو من باب حذف المضاف. وفي الجَمَل: حصل تجليه على الخلائق، وظهر سلطانه، وقهره، وظهرت أهوال يوم الموقف، وغير ذلك مما لا يكاد يحصر. وفي البيضاوي: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أي: ظهرتْ آيات قدرته، وآثار قهره، مثل ذلك، بما يظهر عند ظهور السلطان من آثار هيبته، وسياسته. ﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ أي: مصطفين صفوفاً. هذا؛ وقد قال تعالى في سورة (الفرقان) رقم [٢٥]: ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ أي: ينزلون بصحائف العباد إلى الأرض، وذلك لحساب الثقلين من الإنس والجن. قال ابن عباس ـ رضي

الله عنهما ـ: تتشقق سماء الدنيا، فينزل أهلها، وهم أكثر ممن في الأرض من الجن، والإنس، ثم تشقق السماء الثانية، فينزل أهلها، وهم أكثر مِمَّن في سماء الدنيا، ثم كذلك؛ حتى تنشق السماء السابعة، وأهل كل سماء يزيدون على أهل السماء التي تليها، ثم ينزل الكروبيون، ثم حملة العرش، وإذا نزل ملائكة سماء الدنيا اصطفوا حول العالم المجموع في المحشر صفاً، وإذا نزل ملائكة السماء الثانية اصطفوا خلف هذا الصف، وهكذا حتى تصير الصفوف سبعة، كلهم يحرسون أهل المحشر من الفرار، والهرب.

﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾: قال ابن مسعود، ومقاتل ـ رضي الله عنهما ـ: تقاد جهنم بسبعين ألف زمام، كل زمام بيد سبعين ألف ملك، لها تغيظ وزفير، حتى تنصب عن يسار العرش. وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«يُؤْتَى بجهنم يومئذٍ لها سبعونَ ألفَ زمامٍ معَ كُلِّ زِمامٍ سبعون ألفَ مَلَكٍ يَجُرُّونها»**. وقال أبو سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ: لمَّا نزلت ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ تغيَّر لون رسول الله ﷺ، وعُرف في وجهه؛ حتى اشْتَدَّ على أصحابه، ثم قال: «**أقرأني جبريل**: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾». قال علي ـ رضي الله عنه ـ: قلت: يا رسول الله! كيف يجاء بها؟ قال: «**يؤتى بها تقاد بسبعين ألف زمام، يقود كل زمام سبعون ألف ملك، فَتَشْرُد شردة، لو تركت؛ لأحرقت أهل الجمع، ثم تعرض لي جهنم، فتقول: مالي ومالك يا محمد! إن الله قد حرم لحمك علي؟ فلا يبقى أحد إلا قال: نفسي نفسي، إلا محمد ﷺ، فإنه يقول: يا رب أمتي! يا رب أمتي!**».

هذا؛ وقد قال تعالى في سورة (الفرقان) رقم [١٢]: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ انظر شرحها هناك تجد ما يسرك، ويثلج صدرك. وانظر الآية رقم [٣٦] من سورة (النازعات). ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: الكافر، وما فرط فيه، ويتوب، ويتعظ. ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي: ومن أين له منفعة الذكرى؟! فلا بد من تقدير المضاف المذكور، وإلا فبين ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ وبين ﴿لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ تنافٍ، وتناقض، والمعنى ومن أين يكون له الانتفاع بالذكرى؛ وقد فات أوانها؟

الإعراب: ﴿وَجَآءَ﴾: الواو: حرف عطف. (جاء): فعل ماض. ﴿رَبُّكَ﴾: فاعله، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. وقد رأيت تقدير المضاف المحذوف في الشرح، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿دُكَّتِ...﴾ إلخ فهي في محل جر مثلها. ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿صَفًّا صَفًّا﴾: حالان، أو حال مركبة بمعنى: مصطفين. ﴿وَجِاْيٓءَ﴾: الواو: حرف عطف. (جيء): فعل ماض مبني للمجهول، ﴿يَوْمَئِذٍۭ﴾: ظرف زمان متعلق بما قبله، و(إذ) ظرف مبني على السكون في محل جر بالإضافة، والتنوين عوض من جملة محذوفة، التقدير: يوم إذْ تجيء. ﴿بِجَهَنَّمَ﴾: متعلقان بالفعل: (جيء)

وهما في محل رفع نائب فاعله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها فهي في محل جر أيضاً. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف زمان متعلق بما بعده. وقيل: هو بدل من ﴿إِذَا﴾ وهذا يصح إذا علقنا ﴿إِذَا﴾ بـ: ﴿يَتَذَكَّرُ﴾. ﴿يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ﴾: مضارع، وفاعله، والجملة الفعلية جواب ﴿إِذَا﴾، لا محل لها، وهذا على مذهب سيبويه، وهو: أنَّ العامل في المبدل منه هو العامل في البدل، ومذهب غيره: أن البدل على نية تكرار العامل. ﴿وَأَنَّىٰ﴾: الواو: حرف استئناف. (أنى): اسم استفهام بمعنى: كيف؟ أو بمعنى: من أين؟ مبني على السكون في محل رفع خبر مقدم. ﴿لَهُ﴾: جار ومجرور متعلقان بالخبر المحذوف، أو بمحذوف خبر ثان. وقيل: متعلقان بالذكرى. ﴿الذِّكْرَىٰ﴾: مبتدأ مؤخر مرفوع... إلخ، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها. وقيل: في محل نصب حال، ولا وجه له؛ لأن الاستفهام إنشاء، والإنشاء لا يكون حالاً. وانظر مثلها في سورة (الدخان) رقم [١٣] وفي سورة (محمد ﷺ) رقم [١٨].

﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾

الشرح: ﴿يَقُولُ...﴾ إلخ: أي: يقول الإنسان نادماً، ومتحسراً: يا ليتني قدمت عملاً صالحاً ينفعني في آخرتي لحياتي الباقية! فهو يندم على ما كان سلف منه من المعاصي؛ إن كان عاصياً، ويود لو كان محسناً مطيعاً ازداد من الطاعات، كما قال الإمام أحمد بن حنبل عن جبير بن نفير عن محمد بن عمرة، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ قال: (لَوْ أَنَّ عبْداً خرَّ على وجهه مِنْ يوم وُلِدَ إلى أن يموتَ في طاعةِ الله؛ لحقرهُ يوْمَ القيامةِ، ولَوَدَّ: أنهُ رُدَّ إلى الدنيا كيما يزداد من الأجْرِ، والثَّوابِ». وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما مِنْ أحدٍ يموتُ إلا ندِمَ**». قالوا: وما ندامَتُهُ يا رسولَ الله؟! قال: «**إنْ كَانَ مُحْسِناً نَدِمَ ألَّا يكونَ ازدادَ، وإنْ كانَ مسيئاً ندِم ألَّا يكونَ نَزَعَ**». رواه الترمذي، والبيهقي في الزهد.

هذا؛ وقال الزمخشري في الكشاف: وهذا أبين دليل على أن الاختيار كان في أيديهم، ومعلقاً بقصدهم، وإرادتهم، وأنهم لم يكونوا محجوبين عن الطاعات، مجبرين على المعاصي، كمذهب أهل البدع، والأهواء، وإلا فما معنى التحسر؟ انتهى. كشاف، وهذا مذهبه الاعتزالي، ومعتقده أن العبد يخلق أفعال نفسه باختياره، ويعني بقوله: أهل الأهواء والبدع أهل السنة، والغريب: أن أحمد بن المنير لم يصفعه كعادته عند ما يهوي، أو يهفو مثل هذه الهفوات.

وما أحراك أن تنظر قوله تعالى في سورة (الزمر) رقم [٥٦]: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾، والآية الأخيرة من سورة (المنافقون)، وقوله تعالى في سورة (المؤمنون) رقم [١٠٠]: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ وغير ذلك من الآيات.

﴿فَيَوۡمَئِذٖ﴾: يوم القيامة. ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ﴾ أي: لا يعذب كعذاب الله أحد، فالضمير يعود إلى الله عز وجل، ومثله ما بعده، وهو قول ابن عباس، والحسن البصري ـ رضي الله عنهما ـ. انتهى. قرطبي. وفي مختصر ابن كثير: أي: ليس أحد أشد عذاباً من تعذيب الله من عصاه، وليس أحد أشد قبضاً، ووثقاً من الزبانية لمن كفر بربهم عز وجل، وهذا في حق المجرمين من الخلائق، والظالمين. هذا؛ ويقرأ بفتح الذال المشددة، وفتح الثاء، وعليه فالمعنى: لا يعذب أحد في الدنيا كعذاب الله الكافر يومئذ، ولا يوثق كما يوثق الكافر، والمراد: إبليس؛ لأن الدليل قام على أنه أشد الناس عذاباً؛ لأجل إجرامه. فأطلق الكلام لأجل ما صحبه من التفسير. وقيل: إنه أمية بن خلف. حكاه الفراء. يعني: أنه لا يعذب كعذاب هذا الكافر المعيَّن أحد. والعذاب بمعنى التعذيب. والوثاق بمعنى: الإيثاق، فهما اسما مصدر، مثل: عطاء في قول القطامي ـ وهو الشاهد [٥٣١] من كتابنا: «فتح رب البرية» ـ: [الوافر]

أَكُفْراً بعدَ رَدِّ المَوْتِ عَنِّي وبعدَ عطائِكَ المِئةَ الرِّتَاعَا

هذا؛ والوثاق بفتح الواو، وكسرها: القيد، والحبل، ونحوه، والجمع: وُثُق، مثل: رباط، ورُبُط. قال تعالى في سورة (محمد ﷺ) رقم [٤]: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ...﴾ إلخ.

هذا؛ وانظر شرح ﴿أَحَدًا﴾ في الآية رقم [٢٦] من سورة (الجن)، وشرح ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ في سورة (المدثر) رقم [٩].

الإعراب: ﴿يَقُولُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾. ﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾: (يا): حرف تنبيه وتحسر. وقيل: أداة نداء، والمنادى محذوف، التقدير: يا هؤلاء، والأول أقوى. (ليتني): حرف مشبه بالفعل، والنون للوقاية، وياء المتكلم اسمها. ﴿قَدَّمۡتُ﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (ليت)، والجملة الاسمية في محل نصب مقول مقول، وجملة: ﴿يَقُولُ...﴾ إلخ بدل اشتمال من: ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾، أو هي مستأنفة استئنافاً بيانياً وقعت جواباً عن سؤال نشأ منه، كأنه قيل: ماذا يقول عند تذكره؟ فقيل: يقول: يا ليتني عملت لأجل حياتي هذه. انتهى. جمل نقلاً عن أبي السعود. ﴿لِحَيَاتِي﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، وعلامة الجر كسرة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة، والياء في محل جر بالإضافة.

﴿فَيَوۡمَئِذٖ﴾: الفاء: حرف استئناف. (يومئذ): (يوم): ظرف زمان متعلق بما بعده، و(إذ) ظرف لما مضى من الزمان مبني على السكون، والتنوين عوض عن جملة محذوفة، التقدير: يوم إذ تقوم الساعة. ﴿لَّا﴾: نافية. ﴿يُعَذِّبُ﴾: فعل مضارع. ﴿عَذَابَهُۥٓ﴾: مفعول به، وعلى قراءة الفعل بالبناء للمجهول، فهو مفعول مطلق، وهو على حذف مضاف، التقدير: لا يعذب مثل تعذيبه،

والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿أَحَدٌ﴾: فاعل، أو نائب فاعل، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها، والتي بعدها معطوفة عليها، وإعرابها مثلها بلا فارق.

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾

الشرح: لما ذكر الله حال من كانت همَّته الدنيا، فاتهم الله في إغنائه، وإفقاره؛ ذكر حال من اطمأنت نفسه إلى الله تعالى، فسلم لأمره، فاتكل عليه. انتهى. قرطبي. أقول: وهذا من باب المقابلة؛ التي ذكرتها لك كثيراً. انظر الآية رقم [٣٦] من سورة (النبأ).

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ أي: الثابتة على الإيمان، والإيقان، المصدقة بما قال الله تعالى، الموقنة التي أيقنت بالله عز وجل، وخضعت لأمره، وطاعته، هي الراضية بقضاء الله. وقيل: هي الآمنة من عذاب الله. وقيل: هي المطمئنة بذكر الله. قال تعالى في سورة (الرعد) رقم [٢٨]: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾. والراضية بقضاء الله: هي التي علمت، وأيقنت: أنَّ ما أخطأها لم يكن ليصيبها، وأن ما أصابها لم يكن ليخطئها. وقيل: هي المخلصة. وقيل: هي العارفة بالله؛ التي لا تصبر عنه طرفة عين. وقال ابن زيد: المطمئنة؛ لأنها بشرت بالجنة عند الموت، وعند البعث، والحشر. قيل: نزلت في الحمزة حين استشهد بأحد. وقيل: في خبيب ابن عدي الأنصاري؛ الذي صلبه أهل مكة. وقيل: في عثمان بن عفان حين اشترى بئر رومة. وقيل: في أبي بكر، ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ. والأصح: أنها عامة في كل نفس مؤمنة مطمئنة؛ لأن هذه السورة مكية.

﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ أي: إلى ما وعد ربك من الخير العميم، والثواب المقيم. يقال لها ذلك عند خروجها من الدنيا. قال عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: (إذا توفي العبد المؤمن؛ أرسل الله عز وجل إليه ملكين، وأرسل إليه بتحفة من الجنة، فيقال: اخرجي أيتها النفس المطمئنة، اخرجي إلى روح، وريحان، وربك عنك راض. فتخرج كأطيب ريح مسك، وجده أحد في أنفه، والملائكة على أرجاء السماء، يقولون: قد جاء من الأرض روح طيبة، ونسمة طيبة، فلا تمر بباب إلا فتح لها، ولا بملك إلا صلى عليها؛ حتى يؤتى بها الرحمن جل جلاله، فتسجد له، ثم يقال لميكائيل: اذهب بهذه النفس، فاجعلها مع أنفس المؤمنين، ثم يؤمر، فيوسع عليه قبره، فسبعون ذراعاً عرضه، وسبعون ذراعاً طوله، وينبذ له الروح، والريحان فإن كان معه شيء من القرآن؛ كفاه نوره، وإن لم يكن؛ جعل له مثل نور الشمس في قبره، ويكون مثله مثل العروس ينام، فلا يوقظه إلا أحبُّ أهله إليه.

وإذا توفي الكافر أرسل الله إليه ملكين، وأرسل قطعة من بجاد؛ (أي: من كساء) أنتن من كل نتن، وأخشن من كل خشن، فيقال: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى جهنم، وعذاب أليم، وربك عليك غضبان). وانظر الآية رقم [٣٠] من سورة (فصلت).

﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾: راضية بالثواب، مرضية عند الله، جامعة بين الوصفين، والمعنى قد رضيت عن الله، ورضي الله عنها، وأرضاها، مثل قوله تعالى في كثير من الآيات: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾ وانظر النفس، ومراتبها في أول سورة (القيامة).

﴿فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾ أي: انتظمي في سلكهم، أو مع عبادي، أو في زمرة المقربين. وفي الخازن، وغيره: أي: ادخلي في جملة عبادي الصالحين المصطفين، كما قال تعالى في سورة (العنكبوت) رقم [٩]: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وفي سورة (النمل) رقم [١٩] قوله تعالى حكاية عن قول سليمان على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. ﴿وَٱدْخُلِي جَنَّتِي﴾ أي: معهم. هذا؛ وروى الحافظ ابن عساكر عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال لرجل: «**قل: اللهم إني أسألك نفساً بك مطمئنةً، تؤمِنُ بلقائِكَ، وترضى بقضائِكَ، وتقنعُ بعطائِكَ**». هذا؛ وقال سعيد بن جبير ـ رضي الله عنه ـ: مات ابنُ عباس ـ رضي الله عنهما ـ بالطائف، فشهدت جنازته، فجاء طائر، لم ير على خلقه طائر قط، فدخل نعشه، ثم لم ير خارجاً منه، فلما دفن، تُلِيت هذه الآية على شفير القبر، لا يُدرى من تلاها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي﴾. انتهى. خازن، وقرطبي، ونسفي. والله أعلم، وأجل، وأكرم.

الإعراب: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا﴾: (يا): أداة نداء تنوب مناب: أدعو، أو أنادي. (أيتها): منادى نكرة مقصودة مبنية على الضم في محل نصب بأداة النداء، و(ها): حرف تنبيه لا محل له، أقحم للتوكيد، وهو عوض من المضاف إليه، ولا يجوز اعتبار الهاء ضميراً في محل جر بالإضافة؛ لأنه يجب حينئذ نصب المنادى. ﴿ٱلنَّفْسُ﴾: بدل من (أيتها)، أو عطف بيان عليه، والجملة الندائية في محل نصب مقول القول لقول محذوف؛ أي: يقول الله لها. ﴿ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾: صفة ﴿ٱلنَّفْسُ﴾. ﴿ٱرْجِعِيٓ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون لاتصاله بياء المؤنثة المخاطبة، والياء ضمير متصل في محل رفع فاعل. هذا هو الإعراب المتعارف عليه في مثل هذا الفعل، والإعراب الحقيقي أن تقول: مبني على السكون المقدر على آخره، منع من ظهوره اشتغال المحل بالكسرة التي جيء بها لمناسبة ياء المخاطبة، وقل مثله في: ارجعا، والمانع من ظهور السكون، الفتح الذي جيء به لمناسبة ألف الاثنين، وأيضاً قولك: ارجعوا، والمانع من ظهور السكون الضم الذي جيء به لمناسبة واو الجماعة؛ التي هي فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول مثل الجملة الندائية قبلها. ﴿إِلَىٰ رَبِّكِ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما،

والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾: حالان من ياء المخاطبة. (ادخلي): مثل سابقه في الإعراب. ﴿فِي عِبَادِي﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما وعلامة الجر كسرة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة، والياء في محل جر بالإضافة. ﴿جَنَّتِي﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم... إلخ.

فائدة: فِعْل: «دخل» إذا كان المدخول فيه غير ظرف حقيقي؛ تعدى إليه بـ: (في)، نحو: دخلت في الأمر، ودخلت في غمار الناس، ومنه قوله تعالى: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ أي: في جملة عبادي الصالحين، وإذا كان المدخول فيه ظرفاً حقيقياً؛ تعدت إليه في الغالب بغير وساطة (في) ومنه قوله تعالى: ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ وهذا على أنه ظرف مكان عند بعض النحاة، وفي مقدمتهم سيبويه، والمحققون وعلى رأسهم الأخفش ينصبونه على التوسع في الكلام بإسقاط الخافض، لا على الظرفية، فهو منتصب عندهم انتصاب المفعول به على السعة، بإجراء اللازم مجرى المتعدي، ومثل ذلك قل في: (دخلت المدينة، ونزلت البلد، وسكنت الشام). وهذا إذا كان الفعل ثلاثياً، وأما إذا كان رباعياً دخلت عليه همزة التعدية، ونصب مفعولين، فالمفعول الأول يكون صريحاً، والثاني يقال فيه ما ذكر في مفعول الثلاثي. تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

انتهت سورة (الفجر) شرحاً، وإعراباً بعون الله، وتوفيقه.

والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ البَلَدِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة (البلد) مكية باتفاق، وآياتها عشرون. وكلماتها اثنتان وثمانون، وحروفها ثلاثمئة وعشرون. انتهى. خازن.

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾

الشرح: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ أي: مكة. فقد أجمعوا عليه، فإن الله تعالى جعله حرماً آمناً، ومثابةً للناس، وجعل مسجده قبلةً لأهل المشرق والمغرب من المسلمين، وشرفه بمقام إبراهيم، وحرم فيه الصيد، وجعل البيت المعمور بإزائه، ودحيت الأرض من تحته، فهذه الفضائل وغيرها لما اجتمعت في مكة دون غيرها؛ أقسم الله بها. انتهى. جمل نقلاً من الرازي. هذا؛ وقد اختلف في (لا) فقيل: صلة. قاله الأخفش؛ أي: أقسم؛ لأنه قال: بهذا البلد، وقد أقسم به في سورة (التين) في قوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ فكيف يجحد القسم به، وقد أقسم به. قال الشاعر: [الطويل]

تَذَكَّرْتُ لَيْلَى فاعْتَرتْنِي صَبَابَةٌ ... وَكَادَ صَمِيمُ القَلْبِ لا يَتَقَطَّعُ

أراد: وكاد صميم القلب يتقطع. وقال بعضهم ﴿لَآ﴾ ردٌّ لكلامهم، حيث أنكروا الحشر، والنشر، فقال: ليس الأمر كما تزعمون. وهذا قول الفراء. وقال القشيري: قوله ﴿لَآ﴾ ردٌّ لما توهم الإنسان المذكور في هذه السورة. المغرور بالدنيا؛ أي: ليس الأمر كما يحسبه من أنه لن يقدر عليه أحد، ثم ابتدأ القسم. قالوا: وفائدتها تأكيد القسم، كقولك: لا والله ما ذاك! تريد والله، فيجوز حذفها لكنه أبلغ في الرد مع إثباتها. وقيل: اللام لام الابتداء، فأشبعت بالمد، فتولدت الألف، ويؤيده قراءة ابن كثير: (لأقسم) بغير ألف المد، ويعبر عن قراءة ابن كثير بالقصر، وعن قراءة الباقين بالمد، وعلى قراءة ابن كثير فاللام لام الابتداء، وجملة: ﴿أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: لأنا أقسم بهذا البلد، ولو أريد به الاستقبال؛ للزمت النون، وقد جاء حذف نون التوكيد مع الفعل الذي يراد به الاستقبال، وهو شاذ. وانظر ما ذكرته في أول سورة (القيامة) إن أردت الزيادة.

﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ أي: مقيم به نازل فيه. فكأنه عظم حرمة مكة من أجل أن النبي ﷺ مقيم بها. وقيل: ﴿حِلٌّ﴾ أي: حلال، فقد ذكر أهل اللغة: أنه يقال: رجل حِل، وحلال، ومُحِل. ورجل حرام، ومُحْرِم، وحِرْم. والمعنى: أُحِلّتْ لك تصنع فيها ما تريد من القتل والأسر، ليس عليك ما على الناس من الإثم في استحلالها. أحل الله عز وجل له مكة يوم الفتح حتى قاتل، وأمر بقتل عبد الله بن خطل، وهو متعلق بأستار الكعبة، قتله أبو برزة الأسلمي بأمر الرسول ﷺ، وأمر بقتل مقيس بن صبابة، وغيرهما، وأحل دماء قوم، وحرم دماء قوم آخرين، فقال: «**من دخل دار أبي سفيان؛ فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه، فهو آمن، ومن دخل المسجد؛ فهو آمن**». ثم قال بعد ذلك: «**إن الله حرم مكة يوم خلق السموات، والأرض، ولم تحل لأحد بعدي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة**».

والمعنى: أن الله تعالى لما أقسم بمكة؛ دل ذلك على عظم قدرها، وشرفها، وحرمتها، ومع ذلك فقد وعد نبيه ﷺ أنه يحلها له؛ حتى يقاتل فيها، وأن يفتحها على يده، فهذا؛ وعد من الله تعالى في الماضي، وهو مقيم بمكة أن يفتحها عليه في المستقبل بعد الهجرة، وخروجه منها، فكان كما وعده. انتهى. خازن.

وقد قال الرسول ﷺ يوم فتح مكة: «**إن هذا البلد حرامٌ، حرَّمَهُ الله يَوْمَ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ، فهوَ حرامٌ بحرمة الله إلى يومِ القيامةِ، لا يُعْضَدُ شَجَرُهُ، ولا يُخْتَلَى خلَاهُ، وإنما أحِلَّتْ لي ساعةً مِنْ نهارٍ، وقد عادت حرمتها اليومَ كحرْمَتِها بالأمسِ، ألا فَلْيُبلِّغ الشاهدُ الغائبَ**». متفق عليه، وفي لفظ آخر: «**فإن أحَدٌ ترَخَّصَ بقتالِ رسولِ الله، فقولُوا: إنَّ الله أذِنَ لرسولِهِ، ولمْ يأذنْ لَكُم**». انتهى. مختصر ابن كثير.

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾: قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، والحسن، وأبو صالح: ﴿وَوَالِدٍ﴾ آدم عليه السلام، ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ أي: وما نسل من ذريته، وولده. أقسم ربهم بهم؛ لأنهم أعجب ما خلق الله تعالى على وجه الأرض لما فيهم من التبيان، والنطق، والتدبير، وفيهم الأنبياء، والدعاة إلى الله تعالى. انتهى. قرطبي. وقال الخازن: أقسم الله بمكة لشرفها وحرمتها، وبآدم وبالأنبياء والصالحين من ذريته؛ لأن الكافر، وإن كان من ذريته؛ فلا حرمة له؛ حتى يقسم به.

وقال الفراء: وصلحت (ما) للناس كقوله في سورة (النساء) رقم [٣]: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ وقوله تعالى في سورة (الليل): ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ والله هو الخالق للذكر، والأنثى. وقيل: ما مع ما بعدها في موضع المصدر؛ أي: ووالد وولادته، كقوله تعالى في سورة (الشمس): ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾. وقال عكرمة، وسعيد بن جبير: ﴿وَوَالِدٍ﴾ يعني: الذي يولد له. ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ يعني: العاقر الذي لا يولد له. وقاله ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ و(ما) على هذا نفي. وهو بعيد، ولا يصح إلا بإضمار الموصول؛ أي: ووالد والذي ما ولد، وذلك لا يجوز عند البصريين. انتهى. قرطبي.

هذا؛ وقال الزمخشري، والنسفي، وغيرهما: نظير قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ في الاستقبال قوله تعالى في سورة (الزمر) رقم [٣]: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ أقول: إذ المعنى: أنت ستحل حرمة هذا البلد، وإنك ستموت، وإنهم سيموتون. وقال البيضاوي: وإيثار (ما) على «مَنْ» لمعنى التعجب، كما في قوله تعالى في سورة (آل عمران) رقم [٣٦]: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾ أي: وضعت (ما) مكان: «من» لإفادة التعجب؛ لأن (ما) لغير العاقل، و«من» للعاقل. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ أي: في شدة، وعناء من مكابدة الدنيا، وأصل الكبد: الشدة، ويقال: كابدت هذا الأمر؛ أي: قاسيت شدته. قال لبيد بن ربيعة ـ رضي الله عنه ـ: [المنسرح]

يَـا عَـيْـنُ هـلَّا بـكـيـتِ أرْبَـدَ إذْ ... قُـمْـنَـا وقـامَ الـخـصـومُ فـي كَـبَـدِ

قال يمان: لم يخلق الله خلقاً يكابد ما يكابد ابن آدم، وهو مع ذلك أضعف الخلق. وقيل: يكابد مصائب الدنيا، وشدائد الآخرة. قال علماؤنا: أول ما يكابد قطع سرته، ثم إذا قُمِط قماطاً، وشدّ رباطاً، يكابد الضيق والتعب، ثم يكابد الارتضاع، ولو فاته لضاع، ثم يكابد نبت أسنانه، وتحرك لسانه، ثم يكابد الفطام؛ الذي هو أشد من اللطام، ثم يكابد الختان، والأوجاع، والأحزان، ثم يكابد المعلم، وصولته، والمؤدب، وسياسته، والأستاذ، وهيبته، ثم يكابد شغل التزويج، والتعجيل فيه، ثم يكابد شغل الأولاد، والخدم، والأجناد، ثم يكابد شغل الدور، وبناء القصور، ثم الكبر، والهرم، وضعف الركبة، والقدم في مصائب يكثر تعدادها، ونوائب يطول إيرادها، من صداع الرأس، ووجع الأضراس، ورمد العين، وغمِّ الدَّين، ووجع السنِّ، وألم الأذن. ويكابد محناً في المال، والنفس، مثل الضرب، والحبس، ولا يمضي عليه يوم إلا يقاسي فيه شدة، ولا يكابد إلا مشقة، ثم الموت بعد ذلك كله، ثم مساءلة الملك في القبر، وضغطة القبر، وظلمته، ثم البعث، والعرض على الله إلى أن يستقر به القرار، إما إلى الجنة، وإما إلى النار. انتهى. قرطبي.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: الكبد: الاستواء، والاستقامة، فعلى هذا يكون المعنى: خلقنا الإنسان منتصباً، معتدل القامة، وكل شيء من الحيوان يمشي منكباً. وقيل: منتصباً في بطن أمه، فإذا أذن الله في خروجه، انقلب رأسه إلى أسفل. انتهى. خازن، والمعتمد الأول.

الإعراب: ﴿لَآ﴾: انظر الكلام عليها في الشرح. ﴿أُقۡسِمُ﴾: فعل مضارع، والفاعل مستتر وجوباً، تقديره: «أنا». ﴿بِهَٰذَا﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، والهاء حرف تنبيه مقحم بين الجار، والمجرور. ﴿ٱلۡبَلَدِ﴾: صفة، أو بدل من اسم الإشارة. ﴿وَأَنتَ﴾: الواو: واو الاعتراض. (أنت): ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿حِلٌّۢ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معترضة بين الاسمين المتعاطفين، وقيل: هي في محل نصب حال من

﴿الْبَلَدِ﴾. قاله أبو حيان، وغيره. ﴿بِهَٰذَا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: ﴿حِلٌّ﴾. ﴿الْبَلَدِ﴾: صفة، أو بدل، أو عطف بيان. ﴿وَوَالِدٍ﴾: الواو: حرف عطف. (والد): معطوف على ﴿الْبَلَدِ﴾. ﴿وَمَا﴾: الواو: حرف عطف. (ما): اسم موصول مبني على السكون في محل جر معطوف على ﴿الْبَلَدِ﴾ أيضاً. ﴿وَلَدَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (ما) والمفعول محذوف، وهو العائد، والجملة صلة: (ما) التقدير: والذي ولده.

﴿لَقَدْ﴾: اللام: واقعة في جواب القسم. (قد): حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿خَلَقْنَا﴾: فعل، وفاعل. ﴿الْإِنسَانَ﴾: مفعول به. ﴿فِي كَبَدٍ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. وقال أبو البقاء. متعلقان بمحذوف حال؛ أي: مكابداً. والجملة الفعلية جواب القسم الأول، واعتبار الواوين الأخيرين للعطف أولى من اعتبارهما للقسم؛ لاحتياج كل واحد منهما إلى جواب، ولا جواب إلا للأول، كما ترى في أول سورٍ كثيرة. ومثل ذلك قول أبي صخر الهذلي ـ وهو الشاهد رقم [٨٠] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الطويل]

أَمَا وَالَّذِي أَبْكَى وأَضْحَكَ والَّذِي أَمَاتَ وأَحْيَا والَّذِي أَمْرُهُ الأَمْرُ

لَقَدْ تَرَكَتْنِي أحسدُ الوحشَ أنْ أرَى أَلِيفَيْنِ مِنهَا لَا يَرُوعُهُمَا الذُّعْرُ

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾﴾

الشرح: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن...﴾ إلخ: قال الكلبي: نزلت الآية في رجل من بني جمح، كان يقال له: أبو الأشد، اسمه: أسيد بن كلدة بن جمح، كان شديداً قوياً، يضع الأديم العكاظي تحت قدميه، ويقول: من أزالني عنه، فله كذا، وكذا! فلا يطاق أن ينزع من تحت قدميه إلا قطعاً، ويبقى من ذلك الأديم بقدر موضع قدميه، وكان من أعداء النبي ﷺ، وقد مات على كفره، وكذلك كان ركانة بن هاشم بن عبد المطلب مثلاً في البأس، والشدة، وقد أسلم ـ رضي الله عنه ـ. وانظر شرح (يحسب) في الآية رقم [٣] من سورة (القيامة).

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ أي: كثيراً مجتمعاً، أنفقته في وجوه الخير. وكان كاذباً؛ حيث أنفقه في عداوة النبي ﷺ وفي وجوه الشر، والطغيان، والفساد، والظلم، والعصيان، والسمعة، والرياء، وغير ذلك مما كان أهل الجاهلية يسمونه مكارم، ومعالي، ومفاخر. وقرئ ﴿لُّبَدًا﴾ بقراءات كثيرة، وهو مِنْ تلَبَّد الشَّيْء: إذا اجتمع. وانظر شرح الآية رقم [١٩] من سورة (الجن) تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

﴿أَيَحْسَبُ﴾ أي: الإنسان. ﴿أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ أي: بل علم الله ـ عز وجل ـ ذلك منه، فكان كاذباً في قوله: أهلكته، وأنفقته في وجوه الخير. ومن حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ الذي

خرجه مسلم، والنسائي، والترمذي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد... إلخ ورجل تعلم العلم، وعلمه... إلخ، ورجلٌ وسَّعَ الله عليه، وأعطاهُ من أصنافِ المال، فأُتِيَ به، فعرَّفهُ نعمَهُ، فعرفها. قال: فما عمِلتَ فيها؟ قال: ما تركتُ مِنْ سبيلٍ تُحِبُّ أنْ ينفقَ فيها، إلّا أنْفَقْتُ فيها لكَ. قال: كذبْتَ، ولكِنَّكَ فعَلْتَ ذلِكَ؛ لِيقالَ: هو جوادٌ. فقد قِيلَ، ثم أُمِرَ به، فَسُحِبَ على وجهِهِ؛ حتَّى أُلْقِيَ في النَّارِ**». هذا الحديث مذكور بطوله في كتاب: «الترغيب والترهيب» للحافظ المنذري، باب: الترهيب من الرياء.

وعن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**ما تَزَالُ قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسْأَلَ عن أرْبع: عن عُمُرِهِ فيمَ أفناهُ؟ وعن شبابِهِ فيمَ أبْلَاهُ؟ وعن مالِهِ مِنْ أينَ اكْتَسَبَهُ، وفيمَ أنْفَقَهُ؟ وعَنْ علمِهِ ماذَا عَمِلَ فيهِ؟**». رواه البيهقي، والترمذي.

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**يُجاء بِابنِ آدمَ كأنه بَذَخٌ، فيُوقفُ بين يدي الله، فيقولُ الله لهُ: أعطيْتُكَ، وخوَّلْتُكَ، وَأَنْعَمْت عليكَ، فماذا صَنَعْتَ؟ فيقولُ: يا رَبِّ! جمعْتُهُ، وثمَّرْتُهُ، فتركْتُهُ أكثَرَ ما كانَ فأرْجِعني آتِكَ به، فيقولُ لهُ: أيْنَ ما قدمْتَ؟ فيقول: يا رَبِّ جمعْتُهُ، وثمرْتُهُ، فتركْتُهُ أكثَرَ ما كَانَ، فأرْجِعْنِي آتك بِهِ، فإذَا هُوَ عَبْدٌ لَمْ يُقَدِّمْ خيراً، فيُمْضى به إلى النَّار**». رواه الترمذي.

الإعراب: ﴿أَيَحْسَبُ﴾: الهمزة: حرف استفهام توبيخي. (يحسب): فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾. ﴿أَن﴾: حرف مشبه بالفعل مخفف من الثقيلة، واسمه ضمير الشأن محذوف، التقدير: أنه. ﴿لَّن﴾: حرف نفي، ونصب، واستقبال. ﴿يَقْدِرَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ: ﴿لَّن﴾. ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿أَحَدٌ﴾: فاعل ﴿يَقْدِرَ﴾، والجملة الفعلية في محل رفع خبر ﴿أَن﴾، و﴿أَن﴾ واسمها المحذوف، وخبرها في تأويل مصدر في محل نصب سد مسد مفعولي الفعل (يحسب)، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿يَقُولُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى الإنسان. ﴿أَهْلَكْتُ﴾: فعل، وفاعل. ﴿مَالًا﴾: مفعول به. ﴿لُّبَدًا﴾: صفة له، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿يَقُولُ...﴾ إلخ في محل نصب حال من فاعل (يحسب)، والرابط: الضمير فقط. ﴿أَيَحْسَبُ﴾: الهمزة: حرف استفهام توبيخي. (يحسب): فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾. ﴿أَن﴾: حرف مشبه بالفعل مخفف من الثقيلة، واسمه ضمير الشأن، التقدير: أنه. ﴿لَّمْ﴾: حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿يَرَهُۥٓ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: ﴿لَّمْ﴾، وعلامة جزمه حذف حرف العلة من آخره، وهو الألف، والفتحة قبلها دليل عليها، والهاء مفعول به، ﴿أَحَدٌ﴾: فاعله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر ﴿أَن﴾، و﴿أَن﴾ واسمها المحذوف، وخبرها في تأويل مصدر في محل نصب سد مسد مفعولي (يحسب)، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها، وهي بمنزلة البدل مما قبلها.

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾

الشرح: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾: يبصر بهما المرئيات، شققناهما؛ وهو في الرحم في ظلمات ثلاث على مقدار مناسب، لا تزيد إحداهما على الأخرى شيئاً، وقدرنا البياض، والسواد، والسمرة، والزرقة، وغير ذلك على ما ترون، وأودعنا البصر على كيفية يعجز الخلق عن إدراكها. وانظر شرح (العين) في سورة (الدهر) رقم [٦]. ﴿وَلِسَانًا﴾: يترجم به عما في ضميره. ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾: يستر بهما فاه، ويستعين بهما على النطق، والأكل، والشرب، والنفخ، وغير ذلك، وهما زينة الوجه، والفم، والمعنى: نحن فعلنا ذلك، ونحن نقدر على أن نبعثه، ونحصي عليه ما عمله.

قال أبو حازم ـ رضي الله عنه ـ، وهو آخر الصحابة موتاً: قال النبي ﷺ: «**إن الله تعالى يقول: أي ابن آدم إن نازعك لسانك فيما حرمت عليك؛ فقد أعنتك عليه بطبقين، فأطبق. وإن نازعك بصرك فيما حرمت عليك؛ فقد أعنتك عليه بطبقين، فأطبق، وإن نازعك فرجك إلى ما حرمت عليك؛ فقد أعنتك عليه بطبقين، فأطبق**».

﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ يعني: الطريقين: طريق الخير، وطريق الشر؛ أي: بيناهما له بما أرسلناه من الرسل. والنجد: الطريق في ارتفاع. وهذا قول ابن عباس، وابن مسعود ـ رضي الله عنهما ـ وغيرهما. وروى قتادة ـ رحمه الله تعالى ـ قال: ذُكر لنا: أن النبي ﷺ كان يقول: «**يا أيها الناسُ إنما هما النجدانِ، نجدُ الخيرِ، ونجدُ الشرِّ، فَلِمَ تجعلُ نجدَ الشر أحبَّ إليكَ من نجدِ الخير؟**». وروي عن عكرمة قال: النجدان: الثديان، وهو قول سعيد بن المسيب، والضحاك، وروي أيضاً عن ابن عباس، وعلي ـ رضي الله عنهما ـ؛ لأنهما كالطريقين لحياة الولد، ورزقه. والأول هو المعتمد.

هذا؛ وأصل النجد: الطريق المرتفع، استعير كل منهما لسلوك طريق السعادة، وسلوك طريق الشقاوة. قال تعالى في سورة (الدهر) رقم [٣]: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ فالنجد: العلو، وجمعه: نجود، ونُجد، وأَنْجُد، وأَنْجاد، ونِجاد، وجمع النجود: أنجدة، ومنه سميت نجد في الجزيرة العربية لارتفاعها عن انخفاض تهامة. قال امرؤ القيس: [الطويل]

فَرِيقَانِ مِنْهُمْ جَازِعٌ بَطْنَ نَخْلَةٍ وآخَرُ مِنْهُمْ قَاطِعٌ نَجْدَ كَبْكَبِ

هذا؛ واستعارة الطريق المرتفع للخير لا غبار عليه، وهو ظاهر، ولكن كيف يستعار للشر، وهو هبوط، وارتكاس من ذروة الفطرة إلى حضيض الابتذال؟! والجواب: أنه جمع بينهما إما على سبيل التغليب، وإما على توهم المخيلة أن فيه صعوداً، وهبوطاً، وإسفافاً. وهذه هي بلاغة القرآن، وروعته؛ التي أخرست الفصحاء، وأسكتت البلغاء. هذا؛ والشفة محذوفة اللام، أصلها: شفهة، بدليل تصغيرها على شفيهة، وجمعها: شفاه، ويقال: شفهات، وشفوات،

والهاء أقيس، والواو أعم تشبيهاً بالسنوات، وشافهته: كلمته من غير واسطة. قال السمين: ولا تجمع بالألف، والتاء استغناء بتكسيرها عن تصحيحها.

هذا؛ واللسان آلة النطق، كما هو معروف، ومعلوم، وقد أطلقه الله على القرآن بكامله، وذلك بقوله عز وجل: ﴿وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ الآية رقم [١٠٣] من سورة (النحل)، كما أطلقه العرب على كلمة السوء، كما في قول الشاعر ـ وهو الشاهد رقم [٣٣٠] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الوافر]

لِسَانُ السُّوءِ تُهْدِيهَا إلينَا ... وَحِنْتَ وما حَسِبْتُكَ أَنْ تَحِينَا

وأطلقه العرب على القصيدة من الشعر كما في قول الشاعر: [المتقارب]

أَتَتْنِي لِسَانُ بَنِي عَامِرٍ ... فجَلَّى أحَادِيثُهَا عَنْ بَصَرْ

وقد يجعل كناية عن الكلمة الواحدة، كما في قول الأعشى؛ وكان قد أتاه خبر مقتل أخيه المنتشر: [البسيط]

إنّي أَتَتْنِي لِسَانٌ لَا أُسَرُّ بِهَا ... مِنْ عُلْوِ لَا عَجَبٌ مِنْهَا ولَا سَخَرُ

قال الجوهري: يروى: من علو بضم الواو، وفتحها، وكسرها. أي: أتاني خبر من أعلى، والتأنيث للكلمة، وقد أطلقه الله على القرآن بكامله كما رأيت. كما أطلقه على الثناء الجميل، والذكر الحسن في قوله جلت قدرته: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ الآية رقم [٥٠] من سورة (مريم) على نبينا، وعليها ألف صلاة، وألف سلام.

هذا؛ واللسان يؤنث، فيجمع على: ألسُن كذراع، وأذرُع، ويذكر فيجمع على: ألسنة، كحمار وأحمرة، وتصغيره على التذكير: لُسَيْن، وعلى التأنيث: لُسَيْنَة.

هذا؛ واللسان من نعم الله العظيمة، ولطائف صنعه الغريبة، وله في الخير مجال، وفي الشر ميدان، ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع، فلا يطلقه إلا فيما ينفعه، ويكفه عن كل ما تخشى غائلته، وهو أعصى الأعضاء على الإنسان؛ لأنه لا تعب في إطلاقه، ولا مشقة في تحريكه. وقد تساهل الناس في الاحتراز على آفاته، والحذر من مصائده، وحبائله، لذلك حذرت الأحاديث الشريفة من شطحاته، وسقطاته؛ ليسلم للمسلم عرضه، وينجو من آثامه بدينه، فحذر الرسول ﷺ من الثرثرة، والتشدق، وحث على الصمت، والتعقل؛ لأن اللسان ترجمان، يعبر عن مستودعات الضمائر، ويخبر عن مكنونات السرائر، لا يمكن استرجاع بوادره، ولا يقدر على ردِّ شوارده، والأحاديث في ذلك كثيرة، أكتفي بما يلي:

قال الرسول ﷺ لمعاذ ـ رضي الله عنه ـ: **«أنتَ سَالِمٌ ما سكَت، فإذَا تكلَّمْتَ؛ فَعَلَيْكَ، أوْ لكَ»**. وعن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت: يا رسول الله! ما النجاة؟ قال: **«أَمْسِكْ**

عليْكَ لِسانَكَ، ولْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وابْكِ على خَطِيئَتِكَ». رواه أبو داود، والترمذي. وعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ. قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تكثِرُوا الْكَلَامَ بغيْرِ ذِكْرِ اللهِ، فإنَّ كَثْرَةَ الْكَلَامِ بِغَيْرِ ذِكْرِ الله قَسْوَةٌ لِلْقَلْبِ، وَإِنَّ أبعدَ الناسِ من اللهِ القلبُ القاسي»**. رواه الترمذي، والبيهقي. وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنه سمع النبي ﷺ يقول: **«إن العبدَ ليتكلمُ بالكلمةِ ما يتبَيَّنُ فِيهَا يزلُّ بها في النارِ أبعَدَ ما بَيْنَ المَشْرِقِ، والمغْرِبِ»**. رواه البخاري، ومسلم، وغيرهما.

الإعراب: ﴿أَلَمْ﴾: (الهمزة): حرف استفهام وتقرير. (لم): حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿نَجْعَل﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: (لم)، والفاعل مستتر تقديره: «نحن». ﴿لَّهُۥ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿عَيْنَيْنِ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنه مثنى، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾: معطوفان على ﴿عَيْنَيْنِ﴾ منصوبان مثله. ﴿وَهَدَيْنَٰهُ﴾: الواو: حرف عطف. (هديناه): فعل، وفاعل، ومفعول به أول، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿ٱلنَّجْدَيْنِ﴾: مفعول به ثان، أو هو منصوب بنزع الخافض.

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾

الشرح: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾: فهلا الذي أنفق ماله في عداوة النبي ﷺ، هلا أنفقه فيما ينجيه يوم القيامة من عذاب الله، وسخطه. والاقتحام: الدخول في الأمر الشديد. قال محيي السنة: ذكر العقبة هاهنا مثل ضربه الله لمجاهدة النفس، والهوى، والشيطان في أعمال البر، فجعله كالذي يتكلف صعود العقبة. وقال صاحب الفرائد: هذا تنبيه على أن النفس لا توافق صاحبها في الإنفاق لوجه الله ألبتة، فلا بد من التكليف، وتحمُّل المشقة، والذي توافقه النفس هو الافتخار، والمراءاة، والعقبة في الأصل: الطريق الصعب في الجبل، واقتحامها مجاوزتها، وقد استعيرت هنا للأعمال الصالحة؛ لأنها تصعب، وتشق على النفوس، ففيه استعارة تبعية. وعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ بينَ أيْدِيكُمْ عقَبةً كَؤُوداً، لا يَنْجُو مِنْهَا إلّا كلُّ مُخِفٍّ»**. رواه البزار بإسناد حسن، فالعقبة في هذا الحديث مستعارة لأهوال يوم القيامة، وأهمها: الجواز على الصراط. وقد قال رسول الله ﷺ: **«لا يُخرج رَجُلٌ شيئاً من الصَّدَقَةِ؛ حتى يفكَّ عنها لحييْ سَبْعين شَيطاناً»**. أخرجه الإمام أحمد عن بريدة ـ رضي الله عنه ـ.

هذا؛ وقال الفراء والزجاج: وذكر (لا) مرة واحدة، والعرب لا تكاد تفرد (لا) مع الفعل الماضي في مثل هذا الموضع؛ حتى يعيدوها في كلام آخر، كقوله تعالى في سورة (القيامة) رقم [٣١]: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾، وقوله تعالى في كثيرٍ من السور: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وإنما أفردوها لدلالة آخر الكلام على معناه، فيجوز أن يكون قوله الآتي: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ

﴿ءَامَنُوا۟﴾ قائماً مقام التكرير، كأنه قال: فلا اقتحم العقبة، ولا آمن. وقيل: هو جار مجرى الدعاء، كقوله: لا نَجَا، ولا سَلِم. هذا؛ وقيل: معنى ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾: فلم يقتحم العقبة، ومنه قول زهير في معلقته رقم [٤٠]: [الطويل]

وكـانَ طَـوَى كَـشْـحـاً عـلـى مُـسْـتَـكـنَّـةٍ فَــلَا هُــوَ أبْــدَاهَــا ولَــمْ يَـتَـقَــدَّمِ

أي: فلم يبدها، ولم يتقدم. وكذا قال المبرد، وأبو علي الفارسي: (لا) بمعنى: «لم». وقال ابن هشام في المغني: فإن (لا) فيه مكررةٌ في المعنى؛ لأن المعنى: فلا فك رقبة، ولا أطعم مسكيناً؛ لأن ذلك تفسير للعقبة.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾ أي: أي شيء العقبة تفخيماً لشأنها، وتعظيماً لقدرها. والخطاب للنبي ﷺ، والمراد كل عاقل يهمه أمر دينه، وآخرته. قال يحيى بن سلام ـ رحمه الله تعالى ـ: بلغني: أن كل شيء في القرآن: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ فقد أدراه إياه، وعلمه. وكل شيء قال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فهو مما لم يعلمه. وقال سفيان بن عيينة ـ رحمه الله تعالى ـ: كل شيء قال فيه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ فإنه أخبر به، وكل شيء قال فيه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فإنه لم يخبر به. وانظر شرح (درى) في آخر سورة (الانفطار) تجد ما يسرك.

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾: فكها: خلاصها من الأسر. وقيل: من الرق. وقد رغب القرآن، وحثَّ الرسول ﷺ على تحرير الرق. وخذ من ذلك ما يلي: فعن سعيد بن مرجانة عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أعتقَ رقبةً مؤمنةً؛ أعتق الله بكلِّ إرْبٍ (عضو) منها إرْباً منهُ من النارِ، حتى إنهُ لَيَعْتِقُ باليدِ اليدَ، وبالرجلِ الرجلَ، وبالفرجِ الفرْجَ**». فقال علي بن الحسين ـ رضي الله عنهما ـ: أنت سمعت هذا من أبي هريرة؟ فقال سعيد: نعم، فقال علي بن الحسين لغلام له أفره غلمانه: ادع مطرفاً، فلما قام بين يديه؛ قال: اذهبْ فأنتَ حرٌّ لوجه الله. أخرجه الشيخان، وغيرهما. وعند مسلم: أن هذا الغلام الذي أعتقه علي بن الحسين زين العابدين كان قد أعطي فيه عشرة آلاف درهم.

وعن عمرو بن عبسة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «**من بنى مسجداً؛ ليُذْكَرَ الله فيه؛ بنَى الله لَهُ بيتاً في الجنة. ومن أعتق نفْساً مسلمةً؛ كانت فديتَهُ من النارِ. ومَنْ شابَ شيبةً في الإسلامِ؛ كانت له نوراً يَوْمَ القيامةِ**» أخرجه الإمام أحمد.

وقال الرسول ﷺ: «**مَنْ وُلِدَ لهُ ثلاثةُ أولادٍ في الإسلام، فماتُوا قبل أن يبلُغُوا الحِنْثَ؛ أدخله الله الجنةَ بفضلِ رحمته إياهُمْ. ومَنْ شابَ شَيْبَةً في سبيل الله؛ كانت لهُ نوراً يوم القيامة. ومن رَمَى بسهمٍ في سبِيلِ الله بلغ به العدوَّ، أصابَ، أو أخطأ؛ كان لهُ عِتْقُ رقبةٍ. ومَن أعتقَ رقبةً مؤمنةً؛ أعتقَ الله بكل عضوٍ منه عضواً منه مِنَ النارِ. ومن أعتق زوجين في سبيل الله؛ فإنَّ للجنة ثمانية أبوابٍ، يدخلهُ الله من أيِّ بابٍ شاءِ مِنْهَا**». أخرجه الإمام أحمد.

تنبيه: يطعن المستشرقون، والملحدون من أبناء المسلمين في الإسلام، وينعتونه بالقسوة، وبأنه عمل على تكديس الرق، وتكريسه، ويستدلون على ذلك بما كان عند الخلفاء، والأثرياء من العبيد والسراري الكثيرة، والجواب، بل والرَّدُّ المفحم لهم، والحجر الذي يلقى في حلوقهم: أن الإسلام لم يبتدع الرق، ولم يعمل على تشجيعه، وإنما جاء؛ والبشرية غارقة بمآسي الرقيق، فلو دعا الإسلام من أول نشأته إلى تحرير الرق؛ لنفر منه الأثرياء، وذوو الجاه، والسلطان.

ولكنه عمل على تحرير الرقيق بشتى الوسائل، وفتح أبواباً كثيرة لتحريره، لم نجد ذلك في اليهودية، ولا في النصرانية، ولا في المجوسية، وغيرها من الدِّيانات على ممر العصور، وقد جعل الإسلام تحرير الرقيق أول ما يجب في الكفارات لمن كان يملك رقيقاً، أو قدر على شرائه، وذلك في كفارة اليمين، وكفارة الظهار، وكفارة القتل، وكفارة الجماع في رمضان، ونحو ذلك، كما حث على مكاتبة الرقيق؛ التي ذكرتها لك في سورة (النور). هذا بالإضافة إلى الترغيب في عتق الرقيق احتساباً لوجه الله. والأحاديث التي ذكرتها لك أكبر شاهد على ذلك، ولا يفوتني أن أذكر: أن الإسلام قد أمر سيد العبد أن يحسن معاملته، وأن يرفق به، وأن يتلطف بمخاطبته. وقد ذكرت نبذة عن ذلك في سورة (النور).

الإعراب: ﴿فَلَا﴾: الفاء: حرف استئناف. (لا): حرف نفي، وذكرت في الشرح أنها بمعنى هلَّا. ﴿ٱقۡتَحَمَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾. ﴿ٱلۡعَقَبَةَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿وَمَآ﴾: الواو: حرف استئناف، بل واعتراض. (ما): اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، ﴿أَدۡرَىٰكَ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى (ما)، تقديره: «هو»، والكاف مفعول به أول. ﴿مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾: مبتدأ، وخبر، والجملة الاسمية في محل نصب سدت مسد مفعول ﴿أَدۡرَىٰكَ﴾ الثاني، المعلق عن العمل لفظاً بسبب الاستفهام. وقال زاده: في محل نصب سدت مسد المفعول الثاني، والثالث لـ: (أدرى)؛ لأنه بمعنى: أعلم، والجملة الفعلية: ﴿أَدۡرَىٰكَ...﴾ إلخ في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها. ﴿فَكُّ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هي فك، والجملة الاسمية تفسير لـ: ﴿ٱلۡعَقَبَةَ﴾، و﴿فَكُّ﴾ مضاف، و﴿رَقَبَةٍ﴾ مضاف إليه. من إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله محذوف، التقدير: فكك رقبة. هذا؛ ويقرأ (فكَّ رقبة) على أنه فعل ماض، فتكون الجملة فعلية مفسرة لما قبلها، كما يقرأ (أطعَمَ) على أنه فعل ماض أيضاً، وعليه فالجملة الفعلية بدل من قوله: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ﴾.

﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ﴿١٦﴾﴾

الشرح: ﴿ذِي مَسۡغَبَةٖ﴾ أي: مجاعة. والسغب: الجوع، والساغب: الجائع، وأنشد أبو عبيدة: [الطويل]

فلوْ كُنْتَ جاراً يا بنَ قيسِ بن عاصمٍ لَمَا بِتَّ شبْعاناً وجَارُكَ سَاغِبا

يريد فلو كنت جاراً قائماً بحق الجوار؛ لما حدث هذا؛ أي: شبعك، وجوع الجار. هذا؛ والمسغبة، والمقربة، والمتربة مفعلات من: سغب: إذا جاع، وقرب في النسب، يقال: فلان ذو قرابتي، وذو مقربتي، والمسغبة. . إلخ: كل واحد منها مصدر ميمي على وزن: مفعلة. هذا؛ ووصف اليوم بذي مسغبة، كقولهم: همٌّ ناصب؛ أي: ذو نصب. هذا؛ وإطعام الطعام فضيلة، وهو مع السغب الذي هو الجوع أفضل. وعن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: سئل رسول الله ﷺ: أي: الأعمال أفضل؟ قال: «**إدْخَالُكَ السرورَ عَلَى مُؤْمنٍ أشْبَعْتَ جَوْعَتَهُ، أوْ كَسَوْتَ عَوْرَتَهُ، أوْ قَضَيْتَ حَاجَةً لَهُ**». رواه الطبراني، وعن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ أطْعَمَ مؤمِناً حتَّى يشبِعَهُ مِنْ سَغبٍ، أدخلهُ الله باباً مِنْ أبوابِ الجنةِ، لا يدخلُهُ إلَّا مَنْ كانَ مِثلهُ**». أخرجه الطبراني، وروي عنه ﷺ: أنه قال: «**مِنْ موجِبَاتِ الرحمةِ إطعامُ المسلمِ السغبانِ**».

﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أي: قرابة. يقال: فلان ذو قرابتي، وذو مقربتي. يخبرنا الله جلت قدرته أن الصدقة على القرابة أفضل منها على غير القرابة، كما أن الصدقة على اليتيم الذي لا كافل له أفضل من الصدقة على اليتيم الذي يجد من يكفله. وخذ ما يلي:

فعن سلمان بن عامر ـ رضي الله عنه ـ قال: «**الصدقة على المسكين صدقةٌ، وعَلَى ذي الرحمِ ثِنْتَانِ: صدقةٌ، وصِلَةٌ**». أخرجه النسائي، والترمذي، وعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيُّما رَجُلٍ أتاهُ ابْنُ عمِّهِ يسألهُ مِنْ فضلِهِ، فمنعَهُ، مَنَعَهُ اللهُ فضْلَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ**». أخرجه الطبراني. ومن قوله ﷺ: «**أفضلُ الصدقةِ على ذي الرَّحِمِ الكَاشِحِ**». وخذ قول زهير في معلقته رقم [٥١]. [الطويل]

ومَنْ يكُ ذَا فَضْلٍ فَيَبْخَلْ بِفَضْلِهِ علَى قَوْمِهِ يُسْتَغْنَ عَنْهُ ويُذْمَمِ

وعن سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ «**أنا وكافِلُ اليتيم في الجنةِ هَكَذَا**». (وأشار بالسبابة والوسطى، وفرج بينهما) رواه البخاري، وأبو داود، والترمذي. وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**كافِلُ اليَتِيمِ لَهُ، أوْ لِغَيْرِهِ، أنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ في الجَنَّةِ**». (وأشار مالك بالسبابة والوسطى) رواه مسلم، ومالك، ومعنى «له»: بينه وبينه قرابة بأن يكون جداً، أو عماً، أو أخاً، أو نحو ذلك من الأقارب، أو يكون أبو المولود قد مات فتقوم الأم مقامه، أو ماتت الأم فيقوم أبوه في التربية مقامها، ومعنى «لغيره»: بأن يكون غريباً عن الكافل، فيحضنه ويكفله، ولا قرابة بينهما، وقد يكون ثوابه أكثر، وأجره أعظم بلا ريب، ولا شك.

﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ أي: لا شيء له؛ حتى كأنه قد لصق بالتراب من الفقر، ليس له مأوى إلا التراب، وترب: إذا افتقر. قال الهذلي: [الطويل]

وكُنَّا إذا مَا الضَّيْفُ حَلَّ بأرْضِنَا سفكْنَا دمَاءَ البُدْنِ في تُرْبةِ الحالِ

هذا؛ وفي المختار: وترب الشيء: أصابه التراب، وبابه: طرب، ومنه: ترب الرجل؛ أي: افتقر، كأنه لصق بالتراب. وتربت يداه: دعاء عليه؛ أي: لا أصاب خيراً. وأترب الرجل: استغنى، كأنه صار له من المال بقدر التراب، والمتربة المسكنة والفاقة، ومسكين ذو متربة؛ أي: لاصق بالتراب، والترب بالكسر اللدة، وجمعه أتراب، والتريبة واحدة الترائب، وهي عظام الصدر. انتهى. انظر سورة (الطارق) أقول: الترب بكسر التاء وسكون الراء المساوي لك في العمر. قال تعالى في جمعه على أتراب: ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ سورة (الواقعة) رقم [٣٧] وقال الشاعر، ـ وهو الشاهد رقم [١٣٩] من كتابنا: «فتح رب البرية» ـ: [البسيط]

لَوْلَا تَوَقُّعُ مُعْتَرٍّ فأُرْضِيَهُ مَا كُنْتُ أُوثِرُ أتْرَاباً على تِرْبِ

خاتمة: قال الخازن ـ رحمه الله تعالى ـ: وقيل في معنى الآية ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ من رق الذنوب بالتوبة؛ أي: النصوح، وبما يتكلفه العبد من العبادات، والطاعات؛ التي يصير بها إلى رضوان الله، والجنة، فهي الحرية الكبرى، ويتخلص بها من النار. انتهى. بتصرف. هذا؛ وذكرت لك أن اقتحام العقبة يحتاج إلى مجاهدة النفس، والهوى، والشيطان، وخذ قول القائل: [الكامل]

إني بُلِيتُ بأرْبَعٍ يَرْمِينَنِي بالنَّبْلِ قَدْ نَصَبُوا عليَّ شِرَاكا

إبليسُ والدنيَا ونَفسِي والهوى مِنْ أيْنَ أرْجُو بَيْنَهُنَّ فِكَاكَا؟

يا ربّ ساعِدْني بعفوٍ إنني أصْبَحْتُ لا أرجُو لهنَّ سِوَاكَا

الإعراب: ﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿إِطْعَٰمٌ﴾: معطوف على ﴿فَكُّ﴾. وهو مصدر مثله، ففاعله محذوف، التقدير: أو إطعامك. ﴿فِي يَوْمٍ﴾: متعلقان بالمصدر ﴿إِطْعَٰمٌ﴾. هذا؛ ويستشهد به على إعمال المصدر مجرداً من أل والإضافة. ﴿ذِي﴾: صفة ﴿يَوْمٍ﴾ مجرور مثله، وعلامة جره الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه من الأسماء الخمسة، و﴿ذِي﴾: مضاف، و﴿مَسْغَبَةٍ﴾: مضاف إليه. ﴿يَتِيمًا﴾: مفعول به لـ: ﴿إِطْعَٰمٌ﴾. ﴿ذَا﴾: صفة ﴿يَتِيمًا﴾ منصوب مثله، وعلامة نصبه الألف نيابة عن الفتحة؛ لأنه من الأسماء الخمسة، وهو مضاف، و﴿مَقْرَبَةٍ﴾ مضاف إليه. ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾: معطوف على ما قبله.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾

الشرح: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: المعنى: أن مقتحم العقبة إن كان مؤمناً تنفعه الأعمال والقرب المذكورة: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ...﴾ إلخ، وإن لم يكن مؤمناً لا تنفعه هذه القرب، وإن اقتحمها،

وذلك؛ لأن الكافر قد يطعم اليتيم، والمسكين، ويفك، أو يعين في فك الرقبة. وهذا؛ واقع في هذه الدنيا، ولكن لا ينفعه ذلك بدون إيمان بالله، وبالإسلام، وبمحمد ﷺ؛ لأن شرط قبول العمل الصالح أن يكون مقروناً بالإيمان، والعكس صحيح، وهو أن الإيمان قد لا يجدي بدون عمل صالح، وكلاهما يسمى: احتراساً. وقد نوهت به كثيراً فيما مضى.

هذا؛ وقد قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: فإن من شرط قبول الطاعات الإيمان بالله، فالإيمان بالله بعد الإنفاق لا ينفع، بل يجب أن تكون الطاعة مصحوبة بالإيمان. قال الله تعالى في المنافقين: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ الآية رقم [٥٤] من سورة (التوبة). وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: يا رسول الله! إن ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم الطعام، ويفك العاني، ويعتق الرقاب، ويحمل على إبله لله، فهل ينفعه ذلك شيئاً؟ قال: «**لا! إنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين**». انتهى. هذا؛ ومثل الآية قوله تعالى في سورة (طه) رقم [٨٢]: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾. وقيل: أتى بهذه القرب لوجه الله، ثم آمن بمحمد ﷺ. وقد قال حكيم بن حزام ـ رضي الله عنه ـ بعد أن أسلم: يا رسول الله! إنا كنا نتحنث بأعمال الجاهلية، فهل لنا منها شيء؟ فقال ﷺ: «**أسلمتَ على ما أسلفْتَ من الخير**». وقيل: إن ﴿ثُمَّ﴾ بمعنى الواو؛ أي: وكان هذا المعتق الرقبة، والمطعم في المسغبة من الذين آمنوا.

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ أي: وصى بعضهم بعضاً بالصبر على طاعة الله، وعن معاصيه، وعلى ما أصابهم من البلايا، والمصائب، انظر شرح (الصبر) في الآية رقم [١٠] من سورة (المزمل)، ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ أي: بالرحمة على الخلق، فإنهم إذا فعلوا ذلك؛ رحموا اليتيم، والمسكين. وخذ نبذة من أحاديث حبيب الحق، وسيد الخلق، الناطق بالصدق: فعن جرير بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ لا يَرْحَمِ الناسَ لا يَرْحَمهُ اللهُ**». رواه الشيخان وغيرهما.

وعن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**الرَّاحمونَ يَرْحَمهُمُ الرحمنُ، ارْحَمُوا منْ في الأرضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ في السَّمَاءِ**». رواه أبو داود، والترمذي، وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت الصادق المصدوق صاحب هذه الحجرة أبا القاسم ﷺ يقول: «**لا تنزع الرحمة إلا من شقيٍّ**». رواه أبو داود، والترمذي.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رجلاً أضجع شاة، وهو يُحِدُّ شفرته، فقال له النبي ﷺ: «**أتريدُ أنْ تُميتَهَا مَوْتَتَيْنِ؟ هلَّا أحدَدْتَ شفْرتَكَ قبْلَ أَنْ تُضْجِعَهَا**». رواه الطبراني، والحاكم. وعن ابن سيرين: أن عمر ـ رضي الله عنه ـ رأى رَجُلاً يسحبُ شاةً برجلها؛ لِيَذْبَحَهَا، فقال لهُ: ويْلَكَ! قُدْها إلى الموتِ قَوْداً جميلاً. ولا تنس الأحاديث؛ التي تحث على الرفق والرحمة بالعبيد والمستضعفين. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يعني: أصحاب هذه الخصال الحميدة. ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ أي: الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم. وانظر ما ذكرته في سورة (الواقعة) رقم [٨] ففيها الكفاية.

هذا؛ وأصل (تواصوْا): (تواصى) فلما اتصل به واو الجماعة؛ صار (تَوَاصَاوْا) فالتقى ساكنان: الألف والواو، فحذفت الألف لالتقاء الساكنين، ثم تحرك الواو بالضمة لالتقائها ساكنة مع ما بعدها، مثل (رأوا الحق واضحاً) ولم تحرك بالكسرة؛ لأن الكسرة لا تناسبها. وقيل: تحرك بالضم دون غيره، ليفرق بين الواو الأصلية، وبين واو الجماعة في نحو قولك (لوِ اجْتَهَدْتَ؛ لَنَجَحْتَ). وقيل: ضمت؛ لأن الضمة هنا أخف من الكسرة؛ لأنها من جنس الواو. وقيل: حركت بحركة الياء المحذوفة؛ لأن الأصل تواصَيُوا. وقيل: غير ذلك.

الإعراب: ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه يعود إلى ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾. ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ﴿كَانَ﴾، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ وبينهما كلام معترض لا محل له. وقد أفاد إفادة عظيمة، وجملة: ﴿ءَامَنُوا۟﴾ مع المتعلق المحذوف صلة الموصول، لا محل لها. ﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾: الواو: حرف عطف. (تواصوا): فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف المحذوفة لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة؛ التي هي فاعله، والألف للتفريق. ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾: متعلقان بالفعل (تواصوا)، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها، والتي بعدها معطوفة عليها أيضاً.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿أَصْحَٰبُ﴾: خبر المبتدأ، وهو مضاف، و﴿ٱلْمَيْمَنَةِ﴾: مضاف إليه، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾

الشرح: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: آيات القرآن. ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ أي: الذين يأخذون كتبهم بشمائلهم. أو لأن منزلتهم عن الشمال. وانظر ما ذكرته في سورة (الواقعة)، تجد ما يسرك، ويثلج صدرك. هذا؛ وذكر الله المؤمنين باسم الإشارة تكريماً لهم بأنهم حاضرون عنده تعالى في دار كرامته، وذكرهم بما يشار به للبعيد تعظيماً لهم بالإشارة إلى علو درجتهم، وارتفاعها، وذكر الكافرين بضمير الغيبة إشارة إلى أنهم غيب عن مقام كرامته، وشرف الحضور عنده. انتهى. جمل نقلاً من زاده. ولا تنس المقابلة بين ما ذكر في هذه الآية، وما ذكر في الآية السابقة. ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾: مطبقة، مغلقة. قال الشاعر: [الطويل]

تَحِنُّ إلَى أجبالِ مَكَّةَ نَاقَتي ... ومِنْ دُونِهَا أبْوابُ صَنْعَاءَ مُوْصَدَة

وقيل: مبهمة، لا يدرى ما داخلها، فلا ضوء فيها، ولا فرج، ولا خروج منها آخر الأبد. وقال أبو عمران الجوني: إذا كان يوم القيامة؛ أمر الله بكل جبار عنيد، وكل شيطان مريد، وكل

من كان يخاف الناس شره في الدنيا، فأوثقوا بالحديد، ثم أمر بهم إلى جهنم، ثم أوصدوها عليهم؛ أي: أطبقوها. قال: فلا والله لا تستقر أقدامهم على قرار أبداً! ولا والله لا ينظرون فيها إلى أديم سماء أبداً، ولا تلتقي جفون أعينهم على غمض نوم أبداً. ولا والله لا يذوقون فيها بارد شراب أبداً! انتهى. مختصر ابن كثير. هذا؛ ويقرأ (مؤصدة) بهمز. وبدونه (مُوْصدة) وهما لغتان، يقال: أصدت الباب، وأوصدته: إذا أغلقته، وأطبقته. وقيل: معنى المهموز: المطبقة، ومعنى غير المهموز: المغلقة. انتهى. خطيب. وفي السمين: والظاهر: أن القراءتين من مادتين: الأولى من: أصد يؤصد، كأكرم، يكرم. والثانية من: أوصد، يوصد كأوْصل يُوصل. انتهى. جمل.

الإعراب: ﴿وَالَّذِينَ﴾: الواو: حرف عطف. (الذين): اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿كَفَرُوا﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق. هذا هو الإعراب المتعارف عليه في مثل هذه الكلمة، والإعراب الحقيقي أن تقول: مبني على فتح مقدر على آخره، منع من ظهوره اشتغال المحل بالضم الذي جيء به لمناسبة واو الجماعة. والجملة الفعلية مع المتعلق المحذوف صلة الموصول، لا محل لها. ﴿بِآيَاتِنَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، و(نا): في محل جر بالإضافة. ﴿هُمْ﴾: ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿أَصْحَابُ﴾: خبر المبتدأ، وهو مضاف، و﴿الْمَشْأَمَةِ﴾ مضاف إليه، والجملة الاسمية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: ﴿وَالَّذِينَ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، لا محل لها، أو هي مستأنفة، لا محل لها أيضاً.

﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿نَارٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿مُؤْصَدَةٌ﴾: صفة ﴿نَارٌ﴾، والجملة الاسمية في محل رفع خبر ثان، أو هي مستأنفة، لا محل لها، ويجوز اعتبار الجار، والمجرور متعلقين بمحذوف خبر المبتدأ، و﴿نَارٌ﴾ فاعل به، وهو الأحسن. تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

انتهت سورة (البلد) بعون الله وتوفيقه شرحاً وإعراباً.

والحمد لله رب العالمين.

سورة الشمس

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة (الشمس) وهي مكية باتفاق، وآياتها ست عشرة، وكلماتها أربع وخمسون، وحروفها مئتان وسبعة وأربعون. انتهى. خازن.

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧)﴾

الشرح: ﴿وَالشَّمْسِ...﴾ إلخ: أقسم الله تعالى بهذه الأشياء المذكورة في هذه السورة لشرف ذواتها، ولما فيها من الدلالة على عجيب صنعته، وقدرته، والمعنى: أقسم بالشمس، وبهذه الأشياء. ومثل هذا كثير في أوائل السور، وأثنائها. قال الشعبي ـ رحمه الله تعالى ـ: الخالق يقسم بما شاء من خلقه، والمخلوق لا ينبغي أن يقسم إلا بالخالق. وقال أبو حيان ـ رحمه الله تعالى ـ: أقسم الله بهذه الأشياء تشريفاً لها، وتنبيهاً على ما يظهر فيها من عجائب صنع الله، وقدرته، وقوام الوجود بإيجادها. وقيل: فيه مضمر، تقديره: ورب الشمس، ورب القمر... إلخ.

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ أي: إذا بدا ضوءُها. والضحى: حين ترتفع الشمس، ويصفو ضوءُها. وقيل: الضحى: النهار كله؛ لأن الضحى هو نور الشمس، وهو حاصل في النهار كله. وهو ما قيل به في سورة (الضحى). وقيل: الضحى: هو حر الشمس؛ لأن حرها، ونورها متلازمان، فإذا اشتد نورها قوي حرها. وهذا أضعف الأقوال. انتهى. خازن. هذا؛ والضحاء بالفتح، والمد: إذا امتد النهار، وكاد ينتصف، وفي القرطبي: والضحى مؤنثة، يقال: ارتفعت الضحى فوق الضحْو. وقد تذكر، فمن أنث ذهب إلى أنها جمع: ضحوة، ومن ذكَّر ذهب إلى أنها اسم على فُعَل مثل: حُرَد، وَنُغَر. هذا؛ ويقال: ضحي للشمس يضحى: إذا برز لها، وظهر. قال تعالى: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ ورأى ابن عمر رجلاً يلبي؛ وقد أخفى صوته، فقال له: اضح لمن لبَّيت له؛ أي: اظهر. قال عمر بن أبي ربيعة: [الطويل]

رأتْ رجُلاً أيْمـا إذا الشمسُ عارَضَتْ فيضحَى وأيْمـا بالعَشِيِّ فيَخْصَرُ

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ أي: تبعها، وذلك في النصف الأول من الشهر؛ إذا غربت الشمس؛ تلاها القمر في الإضاءة، وخلفها في النور. وقيل: تلاها في الاستدارة، وذلك حين يكمل ضوءُه، ويستدير، وذلك في الليالي البيض. وقيل: ﴿تَلَىٰهَا﴾ تبعها في الطلوع، وذلك في أول ليلة من الشهر إذا غربت الشمس ظهر الهلال، فكأنه تبعها. انتهى. خازن. هذا؛ والشمس، والقمر، والليل، والنهار من نعم الله العظيمة على العباد، وقد سخرهن الله لمصالحهم. قال تعالى في سورة (إبراهيم) على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ...﴾ إلخ رقم [٣٣].

والمعنى: أن الله تعالى سخر الشمس، والقمر يجريان دائماً فيما يعود إلى مصالح العباد لا يفتران إلى آخر الدهر. وقيل: يدأبان في سيرهما، وتأثيرهما في إزاحة الظلمة، وإصلاح النبات، والحيوان؛ لأن الشمس سلطان النهار، وبها تعرف فصول السنة، والقمر سلطان الليل، وبه يعرف انقضاء الشهور، وكل ذلك بتسخير الله عز وجل، وإنعامه على عباده. انتهى. خازن.

هذا؛ وقال الصابوني في صفوة التفاسير: وحكمة القسم بالشمس: أن العالم في وقت غيبة الشمس عنهم كالأموات، فإذا ظهر الصبح، وبزغت الشمس؛ دبت فيهم الحياة، وصار الأموات أحياء، فانتشروا لأعمالهم وقت الضحوة، وهذه الحالة تشبه أحوال القيامة، ووقت الضحى يشبه استقرار أهل الجنة فيها. والشمس والقمر مخلوقان لمصالح البشر، والقسم بهما للتنبيه على ما فيهما من المنافع العظيمة. انتهى. نقلاً من حاشية الصاوي.

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾: يعني جلَّى ظلمة الليل بضيائه، وكشفها بنوره، وهو كناية عن غير مذكور لكونه معروفاً. وفي السمين: والضمير المنصوب، إما للشمس، وإما للظلمة، وإما للأرض، ومنه قول قيس بن الخطيم: [الطويل]

تَجلَّتْ لنَا كالشَّمْسِ تحْتَ غمامَةٍ بَدا حَاجِبٌ منهَا وضنَّتْ بحَاجِبِ

وانظر ما ذكرته في سورة (القيامة) رقم [٢٦].

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾: يغطي الشمس بظلمته، فيزيل ضوءها، فالنهار يجليها، ويظهرها، والليل يغطيها، ففي ذلك مقابلة ظاهرة، وبين الشمس والقمر، والليل والنهار طباق، وكلاهما من المحسنات البديعية. قال الخازن: وحاصل هذه الأقسام الأربعة ترجع إلى الشمس في الحقيقة؛ لأن بوجودها يكون النهار، ويشتد الضحى، وبغروبها يكون الليل، ويتبعها القمر. هذا؛ وقد جيء بالفعل هنا مضارعاً دون ما قبله، وما بعده مراعاةً للفواصل؛ إذ لو أتي به ماضياً؛ لكان التركيب: إذ غشيها، فتفوت المناسبة اللفظية بين الفواصل، والمقاطع.

بعد هذا فالليل واحد بمعنى الجمع، واحدته: ليلة، مثل: تمر، وتمرة، وقد جمع على ليال كما في سورة (الفجر)، فزادوا فيه الياء على غير قياس، ونظيره: أهل، وأهال، والليل الشرعي من غروب الشمس إلى طلوع الفجر الصادق، وهو أحد قولين في اللغة، والقول الآخر من

غروبها إلى طلوعها. هذا؛ والنهار ضد الليل، وهو لا يجمع كما لا يجمع العذاب، والسراب، فإن جمعته قلت في الكثير: نُهُر بضمتين، كسحاب، وسُحُب، وأنشد ابن كيسان: [الرجز]

لَوْلَا الثريدَانِ لَمُتْنَا بالضُّمُرْ ثريدُ ليلٍ وثريدٌ بالنُّهُرْ

وفي القليل: أَنْهُر، والنهار من طلوع الشمس، أو طلوع الفجر على ما تقدم في نهاية الليل إلى الغروب، وقد يطلق عليهما اسم اليوم. هذا؛ والليل يطلق على الحُبارى، أو على فرخها، وفرخ الكروان، والنهار يطلق على فرخ القطا. انتهى. قاموس، وقد ألغز بعضهم بقوله: [الوافر]

إذا شهْرُ الصِّيامِ إليكَ وافى فكلْ مَا شِئْتَ لَيْلاً أَوْ نَهَارا

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ أي: ومن بناها. قاله الحسن، ومجاهد. وهو اختيار الطبري. أي: ومن خلقها ورفعها، وهو الله تعالى. ومثله ما بعده. وانظر ما ذكرته في سورة (البلد) رقم [٣]. وقيل: (ما) مصدرية، التقدير: وبنائها، وطحوها؛ أي: بسطها، وتسوية خلقها في أحسن صورة. قال النسفي: وليس بالوجه، لقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ لما فيه من فساد النظم، والوجه أن تكون موصولة، وإنما أوثرت على «مَنْ» لإرادة معنى الوصفية، كأنه قيل: والسماء، والقادر العظيم الذي بناها، ونفسٍ والحكيم الباهر الحكمة الذي سواها. وقال البيضاوي: وجعل (ما) مصدرية يجرد الفعل عن الفاعل، ويخل بنظمه. وكلاهما اقتبس قوله من الكشاف. هذا؛ وحكي عن أهل الحجاز قولهم: سبحان ما سبحت له؛ أي: سبحان مَنْ سبحت له، وقولهم: سبحانَ ما سخركن لنا؛ أي: مَنْ سخركن لنا.

﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾: هذا مثل ﴿دَحَىٰهَآ﴾ في سورة (النازعات) رقم [٣٠] فالكلام فيها وافٍ كافٍ. هذا؛ والطحو: البسط. يقال: طحا، يطحو طحواً، وطحى، يطحى طحياً. وقيل: طحاها: خلقها. قال الشاعر: [الوافر]

وَمَا تَدْرِي جَذِيمَةُ مَنْ طَحَاهَا وَلَا مَنْ سَاكِنُ الْعَرْشِ الرَّفِيعِ

وقال أبو عمرو: طحا الرجل: إذا ذهب في الأرض، يقال: ما أدري أين طحا؟! ويقال: طحا به قلبه: إذا ذهب به في كل شيء. قال علقمة الفحل: [الطويل]

طحَا بكَ قَلْبٌ في الحِسَانِ طَرُوبُ بُعَيْدَ الشَّبَابِ عَصْرَ حَانَ مَشِيبُ

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾: سوى خلقها، وعدله، هذا إن أريد بالنفس الجسد، كما في سورة (الانفطار) رقم [٧] وإن أريد بها المعنى القائم بالجسد، فيكون معنى ﴿سَوَّىٰهَا﴾ أعطاها القوى الكثيرة، كالقوة الناطقة، والسامعة، والباصرة، والمفكرة، والمخيلة، وغير ذلك من العلم والفهم. والله أعلم.

الإعراب: ﴿وَٱلشَّمْسِ﴾: جار ومجرور متعلقان بفعل محذوف، تقديره: أقسم. ﴿وَضُحَىٰهَا﴾: الواو: حرف عطف. (ضحاها): معطوف على (الشمس) مجرور مثله، وعلامة جره كسرة مقدرة

على الألف للتعذر. ﴿وَٱلْقَمَرِ﴾: معطوف أيضاً. ﴿إِذَا﴾: ظرف زمان مجرد عن الشرطية مبني على السكون في محل نصب. وفي عامله أوجه، وعلى كل واحد منها إشكال: أحد الأوجه: أنه متعلق بفعل القسم المحذوف، التقدير: أقسم بالقمر وقت تلوه الشمس. قاله أبو البقاء، وغيره، وهو مشكل، فإن فعل القسم إنشاء، والإنشاء حال، و﴿إِذَا﴾ لما يستقبل من الزمان، فكيف يتلاقيان؟! الثاني: أن العامل فيه مقدر على أنه حال من القمر؛ أي: أقسم به حال كونه مستقراً في زمان تلوه الشمس، وهو مشكل من وجهين: أحدهما: أن القمر جثة، والزمان لا يكون حالاً منها، كما لا يكون خبراً عنها، والثاني: أن ﴿إِذَا﴾ للمستقبل، فكيف يكون حالاً، وقد أجيب عن الأول بأن المراد بالقمر، ونحوه القطعة؛ أي: الضوء منه، وعن الثاني بأنها حال مقدرة. الثالث: أن العامل نفس (القمر) ونحوه إذا أريد به الضوء. قاله أبو البقاء، وفيه نظر؛ لأن الضوء ونحوه لا يعمل في الظرف إذا أريد به الجمود، وقد يقال: إن القمر بمعنى المضيء، كأنه قيل: والقمر المضيء في هذا الوقت. انتهى. جمل من سورة (النجم).

هذا؛ وقال الجلال: و﴿إِذَا﴾ في الثلاثة لمجرد الظرفية، والعامل فيها فعل القسم. قال المرحوم سليمان الجمل معلقاً على قوله: استشكل بأن فعل القسم إنشاء، وزمانه الحال، فلا يعمل في ﴿إِذَا﴾؛ لأنها للاستقبال، وإلا لزم اختلاف العامل، والمعمول في الزمان، وهو محال. وأجيب بأنه يجوز أن يقسم الآن بطلوع الشمس في المستقبل، فالقسم في الحال، والطلوع في المستقبل، ويجوز أن يقسم بالشيء المستقبل، كما تقول: أقسم بالله إذا طلعت الشمس، فالقسم متحتم عند طلوع الشمس، وإنما يكون فعل القسم للحال إذا لم يكن معلقاً على شرط. انتهى. نقلاً عن كرخي.

﴿تَلَىٰهَا﴾: فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى (القمر)، و(ها): مفعول به، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها. ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ هذا الكلام كله معطوف على ما قبله، وهو مثله في إعرابه، وقد رأيت الأقوال في (ما) فعلى اعتبارها بمعنى «مَنْ»، أو «الذي» مبنية على السكون في محل جر معطوفة على ما قبلها، وعلى اعتبارها مصدرية تؤول مع ما بعدها بمصدر في محل جر معطوف على ما قبله.

تنبيه: قال الزمخشري ـ رحمه الله تعالى ـ: فإن قلت: الأمر في نصب ﴿إِذَا﴾ معضل؛ لأنك لا تخلو إما أن تجعل الواوات عاطفة، فتنصب بها، وتجر، فتقع في العطف على عاملين في نحو قولك: مررت أمس بزيد، واليوم عمرو، وإما أن تجعلهن للقسم، فتقع فيما اتفق الخليل، وسيبويه على استكراهه.

قلت: الجواب فيه: أن واو القسم مُطَّرح معها إبراز الفعل إطراحاً كلياً، فكان لها شأن خلاف شأن الباء، حيث أبرز معها الفعل، وأضمر، فكانت الواو قائمة مقام الفعل، والباء سادة

مسدهما معاً، والواوات العواطف نوائب عن هذه الواو، فحققنَ أن يكنَّ عوامل على الفعل والجارِّ جميعاً، كما تقول: ضرب زيدٌ عمراً، وبكرٌ خالداً، فترفع الواو وتنصب لقيامها مقام ضرب الذي هو عاملها. انتهى. كشاف، وخذ قول النسفي الملخص من الكشاف لعله أوضح.

فقال ـ رحمه الله تعالى ـ: والواو الأولى في نحو هذا للقسم بالاتفاق، وكذا الثانية عند البعض. وعند الخليل الثانية للعطف؛ لأن إدخال القسم على القسم قبل تمام الأول لا يجوز، ألا ترى: أنَّك لو جعلت موضعها الفاء، أو ثم لكان المعنى على حاله، وهما حرفا عطف، فكذا الواو. ومن قال: إنها للقسم؛ احتج بأنها لو كانت للعطف؛ لكان عطفاً على عاملين؛ لأن قوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ﴾ مثلاً مجروراً بواو القسم، و﴿إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ منصوب بالفعل المقدر الذي هو أقسم، فلو جعلت الواو في ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ للعطف؛ لكان النهار معطوفاً على الليل جراً، و﴿إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ على ﴿إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ نصْباً، فصار كقولك: إن في الدار زيداً، والحجرة عمراً. وأجيب بأن واو القسم تنزلت منزلة الباء، والفعل؛ حتى لم يجز إبراز الفعل معها، فصارت كأنها العاملة نصباً، وجراً، وصارت كعامل واحد، له عملان، وكل عامل له عملان يجوز أن يعطف على معموليه بعاطف واحد بالاتفاق، نحو: ضرب زيدٌ عمراً، وبكرٌ خالداً، فترفع بالواو وتنصب، لقيامها مقام: ضرب الذي هو عاملهما، فكذا هنا. انتهى. هذا؛ وخذ قول الأعور الشني، وهو الشاهد رقم [٨٧٧/٢٥٧] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» فإن الكلام فيه مثل ما قال الزمخشري، والنسفي، رحمهما الله تعالى. [المتقارب]

هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنَّ الأُمُورَ ... بِكَفِّ الإلَهِ مَقَادِيرُهَا

فَلَيْسَ بِآتِيكَ مَنْهِيُّهَا ... ولا قَاصِرٌ عَنك مَأمُورُهَا

﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾

الشرح: ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾: الفاعل يعود إلى الله، ولم يتقدم له ذكر لفهمه من المقام، انظر الآية رقم [٢٦] من سورة (القيامة) وإن اعتبرت المقسم به في الآيات السابقة مضمر مقدر: ورب الشمس. . .إلخ؛ فالفاعل عائد إليه، والضمير المنصوب، أو المجرور بالإضافة عائد إلى النفس. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في معنى الآية: بين لها الخير، والشر، وعنه: علمها الطاعة، والمعصية، وعنه: عرفها ما تأتي، وما تتقي. وعن محمد بن كعب القرظي؛ قال: إذا أراد الله عز وجل بعبده خيراً؛ ألهمه الخير، فعمل به، وإذا أراد به السوء؛ ألهمه الشر، فعمل به. وقال الفراء: عرفها طريق الخير، وطريق الشر، كما قال تعالى في سورة (البلد): ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ وروي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ. قال: قرأ رسول الله ﷺ ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾ فقال: «**اللهمَّ آتِ نفسي تقْواهَا، وزكِّهَا أنتَ خيرُ مَنْ زَكَّاهَا، أنْتَ وليُّها ومَوْلَاهَا**».

هذا؛ والإلهام في اللغة: إلقاء الشيء في الروع. قال الراغب: ويختص بما يكون من جهته تعالى، وجهة الملأ الأعلى. وفي الاصطلاح: إلقاء معنىً في القلب بطريق الفيض من غير كسب، فيختص بالخير لعدم إطلاق الفيض على الشر، بل يطلق عليه اسم الوسوسة. هذا؛ وقد ذكرت لك في سورة (النحل) وسورة (القصص) أن إيحاء الله للنحلة، ولأم موسى إنما هو إلهام. هذا؛ والفجور: الخروج عن جادة الحق، والصواب. والفاجر: هو الذي يرتكب الأمور الفاحشة، ولا يتورع عن الأعمال الشريرة. والتقوى: حفظ النفس من العذاب الأخروي بامتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه. وخذ قول توبة بن الحمير ـ وهو الشاهد رقم [٩٥] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ [الطويل]

وقَدْ زَعَمَتْ لَيْلَى بأنِّي فاجِرٌ لِنَفْسِي تُقَاهَا أو عَلَيْهَا فُجُورُها

هذا؛ وعن أبي الأسود الدؤلي ـ رحمه الله تعالى ـ قال: قال لي عمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ: أرأيت ما يعمل الناس، ويكدحون فيه؛ أشيءٌ قضِي عليهم، ومضى عليهم من قدر قد سبق؟ أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ﷺ، وثبتت الحجة عليهم؟ فقلت: بل شيء قضي عليهم، ومضى عليهم، فقال: أفلا يكون ظلماً؟ قال: ففزعت من ذلك فزعاً شديداً، وقلت: كل شيء خلق الله، وملك يده، فلا يسأل عما يفعل، وهم يسألون، فقال لي: يرحمك الله، إني لم أرد بما سألتك إلا لأختبر عقلك، إن رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ، فقالا: يا رسول الله! أرأيت ما يعمل الناس اليوم، ويكدحون فيه؛ أشيء قُضِي عليهم، ومضى عليهم من قدر قد سبق؟! أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ﷺ، وثبتت الحجة عليهم؟ فقال: «**لا بل شيء قُضِي عليهم، ومضى فيهم، وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل:** ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾». أخرجه مسلم. وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: جاء سراقة بن مالك المدلجي ـ رضي الله عنه ـ فقال: يا رسول الله! بين لنا ديننا كأننا خُلِقْنَا الآن. فيمَ العمل اليوم فيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير، أو فيما يستقبل؟ قال: «**لا، بل فيما جفت الأقلام، وجرت به المقادير**». قال: ففيم العمل؟ فقال: «**اعمَلُوا فكُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ لَهُ**». أخرجه مسلم. انتهى. خازن، ومثله في القرطبي.

أقول: وهذا أعظم دليل لأهل السنة على أن العبد لا يخلق أفعال نفسه، وإنما يخلقها الله فيه بتوفيقه لأداء الطاعات، واجتناب السيئات. وفيه ردع، وزجر للمعتزلة الذين يقولون: إن العبد يخلق أفعال نفسه، وقد صفع ابن المنير الزمخشري صفعتين بكلتا يديه حيث حاول التملص من صريح الآيتين، وأخذ يحوِّر معناهما، ويتأول مغزاهما حسب مذهبه الاعتزالي، فجزى الله ابن المنير خير الجزاء على ذلك.

﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾: فاز، ونجا. ﴿مَن زَكَّىٰهَا﴾ أي: طهَّر نفسه من الذنوب، والمعاصي، وزكاها بالأعمال الصالحة، والعلم، والمعرفة، والعمل الصالح. وهذا على عود الفاعل إلى ﴿مَنْ﴾ وعلى عوده إلى (الله) فبتوفيق الله للطاعة، وبصرفه له عن المعاصي، والذنوب. ﴿وَقَدْ خَابَ مَن

دَسَّىٰهَا﴾: خاب، وخسر من دنس نفسه بالذنوب، والمعاصي، وأفسدها بالسيئات، والمنكرات، وأصله من: دَسَّ الشيء: إذا أخفاه، والعاصي يحاول إخفاء عصيانه، والمجرم يحاول إخفاء إجرامه. قال الجلال: وأصله: دَسَّسَها، أبدلت السين الثانية ألفاً تخفيفاً. وقال الجمل: مأخوذ من التدسيس، وهو إخفاء الشيء في الشيء. والمعنى: أخمدها، وأخفى مكانتها بالكفر، والمعصية. انتهى. نقلاً من الخطيب.

وعن زيد بن أرقم ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللهمَّ إنِّي أعوذُ من العَجْزِ، والكسَل، والبُخْلِ، والهرَمِ، وعذاب القبر. اللهمَّ آتِ نفسي تقواها، وزكِّها، أنت خير مَنْ زكَّاها، أنتَ وليُّها، ومولاها. اللَّهمَّ إني أعوذُ بكَ مِنْ علمٍ لا يَنفعُ، ومِن قلبٍ لا يَخْشَعُ، ومِنْ نفسٍ لا تَشْبَعُ، ومِنْ دَعْوةٍ لا يُسْتَجَابُ لهَا**». أخرجه مسلم.

الإعراب: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾: الفاء: حرف عطف. (ألهمها): فعل ماض، والفاعل يعود إلى (الله) تقديره: «هو»، والهاء مفعول به أول. ﴿فُجُورَهَا﴾: مفعول به ثان. (تقواها): معطوف على ما قبله منصوب مثله، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذر، و(ها) في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فلها حكمه. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿أَفْلَحَ﴾: فعل ماض. ﴿مَن﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع فاعل. ﴿زَكَّىٰهَا﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر و(ها): مفعول به، والفاعل مستتر تقديره: «هو». انظر الشرح لعوده على (الله) أو على ﴿مَن﴾، والجملة الفعلية جواب القسم في أول السورة وما عطف عليه، وحذفت اللام منه لطول الكلام؛ إذ الأصل: لقد أفلح. . .إلخ. وقيل: الجواب محذوف، التقدير: لتبعثن. وقدره الزمخشري بقوله: ليدمدمن الله على كفار مكة؛ لتكذيبهم رسول الله ﷺ، كما دمدم على ثمود؛ لأنهم كذبوا صالحاً، وتبعه البيضاوي، والنسفي على ذلك، وجملة: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ معطوفة عليها، وإعرابها مثلها بلا فارق.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾﴾

الشرح: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾: بطغيانها، وهو خروجها عن الحد في العصيان. وقيل: هو مصدر، وخرج على هذا المخرج؛ لأنه أشكل برؤوس الآي، فهو كالرجعى، والحسنى، وشبههما من المصادر، والواو مبدلة من ياء، مثل: التقوى، وهذا إن كان من: طغى، يطغى، وأما إن كان من: طغى يطغو، فالواو أصلية. وقد قرئ بضم الطاء، وفتحها. وقيل: هما لغتان. ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ﴾: قام، ونهض، وأسرع. ﴿أَشْقَىٰهَا﴾: أشقى قبيلة ثمود، وهو قُدار بن سالف، أو هو ومن مالأه على قتل الناقة. قال تعالى في سورة (القمر) رقم [٢٩]: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ وقد ذكرت قصة قوم ثمود مفصلة في سورة (الأعراف)، و(هود) و(الشعراء)، وفي سورة (القمر)، وفي سورة (الفجر) مختصرة.

الإعراب: ﴿كَذَّبَتۡ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث، ﴿ثَمُودُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿بِطَغۡوَىٰهَآ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، وعلامة الجر كسرة مقدرة على الألف للتعذر، و(ها): في محل جر بالإضافة، من إضافة المصدر لفاعله، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿إِذِ﴾: ظرف لما مضى من الزمان مبني على السكون في محل نصب متعلق بالفعل ﴿كَذَّبَتۡ﴾ أو بالمصدر قبله. ﴿ٱنۢبَعَثَ﴾: فعل ماض، ﴿أَشۡقَىٰهَا﴾: فاعله مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف، و(ها) في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿إِذِ﴾ إليها.

﴿فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ﴿١٣﴾﴾

الشرح: ﴿فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي: نبيهم صالح على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام. ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: ذروا ناقة الله، وابتعدوا عنها، لا تؤذوها! وإنما قال لهم ذلك لما عرف منهم: أنهم قد عزموا على عقرها. وإنما أضافها إلى الله تعالى لتشريفها، كبيت الله. ﴿وَسُقۡيَٰهَا﴾ أي: وشربها، وذروا شربها، ولا تتعرضوا للماء في يوم شربها! وهذا التحذير من صالح لقومه ورد في سورة (هود) رقم [٦٤]: ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ﴾ وفي سورة (الأعراف) رقم [٧٢].

هذا؛ ولقد كانت هذه الآية المعجزة برهاناً ساطعاً، وحجة واضحة على صدق نبي الله صالح على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام، كما كانت بطلب منهم؛ حيث وعدوه باتباعه، والإيمان به إنْ هو شقَّ لهم الصخر، وأخرج منه ناقةً عشراء. وأشاروا إلى صخرة عظيمة، ووصفوا الناقة بأوصاف معلومة، وأعطوْه العهود، والمواثيق على الإيمان بالله، فقام إلى مصلاه، فصلى، ودعا الله عز وجل أن يجيبهم إلى ما طلبوا، فأجاب الله دعاءه، وحقق رجاءه، فانشقت الصخرة عن ناقة عظيمة عشراء على الوجه المطلوب، فلما عاينوها؛ رأوْا أمراً عظيماً، ومنظراً هائلاً، وقدرةً باهرةً، ودليلاً ساطعاً، فآمن بعضهم، واستمر أكثرهم على الكفر، والضلال، والعناد. قال تعالى في سورة (الإسراء) رقم [٥٩]: ﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ﴾.

هذا؛ ولقد كان لهذه الناقة بعض الأمور العجيبة الغريبة؛ التي تدل بحق على صدق صالح، عليه الصلاة، والسلام، وعلى أنها آية من عند الله تعالى، منها: أنها خرجت من الصخر، وهو حجر أصم من الجماد، فكيف يخرج منه الحيوان؟ ومنها: أنها كانت تشرب ماء القبيلة بأجمعه في يوم شربها، وتعطيهم من الحليب بقدر الماء الذي شربته. قال تعالى في سورة (الشعراء) رقم [١٥٥]: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾. انتهى. بتصرف كبير من النبوة والأنبياء. وانظر الآية رقم [٤٨] و [٤٩] من سورة (النمل) تجد ما يسرك.

الإعراب: ﴿فَقَالَ﴾: الفاء: حرف عطف، (قال): فعل ماض. ﴿لَهُمۡ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿رَسُولُ﴾: فاعل (قال)، وهو مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه. ﴿نَاقَةَ﴾:

منصوب على التحذير بفعل محذوف، التقدير: احذروا الناقة، و﴿نَاقَةَ﴾: مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه، والجملة في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿فَقَالَ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها. ﴿وَسُقْيَٰهَا﴾: الواو: حرف عطف. (سقياها): معطوف على ﴿نَاقَةَ﴾ منصوب مثله... إلخ، والهاء في محل جر بالإضافة.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾

الشرح: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: كذبوا نبي الله صالحاً في قوله: إنكم تعذبون؛ إن عقرتم الناقة؛ ولم تؤمنوا بالله. ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي: عقرها الأشقى، وأضيف إلى الكل؛ لأنهم رضوا بفعله. وقال قتادة: ذُكر لنا: أنه لم يعقرها حتى تابعه صغيرهم، وكبيرهم، وذكرهم، وأنثاهم. والذي باشر العقر اسمه: قدار بوزن غراب ابن سالف، ويضرب به المثل، فيقال: أشأم من قُدار، وهو أشقى الأولين، وكان رجلاً أشقر أزرق قصيراً. وروى الضحاك عن علي ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «**أتدري مَنْ أشقى الأولين؟**». قلت: الله ورسوله أعلم! قال: «**عاقر الناقة**». قال: «**أتدري من أشقى الآخرين؟**». قلت: الله ورسوله أعلم! قال: «**قاتِلُك**». وكان عبد الرحمن بن ملجم المُرادي الخارجي، لعنه الله تعالى! وهناك من يقدسه، ويعظمه! هذا؛ والعقر: الجرح. وعقر البعير، والفرس بالسيف فانعقر. أي: ضرب به قوائمه. وبابه: ضرب. انتهى. مختار. انظر الآية رقم [٦٥] من سورة (هود) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام تجد ما يسرك.

﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ﴾ أي: أهلكهم، وأطبق عليهم العذاب بذنبهم الذي هو الكفر، والتكذيب، والعقر. وحقيقة الدمدمة: تضعيف العذاب، وترديده، والدمدمة إهلاك باستئصال، من غير إبقاء أحد حياً. ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾: فسوى الدمدمة عليهم جميعاً، وعمَّهم بها. وقيل: فسوى بين الأمة، وأنزل بصغيرهم، وكبيرهم، وغنيهم، وفقيرهم العذاب. وقيل: سوى عليهم الأرض، فجعلهم تحت التراب. ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ أي: لا يخاف الله تبعةً من أحد في هلاكهم. كذا قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ. وقال السدي، والضحاك، والكلبي: ترجع إلى العاقر؛ أي: لم يخف الذي عقرها عقبى ما صنع. وعليه ففي الكلام تقديم، وتأخير، مجازه: إذ انبعث أشقاها، ولا يخاف عقباها. وقيل: لا يخاف رسول الله صالح عاقبة إهلاك قومه، ولا يخشى ضرراً يعود عليه من عذابهم؛ لأنه قد أنذرهم، ونجاه الله تعالى حين أهلكهم، ولم يؤذه أحد منهم. هذا؛ وفي الجملة استعارة تمثيلية لإهانتهم، وأنهم أذلاء عند الله.

هذا؛ و(العقبى) جزاء الأمور، وآخر كل شيء، و(العقبى): الآخرة، وفي سورة (الرعد): ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾. هذه في حق أولي الألباب الموصوفين بصفات ثمانية. و﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ ولفظ (العاقبة) ذكر في كثير من الآيات القرآنية.

الإعراب: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾: الفاء: حرف عطف. (كذبوه): فعل ماض، وفاعله ومفعوله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها أيضاً، والتي بعدها مثلها. ﴿فَدَمْدَمَ﴾: الفاء: حرف عطف. (دمدم): فعل ماض. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿رَبُّهُم﴾: فاعل، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها أيضاً. ﴿بِذَنْبِهِمْ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾: الفاء: حرف عطف. (سواها): فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى ﴿رَبُّهُم﴾، و(ها): مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل له أيضاً. ﴿وَلَا﴾: الواو: واو الحال. (لا): نافية. ﴿يَخَافُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿رَبُّهُم﴾. ﴿عُقْبَٰهَا﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذر، و(ها): في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية في محل نصب حال من فاعل (سواها) المستتر، والرابط: الواو، والضمير، وهذا على عود الضمير إلى ﴿رَبُّهُم﴾، وأما على عوده على «العاقر» أو على «الرسول» فالجملة مستأنفة بلا ريب. هذا؛ ويقرأ بالفاء: (فلا) وعليه؛ فالفاء حرف عطف، وتعقيب.

تنبيه وخاتمة: بمناسبة ذكر: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ فأقول أولاً: لفظ النبي الذي يكثر ذكره في القرآن الكريم يقرأ بالهمز: (النبيء) وبدون الهمز: (النبي) وهو مأخوذ من النبأ، وهو الخبر. وقيل: بل هو مأخوذ من النَّبْوَة، وهو الارتفاع؛ لأن رتبة النبي ارتفعت عن رتب الخلق. هذا؛ والنبي غير الرسول بدليل عطفه عليه في قوله تعالى في سورة (الحج) رقم [٥٢]: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ...﴾ إلخ. وقيل: هو أعم منه؛ لأن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً، أما تعريفهما؛ فالرسول: ذكر حر من بني آدم، سليم عن منفر طبعاً، أوحي إليه بشرع يعمل به، ويؤمر بتبليغه فإن لم يؤمر بالتبليغ؛ فهو نبي، وليس رسولاً، فنبينا ﷺ صار نبياً بنزول سورة ﴿ٱقْرَأْ...﴾ إلخ عليه، وبعد أشهر من نزولها صار رسولاً بنزول سورة (المدثر) عليه.

هذا؛ ويروى: أن أبا ذر ـ رضي الله عنه ـ سأل رسول الله ﷺ عن عدد الأنبياء، فقال: «**مئةُ ألفٍ وأربعةٌ وعشرون ألفاً**». قال: كم عدد الرسل منهم؟ قال: «**ثلاثمئة وثلاثة عشر، أولهم آدم، وآخرهم نبيكم محمد عليه السلام**». أخرجه الإمام أحمد، وفي بعض ألفاظه اختلاف. هذا؛ وأربعة منهم من العرب، هم: هود، وصالح، وشعيب، ومحمد صلى الله عليهم جميعاً وسلم، وإسماعيل عليه الصلاة والسلام مستعرب؛ لسكناه مكة مع قبيلة جرهم، وتزوجه منهم بامرأتين كما رأيت في سورة (إبراهيم) رقم [٣٧] والمذكور من الرسل في القرآن بأسمائهم خمسة وعشرون، ومعرفتهم بأسمائهم واجبة على كل مسلم، ومسلمة من المكلفين، وأعني بمعرفتهم: أنه لو عرض اسم رسول منهم على مسلم؛ فيجب أن يعرفه أهو من المرسلين، أم لا؟ هذا؛ وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ في سورة (النساء) رقم [١٦٤]: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا

لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾، وقال تعالى في سورة (غافر) رقم [٧٨]: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾.

هذا؛ وقد ذكر في آيات (الأنعام) رقم [٨٣] وما بعدها ثمانية عشر رسولاً بأسمائهم من غير ترتيب، لا بحسب الزمان، ولا بحسب الفضل؛ لأن الواو العاطفة لا تقتضي الترتيب، وبقي سبعة لم يذكروا في سورة (الأنعام)، وقد ذكروا في غيرها، وهم: إدريس، وشعيب، وصالح، وهود، وذو الكفل، وهو ابن أيوب؛ الذي ذكر في سورة (الأنبياء) وسورة (ص)، ومحمد صلى الله عليهم جميعاً، وسلم. فهؤلاء الخمسة والعشرون رسولاً هم الذين يجب الإيمان بهم، ومعرفتهم تفصيلاً، وقد نظموا في قول بعضهم: [البسيط]

حَتْمٌ علَى كلِّ ذِي التكْلِيفِ معرفةٌ بِأنبِياءٍ عَلَى التَّفصيلِ قَدْ عُلِمُوا
في تِلْكَ حُجَّتُنَا مِنْهُمْ ثَمانِيةٌ منْ بعدِ عَشر، ويَبْقَى سَبْعةٌ وهُمُو
إدْرِيسُ هودٌ شعيبٌ صالحٌ وكذا ذُو الكِفْلِ آدمُ بالمختارِ قَدْ خُتِمُوا

ويعني بقوله في (تلك حجتنا) آيات الأنعام المذكورة. وينبغي أن تعلم: أن هؤلاء الرسل ليسوا بدرجة واحدة من الفضل، بل أرفعهم درجة، وأعلاهم منزلة أولو العزم منهم، وهم خمسة: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد. وسيد الجميع وأفضل الخلق قاطبة محمد صلى الله عليهم جميعاً، وسلم تسليماً، والأنبياء صلوات الله، وسلامه عليهم أجمعين تجوز عليهم الأعراض البشرية؛ لأنهم من البشر، فهم يأكلون، ويشربون، ويصحُّون، ويمرضون، وينكحون النساء، ويمشون في الأسواق، وتعتريهم الأعراض البشرية، من ضعف وشيخوخة وموت، إلا أنهم يمتازون بخصائص، ويتصفون بصفات عظيمة جليلة. هي بالنسبة لهم من ألزم اللوازم، وهي ما يلي: الصدق، والأمانة، والتبليغ والفطانة، والعصمة من المعاصي قبل النبوة، وبعدها، والسلامة من العيوب المنفرة... تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

انتهت سورة (الشمس) شرحاً، وإعراباً بعون الله وتوفيقه.

والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ اللَّيْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة (الليل) وهي مكية. وقيل: مدنية، وهي إحدى وعشرون آيةً، وإحدى وسبعون كلمةً، وثلاثمئة وعشرة أحرف. قال الرازي ـ رحمه الله تعالى ـ: نزلت في أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وإنفاقه المال على المسلمين، وفي أمية بن خلف، وبخله، وكفره بالله. والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. انتهى. جمل.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤﴾

الشرح: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ أي: غطى كل شيء بظلمته، كلَّ ما بين السماء والأرض. وحذف المفعول للتعميم، وللعلم به، فقد أقسم الله بالليل الذي يأوي فيه كل حيوان إلى مأواه، ويسكن الخلق فيه عن التحرك، ويغشاهم النوم؛ الذي جعله الله راحةً لأبدانهم، وغذاءً لأرواحهم، ثم أقسم بالنهار إذا تجلى؛ لأن النهار إذا جاء انكشف بضوئه ما كان في الدنيا من الظلمة، وجاء الوقت الذي يتحرك فيه الناس لمعايشهم، وتتحرك الطير من أوكارها، والهوام من مكانها، فلو كان الدهر كله ليلاً؛ لتعذر المعاش، ولو كان كله نهاراً؛ لبطلت الراحة. فكانت المصلحة في تعاقبهما. انتهى. جمل نقلاً من الخطيب.

أقول: وهذا كله يتجلى في قوله تعالى في سورة (الإسراء) رقم [١٢]، وفي سورة (الروم) رقم [٢٣]، وفي سورة (النمل) رقم [٨٦]، وفي سورة (غافر) رقم [٦١]، وفي سورة (يونس) رقم [٦٧] انظر شرحها في محالها.

﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ أي: ومَنْ خلق، فعلى هذا يكون قد أقسم بنفسه تعالى، وتكون (ما) قد أطلقت على الله تعالى. والمعنى: والقادر العظيم الذي قدر على خلق الذكر، والأنثى من ماء واحد؛ إن أريد به جنس الذكر، والأنثى. وقيل: هما آدم، وحواء، وتكون (ما) قد أطلقت عليهما معاً. وإنما أقسم بهما؛ لأنه تعالى ابتدأ خلق آدم من طين، وخلق منه حواء مِنْ غير أم. أقول: والأحسن التعميم لجميع الذكور، والإناث المخلوقات؛ لقوله تعالى في سورة (الذاريات) رقم [٤٩]: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ انظر شرحها هناك تجد ما يسرك.

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ﴾: عملكم؛ إذ السعي العمل، فساعٍ في فكاك نفسه، وساعٍ في هلاكها. يدل عليه قول النبي ﷺ: «**الناسُ غاديانِ: فمبتاعٌ نفسَهُ، فمعتِقُهَا، وبائعٌ نَفسَه، فموبِقُها**». ﴿لَشَتَّىٰ﴾: مختلف. واحده: شتيت، مثل: مريض، ومرضى، وإنما قيل للمختلف: شتى؛ لتباعد ما بين بعضه، وبعضه، والشتان: الافتراق. قال تعالى في وصف المنافقين: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ رقم [١٤] من سورة (الحشر) والمعنى: إن عملكم لمتباعد بعضه من بعض؛ لأن بعضه ضلالة، وبعضه هدىً؛ أي: فمنكم مؤمن، وبر، وكافر، وفاجر، ومطيع، وعاصٍ، ومختلف الجزاء أيضاً، فمنكم مثابٌ بالجنَّة، ومنكم معاقبٌ بالنار. وقيل: أي: لمختلف الأخلاق، فمنكم راحم، ومنكم قاس، ومنكم حليم، ومنكم طائش، ومنكم جواد، ومنكم بخيل... إلخ.

الإعراب: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾: انظر إعراب ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ في سورة (الشمس) ففيها الكفاية. ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ انظر إعراب ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ في سورة (الشمس) مع العلم: أن (ما) إن كانت بمعنى: «مَنْ» فهي كناية عن الله تعالى، و﴿ٱلذَّكَرَ﴾ مفعول به، وإن كانت كناية عن المخلوق، فهي مصدرية، و﴿ٱلذَّكَرَ﴾ بدل من «مَنْ». انتهى. أبو البقاء. هذا؛ وأجاز الفراء خفض ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ على البدل من (ما) وجعلها بمعنى «الذي». مكي. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل.

﴿سَعۡيَكُمۡ﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة المصدر لفاعله. ﴿لَشَتَّىٰ﴾: اللام: هي المزحلقة. (شتى): خبر ﴿إِنَّ﴾ مرفوع وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر، والجملة الاسمية جواب القسم: ﴿وَٱلَّيۡلِ...﴾ إلخ وما عطف عليه. وانظر تفصيل الإعراب في سورة (الشمس) وسورة (المرسلات) و(الذاريات).

﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧﴾

الشرح: ﴿فَأَمَّا مَنۡ...﴾ إلخ: بيان، وتفصيل لتلك المساعي المختلفة، وتبيينٌ لأحكامها، و﴿مَنۡ أَعۡطَىٰ﴾ يتناول إعطاء حقوق المال، وإعطاء حقوق النفس في طاعة الله تعالى. يقال: فلان أعطى الطاعة، وأعطى البيعة. وقيل: معنى الإعطاء: إنفاق المال في جميع وجوه الخير، مِنْ عتق الرقاب، وفك الأسارى، وتقوية المسلمين على عدوهم. انتهى. جمل نقلاً من الرازي.

هذا؛ وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وعامة المفسرين: نزلت الآيات الثلاث في أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ فقد كان ينفق المال في عتق العجائز، والنساء. فقال له أبوه أبو قحافة: أي بني! لو أنك عتقت رجالاً يمنعونك، ويقومون معك! فقال: يا أبتِ! إنما أريدُ ما أريدُ، فهو يعني ـ رضي الله عنه ـ رضا الله. ومعنى ﴿أَعۡطَىٰ﴾ أنفق، وبذل المال في وجوه الخير، ومعنى (اتقى) أي: محارم الله؛ التي نهى عنها، فعمل بطاعته، واجتنب معاصيه. ﴿وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أي: بالخلف من الله تعالى على عطائه. وهو اختيار الطبري. وقيل: صدق بلا إله إلا الله. وقيل: صدق بموعود الله تعالى.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي: نرشده لأسباب الخير، والصلاح؛ حتى يسهل عليه فعلها. وقال زيد ابن أسلم ـ رحمه الله تعالى ـ: ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾ للجنة. وفي الصحيحين، والترمذي عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا في جنازة بالبقيع، فأتى النبي ﷺ، فجلس، وجلسنا معه، ومعه عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه إلى السماء، فقال: «**ما مِنْ نفسٍ مَنْفُوسَةٍ إلَّا قَدْ كُتِبَ مَدْخَلُهَا**». فقال القوم: يا رسول الله! أفلا نتكل على كتابنا؛ فمن كان من أهل السعادة؛ فهو يعمل للسعادة، ومن كان من أهل الشقاوة؛ فإنه يعمل للشقاوة؟! قال: «**بل اعملُوا، فكلٌّ مُيَسَّرٌ، أمَّا مَنْ كانَ مِنْ أهلِ السعادَةِ، فإنه يُيَسَّر لعملِ السعادةِ، وأما مَنْ كَانَ مِنْ أهلِ الشقاوةِ، فإنَّهُ يُيَسَّرُ لعملِ الشقاءِ، ثـم قـرأ** ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾». وسأل غلامان شابان رسول الله ﷺ، فقالا: العمل فيما جَفَّتْ به الأقلامُ، وجرت به المقاديرُ، أم في شيءٍ يستأنف؟ فقال ﷺ: «**بل فيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير**». قالا: ففيم العمل؟! قال: «**اعملوا فكلٌّ مُيَسَّرٌ لعملِهِ الذي خُلِقَ لهُ**». قالا: فالآن نُجِدُّ ونعمل. وانظر ما ذكرته في سورة (هود) رقم [١٠٥]، وخذ ما يلي:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما مِنْ يوْمٍ يُصْبِحُ العبادُ فيهِ إلَّا وملكان ينزلانِ، فيقولُ أحَدُهُمَا: اللهمَّ أعطِ منفقاً خَلَفاً، ويقول الآخرُ: اللهمَّ أعطِ مُمْسِكاً تلَفاً**». أخرجه مسلم، وغيره. وروي من حديث أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**ما مِنْ يوم غربتْ شمسُهُ إلا بُعِثَ بجنبتِهَا ملكانِ يُناديانِ يسمعهما خَلْقُ الله كلُّهُمْ إلا الثقلينِ: اللهمَّ أعطِ مُنْفِقاً خلفاً، وأعطِ ممسكاً تلفاً**». فأنزل الله تعالى ذلك في القرآن ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ....﴾ إلخ الآيات. انتهى. قرطبي.

هذا؛ و(اتقى) أصله (اوْتقى) قلبت الواو تاءً، وأدغمت التاء في التاء، مثل: اتصل، أصله: أوتصل، واتقى ماض من التقوى، وهي حفظ النفس من العذاب الأخروي بامتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه؛ لأن أصل المادة من الوقاية، وهي: الحفظ، والتحرز من المهالك في الدنيا، والآخرة. وانظر ما وصف الله به المتقين في أول سورة (البقرة).

الإعراب: ﴿فَأَمَّا﴾: انظر سورة (الضحى). ﴿مَنْ﴾: اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿أَعْطَىٰ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف في محل جزم فعل الشرط، والفاعل يعود إلى ﴿مَنْ﴾، تقديره: «هو»، وحذف مفعولاه. قال ابن هشام في المغني: ويجوز حذف مفعولي ﴿أَعْطَىٰ﴾، نحو: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ وثانيهما فقط، نحو: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ سورة (الضحى) وأولهما فقط، خلافاً للسهيلي، نحو﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ سورة (التوبة) رقم [٢٩]. وينبغي أن تعلم: أنه لا يحذف المفعولان، أو أحدهما إلا إذا دل دليل على ذلك. قال ابن مالك رحمه الله في ألفيته: [الرجز]

وَلا تــجــزْ هُــنَـــا بِـــلَا دَلِـــيــــلِ سُـقُــوطَ مَـفْـعُــولَـيْــنِ أوْ مَـفْـعُــولِ

قال ابن عقيل ـ رحمه الله تعالى ـ: وهذا الذي ذكره المصنف هو الصحيح من مذاهب النحويين، فإن لم يدل دليل على الحذف؛ لم يجز لا فيهما، ولا في أحدهما. . . إلخ. ﴿وَاتَّقَىٰ﴾: الواو: حرف عطف. (اتقى): فعل ماض معطوف على ما قبله، فهو مثله في محل جزم، والفاعل يعود إلى ﴿مَنْ﴾ أيضاً، ومفعوله محذوف أيضاً. ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾: هذه الجملة معطوفة على ما قبلها، وإعرابها ظاهر إن شاء الله تعالى. ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. السين: حرف تنفيس، واستقبال، وهي تفيد التحقيق، والتأكيد في حقِّ الله تعالى. (نيسره): فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: «نحن»، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط. ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، وعلامة الجر كسرة مقدرة على الألف للتعذر، وخبر المبتدأ الذي هو ﴿مَنْ﴾ مختلف فيه، فقيل: هو جملة الشرط. وقيل: هو جملة الجواب. وقيل: هو الجملتان، وهو المرجح عند المعاصرين. هذا؛ وإن اعتبرت ﴿مَنْ﴾ اسماً موصولاً؛ فهي مبتدأ، وجملة: ﴿أَعْطَىٰ...﴾ إلخ صلتها، وجملة: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ...﴾ إلخ خبرها، ودخلت الفاء في الخبر؛ لأن الموصول يشبه الشرط في العموم. ويقال: الفاء واقعة في جواب (أما). والجملة الاسمية على الاعتبارين مستأنفة، ومفرعة عما قبلها لا محل لها.

﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾

الشرح: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾: بماله، فلم ينفقه في وجوه الخير، والطاعة. ﴿وَاسْتَغْنَىٰ﴾ أي: عن فضل الله تعالى، وثوابه، فلم يرغب فيه. ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي: فلم يؤمن، ولم يثق بما وعد الله به المحسنين من الثواب الكريم، والأجر الجزيل على إنفاق المال في وجوه الخير. ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ أي: فسنهيئه للشر بأن نجريه على يديه؛ حتى يعمل بما لا يرضي الله، فيستوجب بذلك النار. وقيل: نعسر عليه أن يأتي خيراً. وفي الآية دليل لأهل السنة، وصحة قولهم في القدر، وأن التوفيق، والخذلان، والسعادة، والشقاوة بيد الله تعالى، ووجوب العمل بما سبق له في الأزل. انتهى. خازن.

هذا؛ وقد قال الزمخشري بقوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ والمعنى: فسنلطف به، ونوفقه حتى تكون الطاعة أيسر الأمور عليه، وأهونها من قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ وقال بقوله تعالى هنا: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾: فسنخذله، ونمنعه الألطاف؛ حتى تكون الطاعة أعسر شيء عليه، وأشده مِنْ قوله تعالى: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَآءِ﴾. قال أحمد بن المنير: ألا يطيل لسانه هاهنا على أهل السنة، ولكن قصره الحق، فتراه يؤول الكلام، بل يعطله؛ لأنه يحمله على ما لا يحتمله، وعلى كلامه في أمثالها روعة السارق الخائف.

هذا؛ وقال الفراء: يقول القائل: كيف قال: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ وهل في العسرى تيسير؟! فيقال في الجواب: هذا في إجازته بمنزلة قوله عزَّ وجل: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ رقم [٢١] من سورة (آل عمران)، و[٣٤] من سورة (التوبة)، و[٢٤] من سورة (الانشقاق)، والبشارة في الأصل على المفرح والسار، فإذا جمع في كلامين: هذا خير، وهذا شر؛ جاءت البشارة فيهما جميعاً، وكذلك التيسير في الأصل على المفرح، فإذا جمع في كلامين: هذا خير، وهذا شر؛ جاء التيسير جميعاً. انتهى. قرطبي. هذا؛ ولقد تكلمت على البخل، والبخلاء فيما تقدم كثيراً. انظر آخر سورة (محمد ﷺ) والآية رقم [١١] و[١٥] من سورة (الحديد) والآية رقم [٩] من سورة (الحشر) وخذ ما يلي في حق السخاء.

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**السخِيُّ قريبٌ من الله، قريبٌ من الجنةِ، قريبٌ من الناسِ، بعيدٌ منَ النارِ، والبخيلُ بعيدٌ من الله، بعيدٌ من الجنةِ، بعيدٌ منَ الناسِ، قريبٌ من النارِ. ولجاهِلٌ سخيٌّ أحبُّ إلى الله منْ عالمٍ بَخيلٍ**». رواه الترمذي.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**ألا إن كلَّ جوادٍ في الجنةِ حتم على الله وأنا به كفيلٌ، أَلَا وإنَّ كلَّ بخيلٍ في النارِ حَتْمٌ على الله، وأنا به كفيلٌ**». قالُوا: يا رسولَ الله! مَن الجوادُ، ومَنِ البخيلُ؟ قال: «**الجوادُ من جادَ بحقوق الله عزَّ وجلَّ في مالِهِ. والبخيلُ مَنْ منعَ حقوقَ الله، وبخلَ على رَبِّه، وليْسَ الجوادُ مَنْ أخذَ حراماً، وأنفق إسرافاً**». رواه الأصبهاني.

وعن عمر ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ قال: إن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله تبارك وتعالى بعث حبيبي جبريل عليه الصلاة والسلام إلى إبراهيم عليه السلام، فقال له: يا إبراهيمُ! إني لا أتَّخِذُكَ خَلِيلاً على أنَّكَ أعْبَدُ عِبَادٍ لي، ولكن اطلعْتُ على قلوبِ المؤمنين، فلَمْ أجدْ قلباً أسخَى من قلبِكَ**». رواه الطبراني وابن حبان.

وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ عن رسول الله ﷺ عن جبريل عليه السلام، عن الله تعالى؛ قال: «**إن هذا دين ارتضَيْتُهُ لِنفْسي، ولَنْ يصلُحَ لهُ إلّا السخاءُ، وحُسْنُ الخلقِ، فأكرمُوهُ بهما ما صَحِبْتُمُوهُ**». رواه الطبراني في الأوسط.

ومعلوم: أن سيدنا رسول الله ﷺ هو صفوة الصفوة من سادة العرب، والمثل الأعلى للإنسانية الكاملة الفياضة بالخير، والرحمة، والجود، والعطاء، فكل العالمين دونه في النبل، والكمال، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، لا جرم كان أجود الناس، وأكثرهم عطاءً، وأبذلهم للخير، والمال، وكيف لا يكون كذلك؛ وروحه أقوى الأرواح، ونفسه أحسن النفوس، ومزاجه أعدل الأمزجة، وعليه أنزل: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فكان يعطي عطاء مَنْ لا يخشى الفقر، وكانت الأموال تأتيه من كل فج عميق بكثرة، فلا يقوم من مجلسه؛ حتى يفرقها كلها في وجوه الخير، والبر، والإحسان، ولا يرد

سائله إلا بحاجته، أو بميسورٍ من القول، وإن رجلاً أتاه، فسأله، فأعطاه غنماً تسد ما بين جبلين، فرجع إلى قومه. وقال: أسلموا، فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر. وما سئل شيئاً قط، فقال: لا. وجاء رجل فسأله، فقال: «**ما عندي شيء، ولكن ابتع عليَّ، فإذا جاءنا شيء؛ قضيناه**». فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: يا رسول الله! ما كلفك الله ما لا تقدر عليه!. فكره النبي ﷺ ذلك من عمر، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله! أنفقْ، ولا تخشَ من ذي العرش إقلالاً! فتبسم ﷺ، وعرف السرور في وجهه.

وقال الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ: إذا أقبلت عليك الدنيا؛ فأنفق منها، فإنها لا تفنى. وإذا أدبرت عنك؛ فأنفق منها فإنها لا تبقى. وقيل في المعنى: [البسيط]

لا تَبْخَلَنَّ بدنْيَا وهيَ مقبلةٌ فلَيْسَ ينقُصُهَا التبذيرُ والسَّرَفُ
وإنْ تولَّتْ فأحْرَى أنْ تجودَ بِهَا فالحمدُ مِنْهَا إذَا ما أدْبرتْ خَلَفُ

وأكتفي بما تقدم، ولو شئت لعملت من ذلك صفحات.

وإعراب الآيات الثلاث مثل إعراب ما قبلهن، بلا فارق، ولا تنس المقابلة بين الآيات، والطباق بين (اليسرى) و(العسرى)، وكل ذلك من المحسنات البديعية.

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾

الشرح: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ﴾: الذي جمعه من حلال، وحرام، ثم بخل به في وجوه الخير، والإحسان. ﴿إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ أي: مات، يقال: ردي الرجل، يردى ردىً: إذا هلك. وقيل: تردى سقط في جهنم. وقيل: سقط في القبر، و(ما) تحتمل النفي، والاستفهام. انظر الإعراب، ومثله في سورة: (المَسد) قوله تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ أي: إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلالة، فالهدى بمعنى: بيان الأحكام. قاله الزجاج؛ أي: علينا البيان، بيان الحلال، والحرام، والطاعة، والمعصية، وذلك: أن الله تعالى عرفهم ما للمحسن من اليسرى، وما للمسيء من العسرى، أخبرهم: أن بيده الإرشاد والهداية وعليه تبيين طريقها. وقيل: معناه: إن علينا للهدى، والإضلال، فاكتفى بذكر أحدهما. والمعنى: أرشد أوليائي إلى العمل بطاعتي، وأصرف أعدائي عن العمل بطاعتي.

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ أي: لنا ما في الدنيا، والآخرة، فمن طلبهما من غير مالكهما؛ فقد أخطأ الطريق، فهو كقوله تعالى في سورة (النجم): ﴿فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾، وقال تعالى في سورة (النساء) رقم [١٣٤]: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ والمعنى: إن الأمر كله لله، مالك الدنيا، والآخرة، فهو المتصرف فيهما، تصرف الملاك، يعطي من يشاء،

ويمنع من يشاء، لا راد لعطائه، ولا معطي لما منع. هذا؛ والمراد بـ: (الأولى) الحياة الدنيا الحاضرة؛ التي يحياها الإنسان؛ وهو حي، والمراد بـ: (الآخرة) الحياة التي تكون بعد الموت، وما فيها من عذاب، أو نعيم، والآخرة: الحياة الثانية الأبدية التي تكون بعد الموت، وما فيها من البعث، والنشور، والحساب، والجزاء، وهي في الجنة لمن آمن، وعمل صالحاً، أو في النار لمن كفر، وعمل سيئاً.

الإعراب: ﴿وَمَا﴾: الواو: حرف استئناف. (ما): نافية. ﴿يُغْنِي﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل. ﴿عَنْهُ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿مَالُهُۥٓ﴾: فاعله، والهاء في محل جر بالإضافة، والمفعول محذوف، التقدير: وما يغني عنه ماله شيئاً. هذا؛ وإن اعتبرت (ما) اسم استفهام، فهي مبنية على السكون في محل نصب مفعول به مقدم. وقيل: في محل نصب مفعول مطلق لما بعده، التقدير: أي إغناءٍ يغني؟ والجملة على الوجهين فعلية، وهي مستأنفة، لا محل لها. ﴿إِذَا﴾: ظرف زمان مبني على السكون في محل نصب متعلق بالفعل ﴿يُغْنِي﴾. ﴿تَرَدَّىٰٓ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والفاعل مستتر، يعود إلى ﴿مَنْ﴾، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها. هذا؛ وإن اعتبرت إذا شرطية، فالفعل ﴿تَرَدَّىٰٓ﴾ شرطها، وجوابها محذوف، دلَّ على ما قبلها.

﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿عَلَيْنَا﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ﴿إِنَّ﴾ تقدم على اسمها. ﴿لَلْهُدَىٰ﴾: اللام: لام الابتداء. (الهدى): اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذر، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها، والتي بعدها معطوفة عليها، وإعرابها مثلها بلا فارق.

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾

الشرح: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾ أي: حذرتكم، وخوفتكم، والخطاب لأهل مكة، وهو عام إلى يوم القيامة؛ لأن خصوص السبب، لا يمنع التعميم. ﴿تَلَظَّىٰ﴾: تتوهج، وتتوقد، وأصله: تتلظى، فحذفت إحدى التاءين. ومثله كثير في الآيات القرآنية، والتظاءُ النارِ: التهابُها، وتلظّيها: تَلهُّبُهَا. وخذ ما يلي:

عن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «**إن أهْوَنَ أهْلِ النَّار عَذَاباً رجلٌ في أخمصِ قدمَيْهِ جمرتَانِ، يَغْلِي منهما دِماغُهُ، كما يَغْلِي الْمِرْجَلُ بالْقُمْقم**». رواه الشيخان.
وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ أهْوَنَ أهلِ النارِ عَذَاباً أبُو طالِبٍ، وَهُوَ مُنْتَعِلٌ بِنَعْلَيْنِ يَغْلِي منهما دِماغُهُ**». رواه مسلم.

﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ أي: لا يحترق فيها، ويقاسي حرها إلا الشقي، وهو: ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: كذب محمداً ﷺ، وأعرض عن الإيمان، وعن العمل بما يوجبه هذا الإيمان

بالجوارح، والأعضاء. فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ. قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يدخلُ النارَ إلَّا شَقِيٌّ»**. قيل: ومن الشقي؟ قال: **«الذي لا يعمل بطاعة الله»**. أخرجه الإمام أحمد. وقال رسول الله ﷺ: **«كل أمتي تدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى»**. قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟! قال: **«مَن أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني؛ فقد أبى»**. أخرجه البخاري، وأحمد عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ. انتهى. مختصر ابن كثير. ولا تنس: أن الأشقى الكافر يصلى نار جهنم خالداً مخلداً، والأشقى الفاسق المسلم يصلاها مؤقتاً بحسب جريمته؛ التي عملها في الدنيا. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

هذا؛ وإن الزمخشري شذ في تفسير الأشقى، فصفعه ابن المنير كعادته. جزاه الله خيراً!.

الإعراب: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾: الفاء: حرف استئناف. (أنذرتكم): فعل، وفاعل، ومفعوله الأول. ﴿نَارًا﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿تَلَظَّىٰ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى ﴿نَارًا﴾، تقديره: «هي»، والجملة الفعلية في محل نصب صفة ﴿نَارًا﴾. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَصْلَىٰهَآ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف، و(ها): مفعول به. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿ٱلْأَشْقَى﴾: فاعل مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر، والجملة الفعلية في محل نصب صفة ثانية لـ: ﴿نَارًا﴾ أو هي في محل نصب حال منها بعد وصفها بما تقدم. ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع صفة ﴿ٱلْأَشْقَى﴾، أو بدل منه، أو هو في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هو الذي، أو هو في محل نصب مفعول به لفعل محذوف، التقدير: أذم، أو أعني الذي. وهذان الوجهان على القطع. ﴿كَذَّبَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلَّذِى﴾ وهو العائد، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها، والتي بعدها معطوفة عليها، لا محل لها مثلها.

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾

الشرح: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾: وسيزحزح عن النار، ويكون بعيداً عنها التقي، النقي، المتقي، الخائف. هذا؛ وقال بعض أهل المعاني: أراد بقوله ﴿ٱلْأَتْقَى﴾ و﴿ٱلْأَشْقَى﴾ أي: التقي، الشقي، ويوضع أفعل موضع فعيل، نحو قولهم: الله أكبر بمعنى: كبير، وقوله تعالى في سورة (الروم) رقم [٢٧]: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾. وقال الشافعي ـ رضي الله عنه ـ، وعزاه القرطبي سهواً لطرفة بن العبد: [الطويل]

تَمَنَّى رِجَالٌ أنْ أمُوتَ وإنْ أمُتْ فتِلْكَ سَبِيلٌ لَسْتُ فِيهَا بَأَوْحَدِ

أي: واحد، ووحيد. ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ أي: يطلب أن يكون زاكياً عند الله، ولا يطلب بذلك رياءً، ولا سمعةً، بل يتصدق به مبتغياً وجه الله تعالى. هذا؛ وفي هذه الآيات التفات من الخطاب إلى الغيبة. انظر الالتفات، وفوائده في سورة (الملك) رقم [٢٠].

الإعراب: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾: الواو: حرف عطف. السين: حرف استقبال، وتنفيس. (يجنبها): فعل مضارع مبني للمجهول، و(ها): مفعوله الثاني تقدم على الأول. ﴿ٱلْأَتْقَى﴾: نائب فاعل مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر، وهو المفعول الأول، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها. ﴿ٱلَّذِى﴾: قل فيه مثل ما قبله من أوجه. ﴿يُؤْتِى﴾: فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلَّذِى﴾ وهو العائد. ﴿مَالَهُۥ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها، وجملة: ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ بدل منها، لا محل لها مثلها، أو هي في محل نصب حال من فاعلها، التقدير: يؤتي ماله متزكياً به عند الله.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾

الشرح: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ أي: وليس عند أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ لأحد من الناس معروف، وإحسان دنيوي يريد أن يكافئ عليه بإنفاقه المال في سبيل الله؛ حتى النبي ﷺ، بل كان أبو بكر هو الذي ينفق على رسول الله، وإنما كان للنبي ﷺ نعمة الهداية، والإرشاد إلى الإيمان، وهذه نعمة لا تجزى، ولا تكافأ لقوله تعالى في كثير من الآيات: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ والمذكور هنا ليس مطلق النعمة، بل نعمة تجزى، وتكافأ.

﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ﴾ أي: ثواب الله، ومرضاته، والطمع في رحمته، وجنته.

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ أي: بما يعطيه الله عز وجل في الآخرة من الجنة، والخير، والكرامة جزاء على ما فعل من الخير في الدنيا، والمراد بوجه ربه: ذاته العلية.

تنبيه بل فائدة: لعلَّ وعسى، وسوف في مواعيد الملوك كالجزم بها، إنما يطلقونها إظهاراً لوقارهم، وإشعاراً بأن الرمزة منهم كالتصريح من غيرهم، وعليه جرى وعد الله، ووعيده.

الإعراب: ﴿وَمَا﴾: الواو: واو الحال. (ما): نافية. ﴿لِأَحَدٍ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿عِندَهُۥ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر ثان، أو هما متعلقان بالخبر المحذوف، أو بمحذوف حال من الضمير المستتر في الخبر المحذوف، وبعضهم يقول: متعلقان بمحذوف حال من ﴿نِّعْمَةٍ﴾ كان صفة له... إلخ، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿مِن﴾: حرف

جر صلة. ﴿نِّعْمَةٍ﴾: مبتدأ مؤخر مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد. هذا؛ ويجوز اعتبار ﴿نِّعْمَةٍ﴾ فاعلاً بمتعلق الجار، والمجرور التقدير: وما ثبت لأحد عنده نعمة. وعلى الاعتبارين؛ فالجملة في محل نصب حال من فاعل ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ المستتر، والرابط: الضمير فقط. ﴿تُجْزَىٰٓ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع.. إلخ، ونائب الفاعل يعود إلى ﴿نِّعْمَةٍ﴾، والجملة الفعلية في محل صفة ﴿نِّعْمَةٍ﴾.

﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾: استثناء منقطع من ﴿نِّعْمَةٍ﴾، أو هو مفعول لأجله. ويجوز رفعه على البدلية، ولم يقرأ بالرفع. وقال القرطبي: قرأ به يحيى بن وثاب، و﴿ٱبْتِغَآءَ﴾ مضاف، و﴿وَجْهِ﴾ مضاف إليه، من إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله محذوف، و﴿وَجْهِ﴾ مضاف، و﴿رَبِّهِ﴾ مضاف إليه، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾: صفة ﴿وَجْهِ رَبِّهِ﴾ مجرور مثله.. إلخ. ﴿وَلَسَوْفَ﴾: الواو: حرف قسم وجر، والمقسم به محذوف، تقديره: وعزتي، والجار، والمجرور متعلقان بفعل محذوف، تقديره: أقسم. اللام: واقعة في جواب القسم. (سوف): حرف تسويف، واستقبال. ﴿يَرْضَىٰ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلْأَتْقَى﴾، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها، والقسم، وجوابه كلام مستأنف.

خاتمة: قال محمد بن إسحاق عن هشام بن عروة بن الزبير، عن أبيه: كان بلال ـ رضي الله عنه ـ مِلكاً لأمية بن خلف الجمحي، وهو بلال بن رباح، واسم أمه: حمامة، وكان صادق الإسلام طاهر القلب، وكان سيده أمية ـ أخزاه الله ـ يخرجه إذا حميت الشمس، فيطرحه على ظهره ببطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة، فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد! فيقول وهو في ذلك: أحدٌ أحدٌ، فمر به أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ، وهم يصنعون به ذلك، فقال لأمية الخبيث: ألا تتقي الله في هذا المسكين؟! قال: أنت أفسدته، فأنقذه مما ترى! فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: أفعل عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى، وهو على دينك أعطيكه به. قال: قد فعلت، فأعطاه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ غلامه، واسمه: نسطاس، وأخذ بلالاً، فأعتقه. وكان قد أعتق ست رقاب على الإسلام قبل أن يهاجر، بلالٌ سابعهم.

وهم: عامر بن فهيرة، شهد بدراً، وأحداً، وقتل يوم بئر معونة شهيداً. وأم عميس، وزهرة، فأصيب بصرها حين أعتقها أبو بكر، فقالت قريش: ما أذهب بصرها إلا اللات، والعزى، فقالت: كذبوا ورب البيت! لا تضر اللات والعزى، ولا تنفعان شيئاً! فرد الله عليها بصرها. وأعتق النهدية، وابنتها، وكانت لامرأة من بني عبد الدار، فرآهما أبو بكر، وقد بعثتهما سيدتهما تحتطبان لها، وهي تقول: والله لا أعتقهما أبداً! فقال أبو بكر: كلَّا يا أم فلان! فقالت: أنت

أفسدتهما، فأعتقهما. قال: فبكم؟ قالت: بكذا وكذا. قال: أخذتهما، وهما حرتان لوجه الله! ومر بجارية من بني المؤمل؛ وهي تعذب، فابتاعها، وأعتقها، فقال عمار بن ياسر ـ رضي الله عنهما ـ يذكر بلالاً، وأصحابه، وما كانوا فيه من البلاء، وإعتاق أبي بكر إياهم ـ وكان اسم أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ عتيقاً ـ فقال في ذلك: [الطويل]

جزى اللهُ خيراً عن بلالٍ وصحبِهِ ... عتيقاً وأخزى فاكهاً وأبَا جهْلِ
عشيةَ همَّا في بلالٍ بسوءةٍ ... ولم يحذرا ما يَحْذَرُ المرءُ ذو العقلِ
بتوحِيدِه رَبَّ الأنامِ وقولِهِ ... شهدْتُ بأن الله ربي على مهْلِ
فإنْ تقتلوني فاقتلوني فلمْ أكنْ ... لأشركَ بالرحمنِ من خِيفَةِ القَتْلِ
فيارَبَّ إبراهيمَ والعبدِ يونسٍ ... وموسىَ وعيسَى نجِّني، ثم لا تُمْلِي
لِمَنْ ظلَّ يهوى الغيَّ من آل غالبٍ ... على غيرِ حقٍّ كان مِنهُ ولا عَدْلِ

قال سعيد بن المسيب ـ رضي الله عنه ـ: بلغني: أن أمية بن خلف قال لأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ في بلال حين قال له: أتبيعه؟ قال: نعم أبيعه بنسطاس (عبد لأبي بكر)، وكان نسطاس صاحب عشرة آلاف دينار، وغلمان، وجوار، ومواش، وكان مشركاً حمله أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ على الإسلام على أن يكون مالُهُ لَهُ، فأبى، فأبغضه أبو بكر، فلما قال أمية: أبيعه بغلامك نسطاس؛ اغتنمه أبو بكر، وباعه به، فقال المشركون: ما فعل أبو بكر ذلك ببلال إلا ليد كانت لبلال عنده! فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ...﴾ إلخ انتهى. خازن.

قيل: إن أمية الخبيث قال: لو سألني أبو بكر بلالاً بفلوس معدودة؛ لبعته إياه! فبلغ قوله أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ، فقال: لو طلب مني أمية ما أملك ثمناً لبلال لأعطيته ما يريد.

تنبيه: قيل: كان لرجل من الأنصار نخلة، وفرعها في دار رجل فقير، وله عيال، فكان صاحب النخلة إذا صعد نخلته ليأخذ منها الثمر، فربما سقطت التمرة، فيأخذها صبيان الفقير، فينزل الرجل عن نخلته حتى يأخذ التمرة من أيديهم، وإن وجدها في فم أحدهم؛ أدخل إصبعه في فيه؛ حتى يخرجها. فشكا ذلك الرجل الفقير إلى النبي ﷺ، فلقي النبي ﷺ صاحب النخلة، فقال له: «**تعطيني نخلتك التي فرعها في دار فلان، ولك بها نخلة في الجنة؟**». فقال الرجل: إن لي نخلاً كثيراً، وما فيه أعجب إليَّ منها! وقيل في رواية: (لا أبيع عاجلاً بآجل) فسمع أبو الدحداح (رجل من الأنصار) بذلك.

فقال لصاحب النخلة: هل لك أن تبيعها بحش، يعني: حائطاً فيه نخل كثير. فقيل: هي لك! فأتى أبو الدحداح النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! تشتريها مني بنخلة في الجنة؟ فقال

«**نعم**». فقال: هي لك، فدعا النبي ﷺ ذلك الرجل الفقير جار الأنصاري صاحب النخلة. وقال له: «**خذها لك، ولعيالك**». فأنزل الله الآيات من سورة (الليل). وهذا القول فيه ضعف؛ لأن هذه السورة مكية، وهذه القصة كانت بالمدينة بعد الهجرة، فإن كانت القصة صحيحة تكون هذه السورة قد نزلت بمكة وظهر حكمها في المدينة، ويكون صاحب النخلة منافقاً. والصحيح: أنها في أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وأمية بن خلف؛ لأن سياق الآيات يقتضي ذلك. انتهى. خازن. تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

انتهت سورة (الليل) بعون الله وتوفيقه شرحاً وإعراباً.

والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ الضُّحَىٰ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة (الضحى) مكية بالاتفاق، وهي إحدى عشرة آيةً، وأربعون كلمةً، ومئة واثنان وسبعون حرفاً، انتهى. خازن.

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾

الشرح: اختلفوا في سبب نزول هذه السورة على ثلاثة أقوال:

القول الأول: عن جندب بن سفيان البجلي ـ رضي الله عنه ـ قال: اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين، أو ثلاثاً، فجاءت امرأة، فقالت: يا محمد! إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين، أو ثلاثاً، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَٱلضُّحَىٰ...﴾ إلخ أخرجه البخاري. وفي الترمذي عن جندب البجلي؛ قال: كنت مع النبي ﷺ في غار، فدميت إصبعه، فقال النبي ﷺ. [الرجز]

هَلْ أنْتِ إلَّا إصْبَعٌ دَمِيتِ وفي سَبِيلِ اللهِ مَا لَقِيتِ

قال: وأبطأ عليه جبريل، فقال المشركون: قد ودع محمداً ربه، فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا وَدَّعَكَ...﴾ إلخ. فلم يذكر الترمذي: (فلم يقم ليلتين، أو ثلاثاً) ورواية البخاري أصح، وقد ذكره الثعلبي أيضاً عن جندب. قال: رُمِيَ النبي ﷺ في إصبعه بحجر، فدميَتْ، فقال: هل أنت إلا إصبع. . .إلخ والمرأة المذكورة في جميع الروايات هي: العوراء بنت حرب، أخت أبي سفيان، وهي زوج أبي لهب، وهي حمالة الحطب.

القول الثاني: قال زيد بن أسلم ـ رضي الله عنه ـ كان سبب احتباس الوحي عن النبي ﷺ: أنَّ جِرواً كان في بيته، فلما نزل عليه جبريل عاتبه النبي ﷺ على إبطائه، فقال له: إنا لا ندخل بيتاً فيه كلب، ولا صورة. وهذا قول ضعيف.

القول الثالث: قال المفسرون: سألت اليهود رسول الله ﷺ عن الروح، وعن ذي القرنين، وعن أصحاب الكهف، فقال: سأخبركم غداً، ولم يقل: إن شاء الله، فاحتبس عنه الوحي، إلى أن نزل عليه قوله تعالى من سورة (الكهف): ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ فأخبره بما سئل عنه. وهو الذي أعتمده إن شاء الله. انظر سورة (الكهف). وانظر

سورة (الإسراء) رقم [٨٥]. ولما نزل جبريل الأمين على سيد المرسلين؛ قال له: «**يا جبريل ما حبسك عني؟ لقد اشتقت إليك؟!**». فقال جبريل عليه السلام: إني كنت إليك أشد شوقاً، ولكني عبد مأمور، ونزل قوله تعالى في سورة (مريم): ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ ولما قرأ جبريل الأمين على سيد المرسلين سورة (الضحى) كبَّر ﷺ في آخرها فقال: «**لا إله إلَّا اللهُ واللهُ أكبرُ**». وصار التكبير سنةً في آخرها، وآخر السور إلى آخر سورة (الناس).

هذا؛ واختلف في مدة احتباس الوحي، وجبريل عنه ﷺ. فقيل: اثنا عشر يوماً. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: خمسة عشر يوماً. وقيل: أربعون يوماً.

الشرح: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: المراد به النهار كلُّه، لقوله: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ فقابله بالليل، وفي سورة (الأعراف): ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي: نهاراً. وقال قتادة، ومقاتل، وجعفر الصادق: أقسم الله بالضحى الذي كلم الله فيه موسى، وبليلة المعراج. وقيل: هي الساعة التي خرّ فيها السحرة سجداً، بيانه قوله تعالى: ﴿وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾. انتهى. قرطبي. وانظر شرح (الضحى) في سورة (الشمس).

أقول: أقسم الله بالضحى تنويهاً بشأنه، وتعظيماً لقدره، ولذا رغب الرسول ﷺ بالصلاة في وقت الضحى، فقال: «**لا يُحافِظُ على صلاةِ الضحى إلَّا أوَّاب**». قال: «**وهي صلاةُ الأوَّابِينَ**». رواه الطبراني عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ. وعنه أيضاً عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ في الجنةِ باباً، يقالُ لهُ: الضحى، فإذا كانَ يَوْمُ القيامةِ نادَى منادٍ: أينَ الَّذينَ كانوا يُدِيمون صلاةَ الضحى؟ هذا بابُكُمْ فادْخُلُوهُ برحمةِ اللهِ**». أخرجه الطبراني.

وعن أبي ذر الغفاري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**يُصبحُ على كلِّ سُلَامى من أحدِكُمْ صدقة، فَكُلُّ تسْبِيحةٍ صَدَقةٌ، وكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقةٌ، وكلُّ تَهْلِيلةٍ صَدَقةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وأمر بمعروفٍ صدقةٌ، ونهيٌ عن المنكر صَدقةٌ، ويُجْزِئُ عن ذَلِكَ ركعتانِ يَرْكَعُهُما مِنَ الضحى**». رواه مسلم.

﴿إِذَا سَجَىٰ﴾: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أقبل بظلامه. وعنه أيضاً: إذا ذهب. وقيل: معناه: غطى كل شيء بظلامه. وقيل: معناه: سكن فاستقر ظلامه، فلا يزداد. قاله قتادة، ومجاهد، وابن زيد، وعكرمة. يقال: عين ساجية. أي: ساكنة. ويقال: سجا الليل، يسجُو سُجُوّاً: إذا سكن. والبحر سجا: سكن. قال الأعشى: [الطويل]

فَمَا ذَنْبُنَا أنْ جَاشَ بحرُ ابن عَمِّكُمْ ... وبَحْرُكَ سَاجٍ ما يُواري الدَّعَامِصَا

الدعامص: جمع الدعموص، وهي دويبة صغيرة تكون في مستنقع الماء. وقال الراجز: [الرجز]

يَا حَبَّذا القمراءُ والليلُ السَّاجْ وَطُرُقٌ مثلُ ملاءِ النَّسَّاجْ

هذا؛ وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ مجاز عقلي؛ حيث أسند السكون إلى الليل. وتعريف المجاز العقلي هو: إسناد الفعل، أو ما في معناه إلى غير ما هو له لعلاقة مع قرينةٍ مانعة إرادة الإسناد الحقيقي. ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ أي: ما تركك منذ اختارك، ولا أبغضك منذ أحبك. الخطاب للنبي ﷺ، وهو ردٌّ لما قالته العوراء أم قبيح. هذا؛ وحذف مفعول (قلى) لمناسبة رؤوس الآيْ. وقرأ السبعة بتشديد دال ﴿وَدَّعَكَ﴾ وقرأ عروة بن الزبير، وابنه هشام، وابن أبي عبلة بتخفيفها.

هذا؛ وقال قطة العدوي شارح شواهد ابن عقيل: قال بعض المتقدمين: زعم بعض النحاة: أن العرب أماتت ماضي (وَدَع) ومصدره، واسم فاعله، واسم مفعوله، مع أنه قد قرأ عروة بن الزبير، وابنه هشام قوله تعالى: (مَا وَدَعَكَ ربك وما قَلى) بتخفيف الدال بمعنى: ما تركك، وكذا قرأ مقاتل، وابن أبي عبلة. وقال الرسول ﷺ: **«شَرُّ الناسِ مَنْ وَدَعَهُ النَّاسُ اتّقاءَ شرِّهِ»**. وقال ﷺ: **«دَعُوا الْحبَشَةَ مَا وَدَعُوكُمْ»**. ورواه الجمل **«ذَرُوا الحَبَشَةَ مَا وَذرتْكُمْ»**. وقال أبو العتاهية الصوفي: [المنسرح]

أثْرَوا فلم يُدْخلوا قُبُورَهمُ شَيْئاً مِنَ الثروةِ التي جَمَعُوا

وكانَ ما قدَّمُوا لأنفُسِهمْ أعْظَمَ نفعاً من الذي وَدَعُوا

وقال آخر: [الطويل]

وثم وَدَعْنَا آل عمروٍ وعامرٍ فرائسَ أَطراءِ الْمثَقَّفَةِ السُّمْرِ

وقال أنس بن رؤيم، ـ وعزاه أبو البقاء لأبي الأسود الدؤلي ـ: [الرمل]

ليْتَ شِعْري عَنْ خليلي ما الَّذِي غالَهُ في الحبِّ حتى وَدَعَهْ؟!

فها هو الماضي قد ورد عن أفصح العرب قراءةً، وحديثاً. وكذا في شعر العرب. وورد المصدر أيضاً في قول النبي ﷺ: **«لَيَنْتَهِيَنَّ قَوْمٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمعات ـ وفي رواية: الجماعات ـ أوْ لَيَخْتِمَنَّ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، ثُمَّ لَيَكُونُنَّ مِنَ الغافِلين»**. أخرجه مسلم، وغيره، وورد اسم المفعول، واسم الفاعل من: ودع في قول خفاف بن ندبة ـ رضي الله عنه ـ: [الطويل]

إذَا ما اسْتَحَمَّتْ أرْضُهُ مِنْ سَمَائِهِ جرَى وَهْوَ مَوْدُوعٌ، وواعدُ مَصْدقِ

فكيف يقال: إن العرب أماتته؟! فالصواب القول بقلة الاستعمال، لا بالإماتة. انتهى. بتصرف كبير. هذا؛ وما قيل في (وَدَعَ) ومضارعه: يَدَعُ، وأمره: دَعْ، يقال في: وذرَ، ومضارعه

يذرُ، كما يقال في: (وَعَمَ) ومضارعه: (يَعِمُ) وأمره: عِمْ. وانظر الشاهد رقم [٣٠٨] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

الإعراب: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾: انظر إعراب: ﴿وَٱلشَّمْسِ﴾. ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ انظر إعراب: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ في سورة (الشمس). ﴿مَا﴾: نافية. ﴿وَدَّعَكَ﴾: فعل ماض، والكاف مفعول به. ﴿رَبُّكَ﴾: فاعله، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها، وجملة: ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ معطوفة عليها، لا محل لها مثلها.

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾

الشرح: المعنى: ما أعد الله لك يا محمد في الآخرة من المقام المحمود، والحوض المورود، والخير الموعود خير مما أعجبك في الدنيا. وقيل: وجه اتصال الكلام بما قبله: أنه لما كان في ضمن نفي التوديع، والقلي أن الله مواصلك بالوحي إليك، وأنك حبيب الله، ولا ترى كرامة أعظم من ذلك؛ أخبره: أن حاله في الآخرة أعظم من ذلك، لتقدمه على جميع الأنبياء والمرسلين، وشهادة أمته على جميع الأمم، وغير ذلك. انتهى. نسفي. ولا تنس المطابقة بين الآخرة والأولى، وهي من المحسنات البديعية.

هذا؛ و﴿خَيْرٌ﴾ أفعل تفضيل، أصله: أَخْيَر، نقلت حركة الياء للخاء قبلها؛ لأن الحرف الصحيح أولى بالحركة من حرف العلة، ثم حذفت الهمزة من أوله، استغناءً عنها بحركةالخاء، فصار: خَيْر، ومثله قل في: حبُّ وشرُّ اسْمَيْ تفضيل؛ إذ أصلهما أَحْبَبُ، وأَشْرَر. فنقلت حركة الباء الأولى، والراء الأولى إلى ما قبلهما، ثم أدغم الحرفان المتماثلان في بعضهما، ثم حذفت الهمزة من أولهما استغناءً عنها بحركة الخاء، والشين، وقد يستعمل: خير، وشر على الأصل المرفوض كقراءة بعضهم قوله تعالى في سورة (القمر): ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ بفتح الشين، ونحو قول رؤبة بن العجاج: [الرجز]

يا قَاسِمَ الْخَيْرات وابْنَ الأَخْيَرِ ... ما سَاسَنَا مِثْلُكَ مِنْ مُؤَمَّرِ

وخيرٌ وشرٌّ، وحبُّ يستعملن بصيغة واحدة للمذكر، والمؤنث، والمفرد، والمثنى، والجمع؛ لأنهن بمعنى أفعل، كما رأيت. وأما قول الشاعر: [الطويل]

أَلَا بَكَرَ النَّاعي بِخَيْرَيْ بَني أَسَدْ ... بعمرِو بن مَسْعُودٍ وبالواحِد الصَّمَدْ

فإنما ثناه؛ لأنه أراد: خيِّري بالتشديد، فخففه مثل ميْت، وهيْن في ميِّت، وهيِّن، فأخيَر في قول رؤبة، وأشر، وأحب هو الأصل المقيس في أفعل التفضيل، مثل: أفضل، وأحسن، وأجمل، إلا أنه لما كثر استعمال العرب لخير خففوها بحذف الهمزة من أولها، فيكون خير شاذاً

في القياس فصيحاً في الاستعمال، ومثله شرٌّ وحبٌّ. هذا؛ و﴿ٱلْأُولَىٰ﴾ هي الحياة الحاضرة؛ التي نحياها، وبينها وبين (الآخرة) طباق، وهو من المحسنات البديعة.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ أي: يعطيك ربك في الآخرة؛ حتى ترضى. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هي الشفاعة في أمته؛ حتى يرضى. فعن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ تلا قوله تعالى في سورة (إبراهيم) رقم [٣٦]: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقوله تعالى حكاية عن قول عيسى ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ من سورة (المائدة) ثم رفع يديه. وقال: «**اللهم أمتي أمتي! وبكى**». فقال الله عز وجل: يا جبريل! اذهبْ إلى محمد، واسأله ما يبكيك؟ (وهو أعلم) فأتى جبريل عليه السلام، فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال، (وهو أعلم) فقال الله عز وجل: اذهب يا جبريل إلى محمد، وقل له: «**إنا سنرضيكَ في أمتكَ ولا نسوءُكَ**». أخرجه مسلم في كتاب الإيمان.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ. قال: «**لِكلِّ نبي دعوةٌ مستجابةٌ، فتعجَّلَ كلُّ نبيٍّ دعْوَتَهُ، وإني اخْتَبأتُ دَعوتي شَفاعَتي لأُمتي يَوْمَ القيامةِ، فهي نائلةٌ إنْ شَاءَ اللهُ تعالى مَنْ ماتَ من أمتي لا يُشْرِكُ بالله شَيْئاً**». متفق عليه.

وعن عوف بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «**أتاني آتٍ مِنْ عِنْدِ ربي، فخيرني بين أنْ يُدْخِلَ نصفَ أمتي الجنةَ وبينَ الشفاعَةِ، فاخترتُ الشفاعة، فهي نائِلةٌ إنْ شَاءَ الله تعالى مَنْ ماتَ لا يُشركُ بالله شَيْئاً**». أخرجه الترمذي.

وفي القرطبي: وقال علي ـ رضي الله عنه ـ وفي الخازن: قال حرب بن شريح سمعت جعفر بن محمد بن علي؛ أي: زين العابدين يقول: (يا معشر أهل العراق! إنكم تقولون: أرجى آيةٍ في كتابِ الله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ...﴾ إلخ رقم [٥٣] من سورة (الزمر) قالوا: نقول ذلك. قال: ولكنا أهل البيت نقول: إن أرجى آية في كتاب الله قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾. وروي في الحديث: أن النبي ﷺ لما نزلت قال: «**إذاً لا أرضى قط، وواحد من أمتي في النار**». ورحم الله من قال: [الوافر]

قرأنا في الضحى ولَسَوْفَ يُعْطي ... فَسَرَّ قُلُوبَنَا ذاكَ العَطَاءُ

وَحَاشَا يا رسولَ اللهِ تَرْضَى ... وَفِينَا مَنْ يُعذَّبُ، أو يُسَاءُ

وانظر ما ذكرته في آية (الزمر) رقم [٥٣] تجد ما يسرك، ويثلج صدرك. هذا؛ وقيل في معنى الآية: ولسوف يعطيك ربك من الثواب، فترضى. وقيل: من النصر، والتمكين، وكثرة المؤمنين فترضى، وحمل الآية على ظاهرها من خيري الدنيا، والآخرة معاً أولى، وذلك أن الله تبارك

وتعالى أعطاه في الدنيا النصر، والظفر على الأعداء، وكثرة الفتوح في زمنه، وبعده إلى يوم القيامة، وأعلى دينه، وأن أمته خير الأمم، وأعطاه في الآخرة الشفاعة العامة، والخاصة، والمقام المحمود، والحوض المورود، وغير ذلك مما أعطاه في الدنيا، والآخرة. انتهى. خازن بتصرف.

هذا؛ وإنما قيد الله تعالى بقوله: ﴿خَيْرٌ لَّكَ﴾؛ لأنها ليست خيراً لكل أحد. قال البقاعي: إن الناس على أربعة أقسام: منهم من له الخير في الدارين، وهم أهل الطاعة الأغنياء، ومنهم من له الشر فيهما، وهم الكفرة الفقراء، ومنهم من له صورة خير في الدنيا، وشر في الآخرة، وهم الكفرة الأغنياء، ومنهم من له صورة شر في الدنيا، وخير في الآخرة، وهم الفقراء المؤمنون. انتهى. خازن.

الإعراب: ﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾: الواو: حرف عطف. اللام: لام الابتداء. (الآخرة خير): مبتدأ، وخبر، والجملة الاسمية معطوفة على قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ...﴾ إلخ لا محل لها مثلها. ﴿لَّكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: ﴿خَيْرٌ﴾. ﴿مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾: متعلقان بـ: ﴿خَيْرٌ﴾ أيضاً. ﴿وَلَسَوْفَ﴾: الواو: حرف عطف. اللام: لام الابتداء. (سوف): حرف تسويف، واستقبال. وانظر آخر سورة (الليل). ﴿يُعْطِيكَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والكاف مفعول به أول، والمفعول الثاني محذوف، انظر الآية رقم [٥] من سورة (الليل). ﴿رَبُّكَ﴾: فاعل، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها. ﴿فَتَرْضَىٰٓ﴾: الفاء: حرف عطف وسبب. (ترضى): فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف، والفاعل مستتر تقديره: «أنت». والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها أيضاً.

تنبيه: الإعراب المتقدم يفيد: أن الجمل الأربع المذكورة كلها واقعة في حيز القسم، وهو صريح قول الجلال: إلى هنا تم جواب القسم بمثبتين بعد منفيين، ولكن الزمخشري، وتبعه البيضاوي، والنسفي كعادتهما قالوا: واللام الداخلة على سوف لام الابتداء المؤكدة لمضمون الجملة، والمبتدأ محذوف، تقديره: ولأنت سوف يعطيك، ونحوه: لَأُقْسِمُ فيمن قرأ كذلك؛ أي: في أول سورة (القيامة) وسورة (البلد) ونحوهما؛ لأن المعنى: «لَأَنَا أُقْسِمُ» وهذا؛ لأنها إذا كانت لام قسم لا تدخل على المضارع إلا مع نون التوكيد، فيتعين أن تكون لام ابتداء، ولام الابتداء لا تدخل إلا على المبتدأ، والخبر، فلا بد من تقدير مبتدأ وخبر كما ذكرنا. كذا ذكره صاحب الكشاف.

وذكر صاحب الكشف: هي لام القسم، واستغني عن نون التوكيد؛ لأن نون التوكيد إنما تدخل ليؤذن: أن اللام لام القسم، لا لام الابتداء، وقد علم: أنه ليس للابتداء؛ لدخولها على (سوف)؛ لأن لام الابتداء لا تدخل على (سوف) وذكر: أن الجمع بين حرفي التأكيد، والتأخير يؤذن بأن العطاء كائن لا محالة؛ وإن تأخر. انتهى. نسفي.

أقول وبالله التوفيق: إن اللام واقعة في جواب القسم بسبب العطف حتماً لا شك فيه، وذلك؛ لأن الفعل المضارع يجب توكيده إذا كان جواباً لقسم غير مفصول من لامه بفاصل، وكان مثبتاً مستقبلاً، نحو قوله تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ الآية رقم [٥٧] من سورة (الأنبياء)، ويمتنع تأكيده إذا كان جواباً لقسم، ولم تتوفر فيه الشروط المذكورة، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ المانع من توكيد الفعل (يعطي) بنون التوكيد الفصل بينه، وبين اللام بـ: (سوف) انظر كتاب قواعد اللغة العربية بشرحنا، وتحقيقنا: (الباب الثامن من المؤكد وغيره) والله ولي التوفيق.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾

الشرح: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾: صغيراً، ضعيفاً، عاجزاً عن العمل. ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ أي: ضمك إلى عمك أبي طالب، وذلك أن أبا النبي توفي، وهو في بطن أمه، ثم توفيت أمه، وهو ابن ست سنين، ثم توفي جده وهو ابن ثمان سنين، فكفله بعد ذلك عمه أبو طالب، فأحسن كفالته، واعتنى به أشد الاعتناء إلى أن قوي عوده، واشتد، وتزوج خديجة ـ رضي الله عنها ـ، وكان أبو طالب على دينه حتى مات، ولم يسلم، ومع ذلك كان يدفع الأذى عن النبي ﷺ، ويبذل جهده في ذلك، وكل هذا من حفظ الله للنبي ﷺ وكلاءته له، وعنايته به.

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ أي: ووجدك تائهاً عن معرفة الشريعة والدين، فهداك الله إليها، كقوله تعالى في سورة (الشورى) رقم [٥٢]: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾. وعليه: فالضلال مستعار من: ضل في طريقه: إذا سلك طريقاً غير موصلة لمقصده لعدم ما يوصله للعلوم النافعة. قال الإمام الجلال: أي: وجدك ضالاً عما أنت عليه الآن من الشريعة، فهداك إليها. وقيل: ضل في بعض شعاب مكة، وهو صغير فرده الله إلى جده. قال أبو حيان: لا يمكن حمله على الضلال الذي يقابله الهدى؛ لأن الأنبياء معصومون من ذلك.

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إن رسول الله ﷺ ضل في شعاب مكة، وهو صبي صغير، فرآه أبو جهل الخبيث منصرفاً من أغنامه، فرده إلى جده عبد المطلب، وهذا كان لما قضت حليمة رحمها الله تعالى حق الرضاع، فجاءت برسول الله ﷺ لترده على جده عبد المطلب، فسمعت عند باب مكة: هنيئاً لك يا بطحاء مكة، اليوم يرد الله إليك النور، والبهاء، والجمال. قالت: فوضعته لأصلح شأني، فسمعت هدَّةً شديدة، فالتفت، فلم أره، فقلت: يا معشر الناس! أين الصبي؟! فقالوا: لم نر شيئاً، فصاحتْ: وامحمداه! فخرج كثير من أهل مكة يبحثون عنه ﷺ، فكان أبو جهل الخبيث هو الذي لقي النبي ﷺ، فجاء به إلى عبد المطلب. وقال له: ألا

تدري ماذا جرى من ابنك هذا؟ فقال عبد المطلب: ماذا جرى؟ فقال: إني أنخت الناقة، وأركبته خلفي، فأبت الناقة أن تقوم، فأركبته أمامي، فقامت. وقال عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: رده الله إلى جده بيد عدوِّه، كما فعل بموسى عليه السلام حين حفظه عند فرعون عدوه.

وقيل: الضلال هنا بمعنى: الحيرة، وذلك؛ لأنه ﷺ كان يخلو في غار حراء في طلب ما يتوجه به إلى ربه؛ حتى هداه الله لدينه. وقال الجنيد ـ رحمه الله تعالى ـ: ووجدك متحيراً في بيان ما أنزل الله إليك، فهداك لبيانه. فهذا ما قيل في هذه الآية. ولا يلتفت إلى قول من قال: إنه ﷺ كان قبل النبوة على ملة قومه، فهداه الله إلى الإسلام؛ لأن نبينا ﷺ، وكذلك الأنبياء قبله؛ منذ ولدوا؛ أنشئوا على التوحيد، والإيمان قبل النبوة، وبعدها، وأنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بصفات الله، وتوحيده. ويدل على ذلك: أن قريشاً عابوا النبي ﷺ، ورمَوْه بكل عيب سوى الشرك، وأمر الجاهلية، فإنهم لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً؛ إذ لو كان فيه؛ لما سكتوا عنه، ولنقل ذلك. فبرأه الله تعالى من جميع ما قالوه فيه، وعيروه به، ويؤكد هذا ما روي في قصة بحيرا الراهب حين استحلف النبي ﷺ باللات، والعزى، فقال له النبي ﷺ: «**لا تسألني بهما، فوالله ما أبغضت شيئاً بغضهما**».

هذا؛ وضل أكثر ما يستعمل بمعنى: كفر، وأشرك، وهو ضد: اهتدى، واستقام، ومصدره: الضلال ويأتي (ضل) بمعنى: غاب، كما في قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ ويأتي بمعنى: خفي، يخفى. قال تعالى في سورة (طه) حكاية عن قول موسى لفرعون: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾. وضل الشيء: ضاع، وهلك، وضل: أخطأ في رأيه، ولولا هذا المعنى؛ لكفر أولاد يعقوب بقولهم في حضرته: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ وقولهم في غيبته: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. وضل تحير، وهو أقرب ما يفسر به في هذه الآية. هذا؛ وأضل، يضل غيره من الرباعي، ومصدره: الإضلال، فهو متعد، والثلاثي لازم، ومصدره: الضلال، وهو الخروج عن جادة الحق، والانحراف عن الصراط المستقيم. وينبغي أن تعلم: أن طريق الهدى واحدة، لا اعوجاج فيها، ولا التواء، وأما الضلال؛ فطرقه كثيرة، ومتشعبة. قال تعالى في سورة (يونس) على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام:

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ الآية رقم [٣٢] سورة (يونس). وقال الشاعر الحكيم: [البسيط]

الطُّرقُ شَتَّى وَطُرْقُ الْحَقِّ مفرَدَةٌ ... والسَّالِكُونَ طَرِيقَ الْحَقِّ أفْرادُ

لا يُعْرفُونَ ولَا تُدْرى مَقَاصِدُهُم ... فَهُمْ على مَهَلٍ يَمْشُونَ قُصَّادُ

والناسُ في غَفْلَةٍ عمَّا يُرَادُ بِهِمْ ... فَجُلُّهُمْ عَنْ سَبِيلِ الْحَقِ رُقَّادُ

﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغۡنَىٰ﴾ أي: فقيراً لا مال لك. ﴿فَأَغۡنَىٰ﴾: قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: أي: فأغناك بمال خديجة ـ رضي الله عنها ـ. يقال: عال الرجل، يعيل عيلة: إذا افتقر. قال أحيحة بن الجلاح: [الوافر]

فَمَـا يَـدْرِي الْـفَـقِـيـرُ مَـتـى غِـنَـاهُ؟ وَمَـا يَـدْرِي الـغَـنِـيُّ مـتـى يَـعِـيـلُ؟

وقال الأخفش: وجدك ذا عيال، دليله ﴿فَأَغۡنَىٰ﴾ ومنه قول جرير: [الكامل]

واللهُ أنـزلَ فـي الْـكِـتـابِ فَـريـضَـةً لابـنِ الـسَّـبـيـلِ ولـلْـفَـقِـيـرِ الـعـائِـلِ

وقال مقاتل: فرضاك بما أعطاك من الرزق، واختاره الفراء، وقال: لم يكن غناه عن كثرة المال، ولكن الله تعالى أرضاه بما أعطاه، وذلك حقيقة الغنى. وخذ ما يلي:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَيْسَ الغِنَى عن كثرةِ المالِ، والعرضِ، ولكن الغِنَى غِنَى النفس**». متفق عليه. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أسْلَمَ، ورُزِقَ كَفافاً، وقنَّعَهُ اللهُ بمَا آتَاهُ**». أخرجه مسلم، وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**سألْتُ ربي عز وجل مسألةً، وددْتُ أني لمْ أكنْ سألْتُهُ: قُلْتُ: يا ربِّ! إنكَ آتَيْتَ سليمانَ بنَ داودَ ملكاً عظيماً، وآتيْتَ فلاناً كذا، وفَلاناً كذا**». قال: يا محمد ألمْ أجِدْك يتيماً، فآويتُكَ؟ قلت: «**بلى يا ربِّ!**». قال: ألَمْ أجِدْكَ ضَالاً فهديْتُكَ؟ قلت: «**بلى يا رَبِّ!**» قال: ألمْ أجِدْكَ عائِلاً فأغنيْتُكَ؟ قلتُ: «**بلى يا رب!**». وزاد في رواية: ألم أشرحْ لكَ صدْرَكَ، ووضعتُ عنكَ وزركَ؟ قلْتُ: «**بلى يا ربِّ**».

فإن قلت: كيف يحسن بالجواد الكريم أن يمنَّ بإنعامه على عبده؛ والمنُّ مذموم في صفة المخلوق، فكيف يحسن بالخالق تبارك وتعالى؟! قلت: إنما حسن ذلك؛ لأنه سبحانه وتعالى قصد بذلك أن يقوي قلبه، ويعده بدوام نعمه عليه، فظهر الفرق بين امتنان الله تعالى الممدوح، وبين امتنان الخلق المذموم؛ لأن امتنان الله تعالى زيادة إنعامه، كأنه قال: ما لك تقطع رجاءك عني؟ ألست الذي ربيتك وآويتك، وأنت يتيم صغير؟ أتظنني تاركك، ومضيعك كبيراً؟ بل لا بد وأن أتم نعمتي عليك!. فقد حصل الفرق بين امتنان الخالق وامتنان المخلوق. انتهى. خازن.

هذا؛ ولقد ذكرت لك مَنَّ الله على حبيبه في كثير من السور، وبينت لك الفرق بينَ منِّ الله الممدوح وبين منِّ العبد المذموم الذي يحبط العمل، ويضيع الأجر، والثواب، بل ويوجب المقت، والسخط؛ لأن منَّ الله على العبد يزيده شكراً له تعالى، كما يزيده طاعة له، ورغبة في عبادته. وأيضاً فإن الله هو المالك حقيقة بما ينعم به على العبد ويمنُّ به عليه، وأما العبد فإنه غير مالك بما ينعم به على الحقيقة، وإنما هو وكيل على هذه النعم، والمالك على الحقيقة إنَّما هو الله تعالى، وأيضاً منُّ العبد على العبد يورثه ذلةً، وانكساراً.

هذا؛ و(يجد) ماضيه: وجد، والمضارع أصله: يَوْجِدُ، فحذفت الواو لوقوعها بين عدوتيها، وهما الياء والكسرة في مضارع الغائب، وتحذف من مضارع المتكلم والمخاطب قياساً عليه، والمصدر: وَجْد، أما (عائل) فأصله: عايل؛ لأن الفعل أجوف يائي: عَيَلَ، يَعِيلُ، فقل في إعلاله: قلبت الياء ألفاً لتحركها، وانفتاح ما قبلها، ولم يعتدَّ بالألف الزائدة، لكونها حاجزاً غير حصين، فالتقى ساكنان: الألف الزائدة، والألف المنقلبة، فأبدلت الثانية منهما همزة، وقل مثله في: قائل وشبهه فإن أصله: قاوِل فإن فعله أجوف واوي.

الإعراب: ﴿أَلَمْ﴾: الهمزة: حرف استفهام، وتقرير. انظر شرح: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ الآتي. (لم): حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿يَجِدْكَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: (لم)، والفاعل مستتر تقديره: «هو» يعود إلى ﴿رَبُّكَ﴾، والكاف مفعول به أول. ﴿يَتِيمًا﴾: مفعول به ثان، وقال الزمخشري: حال من الكاف على تأويل ﴿يَجِدْكَ﴾ بـ: «يخلقك»، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾: الفاء: حرف عطف. (آوى): فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى ﴿رَبُّكَ﴾ أيضاً، والمفعول محذوف لمناسبة رؤوس الآيْ، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾: ماض، وفاعله مستتر، ومفعولاه، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. وإعراب ما بعدها لا خفاء فيه إن شاء الله تعالى.

﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾

الشرح: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾: قال مجاهد: لا تحتقر اليتيم، فقد كنت يتيماً مثله. وقال الفراء: لا تقهره على ماله، فتذهب بحقه لضعفه، كما كانت العرب تفعل في أموال اليتامى، تأخذ أموالهم، وتظلمهم حقوقهم. انتهى. وكانوا يقولون: كيف نورث أموالنا من لم يدفع عن حمانا، ويحمي نساءنا، وأطفالنا؟! ولذا كانوا لا يورثون النساء، والمعنى: كما كنت يتيماً فآواك الله، وأحسن إليك بأن كفلك لعمك أبي طالب، فلا تقهر اليتيم؛ أي: لا تذله، وتنهره، وتهنه، ولكن أحسن إليه، وتلطف به. وقال قتادة: كن لليتيم كالأب الرحيم. لذا كان ﷺ يرفق باليتامى، ويعطف عليهم، ويحث على إكرامهم. وخذ ما يلي: فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**كافِلُ اليتيم لَهُ، أو لغيرِهِ، أنَا وهوَ كهاتَيْنِ في الجنةِ...**». وأشارَ مالكٌ بالسَّبَّابةِ والْوسْطَى. رواه مسلم. وعنه أيضاً عن النبي ﷺ قال: «**خيرُ بيتٍ في المسلمين بيتٌ فيه يتيم يُحْسَنُ إليه، وشرُّ بيتٍ في المسلمين بيتٌ فيه يتيمٌ يُسَاءُ إلَيْهِ**». رواه ابن ماجه. وعنه أيضاً: أن رجلاً شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه، فقال: «**امْسَحْ رأسَ الْيَتِيم، وأطعِم المسكينَ**». رواه الإمام أحمد، وعن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ مَسَحَ على رأسِ يتيمٍ، لمْ يمسحْهُ إلّا للهِ؛ كانَ له في كلِّ شعرةٍ مرتْ عليها يدُهُ حسناتٌ، ومَنْ**

أحسَنَ إلى يتيمةٍ، أو يتيمٍ عندهُ، كنتُ أنا وهوَ في الجنةِ كهاتيْنِ». وفرق بين أصبعَيْهِ: السبابةِ والوسطى. رواه الإمام أحمد.

ولم يَفُتْه ﷺ أن رغب المرأة المتوفىٰ عنها زوجها أن تقعد على يتاماها، ووعدها، وبشرها بالثواب العميم، والأجر الكبير. وخذ ما يلي: فعن عوف بن مالك الأشجعي ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «**أنَا وامْرأةٌ سفعاءُ الخدَّينِ كهاتيْنِ يَوْمَ القيامةِ** ـ وأومأ بيده يزيد بن زُرَيع بالوسطى، والسبابة ـ **امرأةٌ آمتْ من زوجِها، ذاتُ منصبٍ وجمالٍ، فحَبَستْ نفسَها عَلَى يَتَامَاهَا؛ حتى بَانُوا، أوْ ماتُوا**». رواه أبو داود.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا أولُ مَنْ يفتحُ بابَ الجنةِ، إلَّا أني أرَى امرأةً تُبادرني، فأقول لها: مالَكِ؟ وَمَنْ أنْتِ؟ فتقولُ: أنا امرأةٌ قَعَدْتُ عَلَى أيتامٍ لي**». رواه أبو يعلى، وأما أكل مال اليتيم بغير حق؛ فقد صرحت بعقوبته آية النساء رقم [١٠].

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أي: لا تزجره، ولكن ردَّه ببذل اليسير، أو قول جميل. قال تعالى في سورة (البقرة) رقم [٢٦٣]: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾. وروي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يَمْنَعَنَّ أحدُكمُ السائِلَ، وأن يُعطيهُ إذَا سألَ، ولو رأى في يده قُلْبَيْنِ مِنْ ذهبٍ**». القلب بضم وسكون: السوار. وقال إبراهيم بن أدهم: نعم القوم السُّؤَّال يحملون زادنا إلى الآخرة. وقال إبراهيم النخعي: السائل بريد الآخرة، يجيء إلى باب أحدكم، فيقول: هل تبعثون إلى أهليكم بشيء؟

وقيل: السائل هو طالب العلم، فيجب إكرامه، وإنصافه بمطلوبه، ولا يعبس في وجهه، ولا ينهر، ولا يتلقى بمكروه، وكان أبو الدرداء ـ رضي الله عنه ـ ينظر إلى أصحاب الحديث، ويبسط رداءه لهم، ويقول: مرحباً بأحبة رسول الله ﷺ.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ أي: انشر ما أنعم الله عليك بالشكر، والثناء. والتحدث بنعم الله، والاعتراف بها شكر. والخطاب للنبي ﷺ، والحكم عام له، ولغيره. وعن الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ قال: (إذا أصبت خيراً، أو علمتَ خيْراً؛ فحدِّثْ به الثقةَ من إخوانِكَ). وقال بكر بن عبد الله المزني ـ رضي الله عنه ـ. قال النبي ﷺ: «**مَنْ أُعْطِي خيْراً، فلَمْ يُرَ عَلَيْهِ؛ سُمِّي: بغيضَ اللهِ، معادياً لِنِعَمِ اللهِ**». وروى الشعبي عن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنهما ـ. قال: قال النبي ﷺ: «**مَنْ لمْ يشكرِ القليلَ؛ لمْ يشكرِ الكثيرَ، وَمَنْ لَمْ يشكرِ الناسَ؛ لمْ يشكرِ اللهَ، والتحدُّثُ بالنعمِ شكرٌ، وتركهُ كفرٌ، والجماعةُ رَحْمةٌ، والفرقةُ عذابٌ**». رواه البغوي بإسناد الثعلبي. وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ أعْطِيَ عطاءً فلْيَجْزِ بهِ؛ إن وجدَ، فإنْ لمْ يجدْ؛ فلْيُثْنِ عليْهِ، فإنَّ مَنْ أثنى عَلَيْهِ؛ فقدْ شكرهُ، ومَنْ كتَمهُ؛ فقدْ كفرهُ، وَمَنْ تحلَّى بمَا لَمْ يُعْطَ؛ كانَ كلابِسِ ثوبيْ زُورٍ**». أخرجه الترمذي، وروى النسائي عن

مالك بن نضلة الجشمي ـ رضي الله عنه ـ قال: كنتُ جالِساً عند النبي ﷺ، فرآني رَثَّ الثياب، فقال: **«ألك مالٌ؟»**. قلتُ: نعمْ يا رسولَ الله، من كُلِّ المال. قال: **«إذَا آتاكَ اللهُ مالاً؛ فلْيُرَ أثَرُهُ عليكَ»**. وروى أبو سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ: أنه قال: **«إن الله جميل يحب الجمال، ويحب أنْ يَرَى أثَرَ نعمتِهِ على عبدِهِ»**. ولا تنس المقابلة بين هذه الآيات، والتي قبلها، وهي من المحسنات البديعية.

الإعراب: ﴿فَأَمَّا﴾: الفاء: حرف تفريع، واستئناف. أو هي الفاء الفصيحة. (أما): انظر الآية رقم [١٥] من سورة (الفجر)، والتقدير هنا: مهما يكن من شيء، فلا تقهر اليتيم، ولا تنهر السائل. ﴿ٱلْيَتِيمَ﴾: مفعول به مقدم، عامله ما بعده، وبه استدل ابن مالك على أنه لا يلزم من تقديم المعمول تقديم العامل، ألا ترى: أن اليتيم منصوب بالمجزوم، وقد تقدم على الجازم، ولو قدمت (تقهر) على (لا)، لامتنع؛ لأن المجزوم لا يتقدم على جازمه، كالمجرور لا يتقدم على جارِّه. وانظر ما ذكرته في سورة (هود) رقم [٨] وهي قوله تعالى: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ ولا تمنع الفاء هنا من التقديم؛ لأنها كالزائدة. ﴿فَلَا﴾: الفاء: واقعة في جواب أما. (لا): ناهية. ﴿تَقْهَرْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: (لا)، والفاعل مستتر تقديره: «أنت»، والجملة الفعلية جواب (أمَّا)، لا محل لها، و(أمَّا) ومدخولها كلام مفرع عما قبله، ومستأنف، لا محل له، وعلى اعتبار الفاء فصيحة فهو جواب لشرط مقدر، التقدير: وإذا حصل لك ما تقدم؛ فأما اليتيم... إلخ. والكلام بعده معطوف عليه. وإعرابه مثله بلا فارق. ﴿بِنِعْمَةِ﴾: متعلقان بما بعدهما، و(نعمة) مضاف، و﴿رَبِّكَ﴾ مضاف إليه من إضافة المصدر لفاعله. والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه.

انتهت سورة (الضحى) شرحاً، وإعراباً.

والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ الشَّرْحِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة (الشرح) مكية في قول الجميع، وهي ثمان آيات، وسبع وعشرون كلمةً، ومئة وثلاثة أحرف. انتهى. خازن.

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾

الشرح: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ أي: ألم نفتح لك صدرك للإسلام؟! وروى أبو صالح عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: ألم نلين لك قلبك؟ وروى الضحاك عن ابن عباس أيضاً قال: قالوا: يا رسول الله! أينشرح الصدر؟! قال: «**نعم وينفسح**». قالوا: يا رسول الله! وهل لذلك علامة؟ قال: «**نعم التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاعتداد للموت قبل نزول الموت**». أخرجه الطبري عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ. وانظر قوله تعالى في سورة (الزمر) [٢٢]: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وقوله تعالى في سورة (الأنعام) رقم [١٢٥]: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾. قال ابن كثير: وكما شرح الله صدره كذلك جعل شرعه فسيحاً سمحاً سهلاً، لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق. وروي عن الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ قال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ قال: ملئ حكماً، وعلماً. فعن أنس بن مالك، عن مالك ابن صعصعة: أن النبي ﷺ أتاه جبريل ـ عليه السلام ـ وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه، فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرجه، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده إلى مكانه، وجاء الغلمان يسْعَوْن إلى أمه (حليمة) فقالوا: إن محمداً قد قُتِل، فاستقبلوه، وهو منتقع اللون. قال أنس ـ رضي الله عنه ـ: وقدْ كنت أرى أثر الخيط في صدره. وهذا الحديث أخرجه مسلم في صحيحه. أقول: وهذا كان في صغره يوم كان صغيراً رضيعاً عند حليمة السعدية ـ رضي الله عنها ـ، وتكررت هذه العملية الجراحية في ليلة الإسراء والمعراج على الصحيح.

هذا؛ ومعنى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾: شرحنا. الدليل على ذلك قوله في العطف: ﴿وَوَضَعْنَا﴾، ﴿وَرَفَعْنَا﴾ فهذا عطف على التأويل لا على التنزيل؛ لأنه لو كان على التنزيل؛ لقال: ونضع ونرفع، فدل هذا على أن معنى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾: قد شرحنا؛ لأن «لمْ» جحد، وفي الاستفهام طرف من الجحد، وإذا وقع جحد على جحد رجع إلى التحقيق. انتهى. قرطبي.

أقول؛ وبعبارة أوضح: لما دخلت همزة الاستفهام الإنكاري الإبطالي على (لم) صار إثباتاً؛ لأن نفي النفي إثبات، وهو ما يسمى في علم الإعراب: التقرير. وهذا كثير في كتاب الله تعالى، مثل قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا...﴾ إلخ، وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ وفي سورة (التين) آخرها، وفي أول سورة (الفيل)، وغير ذلك، ومن ذلك قول جرير يمدح عبد الملك بن مروان ـ وهو الشاهد رقم [١١] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الوافر]

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا ... وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ؟

ولهذا كان هذا البيت أمدح بيت قالته العرب! قيل: لما بلغ البيت عبد الملك كان متكئاً، فاستوى جالساً فرحاً. وقال: من مدحنا؛ فليمدحنا هكذا، وأعطى جريراً مئة من الإبل، وثمانية أرقاء من السبي، وجام فضة.

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ أي: حططنا عنك، وغفرنا لك ذنبك، وهذا مثل قوله تعالى في أول سورة (الفتح): ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾. وقيل: هو الخطأ، والسهو. وقيل: ذنوب أمتك، فأضافها إليه لاشتغال قلبه بها. وقيل: المراد بذلك ما أثقل ظهره من أعباء الرسالة حتى يبلغها؛ لأن الوزر في اللغة: الثقل تشبيهاً بوزر الجبل. وقيل: معناه: عصمناك عن الوزر الذي ينقض ظهرك؛ لو كان ذلك الوزر حاصلاً، فسمى العصمة: وضعاً مجازاً، وقد بينت لك في سورة (الفتح)، وفي سورة (النساء) رقم [١٠٥] وغيرها: أن الرسل معصومون من مقارفة الجرائم، وأن ما فعله الرسول ﷺ عن اجتهاد، وعوتب عليه، كإذنه للمنافقين في التخلف عن الجهاد حين اعتذروا، وأخذه الفداء من أسرى بدر، وغير ذلك، وهي صغائر مغفورة لهم لهممهم بها، وتحسرهم على فعلها، فهي ثقيلة عندهم لشدة خوفهم، وقربهم من خالقهم، كما قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين. وفي الكلام استعارة تمثيلية حيث شبه الذنوب بحمل ثقيل يرهق كاهل الإنسان، ويعجز عن حمله بطريق الاستعارة التمثيلية، وهذا كما ورد من قول النبي ﷺ **«إنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كالجبل يقعُ عليهِ، وإن الْفَاجِرَ، والمنافقَ يَرى ذُنُوبَهُ كالذُّبابةِ تَطيرُ فوقَ أنفِهِ، فيقولُ فيها: هَكَذَا»**.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾: قال مجاهد: يعني بالتأذين، وفيه يقول حسان ـ رضي الله عنه ـ: [الطويل]

أَغَرُّ عَلَيْهِ لِلنُّبُوةِ خَاتَمٌ ... مِنَ اللهِ مَشْهُودٌ يَلُوحُ وَيَشْهَدُ

وَضَمّ الإلـهُ اسـم الـنَّـبـيِّ مـعَ اسـمِـهِ إذا قـالَ فـي الـخَـمْـسِ الـمـؤذنُ: أشْـهَـدُ
وشـقَّ لـهُ مِـن اسـمِـهِ لِـيُـجِـلَّـهُ فـذُو الـعـرشِ مـحـمـودٌ وهَـذا مـحـمـدٌ

وروي عن الضحاك عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: يقول له: لا ذُكِرْتُ؛ إلا ذُكِرْتَ معي في الأذان، والإقامة، والتشهد، ويوم الجمعة على المنابر، ويوم الفطر، ويوم الأضحى، وأيام التشريق، ويوم عرفة، وعند الجمار، وعلى الصفا، والمروة، وفي خطبة النكاح، وفي مشارق الأرض، ومغاربها، ولو أن رجلاً عَبَد الله جل ثناؤه، وصدَّق بالجنة، والنار، وكلِّ شيء، ولم يشهد: أن محمداً رسول الله؛ لم ينتفع بشيء، وكان كافراً. وقيل: أي: أعْلَيْنَا ذكرك، فذكرناك في الكتب المنزلة على الأنبياء قبلك، وأمرناهم بالبشارة بك، ولا دين إلا ودينك يظهر عليه. وقيل: رفعنا ذكرك عند الملائكة في السماء، وفي الأرض عند المؤمنين، ونرفع ذكرك بما نعطيك من المقام المحمود، وكرائم الدرجات. وقيل: هو عام في كل شيء، وكم من موضع في القرآن الكريم يذكر فيه النبي ﷺ مقروناً مع ذكر الله تعالى، من ذلك قوله تعالى في سورة (التوبة): ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾، وقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ وغير ذلك.

تنبيه: من الملاحظ زيادة لفظ ﴿لَكَ﴾ في الآية الأولى، وزيادة لفظ ﴿عَنكَ﴾ في الثانية، وزيادة لفظ ﴿لَكَ﴾ في الرابعة، فأي فائدة في تقديم الزيادة على المفاعيل الثلاثة؛ والمعنى مستقل بدونها؟ والجواب: أن زيادتها مقدمة عليها تفيد إبهام المشروح، والموضوع، والمرفوع، ثم توضيحه، والإيضاح بعد الإبهام أوقع في الذهن. انتهى. جمل نقلاً عن زاده، بتصرف كبير مني. وانظر مثله في سورة (طه) رقم [٢٥].

الإعراب: ﴿أَلَمْ﴾: (الهمزة): حرف استفهام، وتقرير. (لم): حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿نَشْرَحْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: (لَمْ) والفاعل مستتر تقديره: «نحن». هذا؛ وقال الزمخشري: وعن أبي جعفر المنصور: أنه قرأ ﴿أَلَمْ نَشْرَحَ لَكَ﴾ بفتح الحاء. وقالوا: لعله بيَّن الحاء وأشبعها في مخرجها، فظن السامع: أنه فتحها، انتهى. كشاف. هذا؛ وذكر ذلك ابن هشام رحمه الله في مغنيه، وأورد قول الأضبط بن قريع السعدي ـ وهو الشاهد رقم [١٠٩٨] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [المنسرح]

لَا تُـهِـيـنَ الْـفَـقِـيـرَ عَـلَّـكَ أنْ تَـرْكَـعَ يَـوْمـاً، والـدَّهْـرُ قَـدْ رَفَـعَـهْ

وأيضاً ما نسب لطرفة بن العبد ـ وهو الشاهد رقم [١٠٩٩] من كتابنا المذكور ـ: [المنسرح]

اضْـرِبَ عـنـكَ الـهـمـومَ طَـارِقَـهَـا ضَـرْبَـكَ بـالـسَّـيْـفِ قَـوْنَـسَ الْـفَـرَسِ

وأيضاً قول الحارث بن المنذر الجرمي ـ وهو الشاهد رقم [٥٠٢] من الكتاب المذكور ـ: [الرجز]

فـي أيِّ يَـوْمَـيَّ مِـنَ الْـمَـوتِ أفِـرّ أيَـومَ لَـمْ يُـقْـدَرَ، أمْ يـومَ قُـدِرْ؟

وخرج ابن هشام الآية الكريمة على أن الأصل: (ألم نشرحن لك صدرك) فحذفت نون التوكيد الخفيفة، وبقيت الفتحة دليلاً عليها، وكذلك (لا تهينَ، واضربَ، ولم يقدرَ) انظر شرح الأبيات الثلاثة، وإعرابها في كتابنا المذكور. ولا بد من القول: إن قراءة الآية بفتح الحاء قراءة شاذة، وعزاها الزمخشري لأبي جعفر المنصور، وهل يُعَدُّ أبو جعفر من القراء؟!

﴿لَكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿صَدْرَكَ﴾: مفعول به، والكاف في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية مبتدأة لا محل لها من الإعراب. ﴿وَوَضَعْنَا﴾: الواو: حرف عطف. (وضعنا): فعل، وفاعل. ﴿عَنكَ﴾: متعلقان به. ﴿وِزْرَكَ﴾: مفعول به، والكاف مضاف إليه، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها. ﴿ٱلَّذِىٓ﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب بدلاً من وزرك، أو هو صفة له، أو هو في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هو الذي، أو هو في محل نصب مفعول به لفعل محذوف، التقدير: أعني الذي، وهذان الوجهان على القطع، ﴿أَنقَضَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلَّذِىٓ﴾، وهو العائد. ﴿ظَهْرَكَ﴾: مفعول به، والكاف مضاف إليه، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محلّ لها، وجملة: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ معطوفة على الجملة الأولى والثانية، لا محل لها مثلهما، وإعرابها مثلهما بلا فارق.

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾

الشرح أي: إن مع الضيق والشدة يسراً؛ أي: سعةً وغنىً، ثم كرر، فقال ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ فقال قوم: هذا التكرير تأكيد للكلام، كما يقال: ارْمِ ارْمِ. اعجلْ، اعجلْ. قال تعالى في سورة (التكاثر): ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ونظيره في تكرير الجواب: بلى، بلى، لا، لا، نعم، نعمْ، وذلك للإطناب، والمبالغة. قاله الفراء. وقال قوم: إن من عادة العرب إذا ذكروا اسماً معرفاً، ثم كرروه؛ فهو هو، وإذا نكروه، ثم كرروه فهو غيره، وهما اثنان ليكون أقوى للأمل، وأبعث على الصبر. قاله ثعلب.

قال الحسن ـ رحمه الله تعالى ـ: لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «**أبشِرُوا فقد جاءكم اليسرُ، إنه لنْ يغلِبَ عسرٌ يُسْرينِ**». وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: لو كان العسر في جحر لطلبه اليسر حتى يدخل عليه، ويخرجه، إنه لن يغلب عسر يسرين. وابن مسعود لا يقول هذا من تلقاء نفسه. وكتب أبو عبيدة ـ رضي الله عنه ـ إلى الفاروق ـ رضي الله عنه ـ يذكر له جموعاً كثيرةً من الروم، فكتب له الفاروق: أما بعد، فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزل شدةٍ يجعل الله بعده فرجاً، وإنه لن يغلب عسر يسرين، وإن الله تعالى يقول في كتابه في سورة (آل عمران): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

هذا؛ وزيف أبو علي الحسن بن يحيى الجرجاني هذا القول؛ حيث قال: وهذا قول مدخول فيه، إذا قال الرجل: إن مع الفارس سيفاً، إن مع الفارس سيفاً، فهو لا يوجب أن يكون الفارس واحداً، والسيف اثنين، فمجاز قوله ﷺ: «**لن يغلبَ عُسْرٌ يسرين**». أن الله عز وجل بعث نبيه ﷺ وهو مقل مخف، فكانت قريش تعيره بذلك، حتى قالوا له: إن كان بك طلب الغنى؛ جمعنا لك أموالاً؛ حتى تكون أيسر أهل مكة، فاغتم النبي ﷺ لذلك، وظن: أن قومه إنما كذبوه لفقره، فعدد الله عليه في هذه السورة نعمه، ووعده الغنى ليسليه بذلك عما خامره من الغم، فقال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ أي: لا يحزنك الذي يقولون، فإن مع العسر الذي في الدنيا يسراً عاجلاً، ثم أنجز ما وعده، وفتح عليه القرى القريبة، ووسع ذات يده؛ حتى كان يعطي المئين من الإبل، ويهب الهبة السنية، ثم ابتدأ فضلاً آخر من أمور الآخرة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ والدليل على ابتدائه تعريه من الفاء والواو. وهذا وعد لجميع المؤمنين.

والمعنى: إن مع العسر الذي في الدنيا للمؤمن يسراً في الآخرة، وربما اجتمع له اليسران يسر الدنيا، وهو ما ذكره الله في الآية الأولى، ويسر الآخرة، وهو ما ذكره في الآية الثانية، فقول النبي ﷺ: «**لَنْ يغلِبَ عسرٌ يُسْرَيْنِ**». أي: إن عسر الدنيا لن يغلب اليسر الذي وعده الله المؤمنين في الدنيا، واليسر الذي وعدهم في الآخرة إنما يغلب أحدهما، وهو يسر الدنيا. فأما يسر الآخرة فدائم أبداً غير زائل؛ أي: لا يجتمعان في الغلبة، فهو كقوله ﷺ: «**شهرا عيد لا ينقصان**» أي: لا يجتمعان في النقص. انتهى. خازن، وقرطبي بتصرف، ولا تنس أن تنكير ﴿يُسْرًا﴾ للتفخيم، والتعظيم. هذا؛ ويقرأ في السبعة بسكون السين في الكلم الأربع. وقرأ ابن وثاب، وأبو جعفر، وعيسى بضمها. وفيه خلاف: هل هو أصل، أو مثقل من المسكن. وقال عيسى بن عمر ـ رحمه الله تعالى ـ: كل اسم على ثلاثة أحرف أوله مضموم، وأوسطه ساكن، فمن العرب من يخففه، ومنهم من يثقله، وذلك مثل رُحم، وحُلم... إلخ، بعد هذا روح عن نفسك بما يلي. قال الشاعر: [الكامل]

ولَرُبَّ نازلةٍ يضيقُ بها الفتى ... ذرْعاً وعندَ اللهِ منها المخرجُ
كَمُلَتْ فلَمَّا استحكمتْ حلقاتُها ... فُرِجَتْ، وكان يظنُّهَا لا تُفْرَجُ

ومما يروى عن الشافعي ـ رضي الله عنه ـ قوله: [المنسرح]

صَبْراً جميلاً ما أقربَ الْفَرَجَا ... مَنْ راقبَ اللهَ في الأمورِ نَجَا
مَنْ صدق اللهَ لمْ ينلْهُ أذى ... ومنْ رجاهُ يكون حَيْثُ رَجَا

وقال إسحاق بن بهلول القاضي: [الوافر]

فلا تيأسْ إذا أعْسَرْتَ يوْماً ... فقدْ أيْسَرْتَ في دهرٍ طويلِ

ولا تَـظْـنُـنْ بـربِّـك ظـنَّ سـوءٍ فـإن الله أولـى بـالـجـمـيـلِ
فـإن الـعـسـرَ يَـتْـبَـعُـهُ يـسـارٌ وقـولُ اللهِ أصـدقُ كـلِّ قِـيـلِ

الإعراب: ﴿فَإِنَّ﴾: الفاء: حرف تفريع واستئناف. (إن): حرف مشبه بالفعل. ﴿مَعَ﴾ ظرف مكان، أو ظرف زمان؛ لأنها بمعنى: «بعد» متعلق بمحذوف خبر (إنَّ) تقدم على اسمها، و﴿مَعَ﴾ مضاف، و﴿الْعُسْرِ﴾ مضاف إليه. ﴿يُسْرًا﴾: اسم (إنَّ) مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها، والتي بعدها تأكيد لها، لا محل لها مثلها.

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾﴾

الشرح: لمَّا عدَّد الله ـ عز وجل ـ على نبيه ﷺ نعمه السالفة؛ بعثه على الشكر، والاجتهاد في العبادة، والنصب فيها، وأن لا يخلي وقتاً من أوقاته منها، فإذا فرغ من عبادة؛ أتبعها بأخرى. والنصب: التعب. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: معناه: إذا فرغت من الصلاة المكتوبة؛ فانصب إلى ربك في الدعاء، وارغب إليه في المسألة. وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: إذا فرغت من الفرائض؛ فانصب في قيام الليل. وقيل: إذا فرغت من التشهد، فادع لدنياك، وآخرتك. وقيل: إذا فرغت من جهاد عدوك؛ فانصب في عبادة ربك. وقيل: إذا فرغت من تبليغ الرسالة؛ فانصب في الاستغفار لك، وللمؤمنين. قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: إني لأكره أن أرى أحدكم فارغاً سبْهلَلاً، لا في عمل دنياه، ولا في عمل آخرته. السبهلل الذي لا شيء معه. وقيل: السبهلل: الباطل. انتهى. خازن.

قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: ومن المبتدعة من قرأ هذه الآية (فَانْصِب) بكسر الصاد والهمز في أوله. وقالوا: معناه انصب الإمام الذي تستخلفه. وهذا باطل في القراءة باطل في المعنى؛ لأن النبي ﷺ لم يستخلف أحداً. انتهى. ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ أي: تضرع إليه راغباً في الجنة راهباً من النار. وقيل: اجعل رغبتك إلى الله تعالى في جميع أحوالك لا إلى أحد سواه. قال تعالى في مدح زكريا، وغيره من الأنبياء في سورة (الأنبياء): ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿فَإِذَا﴾: الفاء: حرف تفريع واستئناف. (إذا): ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك، مبني على السكون في محل نصب. ﴿فَرَغْتَ﴾: فعل، وفاعل، والمتعلق محذوف للتعميم. انظر الشرح، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذا) إليها. ﴿فَانْصَبْ﴾: الفاء: واقعة في جواب (إذا). (انصب): فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت»، والجملة الفعلية جواب (إذا)، لا محل لها، و(إذا) ومدخولها كلام مستأنف،

لا محل له. ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ﴾: متعلقان بما بعدهما، والكاف في محل جر بالإضافة من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿فَٱرْغَب﴾: الفاء: حرف صلة. (ارغب): فعل أمر، وفاعله: أنت، والجملة الفعلية معطوفة على جواب (إذا) لا محل لها مثله. تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

انتهت سورة (الشرح) شرحاً وإعراباً.

والحمد لله رب العالمين.

سورة التين

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة (التين) مكية في قول الأكثر. وقال ابن عباس وقتادة: هي مدنية، وهي ثمان آيات، وأربع وثلاثون كلمةً، ومئة وخمسة أحرف. انتهى. خازن.

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾

الشرح: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وكثير من المفسرين: هو تينكم الذي تأكلون، وزيتونكم الذي تعصرون منه الزيت. قيل: إنما خص التين بالقسم؛ لأنه فاكهة مخلصة من شوائب التنغيص، وفيه غذاء، ويشبه فواكه الجنة، لكونه بلا عجم. ومن خواصه: أنه طعام لطيف، سريع الهضم، لا يمكث في المعدة، يخرج بطريق الرشح، ويلين الطبيعة، ويقلل البلغم. وأما الزيتون، فإنه من شجرة مباركة، فيه إدام، ودهن، يؤكل، ويستصبح به، وشجرته في أغلب البلاد، ولا يحتاج إلى خدمة، وتربية، وينبت في الجبال التي ليست فيها دهنية، ويمكث في الأرض ألوفاً من السنين، فلما كان فيهما من المنافع، والمصالح الدالة على قدرة خالقهما؛ لا جرم أقسم الله بهما. انتهى. خازن.

هذا؛ وقال تعالى في سورة (المؤمنون) رقم [٢٠]: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ﴾ وقال أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ: أهدي للنبي ﷺ سَلٌّ من تين، فقال: «**كلوا**». وأكل منه، ثم قال: «**لو قلت: إن فاكهة نزلت من الجنة؛ لقلت هذه؛ لأن فاكهة الجنة بلا عجم، فكلوها فإنها تقطع البواسير، وتنفع من النقرس**». وعن معاذ ـ رضي الله عنه ـ: أنه استاك بقضيب زيتون، وقال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**نِعْمَ السواكُ الزيتونُ من الشجرة المباركةِ، يُطيِّبُ الفمَ، ويذهبُ بالحفر، وهي سواكي، وسواكُ الأنبياء مِنْ قبلي**». انتهى. قرطبي.

وقيل: هما جبلان، فالتين: الجبل الذي عليه دمشق، والزيتون الجبل الذي عليه بيت المقدس، واسمهما بالسريانية: طورتِينَا، وطور زَيْتَا؛ لأنهما ينبتان التين، والزيتون. وقيل: هما مسجدان، فـ: (التين) مسجد دمشق، و(الزيتون) مسجد بيت المقدس، وإنما حسن القسم بهما؛ لأنهما موضع طاعة. وقيل: (التين) مسجد أصحاب الكهف، و(الزيتون): مسجد إيلياء. وقيل: (التين) مسجد نوح الذي بناه على الجودي، و(الزيتون) مسجد بيت المقدس. هذا؛ ويجوز أن

يكون ذلك على حذف مضاف؛ أي: ومنابت التين والزيتون، ولكن لا دليل على ذلك من ظاهر التنزيل، ولا من قول من لا يجوز خلافه. قاله النحاس.

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: أصح هذه الأقوال الأول؛ لأنه الحقيقة، ولا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا بدليل. وإنما أقسم بالتين؛ لأنه كان ستر آدم في الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ رقم [٢٢] من سورة (الأعراف)، والآية رقم [١٢١] من سورة (طه). وقيل: أقسم به ليبين وجه المنة العظمى فيه، فإنه جميل المنظر، طيب المخبر، نشر الرائحة، سهل الجنى، على قدر المضغة، وقد أحسن القائل فيه: [المنسرح]

انظُرْ إلى التِّيْنِ في الغُصُونِ ضُحًى ... ممزَّقَ الْجِلْدِ مائِلَ العنقِ

كأنَّهُ ربُّ نعمةٍ سُلِبَتْ ... فعادَ بعدَ الجديدِ في الْخَلَقِ

أصغَرُ ما في النهودِ أكْبَرُهُ ... لكِنْ يُنادى عليه في الطُّرُقِ

وقال آخر: [البسيط]

التِّيْنُ يعدِلُ عندي كلَّ فاكِهةٍ ... إذا انثنى حَائِلاً في غُصْنِهِ الزاهي

مُخَمَّشَ الوجْهِ قد سَالَتْ حلاوتُهُ ... كأنهُ راكِعٌ مِنْ خشيَةِ اللهِ

وأقسم بـ: (الزيتون)؛ لأنه مثل به إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ...﴾ إلخ رقم [٣٥] من سورة (النور)، وهو أكثر أدم أهل الشام، والمغرب يصطبغون به، ويستعملونه في طعامهم، ويستصبحون به، ويداوى به أدواء الجوف، والقروح، والجراحات، وفيه منافع كثيرة.

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ يعني: الجبل الذي كلم الله عليه موسى، على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام، و﴿سِينِينَ﴾ اسم للمكان الذي فيه الجبل، سمي: سينين، وسيناء لحسنه، ولكونه مباركاً، وكل جبل فيه أشجار مثمرة يسمى: سينين وسيناء. قال تعالى في سورة (المؤمنون) رقم [٢٠]: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ ولم ينصرف ﴿سِينِينَ﴾، كما لم ينصرف: سيناء؛ لأنه جعل اسماً لبقعة، أو أرض، ولو جعل اسماً للمكان، أو للمنزل، أو اسم مذكر؛ لانصرف.

﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ يعني: الآمن، وهو مكة حرسها الله تعالى؛ لأنه الحرم الذي يأمن فيه الناس في الجاهلية، والإسلام، لا ينفر صيده، ولا يعضد شجره، ولا تلتقط لقطته إلا لمنشد، كما قال تعالى في سورة (العنكبوت) رقم [٦٧]: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ وكان ذلك تحقيقاً لدعوة إبراهيم، وإجابة لسؤاله، كما رأيت في سورة (البقرة) رقم [١٢٦]، ورقم [٣٥] من سورة (إبراهيم).

هذا؛ وقال الليث: البلد: كل موضع من الأرض، عامر، وغير عامر، خال، أو مسكون، والطائفة بلدة، والجمع بلاد. زاد غيره، والمفازة تسمى: بلدة لكونها مسكن الوحش والجن، وأورد بيت الأعشى من معلقته رقم [٣٥]: [البسيط]

وبَـلْـدَةٍ مـثـلِ ظـهـرِ الـتـرسِ مُـوحِـشَـةٍ ... لِـلْـجِـنِّ بـالَّـلـيـلِ فـي حَـافـاتِـهـا زَجَـلُ

وقول جران العود ـ وهو الشاهد رقم [٤١٨] من كتابنا: «فتح رب البرية» ـ: [الرجز]

وبـــلـــدَةٍ لَـــيْـــسَ بـــهَـــا أنِـــيـــسُ ... إلّا الْـــيَـــعَـــافِـــيـــرُ وإلّا الْـــعِـــيـــسُ

وهي مؤنثة، كما ترى، ومنه قوله تعالى في كثير من الآيات. قال تعالى في سورة (النمل) رقم [٩١]: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾، وقال في سورة (ق) رقم [١١]: ﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا...﴾ إلخ وقد ورد في القرآن الكريم لفظ: بلد، وبلدة، وبلاد بكثرة.

الإعراب: ﴿وَٱلتِّينِ﴾: جار ومجرور متعلقان بفعل محذوف، تقديره: أقسم. وانظر ما ذكرته في أول (المرسلات) و(النازعات) و(الذاريات). (الزيتون وطور): معطوفان على (التين)، و(طور) مضاف، و﴿سِينِينَ﴾ مضاف إليه مجرور وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة، وبعضهم يعتبره مجروراً بالياء، وهو ضعيف. ﴿وَهَٰذَا﴾: الواو: حرف عطف. الهاء: حرف تنبيه لا محل له. (ذا): اسم إشارة مبني على السكون في محل جر معطوف على التين. ﴿ٱلۡبَلَدِ﴾: بدل من اسم الإشارة، أو عطف بيان عليه. ﴿ٱلۡأَمِينِ﴾: صفة ﴿ٱلۡبَلَدِ﴾.

﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ٥﴾

الشرح: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ...﴾ إلخ أي: في أحسن صورة، وأجمل شكل؛ لأنه تعالى خلق كل شيء منكباً على وجهه، وخلق الإنسان مستوياً، وله لسان ناطق، ويد وأصابع يقبض بها، وهو مزين بالعقل، مؤد للأمر، مهذب بالتمييز، مديد القامة، يتناول مأكوله بيده، فإن الله خلقه حياً عالماً، قادراً مريداً متكلماً، سميعاً، بصيراً، مدبراً، حكيماً. وهذه صفات الرب سبحانه، وعبر عنها البيان بقوله ﷺ: «**إن الله خلق آدم على صورتِهِ**». يعني: على صفاته التي قدمنا ذكرها. وفي رواية: «**إنَّ الله خلق آدم على صورة الرحمن**». ومن أين تكون للرحمن صورة متشخصة؟ فلم يبق إلا أن تكون معاني. انتهى. قرطبي بتصرف. هذا؛ وإن (أل) في ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ لاستغراق الجنس بمعنى: كل إنسان، لذا صح الاستثناء الآتي منه. هذا؛ فلو قال: إن لم يكن وجهك أحسن من القمر، أو إن لم أكن أحسن من القمر، فأنت طالق؛ لم تطلق، وإن كان زنجياً أسودَ. هذا؛ وأراد بـ: (التقويم) القوام؛ لأن التقويم فعل الباري تعالى، وهو من أوصاف الخالق، لا المخلوق.

فائدة: يحكى أن الشاعر ذا الرمة أردف أخاه خلفه، فعرضت لهما ظبية، فقال ـ وهذا هو الشاهد رقم [١٣٠] من كتابنا: «فتح رب البرية» ـ: [الطويل]

فَيَا ظَبْيَةَ الْوعْسَاءِ بينَ جُلَاجِلٍ وبينَ النَّقَا آأنْتِ أمْ أُمُّ سالِمِ؟

فقال له أخوه: فلو تحسن التشبيه، والوصف لم تقل لشاة النقا: آأنتِ أمْ أمُّ سالِم؟ جعلت لها قرنين فوق جبينها، وظلفين مشقوقين تحت القوائم. فقال ذو الرمة: [الطويل]

هِيَ الشِّبْهُ إلَّا مِدْرَيَيْهَا وأذنَهَا سَوَاءٌ وَإلَّا مَشْقَةً في الْقَوَائِمِ

مدرييها: تثنية مِدرَى، ومِدراة، وهي المشط، والقرن، وهو المراد هنا.

ذكر الإمام القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ أن عيسى الهاشمي كان يحب زوجته حباً شديداً، فقال لها يوماً: أنت طالق ثلاثاً، إن لم تكوني أحسن من القمر، فاحتجبت عنه. وقالت: طلقتني. فحزن حزناً شديداً، وذهب إلى الخليفة المنصور، وأخبره الخبر، فاستحضر الفقهاء، واستفتاهم، فقال جميع من حضر: قد طلقت، إلا رجلاً واحداً من أصحاب أبي حنيفة، فقد بقي ساكتاً، فقال له المنصور: ما لك لا تتكلم؟ فقال له الرجل: يا أمير المؤمنين يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ فليس شيء أحسن من الإنسان! فقال: صدقت. وردها إلى زوجها. انتهى.

ولقد أحسن الصابوني حيث قال في الرد على داروين ومن يقول بنظريته في تطور الإنسان. بعد أن أورد الآية التي نحن بصدد شرحها، والآية رقم [٧٠] من سورة (الإسراء): فهل من تكريم الله لبني آدم أن يجعلهم من صنف القردة؟ وهل من تفضيله إياهم أن يلحق نسبهم بالقردة، أو يجعلهم من فصيلة الشمبانزي، والغوريلا؟

وإذا قلنا لأتباع داروين: يا بني القردة، والخنازير، فهل يرضون عنا، أم سيغضبون؟! [الخفيف]

رَبِّ إنَّ الهدى هُداكَ وآيا تُكَ حقٌّ تَهْدِي بِهَا مَنْ تَشَاءُ

﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أي: إلى أرذل العمر، وهو الهرم بعد الشباب، والضعف بعد القوة، ورددناه بعد ذلك التقويم، والتحسين أسفل من سفل في حسن الصورة، والشكل؛ حيث نكسناه في خلقه، فقوس ظهره بعد اعتداله، وابيض شعره بعد سواده، وتشنن جلده، وكلَّ سمعه، وبصره، وتغير كل شيء منه، فمشيه دليف، وصوته خفات، وقوته ضعف، وشهامته خرق. قال تعالى في سورة (يس) رقم [٦٨]: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾، وقال تعالى في سورة (النحل) رقم [٧٠]، وفي سورة (الحج) رقم [٥]: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ وفي الحج: ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾.

هذا؛ وقيل: المراد: رددناه إلى النار؛ لأنها دركات بعضها أسفل من بعض، فيكون في أقبح هيئة، وأبشع شكل، وأنتن رائحة بعد أن أكرمه الله في الدنيا بحسن الصورة، وجمال المنظر، وفضله على كثير مما خلق تفضيلاً. وقال الآلوسي ـ رحمه الله تعالى ـ: والمتبادر من

السياق الإشارة إلى حالة الكافر يوم القيامة، وأنه يكون على أقبح صورة، وأبشعها، بعد أن كان على أحسن صورة وأبدعها. وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٦٤] من سورة (غافر) تجد ما يسرك.

الإعراب: ﴿لَقَدْ﴾: اللام: واقعة في جواب القسم. (قد): حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿خَلَقْنَا﴾: فعل، وفاعل. ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية جواب القسم، وما عطف عليه. ﴿فِىٓ أَحْسَنِ﴾: متعلقان بمحذوف حال من ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾، و﴿أَحْسَنِ﴾ مضاف، و﴿تَقْوِيمٍ﴾ مضاف إليه، و﴿أَحْسَنِ﴾ صفة لموصوف محذوف، التقدير: في تقويم أحسن تقويم. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿رَدَدْنَٰهُ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها. ﴿أَسْفَلَ﴾: فيه وجهان: أحدهما: أنه حال من الضمير المنصوب. والثاني: أنه صفة لموصوف محذوف، التقدير: رددناه مكاناً أسفل. وقيل: مفعول ثان لرد. و﴿أَسْفَلَ﴾: مضاف، و﴿سَٰفِلِينَ﴾: مضاف إليه مجرور وعلامة جره الياء... إلخ.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾

الشرح: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ...﴾ إلخ: فإنهم لا يردون إلى النار، أو إلى أسفل سافلين، وعلى القول الأول يكون الاستثناء منقطعاً، والمعنى: ثم رددناه أسفل سافلين، فزال عقله، وانقطع عمله، فلا تكون له حسنة، لكن الذين آمنوا، وعملوا الصالحات، ولازموا عليها إلى أيام الشيخوخة والهرم، والضعف؛ فإنه يكتب لهم بعد الهرم والخرف مثل الذي كانوا يعملون في حالة الشباب، والصحة. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هم نفر ردوا إلى أرذل العمر على زمن النبي ﷺ، فأنزل الله عذرهم، وأخبرهم: أن لهم أجرهم الذي عملوا قبل أن تذهب عقولهم. فعلى هذا القول السبب خاص، وحكمه عام. وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: إلا الذين قرؤوا القرآن. وقال: من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر. وهذا ما أرجوه، وآمله من كرم الله مع التوفيق للعمل به من فضله، ومعونته تعالى. ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: غير مقطوع. مأخوذ من مننت الحبل: إذا قطعته، ومنه قول ذي الإصبع العدواني: [البسيط]

إنـي لَعَمْـرك مـا بـابـي بِـذي غَـلَـقٍ ... عَـلـى الـصَّـديـقِ ولا زادي بـمـمـنـون

وعنه أيضاً، ومقاتل: غير منقوص، ومنه: المنون. أي: الموت؛ لأنها تنقص مُنَّةَ الإنسان؛ أي: قوته، وعمره. وقاله قطرب، وأنشد قول زهير من قصيدة يمدح بها هرم بن سنان: [البسيط]

فَضْـلَ الْجِيـادِ عَلَـى الخيـلِ الْبِطـاءِ فَلَا ... يُـعْـطِـي بـذلـكَ مَـمْـنُـونـاً وَلَا نَـزِقَـا

وقال مجاهد: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ غير محسوب. وقيل: غير ممنوع عليهم به؛ أي: ممتن به عليهم. قال السدي: نزلت الآية في الزمنى، والمرضى، والهرمى؛ إذا ضعفوا عن الطاعة؛ كتب لهم من الأجر كأصح ما كانوا يعملون فيه، وخذ في تأييد ذلك ما يلي:

فعن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذَا مرضَ العبدُ، أو سَافَرَ كُتِبَ لهُ مثلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقيماً صحيحاً**». رواه البخاري، وأبو داود. وعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ العبدَ إذا كانَ على طريقةٍ حَسَنَةٍ من العبادةِ، ثمَّ مرض. قيلَ للملك الموكَّل به: اكتبْ له مثلَ عَمَلِه، إذا كانَ طليقاً حتى أُطْلِقَهُ، أو أكْفِتَهُ إليَّ**». رواه الإمام أحمد.

الإعراب: ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء منقطع. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب على الاستثناء، وجملة: ﴿ءَامَنُوا۟﴾ مع المتعلق المحذوف صلة الموصول لا محل لها، والتي بعدها معطوفة عليها لا محل لها مثلها. ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم. ﴿فَلَهُمْ﴾: الفاء: حرف استئناف. (لهم): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿أَجْرٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿غَيْرُ﴾: صفة له، و﴿غَيْرُ﴾ مضاف، و﴿مَمْنُونٍ﴾: مضاف إليه، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها. هذا؛ وإن اعتبرت ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ، والجملة الاسمية خبره، وزيدت الفاء في الخبر؛ لأن الموصول يشبه الشرط في العموم، ومضمون الجملة الاسمية: ﴿ٱلَّذِينَ...﴾ إلخ مستثنى من مضمون الكلام السابق؛ فلا بأس به، والمعنى يؤيده، ومر معنا كثير مثله، وتكون ﴿إِلَّا﴾ بمعنى: لكن. ولا تنس: أنَّ الفاء لم تزد في آخر سورة (الانشقاق)؛ مع أن المعنى متقارب. تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾

الشرح: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ يعني: يا أيها الإنسان. ﴿بَعْدُ﴾: بعد هذه الحجة، والبرهان. ﴿بِٱلدِّينِ﴾ أي: بالحساب، والجزاء. والاستفهام فيه توبيخ، وتأنيب، وإلزام للحجة. والمعنى: فما الذي يلجئك أيها الإنسان إلى هذا الكذب، والتكذيب بيوم الحساب، والجزاء، ألا تتفكر في صورتك، وشبابك، ومبدأ خلقك، ثم هرمك، وشيخوختك، فتعتبر، وتقول: إن الذي فعل بي ذلك قادر على أن يبعثني، ويحاسبني، وقد أخبرك محمد ﷺ بما يؤول إليه أمرك، إما إلى جنة، وإما إلى نار؟! وقيل: هو خطاب للنبي ﷺ، والمعنى: فمن يكذبك أيها الرسول بعد ظهور هذه الدلائل، والبراهين؟! وفي الكلام التفات من الغيبة إلى الخطاب. انظر الالتفات في سورة (الملك) رقم [٢٠].

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ...﴾ إلخ أي: بأقضى القاضين، وأصحهم، وأنفذهم قضاءً؛ لأن قضاءه في خلقه نافذ، ولا بد، بخلاف قضاء غيره من القضاة، فكثيراً ما يخطىء، أو يرد، ولا ينفذ، فالله يحكم يوم القيامة بين أهل الحق، وأهل الباطل، وبين المظلومين، وبين الظالمين. وانظر الاستفهام التقريري في أول سورة (الشرح).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ** ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ **فقرأ**: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ **فليقلْ: بلَى، وأنا على ذَلِكَ من الشاهِدِين**». أخرجه الترمذي. وانظر ما ذكرته في آخر سورة (القيامة).

الإعراب: ﴿فَمَا﴾: الفاء: هي الفصيحة؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر، التقدير: وإذا كان ما ذكر حاصلاً، وواقعاً؛ فما يكذبك؟! (ما): اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يُكَذِّبُكَ﴾: فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: «هو» يعود إلى (ما)، والكاف في محل نصب مفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية لا محل لها؛ لأنها جواب للشرط المقدر بـ: «إذا»، والكلام مستأنف، لا محل له. ﴿بَعْدُ﴾: ظرف زمان متعلق بالفعل قبله، وبني على الضم لقطعه عن الإضافة لفظاً لا معنًى. ﴿بِٱلدِّينِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما أيضاً.

﴿أَلَيْسَ﴾: الهمزة: حرف استفهام وتقرير. (ليس): فعل ماض ناقص. ﴿ٱللَّهُ﴾: اسمها. ﴿بِأَحْكَمِ﴾: الباء: حرف جر صلة. (أحكم): خبر (ليس) منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد، و(أحكم) مضاف، و﴿ٱلْحَٰكِمِينَ﴾: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الياء... إلخ، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

انتهت سورة (التين) شرحاً وإعراباً.

والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ العَلَقِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة (العلق) وهي تسع عشرة آية، واثنتان وتسعون كلمةً، ومئتان وثمانون حرفاً. قال أكثر المفسرين: هذه السورة أول سورة نزلت من القرآن، وأول ما نزل منها خمس آيات من أولها إلى قوله: ﴿مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾. وانظر ما ذكرته في أول سورة (المدثر).

فعن عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة ـ ولمسلم: الصادقة في النوم ـ فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء، يتحنث فيه، وهو التعبد الليالي ذوات العدد، قبل أن يرجع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها؛ حتى جاءه الوحي. وفي رواية: حتى فجأه الحقُّ، وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: اقرأ. قال: «**ما أنا بقارئ!**» قال: فأخذني، فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: «**ما أنا بقارئ!**» فأخذني فغطني الثانية؛ حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: «**ما أنا بقارئ!**» فأخذني فغطني الثالثة؛ حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾... مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾.

فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره حتى دخل على خديجة بنت خويلد، فقال: «**زمِّلوني! زملوني!**» فزملوه؛ حتى ذهب عنه الروع، ثم قال لخديجة ـ رضي الله عنها ـ: «**أي: خديجة! مالي؟**» وأخبرها الخبر. وقال: «**لقد خشيت على نفسي!**» قالت له خديجة ـ رضي الله عنها ـ: كلا أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً! إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق! فانطلقت به خديجة ـ رضي الله عنها ـ حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد، بن عبد العزى ـ وهو ابن عمِّ خديجة، وكان امرأً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ـ فقالت له خديجة: أي ابن عم اسمع من ابن أخيك! فقال له ورقة: يا بن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى. يا ليتني فيها جذعاً! ليتني أكون حياً؛ إذ يخرجك قومك! فقال رسول الله ﷺ: «**أو مخرجيَّ هم؟**». قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك حياً؛ أنصرْك نصراً مؤزراً! ثم لم يلبث ورقة أن توفي، وفتر الوحي.

زاد البخاري؛ قال: وفتر الوحي فترة؛ حتى حزن رسول الله ﷺ فيما بلغنا حزناً غدا منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه، تبدَّى له جبريل عليه السلام، فقال: يا محمد! إنك رسول الله حقاً، فيسكن لذلك جأشه، وتقرُّ عينه، فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي؛ غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة الجبل؛ لكي يلقي نفسه منه؛ تبدى له جبريل، فقال له مثل ذلك. انتهى. خازن.

في هذا الحديث دليل صحيح صريح على أن سورة (العلق) أول ما نزل من القرآن، وفيه ردٌّ على من قال: إن (المدثر) أول ما نزل من القرآن، وقد تقدَّم الكلام على ذلك، والجمع بين القولين في أول سورة (المدثر) وهذا الحديث من مراسيل الصحابة؛ لأن عائشة ـ رضي الله عنها ـ لم تدرك هذه القصة، فيحتمل أنها سمعتها من النبي ﷺ، أو من غيره من الصحابة، ومرسل الصحابي حجة عند جميع العلماء، إلا ما انفرد به الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني. وإنما ابتدئ ﷺ بالرؤيا لئلا يفجأه الملك، فيأتيه بصريح النبوة بغتة، فلا تحملها القوى البشرية، فبدئ بأول علامات النبوة توطئةً للوحي. انتهى. خازن.

هذا؛ وذكر السيوطي في إتقانه: أن أول سورة (اقرأ) مشتمل على ما اشتملت عليه (الفاتحة) من براعة الاستهلال، لكونها أول ما نزل من القرآن، فإن فيها الأمر بالقراءة، وفيها البداءة باسم الله، وفيها الإشارة إلى علم الأحكام، وفيها ما يتعلق بتوحيد الرب، وإثبات ذاته، وصفاته، من صفة ذات، وصفة فعل، وفي هذا الإشارة إلى أصول الدين، وفيها ما يتعلق بالأخبار من قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ولهذا قيل: إنها جديرة أن تسمى: عنوان القرآن؛ لأن عنوان الكتاب يجمع مقاصده بعبارة وجيزة في أوله. انتهى. جمل بحروفه.

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾

الشرح: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ أي: اقرأ القرآن مفتتحاً قراءتك باسم ربك الجليل؛ الذي خلق جميع المخلوقات، وأوجد جميع العوالم، فهو أمر صريح بافتتاح القراءة بالبسملة، بعد الاستعاذة التي أمر الله بها في سورة (النحل) رقم [٩٨]: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ أي: سواء قرأت في الصلاة، أو في خارجها. وهذا إذا قرأ من أول السورة، أما إذا قرأ من أثناء سورة فإنه إن كان في غير الصلاة؛ سنَّ له أن يبسمل، وإن كان فيها لم تسن له البسملة؛ لأن قراءة السورة بعد الفاتحة تعد قراءة واحدة. هذا؛ وحذف مفعول ﴿خَلَقَ﴾ للتعميم؛ أي: خلق جميع العوالم، ثم خص خلق الإنسان بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾: فذكره بلفظ الجمع؛ لأنه أراد بالإنسان الجنس؛ أي: كل إنسان. وقال: ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ ولم يقل: من نطفة لمناسبة رؤوس الآي. وخص الإنسان بالذكر تشريفاً، وتكريماً له على جميع المخلوقات.

﴿ٱقْرَأْ﴾ أي: القرآن. ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾: الذي لا يساويه، ولا يدانيه كريم، ينعم على عباده بالنعم؛ التي لا تحصى، ويحلم عنهم، فلا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم، وجحودهم لنعمه، واقترافهم المناهي، وتركهم الأوامر، ويقبل توبتهم إذا تابوا، ويتجاوز عنهم بعد اقتراف العظائم، فما لكرمه غاية، ولا أمد، وكأنه ليس وراء التكريم بإفادة الفوائد العلمية تكريم؛ حيث قال: ﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾.

﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ﴾ أي: الخط، والكتابة. ﴿بِٱلْقَلَمِ﴾: فدل على كمال كرمه، وفضله بأنه علَّم عباده ما لم يعلموا. وروى سعيد عن قتادة قال: القلم نعمة من الله تعالى عظيمة، لولا ذلك لم يقم دين، ولم يصلح عيش، فدل على كمال كرمه سبحانه بأنه علّم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبه على فضل علم الكتابة؛ لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو، وما دونت العلوم، ولا قيدت الحكم، ولا ضبطت أخبار الأولين، ومقالاتهم، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هي؛ ما استقامت أمور الدين، والدنيا، ولو لم يكن على دقيق حكمة الله دليل إلا أمر القلم، والخط؛ لكفى، وسمي قلماً؛ لأنه يُقْلَم؛ أي: يقطع، ومنه تقليم الأظافر. وقال بعض الشعراء المحدثين في وصف القلم: [الكامل]

فَكَأَنَّهُ والْحِبْرُ يخضبُ رأسَهُ ... شَيْخٌ لِوَصْلِ خَرِيدَةٍ يَتَصَنَّعُ
أَلَّا ألاحظُهُ بعَيْنِ جَلَالَةٍ ... وبِهِ إِلَى اللهِ الصحائفُ تُرْفَعُ

وعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: يا رسول الله! أأكتب ما أسمع منك من الحديث؟ قال: «**نعم اكتب فإن الله علّم بالقلم**». وروى مجاهد عن ابن عمر قال: خلق الله عز وجل أربعة أشياء بيده، ثم قال لسائر المخلوقات: كن، فكان: القلم، والعرش، والجنة، وآدم عليه السلام. واختلف فيمن خط بالقلم أولاً: فقيل: إدريس. وقيل: آدم، على نبينا، وحبيبنا وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ألف صلاة، وألف سلام، ونبينا ﷺ كان أمياً لم يتعلم الكتابة، والقراءة، وكان عيسى عليه السلام حسن الخط.

هذا؛ وقال العلماء: فالأقلام في الأصل ثلاثة: القلم الأول الذي خلقه الله بيده، وأمره أن يكتب ما كان، وما يكون، وما هو كائن إلى يوم القيامة. والقلم الثاني: أقلام الملائكة؛ التي جعلها الله بأيديهم، يكتبون بها المقادير، والكوائن، والأعمال، والآجال، والأرزاق... إلخ. والقلم الثالث: أقلام الناس جعلها الله بأيديهم يكتبون بها كلامهم، ويصلون بها إلى مآربهم. وفي الكتابة فضائل جمة، وفوائد عظيمة، والكتابة من جملة البيان، والبيان مما اختص الله به الآدمي. انتهى. قرطبي بتصرف كبير. وانظر مطلع سورة (القلم)، وما ذكرته في سورة (الانفطار) وفي سورة (ق)، و(الطارق).

﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ قيل: الإنسان هنا: آدم عليه السلام، علمه الله أسماء كل شيء حسب ما نطق به القرآن في سورة (البقرة) رقم [٣١]: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ فلم يبق شيء إلا وعلَّم الله سبحانه آدم اسمه بكل لغة، وذكره آدم للملائكة كما علمه، وبذلك ظهر فضله، وعلا قدره، وثبتت نبوته، وقامت حجة الله على الملائكة، وامتثلت الملائكة الأمر لما رأت من شرف الحال، ورأت من جلال القدرة. انظر آية (البقرة) المذكورة. وقيل: المراد بالإنسان النبي ﷺ، دليله قوله تعالى في سورة (النساء) رقم [١١٣]: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ وقيل: هو عام لجميع البشر لقوله تعالى في سورة (النحل) رقم [٧٨]: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ والله أعلم بمراده.

تنبيه: وإنا لنفخر نحن معاشر المسلمين بقرآننا الذي يحثنا على العلم، ويرغبنا فيه، ودليلنا هذه الآيات التي أنزلت على قلب محمد ﷺ، وهي أول ما أنزل عليه، كيف لا؟ وقد أقسم الله بـ: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ بسورة (القلم) ونبينا الكريم ﷺ الذي جاء بالهدى، والعلم، والنور، رغبنا في طلب العلم، وجعله جهاداً أعظم الجهاد، وخذ ما يلي:

فعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ سلكَ طريقاً يلتمسُ فيه عِلماً سهل اللهُ له طريقاً إلى الجنة. وإن الملائكة لَتضَعُ أجنحتها لطالب العلْم رضاً بِمَا يَصْنَعُ. وإن العالمَ لَيستغفرُ لهُ مَنْ في السمواتِ، ومَنْ في الأرض؛ حتى الحيتانِ في الْمَاءِ. وفضلُ العالِم على العابدِ كفضلِ القمرِ على سائِر الكواكبِ، وإن العلماءَ ورثةُ الأنبياء. وإنَّ الأنبياءَ لم يورثوا ديناراً، ولا درهماً، إنما ورثوا العِلْمَ، فمنْ أخذهُ فقدْ أخذَ بحظٍّ وافرٍ**». رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، والبيهقي.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ جاءهُ أجلُهُ، وهو يطلبُ العلمَ لَقِيَ اللهَ؛ ولمْ يكنْ بينهُ وبينَ النبيين إلا دَرَجةُ النبوَّةِ**». رواه الطبراني في الأوسط.

وعن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يجَاءُ بالعالِم والعابدِ، فيقالُ للعابدِ: ادخلِ الجنةَ، ويقالُ لِلْعالِم: قِفْ حتى تشفعَ للنَّاسِ**». رواه الأصبهاني، وغيره.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا ماتَ ابن آدمَ انقطعَ عملُهُ إلَّا مِنْ ثلاثٍ: صدقةٍ جاريةٍ، أو عِلْمٍ يُنتفَعُ بهِ، أو ولدٍ صالحٍ يدعُو لَهُ**». رواه مسلم، وغيره. وعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**فَضلُ العالِم على الْعَابِدِ سبعون درجةً، ما بين كُلِّ درَجَتيْنِ حُضْرُ الفرسِ سبعينَ عاماً، وذلك؛ لأن الشيطانَ يبدعُ البدعة للناسِ، فيُبصرها العالِمُ فينهى عنها، والعابدُ مُقْبِلٌ على عبادةِ ربِّه لا يتوجَّهُ لهَا، وَلَا يَعْرِفُهَا**». رواه الأصبهاني.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**فقيهٌ واحدٌ أشدُّ على الشيْطَانِ مِنْ ألفِ عَابِدٍ**». رواه الترمذي، وابن ماجه، والبيهقي.

الإعراب: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت»، والمفعول محذوف، التقدير: اقرأ القرآن. ﴿بِٱسۡمِ﴾: متعلقان بمحذوف حال، التقدير: مفتتحاً باسم. وقيل: الباء صلة. و(اسم) هو المفعول، التقدير: اقرأ اسم، و(اسم): مضاف، و﴿رَبِّكَ﴾: مضاف إليه، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿ٱلَّذِي﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل جر صفة ﴿رَبِّكَ﴾، أو بدل منه، ويجوز اعتباره خبراً لمبتدأ محذوف، التقدير: هو الذي، كما يجوز اعتباره مفعولاً به لفعل محذوف، التقدير: أعني الذي. وهذان الوجهان على القطع.

﴿خَلَقَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلَّذِي﴾ وهو العائد، والمفعول محذوف، والجملة الفعلية صلة ﴿ٱلَّذِي﴾. ﴿خَلَقَ﴾: بدل من سابقه، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلَّذِي﴾ أيضاً. ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾: مفعول به. ﴿مِنۡ عَلَقٍ﴾: متعلقان بمحذوف حال من ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾.

﴿ٱقۡرَأۡ﴾: فعل أمر، وفاعله: أنت، ومفعوله محذوف، والجملة الفعلية مؤكدة لسابقتها، لا محل لها مثلها، الأولى بالابتداء، والثانية بالإتباع. ﴿وَرَبُّكَ﴾: الواو: واو الحال. (ربك الأكرم): مبتدأ، وخبر، والجملة الاسمية في محل نصب حال من الفاعل المستتر، والرابط: الواو، والضمير. ﴿ٱلَّذِي﴾: قل فيه مثل سابقه، وجملة: ﴿عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ صلة الموصول، لا محل لها، والمفعول الأول محذوف، والمفعول الثاني: الجار، والمجرور. ﴿عَلَّمَ﴾: فعل ماض بدل من سابقه أيضاً، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلَّذِي﴾ أيضاً. ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾: مفعول به أول. ﴿مَا﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به ثان. ﴿لَمۡ﴾: حرف جازم. ﴿يَعۡلَمۡ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: ﴿لَمۡ﴾، والفاعل يعود إلى الموصول أيضاً، والجملة صلة ﴿مَا﴾ والعائد محذوف، التقدير: الذي لم يعلمه.

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ٨﴾

الشرح: ﴿كَلَّآ﴾: ردع لمن كفر بنعمة الله لطغيانه؛ وإن لم يذكر لدلالته عليه. وانظر شرح ﴿كَلَّآ﴾ في سورة (المدثر) رقم [١٦]. ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾: المراد به: أبو جهل الخبيث، ﴿لَيَطۡغَىٰٓ﴾: ليتجاوز الحد، ويتعالى على ربه بكفره، وخروجه عن طاعته. ويقال: طغى، يطغى، يطغو، طغياناً، وطغواناً: جاوز الحد، وكل مجاوز حده في العصيان طاغٍ، كل مسرف في الظلم، والمعاصي طاغٍ، وطغى البحر: هاجت أمواجه، وطغى السيل: جاء بماء كثير. قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾ رقم [١١] من سورة (الحاقة).

﴿أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ أي: رأى نفسه غنياً، فقد تعدى الفعل إلى ضميرين لواحد. وهذا خاص بأفعال القلوب. يقال: رأيتني، وعلمتني، ومعنى الرؤية: العلم، ولو كانت بمعنى الإبصار؛ لامتنع في فعلها الجمع بين الضميرين.

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ أي: المرجع في الآخرة، وفيه تهديد، وتحذير لهذا الإنسان من عاقبة الطغيان. ثم هو عام لكل طاغٍ متكبر، وإن الله سيحاسب العبد على المال؛ الذي يصل إليه من أين جمعه؟ وفيم أنفقه؟ وهو صريح قول النبي ﷺ: «**ما تزال قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربعٍ: عن عمره فيم أفناه؟ وعن شبابه فيم أبلاه؟ وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه؟ وعن علمه ماذا عمل فيه؟**». رواه البيهقي، وغيره عن معاذ ـ رضي الله عنه ـ. ولا تنس: أن ﴿ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ بمعنى الرجوع فهي مصدر، ولا تنس الالتفات من الغيبة إلى الخطاب. وانظر الآية رقم [٢٠] من سورة (الملك).

الإعراب: ﴿كَلَّآ﴾: حرف ردع، وزجر. وقيل: هي بمعنى حقاً. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل، ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾: اسمها. ﴿لَيَطْغَىٰٓ﴾: اللام: هي المزحلقة. (يطغى): فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ تقديره: «هو»، والجملة الفعلية في محل رفع خبر ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها.

﴿أَن﴾: حرف مصدري، ونصب. ﴿رَّءَاهُ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، وهو في محل نصب بـ: ﴿أَن﴾، والفاعل مستتر تقديره: «هو»، والهاء مفعول به أول. ﴿ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أيضاً، والجملة الفعلية في محل نصب مفعول به ثان، و﴿أَن﴾ والفعل (رأى) في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، التقدير: لأن رآه، أو لأجل، ولذا قالوا عنه: في محل نصب مفعول لأجله. والجار والمجرور متعلقان بالفعل (يطغى). ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل، ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ﴿إِنَّ﴾ تقدم على اسمها، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، ﴿ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذر، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها.

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾

الشرح: نزلت السورة في أبي جهل الخبيث، ما عدا الآيات الخمس الأول التي حدثتك عنها، وعن سبب نزولها. والمناسبة بين تلك الآيات الخمس، وبين بقية السورة مع تطاول الزمن بين النزولين هو المقارنة بين العلم، والجهل وما يؤول إليه أمر كل منهما، وهو معروف لدى كل إنسان، لذا أحمد الله، وأتمثل بقول القائل: [الوافر]

رَضِينَا قِسْمَةَ الجبارِ فِينَا … لَنَا عِلْمٌ وَلِلْجُهَّالِ مَالُ

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾: تعجيب من حال ذلك الشقي الفاجر؛ أي: أخبرني يا محمد عن حال ذلك المجرم الأثيم؛ الذي ينهى عبداً من عباد الله عن الصلاة، ما أسخف

عقله، وما أشنع فعله! قال أبو السعود: هذه الآية تقبيح وتشنيع لحال الطاغي، وتعجيب منها، وإيذان بأنها من الشناعة، والغرابة بحيث يقضي منها العجب. وقد أجمع المفسرون على أن العبد المصلي هو محمد ﷺ، وأن الذي نهاه هو أبو جهل اللعين؛ حيث قال: لئن رأيت محمداً يصلي؛ لأطأن عنقه! وخذ ما يلي:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل: نعم. فقال: واللات، والعزى لئن رأيته يفعل ذلك؛ لأطأن على رقبته، ولأعفرن وجهه في التراب! قال: فأتى رسول الله ﷺ؛ وهو يصلي؛ ليطأ على رقبته. قال: فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه! فقيل له: مالك؟! قال: إن بيني وبينه خندقاً من نار، وهوْلاً، وأجنحة! فقال النبي ﷺ: «**لو دنا مني؛ لاختطفته الملائكة عضواً عُضْواً**». فأنزل الله هذه الآية. انتهى. خازن.

والمعنى: أرأيت الذي ينهى أشد الخلق عبودية لله عن طاعته لله تعالى، وهذا دأبه، وعادته. وقيل: إن هذا الوعيد يلزم لكل من ينهى عن الصلاة، وعن طاعة الله تعالى، ولا يلزم منه عدم جواز المنع من الصلاة في الدار المغصوبة، وفي الأوقات المكروهة؛ لأنه قد ورد النهي عن ذلك في الأحاديث الصحيحة، ولا يلزم من ذلك أيضاً عدم جواز السيد عبده، والرجل زوجته عن قيام الليل، وصوم التطوع، والاعتكاف؛ لأن في ذلك استيفاء مصلحة، إلا أن يأذن فيه المولى، والزوج. انتهى. خازن.

هذا؛ والمراد بـ: ﴿عَبْدًا﴾ النبي ﷺ، والتنكير للتفخيم، والتعظيم، وللمبالغة في تقبيح النهي، والدلالة على كمال عبودية المنهي. هذا؛ وذكر العبودية مقام عظيم، ولو كان للنبي ﷺ اسم أشرف منه؛ لسماه به في المقام العظيم في ليلة الإسراء، والمعراج؛ حيث قال جل ذكره: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾. وفي معناه أنشدوا: [السريع]

يا قومُ قلبي عند زَهْراءِ ... يعرفُهُ السَّامعُ والرَّائي

لا تَدْعُني إلَّا بيا عَبْدَها ... فإنه أشرفُ أسمائي

علماً بأنه ﷺ، لم يذكر باسمه الصريح في القرآن إلا قليلاً، ذكر باسم محمد في سورة (آل عمران) وسورة (الأحزاب) وسورة (محمد) وسورة (الفتح) وذكر باسم: أحمد في سورة (الصف) وذكر باسم طه في سورة (طه) وذكر باسم: ياسين في سورة (يٰس). هذا؛ والعبد: الإنسان حراً كان، أو رقيقاً، ويجمع على: عبيد، وعباد، وأعبُدٍ، وعبدان، وعبدَة، وغير ذلك.

الإعراب: ﴿أَرَءَيْتَ﴾: الهمزة: حرف استفهام تعجبي. (رأيت): فعل، وفاعل. ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به. وانظر الكلام على المفعول الثاني

فيما بعد. ﴿يَنْهَىٰ﴾: فعل مضارع مرفوع، والفاعل يعود إلى ﴿الَّذِي﴾ وهو العائد، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿عَبْدًا﴾: مفعول به. ﴿إِذَا﴾: ظرف زمان مجرد عن الشرطية مبني على السكون في محل نصب متعلق بالفعل قبله. ﴿صَلَّىٰ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿عَبْدًا﴾، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها.

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾

الشرح: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي: أخبرني إن كان هذا العبد المصلي، وهو النبي ﷺ الذي تنهاه عن الصلاة صالحاً مهتدياً على الطريقة المستقيمة في قوله، وفعله. ﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ أي: أو كان المنهي عن الصلاة آمراً بالإخلاص، والتوحيد، وطاعة الله، داعياً إلى الهدى، والرشاد، كيف تنهاه، وتزجره؟! فما أبلهك أيها الغبي الذي تنهى من أوصافه هذه: عبد مطيع لله مهتد منيب، داع إلى الهدى، والرشاد؟

فما أعجب مَنْ ينهى عن الخير، ويأمر بالشر، وهو أبو جهل الخبيث؛ الذي يتهدد النبي ﷺ ويتوعده: ليفعلن كذا، وكذا! إن وجده يصلي بجوار الكعبة! هذا هو الظاهر: أن الذي على الهدى، أو أمر بالتقوى هو محمد ﷺ، وهو اختيار ابن عطية، والقرطبي، والخازن، وغيرهم. وذهب الزمخشري، وتبعه البيضاوي، والنسفي كعادتهما إلى أن المراد الناهي.

لذا قال الزمخشري: ومعناه: أخبرني عمن ينهى بعض عباد الله عن صلاته، إن كان ذلك الناهي على طريقة سديدة فيما ينهى عنه من عبادة الله، أو كان آمراً بالمعروف، والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان، كما يعتقد. والمعنى عليه ضعيف كما ترى، لذا فالمعتمد الأول.

الإعراب: ﴿أَرَءَيْتَ﴾: الهمزة: حرف استفهام تعجبي. (رأيت): فعل، وفاعل. وانظر الكلام على مفعوليه فيما بعد. ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، واسمه يعود إلى المنهي، أو الناهي، كما رأيت في الشرح. ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ﴿كَانَ﴾، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي. وجواب الشرط محذوف، التقدير: إن كان على الهدى، أو أمر بالتقوى ألم يعلم بأن الله يرى، وإنما حذف لدلالة ذكره في جواب الشرط الثاني. قال الزمخشري: فإن قلت: فكيف صح أن يكون ﴿أَلَمْ يَعْلَم﴾ جواباً للشرط؟ قلت: كما صح في قولك: إن أكرمتك؛ أتكرمني؟ وإن أحسن إليك زيد هل تحسن إليه؟ ﴿أَوْ﴾: حرف عطف، وهي بمعنى الواو. ﴿أَمَرَ﴾: فعل ماض، والفاعل تقديره: «هو» يعود إلى المنهي، أو إلى الناهي. ﴿بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿كَانَ...﴾ إلخ.

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾

الشرح أي: أخبرني يا محمد عن ذلك المجرم الآثم الناهي لك عن طاعة الله إن كذب بالقرآن، وأعرض عن الإيمان. ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ أي: ألم يعلم ذلك الشقي: أن الله مطلع على أحواله، مراقب لأفعاله، وسيجازيه عليها، ويْلَه ما أجهله وأغباه؟! وفيه وعيد شديد، وتهديد عظيم. والله أعلم بمراده، وأسراركتابه.

الإعراب: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ﴾: إعرابه مثل إعراب سابقه. ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾: الواو: حرف عطف. (تولى): فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف معطوف على ما قبله، فهو مثله في محل جزم، والفاعل يعود إلى الآثم الناهي، تقديره: «هو». ﴿أَلَمْ﴾: الهمزة: حرف تقرير، وجزم، وتوبيخ، وتقريع. (لم): حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿يَعْلَم﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: (لم)، والفاعل تقديره: «هو» يعود إلى المجرم الناهي. ﴿بِأَنَّ﴾: الباء: حرف جر. (أنَّ): حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿يَرَىٰ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهَ﴾، والمفعول محذوف للتعميم، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (أنَّ)، و(أنَّ) واسمها، وخبرها في تأويل مصدر في محل جر بالباء، والجار، والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محل نصب مفعول به. هذا؛ وإن اعتبرت الباء صلة؛ فالمصدر يكون قد سد مسد المفعول، فهو في محل جر لفظاً، وفي محل نصب محلاً، والجملة الفعلية جواب الشرط، انظر كلام الزمخشري في الآية السابقة.

هذا؛ وقد قال الجمل ـ رحمه الله تعالى ـ: واعلم: أن ﴿أَرَءَيْتَ﴾ إذا كانت بمعنى: أخبرني كما هنا، فإنها تتعدى إلى مفعولين، ثانيهما جملة استفهامية. وقد تقدم هذا غير مرة، وهنا قد ذكرت ثلاث مرات، وقد صرح بعد الثالثة منها بجملة استفهامية، فتكون في موضع المفعول الثاني لها، ومفعولها الأول محذوف، وهو ضمير يعود على ﴿ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا﴾ الواقع مفعولاً أول لـ: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الأولى، وأما ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الأولى فمفعولها الأول ﴿ٱلَّذِى﴾، والثاني محذوف، وهو جملة استفهامية كالجملة الواقعة بعد ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الثالثة، وأما ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الثانية، فلم يذكر لها مفعول، لا أول، ولا ثان، فحذف الأول لدلالة المفعول الأول من ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الأولى عليه، وحذف الثاني لدلالة مفعول ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الثالثة عليه، فقد حذف الثاني من ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الأولى، والأول من الثالثة، والاثنان من الثانية، وليس ذلك من باب التنازع؛ لأنه يستدعي إضماراً، والجمل لا تضمر، إنما تضمر المفردات، وإنما ذلك من باب الحذف للدلالة. انتهى. سمين. وأما جواب الشرط الذي في حيز الثانية، والثالثة؛ فمحذوف يدل عليه الجملة الاستفهامية، والتقدير: إن كان على الهدى، أو أمر بالتقوى ألم يعلم ذلك الناهي بأن الله يرى. وتقديره في الثالثة: إن كذب،

وتولى ألم يعلم بأن الله يرى، كما يؤخذ من صنيع السمين في سورة (الأنعام) رقم [٤٠] وانظر ما ذكرته في سورة (يونس) رقم [٥٠].

ونقل هنا إعراباً عن الزمخشري محصله: أن ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الأولى مفعولها الأول الموصول، وأن الثانية زائدة مكررة للتوكيد. وأن المفعول الثاني للأولى هو جملة الشرط الذي في حيز الثانية مع جوابها المحذوف؛ الذي يقدر جملة استفهامية، وهي التي صرح بها في حيز الثالثة، وأن مفعول الثالثة الأول محذوف، تقديره: أرأيته، وجملة الشرط الذي بعدها، وجوابه، وهو جملة الاستفهام المصرح بها سادة مسد المفعول الثاني. وقال في تقرير هذا الإعراب، انظر قول الزمخشري في الآية رقم [١١].

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾

الشرح: ﴿كَلَّا﴾: ردع، وزجر للناهي المجرم الآثم. ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ أي: الخبيث أبو جهل عن إيذائك يا محمد، ولم ينته عن الكفر. ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ أي: لنأخذن بناصيته؛ أي: فلنذلنه في الدنيا. وقيل: لنأخذن بناصيته يوم القيامة، وتطوى مع قدميه، ويطرح في النار، كما قال تعالى في سورة (الرحمن) رقم [٤١]: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ انظر شرحها في محلها، والمعنى هنا: لنأخذن بناصيته، فلنجرنه إلى النار. يقال: سفعت بالشيء: إذا أخذته، وجذبته جذباً شديداً، والناصية: شعر مقدم الرأس، والسفع: الضرب؛ أي: لنضربن وجهه في النار، ولنسودنه. ومن الأخذ، والجذب يقال: سفع بناصية فرسه: إذا أخذها، وجذبها. قال حميد بن ثور الهلالي الصحابي ـ رضي الله عنه ـ. [الكامل]

قَوْمٌ إذَا سَمِعُوا الصَّرِيخَ رأيتَهُمْ ... ما بينَ مُلْجِمِ مُهْرِهِ أوْ سَافِعِ

وهذا هو الشاهد رقم [١٠٠] من كتابنا: «فتح القريب المجيب». وقيل: هو مأخوذ من: سفعته النار، والشمس: إذا غيرت وجهه إلى حال تسويده. قال زهير في معلقته رقم [٥]. [الطويل]

أَثَافِيَّ سُفْعاً في مُعَرَّسِ مِرْجَلٍ ... ونُؤْياً كجِذْمِ الْحَوْضِ لَمْ يَتَثَلَّمِ

والناصية: شعر مقدم الرأس، كما قدمت، وقد يعبر بها عن جملة الإنسان، كما يقال: هذه ناصية مباركة، إشارة إلى جميع الإنسان، وخص الناصية بالذكر على عادة العرب فيمن أرادوا إذلاله، وإهانته؛ أخذوا بناصيته، والآية وإن كانت في أبي جهل نزلت؛ فهي عظة للناس وتهديد ووعيد لكل من يمتنع، أو يمنع غيره من طاعة الله؛ لأن خصوص السبب، لا يمنع التعميم.

﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ أي: ناصية أبي جهل كاذبة في مقالها، خاطئة في أفعالها. والمراد: صاحبها؛ أي: أبو جهل كاذب خاطئ، كما يقال: نهاره صائم، وليله قائم؛ أي: هو صائم في

نهاره، قائم في ليله، لذا فوصف الناصية بالكذب والخطيئة مجاز عقلي، والخاطئ: الذي يفعل الذنب متعمداً، والمخطئ: الذي يفعله بدون قصد. تأمل، وتدبر، وربك أعلم.

الإعراب: ﴿كَلَّا﴾: حرف ردع، وزجر قطعاً. ﴿لَئِن﴾: اللام: موطئة للقسم. (إن): حرف شرط جازم. ﴿لَّمْ﴾: حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿يَنتَهِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: ﴿لَّمْ﴾، وعلامة جزمه حذف حرف العلة من آخره، وهو الياء، والكسرة قبلها دليل عليها وهو فعل الشرط. والفاعل يعود إلى أبي جهل، تقديره: «هو»، والمتعلق محذوف، انظر تقديره في الشرح، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي. ﴿لَنَسْفَعًا﴾: اللام: واقعة في جواب القسم. (نسفعنْ): فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الخفيفة، والفاعل مستتر تقديره: «نحن». ﴿بِالنَّاصِيَةِ﴾: متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جواب القسم، وحذف جواب الشرط لتقدم القسم عليه على القاعدة: «إذا اجتمع شرط، وقسم فالجواب للسابق منهما». قال ابن مالك ـ رحمه الله تعالى ـ في ألفيته: [الرجز]

وَاحْـذِفْ لَـدَى اجْـتِـمَـاعِ شَـرْطٍ وَقَـسَـمْ جَـوابَ مَـا أَخَّـرْتَ فَـهْـوَ مُـلْـتَـزَمْ

﴿نَاصِيَةٍ﴾: بدل من (الناصية) بدل نكرة من معرفة. قال الزمخشري: لأنها وصفت، فاستقلت بفائدة، وليس وصفها بشرط عند البصريين في إبدال النكرة من المعرفة. ﴿كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾: صفتان لـ: ﴿نَاصِيَةٍ﴾، والجملة الشرطية والقسمية كلام مبتدأ بعد ﴿كَلَّا﴾ لا محل له. هذا؛ وقرئ برفع (ناصيةٌ) على إضمار مبتدأ قبلها، وبالنصب على الذم بفعل محذوف، وهذان الوجهان على القطع.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾

الشرح: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ أي: فليدع أهل ناديه؛ لأن النادي لا ينادى، والنادي هو المجلس الذي ينتدي فيه القوم، ولا يسمى المكان نادياً حتى يكون فيه أهله. وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٥] من سورة (الدهر) فإنه جيد بحمد الله، وتوفيقه، والمعنى: فليدع أهل مجلسه، وعشيرته؛ فليستنصر بهم؛ لينقذوه من عذاب الله. ففي الكلام مجاز مرسل من إطلاق المحل وإرادة الحال.

﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ أي: الملائكة الغلاظ الشداد. وعن ابن عباس، وغيره: واحدهم زِبْنيٌّ قاله الكسائي. وقال الأخفش: زابن. وقال أبو عبيدة: زبنية. وقيل: زباني. وقيل: هو اسم للجمع، كالأبابيل، والعباديد. وقال قتادة: هم الشُّرَط في كلام العرب، والمراد بهم في الآية الكريمة: خزنة جهنم، فقد روي في الخبر: أن النبي ﷺ لما قرأ هذه السورة، وبلغ إلى قوله تعالى: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ قال أبو جهل: أنا أدعو قومي؛ حتى يمنعوا عني ربك. فقال الله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ فلما سمع ذكر الزبانية رجع فزعاً، فقيل له: خشيت منه؟ قال: لا، ولكن رأيت عنده فارساً فهددني بالزبانية، فما أدري ما الزبانية، ومال إليَّ الفارس، فخشيت منه أن يأكلني.

وروي: أن أبا جهل الخبيث مر على النبي ﷺ، وهو يصلي عند المقام، فقال له أبو جهل: ألم أنهك عن هذا يا محمد؟! فأغلظ له رسول الله ﷺ القول، فقال له أبو جهل: بأي شيء تهددني يا محمد؟! والله إني لأكثر أهل الوادي هذا نادياً! وروي: أنه كان قال للنبي ﷺ لما انتهره حيث نهاه عن الصلاة: لقد علمت ما بها رجل أكثر نادياً مني، لأملأن عليك هذا الوادي، إن شئت خيلاً جرداً، ورجالاً مرداً! فكانت الآية الكريمة رداً عليه. وفي الأخبار: أن الزبانية رؤوسهم في السماء، وأرجلهم في الأرض. وقيل: إنهم أعظم الملائكة خلقاً، وأشدهم بطشاً، والعرب تطلق هذا الاسم على من اشتد بطشه. قال الشاعر: [الطويل]

مطاعيمُ في القصوى مَطَاعينُ في الوغَى زبانِيَةٌ غُلْبٌ عِظَامٌ حُلُومُهَا

﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾: ليس الأمر على ما يظنه أبو جهل، فلا تطعه فيما دعاك إليه من ترك الصلاة. ﴿وَٱسْجُدْ﴾ أي: صل لله. ﴿وَٱقْتَرِب﴾ أي: تقرب إلى الله جل ثناؤه بالطاعة والعبادة. وقيل: المعنى إذا سجدت؛ فاقترب من الله بالدعاء. روى عطاء عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أقربُ ما يكونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّه، وأَحَبُّهُ إليْهِ مَا كَانتْ جبْهَتُهُ في الأرضِ سَاجِداً للهِ**». انتهى. قرطبي، والحديث المشهورُ: «**أقربُ ما يكونُ العبدُ من رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ**».

قال العلماء: وإنما كان ذلك؛ لأنها نهاية العبودية، والذلة، ولله العزة التي لا مقدار لها، فكلما بعدت من صفته؛ قربت من جنته، ودنوت من جواره في داره، وفي الحديث الصحيح: أن النبي ﷺ قال: «**أمَّا الركوعُ، فعظِّموا فيه الرَّبَّ، وأمَّا السجودُ فاجْتَهِدُوا فيهِ في الدعَاءِ، فإنه قَمِنٌ أن يُستجابَ لكمْ**». ولقد أحسن مَنْ قال: [الكامل]

وإذا تَـذَلَّـلَـتِ الـرقـابُ تـواضـعـاً مـنَّـا إلـيـكَ فَـعِـزُّهـا فـي ذُلِّـهَـا

هذا؛ والثابت عند الشافعي، وغيره: أنه يسن سجود التلاوة لقراءة هذه الآية، ولسماعها، وقد ذكرت لك في سجدة (الانشقاق) تثبت السجود لتلاوتها. وقد روى ابن وهب عن حماد بن زيد عن عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: (عزائم السجود أربع: الم، وحم تنزيل من الرحمن الرحيم، والنجم، واقرأ باسم ربك). وقال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: قلت: وقد روينا من حديث مالك بن أنس عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن نافع عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما أنزل الله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ قال رسول الله ﷺ لمعاذ: «**اكتبها يا معاذ!**». فأخذ معاذ ـ رضي الله عنه ـ اللوح، والقلم، والنون، وهي الدواة، فكتبها معاذ ـ رضي الله عنه ـ. فلما بلغ: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ سجد اللوح، وسجد القلم، وسجدت النون، وهم يقولون: اللهم ارفعْ به ذكراً، اللهم احْطُطْ به وِزْراً، اللهم اغفر به ذَنْباً. قال معاذ: سجدت، وأخبرت رسول الله ﷺ فسجد. وانظر الآية رقم [٢١] من سورة (الانشقاق).

الإعراب: ﴿فَلْيَدْعُ﴾: الفاء: هي الفصيحة. (ليدع): فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، وعلامة جزمه حذف حرف العلة من آخره، وهو الواو، والضمة قبلها دليل عليها، والفاعل يعود إلى أبي جهل المتحدَّث عنه في هذه الآيات. ﴿نَادِيَهُۥ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جواب شرط غير جازم، التقدير: وإذا كان ذلك واقعاً به، وحاصلاً له؛ فليدع. ﴿سَنَدْعُ﴾: السين: حرف استقبال، ويفيد هنا التحقيق، والتوكيد. (ندع): فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الواو المحذوفة قراءة، والفاعل ضمير مستتر تقديره: «نحن». ﴿ٱلزَّبَانِيَةَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿كَلَّا﴾: حرف ردع. ﴿لَا﴾: ناهية. ﴿تُطِعْهُ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: ﴿لَا﴾، والفاعل مستتر تقديره: «أنت»، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿وَٱسْجُدْ﴾: الواو: حرف عطف. (اسجد): فعل أمر، وفاعله أنت، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها.

خاتمة: أبو جهل كان العدو اللدود للنبي ﷺ منذ بدء الدعوة، وكان على رأس المستهزئين بالنبي ﷺ، وبالمستضعفين، وقد أذله الله في غزوة بدر عندما وقع جريحاً لا يستطيع الحركة بسبب طعنات من شباب الأنصار، وبعد انتهاء المعركة بهزيمة قريش عثر ابن مسعود على أبي جهل مكوماً على الأرض، فقال له: أخزاك الله يا عدو الله! ثم داس على رقبته، فقال له: لقد رقيت مرقىً عالياً يا رويعي الغنم! فقال ابن مسعود: الإسلام يعلو، ولا يعلى عليه. فقال ابن مسعود: كيف تجدك؟ قال: أخبر محمداً بأني لا أزال أشد عداوة له من ذي قبل. فحز رأسه بسيفه؛ لأن سيف ابن مسعود لم يقطع برقبته لغلظها، ثم جره بشعره حتى ألقاه بين يدي الرسول ﷺ، فلما أخبره بمقاله. قال: «**لا إله إلا الله فرعوني أشد من فرعون موسى**» أي: لأن فرعون موسى لما أدركه الغرق قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾. تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

انتهت سورة (العلق) شرحاً، وإعراباً.

والحمد لله رب العالمين.

سورة القدر

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة (القدر) قيل: إنها مكية، وقيل: مدنية، وهو الأصح، وعليه الأكثرون. وقيل: إنها أول ما نزل بالمدينة. وهي خمس آيات، وثلاثون كلمةً، ومئة واثنا عشر حرفاً.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢﴾

الشرح: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾: يعني القرآن، وإن لم يجر له ذكر في هذه السورة؛ لأن المعنى معلوم. والقرآن كله كالسورة الواحدة، وقد قال تعالى في سورة (البقرة) رقم [١٨٥]: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾، وقال تعالى في سورة (الدخان): ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ يريد: في ليلة القدر، وذلك: أن الله تعالى أنزل القرآن العظيم جملةً واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في ليلة القدر. فوضعه في بيت العزة، ثم نزل به جبريل - عليه السلام - على النبي ﷺ نجوماً متفرقة في ثلاث وعشرين سنة، فكان ينزل بحسب الوقائع، ومقتضيات الأحوال. وقيل: إنما أنزله إلى السماء الدنيا لشرف الملائكة بذلك؛ ولأنها كالمشترك بيننا، وبين الملائكة، فهي لهم سكن، ولنا سقف، وزينة.

هذا؛ ومعلوم: أن الإنزال مستعار للمعاني من الأجرام، شبه نقل القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، وثبوته فيها بنزول جسم من علو إلى أسفل، فعلى هذا هو مجاز مرسل. انتهى. نقلاً عن كرخي.

هذا؛ وذكر أبو بكر بن الأنباري في كتاب الرد: أن الله تعالى أنزل القرآن جملة إلى السماء الدنيا، ثم فرقه على النبي ﷺ في ثلاث وعشرين سنة، فكانت السورة تنزل في أمر يحدث، والآية تنزل جواباً لمستخبر يسأل، ويوقف جبريل النبي ﷺ على موضع السورة، والآية، فانتظام السُّوَر كانتظام الآيات، والحروف، فكله عن رسول الله خاتم النبيين - عليهم الصلاة والسلام - عن رب العالمين، فمن أخر سورةً مقدمةً، أو قدَّم أخرى مؤخرةً كمن أفسد نظم الآيات، وغير الحروف، والكلمات، ولا حجة على أهل الحق في تقديم سورة (البقرة) على (الأنعام)، و(الأنعام) نزلت قبل سورة (البقرة)؛ لأن رسول الله ﷺ أخذ عنه هذا الترتيب، وهو كان يقول: «**ضعوا هذه السورة موضع كذا، وكذا من القرآن**». وكان جبريل عليه السلام يوقفه على مكان الآيات. انتهى. جمل. أقول: وتسمية السورة أيضاً توقيفي عن النبي ﷺ.

وسميت ليلة القدر؛ لأن فيها تقدير الأمور، والأحكام، والأرزاق، والآجال، وما يكون في تلك السنة إلى مثل هذه الليلة من السنة المقبلة، يقدر الله ذلك في بلاده، وعباده. ومعنى هذا: أن الله يظهر ذلك لملائكته، ويأمرهم بفعل ما هو من وظيفتهم بأن يكتب لهم ما قدره في تلك الليلة ويعرفهم إياه، وليس المراد منه: أنه يحدثه في تلك الليلة؛ لأن الله قدر المقادير قبل أن يخلق السموات، والأرض في الأزل.

قيل للحسين بن الفضل: أليس قد قدر الله المقادير قبل أن يخلق السموات، والأرض؟ قال: نعم. قيل له: فما معنى ليلة القدر؟ قال: سوق المقادير إلى المواقيت، وتنفيذ القضاء المقدر. وقيل: سميت ليلة القدر لعظم قدرها، وشرفها على الليالي، من قولهم: لفلان قدر عند الأمير؛ أي: منزلة، وجاه. وقيل: سميت بذلك؛ لأن العمل الصالح يكون فيها ذا قدر عند الله؛ لكونه مقبولاً. وقيل: سميت بذلك؛ لأن الأرض تضيق بالملائكة فيها. انتهى. خازن. أخذاً من قوله تعالى في سورة الطلاق رقم [٧]: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ...﴾ إلخ. هذا؛ وانظر ما ذكرته في آخر سورة (الجمعة) من مناقشة قول من يقول بتفضيل ليلة المولد النبوي الشريف على ليلة القدر، وليلة الجمعة وليلة عرفة. . .إلخ تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ أي: أيُّ شيء يبلغ درايتك قدرها ومبلغ فضلها؟ وهذا على سبيل التعظيم لها، والتشويق إلى خيرها، وبركتها، ثم بين الله فضلها من ثلاثة أوجه، وهو ما ذكره في الآيات الثلاث الآتية. هذا؛ وقال يحيى بن سلام ـ رحمه الله تعالى ـ: بلغني: أن كل شيء في القرآن: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ فقد أدراه إياه، وعلمه، وكل شيء قال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فهو مما لم يعلمه. وانظر شرح درى، يدري في آخر سورة (الانفطار)؛ تجد ما يسرك.

الإعراب: ﴿إِنَّآ﴾: (إنَّ): حرف مشبه بالفعل. و(نا): اسمها حذفت نونها، وبقيت الألف دليلاً عليها. ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية مبتدأة لا محل لها. ﴿فِى لَيْلَةِ﴾: متعلقان بما قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من الضمير المنصوب؛ أي: حالة كونه منزلاً في ليلة، و﴿لَيْلَةِ﴾: مضاف، و﴿ٱلْقَدْرِ﴾: مضاف إليه. ﴿وَمَآ﴾: الواو: حرف استئناف. (ما): اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿أَدْرَىٰكَ﴾: فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى (ما)، تقديره: «هو»، والكاف مفعول به أول. ﴿مَا لَيْلَةُ﴾: مبتدأ، وخبر، والجملة الاسمية في محل نصب سدت مسد مفعول (أدراك) الثاني المعلق عن العمل لفظاً بسبب الاستفهام. وقال زاده: في محل نصب سدت مسد المفعول الثاني، والثالث لـ: (أدرى)؛ لأنه بمعنى (أعلم) و﴿لَيْلَةُ﴾: مضاف، و﴿ٱلْقَدْرِ﴾: مضاف إليه، وجملة: ﴿أَدْرَىٰكَ...﴾ إلخ في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: (ما أدراك. . .) إلخ مستأنفة.

﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾

الشرح: هذا الوجه الأول من الأوجه الثلاثة التي ذكرها الله في بيان فضل ليلة القدر. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ذكر لرسول الله ﷺ رجل من بني إسرائيل حمل السلاح على عاتقه في سبيل الله ألف شهر، فعجب رسول الله ﷺ لذلك، وتمنى ذلك لأمته، فقال: «**يا رب جعلت أمتي أقصر الأمم أعماراً، وأقلها أعمالاً**». فأعطاه الله تبارك وتعالى ليلة القدر، فقال: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ التي حمل فيها الإسرائيلي السلاح في سبيل الله، لك ولأمتك إلى يوم القيامة.

وعن مالك: أنه سمع ممَّن يثق به من أهل العلم: أن النبي ﷺ أري أعمار الناس قبله، أو ما شاء الله من ذلك، فكأنه تقاصر أعمار أمته ألا يبلغوا من العمل مثل الذي يبلغ غيرهم في طول العمر، فأعطاه الله ليلة القدر خيراً من ألف شهر. أخرجه مالك في الموطأ.

ومعناه: العمل الصالح في ليلة القدر خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، وإنما ذلك لما يريد الله تعالى فيها من المنافع، والأرزاق، وأنواع الخير، والبركة. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

هذا؛ وذكر السيوطي في أسباب النزول، وكذا القرطبي ما يلي: أخرج الترمذي، والحاكم، وابن جرير عن الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ قال: إن النبي ﷺ أُري بني أمية على منبره، فساءه ذلك، فنزلت: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾، ونزلت: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ تملكها بعدك بنو أمية. قال القاسم بن الفضل الحرَّاني: فعددناها، فإذا هي ألف شهر لا تزيد ولا تنقص. قال الترمذي: غريب: وقال المزني وابن كثير: منكر جداً.

هذا؛ وأقول: ألف منكر، فكيف يسوء النبي ﷺ ما قدر الله، وقضاه، وهو الذي قال في حق الحسن ـ رضي الله عنهما ـ: «**إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين طائفتين متنازعتين**». وقد اعتبر بعض العلماء هذا الحديث مصححاً لخلافة معاوية، ومن بعده، وإن كان في بعضها بعض الظلم.

الإعراب: ﴿لَيْلَةُ﴾: مبتدأ، وهو مضاف، و﴿ٱلْقَدْرِ﴾: مضاف إليه. ﴿خَيْرٌ﴾: خبر المبتدأ، ﴿مِّنْ أَلْفِ﴾: متعلقان بـ: ﴿خَيْرٌ﴾، و﴿أَلْفِ﴾: مضاف، و﴿شَهْرٍ﴾: مضاف إليه، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها، كأنها جواب لسؤال نشأ عن تعظيم ليلة القدر، تقديره: وما فضلها؟

﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾﴾

الشرح: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: تهبط من كل سماء، ومن سدرة المنتهى، ومسكنُ جبريل على وسطها، فينزلون إلى الأرض، ويؤمنون على دعاء المؤمنين إلى وقت طلوع الفجر. وانظر شرح الملائكة في سورة (الجن) آخرها، فإنه جيد بحمد الله، وتوفيقه، ﴿وَٱلرُّوحُ﴾ يعني: جبريل عليه السلام. قاله أكثر المفسرين، وفي حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: **«إذَا كانتْ ليلةُ القدرِ؛ نزلَ جبريلُ في كبكبةٍ مِنَ الملائكةِ، يصلُّونَ، ويسلِّمونَ على كل عبدٍ قائمٍ، أو قاعدٍ يذكر الله عز وجلّ»**. ذكره ابن الجوزي. وقيل: إن الروح طائفة من الملائكة، لا تراهم الملائكة إلَّا في تلك الليلة، ينزلون من لدن غروب الشمس إلى طلوع الفجر. وقيل: إن (الروح) ملك عظيم ينزل مع الملائكة في تلك الليلة. انتهى. خازن. وقيل: (الروح) الرحمة ينزل بها جبريل عليه السلام مع الملائكة في ليلة القدر على أهلها، دليله قوله تعالى في سورة (النحل) رقم [٢]: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ وانظر ما ذكرته في سورة (النبأ) رقم [٣٨] تجد ما يسرك، ويثلج صدرك؛ حيث تجده من ذكره الخاص بعد العام. وفي سورة (النبأ) من ذكر العام بعد الخاص، هذا؛ و﴿تَنَزَّلُ﴾ أصله: تتنزل حذفت منه تاء المضارعة، وهذا الحذف كثير في الآيات القرآنية وفي الكلام العربي. ﴿فِيهَا﴾ أي: في ليلة القدر. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ أي: بأمر ربهم. ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي: بكل أمر من الخير، والبركة، وبكل أمر قدره الله، وقضاه في تلك السنة إلى قابل. قاله ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، وليس المراد: أن تقدير الله لا يحدث إلا في تلك الليلة؛ لأنه تعالى قدر المقادير في الأزل قبل خلق السموات، والأرض، بل المراد إظهار تلك المقادير للملائكة. وهذا تقدم من قول الحسين بن الفضل (سوق المقادير إلى المواقيت).

هذا؛ وروي: أنه إذا كانت ليلة القدر تنزل الملائكة، وهم سكان سدرة المنتهى، وجبريل عليه السلام ومعه أربعة ألوية، فينصب لواء على قبر النبي ﷺ، ولواء على ظهر بيت المقدس، ولواء على ظهر المسجد الحرام، ولواء على ظهر طور سيناء، ولا يدع بيتاً فيه مؤمن ولا مؤمنة إلا دخله وسلم عليه، يقول: يا مؤمن! أو يا مؤمنة! السلام يقرئكم السلام؛ إلا على مدمن خمر، وقاطع رحم، وآكل لحم خنزير. انتهى. جمل.

الإعراب: ﴿تَنَزَّلُ﴾: فعل مضارع. ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: فاعل. والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿وَٱلرُّوحُ﴾: الواو: حرف عطف. (الروح): معطوف على (الملائكة). ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وقيل: متعلقان بمحذوف حال من (الملائكة) ولا وجه. ويجوز اعتبار (الروح) مبتدأ، والجار، والمجرور متعلقين بمحذوف خبره، والجملة الاسمية

معطوفة على ما قبلها. ﴿بِإِذۡنِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو بمحذوف حال من ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، التقدير: متلبسين بإذن ربهم، و(إذن) مضاف، و﴿رَبِّهِم﴾: مضاف إليه، من إضافة المصدر لفاعله، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿مِّن كُلِّ﴾: متعلقان بالفعل ﴿تَنَزَّلُ﴾، و﴿مِّن﴾ تحتمل أن تكون بمعنى اللام؛ أي: تنزل لأجل كل أمرٍ قضي إلى العام القابل. وتحتمل أن تكون بمعنى الباء؛ أي: تنزل بكل أمر، و(كل) مضاف، و(أمر) مضاف إليه.

﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ٥﴾

الشرح: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾: هذا الوجه الثالث من الأوجه الثلاثة التي ذكرها الله تعالى في بيان فضل ليلة القدر، والمعنى: ليلة القدر سلامة، وخير كلُّها لا شرَّ فيها. وقال الشعبي: قيل: هو تسليم الملائكة في ليلة القدر على أهل المساجد من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر. وقيل: الملائكة ينزلون فيها كلما لقوا مؤمناً، أو مؤمنةً يسلمون عليه من ربه عز وجل. وهذا معنى من قال: سلام من الله على أوليائه، وأهل طاعته. وقال الضحاك: لا يقدر الله في تلك الليلة إلا السلامة، وفي سائر الليالي يقضي بالبلايا، والسلامة.

هذا؛ وقرئ ﴿مَطۡلَعِ﴾ بفتح اللام وكسرها لغتان، والأصل الفتح، وقد قرئ بسورة (الكهف): ﴿مَطۡلَعَ﴾ أيضاً بفتح اللام وكسرها، والكسر على أنه مما شذ عن قياسه، نحو: المشرِق، والمغرِب، والمنبِت، والمسكِن، والمنسِك، والمحشِر، والمسقِط، والمرفِق، والمنخِر، والمجزِر. وإنما شذ قياس ما ذكر؛ لأن المصدر الميمي، واسمي الزمان، والمكان إذا أخذ أحدها من فعل ثلاثي مفتوح العين، أو مضمومها في المضارع أن يكون بفتح العين قياساً، ولكن التلاوة جاءت بكسرها في بعض الكلمات وهو مذكور في كتب النحو، واللغة. والتحقيق: أن الأسماء المذكورة نوعية غير جارية على فعلها، وإلا فلا مانع من الفتح.

الإعراب: ﴿سَلَٰمٌ﴾: خبر مقدم. ﴿هِيَ﴾: ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ مؤخر، ويجوز عند الأخفش، والكوفيين الذين لا يشترطون الاعتماد على نفي، وشبهه أن يكون ﴿سَلَٰمٌ﴾ مبتدأ، و﴿هِيَ﴾: فاعل به، والمعتمد الأول. ﴿حَتَّىٰ مَطۡلَعِ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل ﴿تَنَزَّلُ﴾ أو بـ: ﴿سَلَٰمٌ﴾، وجاز الفصل بين المصدر ومعموله بالضمير؛ لأنه يتوسع في الظرف، والجار ما لا يتوسع في غيرهما. وقيل: متعلقان بمحذوف، التقدير: ويستمرون على التسليم من غروب الشمس؛ حتى مطلع الفجر، و﴿مَطۡلَعِ﴾ مضاف، و﴿ٱلۡفَجۡرِ﴾ مضاف إليه. تأمل، وتدبر، وربُّك أعلم.

تنبيه: لقد ذكر في فضل ليلة القدر أحاديث كثيرة، أكتفي منها بما يلي:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ قَامَ لَيْلَةَ القدرِ إيماناً وَاحتِسَاباً غُفِرَ لَهُ ما تقدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»**. متفق عليه، وقد ذكرت لكَ في الشرح الأوجه الثلاثة التي ذكرها الله في بيان فضلها.

تنبيه: لقد اختلف في تحديد ليلتها، والمعتمد: أنها في العشر الأواخر من رمضان، في ليالي الوتر على المعتمد أيضاً، والراجح عند الشافعي: أنها في ليلة الواحد والعشرين، ثم في ليلة الثالث والعشرين. ومال إليه مالك، وأحمد، والأوزاعي، وأبو ثور ـ رحمهم الله تعالى ـ وأبو حنيفة ـ رحمه الله تعالى ـ ثبتها ليلة السابع والعشرين من رمضان، وقد استدل بما يلي:

فقد روى ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«مَنْ كانَ متحرِّياً ليلةَ القدرِ فليتحرَّها ليلةَ سبْعٍ وعشرين»**. وقال أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ليلةُ القدرِ لَيْلَةُ سَبعٍ وعشرين»**. وقال أبو بكر الوراق: إن الله تعالى قسم ليالي هذا الشهر على كلمات هذه السورة، فلما بلغ السابعة والعشرين أشار إليها، فقال: هي، وأيضاً، فإن (ليلة القدر) كرر ذكرها ثلاث مرات، وهي تسعة أحرف، فتجيء سبعاً وعشرين.

هذا؛ وقد ذكرت في سورة (المؤمنون) رقم [١٤]: أن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ثبتها في الليلة السابعة والعشرين، واستدل بأشياء على ذلك انظرها هناك تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

وبالجملة فقد أخفى الله ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان، وجعلها أرجى ما تكون في ليالي الوتر منه، ولذا كان الرسول ﷺ يجتهد في العبادة في العشر الأخير ما لا يجتهده في غيره، فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ؛ قالت: **«كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر الأواخر من رمضان ما لا يجتهد في غيره»**. أخرجه مسلم. وعنها أيضاً قالت: كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأواخر أحيا الليل، وأيقظ أهله، وشد المئزر. متفق عليه.

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجل، ثم اعتكف أزواجه من بعده. متفق عليه. وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان، متفق عليه، وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قلت: يا رسول الله! إن علمت ليلة القدر ما أقول فيها. قال: **«قولي: اللَّهُمَّ إنكَ عفوٌّ كريمٌ تحِبُّ الْعَفْوَ فاعْفُ عني»**. أخرجه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه.

هذا؛ وقال البغوي: وبالجملة أبهم الله تعالى هذه الليلة على الأمة ليجتهدوا في العبادة ليالي شهر رمضان كلها، طمعاً في إدراكها، كما أخفى ساعة الإجابة في يوم الجمعة، وأخفى الصلاة الوسطى في الصلوات الخمس، واسمه الأعظم في القرآن في أسمائه الحسنى، ورضاه في الطاعات ليرغبوا في جميعها، وسخطه في المعاصي لينتهوا عن جميعها، وأخفى قيام الساعة ليجتهدوا في الطاعات حذراً من قيامها، وأخفى العبد الصالح بين العباد رحمةً منه وحكمةً.

هذا؛ ومن علامات ليلة القدر ما روي عن الحسن رفعه «**أنها ليلة بلجة سمحة، لا حارة ولا باردة، تطلع الشمس صبيحتها بيضاء لا شعاع لها**» انتهى. ومعنى بلجة: مشرقة مضيئة، لا حارة أي: في الصيف كثيراً. ولا باردة أي: في الشتاء كثيراً فهي معتدلة الحرارة والبرودة في أي فصل كانت فيه لا شعاع للشمس صبيحتها من كثرة الأنوار. وقيل: من كثرة هبوط الملائكة وصعودها، فهم أنوار، ويؤثر ذلك على ضوء الشمس. انتهى. من الخازن والقرطبي وغيرهما، تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

انتهت سورة (القدر) شرحاً، وإعراباً.

والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ البَيِّنَةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة (لم يكن) وتسمى سورة (البينة) وهي مدنية في قول ابن عباس، والجمهور. وقيل: مكية في قول يحيى بن سلام، وهي ثمان آيات. وقيل: تسع. وأربع وتسعون كلمةً، وثلاثمئة وتسعة وتسعون حرفاً، وورد في فضلها ما روي عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال لأُبَيّ ابن كعب ـ رضي الله عنه ـ: «**إن الله أمرني أن أقرأ عليك:** ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ...﴾ إلخ قال: وسماني لك؟! قال: «**نعم**». فبكى. خرجه البخاري، ومسلم. قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: وفيه من الفقه: قراءة العالم على المتعلم. قال بعضهم: إنما قرأ النبي ﷺ على أُبيٍّ ليعلم الناس التواضع، لئلا يأنف أحد من التعلم، والقراءة على مَنْ دونه في المنزلة. انتهى. وفيه فضيلة عظيمة لأُبَيٍّ ـ رضي الله عنه ـ. هذا؛ ومناسبة السورة لما قبلها: أنه لما ذكر إنزال القرآن في ليلة القدر. وقال في السورة التي قبلها: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ ذكر هنا: أن الكفار لم يكونوا منفكين مما هم عليه؛ حتى جاءهم الرسول يتلو عليهم من الصحف المطهرة؛ التي أمر بقراءتها. انتهى. جمل نقلاً من البحر.

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ①﴾

الشرح: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: بمحمد ﷺ، وبما أنزل عليه من ربه، ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾: يعني اليهود، والنصارى، والمشركين: وهم عبدة الأوثان؛ الذين كانوا في مكة، وحولها، وفي المدينة وما حولها من قبائل العرب، وذلك: أن الكفار كانوا جنسين: أحدهما أهل كتاب، وسبب كفرهم ما أحدثوه في دينهم، أما اليهود؛ فقولهم: عزير ابن الله، وتشبيههم الله بخلقه، وأما النصارى فقولهم: المسيح ابن الله، وثالث ثلاثة، وغير ذلك، والثاني: المشركون أهل الأوثان؛ الذين لا ينتسبون إلى كتاب، فذكر الله الجنسين في الآية الكريمة.

﴿مُنفَكِّينَ﴾ أي: منتهين عن كفرهم، مائلين عنه. وقيل: ﴿مُنفَكِّينَ﴾ زائلين، والعرب تقول: ما انفككت أفعل كذا؛ أي: ما زلت، والمضارع: لا ينفك. قال طرفة في معلقته رقم [٩١]: [الطويل]

فَآلَيْتُ لَا يَنْفَكُّ كَشْحِي بِطَانَةً ... لِعَضْبٍ رَقِيقِ الشَّفْرَتَيْنِ مُهَنَّدِ

وقال ذو الرُّمَّة ـ وهو الشاهد رقم [١١٦] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الطويل]

حَـرَاجِـيـجُ مـا تَـنْـفَـكُّ إلا مُـنَـاخَـةً ... عـلـى الـخـسْـفِ أو نـرْمـي بـهـا بَـلَـداً قَـفْـراً

﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ أي: حتى أتتهم، لفظه مضارع، ومعناه الماضي. والبينة: الحجة الواضحة، والمراد: الرسول ﷺ أتاهم بالقرآن، فبين لهم ضلالتهم، وشركهم، وما كانوا عليه من الجاهلية، ودعاهم إلى الإيمان، فآمنوا، فأنقذهم الله من الجهالة، والضلالة، ولم يكونوا منفصلين عن كفرهم قبل بعثه إليهم. والآية فيمن آمن من الفريقين.

قال الواحدي في بسيطه: وهذه الآية من أصعب ما في القرآن نظماً، وتفسيراً، وقد تخبط فيها الكبار من العلماء. قال الإمام فخر الدين في تفسيره: إنه لم يلخص كيفية الإشكال فيها. وأنا أقول: وجه الإشكال: أن تقدير الآية: لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى تأتيهم البينة؛ التي هي الرسول، ثم إنه تعالى لم يذكر أنهم منفكون عماذا؟ لكنه معلوم؛ إذ المراد هو الكفر الذي كانوا عليه، فصار التقدير: لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى تأتيهم البينة التي هي الرسول. ثم إن كلمة ﴿حَتَّىٰ﴾ لانتهاء الغاية، فهذه الآية تقتضي: أنهم صاروا منفكين عن كفرهم عند إتيان الرسول ﷺ.

ثم قال بعد ذلك: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ وهذا يقتضي: أن كفرهم قد ازداد عند مجيء الرسول ﷺ، فحينئذ يحصل بين الآية الأولى، والثانية تناقض في الظاهر، وهذا منتهى الإشكال في ظني. قال: والجواب عنه من وجوه:

أولها، وأحسنها الذي لخصه صاحب الكشاف، وهو: أن الكفار من الفريقين: أهل الكتاب، وعبدة الأوثان كانوا يقولون قبل بعث محمد ﷺ: لا ننفك عما نحن عليه من ديننا، ولا نتركه حتى يُبعث النبي الموعود؛ الذي هو مكتوب في التوراة، والإنجيل، وهو محمد ﷺ، فحكى الله عنهم ما كانوا يقولونه، ثم قال: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: أنهم كانوا يعدون اجتماع الكلمة والاتفاق على الحق إذا جاءهم الرسول، ثم ما فرقهم عن الحق، ولا أقرهم على الكفر إلا مجيء الرسول ﷺ.

ونظيره في الكلام ما يقول الفاسق الفقير لمن يعظه: لست بمنفك مما أنا فيه من الأفعال القبيحة حتى يرزقني الله الغنى! فيرزقه الله الغنى، فيزداد فسقاً، فيقول واعظه: لم تكن منفكاً عن الفسق حتى توسر، وما غمست رأسك في الفسق إلا بعد اليسار. فيذكره ما كان يقول توبيخاً، وإلزاماً.

قال الإمام فخر الدين: وحاصل الجواب يرجع إلى حرف واحد، وهو أن قوله تعالى: «لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى تأتيهم البينة» مذكور حكاية عنهم. ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ إخبار عن الواقع، والمعنى: الذي وقع كان بخلاف ما ادَّعوا.

وثانيها: أن تقدير الآية: «لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم؛ وإن جاءتهم البينة». وعلى هذا التقدير يزول الإشكال، إلا أن تفسير لفظة: «حتى» بهذا ليس من اللغة في شيء. وذكر وُجُوهاً أُخر، وقال: والمختار هو الأول.

الإعراب: ﴿لَمْ﴾: حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿يَكُنِ﴾: مضارع ناقص مجزوم بـ: ﴿لَمْ﴾. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع اسم (يكن). ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق، والمتعلق محذوف، التقدير: كفروا بالله، ورسوله، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿مِنْ أَهْلِ﴾: متعلقان بمحذوف حال من واو الجماعة، و﴿أَهْلِ﴾: مضاف، و﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾: مضاف إليه. ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾: الواو: حرف عطف. (المشركين): معطوف على ﴿أَهْلِ﴾ مجرور مثله. ﴿مُنفَكِّينَ﴾: خبر ﴿يَكُنِ﴾ منصوب، وعلامة نصبه الياء... إلخ، وهو اسم فاعل ناقص واسمه ضمير مستتر فيه، والخبر محذوف. انظر تقديره في الشرح. وقيل: هو تام، فلا يحتاج لتقدير خبر. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف غاية، وجر بعدها «أن» مضمرة. ﴿تَأْتِيَهُمُ﴾: فعل مضارع منصوب بـ: «أن» المضمرة، والهاء مفعول به. ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾: فاعله، و«أن» المضمرة والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر بـ: ﴿حَتَّىٰ﴾، والجار، والمجرور متعلقان بـ: ﴿مُنفَكِّينَ﴾.

﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾﴾

الشرح: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: البينة رسول مبعوث من الله، وهو محمد ﷺ. ﴿يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ أي: يقرأ الرسول صحفاً مطهرةً. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أي: من الباطل، والكذب، والزور، والشك، والنفاق، والضلالة. فهو كقوله تعالى في سورة (عبس): ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ فتطهير الصحف كناية عن كونها ليس فيها باطل على الاستعارة المصرحة، أو المكنية. وقيل: ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ لا يمسها إلا المطهرون، كما في سورة (الواقعة) رقم [٧٩]. و(الكتب) بمعنى المكتوبات في القراطيس، فالقرآن يجمع ثمرة كتب الله المتقدمة عليه، والرسول ﷺ، وإن كان أمياً؛ لكنه لما تلا مثل ما في الصحف، كان كالتالي لها، فصح نسبة تلاوة الصحف إليه، وهو أمي لا يقرأ، ولا يكتب، ولا يقرأ من كتاب، وإنما يقرأ بالوحي عن ظهر قلب. قال الصاوي ـ رحمه الله تعالى ـ: المراد بالصحف: القراطيس؛ التي يكتب فيها القرآن، والمراد بالكتب: الأحكام المكتوبة فيها. انتهى. ومعنى ﴿قَيِّمَةٌ﴾ مستقيمة ناطقة بالحق، والعدل، معتدلة، لا إفراط فيها، ولا تفريط.

قال تعالى في سورة (الكهف) رقم [٢] في وصف القرآن الكريم: ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا...﴾ إلخ. هذا؛ وأصل ﴿قَيِّمَةٌ﴾: قَيْوِمَة، فقلبت الواو ياءً، ثم أدغمت الياء في الياء.

الإعراب: ﴿رَسُولٌ﴾: بدل من ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾ بدل اشتمال، أو بدل كل من كل على سبيل المبالغة. وقال الفراء: خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هي، أو هو رسول. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: متعلقان بـ: ﴿رَسُولٌ﴾ أو بمحذوف صفة له، وأجيز أن يكونا متعلقين بمحذوف حال من ﴿صُحُفًا﴾ التقدير: يتلو صحفاً مطهرة منزلة من الله، يعني كانت الحال في الأصل صفة للنكرة، فلما تقدمت عليها نصبت حالاً. ﴿يَتْلُوا۟﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الواو، والفاعل يعود إلى رسول، والجملة الفعلية في محل رفع صفة ﴿رَسُولٌ﴾. ﴿صُحُفًا﴾: مفعول به. ﴿مُّطَهَّرَةً﴾: صفة ﴿صُحُفًا﴾. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿كُتُبٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿قَيِّمَةٌ﴾: صفة ﴿كُتُبٌ﴾، والجملة الاسمية في محل نصب صفة ﴿صُحُفًا﴾، أو في محل نصب حال منه بعد وصفه بما تقدم، أو في محل نصب حال من الضمير المستتر في ﴿مُّطَهَّرَةً﴾. هذا؛ ويجوز أن يكون النعت، أو الحال الجار، والمجرور فقط، و(كتبٌ) فاعل به. وهو الأحسن. انتهى. سمين.

﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾

الشرح: أي: وما اختلف اليهود، والنصارى في شأن محمد ﷺ إلا بعد ما جاءتهم الحجة الواضحة، الدالة على صدق رسالته، وأنه الرسول الموعود به في كتبهم. وقيل: هو القرآن الجائي به معجزة له. والآية مسوقة لغاية التشنيع على أهل الكتاب خاصة، وتغليظ جناياتهم، ببيان: أن تفرقهم لم يكن إلا بعد وضوح الحق. وتبين الحال، وانقطاع الأعذار بالكلية، كقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ الآية رقم [١٩] من سورة (آل عمران) وإنما خص أهل الكتاب هنا بالذكر؛ لأنهم كانوا يعلمون صحة نبوته، بما يجدون في كتبهم من ذكره. انتهى. صفوة التفاسير.

وفي البيضاوي: هو كقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ رقم [٨٩] سورة (البقرة). وإفراد أهل الكتاب بالذكر بعد الجمع بينهم وبين المشركين، للدلالة على شناعة حالهم. وأنهم لما تفرقوا مع علمهم كان غيرهم بذلك أولى انتهى. بتصرف. وبالجملة فقد تفرق أهل الكتاب فرقاً، وشيعاً كثيرة قبل مبعث محمد ﷺ وبعده. وخذ ما يلي:

عن معاوية ـ رضي الله عنه ـ قال: قام فينا رسول الله ﷺ، فقال: «**أَلا إنَّ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ مِنْ أهلِ الكِتابِ افترقُوا علَى اثْنَتَيْنِ وسبعينَ مِلَّةً، وإن هذهِ الأمةَ سَتَفْتَرِقُ على ثَلاثٍ وسبعينَ، ثنتانِ وسبعونَ في النارِ، وواحدةٌ في الجنةِ، وهي الجماعة**». رواه الإمام أحمد، وأبو داود، وزاد فيه «**وإنه سيَخْرُجُ في أمتي أقوامٌ، تَتَجارَى بهم الأهواءُ، كما يَتَجارَى الْكَلَبُ بصاحبِه، لا يَبْقَى منه**

عِرْقٌ، ولا مَفْصِلٌ إلَّا دخلَهُ». ورواه الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ، وزاد فيه. قالوا: ومن هي يا رسول الله؟! قال: «**مَا أنا عَلَيْهِ وأصْحَابِي**». هذا؛ وفي روايةٍ قال الرسول ﷺ: «**افترقَتِ اليهودُ على إحدَى وسبعينَ فرقةً، وافترقتِ النصارى على اثنتين وسبعينَ، وسَتَفْتَرِقُ هذِه الأمةُ على ثلاثٍ وسَبْعِينَ. . .إلخ**».

هذا؛ وأصول الفرق الإسلامية: ستة: حرورية، قدرية، جهمية، مرجئة، رافضة، جبرية، وانقسم كل منها إلى اثنتي عشرة فرقة، فصارت اثنتين وسبعين، وإنما سموا فرقاً؛ لأنهم فارقوا الإجماع، والحديث الشريف بجميع رواياته معجزة من معجزات الرسول ﷺ؛ لأنه إخبار عن غيب قد وقع بعد وفاة النبي ﷺ. وانظر ما ذكرته في الآية رقم [١٥٣] من سورة (الأنعام) ففيها بحث قيِّم.

وهذا؛ وأصل ﴿أُوتُواْ﴾: «أُوتِيُوا» فاستثقلت الضمة على الياء فحذفت، فالتقى ساكنان: الياء والواو، فحذفت الياء، وبقيت الواو، فصار (أوتِوْا) ثم قلبت الكسرة ضمة لمناسبة الواو.

هذا؛ والكتاب في اللغة: الضم، والجمع، وسميت الجماعة من الجيش: كتيبة؛ لاجتماع أفرادها على رأي واحد، وخطة واحدة، كما سمي الكاتب كاتباً؛ لأنه يضم الكلام بعضه إلى بعضٍ، ويجمعه، ويرتبه، وفي الاصطلاح: اسم لجملة مختصة من العلم، مشتملة على أبواب، وفصول ومسائل غالباً. ورحم الله من يقول في مدح الكتب: [الطويل]

لَنَا جُلَساءُ ما يُمَلُّ حديثُهُمْ ... أَلِبَّاءُ مأمُونُونَ غَيْباً وَمَشْهَدا
يُفيدُونَنَا مِنْ علمِهِمْ عِلْمَ مَا مَضَى ... وعقلاً وتأديباً ورأياً مُسَدَّدَا
فإنْ قُلْتَ أحيَاءٌ فما أنتَ كاذِبٌ ... وَإنْ قلتَ أمواتٌ فَلَسْتَ مُفَنَّدا

وإني أتمثل بقول الآخر: [الخفيف]

ما تَطَعَّمْتُ لَذَّةَ الْعَيْشِ حَتَّى ... صِرْتُ لِلبيتِ والكتابِ جَلِيسَا
لَيْسَ عندي شَيْءٌ أَلَذَّ مِنَ الـ ... عِلْمِ فلَمْ أبتغِ سواهُ أنِيسَا
إنَّما الذلُّ في مخالطةِ النَّا ... سِ فدعْهُمْ وعشْ عزيزاً رئيسَا

ورحم الله من يقول: [الطويل]

وَقَائِلَةٍ أتْلَفْتَ في الكتْبِ مَا حَوَتْ ... يَمينُكَ مِنْ مَالٍ فَقُلْتُ دَعِيني
لَعَلِّي أرَى فيها كِتاباً يَدُلُّني ... لأَخْذِ كِتَابِي في غدٍ بيميني

ورحم الله من يقول: [الوافر]

كِتَابِي فيهِ بُسْتَانِي ورُوحِي ... وفيهِ سَمِيرُ نفْسِي وَالنَّدِيمُ

يُسَالِمني وكلُّ الناسِ حربٌ ويُسْلِيني إذا عرتِ الهُمومُ
ويحيي لي تصفُّحُ صفْحتَيْهِ كِرامَ الناسِ إنْ فُقِدَ الكريمُ
فلي فيهِ طريقُ قومي إذا اعْوجَّتْ عليَّ طريقٌ مُسْتَقِيمُ

وبالجملة: فالكتاب هو نعم الذخر، والعدة، والشغل، والحرفة، جليس لا يضرك، ورفيق لا يَمَلُّك، يطيعك بالليل طاعته بالنهار، ويطيعك في السفر طاعته في الحضر، إن ألفته؛ خلد على الأيام ذكرك، وإن درسته؛ رفع بين الخلائق قدرك.

الإعراب: ﴿وَمَا﴾: الواو: واو الحال، أو حرف استئناف. (ما): نافية. ﴿تَفَرَّقَ﴾: فعل ماض. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع فاعل، والجملة الفعلية في محل نصب حال من ﴿كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ والرابط: الواو فقط، أو هي مستأنفة، وهو الأقوى. ﴿أُوتُوا۟﴾: فعل ماض مبني للمجهول مبني على الضم، والواو نائب فاعله، وهو المفعول به الأول. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال مستثنىً من عموم الأحوال. ﴿مَا﴾: مصدرية. ﴿جَآءَتْهُمُ﴾: فعل ماض، والهاء مفعول به، والتاء للتأنيث حرف لا محل له. ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾: فاعله، و﴿مَا﴾ والفعل (جاء) في تأويل مصدر في محل جر بإضافة ﴿بَعْدِ﴾ إليه.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾

الشرح: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟﴾ أي: أمر الذين تفرقوا بشأن محمد ﷺ وهم: اليهود، والنصارى أمروا في التوراة، والإنجيل. ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: أن يعبدوا الله، ويوحدوه وحده، ولا يشركوا معه أحداً في العبادة، ويخلصوا له في الطاعة. ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾: انظر ﴿ٱلدِّينَ﴾ في الآية رقم [١٧] من سورة (الانفطار). هذا؛ والعبادة: غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال، وهو الله تعالى، ولذا يحرم السجود لغير الله تعالى. وقيل: العبودية أربعة: الوفاء بالعهود، والرضا بالموجود، والحفظ للحدود، والصبر على المفقود، وعن النبي ﷺ قال: يقول الله عز وجل: «**أَنَا والإِنْسُ في نَبَأٍ عظيمٍ! أَخْلُقُ ويُعْبَد غيري، وأرزقُ؛ ويُشْكَرُ غيري**». هذا؛ وقد أمر الله بالإخلاص؛ لأنه رأس العبادات في التوحيد، واتباع الأوامر، واجتناب النواهي، كيف لا وقد قال الله تبارك وتعالى في سورة (الزمر) رقم [٣]: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ﴾ أي: من الشرك والرياء والنفاق. وقال جل ذكره في سورة (غافر) رقم [١٤]: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ وخذ من قول الرسول ﷺ ما يلي:

فعن أنس ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ فَارَقَ الدنيا على الإخْلاصِ لله وحْدَهُ لَا شَريكَ لَهُ، وأقامَ الصلاةَ، وآتى الزكاةَ؛ فارقَها؛ والله عَنْهُ رَاضٍ**». رواه ابن ماجه، والحاكم.

وعن ثوبان ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**طُوبى لِلْمُخْلصِينَ، أُولئِكَ مَصَابِيحُ الْهُدى تَنْجَلِي عنهم كلُّ فِتْنَةٍ ظلماءَ**». رواه البيهقي. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ أخْلَصَ لله أربعينَ يوماً ظهرتْ ينابيعُ الحكمةِ مِنْ قلبِهِ على لسانِهِ**». رواه ابن حبان. وحذر الرسول ﷺ من الرياء وخذ ما يلي:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ تزيَّنَ بعملِ الآخِرَةِ وهو لَا يريدُها، ولا يطلُبها لُعِنَ في السمواتِ والأرض**». رواه الطبراني في الأوسط، وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «**يخْرج في آخر الزمانِ رجالٌ يختلونَ الدُّنيَا بالدين، يلبسون للناسِ جلودَ الضأنِ من الِّلينِ، ألسنتُهُمْ أحْلَىَ مِنَ العسلِ، وقُلُوبهُم قلوبُ الذئابِ. يقول الله عز وجل: أبي يَفْتَرُّونَ أمْ عليَّ يجترئون؟ فبِي حَلَفْتُ لأبعثنَّ على أولئِكَ مِنْهُمْ فتنةً تدعُ الحليمَ حَيْرَانَ**». رواه الترمذي. والأحاديث في ذلك في الترغيب والترهيب للحافظ المنذري ـ رحمه الله تعالى ـ كثيرة.

﴿حُنَفَآءَ﴾: مسلمين. وقيل: مخلصين. وهو جمع، مفرده: حنيف. وتكرر الكلام على إبراهيم ـ على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ بأنه كان حنيفاً، وفسر بحقه بأنه مائل عن كل دين باطل إلى دين الحق. قال الشاعر: [الوافر]

ولَكِنَّا خُلِقْنَا إذْ خُلِقْنَا حَنيفاً دينُنَا عَنْ كُلِّ دينِ

هذا؛ والحنف: الميل في القدمين. هذا؛ وقال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: ولفظة «حنفاء» من الأضداد تقع على الاستقامة، وعلى الميل. أقول: وهذا يكون بالمعنى المأخوذ منه، وهو الميل، وقد ذكرت لك فيما مضى: أن الفعل: مَالَ يتغير معناه بتغير الجار تقول: ملت إليه، وملت عنه.

وفي الخطيب: ﴿حُنَفَآءَ﴾: مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام، وأصل الحنف في اللغة الميل، وخصه العرب بالميل إلى الخير، وسمَّوا الميل إلى الشر إلحاداً، والحنيف المطلق هو الذي يكون متبرئاً عن أصول الملل الخمسة: اليهود، والنصارى، والصابئين، والمجوس، والمشركين، وعن فروعها من جميع النحل إلى الاعتقادات، وعن توابعها من الخطأ، والنسيان إلى العمل الصالح، وهو مقام التقى، وعن المكروهات إلى المستحبات، وهو المقام الأول من الورع، وعن الفضول شفقة على خلق الله، وهو ما لا يعني إلى ما يعني، وهو المقام الثاني من الورع، وعما يجر إلى الفضول، وهو مقام الزهد، فالآية جامعة لمقامي الإخلاص الناظر أحدها إلى الحق، والثاني إلى الخلق. انتهى.

وفي الرازي: واعلم: أن الكمال في كل شيء إنَّما يحصل إذا حصل الأصل، والفرع معاً. فقوم بالغوا بالأعمال التي هي الفروع، ولم يحكموا الأصول، وهم اليهود، والنصارى،

والمجوس، وقوم حصَّلوا الأصول دون الفروع. وهم المرجئة؛ الذين قالوا: لا يضر الذنب مع الإيمان. والله خطَّأ الفريقين في هذه الآية، وبين أنه لا بدَّ من الإخلاص في قوله: ﴿مُخْلِصِينَ﴾ ولا بدَّ من العمل في قوله: ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ انتهى. كله من الجمل.

﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ أي: يؤدوها على الوجه الأكمل من إتمام ركوعها، وسجودها، وخشوعها، وطهارتها في أوقاتها. ومن لم يؤدها على الوجه الأكمل يقال: صلى، ولا يقال: أدى الصلاة. ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ أي: يعطوها لمستحقيها كاملة في آخر حولها. ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ أي: الملة المستقيمة، والشريعة المتبوعة. والإشارة إلى الإخلاص، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة. وإنما أضاف (الدين) إلى ﴿الْقَيِّمَةِ﴾، وهي نعته لاختلاف اللفظين، وأنث ﴿الْقَيِّمَةِ﴾ رداً إلى الملة. وقيل: الهاء في ﴿الْقَيِّمَةِ﴾ للمبالغة كعلامة. وقيل: (القيمة): الكتب التي جرى ذكرها؛ أي: وذلك دين أصحاب الكتب القيمة. وقيل: ﴿الْقَيِّمَةِ﴾ جمع: القيم، والقيم والقائم: واحد. قال تعالى في سورة (يوسف) رقم [٤٠]، وفي سورة (التوبة) رقم [٣٦] وفي سورة (الروم) رقم [٣٠]: ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ ومعنى ﴿الْقَيِّمُ﴾ المستقيم الذي لا اعوجاج فيه. وانظر سورة (الكهف) رقم [٢] وانظر شرح ﴿الصَّلَوٰةَ﴾ و﴿الزَّكَوٰةَ﴾ في الآية رقم [١٣] من سورة (المجادلة).

هذا؛ وأصل (يقيمون): «يُؤَقْوِمُون» حذفت الهمزة للتخفيف، حملاً على المبدوء بهمزة المضارعة، مثل أُأَقْوِم الذي حذفت همزته الثانية للتخلص من ثقل الهمزتين، فصار: (يُقْوِمُون) ثم يقال في إعلاله: اجتمع معنا حرف صحيح ساكن، وحرف علة متحرك، والحرف الصحيح أولى بالحركة من حرف العلة، فنقلت حركة الواو، وهي الكسرة إلى القاف قبلها، فصار: (يُقِوْمون) ثم قلبت الواو ياءً لانكسار ما قبلها، وهذا الإعلال يجري في كل فعل ثلاثي، مزيدة الهمزة في أوله، مثل: أجاب يجيب، وأكرمَ يكرِمُ... إلخ، كما حذفت الهمزة الثانية من يؤمنون؛ لأن ماضيه آمن، وأصله: أأمن والمضارع يُؤأْمِن، فحذفت من الأول، وتسهل في الثاني، وقد يجيء على القياس، وهو الأصل المهجور، كما في الثاني، كما في قول أبي حيان الفقعسي: [الرجز]

فَــــإِنَّــــهُ أَهْــــلٌ لِأَنْ يُــــؤَكْــــرَمَــــا

ولا تنس: أن هذه الهمزة المزيدة، تحذف من اسمي الفاعل، والمفعول المأخوذين من الفعل الثلاثي المزيدة فيه الهمزة، وذلك مثل: مكرِم، ومكرَم، والقياس مؤكرِم ومؤكرَم، وقس على ذلك، وأصل (يؤتون): (يُؤَأْتون)؛ لأن الماضي: آتى، فحذفت الهمزة لثقل الهمزتين، فصار: (يؤتون).

الإعراب: ﴿وَمَا﴾: الواو: واو الحال. (ما): نافية. ﴿أُمِرُوا﴾: فعل ماض مبني للمجهول مبني على الضم، والواو نائب فاعله، وهو المفعول الأول. وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٦] من

سورة (المنافقون). ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿لِيَعْبُدُوا﴾: فعل مضارع منصوب بـ: «أن» مضمرة بعد لام التعليل، وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، و«أن» المضمرة بعد لام التعليل والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر باللام، والجار، والمجرور متعلقان بالفعل ﴿أُمِرُوا﴾ وهما في محل نصب مفعوله الثاني. هذا؛ ويجوز اعتبار اللام صلة، والمصدر المؤول في محل نصب مفعول به ثان محلاً، وفي محل جر لفظاً باللام، وهناك قول ثالث: أن اللام بمعنى: «أن» الناصبة، وأنها ناصبة للفعل بنفسها. قال الفراء: العرب تجعل لام كي في موضع «أن» في (أراد، وأمر). وإليه ذهب الكسائي أيضاً. هذا؛ ومثل هذه الآية قوله تعالى في سورة (النساء) رقم [٢٦]: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾، والآية رقم [٧١] من سورة (الأنعام): ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والآية رقم [٨] من سورة (الصف): ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾، وأيضاً الآية رقم [٣٣] من سورة (الأحزاب). ومثل ذلك كله قول كثير عزة ـ وهو الشاهد رقم [٣٩٤] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الطويل]

أريدُ لِأنسى ذكرَهَا فكأنَّما تَمثَّلُ لي ليلى بكلِّ سبيلِ

﴿اللَّهَ﴾: منصوب على التعظيم. ﴿مُخْلِصِينَ﴾: حال من واو الجماعة منصوب، وعلامة نصبه الياء... إلخ، وفاعله مستتر فيه. ﴿لَهُ﴾: جار ومجرور متعلقان به. ﴿الدِّينَ﴾: مفعول به لـ: ﴿مُخْلِصِينَ﴾. ﴿حُنَفَاءَ﴾: حال ثانية، أو حال من الضمير المستتر بـ: ﴿مُخْلِصِينَ﴾ فهي حال متداخلة. ﴿وَيُقِيمُوا﴾ و﴿وَيُؤْتُوا﴾: معطوفان على (يعبدوا) منصوبان مثله. ﴿الصَّلَاةَ﴾ و ﴿الزَّكَاةَ﴾: مفعول بهما. ﴿وَذَلِكَ﴾: الواو: حرف استئناف. (ذلك): اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿دِينُ﴾: خبره، وهو مضاف، و﴿الْقَيِّمَةِ﴾: مضاف إليه، وهناك صفة محذوفة، التقدير: دين الملة القيمة، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها. وقيل: في محل نصب حال. ولا وجه له.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦)﴾

الشرح: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ إلخ: هذا شروع في بيان مقر الأشقياء، وجزاء السعداء، وحكم على الكفار من الفريقين بأمرين: الخلود في النار، وكونهم شرَّ البرية، وبدأ بأهل الكتاب؛ لأنهم كانوا يطعنون في نبوة النبي ﷺ، فجنايتهم أعظم؛ لأنهم أنكروه مع العلم به في كتبهم، و﴿شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ ظاهره العموم. وقيل: شر البرية الذين عاصروا الرسول ﷺ؛ إذ لا يبعد أن يكون في كفار الأمم من هو شر من هؤلاء، كفرعون، وعاقر ناقة صالح، على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام. انتهى. جمل.

وقال الخازن: فإن قلت: إن المشركين أعظم جناية من أهل الكتاب؛ لأن المشركين أنكروا الصانع، والنبوة، والقيام، وأهل الكتاب اعترفوا بذلك غير أنهم أنكروا نبوة محمد ﷺ، وإذا كان كذلك؛ كان كفرهم أخفَّ. فَلِمَ سوَّى بين الفريقين في العذاب؟! قلت: لما أراد أهل الكتاب الرفعة في الدنيا بإنكارهم نبوة محمد ﷺ؛ أذلهم الله في الدنيا، وأدخلهم أسفل سافلين في الآخرة، ولا يمنع من دخولهم النار مع المشركين أن تتفاوت مراتبهم في العذاب. انتهى.

﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ أي: هم شر الخلق. والمعنى: أنهم لما استحقوا النار بسبب كفرهم. قالوا: فهَلْ إلَى خُرُوجٍ من سبيلٍ؟ فقال لهم: بل تبقون خالدين فيها، فكأنهم قالوا: لم ذلك؟ قال: لأنكم شر البرية.

هذا؛ وانظر شرح ﴿خَيْرٌ﴾ و﴿شَرٌّ﴾ في سورة (الضحى) رقم [٤]. هذا؛ والبرية: الخلق، والجمع: البرايا، وفيها لغتان: الهمز: (البريئة) وتركه: (البرية) فمن همزها أخذها من: برأ الله الخلق؛ أي: خلقهم، فبنى «فعيلة» من ذلك، وهي بمعنى مفعولة، ومن لم يهمزها؛ كان له مذهبان: أحدهما: أن يقول: هي «فعيلة» من بريت، أبري، والثاني أن يقول: هي «فعيلة» من: برأ الله الخلق، بنيت على ترك الهمز. كما بنيت الخابية على ذلك، وهي من: خبأت. هذا؛ وقرأ نافع بالهمز في هذه السورة اللفظين، والقراءة بترك الهمز وتشديد الياء نشأت من قلب الهمزة ياء، وإدغامها في الياء الساكنة.

فائدة: لم يقل جل ذكره في هذه الآية: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ كما قال بعد في صفة أهل الثواب؛ لأن رحمة الله أزيد من غضبه، فلم يتفق الخلودان في الأبدية، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿الَّذِينَ﴾: اسمها. ﴿كَفَرُوا﴾: فعل ماض، وفاعله، والألف للتفريق، والمتعلق محذوف. التقدير: كفروا بالله، وبرسوله، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿مِنْ أَهْلِ﴾: متعلقان بمحذوف حال من واو الجماعة، و﴿أَهْلِ﴾: مضاف، و﴿الْكِتَابِ﴾: مضاف إليه. ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾: الواو: حرف عطف. (المشركين): معطوف على ما قبله. وقيل: معطوف على اسم ﴿إِنَّ﴾. ﴿فِي نَارِ﴾: متعلقان بمحذوف خبر ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها، و﴿نَارِ﴾: مضاف، و﴿جَهَنَّمَ﴾: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية، والعجمة. ﴿خَالِدِينَ﴾: حال من واو الجماعة منصوب. . .إلخ. وقال أبو البقاء: حال من الضمير في الخبر. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: ﴿خَالِدِينَ﴾، وفاعله مستتر فيه. ﴿أُولَئِكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ أول، والكاف حرف خطاب، لا محل له. ﴿هُمْ شَرُّ﴾: مبتدأ، وخبر، والجملة الاسمية في محل رفع خبر المبتدأ الأول، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها، و﴿شَرُّ﴾: مضاف، و﴿الْبَرِيَّةِ﴾: مضاف إليه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧﴾

الشرح: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: إن المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان وصالح الأعمال هم خير الخليقة التي خلقها الله، وبرأها، فهم بسبب أعمالهم الصالحة، واجتنابهم الشرك، والأعمال القبيحة استحقوا أن يكونوا خير البرية. والخيرية يقال فيها ما قيل بقوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [٤٧]: ﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ولا تنس المقابلة بين الآية، وسابقتها.

الإعراب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: انظر الآية السابقة. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾: انظر الآية السابقة أيضاً، والجملة الاسمية في محل رفع خبر ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾

الشرح: ﴿جَزَآؤُهُمۡ﴾ أي: ثواب الذين آمنوا، وعملوا الصالحات. ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ أي: مدخر عند ربهم، والعندية عندية تشريف، وتكريم، لا عندية مكان. ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾: جنات إقامة، وخلود، يقال: عدن بالمكان: أقام فيه، ومنه: المعدن الموجود في باطن الأرض. وقال النبي ﷺ: «**عدْنٌ دارُ الله التي لم ترها عين قطُّ، ولم تخطر على قلبِ بشر، لا يسكنها إلا ثلاثةٌ: النبيون، والصدِّيقون، والشهداءُ، يقول الله تعالى: طوبَى لِمَنْ دَخَلَكِ**». رواه الطبراني عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ. وقال عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: إن في الجنة قصراً، يقال له: عدْنٌ، حوله البروجُ، والمروجُ، فيه خمسةُ آلاف بابٍ، على كل بابٍ خمسة آلافِ حَبَرَة، لا يدخله إلا نبي، أو صديقٌ، أو شهيدٌ. والحبرة بكسر الحاء وفتحها: ضرب من البرود اليمنية مخطط. وروي: أن عمر الفاروق ـ رضي الله عنه ـ قال لكعب الأحبار: ما جنات عدن؟ قال: قصور من ذهب في الجنة يدخلها النبيون، والصديقون، والشهداء، وأئمة العدل.

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا﴾ أي: من تحت قصورها، وبين أشجارها. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾: مقيمون لا يبرحون منها، لا يظعنون، ولا يموتون، ولا يهرمون. هذا؛ والأبد: الزمان الطويل؛ الذي ليس له حد، فإذا قلت: لا أكلمك أبداً، فالأبد من وقت التكلم إلى آخر العمر.

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ أي: قبل الله أعمالهم، فرضي عنهم، ونالوا ثوابه، فرضوا بما أعطاهم. وقال محمد بن الفضل: الروح، والراحة في الرضا، واليقين، والرضا باب الله الأعظم، ومحل استرواح العابدين. هذا؛ ولقد تكرر رضا الله عن عباده، ورضا عباده عنه في

القرآن الكريم، ويجدر بي أن أقول: إن رضا الله عن العبد موقوف على رضا العبد عن الله تعالى، وفحوى هذا: أن العبد إذا رضي بكل شيء يصيبه في دنياه من صحة، أو مرض، أو غنى، أو فقر، فيكون راضياً عن الله تعالى، فالله يثيبه رضاه؛ أي: رحمته وعفوه، وجوده، وإحسانه، فعليه: من أحب أن يعرف منزلته عند الله تعالى؛ فلينظر منزلة الله عنده، فإن الله تعالى ينزل العبد منه حيث أنزله العبد من نفسه، والدواء الشافي هو الرضا بقضاء الله، وقدره في كل ما يصيب المؤمن في دنياه. وخذ جرعة من هذا الدواء على لسان سيد الأنبياء ﷺ: «**انظروا إلى مَنْ هُوَ أسفلُ مِنكمْ، ولا تَنْظُرُوا إلى مَنْ هو فوقكمْ، فهوَ أجدرُ أن لا تزدرُوا نعمةَ الله عليكم**». رواه الإمام مسلم، وغيره عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، وخذ ما يلي:

قال أبو زيد ـ رحمه الله تعالى ـ: غلطت في أربعة أشياء في الابتداء مع الله تعالى: ظننت أني أحبه، فإذا هو قد أحبني. قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾. وظننت: أني أرضى عنه فإذا هو قد رضي عني. قال تعالى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ وظننت: أني أذكره، فإذا هو يذكرني قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾. وظننت: أني أتوب إليه، فإذا هو قد تاب عليّ. قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: المذكور من الجزاء، والرضوان. ﴿لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ أي: خاف ربه، فتناهى عن المعاصي، فإن الخشية ملاك الأمر، والباعث على كل خير. هذا؛ والخشية: خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، وهو المراد منه بخشية عباد الله المؤمنين المتكررة في القرآن الكريم، والفعل: خشي، يخشى: والمصدر: خشية، والرجل خشيانُ، والمرأة خشيَا، وهذا المكان أخشى من ذلك؛ أي: أشد خوفاً. هذا؛ وقد يأتي الفعل خشي بمعنى: علم القلبية. قال الشاعر المسلم: [الكامل]

وَلَقَدْ خَشِيتُ بأنَّ مَن تبع الهدَى سَكَنَ الجنانَ مَعَ النبيِّ مُحَمَّدِ

(قالوا): معناه: علمت. وقوله تعالى في سورة (الكهف) رقم [٨١]: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾. قال الأخفش: معناه: كرهنا. والله أعلم.

خاتمة: عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ «**ألا أخبركم بخير البرية؟**». قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «**رجلٌ أخذ بعنانِ فرسِهِ في سبيلِ الله، كلَّما كانتْ هيعةٌ؛ استوى عليه. ألا أخبركم بخير البرية؟**». قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «**رجلٌ في ثلة من غنمه يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة. ألا أخبركم بِشَرِّ البرية؟**». قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «**الذي يُسأل بالله، ولا يعطي به**». أخرجه أحمد.

الإعراب: ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾: مبتدأ، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿عِندَ﴾: ظرف مكان متعلق بالمصدر ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ وقيل: متعلق بمحذوف حال منه، وكثير من النحويين لا يجيزون مجيء

الحال من المبتدأ، انظر ما ذكرته في الآية رقم [٥٣] من سورة (النحل)، و﴿عِندَ﴾ مضاف، و﴿رَبِّهِمْ﴾ مضاف إليه، والهاء في محل جر بالإضافة؛ من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿جَنَّٰتُ﴾: خبر المبتدأ، وهو مضاف، و﴿عَدْنٍ﴾ مضاف إليه، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها. ﴿تَجْرِى﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل. ﴿مِن تَحْتِهَا﴾: متعلقان بما قبلهما و(ها): في محل جر بالإضافة. ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: فاعل ﴿تَجْرِى﴾، والجملة الفعلية في محل نصب حال من ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾. ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال عامله محذوف، التقدير: دخلوها، أو أعطوها خالدين، وفاعله مستتر فيه. ﴿فِيهَآ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: ﴿خَٰلِدِينَ﴾. ﴿أَبَدًا﴾: ظرف زمان متعلق بـ: ﴿خَٰلِدِينَ﴾ أيضاً.

﴿رَّضِىَ﴾: فعل ماض. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿عَنْهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها، وأجيز اعتبارها خبراً ثانياً للمبتدأ، وحالاً من الضمير المجرور محلاً بالإضافة وقد قبلها مقدرة. والتي بعدها معطوفة عليها لا محل لها مثلها. ﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب، لا محل له. ﴿لِمَنْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل له. ﴿خَشِىَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (مَنْ) وهو العائد. ﴿رَبَّهُۥ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم. وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

انتهت سورة (البينة) شرحاً، وإعراباً.

والحمد لله رب العالمين.

سورة الزلزلة

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة (الزلزلة) مدنية في قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ومكية في قول ابن مسعود، وعطاء، وجابر ـ رضي الله عنهم ـ وهي ثمان آيات، وخمس، وثلاثون كلمةً، ومئة، وتسعة، وأربعون حرفاً. وهذه السورة فضلها كثير، وتحتوي على عظيم. روى الترمذي عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ **«مَنْ قَرأَ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ عدلتْ لهُ بنصف القرآن، ومن قرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ عدلت له بربع القرآن، ومن قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ عدلت له بثلث القرآن»**. وقال: حديث غريب.

وروى عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ قال: لما نزلت ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ...﴾ إلخ؛ بكى أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ فقال النبي ﷺ: **«لَوْلَا أنكُمْ تُخْطِئُونَ، وَتُذْنِبُونَ، ويغفرُ الله لكمْ؛ لَخَلَقَ اللهُ أمةً يخطئون، ويذنبونَ، فيغْفِرُ لَهُمْ، إنهُ هو الغفُورُ الرَّحيمُ»**

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه: **«هل تزوجتَ يا فلانُ؟»**. قال: لا والله يا رسول الله! ولا عندي ما أتزوجُ به! قال: **«أليسَ مَعَكَ قُلْ هوَ اللهُ أحدٌ؟»**. قال: بلى! قال: **«ثلث القرآن»**. قال: **«أليسَ مَعَكَ إذا جاءَ نَصْرُ الله والفَتْحُ؟»**. قال: بلى! قال: **«ربع القرآن»**. قال: **«أليسَ معكَ يا أيُّها الكافِرونَ؟»**. قال: بلى! قال: **«ربع القرآن»**. قال: **«أليسَ مَعَكَ إذَا زُلْزِلَتِ الأرضُ؟»**. قال: بلى. قال: **«ربع القرآنِ تَزَوَّجْ»**. أخرجه الترمذي. وانظر ما ذكرته في سورة (الكافرون).

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾﴾

الشرح: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أي: تحركت حركة شديدة، واضطربت، وذلك عند قيام الساعة. قيل: تزلزلت من شدة صوت إسرافيل؛ حتى يتكسر كل ما عليها من شدة الزلزلة، ولا تسكن؛ حتى تلقي ما على ظهرها من جبل، وشجر، وبناء. وفي وقت هذه الزلزلة قولان: أحدهما، (وهو قول الأكثرين): أنها في الدنيا، وهي من أشراط الساعة. والثاني: أنها زلزلة

يوم القيامة. ويعين القول الثاني قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ فإن الإخراج إنما هو في النفخة الثانية، وكذا شهادتها بما وقع عليها إنما هو بعد النفخة الثانية، وكذلك انصراف الناس من الموقف إنما يكون بعد الثانية. تأمل. انتهى. جمل. ولا تنس قوله تعالى في سورة (الحج) رقم [١]: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾. هذا؛ و﴿زِلْزَالَهَا﴾ بكسر الزاي ويقرأ بفتحها مثل: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾ ونحوه.

﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾: إظهار الأرض في موضع الإضمار لزيادة التقرير، فمن قال: إن الزلزلة تكون في الدنيا؛ قال: ﴿أَثْقَالَهَا﴾: كنوزها، وما في باطنها من الدفائن، والأموال، فتلقيها على ظهرها. يدل على صحة هذا القول ما روي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**تَقِيءُ الأرضُ أفلاذَ كبدِها أمثالَ الأسطوان من الذهبِ، والفضةِ، فيجيءُ القاتلُ، فيقولُ: في هَذا قطعتْ يدي، ثم يَدَعُونَهُ، فلا يأخذونَ مِنهُ شيئاً**». أخرجه مسلم.

والأفلاذ: جمع فلذة، وهي القطعة المستطيلة، شبه ما يخرج من باطنها بأقطاع كبدها؛ لأن الكبد مستور في الجوف، وإنما خص الكبد؛ لأنها من أطيب ما يشوى عند العرب من الجذور، واستعار القيء للإخراج، ومن قال بأن الزلزلة تكون يوم القيامة؛ قال: ﴿أَثْقَالَهَا﴾: الموتى، فتخرجهم إلى ظهرها. قيل: إن الميت إذا كان في باطن الأرض فهو ثقل لها، وإذا كان فوقها فهو ثقل عليها، ومنه قيل للإنس، والجن: الثقلان؛ لأن الأرض تثقل بهم أحياءً، وأمواتاً، قالت الخنساء ـ رضي الله عنها ـ: [المتقارب]

أبَعْدَ ابنِ عَمْروٍ مِنَ آلِ الشَّرِ ... يدِ حَلَّتْ بهِ الأرضُ أَثْقَالَهَا؟

هذا؛ ووصفت الأرض بالإخراج توسعاً، ومجازاً، وفي الحقيقة: أن المخرج لما ذكر هو الله تعالى. وانظر قوله تعالى في سورة (الانشقاق): ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾ أي: ما لها تزلزلت هذه الزلزلة العظيمة، ولفظت ما في بطنها؟! وفي الإنسان وجهان: أحدهما: أنه اسم جنس، يعم المؤمن، والكافر. وهذا على قول من جعل الزلزلة من أشراط الساعة، والمعنى: أنها حين وقعت لم يعلم الكافر: أنها من أشراط الساعة، فيسأل بعضهم بعضاً عن ذلك. والثاني: اسم للكافر خاصة، وهذا على قول من جعلها زلزلة القيامة؛ لأن المؤمن عارف بها، فلا يسأل عنها، والكافر جاحد لها، فإذا وقعت؛ سأل عنها، انتهى. خازن.

وجملة القول: إن الناس يستنكرون أمر الأرض بعد أن كانت قارة ساكنة ثابتة؛ وهم مستقرون على ظهرها؛ حيث تقلبت الحال، فصارت متحركة مضطربة قد جاءها من أمر الله تعالى ما قد أعده لها من الزلزال الذي لا محيد لها عنه، ثم ألقت ما في بطنها من الأموات من الأولين، والآخرين، وحينئذ استنكر الناس أمرها ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ

﴿ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ رقم [٤٨] من سورة (إبراهيم) على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام انتهى. مختصر ابن كثير.

بعد هذا، فإن الكافر يقول كما حكى الله قوله: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ سورة (يس) رقم [٥٢]. وأما المؤمن فإنه يقول كما حكى الله قوله: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ رقم [٥٢] من سورة (يس) والله أعلم بمراده، ولا تنس: أن التعبير بالماضي عن المستقبل إنما هو لتحقق الوقوع.

الإعراب: ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك مبني على السكون في محل نصب. ﴿زُلْزِلَتِ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، والتاء للتأنيث، ﴿ٱلْأَرْضُ﴾: نائب فاعل، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على المشهور المرجوح. ﴿زِلْزَالَهَا﴾: مفعول مطلق، والهاء في محل جر بالإضافة من إضافة المصدر لفاعله، وحسن إضافة المصدر للضمير؛ لتتفق رؤوس الآي على لفظ واحد. ﴿وَأَخْرَجَتِ﴾: الواو: حرف عطف. (أخرجت): فعل ماض، والتاء للتأنيث. ﴿ٱلْأَرْضُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿أَثْقَالَهَا﴾: مفعول به، و(ها) في محل جر بالإضافة. ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾: ماض، وفاعله. ﴿مَا﴾: اسم استفهام، وتعجب مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿لَهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿وَقَالَ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، فهي في محل جر أيضاً.

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾

الشرح: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم تخرج الأرض أثقالها. ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ أي: إن الأرض تحدث؛ أي: تشهد بكل ما عمل العبد على ظهرها من خير، أو شر، فتشكو العاصي، وتشهد عليه، وتشكر الطائع، وتشهد له. فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ؛ قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قال: «**أتدْرُونَ ما أَخْبَارُهَا؟**». قالوا: الله ورسولهُ أعلمُ. قال: «**فإنَّ أخبارَهَا أنْ تشهَدَ عَلَى كلِّ عَبْدٍ، أوْ أمةٍ بما عمِل على ظهرِها، تقولُ: عمِل كذا، وكَذَا**». رواه أحمد، والترمذي، وصححه. وكذا الحاكم، وغيره.

وعن ربيعة الجرشي ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «**استَقِيمُوا؛ ونِعِمَّا إن استقمتُمْ، وحافِظُوا على الوضُوءِ، فإنّ خيرَ أعمالِكُمُ الصلاةُ، وتحفَّظُوا مِنَ الأرضِ، فإنهَا أمُّكمْ، وإنهُ لَيْسَ أحدٌ عاملٌ عليها خيْراً، أو شراً إلّا وهي مخبرةٌ به**». رواه الطبراني في الكبير.

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾: أمرها بالكلام، وأذن لها أن تخبر بما عمل عليها. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ قيل: إن الله تعالى يخلق في الأرض الحياة، والعقل، والنطق؛ حتى تخبر بما أمر الله به. وهذا مذهب أهل السنة، انتهى. خازن.

وقال الجمل: الظاهر: أنه تحديث، وكلام حقيقي بأن يخلق الله فيها حياةً، وإدراكاً فتشهد بما عمل عليها من صالح، وطالح. وقيل: التحديث مجاز عن إحداث الله فيها من الأحوال ما يقوم مقام التحديث باللسان. وانظر ما ذكرته في الآية رقم [١١] من سورة (فصلت)، تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾: التنوين ينوب عن جملة محذوفة دلت عليها الغاية؛ أي: يوم تخرج الأرض أثقالها، و(إذ) مضافة لهذه الجملة، فحذفت الجملة الفعلية، وعوض عنها التنوين، وكسرت الذال لالتقاء الساكنين. كما كسرت الهاء في: صهٍ، ومهٍ عند تنوينهما، ومثل ذلك قل في: حينئذ، وساعتئذٍ، ونحوهما، و(إذ) في الأصل ظرف لما مضى من الزمان. وأتت في هذه الآية والتي بعدها لما يستقبل بدليل قوله تعالى قبلهما: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾.

الإعراب: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: بدل من ﴿إِذَا﴾، والعامل فيه هو العامل في المبدل منه. وأجاز الزمخشري تعليقه بما بعده، و(إذ) مبني على السكون في محل جر بالإضافة. ﴿تُحَدِّثُ﴾: فعل مضارع، والفاعل مستتر يعود إلى ﴿ٱلْأَرْضُ﴾. ﴿أَخْبَارَهَا﴾: مفعول به، و(ها) في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية جواب (إذ) لا محل لها. ﴿بِأَنَّ﴾: الباء: حرف جر. (أن): حرف مشبه بالفعل. ﴿رَبَّكَ﴾: اسم (إنّ)، والكاف في محل جر بالإضافة من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿أَوْحَىٰ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف، والفاعل يعود إلى ﴿رَبَّكَ﴾. ﴿لَهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (أنَّ)، و(أنَّ) واسمها، وخبرها في تأويل مصدر في محل جر بالباء، والجار، والمجرور متعلقان بالفعل ﴿تُحَدِّثُ﴾، وأجاز الزمخشري اعتبارهما بدلاً من ﴿أَخْبَارَهَا﴾ كأنه قيل: يومئذ تحدث بأخبارها بأن ربك أوحى لها.

هذا؛ والفعل حدث، يحدث يتعدى إلى مفعولين: الأول منهما محذوف، التقدير: تحدث الناس. والثاني ﴿أَخْبَارَهَا﴾ ويتعدى للثاني تارة بنفسه كما هنا، وتارة بحرف الجر، تقول: حدثته كذا، وحدثته بكذا.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾﴾

الشرح: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: يوم تقع الزلزلة، وتخرج الأرض أثقالها. ﴿يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ﴾: ينصرفون من موقف الحساب بعد العرض. ﴿أَشْتَاتًا﴾: متفرقين، فآخذ ذات اليمين إلى الجنة، وآخذ ذات الشمال إلى النار، وأشتاتاً جمع: شَتّ. ﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يعني: ثواب أعمالهم. وهذا كما روي عن النبي ﷺ: أنه قال: «**ما من أحد يوم القيامة إلا ويلوم نفسه، فإن كان محسناً؛ فيقول: لِمَ لا ازددت إحساناً؟ وإن كان غير ذلك؛ يقول: لم لا نزعت عن المعاصي؟**»

وهذا عند معاينة الثواب، والعقاب. هذا؛ وقيل: هذا الصدور إنما هو عند النشور، يصدرون أشتاتاً من القبور، فيصار بهم إلى موقف الحساب؛ ليروا أعمالهم في كتبهم، أو ليروا جزاء أعمالهم، فكأنهم وردوا القبور. فدفنوا فيها، ثم صدروا عنها. والوارد الجائي، والصادر: المنصرف. هذا؛ وقيل: ﴿أَشْتَاتًا﴾ بيض الوجوه، آمنين، وسود الوجوه فزعين.

الإعراب: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: بدل من سابقه، أو هو منصوب بـ: ﴿يَصْدُرُ﴾ بعده، أو هو متعلق بمحذوف تقديره: اذكر. ﴿يَصْدُرُ﴾: مضارع. ﴿النَّاسُ﴾: فاعله. ﴿أَشْتَاتًا﴾: حال من الناس. والجملة الفعلية فيها معنى البدلية من جملة: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ فهي من جملة جواب ﴿إِذَا﴾. ﴿لِيُرَوْا﴾: فعل مضارع مبني للمجهول منصوب بـ: «أن» مضمرة بعد لام التعليل، وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو نائب فاعله، وهو المفعول الأول، والألف للتفريق. ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾: مفعول به ثان، والهاء في محل جر بالإضافة، و«أن» المضمرة والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر باللام، والجار، والمجرور متعلقان بالفعل ﴿يَصْدُرُ﴾.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾

الشرح: قال مقاتل ـ رحمه الله تعالى ـ: نزلت الآيتان في رجلين، وذلك: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ...﴾ إلخ رقم [٤] من سورة (الدهر) كان أحدهم يأتيه السائل، فيستقل أن يعطيه التمرة، والكسرة، والجوزة، وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير، كالكذبة، والغيبة، والنظرة، ويقول: إنما أوعد الله النار على الكبائر. فنزلت لترغيبهم في القليل من الخير يعطونه، فإنه يوشك أن يكثر، ويحذرهم اليسير من الذنب، فإنه يوشك أن يكثر. وقاله سعيد بن جبير ـ رضي الله عنه ـ. والإثم الصغير في عين صاحبه يوم القيامة أعظم من الجبال، وجميع محاسنه أقل في عينه من كل شيء. وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: هذه الآية أحكم آية في القرآن، وأصدق، وقد اتفق العلماء على عموم هذه الآية. وقال كعب الأحبار: لقد أُنزل على محمد ﷺ آيتان أحصتا ما في التوراة، والإنجيل، والزبور، والصحف: ﴿فَمَن يَعْمَلْ...﴾ إلخ.

وكان ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يقول: من يعمل من الكفار مثقال ذرة خيراً يره في الدنيا، ولا يثاب عليه في الآخرة، ومن يعمل مثقال ذرة من شر؛ عوقب عليه في الآخرة مع عقاب الشرك، ومن يعمل مثقال ذرة من شر من المؤمنين يره في الدنيا، ولا يعاقب عليه في الآخرة؛ إذا مات، ويتجاوز الله عنه، وإن عمل مثقال ذرة من خير يقبل منه، ويضاعف له في الآخرة. هذا؛ وقد قال الله تعالى في سورة (النساء) رقم [٤٠]: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهذا إذا كانت من مؤمن.

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أيضاً: ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيراً كان، أو شراً إلا أراه الله إياه، فأما المؤمن؛ فيغفر له سيئاته، ويثيبه بحسناته، وأما الكافر؛ فترد حسناته تحسراً، ويعذبُ بسيئاته. وهذا الاحتمال يساعده النظم، والمعنى. وما قيل من أن حسنات الكافر تؤثر في نقص العقاب يردُّه قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ الآية رقم [٢٣] من سورة (الفرقان) انظر شرحها هناك، فإنه جيد إن شاء الله تعالى.

وقال محمد بن كعب القرظي ـ رضي الله عنه ـ: فمن يعمل مثقال ذرة من خير من كافر يرى ثوابه في الدنيا في نفسه، وماله، وأهله، وولده؛ حتى يخرج من الدنيا؛ وليس له عند الله خير. ومن يعمل مثقال ذرة من شر من مؤمن يرى عقوبته في الدنيا في نفسه، وماله، وولده، وأهله؛ حتى يخرج من الدنيا؛ وليس له عند الله شر. دليله ما رواه العلماء الأثبات من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ أن هذه الآية نزلت على النبي ﷺ وأبو بكر ـ رضي الله عنه ـ يأكل، فأمسك، وقال: يا رسول الله! وإنا لنَرى ما عَملنَا من خير، وشرٍّ؟ قال: **«ما رأيتَ ممَّا تكرهُ؛ فهو مثاقيلُ ذرِّ الشرِّ، ويُدَّخر لكم مثاقيلُ ذرِّ الخَيرِ؛ حتى تُعْطَوهُ يومَ القيامةِ»**. وخذ ما يلي.

وسمى رسول الله ﷺ هذه الآية: «الجامعة الفاذة» حين سئل عن زكاة الحمير، فقال: ما أنزل الله فيها شيئاً إلا هذه الآية الجامعة الفاذة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ...﴾ إلخ وكان هذا السؤال حين ذكر الرسول ﷺ ما في الخيل من الأجر الدائم، والثواب المستمر، سأل السائل عن الحمير فقط؛ لأنهم لم يكن عندهم بغل يومئذ، ولا دخل الحجاز منها إلا بغلة النبي ﷺ الدلدل؛ التي أهداها له المقوقس، فأفتاه في الحمير بعموم الآية. هذا؛ وفي صحيح البخاري عن عدي ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: **«اتقوا النارَ ولو بشقِّ تمرةٍ، ولوْ بكلمةٍ طيبةٍ»**. وله أيضاً في الصحيح: **«لا تحقرنَّ من المعروفِ شيئاً؛ ولو أنْ تفرغَ منْ دلْوِكَ في إناء المستقي، ولو أنْ تَلْقَى أخاكَ؛ ووجْهُكَ إليهِ مُنْبَسِطٌ»**. أخرجه البخاري. وفي الصحيح أيضاً: **«يا نساء المسلمات! لا تحقرنَّ جارةٌ لجارَتِهَا؛ ولو فِرْسِنَ شاةٍ»**. يعني: ظلفها. أخرجه البخاري. وفي حديث آخر **«رُدُّوا السائلَ ولَو بظلفٍ محرقٍ»**. وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أن رسول الله ﷺ قال: **«يا عائشة استتِري من النارِ، ولو بشقِّ تمرةٍ، فإنها تسد من الجائع مسدَّهَا من الشبعان»**. أخرجه الإمام أحمد، هذا كله بالنسبة لعمل الخير القليل.

وأما بالنسبة لعمل الشر القليل فخذ ما يلي: فقد روي عن سعد بن جنادة ـ رضي الله عنه ـ قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من حنين؛ نزلنا قفراً من الأرض، ليس فيها شيء، فقال النبي ﷺ: **«اجمعوا، مَنْ وَجَدَ شيئاً؛ فليأتِ به، ومن وَجَد عظماً، أو سناً؛ فليأت به»**. قال: فما كان إلا ساعة حتى جعلناه ركاماً، فقال النبي ﷺ: **«أتروْن هذا؟ فكذلك تجمع الذنوب على الرجل منكم كما جمعتم هذا، فليتق الله رجل، فلا يذنب صغيرةً، ولا كبيرةً، فإنها محصاةٌ عليه»**. أي:

معدودة مسجلة عليه. قال تعالى في سورة (الكهف) رقم [٥٠]: ﴿وَيَقُولُونَ يَوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا ٱلْكِتَبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَنهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾. وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: إنكم لتعملون أعمالاً هي أدقُّ في أعينكم من الشَّعْرِ، كنا نعدُّهَا على عهدِ رسولِ الله ﷺ من الموبقاتِ. رواه البخاري، وغيره. وانظر ما ذكرته في سورة (النجم) رقم [٥٢ و٥٣] تجد ما يسرك، ويثلج صدرك، ولا تنس المقابلة بين الآيتين الكريمتين، وهي من المحسنات البديعية.

هذا؛ و(الذرة) النملة الصغيرة. وقيل: ما يرى في شعاع الشمس الداخل إلى بيت مظلم من الهباء، وروي: أن صعصعة بن ناجية جد الفرزدق أتى النبي ﷺ يستقرئه، فقرأ عليه هذه الآية ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ...﴾ إلخ فقال صعصعة: حسبي حسبي إن عملت مثقال ذرة خيراً؛ رأيته، وإن عملت مثقال ذرة شراً؛ رأيته.

طرفة: يحكى: أن أعرابياً قرأ سورة (الزلزلة) فأخر ﴿خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ وقدم ﴿شَرًّا يَرَهُۥ﴾ فقيل له: قدمت، وأخرت، فقال: [الطويل]

خُذَا بطنَ هَرْشَى أوْ قَفَاهَا فإنَّهُ ... كِلَا جَانِبَيْ هَرْشَى لَهُنَّ طَرِيقُ

هرشى: ثنية في طريق مكة قريبة من الجحفة يرى منها البحر، ولها طريقان. فكل من سلك واحداً منهما أفضى به إلى موضع واحد. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿فَمَن﴾: الفاء: حرف استئناف، وتفريع، وتفصيل لـ: (يروا). (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يَعْمَلْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ). ﴿مِثْقَالَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿ذَرَّةٍ﴾ مضاف إليه. ﴿خَيْرًا﴾: تمييز؛ لأنه بعد الوزن منصوباً. وقيل: بدل من ﴿مِثْقَالَ﴾. ﴿يَرَهُۥ﴾: مضارع جواب الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف حرف العلة من آخره، وهو الألف، والفتحة قبلها دليل عليها، والفاعل يعود إلى (مَنْ) أيضاً، والهاء مفعول به. هذا؛ وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلف فيه، فقيل: جملة الشرط. وقيل: جملة الجواب. وقيل: الجملتان وهو المرجح لدى المعاصرين. والجملة الاسمية لا محل لها؛ لأنها مستأنفة، ومفرعة عما قبلها، تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

انتهت سورة (الزلزلة) شرحاً، وإعراباً.

والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ العَادِيَاتِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة (العاديات) مكية في قول ابن مسعود، وجابر، والحسن، وعكرمة، وعطاء ـ رضي الله عنهم ـ ومدنية في قول ابن عباس، وأنس، ومالك، وقتادة ـ رضي الله عنهم ـ. وهي إحدى عشرة آيةً، وأربعونَ كلمةً، ومئة وثلاثة وستون حرفاً.

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾

الشرح: المراد بهذه الآيات: الخيل؛ التي تعدو في سبيل الله، فتضبح. قال قتادة: تضبح إذا عدت؛ أي: تحمحم. قال الفراء: الضبح: صوت أنفاس الخيل إذا عَدَوْن. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ليس شيء من الدواب يضبح غير الفرس، والكلب، والثعلب. قال ابن العربي: أقسم الله بمحمد ﷺ، فقال: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾، وأقسم بحياته فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ الآية رقم [٧٢] من سورة (الحجر)، وأقسم بخيله، وصهيلها، وغبارها، وقدح حوافرها النار من الحجر، فقال: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ...﴾ إلخ. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه حكى الضبح: أحْ أحْ. قال عنترة: [مجزوء الكامل]

والــخــيــلُ تــكــدَحُ حِــيــنَ تَــضْـــ ... ـبحُ فــي حــيــاضِ الــمَــوْتِ ضَــبــحــاً

وقال آخر: [الخفيف]

لــسْــتُ بــالــتُّــبَّــعِ الــيــمــانــيِّ إنْ لــمْ ... تَــضْــبَــحِ الــخــيــلُ فــي سَــوَادِ الــعِــراقِ

وقال أهل اللغة في بيان: أن العاديات الخيل: [الرجز]

وطــعْــنَــةٍ ذاتِ رشــاشٍ واهِــيَــهْ ... طَــعَــنْــتُــهَــا عِــنْــدَ صــدورِ الــعَــادِيَــهْ

وإنما تضبح الحيوانات المذكورة إذا تغيرت حالها من فزع، أو تعب، أو طمع. وممن قال العاديات: الخيل ابن عباس، وأنس، والحسن، ومجاهد. وهناك قول ثان: إنها الإبل. قال الشعبي: فتمارى علي، وابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في العاديات، فقال عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ: هي الإبل تعدو في الحج. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هي الخيل، ألا تراه

يقول: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾ فهل تثير إلا بحوافرها، وهل تضبح الإبل؟ فقال علي: ليس كما قلت، لقد رأيتنا يوم بدر وما معنا إلا فرسان: فرس للمقداد، وفرس للزبير، أتفتي الناس بما لا تعلم، فكيف تكون الخيل العاديات ضبحاً؟! إنما العاديات الإبل من عرفة إلى المزدلفة، ومن المزدلفة إلى منىً. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: فرجعت إلى قول علي. وبه قال ابن مسعود، وعبيد بن عمير، ومحمد بن كعب القرظي، والسدي ـ رضي الله عنهم ـ. ومنه قول صفية بنت عبد المطلب ـ رضي الله عنها ـ: [الوافر]

فَـلَا والـعَـادِيَـاتِ غـداةَ جَـمْـعٍ بِـأَيْـدِيْـهَـا إذا سَـطَـعَ الـغُـبَـارُ

يعني: الإبل. وسميت العاديات لاشتقاقها من العدو، وهو تباعد الأرجل في سرعة المشي. وقال آخر: [الطويل]

رأى صَاحِـبِـي فـي الـعـادِيَـاتِ نَـجِـيـبَـةً وأَمْـثَـالَـهَـا فـي الـوَاضِـعَـاتِ الـقَـوَامِـسِ

ومن قال: هي الإبل فقوله (ضبحاً) بمعنى: ضبعاً، فالحاء عنده مبدلة من العين؛ لأنه يقال: ضبعت الإبل، وهو أن تمد أعناقها في السير. وقال المبرد: الضبع مد أضباعها في السير، والضبح أكثر ما يستعمل في الخيل، والضبع في الإبل، وقد تبدل الحاء من العين.

هذا؛ وقال الزمخشري ـ رحمه الله تعالى ـ: فإن صحت الرواية فقد استعير الضبح للإبل كما استعير المشافر، والحافر للإنسان، والشفتان للمهر. أقول: والأكثر: أن المراد الخيل. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

وقال أبو حيان ـ رحمه الله تعالى ـ: وفي هذا دليل على أن هذه الأوصاف لذات واحدة لعطفها بالفاء؛ التي تقتضي التعقيب. والظاهر: أنها الخيل؛ التي يجاهد عليها العدو من الكفار، ولا يستدل على أنها الإبل بوقعة بدر، وإن لم يكن فيها إلا فرسان؛ لأنه لم يذكر: أن سبب نزول هذه السورة هو وقعة بدر، ثم بعد ذلك لا يكاد يوجد: أن الإبل جوهد عليها في سبيل الله، بل المعلوم أنه لا يجاهد إلا على الخيل في سبيل الله، في شرق البلاد، وغربها.

﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾: هي الخيل حين توري النار بحوافرها، وهي سنابكها، وهذا يكون في القتال في الكرِّ، والفرِّ، وعلى الثاني هي أخفاف الإبل ترمي بالحجارة من شدة عدْوِها، فيضرب الحجر حجراً أخرى، فيوري النار. وقيل: هي النار بمنى.

﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾: الخيل تغير على العدو عند الصبح عن ابن عباس، وأكثر المفسرين. وكانوا إذا أرادوا الغارة؛ سروا ليلاً، ويأتون العدو صبْحاً؛ لأن ذلك وقت غفلة الناس، ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ رقم [١٧٧] من سورة (الصافات). وقيل: لعزهم أغاروا نهاراً. وعلى قول علي ـ رضي الله عنه ـ: الإبل تدفع بركبانها يوم النحر من مزدلفة إلى منىً، والإغارة سرعة السير.

﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾ أي: غباراً. يعني: الخيل تثير الغبار بشدة العدْوِ في المكان الذي أغارت به، والضمير في (به) يرجع إلى المكان، أو إلى الموضع الذي تقع فيه الإغارة. وإذا علم المعنى جاز أن يكنَّى بما لم يجر له ذكر بالتصريح، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ﴾ رقم [٢٦] من سورة (القيامة)، انظر شرحها، ففيه الكفاية. وعلى قول علي ـ رضي الله عنه ـ يثور الغبار في ذلك المكان من أخفاف الإبل.

﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ أي: فوسطن بركبانهن العدوَّ؛ أي: الجمع الذي أغاروا عليهم. وعلى قول علي ـ رضي الله عنه ـ. (فوسطن به جمعاً) يعني: مزدلفة سميت: جمعاً لاجتماع الناس فيها. وانظر ما ذكرته في أول سورة (الشمس) بشأن المقسم به؛ تجد ما يسرك.

هذا؛ وتفرد البيضاوي بقوله: ويحتمل أن يكون القسم بالنفوس العادية أثر كمالهنَّ، الموريات بأفكارهنَّ أنوار المعارف، المغيرات على الهوى، والعاديات إذا ظهر لهنَّ مبدأ أنوار القدس، فأثرن به شوقاً، فوسطن به جمعاً من جموع العليين. انتهى.

الإعراب: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾: جار ومجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره: أقسم. ﴿ضَبْحًا﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف، التقدير: تضبح ضبحاً، والجملة الفعلية هذه في محل نصب حال من العاديات. ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ﴾: الفاء: حرف عطف. (الموريات): معطوف على (العاديات) وفاعلهما مستتر فيه. ﴿قَدْحًا﴾: مفعول به للموريات. ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ﴾: معطوف على ما قبله. وفاعله مستتر فيه. ﴿صُبْحًا﴾: ظرف زمان متعلق بـ: (المغيرات). هذا؛ وقيل: ﴿صُبْحًا﴾: مصدر في موضع الحال، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ لأنه بمعنى: غائراً. وقيل: ﴿قَدْحًا﴾ منصوب على الحال أيضاً، فالمعنى: قادحات.

(أثرن): فعل ماض مبني على السكون، والنون فاعله. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿نَقْعًا﴾: مفعول به. هذا؛ والفعل (أثرن) معطوف على الأسماء السابقة. وهو عطف فعل على اسم، وساغ ذلك؛ لأن الأسماء السابقة في تقدير الفعل؛ إذ المعنى: التي تعدو، والتي توري، والتي تغير، والتي تثير. أو المعنى: اللاتي عَدَوْن، واللاتي قدحْنَ، واللاتي أغَرْن، واللاتي أثْرن. هذا؛ وقال عمرو بن كلثوم التغلبي في معلقته رقم [٩٥]: [الوافر]

وأَنَّـا الـشَّـارِبُـونَ الـمـاءَ صَـفْـواً ... ويَـشْـرَبُ غَـيْـرُنَـا كَـدَراً وطِـيـنـا

إذ المعنى: وأنا الذين يشربون الماء، ويشرب. . .إلخ. هذا؛ وقال ابن مالك ـ رحمه الله تعالى ـ في ألفيته: [الرجز]

واعـطِـفْ عـلـى اسْـمٍ شـبْـهِ فـعـلٍ فِـعْـلا ... وعـكْـسـاً اسـتَـعْـمِـلْ تَـجِـدْهُ سـهْـلا

قال ابن عقيل ـ رحمه الله تعالى ـ في شرح هذا البيت: يجوز أن يعطف الفعل على الاسم المشبه للفعل، كاسم الفاعل، ونحوه. ويجوز أن يعطف على الفعل الواقع موقع الاسم اسم،

فمن الأول قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ...﴾ إلخ الآيات؛ التي نحن بصدد شرحها. وقوله تعالى في سورة (الحديد) رقم [١٨]: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ...﴾ إلخ وقال: ومن الثاني قول الشاعر: [الطويل]

فَأَلْفَيْتُهُ يَوْماً يُبِيرُ عَدُوَّهُ ... وَمُجْرٍ عَطَاءً يَسْتَحِقُّ الْمَعَابِرَا

ف: «مُجْرٍ عطاء» معطوف على: «يبير»، وقول الشاعر: [الرجز]

بَاتَ يُعَشِّيهَا بِعَضْبٍ بَاتِرِ ... يَقْصِدُ في أسْوقِهَا وجَائِرِ

ف: «جائر» معطوف على: «يقصد». ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾: معطوف على ما قبله، وهو مثله في الإعراب والتقدير، و﴿جَمْعًا﴾ مفعول به. وأغرب مكي كل الغرابة حيث قال: حال. وقاله أبو البقاء أيضاً.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾

الشرح: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾: اللام للجنس؛ أي: جنس الإنسان. وقيل: المراد: الكافر. ﴿لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لكفور جحود لنعم الله. وكذلك قال الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ. وقال: يذكر النقم، وينسى النعم. أخذه الشاعر فنظمه: [السريع]

يا أيها الظَّالمُ في فِعْلِهِ ... والظلمُ مردودٌ على مَنْ ظَلَمْ

إلى متى أنْتَ وحتَّى متى؟ ... تشكُو المصيباتِ وتنْسَى النِّعمْ

وروى أبو أمامة الباهلي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الكنودُ: هو الذي يأكُلُ، ويمنعُ رفدَهُ، ويضرب عبدَهُ**». الرفد بكسر الراء: العطاء، والصلة. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أنبئكُمْ بشرارِكم؟**». قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «**مَنْ نزلَ وحده، ومنعَ رفده، وجلد عبدَهُ**». خرجهما الترمذي الحكيم في نوادر الأصول. وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أيضاً: أنه قال: الكنود بلسان كندة وحضرموت: العاصي. وبلسان ربيعة، ومضر: الكفور. وبلسان كنانة: البخيل السيئ الملكة. وقاله مقاتل. وقال الشاعر: [الطويل]

كنودٌ لِنعماءِ الرجالِ ومن يَكُنْ ... كنوداً لِنعماءِ الرجالِ يُبَعَّدِ

وقال إبراهيم بن هرمة: [الوافر]

دعِ البخلاءَ إنْ شمخُوا وصَدُّوا ... وذكرَى بُخْلِ غانيةٍ كنودِ

وقيل: الكنود: قليل الخير، مأخوذ من الأرض الكنود، وهي التي لا تنبت شيئاً. وقال الفضيل بن عياض: الكنود هو الذي أنسته الخصلة الواحدة من الإساءة الخصال الكثيرة من الإحسان، وضده: الشكور؛ الذي أنسته الخصلة الواحدة من الإحسان الخصال الكثيرة من الإساءة. وقيل غير ذلك.

﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ أي: وإن الله عز وجل لشهيد على الإنسان بما يصنع. وعليه أكثر المفسرين. وقال الحسن، وقتادة، ومحمد بن كعب القرظي ـ رضي الله عنهم ـ: أي: وإن الإنسان لشاهد على نفسه بما يصنع؛ أي: شاهد بلسان حاله، ظاهر ذلك عليه في أقواله، وأفعاله، كما قال تعالى: ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ رقم [١٧] من سورة (التوبة).

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾: وإن الإنسان بلا خلاف. ﴿لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: المال، ومنه قوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [١٨٠]: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ أي: مالاً، والخير يكون بمعنى الطعام، كما في قوله تعالى حكاية عن قول موسى ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ رقم [٢٤] من سورة (القصص). والخير يكون بمعنى القوة، كما قال تعالى في سورة (الدخان) رقم [٣٧]: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾. ويكون بمعنى العبادة، كقوله تعالى في سورة (الأنبياء) رقم [٧٣]: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ وقال عدي: [المنسرح]

مـاذَا تـرجِّـي الـنـفـوسُ مـن طـلـبِ الـ ... خَـيْـرِ وحـبُّ الـحـيـاة كَـارِبُـهَـا

أي: غامها. من: كربه الأمر: اشتد عليه. ﴿لَشَدِيدٌ﴾: لقوي في حبه للمال. وقيل: المعنى: لبخيل. ويقال للبخيل: شديد، ومتشدد. قال طرفة بن العبد في معلقته رقم [٧١]: [الطويل]

أرَى الـمـوتَ يـعـتـامُ الـكـرامَ ويـصْـطـفـي ... عـقـيـلـة مـالِ الـفـاحِـشِ الـمُـتَـشـدِّدِ

قال ابن زيد ـ رحمه الله تعالى ـ: سمى الله المال: خيراً؛ وعسى أن يكون شراً، وخيراً، ولكن الناس يعدونه خيراً، فسمَّاه الله خيراً لذلك، وسمى الله الجهاد سوءاً. فقال في سورة (آل عمران) رقم [١٧٤]: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ على ما يسميه الناس سوءاً؛ أي: يتخوفون منه.

بعد هذا فقد قال الإمام الفخر ـ رحمه الله تعالى ـ: لما ذكر الله المقسم به، وهو ثلاثة أمور، ذكر المقسم عليه، وهو أمور ثلاثة أيضاً: أولها قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾، وثانيها قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾، ثالثها قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾. وقوله: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ...﴾ إلخ شروع في تخويف الإنسان بعد تعديد قبائح أفعاله عليه، فأقسم بثلاثة على ثلاثة. انتهى. جمل، والله أعلم بمراده.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾. ﴿لِرَبِّهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان بما بعدهما، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله

مستتر فيه. ﴿لَكَنُودٌ﴾: اللام: هي المزحلقة. (كنود): خبر ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية جواب القسم، لا محل لها، والتي بعدها معطوفة عليها، وإعرابها مثلها بلا فارق. ﴿وَإِنَّهُۥ﴾: الواو: حرف عطف. (إنه): حرف مشبه بالفعل. والهاء اسمها. ﴿لِحُبِّ﴾: متعلقان بـ: (شديد)، و(حب): مضاف، و﴿ٱلْخَيْرِ﴾: مضاف إليه، من إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله محذوف. ﴿لَشَدِيدٌ﴾: اللام: هي المزحلقة. (شديد): خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها لا محل لها أيضاً. هذا؛ واللام بقوله (لحب) تسمى لام التقوية، انظر ما ذكرته في إعراب قوله تعالى في سورة (البروج) رقم [١٦]: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ تجد ما يسرك. ولا تنس: أن التأكيد بـ: (إنَّ) واللام في الآيات الثلاث إنما هو زيادة في التقرير، والبيان، وهذا من مباحث علم المعاني.

﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾﴾

الشرح: ﴿أَفَلَا﴾: الهمزة للإنكار، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام؛ أي: أيفعل ما يفعل من القبائح، فلا يعلم إذا بعثر ما في القبور؟! هذا تهديد، ووعيد. هذا؛ والهمزة في الكلمة ﴿أَفَلَا﴾ ومثلها ﴿أَفَلَمْ﴾ و﴿أَوَلَمْ﴾ ونحوهما للإنكار، وهي في نية التأخير عن الفاء، والواو؛ لأنهما حرفا عطف، وكذا تقدم على «ثمَّ» تنبيهاً على أصالتها في التصدير، نحو قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وقوله جل شأنه: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقوله تعالت حكمته: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ وأخواتها تتأخر عن حروف العطف، كما هو قياس أجزاء الجملة المعطوفة، نحو قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ هذا مذهب سيبويه، والجمهور، وخالف جماعة، أولهم الزمخشري، فزعموا: أن الهمزة في الآيات المتقدمة في محلها الأصلي، وأن العطف على جملة مقدرة بينها وبين العاطف، فيقولون: التقدير في ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟...﴾ إلخ، ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ...﴾ إلخ، ﴿أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ...﴾ إلخ: أمكثوا، فلم يسيرُوا في الأرض؟ أنهمِلَكُمْ، فنضربُ عَنْكُمْ. . .إلخ؟! أتؤمنون في حياته، فإن مات. . .إلخ؟ ويضعفه ما فيه من التكلف، وأنه غير مطرد في جميع المواضع. انتهى. مغني بتصرف.

هذا؛ والفعل ﴿يَعْلَمُ﴾ من المعرفة، لا من العلم اليقيني، والفرق بينهما: أن المعرفة تكتفي بمفعول واحد. قال ابن مالك ـ رحمه الله تعالى ـ في ألفيته: [الرجز]

لِعِلْمِ عِرْفَانٍ وظَنِّ تُهَمَهْ تَعْدِيَةٌ لِوَاحِدٍ مُلْتَزَمَهْ

بخلافه من العلم اليقيني، فإنه ينصب مفعولين، أصلهما مبتدأ، وخبر، وأيضاً: فالمعرفة تستدعي سبق جهل، وأن متعلقها الذوات دون النسب، بخلاف العلم، فإن متعلقه المعاني،

والنسب. وتفصيل ذلك: أنك إذا قلت: عرفت زيداً، فالمعنى: أنك عرفت ذاته، ولم ترد أنك عرفت وصفاً من أوصافه، فإذا أردت هذا المعنى لم يتجاوز مفعولاً؛ لأن المعرفة تناول الشيء نفسه، ولم يقصد إلى غير ذلك، وإذا قلت: علمت زيداً قائماً؛ لم يكن المقصود: أن العلم تناول نفس زيد فحسب، وإنما المعنى: أن العلم تناول كون زيد موصوفاً بهذه الصفة. تأمل، وتدبر.

﴿بُعْثِرَ﴾: البعثرة بالعين، والبحثرة بالحاء: استخراج الشيء، واستكشافه. وانظر قوله تعالى في سورة (الانفطار): ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾. وقال أبو عبيدة: بعثرت المتاع: جعلت أسفله أعلاه. وقال الفراء: سمعت بعض أعراب بني أسد يقرأ: (بحثر) بالحاء مكان العين، وحكاها الماوردي عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وهما بمعنىً. ﴿مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾: من الموتى، وهذا على الأغلب، وهناك من هو في جوف الطير، وجوف السمك، وهناك من أحرق، وصار رماداً، فلم يدفن، كما هو معلوم لدى كل إنسان.

هذا؛ وقال سليمان الجمل ـ رحمه الله تعالى ـ: فإن قيل: لم قال: ﴿مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾؟ ولم يقل: من في القبور، ثم قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ﴾؟ أجيب عن الأول بأن ما في الأرض غير المكلفين أكثر، فأخرج الكلام على الأغلب، أو أنهم حال ما يبعثون لا يكونون أحياء عقلاء، بل يصيرون كذلك بعد البعث، فلذلك كان الضمير الأول ضمير غير العقلاء، والضمير الثاني ضمير العقلاء. انتهى. أقول: وهذا؛ لأن (مَنْ) للعاقل، و(ما) لغيره.

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ أي: أخرج، وجمع بغاية السهولة ما في الصدور من خير، وشر، وإيمان، وكفر مما يظن مضمره: أنه لا يعلمه أحد أصلاً، وظهر مكتوباً في صحائف الأعمال. وهذا يدل على أن الإنسان يحاسب بها كما يحاسب على ما يظهر من آثارها. انتهى. خطيب. أقول: انظر قوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [٢٨٤]: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾. ولا تنس: أنه خص أعمال القلوب بالذكر، وترك أعمال الجوارح؛ لأنها تابعة لأعمال القلوب، فإنه لولا تحقق البواعث، والإرادات في القلوب؛ لما حصلت أعمال الجوارح.

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾: عالم لا يخفى عليه منهم خافية. وهو عالم بهم في ذلك اليوم، وفي غيره، وعالم بما يصنعون، ومجازيهم عليه أوفر الجزاء. وإنما خص علمه بهم في ذلك اليوم، وهو يوم القيامة؛ لأنه يوم الجزاء بقصد الوعيد، والتهديد، وهو تضمين معنى (خبير).

الإعراب: ﴿أَفَلَا﴾: الهمزة: حرف استفهام إنكاري. الفاء: عاطفة على محذوف. انظر تقديره في الشرح. (لا): نافية. ﴿يَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ تقديره: «هو». ﴿إِذَا﴾: ظرف مجرد عن الشرطية، العامل فيه ما دل عليه قوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ ولا يعمل فيه ﴿يَعْلَمُ﴾؛ لأن الإنسان لا يراد منه العلم، ولا يقصد منه في ذلك الوقت،

وإنما يراد منه، وهو في الدنيا، ولا يجوز أن يكون ظرفاً لـ: ﴿بُعْثِرَ﴾؛ لأن المضاف إليه لا يعمل في المضاف، ولا لقوله: (خبير)؛ لأن ما بعد إن لا يعمل فيما قبلها... إلخ. انتهى. جمل بتصرف. ﴿بُعْثِرَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول. ﴿مَا﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع نائب فاعل. ﴿فِي ٱلْقُبُورِ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صلة الموصول، التقدير: يوجد في الصدور، وجملة: ﴿بُعْثِرَ...﴾ إلخ في محل جر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها، والكلام: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ...﴾ إلخ كله مستأنف، لا محل له، وجملة: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ معطوفة على ما قبلها لا محل لها مثلها، وهي مثلها في إعرابها.

﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿رَبَّهُم﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾، والهاء في محل جر بالإضافة من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿بِهِمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: (خبير) بعدهما. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف زمان متعلق بـ: (خبير) أيضاً. و(إذ) في محل جر بالإضافة، والتنوين عوض من جملة محذوفة التقدير: يوم إذ بعثر ما في القبور، ولا تمنع لام الابتداء من عمل ما بعدها فيما قبلها. (خبير): خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها. تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

انتهت سورة (العاديات) شرحاً وإعراباً.

والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ القَارِعَةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة (القارعة)، وهي مكية باتفاق، وهي إحدى عشرة آيةً، وست وثلاثون كلمةً، ومئة واثنان وخمسون حرفاً. ومناسبتها لما قبلها: أنه لما ذكر وقت بعثرة القبور؛ أتبعه بأهوال يوم القيامة، وبيان وقتها. وقال الرازي ـ رحمه الله تعالى ـ: لما ختم السورة المتقدمة بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ فكأنه قيل: وما ذلك اليوم؟ فقيل: هو القارعة. انتهى. جمل.

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾

الشرح: ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾: أصل القرع: الصوت الشديد، ومنه: قوارع الدهر؛ أي: شدائده، والقرع أيضاً: الضرب بشدة، ومنه: المقرعة. واتفقوا على أن القارعة اسم من أسماء القيامة، مثل: الحاقة، والطامة، والصاخة، سميت بذلك؛ لأنها تقرع القلوب بالفزع، والشدائد، وسبب ذلك: أن القارعة هي الصيحة التي يموت منها الخلائق سوى إسرافيل، ثم يميته، ثم يحييه، فينفخ في الصور النفخة الثانية، فيقوم الناس من قبورهم للحساب، والجزاء، وأهل اللغة يقولون: تقول العرب: قرعتهم القارعة، وفقرتهم الفاقرة: إذا وقع بهم أمر فظيع. قال ابن أحمر: [الوافر]

وَقَارِعَةٍ مِنَ الأَيَّامِ لَوْلَا ... سَبِيلُهُمُ لَزَاحَتْ عَنْكَ حِينَا

وقال تعالى في سورة (الرعد) رقم [٣١]: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾. ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ أي: أي شيء هي القارعة، فهو تهويل، وتعظيم. والمعنى: أنها فاقت القوارع في الهول، والشدة. ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾: زيادة في تعظيم القيامة، وتفخيم شأنها. معناه: لا علم لك بكنهها؛ لأنها في الشدة بحيث لا يبلغها فهم أحد، وكيفما أمرها، فهي أعظم من ذلك، انظر سورة (الحاقة) وسورة (القدر).

هذا؛ وإنما سميت القيامة: القارعة؛ لشدة هولها على النفوس؛ لأنها لا تفزع القلوب فحسب، بل تؤثر في الأجرام العظيمة، فتؤثر في السموات بالانشقاق، وفي الأرض بالزلزلة، وفي الجبال بالدك والنسف، وفي الكواكب بالانتثار، وفي الشمس، والقمر بالتكوير، والانكدار؛ إلى غير ما هنالك مما ذكرته فيما سبق، وفي بقية السورة بيان شيء من ذلك الهول المفزع.

الإعراب: ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾: مبتدأ. ﴿مَا﴾: اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل رفع خبر ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾، والجملة الاسمية مبتدأة، لا محل لها. ﴿وَمَآ﴾: الواو: حرف استئناف، أو حرف عطف. (ما): اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿أَدْرَىٰكَ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف، والفاعل يعود إلى (ما)، والكاف مفعوله الأول، والجملة الاسمية: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ في محل نصب سدت مسد مفعول ﴿أَدْرَىٰكَ﴾ الثاني المعلق عن العمل بسبب الاستفهام. وقال زاده: في محل نصب سدت مسد المفعول الثاني، والثالث لـ: (أدرى)؛ لأنه بمعنى: أعلم، والجملة الفعلية: ﴿أَدْرَىٰكَ...﴾ إلخ في محل رفع خبر المبتدأ الذي هو (ما)، والجملة الاسمية لا محل لها على الوجهين المعتبرين بالواو.

﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾

الشرح: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ...﴾ إلخ أي: ذلك يحدث عندما يخرج الناس من قبورهم فزعين، كأنهم فراش متفرق منتشر هنا وهناك، يموج بعضهم في بعض من شدة الفزع، والحيرة. قال الرازي: شبه تعالى الخلق وقت البعث هاهنا بالفراش المبثوث، وفي آية أخرى بالجراد المنتشر، أما وجه التشبيه بالفراش؛ فلأن الفراش إذا ثار لم يتجه إلى جهة واحدة، بل كل واحدة منها تذهب إلى غير جهة الأخرى، فدل على أنهم إذا بعثوا؛ فزعوا. وأما وجه التشبيه بالجراد فهو في الكثرة، يصبحون كغوغاء الجراد يركب بعضه بعضاً، فكذلك الناس إذا بعثوا يموج بعضهم في بعض، كالجراد، والفراش، كقوله تعالى في سورة (الكهف) رقم [٩٩]: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ﴾.

قال قتادة ـ رحمه الله تعالى ـ: الفراش: الطير الذي يتساقط في النار، والسراج، الواحدة: فراشة. وقال الفراء: إنه الهمج الطائر من بعوض، وغيره، ومنه: الجراد. ويقال: هو أطيش من فراشة. قال الشاعر: [الرجز]

طُوَيِّشٌ مِنْ نَفَرٍ أَطْيَاشِ ... أَطْيَشُ مِنْ طَائِرَةِ الْفَرَاشِ

وقال جرير في هجاء الفرزدق: [الكامل]

إنَّ الفَرَزْدَقَ ما عَلِمْتُ وَقَوْمَهُ ... مِثْلُ الفَرَاشِ غَشِيْنَ نَارَ المُصْطَلِي

وفي صحيح مسلم: عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثَلي ومثَلُكم كمثلِ رجلٍ أوقد ناراً، فجعل الجنادبُ، والفراشُ يقعْنَ فيها، وهوَ يَذُبُّهُنَّ عنها، وَأنا آخذ بِحُجَزِكُمْ عنِ النَّارِ، وأنتمْ تَفَلَّتُون من يدي**». وفي الباب عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ. و﴿ٱلْمَبْثُوثِ﴾:

المتفرق. وقال في موضع آخر في قوله تعالى في سورة (القمر) رقم [٧]: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ فأوّل حالهم كالفراش لا وجه له، يتحير في كل وجه، ثم يكونون كالجراد؛ لأن لها وجهاً تقصده، وفي أمثالهم: أضعف من فراشة، وأذل وأجهل من جرادة. وسمي فراشاً لتفرشه، وانتشاره.

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ أي: الصوف الذي ينفش باليد. وأهل اللغة يقولون: العهن: الصوف المصبوغ. وذلك؛ لأنها تتفرق أجزاؤها في ذلك اليوم حتى تصير كالصوف المتطاير عند الندف، وإنما جمع بين حال الناس وحال الجبال تنبيهاً على أن تلك القارعة أثرت في الجبال العظيمة الصلدة الصلبة حتى تصير كالصوف المندوف مع كونها غير مكلفة، فكيف حال الإنسان الضعيف المقصود بالتكليف؛ وهو مبعوث من قبره للحساب، والجزاء؟! وانظر ما ذكرته في سورة (النبأ) رقم [٢٠] تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

الإعراب: ﴿يَوْمَ﴾: ظرف زمان متعلق بفعل محذوف، التقدير: تقرع يوم، أو تقديره: اذكر. وقيل: ﴿يَوْمَ﴾ مبني على الفتح في محل رفع من وجهين: أحدهما: أنه خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هي يوم، كما هو رأي الكوفيين لإضافته إلى الفعل وإن كان مضارعاً. وثانيهما: أنه فاعل لفعل محذوف، التقدير: سيأتي يوم يكون. وقيل: ﴿الْقَارِعَةُ﴾ رفع بإضمار فعل، وذلك الفعل عامل في ﴿يَوْمَ﴾ تقديره: ستأتي القارعة يوم يكون. انتهى. مكي، والأول هو المعتمد بلا شك، ولا ريب. ﴿يَكُونُ﴾: مضارع ناقص. ﴿النَّاسُ﴾: اسمها. ﴿كَالْفَرَاشِ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ﴿يَكُونُ﴾ التقدير: يكون الناس مشبهين بالفراش. وإن اعتبرت ﴿يَكُونُ﴾ تاماً؛ فالجار، والمجرور متعلقان بمحذوف حال، التقدير: يوجدون ويحشرون حال كونهم مشبهين بالفراش. هذا؛ وإن اعتبرت الكاف اسماً بمعنى: مثل؛ فالمحل لها على الاعتبارين، وتكون مضافة، و(الفراش): مضاف إليه. ﴿الْمَبْثُوثِ﴾: صفة (الفراش) وجملة: ﴿يَكُونُ...﴾ إلخ في محل جر بإضافة ﴿يَوْمَ﴾ إليها، والتي بعدها معطوفة عليها، وهي مثلها في إعرابها وفي محلها.

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾﴾

الشرح: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾: هذا تفصيل لأحوال الناس في ذلك اليوم، العظيم شأنه، الطويل زمانه، القريب أوانه، وهذا التفصيل تجده في سورة (هود) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ...﴾ إلخ رقم [١٠٥] وما بعدها.

﴿ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي: رجحت حسناته على سيئاته. يعني: رجحت موازين حسناته. قيل: هو جمع: موزون، وهو العمل الذي له قدر، وخطر عند الله تعالى. وقيل: هو جمع: ميزان، وهو

الذي له لسان، وكفتان، توزن فيه الأعمال، فيؤتى بحسنات المؤمن في أحسن صورة، فتوضع في كفة الميزان، فإن رجحت حسناته؛ فالجنة له. ويؤتى بسيئات الكافر في أقبح صورة، فتخف ميزانه، فيدخل النار. وقيل: إنما توزن أعمال المؤمنين. فمن ثقلت حسناته على سيئاته؛ دخل الجنة، ومن ثقلت سيئاته على حسناته؛ دخل النار، فيقتص منه على قدرها، ثم يخرج منها، فيدخل الجنة، أو يعفو الله عنه بكرمه، فيدخل الجنة بفضل الله، وكرمه، ورحمته، وأما الكفار؛ فلا توزن أعمالهم. قال تعالى في سورة (الكهف) رقم [١٠٥]: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾.

روي: أن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ حين حضره الموت. قال في وصيته لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا، وثقله عليهم، وحق لميزان يوضع فيه الحق غداً أن يكون ثقيلاً، وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدنيا، وخِفته عليهم، وحق لميزان يوضع فيه الباطل غداً أن يكون خفيفاً.

هذا؛ وقد ذكر الله تعالى في هذه الآيات السعداء الذين غلبت حسناتهم على سيئاتهم، والأشقياء الذين غلبت سيئاتهم على حسناتهم، وبقي صنف ثالث، وهم من تساوت حسناتهم وسيئاتهم، وهم أصحاب الأعراف المذكورون في الآية رقم [٤٦] وما بعدها، من سورة (الأعراف) وذلك في قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ...﴾ إلخ.

هذا؛ والمراد بالوزن: القضاء، أو وزن الأعمال، وهو مقابلتها بالجزاء. والجمهور على أن صحائف الأعمال توزن بميزان، له لسان، وكفتان، ينظر إليه الخلائق، إظهاراً للمعدلة، وقطعاً للمعذرة، كما يسألهم عن أعمالهم، فتعترف بها ألسنتهم، وتشهد بها جوارحهم.

والحكمة من وزن الأعمال مع علم الله بمقاديرها تتجلى فيما يلي: منها: إظهار العدل الإلهي، وأن الله لا يظلم مثقال ذرة. ومنها: امتحان الخلق بالإيمان بذلك في الدنيا، وإقامة الحجة عليهم في العقبى. ومنها: تعريف العباد ما لهم من خير، وشر، وحسنة، وسيئة. ومنها: إظهار علامة السعادة، والشقاوة، وخذ ما يلي:

فعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ رفعه إلى النبي ﷺ قال: «**ملكٌ موكلٌ بالميزانِ، فيؤتَى بابنِ آدمَ، فيوقَفُ بين كفتي الميزان، فإن ثَقُلَ ميزانُهُ، نادى ملكٌ بصوتٍ يُسْمِعُ الخلائقَ: سَعِدَ فلانٌ سعادة لا يشقى بعدها أبداً. وإن خفَّ ميزانه؛ نادى ملكٌ بصوت يسمع الخلائق: شقِيَ فلانٌ شقاوةً لا يسعدُ بعدها أبداً**». رواه البيهقي، والبزار.

عن سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**يوضَعُ الميزانُ يومَ القيامَةِ. فلو وُزِنَ فيهِ السمواتُ، والأرضُ؛ لوسِعَهُنَّ. فتقول الملائكة: يا ربِّ لمَنْ يزنُ هذا؟ فيقول الله: لِمَنْ شئْتُ من خلقي، فيقولونَ: سبحانك ما عَبَدْنَاكَ حقَّ عبادَتِك**». رواه الحاكم.

هذا؛ و(موازين) جمع: ميزان، وأصله: مِوْزان، قلبت الواو ياء لسكونها، وانكسار ما قبلها، ومثله: ميعاد، وميثاق، وميقات، وميراث.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي: راضٍ بها صاحبها. ففيه إسناد مجازي عقلي. انظر سورة (الحاقة) رقم [٢١]. ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ﴾ أي: رجحت سيئاته على حسناته، كما رأيت فيما تقدم، فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: ذكرت النار، فبكيتُ، فقال رسول الله ﷺ: «**ما يبكيك؟**». قلتُ: ذكرتُ النارَ فبكيتُ، فهل تَذْكرون أهليكم يَوْمَ القيامةِ؟ فقال: «**أما في ثلاثةِ مواطنَ؛ فلا يذكر أحدٌ أحداً، عند الميزان؛ حتى يعلمَ أيخفُّ ميزانُهُ، أم يثقلُ؟ وعند تطاير الصحف؛ حتى يعلمَ أين يقعُ كتابُهُ في يمينه، أمْ في شمالِهِ، أم وراء ظهرِهِ؟ وعند الصراط إذا وُضِعَ بين ظَهريْ جهنمَ؛ حتى يجوزَ**». رواه أبو داود. ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ يعني: جهنم، وسماها أمّاً؛ لأنه يأوي إليها كما يأوي إلى أمّهِ. قاله ابن زيد. وقيل للمأوى: أمٌّ على التشبيه؛ لأن الأمَّ مأوى الولد، ومفزعه. ومنه قول أمية بن أبي الصلت: [الكامل]

فالأرضُ مَعْقِلُنَا وكانَتْ أُمَّنا فيها مقابرُنا وفيها نُولَدُ

وسميت النار هاوية؛ لأنه يهوي فيها مع بعد قعرها، وليستقر فيها. وقال الشاعر: [السريع]

يا عَمْرُو لَوْ نالَتْكَ أرْمَاحُنَا كُنْتَ كَمَنْ تَهْوي بهِ الهَاوِيهْ

ويقال: هوت أمه فهي هاوية؛ أي: ثاكلة. قال كعب بن سعد الغنوي: [الطويل]

هَوَتْ أُمُّهُ ما يَبْعَثُ الصبحَ غَادِياً وَمَاذا يَرُدُّ الليلَ حينَ يَؤُوبُ

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ﴾ أي: ما الهاوية، الأصل: ما هي، فدخلت الهاء للسكت. ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ أي: شديدة الحرارة. وفي صحيح مسلم: عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أن النبي ﷺ قال: «**نارُكُمْ هذه التي يُوقد ابنُ آدمَ جزءٌ من سَبعِينَ جُزْءاً من حَرِّ جهنم**». قالوا: والله إنْ كانَتْ لكافِيةً يا رسولَ الله! قال: «**فإنّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وستِّينَ جزءاً كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا**».

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**إن نارَكُمْ هَذِه جُزْءٌ مِن سَبعِينَ جُزءاً من نارِ جهنمَ، وضُرِبَتْ بالبحر مرَّتين، ولولا ذلِكَ ما جعل اللهُ فيها منفعةً لأحدٍ**». وروى الترمذي، وابن ماجه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أُوقِدَ على النارِ ألفَ سنةٍ حتى احمرتْ، ثم أُوقِدَ عليها ألفَ سنةٍ حتى ابْيَضَّتْ، ثم أُوقِدَ عليها ألفَ سنةٍ حتى اسودَّتْ، فهي سوداءُ مظلمَةٌ**». وانظر الآية رقم [٤] من سورة (الغاشية).

وفي الخبر عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**إن الموتى يسألون الرجل يأتيهم عن رجل مات قبله، فيقول: ذلك مات قبلي، أما مرَّ بكم؟ فيقولون: لا والله، فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، ذُهِب به إلى أمه الهاوية، فبئست الأم، وبئست المربية**». انتهى. قرطبي.

وفي الجمل، فإن قلت: كيف قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ مع أن أكثر المؤمنين سيئاتهم راجحة على حسناتهم؟ قلنا: قوله: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ لا يدل على خلوده فيها، فيسكن المؤمن فيها بقدر ذنوبه، ثم يخرج منها إلى الجنة. وقيل: المراد بخفة الموازين: خلوها من الحسنات بالكلية، وتلك موازين الكفار. انتهى. كرخي. هذا؛ وما يقوله بعض المتمشيخة في هذا الزمن: إن المؤمن لا يعذب، ولا يحرق في نار جهنم؛ فهو كذب على الله صراح. هذا؛ وفي السورة المقابلة بين: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ...﴾ إلخ، وبين: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ...﴾ إلخ وهو من المحسنات البديعية، وأيضاً الاحتباك، وهو أن يحذف من كل نظير ما أثبته في الآخر، فقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ حذف من الأول: (فأمه الجنة) وذكر فيها: ﴿فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ وحذف من الآية الثانية: (فهو في عيشة ساخطة) وذكر: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ فحذف من كل ما أثبته في الآخر، وهو من المحسنات البديعية أيضاً.

الإعراب: ﴿فَأَمَّا﴾: الفاء: حرف استئناف وتفريع. (أما): انظر الآية رقم [١٥] من سورة (الفجر). ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿ثَقُلَتْ﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، والتاء للتأنيث حرف لا محل له. ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾: فاعله، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿فَهُوَ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (هو): ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿فِى عِيشَةٍ﴾: متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ. ﴿رَّاضِيَةٍ﴾: صفة ﴿عِيشَةٍ﴾، والجملة الاسمية: (هو...) إلخ في محل جزم جواب الشرط. والدسوقي يقول: لا محل لها. وخبر المبتدأ الذي هو ﴿مَنْ﴾ مختلف فيه كما رأيت في سورة (الزلزلة)، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها. ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ...﴾ إلخ معطوف على ما قبله، وإعرابه مثله، بلا فارق. هذا؛ وإن اعتبرت ﴿مَنْ﴾ اسماً موصولاً؛ فهي مبتدأ، والجملة الفعلية بعدها صلتها، والجملة الاسمية: (هو...) إلخ في محل رفع خبرها، ودخلت الفاء في الخبر؛ لأن الموصول يشبه الشرط في العموم. وهذا كثير في الآيات القرآنية. ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ...﴾ إلخ الإعراب مثل ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ بلا فارق، والهاء للسكت حرف لا محل له. ﴿نَارٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هي نار، والجملة الاسمية مفسرة للضمير. ﴿حَامِيَةٌۢ﴾: صفة ﴿نَارٌ﴾. تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

انتهت سورة (القارعة) شرحاً، وإعراباً.

والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة (التكاثر) مكية في قول جميع المفسرين. وروى البخاري: أنها مدنية، وهي ثمان آيات، وست وثلاثون كلمةً، ومئة واثنان وخمسون حرفاً. انتهى. خازن.

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾

الشرح: مناسبة السورة لما قبلها: أنه لما ذكر أهوال القيامة؛ ذم اللاهين والمشتغلين عنها، فقال: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾. انتهى. جمل، ومعنى ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ شغلكم أيها الناس التفاخر بالأموال، والأولاد، والرجال عن طاعة الله، وعن الاستعداد للآخرة؛ حتى متم، ودفنتم في المقابر. هذا؛ وقال الزمخشري: وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: (أألهاكم) على الاستفهام؛ الذي معناه التقرير.

قال ابن بريدة ـ رضي الله عنه ـ: نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار: بني حارثة، وبني الحارث، تفاخروا، وتكاثروا، فقالت إحداهما: فيكم مثل فلان بن فلان، وفلان. وقال الآخرون: مثل ذلك. تفاخروا بالأحياء، ثم قالوا: انطلقوا بنا إلى القبور، فجعلت إحدى الطائفتين تقول: فيكم مثل فلان (يشيرون إلى القبور) ومثل فلان. وفعل الآخرون مثل ذلك، فأنزل الله الآية، وما بعدها، وهذا يعني: أن السورة مدنية.

وقال الزمخشري: روي: أن بني عبد مناف، وبني سهم تفاخروا أيهم أكثرعدداً، فكثرتهم بنو عبد مناف، فقالت بنو سهم: إن البغي أهلكنا في الجاهلية، فعادونا بالأحياء، والأموات، فكثرهم بنو سهم، وهذا يعني: أن السورة مكية.

والمعنى: ألهاكم التكاثر بالأموال، والأولاد، والتفاخر بالرجال إلى أن متم، وقبرتم منفقين أعماركم في طلب الدنيا، والاستباق إليها، والتهالك عليها، إلى أن أتاكم الموت لا همَّ لكم غير ذلك عما هو أولى بكم من السعي لعاقبتكم، والعمل لآخرتكم. وزيارة القبور كناية عن الموت. قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ الآية تعم جميع ما ذكر، وغيره. وخذ ما يلي:

عن عبد الله بن الشخير ـ رضي الله عنه ـ قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ...﴾ إلخ فقال: «**يقول ابن آدم: مَالي مالي، وهل لكَ يا بن آدم من مالك إلا ما أكلْتَ فأفنيت، أو لبستَ فأبليْتَ، أو تصدقتَ فأمْضَيْتَ؟**». رواه مسلم، والترمذي، والنسائي.

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: «**يتبعُ الميتَ ثلاثٌ: أهلُهُ، ومالُهُ، وعملُهُ، فيرجعُ اثنان، ويبقَى واحِدٌ، يرجعُ أهلُهُ، ومالُهُ، ويبقى عَمَلُهُ**». رواه الشيخان. والأحاديث في ذلك كثيرة ومسطورة في كتاب: «الترغيب والترهيب» وغيره. وخذ قول الشاعر: [مجزوء الرجز]

الــمــوتُ يــأتــي بَــغْــتَــةً والــقــبــرُ صــنــدوقُ الــعَــمَــلْ

المقابر: جمع مقبرة. بفتح الباء، وضمها، والقبور. جمع: القبر. قال الشاعر: [الوافر]

أرَى أهــلَ الــقــصــورِ إذَا أُمِــيــتُــوا بَــنَــوْا فــوقَ الــمــقــابِــرِ بــالــصُّــخُــورِ
أبَــوْا إلَّا مُــبَــاهَــاةٍ وفــخــراً عــلــى الــفــقــراءِ حــتــى فــي الــقــبــورِ

وقد جاء في الشعر: المقبر، بفتح الباء قال الشاعر: [الطويل]

لــكــلِّ أنــاسٍ مَــقْــبَــرٌ بــفــنــائِــهِــمْ فــهــمْ يَــنْــقُــصُــونَ والــقُــبــورُ تَــزِيــدُ

وانظر ما ذكرته في سورة (عبس) رقم [٢١].

قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: لم يأت في التنزيل ذكر المقابر إلا في هذه السورة، وزيارتها من أعظم الدواء للقلب القاسي؛ لأنها تذكر الموت، والآخرة، وذلك يحمل على قصر الأمل، والزهد في الدنيا، وترك الرغبة فيها. قال النبي ﷺ: «**كنت نهيتكمْ عن زيارةِ القُبُورِ، فزوروا القبور فإنها تزهِّدُ في الدنيا، وتذكِّرُ الآخرة**». أخرجه ابن ماجه عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ. وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ: «**لَعَنَ زَوَّاراتِ القُبُورِ**». أخرجه الترمذي. وقد رأى بعض أهل العلم: أن هذا كان قبل أن يرخص النبي ﷺ في زيارة القبور، فلما رخص دخل في رخصته الرجال، والنساء. وقال بعضهم: إنما كره زيارة القبور للنساء لقلة صبرهنَّ، وكثرة جزعهنَّ.

قلت: زيارة القبور للرجال متفق عليها عند العلماء، مختلف فيها للنساء، أما الشواب؛ فحرام عليهن الخروج، وأما القواعد؛ فمباح لهن ذلك، وجائز لجميعهن ذلك إذا انفردن بالخروج عن الرجال، ولا يختلف في هذا؛ إن شاء الله. وعلى هذا المعنى يكون قوله: «**زُورُوا القبورَ**». عامّاً، وأما موضع، أو وقت يخشى فيه الفتنة من اجتماع الرجال، والنساء؛ فلا يحل، ولا يجوز، فبينما الرجل يخرج ليعتبر، فيقع بصره على امرأة، فيفتتن، وبالعكس، فيرجع كل واحد من الرجال والنساء مأزوراً غير مأجور. والله أعلم. انتهى.

الإعراب: ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والكاف مفعول به، ﴿التَّكَاثُرُ﴾: فاعل، والمتعلق محذوف للتعميم. انظر الشرح. والجملة الفعلية مبتدأة لا محل لها. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف غاية، وجر بعدها «أن» مضمرة. ﴿زُرْتُمُ﴾: فعل ماض مبني على السكون في محل نصب بـ: «أن» المضمرة بعد ﴿حَتَّىٰ﴾، والتاء فاعله. ﴿الْمَقَابِرَ﴾: مفعول به، و«أن»

المضمرة بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ والفعل (زار) في تأويل مصدر في محل جر بـ: ﴿حَتَّىٰ﴾، والجار، والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما. هذا؛ وقال الجمل: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ﴾ عطف على قوله: ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ وهو غاية في نفسه. أقول: والمعنى لا يؤيده؛ لأن معنى ﴿حَتَّىٰ﴾ هنا بمعنى إلى أن زرتم.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾

الشرح: ﴿كَلَّا﴾: اعتبر الجلال ﴿كَلَّا﴾ الثالثة بمعنى: حقاً والأوليين للردع، والزجر، وجرى غيره على التسوية بين الثلاثة، وفي القرطبي: وقيل: إن ﴿كَلَّا﴾ في المواضع الثلاثة بمعنى: ألَا. قاله ابن أبي حاتم. وقال الفراء: هي بمعنى: حقاً في المواضع الثلاثة. وقيل: هي للردع، والزجر في المواضع الثلاثة. انتهى. جمل. وانظر ما ذكرته بشأن ﴿كَلَّا﴾ في سورة (المدثر) برقم [١٦]. وقال البيضاوي ـ رحمه الله تعالى ـ: ردع، وتنبيه على أن العاقل ينبغي له أن لا يكون جميع همه، وعظم سعيه للدنيا، فإن عاقبة ذلك وبال، وحسرة.

﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: خطأ رأيكم، إذا عاينتم ما وراءكم، وهو إنذار ليخافوا، ويتنبهوا من غفلتهم. ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: تكرير للتأكيد، وفي ﴿ثُمَّ﴾ دلالة على أن الثاني أبلغ من الأول. أو الأول عند الموت، أو في القبر، والثاني عند النشور. انتهى. بيضاوي. وانظر مثل هذا التوكيد في سورة (القلم) رقم [٥] وفي أول سورة (النبأ).

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما ينزل بكم من العذاب في القبر. ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في الآخرة إذا حل بكم العذاب. فالأول في القبر، والثاني في الآخرة، فالتكرار للحالتين. وروى زِرُّ بن حبيش عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا نشك في عذاب القبر؛ حتى نزلت هذه السورة فأشار إلى أن قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يعني في القبور. وقيل ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ إذا نزل بكم الموت، وجاءتكم رسلي لنزع أرواحكم. ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ إذا دخلتم قبوركم، وجاءكم منكر ونكير، وحاط بكم هول السؤال، وانقطع عنكم الجواب.

قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: فتضمنت السورة القول في عذاب القبر، وأن الإيمان به واجب، والتصديق به لازم، حسب ما أخبر به الصادق، وأن الله يحيي العبد المكلف في قبره، يرد الحياة إليه، ويجعل له من العقل في مثل الوصف؛ الذي عاش عليه، ليعقل ما يسأل عنه، وما يجيب به، ويفهم ما أتاه من ربه، وما أُعدَّ له في قبره من كرامة، أو هوان. وهذا هو مذهب أهل السنة، والذي عليه الجماعة من أهل الملة. هذا؛ وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٢٧] من سورة (إبراهيم) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام، تجد ما يسرك. وانظر شرح ﴿ثُمَّ﴾ في الآية رقم [٣١] من سورة (الحاقة). والفعل ﴿تَعْلَمُونَ﴾ من المعرفة، لا من العلم، انظر الآية رقم [٩] من سورة (العاديات) هذا؛ و﴿سَوْفَ﴾ في حق الله تعالى تفيد التوكيد، والتحقيق.

الإعراب: ﴿كَلَّا﴾: انظر ما قيل فيها في الشرح. ﴿سَوْفَ﴾: حرف تسويف، واستقبال. وانظر الشرح أيضاً. ﴿تَعْلَمُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله، والمفعول محذوف للتعميم، والجملة الفعلية مبتدأة، أو مستأنفة، لا محل لها على الاعتبارين، والتي بعدها معطوفة عليها، وقد جعله ابن مالك من التوكيد اللفظي مع توسط حرف العطف. وقال الزمخشري: والتكرير تأكيد للردع، والرد عليهم، و﴿ثُمَّ﴾ دالة على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأول. وانظر الشرح.

تنبيه: قال ابن هشام رحمه الله في المغني: إذا تعلق الإعلام بمجرد إيقاع الفاعل للفعل، فيقتصر عليهما، ولا يذكر المفعول، ولا يُنوى؛ إذ المنويُّ كالثابت، ولا يسمى محذوفاً؛ لأن الفعل ينزل لهذا القصد منزلة ما لا مفعول له، ومنه قوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [٢٥٨]: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾، وقوله تعالى في سورة (الزمر) رقم [٩]: ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وقوله تعالى في سورة (الأعراف) [٣١]: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾، وقوله تعالى في سورة (الإنسان) رقم [٢٠]: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ﴾ إذ المعنى: ربي الذي يفعل الإحياء، والإماتة. وهل يستوي من يتصف بالعلم، ومن ينتفي عنه العلم؟ وأوقعوا الأكل، والشرب، وذروا الإسراف. وإذا حصلت منك رؤية هنالك. ومنه على الأصح قوله تعالى في سورة (القصص) رقم [٢٣]: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ ألا ترى أنه عليه الصلاة، والسلام إنما رحمهما؛ إذ كانتا على صفة الذياد، وقومهما على السقي، لا لكون مذودهما غنماً ومسقيهم إبلاً، وكذلك التصور من قولهما (نسقي) السقي، لا المسقي، ومن لم يتأمل قدر يسقون إبلهم، وتذودان غنمهما، ولا نسقي غنماً. انتهى.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾

الشرح: أي: لو تعلمون اليوم من البعث، والحشر، والمجازاة ما تعلمونه إذا جاءتكم نفخة الصور، وانشقت اللحود عن جثثكم كيف يكون حشركم، وجزاؤكم؛ لشغلكم ذلك عن التكاثر بالدنيا. وقيل: المعنى لو تعلمون كيف تتطاير الصحف؛ فالناس بين شقي، وسعيد في ذلك اليوم العظيم شأنه، الطويل زمانه. ﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: علماً يقيناً. فهو من إضافة الموصوف إلى صفته. وقال القرطبي: وإضافة العلم إلى اليقين، كقوله تعالى في سورة (الواقعة) رقم [٩٥]: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾، وفي سورة (الحاقة) رقم [٥١]: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾. وقال النسفي: التقدير علم الأمر اليقين.

﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾: فهو كقوله تعالى في سورة (النازعات): ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ والخطاب للكفار؛ الذين وجبت لهم النار. وقيل: هو عام لجميع الناس، كما قال تعالى في سورة (مريم) رقم [٧١]: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا...﴾ إلخ فهي للكفار دار، ومقر، وللمؤمنين على ظهرها ممر.

هذا؛ والقاعدة: أن الفعل المضارع المراد توكيده بنون التوكيد، إذا أُسْنِدَ إلى واو الجماعة، أو ياء المؤنثة المخاطبة. فإن كان صحيح الآخر؛ حذف منه نون الرفع لتوالي الأمثال، وحذف منه واو الجماعة، وتبقى ضمة قبل نون التوكيد دليلاً عليها، وحذف منه أيضاً ياء المخاطبة، وتبقى كسرة قبل نون التوكيد دليلاً عليها. وإن كان معتل الآخر، حذف منه حرف العلة، إن كان واواً، أو ياءً، أو ألفاً، وحذفت واو الجماعة أيضاً؛ إلا مع المعتل بالألف، فتبقى محركةً بحركة مجانسة لها مثل: ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ ولا يجوز حذف الواو لالتقاء الساكنين؛ لأن قبلها فتحة، والفتحة لا تدل على الواو لو حذفت، كما هو الظاهر.

الإعراب: ﴿كَلَّا﴾: انظر الكلام عليها فيما سبق. ﴿لَوْ﴾: حرف لما كان سيقع لوقوع غيره. ﴿تَعْلَمُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع. . .إلخ، والواو فاعله، ﴿عِلْمَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿ٱلْيَقِينِ﴾ مضاف إليه، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي. وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف، انظر تقديره في الشرح، وقدره ابن هشام في المغني: لارتدعتم، وما ألهاكم التكاثر. وقال الرسول ﷺ: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً**». و﴿لَوْ﴾ ومدخولها كلام مستأنف بعد ﴿كَلَّا﴾، لا محل له.

﴿لَتَرَوُنَّ﴾: اللام واقعة في جواب قسم محذوف، التقدير: وعزتي وجلالي. ونحو ذلك. (ترونَّ): فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه النون المحذوفة لتوالي الأمثال. والواو فاعله، والنون حرف لا محل له. ﴿ٱلْجَحِيمَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية جواب القسم المحذوف؛ الذي رأيت تقديره. والقسم وجوابه كلام مستأنف، لا محل له.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾

الشرح: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ يعني: الجحيم. ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: عياناً، ومشاهدةً بأبصاركم عن بعد، وإذا رأوها؛ فإنها تراهم كذلك. قال تعالى في سورة (الفرقان) رقم [١٢]: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ انظر شرحها هناك، فإنه جيد، والحمد لله. هذا؛ وقيل: معنى: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: لو تعلمون في الدنيا علم اليقين فيما أمامكم مما وصفت ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ بعيون قلوبكم، فإن علم اليقين يريك الجحيم بعين فؤادك، وهو أن تتصور لك تارات القيامة، وقطع مسافاتها. ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: عند المعاينة بعين الرأس، فتراها يقيناً، لا تغيب عن عينك. هذا؛ و﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ مثل: ﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ في سورة (الواقعة) وسورة (الحاقة).

﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: الذي ألهاكم، وشغلكم عن طاعة الله، وطاعة رسوله، والخطاب مخصوص بكل من ألهاه دنياه عن دينه، والنعيم مخصوص بما يشغله للقرينة، والنصوص

الكثيرة، كقوله تعالى في سورة (الأعراف) رقم [٣٢]: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾، وقال تعالى في سورة (البقرة) [١٦٨]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ وما يشبهها في سورة (المائدة) رقم [٨٨] وسورة (الأنفال) رقم [٦٩] ونعيم الدنيا أهمه الأمن، والصحة، وسائر ما يتلذذ به من مطعم، ومشرب، ومسكن، ومفرش ومركب. . . إلخ.

والسؤال يوم القيامة عن النعيم يعم الكافر، والمؤمن، وهو الأولى، لكن سؤال الكافر سؤال توبيخ، وتقريع؛ لأنه ترك شكر ما أنعم الله به عليه، والمؤمن يسأل سؤال تشريف، وتكريم؛ لأنه شكر ما أنعم الله به عليه، وأطاع ربه، فيكون السؤال في حقه تذكرة بنعم الله عليه. يدل على ذلك ما روي عن الزبير ـ رضي الله عنه ـ قال: لما نزلت: ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ يا رسول الله! وأي نعيم نسأل عنه، وإنما هما الأسودان: التمر والماء. قال: «**أما إنه سيكون**». أخرجه الترمذي. انتهى. خازن. أقول: وهذا من النبي ﷺ بشارة، وإخبار بما سيكون من النعيم بعده، وقد كان، وكان، وكان. . . إلخ.

وقال الزمخشري ـ رحمه الله تعالى ـ: فإن قلت: ما النعيم الذي يسأل عنه الإنسان، ويعاتب عليه؟ فما من أحد، إلا وله نعيم، قلت: هو نعيم من عكف همته على استيفاء اللذات، ولم يعش إلا ليأكل الطيب، ويلبس اللين، ويقطع أوقاته باللهو والطرب، لا يعبأ بالعلم، والعمل، ولا يحمل نفسه مشاقهما، فأما من تمتع بنعمة الله، وأرزاقه؛ التي لم يخلقها إلا لعباده، وتقوّى بها على دراسة العلم، والقيام بالعمل الصالح، وكان ناهضاً بالشكر؛ فهو من ذاك بمعزل، وإليه أشار رسول الله ﷺ فيما يروى: «**أنه أكل هو وأصحابه تمراً، وشربوا عليه ماءً، فقال: الحمد لله الذي أطْعَمَنا، وسقانَا، وجعَلَنا مُسْلِمِينَ**». انتهى. كشاف.

هذا؛ وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم، أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر، وعمر ـ رضي الله عنهما ـ، فقال: «**ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟**». قالا: الجوع يا رسول الله! قال: «**وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما، قوما!**». فقاما معه، فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة. قالت: مرحباً، وأهلاً، فقال لها رسول الله ﷺ: «**أين فلان؟**». قالت: يستعذب لنا من الماء؛ إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله! ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني! قال: فانطلق، فجاءهم بعذق، فيه بسر، وتمر، ورُطبٌ، فقال: كلوا من هذه. وأخذ المدية، فقال له رسول الله ﷺ: «**إيَّاكَ والحلوبَ!**». فذبح لهم، فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق، وشربوا، فلما أن شبعوا، ورووا؛ قال رسول الله ﷺ لأبي بكر، وعمر ـ رضي الله عنهما ـ: «**والذي نفسي بيده لتسألن عن نعيم هذا اليوم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم**». انتهى. وأخرجه الترمذي، وزاد فيه: «**هذا والذي نفسي**

بيده من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة: ظلٌّ بارد، ورطب طيبٌ، وماء بارد». وكنَّى الرجل الذي من الأنصار، فقال: أبو الهيثم بن التيهان، وذكر قصته. انتهى. قرطبي.

قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: اسم الرجل الأنصاري مالك بن التيهان، ويُكْنَى: أبا الهيثم. وفي هذه القصة يقول عبد الله بن رواحة ـ رضي الله عنه ـ يمدح بها أبا الهيثم بن التيهان: [الطويل]

فَلَمْ أرَ كَالإسْلَامِ عِزّاً لأمَّةٍ ... ولا مثلَ أضيافِ الأراشيِّ مَعْشَرا
نَبِيٌّ وصِدِّيقٌ وفارُوقُ أُمَّةٍ ... وخيْرُ بني حوَّاءَ فرعاً وعُنْصُرَا
فوافَوْا لِميقَاتٍ وقدرِ قَضِيَّةٍ ... وكان قضاءُ الله قَدْراً مُقَدَّرَا
إلَى رَجُلٍ نَجْدٍ يباري بجودِهِ ... شموسَ الضحى جوداً ومجداً ومفخرا
وفارِسِ خَلْقِ الله في كلِّ غَارَةٍ ... إذَا لبِسَ القومُ الحديدَ المُسَمَّرا
ففَدَّى وحَيَّا، ثمَّ أوفى قِرَاهم ... فلمْ يقرِهِمْ إلا سَمِيناً مُتَمَّرَا

انتهى. كله من القرطبي. ومثله في الخازن ما عدا الشعر. وجاء في: «الترغيب والترهيب» للحافظ المنذري الحديث لكنه من رواية ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وتخريج الطبراني، وابن حبان. والمضيف كان أبو أيوب، رضي الله عنه. هكذا ذكر هناك.

الإعراب: ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿لَتَرَوُنَّهَا﴾: اللام: واقعة في جواب القسم المحذوف. (ترونها): فعل مضارع مرفوع مثل سابقه، والواو فاعله، والنون حرف لا محل له، و(ها): مفعول به، والجملة الفعلية جواب القسم المحذوف، والقسم، وجوابه كلام معطوف على ما قبله. ﴿عَيْنَ﴾: مفعول مطلق، عامله ما قبله؛ لأن رأى، وعاين بمعنى واحد، و﴿عَيْنَ﴾ مضاف، و﴿ٱلْيَقِينِ﴾: مضاف إليه. ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ﴾: مثل ما قبلها إعراباً ومحلاً. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: (يوم): ظرف زمان متعلق بما قبله، و(إذ) في محل جر بالإضافة، والتنوين عوض عن جملة محذوفة، التقدير: يوم إذ ترون الجحيم. ﴿عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾: متعلقان بما قبلهما أيضاً. تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

انتهت سورة (التكاثر) شرحاً، وإعراباً

والحمد لله رب العالمين.

سورة العصر

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة (العصر) وهي مكية في قول ابن عباس والجمهور، ومدنية في قول قتادة، وهي ثلاث آيات، وأربع عشرة كلمةً، وثمانية وستون حرفاً. انتهى. خازن.

﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾

الشرح: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ أي: الدهر. قاله ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وغيره. فالعصر مثل: الدهر، ومنه قول الشاعر: [الطويل]

سبيلُ الهوى وعْرٌ وبحرُ الهوى غمرُ ... ويومُ الهوى شهرٌ وشهرُ الهوى دَهْرُ

قيل: أقسم الله به لما فيه من العبر، والعجائب للناظر، وقد ورد في الحديث القدسي: «**لا تسُبُّوا الدهر، فإن الله هو الدهر**». وأيضاً قوله تعالى في الحديث القدسيِّ: «**يسبُّ ابنُ آدمَ الدَّهْرَ، وأنا الدهرُ بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار**». وذلك؛ لأنهم كانوا يضيفون النوائب، والنوازل إلى الدهر، فأقسم الله به تنبيهاً على شرفه، وأن الله هو المؤثر فيه، فما حصل من النوائب، والنوازل، كان بقضاء الله وقدره. وقيل: تقديره: ورب العصر، وقد ذكرت مثل ذلك في أول سورة (الذاريات) و(المرسلات) وغيرهما. وقيل: أراد بالعصر: الليل والنهار؛ لأنهما يقال لهما: العصران. قال حميد بن ثور الهلالي: [الطويل]

ولن يلبث العَصْرانِ يومٌ وليلةٌ ... إذا طَلَبَا أن يُدْرِكا ما تَيَمَّمَا

فنبه الله عز وجل على شرف الليل، والنهار؛ لأنهما خزانتان لأعمال العباد. وقيل: أراد بالعصر: آخر طرفي النهار، ويقال: العصران على التغليب للغداة، والعشي. قال الشاعر: [الطويل]

وأَمْطُلُهُ العَصْرَيْنِ حَتَّى يَمَلَّني ... ويرضَى بِنِصْفِ الدَّيْنِ والأنفُ رَاغِمُ

يقول: إذا جاءني أول النهار؛ وعدته آخره. وقيل: أراد صلاة العصر، أقسم بها لشرفها، ولأنها الصلاة الوسطى في قول بدليل قوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [٢٣٨]: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾. وفي الصحيحين: قال الرسول ﷺ في غزوة الخندق: «**شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاةِ العصر**». وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «**الذي**

تفوتُهُ صلاةُ العصرِ، فكأنما وُتِرَ أهلَهُ، ومالَهُ». رواه الستة ومالك. وقيل: أراد بالعصر: زمن رسول الله ﷺ، أقسم بزمانه، كما أقسم بمكانه في قوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ نبه بذلك على أن زمانه أفضل الأزمان، وأشرفها، كما أن مكانه أفضل الأمكنة، وأشرفها، وبالجملة: فقد أقسم الله تعالى بالزمان؛ لأنه رأس عمر الإنسان، فكل لحظة تمضي، فإنها من عمرك ونقص من أجلك، كما قال القائل: [البسيط]

إنـا لَـنَـفْـرَحُ بـالأيَّـامِ نَـقْـطَـعُـهَـا ... وكـلُّ يَـوْمٍ مَـضَـى نـقـصٌ مِـنَ الأجَـلِ

هذا؛ وجمع العصر: أعصار، وعصور، وأعْصُر، وعُصُر.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ أي: لفي خسران، ونقصان. قيل: أراد بالإنسان جنس الإنسان بدليل قولهم: كثر الدرهم؛ أي: الدراهم، وذلك؛ لأن الإنسان لا ينفك عن خسران؛ لأن الخسران هو تضييع عمره، وذلك؛ لأن كل ساعة تمر من عمر الإنسان؛ إما أن تكون تلك الساعة في طاعة، أو معصية، فإن كانت في معصية؛ فهو الخسران المبين الظاهر، وإن كانت في طاعة؛ فلعل غيرها أفضل، وهو قادر على الإتيان بها، فكان فعل غير الأفضل تضييعاً، وخسراناً، فبان بذلك: أنه لا ينفك أحد من خسران. وخذ قول الرسول ﷺ: «**ما مِنْ أحَدٍ يموتُ إلَّا نَدِمَ**». قالوا: ومَا نَدَامَتُهُ يا رسولَ الله؟! قالَ: «**إنْ كانَ محسناً؛ نَدِمَ ألَّا يكُونَ ازْدَادَ، وإن كان مسيئاً نَدِمَ ألا يكُونَ نَزَعَ**». أخرجه الترمذي، والبيهقي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

وقيل: إن سعادة الإنسان في طلب الآخرة، وحبها، والإعراض عن الدنيا، والزهد فيها. ثم إن الأسباب الداعية إلي حبِّ الآخرة خفيةٌ والأسباب الدَّاعية إلى حب الدنيا ظاهرة، فلهذا السبب كان أكثر الناس مشتغلين بحب الدنيا مستغرقين في طلبها، فكانوا في خسار، وبوار، قد أهلكوا أنفسهم بتضييع أعمارهم. وخذ قوله تعالى في سورة (الروم) رقم [٧]: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ انظر شرحها هناك. وقيل: أراد الإنسان الكافر بدليل: أنه استثنى المؤمنين. أقول: بل المراد جنس الإنسان بمعنى كل إنسان، والاستثناء يكون أظهر.

وقيل: المراد أن الإنسان إذا عمر في الدنيا، وهرم لفي نقص، وتراجع إلا الذين آمنوا؛ فإنه تكتب أجورهم، ومحاسن أعمالهم؛ التي كانوا يعملونها في شبابهم، وصحتهم، فهي مثل قوله تعالى في سورة (التين): ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ انتهى. كله من الخازن بتصرف كبير. هذا؛ و﴿خُسْرٍ﴾ يقرأ بضم السين، وسكونها. انظر سورة (الشرح) رقم [٥].

الإعراب: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾: جار ومجرور متعلقان بفعل محذوف، تقديره: أقسم. وانظر الشرح لبيان المقسم به. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾. ﴿لَفِى﴾: اللام: هي

المزحلقة. (في خسر): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية جواب القسم لا محل لها، والقسم، وجوابه كلام مبتدأ.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾

الشرح: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فليسوا في خسران، و﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، فحكم الله بالخسران على جميع الناس إلا من كان آتياً بهذه الأشياء الأربعة، وهي: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر. فهذه الأمور اشتملت على ما يخص الإنسان نفسه، وهو الإيمان، والعمل الصالح، وما يخص غيره، وهو: التواصي بالحقِّ، والتواصي بالصبر.

قال أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ: قرأت على رسول الله ﷺ: ﴿وَٱلْعَصْرِ...﴾ إلخ، ثم قلت: ما تفسيرها يا نبي الله؟! قال: «﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ **قسم من الله، أقسم ربكم بآخر النهار**. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾: **أبو جهل**. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: **أبو بكر**. ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: **عمر**. ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾: **عثمان**. ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾: **علي**» ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ. وهكذا خطب ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ على المنبر.

تنبيه: أخرج البيهقي في الشعب عن أبي حذيفة، عبيد الله بن حفص ـ وكانت له صحبة ـ قال: كان الرجلان من أصحابِ رسول الله ﷺ إذا التقيا؛ لَمْ يتفرقَا؛ حتى يقرأ أحدُهُمَا على الآخر سورة (العصر)، ثم يسلم أحدهما على الآخر.

هذا؛ وانظر شرح الحق في الآية رقم [٣٩] من سورة (النبأ) وشرح (الصبر) في الآية رقم [١٠] من سورة (المزمل). هذا؛ والإيمان الصحيح هو: الإقرار باللسان، والتصديق بالجنان، والعمل بالأركان. ولما سئل الرسول ﷺ عن الإيمان قال: «**الإيمانُ أن تؤمنَ بالله، وملائكتِهِ، وكتبِهِ، ورسلِهِ، واليومِ الآخرِ، والقدرِ خيرِهِ، وشرِّهِ من الله تعالى**». والإيمان يزيد، وينقص على المعتمد كما رأيت في الآية رقم [٢] من سورة (الأنفال) وله شعب كثيرة، وهي سبع وسبعون شعبة، أعلاها: (لا إلهَ إلا اللهُ) وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق. وهو بفتح الهمزة جمع: يمين، وهو الحلف بالله، أو بصفة من صفاته، أو اسم من أسمائه. قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾. واليمين أيضاً اليد اليمنى، ويجمع أيضاً على أيمان، كما في الآيات الكثيرة ولا يجمع إذا كان بالمعنى الأول.

هذا؛ وأصل آمن أَأْمن بهمزتين، قلبت الثانية مداً مجانساً لحركة الأولى، كما قلبت في إيمان، فإن أصله إِأْمان، وكما قلبت في أُومن، فإن أصله أُأَأْمِن بثلاث همزات، فاستثقلوا اجتماع ثلاث همزات. فحذفوا الثانية طلباً للتخفيف، فبقي: أأْمن بهمزتين: الأولى مضمومة،

والثانية ساكنة، فقلبت الساكنة واواً لسكونها وانضمام ما قبلها، فصار أُومِن، ومثل آمنَ آدم في إعلاله، وما جرى مجراه.

الإعراب: ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب على الاستثناء من الإنسان. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق. هذا الإعراب هو الظاهر، والمتعارف عليه في مثل هذا اللفظ، والإعراب الحقيقي أن تقول: مبني على فتح مقدر على آخره، منع من ظهوره اشتغال المحل بالضمة التي جيء بها لمناسبة واو الجماعة، والمتعلق محذوف، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها، والتي بعدها معطوفة عليها، لا محل لها مثلها. ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم. (تواصَوْا): فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف المحذوفة لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة؛ التي هي فاعله، والألف للتفريق. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: متعلقان بما قبلهما. هذا؛ واعتبار الموصول في محل نصب على الاستثناء من ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ فيه ضعف، والأقوى اعتباره مبتدأ، وخبره محذوف، التقدير: فإنهم ليسوا في خسر. أو التقدير: فإنهم اشتروا الآخرة بالدنيا، والجملة الاسمية حينئذ في محل نصب على الاستثناء من ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾. وتقدم كثير مثل ذلك. تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه، وسلم.

انتهت سورة (العصر) شرحاً، وإعراباً.

والحمد لله رب العالمين.

سورة الهمزة

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة (الهمزة) مكية، وهي تسع آيات، وثلاثون كلمةً، ومئة وثلاثون حرفاً.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝٣﴾

الشرح: ﴿وَيْلٌ﴾: انظر الآية رقم [١٥] من سورة (المرسلات). ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾: التاء فيهما للمبالغة في الوصف؛ أي: كثير الهمز، واللمز. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هم المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الباغون العيب للبريء. وعليه فهما بمعنى واحد. وانظر الآية رقم [١١] من سورة (القلم). وقال زياد الأعجم في جمعهما بمعنى واحد: [البسيط]

تُدْلِي بِوُدٍّ إذَا لَا قَيْتَنِي كَذِباً ... وإنْ أُغَيَّبْ فأنتَ الهامِزُ اللُّمَزَه

وقال آخر بجمعهما أيضاً بمعنى واحد: [البسيط]

إذَا لَقِيتُكَ عنْ شَحْطٍ تُكَاشِرُنِي ... وإنْ تَغَيَّبْتُ كُنْتَ الهامِزَ اللُّمَزَه

الشحْط: البعد. وقال أبو العالية، وغيره، الهمزة: الذي يغتاب، ويطعن في وجه الرجل، واللمزة: الذي يغتابه من خلفه إذا غاب، ومنه قول حسان ـ رضي الله عنه ـ: [الوافر]

هَمَزْتُكَ فاخْتَضَعْتَ بِذُلِّ نَفْسٍ ... بِقَافِيَةٍ تَأَجَّجُ كالشُّوَاظِ

واختار هذا القول النحاس. قال: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ الآية رقم [٥٨] من سورة (التوبة). وقال مقاتل ضد هذا الكلام: إن الهمزة الذي يغتاب بالغيبة، واللمزة الذي يغتاب في الوجه. هذا؛ والمشهور: أن بناء فُعَلة (بضم الفاء وفتح العين) لمبالغة الفاعل، وبناء: فُعْلَة (بضم الفاء، وسكون العين) لمبالغة المفعول، يقال: رجل لعنة (بضم اللام، وفتح العين) لمن كان يكثر لعن غيره، ولُعْنة (بضم اللام وسكون العين) إذا كان ملعوناً للناس يكثرون لعنه. وعبارة السمين: والعامة على فتح ميم همزة، ولمزة على أن المراد الشخص الذي يكثر منه ذلك الفعل. ويقرأ بالسكون.

وحاصل هذه الأقاويل يرجع إلى أصل واحد، وهو: الطعن، وإظهار العيب، وأصل الهمز: الكسر، والقبض على الشيء بعنف، والمراد منه هنا: الكسر من أعراض الناس بأقوالهم، وأعمالهم، وأصواتهم ليضحكوا منه. واختلفوا فيمن نزلت هذه السورة من كفار قريش على أقوال كثيرة، والأولى التعميم، وذلك؛ لأن خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ، والحكم.

﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾: وإنما وصفه بهذا الوصف؛ لأنه يجري مجرى السبب، والعلة في الهمز، واللمز، يعني: وهو بإعجابه بما جمع من المال يستصغر الناس، ويسخر منهم. ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾ أي: أحصاه من العدد. وقيل: هو من العدة؛ أي: استعده، وجعله ذخيرة له، وغنىً مدخراً. وانظر شرح (جمع) في الآية رقم [١٨] من سورة (المعارج). هذا؛ ويقرأ بتخفيف الدالين على أنه اسم منصوب معطوف على ﴿مَالًا﴾، التقدير: جمع مالاً، وعدده: وجمع عَدَدَه. ولا يحسن أن يكون فعلاً ماضياً معناه التشديد، مع فك التضعيف؛ لأن فك التضعيف، لا يجوز إلا إذا اتصل الفعل بضمير رفع متحرك، مثل مددْت، ومددْنا، ومددْن، ولذا شذ قول الشاعر وهو قعنب بن أم صاحب: [البسيط]

مَـهْـلاً أُمَـامَـةُ قَـدْ جَـرَّبْـتِ مِـنْ خُـلُـقـي ... إنِّــي أجــودُ لأَقْــوامٍ وإنْ ضَــنِــنُــوا

فأراد الشاعر: ضنُّوا، وبخلوا، فأظهر التضعيف، لكن الشعر موضع ضرورة، ولا يحمل القرآن على الضرورة، بل حمله على المعنى الذي ذكرته أولى، وأحق.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ أي: يظن: أنه يخلد في الدنيا، ولا يموت؛ ليساره، وغناه. قال: الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ:

ما رأيت يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت. ومعناه: أن الناس لا يشكون في الموت، مع أنهم يعملون عمل من يظن أنه يخلد في الدنيا، ولا يموت، و﴿أَخْلَدَهُۥ﴾ ماض بمعنى المستقبل أي: يظن لجهله: أن ماله يخلده؛ أي: يوصله إلى رتبة الخلود في الدنيا، فيصير خالداً فيها، فلا يموت، أو يعمل من تشييد البنيان الموثق بالحديد، والإسمنت، وغراس الأشجار، وعمارة الأرض عمل من يظن أن ماله يبقيه حيّاً أبد الدهر. وانظر شرح (يحسب) في الآية رقم [٣] من سورة (القيامة).

الإعراب: ﴿وَيْلٌ﴾: مبتدأ، سوغ الابتداء به، وهو نكرة معنى الدعاء فيه. ﴿لِّكُلِّ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، و(كُلِّ) مضاف، و﴿هُمَزَةٍ﴾: مضاف إليه. ﴿لُّمَزَةٍ﴾: مرادف لـ: ﴿هُمَزَةٍ﴾ على اعتبارهما بمعنى واحد، وبدل منه على اعتبارهما مختلفي المعنى. ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل جر بدلاً من (كل)، أو هو في محل نصب مفعول به لفعل محذوف، تقديره: أعني، أو هو في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هو

الذي. ﴿جَمَعَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلَّذِى﴾، والجملة صلة الموصول، لا محل لها. ﴿مَالًا﴾: مفعول به. ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾: الواو: حرف عطف. (عدده): فعل ماض، والهاء مفعول به، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلَّذِى﴾، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها. ﴿يَحْسَبُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلَّذِى﴾. ﴿أَنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿مَالَهُۥ﴾: اسم ﴿أَنَّ﴾، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿أَخْلَدَهُۥ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿مَالَهُۥ﴾، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر ﴿أَنَّ﴾، و﴿أَنَّ﴾ واسمها، وخبرها في تأويل مصدر في محل نصب سد مسد مفعولي ﴿يَحْسَبُ﴾، والجملة الفعلية في محل نصب حال من فاعل ﴿جَمَعَ﴾ و﴿أَخْلَدَهُۥ﴾، والرابط: الضمير فقط، أو هي مستأنفة، لا محل لها.

﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾﴾

الشرح: ﴿كَلَّا﴾: انظر الآية رقم [١٦] من سورة (المدثر). ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ أي: ليلقين، وليطرحن الذي جمع المال وعدده في الحطمة؛ أي: النار، وهو اسم من أسمائها. قال تعالى في سورة (الحجر) رقم [٤٤]: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ أي: للنار سبع طبقات، بعضهم فوق بعض ينزلزن فيها بحسب مراتبهم في المتابعة. قال ابن جريج: النار سبع دركات، وهي منازل أهلها، والجنة درجات، فالدرك ما كان إلى أسفل، والدرج ما كان إلى أعلى، فالعليا من طبقات النار لعصاة المسلمين، وهي جهنم تكون بعد خروجهم منها خراباً يباباً، لا نار فيها. والثانية: لظى للنصارى. والثالثة: الحطمة لليهود. والرابعة: السعير للصابئين. والخامسة: سقر للمجوس. والسادسة: الجحيم لأهل الشرك. والسابعة: الهاوية. وهي الدرك الأسفل للمنافقين. قال تعالى في سورة (النساء) رقم [١٤٥]: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ وإنما كان عقابهم كذلك؛ لأنهم أخبث أهل الكفر؛ لأنهم ضموا إلى الكفر استهزاءً بالإسلام، وخداعاً للمؤمنين. هذا؛ ودرجات الجنة ثمانية، وهي: دار الجلال، ودار السلام، وجنة عدن، وجنة المأوى، وجنة الخلد، وجنة الفردوس، وجنة النعيم، ودار الكرامة. وهي المعبر عنها بدار المقامة بقوله تعالى في سورة (فاطر) رقم [٣٥] حكاية عن قول المؤمنين: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ...﴾ إلخ. هذا؛ والردع الذي تضمنته ﴿كَلَّا﴾ ردٌّ على الذي جمع المال، وعدده. والمعنى: لا يخلده ماله، بل يخلده ذكر العلم، والعمل الصالح. ومنه قول علي ـ رضي الله عنه ـ: مات خزان المال وهم أحياء، والعلماء العاملون باقون ما بقي الدهر. وخذ قول أمير الشعراء أحمد شوقي: [الكامل]

دَقَّاتُ قلبِ المرءِ قائلةٌ لهُ إنَّ الحياةَ دَقَائقٌ وثوان

فـارْفَـعْ لـنـفـسِـكَ قَـبـلَ مَـوْتِـكَ ذِكْـرَهـا فـالـذِّكْـرُ لـلإنـسـانِ عُـمْـرٌ ثَـانِ

هذا؛ وسميت ﴿ٱلْحُطَمَةِ﴾ بذلك؛ لأنها تكسر كل ما يلقى فيها، وتحطمه، وتهشمه، والفعل من باب: ضرب. قال الراجز: [الرجز]

إنَّـا حَـطَـمْـنَـا بـالـقَـضِـيـبِ مُـصْـعَـبـا يـومَ كَـسَـرْنـا أنْـفَـهُ لِـيَـغْـضَـبَـا

والمعنى: يا أيها الهمزة اللمزة الذي جمع المال، وعدده، والذي يأكل لحوم الناس، ويكسر من أعراضهم، إن وراءك الحطمة؛ التي تأكل اللحوم، وتكسر العظام. هذا؛ ويقرأ: (لينبذان) بالتثنية؛ أي: هو، وماله. ويقرأ بالبناء للمجهول، على معنى: لَيُنْبَذَنَّ ماله، وقرئ: (لَنَنْبِذَنَّهُ)، وقرئ: (لَينبذُنَّ) بضم الذال، على أن المراد: الهمزة، واللمزة، والمال، وجامعه.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ﴾: استفهام للتهويل، والتعظيم، والتفخيم لشأن النار المسماة بذلك، ثم ذكر الله بقوله: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ﴾: زيادة في تعظيمها، وتفخيمها أضافها ذو الجلالة والإكرام إلى نفسه، ومعنى ﴿ٱلۡمُوقَدَةُ﴾ لا تخمد أبداً، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أُوقِدَ على النارِ ألفَ سَنَةٍ حتَّى احْمرتْ، ثم أُوقِدَ عليها أَلْفَ سَنَةٍ حتى ابْيَضَّتْ، ثمَّ أُوقِدَ عليها ألفَ سنةٍ حتى اسْوَدَّتَ، فهي سَوْدَاءُ مظلمةٌ**». أخرجه الترمذي.

﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾ أي: يبلغ ألمها، وحرها إلى القلوب، والمعنى: أنها تحرق كل شيء، وتأكله حتى تنتهي إلى الفؤاد، وإنما خص الفؤاد بالذكر؛ لأنه ألطف شيء في بدن الإنسان، وأنه يتألم بأدنى شيء، فكيف إذا اطلعت عليه، واستولت عليه، ثم إنه مع لطافته لا يحترق؛ إذ لو احترق لمات صاحبه؛ أي: إنه في حال من يموت، وهم لا يموتون. قال تعالى في سورة (طه) رقم [٧٤]: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾، وقال تعالى في سورة (إبراهيم) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ﴾ رقم [١٧] وإنما خص الفؤاد بالذكر؛ لأنه موطن الكفر والعقائد والنيات الفاسدة.

الإعراب: ﴿كَلَّاۖ﴾: حرف ردع، وزجر. ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾: اللام: واقعة في جواب قسم محذوف، التقدير: وعزتي، وجلالي، ونحو ذلك. (ينبذن): فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة؛ التي هي حرف، لا محل له، والفاعل ضمير مستتر تقديره: «هو» يعود إلى ﴿ٱلَّذِي﴾، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها، والقسم، وجوابه كلام مبتدأ بعد ﴿كَلَّاۖ﴾ لا محل له. ﴿فِي ٱلۡحُطَمَةِ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من الفاعل المستتر، التقدير: ملقى، أو مطروحاً في الحطمة. ﴿وَمَآ﴾: الواو: واو الاستئناف. وانظر سورة (القارعة) رقم [٣] فالإعراب مثله بلا فارق. ﴿نَارُ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هي نار، والجملة الاسمية في محل نصب حال من (الحطمة)، والرابط: الضمير فقط، والعامل (ما) الاستفهامية. وقيل: بدل من (الحطمة)، و﴿نَارُ﴾: مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه.

﴿ٱلْمُوقَدَةُ﴾: صفة ﴿نَارُ ٱللَّهِ﴾. ﴿ٱلَّتِي﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع صفة ﴿نَارُ ٱللَّهِ﴾، أو هي في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف. التقدير: هي التي، أو في محل نصب مفعول به لفعل محذوف. التقدير: أعني: التي. ﴿تَطَّلِعُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلَّتِي﴾ وهو العائد، والجملة الفعلية لا محل لها صلة الموصول. ﴿عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾: متعلقان بما قبلهما.

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾: مطبقة مغلقة، لا يدخل إليهم روح، وريحان. وانظر ما ذكرته في آخر سورة (البلد) وخذ هنا زيادة على ذلك قول عُبَيْد الله بن قيس الرقيات: [الخفيف]

إنَّ في القَصْرِ لَوْ دَخَلْنَا غزالا ... مُصْفَقاً مُوصَداً عليْهِ الحجابُ

﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ يعني: الأبواب هي الممددة. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أدخلهم في عمد ممددة عليهم بعماد، في أعناقهم السلاسل، فسدت بها الأبواب. وقال قتادة: كنا نحدث: أنهم يعذبون بعمد من نار في النار. واختاره ابن جرير. وقال أبو صالح: هي القيود الثقال. وفي حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ: «**ثُمَّ إنَّ الله يبعثُ إليهمْ ملائِكةً بأطباقٍ من نارٍ، ومَساميرَ من نارٍ، وعمدٍ مِنْ نارٍ، فتطبقُ عليهمْ بتلكَ الأطْباقِ، وتشدُّ عليْهِمْ بتلكَ المساميرِ، وتمدُّ بتلك العمدِ، فلا يبقى فيها خللٌ يدخلُ فيه روحٌ، ولا يخرجُ منه غمٌّ، وَيَنْسَاهُمُ الرحمنُ على عرشِهِ، ويتشاغلُ أهلُ الجنةِ بنعيمِهِمْ، ولا يستغيثونَ بعدها أبداً، وينقطعُ الكلامُ، فيكونُ كلامهمْ زفيراً، وشهيقاً، فذلك قوله تعالى**: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾». انتهى. قرطبي. هذا؛ ويقرأ: ﴿عَمَدٍ﴾ بضمتين، وفتحتين. قال الفراء: هما جمعان صحيحان لـ: «عمود» مثل: أديم، وأدَم، وأُدُم، وأفيق، وأَفَق، وأُفُق. الأديم: الجلد المدبوغ، والأفيق: الجلد الذي لم يدبغ. وقال الجوهري: العمود: عمود البيت، وجمع القلة: أعمدة، وجمع الكثرة: عَمَد، وعُمُد.

تنبيه: فلا يبقى لما قاله الشيخ محمد عبده في تفسيره: إن المراد بذلك الكهرباء الناتج عنها الأشعة السينية، وغيرها التي تصور القلب، وغيره من الأحشاء الداخلية، فلا يبقى لقوله مجال بعد أن خوف الله الهمزة، واللمزة الذي يجمع المال، ويعدده بالحطمة الموصوفة بما ذكر. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿إِنَّهَا﴾: (إنَّ): حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿عَلَيْهِم﴾: جار ومجرور متعلقان بما بعدهما. ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾: خبر (إنَّ). ﴿فِى عَمَدٍ﴾: متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هم في عمد، والجملة الاسمية في محل نصب حال من الضمير المجرور

بـ: (على)، كما أجيز تعليق الجار، والمجرور بمفردهما في محل نصب حال من الضمير، التقدير: موثقين في عمد، ويجوز أن يكون الجار، والمجرور متعلقين بمحذوف صفة ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾. قال أبو البقاء: ﴿مُّمَدَّدَةِۭ﴾: صفة ﴿عَمَدٍ﴾. تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

انتهت سورة (الهمزة) شرحاً، وإعراباً.

والحمد لله رب العالمين.

سورة الفيل

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة (الفيل) مكية بالإجماع، وهي خمس آيات، وعشرون كلمةً، وستة وتسعون حرفاً. انتهى. خازن.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ①﴾

الشرح: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ...﴾ إلخ: الخطاب لرسول الله ﷺ، وهو وإن لم يشهد تلك الواقعة، لكن شاهد آثارها، وسمع بالتواتر أخبارها، فكأنه رآها، ولذا قال: ﴿كَيْفَ﴾، ولم يقل: «ما»؛ لأن المراد تذكير ما فيها من وجوه الدلالة على كمال علم الله، وقدرته، وعزة نبيه، وشرف رسوله ﷺ، فإنها من الإرهاصات. انتهى. بيضاوي. هذا؛ والفيل حيوان معروف، وجمعه: أفيال، وفيول، والأنثى: فيلة وصاحبها: فيَّال، وقصة أصحاب الفيل كانت كما يلي.

روي: أن أبرهة بن الصباح، ملك اليمن من قِبَل أصحمة النجاشي ملك الحبشة، وهو النجاشي الذي آمن بالنبي ﷺ بنى كنيسة بصنعاء، وسماها القلَّيْس، وأراد أن يصرف إليها الحاج عن مكة، فخرج رجل من كنانة، فقعد فيها، وتغوَّط فيها، ولطخ بالعذرة قبلتها، فأغضب أبرهة ذلك. وقيل: أججت رفقة من العرب ناراً، فحملتها الريح، فأحرقتها، فحلف: ليهدمن الكعبة! فخرج بجيشه، ومعه فيل عظيم، اسمه محمود، وكان قوياً عظيماً. واثنا عشر فيلاً غيره، فلما جاء المغمَّس (موضع قرب مكة في طريق الطائف) خرج إليه عبد المطلب، وعرض عليه ثلث أموال تهامة ليرجع، فأبى، وعبأ جيشه، وقدم الفيل، وكانوا كلما وجهوه إلى الحرم، برك، ولم يبرح، وإذا وجهوه إلى اليمن، أو إلى الشام؛ هرول.

فأرسل الله عليهم طيراً مع كل طائر حجر بمنقاره، وحجران في رجليه، أكبر من العدسة، وأصغر من الحمصة، فكان الحجر يقع على رأس الرجل، فيخرج من دبره، وعلى كل حجر اسم من يقع عليه، ففروا، وهلكوا، وهلك أبرهة، وما مات حتى انصدع صدره عن قلبه، وانفلت وزيره أبو يكسوم، وطائر يحلق فوقه؛ حتى بلغ النجاشي في الحبشة، فقص عليه القصة، فلما أتمها؛ وقع عليه الحجر، فخر ميتاً بين يديه.

وروي: أن أبرهة أخذ لعبد المطلب، مئتي بعير، فخرج إليه يطلبها منه، فلما رآه عظم في عينه، وكان عبد المطلب رجلاً جسيماً، ووسيماً. وقيل لأبرهة: هذا سيد قريش، وصاحب عير مكة الذي يطعم الناس في السهل، والوحوش، والطير في رؤوس الجبال، فلما ذكر حاجته، وهي الإبل. قال له أبرهة: سقطت من عيني! جئت لأهدم البيت؛ الذي هو دينك، ودين آبائك، وشرفكم في قديم الدهر، فألهاك عنه ذود من الإبل أخذ لك، فقال عبد المطلب: أنا رب الإبل، وللبيت ربٌّ سيمنعه منك! قال: ما كان ليمنعه مني! فقال: أنت، وذاك! فأمر بإبله، فردت عليه. فخرج عبد المطلب، فأخبر قريشاً، وأمرهم أن يتفرقوا في الشعاب، ويتحرزوا في رؤوس الجبال تخوفاً عليهم من معرة الجيش، ففعلوا، وأتى عبد المطلب الكعبة، وأخذ حلقة الباب، وجعل يقول: [الرجز]

يَا رَبِّ لا أرجو لهمْ سِواكا ... يا رَبِّ فامنعْ منهمُ حِمَاكا

إن عدُوَّ البَيْتِ من عَادَاكا ... امنَعهُمُ أن يخربُوا قِراكَا

وفي رواية أخرى (إنَّهُمُ لَنْ يَقْهَرُوا قِوَاكَا) وقال أيضاً: [مجزوء الكامل]

لا هُمَّ إن العبدَ يَمْـ ... ـنَعُ رَحْلَهُ فامنعْ رِحَالَكْ

وانصرْ على آل الصَّلـ ... ـيبِ وعابديهِ اليومَ آلَكْ

لا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُمْ ... وَمحَا لهُمْ أبداً مِحَالكْ

جَرُّوا جموعَ بلادِهِمْ ... والفيلَ كيْ يسبُوا عِيَالكْ

عمدُوا حِمَاكَ بكيدِهِمْ ... جهْلاً وما رَقبُوا جَلَالَكْ

إنْ كُنْتَ تاركَهُمْ وكَعْـ ... ـبتَنَا فأَمْرٌ ما بَدَا لكْ

تنبيه: لما خرج أبرهة من اليمن قاصداً مكة، فسمعت العرب بذلك، فعظموه، ورأوا جهاده حقاً عليهم، فخرج ملك من ملوك اليمن، يقال له: ذو نَفْر بمن أطاعه من قومه. فقاتلوه، فهزمه أبرهة، وأراد قتله. فقال له: أيها الملك استبقني، فإن بقائي خير لك من قتلي. فاستحياه، وأوثقه، ثم سار حتى إذا دنا من بلاد خثعم، خرج إليه نُفَيْل بن حبيب الخثعمي في خثعم، ومن اجتمع إليه من قبائل اليمن، فقاتلوه، فهزمهم، وأخذ نفيلاً، فقال نفيْلٌ: أيُّها الملكُ إني خبير بأرض العرب، وهاتان يداي على قومي بالسمع، والطاعة. فاستبقاه، وخرج معه يدله، حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن مغيث في رجال من ثقيف، فقال: أيها الملك نحن عبيدك، ليس عندنا خلاف لك، إنما تريد البيت الذي بمكة نحن نبعث معك من يدلك عليه، فبعثوا معه «أبا رغال» مولى لهم، فخرج حتى إذا كان بالمغمَّس؛ مات أبو رغال، وهو الذي يرجم قبره، وفيه يقول الشاعر: [الوافر]

وأرْجُمُ قَبْرَهُ في كلِّ عامٍ كَرَجْمِ الناسِ قَبْرَ أبي رِغَالِ

فلما أنزل الله بهم بلاءه، ومات منهم من مات بالحجارة؛ التي نزلت عليهم من السماء، ومن بقي منهم؛ خرجوا هاربين مبتدرين الطريق؛ التي جاؤوا منها؛ أخذوا يسألون عن نفيْل بن حبيب؛ ليدلهم على الطريق إلى اليمن فقال نفيل حين رأى ما أنزل الله بهم من نقمته: [الرجز]

أينَ المَفَرُّ والإلهُ الطالِبُ وَالأشْرَمُ المغلوبُ ليْسَ الغَالِبُ

وهذا هو الشاهد رقم [٥٥١] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» وقال أيضاً: [الوافر]

حمدتُ الله إذْ أبصرتُ طَيْراً وخِفْتُ حجارةً تُلْقَى علينَا

فكلُّ القومِ يسألُ عنْ نفيْلٍ كأنَّ عليَّ لِلْحُبْشَانِ دَيْنَا

وقصة أصحاب الفيل كانت عام مولد النبي ﷺ.

الإعراب: ﴿أَلَمْ﴾: (الهمزة): حرف استفهام، وتقرير. (لم): حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: (لم)، وعلامة جزمه حذف حرف العلة من آخره، وهو الألف، والفتحة قبلها دليل عليها، والفاعل مستتر تقديره: «أنت»، وهو معلق عن العمل لفظاً بسبب الاستفهام بعده. ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام مبني على الفتح في محل نصب مفعول مطلق، عامله ما بعده، أو في محل نصب حال من ﴿رَبُّكَ﴾، واختار الأول ابن هشام في المغني، والمعنى: أي فعل فعل، وأما نصبه على الحالية من الفاعل؛ فممتنع؛ لأن فيه وصفه تعالى بالكيفية، وهو غير جائز. انتهى. جمل نقلاً من الشهاب. وقال مكي: في محل نصب على الظرفية الزمانية، عامله ما بعده، وهو غير قوي، ولا يؤيده المعنى. تأمل. ﴿فَعَلَ﴾: فعل ماض. ﴿رَبُّكَ﴾: فاعله، والكاف في محل جر بالإضافة من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الفعلية في محل نصب سدت مسد مفعول (ترى) المعلق عن العمل. ﴿بِأَصْحَٰبِ﴾: متعلقان بما قبلهما، و(أصحاب): مضاف، و﴿ٱلْفِيلِ﴾: مضاف إليه. وانظر الكلام على ﴿كَيْفَ﴾ في آخر سورة (الغاشية).

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢﴾

الشرح: أي: ألم يجعل كيدهم في إبطال، وتضييع وخسار، ومنه قوله تعالى في سورة (غافر) رقم [٢٥]: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾، وأيضاً فيها رقم [٣٧]: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ وذلك؛ لأن أبرهة الكافر، وجيشه أرادوا أن يكيدوا قريشاً بالقتل، والسبي، والكعبة بالتخريب، والهدم، فحكي عن عبد المطلب: أنه بعث ابنه عبد الله على فرس له، ينظر ما لقوا من تلك الطير، فإذا القوم مشدخين جميعاً، فرجع يركض فرسه كاشفاً عن فخذه، فلما رأى ذلك أبوه قال: إن ابني هذا أفرس العرب، وما كشف عن فخذه إلا بشيراً، أو

نذيراً، فلما دنا من ناديهم بحيث يسمعهم الصوت؛ قالوا: ما وراءك؟ قال: هلكوا جميعاً! فخرج عبد المطلب، وأصحابه، فأخذوا أموالهم، وكانت أموال بني عبد المطلب منها، وبها تكاملت رياسة عبد المطلب؛ لأنه احتمل ما شاء من صفراء، وبيضاء، ثم خرج أهل مكة بعده، فنهبوا، فقال عبد المطلب عند ذلك: [الرجز]

أنتَ منعتَ الحُبْشَ والأفيالا ... وقد رعَوْا بمكةَ الأجبالا

وقَدْ خَشِينا منهمُ القتالا ... وكان أمْرٌ لهُمُ مِعْضالا

شكْراً وحمداً لك ذَا الجلالا

قال ابن إسحاق: ولما ردَّ الله الحبشة عن مكة؛ عَظّمت العرب قريشاً. وقالوا: هم أهل الله، قاتل الله عنهم، وكفاهم مؤونة عدوهم. وقال عبد الله بن عمرو بن مخزوم في قصة أصحاب الفيل: [الرجز]

أنتَ الجليلُ ربَّنَا لَمْ تَدْنَسِ ... أنتَ حبَسْتَ الفيلَ بالمُغَمَّسِ

مِنْ بعْدِ ما هَمَّ بشرٌّ مُبْلسِ ... حَبَسْتَهُ في هيئةِ المُكَرْكَسِ

وما لَهُمْ مِنْ فَرَجٍ وَمَنْفَسِ

الإعراب: ﴿أَلَمۡ﴾: مثل سابقه في إعرابه ومعناه. ﴿يَجۡعَلۡ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: (لم). والفاعل يعود إلى ﴿رَبُّكَ﴾. ﴿كَيۡدَهُمۡ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿فِي تَضۡلِيلٖ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محل نصب مفعوله الثاني، أو هما في محل نصب حال من ﴿كَيۡدَهُمۡ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة استئنافاً بيانياً، وفيها معنى التفسير، والبيان لما قبلها ما فيها.

﴿وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ٣ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ٤ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ٥﴾

الشرح: ﴿وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا﴾: قال سعيد بن جبير ـ رضي الله عنه ـ: كانت طيراً من السماء لم ير قبلها، ولا بعدها مثلها. وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنها طيرٌ بين السماء والأرضِ تُعشِّش، وتفرِّخ**». وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: (كانت لها خراطيم كخراطيم الطير، وأكف كأكف الكلاب). وقال عكرمة: كانت طيراً خضراً، خرجت من البحر، لها رؤوس كرؤوس السباع، ولم تر قبل ذلك، ولا بعده. وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: هي أشبه شيء بالخطاطيف. وقيل: بل كانت أشباه الوطاويط حمراء، وسوداء. انتهى. قرطبي.

قال الخازن ـ رحمه الله تعالى ـ: ووجه الجمع بين هذه الأقاويل في اختلاف أجناس هذه الطير: أنها كانت فيها هذه الصفات كلها، فبعضها على ما حكاه ابن عباس، وبعضها على ما حكاه غيره، فأخبر كل واحد بما بلغه من صفاتها. والله أعلم. انتهى.

هذا؛ والطير: اسم جمع مثل: غنم، وخيل. وقيل: بل هو جمع طائر، مثل: صحب، وصاحب. ويصح إطلاقه على المفرد، والمثنى، والجمع، وجمع الطير: طيور، وأطيار، مثل: فرخ، وفروخ، وأفراخ. وقال قطرب، وأبو عبيدة: الطير قد يقع أيضاً على الواحد، كما في قوله تعالى: ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الآية رقم [٤٩] من سورة (آل عمران). وطائر الإنسان: عمله الذي قلده. قال تعالى في سورة (الإسراء): ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾، والطير أيضاً: الاسم من التطير، ومنه قولهم: (لا طَيْرَ إِلَّا طيْرُ اللهِ، كما يقال: لا أَمْرَ إِلَّا أمْرُ اللهِ). انتهى. مختار بتصرف.

﴿أَبَابِيلَ﴾: متتابعة بعضها في إثر بعض. قاله ابن عباس، ومجاهد. وقيل: مختلفة متفرقة تجيء من كل ناحية، من هاهنا وهاهنا. قاله ابن مسعود، وابن زيد، والأخفش. واختلف في واحدها، فقيل: إبَّول، كعِجَّوْل وعجاجيل. وقيل: واحدها: إبِّيل كسكِّين، وسكاكين. وقيل: واحدها: إبَّال كدينار، ودنانير، وأصل دينار: دِنَّار، دليله تكرير النون في الجمع، والتصغير. وقيل: هو جمع لا واحد له. وقيل: هو اسم للجمع. انتهى. مكي. قال المبرد: ولم أجد العرب تعرف له واحداً في غير الصحاح. وقال رؤبة بن العجاج في الجمع: [الرجز]

ولَعِبَتْ طيرٌ بِهِمْ أبابيلْ فَصُيِّرُوا مِثْلَ كعَصْفٍ مأْكُولْ

وهذا هو الشاهد رقم [٣٢٥] من كتابنا: «فتح القريب المجيب». وقال الأعشى: [الطويل]

طَرِيقٌ وجَبَّارٌ رِواءٌ أُصُولُهُ عَلَيْهِ أبابِيلٌ مِنَ الطَّيْرِ تَنْعَبُ

الجبّار من النخل: ما طال، وفات اليد. وقال آخر: [البسيط]

كَادَتْ تُهَدُّ مِنَ الأَصْوَاتِ رَاحِلَتي إذْ سَالَتِ الأَرْضُ بالْجُرْدِ الأَبَابِيلِ

الجُرد (بضم الجيم): خيل لا رجالة فيها، وهو أيضاً قصر شعر الجلد في الفرس.

﴿تَرْمِيهِم﴾: ويقرأ: (يرميهم). ﴿بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾: قالوا: حجارة من طين طبخت بنار جهنم مكتوب فيها أسماء القوم، كقوله تعالى في سورة (الذاريات): ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً﴾ وقيل: ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ من السماء، وهي الحجارة التي أنزلت على قوم لوط. وقيل: من الجحيم، وهي سجين، ثم أبدلت اللام نوناً، كما قالوا في أصيلان: أصيلال. قال ابن مقبل: [البسيط]

ورَجْلَةٍ يضربونَ البَيْضَ عن عُرُضٍ ضرباً تواصتْ بهِ الأبطالُ سِجِّينا

هذا؛ وقالت طائفة، منهم: ابن عباس، وسعيد بن جبير، وابن إسحاق: إن سجيلاً لفظة غير عربية عربت، أصلها: سنج وجيل، ويقال: سنك وكيل، وهما بالفارسية حجر وطين عربتهما العرب، فجعلتهما اسماً واحداً؛ لأن العرب إذا تكلمت بشيء من الفارسي، صار لغة

للعرب، ولا يضاف للفارسية، مثل سندس، وإستبرق، والمشكاة، ونحو ذلك، فكل هذه الألفاظ فارسية، تكلمت بها العرب، واستعملتها، فصارت عربية.

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ أي: جعل الله أصحاب الفيل كورق الزرع؛ الذي أكلته الدواب، فرمت به إلى أسفل. شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزاء ورق الزرع، أكلته الدواب وداسته، بل وراثته؛ أي: ألقته روثاً ثم يبس، وتفتت، ولم يقل: كروث لما في لفظ الروث من الهجنة، والشناعة وسمي عصفاً؛ لأن الريح تعصف به، فتفرقه ذات اليمين وذات الشمال. هذا؛ والتشبيه مرسل مجمل ذكرت الأداة، وحذف وجه الشبه.

هذا؛ وذكرت: أن الله أهلك كل واحد من أصحاب الفيل بحجر مكتوب عليه اسمه. وهو قول أكثر المفسرين. قال الجمل: يتأمل سر هذه الكتابة، وهل كان الطائر الذي يحمله يدرك ويفهم أن هذا الحجر لفلان بخصوصه حتى لا يرميه إلا فوقه؟ وإذا كان كذلك، فهل كان إدراكه لهذا المعنى من الكتابة المذكورة، أو بمجرد إلهام؟ يحرر. والله أعلم بمراده.

الإعراب: ﴿وَأَرْسَلَ﴾: الواو: حرف عطف. (أرسل): فعل ماض، والفاعل يعود إلى (الله). ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿طَيْرًا﴾: مفعول به. ﴿أَبَابِيلَ﴾: صفة ﴿طَيْرًا﴾، ولم ينون؛ لأنه ممنوع من الصرف لصيغة منتهى الجموع، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، وساغ ذلك؛ لأن الاستفهام للتقرير، فكان المعنى: قد جعل ذلك، وأرسل. وانظر ما ذكرته في سورة (الشرح) تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

﴿تَرْمِيهِم﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل تقديره: «هي» يعود إلى ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ وعلى قراءة الفعل بالياء فالفاعل تقديره: «هو» يعود إلى (الله)؛ أي: يرميهم الله. ويجوز أن يكون راجعاً إلى الطير لخلوها من علامات التأنيث، وهو ضعيف، فالأول أقوى وأولى، والهاء مفعول به، والجملة في محل نصب صفة ثانية لـ: ﴿طَيْرًا﴾ أو في محل نصب حال منه بعد وصفه بما تقدم، وعلى قراءته بالياء فالحالية تكون من الضمير المجرور بـ: (على)، والرابط: الضمير على الاعتبارين. ﴿بِحِجَارَةٍ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾: متعلقان بمحذوف صفة (حجارة). (جعلهم): فعل ماض، والفاعل يعود إلى الله، والهاء مفعول به. ﴿كَعَصْفٍ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محل نصب مفعوله الثاني. هذا؛ وإن اعتبرت الكاف اسماً وهو الأقوى هنا، فالمحل لها، وتكون مضافة، و(عصف): مضاف إليه. ﴿مَّأْكُولٍ﴾: صفة (عصف). تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

انتهت سورة (الفيل) شرحاً، وإعراباً.

والحمد لله رب العالمين.

سورة قريش

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة (قريش) مكية، وهي أربع آيات، وسبع عشرة كلمة، وثلاثة وسبعون حرفاً.

﴿لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِـۧلَـٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢﴾

الشرح: قيل: إن هذه السورة متصلة بالتي قبلها في المعنى، يقول الله: أهلكت أصحاب الفيل لإيلاف قريش؛ أي: لتأتلف، أو لتتفق قريش، أو لكي تأمن قريش، فتؤلف رحلتيها، وممن عدَّ السورتين واحدة أُبَيُّ بن كعب، ولا فصل بينهما في مصحفه. وقال عمرو بن ميمون الأوْدِي: صلينا المغرب خلف عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، فقرأ في الأولى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ وفي الثانية ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ و ﴿لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ﴾ وقال الفراء: هذه السورة متصلة بالسورة التي قبلها؛ لأنه ذكَّر أهل مكة عظيم نعمته عليهم فيما فعل بالحبشة، ثم قال: ﴿لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ﴾ أي: فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمةً منا على قريش.

وذلك: أن قريشاً كانت تخرج في تجارتها، فلا يُغار عليها، ولا تُقرب في الجاهلية، يقولون: هم أهل بيت الله عز وجل، حتى جاء صاحب الفيل ليهدم الكعبة، ويأخذ حجارتها، فيبني فيها بيتاً في اليمن، يحج الناس إليه، فأهلكهم الله عز وجل، فذكرهم نعمته. وقيل: ليست بمتصلة؛ لأن بين السورتين ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. هذا؛ وقال الجوهري: وفلان قَدْ أَلِفَ هذا الموضِعَ، يألَفُه إلْفاً، وآلَفَهُ إيَّاهُ غيره. ويقال أيضاً: آلفْتُ الموضع أولفه إيلافاً، وكذلك: آلفت الموضع، أُؤَالِفه مؤالَفَةً، وإلافاً. قال أبو طالب يوصي أخاه أبا لهب برسول الله: [الطويل]

فَلَا تَتْرُكَنْهُ ما حَيِيتَ لِمُعْظَمٍ ... وكُنْ رَجُلاً ذَا نَجْدةٍ وعَفَافِ

تذودُ العِدَا عَنْ عُصْبَةٍ هاشمية ... إلافُهُمُ في النَّاسِ خَيْرُ إِلَافِ

وأما قريش فهم بنو النضر بن كنانة، فكل من كان من ولد النضر، فهو قرشي دون بني كنانة ومن فوقه، فإذا أردت بقريش الحي، أو الجد الأول صرفته، وإن أردت به القبيلة لم تصرفه. هذا شأن جميع أسماء القبائل، مثل: عاد، وثمود. وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنا وَلَدُ النضرِ بن كنانةَ، لا نَقفوا أُمَّنَا، ولا ننتفي مِنْ أبينا**». أي: لا نتهم أمنا، ولا نقذفها. وقيل:

معناه: لا نترك النسب إلى الآباء وننتسب إلى الأمهات. وقال واثلة بن الأسقع ـ رضي الله عنه ـ قال النبي ﷺ: «**إن الله اصطفى كنانةَ من ولدِ إسماعيلَ، واصطفى منْ بني كنانةَ قريشاً، واصطفى من قريشٍ بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم، فأنا خيارٌ من خيارٍ**». رواه الشيخان وغيرهما. هذا؛ و﴿قُرَيْشٍ﴾ قبيلة النبي ﷺ، ومنها بنو أمية، فيلتقون معه ﷺ في عبد مناف؛ لأن أولاده هم: هاشم، وعبد شمس، والمطلب، ونوفل. وكان يقال لهم: أقداح النضار؛ أي: الذهب، كما يقال لهم: المجيرون؛ لكرمهم، وفخرهم، وسيادتهم على سائر العرب. فالرسول ﷺ يرجع نسبه إلى هاشم، وبنو أمية يرجع نسبهم إلى عبد شمس، فهم جميعاً أولاد عم. وبطون قريش غير هذين البطنين كثيرة كما هو معروف. وسموا جميعاً قريشاً على أقوال: أحدها: لتجمعهم بعد التفرق، والتقرش: التجمع، والالتئام. الثاني: لأنهم كانوا تجاراً يأكلون من مكاسبهم، والتقرش: التكسب. الثالث: لأنهم كانوا يفتشون عن الفقير المحتاج، فيسدون خلته. والقرش: التفتيش. الرابع: ما روي: أن معاوية سأل ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لم سميت قريش قريشاً؟ فقال: لدابة في البحر من أقوى دوابه، يقال لها: القرش،تأكل، ولا تُؤْكَلُ، وتعلُو ولا تُعْلَى، وأنشد قول تُبَّع: [الخفيف]

وقُـرَيـشٌ هـي الـتـي تـسـكـنُ الـبـحـ ... ـر بـهَـا سُـمِّـيَـتْ قـريـشٌ قـرَيـشَـا
تـأكـلُ الـغـثَّ والـسَّـمـيـنَ ولا تَـتْـ ... ـرُكُ فـيـه لِـذي جـنـاحـيـنِ ريـشَـا
هـكَـذَا فـي الـكِـتَـابِ حَـيُّ قُـرَيْـشٍ ... يـأكُـلُـونَ الـبـلادَ أكـلاً كَـمِـيْـشَـا
ولـهُـمْ آخـرَ الـزمـانِ نَـبِـيٌّ ... يـكْـثِـرُ الـقـتـلَ فِـيـهِـمُ والـخـمـوشَـا
يـمْـلأُ الأرْضَ خَـيـلُـهُ ورجَـالُـه ... يَـحْـشـرونَ الـمَـطِـيَّ حَـشْـراً كَـمِـيشَـا

وإليك البيتين الآتيين، وهما لمساور بن قيس يهجو فيهما بني أسد: [الوافر]

زَعَـمْـتُـمْ أنَّ إخْـوَتَـكُـمْ قُـرَيْـشٌ ... لـهـمْ إلَـفٌ ولـيـسَ لـكـمْ إلَافُ
أولَـئِـكَ أُومِـنـوا جـوعـاً وخـوفـاً ... وقـد جـاعَـتْ بَـنُـو أَسَـدٍ وخَـافُـوا

يقول: لستم من قريش، ولا قريش منكم، فدعواكم إخوتهم باطلة؛ لأنهم أُطْعِمُوا من جوع وأُومِنوا من خوف، ولستم كذلك.

﴿إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كانوا يشتون بمكة، ويصيفون بالطائف، فأمرهم الله تعالى أن يقيموا في الحرم، ويعبدوا رب هذا البيت. وقال الأكثرون: كانت لهم رحلتان في كل عام للتجارة: رحلة في الشتاء إلى اليمن؛ لأنها أدفأ، ورحلة في الصيف إلى الشام؛ لأنها أبرد، وكان الحرم حول مكة وادياً لا زرع فيه، ولا ضرع،

وكانت قريش تعيش بتجارتهم، ورحلتهم، وكانوا لا يتعرض لهم أحد بسوء، وكان الناس يقولون: قريش سكان حرم الله، وولاة بيته، وكانت العرب تكرمهم، وتعزهم وتعظمهم لذلك، فلولا الرحلتان لم يكن لهم مقام بمكة، ولولا الأمن بجوار البيت لم يقدروا على التصرف. فشق عليهم الاختلاف إلى اليمن، والشام، فأخصبت تبالة وحرش من بلاد اليمن، فحملوا الطعام إلى مكة، أهل الساحل حملوا طعامهم في البحر على السفن إلى مكة، وأخصب الشام، فحملوا الطعام منه أيضاً إلى مكة، وألقوا بالأبطح، فامتار أهل مكة من قريب، وكفاهم الله مؤنة الرحلتين جميعاً. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كانوا في ضرٍّ ومجاعة؛ حتى جمعهم الله على الرحلتين، فكانوا يقسمون ربحهم بين الغني، والفقير حتى صار فقيرهم كغنيهم، وقال الكلبي: كان أول من حمل القمح من الشام، ورحل إليها الإبل هاشم بن عبد مناف، وفيه يقول الشاعر: [الكامل]

عـمـرُو الـعَـلَا هـشـمَ الـثـريـدَ لـقـومِـهِ ورجـالُ مـكـةَ مـسـنـتـون عِـجَـافُ

هذا؛ وذكر السيوطي في أسباب النزول. قال: أخرج الحاكم، وغيره عن أم هانئ بنت أبي طالب ـ رضي الله عنها ـ. قالت: قال رسول الله ﷺ: «**فَضَّل الله قريشاً بسبعِ خصالٍ... الحديث، وفيه نزلت فيهم سورة لم يذكر فيها أحد غيرهم**: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ...﴾ إلخ».

الإعراب: ﴿لِإِيلَٰفِ﴾: جار ومجرور متعلقان بفعل محذوف، تقديره: فعلنا كذا، وكذا بأصحاب الفيل. وهذا على اعتبار السورة متصلة بسابقتها. وقيل: متعلقان بمحذوف تقديره أعجبوا لإيلاف، ومتعلقان بالفعل الآتي على اعتبار السورة منفصلة عما قبلها، والفاء صلة، و(إيلاف) مضاف، و﴿قُرَيۡشٍ﴾: مضاف إليه، من إضافة المصدر لفاعله. ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ﴾: بدل مما قبله، والهاء في محل جر بالإضافة. من إضافة المصدر لفاعله. ﴿رِحۡلَةَ﴾: مفعول به للمصدر، والأصل: (رحلتي الشتاء والصيف) يدل عليه المعنى، و﴿رِحۡلَةَ﴾: مضاف، و﴿ٱلشِّتَآءِ﴾: مضاف إليه، من إضافة المصدر لفاعله، ﴿وَٱلصَّيۡفِ﴾: الواو: حرف عطف. (الصيف): معطوف على ما قبله.

تنبيه: (الرحلة) بكسر الراء: الارتحال، والرُّحلة (بضم الراء) الجهة التي يقصدها المسافر، وعالِم رُحلة: عالم يُرتحل إليه من الآفاق. والرَّحل مسكن الرجل، وما يستصحبه من الأثاث، وهو أيضاً رحل البعير، وهو أصغر من القتب، والراحلة: الناقة التي تصلح؛ لأن ترحل. وقيل: الراحلة: المركب من الإبل ذكراً كان، أو أنثى. انتهى.

﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴿٤﴾﴾

الشرح: لقد أمر الله جلت قدرته قريشاً بعبادته؛ لإنعامه عليهم، وذلك؛ لأن الإنعام على قسمين: أحدهما: الأمن من الخوف ودفع الضرر، وهو ما ذكر في السورة السابقة. والثاني:

السعة، والرغد في العيش، وجلب المنفعة. وهو ما ذكر في هذه السورة. ولما حقق الله لهم هذين الأمرين، وهما نعمتان عظيمتان؛ أمرهم بالعبودية، وأداء الشكر. وقيل: إنه تعالى لما كفاهم أمر الرحلتين؛ أمرهم أن يشتغلوا بعبادة رب هذا البيت.

هذا؛ والمراد بالبيت: الكعبة المعظمة، وفي تعريف نفسه لهم بأنه رب البيت وجهان: أحدهما: لأنه كانت لهم أوثان، فميز نفسه عنها. والثاني: لأنهم بالبيت شرفوا على سائر العرب، فذكَّرهم ذلك تذكيراً لنعمته. انتهى. قرطبي.

﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ أي: بعد جوع. ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ أي: بعد خوف. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: وذلك بدعوة إبراهيم ـ على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ في سورة (البقرة) رقم [١٢٦]: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾. ومثلها في سورة (إبراهيم) رقم [٣٥]. وقال ابن زيد: كانت العرب يغير بعضها على بعض، ويسبي بعضها من بعض، فأمنت قريش من ذلك لمكانها في الحرم، وقرأ قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ رقم [٥٧] من سورة (القصص). وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ رقم [٦٧] من سورة (العنكبوت).

وقيل: إن هذا الإطعام هو: أنهم لما كذبوا النبي ﷺ دعا عليهم، فقال: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عليهِمْ سِنِين كسِنِي يُوسُفَ**». فأجاب الله دعاءه، واشتد عليهم القحط. فقالوا: يا محمد! ادع الله لنا فإنا مؤمنون! فدعا رسول الله ﷺ، فأخصبت البلاد، وأخصبت مكة بعد القحط، والجهد، فذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ...﴾ إلخ. هذا؛ ولا تنس الطباق بين ﴿ٱلشِّتَآءِ﴾ و(الصيف)، وبين (الجوع) و(الإطعام)، وبين (الأمن) و(الخوف)، وهو من المحسنات البديعية.

هذا؛ وأصل الخوف: انزعاج في الباطن، يحصل من توقع أمر مكروه يقع في المستقبل. وأما التَّخوُّف فإنه يأتي بمعنى: التنقص. كما في قوله تعالى في سورة (النحل) رقم [٤٧]: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ يروى: أن الفاروق ـ رضي الله عنه ـ قال على المنبر: ما تقولون في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾؟ فسكتوا، فقام شيخ من هذيل. وقال: هذه لغتنا (التخوف) التنقص. قال: فهل تعرف العرب هذا في أشعارهم؟ قال نعم. قال شاعرنا أبو كبير الهذلي: [البسيط]

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ مِنْهَا تَامِكاً قَرِداً كَمَا تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ

فقال الفاروق ـ رضي الله عنه ـ: أيها الناس عليكم بديوانكم لا تضلوا! قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم، ومعاني كلامكم. هذا؛ ويأتي الخوف بمعنى العلم، وبه قيل في قوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [١٨٢]: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا...﴾، وفيها أيضاً رقم [٢٢٩]: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾.

الإعراب: ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾: الفاء: حرف استئناف على اعتبار السورة متصلة بما قبلها، وصلة على اعتبارها منفصلة. وقيل: واقعة في جواب شرط مقدر؛ أي: فإن لم يعبدوه لسائر نعمه؛ فليعبدوه لشأن هذه الواحدة؛ التي هي نعمة ظاهرة. وهذا يعني: أنها الفاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر، كما رأيت، وهو جيد جداً. (ليعبدوا): فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محل لها على جميع الوجوه المعتبرة بالفاء. ﴿رَبَّ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿هَٰذَا﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والهاء حرف تنبيه لا محل له. ﴿ٱلْبَيْتِ﴾: صفة اسم الإشارة، أو بدل منه. ﴿ٱلَّذِىٓ﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب بدلاً من ﴿رَبَّ﴾، أو هو في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هو الذي، أو هو في محل نصب مفعول به لفعل محذوف، التقدير: أمدح، ونحوه، وهذان الوجهان على القطع. ﴿أَطْعَمَهُم﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلَّذِىٓ﴾، وهو العائد، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿مِّن جُوعٍ﴾: متعلقان بما قبلهما. وقيل: متعلقان بمحذوف حال، التقدير: أطعمهم جائعين، والجملة الثانية معطوفة على ما قبلها، وإعرابها مثلها بلا فارق. تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

انتهت سورة (قريش) شرحاً، وإعراباً بعون الله وتوفيقه.

والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ المَاعُونِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة (الماعون) مكية. وقيل: نزل نصفها بمكة في العاص بن وائل، والنصف الثاني نزل في المدينة في عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سلول المنافق، وهي سبع آيات، وخمس وعشرون كلمةً، ومئة وخمسة وعشرون حرفاً. ومناسبتها لما قبلها: أن الله تعالى لَمَّا عدد نعمه على قريش، وكانوا لا يؤمنون بالبعث، والجزاء؛ أتبع امتنانه عليهم بتهديدهم بالجزاء، وتخويفهم بالعقاب.

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ① فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ② وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ③﴾

الشرح: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ أي: بيوم الجزاء، والحساب. واختلف فيمن نزلت فيه من زعماء قريش، فقيل: العاص. وقيل: غيره، والمعنى: هل عرفت الذي يكذب بيوم الجزاء، والحساب؟ فإن لم تعرفه؛ فهو ذلك. . .إلخ. وذكرت لك شرح (الدِّين) في آخر سورة (الانفطار).

﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾: يدفعه بعنف عن حقه. قيل: كأبي جهل كان وصياً على يتيم، فجاءه عرياناً يسأله من مال نفسه، فدفعه. وقيل: هو أبو سفيان نحر جزوراً، فسأله يتيم لحماً، فقرعه بعصاه. أو الوليد بن المغيرة، أو العاص بن وائل. وقد تقدم في سورة (النساء) أنهم كانوا لا يورثون النساء، ولا الصغار، وكانوا يقولون: إنما يحوز المال من يطعن بالسنان، ويضرب بالحسام. هذا؛ وخذ قوله تعالى في سورة (الطور) لتفسير الدَّعِّ: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ رقم [١٣].

هذا؛ واليتيم من الحيوان الذي فقد أمه فقط، ومن بني آدم من فقد أباه، أو أمه، أو فقدهما معاً، وهو أسوأ أنواع اليتامى، والمراد به هنا: من فقد معيله، وهو الأب على الأكثر، وهناك يتيم العلم، والعقل، والتربية، والخلق، والدين، وهو أسوأ حالاً من كل يتيم، وإن كان قد بلغ من العمر الستين، والسبعين، ويملك من الأموال الملايين. ولله در القائل: [البسيط]

لَـيْـسَ الـيَـتِـيـمُ الَّـذي قَـدْ مَـاتَ والِـدُهُ ... إنَّ الـيـتـيـمَ يـتـيـمُ الـعِـلـمِ والأدَبِ

ومن أنواع اليتيم من أهمل أبوه، وأمه تربيته مع كونهما موجودين، وخذ قول الآخر: [الكامل]

لَيْسَ اليتيمُ مَنِ انتهى أبواهُ مِنْ همّ الحياةِ وخلَّفاهُ ذليلا
إن اليتيمَ هو الذي تلقى لَهُ أُمّاً تخلَّتْ أو أباً مشغُولا

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾: انظر شرح هذه الآية في سورة (الحاقة) رقم [٣٤] فإنه جيد؛ والحمد لله! هذا؛ والمسكين أحسن حالاً من الفقير، كما بينته في سورة (التوبة) رقم [٦٠] وغيرها. والذي أريد أن أناقشه هنا قوله تعالى في كفارة اليمين: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ الآية من سورة (المائدة) رقم [٨٩].

فبعض العلماء يفتي بأن كفارة اليمين من الإطعام خمسة كيلوات من القمح، لكل مسكين أقل من نصف كيلو، وهو ما يطلق عليه اسم المد، وقد ذكر الله في الآية الكريمة أن الإطعام يكون من أوسط ما يطعم المكفر أهله، فأنا أناشد هؤلاء بالله: أيكون نصف كيلو من القمح في هذه الأيام من أوسط إطعام المكفر أهله؟ وهل يعادل مد القمح في هذه الأيام شيئاً من الكسوة؛ التي ذكرها الله؟ وأين هو من تحرير الرقيق؟ بل؛ وهل يعادل صيام يوم من الأيام؛ بله الثلاثة؟ فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم! وهل يعتبر هؤلاء المساكين طيراً من الطيور حمامة، أو نحوها يلتقط الحبات؛ التي تعطى له؟! الحق أقول: إنه يجب على المكفر أن يعطي للمسكين نقوداً تكفي لغدائه، أو عشائه، أو يصنع في بيته طعاماً من الوسط، ويدعو إليه عشرة من المساكين فإن ذمته تبرأ إن شاء الله، وبغير ذلك لا تبرأ ذمته. والإثم على العالم الذي يفتي بغير ذلك. والله المستعان، وبه التوفيق.

الإعراب: ﴿أَرَءَيْتَ﴾: (الهمزة): حرف استفهام تعجبي. (رأيت): فعل، وفاعل. ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به أول، والمفعول الثاني محذوف يقدر بجملة استفهامية، فقدره الحوفي: أليس مستحقاً للعذاب؟ وقدره الزمخشري: من هو، وما هي أوصافه؟ وقدره القرطبي بقوله: أمصيب هو، أم مخطئ؟ وقيل: إن الفعل بمعنى: عرف، فيكتفي بمفعول واحد، وهو الموصول. ﴿يُكَذِّبُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلَّذِى﴾، وهو العائد، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿بِٱلدِّينِ﴾: متعلقان بما قبلهما، وهما في محل المفعول به. ﴿فَذَٰلِكَ﴾: الفاء: هي الفصيحة؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر، انظر الشرح. (ذلك): اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. وقال الجلال: خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هو ذلك، ولا حاجة لذلك. واللام للبعد، والكاف حرف خطاب، لا محل له. ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية لا محل لها؛ لأنها جواب للشرط المقدر في الشرح على رأي الدسوقي. ويقول غيره: في محل جزم جوابه. وجملة: ﴿يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ صلة الموصول لا محل لها، والعائد عود الفاعل إليه. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية. ﴿يَحُضُّ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى

﴿ٱلَّذِى﴾ أيضاً. ﴿عَلَىٰ طَعَامِ﴾: متعلقان بما قبلهما. و﴿طَعَامِ﴾: مضاف، و﴿ٱلْمِسْكِينِ﴾: مضاف إليه من إضافة اسم المصدر لمفعوله وفاعله محذوف.

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾

الشرح: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾: انظر شرح (الويل) في سورة (المرسلات). هذا؛ وقد قسم القرآن الكريم الناس بالنسبة إلى الصلاة أربعة أقسام: القسم الأول: أنكر الصلاة، وجحدها، ولم يعتقد بفرضيتها، وهم الكافرون. قال تعالى في سورة (المدثر) حكاية عن قول أصحاب اليمين في سؤالهم الكافرين: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ فيجيب الكافرون بقولهم ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾. القسم الثاني: المنافقون الذين يراؤون في صلاتهم، وهو المذكورون في هذه السورة. القسم الثالث أقوام كان آباؤهم يصلون ويحسنون الصلاة، أما هم فقد أهملوها وضيعوها. قال تعالى في سورة (مريم): ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾. والقسم الرابع: هم الفائزون بالصلاة، وثوابها. قال تعالى في أول سورة (المؤمنون): ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾: روى البغوي بسنده عن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ قال: سئل رسول الله ﷺ عن الذين هم عن صلاتهم ساهون؟ قال: «**إضاعة الوقت**». وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هم المنافقون يتركون الصلاة؛ إذا غابوا عن الناس، ويصلون في العلانية؛ إذا حضروا معهم، لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾. وقال تعالى في وصف المنافقين: ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾. وقيل: لا يرجون لها ثواباً؛ إن صلوا، ولا يخافون عليها عقاباً؛ إن تركوا. وقيل: هم الذين إذا صلوها؛ صلوها رياءً. وإن فاتتهم؛ لم يندموا عليها. وقيل: هم الذين لا يصلونها لمواقيتها، ولا يتمون لها ركوعها، ولا سجودها، ساهون عنها لا يبالون صلوا، أو لم يصلوا.

هذا؛ وقال المفسرون: لما قال تعالى: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ بلفظة ﴿عَن﴾: علم أنها في المنافقين، ولهذا قال بعض السلف: الحمد لله الذي قال: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ﴾ ولم يقل: ﴿فِى صَلَاتِهِمْ﴾؛ لأنه لو قال ﴿فِى صَلَاتِهِمْ﴾ لكانت في المؤمنين، والمؤمن قد يسهو في صلاته، والفرق بين السهوين واضح، فإن سهو المنافق سهو ترك، وقلة التفات إليها، فهو لا يتذكرها، ويكون مشغولاً عنها، والمؤمن إذا سها في صلاته؛ تداركه في الحال، وجبره بسجود السهو. فظهر الفارق بين السهوين.

هذا؛ وقد سها الرسول ﷺ في صلاته والصحابة كذلك حصل منهم سهو، وما كان الرسول ﷺ يسهو في صلاته إلا لفكرته فيما هو أعظم منها، ورحم الله من قال: [البسيط]

يا سائلي عن رسولِ الله كيفَ سها؟ والسَّهْوُ مِنْ كلِّ قلبٍ غافلٍ لاهي
قَدْ غابَ عَنْ كلِّ شيءٍ سِرُّهُ فَسَها عَمَّا سِوَى اللهِ فالتعظيمُ للهِ

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ أي: يتركون الصلاة في السر، ويفعلونها في الجهر، والفرق بين المنافق، والمرائي: أن المنافق هو الذي يبطن الكفر، ويعلن الإيمان، والمرائي يظهر الأعمال مع زيادة في الخشوع ليعتقد فيه من يراه: أنه من أهل الدين والصلاح، وأما من يظهر النوافل ليقتدى به، ويأمن على نفسه من الرياء؛ فلا بأس بذلك، وليس بمراء. هذا؛ والرياء يكون في الأقوال، والأفعال من صوم، وصلاة، وحج، وزكاة، وإنفاق المال، وفي الثياب القصار، والرثة؛ ليأخذ بذلك هيئة الزهد في الدنيا، وإظهار التقشف.

وقد حذرنا الرسول ﷺ من ذلك، حيث قال: «**يُجَاءُ بِالدنيا يوْمَ القِيَامَةِ، فيقالُ: مِيزُوا ما كَانَ منها لله عز وجل فيمازُ، ويُرْمَى سائِرُهُ في النارِ**». رواه البيهقي عن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ. وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ تَزَيَّنَ بعملِ الآخرةِ، وهو لا يُرِيدُها، ولا يَطْلُبُها؛ لُعِنَ في السموات، والأرض**». رواه الطبراني في الأوسط.

وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «**يخرجُ في آخرِ الزَّمَانِ رجالٌ يَخْتِلُونَ الدنيا بالدِّينِ، يَلْبَسُونَ للنَّاسِ جُلُودَ الضَّأنِ مِنَ اللِّيْنِ، ألسِنَتُهُمْ أحلى من العَسَلِ، وقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الذِّئابِ، يقولُ الله عز وجل: أبي يَغْتَرُّونَ أمْ عليَّ يجترئون؟ فبي حَلَفْتُ: لأَبْعَثَنَّ على أولئك مِنْهُمْ فتنةً تدعُ الحليمَ حَيْران**». رواه الترمذي، وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تحبَّب إلى الناس بما يحبون، وبارَزَ الله بما يكرهون؛ لَقِيَ الله؛ وهو عليه غضبان**». وقد ذكرت في آخر سورة (الكهف) وغيرها الكثير من ذلك، وبينت: أن الرياء شرك، ويجر إلى الشرك الحقيقي، والموت على غير الإيمان.

وعن محمود بن لبيد ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ أَخْوَفَ ما أخافُ عليْكُمُ الشركُ الأصغرُ**». قالوا: وما الشركُ الأصغرُ يا رسولَ الله؟! قال: «**الرياءُ. يقولُ الله عز وجلّ إذا جَزَى النَّاسَ بأعمالِهِمْ: اذْهَبُوا إلى الذين كُنْتُمْ تُراؤُونَ في الدنيا؛ فانظروا هل تجدون عندهُمْ جزاءً؟!**». رواه أحمد، والبيهقي، وغيرهما.

وعن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ: أن النبي ﷺ قال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتقوا هذا الشركَ؛ فإنه أخْفَى من دبيبِ النملِ**». فقال له مَنْ شاء الله أن يقولَ: وكيفَ نتقيه، وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله؟! قال: «**قُولُوا: إنا نعوذ بكَ مِنْ أن نشركَ بكَ شيئاً نعلمهُ، ونَسْتَغْفِركَ لما لا نعلَمُهُ**». رواه أحمد، والطبراني، وغيرهما.

﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾: فيه أقوال كثيرة. روي عن علي ـ رضي الله عنه ـ: أنه قال: الزكاة وهو قول ابن عمر، والحسن، وقتادة، والضحاك. ووجه ذلك: أن الله تعالى ذكرها بعد

الصلاة، وذمَّهم على ترك الصلاة، ومنع الزكاة، وعطف الزكاة على الصلاة، وقرنها بهَا، ورد ذلك في ثلاث وثلاثين آيةً. وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ الماعون: الفأس، والدلو، والقدر، وأشباه ذلك من الأمتعة المستعملة في البيت، والمتداولة في أيدي الناس. وبالجملة: فالماعون: طاعة الله، والمعروف بين الناس، وقضاء حوائج الناس، وعامة الأمتعة المستعملة في البيوت، والزكاة. وكل عمل بر. وخذ قول الراعي النميري: [الكامل]

أَخَلِيفَةَ الرَّحْمَنِ إنَّا مَعْشَرٌ ... حُنَفَاءُ نَسْجُدُ بُكْرَةً وأَصِيلا
عُرْبٌ نَرَى لِلَّهِ فِي أمْوَالِنَا ... حَقَّ الزكاةِ مُنَزَّلاً تَنْزِيلَا
قَوْمٌ عَلَى التنزيلِ لَمَّا يَمْنَعُوا ... مَاعُونَهُمْ ويُبَدِّلُوا التنزيلَا

الإعراب: ﴿فَوَيْلٌ﴾: الفاء: حرف استئناف. وقيل: الفصيحة. ولا وجه له. وقال السمين: للسببية، وهو أولى. (ويل): مبتدأ، وساغ الابتداء به؛ لأنه متضمن معنى الدعاء. ﴿لِّلْمُصَلِّينَ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل جر صفة، أو بدل من (المصلين)، أو هو في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هم الذين، أو في محل نصب مفعول به بفعل محذوف، التقدير: أذم، ونحوه. وهذان الوجهان على القطع. ﴿هُمْ﴾: ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿عَن صَلَاتِهِمْ﴾: متعلقان بـ: ﴿سَاهُونَ﴾ بعدهما، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿سَاهُونَ﴾: خبر المبتدأ مرفوع، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض من التنوين في الاسم المفرد، والجملة الاسمية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مثل سابقه في جميع وجوهه. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ. ﴿يُرَآءُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿وَيَمْنَعُونَ﴾: الواو: حرف عطف. (يمنعون): فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، ومفعوله الأول محذوف، التقدير: يمنعون الناس. ﴿ٱلْمَاعُونَ﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل رفع مثلها. تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

انتهت سورة (الماعون) شرحاً، وإعراباً.

والحمد لله رب العالمين.

سورة الكوثر

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة (الكوثر) مكية في قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ والجمهور، ومدنية في قول الحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة، وهي ثلاث آيات، وعشر كلمات، واثنان وأربعون حرفاً.

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾

الشرح: الخطاب للنبي ﷺ، تكريماً لمقامه الرفيع، وتشريفاً لجاهه العظيم؛ أي: نحن أعطيناك يا محمد الخير الكثير الدائم في الدنيا، والآخرة، ومن هذا الخير نهر الكوثر، وخذ ما يلي:

عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الكوثر نهرٌ في الجنة، حافتاهُ من ذهب، ومجراهُ على الدرِّ، والياقوتِ، تُرْبَتُهُ أطيبُ من المسكِ، وماؤهُ أحْلَى من العَسَلِ، وأبيضُ من الثلجِ، مَنْ شرِبَ منه شربةً؛ لَمْ يظمأْ بعدَهَا أبداً**». رواه ابن ماجه، والترمذي، وورد: أولُ منْ يردُهُ فقراءُ المهاجرين، الدنسُ الثيابِ، الشعْثُ الرؤوسِ؛ الذين لا يُزَوَّجُونَ المنعَّماتِ، وَلَا تُفْتَحُ لهم أبوابُ السُّدُدِ، يموتُ أحدُهُمْ، وحاجتُهُ في صدرِهِ، لوْ أقْسَمَ عَلَى اللهِ لأبَرَّهُ. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله عز وجل: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ قال: نهر في الجنة، عمقه سبعون ألف فرسخ، ماؤه أشدُّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العسلِ، شاطِئاهُ اللؤلُؤ، والزبرجدُ، والياقوت، خصَّ الله به نبيه ﷺ قبْل الأنبياء. رواه ابن أبي الدنيا موقوفاً، والكوثر: وزنه: فوعل، وهو يدل على الكثرة.

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: بينا الرسول ﷺ ذات يوم بين أظهرنا؛ إذْ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسَهُ مبتسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسولَ الله؟! قال: «**أنزلت عليَّ آنفاً سورةٌ**». فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ السورة. ثم قال: «**أتدرون ما الكوثر؟**». قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «**فإنه نهر وعَدَنيه ربي عز وجل، فيه خيرٌ كثيرٌ، هو حوضٌ تردُ عليهِ أمتي يَوْمَ القيامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ النجوم، فيختلج العبدُ ـ أي: ينتزعُ، ويقتطعُ ـ منهم، فأقول: إنه مِنْ أمتي،**

فيقالُ: إنكَ لا تدري ما أحدثَ بعدَكَ». أخرجه مسلم، والترمذي. وهذا يثبت: أن السورة مدنية، واستدل الشافعي ـ رضي الله عنه ـ بهذا الحديث على أن البسملة آية من الفاتحة.

قال أبو حيان ـ رحمه الله تعالى ـ: وذكر في الكوثر ستة وعشرون قولاً، والصحيح هو ما فسره به رسول الله ﷺ. فقال: «**هو نهر في الجنة، حافتاه من ذهب... إلخ**». الحديث الأول. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الكوثر: الخير الكثير. وما ذهب إليه من أنه الخير الكثير جامع لأقوال المفسرين. فقد أعطي الرسول ﷺ الفضائل الكثيرة العميمة، أعطي النبوة، والكتاب، والحكمة، والعلم، والشفاعة، والحوض المورود، والمقام المحمود، وكثرة الأتباع، والنصر على الأعداء، وكثرة الفتوحات؛ إلى غير ما هنالك من الخيرات، صلوات الله، وسلامه عليه.

وما أحسن قول القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: ثم يجوز أن يسمى ذلك النهر، أو الحوض كوثراً، لكثرة الواردة والشاربة من أمة محمد ﷺ هناك، ويسمى به لما فيه من الخير الكثير والماء الكثير. انتهى. وفي حوضه ﷺ يقول الشاعر: [المنسرح]

يا صاحبَ الحوضِ مَنْ يُدانِيكا   وأنْتَ حقاً حبيبُ بارِيكا

وخذ هذا الحديث، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ أتى المقبرة، فقال: «**وددْتُ أنا قَدْ رأينا إخواننا**». قالوا: أوَلَسْنا إخوانَك يا رسول الله؟! قال: «**أنتمْ أصحابي، وإخوانُنا الذين لمْ يأتوا بعدُ**». قالوا: كيفَ تعرفُ منْ لم يأتِ بعدُ مِنْ أمتِكَ يا رسولَ الله؟! قال: «**أرأيتمْ لوْ أنَّ رجلاً لهُ خيلٌ غرٌّ محجلةٌ بين ظهريْ خيل دُهْم بُهْمٍ، ألا يعرف خيلَه؟**». قالوا: بلى يا رسولَ الله! قال: «**فإنهم يأتونَ غرّاً محجلين من آثار الوضوء، وأنا فرطهم على الحوض**». رواه مسلم، وزاد غيره: «**ألا لَيُذادَنَّ رجالٌ عن حوْضي كما يذادُ البَعِيرُ الضالُّ، فأنادِيهم: ألَا هَلُمَّ فيقالُ: إنهم قد بَدَّلُوا بعدَكَ! فأقولُ: سُحْقاً! سُحْقاً!**». هذا؛ والكوثر من الرجال: السيد الكثير الخير. قال الكميت في مدح عبد الملك: [الطويل]

وأنتَ كثيرٌ يا بنَ مروانَ طَيِّبٌ   وكانَ أبوكَ ابنُ العقائِلِ كَوْثَرَا

وقال ابن إسحاق: الكوثر: العظيم من الأمر، وذكر بيت لبيد: [الطويل]

وصَاحِبُ ملحوبٍ فُجِعْنَا بِفقدِهِ   وعِندَ الرداعِ بيتُ آخرَ كَوْثَرَا

تنبيه: ذهب صاحب كتاب القوت، وغيره إلى أن حوض النبي ﷺ إنما هو بعد الصراط. والصحيح: أن للنبي حوضين، وكلاهما يسمى كوثراً، والكوثر في كلام العرب: الخير الكثير، فحوض يكون قبل الصراط، وحوض بعد الصراط؛ لأن طرد المنافقين والفاسدين المفسدين يكون قبل الصراط، ولا يكون هذا الطرد بعد الصراط؛ لأنه لا ينجو من الصراط؛ إلا المؤمنون الذين فازوا برضا الله، ورضوانه، وآمنوا من سخطه، وغضبه، وأما المنافقون والفاسدون المفسدون؛ فلا وجود لهم بعد الصراط؛ لأنهم يسقطون في جهنم، وبئس المصير.

ولا يخطر ببالك، ويذهب وهمك إلى أن الحوض يكون على وجه هذه الأرض، وإنما يكون وجوده في الأرض المبدلة على مُسَامَتَةِ هذه الأقطار، أو في المواضع التي تكون بدلاً من هذه المواضع في هذه الأرض، وهي أرض بيضاء كالفضة لم يسفك فيها دم، ولم يظلم على ظهرها أحد. قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ الآية رقم [٤٨] من سورة (إبراهيم) ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ تظهر تلك لفصل القضاء.

هذا؛ واختلف في الميزان، والحوض: أيهما قبل الآخر؟ فقيل: الميزان قبل. وقيل: الحوض. قال أبو الحسن القابسي: والصحيح: أن الحوض قبل. قلت: والمعنى يقتضيه، فإن الناس يخرجون من قبورهم عطاشاً، فيقدم قبل الصراط، والميزان. انتهى. والله أعلم نقلاً من هنا، وهناك. ولا بد من القول: إن الميزان، والصراط، والحوض، والجنة، والنار، وغير ذلك إنما هي من الأمور المغيبة التي يجب الإيمان بها، وهي من صميم العقيدة الإسلامية. هذا؛ والتعبير بالماضي عن المستقبل يفيد تحقق الوقوع.

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾: لقد اختلف في ذلك على أقوال كثيرة، وأذكر من ذلك أقوالاً ثلاثة:

الأول: قال قتادة، وعطاء وعكرمة: فصل لربك صلاة العيد يوم النحر، وانحر نسكك؛ أي: اذبح أضحيتك. وقال أنس ـ رضي الله عنه ـ: كان النبي ﷺ ينحر، ثم يصلي، فأمر أن يصلي، ثم ينحر. وقال سعيد بن جبير ـ رضي الله عنه ـ أيضاً: صل لربك صلاة الصبح المفروضة بجمع، وانحر البُدْنَ بمنى. وعن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أولُ ما نبدأ بهِ في يومنا هذا أن نُصَلِّيَ، ثم نرجعَ، فننحرَ. مَنْ فَعَلَ هذا؛ فقدْ أصابَ سُنَّتَنَا. وفي رواية: نُسُكَنا. ومَنْ ذبح قبل؛ فإنما هو لحمٌ قدَّمهُ لأهلِهِ لَيْسَ من النسك في شيءٍ**». أخرجه البخاري. وهذا يفيد: أن السورة مدنية.

الثاني: عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: لما نزلت: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ قال النبي ﷺ لجبريل عليه السلام: «**ما هذه النحيرة التي أمرني الله بها؟**». قال: ليست بنحيرة، ولكنه يأمرك إذا تحرمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت، وإذا رفعت رأسك من الركوع، وإذا سجدت، فإنها صلاتنا، وصلاة الملائكة الذين هم في السموات السبع، وإن لكل شيء زينة، وإن زينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة.

الثالث: قال محمد بن كعب القرظي ـ رضي الله عنه ـ: يقول الله عز وجل: إن ناساً يصلون لغير الله، وينحرون لغير الله، وقد أعطيناك الكوثر، فلا تكن صلاتك، ولا نحرك إلا لله. وقال ابن العربي: والذي عندي: أنه أراد: اعبد ربك، وانحر له، فلا يكن عملك إلا لمن خصك بالكوثر. والمعتمد القول الأول من الثلاثة. والله أعلم.

والمعنى لما تقدم، يقول الله عز وجل: قد أعطيتك ما لا نهاية لكثرته من خير الدارين، وخصصتك بما لم أخص به أحداً غيرك، فاعبد ربك؛ الذي أعطاك هذا العطاء الجزيل، والخير

الكثير، وأعزك، وشرفك على كافة الخلق، ورفع منزلتك فوقهم، فصل له، واشكره على إنعامه عليك، وانحر البدن ضحايا متقرباً إليه. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ يعني: إن عدوك ومبغضك هو الأبتر الأذل المنقطع دابره. قال المفسرون: لما مات القاسم بن النبي ﷺ. قال العاص بن وائل السهمي: دعوه فإنه رجل أبتر، لا عقب له، فإذا هلك؛ انقطع ذكره. فأنزل الله ـ عز وجل ـ هذه السورة، وأخبر الله تعالى: أن هذا الكافر هو الأبتر، وإن كان له أولاد يفخر بهم، ويعتز بكثرتهم؛ لأنه مبتور من رحمة الله، ولأنه لا يذكر إلا باللعنة، بخلاف الرسول ﷺ، فإنَّ ذكره خالد أبد الدهر، مرفوع على المآذن، والمنابر، مقرون بذكر الله تعالى: (أشهدُ أن لا إله إلا اللهُ، وأشهدُ أن محمداً رسولُ الله) والمؤمنون من زمانه إلى يوم القيامة أتباعه، فهو كالوالد لهم، وهو أولى بهم من أنفسهم. قال تعالى في سورة (الأحزاب) رقم [٦]: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾. وانظر سورة (القدر).

هذا؛ وفي المصباح المنير: شنِئه كسمعه، ومنعه؛ أي: هو من بابين: الرابع، والثالث، والمصدر شنأً وشَنَآناً بفتح النون وسكونها: أبغضه، واسم الفاعل: شانئ، وشانئة، في المذكر، والمؤنث، خذ قوله تعالى في سورة (المائدة) رقم [٩]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟﴾.

وفي المختار: بتره: قطعه قبل الإتمام، وبابه: نصر، والانبتار: الانقطاع، والأبتر: المقطوع الذنب، وبابه: طرب، والأبتر أيضاً: الذي لا عقب له، وكل أمر انقطع من الخير أثره فهو أبتر. انتهى. هذا؛ وقد روى الخطيب في كتاب الجامع عن النبي ﷺ قال: «**كلُّ أمرٍ ذي بالٍ لا يُبْدَأُ فيهِ ببسم الله الرحمن الرحيم، فهو أبترُ، وفي رواية: (فهو أقطع) وفي أخرى: (فهو أجذم)**». والمعنى: قليل البركة، أو معدومها، وقد سميت الخطبة التي ألقاها زياد بن سمية في العراق بالبتراء؛ لأنه لم يبدأها بذكر الله تعالى.

الإعراب: ﴿إِنَّآ﴾: (إنَّ): حرف مشبه بالفعل، و(نا): اسمها حذفت نونها، وبقيت الألف دليلاً عليها. ﴿أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾: فعل ماض، وفاعله، ومفعولاه، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية مبتدأة لا محل لها. ﴿فَصَلِّ﴾: الفاء: حرف عطف على رأي: من يجيز عطف الإنشاء على الخبر، وأراها الفصيحة؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر، التقدير: وإذا تكرمنا عليك بما ذكر؛ فصل. (صل): فعل أمر مبني على حذف حرف العلة من آخره، وهو الياء، والكسرة قبلها دليل عليها، والفاعل مستتر تقديره: «أنت»، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جواب للشرط المقدر بـ: «إذا». ﴿لِرَبِّكَ﴾: متعلقان بما قبلهما، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. (انحر): معطوف على ما قبله.

﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿شَانِئَكَ﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل لا محل له. ﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾. هذا؛ ويجوز اعتبار الضمير مبتدأ و﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل رفع خبر ﴿إِنَّ﴾. هذا؛ وقال أبو البقاء: أو توكيداً لـ: ﴿شَانِئَكَ﴾ وهو غلط منه؛ لأن المظهر لا يؤكد بالمضمر، والجملة الاسمية فيها معنى التعليل، أو هي مستأنفة، ولا محل لها على الاعتبارين، تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم. وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

انتهت سورة (الكوثر) شرحاً وإعراباً.

والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ الكَافِرُونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة (الكافرون) مكية في قول ابن مسعود، والحسن وعكرمة. ومدنية في أحد قولي ابن عباس، وقتادة، والضحاك. وهي ست آيات، وعشرون كلمةً، وأربعة وتسعون حرفاً.

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ. قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ:** ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ **عدلت له نصف القرآن، ومن قرأ:** ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ **عدلت له ربع القرآن، ومن قرأ** ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ **عدلت له ثُلُثَ القرآن**». أخرجه الترمذي. وقال: حديث غريب، ووجه كون هذه السورة تعدل ربع القرآن: أن القرآن مشتمل على الأمر، والنهي، وكل واحد منهما ينقسم إلى ما يتعلق بعمل القلوب، وإلى ما يتعلق بعمل الجوارح، فحصل من ذلك أربعة أقسام، وهذه السورة مشتملة على النهي عن عبادة غير الله تعالى، وهي من الاعتقاد، وذلك من أفعال القلوب، فكانت هذه السورة ربع القرآن على هذا التقسيم، والله سبحانه وتعالى أعلم. انتهى. خازن.

أقول: وإنما عدلت سورة (الزلزلة) نصف القرآن؛ لأنها تبين أهوال القيامة وما فيها من السعادة، والشقاوة، والإنسان متقلب بين الحياة الدنيا، والآخرة، فمقابلة القيامة وما فيها من أهوال بالحياة الدنيا، وما فيها، والقرآن كثير التحدث عن الحياتين، فهذا السبب جعل قراءة (الزلزلة) تعدل نصف القرآن. وإنما عدلت قراءة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلثَ القرآن؛ لأن القرآن على ثلاثة أنحاء، أو على ثلاثة أقسام: قصص، وأحكام، وصفات لله تعالى. أو قل: وتوحيد لله، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ متمحضة للصفات، وللتوحيد، فهي ثلث القرآن بهذا المعنى.

وروى جبير بن مطعم ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «**أتحب يا جبير إذا خرجت سفراً أن تكون من أمثل أصحابك هيئةً، وأكثرهم زاداً؟**». قلت: نعم يا رسول الله! قال: «**فاقرأ هذه السور الخمس: من أول** ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إلى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ وافتتح قراءتك بـ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. قال: فوالله لقد كنت غير كثير المال، إذا سافرت أكون أبذهم هيئة، وأقلهم زاداً، فمنذ قرأتُهُنَّ صرت أحسنهم هيئة، وأكثرهم زاداً حتى أرجع من سفري ذلك. وقال فروة بن نوفل ـ رضي الله عنه ـ قال رجل للنبي ﷺ: أوصني. قال: «**اقرأ عند منامك:** ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ **فإنها براءة من الشرك**». وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ليس في القرآن أشد غيظاً لإبليس منها؛ لأنها توحيد، وبراءة من الشرك. انتهى. قرطبي.

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾

الشرح: نزلت السورة الكريمة في رهط من قريش، منهم: الحارث بن قيس السهمي، والعاص بن وائل السهمي، والوليد بن المغيرة، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن عبد المطلب بن أسد، وأمية بن خلف. قالوا: يا محمد! هلمّ اتبع ديننا، ونتبع دينك، ونشركك في ديننا كله، تعبد آلهتنا سنة، ونعبد إلهك سنة، فإن كان الذي جئت به خيراً كنا قد شركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً كنت قد شركتنا في أمرنا، وأخذت بحظك منه، فقال رسول الله ﷺ: «**معاذ الله أن أشرك به غيره!**» قالوا: فاستلم بعض آلهتنا؛ نصدقك، ونعبد إلهك. قال: «**حتى أنظر ما يأتي من ربي**». فأنزل الله عز وجل السورة بكاملها، فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام، وفيه أولئك الملأ من قريش، فقام على رؤوسهم، ثم قرأها عليهم حتى فرغ من السورة، فأيسوا منه عند ذلك، وآذَوْه وأصحابه. انتهى. خازن. وهذا يثبت: أن السورة مكية، ونزل قوله تعالى في سورة (القلم): ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾.

هذا؛ وإن النبي ﷺ كان يأتيهم في ناديهم، ويقول لهم: «**يا أيُّها الكافرون**» وهو يعلم أنهم يغضبون من أن ينسبوا إلى الكفر، ويدخلوا في جملة أهله؛ لأنه يعلم أنه محروس ممنوع من أن تنبسط عليه منهم يد، أو تقع به أذية منهم، وكثيراً ما كانوا يلجؤون إلى عمه أبي طالب، ويطلبون منه أن يكفه عن تسفيه أحلامهم، وشتم آبائهم، وعيب آلهتهم. وأما المسلمون؛ فلا يجوز لهم أن يسارعوا إلى مثلها، ويقيسوا على أنفسهم بنبيهم الذي حفظه الله، ورعاه، ومنعه من أعدائه. قال تعالى في سورة (الأنعام) رقم [١٠٨]: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ...﴾ إلخ.

وأما وجه التكرار؛ فقيل: إنه للتأكيد في قطع أطماعهم، كما تقول: والله لا أفعل كذا! ثم والله لا أفعله! قال أكثر أهل المعاني: نزل القرآن بلسان العرب، ومن مذاهبهم التكرار إرادة التأكيد والإفهام، كما أنَّ من مذاهبهم الاختصار إرادة التخفيف، والإيجاز؛ لأن خروج الخطيب، والمتكلم من شيء إلى شيء أولى من اقتصاره في المقام على شيء واحد. قال تعالى في سورة (الرحمن): ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، وقال تعالى في سورة (المرسلات): ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ وقال عز وجل في سورة (النبأ): ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾، وقال جل ذكره في سورة (الشرح): ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ هذا التكرار في السور المذكورة كله على التأكيد.

ومنه قول النبي ﷺ على المنبر: «**إن بني هاشم بن المغيرة استأذنوني أن ينكحوا ابنتهم عليَّ بن أبي طالب، فلا آذن لهم، ثم لا آذنُ لهم، ثم لا آذنُ لهم إلا أن يحبَّ ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي، وينكح ابنتهم، فإنما ابنتي بضعة مني، يريبني ما رابها، ويؤذيني ما آذاها**». رواه مسلم، وغيره، والتكرار وارد في الكلام العربي نثره، ونظمه، وهو كثير لا يعد، ولا يحصى.

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قالت قريش للنبي ﷺ نحن نعطيك من المال ما تكون به أغنى رجل بمكة. ونزوجك من شئت، ونطأ عقبك؛ أي: نمشي خلفك؛ وتكف عن شتم آلهتنا! فإن لم تفعل فنحن نعرض عليك خصلة واحدة، هي لنا ولك صلاح تعبد آلهتنا اللات والعزى سنة، ونحن نعبد إلهك سنة، فنزلت السورة، فكان التكرار في ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾؛ لأن القوم كرروا عليه مقالهم مرة بعد مرة. والله أعلم. انتهى. قرطبي. وانظر شرح (الكافر) في سورة (الدهر) رقم [٤]، وشرح (الدين) في آخر سورة (الانفطار)، وشرح (العبادة) في الآية رقم [٥] من سورة (البينة).

هذا؛ وقيل: قال له كفار قريش: اعبد آلهتنا سنة، ونعبد إلهك سنة. أو اعبد آلهتنا شهراً، ونعبد إلهك شهراً، فنزلت السورة الكريمة تردُّ عليهم الحالتين، فلا يكون تكرار على هذا. وهذا جيد جداً! والله أعلم.

تنبيه: ﴿مَا﴾ في هذه السورة يجوز فيها وجهان: أحدهما: أنها بمعنى «الذي»، فإن كان المراد بها الأصنام، كما في الأولى، والثالثة؛ فالأمر واضح؛ لأنهم غير عقلاء، و﴿مَا﴾ أصلها أن تكون لغير العقلاء، وإذا أريد بها الباري تعالى، كما في الثانية، والرابعة، فاستدل به من جوز وقوعها على أولي العلم، ومن منع جعلها مصدرية، والتقدير: ولا أنتم عابدون عبادتي؛ أي: مثل عبادتي. مع أن المعنى يجوز اعتبارها مصدرية في بعض الجمل. وقال أبو مسلم: ﴿مَا﴾ في الأوليين بمعنى: «الذي» والمقصود المعبود. وما في الأخريين مصدرية؛ أي: لا أعبد عبادتكم المبنية على الشك، وترك النظر، ولا أنتم تعبدون مثل عبادتي المبنية على اليقين. فتحصل من مجموع ذلك ثلاثة أقوال: أنها كلها بمعنى: «الذي» أو مصدرية، أو الأوليان بمعنى: «الذي»، والأخريان مصدريتان. انتهى. جمل.

فائدة: حيث وقعت (ما) قبل (لَيْس)، أو (لَمْ)، أو (لا)، أو بعد (إلَّا) فهي موصولة، نحو ﴿مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ ﴿مَّا لَمۡ تَعۡلَمُواْ﴾ ﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ و﴿إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ﴾، وحيث وقعت بعد كاف التشبيه فهي مصدرية، وحيث وقعت بعد الباء؛ فإنها تحتملهما. نحو قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾، وحيث وقعت بين فعلين، سبقهما علم، أو دراية، أو نظر؛ احتملت الموصولة، والاستفهامية، نحو قوله تعالى: ﴿مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾ وحيث وقعت في القرآن قبل (إلا) فهي نافية إلا في ثلاثة عشر

موضعاً: ﴿مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ﴾ ﴿مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي﴾ ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ إلا موضعي: (هود) من قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ فهي فيهما مصدرية ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ حيث كان. قاله في الإتقان. انتهى. كرخي نقله الجمل.

أقول: اعتبار هذا ضابطاً يجب اتباعه غير مُسَلَّم؛ لأن بعض الآيات التي ذكرها، واعتبر فيها (ما) موصولة فقط تحتمل الموصولة، والموصوفة، ولأن بعضها تحتمل فيه (ما) الموصولة، والموصوفة، والمصدرية. والحق: أن مدار ذلك على المعنى. وهذا ما اتبعته فيما تقدم من الإعراب، ولا أتخلَّى عنه في حياتي، والله الموفق، والمعين، وبه أستعين.

تنبيه: الأصل أن تكون (مَنْ) للعاقل، و (ما) لغير العاقل، وقد يعكس هذا، فتستعمل (مَنْ) لغير العاقل، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ الآية رقم [٤٥] من سورة (النور)، وتستعمل (ما) للعاقل، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ رقم [٣] من سورة (النساء) وهذا من باب التقارض، وذلك قليل، وأكثر ما تكون (ما) للعاقل إذا اقترن العاقل بغير العاقل في حكم واحد، كما في الآية الكريمة، وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فإن كل من في السموات، والأرض ممن يعقل، وما لا يعقل قد اقترنا في حكم واحد، وهو السجود، والتسبيح لله، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ ويكون في الكلام تغليب، كما تستعمل في المبهم أمره، كقولك، وقد رأيت شبحاً من بعد: انظر إلى ما أرى، ومن، وما تكونان بلفظ واحد للمفرد، والمثنى، والجمع، والمذكر، والمؤنث.

ملخص ما تقدم أن (مَنْ) تستعمل لغير العاقل في ثلاث مسائل:

١ـ أن ينزل غير العاقل منزلة العاقل، وذلك كقوله تعالى في سورة (الأحقاف) رقم [٥]: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فدعاء الأصنام التي لا تستجيب الدعاء نزلها منزلة العاقل؛ إذ لا ينادى إلا العقلاء. وخذ قول العباس بن الأحنف ـ وهو الشاهد رقم [٨٦] من كتابنا: «فتح رب البرية» ـ: [الطويل]

بَكَيْتُ عَلَى سِرْبِ القَطا إذْ مَرَرْنَ بي ... فَقُلْتُ ومِثْلِي بالبُكاءِ جَدِيرُ
أَسِرْبَ القَطا هلْ مَنْ يُعيرُ جَنَاحَهُ؟ ... لَعَلِّي إلَى مَنْ قَدْ هَوِيتُ أَطِيرُ

وأيضاً قول امرىء القيس ـ وهو الشاهد رقم [٨٥] من كتابنا: «فتح رب البرية»، والشاهد رقم [٣٠٨] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الطويل]

أَلَا عِمْ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلَلُ البَالِي وهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كَانَ في العُصُرِ الخَالِي؟

٢ـ أن يندمج غير العاقل مع العاقل في حكم واحد كقوله تعالى في سورة (النحل) رقم [١٧] ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ...﴾ إلخ رقم [١٨] من سورة (الحج).

٣ـ أن يقترن غير العاقل بالعاقل في عموم مفصل، كما في آية (النور) المذكورة آنفاً؛ إذ الدابة تعم أصناف من يدب على وجه الأرض، وقد فصلها على ثلاثة أنواع. وتستعمل (ما) للعاقل في ثلاث مسائل أيضاً:

١ـ إذا اقترن العاقل بغير العاقل في حكم واحد، كقوله تعالى في سورة (النحل) رقم [٤٩]: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ﴾ وقوله تعالى في سورة (طه) رقم [٦]: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾.

٢ـ إذا نزل العاقل منزلة غير العاقل، كقوله تعالى في سورة (النساء) رقم [٣]: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ وقوله تعالى ـ وهو كثير في القرآن ـ: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾.

٣ـ تستعمل (ما) في المبهم أمره، كقولك وقد رأيت شبحاً من بُعْد: انظر إلى ما أرى.

الإعراب: ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر، تقديره: «أنت». ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: (يا): أداة نداء، تنوب مناب أدعو، أو أنادي، (أيها): نكرة مقصودة، مبنية على الضم في محل نصب بـ: (يا)، و(ها): حرف تنبيه لا محل له، وأقحم للتوكيد، وهو عوض من المضاف إليه. ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: بعضهم يعرب هذا وأمثاله نعتاً، وبعضهم يعربه بدلاً، والقول الفصل: أن الاسم الواقع بعد «أي»، وبعد اسم الإشارة، إن كان مشتقاً؛ فهو نعت، وإن كان جامداً؛ فهو بدل، أو عطف بيان، والمتبوع أعني: (أي) منصوب محلاً، فكذا التابع أعني: الكافرون وأمثاله، فهو منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة الإتباع اللفظية، وإنما أتبعت ضمة البناء مع أنها لا تتبع؛ لأنها وإن كانت ضمة بناء، لكنها عارضة فأشبهت ضمة الإعراب، فلذا جاز إتباعها. أفاده الصبان.

لأنه قال: والمتجه وفاقاً لبعضهم: أن ضمة التابع إتباع، لا إعراب، ولا بناء. وقيل: إن رفع التابع المذكور إعراب، واستشكل بعدم المقتضي للرفع، وأجيب بأن العامل يقدر من لفظ عامل المتبوع مبنياً للمجهول، نحو يُدْعَى. وهو مع ما فيه من التكلف، يؤدي إلى قطع المتبوع. وقيل: إن رفع التابع المذكور بناء؛ لأن المنادى في الحقيقة هو المحلى بأل، ولكن لما لم يمكن إدخال حرف النداء عليه توصلوا إلى ندائه بـ: «أي»؛ أي: مع قرنها بحرف التنبيه. ورده بعضهم بأن المراعى في الإعراب اللفظ وأن الأول منادى، والثاني تابع له. والإعراب السائد الآن أن تقول مرفوع تبعاً للفظ. انتهى. جرجاوي.

هذا؛ والأخفش يعتبر (أيٌّ) في مثل هذه الآية موصولة و﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ خبراً لمبتدأ محذوف، التقدير: يا من هم الكافرون، والجملة الاسمية صلة، والعائد الضمير المقدر، على أنه قد حذف حذفاً لازماً، كما في قول امرئ القيس: [الطويل]

أَلَا رُبَّ يَوْمٍ صَالِحٍ لَكَ مِنهُمَا وَلَا سِيَّمَا يَوْمٌ بِدَارَةِ جُلْجُلِ

وهذا هو الشاهد رقم [٢٤٢] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» وما قاله الأخفش لا يعتدُّ به عند جمهرة النحاة. ﴿لَآ﴾: نافية. ﴿أَعۡبُدُ﴾: فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: «أنا». ﴿مَا﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به، والجملة الفعلية في محل نصب حال من فاعل ﴿قُلۡ﴾ المستتر، أو من ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ والأول أقوى، والرابط: الضمير فقط. ﴿تَعۡبُدُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والمفعول محذوف، وهو العائد، والجملة صلة الموصول لا محل لها. ﴿وَلَآ﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية. ﴿أَنتُمۡ﴾: ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿عَٰبِدُونَ﴾: خبره مرفوع، وعلامة رفعه الواو... إلخ، وفاعله مستتر فيه. ﴿مَآ﴾: اسم موصول مفعول به لـ: ﴿عَٰبِدُونَ﴾؛ لأنه اسم فاعل. ﴿أَعۡبُدُ﴾: فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: «أنا»، ومفعوله محذوف، وهو العائد، والجملة صلة الموصول، والجمل كلها معطوفة على جملة: ﴿لَآ أَعۡبُدُ﴾ فهي في محل نصب حال مثلها. ﴿وَلَآ﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية. ﴿أَنَا۠﴾: ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿عَابِدٌ﴾: خبره، والفاعل مستتر تقديره: «أنا». ﴿مَّا﴾: مفعول به. ﴿عَبَدتُّمۡ﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد محذوف، التقدير: ولا أنا عابد الذي عبدتموه. ﴿لَكُمۡ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿دِينُكُمۡ﴾: مبتدأ مؤخر، والكاف في محلِّ جرٍّ بالإضافة، والجملة مستأنفة، لا محل لها. ﴿وَلِيَ﴾: الواو: حرف عطف. (لي): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم. ﴿دِينِ﴾: مبتدأ مؤخر مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف، منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة، والياء المحذوفة في محل جر بالإضافة، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها. هذا؛ ولا تنس سبك (ما) مع ما بعدها بمصدر في المحال التي يمكن اعتبارها فيها مصدرية. تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله، وصحبه، وسلم.

انتهت سورة (الكافرون) شرحاً، وإعراباً بعون الله، وتوفيقه.

والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ النَّصرِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة (النصر) مدنية بالإجماع، وتسمى سورة (التوديع) وهي ثلاث آيات، وسبع عشرة كلمةً، وسبعة وسبعون حرفاً. انتهى. خازن. قال القرطبي: وهي آخر سورة نزلت جميعاً. قاله ابن عباس في صحيح مسلم، أقول: نزل بعدها آيات متفرقات، وآخر آية نزلت على قلب الرسول ﷺ آية (البقرة) وهي قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾

الشرح: ﴿إِذَا جَآءَ...﴾ إلخ: يعني: إذا جاءك النصر يا محمد نصر الله، ومعونته على من عاداك، وهم قريش. ومعنى مجيء النصر: أن جميع الأمور مرتبطة بأوقاتها، يستحيل تقدمها عن وقتها، أو تأخرها عنه، فإذا جاء ذلك الوقت المعين؛ حضر معه ذلك الأمر المقدر. فلهذا المعنى. قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ يعني: فتح مكة في قول جميع المفسرين، والفرق بين النصر والفتح: أن النصر هو الإعانة، والإظهار على الأعداء، وهو تحصيل المطلوب، وهو كالسبب للفتح، ولهذا بدأ بذكر (النصر) وعطف عليه (الفتح). وقيل: النصر: هو إكمال الدين، وإظهاره، والفتح هو الإقبال الذي هو تمام النعمة. انتهى. خازن.

هذا؛ وقال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: و﴿إِذَا﴾ بمعنى قد؛ أي: قد جاء نصر الله؛ لأن نزولها بعد الفتح، ويمكن أن يكون معناه: إذا يجيئك. أقول: ولا وجه له، بل إن التعبير على حقيقته، وهو من التعبير بالماضي عن المستقبل لتحقق وقوعه، وهذا كثير مستعمل في القرآن الكريم، وقد نبهت إليه مراراً.

﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ أي: زمراً، وأرسالاً، القبيلة بأسرها، والقوم بأجمعهم من غير قتال. قال الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ: لما فتح الله على رسوله ﷺ مكة؛ قالت العرب بعضها لبعض: إذا أظفر الله محمداً بأهل الحرم، وكان قد أجارهم من أصحاب

الفيل؛ فليس لكم به يدان، فكانوا يدخلون في دين الله أفواجاً، بعد أن كانوا يدخلون واحداً واحداً، واثنين، اثنين. وقيل: أراد بـ: ﴿ٱلنَّاسَ﴾ أهل اليمن. فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**أتاكم أهلُ اليمنِ، همْ أضعفُ قلوباً، وَأَرَقُّ أفئدةً، الإيمانُ يمانٌ، والحكمة يمانيةٌ**». متفق عليه. ودين الله هو الإسلام، وإضافته إليه تشريفاً، وتعظيماً له، كبيت الله، وناقة الله. فقد ذكر: أنه ورد من اليمن سبعمئة إنسان مؤمنين طائعين، بعضهم يؤذنون، وبعضهم يقرؤون القرآن، وبعضهم يهللون، فسر النبي ﷺ بذلك، وبكى عمر، وابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

روى الحافظ البيهقي ـ رحمه الله تعالى ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قال: لما نزلت: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة ـ رضي الله عنها ـ وقال: «**إنَّهُ قد نُعِيَتْ إليَّ نفسي**». فبكت، ثم ضحكت. وقالت: أخبرني: أنه نعيتْ إليه نفسُهُ، فبكيت، ثم قال: «**اصْبري فإنكِ أوَّلُ أهلي لِحَاقاً بي**». فضحكت. انتهى. والمحفوظ: أن النبي ﷺ كلمها سراً أولاً، وثانياً، ولم تخبر بذلك إلا بعد وفاته ﷺ، وعاشت بعده ستة أشهر فقط. وروى الحديث النسائي بنحو رواية البيهقي.

فعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ: قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ النَّاسَ دَخَلُوا في دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً، وسَيَخْرُجُونَ مِنْ دينِ اللهِ أَفْوَاجاً**». أخرجه الإمام أحمد في مسنده، وهذا حاصل، وواقع في هذا الزمن، وما بعده أعظم حتى يتحقق قوله ﷺ: «**بدأ الدين غريباً وسيعود كما بدأ**». هذا؛ وانظر شرح ﴿أَفۡوَاجٗا﴾ في الآية رقم [١٨] من سورة (النبأ).

﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ أي: إذا صليت فأكثر من التسبيح، والتحميد. والتسبيح: هو التنزيه، والتقديس للملك الجليل؛ أي: نزهه عما لا يليق بجلاله وعظمته مع شكرك له. ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾ أي: سل الله الغفران، روى الأئمة (واللفظ للبخاري) عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ. قالت: ما صلى ﷺ بعد أن نزلت عليه سورة: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ إلا يقول: «**سبحانك ربَّنا وبحمدك، اللهمَّ اغفر لي**». وعنها أيضاً قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه، وسجوده: «**سبحانك اللهمَّ ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي**». وفي غير البخاري: وقالت أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ: كان النبي ﷺ آخر أمره لا يقوم، ولا يقعد، ولا يجيء، ولا يذهب إلا قال: «**سبحان الله وبحمده، أستغفر الله، وأتوب إليه**». قال: «**فإني أمرت بها**». ثم قرأ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ إلى آخرها. وقال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: اجتهد النبي ﷺ بعد نزول هذه السورة حتى تورمت قدماه، ونحل جسمه، وقل تبسمه، وكثر بكاؤه. وقال عكرمة ـ رضي الله عنه ـ: لم يكن النبي ﷺ قطُّ أشدَّ اجتهاداً في أمور الآخرة، ما كان منه عند نزولها.

وقال مقاتل: لما نزلت؛ قرأها النبي ﷺ على أصحابه، ومنهم أبو بكر، وعمر، وسعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ ففرحوا واستبشروا، وبكى العباس ـ رضي الله عنه ـ،

فقال له النبي ﷺ: «**ما يبكيك يا عم؟**». قال: نُعِيَتْ إليك نفسُك. قال: «**إنه لكما تقول**». فعاش بعدها ستين يوماً، ما رئي فيها ضاحكاً مستبشراً.

وفي البخاري، وغيره عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان عمر ـ رضي الله عنه ـ يأذن لأهل بدر، ويأذن لي معهم. قال: فوجد بعضهم من ذلك، فقالوا: يأذن لهذا الفتى معنا، ومن أبنائنا من هو مثله، فقال لهم عمر: إنه من قد علمتم. قال: فأذن لهم ذات يوم، وأذن لي معهم، فسألهم عن هذه السورة: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ إلى آخرها فقالوا: أمر الله عز وجل نبيه ﷺ إذا فتح عليه أن يستغفره، وأن يتوب إليه. فقال: ما تقول يا بن عباس؟! قلت: ليس كذلك، ولكن أخبر الله نبيه ﷺ حضور أجله. فقال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ...﴾ إلخ فذلك علامة موتك ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ...﴾ إلخ فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: تلومونني عليه؟! وفي البخاري: فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: ما أعلم منها إلا ما تقول.

فإن قيل: فماذا يغفر للنبي ﷺ حتى يؤمر بالاستغفار، وقد غفر الله له ما تقدم، وما تأخر من ذنبه؟ فالجواب: كان النبي ﷺ يقول في دعائه: «**رب اغفر لي خطيئتي، وجهلي، وإسرافي في أمري كله، وما أنت أعلم به مني، اللهمَّ اغفر لي خطئي، وعمدي، وجهلي، وهزلي، وكلُّ ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدَّمتُ، وما أخَّرتُ، وما أعلنْتُ وما أسررتُ، أنتَ المقدمُ، وأنتَ المؤخرُ، إنكَ على كل شيء قديرٌ**». فكان ﷺ يستقصر نفسه؛ لعظم ما أنعم الله به عليه. ويرى قصوره عن القيام بحق ذلك ذنوباً. وقيل: الاستغفار تعبد يجب إتيانه، لا للمغفرة، بل تعبداً. وقيل: ذلك تنبيه لأمته؛ لكيلا يأمنوا، ويتركوا الاستغفار.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ أي: على المسبحين، والمستغفرين. يتوب عليهم، ويرحمهم، ويقبل توبتهم، و(توَّاب): كثير قبول التوبة من عباده، أو الرجاع على عباده بالرحمة، والمغفرة، فهو صيغة مبالغة، وتوبة العبد: رجوعه عن المعصية إلى الطاعة، وقرع باب ربه بالندم، والإنابة. وانظر الاستغفار في الآية رقم [١٠] من سورة (نوح) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام، وشرح ﴿كَانَ﴾ برقم [١٠] منها.

هذا؛ وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر من قول: «**سبحان الله وبحمدِهِ، أستغفرُ الله، وأتوبُ إليه**». قالت: فقلت: يا رسول الله! أراك تكثر من قول: (سبحانَ. . .) إلخ فقال: «**خبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي، فإذا رأيتها أكثرت من قول: سبحان. . . إلخ**». فقد رأيتها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ...﴾ إلخ.

وقال ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: نزلت هذه السورة بمنىً في حجة الوداع، ثم نزلت: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ من الآية رقم [٣] من سورة (المائدة) فعاش بعدها النبي ﷺ ثمانين يوماً، ثم نزلت آية الكلالة (آخر سورة النساء) فعاش بعدها خمسين يوماً، ثم

نزل قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ...﴾ إلخ آخر سورة (التوبة) فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوماً، ثم نزل قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ...﴾ إلخ رقم [٢٨١] من سورة (البقرة) فعاش بعدها أحداً وعشرين يوماً. وقال مقاتل: عاش سبعة أيام. وقيل: غير ذلك. والمشهور: أن سورة (النصر) نزلت قبل فتح مكة، وكانت بشارةً بفتحها، وهذا من أعلام النبوة.

هذا؛ وقال الرازي ـ رحمه الله تعالى ـ: اتفق الصحابة على أن هذه السورة دلت على نعي رسول الله ﷺ، وذلك لوجوه: أحدها: أنهم عرفوا ذلك لما خطب رسول الله ﷺ عقب نزول السورة، وذكر التخيير، وهو قوله ﷺ في خطبته: «**إن عبداً خيره الله تعالى بين الدنيا، وبين لقائه، فاختار لقاء الله تعالى**». فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: فديناك بأنفسنا، وأموالنا، وأولادنا، وآبائنا. ثانيها: أنه لما ذكر حصول النصر، والفتح، ودخول الناس في الدين أفواجاً، دل ذلك على حصول الكمال، والتمام، وذلك يعقبه الزوال، والنقصان، كما قيل: [المتقارب]

إذَا تَـمَّ أَمْـرٌ بَـدَا نَـقْـصُـهُ … تَـوَقَّـعْ زوالاً إذَا قِـيـلَ تَـمْ

وقال الرندي: [البسيط]

لِـكُـلِّ شَـيْءٍ إذَا مَـا تَـمَّ نُـقْـصَـانُ … فَـلَا يـغـرَّ بـطـيـبِ الـعَـيْـشِ إنـسـانُ

ثالثها: أنه تعالى أمره بالتسبيح، والحمد، والاستغفار مطلقاً، واشتغاله بذلك يمنعه من اشتغاله بأمر الأمة، فكان هذا كالتنبيه على أن أمر التبليغ قد تم، وكمل، وذلك يقتضي انقضاء الأجل؛ إذ لو بقي ﷺ بعد ذلك لكان كالمعزول من الرسالة، وذلك غير جائز. انتهى. جمل نقلاً من الرازي. أقول: التعبير بقوله: كالمعزول من الرسالة غير جيد قطعاً؛ لأن العزل يقتضي إبداله بغيره، وهذا مستحيل قطعاً، وأبداً.

تنبيه: والتعبير بـ: ﴿جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ مستعار؛ لأن المقدر متوجه من الأزل لوقته، فكأنه سائر نحوه، فشبه حصول المقدورات، ووقوعها عند حضور أوقاتها بمجيئها إليها، فأطلق اسم المجيء على ذلك الحصول، ثم اشتق منه لفظ جاء، فيكون استعارة تبعية بالحرف.

هذا؛ والفعل: «جاء» يستعمل لازماً إن كان بمعنى: أقبل، ووصل، كما في هذه السورة، ويستعمل متعدياً إن كان بمعنى: بلغ، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ﴾ ومثله: «أتى» يكون لازماً، ومتعدياً.

الإعراب: ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه، منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك، مبني على السكون في محل نصب. ﴿جَآءَ﴾: فعل ماض. ﴿نَصۡرُ﴾: فاعله، وهو مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه، من إضافة المصدر لفاعله، ومفعوله محذوف، والجملة الفعلية

ابتدائية لا محل لها، و﴿إِذَا﴾: متعلقة بالفعل ﴿جَآءَ﴾ ولا يجوز تعليقها بالفعل (سبِّح)؛ لأنه لا يعمل ما بعد الفاء فيما قبلها. (الفتح): معطوف على ما قبله. (رأيت الناس): فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿يَدۡخُلُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع... إلخ، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب حال من ﴿ٱلنَّاسَ﴾ إن كانت رأى بصرية، أو مفعول ثان إن كانت علمية. ﴿أَفۡوَاجٗا﴾: حال من واو الجماعة. ﴿فَسَبِّحۡ﴾: الفاء: واقعة في جواب ﴿إِذَا﴾. (سبح): فعل أمر، وفاعله تقديره: «أنت»، والجملة جواب (إذا) لا محل لها. ﴿بِحَمۡدِ﴾: متعلقان بمحذوف حال من الفاعل المستتر، و(حمد): مضاف، و﴿رَبِّكَ﴾: مضاف إليه، والكاف في محل جر بالإضافة من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. (استغفره): فعل أمر، وفاعله مستتر، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها.

﴿إِنَّهُۥ﴾: (إنَّ): حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه ضمير مستتر تقديره: «هو». ﴿تَوَّابَۢا﴾: خبرها، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية، لا محل لها؛ لأنها تعليل للأمر. تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه، وسلم.

انتهت سورة (النصر) بعونه، وتوفيقه.

والحمد لله رب العالمين.

سورة المسد

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة (تبت)، وتسمى سورة أبي لهب، وسورة (المسد)، وهي خمس آيات، وعشرون كلمةً، وسبعون حرفاً.

﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ٥﴾

جاء في الصحيحين وغيرهما، واللفظ لمسلم: عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ رقم [٢١٤] من سورة (الشعراء) خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف: «**يا صباحاه!**». فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد، فاجتمعوا إليه، فقال: «**أرأيْتكُم لو أخبرتُكم: أن خيلاً، تخرج بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم؛ أكنتم مصدقيَّ؟**» قالوا: ما جربنا عليك كذباً. قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد!**» فقال أبو لهب: تبّاً لك؛ ألهذا جمعتنا؟! ثم قام، فنزلت السورة الكريمة، فلما سمعت امرأته العوراء ما نزل بزوجها، وفيها من القرآن؛ أتت رسول الله ﷺ؛ وهو جالس في المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وفي يدها فهر (حجر ملء الكف) فلما وقفت عليه؛ أخذ الله بصرها عن رسول الله ﷺ، فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر! إن صاحبك قد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته؛ لضربت بهذا الفهر فاه! والله إني لشاعرة، وقائلة: [مجزوء الرجز]

مُذَمَّماً عَصَيْنَا وأَمْرَهُ أَبَيْنَا ودِينَهُ قَلَيْنَا

ثم انصرفت، فقال الصديق ـ رضي الله عنه ـ: يا رسول الله! أما تراها رأتك؟ قال: «**ما رأتني! لقد أخذ الله بصرها عني!**» وكانت قريش تسمي رسول الله ﷺ مذمماً، يسبونه، ويهجونه، وكان ﷺ يقول: «**ألا تعجبون لما صرف الله عني من أذى قريش، يسبون، ويهجون مذمماً، وأنا محمد**». هذا؛ وكان النبي ﷺ يعرض نفسه على قبائل العرب في موسم الحج، وأبو لهب يمشي خلفه، ويقول لهم: هذا ابن أخي، وهو كذاب، لا تصدقوه! فكانوا يردون على

النبي ﷺ، ويقولون: قوم الرجل أعلم به، فكانت السعادة مقدرة للأوس، والخزرج في المدينة المنورة.

هذا؛ ومعنى ﴿تَبَّتۡ﴾: خابت، وخسرت، والتباب: الخسار، والهلاك. قال تعالى في سورة (غافر) رقم [٣٧]: ﴿وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ﴾. وقال يمان بن رئاب: ﴿تَبَّتۡ﴾ صفرت من كل خير، حكى الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء: أنه لما قتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ سمع الناس هاتفاً يقول: [مجزوء الوافر]

لَقَدْ خَلَّوْكَ، وانْصَرَفُوا فَمَا آبُوا ولا رَجَعُوا

ولَمْ يُوفُوا بِنَذْرِهُمُ فَيَا تَبَّاً لِمَا صَنَعُوا

وخص اليدين بالتباب؛ لأن العمل أكثر ما يكون بهما؛ أي: خسرتا، وخسر هو. وقيل: المراد باليدين نفسه، وقد يعبر عن النفس باليد، كما قال تعالى في سورة (الحج) رقم [١٠]: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾. ﴿وَتَبَّ﴾: قال الفراء: التب الأول دعاء، والثاني خبر، كما يقال: أهلكه الله؛ وقد هلك.

و(أبو لهب) اسمه عبد العزى، وهو ابن عبد المطلب عم النبي ﷺ، وامرأته العوراء أم جميل، أخت أبي سفيان بن حرب، واسمها: أروى. وكلاهما كان شديد العداوة للنبي ﷺ. وكني بأبي لهب؛ لحسنه، وإشراق وجهه. فإن قلت: لم كناه، وفي الكنية تشريف، وتكرمة؟ قلت: فيه وجوه: أحدها: أنه كان مشتهراً بالكنية دون الاسم، فلو ذكره باسمه؛ لم يعرف. الثاني: أنه كان اسمه عبد العزى، فعدل عنه إلى الكنية لما فيه من الشرك. الثالث: أنه لما كان من أهل النار، ومآله إلى النار، والنار ذات لهب، وافقت حاله كنيته، وكان جديراً بأن يذكر بها. الرابع: أن الله تعالى أراد أن يحقق نسبته بأن يدخله النار، فيكون أباً لها، تحقيقاً للنسب، وإمضاء للفأل، والطيرة؛ التي اختارها لنفسه. الخامس: أن المراد بالكنية التحقير، كما بكنية أبي جهل. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾: قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: لما دعا رسول الله ﷺ أقرباءه إلى الله تعالى؛ قال أبو لهب: إن كان ما تقول يا بن أخي حقاً، فأنا أفتدي نفسي بمالي، وولدي، فأنزل الله تعالى: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ أي: أي شيء يغني عنه ماله؟! أي: ما يدفع عنه عذاب الله ماله؛ الذي جمعه، واكتسبه. أو الذي ورثه من أبيه، والذي كسبه بنفسه.

هذا؛ وقيل: وما كسب من الأولاد. فإن ولد الرجل من كسبه، كما جاء في الحديث من قول النبي ﷺ: **«إنَّ أَطْيَبَ ما أَكَلْتُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ، وإنَّ أَوْلَادَكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ»**. أخرجه الترمذي. قال الآلوسي ـ رحمه الله تعالى ـ: كان لأبي لهب ثلاثة أبناء: عتبة، ومعتب، وعتيبة. وقد أسلم

الأولان يوم الفتح، وشهدا حنيناً، والطائف، وأما عتيبة؛ فلم يسلم. وانظر ما ذكرته في الآية رقم [١٧] من سورة (عبس) تجد ما يسرك، ويثلج صدرك، والحمد لله.

فائدة بل طرفة: جاء بنو أبي لهب يختصمون عند ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فاقتتلوا، فقام ليحجز بينهم، فدفعه بعضهم، فوقع على الفراش، فغضب. وقال: أخرجوا عني الكسب الخبيث، يعني: ولد أبي لهب.

فائدة: يروى: أن معاوية قال لابن عباس: إذا دخلت النار؛ فأين تجدُ عمك أبا لهب؟ فقال له ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إذا دخلتَ النار؛ تجده مفترشاً عمتك أروى! فأفحم، ولم يُحِرْ جواباً.

هذا؛ وهلك أبو لهب بعد وقعة بدر بسبع ليال بمرضٍ مُعْدٍ كالطاعون يسمى العدسة، وبقي ثلاثة أيام حتى أنتن، فلما خافوا العار؛ حفروا له حفرة، ودفعوه إليها بعود حتى وقع فيها، ثم قذفوه بالحجارة؛ حتى واروْه، فكان الأمر كما أخبر القرآن. هذا؛ والعدسة: قرحة تعتري الإنسان، كانت العرب تهرب منها؛ لأنها بزعمهم تعدي أشد العدوى. وفي القاموس: والعدسة: بثرة تخرج بالبدن فتقتل، وقد عدس، كعنى. فهو معدوس. انتهى.

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أي: سيدخل ناراً حامية، ذات اشتعال، وتوقد عظيم، وإحراق شديد. هذا؛ وانظر شرح: ﴿سَأُصْلِيهِ﴾ في سورة (المدثر) رقم [٢٦]، وشرح: ﴿ذَاتَ﴾ في سورة (الملك) رقم [١٣]، وشرح ﴿نَارًا﴾ في سورة (نوح) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام رقم [٢٥].

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ أي: امرأة أبي لهب المذكورة قريباً. والمعنى: ستدخل معه النار مع الداخلين؛ لأنها كانت مع زوجها في نهاية العداوة لرسول الله ﷺ. قيل: كانت تحمل الشوك، والحسك، والعضاه، والأقذار بالليل، فتطرحه في طريق رسول الله ﷺ وأصحابه؛ لتؤذيهم بذلك. وهي رواية عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

فإن قلت: إنها كانت من بيت العز، والشرف، فكيف يليق بها حمل الحطب، قلت: يحتمل أنها كانت مع كثرة مالها، وشرفها في نهاية البخل، والخسة، فكان يحملها بخلها على حمل الحطب بنفسها. ويحتمل: أنها كانت تفعل ذلك لشدة حقدها، وعداوتها لرسول الله ﷺ، ولا ترى أنها تستعين في ذلك بأحد، بل تفعلها هي بنفسها. وقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي: كانت تمشي بالنميمة بين الناس. تقول العرب: فلان يحطب على فلان: إذا حرش عليه. قال الشاعر: [الرجز]

إنَّ بني الأدْرَمِ حمالُو الحَطَبْ ... هُمُ الوُشَاةُ في الرِّضَا وفي الْغَضَبْ

عَلَيْهِمُ اللعْنَةُ تَتْرَى والحَرَبْ

فكانت تمشي بالنميمة، وتنقل الحديث، وتلقي العداوة بين الناس، وتوقد نارها، كما توقد النار بالحطب. وقيل: حمالة الخطايا، والآثام؛ التي حملتها في عداوة رسول الله ﷺ؛ لأنها كانت كالحطب في مصيرها إلى النار.

﴿فِي جِيدِهَا﴾ أي: عنقها. قال امرؤ القيس في معلقته رقم [٤٤]: [الطويل]

وجيدٍ كجيدِ الرِّيمِ لَيْسَ بِفَاحِشٍ إِذَا هِيَ نَصَّتْهُ ولا بِمُعَطَّلِ

﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ أي: من ليف. قال النابغة في معلقته رقم [٨]: [البسيط]

مقذوفةٍ بدخيسِ النَّحضِ بازِلُهَا لَهُ صريفٌ صرِيفُ القَعْوِ بالمَسَدِ

انظر شرح البيتين، وإعرابهما في كتابنا: «فتح الكبير المتعال». هذا؛ وجمع الجيد: أجياد، وجمع المسد: أمساد، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في شرح ﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾: سلسلة من حديد، ذرعها سبعون ذراعاً تدخل مِنْ فيها، وتخرج من دبرها، ويكون سائرها في عنقها، فتلت من حديد فتلاً محكماً. وقيل: هو حبل من ليف، وذلك الحبل هو الذي كانت تحتطب به، فبينما هي ذات يوم حاملة الحزمة، أعيت، فقعدت على حجر لتستريح، أتاها ملك، فجذبها من خلفها، فأهلكها. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿تَبَّتْ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث، لا محل له. ﴿يَدَآ﴾: فاعله مرفوع، وعلامة رفعه الألف نيابة عن الضمة؛ لأنه مثنى، وحذفت النون للإضافة، و﴿يَدَآ﴾: مضاف، و﴿أَبِي﴾: مضاف إليه مجرور وعلامة جره الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه من الأسماء الخمسة، و﴿أَبِي﴾: مضاف، و﴿لَهَبٍ﴾: مضاف إليه. ﴿وَتَبَّ﴾: الواو: حرف عطف. (تب): فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها لا محل لها مثلها، الأولى بالابتداء، والثانية بالإتباع.

﴿مَآ﴾: نافية. ﴿أَغْنَىٰ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر. ﴿مَالُهُۥ﴾: فاعله، والهاء في محل جر بالإضافة، والمفعول محذوف، التقدير: ما أغنى عنه ماله شيئاً. هذا؛ ويجوز اعتبار (ما) استفهامية مبنية على السكون في محل نصب مفعول به مقدم، وعلى الاعتبارين فالجملة فعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿وَمَا﴾: الواو: حرف عطف. (ما): اسم موصول مبني على السكون في محل رفع معطوف على ﴿مَالُهُۥ﴾. ﴿كَسَبَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾. والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها، والعائد محذوف، التقدير: والذي كسبه. هذا؛ وإن اعتبرت (ما) مصدرية تؤول مع الفعل بعدها بمصدر في رفع معطوف على ﴿مَالُهُۥ﴾ التقدير: وكسبه. وأجاز السمين اعتبار (ما) استفهامية. والمعنى لا يؤيده. تأمل.

﴿سَيَصۡلَىٰ﴾: السين: حرف استقبال. (يصلى): فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾ أيضاً. ﴿نَارًا﴾: مفعول به. ﴿ذَاتَ﴾: صفة ﴿نَارًا﴾، و﴿ذَاتَ﴾: مضاف، و﴿لَهَبٍ﴾: مضاف إليه، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. (امرأته): مبتدأ. ﴿حَمَّالَةَ﴾: مفعول به لفعل محذوف، التقدير: أذم حمالة، وأجيز اعتباره حالاً، و﴿حَمَّالَةَ﴾: مضاف، و﴿ٱلۡحَطَبِ﴾: مضاف إليه، من إضافة مبالغة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿فِي جِيدِهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم، و(ها) في محل جر بالإضافة. ﴿حَبۡلٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ...﴾ إلخ مستأنفة، لا محل لها، والجملة الفعلية: المقدرة: «أذمُّ حمالة الحطب» معترضة بين المبتدأ والخبر، لا محل لها. ﴿مِّن مَّسَدِۭ﴾: جار، ومجرور متعلقان بمحذوف صفة ﴿حَبۡلٌ﴾.

هذا؛ ويقرأ برفع (حمالةُ) على أنه خبر: (امرأتُه)، وتكون جملة: ﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٌ مِّن مَّسَدِۭ﴾ في محل نصب حال من الضمير المستتر بـ: (حمالةُ)، أو في محل رفع خبر ثان للمبتدأ. والرابط على الاعتبارين الضمير، وعلى هذا يوقف على ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ ويستأنف ما بعده، ويجوز عطف (امرأته) على الضمير المستتر بـ: (يصلى) وعليه فلا يوقف على ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾، ويوقف على (امرأته)، ويكون (حمالةُ) خبر مبتدأ محذوف، التقدير: هي حمالة، والجملة الاسمية مستأنفة، وتكون الجملة الاسمية: ﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٌ...﴾ إلخ محتملة للوجهين اللذين ذكرتهما سابقاً. هذا؛ وأجيز اعتبار ﴿حَمَّالَةَ﴾ في حال رفعها نعتاً لـ: (امرأته)، وجاز ذلك؛ لأن الإضافة حقيقية؛ إذ المراد المضي. واعتبارها عطف بيان، وبدلاً من (امرأته)؛ لأنها تشبه الجوامد لتمحض الإضافة.

انتهت سورة (المسد) شرحاً، وإعراباً بعون الله، وتوفيقه.

والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ الإخلاص

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة (الإخلاص) وهي مكية. وقيل: مدنية، وهي أربع آيات، وخمس عشرة كلمةً، وسبعة وأربعون حرفاً. انتهى. خازن. ولها أسماء كثيرة. وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى. وخذ ما يلي في فضلها: فعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ: أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يرددها، فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، وكأن الرجل يتقللها، فقال رسول الله ﷺ **«والذي نفسي بيده إنها لَتَعدِلُ ثُلُثَ القرآنِ!»**. أخرجه البخاري. وفي رواية قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: **«أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أن يقرأ ثُلُثَ القرآن في لَيْلَةٍ؟»** فشق ذلك عليهم، فقالوا: أيُّنا يطيق ذلك يا رسول الله؟! فقال: «﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ **ثُلُث القرآن**». أخرجه مسلم عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ. وانظر ما ذكرته في فضل سورة (الزلزلة) وسورة (الكافرون). وقال الإمام النووي ـ رحمه الله تعالى ـ: قيل: معناه: أن القرآن على ثلاثة أنحاء: قصص، وأحكام، وصفات لله تعالى، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ متضمنة للصفات، فهي ثلث القرآن، وجزء من ثلاثة أجزاء.

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أن النبي ﷺ بعث رجلاً على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: **«سلوه: لأي شيء يصنع ذلك؟»** فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ: **«أَخْبِرُوهُ: أنَّ الله تعالى يحبُّهُ»**. أخرجه البخاري في باب التوحيد.

وقيل: سميت هذه السورة: سورة (الإخلاص)، إما؛ لأنها خالصة لله تعالى في صفته، أو؛ لأن قارئها قد أخلص لله التوحيد، ومن فوائد هذه السورة: أن الاشتغال بقراءتها يفيد الاشتغال بالله، وملازمة الإعراض عما سوى الله تعالى، وهي متضمنة تنزيه الله تعالى، وبراءته عن كل ما لا يليق به؛ لأنها مع قصرها جامعة لصفات الأحدنية، والصمدانية، والفردانية، وعدم النظير، والأحاديث في بيان فضلها، وفضل قراءتها كثيرة، ومشهورة، ومسطورة.

سبب النزول: أن بعض المشركين جاؤوا إلى النبي ﷺ، فقالوا: يا محمد! صف لنا ربك: أمن ذهب هو، أم من فضة، أم من زبرجد، أم من ياقوت؟ فنزلت السورة الكريمة. أخرجه الترمذي عن أُبَيٍّ بن كعب ـ رضي الله عنه ـ، وأخرجه الحاكم، وابن خزيمة من طريق أبي العالية

عن أُبَيٍّ أيضاً. وأخرج الطبراني، وابن جرير مثله من حديث جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ فاستدل بذلك على أن السورة مكية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أن اليهود جاءت إلى النبي ﷺ منهم كعب بن الأشرف، وحيي بن أخطب، لعنهما الله! فقالوا: يا محمد! صف لنا ربك الذي بعثك. فأنزل الله ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فاستدل بهذا على أن السورة مدنية. انتهى. سيوطي أسباب النزول.

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾

الشرح: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾: هو بمعنى واحد، وأصله: وحد، فقلبت الواو همزة لوقوعها طرفاً في أول الكلمة، والمعنى: قل يامحمد لهؤلاء المشركين المستهزئين: الله هو الواحد الأحد؛ الذي لا نظير له، ولا وزير، ولا شبيه، ولا عديل؛ لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله، فهو جل وعلا واحد أحد، ليس كما يعتقد النصارى بالتثليث: الأب، والابن، وروح القدس. ولا كما يعتقد المشركون بتعدد الآلهة. قال في التسهيل: واعلم: أن وصف الله تعالى بالواحد الأحد، له ثلاثة معان، كلها صحيحة في حقه تعالى: الأول: أنه واحد لا ثاني معه، فهو نفي للعدد. والثاني: أنه واحد لا نظير له، ولا شريك له، كما تقول: فلان واحد في عصره؛ أي: لا نظير له. والثالث: أنه واحد لا ينقسم، ولا يتبعض. والمراد بالسورة نفي الشريك رداً على المشركين، وقد أقام الله في القرآن براهين قاطعة على وحدانيته تعالى، وذلك كثير جداً، وأوضحها أربعة براهين: الأول: قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ الآية رقم [١٧] من سورة (النحل)، وهذا دليل الخلق، والإيجاد. فإذا ثبت: أن الله تعالى خالق لجميع الموجودات؛ لم يصح أن يكون واحد منها شريكاً له. والثاني: قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ رقم [٢٢] من سورة (الأنبياء) وهو دليل الإحكام والإبداع. الثالث قوله تعالى: ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ رقم [٤٢] من سورة (الإسراء) وهو دليل القهر، والغلبة. الرابع: قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ رقم [٩١] من سورة (المؤمنون) وهو دليل التنازع والاستعلاء. انتهى. صفوة التفاسير بتصرف، بعد هذا انظر شرح ﴿أَحَدًا﴾ في سورة (الجن) [٢٦] فإنه جيد.

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو الذي يصمد إليه في الحاجات، كما قال عز وجل: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ رقم [٥٣] من سورة (النحل). قال أهل اللغة: الصمد: السيد؛ الذي يُصمَدُ إليه في النوازل، والحوائج. قال الشاعر: [الطويل]

ألا بكَّرَ النَّاعي بخيرِ بني أسَدْ بعمرو بنِ مَسْعُودٍ وبالسَّيِّدِ الصَّمَدْ

وروى البخاري في أفراده عن أبي وائل شقيق بن سلمة ـ رضي الله عنه ـ قال: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ هو السيد الذي انتهى سؤدده. وهي رواية عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: هو السيد الذي كمل فيه جميع أوصاف السؤدد. ومنه قول الشاعر: [البسيط]

عَلَوْتُهُ بِحُسَامٍ ثُمَّ قُلْتُ لَهُ خُذْهَا حُذَيْفَ فأنتَ السَّيِّدُ الصَّمَدُ

وبالجملة ف: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ هو الباقي الدائم بعد فناء خلقه؛ الذي ليس فوقه أحد، وهو الذي لا تعتريه الآفات، ولا تغيره الأوقات، وهو الذي لا عيب فيه، وهو الأول الذي ليس له زوال، والآخر الذي ليس لملكه انتقال، الموصوف بما بعده.

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ وذلك: أن مشركي العرب قالوا: الملائكة بنات الله. وقالت اليهود: عزير ابن الله. وقالت النصارى: المسيح ابن الله. فكذبهم الله عز وجل جميعاً، ونفى عن نفسه ما قالوا بقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾، يعني كما ولد عيسى، وعزير، ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ معناه: من ولد كان له والد، فنفى عنه إحاطة النسب من جميع الجهات، فهو الأول الذي لم يتقدمه والد كان عنه، وهو الآخر الذي لم يتأخر عنه ولد يكون عنه. هذا؛ والفعل ﴿يَلِدْ﴾ أصله: (يَوْلِد) فحذفت الواو لوقوعها ساكنة بين عدوتيها، وهما: الياء، والكسرة من مضارع الغائب، وتحذف من مضارع المخاطب، والمتكلم قياساً عليه، مثل: يعد، ويزن، ونحوهما.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ أي: لم يكن له مكافئ، ولا مماثل، ولا مشابه في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله. هذا؛ ويقرأ (كُفواً) بضم الفاء، وسكونها، مثل: العسر، واليسر في سورة (الشرح).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أن النبي ﷺ قال: قال الله عز وجل: «**كذَّبني ابْنُ آدمَ، ولم يكنْ لهُ ذلكَ، وشتمني ولمْ يكن لهُ ذلك، فأَمَّا تكذِيبُهُ إيايَ؛ فقوله: لن يعيدَني كما بدأني. وليْسَ أولُ الخلقِ بأهونَ عليَّ مِنْ إعادتِهِ. وأما شتمه إيَّايَ، فقولُهُ: اتخذ الله ولداً. وأنا الأحدُ الصمدُ؛ الذي لم يلدْ ولم يولدْ، ولم يكنْ لَهُ كفواً أحَدٌ**». أخرجه البخاري.

الإعراب: ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر، تقديره: «أنت». ﴿هُوَ﴾: ضمير الشأن مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾: مبتدأ، وخبر، والجملة الاسمية في محل رفع خبر المبتدأ الأول، هذا هو الإعراب المعتمد. وقال الجلال: ﴿ٱللَّهُ﴾: خبر ﴿هُوَ﴾، و﴿أَحَدٌ﴾: بدل منه، أو خبر ثان. وقال أبو البقاء الإعراب الأول، ثم قال: يجوز أن يكون ﴿ٱللَّهُ﴾: خبر المبتدأ، و﴿أَحَدٌ﴾: بدل منه، أو خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون ﴿ٱللَّهُ﴾: بدلاً من الضمير، و﴿أَحَدٌ﴾: الخبر، انتهى. وقال مكي: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾: مبتدأ، وخبر، والجملة الاسمية مستأنفة، أو هي في محل رفع خبر ثان للضمير. ﴿لَمْ﴾: حرف نفي، وقلب،

وجزم. ﴿يَلِدْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: ﴿لَمْ﴾، والفاعل ضمير مستتر يعود إلى ﴿ٱللَّهُ﴾ والمفعول محذوف، والجملة الفعلية مستأنفة، أو في محل رفع خبر ثالث للضمير. والحالية سائغة فيها أيضاً. ﴿وَلَمْ﴾: الواو: حرف عطف. (لم): حرف جازم. ﴿يُولَدْ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مجزوم بـ: (لم)، ونائب الفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهُ﴾ أيضاً، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿وَلَمْ﴾: الواو: حرف عطف. (لم): حرف جازم. ﴿يَكُن﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ :(لم). ﴿لَّهُۥ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بـ: ﴿كُفُوًا﴾ بعدهما. ﴿كُفُوًا﴾: خبر ﴿يَكُن﴾ مقدم. ﴿أَحَدٌۢ﴾: اسم مؤخر، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

انتهت سورة (الإخلاص) شرحاً، وإعراباً بحمد الله، وتوفيقه.

والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ الفَلَق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة (الفلق) مدنية. وقيل: مكية. وهو ضعيف. وهي خمس آيات، وثلاث وعشرون كلمةً، وأربعة وسبعون حرفاً، انتهى. خازن. وخذ ما يلي:

قال ابن عباس، وعائشة ـ رضي الله عنهما ـ: كان غلام من اليهود يخدم النبي ﷺ، فدبت إليه اليهود، فلم يزالوا به؛ حتى أخذ من مشاطة رأس رسول الله ﷺ، وعدة من أسنان مشطه، فأعطاها اليهود، فسحروه بها. وتولى ذلك لبيد بن الأعصم، رجل من اليهود. انتهى.

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أنَّ النبي ﷺ سُحِر؛ حتى كان يخيل إليه: أنه فعل الشيء، وما فعله؛ حتى إذا كان ذات يوم؛ وهو عندي؛ دعا الله، ودعاه، ثم قال: «**أشعرت يا عائشة! أن الله قد أفتاني فيما استفتَيْتُهُ فيه؟**». قلت: وما ذاك يا رسول الله؟! قال: «**جاءني رجلان، فجلس أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، ثم قال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب. قال: ومَنْ طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم اليهودي من بني زريق. قال: فبماذا؟ قال: في مشط، ومشاطة، وجف طلعة ذكر (وعاء طلع النخل). قال: فأين هو؟ قال: في بئر ذروان (ومن الرواة مَنْ قال: في بئر بني زريق**». فذهب النبي ﷺ في أناس من أصحابه إلى البئر، فنظر إليها، وعليها نخل، ثم رجع إلى عائشة ـ رضي الله عنها ـ فقال: «**والله لكأنَّ ماءها نقاعة حناء، ولكأن نخلها رؤوس الشياطين!**». قلت: يا رسول الله! فأخرجه! قال: «**أما أنا فقد عافاني الله وشفاني، وخفت أن أثير على الناس منه شراً**». متفق عليه.

وفي رواية للبخاري: أنه كان يرى: أنه يأتي النساء، ولا يأتيهن. قال سفيان: وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذلك. وعن زيد بن أرقم ـ رضي الله عنه ـ قال: سحر رجل من اليهود النبي ﷺ، فاشتكى ذلك أياماً، فأتاه جبريل عليه السلام، فقال: إن رجلاً من اليهود سحرك، وعقد لك عقداً في بئر كذا، فأرسل رسول الله ﷺ علياً ـ رضي الله عنه ـ ومعه الزبير، وعمار بن ياسر ـ رضي الله عنهم ـ فاستخرجها، فجاء بها، فحلَّها، فجعل كلَّما حلَّ عقدةً؛ وجد لذلك خفة، فقام رسول الله ﷺ كأنما نشط من عِقال، فما ذكر ذلك لليهودي، ولا رآه في وجه قط. أخرجه النسائي.

فأنزل الله هاتين السورتين، وهما إحدى عشرة آية، سورة (الفلق) خمس آيات، وسورة (الناس) ست آيات، فكان كلما قرأ آية انحلت عقدة، حتى انحلت العقد كلها. فقام النبي ﷺ،

كأنما نشط من عقال. انتهى. خازن. وفي فتح الباري: وكان من جملة السحر صورة من شمع على صورة رسول الله ﷺ، وقد جعلوا في تلك الصورة إبراً مغروزة ووتراً فيه إحدى عشرة عقدة، وكان النبي ﷺ كلما قرأ آية انحلت عقدة، وكلما نزع إبرة، وجد لها ألماً في بدنه، ثم يجد بعدها راحة. انتهى. جمل.

هذا؛ وقال الراغب: تأثير السحر في النبي ﷺ لم يكن من حيث إنه نبي، وإنما كان في بدنه من حيث إنه إنسان، أو بشر، كما كان يأكل، ويتغوط، ويغضب، ويشتهي، ويمرض فتأثيره فيه من حيث هو بشر، لا من حيث هو نبي، وإنما يكون ذلك قادحاً في النبوة لو وجد للسحر تأثير في أمر يرجع للنبوة، كما أنَّ جرحه، وكسر ثنيته يوم أحد لم يقدح فيما ضمن الله له من عصمته في قوله تعالى في سورة (المائدة) رقم [٦٧]: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ وكما لا اعتداد بما يقع في الإسلام من غلبة بعض المشركين على بعض النواحي فيما ذكر من كمال الإسلام في قوله تعالى في سورة (المائدة) رقم [٤]: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾. انتهى. جمل.

أقول: والمحفوظ: أن النبي ﷺ دعا لبيداً، وسأله عن فعله السحر، فاعترف، واعتذر بأن اليهود رشوْه بأموال كثيرة، فعفا عنه الرسول ﷺ. وهذا كله يؤيد: أن السورتين الكريمتين نزلتا في المدينة المنورة. وخذ ما يلي:

فقد أخرج النسائي عن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال له: «**يا عقبة تعوَّذْ بهما، فما تعوذ متعوذٌ بمثلهما!**» وكان ﷺ يتعوذ بـ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾. وفي صحيح البخاري، ومسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أن النبي ﷺ، كان إذا اشتكى؛ قرأ على نفسه بالمعوذتين، وينفث، فلما اشتد وجعه؛ كنت أقرأ عليه، وأمسح عنه بيده رجاء بركتها.

وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ: أن جبريل ـ عليه السلام ـ أتى النبي ﷺ، فقال: «**يا محمد! اشتكيت؟ قال: نعم. قال: بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك، ومن شر كل نفس، أو عين حاسد، الله يشفيك، بسم الله أرقيك**». أخرجه مسلم.

تنبيه: قال الإمام المازري: مذهب أهل السنة، وجمهور علماء الأمة على إثبات السحر، وأن له حقيقة، كحقيقة غيره من الأشياء الثابتة خلافاً لمن أنكر ذلك، ونفى حقيقته، وأضاف: ما يقع منه إلا خيالات باطلة، لا حقائق لها. وقد ذكره الله في كتابه، وذكر أنه مما يتعلم، وذكر ما فيه إشارة إلى أنه مما يكفر به، وأنه يفرق بين المرء، وزوجه. قال تعالى في سورة (البقرة) رقم [١٠٢]: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ﴾. وهذا كله لا يمكن أن يكون مما لا حقيقة له. والحديث

الصحيح المتقدم مصرح بإثباته، ولا يستنكر في العقل: أن الله تعالى يخرق العادة عند النطق بكلام ملفق، أو تركيب أجسام، أو المزج بين قوى؛ لا يعرفها إلا الساحر، وأنه لا فاعل إلا الله تعالى، وما يقع من ذلك فهو عادة أجراها الله تعالى على يد من يشاء من عباده. انتهى. خازن.

فإن قلت: المستعاذ منه هل هو بقضاء الله وقدره، أم لا؟ فإن كان بقضاء الله، وقدره؛ فكيف يأمر بالاستعاذة، مع أن ما قدر لا بد واقع؟ وإن لم يكن بقضاء الله، وقدره، فذلك قدح في القدرة.

قلت: كل ما وقع في الوجود، هو بقضاء الله، وقدره، والاستشفاء بالتعوذ، والرقى من قضاء الله وقدره، يدل على صحة ذلك ما روى الترمذي عن ابن خزامة، عن أبيه قال: سألت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله! أرأيت رقىً نسترقي بها، ودواءً نتداوى به، وتقاةً نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئاً. قال: «**هي من قدر الله تعالى**». قال الترمذي: هذا حديث حسن. وروي عن عمر ـ رضي الله عنه ـ قوله: «**نفِرُّ منْ قدرِ الله إلى قدرِ الله تعالى**». انتهى. خازن. يتلخص مما تقدم: أن السحر له حقيقة، ولا يلتفت لما قاله بعض المبتدعة من أنه لا حقيقة له.

هذا؛ وأما الرقى، والتعاويذ؛ فقد اتفق الإجماع على جواز ذلك إذا كان بآيات القرآن، أو إذا كانت وردت في الأحاديث الصحيحة الواردة في ذلك، منها حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ المتقدم، وأن جبريل عليه السلام رقى النبي ﷺ. ومنها ما روي عن عبيد بن رفاعة الزرقي أن أسماء بنت عميس ـ رضي الله عنها ـ. قالت: يا رسول الله! إن ولد جعفر تسرع إليهم العين، فأسترقي لهم؟ قال: «**نعمْ، فإنه لو كان شيءٌ سابقَ القدرِ لسبَقَتْهُ العين**». أخرجه الترمذي. وقال: حديث صحيح. وعن أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ، ويقول: «**أعوذ بالله من الجان، وعين الإنسان**». فلمَّا نزلت المعوذتان؛ أخذ بهما وترك ما سواهما. أخرجه الترمذي. وقال: حديث حسن غريب. ومنها رقية أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ رئيس الحي الذي لدغ، وحديثه صحيح مشهور. فهذه الأحاديث تدلُّ جواز الرقية، وإنما المنهي عنه منها ما كان فيه كفر، أو شرك، أو ما لا يعرف معناه مما ليس بعربي، لجواز أن يكون فيه كفر، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه. انتهى. خازن بتصرف.

تنبيه: وقد بين الواقدي السنة التي وقع فيها السحر، كما أخرجه عنه ابن سعد بسند له إلى عمر بن الحكم مرسل. قال: لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية في ذي الحجة، ودخل المحرم سنة سبع، وفرغ من وقعة خيبر؛ جاءت رؤساء اليهود إلى لبيد بن الأعصم، وكان حليفاً في بني زريق، وكان ساحراً، فقالوا: أنت أسحرنا؛ أي: أعلمنا بالسحر، وقد سحرنا محمداً، فلم يؤثر فيه سحرنا، ونحن نجعل لك جعلاً على أن تسحره لنا سحراً يؤثر فيه، فجعلوا له ثلاثة دنانير. انتهى. جمل نقلاً من المواهب. واختلف في مدة سحره ﷺ، وأعتمد: أنها كانت أربعين يوماً فقط.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾

الشرح: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾: أراد بالفلق: الصبح، وهو قول الأكثرين، ورواية عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ؛ لأن الليل ينفلق عنه الصبح. وسبب تخصيصه في التعوذ: أن القادر على إزالة هذه الظلمة عن العالم، قادر على أن يدفع عن المستعيذ ما يخافه، ويخشاه، والعرب تقول: هو أبين من فلق الصبح، وفرق الصبح. قال الشاعر: [البسيط]

يا ليلةً لم أنمْها بتُّ مرتفقاً أرعى النجومَ إلى أنْ نوَّرَ الفلَقُ

هذا، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: إن الفلق سجن في جهنم. وقال الكلبي: هو وادٍ في جهنم، إذا فتح؛ استعاذ منه أهل النار من حره. ووجهه: أن المستعيذ قال: أعوذ برب هذا العذاب القادر عليه من شر عذابه، وغيره، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: الفلق: الخلق كله. قال رؤبة بن العجاج: [الرجز]

وسْوَسَ يدعُو مُخْلِصاً رَبَّ الفلقْ سرّاً وقدْ أوَّن تأوينَ العُقُقْ

قال القرطبي: وهذا القول يشهد له الاشتقاق، فإن الفلق: الشق، يقال: فلقت الشيء فلقاً أي: شققته، والتفليق مثله، يقال: فلقته، فانفلق، وتفلَّق. فكل ما انفلق عن شيء من حيوان، وصبح، وحب، ونوى، وماء فهو فلق. قال تعالى في سورة (الأنعام) رقم [٩٦]: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ وقال في الآية قبلها: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ وقال ذو الرمة يصف الثور الوحشي: [البسيط]

حتى إذَا مَا انجلى عن وجههِ فلقٌ هاديهِ في أُخرياتِ الليلِ مُنْتَصِبُ

فهو يعني بالفلق هنا: الصبح بعينه. والفلق: المطمئن من الأرض بين الربوتين، وجمعه: فُلْقان، مثل خلَق، وخُلقان. وربما قالوا: كان ذلك بفالق كذا وكذا، يريدون المكان المنحدر بين الربوتين. والفلق أيضاً: مِقطرة السجان، وقد كان، ولا يزال يستعمل في بعض الأحيان لزجر، وتأديب التلاميذ في المدارس، وكلمة: (تحتاج إلى فلقة) مثل من الأمثال الشعبية السائرة. والفلق بكسر الفاء الداهية والأمر العجيب، وشاعر مفلِق، وقد جاء بالفِلق؛ أي: بالداهية، والفِلْق أيضاً القضيب يشق باثنين، فيعمل منه قوسان، يقال لكل واحدة منهما: فِلْق. انتهى. قرطبي بتصرف.

وقال البيضاوي ـ رحمه الله تعالى ـ: الفلق ما يفلق عنه؛ أي: يفرق عنه، كالفرق، فعل بمعنى مفعول، وهو يعم جميع الممكنات، فإنه تعالى فلق ظلمة العدم بنور الإيجاد عنها، سيما ما يخرج من أصل، كالعيون، والأمطار، والنبات، والأولاد، ويخص عرفاً بالصبح، ولذلك فسر به، وتخصيصه

لما فيه من تغير الحال، وتبدل وحشة الليل بسرور النهار، ومحاكاة فاتحة يوم القيامة، والإشعار بأن من قدر أن يزيل ظلمة الليل عن هذا العالم؛ قدر أن يزيل عن العائذ ما يخافه. انتهى.

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾: قيل: يريد به إبليس خاصة؛ لأنه لم يخلق خلقاً هو شر منه؛ لأن السحر لا يتم إلا به، وبأعوانه، وجنوده. وقيل: من شر كل ذي شر. وقيل: من شر ما خلق من الجن، والإنس، وقال النسفي: وقرأ أبو حنيفة بتنوين (شرٍّ)، فقال مكي: ومن قرأ بالتنوين؛ فقد ألحد وغيَّر اللفظ، والمعنى. انظر الإعراب.

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾: الغاسق: الليل إذا اعتكر ظلامه. ووقوبه: دخول ظلامه في كل شيء. قال تعالى في سورة (الإسراء) رقم [٧٨]: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾. يقال: غسق الليل، يغسق؛ أي: أظلم. قال عبد الله بن قيس الرقيات: [المديد]

إن هــذا الــلــيــلَ قَــدْ غَــسَــقَــا ... واشــتــكــيــتُ الــهَــمَّ والأرَقَــا

وقال آخر: [البسيط]

يـا طَـيْـفَ هـنـدٍ لَـقـدْ أبـقـيـتَ لـي أَرَقَـا ... إذْ جِـئْـتَـنَـا طَـارِقـاً والـلـيْـلُ قَـدْ غَـسَـقَـا

هذا قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وغيره، وعلى هذا التفسير، فيكون معنى ﴿وَقَبَ﴾: نزل، يقال: وقب العذاب على الكافرين: نزل. قال الشاعر: [الكامل]

وقَـبَ الـعـذابُ عـلـيـهـمُ فـكـأنـهُـمْ ... لـحـقـتـهُـمُ نـارُ الـسـمـوم فـأُحْـصِـدُوا

وقيل: الغاسق: القمر، فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ. قالت: إن رسول الله ﷺ نظر إلى القمر، فقال: «**يا عائشة! استعيذي بالله من شر هذا، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب**». أخرجه الترمذي. وقال: حديث حسن صحيح، فعلى هذا الحديث المراد به: القمر إذا خسف، واسود، ومعنى ﴿وَقَبَ﴾: دخل في الخسوف، أو أخذ في الغيبوبة. وقيل: سمي به؛ لأنه إذا خسف؛ اسود، وذهب ضوءُه. قال الزجاج: قيل الليل غاسق؛ لأنه أبرد من النهار، والغاسق البارد، والغسق: البرد، ولأن السباع تخرج في الليل من آجامها، والهوام من أماكنها، وينبعث أهل الشر على العبث، والفساد. وقيل: الغاسق الثريا. وقيل: الحيَّة. وقيل: الشمس إذا غربت. وقيل الغاسق: كل هاجم يضر، كائناً ما كان، من قولهم: غسقت القَرحة: إذا جرى صديدها. والمعتمد الأول، ثم الثاني. هذا؛ ويقال: غسق الجرح، يغسق غسقاً: إذا خرج منه ماء أصفر. قال الشاعر: [الطويل]

إذَا مـا تَـذَكَّـرْتُ الـحَـيَـاةَ وطِـيـبَـهَـا ... إلـيَّ جَـرَى دَمْـعٌ مِـنَ الـلـيـلِ غـاسـقُ

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ﴾: يعني الساحرات اللاتي ينفثن في عقد الخيط حين يرقين عليها. قال الشاعر: [المتقارب]

أعُــوذُ بِـــرَبِّـــي مِـــنَ الــنَّـــافِـثَـــا تِ فــي عِـضَـهِ الـعـاضِـهِ الـمُـعْـضِـه

العِضه كعنب: الكذب، والسحر، والبهتان، والعاضه: الساحر. وقال متمم بن نويرة: [السريع]

نَـفَـثْـتَ فـي الـخـيـطِ شـبِـيـهَ الـرُّقَـى مِـنْ خـشْـيَـةِ الـجِـنَّـةِ والـحَـاسِـدِ

وقيل: المراد بـ: ﴿ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ﴾: بنات لبيد بن الأعصم، اللاتي سحرن النبي ﷺ. والنفث: النفخ مع ريق قليل. وقيل: إنه النفخ فقط. واختلفوا في جواز النفث في الرُّقى، والتعاويذ الشرعية المستحبة. فجوزه الجمهور من الصحابة، والتابعين، ومن بعدهم. ويدل عليه حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان رسول الله ﷺ، إذا مرض أحدٌ مِنْ أهله، نفث عليه بالمعوذات... الحديث. وأنكر جماعة التفل، والنفخ في الرقى، وأجازوا النفخ بلا ريق. قال عكرمة: لا ينبغي للراقي أن ينفث، ولا يمسح، ولا يعقد. وقيل: النفث في العقد إنما يكون مذموماً إذا كان سحراً مضراً بالأرواح، والأبدان، وإذا كان النفث لإصلاح الأرواح، والأبدان وجب أن لا يكون مذموماً، ولا مكروهاً، بل هو مندوب إليه، وعلى الأول يحمل قول الرسول ﷺ: «**مَنْ عقدَ عُقْدَةً، ثمَّ نَفَثَ فيها؛ فقدْ سحرَ، وَمَنْ سَحَرَ؛ فقدْ أشركَ، ومَنْ عَلَّقَ شيئاً؛ وُكِلَ إليه**». أخرجه النسائي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

أي: من علق شيئاً من التعاويذ، والتمائم، واعتقد: أنها تجلب نفعاً، أو تدفع عنه ضرراً. وقيل: المراد تمائم الجاهلية، مثل الخرزات، وأظفار السباع، أما ما يكون من القرآن، والأسماء الإلهية؛ فهو خارج عن هذا الحكم. انتهى. خازن، وقرطبي. بتصرف.

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾: إذا ظهر حسده، وعمل بمقتضاه من بغي الغوائل للمحسود؛ لأنه إذا لم يظهر أثر ما أضمره؛ فلا ضرر يعود منه على مَنْ حسده، بل هو الضار لنفسه، لاغتمامه بسرور غيره. وعن عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ. قال: لم أر ظالماً أشبه بالمظلوم من حاسد! هذا؛ والحسد نوعان: ممدوح ومذموم، فالأول يسمى: حسد الغبطة، والمنافسة، وهي مطلوبة، ومرغب فيها، والرسول ندب إليها وقال: «**المؤمِنُ يغبطُ، والمنافِقُ يحسدُ**». وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**لا حسدَ إلّا في اثنتين، رجُلٌ آتاهُ الله مالاً، فسلطهُ على هلكتِهِ بالحقِّ، ورجُلٌ آتاهُ الله الحكمةَ، فهو يقضي بها، ويعلِّمُهَا الناسَ**». فهذا هو الحسد الممدوح، ومنه أن يتمنى مثل ما عند غيره من النعمة مع تمنيه بقاء نعمة الله عليه من صحة، ومال، وولد، ومنصب، وجاه.

وأما الحسد المذموم؛ فهو أن يتمنى الحاسد زوال نعمة الله عن المحسود؛ وإن لم يصبه منها شيء. قال العلماء: الحاسد لا يضر إلا إذا ظهر حسده بفعل، أو بقول، وذلك بأن يحمله الحسد على إيقاع الشر بالمحسود، فيتبع مساوئه، ويطلب عثراته. هذا؛ والحسد أول ذنب عصي الله به في السماء، وأول ذنب عصي به في الأرض، فحسد إبليس آدم، وحسد قابيل هابيل. انظر

سورة (المائدة) رقم [٢٧] وما بعدها. ولا تنس حسد أولاد يعقوب لأخيهم يوسف، على نبينا، وعليهم ألف صلاة، وألف سلام. هذا؛ والحاسد ممقوت، مبغوض، مطرود، ملعون. ولقد أحسن من قال: [الكامل]

قُلْ لِلْحَسُودِ إذا تنفَّسَ طَعْنَةً ... يا ظالماً وكأنهُ مظلومُ

والحسد نار تضطرم في صدر الحسود، وسعير يتلظى في حشاه، ورحم الله القائل، وهو أبو الحسن التهامي: [الكامل]

إنـي لأَرْحَمُ حَاسِدِيَّ لِفرطِ ما ... ضَمَّتْ صُدُورُهُمُ مِنَ الأوْغارِ

نظروا صنيعَ الله بي فعيُونُهُمْ ... في جنةٍ وقلوبُهُمْ في نارِ

والحسود غضبان على الأقدار، قد عادى حكمة القهار. قال تعالى في سورة (النساء) رقم [٥٤]: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ...﴾ إلخ.

ورحم الله القائل: [المتقارب]

أيا حَاسِداً لي عَلَى نِعْمَتي ... أتَدْرِي عَلَى مَنْ أَسَأتَ الأدَبْ؟

أسأتَ على الله في حُكْمِهِ ... لأنَّكَ لَمْ تَرضَ لِي مَا وَهَبْ

فأخزاكَ رَبِّي بأنْ زَادَني ... وسَدَّ عَلَيْكَ وُجُوهَ الطَّلَبْ

هذا؛ وإن كل عداوة ترجى إزالتها، ويمكن علاجها إلا عداوة الحاسد، فإنه لا يرضيه إلا زوال النعمة، وكيف يرضى الحاسد عن أخيه، ويصفو لأحد؛ وهو غير راضٍ عن ربه، متبرم لقضاء الله وقدره، منكر لقسمة الباري وعدله، يا سبحان الله! قال تعالى في سورة (الزخرف) [٣٢]: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ...﴾ إلخ. هذا؛ والأحاديث المنفرة من الحسد، والمتوعدة الحسود بالويل، والثبور، وعظائم الأمور كثيرةٌ، ومشهورة، ومسطورة، أكتفي منها بما يلي:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «**إيَّاكُمْ والحسدَ، فإنَّ الحسَدَ يأْكُلُ الحَسَنَاتِ كَمَا تأكُلُ النارُ الحَطَبَ، أَوْ قال: العُشْبَ**». رواه أبو داود، وابن ماجه، والبيهقي. وعن عبد الله بن بسر ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**ليسَ مِنِّي ذو حَسَدٍ، ولا نَمِيمةٍ، ولا كهانةٍ، ولا أنا مِنْهُ**». ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ من سورة (الأحزاب) وإني أتمثل بقول القائل: [البسيط]

إن يَحْسُدُوني فإني غيرُ لائمِهِمْ ... كذا ذوُو الفضلِ من قبلي قَدْ حُسِدُوا

فدامَ لي ما بي ودَامَ الذي لهمُ ... ومَاتَ أكْثَرُنا غَيْظاً لما يجِدُ

الإعراب: ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت»، ﴿أَعُوذُ﴾: فعل مضارع، والفاعل تقديره: «أنا». ﴿بِرَبِّ﴾: متعلقان بما قبلهما، و(رب): مضاف، و﴿ٱلْفَلَقِ﴾: مضاف إليه، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الفعلية: ﴿أَعُوذُ...﴾ إلخ في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قُلْ...﴾ إلخ مبتدأة، لا محل لها. ﴿مِن شَرِّ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: ﴿أَعُوذُ﴾، و﴿شَرِّ﴾: مضاف، و﴿مَا﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل جر بالإضافة. ﴿خَلَقَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (رب الفلق)، والجملة الفعلية صلة ﴿مَا﴾، أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: شر الذي، أو شيء خلقه. هذا؛ وأجيز اعتبار ﴿مَا﴾ مصدرية تؤول مع الفعل بعدها بمصدر في محل جر بالإضافة، التقدير: من شر خلقه. هذا؛ وعلى قراءة: (شرٍّ) بالتنوين (وقال عنها ابن هشام في المغني: قراءة عمرو بن فائد) فقال: فـ: ﴿مَا﴾ بدل من (شرٍّ)، بتقدير مضاف؛ أي: من شرٍّ شرٍّ ما خلق، وحذف الثاني لدلالة الأول. انتهى. وقال أبو البقاء: و﴿مَا﴾ على هذا بدل من شر، أو زائدة، ولا يجوز أن تكون ﴿مَا﴾ نافية؛ لأن النافية لا يتقدم عليها ما في حيِّزها، فلذلك لم يجز أن يكون التقدير: ما خلق من شر، ثم هو فاسد في المعنى. انتهى.

هذا؛ وانظر ما ذكرته في سورة (الصافات) رقم [٩٦] نقلاً عن مكي تجد ما يسرك، ويثلج صدرك. ﴿وَمِن﴾: الواو: حرف عطف. (من شر): معطوفان على ما قبلهما، و﴿شَرِّ﴾: مضاف، و﴿غَاسِقٍ﴾: مضاف إليه. ﴿إِذَا﴾: ظرف مجرد عن الشرطية مبني على السكون في محل نصب متعلق بـ: ﴿شَرِّ﴾؛ أي: أعوذ بالله من الشر في وقت كذا، ﴿وَقَبَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿غَاسِقٍ﴾، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها. ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ﴾: معطوف على ما قبله، وإعرابه ظاهر، إن شاء الله تعالى. ﴿فِى ٱلْعُقَدِ﴾: متعلقان بـ: ﴿ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ﴾. والجملة التالية لا خفاء في إعرابها إن شاء الله تعالى. تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

انتهت سورة (الفلق) شرحاً، وإعراباً، بحمد الله وتوفيقه.

والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ النَّاسِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة (الناس) نزلت مع سورة (الفلق) جملة واحدة. وهي ست آيات، وعشرون كلمة، وتسعة وسبعون حرفاً. انتهى. خازن. هذا؛ وروى الترمذي عن عقبة بن عامر الجهني ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ﷺ قال: «**قد أُنزِلَ عليَّ آياتٌ لم ير مثلهن**: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ...﴾ إلخ و ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ...﴾ إلخ». قال: هذا حديث حسن صحيح، ورواه مسلم أيضاً. وانظر ما ذكرته في أول سورة (الفلق).

﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾

الشرح: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾: إنما خصص الناس بالذكر؛ وإن كان رب جميع المحدثات؛ لأنه لما أمر بالاستعاذة من شر الوسواس، فكأنه قال: أعوذ من شر الموسوس إلى الناس بربهم الذي يملك عليهم أمورهم، وهو إلههم، ومعبودهم، فإنه هو الذي يعيذ من شرهم. وقيل: إن أشرف المخلوقات هم الناس، فلهذا خصهم بالذكر. والمعنى: قل يا محمد: أعتصم، وألتجئ برب الناس؛ أي: بخالق الناس، ومربيهم، ومدبر شؤونهم؛ الذي أحياهم، وأوجدهم من العدم، وأنعم عليهم بأنواع النعم. وخصهم بالذكر، وإن كان جلت قدرته رب جميع الخلائق تشريفاً، وتكريماً لهم حيث سخر لهم سبحانه ما في الكون، وأمدهم بالعقل، والفهم، والعلم، وفضلهم على سائر الخلق، كما قال تعالى في سورة (الإسراء) رقم [٧٠]: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾.

﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: مالك جميع الخلق حاكمين، ومحكومين ملكاً تاماً، شاملاً عاماً، يحكمهم، ويضبط أعمالهم، ويدبر شؤونهم، فيتصرف بهم كيف يشاء، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

﴿إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: معبودهم الذي لا رب لهم سواه. قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: وإنما قال: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ﴾؛ لأن في الناس ملوكاً، فذكر: أنه ملكهم، وفي الناس من يعبد غيره، فذكر: أنه هو إلههم، ومعبودهم، وأنه هو الذي يجب أن يستعاذ به، ويلجأ إليه، دون الملوك والعظماء. انتهى.

هذا؛ وقال الصابوني: وترتيب السورة بهذا الشكل في منتهى الإبداع، وذلك؛ لأن الإنسان أولاً يعرف: أن له رباً، لما يشاهده من أنواع التربية: (رب الناس) ثم إذا تأمل؛ عرف: أن هذا الرب متصرف في خلقه، غني عنهم، فهو الملك لهم: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ ثم إذا زاد تأمله؛ عرف: أنه يستحق أن يعبد؛ لأنه لا عبادة إلا للغني عن كل ما سواه، المفتقر إليه كل ما عداه. ﴿إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ وإنما كرر لفظ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ ثلاثاً، ولم يكتف بالضمير، لإظهار شرفهم، وتعظيمهم، والاعتناء بشأنهم، كما حسن التكرار في قول عدي بن زيد العبادي ـ وهو الشاهد رقم [٨٨٧] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الخفيف]

لا أَرَى المَوتَ يسبِقُ الموتَ شَيْءٌ نَغَّصَ الموتُ ذا الغِنى والفَقيرا

ولا تنس ما في سورة (الواقعة) و(الحاقة) و(القارعة) من تكرار بعض الكلمات، وبعضها للتشريف، والتعظيم، وبعضها للتهويل، والتخويف.

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ أي: قل: أعتصم برب الناس... من شر الوسواس الخناس؛ أي: الشيطان ذي الوسواس الموكل بالإنسان، فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يزين له الفواحش ولا يألوه جهداً في الفساد، والخبال، والمعصوم من عصمه الله. وفي كتب اللغة: الوسوسة: حديث النفس. يقال: وسوست إليه نفسه وسوسةً، ووسواساً بالكسر. والوسواس بالفتح الاسم مثل الزِلزال، والزَلزال، وقوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ يريدُ إليهما، ويقال لهمس الصائد، والكلاب، وأصوات الحلي: وسواس. قال الأعشى من معلقته رقم [٤]: [البسيط]

تَسْمَعُ لِلْحَلْيِ وَسْوَاساً إذا انْصَرَفَتْ كَمَا اسْتَعَانَ بِريحٍ عِشْرِقٌ زَجِلُ

﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾: الكثير الخنس، وهو الرجوع، والخناس: الرجاع. وصف الشيطان بهاتين الصفتين؛ لأنه يوسوس لقرينه، ويزين له المعاصي، والمنكرات، فإذا ذكر العبد ربه؛ خنس؛ أي: تأخر، فإذا غفل عن ذكر الله؛ عاد إليه. قال قتادة ـ رضي الله عنه ـ: الخناس له خرطوم كخرطوم الكلب. وقيل: كخرطوم الخنزير في صدر الإنسان، فإذا غفل الإنسان وسوس له، وإذا ذكر ربه؛ خنس. وخذ ما يلي:

عن أنس ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ الشيطان واضِعٌ خَطْمَهُ على قَلْبِ ابنِ آدَمَ، فإنْ ذكَرَ الله؛ خنسَ، وإنْ نسيَ؛ التقمَ قَلْبَهُ**». رواه البيهقي، وأبو يعلى، وابن أبي الدنيا. وفيه

دلالة واضحة على أن القلب متى ذكر الله تصاغر الشيطان، وذل، وحقر، وإن لم يذكر الله تعالى؛ تعاظم، وغلب. هذا؛ وانظر شرح قوله تعالى في سورة (التكوير): ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ وخذ قول الراجز: [الرجز]

وصاحبٍ يَمْتَعِسُ امْتِعَاسَا يَزدادُ إنْ حَيَّيْتَهُ خناسَا

﴿ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾: وهذا يكون منه إذا غفلوا عن ذكر ربهم. قال مقاتل ـ رحمه الله تعالى ـ: إن الشيطان في صورة خنزير يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق، سلطه الله على ذلك، فذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾. وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ الشيطانَ يَجْرِي مِن ابنِ آدَمَ مَجرَى الدَّمِ في العروقِ**». ويزاد فيه: «**فضيِّقوا مجاريَهُ بالجوعِ**». وهذا يصحح ما قاله مقاتل. وروى شهر بن حوشب عن أبي ثعلبة الخشني ـ رضي الله عنه ـ قال: سألت الله أن يريني الشيطان، ومكانه من ابن آدم، فرأيته: يداه في يديه، ورجلاه في رجليه، ومشاعبه في جسده، غير أن له خطماً كخطم الكلب، فإذا ذكر الله؛ خنس، ونكس. وإذا سكت العبد عن ذكر الله؛ أخذ بقلبه. فعلى ما وصف أبو ثعلبة: أنه متشعب في الجسد؛ أي: في كل عضو منه شعبة.

وروي عن عبد الرحمن بن الأسود، أو غيره (وهو من التابعين): أنه قال ـ وقد كبرت سنه ـ ما أمِنتُ الزنى، وما يؤمنني أن يدخل الشيطان ذكره فيوتده؟! فهذا القول ينبئك: أنه متشعب في الجسد، وهذا معنى قول مقاتل. ووسوسة الشيطان: هو الدعاء لطاعته بكلام خفي، يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع صوت. انتهى. قرطبي بحروفه.

﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾: أخبر الله تعالى: أن الموسوس من الجن، وقد يكون من الناس. قال الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ: هما شيطانان: أما شيطان الجن؛ فيوسوس في صدور الناس خفيةً، ولا يُرَى. وأما شيطان الإنس فيأتي علانيةً، وجهراً، فيزين المنكر بلسان طلق، كله خديعة، ومكر، واحتيال. فالنمام أخبث من سبعين شيطاناً من الجن، والمنافق المتزلف أخبث من ثمانين شيطاناً، فقد قال قتادة ـ رضي الله عنه ـ: إن من الجن شياطين، وإن من الإنس شياطين، فتعوذ بالله من شياطين الإنس، والجن. وروي عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ: أنه قال لرجل: هل تعوذت بالله من شياطين الإنس؟ فقال: أوَ من الإنس شياطين؟ قال: نعم لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ...﴾ إلخ رقم [١١٢] من سورة (الأنعام). وذهب قوم إلى أن ﴿ٱلنَّاسِ﴾ هنا يراد به الجن، سُمُّوا ناساً كما سُمُّوا رجالاً في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ رقم [٦] من سورة (الجن)، وسُمُّوا قوماً، ونفراً في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ...﴾ إلخ رقم [٢٩] من سورة (الأحقاف). انظر شرح هذه الآيات في محالها، تجد ما يسرك، ويثلج صدرك، فعلى هذا يكون: ﴿وَٱلنَّاسِ﴾ عطفاً على الجنة، ويكون التكرير لاختلاف اللفظين.

وقيل: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾: هو الشيطان، وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ﴾ بيان: أنه من الجن، و(الناس) معطوف على ﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾. والمعنى: قل: أعوذ برب الناس من شر الوسواس؛ الذي هو من الجنة، ومن شر الناس، فعلى هذا أمر بأن يستعيذ بالله من شر الإنس، والجن. انتهى. قرطبي.

بعد هذا أصل ﴿أَعُوذُ﴾: أَعْوُذُ فقل في إعلاله: اجتمع معنا حرف صحيح ساكن، وحرف علة متحرك، والحرف الصحيح أولى بالحركة من حرف العلة، فنقلت حركة الواو إلى العين قبلها بعد سلب سكونها، وقل مثله في كل فعل أجوف، واوي، أو يائي، مثل: يقول، يصون، يبيع، يكيل... إلخ. وانظر شرح (الرب) في الآية رقم [٣٩] من سورة (النبأ).

هذا؛ و﴿ٱلنَّاسِ﴾: اسم جمع لا واحد له من لفظه، مثل: معشر، ونفر... إلخ، واحده: إنسان من غير لفظه، وهو يطلق على الإنس، والجن، لكن غلب استعماله في الإنس، كما في هذه السورة، وأصله: الأناس، حذفت منه الهمزة تخفيفاً على غير قياس، وحذفها مع لام التعريف كاللازم، لا يكاد يقال: الأناس. وقد نطق القرآن الكريم بهذا الأصل، لكن بدون لام التعريف. قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾ رقم [٧١] من سورة (الإسراء). وقيل: إن أصله: النَّوَس، ولم يحذف منه شيء، وإنما قلبت الواو ألفاً؛ لتحركها، وانفتاح ما قبلها. وانظر شرح (الإنس) في سورة (الرحمن) رقم [٥٦]، وشرح (الإنسان) في سورة (المعارج) رقم [١٩]. ولا تنس قوله تعالى في سورة (الفرقان) رقم [٤٩]: ﴿وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾.

أما ﴿ٱلْجِنَّةِ﴾: بكسر الجيم؛ فهي: الجن، ويطلق على الملائكة أيضاً. قال تعالى في سورة (الصافات) رقم [١٥٨]: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ فقد قال المشركون: إن الملائكة بنات الله تعالى، سميت الملائكة جنة؛ لاجتنانهم؛ أي: لاختفائهم عن الأنظار. قال الزمخشري: وعلى هذا فالجن، والملائكة جنس واحد، ولكن مَنْ خبث من الجن، ومرد، وكان شراً كله، فهو شيطان، ومن طهر منهم، ونسك، وكان خيراً كله، فهو ملك، فذكرهم في هذا الموضع؛ أي: في آية (الصافات) باسم جنسهم، وإنما ذكرهم بهذا الاسم وضعاً منهم، وتقصيراً بهم؛ وإن كانوا معظمين في أنفسهم أن يبلغوا منزلة المناسبة التي أضافوها إليهم. انتهى. كشاف. وهذا مردود قطعاً؛ لأن الملائكة مخلوقون من نور، والجن مخلوقون من نار، وشتان ما بين المادتين، وما قاله الزمخشري يقال في مؤمني الجن، وكافرهم، فمن طهر منهم؛ فهو مؤمن، وكان خيراً كله، ومن خبث منهم؛ فهو شيطان، وكان شراً كله، ولكن تبقى التسمية جائزة على الملائكة والجن لعدم رؤيتنا لهم بسبب اجتنانهم؛ أي: اختفائهم عن الأبصار. وانظر ما ذكرته في آخر سورة (الجن) تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

هذا؛ وجنة بكسر الجيم أيضاً: الجنون؛ أي: ذهاب العقل. قال تعالى في سورة (الأعراف) رقم [١٨٤]: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾، وقال في سورة (المؤمنون)

رقم [٧٠]: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ...﴾ إلخ. والجنَّة بفتح الجيم: البستان، والحديقة، وأيضاً جنة عدن؛ التي وعد الله عباده المؤمنين، سميت بذلك لكثرة أشجارها؛ التي تجن؛ أي: تستر، وتخفي مَنْ يدخل فيها. وجُنة بضم الجيم: وقاية من الشر. قال الرسول ﷺ، من وصية لمعاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ: «**والصيامُ جُنَّةٌ**». وقال تعالى في الآية رقم [١٦] من سورة (المجادلة)، ورقم [٢] من سورة (المنافقون): ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾. ومن ذلك الجنين الذي يكون في بطن المرأة أيام حملها، وجمعه: أجنة. قال تعالى في سورة (النجم) رقم [٣٢]: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ﴾. والمجن، والمجنة بكسر الجيم فيهما، وهو الترس الذي كان يتخذ وقايةً من ضربات السيوف، والرماح، ونحوه، وكل ما يقيك سوءاً. ومن كلام الفصحاء: جُبَّةُ البُرْدِ جَنَّةُ البَرْدِ.

هذا؛ والقول يطلق على خمسة معان: أحدها: اللفظ الدال على معنىً. الثاني: حديث النفس، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾ المجادلة [٨]. الثالث: الحركة، والإمالة، يقال: قالت النخلة؛ أي: مالت. الرابع: ما يشهد به الحال، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ سورة (فصلت) رقم [١١]. الخامس: الاعتقاد، كما تقول: قول الأشاعرة، وهذا قول المعتزلة؛ أي: ما يعتقدونه.

أما الكلام بالنسبة للبشر فهو يدل على ثلاثة أمور:

أولها: الحدث الذي يدل على لفظ التكليم، تقول: أعجبني كلامك زيداً، تريد: تكليمك إياه، ومنه قول الشاعر: [البسيط]

قـالُـوا كَـلامُـكَ هِـنْـداً وهـيَ مُـصْـغِـيَـةٌ ... يَـشْـفِـيـكَ قـلـتُ صـحـيـحٌ ذَاكَ لَـوْ كَـانَـا

وثانيها: ما يدور في النفس من هواجس وخواطر، وكل ما يعبر عنه باللفظ، لإفادة السامع ما قام بنفس المخاطب، فيسمى هذا الذي تخيلته في نفسك كلاماً في اللغة العربية. تأمل قول الأخطل التغلبي: [الكامل]

لا يُـعْـجِـبَـنَّـكَ مِـنْ خَـطِـيـبٍ خُـطْـبَـةٌ ... حَـتَّـى يَـكُـونَ مـعَ الـكَـلامِ أَصِـيـلَا

إنَّ الـكَـلَامَ لَـفِـي الـفُـؤادِ وإنَّـمَـا ... جُـعِـلَ الـلِّـسَـانُ عـلَـى الـفُـؤادِ دَلِـيـلَا

والثالث: كل ما تحصل به الفائدة، سواء أكان ما حصلت به لفظاً، أو خطاً، أو إشارةً، أو دلالةَحال؟ انظر إلى قول العرب: (القلمُ أحدُ اللسانين) وانظر إلى تسمية المسلمين ما بين دفتي المصحف: (كلام الله) ثم انظر إلى قوله تعالى: ﴿يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، وقال جل شأنه: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، والدليل عليه في الإشارة قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ﴾ فاستثنى الرمز من الكلام، والأصل في الاستثناء

الاتصال، ثم انظر إلى قول عمر بن أبي ربيعة؛ الذي نفى الكلام اللفظي عن محبوبته، وأثبت لعينها الكلام، وذلك في قوله: [الطويل]

أشَارَتْ بطَرْفِ العَيْنِ خيفةَ أهلِهَا إشارةَ مَحْزونٍ ولمْ تَتَكَلَّم

فأيْقَنْتُ أن الطرفَ قدْ قال مَرْحباً وأهلاً وسهْلاً بالحبيب المتيَّمِ

والدليل على الكلام فيما نطق به لسان الحال قول نصيب بن رباح: [الطويل]

فَعَاجُوا فأثْنَوْا بالذي أنتَ أَهْلُهُ ولو سَكَتُوا أثْنَتْ عليكَ الحقائِبُ

الإعراب: ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت». ﴿أَعُوذُ﴾: فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: «أنا». ﴿بِرَبِّ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، و(رب): مضاف، و﴿ٱلنَّاسِ﴾: مضاف إليه، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، وجملة: ﴿أَعُوذُ...﴾ إلخ في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قُلْ...﴾ إلخ مبتدأة لا محل لها. ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾: قال الجلال المحلي: بدلان، أو صفتان، أو عطفا بيان، وأظهر المضاف إليه فيهما زيادة للبيان؛ لأنه يقال لغيره: رب الناس كقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية رقم [٣١] من سورة (التوبة)، وقد يقال: ملك الناس، وأما ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ فخاص، لا شركة فيه فجعل غاية للبيان، و﴿مَلِكِ﴾: مضاف، و﴿ٱلنَّاسِ﴾: مضاف إليه، من إضافة اسم الفاعل، أو الصفة المشبهة لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، ومثله ما بعده. ﴿مِن شَرِّ﴾: متعلقان بالفعل: ﴿أَعُوذُ﴾، و(شر): مضاف، و﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾: مضاف إليه. ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾: بدل من ﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾، أو صفة له.

﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل جر صفة، أو بدل من ﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾، أو هو في محل نصب مفعول به لفعل محذوف، التقدير: أذم الذي، أو هو في محل نصب مفعول به لفعل محذوف، التقدير: هو الذي. ﴿يُوَسْوِسُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلَّذِى﴾، وهو العائد، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿فِى صُدُورِ﴾: متعلقان بما قبلهما، و﴿صُدُورِ﴾: مضاف، و﴿ٱلنَّاسِ﴾: مضاف إليه. ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ﴾: متعلقان بمحذوف حال من فاعل ﴿يُوَسْوِسُ﴾ العائد على الموصول، ومن بيان لما أبهم فيه. ﴿وَٱلنَّاسِ﴾: الواو: حرف عطف. (الناس): معطوف على ﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾، أو هو معطوف على ﴿ٱلْجِنَّةِ﴾. انظر الشرح؛ يتبين لك صحة الاعتبارين. تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه، وسلم.

انتهت سورة (الناس) شرحاً وإعراباً بعون الله وتوفيقه.

والحمد لله رب العالمين.

خاتمة

قد حض النبي ﷺ على تلاوة القرآن الكريم، ورغب فيها كثيراً، وبين: أن لها ثواباً كثيراً، وجزاءً جزيلاً. وخذ نبذة من أحاديثه ﷺ في بيان ذلك:

فأول ذلك ما خرجه الترمذي عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ: قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقولُ الربُّ تباركَ وتعالى: مَنْ شَغَلَهُ القرآنُ وذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أعطيتُه أفضَلَ ما أُعْطِي السَّائلين**». قال: «**وَفَضْلُ كَلامِ اللهِ عَلَى سَائِرِ الكَلَامِ كَفَضْلِ اللهِ عَلَى خلْقِهِ**». وقال: هذا حديث حسن غريب.

وعن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ: قال: «**خَيْرُكم مَنْ تعَلَّمَ الْقُرْآنَ وعَلَّمَهُ**». رواه الستة. وعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قرأ حرفاً مِنْ كتابِ اللهِ؛ فلهُ بِهِ حَسَنَةٌ، والْحَسَنَةُ بعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أقول: ﴿الٓمٓ﴾ حرْفٌ، ولكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، ولامٌ حَرْفٌ، وميمٌ حَرْفٌ**». أخرجه الترمذي. وقال: حديث حسن صحيح غريب.

وعن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ المؤْمِنِ الذِي يقرأُ القرآن مَثَلُ الأُتْرُجَّة، ريحُهَا طيِّبٌ، وطعْمُهَا طيِّبٌ. ومثلُ المؤمن الذي لا يقرأُ القرآن مثلُ التمرة، لا ريحَ لها، وطعْمُهَا حُلْوٌ، ومَثَلُ الْمُنَافِقِ؛ الذي يقرأ القرآن مثَلُ الريحانَةِ، ريحُهَا طيِّبٌ، وطعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الذي لا يقرأُ القرآنَ كمثَلِ الحنْظَلَةِ؛ لَيْسَ لَهَا رِيحٌ، وطعْمُهَا مُرٌّ**». وفي رواية: «**مثلُ الفاجِر**». بَدلَ «**المنافِق**». رواه البخاري، ومسلم، والنسائي وابن ماجه.

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ واسم أمِّها زينب الفِراسية. قالت: قال رسول الله ﷺ: «**الماهِرُ بالقرآن مع السفرةِ الكرام البَرَرَةِ، والذِي يقرأُ القرآنَ، ويَتَتَعْتَعُ فيه، وهو عليهِ شاقٌّ له أجرانِ**». وفي رواية: «**والذي يقرَؤُهُ وهو يشتَدُّ عليْهِ لهُ أجْرَانِ**». رواه الستة. التتعتع: التردد في الكلام عيّاً، وصعوبةً، وإنما كان له أجران من حيث التلاوة، ومن حيث المشقة، ودرجات الماهر فوق ذلك كله؛ لأنه قد كان القرآنُ متعتعاً عليه، ثم تمرن على تلاوته، وجهد نفسه بالعناية به؛ حتى أتقنه، ومهر به إلى أن شبه بالملائكة.

وعن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ، ونحن في الصُّفَّةِ، فقال: «**أَيُّكُم يُحبُّ أَنْ يَغْدُوَ كلَّ يَوْمٍ إلى بُطحانَ، أو إلى العقيق، فيأتيَ منهُ بناقتين كَوْمَاوَيْنِ في غيْرِ إِثْمٍ، وَلَا قَطِيعةِ رَحِمٍ؟**». فقلنا: يا رسولَ اللهِ كُلُّنَا نحِبُّ ذلك! قال: «**أَفَلَا يغْدُو أحدُكمْ إلى المسجدِ، فيتعلمَ، أوْ يقرأَ آيَتيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ عز وجل، خيرٌ لهُ مِنْ ناقتَيْنِ، وثلاثٌ خيرٌ لهُ مِنْ ثَلاثٍ، وأربعٌ خيرٌ لهُ مِنْ أربعٍ، ومِنْ أعدادِهِنَّ مِنَ الإبلِ**». رواه مسلم، وأبو داود.

وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «**القرآنُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ، وماحِلٌ مصَدَّقٌ، مَنْ جعَلَهُ أمامه؛ قَادَهُ إلى الجَنَّةِ، ومَنْ جعلَهُ خلفَ ظهرِهِ؛ ساقَهُ إلى النَّارِ**». رواه ابن حبان. ومعنى ماحِل: خصم مجادل. ومعنى (جعله أمامه): عمل به، واهتدى بهديه، ومعنى (جعله خلف ظهره): لم يعمل به. والأحاديث في ذلك كثيرة، ومسطورة في كتاب: «الترغيب والترهيب» للحافظ المنذري، وغيره.

وهذا ما يلزم قارئ القرآن، وحامله من تعظيم القرآن، وحرمته، كما في القرطبي.

قال الترمذي الحكيم أبو عبد الله في نوادر الأصول: فمن حرمة القرآن: ألا يمسه القارئُ إلا طاهراً. ومنْ حرمته أن يقرأه؛ وهو على طهارة. وأن يستاك، ويتخلل، فيطيب فاه؛ إذ هو طريقه. قال يزيد بن أبي مالك: إن أفواهكم طرقٌ من طرقِ القرآنِ، فطهروها، ونظفوها ما استطعتم! ومن حرمته: أن يلبَسَ كما يلبَسُ للدخول على الأمير؛ لأنه مُنَاجٍ، وأن يستقبلَ القبلةَ لقراءتِهِ. وكان أبو العالية إذا قرأ اعتمَّ، ولبس، وارتدى، واستقبل القبلةَ. وأن يتمضمض كلَّما تنخع.

روى شعبة عن أبي حمزة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه كان بين يديه تورٌ إذا تنخع مضمض، ثم أخذ في الذكر. وإذا تثاءب يمسك عن القراءة؛ لأنه إذا قرأ، فهو مخاطبٌ ربه، ومناج لهُ، والتثاؤبُ من الشيطان. قال مجاهد ـ رحمه الله تعالى ـ: إذا تثاءبتَ وأنت تقرأ القرآن فأمسك عن القرآن تعظيماً؛ حتى يذهب تثاؤبك. وأن يستعيذَ بالله عند ابتدائه للقراءة من الشيطان الرجيم، ويقرأ بسم الله الرحمن الرحيم؛ إن كان ابتداء قراءته من أول السورة، أو من حيث بلغ، وإذا أخذ في القراءة لم يقطعها ساعة فساعة بكلام الآدميين من غير ضرورة، وأن يخلو بقراءته حتى لا يقطع عليه أحد بكلامه، فيخلط بجوابه؛ لأنه إذا فعل ذلك زال عنه سلطان الاستعاذة الذي استعاذ في البدء.

ومن حرمته: أن يقرأه على تؤدة، وترسل، وترتيل، وأن يستعملَ فيه ذهنه، وفهمه؛ حتى يعقلَ ما يخاطب به، وأن يقفَ على آيةِ الوعد، فيرغب إلى الله تعالى، ويسأله من فضله، وأن يقف على آية الوعيد، فيستجير بالله منه، وأن يقفَ على أمثاله، فيتمثلها، وأن يلتمسَ غرائبه، وأن يؤديَ لكل حرف حقه من الأداء؛ حتى يبرزَ الكلام باللفظ تماماً، فإن له بكل حرف عشرَ حسناتٍ، ومن حرمته: أنه إذا انتهت قراءته أن يصدق ربه، ويشهد بالبلاغ لرسوله ﷺ، ويشهد على ذلك: أنه حق، فيقول: صدقت ربنا، وبلغ رسولك، ونحنُ على ذلك من الشاهدين، اللهم اجعلْنا من شهداء الحق القائمين بالقسط! ثم يدعو بدعوات.

ومن حرمته: أنه إذا قرأه لا يلتقط الآي من كل سورة، فيقرأ، فقد روي لنا: أن النبي ﷺ مر ببلال ـ رضي الله عنه ـ، وهو يقرأ من كل سورة شَيْئاً، فأمره أن يقرأ على السور، أو كما

قال، وإذا وضع المصحف لا يتركه منشوراً، ولا يضع فوقه شيئاً من الكتب، وغيرها؛ حتى يكون أبداً عالياً فوق كل شيء، وأن يضعه في حجره إذا قرأه، أو على شيء بين يديه، ولا يضعه على الأرض، وألا يمحوَه من اللوح بالبصاق، ولكن يغسله بالماء، ويتوقى النجاسات، وكان السلف الصالح يستشفي بغسالته. وألا يتخذَ منه شيئاً وقايةً لكتاب، وألا يخليَ يوماً من أيامه من النظر في المصحف مرة. وكان أبو موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ يقول: إني لأستحي ألا أنظر كل يوم في عهد ربي مرة.

ومن حرمته أن يعطي عينيه حظهما من المصحف، فإن العين تؤدي إلى النفس، وبين النفس والصدر حجاب، والقرآن في الصدر، فإذا قرأه عن ظهر قلب، فإنما يسمع أذنه فتؤدي إلى النفس، فإذا نظر في الخط كانت العين، والأذن قد اشتركا في الآداء، وذلك أوفر للأداء، فقد روى زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أعْطُوا أعْينَكُمْ حَظَّهَا مِنَ العِبَادَةِ**». قالوا: يا رسول الله! وما حظُّها من العبادة؟! قال: «**النظرُ في المصحفِ، والتفكُّرُ فيه، والاعتبارُ عندَ عجائبه**». وروى مكحول عن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أفضل عبادةِ أمَّتي قراءةُ القُرآن نظراً**».

ومن حرمته: ألَّا يتأوله عندما يعرض له شيء من أمر الدنيا، مثل: إذا جاءك أحد، فلا تقل: (جِئْتَ على قدرٍ يا موسى) ومثل قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾. هذا عند حضور الطعام، وأشباه ذلك، وألا يتلى منكوساً كفعل معلمي الصبيان، وألا يقعر في قراءته، وألا يجهر بعض على بعض في القراءة، فيفسد عليه؛ حتى يبغض إليه ما يسمع كهيئة المغالبة.

ومن حرمته: ألَّا يقرأ في الأسواق، وفي مواطن اللغط، واللغو، ومجمع السفهاء، ومن ذلك ما يفعل في أيامنا هذه في المآتم حيث توضع المسجلات في باب الدار، والناس يجلسون في بيت المتوفى، وهم مشغولون بشرب الشاي، والقهوة، والدخان، والقيل، والقال، والهذر، والقر، وألا يتوسد المصحف، ولا يعتمد عليه، ولا يرمي به إلى صاحبه، إذا أراد أن يناوله، وألَّا يحلَّى المصحف، أو يكتب بالذهب، فتخلط به زينة الدنيا. فعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذَا زخرفْتُمْ مَسَاجدَكُمْ، وحَلَّيْتُمْ مَصَاحِفَكُمْ، فالدَّبارُ عليكُم**». وألا يكتب على الأرض، ولا على حائط، كما يفعل بهذه المساجد المحدثة، وأن يفتحه كلما ختمه حتى لا يكون في هيئة المهجور، ولذلك كان رسول الله ﷺ، إذا ختم يقرأ من أول القرآن قدر خمس آيات، وروى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قال: جاء رجل، فقال: يا رسول الله! أي العمل أفضل؟ قال: «**عليك بالحال المرتحل**». قال: وما الحال المرتحل؟! قال: «**صاحب القرآن يضرب من أوله حتى يبلغ آخره، ثم يضرب من أوله، كلما حلَّ؛ ارتحل**».

ويستحب للقارئ إذا ختم القرآن أن يجمع أهله، ويدعو، فإن الرحمة تنزل عند ختم القرآن، وعن إبراهيم التيمي قال: من ختم القرآن أول النهار؛ صلت عليه الملائكة حتى يمسي، ومن ختمه أول الليل؛ صلت عليه الملائكة؛ حتى يصبح. قال: فكانوا يستحبون أن يختموا أول الليل، وأول النهار.

ومن حرمته: ألَّا يكتب التعاويذ منه، ثم يدخل به في الخلاء إلا أن يكون في غلاف من أدم، أو فضة، أو غيره، فيكون كأنه في صدرك. ومن حرمته: إذا كتبه، وشربه؛ سمى الله على كل نفس، وعظم النية، فإن الله يؤتيه على قدر نيته. انتهى. بتصرف بسيط مني.

وأخيراً ينبغي: أن تعلم: أن الذي يسمع من الكلام بواسطة الراديو، أو المسجلة فإنه ألفاظ وكلمات حقيقية، وليست صدى كالذي يسمع في الجبال، وغيرها، فيجب الإصغاء إليه، وتدبره، واحترامه، في كل ما تقدم ذكره، وسجود التلاوة إذا تليت آية سجدة، كما ذكرته في كل آية سجدة مرت معنا. هذا؛ وللشيخ مصطفى عمارة ـ رحمه الله ـ كلام جيد في تعليقه على كتاب الترغيب والترهيب للحافظ المنذري. انظره في آخر مبحث قراءة القرآن؛ فإنه جيد، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. والحمد لله رب العالمين.

وخذ ما قاله البوصيري ـ رحمه الله تعالى ـ في شرف القرآن ومدحه: [البسيط]

دعْنِي ووصْفِيَ آياتٍ لهُ ظهرتْ ... ظهورَ نارِ القِرَى ليْلاً على عَلَمِ
فالدُّرُّ يزدادُ حسْناً وهو مُنْتَظمٌ ... وليسَ ينقصُ قدْراً غيرَ مُنْتَظِمِ
فمَا تطاولُ آمالي الْمَديحَ إلَى ... مَا فيهِ مِنْ كَرَمِ الأخلاقِ والشيَمِ
آياتُ حَقٍّ مِنَ الرحمنِ مُحْدَثَةٌ ... قديمةٌ صفةُ الموصوفِ بِالْقِدَمِ
لَمْ تَقْتَرِنْ بِزمانٍ وَهْيَ تُخْبِرنا ... عَنِ المَعَادِ وَعَنْ عَادٍ وَعَنْ إرَمِ
دَامَتْ لدَيْنَا ففَاقَتْ كُلَّ مُعْجِزَةٍ ... مِنَ النبِيِّينَ إذْ جَاءَتْ ولمْ تَدُمِ
محكماتٌ فمَا تُبقِينَ مِنْ شُبَهٍ ... لِذِي شِقاقٍ وَمَا تَبْغِيْنَ مِنْ حَكَمِ
ما حُورِبَتْ قَطُّ إلا عادَ مِن حَرَبٍ ... أعدَى الأعَادي إليهَا ملْقِيَ السَّلمِ
ردَّتْ بلاغَتُهَا دعْوَى مُعَارِضِهَا ... ردَّ الْغَيُورِ يَد الجَانِي عنِ الحُرَمِ
لهَا مَعَانٍ كموْج البحْرِ في مَدَدٍ ... وفوْقَ جوْهَرِهِ في الحُسْنِ والْقِيمِ
فمَا تُعَدُّ ولا تُحصَى عجائبُهَا ... ولا تُسامُ عَلَى الإكثارِ بالسَّأَمِ
قرَّتْ بها عَيْنُ قارِيها فَقُلْتُ لهُ: ... لقدْ ظَفِرْتَ بِحَبْلِ اللهِ فاعْتَصِمِ

إنْ تتْلُها خيفةً مِنْ حرِّ نارِ لَظَى   أطفأتَ حَرَّ لَظَى مِنْ وِرْدِها الشَّبِمِ
كأنَّها الحوْضُ تَبْيَضُّ الوجوهُ بهِ   مِنَ العُصاةِ وقدْ جاؤوهُ كالحُمَمِ

وقال المرحوم أحمد شوقي أمير الشعراء: [البسيط]

جَاءَ النبيون بالآياتِ فَانْصَرَمَتْ   وجِئْتَنَا بحكيم غَيْرِ مُنْصَرِمِ
آياتُهُ كُلَّمَا طَالَ المَدَى جُدُدٌ   يَزِينُهنَّ جَلَالُ العِتْقِ والقِدَمِ
يَكادُ في لَفْظَةٍ مِنْهُ مُشَرَّفَةٍ   يُوصيْكَ بالحقِّ والتَّقْوَىٰ وَبِالرَّحِمِ

فهرس

ترجمة موجزة للشيخ المفسر النحوي
محمد علي طه الدرة رحمه الله تعالى
١٣٤٠ ـ ١٤٢٨هـ = ١٩٢٣ ـ ٢٠٠٧م

بقلم نجله

محمد بشير الدُّرة

• هو العالم المفسِّر الفقيه النحوي محمد علي طه الدُّرة ولد بحمص عام (١٣٤٠هـ = ١٩٢٣م) وحفظ القرآن الكريم في الكتاتيب منذ الصغر، ثم انتسب إلى المعهد الشرعي التابع لجمعية العلماء بحمص، وبدأ بطلب العلم الشرعي عام ١٩٤٨م.

• تتلمذ على يد عدد كبير من علماء بلدته، فقرأ النحوَ على الشيخ محمد جنيد رحمه الله، وعلى الشيخ وصفي المسدّي متع الله بحياته، كما لازم شيخ الشافعية في حمص الشيخ طاهر الرئيس رحمه الله، فقرأ عليه «المنهاج» وشروحه في الفقه الشافعي، بالإضافة إلى «إرشاد الساري شرح صحيح البخاري» للقسطلاني، كما تتلمذ على يد كل من الشيخ أبو السعود بسمار، والشيخ أحمد الكعكة، والشيخ محمود جنيد وغيرهم.

• عمل الشيخ إماماً وخطيباً في عدد من مساجد حمص وريفها، وشمّر عن ساعد الجد والاجتهاد في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ثم مال إلى التأليف، فابتدأ ذلك بـ «فتح القريب المجيب في إعراب شرح شواهد مغني اللبيب»، ثم تتالت مؤلفاته.

• وأما قصة إعرابه القرآن الكريم، فكانت عجباً، وذلك عندما بدأ الشيخُ بإعراب شواهد «مغني اللبيب»، كانت بين يديه طبعةٌ للمغني بتحقيق العلَّامة المتفنن الأستاذ محيي الدين عبد الحميد رحمه الله، ولمَّا صدرت الأجزاء الأولى من إعراب شواهد مغني اللبيب، أرسل نسخةً من عمله للشيخ (محيي الدين) الذي بادر بالقول بعد قراءته: «إنّ مَنْ يُعْرِبُ الشواهد النحوية عليه أن يعرِبَ الشواهِدَ القرآنية في الكتاب».

هذه الكلمة الصادقةُ فعلت فعلها في قلب الشيخ، ووضعته أمام إعراب القرآن الكريم بكامله، لأنَّ ابن هشام رحمه الله يثبتُ من الآية موضعَ الاستشهادِ فقط، ولن تستطيعَ أن توفّي هذا المقطعَ من الآيةِ حقّه من الإعراب إلَّا إذا أتيتَ على إعرابِ الآيةِ كاملةً، وذلك لتعليق جار بمجرور، أو ظرف، أوعطف كلمة، أو غير ذلك، وهذا معناه إعرابُ معظم آيات الكتاب الكريم، فأثمرت تلكَ الكلمةُ همة متوقدة عند الشيخ الذي وضع نُصبَ عينيه مشروعَ إعرابٍ كاملٍ للقرآن الكريم.

وفي السبعينيات، ابتدأ العملَ الحثيثَ المتواصل لتنفيذِ أكبر مشروع في حياته، وذلك بخدمة كتابه العزيز: «إعراب القرآن الكريم وتفسيره» وكان توسعه بالتفسير ليساعدَ على فهم المعنى، وقدّم فيه وجوه الإعراب الممكنة لكل كلمة، وبخاصة عند تعدد وجوه القراءات التي تنتِجُ وجوهاً إعرابية متنوعة، وهذا أمر مهم لكل طالب مهتم بالعربية، ولكل متخصص في القراءات، وفي عام ١٩٨٣ بدأ صدور إعراب القرآن الكريم وتفسيره في مجلدات تباعاً حتى بلغت ستة عشر مجلداً، وقد نفذت تلك الطبعة منذ زمن، وصار الواجب يدعو لإعادة طبعه، فشمّرت دار ابن كثير عن ساعد الجد والاجتهاد، وهي الحريصةُ على نشر العلم بين طلبة العلم.

- وقال د. عادل باناعمة (من جامعة أم القرى) في وصف كتاب الشيخ الدرة:

إذا ما أعـيَـيْـت الـفـكْـرَه وغـالـتْ عـقـلَـكَ الـسَّـكْـرَه

وأُغـلِـقَ عَـنْـكَ إعـرابٌ ولـم تَـعْـرِفْ أخِـي سـرَّه

ولـم يـنـفـعْـكَ تـألـيـفٌ قَـضَـى فـيـهِ الـفـتـى عُـمْـرَه

وصِـرْتَ حَـلِـيْـفَ أحـزانٍ تُـغَـالِـبُ عـيُـنَـكَ الـعَـبْـرة

فـلا تَـيْـأسْ ولا تـبـأسْ ودونـك شَـيْـخـنـا (الـدُّرَّة)

حليته وشمائله:

كان الشيخ ربعةً من القوم، حنطيَّ البشرة، تامَّ الخلقة، نحيفَ الجسم، صادحاً بالحق، لا يخشى في الله لومة لائم، شبَّهه بسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كثيرون ممن خالطوه وعايشوه، فقد كانت له هيبة ظاهرة في محيطه في الأمور الشرعية، يتحاشى المخالفون وصولَ علم للشيخ لما كانوا يقترقونه.

أما محبة الله تعالى ورسوله ﷺ فقد كانت واضحةً في أخلاقه ومعاملاته، وهي الدافع الأساس والموجه الأول لهمته وإرداته، فكانت له دروسه دمعات وخفقات في محبة الله ورسوله ﷺ.

مؤلفات الشيخ المطبوعة والمخطوطة:

١ـ **«تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه»**، عشرة مجلدات، وهو هذا الكتاب الذي نقدّمه إليك.

٢ـ **«فتح القريب المجيب، بإعراب شواهد مغني اللبيب»**، ويقع في أربعة مجلدات.

٣ـ **«فتح الكبير المتعال إعراب المعلقات العشر الطوال»**، ويقع في خمسة أجزاء أنهى تبييضه عام ١٩٧٤م، ولكنّه لم يطبع إلَّا عام ١٩٨٦م، حيث خرجت طبعته الأولى

بحلة متميّزة من مكتبة الرازي في دمشق، ثم أعادت دار السوادي في جدة نشره مرة ثانية.

٥- «**فتح الوهَّاب في القواعد والإعراب**»، وهو عبارة عن شرح وإعراب شواهد وأمثلة الكتاب الرابع من سلسلة الدروسة النحوية لحفني ناصف وزميليه، وهو المسمَّى: «قواعد اللغة العربية»، وهو من أحبِّ كتب الشيخ إلى قلبه، وقد صدرت طبعته الأولى عام ١٩٧١، في (٤٠٠) صفحة،ثم تكررت طبعته عدة مرات.

٦- «**فتح الكريم الواسع إعراب شواهد جمع الجوامع**»، للسيوطي رحمه الله تعالى، وهذا الكتاب فُقِدَ وهو مخطوط، ولم يعثر عليه.

٧- «**رسالة صغيرة في الحج**».

• توفي الشيخ رحمه الله تعالى في (٢٦) ذوالقعدة ١٤٢٨هـ، الموافق (٥) كانون الثاني ٢٠٠٧م[١].



(١) انظر ترجمةً مطوّلة للشيخ (محمد علي طه الدرة) رحمه الله في كتاب عن حياته من إعداد محمد عيد المنصور، وسيطبع في سلسلة (وفاءً لهم).